تاريخ المغرب الكبير

المغرب الكبير

٢

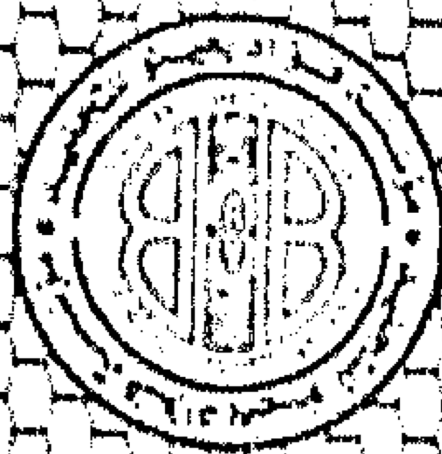
العصر الإسلامي

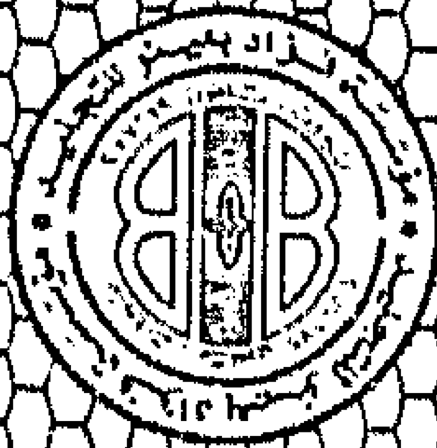
دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية

دكتور السيد عبد العزيز سالم

١٩٨١

دار النهضة العربية - بيروت





المغرب الكبير

٢

العصر الإسلامي

دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية

المغرب الكبير

٢

العصر الإسلامي

دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية

دكتور السيد عبد العزيز سالم

١٩٨١

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص.ب ٧٤٩

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كان المغرب العربى فى العصر الاسلامى يرتبط حضاريا بالأقطار الاسلامية الشرقية ارتباطا وثيقا ، على الرغم من انفصاله سياسيا عن المشرق الاسلامى، منذ أن تعرضت أطراف المغرب الشرقية للغزوة الهلالية فى سنة ٤٣٣ هـ . ولم تنقطع الصلات الحضارية بين شقى العالم العربى بصفة نهائية إلا بعد أن نجحت الدولة العثمانية فى القضاء على دولة المماليك فى مصر والسيطرة على البلاد التابعة لدولة المماليك . ولم يلبث المغرب العربى كله ، باستثناء المغرب الأقصى أن نكب بدوره بالسيطرة العثمانية ، ودعم الاستعمار الأوروبي للعالم العربى منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر هذا الانفصال السياسى والحضارى. ولم يفق العرب من الصدمة الاستعمارية الجديدة إلا بعد أن مضى مايقرب من قرن ونصف من الزمان ، فتوالت ثوراتهم التحررية ، وحطموا تدريجيا القيود والأصفاد التى كبلهم بها المستعمرون .

وعلى هـذا النحو كانت معرفة عرب المشرق بتاريخ المغرب العربى وحضارته فى العصر الاسلامى حتى عهد قريب محدودة ، تعتمد أساسا على بحوث المستشرقين من الفرنسيين بوجه خاص ودراساتهم عن المغرب ، فقد كان الاستعمار الفرنسى يقيم ستارا حديديا حول هذه الأقطار المغربية بقصد عزلها تماما عن الأقطار المشرقية ، فلا تصل إليها أصداء المعارك التى كان يخوضها العرب فى مصر والشام والعراق فى سبيل التحرر والاستقلال ، ولا تصل إليها شرارات من نيران الثورات المحتدمة فى قلب العالم العربي . وظلت أبواب المغرب العربى موصدة أمام عرب المشرق ، لم يدخلها منهم إلا

نفر قليل ، وعلى هذا النحو احتكر علماء الدول المستعمرة للمغرب وعلى رأسها فرنسا ميدان الدراسات المغربية لأنفسهم ، وهذا يفسر تخلف مؤرخى العرب فى مجال هذه الدراسات .

وعلى الرغم من أن نفرا من المستشرقين المشتغلين بتاريخ وحضارة المغرب فى العصر الاسلامى قد جانبوا الناحية العلمية ، فعمدوا إلى التمويه والتضليل فى أبحاثهم لتعمية الوطنيين عن أمجادهم التاريخية ، أو أبرزوا الأخطاء التى وقع فيها العرب إبان حكمهم للمغرب ، ومجدوا الثورات التى قام بها أهل البلاد ضد العرب ، وبالغوا فى تصوير مقاومة البربر وهم سكان البلاد للعرب الحاكين ، رغبة فى التفريق بين عنصرى السكان ، فانه لاينبغى أن نجحد فضل الأبحاث القيمة التى قام بها جمهور كبير من المستشرقين من الفرنسيين والاسبان والإيطاليين والبرتغاليين فى تاريخ المغرب العربى وحضارته، نخص بالذكر منهم الأساتذة ليفى بروفنسال ، وإيلى لامبير ، وجورج مارسيه، ووليم مارسيه ، وهنرى تراس ، وتوريس بلباس ، وخواكين فالفى ، وخواكين جنثالث ، وبوريس ماسلو ، وهنرى باسيه وغيرهم ، فقد اتسمت بحوث هؤلاء العلماء بالنزاهة العلمية والصدق والدقة فى تحرى الحقائق ، والاعتماد على المصادر العربية التى بذلوا فى نشرها وتحقيقها جهودا مضنية . كما لاينبغى أن ننسى الدراسات والبحوث الأصيلة فى حضارة المغرب وتاريخه فى العصر الاسلامى التى قام بها المستشرق الفرنسى الكبير الأستاذ ليفى بروفنسال الذى قضى حياته فى خدمة التراث الاسلامى فى أرض المغرب والأندلس .

وبينما كان المستشرقون وحدهم يستأثرون بالبحث فى تراث المغرب

الفنى والفكرى ، كان هناك فريق من العلماء العرب يعملون من جانبهم على تحقيق بعض المخطوطات المغربية ودراسة بعض مظاهر حضارة الاسلام فى المغرب . هؤلاء العلماء هم الطليعة العربية فى الدراسات المغربية منذ النصف الأول من القرن العشرين ، نذكر منهم من المغاربة الأساتذة حسن حسنى عبد الوهاب ، والسيد علال الفاسى ، وأحمد توفيق المدنى، وعبد الله كنون، وعثمان الكعاك، ومحمد بن تاويت الطنجى، وعبد الهادى التازى . ونذكر من المصريين الأساتذة الدكتور أحمد فكرى أول باحث عربي فى مصر يقوم بدراسات أثرية علمية عن مساجد البلاد التونسية وآثارها ، والدكتور حسين مؤنس الذى قام بأبحاث مغربية موفقة ، والمرحوم الأستاذ عبد الحميد العبادى الذى تعمق فى دراسة تاريخ المغرب العربى فى العصر الاسلامى وكان يدرسه فى الجامعات المصرية . وبدأت الدراسات المغربية تتقدم تقدما محسوسا منذ أن تحررت أقطار المغرب العربي من الاستعمار الأوربى، وتحطم الحاجز الوهمى الذى وضعه الاستعمار بين عرب المشرق والمغرب ، وفتح المغرب أبوابه الموصدة للباحثين من أبناء العروبة ، وأخذ هؤلاء يساهمون فى البحث والتنقيب عن تاريخ المغرب وآثاره فى العصر الاسلامى، ومن هؤلاء الباحثين الأساتذة : الدكتور سعد زغلول عبد الحميد الذى قام بأبحاث أصيلة عن المغرب الاسلامى وحضارته ، والدكتور أحمد مختار العبادى الذى ساهم بنصيب وافر فى نشر مصنفات لسان الدين بن الخطيب ورسائله ، والدكتور حسن محمود الذى اهتم بتاريخ المغرب فى عصر دولة المرابطين بوجه خاص ، والأستاذ محمد عبد الله عنان الذى بذل جهودا موفقة فى دراسة تاريخ المغرب والأندلس فى العصور الاسلامية، والدكتور عثمان عثمان إسماعيل الذى ساهم فى التنقيب عن آثار شالة الإسلامية وجعلها موضوع رسالته التى حصل بها على درجة الدكتوراه من جامعة الإسكندرية.

وعلى الرغم من هذه الجهود التى بذلها الباحثون من المستشرقين والعرب، فان الدراسات المغربية الإسلامية تعتبر أحدث بكثير من الدراسات المشرقية، ومازال تاريخ المغرب وحضارته فى العصر الإسلامى يحتاج إلى المزيد من هذه الجهود .

* * *

وهذا الكتاب الذى أقدمه لقراء العربية ، وهو عرض سريع لتاريخ المغرب العربى فى العصر الإسلامى ، وخلاصة دراسات قمت بها فى بلاد المغرب والأندلس ، يؤلف الجزء الثانى من تاريخ كامل للمغرب العربى منذ أقدم العصور اشترك فى تصنيفه زميلان عزيزان هما الأستاذ الدكتور رشيد الناضورى عن المغرب فى العصر القديم حتى نهاية العصر الرومانى ، واشتركت فيه بهذا الجزء الثانى عن المغرب فى العصر الإسلامى ، وقبلت كتابة فصلين فى بداية الكتاب عن تاريخ المغرب فى ظل الوندال والبيزنطيين ، تكملة للقسم الذى وضعه الدكتور الناضورى وبسبب العلاقة الوثيقة لهذه الفترة بالعصرين القديم والإسلامى ، بحيث تعتبر تمهيداً لا بد منه للعصر الإسلامى . وأخيراً اشترك الأستاذ الدكتور جلال يحيى بالجزء الثالث عن تاريخ المغرب فى العصر الحديث .

وقد قسمت العصر الإسلامى إلى أربعة أبواب ، كل منها يتضمن عدداً من الفصول وتوقفت فى حديثى إلى نهاية دولة الموحدين ، واختتمت موضوع القسم الإسلامى بدراسة موجزة عن الدول التى ورثت دولة الموحدين فى المغرب . ولقد حرصت على تسجيل التراث المادى للحضارة المغربية فى العصر الإسلامى ، فخصصت فصولا لدراسة آثار كل أسرة من الأسرات الحاكمة

للمغرب ، ولم أغفل الناحية العمرانية ، وهى جانب هام للحضارة المغربية ، فضمنت الكتاب تاريخ المدن المغربية التى أنشئت فى العصر الإسلامى .

أرجو أن أكون قد حققت للقارىء العربى رغبته فى الإلمام بتاريخ المغرب العربى فى العصر الإسلامى جملة واحدة ، والله أسأله التوفيق ؟

السيد عبد العزيز سالم

الفصل الأول

المغرب فى ظل الوندال

(١)

جنصريك مؤسس دولة الوندال فى المغرب (٤٢٨ - ٤٧٧)

أ - غزو الوندال للاندلس وتطلعهم لغزو المغرب :

منذ النصف الثاني من القرن الرابع الميلادى أخـــذت الامبراطورية الرومانية تتعرض لانحلال سريع أمام الضربات التى سددها لهـا أعداؤها الجرمان ، وبسبب ازدياد نفوذ الكنيسة ، وبسبب الفساد الإدارى والخلل الاجتماعى . وسجل عام ٣٩٥ انقسام الامبراطورية الرومانية بين ولدى ثيودوسيوس إلى قسمين : شرقى من نصيب أركاديوس ، وغربي من نصيب هنريوس . ثم وصلت الامبراطورية فى أوائل القرن الخامس الميلادى إلى أقصى درجات الضعف والانحلال وتوالت عليها العلل والأدواء المستعصية من انقسامات دينية وفتن داخلية ، وغارات جرمانية متواصلة بحيث استعصى عليها البرء منها : فقـد انتقلت حاضرة الامبراطورية الرومانية الغربية فى سنة ٤٠٤ من رومة إلى رافنا ، وتضعضعت سلطة الامبراطورية فى كل مكان بحيث تجرأت الشعوب المسماة بالمتبربرة عليها . وفى سنة ٤٠٩ تمكن الوندال والسواف والألان ، وهم شعوب جرمانية ، من التوطن فى إسبانيا وأصبح من المحتم نزولهم فى أرض المغرب ، إذ كان المغرب فى نظر هـؤلاء فريسة سهلة يشتهونها لثرواته الزراعيـــة الوافرة ، ويتحينون الفرص المواتية

للانقضاض عليه (١) ، ففى سنة ٤١٠ عزم ألاريك زعيم القوط الغربيين على غزو المغرب ، وأعد لهذا الغرض أسطولا ضخما فى مدينة ريجيو Reggio (جنوب إيطاليا) حشدفيه عددا هائلا من قوانه القوط الغربيين ، ولكن هذا الأسطول تعرض فى مضيق مسينا لعاصفة عاتية دمرته (٢) . وحاول واليا Wallia الذى تولى عرش دولة القوط الغربيين باسبانيا(٤١٥ — ٤٢٠) بعد ذلك بست سنوات غزو المغرب ، ولكنه فشل فى محاولته ، وغرق أسطوله بالقرب من قادس (٣) .

وفى هذه الآونة نجح الوندال فى الاستيلاء على جزر البليار ، وظهروا بعد ذلك على السواحل الإفريقية ، ولم يجد ثيودوسيوس الثاني بدا من تسوير قرطاجنة سنة٤٢٥ لحمايتها من خطرهم (٤). وفى عهد فالنتنيان الثالث، تقلد بونيفاس قيادة الجيش الروماني فى المغرب ، واتخذ سبتة مقرا له . ولكن بونيفاس لم يلبث أن اختلف مع البلاط الامبراطورى فى رافنا حيث كان رجال البلاط يكيدون له ، فعمد إلى إدخال الوندال بلاط المغرب فى مايو سنة ٤٢٩ تحت قيادة ملكهم جنصريك . ومادمنا تعرضنا للحديث عن غزو الوندال للمغرب فلابد لنا أن نشير إلى مايقترن باسمهم من أعمال

---

(١) André Julien, Histoire de l' Afrique du Nord, dès origines à la conquête arabe, Paris, 1956, p. 232.

(٢) Ibid. P.232 ابراهيم على طرخان، دولة القوط الغربيين ، القاهرة ١٩٥٨ ص٨١

(٣) A. Julien, op. cit P. 232 - J. Guichot, historia de Andalucia, t. I, Madrid, 1869 P. 225

(٤) A. Pellegrin, Histoire de la Tunisie, Tunis, 1948, P. 62

التخريب والتدمير والقتل وسفك الدماء (١) . الوندال قبائل جرمانية همجية كانت تعيش بادىء ذى بدء على سواحل البحر البلطى ، ثم هاجرت جنوبا ، وأقامت فى القرن الأول قبل الميلاد فى السهول الواقعة بأعالى نهرى الأودر والفستولا (٢) . ثم تشعب الوندال بعد هجرة القوط فى القرن الثانى للميلاد إلى جماعتين رئيسيتين هما السلنجيون والأسدنجيون (٣) . وكانت الامبراطورية الرومانية إبان قوتها لاتسمح للوندال بالاختلاط مع الشعب الرومانى ، فلما سرى الضعف فى كيان الامبراطورية الرومانية الغربية ، استعان الرومان بالوندال للمحافظة على الأمن فى البلاد ، وانتهى بهم الأمر إلى الاعتماد عليهم فى الدفاع عنهم . غير أن هذه العناصر لم تلبث أن أحست بعظم سلطانها ، فاستولت على مقاليد الأمور منذ طليعة القرن الخامس الميلادى ، وازدادت قواها بقدر ماأخذت قوى الرومان فى الضعف والانحلال (٤) .

ولكن شمل طائفتى الوندال ، السلنجيين والأسدنجيين ، لم يلبث أن التأم من جديد بعد قرنين من تشريد وتشتيت فى وسط أوربا . وانضمت إلى هؤلاء الوندال قبائل متبربرة أخرى من الآلان والسواف أمام ضغط الهون ،

---

(١) نلاحظ أن تاريخ الوندال لم يعرف إلا عن طريق ضحاياهم ، ولذلك فإن ما اتسموا به من وحشية وما وصموا به اسمهم من همجية لايعدو أن يكون أمراً مبالغاً فيه . وعلى هذا النحو يمكننا أن نتوقع بعض الافتراءات .

(٢) André Julien, P. 233 (٣) Ibid.

(٤) اعتمد الامبراطور هنريوس على قائد وندالى يعرف باسم ستيلكو ، كان له الفضل الاعظم فى رد آلاريك عن غزو ايطاليا (سعيد عاشور ، أوربا فى العصور الوسطى ، ج ١ ، القاهرة ١٩٥٨ ص ٦٢)

وأدى تكتل الوندال من جـديد إلى ازدياد قواهم ، وتمكنوا أمام دفعهم المتواصل من تحطيم خطوط الدفاع عن الامبراطورية ، فاقتحموا نهر الرين وهزموا قوى الفرنجة والجرمان الذين عهد إليهم بالدفاع عنها بالقرب من مايانس Mayance فى ٣١ من ديسمبر سنة ٤٠٦[1]. ولم تتمكن الامبراطورية الرومانية من إيقاف هذه السيول الجارفة ، وبذلك نجح الوندال فى اختراق الرين واقتحام غالة حيث نهبوا هذه البلاد ، ونثروا الدمار فى كل ماقابلوه فى زحفهم الجارف من عمران[2] ، وانتهى بهم الأمر إلى دخول إسبانيا فى خريف عام ٤٠٩[3] ، بعد أن هزموا قوات الامبراطورية .

عبرت قبائل الوندال بقيادة جندريك ومن انضم إليهم من ألان وسواف جبال البرانس ، وقضت عامين كاملين تنثر الدمار والموت فى البلاد (وفقا لما ذكره المؤرخ هيـداثيو أسقف شافس Chaves) . واستقر الأسدنجيون والسواف فى الشمال الغربى (جليقية) بينما أقام السلنجيون ، وكانوا يؤلفون السواد الأعظم من القبائل الوندالية ، فى الجنوب (باطقة). أما الألان فقـد استوطنوا ولايتى اشـدانية Lusitania وقرطاجنة Cartagena[4] .

ولم يدم الوضع السياسى فى شبه جزيرة أيبيريا على هذا النحو ، فقد

(١) Aguado Bleye, Manuel de la historia de España, Madrid 1947, P. 336

(٢) Pellegrin , op. cit. P. 80

(٣) A. Bleye, op. cit. P. 336 - A. Julien, op. cit. P. 233

(٤) A. Bleye , op. cit. P. 336 - ibid. P. 234

دخل القوط الغربيون إسبانيا ، وشاركوا فى الظهور على مسرح الأحداث ، وتمكنوا من السيطرة على مقاطعة طركونة ، واتخذوا برشلونة عاصمة لهم. وما إن تولى واليا عرش القوط بعد وفاة سيجريكو سنة ٤١٥ حتى عقد اتفاقا مع الامبراطور هنريوس سنة ٤١٦ ، يقوم واليا بمقتضاه باعادة بلاسيديا زوجة أطاولف إلى رافنا مقر أخيها الامبراطور ، وتحرير شبه جزيرة أيبيريا من قبائل الألان والوندال والسواف التى غزت البلاد منذ سنة ٤٠٩ ، واستقرت فى معظم أراضيها [١] ، فى نظير أن يقوم قنسطانز ، القائد العام للامبرطورية Magister Militum وصاحب السلطان الأعظم عليها ، بمده بستمائة ألف مد من القمح وتسليمه مقاطعة أكيتانيا من منابع نهر اللوار حتى بردو [٢]. وهكذا استعان هنريوس وقائده قنسطانز بالقوط الغربيين لاستخلاص إسبانيا من المتبربرين ، أو على الأقل لإرغامهم على التزام الهدوء فى ممتلكاته . وقد أوفى واليا بالعهد ، وتمكن خلال عامى ٤١٧ – ٤١٨ من إيقاع الهزيمة بالوندال السلنجيين والألان فى لشدانية . ونتج عن ذلك أن اندمج الألان فى قبائل الوندال الأسدنجيين الذين تدفقوا متراجعين نحو جنوب شبه جزيرة أيبيريا تجنبا للكارثة ، وهناك انتزع ملكهم جندريك من الرومان مدينتى قرطاجنة وإشبيلية سنة ٤٢٥ [٣]. وهكذا أصبح الساحل الجنوبى الغربى من شبه جزيرة أيبيريا خاضعا للوندال ، ونجحوا بفضل أسطولهم البحرى فى فرض سيادتهم على الجانب الغربي من

(١) A. Bleye , op. cit. P. 338

(٢) A. Bleye , op. cit. P. 339

(٣) A. Julien, op. cit. P. 234

البحر المتوسط ، وما لبثوا أن استولوا على جزر البليار ، وأخذت سفنهم منذ سنة ٤٢٥ تغير بصفة دائمة على سواحل موريطانية الطنجية (١) ، تمهيدا للاستيلاء على المغرب ، فقد أصبح لزاما على جندريك أن يبحث له عن أراض جديدة لشعبه بعد أن ظل يقاوم القوط الغربيين نحو ١٤ سنة. وكانت بلاد المغرب بالاضافة إلى ذلك أرضا موعودة تشتهيها قبائل المتبربرين جميعا لثرواتها الوفيرة (٢) ، فليس غريبا إذن أن يوجه الوندال ، وهم سادة القسم الجنوبي من أيبيريا أنظارهم إلى المغرب ، ولم يحول ملكهم جندريك نظره عن المغرب حتى وفاته سنة ٤٢٨ .

ب ـ عبور الوندال الزقاق الى المغرب :

خلف جنصريك (أو جيصريك) أخاه جندريك على زعامة الوندال سنة ٤٢٧ ، وكان على حد قول جوردانيس قصير القامة أعرجا (بسبب سقوطه من جواده) ، وكان قوى الإرادة لا تنقصه الكياسة والحكمة (٣) ، كما كان سياسيا قديرا ، يدل على ذلك نجاحه في تحقيق حلم أخيه في الاستيلاء على المغرب ، فقد استخدم مهارته وحنكته السياسية في تحقيق هذا الحلم ، وساعدته الظروف المواتية والأحداث الجارية سواء في المغرب أم في البلاط الروماني نفسه على ذلك : فقد نجم عن الاضطرابات التي تبعت وفاة الامبراطور هنريوس سنة ٤٢٣ اضطرابات مماثلة في إفريقية ، ذلك أن هنريوس مات دون أن يعقب ، فخلفه فالنتنيان الثالث ابن أخته جالا بلاسيديا من قنسطانز

---

(١) Ibid.

(٢) محمد محي الدين المشرفي ، افريقيا الشمالية في العصر القديم ، الرباط ١٩٥٠ ص ١٢٢

(٣) Oman, the dark ages, London, 1928, P. 7

كان يعقد معاهدات الصلح وهو يضمر في نفسه خرقها ، كما أنه كان يتعلل بأي عذر لتبرير غاراته .

على عرش الامبراطورية الغربيـــة ، وكان عمره أربع سنوات ، ولذلك لم يبايعـه ثيودوسيوس الثـانى امبراطور الشرق قيصرا . غير أن الكونت بونيفاس قائد القوات الرومانية بالمغرب ساعد فالنتنيان على ارتقاء العرش الامبراطورى تحت اسم أغسطس سنة ٤٢٥ ، وحارب خصومه ، وأصبـح بونيفاس بذلك يحتل المكانة الأولى فى الامبراطورية لما كسبه من شهرة حربية وما قام به من جهود لنصرة الامبراطور الشرعى. ولكنه لم يلبث أن خسر كل مكاسبه على أثر زواجه الثاني من فتاة أريوسية المذهب (١). فقد نتج عن ذلك أن قامت أزمة حادة بينـه وبين الكاثوليك ، كما أن موقفه الاستقـلالى عقب الانتصار الذى أحرزه على المتبربرين ساعد على تشكك بلاسيديا فى ولائه ، وأكد نواياه الانفصاليـة عن الامبراطورية الغربية . واستغل حاسدوه فى البلاط هـذه الظروف لإثارة بلاسيديا عليه ، فى نفس الوقت الذى حذروا فيه بونيفاس من الأخطار التى تتهدده فى رافنا .

وهكذا توترت العلاقات بين بونيفاس وبين البلاط ، وتطور الأمر إلى عداء مستحكم عندما شق بونيفاس عصا الطاعة على الامبراطورية برفضه الامر باستدعائه إلى رافنا سنة ٤٢٧ ، واعتبر بذلك عدوا للشعب الروماني وتمكن بونيفاس بادىء ذى بدء من هزيمة قوات القـائد الرومانى فيلكس وذلك فى سنة ٤٢٧ ، ولكن استيلاء الجيش الرومانى بقيادة القائد القوطى سيجيسفولت Sigisvult على عنابة وقرطاجنة ، دفعه إلى طلب المعونة من الوندال . ولم يتردد جنصريك فى تلبية نداء بونيفاس ، إذ وجـــد فى ذلك فرصة موانية لتحقيق مآربه فى بلاد المغرب. ويرجح المؤرخ أندريه جوليان

(١) Cambridge Medievial History, vol. I, 1911, P. 408

A. Julien, op. cit. p. 235. — السيد عبدالعزيز سالم، المغرب الاسلامى ، ج ١ ، ص ٤١

استنادا على ما ذكره بروسبير الأكويتانى Prosper d'Aquitaine أن جنصريك تلقى نداءين بالاستغاثة : أحدهما من سيجيسفولت ، والآخر من بونيفاس[١]. ويذكر المؤرخ أوجستين برنار أن بونيفاس عرض على جنصريك أن يقتسم معه بلاد المغرب ، على أن يكون للوندال من موريطانية غربا حتى وادى الامبساجا (الوادى الكبير الواقع شمال غربى قسنطينه) شرقا ، بينما يحتفظ بونيفاس ببقية بلاد المغرب . وقد أبدى جنصريك قبوله واغتباطه لهذا المشروع[٢]. وقبل أن يقدم على هذه المغامرة الحربية ، عمد إلى تأمين ظهره ، وذلك بالتغلب على السواف الذين غزوا لشدانية ، وأحرز عليهم انتصارا ساحقا بالقرب من ماردة[٣]. ثم أعد جيشا ضخما يتألف من ثمانين ألفا من شعب الوندال ، من بينهم ١٥ ألفا من المقاتلين الأشداء[٤] ، عبر بهم الزقاق من ثغر جوليا ترادوكتا Julia Trabubta (طريف)، الواقع على مضيق جبل طارق ، فى مايو سنة ٤٢٩، وحطت قواته على ساحل الريف عند مدينة طنجة أو فى نواحى سبتة ، وقيل عند الساحل الجزائرى بالقرب

---

(١) Julien, op. cit. P. 235 - C. M. H. , vol. I. P. 401

(٢) Augustin Bernard, l'Algerie, Paris, 1929 , P. 117

(٣) Comision historica de las companas de Marruecos : Accion de Espana en Africa , t. I. Iberos y Berberes, Madrid, 1935, P. 93

(٤) Oman , op. cit. P. 7 - Arthur Pellegrin , op. cit. P 80

A. Julien, op. cit . P. 236

ويذكر جيبون أنه أبحر إلى المغرب فى جيش عدته خمسون ألفا، تضاعف بعد ذلك بمن انضم اليه من البربر المبعدين عن ديارهم، والدوناتيين الذين تعرضوا لاضطهاد الكاثوليك (انظر: Gibbon, abridged edition, from the origin work. London, 1909 P. 280)

من مدينة الغزوات[١] المعروفة باسم Ad Fratres [٢]. (أنظر خريطة رقم ١)

واقترن زحف جنصريك نحو الشرق بكثير من أعمال العنف والوحشية، فقد كان الوندال فى تقدمهم يدمرون ما كان يصادفهم من عمران ، ويقتلون الشيوخ والأطفال ، ويبقرون بطون النساء الحوامل ، ويمزقون الأجنة الصغيرة . ويحرقون الكنائس الكاثوليكية والدور، ويتركون وراءهم الدمار والخراب أينما حلوا .

ويبدو أن الوندال لم يلقوا مقاومة تذكر من جانب الرومان المتآمرين مع بونيفاس على الامبراطورية ، ثم إن الدوناتيين ، باعتبارهم خصوما للكاثوليك ، انضموا إلى جانب الوندال إذ اعتبروهم مخلصين لهم من نير الرومان ، ووجدوا فى دخولهم البلاد سيفا مسلطا على خصومهم الذين أذاقوهم من صنوف الاضطهاد ألوانا [٣]. كذلك لم يتردد البربر ، الذين طالما عانوا من استبداد الرومان بهم وتعسفهم ، فى الانضمام إلى جانب الغزاة منذ اللحظة الأولى [٤] .

وكان بونيفاس يشهد أعمال العنف البشعة التى كان يقوم بها الوندال ، فأدركه الندم أخيرا على استنجاده بهم، على أنه مع ذلك كان يأمل أن يقف هؤلاء عند الحد الذى اتفق معهم عليه . فلا يتجاوزوه شرقا ، ولكن جيوش جنصريك الظافرة لم تقف عند هذا الحد ، وواصلت زحفها متجاوزة الحد

---

(١) المشرق ، ص ١٢٢

(٢) Julien , P. 236

(٣) Cambridge Medievial History t. I , P. 408

(٤) A. Bernard , l'Algerie , P. 117

الغربى من ولاية نوميديا . وهنا انقلب التحالف بين بونيفاس وجنصريك إلى عداء سافر ، ولم يلبث بونيفاس أن انضم إلى جانب الرومان ، بعد أن عفت عنه بلاسيديا ، وعهدت إليه بقيادة الجيوش الرومانية كلها بما فيها من أجناد قوطية مرتزقة . وما أن اشتبك بونيفاس مع الوندال حتى انهزم هزيمة نكراء ، ارتد على أثرها إلى عنابة Hippo Regius ، حيث اعتصم داخل أسوارها [١] انتظاراً لوصول امدادات من إيطاليا .

ج - غزو الوندال لنوميديا وافريقية :

ضرب جنصريك الحصار على عنابة زهاء أربع عشرة شهرا دون جدوى فاضطر إلى رفع الحصار عنها ، وأخذ يستولى على سائر أراضى المغرب باستثناء عنابة وقسنطينة وقرطاجنة، وهى المراكز الثلاث الوحيدة التى بقيت فى أيدى الرومان . ويذكر الأسقف بوسيديوس الذى شهد هذه الأحداث بعينيه ، أن حصار عنابة استغرق أربع عشرة شهرا، ثم أخلاها أهلها بعد وفاة القديس أوجستين فى ٢٨ أغسطس سنة ٤٣٠ ، وكان يتولى الدفاع عنها ، فأحرقها البرابرة [٢]، ثم اتخذها جنصريك بعد ذلك عاصمة مؤقته لمملكته فى المغرب . وهكذا تمكن الوندال فى أمد وجيز لا يتجاوز ثلاث سنوات من فتح بلاد تمتد من جبل طارق حتى بونة [٣] .

وبينا كان جنصريك يتأهب للقيام بأعمال حربية جديدة إذ بلغته الأنباء

---

(١) A. Bernard, op. cit. P. 1 8 - Pellegrin, op. cit. P. 80 - A. Julien , P. 237.

(٢) Pellegrin , P. 80

(٣) Bernard , P. 118

بوصول نجدة إلى الجيش الرومانى فى قرطاجنة ، أتت من القسطنطينية ، يقودها آسبار ابن أحد قادة الألان ، واصطدم جيش بونيفاس بعد أن انضمت إليه كتائب آسبار مع قوات جنصريك فى معركة عنيفة أسفرت عن انهزام الرومان هزيمة نكراء فى سنة ٤٣١ (١) . وعاد آسبار على أثر الهزيمة إلى القسطنطينية ، بينما لحق بونيفاس بروما ، حيث قلدته بلاسيديا منصب القائد العام ، لمواجهة مطامع آتيوس . وهناك قضى أيامه الأخيرة بعد شهور قليلة من عودته ، وبقيت بلاد المغرب بدون مدافع عنها .

أما آتيوس فقد فرض نفسه على بلاسيديا قائدا عاما للجيوش الرومانية فركز جهوده على غالة ، وترك المغرب لمصيره التعس .

ولما تولى آتيوس الحكم الفعلى للامبراطورية تم الاتفاق بينه وبين جنصريك فى عنابة (فى ١١ فبراير سنة ٤٣٥) على أن يتعهد جنصريك بدفع جزية سنوية طفيفة ، ويلتزم بارسال عدد من الرهائن إلى رافنا ، فى مقدمتهم ابنه هونيريك ، وفى نظير ذلك يحتفظ بسلطانه على موريطانية الطنجية ، وموريطانية القيصرية ، وعلى جزء من نوميديا ، مع التعهد أيضا بعدم التعرض لولاية إفريقية (٢) .

لم يقبل جنصريك هذه الاتفاقية إلا لكى يكسب بعض الوقت ، يتمكن خلاله من تنظيم صفوف جيشه استعدادا للمعركة الفاصلة ، فالاتفاقية فى نظره هدنة مؤقتة تحميه من تدخل الامبراطور الرومانى ، وقائده آتيوس وقبوله لها يعنى التخلص من خطر وشيك الوقوع ، ولذلك فانه تظاهر بقبول

---

(١) Cambridge Medievial History , vol. I, P. 410 - Julien, P. 237

(٢) المشرفى ، ص ١٢٦ - Pellegrin , op. cit. p. 81 - Julien, p. 237

شروطها الجائرة وهو يضمر فى قرارة نفسه احتلال ولاية إفريقية الغنية بمزارع القمح بمجرد أن يسترد ابنه هونيريك ، ويعيد تنظيم قواته . ونجحت سياسة جنصريك على نحو تجاوز كل تقدير فى الحسبان ، فقد استطاع أن يزيل وساوس رافنا وشكوكها نحوه ، فاطمأنت إليه ووثقت فيه، وأعادت ولده إليه : ولما أحس جنصريك بأنه أصبح طليقا ، لاتقيده الامبراطورية بقيود أخرى فاجأ القوات الرومانية ، وضرب ضربته الكبرى دون سابق إنذار ، إذ انقض بجيشه على قرطاجنة ، واستولى عليها فى ١٩ أكتوبر سنة ٤٣٩ (١). وتبع سقوط المدينة كثير من أعمال السلب والنهب والقتل والاعتداءات الغاشمة ، فقد أمر جنصريك الأهالى بتسليم ذهبهم ومنسوجاتهم النفيسة ، وقضى بنفى أعيان المدينة ، وشيوخها ، ورجال الدين، إلى إيطاليا أو القسطنطينية ، وصادر أملاك الكنائس الكاثوليكية ، وسلم القساوسة الأريوسيين جميع عمائر المدينة الدينية (٢) . وينقل الأستاذ جوليان وصفا للقس المرسيلى سيلفيان يصور سقوط قرطاجنة بقوله: « بينما كانت طبول الغزاة تدق تحت أسوار قسنطينة وقرطاجنة ، كانت كنيسة هذه المدينة تفقد وظيفتها بما كان يقام داخلها من ألعاب ومصارعة حيوانات، وتفقد هيبتها الروحية بالمشاهد التى تتمثل فى المسارح والملاعب ، وكانت المذابح تجرى خارج الأسوار ، بينما كانت شوارع المدينة مسرحا للزنا والفاحشة »(٣) . ويفسر القس سيلفيان هذه الأعمال البشعة بأنها نوع من العقاب أنزله الله بهذه المدينة التى يعتبرها هذا القس مجمعا لكل الرذائل .

---

(١) Julien, P. 237

(٢) Pellegrin , P. 81

(٣) Julien , op. cit P. 237

وأحدث سقوط قرطاجنة صدى عميقا فى جميع أنحاء الامبراطورية الرومانية ، خاصة فى رومة التى لم تكن قد صحيت منها بعد الصورة البشعة التى تخلفت بعد غزو القوط لها . وعلى أثر سقوط قرطاجنة أخذ جنصريك ينشىء أسطولا ضخما يهدف من ورائه فرض سيطرته على الامبراطورية الرومانية نفسها . عندئذ دقت رومة ناقوس الخطر ، وأخذت تعبىء قواتها الموزعة فى سائر أنحاء أوربا للدفاع عن إيطاليا نفسها ، ووعد الامبراطور البيزنطى ثيودوسيوس بالتدخل لحماية الامبراطورية الغربية ، كما نظم سيجيسفولت القوطى الدفاع عن السواحل ، وفى نفس الوقت عاد القائد الرومانى آتيوس بجيوشه من بلاد غالة . ولم يكن جنصريك ينوى وقتئذ مهاجمة رومة نفسها ، وإنما كان يسعى إلى تقليم أظافرها والاستيلاء على خطوطها الدفاعية الأمامية ، وهى جزر صقلية وقورشقه وسردانية .

وبادر جنصريك بشن هجومه على صقلية ، وحاول الاستيلاء عبثا على بلرمه ، ولكنه تمكن من انتزاع مدينة مرسالة دون أن يلقى مايعترض سبيله من سفن الامبراطورية الغربية . ولما علم جنصريك بقرب وصول الأسطول الرومانى الشرقى لمحاربته ، اضطر إلى العودة إلى قرطاجنة ، إلا أن الامبراطورية الشرقية عدلت أخيراً عن التصدى له ، عندما جاءت الأنباء بتأهب الفرس وقبائل الهون للهجوم على حدودها الشرقية ، وهو أمر إن دل على شىء فعلى عبقرية جنصريك الذى أكد من جديد كفايته الدبلوماسية (١). ولم يسع الامبراطوران ثيودوسيوس وفالنتنيان إلا الموافقة على التوقيع على معاهدة جديدة للتقسيم فى سنة ٤٤٢ ، كانت شروطها هذه

(١) Ibid. p. 238.

المرة لصالح الوندال ، فبمقتضاها احتفظ الوندال بولاية إفريقية بعاصمتها قرطاجنة ، وولاية بيزاسين ، وموريطانية الطنجية ، وقسم من نوميديا بما فى ذلك عنابة (١) . أما المناطق الفقيرة التى لايرجى منها فائدة مثل موريطانية القيصرية وموريطانية الشطيفية والقسم الغربي من نوميديا بما فيه قسنطينة ، وولاية طرابلس ، فقد تخلى عنها جنصريك للرومان .

ثم عمل جنصريك بعد ذلك على محالفة القوط الغربيين عن طريق المصاهرة ، بقصد الاعتماد عليهم مستقبلا عند قيامه بمهاجمة رومة ، فزوج ابنه هونيريك من إحدى بنات ثيودريك (٤٢٠ — ٤٥١) . غير أن آتيوس أغراه بمصاهرة الامبراطور فالنتنيان ، فما كان من جنصريك إلا أن اتهم ابنة ثيودريك بمحاولة وضع السم لابنه ، فأرسلها إلى أبيها بطولوشة بعد أن جدع أنفها، وقطع أذنيها (٢) .

د — التفوق الحربى للوندال على الرومان :

ظلت علاقات المودة بين جنصريك والرومان قائمة حتى سنة ٤٥٥ ، شغل خلالها بتنظيم فتوحاته فى المغرب . وفى هذه السنة قتل الامبراطور فالنتنيان بيديه قائده آتيوس ، ونتج عن ذلك أن ثار أنصار القائد القتيل على الامبراطور فالنتنيان ، وقتله أحدهم ويدعى بيترون مكسيم بعد ستة أشهر من مقتل آتيوس . وكان من الطبيعى أن تشتعل نيران الفتن فى البلاد عقب هذه الأحداث .

---

(١) F. Lot, la fin du monde antique et le début du Moyen age, Paris, 1947, p. 244.

(٢) Julien, p. 238. — على ابراهيم طرخان ، دولة القوط الغربيين ، القاهرة ١٩٥٨ ص ٩١ .

وفى هذه الآونة أرسلت الامبراطورة الأرملة أيودوكسى إلى جنصريك تستغيث به، وتدعوه للقدوم إلى رومة لإنقاذها من قاتل الامبراطور، وتغريه نظير ذلك بالاستيلاء على ذخائر رومة ونفائسها [١]. ووجد جنصريك الفرصة سانحة لغزو رومة وهو ما كان يتوق إليه منذ أمد بعيد، فأرسل أسطوله إلى إيطاليا، ونزلت جيوشه شمالى نهر التيبر، وتقدمت نحو رومة ودخلتها بدون مقاومة، فى ٢ يونيو سنة ٤٥٥، ونهبت المدينة خلال أسبوعين، وسلبت محتويات قصورها، وجردتها مما كانت تعتز به من روائع [٢]، ومن بينها كنوز سليمان التى كان قد حملها طيطس من ايلياء سنة ٧٠، وكان جنصريك قد وعد البابا ليون الأول بأن يكف أيدى جنوده عن القيام بأى مذابح فى رومة، وقد أوفى جنصريك بوعده فعلا، وعاد إلى قرطاجنة فى نهاية هذا العام، يحمل عددا كبيرا من الأسرى، يبلغ عددهم نحو سبعين ألفا، من بينهم الامبراطورة أيودوكسى نفسها التى كانت قدا ستنجدت به، وابنتيها: أيودوسيا التى تزوجها هونيريك بن جنصريك، وبلاسيديا التى تزوجها الامبراطور البيزنطى بعد ذلك، وابن القائد آنيوس، وعدد كبير من الصناع وأرباب الحرف. ويبدو أن المرض أصاب عدداً كبيرا من الأسرى بسبب إهمال الوندال لهم، فاضطر ديوجرا سياسى، أسقف قرطاجنة الكاثوليكى، إلى تخصيص بازيليكيتين لمعالجتهم [٣]،

---

(١) Pellegrin, op. cit. p. 82.

(٢) Lot, la fin du monde antique, p. 244- Gibbon, op. cit. p. 299.

(٣) Pellegrin, p. 82.

وباع فى سبيل ذلك معظم الكؤوس الفضية والذهبية المقدسة لافتداء بعضهم (١).

وكان عرش رافنا مايزال شاغرا منذ مصرع فالنتنيان ، فتولى الامبراطور مارسيان الذى كان قد خلف ثيودوسيوس الثاني سنة ٤٥٠ مهمة إدارة الامبراطورية الرومانية كلها . ولكن القسطنطينية كانت قد استنفذت كل قواها فى الحروب الشرقية التى خاضتها بحيث لم يعد لديها من القوة مايكفل لها التدخل فى إيطاليا حربيا ، وخاصة فى إفريقية ، وليس أدل على ذلك من موقفه عندما دعا الامبراطور الغربى الجديد آفيتوس ، القائد العام القديم فى غالة ، فى ٩ يوليو سنة ٤٥٥ ، الاغريق للقيام بحملة مشتركة ضد الوندال ، فقد اكتفى مارسيان بأن وجه إلى الوندال إنذاراً ، لم يكترث له جنصريك بطبيعة الحال (٢) . فقد كان يدرك كل الإدراك أنه أصبح يشغل المكان الأول فى العالم الغربى بفضل جيشه القوى ، وأسطوله العتيد ، وبراعته السياسية ، ودفعه هذا الإحساس بقوته ، وشعوره بتفوق الوندال الحربى وسيادتهم البحرية فى البحر المتوسط إلى المبادرة باستئصال الأطراف الطفيفة من الامبراطورية الغربيـــة ، فلم تلبث جزر قورشقة وسردانية والبليار وصقلية أن سقطت فى أيدى الوندال ، ثم إنه تمكن من ضرب الرومان فى مقاطعة طركونة فى إسبانيا بالسواف بقيادة ريخياريو Rekhiario وذلك فى سنة ٤٥٦ . ولم يكتف بذلك بل وجه جيوشه فى بلاد المغرب شرقا وغربا ، فاستولت على إقليمى مورطانية ، و إقليم طرابلس

---

(١) Julien, p. 242.

(٢) Julien, p. 242.

ويؤكد المؤرخ بروكوبيوس أن جنصريك كسب ولاء البربر له ، فتوافد عليه زعماؤهم يعلنون خضوعهم له ، واشتركوا معه في حملاته الظافرة. ويبدو أنه لم يهتم بحكم الولايات القديمة مثل موريطانية ونوميديا حكما مباشراً، بل منحها استقلالا جزئيا .

وأدى الحصار الاقتصادي الذى فرضه جنصريك على الامبراطورية الغربية إلى إسقاط آفيتوس ، ولم يمض على ذلك عهد قصير حتى توفى الامبراطور الشرقى مارسيان ، وأصبح العرشان على هذا النحو شاغرين . وكانت الامبراطورية الرومانية الغربية قد فقدت على أيدى الوندال والقوط معظم أملاكها ، وأصبح زمام الحكم فى إيطاليا فى أيدى جماعة من قادة الفرق الجرمانية المرتزقة ، وأصبح الأباطرة ألعوبة فى أيدى هؤلاء القادة ، ففى الامبراطورية الغربية أصبح ريسيمير السوافى Ricimer ، قائد القوات الرومانية الجرمانية ، كل شيء فى الدولة ، وفى القسطنطينية أصبح آسبار Aspar المحرك الأول للامبراطورية الشرقية . فنصب على العرش الامبراطورى أحد قواده القدامى ويدعى ليون لى تراس الذى عين بدوره على عرش الامبراطورية الغربية قائدا جريئا يعرف باسم ماجوريان ، وذلك فى ابريل سنة ٤٥٧ (١) .

رأى ماجوريان لزاما عليه قبل كل شيء أن يقضى على قوة الوندال بطريقة تجنبه الاشتباك معهم أول الأمر ، فأنشأ ضد جنصريك حلفا يضم القوط الغربيين والسواف ، وحشد فى خليج القنت Alicante باسبانيا ، قريبا من بلدة إلش Elche، أسطولا يتألف من ثلاثمائة سفينة، كان يزمع تسييرها

(١) Ibid. P. 248

لضرب جنصريك في المغرب . عندئذ طلب جنصريك الصلح ولكن طلبه قوبل بالرفض ، فعمل على تسميم الآبار في موريطانية ، وتدمير العمران فيها ، ثم إنه توسل لتحقيق رغبته في الصلح بطريقتين : شرائه ولاء بعض القادة من أعدائه، أو مباغتة أسطوله لسفن الرومان في القنت واستيلائه على معظمها (١) وبذلك أرغم ماجوريان على أن يعقد معه معاهدة للصلح في سنة ٤٦٠ .

غضب ريسمير من تصرف ماجوريان ، فقبض عليه عند عودته وقتله سنة ٤٦١ ، ونصب مكانه ليبيوس سفروس ، اتخذه ستارا ليحكم هو من ورائه. أما جنصريك فقد أبدى نشاطا سياسيا وحربيا لانظير لها في هذه الآونة ، محاولا أن يفيد من الصراع القائم حول تولية العرش ، فتعددت غاراته على صقلية وكالابرية وكامبانية ، وتربص أسطوله في البحر لسفن الرومان . ثم إنه تحالف مع ايجيديوس القائد العام لجيوش روشه في شمال غالة ، وتفاوض ايوريكو ملك القوط الغربيين ، ومع ريميسوندو ملك السواف، وكسب مودة القسطنطينية برده أرملة فالنتنيان وابنتها الصغرى، أملا في المطالبة بعرش الامبراطورية الغربية لولده هونيريك باعتباره صهرا للأسرة الامبراطورية . كل ذلك يعبر تعبيرا صادقا عن أحوذية جنصريك وعن دهائه السياسي ، الذي هيأله المجال ليصبح سيد الموقف في ذلك الحين . غير أن مطالبته بالعرش الغربي لم يقابل إلا بالرفض الشديد في القسطنطينية وعندئذ استأنف جنصريك صولاته في البحر ، فاجتاح السواحل اليونانية ، وقطع الاتصال فيما بين عامي ٤٦١ ، ٤٦٧ بين بيزنطة والاسكندرية .(٢)

---

(١) Pellegrin , P. 83 - Julien , P. 243

(٢) Pellegrin , P. 83 - Julien , p. 244

ولما شاهد الامبراطور الشرقى ليون عظم سطوة جنصريك ، أراد أن يضع حداً لتدخلاته الخطيرة، فقرر، بالاتفاق مع ريسيمير، الوقوف فى وجه جنصريك واستخدم كل طاقات الامبراطورية الرومانية لمهاجمته ، والقضاء عليه قضاء مبرما . فجهز أسطولا عدته نحو ستمائة سفينة ، وقيل ١١١٣ سفينة ، تحمل نحو مائة ألف مقاتل ، تحت قيادة بازيليكوس . وكانت خطة الرومان تقضى بأن يهاجم الأسطول الرومانى مدينة قرطاجنة، وأن يقوم مارسيلان بضرب الوندال فى صقلية وسردانية ، ويتولى هيراقليوس قائد الجيوش الرومانية فى مصر بالاستيلاء على طرابلس وبيزاسين .

ونجح مارسيلان فى الاستيلاء على سردانية ، ونزلت القوات المصرية بنجاح فى طرابلس . غير أن الأسطول الرومانى الذى أرسى فى رأس بونة سنة ٤٦٨ لم ينزل قواته إلى الساحل ، وفى هذه الأثناء تظاهر جنصريك باليأس وطلب من بازيليكوس هدنة لاتتجاوز خمسة أيام ، فمنحها له . وفى نفس الليلة باغت جنصريك أسطول الرومان بهجوم عنيف ولم يترك هذا الاسطول إلا بعد أن جعله حطاما (١) .

وكان لهذه الكارثة صدى عميق فى أنحاء الامبراطورية ، رفع من معنوية الوندال ، ثم توالت الكوارث على الرومان بعد ذلك ، فقد انسحبت جيوش الرومان فى مصر من طرابلس إلى ليبيا ، واغتيل القائد مارسيلان فى صقلية، واسترجع الأسطول الوندالى جميع الجزر الكبرى فى البحر المتوسط. وأثبتت هذه الكوارث تفوق البرابرة وضعف الرومان ، وخرجت الامبراطورية الرومانية من هذه المغامرة الحربية وقد اعتورتها الجراح، بينما ظفر جنصريك

---

(١) Ibid.

بالمعاهدة التى يشتهيها ، وتنص على اعتراف الامبراطورية بسيادته المطلقة على سائر بلاد المغرب (١) ، نظير التزامه بتسهيل الإفراج عن الأسرى الرومان وافتدائهم ، وإعادة فتح الكنائس الكاثوليكية المعطلة فى المغرب .

غير أن جنصريك لم يحترم شروط هذه المعاهدة ، ففى سنة ٤٧٤ اكتسحت غاراته السواحل اليونانية ، واضطر الامبراطور الشرقى زينون الإيسورى إلى عقد معاهدة ثانيـة ، تقضى بالتزام السلام الدائم بين الطرفين ، وأرسل الامبراطور فى سنة ٤٧٦ سفارة إلى قرطاجنة ، يعترف فيها بجنصريك ملكا مستقلا على المغرب وجـزر البحر المتوسط . وفى نفس السنة عقد جنصريك مع أدواكرا سكير القـائد الجرماني الذى دخل رافنـا فاتحا فى سبتمبر سنة ٤٧٦ ، وأسقط الامبراطور الغربي رومولوس أوغسطولس الصبى ، ونفاه إلى جنوب إيطاليا ، عقد جنصريك مع أدواكر المذكور معاهـدة سلم ، واتفق معه على أن يجلو الوندال من صقلية باستثناء قاعدة مرسالة الحربيـــة التى اعتبرها مركزا استراتيجيا هاما لأفريقية (٢) .

(١) Oman , op. cit. p. 10

(٢) Pellegrin , p. 843 - A. Bleye , op. cit. p. 343 - Julien , p. 245

سعيد عاشور ، أوربا فى العصور الوسطى ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٥٨ ص ٧٠

(٢)
خلفـاء جنصريك

أ ـ هونيريك خليفة جنصريك (٤٧٧ ـ ٤٨٤) :

طال العمر بجنصريك ليشهد قيـام امبراطورية وندالية ، أسسها بقـوة سلاحه ومهارته الدبلوماسية، وليشهد سقوط الامبراطورية الرومانية الشرقية على يدى أذواكر سنة ٤٧٦ ، ثم توفى فى قرطاجنـة عاصمته فى ٢٤ يناير سنة ٤٧٧ . وكان جنصريك يحرص قبـل وفاته على أن يولى العهـد لإبنه الأكبر هونيريك حتى لاتتمزق الامبراطورية التى جهد فى تأسيسها . فلمـا توفى خلفه ولى عهده هونيريك على عرش الوندال . وكان هونيريك فظا ، مستبداً ، ظالما ، كما كان آريوسيا شديدالتعصب لمذهبه . ولذلك لقى أصحاب المذهب الكاثوليكى الذى انتشر فى المغرب على حساب الآريوسية ، على يديه كثيرا من المحن وضروب الاضطهاد والتعسف . فقد كان يرغم الكاثوليك على اعتناق الآريوسية (١) وإلا تعرضوا لألوان العذاب والاضطهاد الشديد. وقد اكتشف هونيريك عند اعتلائه العرش مؤامرة تهدف إلى عزله فقبض على المتآمرين من خاصته وأمر بذبـح بعضهـم وإحراق البعـض الآخر أحياء (٢) .

وكان الامبراطـور البيزنطى زينون الإيسورى (٤٧٤ ـ ٤٩١) قد فوض لهونيريك انتخاب أسقف جديدلأسقفية قرطاجنةالشاغرة منذ ٢٤عاما

---

(١) Percy Neville Ure, Justinian and his age, London, 1951, p. 22

(٢) Pellegrin , p. 84

مضت تمهيدا لسياسة من التسامح الدينى حيال الكاثوليك ، ولكن هونيريك اشترط فى مقابل ذلك أن يعامل الآريوسيون فى الشرق معاملة مماثلة ، بل إنه أنذر القسطنطينية بنفى هذا الأسقف والقساوسة الكاثوليك فى المغرب بدون استثناء فى بلاد البربر ، لو أن الامبراطور رفض مطلبه ، ويبدأ النزاع بين هونيريك وزينون يتطور تطورا خطيرا عندما أعلن زينون أنه لن يتزحزح عن موقفه بالنسبة للاريوسيين . وكان رد الفعل الوندالى عنيفا إذ تعرض الكاثوليك وعلى رأسهم الأسقف ايوجين لانتقام الوندال المروع ، ونتج عن ذلك سقوط عدد كبير من الضحايا الكاثوليك فى أرض المغرب .

وأخيرا وافق هونيريك على عقد مؤتمر دينى فى أول فبراير سنة ٤٨٤، يتفاهم فيه الأساقفة الكاثوليك مع الآريوسيين ، أملا فى أن يتحول التدخل البيزنطى إلى أداة تبلبل أفكار الكاثوليك الذين ظلوا يحتفلون بشعائرهم الدينيـــة فى الأراضى الوندالية على الرغم من قرار التحريم . وكان غرض هونيريك من عقد المؤتمر حل مشكلة داخلية ، وذلك باشتراك ممثلى الكنائس الكاثوليكية فى دولة الوندال وحرمان الأساقفة الوافدين من الخارج . وحضر المؤتمر بالفعل عدد كبير من الأساقفة الكاثوليك فى المناطق التابعة للوندال أمثال إيوجين القرطاجنى ، وفيجيليوس التابسوسى . وما إن انعقد المؤتمر حتى أدرك الكاثوليك أن البطريرك الآريوسى سيريلا ينوى اتخاذ قرار ضدهم ، فعمدوا إلى إثارة المظاهرات لصالحهم فى قرطاجنة ، واعتبر هونيريك هذه المظاهرات نوعا من الشغب ، فاضطر إلى إصدار مرسوم بفض المؤتمر فى ٢٥ فبراير . ويتضمن هذا المرسوم قرارات ، اقتبسها من القرارات التى اتخذها القانون البيزنطى ضد الملحدين ، وعمل على تطبيقها على الكاثوليك . من هذه

القرارات إبطال الشعائر الدينية الكاثوليكية ، وحل الجمعيات الكاثوليكية، ومنع التجمهرات الدينية ، وحرق الكتب الدينيـــة ، ومنع إنشاء كنائس كاثوليكية فى داخل المدن أو خارجها،ومصادرة الأراضى التابعة للكنيسة، ونفى الخارجين على المذهب الآريوسى .. . الخ .

وقد بالغت السلطات الوندالية فى تطبيق هذه القرارات،فأخرج الأساقفة الكاثوليك من قرطاجنة وهم عراة، وأرغموا على العمل فى الأراضى الصحراوية، فمات منهم نحو ٩٠ شخصا فى العامين التاليين . ولم يقف تنكيل الآريوسيين بالكاثوليك إلى هذا الحد ، فان القس الاريوسى، الذى تولى مراقبة الأسقف ايوجين المصاب بالشلل ، كان يصب الخل فى فمـه ، كما ضرب ١٢ طفلا فى كنيسة قرطاجنة بالعصى مرتين ، وجلد خمسمائة قس فى هـذه المدينـة قبل نفيهم ، وقطعت ألسن الكاثوليك الذين حاولوا الفرار إلى أسبانيـــا (١) . وهكذا لم تعد الحياة ممكنة فى المغرب إلا لمن تقبل التعميد الآريوسى، ونتج عن ذلك قيام أزمة اقتصادية خطيرة ، وانتشار المجاعة فى البلاد ، بسبب تخلى المزارعين عن فلاحة الأرض ، وامتناع أرباب العمل عن الصناعة والتجارة، وتسببت المجاعة فى وفاة عدد كبير من الأهالى ، وعمت الأوبئة أنحاء البلاد، وكثر عدد ضحايا هذه الأوبئة ، وكان هونيريك واحـداً من هؤلاء ، إذ توفى فى ١٢ ديسمبر سنة ٤٨٤ (٢) .

ب ـ عصر جنتا موندو (٤٨٤ ـ ٤٩٦) وتراساموندو (٤٩٦ ـ ٥٢٣)

لم يتول عرش الوندال بعد وفاة هونيريك ابنه هيلدريك كما كان يأمل،

---

(١) Oman, p. 11 - Percy Ure, op. cit. p. 22 - Julien, p. 249

(٢) Oman, p. 12 - Julien, p. 250

وإنما تولاه اثنان من ذوى قرابته ، كانا أخف وطأة منه على الكاثوليك هما جنتاموندو ثم تراسا موندو. ولقد شهد الكاثوليك فى عهد جنتا موندو أياما أفضل من سلفه ، إذ خفف الوندال فى عهـــده من غلوائهم واضطهادهم للكاثوليك ، وتمكن الأسقف الكاثوليكى إيوجين من العودة إلى أسقفيته سنة ٤٨٧ ، كما عاد الأساقفة الآخرون بعده إلى أسقفياتهم فى سنة ٤٩٤، وعادت الكنائس الكاثوليكية تمارس من جديد وظائفها فى حرية. ويرجع السبب فى تمتع الكاثوليك بهـذه الحرية النسبية إلى عوامل سياسية ، فعلى أثر النزاع حول طبيعة المسيح ، أصدر البابا فيلكس الثالث قراراً بعزل أساقفة القسطنطينية وأنطاكية وحرمانهم ، وكانوا أصحاب القرار المعروف باسم هينوتيكون Henoticon ،الذى أصدره الامبراطور زينون سنة ٤٨٢ . وأدى ذلك بطبيعة الحال إلى قيام جفوة بين الشرق والغرب أو بين البابوية والكنيسة اليونانية بالقسطنطينية دامت زهاء ثلاثين سنة (٤٨٤ - ٥١٨) (١) . وهكذا لم يتردد جنتا موندو فى إظهار تسامحه نحو رعاياه الكاثوليك إذ كان يدرك تماما عدم قدرتهم على التآمر ضده مع الامبراطورية .

ثم تولى ثراسا موندو عرش الوندال ، ويتميز تراسا موندو بأنه كان يتمتع بصفات خلقية وفكرية وجثمانية طيبة على حدقول معاصريه ، ويبدو أنه كان مثتنيرا ، يتمتع بثقافةواسعة، كما كان ألمعيا، وهب قدرة لا نظير لها فى السياسة الخــارجية . (٢) ويشير بروكوبيوس إلى أنــه كان يجتذب إليه الــكاثوليك عن طريق تكريمهم ومنحهم الثروات الطائلة والرتب السامية، فاذا

---

(١) Charles Diehl, Histoire du moyen age, t. III, le monde oriental, Paris, 1936, p. 35 - A. Julien, op. cit. p. 251

(٢) Pellegrin, p. 84

اقترف أحدهم جرما ، رغماعنه أو عن سبق اصرار ، عفاعنه، لكى يرتد عن مذهبه (١) . ومع ذلك فقدكان تراسا موندو يمنع تنصيب أساقفة جددبدلا من الأساقفة المتوفين ، كما أن عـاقب بالنفى من لم يكترث لأوامره من أساقفة الكاثوليك أمثال إيوجين أسقف قرطاجنة الذى لقى حتفه فى آلبى بغالة سنة ٥٠٥ ، وفولجانس أسقف روسباى بولاية بزاسين الذى نفاه معما يزيد على ستين أسقفا إلى سردانية .

وقد عرف عن تراسا موندو أنه كان يداوم على ارتكاب الخطأ إذا لم يقتنع بالصواب ، فلقد أعاد فولجانس إلى بلاطه ليتناقش معه ، وكان فولجانس معروفا بمحاوراته وتبحره فى اللاهوت، ولكن فولجانس انتهز فرصة وجوده بقرطاجنه للقيام علانية بالتأثير على المخلصين عن طريق أحاديثه وخطبه . ويبدو أن دعوته كان لها تأثير عميق فى القصر لدرجة أن تراساموندو أعاده من جديد إلى سردانية .

وكان تراسا موندو محبا للاداب والفنون ، وفى عهده ازدهرت فنون الشعر وعلى الأخص فن المديح، ومن أعظم شعرائه لوكسوريوس ودراكنتيوس، كذلك كان تراسا موندو مولعا بالعمارة ، فأمهر قرطاجنة بالأبنية الجليلة ، والقصور الفخمة .

ولم يلهه اهتمامه بالثقافة والفنون عن السهر على استقلال دولته ، فقد عقد صلات من الود والصداقة مع الامبراطور أنستاسيوس (٤٩١ — ٥١٨) الذى لم يهتم بالمغرب اهتمامـا كبيرا ، لانشغاله وقتئذ بالنزاع الدينى ، وبتأمين

(١) Julien, p 251

الدفاع عن امبراطوريته . ولكن الوضع لم يلبث أن تغير منذ اعتلى جستين الأول عرش الامبراطورية (٥١٨ - ٥٢٧) ، فان الامبراطور الجديد الذى كان معروفا بتقواه الزائدة وصلابة رأيه ، لم يلبث أن اصطلح مع البابا ، وأبدى رغبته فى مباشرة اسقفية إفريقية ، مما ساعد على تجدد شكوك تراسا موندو السياسية إزاء الكاثوليك ، وعندئذ عمد تراسا موندو إلى توليةوجهه شطر ثيودوريك الذى تولى عرش القوط الشرقيين بايطاليا منذ عام ٤٩٣ ، وذلك حتى يضمن عدم تجدد العداء مع الامبراطور . ورأى تراسا موندو ضرورة عقد حلف مع الملك القوطى وذلك بزواجه من أمالافريد أخت ثيودوريك ، التى أمهرها بأراض صقلية بناحية مرسالة . وقدمت العروس إلى قرطاجنة تصحبها حاشية تتألف من ألف سيد قوطى وخمسة آلاف من خيرة المحاربين وأشدهم مراسا (١) . وقد كان هذا الزواج عاملا من عوامل تألق البلاط الوندالى ، وبداية لعهد وندالى جديد، استغرق فيه الوندال فى حياة الترف وانغمسوا فى اللهو والملذات (٢) .

ولكن بقدر ما كان الملك يحرص على تجنب أية مشكلة خارجية ،بقدر ما كانت الثورات التى قام بها البربر فى عهده تسبب ارتباكا خطيرا فى مملكته . والواقع أن سلطان الوندال على عقبائل أخذ يضعف تدريجيا بعد وفاة جنصريك ، وإذا بحثنا عن سر ذلك وجدنا أن الفتح الوندالى قلب النظام الاقتصادى وقلب معه أيضا النظام الإجتماعى (فى نوميديا) ، فان الطبقة الزراعية الكادحة « البروليتاريا » ، وهى الطبقة التى كان يستغلها الملاك وأصحاب العقارات أسوأ استغلال انتهزت فرصة نشوب الاضطرابات التى

(١) Pellegrin, p. 84 - Julien, p. 252

(٢) Pellegrin, p. 84

شملت القرن الخامس كله لتثور بدورها ، وتضرب ساداتها ، وتدمر مدنهم ، وتستصفى أملاكهم ، وذلك بمصادرة وسائل الإنتاج . كذلك انقض سكان جبل أوراس على المدن الزاهرة فى السهل ودمرتها ، من أمثال هذه المدن تبسا وتمجاد ولميزة. ولم يقف السيل المدمر إلا عند واحى قسنطينة. فقد استولى الثوار على هذا الإقليم ، حيث نهبوا البلاد وقتلوا أعدادا هائلة من الكاثوليك والوندال على السواء . وقامت بموريطانية دول مستقلة عاش فيها الروم والبربر جنبا إلى جنب ، من أمثـــال تلك الدول مملكة ماسونا التى قامت فى عهـد تراساموندو ، وكانت تضم لاموريسيير ، وصفر ، وكاسترا سيفيريانا (١) . ولكن الحكومة الوندالية لم تقف موقفا حازما تجاه هـذه الحركات الاستقلالية والثورات، فقد كانت حياة الترف التى كان يحياها الوندال قد استنزفت جانبا كبيرا من خشونتهم التى جعلت منهم فى المـاضى محاربين أشداء ، وازداد الموقف سوءا عندما واجهت البـلاد غارات قام بهـا البدو ورعاة الجمال من طرابلس بقيـادة أمـــير يعرف باسم كابايون ، وعجز تراساموندو عن التصدى لهم ، إذ كانوا يتبعون طريقة الكر والفر ، وفشل فرسان الوندال فى مواجهة هؤلاء البدو لأن جيـادهم كانت تنفر من جمالهم، فتتراجع ، وعندئذ يطبق عليهم فرسان البربر منحدرين من سفوح الجبـال المجاورة ، وينقضون عليهم ، ويذرعون فيهـم القتل . ولقد تعرض جيش الوندال فى سنة ٥٢٣ م لهزيمة شنعاء. مات الملك تراساموندو على أثرها مغموما (٢)

ج — نهاية عصر الوندال فى المغرب :

خلف تراساموندو الملك هيلدريك ابن هونيريك من الأميرة ايودوسيا

---

(١) Julien , p. 253

(٢) Oman , p. 28 - Pellegrin . p. 85 - Julien , p. 254

(٤٩٦ – ٥٢٤) ، وكان شيخا مترفها ، رافق أمه فى شبابه إلى القسطنطينية، حيث أقام فى بلاط الامبراطور البيزنطى زهاء أربعين سنة ، وهناك عقد مع جستنيان ولى عهد جستين ، علاقة من الصداقة الوطيدة . وقد كان لذلك أكبر الأثر فى ارتباطة الوثيق بالبيزنطيين ، وفى تخليه عن روح القسوة والخشونة التى كان يتصف بها أبوه هونيريك ، وجده جنصريك ، ويتمثل ارتباطه بالامبراطورية فى سكة العملات وعليها صورة الامبراطور جستين الأول [١] .

وقد اصطنع هيلدريك منـــذ ارتقائه عرش الوندال سياسة تقوم على التسامح الدينى ، فأصدر أمره بارجاع الأساقفة المبعدين عن قرطاجنة وفى مقدمتهم فولجانس دى روسباى ، الذى استقبله شعب قرطاجنة استقبالا حافلا ، كما أنه أعاد رئيس الأساقفة إلى قرطاجنة ، وأمر باجراء انتخابات جديدة لاختيار أساقفة جدد ، وباعادة افتتاح الكنائس المعطلة ، وباقامة مجلس كاثوليكى فى ٥ فبراير سنة ٥٢٥ . ولقد أدى هـذا التصرف من جانب هيلدريك إلى تجرأ الامبراطور جستين على إصدار مرسوم بالغـاء الأريوسية من الامبراطورية فى سنة ٥٢٣ ، كما أدى أيضا إلى قيام حركة معارضة شديدة عند الوندال تزعمتها الأميرة أما لافريد أرملة تراساموندو، وكان من بين رجال هذه الحركة كبير الأساقفة الآريوسيين ومعظم طبقة النبلاء الوندال الذين أعلنوا سخطهم على هيلدريك لتسليمه إفريقيـة لقمة سائغة للبيزنطيين . وتطور الموقف بعد ذلك تطورا سريعا ، فقـــد خاطبت أما لافريد زعماء بربر جنوبي بيزاسين ، وحثتهم على الثورة . ولكن هيلدريك

---

(١) Lot, op. cit. p. 289

قبض عليها فى قفصة ، وزج بها فى السجن حيث ذبحت هى ورجال حاشيتها القوط [١] . فغضب أخوهـا ثيودوريك ، وأعد حملة لمهاجمة قرطاجنـة ، ولكن الموت عاجلة سنة ٥٢٦ ، فلم يتهيأ له تحقيق هدفه ، ولم يكن أتالاريك ابن ثيودوريك ، وكان صبيا لا يتجاوز من العمر ثمان سنوات ، فى ظروف تسمح له بمهاجمة صديق للامبراطور البيزنطى [٢] .

ولكن الثورة البربرية ، والمعارضة الوندالية ، استفحلت استفحالا ينذر بالخطر الشديد ، وكان البربر قد أصبحوا سادة على مورطـانية الطنجية ، والقيصرية ، (باستثناء عاصمتها) ومورطانية الشطيفية ، ونوميديا الجنوبية ، وتجمعت حشودهم ، مع من انضم إليهم من الحزب المعـارض للملك ، فى جنوبي بيزاسين ، بقيادة آنتالاس ، لمهاجمة الوندال بقيادة هوامر ابن أخت هيلدريك . ولم يكن من بقى على ولائه للملكية من الوندال ، فى حالة تسمح لهم بمقابلة هذه الحشود الهائلة ، بعدما استنزفت الحضارة الرومانية قواهم وقضت على خشونتهم ، كما أن هـوامر لم يكن يقاس من حيث الكفـاية الحربية والسطوة والذكاء بآنتـالاس زعيم البربر ، ولذلك لم يلبث جيش هيلدريك أن انهزم انهزاما مخزيا فى المعركة عند أول اشتباك مع البربر فى سنة ٥٣٠ ، وأعلن الثوار فى ساحة المعركة سقوط الملك هيلدريك ، وبايعوا على أثر ذلك أحد أحفاد جنصريك واسمه جليمار (جليمار بن جيلاريس بن جنزون بن جنصريك) ولا شـك أن جليمار كان يسعى للظفر بالعرش ، إذ كان يخشى وهـو أكبر أفراد الأسرة الملكية ، والمرشح لهذا العرش بعد

---

(١) Oman , p. 29

(٢) Pellegrin , p 85 - Julien , p. 255

هيلدريك ، أن يسلم هذا بلاد المغرب لجستنيان ، فيضيع عليه عرش الوندال، وعلى هذا الأساس بدأ يتا مر مع نبلاء الوندال (١) .

زحف المتمصرون على قرطاجنة ودخلوها ، وتم القبض على الملك الشيخ، وقتل أنصاره فى مايو سنة ٥٣٠ ، ولكن الامبراطور جستنيان ، ابن أخت جستين ، وكان قد تولى العرش البيزنطى قبل ذلك بثلاث سنوات ، لم يرض عن الأوضاع فى إفريقية ، وأعلن غضبه على وضع صـــديقه هيلدريك فى السجن، فأرسل إلى جليمار يتوعده ، ويطالبه بالتنازل عن العرش لهيلدريك، مع احتفاظه بسلطانه كوصى له (٢) ، ولكن جليمار لم يعبأ بهـذا التهديد ، وأعلن تحديه للامبراطور ، ورد عليه ردا قبيحا أثاره ، وجعله يفكر جديا فى محـاربة الوندال واسترجاع المغرب ، واستعادة أمجـاد الامبراطورية الرومانية .

---

(١) Percy Ure , op. cit. p. 23

(٢) Oman , p. 76

(٣)
نظم الوندال فى الحكم ببلاد المغرب

أ ـ النظام الادارى :

لم يكن الوندال أهل حضارة ، بل كانوا شعبا همجيا ، عرف بوحشيته وقسوته . ويعتبرهم المؤرخون أكثر الشعوب المتبربرة تخريبا وحبا لسفك الدماء ، حتى أن كلمة Vandalisme أصبحت تتضمن هذا المعنى . غير أن تاريخ الوندال لم يعرف إلا عن طريق روايات أعدائهم ، وهم كتاب اليونان أمثال بروكوبيوس ، أو الكاثوليك الذين يعتبرونهم ألد أعداء الكنيسة الأرثوذوكسية أمثال فكتور أسقف فيتا. ولذلك فان ما اقترن باسم الوندال من وحشية تفوق الوصف لايعدو أن يكون من قبيل المبالغة والتحيز ، ولم يكن هذا التحيز والمبالغة إلا رد فعل لاضطهاد الوندال للكاثوليك .

صحيح أن الوندال لم يكونوا أهل حضارة ، ولكنهم مع ذلك احترموا الحضارة الرومانية ، شأنهم فى ذلك شأن الشعوب المتبربرة ، فاحتفظوا بنظام الإدارة الروماني القديم بما فى ذلك الموظفين والإدارات [١] . ولقد قسم جنصريك المغرب إلى ست مقاطعات ، تختلف فى مساحتها وقيمتها الاقتصادية ، خمس مقاطعات منها تدخل فى ولاية إفريقية القنصلية هى : مقاطعة قرطاجنة ، ومقاطعة زوجيتانيا (شمال تونس) ، ومقاطعة بيزاسين (وسط وجنوب تونس) ، ومقاطعة نوميديا الشرقية (وتشتمل على

---

(١) Bernard, p. 119 - Lot, p. 290

الأراضى الواقعة غربى تونس وتمتد حتى قسنطينة) ثم المنطقة الواقعة شرقى تبسا . أما المقاطعة السادسة فكانت تشتمل على نوميديا الغربية وموريطانية ، وذلك لضعف نفوذ الوندال فى القسم الغربى من المغرب [١] .

وكان الملك يترأس الحكومة ، وله سلطات مطلقة فى الحكم ، ولذلك اتسم حكمه بالاستبداد ، فكان يباشر بنفسه تعيين الموظفين من الرومان ، وتنصيب القساوسة وأعضاء مجلس الشورى ، كما كان يحتفظ لنفسه بحق تعيين سائر الولاة والعمال [٢] . وكان يتولى العرش أكبر أعقاب الملك المتوفى من الذكور ، بصرف النظر عن نسبة قرابته إلى الملك ، وذلك تجنبا لنظام الوصاية فى دولة تقوم أساسا على النظام الحربى ، وهو النظام المتبع عند القبائل التيوتونية . فهيلدريك لم يتول العرش بعد أبيه هونيريك ، ولكنه تولاه بعد تراساموندو [٣] . وكان يشترط فى رئيس الوزراء أن يكون جرمانى الأصل ، وكذلك الشأن بالنسبة لرئيس الديوان أو أمين البلاط الذى يسجل المراسيم كما يقوم بانفاذ البعثات السياسية التى تتصف بالسرية التامة .

وكانت دار السكة تضرب العملات بقرطاجنة ، باسم ملوك الوندال على نفس النظام الذى كان متبعا فى العصر الرومانى [٤] . وكانت اللغة اللاتينية سائدة فى الإدارة والقضاء والتعليم [٥] . ومع ذلك فقد استخدمت اللغة الجرمانية فى التخاطب وفى المحافل الدينية .

---

(١) المشرقى ص ١٣٥ — احمد بن عامر ، تونس عبر التاريخ ، تونس ، ١٩٦٠ ص ٧٢

(٢) المشرقى ص ١٣٦

(٣) Oman, p. 11

(٤) Pellegrin, p. 81

(٥) Lot, p. 290

ب ـ النظام الحربى :

أما النظام الحربى فقوامه شعب الوندال نفسه، فقد كان الوندال أنفسهم قلة ضئيلة جدا بالنسبة لمجموع سكان البلاد من البربر والأفارقة والروم، وكان عددهم يتراوح ما بين خمسين وثمانين ألفا [١]، ولذلك اعتبر الوندال أنفسهم حامية ضرورية لبقاء البلاد فى حوزتهم، وكانوا أقرب إلى أن يكونوا جيشا للاحتلال من أن يؤلفوا أمة. وهكذا كان العنصر الحربى يفوق العنصر المدنى. ولم يكن للوندال لهذا السبب جيش نظامى تحت أهبة الاستعداد، ولكنهم كانوا يتحولون جميعا إلى جنود يحملون السلاح فى اللحظات الحرجة. ولهذا السبب أيضا كانوا يلتزمون باعداد أبنائهم وتنشئتهم نشأة حربية [٢]. وكان المحاربون الوندال فى العادة فرسانا يقاتلون بالمزاريق والسيوف ولكنهم كانوا لا يعرفون استخدام السهام والحراب، ولذلك فشلوا فى حروبهم مع البدو ورعاة الجمال الوفدين من طرابلس [٣].

وكان من الضرورى أن يصطنع الوندال سياسة بحرية رضوا أم كرهوا، فان الاستيلاء على سواحل بلاد المغرب والتطلع إلى غزو إيطاليا وجزر البحر المتوسط كان يتطلب بطبيعة الحال أن يهتم الوندال اهتماما خاصا بانشاء أسطول بحرى قوى، يناوئون به خصومهم فى البحر، ويفرضون سيادتهم على الجزر المواجهة لإيطاليا وإسبانيا مثل صقلية وسردانية وقورشقة، ولذلك استأنفت دار الصناعة بقرطاجنة نشاطها فى إنشاء السفن والقطائع التى كان لها الفضل الأعظم فيما أحرزه الوندال من تفوق بحرى، بحيث أصبحوا

---

(١) Bernard, p. 119

(٢) Pellegrin, p. 81

(٣) Julien, p. 254

بحق أعظم قوة بحرية فى غرب البحر المتوسط ، « وأمست الدولة الرومانية لأول مرة منذ الحروب البونية فى القرن الثالث قبل الميلاد تحت رحمة بحرية تفوق بحريتها ، وتستطيع أن تنتزع عنها صقلية وسردانية وقورشقة »[1]. واستعان الوندال بالبربر فى الملاحة البحرية لمهارتهم فى دربته وثقافتـــه ومقدرتهم على ركوبه .

ج ـ النظام القضائى :

على الرغم من أن ملوك الوندال كانوا يحكمون رعاياهم الوندال وفقا لقوانينهم وعاداتهم، إلا أن اللاتين والأفارقة كانوا يخضعون للقـــانون الرومانى ، الذى ظل يطبق عليهم فى المدن وفى الأقاليم الخاضعة للوندال ، وكان يتولى تطبيقة قضاة رومان باسم الملك ، يتزعمهم قاض أعلى مقيم فى قرطاجنة . أما القضايا المختلطة فكانت تعرض أمام محاكم وندالية .

د ـ النظام الاقطاعى :

احتفظ جنصريك بخراج بيزاسين وجـزء من نوميديا لنفسه ، واختار لولديه هونيريك وجنزون أخصب أراضى المغرب ثم وزع الأراضى المزروعة فى إفريقية القنصلية وزوجيتانيا على جنوده وأسراتهم بعد أن قسمها إلى إقطاعات ، كل إقطاع يشتمل على ألف أسرة من المحاربين يخضعون لسلطة رئيس يسمى المشرف على الألف Millenari ، واستثنى من التوزيع، الأراضى قليلة الإنتاج ، فأعطاها لأصحابها بعد أن أثقل كاهلهم بالضرائب الفادحة. وعلى هذا النحو انتقل الملاك القدامى إلى طبقـة معدمة ، ولكنهم على الرغم

---

(١) فشر ، تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ، ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة ، والدكتور السيد الباز العرينى ، القاهرة ، ١٩٥٤ ص ٣

من ذلك ظلوا يحتفظون بحرياتهم فى الاقامة حيثما طاب لهم ذلك (١).

ويعتقد الأستاذ جوليان أن الوندال أقروا الملاك القدامى من الأفارقة فى زوجيتانيا على أراضيهم أو أذنوا لهم بالإقامة فيها بصفة العبيد فى مستعمرات ساداتهم ، ذلك أن السادة الجدد لهذه الأراضى، لكثرة ما كانوا يشتركون فى الحروب والمعارك ، أو لطول إقامتهم فى قرطاجنة . كانوا يعهدون إلى سكان المستعمرات الوندالية بالعمل فيها ، والإشراف عليها وجمع خراجها ولهـذا تدفقت الأموال على الوندال ، وراحوا يستغرقون فى حياة الترف ، ويفقدون وراء البحث عن شهوات النفس خشونتهم التى كانت مصـــدر قوتهم .

أما فيما عدا زوجيتانيا ، فقد كانت الأراضى ملكا للدولة ، ولـكنها تركت فى أيدى أصحابها ، ونستدل من العقود المسجلة على اللوحات الخشبية التى اكتشفت جنوبى تبسا سنة ١٩٢٨ على أن الأراضى فى هذه المنطقـة كانت ملكا للأفراد يبيعونها كيفما شاءوا، ومعنى ذلك أنه كان فى إمكان المزارعين المستقرين فى الأراضى البور الخاصة بأحد الملاك بيع حقوقهم فى هذه الأرض بل وتوريثها لأعقابهم (٢).

هـ ـ سياسة الوندال نحو الكاثوليك وأهل البلاد :

كان الوندال يتعصبون لمذهبهم الآريوسى لأغراض سياسية أكثر منها دينية ، فنكلوا بالكاثوليك، وصادروا كنائسهم وما فيها من كنوز وتحف،

---

(١) Julien , p. 239

(٢) Ibid. p. 240

وحولوا بازيليكية رستيتوتا وكنيستى سان سبريان إلى كنائس آريوسية ، كانت تقام فيها الطقوس باللغه الجرمانية، ولم يكتم ملك الوندال شعوره العدائى نحو الكاثوليك ، إذ اعتبرهم خطرا دائما على دولته لاتصالهم بالامبراطورية البيزنطية وكنيسة القسطنطينية . وهذا يفسر استمرار تغير سياستهم نحــو الكاثوليك تبعا للظروف السياسية ، فطورا نراهم يلتزمون حيـــالهم سياسة تعسفية غاشمة ، وطورا نراهم يتراخون معهم ويتبعون سياسة من التسامح، كما حدث فى سنة ٤٥٤ عندما أمر جنصريك باختيار أسقف جديد لقرطاجنة، مداهنة لآتيوس،وكما حدث سنة٤٧٦عندما أعيد افتتاح الكنائس الكاثوليكية بغية الحصول على معاهدة مجزية مع الامبراطور زينون (١).

أما بالنسبة للبربر والأفارقة،فقد أثقل الوندال كواهلهم بمختلف أنواع الضرائب ، وحرص جنصريك على تخريب القلاع والتحصينات فى المــدن البربرية كلها باستثناء قرطاجنة العاصمة ، حتى لايفكر البربر يوما فى شق عصا الطاعة على الوندال ، فيتحصنون داخل أسوار حصونهم ومدنهم (٢) . ولقد كان البربر على مر العصور لايرضون بالحكم الجائر أو السلطان المستبد، ولذلك ثاروا من قبل على الرومان (٣) ، كما ثاروا على الوندال وعلى البيزنطيين

---

(١) Julien, p. 241

(٢) Percy Ure, p. 21 - Oman, p. 10

(٣) ثار حوجورتا على الرومان سنة ١٠٨ ق٠م٠ ، وثار البربر على الرومان فى عهد حوبا الثانى ، كما شق عليهم تاكفريناس النوميدى عصا الطاعة سنة ١٧م ، وثاروا أيضا على بطليموس ابن جوبا الثانى لموالاته للرومان فى موريطانية ، واعتصم الثوار تحت قيــادة ايدمون فى جبال أطلس (ارجع الى المغرب الاسلامى ص ٢٧ ــ ٢٩) .

وعلى العرب بعد ذلك ، فالبربر لايقبلون الخضوع للفاتحين والغازين ، ولقد نجح جنصريك بفضـل هيبته وسطوته فى كبح جماحهم ، ولكن خلفـاءه أخفقوا فى سياستهم مع الـبربر ، ويرجع السبب فى ذلك إلى تراخيهم مع زعمائهم وإغماضهم أعينهم عن الحركات الاستقلالية التى يقومون بها فى القسم الغربى من المغرب ، إذ كان كل همهم منصرفا إلى إفريقية القنصلية وما يليها من ولاية نوميديا فى الغرب وبيزاسين فى الجنوب ، ولم يعدم البربر فى موريطانية زعماء يحركونهم ضد الغازين ، فلم تلبث الثورة البربرية أن اشتعلت فى عهد تراساموندو فى سائر أنحاء موريطانية ، وقامت فى المغرب إمارات مستقلة ، واشتد خطر هذه الثورة فى عصر هيلدريك ، وكانت العامل الأساسى فى إسقاط دولة الوندال فى المغرب .

الفصل الثاني

بلاد المغرب في العصر البيزنطي

(١)

استرجاع جستنيان لبلاد المغرب

١ ـ موقف جستنيان أمام تحدى جليمار :

لم تكن الظروف التي تولى فيها جستنيان عرش الامبراطورية البيزنطية ملائمة في ذلك الحين ، فقد كانت الامبراطورية الرومانية تجتاز فترة حرجة من تاريخها الطويل ، إذ انتزع الجرمان معظم أملاكها في الغرب في نفس الوقت الذي استفحل فيه خطر الساسانيين في الشرق ، وكان أعظم أماني جستنيان استرجاع أملاك الدولة الرومانية في الغرب ، ولهذا السبب وجد في رفض جليمار لمقترحاته لإعادة هيلدريك إلى العرش فرصة موانية للتدخل الحربي في المغرب ، لغرضين : الأول الانتقام لصديقه هيلدريك ، والثاني بسط النفوذ البيزنطي على ولاية كانت تؤلف فيما مضى جزءاً هاما من أملاك الامبراطورية الرومانية .

ولكن استرداد قطر كالمغرب كان يقتضي إعداد جيش قوي ، لمواجهة شعب بحري من الدرجة الأولى هو شعب الوندال ، ثم إن نقل هذا الجيش إلى المغرب كان لا بد أن يحدث نتائج خطيرة في الشرق حيث يتمثل خطر الفرس (١) . ومن أجل ذلك قرر الامبراطور أن يصفي حسابه مع الفرس

---

(١) Vasiliev, Histoire de l'Epmire byzantine, trad. par Brodin et Borguina, t I, Paris, 1932, p. 178

حتى يتفرغ لتحقيق هـدفه ، فاضطر إلى عقد معـاهدة للصلح سنة ٥٣٢ مع كسرى أنو شيروان بشروط فيهـــا إذلال لبيزنطة ، إذ قضت بأن يدفع الامبراطور جزية سنوية كبيرة إلى ملك الفرس . وهكذا توقفت الحرب بين الفرس والروم بعد ثلاث سنوات من معارك متواصلة (١) . وبذلك اطمأن الامبراطور إلى الجبهـــة الشرقية ، وأخذ يتطلع إلى استعادة أملاك الدولة الرومانية فى الغرب .

ولكن فكرة قيام البيزنطيين بمحاربة الوندال لم تقابل فى بلاط الامبراطور بحماس كبير ، بل على الضد من ذلك عورضت هذه الفكرة معـارضة شديدة من رجال الامبراطور المخلصين له . فقـــد كانت الهزائم التى تلاحقت على البيزنطيين فى القرن الماضى على أيدى الوندال ما تزال ماثلة فى الذاكرة ، وأكبر هذه الهزائم ، تدمير الأسطول البيزنطى بقيادة بازيليكوس فى رأس بونة (٢) وكان الوندال على الرغم من اضمحلال قوتهم ما زالوا يحتفظون بهيبتهم الحربية وسطوتهم البحرية (٣) . فليس غريبا إذن أن تقابل فكرة غزو المغرب بمعارضة شديدة فى بيزنطة ، وكان فى مقدمة من عارضها رئيس المحكمة والقائم على الخزانة الامبراطورية ، وكانا يريان أن تعبئة الجيوش وإرسالهـا إلى المغرب ، والإنفاق عليها لمدة سنوات يستنزف مالية الدولة ، كذلك كان

---

(١) رحب كسرى بهـــذا الصلح بسبب ما كان يواجهه من مشكلات فى الداخـــل (Oman, p. 69 - Lot, p. 301) . وعلى الرغم من أن هـــذه المعاهدة كانت فى صالح الفرس أكثر مما كانت فى صالح البيزنطيين ، الا أن جستنيان رأى فيها ضمانا للمحافظة على حدوده عدة سنوات .

(٢) Cambridge Medieval History, vol. I, p. 426 - Lot, p. 302

(٣) Percy Ure, op. cit. p. 23

رأى قادة الجيش ، الذى خرج من الحرب الفارسية مثخنا بالجراح ، ليزج به فى حرب أخرى أشد ضراوة وقسوة .

عقد الامبراطور مجلسا مؤلفا من وزرائه ، وكبار القساوسة ، وعظماء رجال الدولة ، وناقشهم فى عزمه على إنقاذ المغرب من المذهب الآريوسى ، وإعادة المذهب الكاثوليكي فى هذه البلاد إلى مثل ما كان عليه من قوة ، ثم الانتقام من الوندال الذين اغتصبوا بلاد المغرب من الامبراطورية الرومانية الغربية ، وساهموا فى إسقاط هذه الامبراطورية ، وهزموا جيوش الامبراطورية الشرقية عندما توجهت لحصار قرطاجنة (١) . فاعترض الوزير يوحنا الكابادوكى ، وأشار إلى صعوبة السيطرة على المغرب لقوة الوندال الحربية والبحرية (٢) . وكان الامبراطور يدفعه وقتئذ عاملان : عامل الانسياق وراء صرخات الكاثوليك الأفارقة ، وتوسلاتهم ، لتخليصهم من نير الوندال ، وعامل تقبل الأمر الواقع ، والإذعان لنصائح رجال دولته بالتخلى عن هذه المغامرة الخطيرة التى تعرف نتائجها السيئة مقدما . ولكن حدث ما لم يكن فى الحسبان ، إذ أقبل أحد الأساقفة من المشرق ، وأفضى للامبراطور بأنه رأى فى الحلم أن الله أمره بمقابلة الامبراطور وحثه على إنقاذ مسيحيي المغرب من الغاشمين ، وأبلغه أن الله سيؤيده فى ذلك وينصره نصراً عزيزاً . ثم تبع ذلك وفود عدد من الأساقفة الكاثوليك إلى القسطنطينية وتحريضهم للامبراطور على غزو المغرب (٣) . وكان ذلك كفيلا

(١) المغرب الاسلامى ج ١ ص ٤٧

(٢) Cambridge Medievial History, vol. II, p. 12 - Percy Ure, p. 24 - Julien, p. 256

(٣) Cambridge Medievial History, vol. II, p. 12

باقتناع الامبراطور بسياسة الحرب وضربه عرض الحائط بنصائح الخبراء والفنيين . وهكذا تغلبت العاطفة على الواقعية والمنطق ، وبدأ الامبراطور ينظم حملة كبرى عهد بقيادتها إلى قائده المظفر بليزاريوس ، وكان جستنيان يثق به ثقة عمياء لما أبداه من مقدرة حربية فائقة أثناء الحروب الفارسية ، وفى ثورة القسطنطينية سنة ٥٣٢ المعروفة باسم ثورة نيقا (١) .

ثم وقع حادث يعتبر عاملا مساعداً لنجاح مشروع جستنيان ، وهو قيام أهالى طرابلس وجزيرة سردانية بالثورة على الوندال ، واشتغال جلمار بقمع هاتين الثورتين على حساب قوة جيشه(٢). وقبل أن نخوض فى تفاصيل حملة بليزاريوس ينبغى أن نستعرض قوتي البيزنطيين والوندال . كان الجيش البيزنطى يتألف من عشرة آلاف من المشاة ، وخمسة أو ستة آلاف من الفرسان الذين تمرسوا أثناء الحروب الفارسية ، وأعدت لنقلهم نحو خمسمائة سفينة تحرسها ٩٢ درومونز (طريدة سريعة) (٣)، واشتركت فى هذه الحملة فرقتان إحداهما من الهون عدتها ستمائة مقاتل ، والأخرى من الهرول عدتها أربعمائة (٤) . أما قوة الوندال فكانت لا تتجاوز ثلاثين ألف مقاتل ، قليلى

---

(١) Cambridge Medieval History, vol. II. p. 8 - Charles Diehl, Histoire de l'Empire byzantine, Paris 1934, - p. 26 - Ch. Diehl & Marçais, histoire du moyen age, t. III, p.64 - Oman, p. 71- نشر ، ص ٤٧

(٢) A. Vasiliev , op. cit. t. I , p. 175

(٣) Pellegrin, p. 68 - Cambridge Medieval History, vol. II, p. 12 - Lot, p. 302 - Percy Ure, p. 24 - Ch. Diehl, Histoire de l'Empire byzantine , p. 27 - Julien , p. 257

(٤) Julien ; p. 257

الخبرة على الحروب بعد سنين طويلة من الرخاوة والاستغراق فى الترف ، استقطع منها نحو خمسة آلاف من زهرة الجيش الوندالى ، حملتهم ١٢٠ سفينة من الأسطول الوندالى ، وذلك لمواجهة ثورة أهل سردانية بزعامة جوداس القوطى ، وكان جيش الوندال منقسما على نفسه ، ففريق يؤيد هيلدريك ، وفريق يؤيد جليمار ، كما أن معظم الشعب المغربي لم يكن يساند الوندال ، بل على الضد من ذلك كان يرحب بدخول البيزنطيين . يضاف إلى كل ذلك أن الوندال خسروا حلفاءهم القوط الشرقيين، الذين وقفوا من الوندال موقفا عدائيا منذ قتل هيلدريك أمالافريد .

وهكذا كانت الظروف فى صالح البيزنطيين .

ب ـ تحرك القوات البيزنطية نحو المغرب :

أبحرت القوات البيزنطية بقيادة بليزاريوس من القسطنطينية فى ٢٢ يونيو سنة ٥٣٣ م بعد أن باركها ابيفانيوس بطريرك القسطنطينية ، ورافقت أنطونينا زوجها بليزاريوس فى هذه الحملة ، كما صحبه أيضا صولومون القائد الأعلى للجيش البيزنطى ، وهو شخصية من الشخصيات الكبرى التى ستلعب دورا هاما فى تاريخ العصر البيزنطى ، وصحبه أيضا كاتبه المؤرخ بروكوبيوس الذى ترك لنا وصفا كاملا للحملة (١) .

أظهر بليزاريوس ، أثناء الرحلة البحرية الطويلة التى قطعها الأسطول البيزنطى فى البحر ، واستغرقت زهاء ثلاثة شهور (٢) ، حزما وصرامة فى إدارة شئون عسكره ؛ ويروى بروكوبيوس عن ذلك أمثلة كثيرة ، فنى

---

(١) Percy Ure, p. 24 - Julien, p. 257

(٢) Percy Ure, p. 26

ايدوس الواقعة على ممر الدردنيل ، عاقب بلزاريوس جنديين من الهون كانا قد سكرا ، واعتديا على زميل لهما ، فقتلاه فى مشاحنة ، فأمر باعدامهما « بالخازوق » على قمة تل قريب من تلك المدينة . ثم خطب فى عساكره مبينا مساوىء السكر والعربدة وما يترتب عليهما من أعمال العنف . وكان لهذه الخطبة أثرها الكبير فى نفوسهم بحيث امتنعوا بعد ذلك عن تعاطى الخمور خوفا على أنفسهم من عقاب قائدهم . ثم أبحرت الحملة من الدردنيل مارة ببحر إيجة ، ثم دارت السفن حول شبه جزيرة المورة ، فمرت من ماتابان إلى ميثون ، وهنا ركدت الرياح ، وتوقفت السفن على الشاطىء . وحدث أن انتشر وباء بين صفوف العسكر بسبب تعفن الخبز ، ولكن بلزاريوس عالج الموقف بأن شحن السفن بحمولة من الخبز المحلى . ثم ظهرت مشكلة أخرى أثناء سيرهم نحو صقلية ، فقد فسدت المياه فى السفن ، ولكن المياه التى خزنتها أنطونينا فى قدور الزجاج ودفنتها فى الرمال داخل غرفة مظلمة باحدى السفن ، أنقذت الموقف . ويحملنا بروكوبيوس إلى جزيرة صقلية التى كانت تعتبر أهم قاعدة للسيطرة البحرية فى البحر المتوسط ، وعندما أرسى بها بلزاريوس كان مرتبكا لا يعرف أين ينزل بقواته على الساحل الإفريقى ، ويذكر بروكوبيوس أنه (أى بروكوبيوس) تعرف فى سيراقوصة على صديق قديم كان ملما بشؤون الوندال ، فعرف منه أن الوندال أرسلوا جزءاً من جيوشهم لإخماد ثورة سردانية ، وعن طريق هذا الصديق اتصل بروكوبيوس بخادم له كان قد قدم منذ عهد حديث من قرطاجنة ، فاصطحبه معه ، وبفضل هذا الرجل أبحرت الحملة من صقلية ، ومرت بجزيرتي جوزو ومالطه وأرست السفن على الشاطىء التونسى فى أوائل شهر سبتمبر ، فى موضع يقال له رأس كبوديا

Caput Vada ويقع على بعد نحو مائة ك. م. جنوبي سوسه (١) . وتم نزول البيزنطيين فى سكون ، وكان نزولهم مفاجأة للوندال ، فالملك كان غائبا فى نوميديا ، وأعظم كتائبهم كانت تحارب فى سردانية (٢).

ج ـ استرجاع البيزنطيين للمغرب :

ما كادت سفن بليزاريوس ترسو على الساحل التونسى حتى أمر قواته بعدم التعرض بالأذى للسكان ، وتجنب تخريب العمران ، وانتساف المزارع ، وكان يهدف من وراء ذلك كسب محبة الأفارقة والبربر الذين استغاثوا بالامبراطور ، وتوسلوا إليه أن يخلصهم من نير الوندال . ويبدو أن بعض جنوده خالفوا هذا الأمر ، فعاقبهم عقابا صارما ليكونوا عبرة وعظة لغيرهم ممن تسول لهم أنفسهم العبث بخطته (٣) .

نزلت القوات البيزنطية على الساحل (أنظر خريطة رقم ٢) ، وزحفت فرقة الفرسان نحو سوسة ، يليهم المشاة ، وتكتنفهم إلى اليسار كتائب الهون ، بينما تتبعت السفن الطريق الساحلى حتى تكون على أهبة الاستعداد للتدخل فى حالة اكتشاف كمين ينصبه الوندال (٤) .

وما كادت الأنباء تصل إلى جليمار بنزول الجيش البيزنطى بالقرب من سوسة Hadrumetum وزحفه نحو هذه المدينة ، حتى أمر باعدام هيلدريك

(١) Cambridge Medievial History, vol. II, p. 12 - Percy Ure, p. 26

(٢) Oman , p. 77

(٣) Percy Ure , p. 28

(٤) Julien , p. 257

وأنصاره (١) . وتابعت القوات البيزنطية زحفها حتى وصلت إلى سوسة ثم إلى جراس (سيدى خليفة) . وفى هذه الأثناء تجنب الجيش البيزنطى أى احتكاك بينه وبين الأهالى ، فلم ينهب العسكر أى شىء خشية أن يثيروا عليهم نقمة السكان . وكان لهذا التصرف الحكيم من جانب بليزاريوس أثر كبير فى ازدياد ثقة السكان بالبيزنطيين ، فزودوهم بما كان يلزمهم من أقوات . وفى جراس تمكن الجند من تعويض مافاتهم نهبه منذ نزولهم بأرض المغرب ، وذلك بأخذ كل مااشتهته أنفسهم من فواكه البساتين الملكية (٢) .

وصرف جليمار مايقرب من أحد عشرة يوما لحشد قوات كافية لمنازلة بليزاريوس ، فى الوقت الذى وصلت فيه طلائع البيزنطيين إلى مسافة تبعد نحو عشرة أميال من قرطاجنة (٣) . واستقبل الشعب المغربى البيزنطيين استقبالا حافلا خاصة عندما أعلن قائدهم بليزاريوس أنه إنما قدم إلى المغرب لتخليص الأهالى من نيرالوندال وتعسفهم ، وضرب جنوده المثل الأعلى فى احترام مشاعرهم . وكانت خطة الوندال تقضى بخروج أماتاس أخى جليمار من قرطاجنة فى الوقت المناسب لإيقاف تقدم البيزنطيين ، والترصد لهم فى شعاب آد ديسيام ، وتبعد نحو ١٥ ك. م. جنوب غربى قرطاجنة ، ثم ينقض جيباموندو ابن أخى الملك على ميسرة الجيش البيزنطى

---

(١) Oman, p. 77 - Percy Ure, p. 28 - Julien, p. 258

(٢) Julien, p. 258

(٣) Oman, p. 77

بقوة تتألف من ألفى مقاتل ، ويتولى جليمار نفسه ضرب مؤخرة هذا الجيش بمعظم كتائب الجيش الوندالى . وعلى الرغم من إحكام هذه الخطة ودقتها ، والتأكد من نجاحها ، فان خطئا واحدا من جانب أماتاس كان سببا فى فشلها (١) .

تقدمت القوات البيزنطية تحت ستار من الحذر الشديد خشية أن تباغتها جيوش الوندال ، وأرسل بليزاريوس فرقة استطلاعية من الفرسان بقيادة يوحنا الأرمنى . وفى نفس الوقت تقدم أماتاس مع عدد من الفرسان لاستكشاف مواقع البيزنطيين ، حتى أنه ابتعد كثيرا عن بقية الجيش الوندالى بمسافة يستغرق قطعها أربع ساعات . ولم يلبث أن اصطدم بفرقة يوحنا الأرمنى ، وكان الموقف يحتم على أماتاس أن يقاتل متراجعا حتى يتمكن من إنذار قواته فى الوقت المناسب ، ولكنه بدلا من ذلك التحم مع أعدائه فى معركة غير متكافئة لقى فيها حتفه ، وفوجئت قوات الوندال بفلول فرسان أماتاس يقبلون عليهم وفى أعقابهم فرسان يوحنا الأرمنى تطاردهم . ولم يكن لدى الوندال الوقت الكافى لإعداد أنفسهم للقتال ، فلم تلبث سيوف البيزنطيين أن مزقت صفوفهم (٢) .

وفى أثناء ذلك اشتبكت قوات جيباموندو مع فرقة الهون البيزنطية بالقرب من سبخة السجومى ، وعلى الرغم من كثرة الوندال العددية فقد انهزموا هزيمة مخزية ، وأبادهم الهون إبادة تامة .

---

(١) Julien, p. 258

(٢) Ibid.

أما جليمار فقد مضى بمعظم قوات الجيش الوندالى ، وهاجم قلب الجيش البيزنطى ومؤخرته وفقـا للخطة المرسومة ، وتمكن جليمار من اختراق صفوف البيزنطيين ، وتحرج موقف بليزاريوس تحرجا بالغـا . وبدلا من أن يواصل جليمار عملياته الحربية ضد فرقة يوحنا الأرمنى لإحراز النصر النهائى ، فانه انهار تماما عندما شاهد جثة أخيه أماتاس ، فوقف باكيا فـترة من الوقت كانت كافية لإعطاء بليزاريوس الفرصة لتنظيم صفوفه من جديد ، والقيام بدوره بالهجوم على الوندال فى آد ديسيمام Ad Decimum . وفوجىء الوندال بهذا الهجوم ، وظلوا يقاتلون البيزنطيين حتى أقبل المساء، وإذا بفرقة يوحنا الأرمنى وفرقة الهون تقبلان على غير انتظار فتقويان صفوف البيزنطيين ، وتكتل هؤلاء على الجيش الوندالى وهزموه هزيمـة نكراء (٣) فر فله على أثرها إلى نوميديا ، بينما دخل بليزاريوس وأجناده بعدها مدينة قرطاجنة فاتحين فى ١٥ سبتمبر سنة ٥٣٣ .

استدعى جليمار أخاه تزازون من سردانية ، لتدعيم الجيش الوندالى الذى انكسر معنويا أكثر من انكساره ماديا . وكان بليزاريوس قـد اشتغل بعـد دخوله قرطاجنة بترميم أسوارها ، قبل أن يستأنف فتوحاته فى المغرب . وما إن انتظمت صفوف الوندال من جديد، فى منتصف ديسمبر سنة ٥٣٣ ، حتى بادر جليمار بالهجوم على الجيش البيزنطى بالقرب من قرطاجنة بقصد استرجاعها ، والتقى الجيشان فى موضع يقال له تريكاماروم Tricamarum ويبعد نحو عشرين ميلا عن المدينة . وكانت هـذه المعركة أعنف بكثير من

---

(١) Lot, p. 302 - Oman, p. 78 - Julien, p. 259

المعركة الأولى ، وفيها انهزم البيزنطيون ثلاث مرات ، ولكنهم كانوا فى كل مرة منها يتماسكون لثبات قائدهم بليزاريوس وأخيراً نجح الفرسان البيزنطيون فى اختراق صفوف الوندال ، وتمكنوا من قتل تزازون أخى الملك . وأمام هذا المشهد المفجع ، تخاذل جليمار تخاذلا أنساه واجبه كقائد للجيش، وانهار انهياراً تاما، فركب جواده وانطلق به خارج ميدان المعركة، بينما واصل رجاله القتال متراجعين إلى أن قطع عليهم البيزنطيون خط الرجعة وأبادوهم فى هذه المعركة (١) . أما جليمار فقد اعتصم بأعالى جبال نوميديا فى موضع يعرف باسم مونت بابو Mont Pappua (٢) ، حيث أقام عند بعض أنصاره من البربر. وذاق جليمار مر العيش أثناء إقامته هناك بسبب قلة القوت فى هذه المنطقة الجبلية وشدة البرد . وكانت قوات بليزاريوس قد جاءت فى فى أثره بقيادة فاراس الهريولى ، وحاصرته . وحاول فاراس إغراء جليمار بالتسليم، وذكر له أنه يعتز على الرغم من نبل أصله بكونه خادما للامبراطور، ولكن جليمار رفض التسليم ، وتوسل إلى فاراس أن يرسل إليه ثلاثة أشياء: قيثارة ، ورغيف من الخبز ، وقطعة من الاسفنج . أما الرغيف فلأنه لم يسبق له أن شاهد رغيفا مخبوزا بهذا الجبل ، وأما قطعة الاسفنج ، فلأن عينيه كانتا متورمتين، وأما القيثارة فلأنه كتب قصيدة يرثي بها لحال نفسه ، ويأسف على ما أصابه من بؤس ، وهو لذلك يرغب فى تلحينها على أوتار القيثارة ، إذ كان بارعا فى هذا الفن . وأمام هذا التوسل لم يجد

---

(١) Oman, p. 79 - Percy Ure, p. 29 - Julien, p. 259

(٢) Cambridge Medieval History, p. 13

فاراس بدا من إجابة مطلبه [١]. ثم حدث أن شاهد جليمار بأعلى الجبل طفلين قد أضناهما الجوع يقتتلان من أجل لقمة من الخبز ، فلم يحتمل جليمار هذا المشهد وآثر أن يستسلم لأعدائه على أن يبقى فى هذا العذاب ويذكر بروكوبيوس أنه عندما أحضر أخيرا فى أسره أمام بليزاريوس انفجر يضحك ضحكا متواصلا ، حتى ظن الحاضرون أنه فقد السيطرة على عقله (٢) . وكانت قوات البيزنطيين قد تفرقت فى أنحاء المغرب لفتحه كله ، كما أرسلت بعض الفرق إلى جزر سردانية وقورشقة والبليار ، وبعضها إلى شرشال وطنجة . وتم للبيزنطيين على هذا النحو استرجاع معظم بلاد المغرب والقضاء نهائيا على دولة الوندال . إلا أن جيوش الامبراطورية لم تنجح فى التغلغل إلى داخل مورطانية القيصرية والطنجية. وعاد بليزاريوس إلى القسطنطينية فى موكب هائل من أسرى الوندال ، وفى مقدمتهم الملك جليمار ، وذلك فى ربيع سنة ٥٣٤ . وكانت سفنه محملة بكل روائع وتحف القصر الملكى فى قرطاجنة ، وتضم الغنائم التى كان قد جمعها ملوك الوندال طوال قرن من الزمان من غاراتهم الموفقة على رومة وعلى جزر البحر المتوسط . وقد قيل إن الامبراطور تعرف بين تلك التحف التى حملها إليه بليزاريوس على حسك (شمعدان) ذى فروع سبع ، وكان من بين الكنوز التى نهبها طيطس قيصر من معبد بيت المقدس، وحملها إلى رومة ،وظل برومة إلى أن أغار جنصريك عليها واستولى على هذا الحسك . ولقد أمر جستنيان باعادته إلى موضعه من

(١) Percy Ure, p. 30

(٢) Ibid.

كنيسة الضريح المقدس ببيت المقدس (١) . ولما أحضر جليمار أمامه أبدى الأسف على ما فرط منه من غرور كاذب ، وقد عامله الامبراطور معاملة كريمة ، فمنحه إقطاعا ، وأذن له بالاقامة فى جالاتيا مع أسرته . ولما عرض عليه أن ينبذ الآريوسية ليحظى بألقـــاب الشرف والسؤدد رفض ذلك باباء وشمم .

(١) Oman, p. 312

(٢)

المشاكل التى واجهها البيزنطيون فى المغرب

ا ـ ثورات البربر :

باستسلام جليمار سقطت دولة الوندال ، وأصبح المغرب تابعا بطبيعة الحال للامبراطورية البيزنطية . ولكن فتحا يتم بهذه السرعة الزمنية لا يمكن أن تكتب له أسباب الدوام فهو فتح وهمى غير حقيقى ، لأن بليزاريوس أغفل أمرا هاما كان لابد أن يحسب له حسابا كبيرا ، وهو سكان البلاد ، الذين ساعدوا من قبل على إدخال الوندال ، وهم أنفسهم الذين ساعدوا على إسقاطهم ، وهم الذين سيساعدون فيما بعد على إسقاط البيزنطيين . ولم يكد يمضى عامان على احتلال البيزنطيين للمغرب حتى احتدمت فى البلاد نار الثورة وظلت بلاد المغرب فيما بين عامى ٥٣٥، ٥٤٨ شعلة تضطرم، وقد بذل أفضل قواد الامبراطوريه (بليزاريوس وجرمانوس وصولومون وتروجليتا) جهودهم عبثا ، خلال خمس وعشرين سنة لإعادة السلام فى ربوع البلاد ، ولما نجحوا فى ذلك أخيرا فى منتصف القرن السادس ، كانت الولايات المغربية قد هجرها سكانها وشملها الخراب [1] . ونلاحظ أن كل من بليزاريوس، منذ وطئت قوات البيزنطيين أرض المغرب ، وجليمار، حاول أن يجتذب إليه سكان البلاد بكافة الوسائل ، ومع أنه نجح فى كسب عدد كبير الفلاحين الأفارقة إلى جانبه ، بفضل ما كان يغدقه عليهم من هبات تزيد أو تنقص بقدر ما كانوا يقتلون من الجنود البيزنطيين، إلا أنه أخفق بالرغم من

---

(١) Lot, p. 312

ذلك فى ضمان مقدار المساعدة الفعلية التى يمكن أن يقدمها له رؤساء القبائل. ويذكر بروكوبيوس أن هؤلاء الرؤساء أسرعوا بتقديم ولائهم وحلفهم لبليزاريوس عن طريق الرهائن ، وفى مقابل ذلك أكد لهم بليزاريوس سلطاتهم بأن أرسل إلى كل منهم صولجانا من الفضة المذهبة ، وتاجا من الفضة يزدان بعصائب بارزة ، ومعطفا أبيض له مشبك من الذهب ، وسروالا أبيض وحذاء موشى بالذهب ، هذا بالاضافة إلى مبالغ كبيرة من المال غمرهم بها . ومع ذلك ، اكتفى هؤلاء الرؤساء بأن وعدوا بنصرته بعد أن ينجلى الموقف (١)

ونجحت سياسة بليزاريوس نجاحا لم يكن فى الحسبان ، وقدم إليه البربر بعد استيلائه على قرطاجنة فروض الطاعة والولاء ، فاطمأن إلى جانبهم ، ووثق فى انضوائهم إليه، وما كاد يغادر المغرب إلى القسطنطينية حتى أشعل بربر بيزاسين ونوميديا ، بقيادة كوتزيناس Coutzinas وإيفيسداياس Ifisdaias نار الثورة على البيزنطيين (٢). ومنذ ذلك الحين لم يذق البيزنطيون طعم الراحة ، وكان جيشهم قليل الدربة على حرب البربر ، ولكنه كان مع ذلك أفضل فى هذا النوع من الحروب من جيش الوندال ، إذ كان يضم قواسين ورماة السهام حذقوا هذا الفن الحربى من كثرة احتكاكهم بالفرس .

وإلى جانب هذا الخطر الذى تمثله قبائل البربر الحضر بنوميديا ، كان

(١) Julien, p. 263

(٢) Pellegrin, p. 90

هنـاك خطرا آخر يتمثل فى قبـائل البربر البـــدو ، الضاربين فى الصحراء ، وخاصة فى إقليم طرابلس ، فقد تعددت غاراتهم منذ عصر صولومون(١) .

وعلى هـذا النحو كان سلطان البيزنطيين فى المغرب لا يتجاوز حـدود إفريقية القنصلية وبيزاسين وسواحل إقليم طرابلس . أما نفوذهم على سائر أنحاء المغرب فقـد كان غير ثابت ، إذ كانت قبائل البربر فى الأطراف تحيا حياة شبه مستقلة ، فكانت تتنصل من التبعية لأى سلطان أجنبى .

ب ـ النزاع الدينى :

حدثت فى أيام جان تروجليتا Jean Troglita ، الحاكم البيزنطى على المغرب فتنة تعرف بالفصول الثلاثة Trois Chapîtres ، دفعت جانبا كبيرا من الكنيسة الإفريقية ضد بيزنطة . فقـــد كان مجمع خلقدونية قد أصدر قبـل ذلك بقرن (أى سـنة ٤٥١) قرارا بادانة مذهب نسطورس أسقف القسطنطينية الذى كان يقول بأن للمسيح طبيعتين : إلهية وبشرية ، والذى يقول أيضا بأن العذراء مريم كانت أما للمسيح باعتباره بشرا لا إلها . كذلك أدان مجمع خلقدونية مذهب الطبيعة الإلهية الواحدة(٢) . ولم تنجـح قرارات مجمـع خلقدونيـة فى فض الـنزاع واستقرار السلام ، وظـل النزاع الدينى قائمـا حتى أيام جستنيان . وكان

(١) Julien, p. 264

(٢) Julien, p. 270

جستنيان يرمى إلى السيطرة على شؤون الدولة والكنيسة معـا ، بمعنى أن يجمع بين كونه امبراطورا وبابا شرقيا . لذلك عمل على إيجاد وحـدة دينية فى الامبراطورية البيزنطية ، أى توحيد جميــــع رعايا العالم البيزنطى فى ظل كنيسة واحدة يشرف هو عليهـا (١) ، وفى سبيل ذلك حارب الملحدين ، وأمر سنة ٥٢٩ باغلاق جامعـة أثينا حيث كان يعمل بهـا فى الخفاء بعض الأساتذة الوثنيين (٢) . غير أن أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة المعروفين باسم المونوفيزيت،انشقوا فيما بينهم على أيامه ، وأرادت الامبراطورة تيودورا التى كانت تميل إلى المذهب المونوفيزيق أن توحد بينهم ، فأمرت عن طريق زوجها بتحريم ثلاثة نصوص أو رسائل كان قد كتبها فقهاء ثلاثة هم : تيودور دى موبوسق ، وتيودورى دى سير ، وإيباس دى إيديسيا ، لم يكن مجمع خلقدونية قد أقر إداناتها. فصدر فى سنة ٥٤٤ مرسوم امبراطورى أدان فيه هؤلاء الفقهاء الثلاثة ، ويعرف هذا المرسوم باسم الفصول الثلاثة . وعندما عارض البابا فيجيليوس (٣) هذا القرار ، سيق إلى القسطنطينية سنة ٥٤٧ ، ولم يلبث تحت الضغط الشديد أن انثنى أمام رغبة جستنيان وتيودورا . وفى سنة ٥٤٨ ضم صوته إلى أصوات البطاركة الشرقيين الأربعة، وأصدر إدانة للفصول الثلاثة تعرف باسم Judicatum (٤) ، وأعلنت المسيحية فى الغرب احتجاجها الشديد لهذا القرار ، وكان صداه عميقا فى المغرب، فتولى

---

(١) سعيد عاشور ، أوربا فى العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٩٤ .

(٢) Ch. Diehl, Histoire de l' Empire byzantine, p. 40

(٣) كان الامبراطور جستنيان قد نصبه بعد أن عزل البابا سيلفريوس .

(٤) Vasiliev, Histoire, t. I, p 201

المعارضة الأسقف بونتيانوس والعالم فراندوس القرطاجنى ، وانعقد مجلس دينى فى قرطاجنه وأصدر قرارا بحرمان البابا من الايمان المشترك إلى أن يعلن توبته (١) .

وأمام هـذه المعارضة الشديدة بدأ البـابا فيجيليوس يتردد فى قراره ، وأخـيرا سحب قرار الإدانة الذى أصدره من قبـل فى سنة ٥٤٨ . وفى هـذه الظروف قرر جستنيان عقـد المجمع المسكونى الخامس . وعنـدما انعقد المجمع فى ٥ مايو سنة ٥٥٣ بحضور الامبراطور ، اعتـذر البـابا عن الحضور . وقام أعضاء المجمع بدراسة أبحاث الفقهاء الثلاثة ، وانتهوا أخيرا باقرار سياسة جستنيان الدينية ، وإدانة تيودور أسقف موبوسق ، كما أدان أبحاث تيودورى وإيباس (٢) . وعندئذ بدأ جستنيان يمارس سياسة تقوم على اضطهاد من وقف ضد إدانته للفصول الثلاثة . وعاقب البابا فيجيليوس بنفيه فى إحدى جزر بحر مرمرة ، ولما وافق البابا أخيرا على توقيع قرار الإدانة أذن له جستنيان بالعودة إلى رومة ، ولكنه توفى أثناء عودته ، فى سيراقوصة .

وكان رد فعـل قرارات المجمع المسكونى عنيفا ، فقـد أعلن الأسقف فاكوندوس دى هرمين بالقسطنطينية بكتاباته وخطبه حربا شعواء على الامبراطور، ولم يلبث أن قدم لتأييده عدد منقساوسة قرطاجنة . ولم يتردد

---

(١) Julien, p. 270

(٢) Cambridge Medievial History, Vol. II, p.46 et 59.-Percy Ure, p. 159 -.Ch. Diehl, histoire de l'Empire byzantine, p. 40 - Diehl, Histoire du moyen âge, p.109- سعيد عاشور ص ٩٠

جستنيان فى استخدام العنف ، فاستدعى رؤســـاء أسقفية قرطاجنة إلى القسطنطينية ، ووضع حـدا لمقاومتهم بفضل سياسته القائمـة على الترغيب والترهيب ، وأبدل المتزمتين منهم برجال مخلصين له . ولم تلبث إفريقية التى كانت قد أدانت البابا الحانث أن جرفها التيار ، ونتج عن ذلك تشدق البابا بلاجيوس سنة ٥٦٠ باجماع الآراء على إدانة الفصول الثلاثة (١) .

(١) Cambridge Medievial History, p. 48-Julien, pp. 270, 571.

(٣)
ولاة بيزنطة فى المغرب فى عصر جستنيان

ا ـ صولومون (٥٣٤ ـ ٥٣٦)

قبل أن يعود بليزاريوس إلى القسطنطينية . عهد بقيادة القوات البيزنطية فى المغرب إلى صولومون الخصى ، وكان قائدا من أعظم قواده ، وقد ترك له بليزاريوس جيشا ، تضخم بعد ذلك عندما أرسل اليه الامبراطور جستنيان مددا ، فأصبح الجيش البيزنطى يضم نحو ١٨ ألف مقاتل . وقد واجـــه صولومون كثيرا من الصعاب على أثر توليته القيـادة العامة ، فقبائل البربر كانت تجتاح نوميديا ، تحت قيادة إيابداس Iabdas ملك جبـل أوراس ، كما قام البدو فى إقليم بزاسين بقيادة كوتزيناس Cutzinas وثلاثة آخرين من زعماء البربر بالإغارة على إفريقية ، وتمكنوا من إبادة فرقة فرسان الهون . فاضطر صولومون إلى الاشتباك معهم فى حرب طاحنة فى موضع يقال له مامة أو ممس أو ساقية ممس Mamma ويقع بين سبيبة والقيروان فى شعاب جبال تبسا ، انتهت بهزيمة البدو هزيمة شنعاء(١) ، إذ تمكن البيزنطيون من اختراق حلقة الجمال التى يتحصن وراءها البدو ، ثم أذرعوا فيهم بالسيوف حتى قيل أنهم قتلوا نحو عشرة آلاف من البربر ، وسبوا عددا كبيرا من النساء(٢) . ومع ذلك فان هـذه الهزيمة التى منى بهـا البدو لم تمنعهم من جمع شملهم من جديد ، والإغارة على إقليم بزاسين . ولم يجد صولومون بدا من

---

(١) Julien, p. 265

(٢) Julien, p. 265

مقاتلتهم ، فأحدق بهم جنوبي بيزاسين ، قريبا من حدود نوميديا ، وانتصر عليهم انتصارا حاسما على سفح جبـل بورجان فى سنة ٥٣٥ ، وقيـل أن عدد قتلى البدو بلغ خمسين ألفا(١) .

وما إن انتهى صولومون من إخماد ثورة البدو حتى أرسل فرقة من جيشه لمهاجمة إيابداس فى أوراس . وكانت هذه الفرقة تضم جماعة من البربر الموالين للبيزنطيين يتزعمهم رجلان هما ماسوناس Massonas وأورتاياس Ortaias كانا خصمين لدودين لإيابداس . ويبدو أن صولومون تشكك فى ولاء هذين الزعيمين ، ولم يثق فيهما فى هذه المهمة ، فأمر بارسال مدد لنجدة الفرقة . وقبل أن يغادر المـدد المطلوب مدينة قرطاجنة حدث تمرد فى صفوف الجيش البيزنطى .

وكان الجيش البيزنطى تنقصه الوحدة والنظام إذ كان يتألف من أخلاط غير منظمة وفئات مختلفة الأجناس(٢) ، وكان صولومون قائدا فظا يعامل جنده معـاملة الرقيق ، كذلك كرهه جنوده وحقد عليـه ضباطه . وكان لايدفع لعسكره مرتباتهم مما حملهم على نهب الغنائم ، وعلى الإغارة على المزارع باسم الامبراطور .

واقترنت حركة التمرد فى الجيش بثورة قام بها الأهالى ، إذ كانوا يئنون من الضرائب الثقيلة التى كان يفرضها عليهم الحاكم الرومانى ، مستعملا فى جبايتها كل وسائل العنف . فزاد الاضطراب شدة ، وأدى ذلك فى النهاية إلى قيام الأهالى بهذه الثورة العارمة سنة ٥٣٦ . وكان صولومون وقت قيام

---

(١) Pellegrin, p. 90 - Julien, Ibid.

(٢) Pellegrin, p. 90 - Julien, p. 265

التمرد والثورة فى بازيليكية قرطاجنة يحتفل بعيد الفصح ، فاضطر إلى الفرار إلى صقلية ، واستنجد هناك ببليزاريوس .

نصب الثوار على أنفسهم ضابطا منهم كان معروفا بشجاعته الفائقة يعرف باسم استوزاس Stozas ، ونجح هذا الثائر الفذ فى اجتذاب جميع ضحايا البيزنطيين : من جنود صولومون ، ومن عساكر الوندال الذين فروا من المشرق ، ومن بربر نوميديا(١) ، وكون جيشا من هؤلاء عدته ثمانية آلاف مقاتل، وأقبل بهذا الجيش لضرب الحصار على قرطاجنة . أسرع بليزاريوس بالمجىء إلى قرطاجنة . وتمكن بفضل وجوده من أن يحبط هجوما شنه المتمردون ، على قرطاجنة . ولم يكن معه عند وصوله إلى هذه المدينة سوى مائة من الجنود ، انضموا إلى القوة الباقية على ولائها لبيزنطة ، وكانت هيبة بليزاريوس عظيمة لدرجة أن المتمردين عندما علموا بقدومه إلى أرض إفريقية ولوا هاربين إلى بولارجيا ، فترصدهم بليزاريوس عند مجاز الباب (ممبراسا) على وادى مجردة حيث هزمهم هزيمة نكراء ، وقضى على معظمهم(٢)، وفر استوزاس على أثر هزيمته مع فل جيشه إلى نوميديا حيث اعتصم بجبالها ، ولم يتمكن بليزاريوس من مطاردته بسبب قلة إمكاناته وضيق وقته . وقبل أن يعود إلى صقلية، أمر باعتقال صولومون ، وقلد على القيادة العليا للجيش البيزنطى ضابطين كبيرين هما الديجر Ildiger وتيودور الكابادوكى Théodore de Capadoce . أما صولومون فقد أرسله إلى القسطنطينية للتحقيق معه (٣) .

---

(١) Pellegrin, p. 90 - Julien, p. 266

(٢) Cambridge Medievial History, vol. 11, p. 13 - Julien, p. 266.

(٣) Pellegrin, p. 91

وازداد الموقف سوءا على أثر تمرد الجند مرة ثانية على ضباطهم ، وكان لابد لجستنيان من وضع حد لهذه الثورة ، فأسرع بتولية ابن عم له يدعى النبيل جرمانوس على القيادة العامة للجيش بافريقية ، ومنحه سلطات استثنائية لمواجهة الموقف[1] .

ب ـ ولاية جرمانوس (٥٣٦ ـ ٥٣٩)

كان يتمتع بشهرة حربية واسعة ، ولذلك وقع عليه اختيار جستنيان للقضاء على حركة التمرد فى الجيش . وكان على جرمانوس أن يقوم أول كل شىء بتهدئة خواطر الجنود ، فخفف القيود عنهم ، واستنكر السياسة الوحشية التى جرى عليها صولومون ، ونصب نفسه حاميا لجنوده ، ووعد الثوار من البربر بالرفق فى معاملته لهم ، كما وعد جنوده بدفع ماتأخر من مرتباتهم ، بما فى ذلك ما اقتطع منها أثناء حركة التمرد : ونجحت سياسته نجاحا لم يكن فى الحسبان . وهكذا قضى على حركة التمرد فى صفوف الجيش ولم يبق أمامه سوى استوزاس الذى لم يجد أمامه بعد أن تفكك جيشه بعودة الجند إلى ثكناتهم إلا استخدام عنصر المفاجأة فى الاستيلاء على قرطاجنة . ولكنه فشل فى محاولته ، واشتبكت قواته مع جيش جرمانوس فى موقعة دارت فى سيلاس فاتارى Cellas Vatari بنوميديا ، وكان لامتناع إيابداس وأوتاياس عن مساعدة استوزاس أثر كبير فى تحول مصير المعركة إلى صالح جرمانوس، وانتهى الأمر بانسحاب استوزاس وجماعة من الوندال إلى موريطانية حيث تزوج إبنة أحد زعماء البربر[2] .

(١) Julien, p. 266

(٢) Ibid. p. 266

ويبدو أن جرمانوس لم يف بوعوده للعسكر البيزنطى ، وتبين لهم أنه خدعهم ، ونجح ماكسيمين Maximin فى إثارتهم من جديد بقرطاجنة، ولكن جرمانوس استطاع أن يقمع الحركة قبل أن يستفحل خطرها ، وشنق مثيرها ، ومدبرها .

ورأى جستنيان أن جرمانوس قد أدى مهمته ، فأعاد صولومون إلى ولاية المغرب للمرة الثانية ، على الرغم من اعتباره المسؤول الأول عن الفوضى والاضطرابات التى احتدمت فى ولايته فى إفريقية .

ج ـ ولاية صولومون الثانية (٥٣٩ ـ ٥٤٤)

عزم صولومون هذه المرة على القضاء نهائيا على أعدائه الأبديين وهم جماعة البربر المحتشدين بجبل أوراس ، فخرج فى سنة ٥٤٠ على رأس جيش كثيف وضرب معسكره فى سفح هذا الجبل بالقرب من نهر أبيجاس Abigas(١) (المعروف اليوم بوادى بورغال) ، فمن هذا الجبل كان برير نوميديا وبيزاسين يشنون هجماتهم ويبثون غاراتهم على قرطاجنة . ولم تلبث قوات صولومون أن اشتبكت مع إيابداس فى معركة عنيفة انتهت بهزيمة إيابداس ، وفراره إلى مورطانية(٢) . وسار صولومون عقب ذلك مطاردا فلول إيابداس فى الجبال وتمكن من تدمير تحصينات طومار المنيعة الواقعة بأعلى قمم أوراس . وأخيرا هاجم صخرة جيمنيانوس Geminianus الحصينة حيث أخفى إيابداس نساءه وكنوزه .

---

(١) Ibid. p. 267

(٢) Pellegrin, p. 91

نجحت حملة صولومون نجاحا منقطع النظير ، وأكد صولومون هـذا النجاح بشبكة من القلاع أقامها فى عجلة فى قلب إقليم أوراس بنوميديا وموريطانية القيصرية . فأقام لتبرسق وباجة ودوجا وتونجا ولمطة قلاعا حصينة لوقوعها فى داخل المناطق الغنية بالقمح والماشية . ومن بين القلاع الهامة التى أقامها ، وما تزال آثارها قائمة ، قلعة حيدرة ويبلغ طولها نحو ٢٠٠ مترا ، وعرضها ١١٠ مترا وارتفاع أسوارها يتراوح مابين ٨ ، ١٠ مترا وسمك هذه الأسوار متران . وكانت تشتمل على ثكنات حربية وعلى دور وأبراشية وخزانات للمياه(١) . ولقد أدى هذا النظام الدفاعى الذى وضعه صولومون خدمات جليلة لإفريقية ، ولكنه لم يكن كافيا لإيقاف غزوات البربر المتواصلة .

ثم كانت الكارثة التى أدت إلى مصرعه فى سنة ٥٤٤ ، فقد توسط عند الامبراطور جستنيان لكى يعين له ابن أخيه سرجيوس دوقا على إقليم طرابلس . ولم يكن سرجيوس جديرا بهـــذا المنصب ، إذ كانت تنقصه الواقعية والفهم وتقدير المواقف ، وكان مغرورا بنفسه متجبرا ، يظن أنه لكى يحتفظ بهيبته لا بد له أن يحكم البلاد بيد من حديد(٢) . واستاء الأهالى من سياسته القائمة على البطش والإرهاب ، وأرسلوا وفدا من ثمانين عينا من أعيانهم يشكون اليه ما أصابهم من تعسف جنوده ، وما لاقوه على أيديهم من نهب محاصيلهم ، وسلب لأموالهم . وبدلا من إنصافهم ، تصرف تصرفا مشينا ، فأمر حرسه بقتلهم جميعا ، ظنا منه أنه يستطيع بهذا التصرف الاجرامى

(١) Ibid.

(٢) Julien, p 267

أن يفرض سيطرته على الأهالى . وكانت هذه المذبحة الشرارة الأولى لثورة عارمة ، فقد ثارت قبيلة لواته على أثرها، واختار الثوار أحد زعمائهم ويسمى أنطالاس زعيما لهم . وكان أنطالاس يعمل فى خدمة الامبراطورية البيزنطية طوال عشر سنوات ، ولكن صولومون قطع عليه أرزاقه بعد أن تغلب (أى صولومون) على إيابداس ، ولم يكتف صولومون بذلك بل قتل أخاه ، وعندئذ لم يجد أنطالاس، وقد أعماه الغضب، بدا من نبذ صداقته للبيزنطيين، وتولى القيادة الثورية .

واشتبك صولومون مع البربر فى سيليام Cillium (القصرين) ، ولكن قواته خذلته لتقتيره عليهم فى الأرزاق ، وأحاط الثوار البربر به وبمن والاه من رجال جيشه وقضوا عليهم قضاء مبرما . وسقط صولومون فى هـــذه المعركة صريعا . أما سرجيوس فقد اعتصم بأسوار قرطاجنة .

د ـ ولاية سرجيوس وأريو بندوس واستحكام الفوضى فى البلاد :

كان من الطبيعى أن يتدارك الامبراطور الموقف ، فيقتلع جذور الفساد قبل أن تضيع منه بلاد المغرب ، ولكنه على الضد من ذلك ذلك واصل استخدام المسؤلين عن تلك الكوارث ، ذلك أنه اعتبر أى تغيير فى سياسته بالمغرب ضعفا ، يمس من هيبة الامبراطورية وكرامتها . وعلى هذا الأساس نصب جستنيان على قيادة جيوش المغرب سرجيوس نفسه مكان صولومون، وكان رجال الجيش يجمعون على كرهـــه لخشونته وقسوته ، كما كان السكان يبغضونه لظلمه وجوره . ورأى الامبراطور أن يدعم الحكم البيزنطى بقائد آخر ، فأقام النبيل أريوبندوس مع سرجيوس فى القيـادة العامة للجيش البيزنطى . وكان أريوبندوس ضعيفا ، طاعنا فى السن ، وكانت

تنقصه الكفاية ويعوزه الحزم . والواقع أن الامبراطور أخطأ خطئا فاحشا بتعيينه قائدين يفسد كل منهما سياسة الآخر ، فيتعمد إحباط مشاريع زميله ، وكان الموقف يستلزم قيادة موحدة ، أو رئيسا واحدا يتميز بمضاء العزيمة ، وقوة المراس ، لإيقاف تقدم قبيلة لواتة وبطونها ، وقبائل أنطالاس التى انضمت إليها حشود مورطانية بقيادة استوزاس .

كان على كل من سرجيوس وأريوبندوس مهمات محدودة يجب أن يقوم بها كل منهما فورا . فكان على سرجيوس الإشراف على نوميديا ، كما كان على أريوبندوس الإشراف على قرطاجنة وبيزاسين . ولكن سرجيوس كان يعتبر زميله منافسا له ، ولذلك أضمر له الحقد ، وعمل على إزالته . فلما استنجد أريوبندوس بزميله سرجيوس ، تصامم هذا عن سماع ندائه ، ولم يهب لنجدته ، وترك البربر يسحقون جيشه فى تاسيا (برج المسعودى ، بين تبرسق والكاف) فى أواخر سنة ٥٤٥ دون أن يسعى لإنقاذه (١) وعلى الرغم من هزيمة أريوبندوس فقد أسفرت الموقعة عن مقتل استوزاس البربرى . وعلى أثر هذه الهزيمة استدعى جستنيان سرجيوس إلى القسطنطينية ، بينما أقام أريوبندوس فى بداية عام ٥٤٦ قائدا عاما لجيش الاحتلال وحاكما عاما على المغرب . ولكن قائدا من قوات نوميديا واسمه جنثاريس أراد أن يستغل الموقف ليحل محل أريوبندوس . وتمكن جنثاريس من دخول قرطاجنة ، فاضطر أريو بندوس إلى الاحتماء فى دير حصين يقع قريبا من المرفأ ، وهناك قبض عليه جنثاريس واحتز رأسه وأرسلها إلى أنطالاس زعيم ثوار البربر اللواتيين ، توددا له ، وسعيا لكسب صداقته .

---

(١) Julien, p. 268

وأثار مصرع أريوبندوس عاصفة من السخط . على قاتله ، وثارت نخوة أحد قواد الامبراطورية ويدعى أرطوبانس الأرمنى ، فقبض على جنثاريس وأمر باعدامه وإعـــدام أنصاره من مثيرى القلاقل والفتنة ، وقد كافأه الامبراطور على هذا العمل الجرىء بأن نصبه قائدا عاما للجيش البيزنطى ، كما ولى أثاناس حاكما على بلاد المغرب . وتضافرت جهود كل منهما فى سبيل تهدئة الخواطر ، وفى سبيل مواجهة الخطر الكبير الممثل فى شخص أنطالاس. فقد كان أنطالاس يعد عدته للاستيلاء على قرطاجنة ، ولكن الفوضى كانت قد استحكمت فى البــلاد ، وعجز القواد عن السيطـرة على الجيش ، وأخذ البربر يغيرون على الولايات . وأخـــيرا عزم جستنيـان على وضع حــد لهذه الفتنة ، فاستدعى من الجبهة الشرقية قائدا من أعظم قواده يدعى جان تروجليطة ، وعهـــد إليه بحكومة إفريقية فى نهاية سنة ٥٤٦ (١) .

ه ـ جان تروجليطة واخماد الثورة ٥٤٧ ـ ٥٦٣ :

يعتبر جان تروجليطـة ثالث بطلين لهما الفضل الأعظم فى تدعيم النفـوذ البيزنطى فى المغرب هما بليزاريوس وصولومون . قدم تروجليطة إلى إفريقية ومعه فرقة من الفرسان استقدمها من القسطنطينية لتعاونه فى مهمته العسيرة . ولقد نجح تروجليطة فى مهمته نجاحا تجاوز كل تقدير فى الحسبان ، وكانت له معارك ظافرة مجدها الشاعر كوريباس Corippus فى ملحمته المعروفة

---

(١) Pellegrin, p. 92 - 93 - Julien pp. 267, 298

باسم لاجوهانيد La Johannide نسبة إليه . وفى هذه الملحمة زودنا بأخبار تاريخية واثنوجرافية على جانب كبير من الأهمية ، ولهـــذا السبب اعتبره العلامة جزل مؤرخا قبل أن يكون شاعرا .

رأى تروجليطة أنه لايستطيع أن يواجه أعداءه مجتمعين ، فاصطنع سياسة قوامها التفريق بينهم ثم مواجهة كل فريق على حدة . ولذلك أرسل إلى بعض قبائل البربر يساومها على التزام الحياد بالنسبة للثوار ، وعدم التدخل فى الصراع بينه وبين هؤلاء الثوار . ونجح فى عقد تحالف مع الزعيمين كوتزيناس وإيفيسداياس وذلك فى بداية عام ٥٤٧ . ثم عمل على مهاجمة أنطالاس ، واشتبك معه أخيرا فى معركة وقعت بين سوسة وسبيطلة ، انتهت بهزيمة أنطالاس هزيمة نكراء ، واسترد تروجليطة على أثر ذلك كل مدن بيزاسين(١) .

وما إن انتصر على أنطالاس حتى بلغته الأخبار بزحف قبائل البربر الضاربة على حدود طرابلس ، بقيادة كاركاسان Carcassan . فآثر الخروج للقائهم ، وإيقاف تقدمهم ، ونجح فى هزيمتهم بالقرب من قابس ، وطاردهم فى جوف الصحراء . ولكن جنوده ـ وقد أمضهم التعب ، وأرهقتهم حرارة الصيف ، امتنعوا عن السير إلى أبعد من ذلك ، ولم يجد تروجليطة بدا من التقهقر نحو قابس . وفى الطريق تمكنت قوات كاركاسان من تطويق الجيش البيزنطى بالقرب من ماريت Mareth ، وكبدته خسائر كبيرة فى الأرواح . واستطاع تروجليطة أخيرا أن يقود بقايا جيشه إلى يونجا Yonga ويتحصن

(١) Pellegrin, p. 93

فى قلعتها التى نشاهد آثارها حتى اليوم . ثم سار من هناك إلى الأربس حيث تلقى مددا من قرطاجنة ومن أمراء البربر الذين ظلوا موالين له . وهناك أعاد تنظيم قواته ، فلما أتم ذلك شن هجوما عنيفا على قوات كاركاسان وأنطالاس اللذين تحالفا معا ، واشتبك معهما فى موقعة كاتون . وانهار جيش البربر أمام دفع البيزنطيين ، ولم تلبث صفوفه أن تمزقت ، وانهزم البربر هزيمة مخزية ، قتل فيها كاركاسان و ١٧ من خيرة قواده ، واستسلم أنطالاس .

وهكذا أخمد تروجليطة ثورة البربر فى أوائل عام ٥٤٨ ، ونشر الأمن فى ربوع البلاد ، فكافأه الامبراطور على ذلك بأن منحه لقب نبيل Patrice ، وشغل تروجليطه زهاء ١٥ سنة فى تحصين البلاد والدفاع عنها (١) .

ثم بدأ اسم جان روجاتينوس يظهر منذ سنة ٥٦٣ كممثل للامبراطور فى قرطاجنة بعد جان تروجليطة ، ولم يكن هذا القائد الجديد فى كفاية سلفه فى الشؤون السياسية والحربية ، فقد أمر بقتل كوتزيناس فى هذه السنة . وأثار مقتل هذا الزعيم البربرى الفتن من جديد ، واضطرمت نار الثورة فى نوميديا ، واضطر الامبراطور إلى إرسال مارسيان (ابن أخى الامبراطور) مع جيش بيزنطى جديد لمواجهة غارات البربر الذين نهبوا البلاد ، ودمروا المزارع ، وقضوا على العمران .

---

(١) Cambridge Medievial History, p. 14 - Pellegrin, p. 93 - Julien p. 269.

و – كلمة نقد على سياسة البيزنطيين فى المغرب فى عصر جستنيان :

فى سنة ٥٦٥ توفى الامبراطور جستنيان بالقسطنطينية بعد عهد طويل ازدهرت فيه البلاد ، وتألقت الحضارة البيزنطية تألقا لم تشهده من قبل . ولقد اتبع جستنيان فى الغرب سياسة تقوم على إعادة الامبراطورية الرومانية إلى مثل ما كانت عليـــه من اتساع ، وفى سبيل ذلك عمل على بسط النفوذ البيزنطى فى بلاد المغرب وإيطاليا وإسبانيا . ولايهمنا من سياسة جستنيان إلا ما يخص المغرب موضوع البحث .

لم يكن الفتح البيزنطى للمغرب ، على الرغم من مظهره ، فتحا حاسما وإنمـا كان فى حقيقة الأمر غير قائم على أساس متين ثابت ، فقـد ظل النفوذ البيزنطى مزعزعا فى البـلاد على الرغم من قيام قواد الدولة البيزنطية بحملات موفقـة أحيانا ضد البربر ، وعلى الرغم من إنشاء التحصينات الحربية والقلاع التى أقيمت سريعا للدفاع عن إفريقية ، وعلى الرغم من الإدارة البيزنطية المنظمة ، ومن وجود بعض القادة الممتازين الذين تمكنوا من المحافظة على هيبة الامبراطورية فى المغرب أمثال بليزاريوس ، وجرمانوس ، وجان تروجليطة . أما عن أسباب ضعف هـذا النفوذ البيزنطى ، فترجع إلى إسراف بليزاريوس فى بذل الأموال على زعماء البربر لشراء ولائهم له ، منـذ الأيام الأولى للفتح ، وإلى وحشية بعض القـادة البيزنطيين أمثال صولومون ، وإلى تخبط سياسة سرجيوس وعدم كفاية أريوبندوس فى الشؤون الإدارية والحربية ، وإلى احتكار الأراضى، ونهب الجند وقوادهم وحكام البلاد للأهالى ، وإلى الاضطهادات الدينية ، وإلى الفوضى المتأصلة فى صفوف الجيش ، وإلى اصطناع البيزنطيين لسياسة

تحويل المزارعين إلى طبقة من أنصاف الرقيق ، وإلى الضرائب الثقيلة التى كانوا يرهقون بها سكان البلاد .

وعلى الرغم من ذلك كله ، فقد كانت هيبة جستنيان فى حد ذاتها كفيلة بتأخير الكارثة المحتومة ، التى تنبأ بها بروكوبيوس نفسه (١) .

---

(١) Pellegrin, p. 94 - Julien, pp. 271 - 272

(٤)

اضمحلال النفوذ البيزنطى فى المغرب بعد جستنيان

١ ـ فى عصر الامبراطور جستين الثانى (٥٦٥ ـ ٥٨٧) وطيبريوس (٥٧٨ ـ ٥٨٢) :

ترك جستنيان الامبراطورية البيزنطية وقد سرت فيها عوامل الضعف والاضمحلال ، إذ أرهقها ، وأجهد خزانتها بسبب حروبه الكثيرة التى خاضها فى الغرب والشرق . وعلى الرغم من أن جستين الثانى كان يتمتع بحيوية كبيرة إلا أنه لم يقو على مواجهة الفرس والآفاريين والهون ، فلم تمض ثلاث سنوات على وفاة جستنيان حتى كان اللمبارديون قد دخلوا إيطاليا ، وتمكن القوط الغربيون من طرد البيزنطيين من أيبيريا .

اهتم جستين بشؤون المغرب الذى يبدو أنه تمتع ببعض الهدوء بفضل حسن إدراة الحاكم البيزنطى توماس ، وسياسته الطيبة إزاء البربر . ولقد حرص توماس على تعزيز وسائل الدفاع عن المغرب ، وذلك باقامة قلاع وتحصينات جديدة . إلا أن ذلك لم يكن سوى وهما ، وكان الهدوء الذى ساد البلاد فى عهده أشبه بالهدوء الذى يسبق العاصفة ، فلم تمنع هذه الصفات الطيبة من امتداد جذور الفساد إلى شؤون الإدارة ، ولم تمنع أيضا من زيادته للضرائب لدفع مرتبات الجند ، ولم تمنع أيضا من إغارة البربر على البلاد . ففى أيامه قام بربر مورطانية بقيادة ملكهم جارمول باكتساح البلاد خلال ١٥ سنة ، واشتبك البيزنطيون معهم فى عدة مواقع قتل فيها ثلاث من كبار قادتهم هم : تيودور (سنة ٥٦٩) ، وتيوكتيستوس (٥٧٠) ، وأماييليس (٥٧١) . ولم تخف هذه الموجة العاتية من الاضطرابات التى سببت هجرة

عدد كبير من السكان إلى إسبانيا إلا فى سنة ٥٧٨ ، عندما تمكن ضابط شجاع اسمه جناديوس من قتل جامول [١] .

هدأت الأحوال فى المغرب نوعا ما فى عهـد الامبراطور طيبريوس ، وتفصيل ذلك أن الامبراطور الجديد نصب توماس حكم المغرب من جديد . وعمل توماس عـلى شراء ولاء أمراء البربر ، وكسب ثقتهم ، ثم باغتهم جناديوس المذكور بالهجوم دون سابق إنذار وذلك فى سنة ٥٧٨ ، وقتل جارمول بيديه . ومع ذلك فقد ظلت حالة التوتر والفوضى قائمة فى البلاد لدرجة أن السكان أصبحوا لا يأمنون على أموالهم وأرواحهم ، فبـدأوا يكثرون من بناء القلاع فى داخل الحدود [٢] .

ب ـ فى عصر الامبراطور موريس (٥٨٢ ـ ٦٠٢) :

كانت الاضطرابات الناشبة فى أرض المغرب سببا فى تفكير الامبراطور موريس فى إعادة تنظيم الولايات البيزنطية فى المغرب . فولاية طرابلس ضمت إلى مصر ، وانقطعت الصلات السياسية منـــذ ذلك الحين بين برقة وطرابلس وبين بقية بلاد المغرب ، وموريطانية بأقسامها الثلاثة : القيصرية والشطيفية والطنجية ، أصبحت اثنتان ، الأولى تعرف بموريطانية الأولى ، والأخرى تعرف بموريطانية الثانية ، وكانت لا تضم سوى سبتة مع عدد من المدن الإسبانيه وجزر البليار . أما فيما يختص بالإدارة فقد أصبح الاتجاه يرمى إلى جعـل الموظفين المدنيين يتبعون العسكريين . ثم أدى الضغط

---

(١) Pellegrin, p. 92

(٢) Julien ,P 273

المتواصل الذى كان يمارسه المتبرمون فى إيطاليا إلى ابتكار نظام جـــديد للحكم يقوم أساسا على العنصر العسكرى . فالى جانب وظيفة حاكم المغرب المقيم فى قرطاجنة ، ظهرت وظيفة جديدة يشغلها شخص أقوى من الحاكم فى السلطات المخولة له،هى وظيفة البطريق يشغلها القائد العام للجيش البيزنطى، ويتميز هذا النظام الإدارى الجـديد أيضا باحلال دوقات فى الأقاليم محل المديرين السابقين . ولكن هذا النظام الجديد ، وإن كان قد أثمر فى بداية تطبيقه ، لم يحقق الغرض من وضعه ، فقد كان تحويل إفريقية البيزنطية من ولاية إلى منطقة عسكرية نذيرا بانفصالها عن الامبراطورية (١) .

وكان أول بطارقة المغرب البطريق جناديوس الذى ذكرنا أنه تغلب على جارمول البربرى وقتله . وقد تولى هذا المنصب على أثر الثورات العنيفة التى قامت فى سنة ٥٨٧ ، وظل فى منصبه زهاء ثمان سنوات . وعلى الرغم مما أبداه من نشاط ، فانه لم يستطع أن يمنـــع البربر من دخول قرطاجنة إلا بفضل حيلته . فقد كان الامبراطور قد أمره بأن يبعث إليه ببعض القوات لمواجهة المتبربرين السلاف . فاستغل البربر هذه الفرصة للقيام بالثورة وغزو إفريقيـــة فى سنتى ٥٩٥ ، ٥٩٦ ، وأوشكوا على الاستيلاء على قرطاجنة . ولما لم يكن فى إمكان جناديوس منعهم من ذلك ، فقد تظاهر بقبول وجهة نظرهم ، ودعا رؤساءهم إلى حفل كبير ، ثم أمر باغلاق أبواب المدينة ، وبقتل ضيوفه . وعلى هـــذا النحو أرغم الغزاة بالانسحاب إلى الجبال (٢) .

---

(١) حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب ، القاهرة ، ١٩٤٧، ص ٣٢ .

(٢) Pellegrin, p. 95 - Julien, p. 273

ولكن حكومة البطريق لم تكلف نفسها بالبحث عند مصدر الخلل الذى أصيبت به الإدارة البيزنطية وتستأصله من جذوره ، بل زاد على يديها هذا الخلل ، وتشعبت جذوره ، بتسترها على مظالم الأغنياء ، وفوضى موظفى الإدارة ،وانتشار وباء الرشوة فى الدواوين الحكومية، ونتج عن ذلك انهيار القيم الأخلاقية ، واستهتار الحكومة بمصالح البلاد . ولم تكن الكنيسة بعيدة عن مجال الفساد الذى استشرى فى أجهزة الدولة ، فقد أصيبت هى الأخرى بالفساد ، وانتشرت السيمونية (١) والمعاصى بين القساوسة ، وكانت هذه الكنيسة تمثل فى هذه الفترة المشحونة بالفوضى ، القوة المنظمة الوحيدة التى يتطلع إليها المؤمنون ، ولكنها كانت ترتبط بروما ارتباطا وثيقا ، إذ كان البابا جريجورى العظيم (٥٩٠ – ٦٠٤) يعتبر الكنيسة الإفريقية بنتا لكنيسة روما يجب خضوعها تماما للأم ، ولهذا السبب لم يكن يتدخل فى الشؤن الكنسية فحسب ، بل فى الشؤون الإدارية والإجتماعية أيضا ، مستهدفا من وراء ذلك محاربة المذهب الدوناتى ، الذى كان يجتذب البائسين ، والضحايا الاجتماعية للامبراطورية البيزنطية (٢) .

ج – المغرب قبيل الفتح العربى (فيما بين ٦٠٢ – ٦٤٧) :

سقط الامبراطور موريس صريعا على أثر ثورة قام بها الجيش فى سنة ٦٠٢ بزعامة فوكاس ، الذى اعتلى عرش الامبراطورية البيزنطية ، ولكن هذا

---

(١) نعنى بالسيمونية متاجرة القساوسة بالأدوات المقدسة ، والسيمونية نسبة الى سيمون الساحر الذى أراد أن يشترى من القديس بطرس القدرة على عمل المعجزات .

(٢) Pellegrin. p. 95 - Julien, p. 274

الامبراطور الجديد كان مولعا بسفك الدماء وأعمال الإرهاب، فسخط عليه أقرب المقربين إليه، وأخذوا يدبرون المؤامرات والدسائس لخلعه. وكان البطريق هرقل، القائد الأعلى للامبراطور موريس، قد خلف جناديوس على المغرب في سنة ٦٠٠، وكان مواليا للامبراطور موريس، فعز عليه أن يقتل على يدى فوكاس، ورأى ضرورة الخروج على فوكاس ومعاداته، وأعلن هذا الرأى صراحة عندما أقدم على حجز السفن التى خصصت لحمل القمح من قرطاجنة إلى القسطنطينية فى مياه قرطاجنة. وعلى هذا النحو تطلع إليه الموتورون من فوكاس، واعتبروه منقذا للدولة ومخلصا للشعب، وتوالت على الكتب والرسائل تستحثه على القيام بالثورة ضد الامبراطور المغتصب. غير أنه كان طاعنا فى السن لا يحتمل القيام بمثل هذه الرسالة، فرشح لهذا المنصب ابنه الشاب هرقل. ولم يتردد هرقل الكبير، لقوة نفوذه وشعبيته فى المغرب، عن العمل للقضاء على فوكاس، ورفع ابنه هرقل الشاب إلى عرش الامبراطورية. فأعد جيشا من البربر بقيادة ميسيتاس (ابن أخيه) الذى تمكن من الاستيلاء على الاسكندرية فيما بين سنتى ٦٠٨ — ٦٠٩. وفى نفس الوقت كان ابنه هرقل يقود أحد الأساطيل الحربية بقصد الاستيلاء على القسطنطينية (١).

وتم الانقلاب بفضل وزراء فوكاس أنفسهم الذين أسلموه إلى الشعب، فصب عليه الشعب جام غضبه وانتقامه، فقتل فوكاس فى ١٥ أكتوبر سنة ٦١٠، وفى نفس هذا اليوم توج البطريرك سرجيوس هرقل الشاب امبراطورا على الدولة البيزنطية، وأصبحت إفريقية مركزا لاهتمامه ومحط

---

(١) Oman, p. 127-Ch. Diehl, histoire du moyen âge, p. 141

آمال الامبراطورية فى أشد فترات حيـــاتها حرجا ، فعندما احتل الفرس أرمينيا وحاصروا الاسكندرية بقصد منع تزويد القسطنطينية بالرجال والأقوات ، تولت إفريقية هـذه المهمة ، وكانت تزود القسطنطينية بالأجناد والأساطيل .

وشهدت إفريقية فى أيام هرقل عصرا من السلام لم تشهده من قبل ، وتمتع الأهالى بقسط كبير من الحرية والاطمئنان فى ظل الامبراطور الجديد، ووجد البابا جريجورى الأكبر فى هذا الهدوء فرصة لإرسال بعوثه التبشيرية إلى إفريقية ، ونشر المسيحية فى داخل المناطق الجبلية . ونجح القساوسة فى نشر الدين المسيحى بين كثير من القبائل البربرية ، وتمكنوا من التغلغل فى المواقع الداخلية التى كان البيزنطيون قد انسحبوا منها فيما مضى ، وأصبح هؤلاء القساوسة يقومون مقام حكام بيزنطة . وأصبح البابا القطب الذى يتوجه إليه الناس يطلبون حمايته من مظالم الإدارة البيزنطية . وكان البابا لا يتردد فى حمايتهم ، وبالتدريج ازداد نفوذه فى البلاد ، وأصبح يتدخل فى الشؤون الإدارية . ثم أصبحت لرومة سلطة جـــديدة فى إفريقية يحسب حسابها ، وأصبح الناس يعتمدون عليها فى كثير من شؤونهم (١) .

ولكن الوضع لم يلبث أن تغير عنـدما مرت المسيحية فى إفريقية بأزمة أخيرة ، فقد أنكر بطريرك القسطنطينية (سرجيوس) أن المسيح أظهر كل من طبيعتيه بارادة واحدة إلهيه وبشرية فى آن واحد . وأيد هرقل هذا المذهب الجديد القائل بالإرادة الواحدة Monothélisme (المونوثيلية)

---

(١) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب، ص ٣٦ ، ٣٧ .

ظنا منه أن هذا المذهب ستتقبله الطوائف المختلفة راضية ، وأصدر بيانا فى سنة ٦٣٨ بذلك يعرف باسم Ecthêsis (١) ، أثار عاصفة من المعارضة فى العالم المسيحى . وأدى ذلك إلى انشقاق كثير من الأساقفة عن مذهب الدولة ، وانتهى الأمر إلى قيام صراع كبير بينهم . كما ثار الأهالى على الامبراطور ، وأنكروا مذهب المونوثيلية ، وأبوا الانحراف عن كرسى البابوية . وكان ألد أعداء المونوثيلية أو مذهب الإرادة الواحدة الأسقف مكسيموس ، وكان خطيبا ثوريا قديرا ، عميق التأثير فى النفوس ، ونجح مكسيموس فى نثر بذور المعارضة لهذا المذهب فى إفريقية ، ودخل فى جدال عنيف مع البطريرك القديم فيرهوس فى حضور البطريق جريجوريوس الثانى ابن نقيتاس ، وتغلب عليه باعتراف فيرهوس فى يوليو سنة ٦٤٥ . وبدأت حملات المعارضة تزداد قوة : فمن رسائل توجه إلى الامبراطور وإلى البابا وإلى البطريرك سرجيوس ، إلى مجامع دينية تعقد فى قرطاجنة . ولم تكن الأسقفية الافريقية ترضى بأنصاف الحلول ، ولذلك نظرت فى مسألة إسقاط الامبراطور . وتعقد الموقف على أثر وفود بعض القساوسة المونوفيزيت من مصر أثناء الفتح العربى ، وكان لحماسهم فى الدعوة لمذهبهم ، وما صاحب ذلك من اضطهاد واستشهاد أثر كبير فى جعل قسطنطين الثالث بن هرقل ، وكان يكره المونوثيلية ، يسمح لهم بحرية ممارسة شعائر مذهبهم . وأدى انتشار مذهبهم إلى وقوف قساوسة إفريقية الكاثوليك فى وجه الامبراطور وإلى انفصالهم شيئا فشيئا عن الامبراطوريه . وعندما تولى كنستانز الثانى العرش سنة ٦٤١ ،

---

(١) Diehl ,Histoire du Moyen âge, p. 155

بعد وفاة قسطنطين الثالث بعدة شهور ، وكان معروفا باعتناقه مذهب الإرادة الواحدة ، لم يأل مكسيموس جهده فى دفع معظم سكان المغرب وقبائل البربر إلى محاربة الامبراطور وتنصيب جريجوريوس على العرش(١) . والتف الناس حول البطريق جريجوريوس الذى كان يحظى بشعبية كبيرة لما كان يبديه وأسرته من كفاية وعدل . ولم يكن جريجوريوس يزهد فى الاستقلال عن الامبراطورية ، فقد كانت أمورها قد سادها الاضطراب ، وفقدت الحكومة هيبتها بعد أن اجتاح الفرس أملاكها ، مما جعل الامبراطور يفكر فى الفرار من القسطنطينية إلى صقلية أو إلى إفريقية(٢) .

ثم إن المغرب كان قد انتعش فى العهد البيزنطي الأخير انتعاشا تنعكس آثاره علي ماوجده العرب عند الفتح فى هذه البلاد من وفرة الزروع وكثافة الأشجار وكثرة العمران . وكان أهل برقة وطرابلس أول من أيد جريجوريوس على الانفصال عن الدولة البيزنطية على الرغم من أن هاتين الولايتين كانتا تابعتين رسميا لمصر منذ سنة ٥٨٢ .

وفى سنة ٦٤٦ أعلن جريجوريوس استقلاله عن الامبراطورية البيزنطية ، وتلقب بالامبراطور بموافقة الشعب المغربى الذى كان يقدره ، لتعضيده للتقاليد الكاثوليكية رغم بيزنطة . وقد ضرب جريجوريوس العملات باسمه ، ولكنه لغرض ما لانعرفه على وجه اليقين غادر قرطاجنة واستقر فى سبيطلة . ولعل جريجوريوس أراد بعد ثورته على بيزنطة أن يختار حاضرة

---

(١) Julien, p. 276

(٢) نقل الامبراطور كنسطانز الثانى عاصمة الامبراطورية إلى صقلية ، وظلت صقلية عاصمة للامبراطورية عدة سنوات .

تقع فى موضع بعيد عن البحر ، إذ كان يتوقع بعد إعلان خروجه وانشقاقه عن الامبراطورية البيزنطية أن تغزو الأساطيل البيزنطية عاصمته . وقد يكون انتقاله إلى سبيطلة ناتجا عن رغبته فى حماية عاصمته من الغزو العربى ، وراء خط من التحصينات الأماميه[١] ، وقد يكون أيضا ناشئا عن رغبته فى ضم برقة وطرابلس إلى ولاية إفريقية ، وهذا التفسير فيما يظهر أقرب إلى الصحة ، بدليل أن جريجوريا أخت جريجوريوس كانت مقيمة ببرقة حين خطبها الامبراطور هرقل لابنه قسطنطين[٢] .

(١) Pellegrin, pp. 96 - 97

(٢) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٥٠

(٥)

نظام البيزنطيين الإدارى والدفاعى فى المغرب

١ ـ النظام الادارى :

أصدر الامبراطور جستنيان فى أبريل سنة ٥٣٤ مخططا لإعادة تنظيم الإدارة الإفريقية ، اقتبس من التنظيم الرومانى السابق لغزو الوندال ، بعد إجراء التعديلات اللازمة ، فلم تعد إفريقية تتبع إيطاليا كما كان الحال فى القرن الرابع ، فأصبحت ولاية مستقلة لها إدارتها الخاصة . ولقد أبدى جستنيان اهتماما خاصا بافريقية ، فلم يقلدها لقنصل كما كان الوضع قائما فى العصر الرومانى ، وإنما أقام عليها حاكما عاما يمثله فى البلاد ، زوده بسلطات واسعة ، فهو يطبق القوانين ، ويشرف على الأحكام القضائية ، ويجبى الضرائب ، ويوزع مصروفات الدولة ، ويدير الأملاك الامبراطورية ، ويفصل فى المنازعات الدينية ، وكان يساعده عدد كبير من الأعوان ، منهم المستشارين وكبار القضاة . وكان يساعده أيضا عشرة دواوين يقوم بالعمل فيها نحو ١١٨ موظفا، و ٩ نقابات تضم مساعدين يقومون بالأعمال الإدارية، وخاصة ما يتصل منها بشؤون المالية(١) . وكان الحاكم العام إذا جمع بين سلطاته كحاكم عام وسلطات القائد الأعلى للجيش البيزنطى فى إفريقية ، (كما حدث لصولومون) ينظر إليه كما لو كان امبراطورا مصغرا . وكان الحاكم العام يرأس سبع ولاة أو مديرين يديرون سبع ولايات : منها ثلاث قنصلية هى زوجيتانيا (إفريقية ، أو القسم الشمالى من تونس الحالية ومركزها

---

(١) Julien, p. 260

قرطاجنة) ، وبيزاسين (جنوبى تونس) وطرابلس ، ثم اربع مديريات : هى نوميديا (شرق قسنطينة) ، وموريطانية الأولى ومركزها شطيف ، وموريطانية الثانية ومركزها شرشال ، وكانت تضم موريطانية الطنجية وسردانية(١) .

وانصرفت جهود الحاكم العام إلى جمع الأموال بالقوة ، والضغط على السكان ، دون التفرغ للاشراف على أعمال الإصلاح فى البلاد ، فكانت الإدارة البيزنطية تبذل كل جهدها لاستغلال السكان استغلالا فاحشا وذلك بارهاقهم بالضرائب الثقيلة وامتصاص كل مواردهم . واضطر المزارعون فى نهاية الأمر إلى ترك مزارعهم ، والتجار إلى غلق متاجرهم ، وتصفية تجاراتهم ، وعمد الكثيرون إلى احتراف اللصوصية والاعتماد على قوائم سيوفهم. وكانت هذه المظالم عاملا أساسيا فيما أصاب المغرب من اضمحلال، كما كان السبب فى قيام الأهالى بالفتن والثورات المتواصلة على نحو ما فصلناه سابقا (٢) .

ب ـ النظام الدفاعى :

كان يتولى القيادة العامة للجيش البيزنطى المرابط فى بلاد المغرب قائد أعلى يعرف باسم Magister Militum ، يعينه الامبراطور ، ومركزه قرطاجنة،

---

(١) ـ المشرق ص ١٥٥ ـ Pellegrin, p. 89 - Julien, p.260
حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص١٥ ـ عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، بيروت ١٩٦٢ ، ص ٢٢ .

(٢) Pellegrin, p. 89 - Julien p. 261.

وظيفته تأمين النظام والدفاع عن جميع أراضي المغرب الخاضعة للدولة. وكان المغرب ينقسم أيضا من الناحية الحربية إلى إدارات على كل منها رئيس أو دوق. هذه الإدارات هى: طرابلس ومركزها لبدة Leptis Magna ، وبيزاسين ومركزها قفصة، ونوميديا ومركزها قسنطينة، وموريطانية ومركزها شرشال (١).

وكان يعاون القائد العام قائد للمشاه Magister Peditum ، وقائد للفرسان.

وكان الجيش البيزنطى يتألف من قوات نظامية من الفرسان على وجه خاص، والمشاة، ومن المرتزقة الذين كان يكل إليهم البيزنطيون أمر الدفاع عن الحدود الجنوبية، ويقيمون فى قلاع وحصون أسست فى هـذه المناطق النائية المتطرفة، ومن الموالى الذين جندوا من البربر ويعرفون باسم Gentiles أو Federati .

وكان البيزنطيون فى المغرب يعتمدون أيضا فى الدفاع عن البلاد على التحصينات المعمارية التى قاموا بانشائها تنفيذا لسياسة جستنيان الدفاعية، بقصد حماية السكان فى المناطق المعرضة لغزوات البدو والثوار البربر، وكانت هذه التحصينات تعتبر بمثابة حدود بين المناطق الخاضعة فعلا للدولة والمناطق الصحراوية والجبلية الوعرة. وكان الوندال قد خربوا الأسوار والتحصينات الرومانية حتى لا يتيسر للثوار التحصن بداخلها.

---

(١) Cambridge Medieval History, p. 22 - Pellegrin, p. 89 - Julien, p. 261.

ويرجع إلى صولومون الفضل فى بناء التحصينات البيزنطية ، وترميم الأسوار والقلاع الرومانية ، ولم يكن امتـــداد التحصينات البيزنطية فى طرابلس وبيزاسين ونوميديا يختلف كثيرا عن امتداد التحصينات الرومانية ، حيث أن الخط الذى ترسمه هـذه التحصينات كان يمر، كما كان الشأن فى العصر الرومانى ، جنوبى أوراس . ولكن هـذا الخط كان ينحسر تدريجيا كلما اتجه غربا وذلك ابتداء من تهودة . أما فى موريطانية الثانية ، فقد كان النفوذ البيزنطى لا يتجاوز بضعة مراقىء محصنة ، بينما لم يكن هذا النفوذ يتعدى فى موريطانية الأولى مدينة سبتة التى جعل منها جستنيان مركزا هاما للمراقبة . ومع ذلك فقد استعمل البيزنطيون القـــلاع الرومانية القديمة فى التخوم ، وذلك بعد ترميمها، وكانت قلعة قصر بلزمة تسيطر على مداخل شط حدنة ، كما أن قلاع لمبزه وتمجاد ، وطولها ١٢٠ مترا ، وعرضها ٨٠ مترا ، أقيمت على مجموع من الأبنية يرجع تاريخها إلى عصر سفروس .

كذلك كانت القلاع البيزنطية تقام فى قلب البلاد ، ومن أمثال هـذه القلاع الداخلية قصر لمسة ، ويبعد نحو ٤ ك. م. شمال شرقى مكتار ، وقلعة عين تونقة فى الشمال الشرقى من تبرسق ، وقلعة حيدرة . وكل هـذه القلاع وصلت إلينا فى حالة ممتـازة . وكانت التحصينات البيزنطية تقـام فى عجلة حول الآثار القـديمة كالملاعب والمسارح والحمامات ، كما هو الحال فى سبيطلة ودوجا (١) ، ولذلك كانت هذه التحصينات ضعيفة . وكانت المدن الكبرى تحاط عادة بأسوار قوية ضخمة تحميهـا من الغزو الخارجى مثـل شطيف وتبسا .

---

(١) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب، ص ١٩ .

وعمارة القـــلاع البيزنطية تقوم أساسا على سور رئيسى ضخم يتألف من طابقين ، تكتنفه أبراج مشرفة الذروة ويتقدم هذا السور حزام أمامى يحمى مقدمات القلعة ، ويسبق هذا الحزام خندق واسع عميق يرتفع عليـه جسر . ويتراوح ارتفاع السور فى العادة ما بين ثمانية أمتار وعشرة ، ويبلغ سمكه عادة ٢٫٣٠ مترا (١) .

---

(١) Julian, P. 263

مراجع العصرين الوندالى والبيزنطى

ا ـ المراجع العربية والمعربة :

سالم (دكتور السيد عبد العزيز) : المغرب الاسلامى ، كتاب الشعب رقم ١٣٨ ، القاهرة ، ١٩٦١ .

طرخان (دكتور ابراهيم على) : دولة القوط الغربيين ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

عامر (الأستاذ أحمد) : تونس عبر التاريخ ، تونس ، ١٩٦٠ .

عاشور (دكتور سعيد عبد الفتاح) : أوربا فى العصور الوسطى ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

فشر : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ، ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور السيد الباز العرينى ، القاهرة ١٩٥٤ .

مؤنس (دكتور حسين) : فتح العرب للمغرب ، القاهرة ، ١٩٤٧ .

المشرفى (الأستاذ محمد محيى الدين) : إفريقيا الشمالية فى العصر القديم ، الرباط ، ١٩٥٠ .

ب ـ المراجع الاوربية الحديثة :

Bernard (Augustin) : l' Algerie, paris, 1929.

Bleye (Aguado) : Manuel de la historia de España, Madrid, 1947.

Cambridge Medievial History, Cambridge, 1911.

Comision historica de las campanas de Marruecos : Accion de Espana en Africa, t. 1, Iberos y Berberes, Madrid, 1935.

Diehl (Charles): L' Afrique byzantine, Histoire de la domination byzantine en Afrique, Paris, 1896.

———————— : Histoire de l' Empire byzantin, Paris, 1934.

Diehl & Marçais : Histoire du Moyen - âge, t. III : le monde oriental, Paris, 1936.

Gibbon : abridged edition (by William Smith) from the origin work, "The history of the decline and fall of the Roman empire, part one, by Greenidge, London, 1909.

Guichot (Joaquin) : Historia de Andalucia, t. 1, Madrid, 1869.

Julien (André) : Histoire de l' Afrique du Nord, des origines à la conquête arabe, Paris, 1956.

Lot (Ferdinand) : la fin du monde antique et le début du moyen âge, Paris, 1927.

Oman (ch.) : The dark ages, London, 1928.

Pellegrin (Arthur) : Histoire de la Tunisie, Tunis, 1948.

Ure (Percy Neville) : Justinian and his age, Pelican Books, No A 217, London, 1951.

Vasiliev (A. A.) : Histoire de l' Empire Byzantin, trad. par Brodin et Bourguina, t. 1, Paris, 1932.

القسم الثاني

المغرب في العصر الاسلامي

تمهيد

دراسة لأهم مصادر تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى

أولا ــ الآثار الاسلامية فى المغرب :

تعتبر الآثار الباقية ، سواء الثابتة منها كالعمائر ، أو المنقولة كالتحف والعملات ، من أهم المصادر التى يعتمد عليها المؤرخون فى كتاباتهم عن المغرب الاسلامى ، ذلك لأن الوثائق التاريخية لاتكفى وحدها لهذا الغرض ، إما لندرتها ، أو لتناقض ماجاء فيها ، أو لاختلاط الحقائق التاريخية فيها بالقصص والأساطير . ثم إن الآثار تعتبر سجلا تاريخيا حيا للأعمال التى قام بها الولاة والأمراء فى العصور الاسلامية المختلفة ، وشاهدا ماديا ماثلا لحضارة الاسلام فى المغرب ، فمن هذه الآثار استطعنا أن نقف على مدى ماوصل إليه رجال الفن والصناعات من تقدم فى المجال الحضارى، ومن نقوشها استطعنا أن نصحح كثيرا من الأخطاء التاريخية التى وقع فيها بعض المؤرخين ، ونميط اللثام عن حقائق تاريخية جديدة ، فالنقوش الكتابية التى تدور بقباب المحراب والبهو بجامعى القيروان وتونس ، والكتابات التى نطالعها فيما تبقى من آثار المغرب فى العصر الاسلامى من أبواب أثرية وأسوار وقلاع وحمامات وفنادق وقصور وقناطر وجسور تتضمن تواريخا دقيقة لهذه المنشآت ، كما تتضمن فى كثير من الأحيان أسماء منشئيها من الأمراء والسلاطين، وفى بعض الأحيان أسماء العرفاء والمهندسين الذين أشرفوا على إنشائها ، وهى أمور غفلت الوثائق التاريخية عن ذكرها على هذا النحو من الدقة . وهكذا تبدو لنا الآثار المغربية بنقوشها الكتابية ، وأساليبها الفنية المختلفة وكأنها أحياء تنطق بلغة

يفهمها الناس جميعا . كذلك تحدد لنا العملات تواريخا هامة قد ترد خطئا في المصادر المكتوبة أو المنقولة ، ثم هي تشتمل على ألقـــاب السلاطين والأمراء وتتضمن أيضا أسماء المدن التي سكت فيها . ودراسة العمـلات تفيدنا في دراسة الأحوال الاقتصادية للمغرب في العصر الاسلامي .

والآثار الاسلامية في المغرب تصور لنا جانبا هاما من جوانب الحضارة العربية الاسلامية في هذا الجزء من الوطن العربي الكبير ، وهي خير ماينطق بما كانت عليه هذه الحضارة من تقدم وازدهار ، والوثائق الحقيقية الصادقة التي نستند عليها في كتابة تاريخنا عن المغرب العربي ، فالنفوذ الأندلسي على على المغرب الأقصى في العصر الأموي يتجلى بصورة واضحة في آثار فاس (مسجد القرويين والأندلسيين) ، وسيطرة المرابطين والموحدين على الأندلس يعبر عنها الأسلوب الفني المشترك السائد في كل من المغرب والأندلس في هذين العصرين ، وغلبة الطابع الغرناطي على آثار المغرب كله منذ أوائل القرن الرابع عشر يعبر عن أثر العلاقات السياسية بين بني مرين وبني الأحمر في الفنون المعمارية ، كما يعبر أيضا عن حقيقة تاريخية ثابتة ، هي هجرة الفن الأندلسي الغرناطي إلى المغرب بعد انتهاء دولة الاسلام في الأندلس .

فدراسة الآثار الاسلامية ببلاد المغرب تعتبر ضرورة لازمة لدراسة تاريخ المغرب في العصر الاسلامي ، كما أنها تعتبر كذلك ضرورة لازمة لدراسة تاريخ العمران الاسلامي في إفريقية: فمدينة القيروان أسست عند الفتح العربي لتكون قاعدة ارتكاز للجيوش العربية في أرض المغرب ، كما أن تونس أسست أيضا لتكون دار صناعة ومحرسا للساحل التونسي في ولاية حسان ابن النعمان، ومدينة فاس أقيمت في سنة ٩١ هـ لتكون مركزا لدولة الأدارسة

الشيعية ، أما مراكش فقد أقامها المرابطون فى أيام أبى بكر عمر اللمتونى ، والرباط أسسها الموحدون فى عهد المنصور لتكون رباطاً للثاغرين من أهل المغرب ينتقلون منه للجهاد فى أرض الأندلس . وما زالت آثار تونس ، والقيروان ، ووهران ، وتلمسان ، وفاس ، والرباط ، ومراكش ، وغيرها من مدن المغرب تعبر عن الدور الكبير الذى قام به الأمراء والخلفاء والسلاطين فى العمران المغربى ، ولا يخفى أهمية ذلك بالنسبة للحضارة المغربية ، لاتصاله الوثيق بالنواحى الاقتصادية والاجتماعية : فالمدن تتضمن بؤرات اقتصادية واجتماعية من أسواق ، ومصانع ، وحمامات ، وفنادق ، ودور للصناعة ، لعبت دورا هاما فى الاقتصاد المغربى فى العصر الوسيط .

وبلاد المغرب تزخر بالآثار الإسلامية التى يمتد تاريخها من الفتح العربى سنة ٥٠ هـ إلى سقوط غرناطة ، آخر معقل للمسلمين فى الأندلس ، سنة ٤٩٢ هـ . ويهمنا من دراسة الآثار المغربيه ، الآثار المعمارية بالذات ، لأنها آثار مادية ثابتة . وتنقسم المنشآت الأثرية إلى ثلاثة أنواع :

١ ـ المنشآت الدينية ، وهى أكثر العمائر القائمة فى أرض المغرب ، وتشتمل على المساجد ، والزوايا ، والأضرحة . وتعتبر أهم أنواع الآثار المعمارية لما تتضمنه من نقوش زخرفية وكتابية تعد ذخيرة تاريخية طيبة ، ولما تضمه بين جدرانها من أساليب فنية ذات مستويات مختلفة ، تعكس روح العصر الذى أقيمت فيه ، وتعبر عن طبيعة الحياة السياسية والاجتماعية فى هذا العصر .

٢ ـ المنشآت الحربية ، ونعنى بها أعمال التحصينات من قلاع ، وقصاب ، وأسوار تتحصن بها المدن ، وترد هجمات الغازين والمعتدين . ونلاحظ أن

معظم مدن المغرب مازال يحتفظ بهـــذه الأسوار والقلاع ، كما أن أبوابها مازالت تحمل أسماءها القديمة ، وهو أمر يساعد على دراسة طبوغرافية المدن المغربية فى العصر الإسلامى .

٣ ـ المنشات المدنيـة ، وتشتمل على عمائر المنافع العامة من خزانات وجسور وقناطر ومواجل ، كما تشتمل على العمائر الخاصة بالحياة الاجتماعية والاقتصادية من حمامات ودور وقصور ومصانع وفنادق .

ونرجو أن يتسع المجال لدراسة بعض أمثلة من هــذه المنشآت بأنواعها الثلاثة فى بلاد المغرب فى العصور الإسلامية المختلفة .

ثانيا ـ أهم المصادر العربية :

نعنى بالمصادر العربية التواليف والمصنفات المطبوعة ، والمدونات المخطوطة التى صنفها مؤرخو العرب وجغرافيوهم القدامى فى تاريخ الفتح العربى للمغرب ، أو فى تاريخ الدول الإسلاميه التى قامت فى المغرب ، أو فى دراسة مدنه ووصف المغرب . وسنستعرض أهم هذه المصادر .

١ ـ مصادر تاريخ الفتح العربى للمغرب :

١ ـ عبد الرحمن بن عبد الحكم (ت . ٢٥٧هـ (٨٧١م)) : كتاب فتوح مصر والمغرب والأندلس :

هو أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم القرشى المصرى ، ولد بمصر فيما يقرب من سنة ١٨٧ هـ ، وتوفى بالفسطاط فى عام ٢٥٧ هـ ، ودفن إلى جوار قبر الإمام الشافعى مما يلى القبلة . وكان ابن عبد الحكم

من أسرة اشتهرت بمعرفة علوم الحديث والفقه ، وكان أبوه عبد الله بن عبد الحكم(١) من كبار المحدثين فى مصر ، وله مصنفات كثيرة فى الفقه والحديث . وورث ابنه عبد الرحمن عنه هذا العلم ، فكان من أهل الحديث ، عالما بالتواريخ . وقد انعكست دراسات ابن عبد الحكم القائمة على الحديث فى كتابه فتوح مصر والمغرب والأندلس ، فقد اعتمد فى رواياته التاريخية على الأسانيد الكاملة ، فأعاد الرواية فى أشكالها التى حفظت بها فى ذاكرة الناس(٢) . ويتضح هذا المنهج فى كثرة عدد الروايات غير الموثوق بها ، عرضها ابن عبد الحكم على هذه الأشكال المختلفة من الرواية ، حرصا على بيان رواتها ، وأمانة فى النقل ، دون أن يعنى بنقدها ، فهو يذكر مثلا عند تعرضه لغزوة عمرو فى الخيل إلى برقة : « ... حدثنا عثمان بن صالح ، حدثنا ابن لهيعة أن انطابلس فتحت بعهد من عمرو بن العاص . حدثنا عبد الملك ابن مسلمة ، حدثنا ابن لهيعة عن يزيد بن عبد الله الحضرمى : أن ابن دياس حين ولى أنطابلس أتاه بكتاب عهدهم . حدثنا عبد الملك بن مسلمة ، حدثنا ابن لهيعة ، عن يزيد بن عبد الله الحضرمى ، عن أبي قنان أيوب بن أبي العالية الحضرمى ، عن أبيه قال : سمعت عمرو بن العاص على المنبر يقول لأهل أنطابلس عهد يوفى لهم به »(٣) . ونفهم من هذا النص أن ابن عبد الحكم

---

(١) ولد عبد الله بن عبد الحكم بالاسكندرية فى سنة ١٥٥ ، وتوفى بالفسطاط فى سنة ٢١٤ هـ .

(٢) مقدمة كتاب فتوح مصر والمغرب ، تحقيق الأستاذ عبد المنعم عامر ، القاهرة ١٩٦١ صفحة ك .

(٣) Ibn ʻAbd al - Hakam, Conquête de l'Afrique du Nord et de l' Espagne, texte et trad. par Albert Gateau Alger, 1947, p. 36.

اعتمد على روايات شفوية تناقلها الرواة ، ومعلومات مكتوبة نقلها عن طريق المشايخ الذين رأوا السجلات الرسمية الخاصة بفتح مصر والمغرب ، أو نسخوها قبل احتراق ديوان الفسطاط(١) ، هذه المعلومات المكتوبة التى نقلها ابن عبد الحكم تتمثل فيما كتبه الواقدى (المتوفى سنة ٢٠٧) ، وابن لهيعة (المتوفى سنة ١٧٤ هـ) . وكان ابن لهيعة حجة فى الحديث ، ومصدرا هاما فى التاريخ المصرى ، ونستنتج أيضا من النص السابق ، ومن غيره من النصوص أن ابن عبد الحكم اعتمد كثيرا فى تأريخه للحوادث على عثمان بن صالح المتوفى سنة ٢١٩ هـ . ، وهو مصدر مصرى هام كان له فضل كبير فى التأريخ العربى لفتح العرب للمغرب والأندلس . فرواية ابن عبد الحكم إذن تمثل الرواية الشرقية لقصة فتح العرب للمغرب(٢) .

ونلاحظ أن ابن عبد الحكم يقل من ذكر الإسناد كلما توسع فى تأريخ حوادث الفتح ، لقلة الحقائق التى يجمعها أو لقلة الأحاديث ، وإن كان يتخذ من رواية عثمان بن صالح قاعدة أساسية لتأريخه ومن بين من ذكرهم ابن عبد الحكم من المحدثين . فى فتوح المغرب ، بخلاف ابن لهيعة ، عبد الملك ابن مسلمة ، ويذكره ابن عبد الحكم دائما فى نهاية الإسناد ، والليث بن سعد (المتوفى سنة ١٧٥) أعظم راوية للتاريخ ، ومنهم يزيد بن أبى حبيب ، أستاذ ابن لهيعة والليث ، وكان مصدراً أخباريا دقيقا من أقدم مصادر الرواية التاريخية . ولا يخفى أن مصر كانت مركزا يمر عليه علماء المغرب وطلاب العلم ، يأخذون فيها عن علمائها ، وقد ذكر ابن عبد الحكم بعض

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد ، فتح العرب للمغرب بين الحقيقة التاريخية والأسطورة الشعبية ، ص ٨ .   (٢) نفس المرجع .

أسماء لهـؤلاء منهم هلال بن ثروان اللواتى الذى اشترك فى حملة حسان ابن النعمان .

ويعتبر كتاب فتوح المغرب أقدم المصادر العربية فى تاريخ الفتح العربى للمغرب ، وقد كتبه ابن عبد الحكم كـتتمة لفتح مصر . ويبدأ تاريخ فتح المغرب بالمحاولات الأولى للفتح ، وذلك منذ قيام عمرو بن العاص بغزو برقة وطرابلس ، ومعاودة عبد الله بن سعد ، ومعاوية بن حديج الـكرة على إفريقية . ثم يستمر فى سياق الروايات عن الفتح على أيدى عقبة بن نافع ، وأبي المهاجر دينار ، وزهير بن قيس ، وحسان بن النعمان ، ويستكمل روايته بولاية موسى بن نصير على إفريقية . وقد اهتم المؤرخون بنشر فصول من هذا الـكتاب منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ففى الترجمة الفرنسية لكتاب العبر لابن خلدون التى نشرها دى سلان بعنوان : l' Histoire des Berbères t I. قطعة من فتوح المغرب لابن عبد الحكم تنتهى حتى إنشاء القيروان . كـذلك نشر جون هاريس جونز سنة ١٨٥٦ ترجمة من فتوح الأندلس لابن عبد الحكم ، وقد استعان السنيور لافونتى القنطرة المستشرق الاسبانى بهذه الترجمة الفرنسية وترجم منها عدة صفحات إلى الاسبانية فى مقدمته لكتاب « أخبار مجموعة فى تاريخ الاندلس » ، وفى سنة ١٩١٤ نشر هنرى ماسيه الجزء الخاص بفتوح مصر . وفى سنة ١٩٢٢ صدر النص الكامل لكتاب فتوح مصر وإفريقية نشره شارل تورى بعنوان Kitab Futuh' Micr. ومنذ نحو ١٧ سنة تقريبا قام المستشرق الفرنسى الاستاذ البيرجاتو بنشر القسم الخاص بفتوح المغرب والاندلس مع الترجمة الفرنسية ومقدمة نقدية رائعة ، بعنوان :

Conquête de l' Afrique du Nord et de l' Espagne; dans : Bibliothèque Arabe - Française, No II, Alger, 1947.

وأخيرا نشر الأستاذ عبد المنعم عامر النص التاريخى كله متضمنا فتوح مصر والمغرب والأندلس بالقاهرة فى ١٩٦١ ، عن نسخة من كتاب فتوح مصر والمغرب محفوظة بمكتبة فاتح بالآستانة .

٢ ـ البلاذرى (ت ٢٧٩) كتاب فتوح البلدان :

هو أحمد بن يحيى بن جابر بن داود المعروف بالبلاذرى ، غير معروف الأصل ، وإن كان الأستاذ سوفاجيه يميل إلى إرجاع أصله إلى الفرس . ولد البلاذرى فى بغداد فى أواخر القرن الثانى للهجرة ، ونشأ فى فترة من أزهى عصور الحضارة العباسية فى القرن الثالث الهجرى ، وأخذ عن علماء بغداد أمثـــال الحسين بن على الأسود ، والقاسم بن سلام ، والمدائنى ، ومحمد بن سعد ، ثم رحل إلى الشام فى صباه رغبة فى التحصيل ، واكتساب ثقافات جديدة ، وتنقل بين مدن الشام آخذا على علمائها ، ففى دمشق سمع على هشام بن عمار وأبى حفص الدمشقى ، وفى حمص سمع على محمد بن مصفى . وعلى هذا النحو استطاع البلاذرى أن يجمع بين علم أهل العراق وعلم أهل الشام ، وكان لأساتذته وثقافته ورحلاته وتردده على قصور الخلفاء أثر كبير فى إنتاجه التاريخى(١) . وقد لازم البلاذرى الخليفة المتوكل ، وارتفعت مكانته عنده ، فنراه يجالسه وينادمه . وعاش البلاذرى فترة من عصر النفوذ

---

(١) مقدمة كتاب فتوح البلدان ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٩٥٦ ص ١٣ ، ١٤ .

التركى الأول ، وشـهد مقتل المتوكل سنة ٢٤٨ ﻫ ، والمنتصر سـنة ٢٤٨ ﻫ أيضا، ثم اتصل بالمستعين ، وعاش فى كنفه ، ولكن المستعين لم يطل به العمر فى الخلافة ، إذ قتل بعد أربع سنوات من خلافته ، وتولى المعتز سنة ٢٥٢ ، وعهد إلى البلاذرى بتأديب ابنه، وكان مصير المعتز أيضا نفس مصير أسلافه من خلفاء بنى العباس ، ومنذ مقتل المعتز أخـذ البلاذرى يتوارى عن حياة البلاط الخلافى ، وقاسى شظف العيش فى خـلافة المعتمد ، وتوفى أخيرا فى آخر خلافة المعتمد سنة ٢٧٩ ﻫ .

ويبدو أن البلاذرى تأثر بما دونه الواقدى والمدائنى وابن الحكم وغيرهم فى الفتوح ، فألف كتابه « فتوح البلدان » على غرار كتب الفتوح التى صنفها المدائنى والواقدى وأبو حذيفة وابن المثنى ، واستقى معظم أخباره عن الواقدى ، والقاسم بن سلام ، والمدائنى ، والعباس بن هشام ، كما أخذ بعض أخبـاره عن أشخاص من أجناس مختلفة ذكر أسماء بعضهم أحيانا ، وأغفلها أحيانا أخرى .

ويهمنا من كتابه ، القسم الخاص بفتح إفريقيـة ، وهو قسم موجز ، اعتمد فيه أكثر ما اعتمد على ما حدثه به محمد بن سعد عن الواقدى. وتتميز أخبـاره بملاحظاته الشخصية التى يرجح فيهـا رواية على رواية ، غير أنه أخطأ فى بعض أخباره التى رواها ، ولعل سبب وقوعه فى هـذه الأخطاء يرجع إلى اعتماده على مصادر شرقية لا تتضمن أخبار صحيحة عن إفريقية .

وقد نشر « فتوح البلدان » عدة مرات ، وأهم هـذه النشرات ، نشرة دي غوية ، الذى نشره كاملا فى ثلاثة أقسام من سنة ١٨٦٣م إلى سنة

١٨٦٦ ، ومنهـا نشرة الدكتور صلاح الدين المنجد ، فى ثلاثة أجزاء سنة ١٩٥٦ .

٣ - ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ) ، الكامل فى التاريخ :

يتناول تاريخ العالم عامة والعـــالم الإسلامى بوجه خاص ، وقد رتب ابن الأثير هـذا التاريخ حسب السنين ، وضمن المؤرخ حوليـاته أحداث المغرب حتى سنة ٦٢٨ هـ وهى السنة التى توفى فيهـا . وقد جرد المستشرق Fagnan من هـذا الكتاب الكبير كل ما يتصل بأحـداث المغرب ، ونشره بعنوان : Annales du Maghreb et de l' Espagne du Tarikh d' Ibn al - Athir, Alger, 1901. وتعتبر الأخبار الخاصة بفتح العرب للمغرب ، والواردة فى الكامل من أهم المصادر العربية ، وأكثرها دقة ، فقد اعتمد المؤرخ فيها على مصادر أندلسية مغربية ، وكانت هـذه المصادر متوفرة فى عصر ابن الأثير .

٤ - أبو بكر عبد الله بن أبى عبد الله المالكى (ت . بعد سنة ٤٥٣) كتاب رياض النفوس :

من أهم مصادر تاريخ الفتح العربى للمغرب ، إذ يتضمن فصلا يستعرض فيه المؤلف حوادث الفتح العربى كاملة وافية ، منذ المحاولات الأولى التى قام بها عمرو بن العاص سنة ٢١ هـ حتى استكمال حسان بن النعمان للفتح فى سنة ٨٥ هـ . وقد اعتمد المالكى فى هـــذا القسم التاريخى على مصادر شرقية كالواقدى وابن اسحق [(١)] ، بالاضافة إلى روايات اقتبسها من مصنفات

(١) أبو بكر عبد الله المالكى ، كتاب رياض النفوس ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ٢١ مقدمة .

مغربية قديمة ضاعت ولم تصل إلينا . وبقية الكتاب تراجم لعلماء إفريقية وفقهائها ، طبقة بعد طبقة حتى سنة ٣٥٦ . وقد نشر الأستاذ الدكتور حسين مؤنس الجزء الأول من هـذا الكتاب ، ويشمل الفترة الواقعة ما بين الفتح العربي إلى آخر سنة ٣٠٠ هـ . وقد صدر الكتاب في القاهرة في سنة ١٩٥١ .

٥ ـ النويرى (ت . ٧٣٢ هـ) ، نهاية الأرب فى فنون الأدب :

هو شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الكريم البكرى المعروف بالنويرى ، ولد سنة ٦٧٧ بمدينة قوص ، وتلقى العـــلوم الدينية فى بلدته بالصعيد ، فسمع الحديث على عدد من كبار المحدثين . ونبغ فى الإنشاء حتى أنه تولى كتابة الإنشاء فى عصر الناصر محمد بن قلاوون ، ثم تدرج فى سلك الدواوين ، وجمع كتابه الكبير « نهاية الأرب فى فنون الأدب » فى ثلاثين مجلدا (١) . وقد قسم النويرى هذه الموسوعة إلى خمسة أقسام : الأول فى الجغرافيا (فى السماء والآثار العلوية والأرض والمعالم السفلية) ، والثانى فى الانسان وما يتعلق به ، والثالث فى الحيوان الصامت ، والرابع فى النبات ، والخامس فى التاريخ (٢) . ويتضمن هذا القسم الأخير جزئين هما الخامس والسادس ، أفردهما لتاريخ إفريقية والأندلس . وفى هذين الجزئين يعتمد فى أخباره اعتمادا كبيرا على مؤرخ أندلسى اسمه الزهرى ، لعله المسور بن مخرمة بن نوفل الزهرى ، ويتشابه ما كتبه النويرى عن المغرب مع ما كتبه المالكى ، مما يؤكد اعتماد المؤرخين على مصدر واحد . ويعتقد الأستاذ

---

(١) نقولا زيادة ، الجغرافية والرحلات عند العرب ، بيروت ، ١٩٦٢ ص ٩٥ .

(٢) النويرى ، نهاية الأرب فى فنون الأدب ، القاهرة ، مطبوعات دار الكتب المصرية ، ١٩٢٣ ، ج ١ ص ٢ .

حسن حسنى عبد الوهاب أن هذا المصدر هو كتاب بعنوان مغازى إفريقية لمؤلف مجهول ، مات فى حدود القرن الثانى للهجرة (١) ، ولعله نفس كتاب المغازى الذى ينسب إلى الواقدى .

وكتابة النويرى عن الفتح العربى للمغرب تتضمن أخبارا تختلط فيها الأقاصيص بالحقيقة . وقد نشر ماريانو جسبار ريميرو هذين الجزئين مع الترجمة الاسبانية فى عامى ١٩١٧ ، ١٩١٨ (٢) .

ب ـ أهم المصادر العربية فى تاريخ المغرب فى العصر الاسلامى :

١ ـ ابن عذارى المراكشى (ت . فى أواخر القرن السابع الهجرى) :

البيان المغرب فى أخبار المغرب :

هو مؤرخ مغربى عاش فى عصر الموحدين ، ولا يعتبر كتابه المذكور من أهم مصادر الفتح العربي للمغرب فحسب ، بل أهم مصادر تاريخ بلاد المغرب والأندلس فى العصر الاسلامى على الإطلاق ، إذ يتميز بتضمنه الأخبار عن تاريخ الفتح أكثر دقة من الأخبار التى أوردها ابن عبد الحكم والبلاذرى . ويتناول ابن عذارى فى كتابه « البيان المغرب » تاريخ المغرب والأندلس منذ الفتح حتى أواخر القرن السادس الهجرى . وقد اعتمد ابن عذارى فيه على مصادر مغربية أندلسية ، ترجع إلى القرنين الخامس والسادس الهجرى ، فروايته عن الفتح تمثل الروايتين الأندلسية المغربية

---

(١) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٣١٠ .

(٢) آنخل جنثالث بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٥ ص ٢٥١ .

والافريقية (١) . ويذكر ابن عذارى نفسه أنه نقل من عدد من المصادر منها تاريخ الطبرى والبكرى والرقيق والقضاعى ، وابن شرف ومن كتاب الأنوار الجلية فى الدولة المرابطية ، ومن نظم الجمان ومن كتابي الأشيرى والبيذق، وكتاب يوسف الكاتب .. إلى آخره . وقد اعتمد ابن عذارى فى تاريخ المغرب خاصة على كتاب صفة المغرب للبكرى الذى نقل عن محمد الوراق ، وكتاب العبر لابن أبى الفياض وهو أندلسى من مدينة استجة ، وكتاب نظم الجمان لابن القطان وهو مؤرخ مغربى ، وكتاب الاستيعاب لابن عبد البر ، وهو قرطبي .

ويقسم ابن عذارى « البيان المغرب » إلى ثلاثة أجزاء : الأول يشتمل على أخبار إفريقية منذ الفتح الأول فى خلافة عثمان ، وذكر أمراء المغرب فى عصر الدولة الأموية ، والدولة العباسية حتى انتقال الفاطميين إلى مصر واستخلافهم صنهاجة على إفريقيــة ، ويعالج أيضا فتنــة العرب وأسبابها وأخبار أمراء بنى زيرى وبنى حماد حتى ظهور المرابطين . والجزء الثـانى : خصصه لتـــاريخ الأندلس منذ الفتح الإسلامى حتى دخول اللمتونيين (المرابطين) الأندلس فى سنة ٤٧٨ . أما الجـزء الثالث فيضم تاريخ دولتى المرابطين والموحدين حتى انقراض دولة الموحدين وقيـام الدول الوارثة للموحدين فى المغرب .

وقد نشر المستشرق الهولندى دوزى قسما من كتاب البيان المغرب فيما

---

(١) ليفى بروفنسال ، نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، صحيفــة المعهـد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد ، المجلد الثانى ، عدد ١ ، ٢ ، مدريد ١٩٥٤ ص ١٩٨ .

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب تحقيق ليفى بروفنسال ج ١ ، ١٩٤٨ ، ص ٢ ، ٣ .

بين عامى ١٨٤٧ ، ١٨٥١ ، بليدن ، عن مخطوطة رقم ٦٧ بمكتبة ليدن ، وتتكون من ١٦٠ صفحة مكتوبة بخط مغربى ، ولكن المخطوطة التى اعتمد عليها دوزى مبتورة فى بدايتها ونهايتها ، كما أن صفحاتها الأولى تآكلت بفعل الرطوبة ، وتنتهى أخبارها إلى نهاية القرن الرابع الهجرى ، ويشتمل هذا القسم المنشور من البيان على الجزء الأول من الكتاب وقسم من الجزء الثانى، نشرها دوزى فى جزئين الأول : يتعلق بتاريخ المغرب منذ الفتح العربى حتى ظهور المرابطين مرتبة حوادثه حسب الدول والعهود ، أما الجزء الثانى فينتهى بوفاة المنصور محمد بن أبى عامر، وقد أعيد طبع هذا الكتاب ببيروت (دار صادر — بيروت) فى عام ١٩٥٠ . ولكن هذه النشرة الجديدة هى صورة مشوهة من طبعة ليدن، إذ تكثر فيها الأخطاء والمآخذ. ثم أعاد المستشرقان ليفى بروفنسال وكولان طبع القسم الذى نشره دوزى من البيان ، وراعيا فى هذه الطبعة الجديدة أن يصححا الأخطاء التى وردت فى طبعة دوزى، من واقع مخطوطة جديدة عثر عليها الأستاذ ليفى بالمغرب . وكان هذا المستشرق الكبير قد نشر فى سنة ١٩٣٠ بباريس القسم الخاص بملوك الطوائف فى الأندلس أى من وفاة ابن أبى عامر إلى سنة ٤٦٠ هـ . وقد اعتقد ليفى بروفنسال أن هذا القسم الذى نشره هو الجزء الثالث من البيان ، ولكن انضح فيما بعد أنه تتمة للجزء الثانى من هذا الكتاب .

ثم اهتم المستشرق الاسبانى امبروسيو إويثى ميراندا بالجزء الثالث من البيان ، وكان قد نشر هذا الجزء فى سنة ١٩١٧ ظنا منه أنه لمؤرخ مجهول ، وذلك من مخطوطة تعرف بمجهول مدريد وكوبنهاجن ، وقد تبين فيما بعد

أن هـذا القسم هو نسخة مختصرة بعض الشيء من الجزء الثالث من البيان المغرب (١) .

وأخيرا قام هذا المستشرق نفسه فيما بين عامى ١٩٦٠ ، ١٩٦٣ بتحقيق هذا الجزء الثالث كاملا ، مستعينا فى هذا بالأستاذين محمد بن تاويت ، ومحمد ابراهيم الكتانى ، ونشرته جامعـة الرباط . وقد اعتمد المحققون فى نشر هذا الجزء على عدة مخطوطات . وفى سنة ١٩٦١ ، نشر السنيور امبروسيو إويثى ميراندا قطعة من البيان تتعلق بتاريخ المرابطين فى مجله Hesperis (٢) .

٢ ـ عبد الرحمن بن خلدون ، كتاب العبر :

ينتسب عبد الرحمن بن محمد بن خلدون إلى بنى خلدون من عرب اليمن الذين استقروا عند فتح الأندلس بمدينة إشبيلية ، وكانت لهم الرئاسة إبان عصر الاضمحلال الأول . وظل بنو خلدون يقيمون بهذه المدينة إلى أن كانت ثورة ابن الأحمر بحصن أرجونه ، وقيام الفتنة التى انتهت بسقوط قرطبة فى أيدى النصارى سنة ٦٣٦ هـ ، فارتحلوا إلى العدوة ، ونزلوا سبتة . وكان محمد بن الحسن بن خلدون ، جد المؤرخ ، يعمل فى خدمة بنى حفص بافريقية ، فنشأ ابنه أبو بكر محمد فى بلاط السلطان بتونس ، وكان أبو بكر هذا على حد قول ابنه عبد الرحمن المؤرخ « مقدما فى صناعة العربية ، وله بصر بالشعر وفنونه » (٣) .

---

(١) آنخل جنثالث بالنثيا ، ص ٢٥٠ .

(٢) لسان الدين بن الخطيب ، كتاب أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى ، والأستاذ محمد ابراهيم الكتانى ، الدار البيضاء ١٩٦٤ ص ٢٨٥ .

(٣) عبد الرحمن بن خلدون ، التعريف بابن خلدون ، ورحلته شرقا وغربا ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجى ، القاهرة ١٩٥١ ص ١٤ .

ونشأ عبد الرحمن بن خلدون بتونس فى بيئة علميـة ، وقد عكف منذ نشأته على تحصيل العلم ، فقرأ على كبار أساتذه الأندلس والمغرب ، ودرس النحو وعلوم اللغة على يدى والده وأساتذة آخرين أمثال الشيخ أبو عبد الله محمد بن العربى ، وأبو عبدالله محمد بن الشواش الزرزالى والشيخ أحمد بن القصار ، ومحمد بن بحر ، كما لازم كبار المحدثين والفقهاء بتونس وفى مقدمتهم شمس الدين أبى عبدالله محمد بن جابر الواد ياشى، ثم اتصل بالسلطان المرينى أبى عنان، فاستخدمه فى كتابته سنة ٧٥٥ ، ومنذ هـذا التاريخ بدأ نجم ابن خلدون يلمع فى سماء السياسة، وكانت لتجاربه الطويلة وخبرته الفائقة فى ميدان السياسة فى المغرب والأندلس أثر كبير فى تعرفه لطبيعة الظواهر الاجتماعية والسياسية، وتطور التاريخ والمجتمع وقيام الأسر وسقوطها[1]، كما كانت لدراساته الطويله على علماء عصره فضل كبير فى تكوينه العلمى . ويعتبر كتابه « العبر » أعظم ما صنفه فى تاريخ العرب والعجم والبربر ، ولا غنـاء لمن يبحث فى تاريخ المغرب عن دراسة هذا المصنف العظيم الذى يعتبر أساسا لهـذا التاريخ ، فهو موسوعة عظمى تتضمن خلاصة تجـــارب المؤلف . وقـد قام بتأليفه فى المغرب فيما بين عامى ٧٧٦ هـ ، ٧٨٠ هـ ، ورفع أجزاء منـه إلى السلطان أبى العباس بتونس سـنة ٧٨٤ هـ ، أى فى السنة التى رحل فيهـا إلى مصر ، ولكن يبـدو أنه أضاف وعـدل فى هـذا الكتاب أثناء مقامه فى مصر ، بعد أن استوسع علمه لكثرة ما قرأه وبحث فيه ، ولكثرة ملاحظاته فى رحلاته وأسفاره . ويهمنا من هـــذا الكتاب

---

(٢) ولترج . فشل ، نشاط ابن خلدون فى مصر المملوكية ، مقال فى كتاب دراسات إسلامية ، ترجمة الأستاذ أنيس فريحة وآخرين ، بيروت ، ١٩٦٠ ، ص ١٧٨ .

الجزء الثالث (طبعة بولاق سنة ١٢٨٤ هـ) إذ يضم ثلاثة فصول هامة : الأول فى ذكر مواطن البربر فى المغرب ، والثانى فى ذكر فضائلهم ، والثالث فى ذكر أخبارهم منذ الفتح العربى وقد نشر البارون دىسلان الجزء الخاص بالبربر فى مجلدين ، وذلك فيما بين عامى ١٨٤٨ ، ١٨٥١ ، بعنوان : Histoire des Berbères, extraite du kitab al - Ibar ، وترجم النص العربى إلى الفرنسية فيما بين عامى ١٨٥٢ ، ١٨٥٦ فى ثلاثة أجزاء . كذلك تولى دى فرجيير نشر الجزء التاريخى الخاص بتاريخ المغرب منذ الفتح حتى بداية دولة بنى الأغلب ، وذلك فى سنة ١٨٤١ .

٣ - لسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦) ، كتاب أعمال الأعلام ، القسم الثالث الخاص بالمغرب :

هو لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد المعروف بابن الخطيب السلمانى ، وأصل بيتهم من قرطبة(١) ، ولد فى لوشة من مدن مملكة غرناطة سنة ٧١٣ هـ ، ونشأ بغرناطة فى بيئة يسودها العلم والأدب ، وشغف منذ صباه بدراسة علوم الطب والفلسفة ، فأخذ عن الطبيب المشهور يحيى بن هذيل ، كما برع فى نظم الشعر والكتابة ، ولم يلبث أن دخل فى خدمة سلطان غرناطة أبى الحجاج يوسف بن محمد الخامس (٧٣٣ - ٧٥٥) ، واختير وزيرا له بعد وفاة الوزير ابن الجياب فى وباء سنة ٧٤٩(٢) . ومنذ ذلك الحين

(١) ابن الخطيب ، الاحاطة فى أخبار غرناطة ، المجلد الأول ، نشره الأستاذ محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٥٥ ، المقدمة ص ٣١ .

(٢) آنخل جنثالث بالنثيا ص ٢٥٢ . - F. Pons Boigues, Ensayo bio - bibliografico sobre los historiadores y Geografos arabigo espanoles, Madrid, 1898, p. 335.

ظهرت براعته فى الكتابة والنظم ، وتالق نجمه فى الأدب والتاريخ والطب والفلسفة تألقا يشهد به وصوله إلى منصب الوزارة ، وإيفاده إلى المغرب سفيرا من سلطان غرناطة محمد الغنى بالله سنة ٧٥٥ هـ إلى سلطانها أبى عنان المرينى ، ليستنصره ، ويطلب معونته على ملك قشتالة . ونجح ابن الخطيب فى مهمته ، ونال حظوة كبيرة عند السلطان الغرناطى . ثم نفى فى سنة ٧٦٠ مع سلطانه محمد الخامس إلى المغرب على أثر الانقلاب الذى قام به أنصار اسماعيل ابن يوسف . وأقام ابن الخطيب فى فاس زهاء ثلاث سنوات ، استأثر فيها بزعامة الفكر والكتابة ، وعكف خلالها على القراءة والتأليف والرحلة ، وقد كتب فى فترة نفيه عدة كتب ، منها كتاب « اللمحة البدرية فى الدولة النصرية » (١) ، وقد طبع هذا الكتاب فى القاهرة سنة ١٣٧٤ هـ ، وكتاب « نفاضة الجواب فى علالة الاغتراب » ، سجل فيه مشاهداته فى المغرب ، وضمنه ما وقع له من أحداث سياسية فى تلك الفترة(٢) ، وكتاب « معيار الاختبار فى ذكر المعاهد والديار » ، وهى رسالة كتبها ابن الخطيب فى وصف بعض مدن المغرب والأندلس ، نشرها الأستاذ الدكتور مختار العبادى مع مجموعة من رسائل ابن الخطيب(٣) .

ثم انتهت فترة النفى باسترجاع الغنى بالله ملكه سنة ٧٦٣، فعاد إلى غرناطة وظل يقوم بوظيفته كوزير للسلطان حتى إذا ما أحس بتغير السلطان عليه

---

(١) أحمد مختار العبادى ، مؤلفات لسان الدين بن الخطيب فى المغرب ، مقال فى مجلة Hespéris سنة ١٩٥٩ العدد ٣ ، ٤ ، ص ٢٥٢ .

(٢) أحمد مختار العبادى ، مقدمة لكتاب أعمال الأعلام ص ح .

(٣) أحمد مختار العبادى ، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب ، مجموعة رسائله ، الاسكندرية ١٩٥٨ ص ٦٩ .

بتأثير وشايات الواشين ، وعلى رأسهم تلميذه ابن زمرك الشاعر ، رحل إلى المغرب ، ولاذ بالسلطان أبى فارس عبد العزيز بن أبى الحسن المرينى فى تلمسان ، الذى أحسن وفادته ، وأبى أن يسلمه إلى حكومة غرناطة. وظل ابن الخطيب مقيما فى المغرب . ولم يتركه أعداؤه ينعم باقامته فى المغرب ، فقد عملوا على تدميره فى منفاه ، فاتهموه بالزندقة ، وأحرقوا كتبه فى غرناطة ، ومازالوا به ينادون باعدامه ، حتى نكبه السلطان أبو العباس أحمد ابن أبى سالم المرينى ، فاعتقله ، ودس عليه الوزير سليمان من قتله فى السجن خنقا ، ثم حملت جثته وأحرقت .

ويعتبر كتابه « أعمال الأعلام » من الكتب الكبرى التى تناولت تاريخ الدول الاسلامية(١) ، وقد قسمه ابن الخطيب إلى ثلاثة أقسام كبرى : الأول ، وما يزال مخطوطا ، أفرده لتاريخ المشرق الاسلامى ، والثانى خصصه لتاريخ الأندلس منذ الفتح الاسلامى حتى عصر السلطان محمد بن يوسف بن اسماعيل ، وقد نشره الأستاذ ليفى بروفنسال فى سنة ١٩٣٤ بالرباط ، وأعيد نشره فى بيروت سنة ١٩٥٦ . والثالث أهم الأقسام الثلاثة بالنسبة لتاريخ المغرب ، إذ تناول فيه تاريخ المغرب منذ قيام دولة الأغالبة حتى قيام دولة الموحدين . ويبدو أن ابن الخطيب كان ينوى استكمال هذا القسم حتى عصره ، إذ نص على ذلك فى فهرسه ، ولكن لم يتح له أن

---

(١) يعتبر كتاب أعمال الأعلام آخر انتاج علمى له قام بتأليفه قبيل مقتله سنة ٧٧٦، وقد صنفه فى فاس حينما التجأ اليها بمناسبة تولية أبى زيان محمد السعيد بن عبد العزيز سلطنة المغرب أى فى الفترة ما بين عامى ٧٧٤ ، ٧٧٦ هـ ، وذلك رغبة فى خطب ود السلطان الجديد .

يتمه بعد نكبته . وكان هذا القسم مايزال مخطوطا حتى عهد قريب ، فتولى نشره الأستاذان : الدكتور أحمد مختار العبادى ، ومحمد ابراهيم الكتانى ، بالدار البيضاء سنة ١٩٦٤ .

٤ ـ محيى الدين عبد الواحد بن على المراكشى ، (ت . النصف الثانى من القرن السابع) : كتاب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب :

ولد عبد الواحد المراكشي في مراكش في سنة ٥٨١ هـ في عهد خليفة الموحدين أبى يوسف يعقوب المنصور ، وتلقى العلوم الدينية فى مراكش وفاس ، على أيدى كبار علماء هذا العصر أمثال أبى بكر بن زهر ، ثم رحل فى سن الثانية والعشرين إلى الأندلس حيث تلقى العلم على شيوخ الأندلس ، ففى قرطبة أخذ على أستاذه أبى جعفر الحميرى . وفى إشبيلية اتصل بالسيد ابراهيم بن أبى يعقوب يوسف . فأحبه وقربه إليه . ثم عاد إلى مراكش بعد ذلك فى سنة ٦١٠ هـ . وفى سنة ٦١٣ غادر المغرب الإسلامى إلى المشرق ، وطاف فى أقطاره من مصر إلى الحجاز إلى الشام إلى العراق . وفى أثناء طوافه فى هذه البلاد صنف كتابه المعجب ، استجابة لرغبة أحد الوزراء العباسيين ، وتم الفراغ من هذا الكتاب فى سنة ٦٢١ .

وقد عنى المراكشى فى كتابه « المعجب » ، بتلخيص تاريخ الأندلس والمغرب منذ الفتح العربى حتى عصر الخليفة أبى محمد عبد العزيز بن أبى يعقوب يوسف ، واهتم بوجه خاص بعصر الموحدين ، ثم أضاف إلى كتابه فصلا عن سير المصامدة ، وأخبارهم ، وأحوالهم ، وفصلا آخر عن جغرافية

المغرب . ويعتبر هذا الكتاب من أهم مصادر التاريخ الاسلامى فى المغرب فى عصر الموحدين ، فقد عاصر المؤلف كثيرا من الأحداث التى وقعت فى هذا العصر ، واعتمد فى الأجزاء السابقة على أخبار للحميدى لم تصل إلينا.

وقد نشر العلامة دوزى هـــذا الـكتاب للمرة الأولى سنة ١٨٤٧ عن المخطوطة الوحيدة المحفوظة فى مكتبة ليدن ، بعنوان The history of the Almohads ، وأعاد طبعه مرة ثانية فى سنة ١٨٨١ ، ثم ترجمه المستشرق الفرنسى فانيان Fagnan إلى الفرنسية ، بالجزائر فى سنة ١٨٩٣[1] وفى مصر نشر مرتين بالقاهرة ، بعنوان تاريخ الأندلس ، عن طبعة دوزى الأولى ، دون أن يقوم الناشر بتحقيق النص . ثم أعاد الأستاذ محمد الفاسى المراكشى طبعه بفاس سنة ١٩٣٨ ، وأخيرا نشره الأستاذان محمد سعيد العريان ، ومحمد العربى العلمى بالقاهرة فى سنة ١٩٥٠(٢) .

٦ ـ الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية لمؤلف مجهول :

ذكر صاحب الحلل أنه فرغ من تأليف هذا الـكتاب فى ١٢ ربيع الأول سنة ٧٨٣ ، أى فى عصر محمـــد الغنى بالله سلطان غرناطة ، وأبى زيد بن عبد الرحمن بن أبى الحسن المرينى سلطان المغرب(٣) .

---

(١) Pons Boigues, op. cit. p. 413.

(٢) عبد الواحد المراكشى ، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، حققه الأستاذان محمد سعيد العريان ، ومحمد العربى العلمى ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، أنظر المقدمة .

(٣) أحمد مختار العبادى ، دراسة حول كتاب الحلل الموشية فى ذكر الأخبـــار المراكشية ، وأهميته فى تاريخ المرابطين والموحدين ، مجلة تطوان ، العدد الخامس ، ١٩٦٠ ، ص١٣٩ .

ويتناول صاحب الكتاب تاريخ المغرب والأندلس فى عصر المرابطين والموحدين فى شىء من التفصيل ، وقد اعتمد فى تصنيف كتابه على مصادر معاصرة ، ذكر أسماء أصحابها ، منهم ابن الصيرفى (المتوفى سنة ٥٧٠) وكان كاتبا للأمير تاشفين بن على بن يوسف ، ألف كتابا بعنوان الأنوار الجلية فى أخبار الدولة المرابطية ، ومنهم ابن القطان صاحب كتاب نظم الجمان فى أخبار الزمان ، ومنهم الجغرافى عبيد الله البكرى . كما اعتمد فى عصر الموحدين على أبى بكر الصنهاجى الملقب بالبيذق ، صاحب كتاب أخبار المهدى بن تومرت ، وعلى ابن صاحب الصلاة . وكتاب «الحلل الموشية» من الكتب الهامة التى لا يمكن الاستغناء عنها ، فى تاريخ دولتى المرابطين والموحدين ، ويمتاز بدقة أخباره التاريخية وصحتها ، خاصة فيما يختص بقيام دولة المرابطين . كما يمتاز أيضا بمعالجته للنظام الحربى وأساليب القتال ، وذكره لأنواع الأسلحة المستخدمة فى عصرى المرابطين والموحدين . وقد طبع هذا الكتاب لأول مرة فى تونس سنة ١٩١٠ ، وأعيد طبعه للمرة الثانية بالرباط فى سنة ١٩٣٦ ، ولكن هاتين الطبعتين مليئتان بالأخطاء والتحريف . وفى سنة ١٩٥٢ نشر المستشرق الاسبانى امبروسيو إويثى ميراندا الترجمة الاسبانية لهذا الكتاب بمدينة تطوان من بين منشورات معهد الجنرال فرانكو (١) .

---

(١) A.Huici Miranda, " Al - Hulal al - Muwšiyya", Cronica arabe de las dinastias Almoravide, Almohade y Benimerin, Tetuan, 1952.

ج ـ بعض المصادر العربية فى وصف مدن المغرب :

١ ـ البكرى [عبيد الله (تونس سنة ٤٨٧ ﻫ)] ، المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب :

هو أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكرى ، من أهالى قرطبة ، ولد بها فى سنة ٤٣٢ ﻫ وفيها توفى سنة ٤٨٧ ﻫ . وكان البكرى من بيت معروف بالعلم مشهور بالشرف ، فنشأ البكرى نشأة علمية فى عصر ارتفعت فيه مكانة العلماء والأدباء ، على الرغم من التفتت السياسى الذى منيت به بلاد الأندلس بعد سقوط الخلافة . أقام البكرى فى قرطبة ، فى ظل بنى جهور ، أصحاب هذه المدينة ، وهناك اتصل بالمؤرخ القرطبي الكبير ابن حيان ، وقد كان لهذا الاتصال أثره فى تكوينه التاريخى . ثم رحل البكرى بعد وفاة ابن حيان فى سنة ٤٥٦ إلى المرية ، ثم غادر المرية إلى إشبيلية ، واستقر فيها فى كنف المعتمد بن عباد .

لم يغادر البكرى فى حياته أرض الأندلس ، ولذلك فان كتبه الجغرافية لاتعدو أن تكون جمعا منظما لجهود من سبقه من المؤرخين والجغرافيين(١) . كذلك أفاد البكرى من تواليف لاتينية معربة ككتاب : Etimologia لايزيدور الاشبيلى(٢) . ويعتبر كتابه المسالك والممالك أعظم ما صنفه من تواليف جغرافية ، إلا أنه للأسف لم يصل إلينا منه سوى الجزء الخاص بوصف المغرب . ويضمن البكرى دراسته للمسالك المؤدية إلى المدن نتفا

---

(١) Pons Boigues, op. cit. p. 162

(٢) Ibid ـ آنخل جنثالث بالنثيا ، ص ٣١١ .

تاريخية وأخبارا هامة ، استقى قسما كبيرا منهـا من محمد بن يوسف الوراق ، وهو مؤرخ مغربي كان قد هاجر من القيروان واستقر بقرطبة .

وقد بدأ كاترمير بترجمة هـــذا القسم المغربي فى الجزء الثانى عشر من كتابه :

"Notices et extraits des manuscrits de la bibliothèque du Roi"

ثم نشر دى سلان النص العربى لهـــذا الجزء فى الجزائر سنة ١٨٥٧ بعنوان :

"Description de l' Afrique Septentrionale"

ثم أعاد نشره للمرة الثانيـة فى سنة ١٩١١ ، ونشر الترجمة الفرنسية له فى سنة ١٩١٣ .

٢ ـ الشريف الإدريسى (ت ٥٦٤) ، وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذة من كتاب «نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق»:

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس ، ينتسب إلى بيت الأشراف الأدارسة الحموديين ، ويؤكد العـلامة غزيرى أن الإدريسى ولد بسبتة فى سنة ٤٩٣ ، ولكن دوزى لايوافقه على ذلك[1] . وتلقى الإدريسى علومه الأولى فى المغرب ، ثم انتقل إلى الأندلس ، حيث أقام فترة من الوقت فى قرطبة ، أتم فيها دراساته ، ثم رحل إلى الأندلس والمغرب ومصر وآسيا الصغرى ، وزار صقلية ، واتصل بملكها رجار (Roger II) ، فقربه هـذا

(١) Pons Boigues, p. 233.

إليه ، وكان رجار مولعا بعلوم الفلك والجغرافيا، ووجد في علم الإدريسي واتساع أفقه الجغرافي ، ما جعله يتمسك به ،ولم يزهد الإدريسي الإقامة في الجزيرة في كنف هذا الملك ، وعندئذ عهد إليه رجار بتصنيف كتاب في صفة الأرض من واقع مشاهداته ، فعكف الإدريسي على تصنيفه حتى أتمه في سنة ٥٤٨ هـ . وأضاف إليه قسما سماه : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، ويعرف في كتب الجغرافيا العربية باسم الكتاب الرجاري Libro Rogeriano. والكتاب يزخر بالمعلومات القيمة عن بلاد المغرب والأندلس ، ومعظمها معلومات شخصية استقاها من مشاهداته في رحلاته وأسفاره ، ومن مصادر أخرى .

وقد نشر دوزي ودي غويه الجزء الخاص بافريقية والأندلس من نزهة المشتاق ، في ليدن سنة ١٨٦٦ بعنوان : Description de l' Afrique et de l' Espagne.

وقد أعاد سافدرا نشر هذا الكتاب مصححا ، في مدريد سنة ١٨٨١ .

٣ ـ كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار ، لكاتب مراكشي من كتاب القرن السادس الهجري :

تدل المعلومات الوافية ، والتفصيلات الغزيرة التي وصف بها صاحب هذا الكتاب بلاد المغرب على أنه مغربي الأصل ، وأنه كان يعمل في ديوان الخليفة أبي يوسف يعقوب المنصور ، والكتاب يشتمل على معلومات تاريخية وجغرافية وأثرية وعمرانية دقيقة ، تبعده عن التواليف الجغرافية الخالصة . وينقسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام مختلفة : الأول منها يتضمن وصفا للمدن المقدسة بالحجاز ، والثاني مخصص لوصف مصر ، والثالث ، وهو أهم

هـذه الأقسام وأكثرها دقة ، إذ ضمنه المؤلف مشاهداته وملاحظاته فى المغرب ، باعتباره مراكشيا أكثر إحاطة بمواضع بلادة من مدن المشرق التى طاف بها ، ولا تقف أهمية هذا القسم المغربى إلى هذا الحد ، فقد اهتم أيضا بثروات بلاده الزراعية والمعدنية والمائيـة فى كل مدينة من مدنه ، وقد نشر المستشرق فون كرامر هذا الجزء الخاص بالمغرب فى فيينا فى سنة ١٨٥٢ بعنوان : Description de l' Afrique, par un géographe arabe anonyme du VI e siècle de l' Hégire .

وقام فانيان بترجمته إلى الفرنسية فى سنة ١٩٠٠ بعنوان : L' Afrique Septentrionale au XII e siècle de notre ère; extrait du Recueil des notices et mémoires de la Société Archéologique de Constantine .

وأخيرا قام الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد سنة ١٩٥٨ ، بتحقيق الكتاب كله ، معتمدا فى ذلك على ثلاثة مخطوطات[1] .

٤ – ابن أبى زرع (ت . فى منتصف القرن الثالث الهجرى) : الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس :

هو على بن محمد بن أحمد بن عمر بن أبى زرع الفاسى ، وكان كاتبا لأبى سعيد عثمان المرينى (٧١٩ – ٧٣١) ، وكتابه « روض القرطاس » من أهم مصادر تاريخ المغرب الإسلامى كله ، إذ ضمنـه المؤلف معلومات هامة لتاريخ هذه البلاد منذ قيام دولة الأدراسة وتأسيس فاس حتى عصره.

---

(١) كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار ، لكاتب مراكشى من كتاب القرن السادس الهجرى ، نشره وعلق عليه الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية ، ١٩٥٨

ولكن هذه المعلومات يشوبها الخطأ فى كثير من الأحيان ، ومن أمثلة ذلك ، أنه ينسب بناء مدينة مراكش خطئا إلى يوسف بن تاشفين ، فى حين يتفق ابن عذارى وصاحب الحلل الموشية على أن مراكش من بناء أبى بكر عمر اللمتونى سنة ٤٦٢[١] .

وقد نشر تورنبرج هذا الكتاب فى أبسالة سنة ١٨٤٣ ، فصدر فى جزءين مع ترجمة لاتينية ، ثم ترجمه الأستاذ بومييه إلى الفرنسية فى سنة ١٨٦٠ ، بينما تولى الأستاذ أمبروسيو إويثى ميراندا نقله إلى الإسبانية فى سنة ١٩١٨(٢). وطبع هذا الكتاب طبعة حديثة فى الرباط سنة ١٩٣٦ ، ولكنها للأسف طبعة غير كاملة .

---

(١) أحمد مختار العبادى ، دراسة حول كتاب الحلل الموشية ، ملاحظة رقم ٢١ ، ص١٤٢ ، ١٤٣ .

(٢) آنخل جنثالث بالنثيا ، ص٢٥١ .

البَابُ الأَوَّلُ

فتح العرب لبلاد المغرب

الفصل الأول

المرحلة الأولى من فتح المغرب

(١) صعوبة البحث فى تاريخ الفتح العربى للمغرب .

(٢) جغرافية بلاد المغرب الطبيعية والسكانية .

(٣) مرحلة الغارات (٢١ – ٤٩ هـ / ٦٤٢ – ٦٦٩ م) .

ا ــ المحاولات الأولى فى زمن عمرو بن العاص : غزو برقة .

ب ــ حملة عبد الله بن سعد : غزوة سبيطلة .

ج ــ حملة معاوية بن حديج على إفريقية (٤٥هـ – ٦٦٦م) .

الفصل الأول

المرحلة الأولى من فتح المغرب

(١)

صعوبة البحث فى تاريخ الفتح العربى للمغرب

يعانى الباحثون فى تاريخ الفتح العربى للمغرب صعوبات كبيرة فى كتابة هذا التاريخ ، إذ أن معظم ما ورد فى المصادر العربية من أخبار على قلتها، يعوزها الدقة ، وينقصها الترابط ، ويكتنفها الغموض ، بسبب ما يحيط بها من روايات خرافية ذات طابع أسطورى، منقولة من مصادر مختلفة من حيث الزمان والمكان ، وأقدمها يرجع إلى عصر متأخر كثيرا عن حوادث الفتح . ولهذا فان الباحث فى تاريخ الفتح العربى يواجه مشكلة كبيرة للتوفيق بين هذه المعلومات المتناقضة فيما بينها ، فى معظم الأحيان، من حيث الترتيب الزمنى، ولضبط الحقائق التاريخية واستخلاصها من بين ما يحيط بها من قصص خرافية وأساطير. صحيح أن ما لدينا من معلومات يوضح لنا بصورة إجمالية المراحل التى تم بها فتح العرب للمغرب ، ولكن الباحث فى تفصيلات هذا الفتح ، لابد له أن يخوض وسط خليط متباين من الأخبار التى يغلب عليها الطابع الخرافى ، حتى يتيسر له تصفية هذه الأخبار مما يشوبها من عوامل الخرافة والتباين ، ومثل هذه المهمة الصعبة تتطلب من الباحث صبرا وجلدا فى مقابلة الروايات بعضها ببعض ، وتمييز الغث من الثمين ، والأصلى من الزائف .

ويرجع هذا الإرتباك والغموض فى أخبار الفتح إلى عدة عوامل : منها أن هذه الأخبار كانت تنقل شفاها قبل أن يتم تدوينها ، مما يجعلها عرضة للتحوير والتبديل أثناء تنقلها بين الرواة ، كما يتمثل فيما ورد فى « فتوح إفريقية » للواقدى ، إذ أشار إلى فتح سبيبة ، وجعل منها قصة من قصص البطولة ، فى حين أن فتح سبيبة لم يرد فى سياق الحديث عن الفتوح المغربية فى المصادر الموثوق بها ، وإنما ورد ذكرها كوقعة كبرى بين العرب الهلالية ، وبين بنى حماد الصنهاجيين ، وذلك سنة ٤٥٦ هـ ، مما يدل على وجود خلط واضح بين هذه الرواية وبين هجرة قبائل بنى هلال إلى المغرب (١) . ومنها أن معظم هذه الأخبار ، على حد قول الأستاذ ليفى بروفنسال ، « تشوبه شوائب التحيز الظاهر » (٢) ، نتيجة لخضوعها للعامل القبلى النابع من طبيعة تنظيم العرب القبلى ، حسبما يراه الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، فكل جماعة « تأخذ بالرواية التى ترضى نزعتها أو نعرتها القبلية ، بل وتغير فيها حتى تلائم منزعها هذا » (٣) ، ومن أمثلة هذا التحيز القبلى ، أن الواقدى نسب فى كتابه فتوح إفريقية فخر فتح المغرب إلى قبائل اليمن ، وإلى قبيلة حمير بالذات(٤) . ومنها أن روايات الفتح كانت تخضع أيضا للميول السياسية

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد ، فتح العرب للمغرب بين الحقيقة التاريخية ، والأسطورة الشعبية ، مقال بمجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، العدد ١٦ ، سنة ١٩٦٢، ١٩٦٣ ص ٤٠ .

(٢) ليفى بروفنسال ، نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد ، المجلد الثانى ، ١٩٥٤ ص ١٩٣ .

(٣) سعد زغلول عبد الحميد ، المرجع السابق ص ١ .

(٤) نفس المرجع ص ٣٦ .

والأهواء الحزبية ، فكل فريق يسعى جاهدا إلى تحطيم خصومه عن طريق الطعن ، والغمز ، وتشويه الواقع التاريخى ، فهناك من مؤرخى الفتح من يمجد بنى الزبير كأبطال للفتح العربى لمصر وللمغرب ، ومعظم هؤلاء المؤرخين استقى أخباره عن طريق ابن لهيعة الذى أخذ عن عروة بن الزبير ، وهشام ابن عروة ، أو من نافع مولى آل الزبير الذى نقل عنه الواقدى . وهناك من تغنى بأمجاد العلويين ، فخلطوا المهدية التى أسسها الفاطميون بالقيروان التى أسسها عقبة بن نافع ، ونسبوا بطولة الفتح إلى أبطال علويين بدلا من أبطاله الحقيقيين[١] . ومنها إطلاق العرب العنان لملكاتهم الحسية والخيالية الخصبة فى تصويرهم للحوادث التاريخية .

ومع هذه الصعوبات التى تعترض سبيل الباحثين فى تاريخ الفتح العربى للمغرب ، توصل بعض المؤرخين المحدثين إلى معالجة تاريخ هذا الفتح بطريقة علمية منظمة ، فقابلوا بين النصوص ، واستخلصوا الحقائق الثابتة من سياق الروايات الأسطورية ، فظهرت أبحاث نقدية قيمة نذكر منها على سبيل المثال كتاب : Georges Marçais, La Berberie musulmane et l' Orient au Moyen âge, Paris, 1946, pp. 19 - 40.

وبحث الأستاذ برنشفيج عن ابن عبد الحكم وفتح العرب للمغرب :

Brunchvig, Ibn Abd alhakam et la conquête de l' Afrique du Nord, par les Arabes, étude critique, dans A. I. E. O. VI, 1945 - 1947.

والدراسة النقدية لمخطوط « فتوح مدينة إفريقية » للواقدى ، وهى دراسة قيمة قام بها الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، بعنوان

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد ، المرجع السابق ، ص ٣٠ .

« فتح العرب للمغرب بين الحقيقة التاريخية والأسطورة الشعبية » ، بمجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، العدد ١٦ سنة ٦٢ – ١٩٦٣[١]، والبحث الكبير الذى قام به الأستاذ الدكتور حسين مؤنس عن فتح العرب للمغرب ، وهى دراسة متكاملة لكل جوانب الفتح منذ المحاولات الأولى حتى دور الاستقرار والتعريب ، قابل فيها المؤلف بين النصوص المختلفة ، والروايات المتعارضة ، واستخلص منها مادة علمية كبيرة ، تعتبر من المصادر الرئيسية فى هذا الموضوع .

ومع ذلك فما زالت بعض جوانب من تاريخ الفتح العربى للمغرب يكتنفها الغموض ، ويحتاج الأمر إلى معلومات تاريخية جديدة تلقى ضوءا على هذا الغموض ، فتبدده ، وتسد الفجوات التى تتخلل معلوماتنا عن هذا الفتح .

---

(١) للدكتور سعد زغلول كتاب حديث مايزال تحت الطبع خصصه لتاريخ الفتح العربى للمغرب ، ونعتقد أن هذا الكتاب سيوضح مواضع الغموض فى هذا التاريخ .

(٢)

جغرافية بلاد المغرب الطبيعية والسكانية

١ ـ حدود افريقية والمغرب :

عرفت بلاد المغرب منـــذ أقدم العصور بأسماء مختلفة ، فكان الإغريق يسمون القسم الشمالى منها الذى كان يسكنه العنصر الأبيض باسم ليبو أو ليبيا ، بينما كانوا يطلقون على الصحراء اسم بلاد الأحباش السود[١] . أما لفظ إفريقية Africa ، فقد أطلقه الرومان على الإقليم الذى يقابل اليوم الجزء الشمالى الشرقى من الجمهورية التونسية ، ويشتمل على قرطاجنة وما حولها حتى نوميديا غربا ، وكان يعرف باسم ولاية إفريقية القنصلية Africa Proconsularis [٢] ، وهو الإسم الذى عرب فيما بعد إلى إفريقية ، وأطلقه العرب بادىء ذى بدء على كل ما يلى إقليم طرابلس غربا[٣] . ثم تحدد مدلول إفريقية ، فاقتصر على ما يلى إقليم طرابلس غربا حتى بجاية ، فافريقية فى معظم المصادر العربية تعنى الاقليم الذى تتوسطه القيروان ، ويمتد من إطرابلس حتى بجاية .

---

(١) André Julién, Histoire de l'Afrique du Nord, Paris 1921, p.9

(٢) حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب ، ص ٢ .

(٣) ذكر ابن عبد الحكم أن عمرو كـتب الى الخليفة عمر يستأذنه فى غزوة لافريقية فقال : « ان الله قد فتح علينـــا طرابلس وليس بينها وبين افريقية الا تسعة أيام » (ص ٤٠ ط . البيرجاتو) . ونفهم من هذا أن المقصود بافريقية الاقليم الذى يلى اطرابلس من جهة الغرب .

أما المغـرب فيشمل كل ما يلى مصر غربا حتى المحيط الاطلسى (١) ، وتتوسطه إفريقية . (٢) وعلى هذا النحو يمكننا أن نقسم بلاد المغرب إلى أربعة أقسام هى :

١ ـ برقة وإطرابلس، وهما أول كور المغرب من جهة الشرق، وبعض المؤرخين يدمج هذه الكورة إلى إفريقية ، وبعضهم يفصلها عن المغرب (٣) . ولكن الغالب أن برقة وطرابلس كانا جزءا لا يتجزأ من المغرب الإسلامى .

٢ ـ إفريقية ، وهى الولاية الشرقيـة من مجموع بلاد أطلس وهى البلاد

---

(١) ذكر ابن حوقل أن المغرب « من مصر وبرقة الى افريقيـة وناحية تنس الى سبتة وطنجة » (أنظر كتـاب صورة الأرض ، طبعة بيروت ١٩٦٢ ص ٦٤ . والمقدسى يجعل حدود المغرب من مصر الى السوس الأقصى وجزيرة صقلية والأندلس ، وأول كورة من ناحية مصر برقة (أنظر المقدسى ، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، طبعة ليدن سنة١٩٠٦، ص٢١٦) . كـذلك يدخل اليعقوبى بلاد برقة من جملة أقاليم المغرب(كتاب البلدان طبعة ليدن، ١٨٩١، ص ٣٠٢ ـ ٣٤٣) .

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة افريقية ، المجلد الأول ، طبعة بيروت ، ١٩٥٥ ص ٢٢٨ . ويذكر ياقوت أن « افريقيـة اسم لبـلاد واسعة ومملـكة كبيرة قبالة جزيرة صقلية ، وينتهى آخرها الى قبالة جزيرة الأندلس »، ويذكر فى موضع آخر « وحـد افريقية من طرابلس الغرب من جهة برقة والاسكندرية الى بجاية » . وينقل عن البيرونى أنها سميت افريقية لأنها فرقت بين مصر والمغرب . ويحدد عبد الواحد المراكشى افريقية من أنطابلس (برقة) شرقا الى قسطنطينة غربا وتدخـل طرابلس فى هـذه الحـدود (المراكشى ، المعجب ، ص ٣٤٩) . أما المغرب ، فما بعد قسطنطينة الى المحيط (ص٣٥٧)

(٣) أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى السلاوى ، الاستقصا لأخبـار دول المغرب الأقصى ، ج ١ ، الدار البيضاء ، ١٩٥٤ ص ٧١ .

التى تمتد من خليج سرت الكبير شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا ، وسماها العرب لذلك بالمغرب الأدنى لأنها أقرب إلى بلاد العرب ودار الخلافة بالحجاز والشام . وتمتد من إطرابلس شرقا حتى بجاية أو تاهرت غربا ، وقاعدة إفريقية هى مدينة القيروان .

٣ ـ المغرب الأوسط ، ويمتد من تاهرت حتى وادى ملوية وجبال تازة غربا ، وقاعدته تلمسان وجزائر بنى مزغنة .

٤ ـ المغرب الأقصى ، وسمى كذلك لأنه أبعد أقسام المغرب عن دار الخلافة ، ويمتد من وادى ملوية شرقا حتى مدينة آسفى على المحيط الأطلسى غربا ، وجبال درن جنوبا(١) .

ولفظ إفريقية مشتق من كلمة أفرى Aphri التى أطلقها الفينيقيون على سكان أوتيكا Utica وقرطاجنة ، ثم عممه اليونان بعد ذلك ، فأطلقوه على سكان المغرب من حدود مصر الغربية إلى المحيط الأطلسى(٢) .

ب ـ جغرافية بلاد المغرب الطبيعية والسكانية :

واجه العرب عند فتحهم لبلاد المغرب صعوبات كثيرة ، فاستغرق نحو سبعين سنة ، بينما استغرق فتحهم لمصر والشام والعراق وفارس أقل من عشر سنوات ، ويرجع سبب ذلك إلى ثلاثة عوامل : عامل جغرافى ناشىء من طبيعة بلاد المغرب الجبلية ، ووعورة مسالكها ، وعامل اجتماعى ، وهو النعرة

---

(١) نفس المرجع ـ حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ، القاهرة ١٩٥٧ ص ١٣

(٢) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٢٠

القبلية ، وعامل نفسى نتج عن ذلك من تكتل وتضامن بين قبائل البربر ضد الفاتحين .

تؤلف بلاد المغرب ، ابتداء من خليج سرت الكبير حتى المحيط الأطلسى ، أى باستثناء بلاد برقة واطرابلس ، بأقسامها السياسية الثلاثة ، تونس والجزائر ومراكش ، وحدة جغرافية واثنولوجية مستقلة عن بقية أجزاء القارة ، حتى أنها عرفت فى القرن التاسع عشر لدى الجغرافيين باسم أفريقيا الصغرى ، تمييزا لها عن بقية القارة الإفريقية ، أو ببلاد أطلس ، توكيدا لسطحها الجبلى (١) ، ولارتباطها منذ أقدم العصور بروابط طبيعية وسياسية وثيقة . أما إقليم برقة وطرابلس الذى يعرف اليوم بالمملكة الليبية فكان امتدادا لمصر من الناحية الجغرافية ، ولذلك فاننا نجد المغرب بأقسامه الثلاثة المذكورة يتسم خلال عصور التاريخ بطابع خاص يميزه عن غيره (٢) ، وقد أثر ذلك على حضارته التى ظلت منعزلة ، منطوية على نفسها ، محافظة على أصولها عبر التاريخ . فهو مغلق من الناحية التضاريسية أمام أى تأثيرات خارجية ، بينما نجد القطر الليبي مفتوحا للتأثيرات الحضارية الشرقية التى كانت تتدفق عليه من مصر والشام .

ويعتبر المغرب الأقصى أكثر أقطار المغرب عزلة ، ولا يربطه ببقية المغرب إلا طريقان فقط ، ولذلك كان المغرب الأقصى أقل أجزاء المغرب تأثرا بالأحداث السياسية الكبرى التى تمر عليه ، كما أنه كان أقل أجزاء المغرب

---

(١) A. Julien, p. 9

(٢) لاحظ ابن خلدون ذلك ، اذ يذكر أن « المغرب قطر واحد مميز بين الأقطار » (أنظر كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ط . بولاق ١٢٨٤ هـ ، ج ٦ ص ٩٨) .

تأثرا بالأحداث السياسية الكبرى التى تمر عليـه ، كما أنه كان أقل أجزاء المغرب تعرضا للغزوات القادمة من الشرق ، إذ لم تكن تصل إليه إلا بعد أن تكون قد استنفذت كل قواها . ودليل ذلك أن بنى هلال الذين غزوا برقة واطرابلس وإفريقية والمغرب الأوسط فى القرن الخامس الهجرى ، وأتوا على معالم حضارة هذه الأقاليم ، لم يتمكنوا من النفاذ إلى المغرب الأقصى ، فى الوقت الذى احتلوا فيه طرابلس وتونس والجزائر .

وارتباط بلاد المغرب جغرافيا وإثنولوجيا يرجع قبـــل كل شىء إلى امتداد جبال أطلس من المجموعة الألبية فى قاب المغرب من أقصاه الغربى إلى أقصاه الشرقى (أنظر خريطة رقم ٣) ، فى سلسلتين :

إحداهما شمالية ، وتتفرع إلى فرعين ، فرع يمتد من الشمال الغربى ابتداء من طنجة إلى الشرق بحذاء ساحل العدوة حتى مليلة ، ويعرف بجبال الريف ، وهى جبال متوسطة الارتفاع ، تتخذ شكل قوس يحتضن الساحل الشمالى من سبتة إلى مليلة ، تاركا سهلا ساحليا ضيقا فى هـــذه المنطقة (١) . والفرع الأساسى من هذه السلسلة يمتد من المحيط الأطلسى ، شمالى وادى سوس نحو الشمال الشرقى ، ويعرف باسم أطلس التل . وتمتاز هـذه الجبال بارتفاعها وانحدارها الشديد نحو السواحل الشمالية ونحو الأحواض الجنوبية المنعزلة بين أطلس التل وأطلس الصحراوى ، وعلى الأخص فى القسم الغربى من

---

(٣) محمد عبـد المنعم الشرقاوى ، ومحمد محمود الصيـاد ، ملامح المغرب العربى ، الاسكندرية ، ١٩٥٩ ، ص ١٣ .

المغرب الأوسط(١) والجزء الشرقى من هـذه الجبال أقل ارتفاعا ، وأكثر تقطعا ، وتنتهى هذه الجبال شرقا بجبل خمير فى تونس .

أما السلسلة الجنوبيـة من جبال أطلس فتمتد فى جوف الصحراء من جنوبى وادى سوس حيث تحمل اسم جبال أطلس الكبرى ، وإلى جنوب هذه السلسلة سلسلة أخرى صغيرة يسميها ابن خلدون بجبـال درن (٢) . وتمتد جبال هذه السلسلة المسماة بأطلس الكبرى فى موازاة جبال أطلس التل، وتنتهى جنوبى تونس بجبال زغوان . وجبال أطلس الكبرى أكثر جبال أطلس ارتفاعا ، ولا توجـد بها ممرات تيسر الاتصال بين المغرب الأقصى والمغرب بين الأوسط والأدنى ، ولذلك كان لهذه الجبال أثر كبير فى العزلة التى فرضت على المغرب الأقصى . وتشتمل هـذه السلسلة من الجبال على جبال القصور ، وجبـال العمور ، وجبـال أولاد نايل ، وجبال الزاب ، وجبال أوراس ، ومعظم هذه الجبال تكسوه الغابات وتتوجه الثلوج .

وتنحصر بين هاتين السلسلتين الجبليتين هضاب يشتغل سـكانها برعى الماشية ، وأغلبهـا يقع ما بين جبال أطلس التل وأطلس الكبرى فى المغرب الأوسط(٣) ، وتعرف الهضاب فى المغرب الأوسط باسم هضبة الشطوط ، أما هضاب الجنوب الغربى منهـا فأكثر ارتفاعا ، وتبدو حدودها الجنوبية الغربية واضحة المعـالم حيث تشرف على سـهل تادلا ، وكذلك حدودها

---

(١) نفس المرجع — Julien, p. 18

(٢) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ١٠٠ .

(٣) المشرفي ، تاريخ افريقية الشمالية ، ص ١٣ — Julien, pp. 18, 19.

الشرقية حيث يجرى وادى ملوية ، وفى الشمال حيث يقع ممر تازة ، المدخل الوحيد إلى المغرب الأقصى . أما الحدود الجنوبية فيصعب تمييزها نظرا لاقترابها من جبال أطلس الصحراوى لدرجة الالتصاق .

وسهول المغرب تقع غالبا على ساحل المحيط الأطلسى وساحل العدوة والبحر المتوسط ، وأشهرها سهل شاوية ودكالة وعبدة بالمغرب الأقصى . أما السهول الساحلية بالمغرب الأدنى فتكاد لا تذكر لضيقها ، وذلك بسبب اقتراب الجبال من الساحل التونسى . وهناك سهول تكونت حول وديان صغيرة تجرى فيها الأنهار ، منها سهل ماكتة ، وسهل زيق بوهران ، وسهل وادى شليف فى المغرب الأوسط ، وسهل وادى مجردة فى المغرب الأدنى ، وسهلا فاس ومكناس فى المغرب الأقصى . كما أن هناك مجموعتان من السهول الداخلية : الأولى تمتد من مصب نهر تنسيفت إلى وادى ملوية ، وتشتمل على السهل المطل على المحيط ، وسهول سبو ، وممر تازة ، وسهول ملوية الدنيا التى تؤلف الطريق الطبيعى ما بين جبال أطلس والمغرب الأوسط ، والأخرى تشتمل على سهل الحوز الذى يخترقه نهر تنسيفت[١] ثم منخفض تادلا . أما المغرب الأدنى فيشتمل على سهول داخلية تقع حول الواحات نذكر منها نفطة وتوزر وقفصة ، وتسمى جميعا بلاد قسطيلة . أما الواحات فتوجد جنوبى إقليم طرابلس فى منطقتى فزان وودان ٢).

وهكذا كان لطبيعة بلاد المغرب أثر حاسم فى مصائرها التاريخية ، فان انقسامها إلى ولايات مستقلة ، قضى على وحدتها السياسية خلال العصور

---

(١) Julien p. 18

(٢) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ١٠١ .

المختلفة ، وأتاح تكوين جماعات بشرية محافظة على تقاليدها وتراثها الإجتماعى والأدبى ، قاومت حتى وقتنا الحاضر أحـداث التاريخ . ثم إن الاتجاه العام لسلاسل الجبال فى صفوف موازية للساحل قد يسر سبل الاتصال بين شرق البلاد وغربهـا حتى بداية المغرب الأقصى ، فى الوقت الذى أقام فيه الحواجز المنيعة بين الساحل وجوف البلاد ،مما جعل بلاد المغرب بلادا مغلقه أمام التأثيرات الأوربية بوجه خاص . وتقتصر هذه التأثيرات على المناطق الساحلية ، إذ تقف أمامها جبال أطلس التل أما التأثيرات الإفريقية فحظها أعظم ، فهى تنفذ من جبال درن وتخترق الهضبة الواقعـة بين سلسلتى جبال أطلس حتى تصل إلى داخل المغرب . وكما أثرت هذه الطبيعة الجبلية الوعرة على حضارة المغرب ، فانها أثرت أيضا على سكان المغرب ، فقد كان لغلبة الطابع الجبلى وبعد المسافات بين المراكز العمرانية المختلفة، وصعوبة الاتصال فيما بينها أثر عميق فى حيـاة السكان . فقد طبعتهم بطابع الخشونة والشجاعة والجلد وحب القتال والاكتفاء بالغـذاء الضرورى ، وأثرت فى أبدانهم ، فأكسبتها النحولة والضمور مع القدرة على الاحتمال والسير مسافات طويلة دون كلل أو تعب ، كذلك أكسبتهم هـذه البيئة الوعرة حدة الخلق والعناد والمقاومة،وهذا يفسر قيام السكان فى العصور المختلفة بمقاومة الغازين والفاتحين، وساعدتهم الطبيعة على المقاومة ، فهم يتحصنون فى قمم الجبال ،وفى مناطق يصعب على الفاتحين الوصول إليها ، ثم ينحدرون من مضاربهم فى الجبال والهضاب فى موجات عاتية ، ويتدفقون على الغزاة ، ويقطعون عليهم خط الرجعـة ، ويمزقون صفوفهم ، ثم يغيرون على الحواضر ، ويدمرون العمران . ولذلك تأخر فتح العرب للمغرب سنين طويلة ، فبينما أتم العرب فتح مصر والشام والعراق وفارس فى فترة لا تزيد على عشر سنوات ، استغرق فتحهم للمغرب

ما يقرب من ستين سنة ، وتم لهم ذلك بعد محاولات طويلة مضنية ، تعرضوا فيها لمقاومة لم يشهد العرب لها نظيرا فى فتوحاتهم. ولم يكد العرب يستقرون فى بلاد المغرب ويعربونها حتى اشتعلت نيران الثورة عليهم فى المغرب الأقصى، ولم ينجح خلفاء بنى مروان فى القضاء على هذه الثورة إلا بعد أن عبأوا لها الجيوش على نحو ما سنفصله فيما بعد .

أما العامل الاجتماعى فأساسه سكان المغرب أنفسهم ، وكانوا يتألفون من ثلاث طوائف :

١ ـ الروم ، وهم البيزنطيون . ٢ ـ الأفارق أو الأفارقة ، وهم بقايا شعب قرطاجنة وأخلاط من المستعمرين اللاتين ، والوطنيين الذين تأثروا بالحضارة الرومانية والبيزنطية ، وكانوا يدينون بالطاعة والولاء لساداتهم البيزنطيين ، ويشتغلون لهم بالزراعة والصناعة (١) .

٣ ـ البربر وهم سواد سكان المغرب .

والبربر من Barbari ، وهو اسم أطلقه الرومان على سكان المغرب ، لأنهم كانوا يعتبرونهم أعاجم على حضارتهم ، فسموهم برابرة ، وعربت إلى بربر وبرابر(٢). والبربر هم سكان المغرب الأصليون،وقد اختلف المؤرخون فى إثبات وطنهم الأصلى ، فمنهم من يزعم أنهم وفدوا من أوربا ، ومنهم

(١) يقول ابن عبد الحكم عن الأفارق « وأقام الأفارق وكانوا خدما للروم على صلح يؤدونه إلى من غلب على بلادهم » (أنظر فتوح افريقية والأندلس ، ص ٣٤) . وقد يكون الأفارق من كلمة أفرى وهو الاسم الذى أطلقه الفينيقيون على سكان البلاد .

(٢) Julien, p. 10

من يزعم أنهم قدموا من آسيا فى عصر ما قبل التاريخ (١) . ويعتقد بعض علماء الأنثروبولوجيا (علم دراسة الإنسان) أمثال سيرجى وسليجمان فى وجود ثمة قرابة جنسية بين البربر والساميين ، معتمدين فى ذلك على تقارب لغة البربر الدارجة مع اللغات السامية (٢) ، وعلى وجود بعض التشابه فى الصفات الجثمانية ، ويعتقد هؤلاء أيضا أن تغلغل السامية فى بلاد المغرب لم يتم إلا فى العصر النيوليتى ، لأن البربر ظهروا فى التاريخ منذ ثلاثة آلاف سنة ، تحت اسم ليبو ، وكان هؤلاء الليبو يتميزون بشقرة لون الشعر وزرقة العينين وبياض الوجه ، وهى صفات ما تزال تنطبق على بعض سكان المغرب فى الريف وجبال جرجرة (قبيلى) بالمغرب الأوسط . على أنه لم تلبث أن تداخلت مع هؤلاء السكان عناصر جديدة قدمت فى موجات متتابعة منذ أقدم العصور ، بعضها يهودية ، وبعضها سامية ، وبعضها هندو أوربية ، كاللاتين والوندال والاغريق ، وبعضها زنجية . ولعل هذا يفسر انقسام البربر من حيث الصفات البدنية إلى نوعين مختلفين : الأول ويشمل أغلبية سكان البلاد ، ويتميز بلونه الأسمر ، وشعره الأسود ، ورأسه المستدير ، وخديه البارزين وأنفه القصير ، وجبهته المقوسة . ويشبه هذا النوع من البربر سكان جنوبى إسبانيا وإيطاليا : والثانى يتميز بشقرة لون الشعر ، وزرقة العينين (٣) .

---

(١) Pellegrin, p. 31 — المشرفى ، ص ٢٥ .

(٢) هناك تشابه كذلك بين اللغة البربرية الدارجة وبين اللغة المصرية القديمة والقبطية وبعض اللغات الزنجية .

(٣) Terrasse, Historie du Moroc, t. I, Casablanca. 1949, p. 17

وينقسم البربر من الوجهة الاجتماعية إلى مجموعتين مختلفتين : البربر الحضر ، ويسكنون السهول الخصبة والمدن أوالهضاب المزروعة، ويتصلون بالحضارة القرطاجنية واللاتينية ، ويعيشون على الزراعة والصناعة ، والبربر الرحل ، ويعيشون على الرعى ، ويميلون للاغارة على السهول وما يجاورهم من عمران (١) . فلما فتح العرب بلاد المغرب وفطنوا إلى التشابه الكبير بينهم وبين البربر فى انقسامهم إلى قبائل وبطون وفى صفاتهم(الشجاعة، والخشونة، وحب القتال ، وحدة الخلق) قسموا البربر إلى جذمين عظيمين : برنس ومادغيس الأبتر ، على نحو انقسامهم هم إلى قحطانيين وعدنانيين . وينتسب البتر إلى مادغيس بن بر الملقب بالأبتر ، فسموا لذلك بترا ، وينتسب البرانس إلى برنس بن بر فسموا لذلك برانسا (٢) . ويعتقد ابن خلدون أن البتر والبرانس من ولد مازيغ بن كنعان الذى يرتفع نسبه إلى حام بن نوح (٣) . وهناك من المؤرخين من يفسر تسمية البرانس والبتر على أساس اجتماعى ، فيقسمون البربر إلى قسمين : قسم يسكن المدن ، ويتحضر بالحضارة اللاتينية ويسمون بالبرانس ، وقسم متبدى يسكن البادية ويسمون بالبتر . ويبدو أن أصحاب هذا الرأى يعتمدون على مصادر عربية ، منها ما ذكره اليعقوبى فى البلدان عند تعرضه لقبائل البربر البرانس فيقول : « ثم مدن بعد ذلك سكانها صنهاجة وزواوة يعرفون بالبرانس ، وهم أصحاب عمارة وزرع وضرع » (٤) .

---

(١) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٦ وما يليها .

(٢) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ٨٩ — السلاوى ، ج ١ ص ٦٤ ، ٦٥ .

(٣) ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٨٩ .

(٤) اليعقوبى ، كتاب البلدان ، ص ٣٥٢ .

وهذا التقسيم لا يمكن الأخذ به لأن قبيلة زناتة البترية الأصل كانت على حد قول ابن خلدون أكثر قبائل البربر حضارة وعمرانا (١) ، ولذلك يجعلها فرعا مستقلا عن سائر البربر، ثم إن المتبدين من البربر كانوا يؤلفون السواد الأعظم من سكان المغرب ، ولا يعقل أن ينقسم شعب البربر هذا التقسيم غير المتكافىء من ناحية النسبة العددية. وأما تفسير البتر بأنهم سموا كذلك لتجردهم من زى معين يعرف بالبرنس بعكس البرانس الذين يتدثرون به (٢) ، فهو تفسير لغوى لا يقوم على أساس علمى متين ، فليس لزاما على البترى أن يلبس البرنس ، وليس شرطا على البرانسى أن يرتديه . وقد أشار الدكتور حسن محمود إلى وجود خلاف عميق الجذور بين طائفتى البتر والبرانس جعل كل طائفة منها تقف للأخرى بالمرصاد ، وتتربص بها الدوائر لتنتقم منها ، وهو لذلك لا يستبعد أن يكون « القسمان يمثلان موجتين بشريتين مختلفتين ، واحدة تمثل أهل البلاد الأصليين ، والأخرى تمثل الوافدين الجدد الذين اغتصبوا من أهل البلاد بلادهم ، وخصوصا إذا لاحظنا أن أغلب المؤرخين يقولون أن صنهاجة البرنسية ، تنسب إلى العرب ، إلى حمير (٣) » . ويفسر صاحب الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية اسم البتر نسبة إلى مادغيس بن بر الذى كان يلقب بالأبتر ، ولذلك سموا بالبتر ، « وهو أبو البتر من

---

(١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٨٩ — حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٣٠ .

(٢) René Basset, Enc. de l' Islam — عبد الحميد العبادى ، المجمل فى تاريخ الأندلس ، العدد الأول من سلسلة المكتبة التاريخية ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٣٢ .

(٣) حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٣١ .

البربر وإليه يرفعون أنسابهم (١) » .

وينقسم بربر البرانس إلى سبع قبائل كبرى هى : أوربة، وصنهاجة، وكتامة، ومصمودة ، وأوريغة ، وأزداجة ، وقيل عشرة ، وهى السبعة السابقة ، يضاف إليها لمطة ، وهسكورة وجزولة (٢) . وتعتبر قبيلة صنهاجة أكبر قبائل البربر حتى لقد زعموا أنهم يؤلفون ثلث شعب البربر ، وكان منهم بنو زيرى بن مناد أصحاب إفريقية بعد استقرار الفاطميين فى مصر ، والملثمون (٣) . وقد غلب على صنهاجة طابع التبدى ، فتفرقت فى كثير من أنحاء المغرب ، وكانت أكبر بطون صنهاجة قبيلة زناجة ، وتعيش على جبال أطلس جنوبى تازة ، كما احتلت بعض قبائل صنهاجية جزءا هاما من إقليم الريف ، واختصت قبائل أخرى بمنطقة آزمور (٤) .

وكتامة من القبائل البرانسية الكبرى التى لعبت دورا هاما فى تاريخ المغرب، فعلى أكتافها قامت دولة الفاطميين بالمغرب ومصر. وتعتبر مصمودة من أهم قبائل بربر البرانس حتى أن بعض المؤرخين يجعلها فرعا قائما بذاته. ومن المصامدة غمارة التى تحتل منطقة العدوة من الريف ، وبرغواطة أهل تامسنا ، وأهل جبل درن الذين قاموا بدعوة المهدى ابن تومرت ، وكانوا يعيشون فيما بين بورجرج وأم الربيع ، ومن المصامدة المستقرين فى السهول

---

(١) الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية ، تحقيق محمد بن أبى شنب ، الجزائر ، ١٩٢٠ ص ١٣ .

(٢) ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٩٠ ـ الاستقصا ، ج ١ ، ص ٦٥ .

(٣) الاستقصا ، ج ١ ، ص ٦٥ .

(٤) Terrasse, op. cit. p. 23

دكالة جنوبى وادى أم الربيع ، ورجراجـة ، على وادى تنسيفت . وجميع المصامدة متحضرون قد ألفوا حياة الاستقرار فى المدن (١) . ويزعم بعض نسابة العرب أن كتامة وصنهاجة من حمير ، وأن إفريقش الحميرى تركهم بافريقية ، فتناسلوا بها واستحال لسانهم إلى البربرية(٢) . ولكن المحققين من نساب البربر ينكرون ذلك ، ويؤكدون أنهما قبيلتان عريقتان فى البربر(٣). وليس من المستبعد أن يكون انتساب صنهاجة لحمير نتيجة خضوعها لتأثيرات فينيقية قديمة ، جعلت النسابة يربطون بينها وبين حـمير ، وهو رأى يؤيده جوتيه وفورنل ودى لاشابل (٤) .

وتنتشر قبائل البرانس فى كل بلاد المغرب ، ولكن بعض قبائلهم توغل فى قلب قارة أفريقيا حتى تصل إلى منحنى نهر النيجر ، ومصب السنغال ، ومعظمها ينزل فى مواضع زراعية متحضرة .

أما بربر البتر فينقسمون إلى أربع قبـــائل هى : ضريسة ، ونفوسة ، وأداسة ، وبنولواى أو لواتة ، (٥) وتنقسم ضريسة إلى فخذين : مكناسة وزناتة . ويعتبر ابن خلدون قبيـلة زناتة فرعا من البربر قائما بذاته . ومن

---

(١) Ibid. p. 22

(٢) يؤكـد هذا ماذكره الإدريسى من أن قبائل العرب (صنهاجة) نزلت على قبائل البربر ، فنقلوهم الى ألسنتهم بطول المجاورة (أنظر الإدريسى ، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، ليدن ١٨٩٤ ص ٥٧) .

(٣) الاستقصا ، ج ١ ، ص ٦٥ .

(٤) حسن محمود ، المرجـع السابق ، ص ٣٨ .

(٥) الاستقصا ، ج ١ ، ص ٦٦ .

زناتة جراوة ، ومغراوة ، وبنو يفرن ، وبنو زيان ، وبنو مرين ، ولكل قبيلة بطون وأفخاذ ، لا يمكن حصرها . وتنزل هذه القبائل فى السهول المرتفعة أو المنخفضة ، وعلى الهضاب التى تمتد من طرابلس إلى تازة ، كما ينتشرون فى أقاليم النخيل الممتدة من غدامس إلى السوس الأقصى ، ويؤلفون أغلبية سكان القرى الصحراوية . كذلك توجد بطون بترية فى أقاليم التل قرب طرابلس ، وفى داخل سهول أفريقية ، وعلى سفوح جبال أوراس . فقبيله نفوسة تنزل بجبل نفوسة الواقع جنوبى طرابلس ، ومطماطة تنزل فى إقليم الجريد التونسى ، وزناتة تنزل فى المغرب الأوسط وعلى سفوح أوراس [1] .

والعداء بين البرانس والبتر متأصل قديم ، ويتمثل هذا العداء بين قبيلة زناتة أكبر قبائل البتر ، وقبيلة صنهاجة أهم قبائل البرانس ، ويرجع سبب هذا العداء بينهما ، إلى اختلاف أحوالها الإجتماعية ، وإغارة الرحل من زناتة على مزارع صنهاجة ، واضطرار صنهاجة إلى الاستعانة بالرومان . وقد أدى ذلك إلى ظهور الفوارق بين الطائفتين بشكل واضح ، واستغل الرومان هذا الخلاف لمصالحهم الذاتية ، فوسعوا شقة الخلاف بينهما ، بأن ضربوا فريقا بفريق ، وتمكنوا بذلك من السيادة وتثبيت أقدامهم فى البلاد ، وبذروا بذور الشقاق بين عنصرى السكان البرانس والبتر ، وضمنوا بذلك لأنفسهم السيطرة على بلاد المغرب ، وهى نفس السياسة التى اتبعها المستعمرون الفرنسيون فى العصر الحديث عندما فرقوا بين العرب والبربر . وقد ازداد العداء القائم بين البرانس والبتر فى العصر الاسلامى زيادة خطيرة ، عندما

---

(١) حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٣٤ .

حالفت قبيلة زناتة البترية العرب الفاتحين منذ السنين الأولى للفتح ، بينما تولى البرانس عبء المقاومة وأيدهم فى ذلك الروم ، وعندما حالفت كتامة الفاطميين ، فى حين حالفت زناتة الأمويين فى الأندلس ، وعندما اشتد النزاع بين زناتة وصنهاجه فى الأندلس عقب سقوط الدولة الأموية .

وقد يكون تحالف البتر مع العرب ناتجا من تشابههم معهم فى البداوة ، فى حين يختلف البرانس عن العرب فى كونهم متحضرين بالحضارة اللاتينية ، ومستقرين فى المدن . ويستمر تحالف البتر للعرب بعد قيام الدولة الأموية بينما توالى صنهاجة البرانسية العلويين ، وهم الحزب المعارض للأمويين ، فتؤيد إدريس بن عبد الله بن الحسن ، وتخدم كتامة البرانسية مصالح الفاطميين ضد الأمويين . ثم ظهر البرانس ممثلين فى صنهاجة مرة ثانية بعد رحيل الفاطميين من المغرب ، وظهروا مرة ثالثة عندما تغلبت صنهاجة على المغرب كله وأسست دولة اللمتونيين أو المرابطين ، ثم ظهروا مرة رابعة عندما قامت دولة الموحدين على أكتاف المصامدة .

(٣)

مرحلة الغارات

(٢١ - ٤٩ هـ / ٦٤٢ - ٦٦٩ م)

١ ـ المحاولات الأولى فى زمن عمرو بن العاص : غزو برقة :

كان طبيعيا أن يفكر عمرو بن العاص جديا ، بعد أن استكمل فتح مصر ، فى فتح برقة وطرابلس ، لعاملين :

الاول : أن برقة كانت تعتبر امتدادا لمصر ، وإقليما متمما لهـا ، إذ هى تجاور لوبيا ومراقية وهما كورتان من كور مصر الغربية(١) . وكانت برقة وطرابلس قد انفصلتـا عن ولاية إفريقية منذ عهـد الامبراطور البيزنطى موريس (٥٨٢ - ٦٠٢) وأصبحتا رسميا تابعتين لمصر ، وإن كانتا فى حقيقة الأمر شبه مستقلتين . ولما اشتعلت نيران الثورة فى المغرب ضد الامبراطور المغتصب فوكاس ، كانت برقة وطرابلس فى مقدمة الولايات المغربية التى آزرت جريجوريوس على الإنفصال عن الامبراطورية البيزنطية(٢) . ولذلك كان لابد لعمرو بن العاص بعد أن استكمل فتح مصر ، من التأهب لفتح برقة وطرابلس ، تأمينا لحدود مصر الغربية من خطر الروم .

والعامل الثانى ، هو رغبـة عمرو فى تطبيق سياسة الاستمرار فى الفتح نحو الغرب ، وهو أمر يدل عليه خط سير الفتوحات العربية فى فلسطين ومصر

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح افريقية والأندلس ، ط . البيرجاتو ، ص ٣٤ .

(٢) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٥٠ .

وبرقة وإفريقية والمغرب والاندلس وجنوبى فرنسا ، ولم يكن المحاربون العرب يزهدون فى مواصلة القتال بعد انتهائهم من فتح مصر ، التماسا للمغانم التى كانت تعود عليهم من الغزو . ولم ينتظر عمرو حتى ينتهى تماما من فتح مصر ، ويتفرغ لفتح برقة ، فنراه يبادر بارسال عقبة بن نافع الفهرى على رأس حملة استطلاعية إلى برقة (أنطابلس)(١) .

ويذكر ابن عذارى أن عمرو بعد أن افتتح مصر سنة ٢٠ من الهجرة وجه عقبة بن نافع إلى زويلة وبرقة فافتتحهما(٢) . ويؤيد ابن أبي دينار القيروانى هذه الرواية فى كتابه المؤنس(٣) . ويبدو أن عمرو بن العاص اطمأن إلى تقرير عقبة بن نافع عن بلاد برقة ، فعجل بتسيير جيوشه لفتحها .

سار عمرو بن العاص على رأس جيش من فرسانه غربا حتى قدم برقة ،

(١) ذكر ياقوت أن برقة « اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الاسكندرية وافريقية ، واسم مدينتها انطابلس ، وتفسيره الخمس مدن » (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد١ ص٣٨٨ ، وانظر ماذكره عن أنطابلس ص ٢٦٦) . وذكر الأستاذ الطاهر أحمد الزاوى أن برقة كانت تسمى قبل الإسلام انطابلس ، وكانت تضم خمس مدن هى طوشيرا (بالعربية طوكرة) وقورين ودبرنيق ، وقد بنيت بنى غازى على أنقاضها ، وأبولونيا ، وبارش (وتسمى الآن المرج) (أنظر تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ، القاهرة ١٩٦٣ ص ٣٢) . وذكر اليعقوبى فى البلدان أن برقة مدينة تقع فى مرج واسع ، ويضيف قائلا أن لبرقة أقاليم كثيرة يسكنها بطون من بربرة لواتة ، ولها من المدن برنيق (اليعقوبى ، ص ٣٤٣) . كذلك يشير ابن حوقل الى أن برقة « مدينة وسطة ، ولها كور عامرة ، وهى فى بقعة فسيحة » (ابن حوقل ، صورة الأرض ص ٦٩) .

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ط . ليفى بروفنسال ص ٨ .

(٣) ابن أبى دينار القيروانى ، المؤنس في تاريخ افريقية وتونس ، ط . تونس ١٢٨٦ هـ ، ص ٢٢ .

وكانت وقتئذ أشبه بولاية بربرية مستقلة عن الدولة البيزنطية ، وكان يسكنها بطون من قبيلة لواتة البترية ، وهي من أكبر قبائل البربر شأنا ، وأشدها بأسا ، ومن هذه البطون قبيلة زواغة ولماية ، وقد رأينا مدى قوة لواتة عندما ثارت قبائلها بزعامة أنطالاس على الحكم البيزنطى ، وانتهت ثورتهم بمقتل صولومون ، القائد العام لجيوش بيزنطة فى المغرب . وكان بربر لواتة ساخطين على البيزنطيين ، كارهين لحكمهم الجائر ، وتعسفهم فى جباية الضرائب ، كما نقموا منهم لكثرة مظالمهم . ويبدو أيضا أنهم أرادوا التخلص من الحكم البيزنطى ، وكانت قد بلغتهم الأخبار باستيلاء العرب على بلاد الشام ومصر ، فتطلعوا إلى الخلاص على أيدى العرب ، وهذا يفسر مبادرتهم بتقديم فروض الولاء للجيش الغازى ، واستسلامهم للعرب طائعين مختارين . فصالحهم عمرو نظير جزية يؤدونها إليه ، وهي دينار على كل حالم[١] . وذكر ابن عبد الحكم نقلا عن عثمان بن صالح أن أهل برقة كانوا يبعثون له الجزية إذا جاء وقتها ، وأنه لم يدخل برقة يومئذ جابى خراج[٢] ، مما يدل على أنهم رحبوا بالعرب ، واطمأنوا إليهم .

---

(١) ابن عذارى ' البيان ' ج ١ ص ٨ . ويذكر مؤرخو العرب أنه صالح أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار جزية ' على أن يبيعوا من أحبوا من أبنائهم فى جزيتهم (ابن عبد الحكم ' فتوح افريقية والأندلس ص ٣٤ ــ البلاذرى ، فتوح البلدان ، القسم الأول تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ' القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٢٦٤ ــ أبو عبيد الله البكرى ، المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ' الجزائر ' ١٩١١ ص ٤ ــ ابن الأثير ' الكامل فى التاريخ ' ط . بولاق ، ١٢٩٠هـ ، ج ٣ ، ص ١١) . ويستبعد الدكتور حسين مؤنس أن يطلب العرب منهم بيع أبنائهم في حالة عجزهم عن دفع الجزية ' ويعتقد أنهم هم الذين اقترحوا على عمرو ذلك مبالغة منهم في اظهار حسن نيتهم ، وقد كان بيع الذرارى والأبناء للوفاء بالجزية أمرا شائعا عند البربر فى ذلك الحين (فتح العرب للمغرب ص ٥٦) .

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٣٦ .

وما إن أتم عمر بن العاص فتح برقة ، حتى شرع فى فتح اطرابلس ، تمهيدا للدخول فى إفريقية . وكان الأمر يستلزم أن يجهز جيشين ، أحدهما يسير بحذاء الساحل ، بقصد الإستيلاء على طرابلس ، وما يليها من مدن ساحلية ، والثانى يتجه نحو جوف البلاد حيث الواحات الداخلية التى تؤلف مراكز للمقاومة فى قلب البلاد ، والتى لو تركت وشأنها ، لقطع عليه أهلها خط الرجعة ، وأهم هذه الواحات واحة فزان . فبعث عمرو قائده عقبة بن نافع إلى فزان ، فافتتحها ، ثم واصل زحفه حتى بلغ زويلة(١) . ويبدو أن عمل عقبة اقتصر على الاستيثاق من طاعة أهل هذه الواحات أو على الأقل من وقوفهم موقفا حياديا(٢) . ونجح عقبة فى مهمته ، وأصبحت المنطقة الممتدة ما بين برقة وزويلة مأمونة الجانب ، لا خوف على المسلمين من سكانها(٣) . وعلى هذا النحو ضمن عمر بن العاص إخضاع هذه الواحات الداخلية التى كانت تهدد سلطان العرب على مدن الساحل . وبينما كان عقبة يفتتح فزان ، كان عمر بن العاص يغزو إقليم إطرابلس . فبدأ بمدينة سرت(٤) ،

---

(١) زويلة من مدن فزان القديمة ، وتقع على بعد ٧٧٠ كم جنوب شرق طرابلس ، وتعرف باسم زويلة السودان ، تمييزا لها عن زويلة افريقية التى بناها عبيد الله المهدى بالقرب من تونس (الظاهر أحمد الزاوى ، ص ٣٥) .

(٢) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٦٠ .

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح افريقية والأندلس ، ص ٣٦ — البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٦٦ — البكرى ، المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ١٠ .

(٤) « مدينة على ساحل البحر الرومى من برقة وطرابلس الغرب ، لا بأس بها وفى سمتها من ناحية الجنوب فى البر أجدابية » (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٣ ص ٢٠٦) وذكر ابن حوقل أنها مدينة ذات سور صالح كالمنيع من طين وطابية ، وبها قبائل من البربر ، ولهم مزارع فى نفس السبر ، تقصد نواحيها ، اذا مطرت ، وتنتجع مراعيها » =

فاستولى عليها ، ثم زحف إلى لبدة (١) ، فوجدها مدينة خربة ، قليلة العمران ، ولم يبد أهلها أى مقاومة بل استسلموا لهم طائعين .

ثم واصل سيره بعد ذلك حتى أدرك اطرابلس (٢) ، وكانت مدينة

=(ابن حوقل ، صورة الأرض ص ٧٠) . ويضيف ابن حوقل قائلا أنها غنية بالغلات والفواكه ، منها التمر والأعناب ، ومن منتجاتها الشب السرتى والصوف ولحوم المعز . ويشرب أهلها من مياه المواجل (نفس المرجع ، ص ٧١) .

(١) مدينة بين برقة وافريقية ، تقع على بعد ٩٠ كم. شرق طرابلس ، أسسها الفينيقيون فى أوائل القرن العاشر ق.م. وأطلقوا عليها اسم لبكى ، ثم حرفها الإغريق الى لبتس ، ثم حرفت بعد ذلك الى لبتس ، وأضيفت اليها لفظة ماجنا فأصبحت لبتس ماجنا أى لبدة العظيمة . وكانت فى أيام الفينيقيين مدينة عامرة لخصوبة أرضها ، واعتدال مناخها ، ولأن لها ميناء مأمونا صالحا للملاحة، ولوقوعها على نهر عين كعام . وقد حكمها النوميديون ، ثم خضعت أخيرا للرومان ، وتألقت فى العصر الرومانى ، وخاصة فى عهد سبتميوس سفروس. ثم استولى عليها الوندال فى سنة ٤٥٥م. ومنذ ذلك الحين أخذت فى الاضمحلال الى أن احتلها البيزنطيون فى سنة ٥٣٣ ، فاستعادت بعض عظمتها القديمة ، وأقام فيها البيزنطيون الآثار الكثيرة ، وجملوها بمختلف أنواع الأبنية . لكنها تأثرت تأثراً بالغا بالاضطرابات العنيفة التى سادت هذه البلاد على أثر ثورة قبائل لواتة (أنظر : الطاهر احمد الزاوى ص ٣٩ ـ ٤٣) وذكر ابن حوقل أنها قرية، بينها وبين طرابلس الى جهة الشرق مرحلتان (ص ٧١) .

(٢) اطرابلس مدينة فينيقية البناء ، أسست بعد سبرت ولبده ، وكانت تعرف باسم أويا أو أوياس (أنظر ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، المكتبة الجغرافية العربية ، العدد السادس ، تحقيق دى غوية ، ليدن ١٨٨٩ ص ٩١ ـ الاستبصار ، ص ١١٠) واطرابلس تسمية معربة لكلمة تريبوليس Tripolis التى أطلقها الرومان عليها وتعنى المدن الثلاث ، فقد أقاموا فى القرن الثالث الميلادى خطا دفاعيا لمواجهة غارات البدو الضاربين فى الصحراء جنوب أويا ، وقد سموا هذا الخط الدفاعى باسم ليمس تريبوليتانوس ، ومنذ ذلك الحين =

حصينة مسورة من سائر الجهات ماعدا الجهة الشمالية التى تطل على البحر ، وذلك لتتلقى من هنالك الإمدادات ، ويذكر ابن عبد الحكم نقلا عن عثمان بن صالح أن عمرو « نزل على القبة التى عن الشرف من شرقيها »(١) ، وحاصر المدينة شهرا ، فامتنعت عليه ، ويذكر ابن عذارى ، أن أهـــل اطرابلس استغاثوا بقبيلة نفوسة البربرية (٢) ، وهى قبيلة بترية من أكبر قبائل البربر وأعظمها ، وكانت مدينـة سبرت (صبراتا) من أهم معـاقلهم ، وتنسب إليهم (٣) . ويبدو أن عمرو أراد أن يحول دون وصول هـذه النجدة ، فأسرع بارسال بعث من قواته إلى سبرت قبل أن يفتتح طرابلس ، ولكن جنده ألفوا أهل سبرت متحصنين فى أسوارهم(٤) ، وقـد أيقنوا استحالة فتح العرب لطرابلس ، فعاد الجند أدراجهم إلى طرابلس . ويتفق مؤرخو العرب على أن جماعة من جنـــد عمرو ، فاجأوا الروم من جهة ساحل اطرابلس ، حيث انحسرت عنها مياه البحر ، واستولى المسلمون بذلك على

= أطلقوا اسم تريبوليتانوس على المنطقة الواقعة بين خليج قابس وخليج سرت ، وتضم ثلاث مدن هى لبدة ، وأويا ، وسبرت . وقد أصبحت أويا (طرابلس) مركزا لولاية طرابلس فى عصر دقلديانوس . واهتم الرومان بطرابلس اهتماما كبيرا ، فحوطوهـا بسور منيع ، وكان معظم سكانها عند الفتح العربى من الروم (أنظر الظاهر أحمد الزاوى ، ص ٤٥ ـ ٤٨) .

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٣٦ . ويرجح الأستاذ الظاهر أن هذه القبة هى قبة الشيخ عبد الله الشعاب المتوفى سنة ٢٤٣ (تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ص ٤٩) .

(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ص ٨

(٣) حسن محمود ص ٣٣ ــ الظاهر أحمد الزاوى ، ص ٢٢ . يقع جبل نفوسـة جنوبى سبرت وعليه تقوم مدينة شروس (الادريسى ، صفة المغرب وأرض السودان ، ص ١٠٥) .

(٤) ابن عبد الحكم ، ص ٣٨

المدينة [١] . وفى ذلك يقول ابن عبد الحكم نقلا عن عثمان بن صالح :
« . . . . فخرج رجل من بنى مدلج ذات يوم من معسكر عمرو متصيدا فى سبعة نفر ، فمضوا غربى المدينة حتى أمعنوا عن العسكر ، ثم رجعوا ، فأصابهم الحر ، فأخذوا على ضفة البحر ، وكان البحر لاصقا بسور المدينة ، ولم يكن فيما بين المدينة والبحر سور ، وكانت سفن الروم شارعة فى مرساها إلى بيوتهم ، فنظر المدلجى وأصحابه ، فاذا البحر قد غاض من ناحية المدينة ، ووجدوا مسلكا إليها من الموضع الذى غاض منه البحر ، فدخلوا منه حتى أتوا من ناحية الكنيسة وكبروا ، فلم يكن للروم مفزع إلا سفنهم ، وأبصر عمرو وأصحابه السلة [٢] فى جوف المدينة ، فأقبل بجيشه حتى دخل عليهم ، فلم تفلت الروم إلا بما خف لهم من مراكبهم ، وغنم عمرو ما كان فى المدينة » [٣] .

ويستبعد الدكتور مؤنس قصة التكبير فى فتح طرابلس ، ويعتقد أن رواة فتح طرابلس اختلط عليهم الأمر ، فوضعوا فى هذا الفتح ما وضعوه فى فتح حصن بابليون بمصر ، الذى تشبه قصته قصة فتح طرابلس ، ويستند فى ذلك إلى أن ابن عبد الحكم كتب تاريخ هذا الفتح بعد انقضاء قرنين ونصف من هذه الحوادث ، كما يستند إلى أن كثيرا من المصادر أشارت

---

(١) نفس المرجع ص ٣٦ — البلاذرى ، فتوح البلدان ، قسم ١ ص ٢٦٦ — ابن الأثير ، الكامل ج ٣ ص ١١ — السلاوى ، الاستقصا ، ج ١ ص ٧٣

(٢) لعلها الثلة أى جماعة العسكر وهو أقرب الى الصواب ، فقد كان من اليسير على عمرو الذي عسكر بأعلى التل الواقع شرقي المدينة أن يشاهد ما يجرى بداخلها بعد أن انتبه الى تكبير رجاله ، فأدركهم ودخل المدينة من الجهة التى رآهم دخلوا منها .

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٣٨

إلى أن عمرا قوتل حتى افتتح طرابلس عنوة [(١)] .

ولكننا لانرى رأى الدكتور مؤنس فى فتح اطرابلس ، ولا نستبعد على الاطـلاق مارواه ابن عبد الحكم من قيـام المسلمين بالتكبير ، فعادة التكبير من العادات المتأصلة عند المسلمين فى أوقات القتال والحرب ، والأمثلة كثيرة على ذلك ، فقد كبر المسلمون عندما ارتقوا الباب الشرقى من دمشق ودخلوها عنوة [(٢)] ، كذلك كبر أبو محجن الثقفى فى القادسية [(٣)] ، وكبر المسلمون فى نهاوند [(٤)] ، وكبروا أيضا وعنـد فتح حصن بابليون [(٥)] ، وكبر المسلمون فى موقعـة سبيطلة [(٦)] ، وكبر المسلمون كذلك عند فتح قرطبة [(٧)] ، ولاشك أن عمرا عندما أدرك أصحابه بداخـل المدينة اشتبك مع حامية المدينة وتغلب عليهم ، فليس فى قتال عمرو تعارض مع قصة فتح طرابلس ، وفقا لرواية ابن عبد الحكم . وما إن دخل عمرو طرابلس حتى عاهد أهلها [(٨)] .

---

(١) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب، ص ٦٢

(٢) الواقدى ، فتوح الشام ، ج ١ ، طبعـــة القاهرة سنة ١٣٦٨ ، ص ٤٣ ، ٤٤ — عبد الوهاب النجار ، الخلفاء الراشدون ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٢٠٨

(٣) المسعودى ، مروج الذهب ، تحقيق الأستاذ محيى الدين عبد الحميد ، ج ٢ القاهرة ١٩٥٨ ص ٣٢٣ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ص ٤ — ٦

(٥) البلاذرى ، ج ١ ، ص ٦٤ ، ٦٥

(٦) ابن الأثير ، ج ٣ ص ٤٤

(٧) فتح الأندلس لمؤلف مجهول ، نشره Joaquin Gonzalez ، الجـــزائر ١٨٨٩ ص ٩ من الترجمة .

(٨) البلاذرى ، ج ١ ص ٢٦٦

ولما ظفر عمرو بمدينة طرابلس « جرد خيلا كثيفة من ليلته ، وأمرهم بسرعة السير ، فصبحت خيله مدينة سبرت ، وقد غفلوا ، وقدفتحوا أبوابهم لتسرح ماشيتهم ، فدخلوها ، فلم ينج منهم أحـد ، واحتوى عمرو على مافيها »[١] .

وكان عمرو قد بعث ، أثنـاء حصاره لطرابلس ، قائدة بسر بن أرطأة إلى ودان ، فافتتحها سنة ٢٣ هـ[٢] ، وأعتقد أن المسلمين افتتحوا ودان وسبرت بقصد القضاء على أى محاولة من جانب بربر نفوسة لنجدة أهل طرابلس، وفى نفس الوقت لتأمين فتحهم للساحل ، على نحو مافعله عمرو عند افتتاحه برقة ، إذ ضمن خضوع زويلة وفزان للمسلمين ، خشية أن ينقض أهـل هذه المناطق الداخلية على جيوشه ، فيقطعون عليها خط الرجعة .

تم فتح العرب لبرقة والقسم الشرقى من ولاية اطرابلس دون أن يتدخل جريجوريوس ويدافع المسلمين ، ذلك لأن إقليم طرابلس الممتد مابين سبرت ومصر لم يكن تابعا له رسميا ، وهذا يفسر موقفه السلبى من غزو العرب لهذه البلاد، وأعتقد أن القسم الغربي من طرابلس كان تابعا له، وكان هذا القسم المذكور يضم جزيرة جربة Meninex ومسلحة جرجس Girgis ، وحصن جيجتى Gigthi (بوغرارة) ، ومدينة تاكاباى Tacapae (قابس)[٣] . وكانت أخبار

---

(١) ابن عبد الحكم ص ٣٨ ــ ابن الأثير ، ج ٣ ، ص ١١

(٢) نفس المرجع ، ص ٦٠ ــ البكرى ، المغرب ص ١٢

(٣) قابس مدينـة جليلة عامرة حفت من نواحيها جنات ملتفة ، وحـدائق مصطنعة ، وفواكه عامة رخيصة ، وبها من التمر والزروع والصناع ما ليس بغيرها من البـلاد ، وفيها زيتون وزيت وغلات ، وعليها سور منيع يحيط به من خارجه خندق (الإدريسي ، صفـة المغرب والسودان ص ١٠٦) .

انتصارات العرب فى برقة وطرابلس وفزان وزويلة وودان قد وصلت إليه ، فاحتاط لنفسه ، وبادر بتحصين بلاده ، وإقامة المحارس ، والمسالح ، والحاميات ، فيمايلى سبرت ، تعزيزا للدفاع عن إفريقيـــة ، واستعداداً لملاقاة العرب [١] ، يدل على ذلك أن الادريسى ذكر أن الساحل الممتد مابين قابس وسبرت كثير القصور والحصون ومنها قصر زجونة ، وقصر بنى مأمون ، وقصر الجرف ، وجزيرة جربة ، وقصر بنى خطاب ، وقصور الزارات ، وقصر بنى ذكومين ، وقصر الهرى ، وقصر جرجيس ، وقصر صالح ، وقصر كوطين ، وقصر بنى ولول ، وقصر مركيا ، وقصر عفسلات .. إلى آخره [٢] .

ويستنتج الدكتور حسين مؤنس من تحاشى العرب مهاجمة قابس فى حملة عبدالله ابن سعد ، واتجاههم مباشرة إلى سبيطلة ، أن جريجوريوس حصنها بقلاع منيعة لا ترام ، فتفاداها العرب بعد ذلك [٣] . ويبدو أن عمرو بن العاص قد حاول فتح بعض هذه الحصون المتناثرة فيمايلى سبرت غربا ، ولكنها استعصت عليه لمناعتها ، فكتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يعلمه بفتوحاته ، ويستأذنه فى فتح إفريقية ، ويغلب على الظن أنه طلب منه مدداً لذلك الغرض ، وذكر له فى جملة ما ذكره « إن الله قد فتح علينا إطرابلس ، وليس بينها وبين إفريقية إلا تسعة أيام ، فان رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل » [٤] . ويضيف

---

(١) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٦٧ — السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، ص ٢٨ .

(٢) الادريسى ، ص ١٢٧ — ١٢٩ .

(٣) حسين مؤنس ، ص ٦٧ .

(٤) ابن عبد الحكم ، ص ٤٠ — البلاذرى ، ص ٢٦٦ .

ابن عذارى عبارة تؤكد رأينا فى أنه حاول فتح أحد الحصون، فاصطدم بمقاومة عنيفة. يقول ابن عذارى: «وكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، يخبره بما أفاء الله عليه من الفتح والنصر، وأن ليس أمامه إلا بلاد إفريقية، وملوكها كثيرة، وأهلها عديدون وأكثر ركوبهم الخيل (١).»

ونستدل من رد الخليفة عمر بن الخطاب على كتاب عمرو بن العاص أن الخليفة كان مطلعا على الأحوال السياسية فى إفريقية، وكان محيطا بثورات أهلها ونكثهم بالعهود، وغدرهم بأصحاب السلطان، وكان من الطبيعى أن يرفض عمر طلب عمرو بمواصلة الفتح والتغرير بالمسلمين فى مخاطرة لا يعلم نتائجها إلا الله، فآثر أن يقف المسلمون إلى هذا الحد من الفتوحات وكتب إلى عمرو قائلا: «لا إنها ليست بافريقية، ولكنها المفرقة، غادرة مغدور بها، لا يغزوها أحد ما بقيت» (٢) وقد أورد البلاذرى صيغة أخرى لرد عمر بن الخطاب، تدل على معرفته بشؤون البربر، جاء فيه: «فكتب إليه ينهاه عنها ويقول: ماهى بافريقية، ولكنها مفرقة، غادرة مغدور بها، وذلك أن أهلها كانوا يؤدون إلى ملك الروم شيئا، فكانوا يغدرون به كثيرا، وكان ملك الأندلس صالحهم، ثم غدر بهم، وكان خبرهم قد بلغ عمر» (٣).

---

(١) ابن عذارى، جـ ١ طبعة بيروت ص ٢ ، وقد ورد فى طبعة ليفى بروفنسال وكولان ما يلى: «ملوكها كثير، وأهلها فى عدد عظيم، وأكثر ركوبهم الخيل» ص ٨

(٢) ابن عبد الحكم، ص ٤٠

(٣) البلاذرى، ص ٢٦٦

وكان لابد لعمرو من الاستجابة لرغبة عمر فى عدم الاستمرار فى الفتح، ولذلك اضطر إلى الانصراف عن إفريقية مرغما ، فعاد إلى مصر ، بعد أن أقام قائده عقبة بن نافع على هذه البلاد الصحراوية ، ببرقة ، يدعو للاسلام، ونجح عقبة فى كسب كثير من سكان البلاد من قبائل لواتة ونفوسة ونفزاوة وهراوة وزواغة ، فدخلوا فى الاسلام .

ثم أصبحت برقة قاعدة لجيش المسلمين فى غرب مصر ، أما عمرو ، فقد عاد إلى الفسطاط مقر ولايته، وظل مقيما بها حتى استشهد الخليفة عمر بن الخطاب وخلفه عثمان بن عفان . وكان أول ما فعله عثمان أن عزل عمر بن العاص من ولاية مصر ، فقلدها لعبد الله بن سعد بن أبى سرح سنة ٢٤ ﻫ .

ب – حملة عبد الله بن سعد : غزوة سبيطلة :

أحس البطريق جريجوريوس بالخطر العربى يهدد بلاده من الشرق ، وكانت عاصمته قرطاجنة تقع فى أقصى الطرف الشمالى الشرقى من ولاية إفريقية على البحر ، فرأى أن يتخذ عاصمة جديدة تقع فى جوف البلاد حتى لاتتعرض لغزو العرب من الشرق ، وغزو البيزنطيين من البحر (١) . ثم إنه كان يعمل على التقرب من البربر طمعا فى أن ينصروه على العرب ، فأراد أن يحتمى بينهم ، فاختار سبيطلة لهذا الغرض ، وجعلها حاضرة لولايته فى سنة ٢٤ ﻫ (٦٤٦م) . وفى نفس الوقت حصن المدن الشرقية مثل قابس وسفاقس وقفصة حتى تؤلف خطا دفاعيا أماميا، يعرقل جيوش العرب ويؤخر من تقدمهم،

ويبدو أن سلطان العرب فى المغرب انحسر إلى برقة، فخرجت طرابلس

---

(١) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ص ٧٥ ، ٧٦

من طاعتهم عقب انصراف عمرو بن العاص إلى مصر ، وكان عقبة قد اتخذ سرت ببرقة مركزاً لقواته ، وقاعدة لغزواته فى داخل البلاد ، فصرف همه إلى غزو الواحات القريبة من فزان وودان وزويلة والسودان (١) ، وكان يرسل تقاريره عن حالة هذه البلاد إلى عبدالله بن سعد ، ولعله أبلغه خروج طرابلس عن طاعة المسلمين ، بدليل أن عبد الله بن سعد « كان يبعث المسلمين فى جرائد الخيل كما كانوا يفعلون فى أيام عمرو ، فيصيبون من أطراف إفريقية ويغنمون (٢) . وكان عبد الله بن سعد يكتب إلى عثمان « يخبره بما نال المسلمون من عدوهم ، وقربهم من حوز المسلمين» (٣) ، ويستأذنه فى غزو إفريقية (٤) . ويبدو أنه طلب من الخليفة أن يرسل اليه مدداً يعينه على افتتاح إفريقية ، ولكن عثمان ، رغم ميله إلى إجابة رغبة أخيه فى الرضاع فى فتح إفريقية ليكسبه بذلك مجداً يزيد من هيبته ، ويعزز مكانته (٥) ، كان متوقفا عن غزوها (٦) ، بسبب رفض عمر بن الخطاب من قبل المضى فيه ، ولكن ميله إلى إجابة رغبة عبد الله بن سعد غلب عليه فى نهاية الأمر ، فعزم على غزو إفريقية ، ولكن بعد أن يستشير الصحابة فى ذلك .

---

(١) البكرى ، المغرب ص ١٤٥

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٤٢ — البلاذرى ، ٢٦٧ — المالكى ، كتاب رياض النفوس تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، جـ ١ ، القاهرة ١٩٥١ ص ٨ — ابن عذارى ، طبعة ليفى بروفنسال وكولان جـ ١ ص ٩

(٣) المالكى ، ص ٨

(٤) ابن عبد الحكم ، ص ٤٢

(٥) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٢٩ .

(٦) البلاذرى ، ص ٢٦٧

ومما يدل على عزمه على الفتح ما ذكره المالكي فى رياض النفوس ، نقلاعن المسور بن مخرمة عن طريق الزهرى « قال المسور : خرجت من منزلى بليل طويل أريد المسجد ، فاذا عثمان رضى الله تعالى عنه فى مصلى النبى صلى الله عليه وسلم يصلى ، فصليت خلفه ؛ ثم جلس فدعا ليــــلا طويلا ، حتى أذن المؤذنون ، ثم قام منصرفا إلى بيته ؛ فقمت فى وجهه ، فسلمت عليه ، فقال: يا ابن مخرمة ، واتكأ على يدى ، إنى استخرت الله فى ليلتى هـذه فى بعث الجيوش إلى إفريقية ، وقد كتب إلى عبد الله بن سعـد ، يخبر بخبره مـع المشركين ، وغلبهم وقرب حوزهم من المسلمين . فقلت : خار الله لأمــير المسلمين ، قال : فما رأيك يا ابن مخرمة ؟ قلت : اغزوهم . قال : أجمـع اليوم الأكابر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأستشيرهم ، فما أجمعوا عليه فعلته ، أو ما أجمع عليه أكثرهم فعلته ، ولتكن أنت رسولى اليهم ، واحضر معهم [١] . »

واجتمع الخليفة عثمان بوجوه الصحـابة وذوى الرأى فى سنة ٢٧ هـ (٦٤٧ م) ، واستشارهم فى أمر الفتح ، فأجمعوا عـــلى موافقته ، باستثناء الأعور سعيد بن زيد الذى تمسك برأى عمر بن الخطاب فى ألا يغزوها أحد من المسلمين [٢] . وما إن أقر الصحابة رأى الخليفة فى الفتح ، حتى استنفر المسلمين ، وندبهم إلى الغزو إلى إفريقية ، وفتح مستودعات السلاح ، فتوافى الناس وانضموا إلى الجيش . وخرج جماعة من الصحابة ، منهم معبد بن العباس بن عبد المطلب ، ومروان بن الحكم بن أبي العاص ، والحارث بن

(١) المالكى ، رياض النفوس ، ص ٨ ، ٩

(٢) نفس المرجع .

الحكم أخوه ، وعبـــد الله بن الزبير ، والمسور بن مخرمة بن نوفل ، وعبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعاصم ابن عمر ، وعبيد الله بن عمر ، وعبدالرحمن بن أبى بكر ، وعبدالله بن عمرو ابن العاص ، وبسر بن أرطأة بن عويمر العامرى ، وأبو ذؤيب خويلد بن خالد الهذلى (١) . ويضيف المالكى إلى هؤلاء أسماء عدد كبير من الصحابة. ورافق كل من هؤلاء جماعة من قومه ، فخرج من أسلم ثلاثمـائة رجل ؛ وخرج من مزينة ثمانمائة ، وخرج من بنى سليم أربعمائة وخمسون ، وغيرهم من قبائل شتى (٢) . وأمر عليهم عـثمان الحارث بن الحكم حتى يصلوا إلى عبد الله بن سعد فى مصر فتكون له القيادة بعد ذلك (٣) . ثم خطب فيهم ، وحثهم على الجهاد فى سبيل الله ، وقال لهم : « قد استعملت عليكم الحارث ابن الحكم حتى تصلوا إلى عبد الله بن سعد، وقد قـدمت عليكم عبد الله بن سعد لما علمت من ثقته ودينه وحسن رأيه وشجاعته ؛ وأخذت عليه العهد والميثاق أن يحسن لمحسنكم ، ويتجـاوز عن مسيئكم ، ولا يحمله غرض الدنيا على هلاك رجل واحد منكم ، وأرجو لعبد الله أن يقف عند عهدى وأمرى. وأوصيكم وإياه أن لاتهولنكم كثرة العدو ، وقد علمتم ماأنزل الله عليكم حيث يقول : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله . أما علمتم أن أول هذه الأمه مانصروا إلا بكثرة الصبر وقوة اليقين ؟ ولا حول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم . أستودعكم الله وهو خير الحافظين ، سيروا

---

(١) البلاذرى ، ص ٢٦٧

(٢) المالكى ، ص ١٠

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٤٢

على بركة الله ، وعليه فتوكلوا ، وبه فاتقوا » (١) .

وأعان عثمان المسلمين فى هذه الغزوة بألف بعير يحمل عليها ضعفاء الناس ٢ ، ثم سار الجيش من المدينة بقيادة الحارث بن الحكم ، فلما وصل إلى مصر ، ضم إليه ابن أبى سرح جيوش مصر وفيهم بعض الأقباط (٣) ، فكمل عدد الجيش عشرين ألفا (٤) . ثم استخلف عبد الله على مصر عقبة بن عامر الجهنى ، وخرج فى مقدمة جيشه إلى إفريقية . وفى برقة استقبله عقبة ابن نافع الفهرى فيمن معه من المسلمين(٥) . ومن برقة أرسل سرية ، تقدمت الجيش إلى طرابلس ، وكان أهل هذه المدينة قد تلقنوا باستيلاء المسلمين على مدينتهم فى أيام عمرو درسا لم ينسوه ، ولذلك عملوا على تحصين أسوار المدينة منذ أن خرجوا عن طاعة المسلمين ، فلما وصلت السرية العربية إلى طرابلس ، استولت على مركب كان راسيا بالقرب منها ، وأسر المسلمون من فيه ، حتى أدركهم عبد الله بن سعد بجموع جيشه ، فأمر بقتل الأسرى ، وكان أهل طرابلس قد تحصنوا داخل أسوارهم عندما أقبل العرب ، وحاول المسلمون اقتحام المدينة ، ولكنها استعصت عليهم ، فعدلوا عن ضرب الحصار عليها حتى لا يعطلهم هذا الحصار عن غرضهم الأساسى ، وواصلوا السير نحو

---

(١) نص عبيد الله بن صالح ، بعنوان : نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، نشره الأستاذ ليفى بروفنسال ، بصحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد ، المجلد الثانى، ١٩٥٤ ص ٢١٥ — ابن عذارى ، ج ١ ص ٩

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٩

(٣) المالكى ، ص ١١

(٤) المالكى ، ص ١٠ — ابن عذارى ، ص ٩ — عبيد الله بن صالح ، ص ٢١٦

(٥) ابن الأثير ، ج ٣ ، ٤٣ — الاستقصا ، ج ١ ، ص ٧٥

إفريقية (١) . ولما وصلوا إلى قابس وجدوا الروم قـــد تحصنوا داخل أسوارهم ، فأشار المسلمون على عبد الله بن سعد ألا يبدأوا بمهاجمة الحصون قبل أن يشتبكوا مع جيوش الروم (٢) ، فعدل عبد الله عن محاصرة قابس، وبعث السرايا فى آفاق إفريقية ، فغنموا فى كل وجه (٣) . وعندئذ اضطر البطريق جريجوريوس ، ويسميه العرب جرجير (٤) أو جرجيس(٥) ، إلى الخروج من سبيطلة لملاقاة جيوش العرب ، فخرج فى جيش عـــدته مائة وعشرين ألف مقاتل وفقا لرواية ابن عذارى وعبيد الله بن صـالح (٦) ، ومائة ألف وفقا لرواية المالكى (٧) . والتقى الجيشان بالقرب من سبيطلة . وهنا تتعارض الروايات العربية فيما بينها :

---

(١) المالـكى ، ص ١٠ .

(٢) عبيد الله بن صالح ، ص ٢١٦ .

(٣) ابن عذارى ج ١ ص ٩ .

(٤) يقول ابن عذارى: «وصاحبها بطريق يقال له جرجير ، وكان سلطانه من اطرابلس الى طنجه » (البيان المغرب ج ١ ص ٩) . ويقول المالـكى : « فخرج عبد الله بن سعد... يريد الى البطريق بافريقية ، وكان قد غلب على المغرب» (المالـكى ، ص ١٠). ويقول ابن عبد الحـكم : «وكان مستقر سلطان افريقية يومئذ بمدينة يقال لها قرطاجنة ، وكان عليها ملك يقال له جرجير كان هرقل قد استخلفه ، فخلع هرقل ، وضرب الدنانير على وجهـه ، وكان سلطانه ما بين طرابلس الى طنجـــة » (ابن عبد الحـكم ، ص ٤٢) كذلك يتفق البلاذرى مع ابن عبد الحـكم وابن عذارى فى تحديد منطقة نفوذ جريجوريوس فى المغـرب (البلاذرى ص ٢٦٧) .

(٥) الادريسى ، ص ١١٠

(٦) ابن الأثير ، ج ٣ ص ٤٣ — عبيد الله بن صالح ، ص ٢١٦ — ابن عذارى ج ١ ، ص ١٠ — السلاوى ، الاستقصا ج ١ ص ٧٥

(٧) المالـكى ، ص ١١

يقول ابن عبد الحكم : «ثم رجع إلى حديث عثمان بن صالح وغيره قال، فلقيه جرجير ، فقاتله فقتله الله ، وكان الذى ولى قتله فيما يزعمون عبد الله ابن الزبير » (١) .

ويقول البلاذرى : « حدثنى محمد بن سعد ، عن الواقدى ، عن أسامة بن أسلم ، عن نافع مولى آل الزبير ، عن عبد الله بن الزبير قال : أغزانا عثمان بن عفان إفريقية ، وكان بها بطريق ، سلطانه من أطرابلس إلى طنجة، فسار عبد الله بن سعد بن أبى سرح حتى حل بعقوبة ، فقاتله أياما فقتله الله، وكنت أنا الذى قتله ، وهرب جيشه فتمزقوا » (٢) . وأورد المالكى عدة روايات (٣) :

ا ـ منها رواية عن الواقدى عن ربيعة الديلمى قال : « ثم تمادينا إلى إفريقية ، ونحرنا الإبل ، وذبحنا البقر ، وأخذنا العلف والسبد ، وجعلنا نضرب فى كل جهة ، وأقمنا أياما تجرى بيننا وبين جرجير ملكهم الرسل ، ندعوه إلى الإسلام . فكلما دعوناه إلى الإسلام نخر ، ثم استطال وقال : لا أفعل هذا أبدا . فقلنا له : فتخرج الجزية فى كل عام، فقال لو سألتمونى درهما لم أفعل . فتهيأ الناس للقتال ، وعبأ عبد الله بن سعد ميمنة وميسرة وقلبا وسار بأصحابه ، فقال له رجل من القبط ممن كان معه : إن القوم لا يصافونك، هم أرعب منك من أن يصافوك ، وهم يهربون منك، فاجعل منك ، فاجعل لهم كمينا ، وفرقهم فى أماكن . ففعل ذلك عبد الله ، وغدا بنا على تعبئة ،

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٤٢

(٢) البلاذرى ص ٢٦٧

(٣) المالكى ، ص ١٠ ـ ١٥

وتلاقينا مع الروم قد رفعوا الصليب وعليهم من السلاح ما الله أعلم به ، ومعهم من الخيل ما لا يحصى ، فضاولنا ساعة من نهار حتى صارت الشمس قدر رمحين ، وحمل عبد الله بالناس فكانت الهزيمة عليهم ، وكر المسلمون عليهم فى كل مكان ، فأكثروا فيهم القتل والأسر . لقد رأيت فى موضع واحد ألف أسير ، فلما أصابهم الأمر والقتل طلبوا الصلح ، فصالحهم عبد الله بن سعد على خرج ، قيل صالحهم على ألفى ألف دينار وخمسمائة ألف دينار » .

ب ـ ومنها رواية عن سباب العصفرى قال : « غزا عبد الله بن سعد إفريقيه مع جماعة من الصحابة فلقى جرجير فى سبيطلة وهى مدينة مسورة على سبعين ميلا من القيروان فقتل جرجير وهو فى مائة ألف ، وصالحه أهل المدائن والحصون على مائة ألف رطل ذهب » .

ج ـ ومنها رواية لأبى عثمان سعيد بن عفير ، قال : « لما سمعت الروم والأزارقة (١) بمخرج عبد الله ووصوله إلى إفريقية ، خرجوا إليه ومعهم جرجير فى جمع كثير من الروم . فلما التقوا بالمسلمين نادى جرجير بالبراز فبرز إليه عبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم ، فقتله ابن الزبير ، ومنهم من قال قتلاه جميعا . ثم كانت الهزيمة ، واتخذ المسلمون ذلك المنزل معسكر ، وأصابوا لهم غنائم كثيرة ، فأصاب الفارس فى سهمه ثلاثة آلاف دينار ، ثم ساروا إلى البلاد ففتحوها كل مدينة عنوة » .

د ـ ومنها رواية نقلها عن الواقدى عن عبد الله بن الزبير قال : « أغزانا

---

(١) الأزارقة خطأ وتصحيحها الأفارقة .

عثمان رضى الله تعالى عنه إفريقية ، وكان بها بطريق يسمى جرجير ، سلطانه من طرابلس إلى طنجة فسار عبد الله حتى حـــل به ، فقاتله أياما ، فقتله الله عز وجل ، وكنت أنا الذى قتلته ، فهرب جيشه ، وقطع ابن أبى سرح السرايا ، وفرقها فى البلاد ، فأصابوا غنائم كثيرة ».

هـ ـ ومنها رواية نقلها عن أهل العلم بالسير ومغازى إفريقية نصها : « إن عبد الله بن سعـد نزل بموضع يسمى قمونية ، وهو موضع مدينة القيروان (انظر خريطة رقم ٤) ، فسأل عن أشراف من بافريقية من الروم ، فقيل جرجير ، وهـو صاحب مدينة سبيطلة . فزحف عبد الله إلى جرجير الملك ، فلقيه فى خلق عظيم من الروم ، فقاتله عبـد الله بمن معه ، والتحم القتـال ، ووقع الصبر ، حتى ظن الناس أنه الفناء ، فانهزم جرجير ولزمه عبد الله بن الزبير فى عجاج الموت ، فعرفه بمن معه من أشراف قومه ، ففرق عنه أصحابه وقتله إلى جانب السور ، وابنته تنظر من السور إلى قاتله ، وسبقت خيول المسلمين الروم إلى باب الحصن ، فحالوا بينهم وبين الدخـول إلى حصنهم ، فركبهم المسلمون يمينا وشمالا فى السهل والوعر ، فقتلوا أنجادهم وفرسانهم ، ونزل عبد الله بن أبي سرح باب المدينة ، وحصرها بمن معه حصـارا شديدا حتى فتحها ، وأخذ ابنة جرجير فوهبها لعبـد الله بن الزبير ، وهو صاحب الأفاعيل فى ذلك اليوم ، وهو المستشهد فى سبيل الله . ودخل عبد الله المدينة ، فوجد فيها سبيا كثيرا وأموالا جمة عظيمة ، ووجد أكثرها ذهب ، وسرى على الروم فبلغت خيوله قصور قفصة ، وبلغت موضعا يقال له قرطاجنة ، فسبى فيها ما تأتي ، وذهب بعد تلك الواقعة ملك الروم بافريقيـة ، ولجأوا إلى الحصون ، وأصابهم رعب عظيم ».

ويقول ابن الأثير[١] : « وسار (عبد الله بن سعد) نحو إفريقية ، وبث السرايا في كل ناحية ، وكان ملكهم اسمه جرجير ، وملكه من طرابلس إلى طنجة ، وكان هرقل ملك الروم قد ولاه إفريقية ، فهو يحمل إليه الخراج كل سنة ، فلما بلغه خبر المسلمين تجهز وجمع العساكر وأهل البلاد ، فبلغ عسكره مائة ألف وعشرين ألف فارس ، والتقى هو والمسلمون بمكان بينه وبين مدينة سبيطلة يوم وليلة ، وهذه المدينة كانت ذلك الوقت دار الملك ، فأقاموا هناك يقتتلون كل يوم ، وراسله عبد الله بن سعد ، يدعوه إلى الإسلام أو الجزية ، فامتنع منهما ، وتكبر عن قبول أحدهما ، وانقطع خبر المسلمين عن عثمان ، فسير عبد الله بن الزبير في جماعة إليهم ليأتيه بأخبارهم ، فسار مجدا ، ووصل إليهم ، وأقام معهم ، ولما وصل كثر الصياح والتكبير في المسلمين ، فسأل جرجير عن الخبر ، فقيل قد أتاهم عسكر ، ففت ذلك في عضده ، ورأى عبد الله بن الزبير قتال المسلمين كل يوم من بكرة إلى الظهر ، فاذا أذن بالظهر عاد كل فريق إلى خيامه ، وشهد القتال من الغد ، فلم ير ابن أبي سرح معهم ، فسأل عنه ، فقيل إنه سمع منادى جرجير يقول : من قتل عبد الله بن سعد فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنتي ، وهو يخاف ، فحضر عنده ، وقال له : تأمر مناديا ينادى من أتى برأس جرجير نفلته مائة ألف وزوجته ابنته ، واستعملته على بلاده ، ففعل ذلك ، فصار يخاف أشد من عبد الله . ثم إن عبد الله بن الزبير قال لعبد الله بن سعد ، إن أمرنا يطول مع هؤلاء ، وهم في أمداد متصلة ، وبلاد هي لهم ، ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم ، وقد رأيت أن تترك غدا جماعة صالحة من أبطال المسلمين في خيامهم

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ص ٤٣ ، ٤٤

متأهبين ، ونقاتل نحن الروم فى باقى العسكر ، إلى أن يضجروا ، ويملوا ، فاذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون ، ركب من كان فى الخيام من المسلمين ، ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون ، ونقصدهم على غرة ، فلعل الله ينصرنا عليهم . فأحضر جماعة من أعيان الصحابة واستشارهم فوافقوه على ذلك . فلما كان الغد فعل عبد الله مااتفقوا عليه ، وأقام جميع شجعان المسلمين فى خيامهم ، وخيولهم عندهم مسرجة ، ومضى الباقون ، فقاتلوا الروم إلى الظهر قتالا شديدا ، فلما أذن بالظهر هم الروم بالانصراف على العادة ، فلم يمكنهم ابن الزبير وألح عليهم بالقتال حتى أتعبهم ، ثم عاد عنهم هو والمسلمون ، فكل من الطائفتين ألقى سلاحه ووقع تعبا ، فعند ذلك أخذ عبد الله بن الزبير من كان مستريحا من شجعان المسلمين ، وقصد الروم ، فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم ، وحملوا حملة رجل واحد وكبروا ، فلم يتمكن الروم من لبس سلاحهم ، حتى غشيهم المسلمون ، وقتل جرجير ، قتله ابن الزبير ، وانهزم الروم وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وأخذت ابنة الملك جرجير سبية ، ونازل عبد الله بن سعد المدينة ، فحصرها حتى فتحها ... » .

ويقول ابن عذارى (١) : « والتقى عبد الله مع البطريق ضحى النهار فى موضع يعرف بسبيطلة ، وكان جرجير فى مائة وعشرين ألفا ، فضاق المسلمون فى أمرهم ، واختلفوا على ابن سعد فى الرأى ، فدخل فسطاطه مفكرا فى الأمر ... قال عبد الله بن الزبير : فرأيت عورة من جرجير ، والناس على مصافهم ، رأيته على برذون أشهب خلف أصحابه ، منقطعا عنهم ، معه

---

(١) ابن عذارى ج ١ ص ١٠ ، ١١ . وقد ورد هذا النص أيضا فى رياض النفوس للمالكى ، ص ١٤ ، ١٥

جاريتان له تظلانه من الشمس بريش الطواويس ، فأتيت فسطاط عبد الله ابن سعد ، فطلبت الإذن عليه ، فقال له حاجبه : دعه فانه يفكر فى شأنكم ، ولو اتجه إليه رأى لدعا بالناس. فقلت : إنى محتاج إلى مذاكرته . فقال له: أمرنى أن أحبس الناس عنه حتى يدعونى . قال : فدرت حتى كنت من وراء الفسطاط ، فرأى وجهى ، فأومأ إلى برأسه ، أن تعال . فدخلت عليه وهو مستلق على فراشه ، فقال : ما جاء بك يا ابن الزبير ؟ . فقلت : رأيت عورة من عدونا ، فرجوت أن تكون فرصة هيأها الله لنا ، وخشيت الفوت . فقام من فوره ، وخرج حتى رأى ما رأيت ، فقال : أيها النـــاس ، انتدبوا مع ابن الزبير إلى عدوكم ، فتسارع إلى جماعة اخترت منهم ثلاثين فارسا ، ثم قلت : إنى حامل ، فاصرفوا عن ظهرى من أرادني ، فانى أكفيكم ما أمامى إن شاء الله تعالى . قال عبد الله : فحملت فى الوجه الذى هو فيه ، وذب عنى الذين انتدبوا معى ، وأتبعونى حتى خرقت صفوفهم إلى أرض خالية فضاء بينى وبينهم ، فوالله ما حسب إلا إنى رسول إليه حتى رأى ما بى من أثر السلاح ، فقدر إنى هارب إليه، فلما أدركته طعنته، فسقط ، فرميت نفسى عليه ، وألقت جاريتاه عليه أنفسهما ، فقطعت يد إحداهما ، وأجهزت عليه ، ورفعت رأسه على رمحى . وجال أصحابه ، وحمل المسلمون فى ناحيتى وكبروا ، فانهزم الروم ، وقتلهم المسلمون كيف شاءوا . وثارت الكمائن من كل جهة ومكان ، وسبقت خيول المسلمين ورجالهم إلى حصن سبيطلة ، فمنعوهم من دخوله ، وركبهم المسلمون يمينا وشمالا فى السهل والوعر ، فقتلوا أنجادهم وفرسانهم ، وأكثروا فيهم الأسارى حتى لقد كنت أرى فى موضع واحد أكثر من ألف أسير » .

هذه هى معظم الروايات العربية التى تصور لنا انتصار العرب على الروم

فى سبيطلة ، وهى وإن كانت متباينة فى التفصيلات من جهة ، ويغلب عليها الطابع القصصى من جهة ثانية، إلا أن معظمها تتفق على أن عبد الله بن الزبير هو قاتل جريجوريوس. ويشك الدكتور الدكتور حسين مؤنس فى الروايات القائلة بخوف عبد الله بن سعد من الظهور أمام جنده خشية أن يترصده أحد جنوده فيقتله ، واختبائه فى فسطاطه حتى قدوم عبد الله بن الزبير فى مدد بعثه عثمان بن عفان إليه لما أبطأت عليه أخبار المسلمين (١) . كما يشك فى دور البطولة الذى أسبغته الروايات العربية المتأخرة على عبد الله بن الزبير لعاملين :

الأول : أن ابن عبد الحكم ، وهو أقدم من كتب من مؤرخى العرب فى فتح المغرب ، اكتفى بقوله : « وكان الذى ولى قتله فيما يزعمون عبد الله ابن الزبير » ، أى أنه ذكر الخبر فى شىء من الحذر والاحتراز مما يشكك فى أصالة الرواية .

والثانى : أنه بينما تشير معظم الروايات إلى أن ابنة جريجوريوس كانت من نصيب قاتل أبيها عبدالله بن الزبير، ومن جملة هذه الروايات رواية ذكرها ابن عبد الحكم ، فان ابن عبد الحكم نفسه أورد رواية أخرى جاء فيها : « وكانت ابنة جرجير، كما حدثنا أبو عبد الله بن عبد الحكم، وسعيد بن عفير، قد صارت لرجل من الأنصار فى سهمه ، فأقبل بها منصرفا ، قد حملها على بعير له ، فجعل يرتجز .

يا ابنـــة جرجير تمشى عقبتك ... إن عليك بالحجاز ربتك

لتحملن عن قبـــاء قربتك

---

(١) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٨٩

فسألت ما يقول هذا الكلب!، فأخبرت بذلك ، فألقت بنفسها عن البعير الذى كانت عليه ، فدقت عنقها فماتت » (١) . ويتساءل الدكتور مؤنس : كيف يتفق أن تصير ابنة جرجير لابن الزبير ، ولرجل من الأنصار فى وقت واحد ؟

ويستنتج الدكتور مؤنس من رواية ابن عبد الحكم أن قصة قتل ابن الزبير لجرجير ، وأخذه ابنته لا أصل له فى الحقيقة ، ولا يعدو ذلك أن يكون من اختراع الرواة (٢). ويؤيد الدكتور سعد زغلول عبد الحميد هذا الرأى ، ويرى « أن الزبيريين هم الذين عملوا على إذاعة هذه الأمجاد عن أسرتهم ، فنسبوا إلى عميد الأسرة الأول - الزبير بن العوام - فخر الانصار فى بابليون فى مصر ، كما نسبوا إلى ابنه عبد الله - الذى بلغت الاسرة على أيام مطالبته بالخلافة أوج عظمتها - شرف الانتصار فى سبيطلة بافريقية (٣) .

وقبل أن نبحث فى الدور الذى لعبه ابن الزبير فى موقعة سبيطلة ينبغى أن نشير إلى أمرين :

الأول : أنه إذا كان ابن الزبير من بين الصحابة الذين اشتركوا فى الحملة التى سيرها عثمان بن عفان من المدينة ، فكيف يتفق إذن قدومه بعد ذلك إلى المغرب قبل وقوع الاشتباك فى سبيطلة بين العرب والروم ؟

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٤٦

(٢) حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب ، ص ٩٢

(٣) سعد زغلول عبد الحميد ، فتح العرب للمغرب بين الحقيقة التاريخية ، والأسطورة الشعبية ، ص٢٩

والثانى : إذا كان الدكتور حسين مؤنس يستند على نص ابن عبد الحكم الذى يشير إلى أن ابنة جرجير آلت إلى رجل من الأنصار فى سهمه ، وذلك تعزيزا لرأيه فى أن ابن الزبير لم يكن بطل سبيطلة ، فان المالكى يروى فى رياض النفوس خبرين نستنتج منهما أن عبد الله بن سعد كافأ عبد الله ابن الزبير على بطولته بأن نفله ابنة الملك . وفى الخبر الأول أبيات قالها ابن الزبير فى ابنة جرجير حين بلغه أنها سألت أباها أن ينحلها العرب :

ابنة جرجير تاقى نحلتك ∴ لقيت بالنحلة ثكلى أبتك
لتأخذن فى الطريق عقبتك ∴ لتسقين شر ماء قربتك
شر عجوز بالحجاز ربتك (١)

وفى الخبر الثانى أن عبد الله كان يرتجز لابنة جرجير البطريق ويقول :

يا ابنة جرجير تمشى غضبتك ∴ ستبصرين فى الحجاز ربتك
ما أحسن الوجه وأجمل مقلتك ∴ لتحملن من تدير قربتك
لتعظمن فى الإماء لقمتك (٢)

ويروى ابن عذارى أيضا أن عبد الله بن سعد نفل ابن الزبير ابنة الملك المقتول جرجير ، وأنه اتخذها أم ولد(٣) . كذلك يروى ابن الأثير ، أن

---

(١) المالكى ، ص ١٣
(٢) نفس المرجع ، ص ١٥
(٣) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ١٢

عبد الله بن سعد نفل ابن الزبير ابنة جرجير ، وأرسله إلى عثمان بالبشارة بفتح إفريقية . ثم يضيف قائلا : « وقيـــل أن ابنة الملك وقعت لرجل من الأنصار(١) » .

ولا جدال فى أن معظم الروايات السابقة تتضمن كثيرا من المبالغـة فى تصوير بطولة ابن الزبير ، ومن الطبيعى أن تمجد هذه الروايات المستقاة من آل الزبير بطولته ، فتقلل من شأن ما قام به عبد الله بن سعد . ولكن ليس معنى هـذا أن نستبعد ما أجمعت عليه الروايات من أن ابن الزبير هو الذى توصل إلى قتل جرجير (جريجوريوس) . فلو أن ابن عبد الحكم كان يشك بعبارته « فيما يزعمون » فى قيام عبد الله بن الزبير بقتل جرجير ، فلماذا لم يشر إذن إلى رواية أخرى تتضمن اسم البطل الحقيقى؟. ونعتقد أن عبد الله ابن الزبير كان من بين أبناء الصحابة الذين اشتركوا فى حملة الحجاز ، فاسمه يرد فى رواية البلاذرى والمالكى وابن عذارى والنويرى ، وقد تصادف اشتراك عدد من أبناء الصحابة فى هذه الحملة تبدأ أسماؤهم بعبد الله ، فسميت الغزوة لذلك بغزوة العبادلة(٢) . وأعتقد أن ابن الأثير هو المؤرخ الوحيـد الذى أشار إلى تسيير عثمان بن عفان لعبد الله بن الزبير فى جماعة إلى إفريقية ليأتيه بأخبار المسلمين ، وعنه أخذ النويرى . والنويرى على هذا النحو يناقض نفسه ، فقد روى فى موضع آخر أن حملة الحجاز كانت تضم بين قوادها عبد الله بن الزبير(٣) . إذن ليس هناك إجماع بين الروايات على أن ابن الزبير

---

(١) ابن الأثير ، ج ٣ ، ص ٤٤

(٢) المالكى ، ص ١٠

(٣) النويرى ، نهـــاية الأرب ، عن حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ص ٨١ ، ملاحظة رقم ٢ .

كان مبعوثا للخليفة عثمان إلى عبد الله بن سعد بعد أن انقطعت أخبار الفتح . وقد تكون رواية ابن الأثير فى هذا الشأن منقولة عن مصدر زبيرى لتصور إلى أى حد كان وصول ابن الزبير نجدة للمسلمين . وظاهر أن هذه الرواية من اختراع الرواة ، خاصة بعد أن اختار ابن سعد عبد الله بن الزبير ليكون رسولا منه إلى الخليفة ليبشره بما أحرزه المسلمون من انتصارات على الروم ، فقد روى ابن عبد الحكم (عن عبد الملك بن مسلمة ، عن ابن لهيعة) قال أن عبد الله بن سعد « بعث بالفتح عقبة بن نافع ، ويقال بل عبد الله ابن الزبير وذلك أصح ، وسار – زعموا – عبد الله بن الزبير على راحلته إلى المدينة من إفريقية عشرين ليلة » . وروى أيضا نقلا عن سعيد بن عفير ، « حدثنى المنذر بن عبد الله الحزامى ، عن هشام بن عروة أن عبد الله بن سعد بعث عبد الله بن الزبير بفتح إفريقية ، فدخل على عثمان ، فجعل يخبره بلقائهم العدو ، وما كان فى تلك الغزوة ، فأعجب عثمان (١) » . وقال ابن عبد الحكم أيضا نقلا عن مسلمة بن عبد الملك عن الليث بن سعد ، قال : « بعث عبد الله بن سعد عبد الله بن الزبير – وكان فى الجيش – بالفتح ، فقدم على عثمان بن عفان(٢) » . ويؤيد المالكى هذه الرواية بقوله إن عبد الله بن أبى سرح لما أراد أن يوجه بشيرا إلى عثمان رضى الله عنه ، قال (لابن الزبير) : « أنت أولى من هنا بذلك (وذلك لقتله جريجوريوس) . انطلق إلى أمير المؤمنين ، فأخبره بالخبر(٣) » . وقال ابن عذارى أن الأمير

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٤٨ – ٥٠
(٢) نفس المرجع ص ٥٠
(٣) المالكى ، ص ١٠

عبد الله بن سعد دعا عبد الله بن الزبير ، فقال له « ما أحد أحق بالبشارة منك ، فامض ، فبشر أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه بالمدينة ، بما أفاء الله على المسلمين(١) » .

فوصل عبد الله إلى المدينة فى شهر ، وقيل فى ثمانية عشر يوما(٢) ، وذكر ابن عذارى أنه وافى المدينة فى أربعة وعشرين يوما ، وكانت إقامته بافريقية سنة وشهرين(٣) . وأغلب الظن أن الرواة وجدوا فى سفره إلى المدينة رسولا من ابن سعد فرصة مواتية ومبررا لتمجيد شخصيته، فنسجوا قصة بطولته الخارقة فى أنه قدم إلى إفريقية مبعوثا من الخليفة، فوجد ابن سعد مهموما فى فسطاطه ، فدبر له خطة قتل جريجوريوس ، هذه القصة فيها تعظيم لشأن عبد الله بن الزبير وتقليل من شأن عبد الله بن سعد . ولو أن عبد الله بن الزبير لم يكن قد اشترك فى الحملة، وأبدى من البطولة فى قتال الروم ، وقتل جريجوريوس ، لما كان جديرا باختياره رسولا إلى الخليفة يبشره بالفتح .

أما ما ذكره ابن عبد الحكم من أن عبد الله بن سعد وجه مروان بن الحكم إلى عثمان من إفريقية ، فان ابن عبد الحكم نفسه لم يستطع أن يعرف إذا ما كان ذلك قد حدث قبل الفتح أم بعده ، والأقرب إلى الصواب أنه أرسله إليه قبيل موقعة سبيطلة ، عندما شاهد ضخامة جيش الروم ومنعتهم ، وذلك لكى يستمد عثمان بمدد آخر. وأعتقد أن عبد الله بن سعد بادر بعد نجاح ابن الزبير فى قتل جريجوريوس ودخول المسلمين سبيطلة بارساله إلى المدينة وذلك حتى

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢

(٢) المالكى ، ص ١٠

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣

يردف به مروان بن الحكم، فيصل ابن الزبير ومعـــه آخر أنباء الفتح . ولو افترضنا جدلا أن عبد الله بن سعد أرسل مروان بن الحكم إلى الخليفة قبل المعركة ليطلب مددا جديدا، فليس من المعقول أن يصل مروان ، ويأتى عبد الله بن الزبير فى فترة وجيزة بحيث يسبق مجيئه نشوب المعركة ، وليس من المعقول أن يأتى عبد الله بن الزبير على رأس اثنى عشر رجلا فقط على حد قول النويرى[١] .

ونخرج من كل ذلك بالنتائج الآتية :

١ ـ أن عبد الله بن سعد بعد أن استعصت عليه قابس ، واصل زحفه بحذاء الساحل التونسى حتى وصل إلى بلدة قمونية ، وهى موضع مدينة القيروان[٢] ، ولعلها ميناء Caput Vada البيزنطى أو مدينة قمودة التى أشار إليها الادريسى ، وكلتاهما قريبة من القيروان(٣) . وهناك أرسل رسله إلى جريجوريوس يدعوه إلى خصال ثلاثة : الإسلام ، أو الجزية أو القتال(٤)، وهى عادة اتبعها الفاتحون العرب فى كل فتوحاتهم. فلما رفض جريجوريوس ما عرضه عليه عبد الله بن سعد ، بدأت الاشتباكات بين الطرفين ، وتهيأ القوم للقتال ، « وعبأ الناس عبد الله بن سعد ميمنة وميسرة وقلبا ، وسار بأصحابه(٥) » خلف جيوش الروم، وكان جريجوريوس قد حصن سبيطلة

---

(١) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٨٧ .
(٢) المالكى ، ص ١٢ .
(٣) حسين مؤنس ، ص ٨٦ ، ملحوظة رقم ٢
(٤) المالكى ، ص ١٠
(٥) المالكى ، ص ١١ .

بسلسلة من الحصون والقلاع ، واختار جريجوريوس لحص عقوبة ، ويقع قريبا من سبيطلة ليكون ميدانا للمعركة بينه وبين العرب .

ويبدو أن جيش الروم تضخم بمن انضم اليه من الروم والبربر الموالين لهم ، من العاصمة ومن الحصون القريبة من سبيطلة(١) . وظهر جيش العرب ضئيلا بالنسبة لجيش الروم ، وخاف عبد الله بن سعد أن يلقى العرب ، وهم فئة قليلة جيوش الروم والأفارقة مجتمعة ، فعظم عليه الأمر ، ولعله أرسل فى هذه الآونة مروان بن الحكم إلى عثمان ليستمده . وهنا تصور الروايات العربية شدة ما أصابه من غم وضيق ، واختلاف المسلمين عليه فى الرأى ، وانزوائه فى فسطاطه مفكرا .

٢ – كان جريجوريوس يخاف أن يشتبك مع العرب فى موقعة فاصلة ، فتدور عليه الدائرة(٢) ، فقد كانت أنباء انتصاراتهم فى الشام ومصر والعراق وبرقة قد وصلته ، ولذلك اقتصر القتال بادىء ذى بدء على اشتباكات فاترة . وكان جيش الروم ينقسم إلى كراديس ، واختار جريجوريوس لنفسه موضعا مرتفعا نائيا عن جنوده يشرف منه على القتال . واستغرقت المناوشات أياما كان القتال يمتد أثناءها من الصباح حتى الظهر . ويبدو أن جيوش الروم كانت متفوقة على جيوش المسلمين . مما دعا ابن الزبير إلى التفكير فى طريقة تكفل النصر للمسلمين ، فاتفق مع عبد الله بن سعد على أن يباغت

---

(١) يروى المالكى عن أبى عثمان سعيد بن عفير ، أن الروم والأفارقة ، لما سمعوا بوصول عبد الله بن سعد الى افريقية خرجوا اليه ومعهم جرجير فى جمع كثير من الروم (رياض النفوس ، ص ١١)

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ١٠

عبد الله بن الزبير الروم بالهجوم بعد انتهاء القتال اليومى، عندما يكون التعب والجهد قد أخذ منهم مأخذا عظيما(١) ، ونجحت الخطة نجاحا لم يكن فى الحسبان، واخترق عبدالله بن الزبير وأصحابه معسكر الروم، وهم متعبون، لا يتوقعون القتال ، واستطاع أن يصل فى يسر إلى مخيم البطريق ، وتمكن أخيرا من قتله ، وانهزم الروم بعد مصرع ملكهم هزيمة نكراء ، وسبقتهم خيول المسلمين إلى باب الحصن، فحالوا بينهم وبين دخوله ، وأذرع فيهم المسلمون قتلا(٢) ، واستولوا على حصن عقوبة .

٣ ـ زحف عبد الله بن سعد إلى سبيطلة بعد ذلك ، فحاصرها حصارا محكما وتمكن من الاستيلاء عليها ، وغنم فيها غنائم كثيرة . وأراد أن يستغل هذا الانتصار الكبير فى الاستيلاء على قرطاجنة ، « فبث جيوشه فى البلاد فبلغت قفصة ، فسبوا وغنموا ، وسير عسكرا إلى حصن الأجم(٣) ، وقد احتمى به أهل البلاد فحاصره ، وفتحه على الأمان(٤) » . فلما رأى رؤساء المدن فى إفريقية ذلك طلبوا من عبد الله بن سعد أن يأخذ منهم ثلاثمائة قنطار من ذهب على أن يكف عنهم ويعود من حيث أتى، ففعل(٥) ، وتأهب للعودة إلى مصر ، دون أن يتخذ بالمغرب قيروانا ، ويستغل هذا النصر العظيم فى

---

(١) ابن الأثير ، الكامل، ج ١٠ ص ٤٣.

(٢) المالكى ، ص ١٢ .

(٣) هو حصن منيع من أعظم حصون افريقية ، ويقع جنوبى مدينة القيروان ، وكان يعرف فى العصر البيزنطى باسم Thysderas (حسين مؤنس ، ص ٩٧ ملحوظة ٤) .

(٤) ابن الأثير ، ج ٣ ص ٤٤ ـ الاستقصا ، ج ١ ص ٧٦ .

(٥) البلاذرى ، ص ٢٦٨ .

إقامة قاعدة للمسلمين فى إفريقية(١). وكانت قد وصلته أنباء بقيام الروم فى المسالح والحصون الشمالية بالتجمع لقصده(٢)، فخاف أن يشتبك معهم فى قتال ينتهى بهزيمته، خاصة وأنه كان قد فقد عددا كبيرا من عسكره فى معركة سبيطلة، يضاف إلى ذلك أن غيبته عن مصر، مقر ولايته، كانت قد طالت إلى ١٥ شهرا، وكان لابد له من العودة للنظر فى شؤون ولايته من جهة، وللقضاء على مظاهر الاضطراب الناشئة من سخط المسلمين على سياسة الخليفة عامة من جهة ثانية، ثم إن جيش المسلمين كان قد جمع من الغنائم الكثيرة ماجعل الجند يحرصون إلى العودة بها إلى مصر. هذه الدوافع حركت عبد الله بن سعد إلى التفكير فى العودة إلى مصر، فكتب إلى نائبه فى مصر عقبة بن عامر الجهنى، يأمره بأن يرسل إليه بطرابلس مراكب فى البحر لتحمل غنائم المسلمين، وسار هو وجيشه إلى طرابلس حيث وافته السفن بها(٣).

ويعلق الدكتور حسين مؤنس على موقعة سبيطلة بأنها لم تفتح أمام العرب كل سهل تونس، بل جزءا محدوداً منه يحدده الخط الممتد من سبيطلة نفسها إلى سوسة من الشمال، ثم من سبيطلة إلى قفصة جهة الشرق، وشريط

---

(١) وفى ذلك يقول البلاذرى: « لما صالح عبد الله بن سعد بطريق افريقية رجع الى مصر، ولم يول على افريقية أحدا، ولم يكن لها يومئذ قيروان ولا مصر جامع » (فتوح البلدان، ص ٢٦٨).

(٢) المالكى، ص ١٧ – Julien, Histoire de l' Afrique du Nord, depuis la conquête arabe, Paris, 1952, p. 14.

(٣) المالكى، ص ١٠

ساحلى ضيق فيما بين قابس وشط الجـريد فى الجنوب (١) . ومع ذلك فان غزوة عبد الله بن سعد كانت تجربة مفيدة للعرب ، إذ أوقفتهم على حالة هذه البلاد ، وعلى مدى أهميتهـا بالنسبة لهم ، وسنرى أن جهود عبد الله بن سعد ستعقبها جهود موفقة أخرى .

ج ـ حملة معاوية بن حديج على افريقية سنة ٤٥ هـ (٦٦٦ م) :

ما كاد البطريق جريجوريوس يقتـل فى سبيطلة حتى أقام الافارقة على أنفسهم بطريقا جديدا يقوم بشؤونهم ويسميه العرب حبا حبة(٢) ، وهو الذى عقد معـه عبد الله بن سعد معاهدة الصلح(٣). ولم يعاود العرب الاغارة على أفريقية ، ولم يبدوا اهتماما بشؤن المغرب على الإطلاق منـذ سنة ٢٨ هـ التى عقد فيهـا الصلح بين العرب والأفارقة ، حتى سنة ٣٨ هـ ، وهى السنة التى تولى فيها عمرو بن العاص ولاية مصر من قبل معاوية بن أبى سفيان ، ذلك أنهم شغلوا بفتنة الأمصار التى أسفرت عن مقتل الخليفة عثمان، ونشوب النزاع بين الأمويين والعلويين، وهو النزاع الذى انتهى بمقتل على بن أبى طالب وقيام الدولة الأموية .

وكان عمرو بن العاص ما يزال يضع فتح إفريقية على رأس جـــدول

---

(١) فتح العرب للمغرب، ص ٩٩

(٢) ابن عذارى، ج ١، ص ١٦ ، ١٧ . ويسميه النويرى باسم جنا حه (عن حسين مؤنس ، ص ١١٤ ، ملحوظة ٢) . ويسميه اندريه جوليان جناديوس Gennadius (Julien, op. cit. p. 15.)

(٣) البلاذرى، ص ٢٦٨ .

أعماله ، وكانت المغانم الكثيرة والمكاسب الوافرة التى أسفرت عنها حملة عبد الله بن سعد ، عاملا هاما فى تحريك مطامع عمرو فى المغرب من جديد ، ودفعه إلى غزو هذه البلاد للمرة الثانية . غير أن الصراع القائم بين على ومعاوية ، ومشكلات التحكيم ، شغله عن إعداد حملة منظمة لهذا الغرض، فلما استقر الأمر لمعاوية على الخلافة، بعد تنازل الحسن له عنها فى أواخر ربيع الأول سنة ٤١ هـ ، استأنف عمرو غزواته السابقة على برقة وطرابلس ، فكان يبعث إليها جندا يغنمون من أراضيها ما شاء لهم ذلك ، ويعودون من حيث أتوا، دون أن يشتبكوا مع الروم فى مواقع حاسمة . فقد ذكر ابن الأثير أن عمرو استعمل فى سنة ٤١ هـ « عقبة بن نافع بن عبد قيس وهو ابن خالة عمرو، على أفريقية ، فانتهى إلى لواتة ومزاتة فأطاعوا ثم كفروا ، فغزاهم من سنته ، وقتل وسبى، ثم افتتح فى سنة اثنتين وأربعين غدامس فقتل وسبى ، وفتح فى سنة ثلاث وأربعين كورا من كور السودان ، وافتتح ودان ، وهى من برقة »(١). ويؤيد ذلك ما ذكره ابن عذارى إذ يقول: « (وفى سنة ٤٢ هـ) غزا عقبة بن نافع أفريقية (٢) . قال غريب فى مختصره للطبرى : فيها غزا عقبة بن نافع المغرب ، وافتتح غدامس، فقتل فيها وسبى » ويشير ابن تغرى بردى كذلك إلى افتتاح عقبة بن نافع فى سنة ٤٣ هـ كورا من بلاد السودان وودان من برقة (٣) .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج١ ، ص ٢١٢

(٢) ابن عذارى ، ص ١٥

(٣) أبو المحاسن بن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج١ ، طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٢٩ ص ١٢٤

وكان معاوية بن أبي سفيان يرى أن اهتمام عمرو بشؤون المغرب يخفى وراءه طمعا فى غنائمها ، وكان يتطلع هو إلى هذه المغانم ، فلما توفى عمرو ابن العاص سنة ٤٣ﻫ (٦٦٤م) فصل معاوية ولاية إفريقية عن مصر ، واعتبرها ولاية مستقلة تتبع دمشق مباشرة ، ويولى هو عليها من شاء من رجاله . فأقام على مصر عقبة بن عامر الجهنى ، بعد أن عزل عبد الله بن عمرو عنها ، ثم ولى معاوية بن حديج التجيبى رئيس حزب العثمانية فى مصر على قيادة الجيوش فى إفريقية ، مكافأة له على خدماته التى أداها لبنى أمية ، وتجاهل بذلك عقبة بن نافع الفهرى الذى كان ما يزال يقوم بالغزو فى نواحى برقة والواحات .

وكانت إفريقية فى تلك الأثناء تجتاز مرحلة من الفوضى والاضطرابات، فقد غضب الامبراطور البيزنطى كنسطانز الثانى عندما بلغته أنباء الصلح بين العرب والأفارقه ، والجزية التى يدفعها هؤلاء للعرب ، فأرسل إليهم بطريقا من قبله يقال له أوليمة[1] (ولعله أوليمبوس) ليطالب أهل إفريقية بأن يقدموا إليه ثلاثة مائة قنطار من الذهب على نحو ما فعلوه مع عبد الله ابن سعد . فنزل أوليمة قرطاجنة ، وخاطبهم فى ذلك ، فأبوا عليه ، وقالوا : « إن الذى كان بأيدينا من الأموال فدينا به أنفسنا من العرب ، وأما الملك فهو سيدنا ، فيأخذ عادته منا »[2] . ونتيجة لذلك أمر البطريق الجديد أوليمة بابعاد حباحبة من إفريقية . وتمكن بعد فترة طويلة من طرده من البلاد .

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧

(٢) نفس المرجع .

فسار إلى معاوية بن أبي سفيان في الشام ، فوصف له سوء حال البلاد ، وسأله أن يبعث معه جيشا إلى المغرب[١] . ويذكر ابن الأثير أن معاوية استجاب لرجائه ، فسير معه معاوية بن حديج السكوني ، فلما وصلوا إلى الاسكندرية ، توفي حباحبة ، ومضى ابن حديج في طريقه إلى إفريقية ، فوصلها وهي نار تضطرم[٢] ، فان سكان إفريقية لم يسكتوا على تصرف أوليمة وجوره ، فثاروا عليه ، وقدموا على أنفسهم رجلا يعرف باسم الاطريون(٣). ويعتقد الدكتور حسين مؤنس أن نزاعا شديدا بين البيزنطيين وأهل إفريقية كان يثير البلاد ، ويقسم أهلها شيعا وأحزابا ، وأن الامبراطور قسطنطين الثاني أراد أن يرغم هؤلاء السكان على أن يقدموا له قدرا من المال يماثل ما قدموه للعرب ، فقد كانت ظروف الدولة المالية في غاية السوء في هذه الآونة ، وأنها أرهقت صقلية وسردانية وكلابريا بالضرائب ، ويخرج الدكتور مؤنس من ذلك بأن أهل إفريقية وجدوا في العرب منقذا لهم مما كانوا يلاقونه من نير الروم(٤) . وقد أدى النزاع القائم في إفريقية بين الأهالي والحكومة البيزنطية إلى قيام الأفارقة بطرد عامل الامبراطور فعاد إلى بلاده(٥) .

خرج معاوية بن حديج في جيش كثيف عدته عشرة آلاف مقاتل ،

---

(١) ابن الأثير ، ج٣ ص ٤٥ ـ ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧

(٢) ابن الأثير ، ج ٣ ص ٤٥ ـ ابن عذارى ، ص ١٧

(٣) ابن عذارى ، ص ١٧

(٤) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ١١٥

(٥) نفس المرجع ، ص١٢٠

من بينهم الأمير عبد الملك بن مروان ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، ويحيى بن الحكم بن العاص ، والأكدر بن حمام اللخمى ، وكريب بن أبرهة ابن الصباح ، وخالد بن ثابت الثقفى ، وأشراف من جند مصر(١) . ويختلف مؤرخو العرب فى تحديد تاريخ سير هذه الحملة إلى إفريقية ، فابن عبد الحكم يذكر نصا نقله عن عبد الملك بن مسلمة ، عن ابن لهيعة ، عن يزيد بن حبيب، أن معاوية بن حديج غزا إفريقية ثلاث مرات ، الأولى سنة ٣٤ هـ ، وهى غزوة لا يعرفها كثير من الناس ، والثانية سنة ٤٠ هـ ، والثالثة سنة ٥٠ هـ(٢). وقد جاراه فى ذلك المالكى ، وإن كان قد ذكر غزوتين لمعاوية بن حديج بدلا من ثلاثة(٣) ، وأبو العرب تميم فى طبقات علماء إفريقية(٤) ، وابن أبى دينار القيروانى فى المؤنس(٥) ، وابن عذارى المراكشى(٦) . ولكن ابن عبد الحكم يجمع كل أعمال معاوية بن حديج فى إفريقية فى غزوة سنة ٣٤هـ(٧)، ويجاريه ابن خلدون فى ذلك، مع إضافة أن ذلك حدث فى خلافة معاوية(٨) . أما عبيد الله بن صالح فيذكر نقلا عن أبى عمر بن عبد البر فى الاستيعاب ، أن عقبة بن نافع هو الذى غزا لواتة فى سنة ٤١ هـ ، وفتح غدامس

---

(١) المالكى، ص ١٨ — ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٦٠

(٣) المالكى ، ص ١٩

(٤) أبو العرب تميم ، طبقات علماء افريقية، طبعة ابن شنب ، الجزائر، ١٩١٥—١٩٢٠

(٥) ابن أبى دينار القيروانى، المؤنس ، ص ٣٤

(٦) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ١٤ — ١٦

(٧) ابن عبد الحكم، ص ٥٩

(٨) ابن خلدون ، كتاب العبر

فى سنة ٤٢هـ ، وافتتح كورا من كور السودان فى سنة ٤٣هـ ، واختط القيروان وأقام بها ثلاث سنين إلى أن عزله معاوية سنة ٥١هـ[1] ، ولا يشير إلى شىء من غزوات ابن حديج . وهناك من المؤرخين من يجمل غزوات معاوية بن حديج فى سنة ٤٥هـ (المالكى ، وابن عذارى) ؛ أما البكرى فيجعلها فى سنة ٤١هـ[2] ؛

وإذا بحثنا فى أى هذه التواريخ أجدر بالثقة ، وجدنا أنه لا يعقل أن يقوم ابن حديج بغزو إفريقية فى سنة ٣٤هـ ، وفتنة الأمصار التى أطاحت بخلافة عثمان على أشدها ، ولا يعقل أيضا أن يقوم ابن حديج بكل ما قام به من أعمال غزوية فى سنة واحدة ، ثم يعود إلى مصر فى سنة ٣٥هـ ، لكى يتزعم حزب العثمانية فى مصر ، ويطالب بدم عثمان . ونستبعد أيضا قيام ابن حديج بغزو المغرب فى سنتى ٤٠ ، ٤١هـ ، فقد كان عمرو بن العاص مايزال عاملا على مصر ، ولم يرد قط فى المصادر العربية ما يشير إلى أنه أرسل معاوية ابن حديج إلى المغرب .

وأما رواية عبيد الله بن صالح ، فقد فندها الدكتور مؤنس ، وعزا هذه الرواية إلى حدوث خلط فى رواية عبيد الله بن صالح ، فى سرد أعمال عقبة بن نافع من دخوله إلى إفريقية مع عمرو بن العاص إلى عزله عن الولاية الأولى ، وأنه لايمكن بأى حال من الأحوال الأخذ برواية عبيد الله ابن صالح ، القائلة بأن عقبة اختط القيروان فى سنة ٤٣هـ ، لأن الثابت أنه

(١) عبيد الله بن صالح ، ص ٢١٨

(٢) البكرى ، المغرب ، ص ٣٤ ، ٣٥

بناها فى ولايته الأولى لإفريقية سنة ٥٠هـ[١]. والواقع أن عبيد الله بن صالح لم يخلط بين أعمال عقبة فى ولايته على إفريقية وأعماله وهو قائد لعمرو ابن العاص والى مصر (فى المرة الثانية) ، فان ماذكره عبيد الله لايتجاوز عن كونه نصا نقله عن أبى عمر بن عبد البر ، وذكر فيه أعمال عقبة فيما بين عامى ٤١ ، ٤٣ . أما عن بنائه لمدينة القيروان سنة ٤٣ فلم يرد إطلاقا فى النص المذكور ، وكل ما فى الأمر أنه أشار إلى بناء القيروان على يدى عقبة وبقائه فيها ثلاث سنوات حتى عزل سنة ٥١هـ ، ومعنى ذلك أنه اختط القيروان سنة ٤٨هـ وليس فى ٤٣هـ كما يزعم الدكتور مؤنس .

ومما يؤكد هذا الرأى ماذكره ابن الأثير فى حوادث سنة ٤١هـ ، إذ يقول : «وفى هذه السنة استعمل عمرو بن العاص عقبة بن نافع بن عبد قيس، وهو ابن خالة عمرو على إفريقية فانتهى إلى لواتة ومزاتة ، فأطاعوا ثم كفروا ، فغزاهم من سنته ، فقتل وسبى ، ثم افتتح فى سنة اثنتين وأربعين غدامس ، فقتل وسبى ، وفتح فى سنة ثلاث وأربعين كورا من كور السودان ،وافتتح ودان وهى من برقة[٢] » . وكذلك أشار المقريزى فى الخطط أن « عمرو عقد لشريك بن سمى على غزو لواتة من البربر ، فغزاهم سنة أربعين ، وصالحهم ، ثم انتقضوا ، فبعث إليهم عقبة بن نافع فى سنة إحدى وأربعين ، فغزاهم حتى هزمهم ، وعقد لعقبة أيضا على غزو هوارة ، وعقد لشريك بن سمى على غزوة لبدة ، فغزواها فى سنة ثلاثة وأربعين

---

(١) تعليق الدكتور مؤنس على نص عبيد الله، ص ٢٣٤

(٢) ابن الأثير ، ج ٣ ، ص ٢١٢

فقفلا[1] » . ولعل المقريزى نقل ذلك عن الكندى الذى أورد نفس النص[2] .

ومن المعروف أن عقبة كان خبيرا عسكريا بشؤون برقة وطرابلس فى ولاية عمرو الأولى على مصر ، فعمرو هو الذى أرسله لغزو فزان وزويلة سنة ٢٢هـ ، وهو الذى تركه على برقة حتى غزوة عبد الله بن سعد ، وقد قضى عقبة هذه السنين الستة (٢٢ – ٢٨هـ) فى مغازاة الواحات الداخلية، ثم عاد مع عبد الله بن سعد إلى مصر فى سنة ٢٨ هـ فلما تولى عمرو بن العاص ولاية مصر للمرة الثانية فى سنة ٣٨هـ .(شهر ربيع الأول) ،استعان بعقبة فى بعوثه وسراياه فى برقة وطرابلس على النحو الذى ذكره ابن الأثير . ثم عاد عقبة إلى مصر وعمرو على فراش الموت فى أول شوال سنة ٤٣ (٣) .

أما غزوة معاوية بن حديج فى سنة ٥٠هـ فأمر مستبعد لأن والى مصر فى هذه السنة هو مسلمة بن مخلد الأنصارى الذى عزل عقبة من ولاية إفريقية وقلدها لأبى المهاجر دينار . وبقى تاريخ سنة ٤٥ هـ لغزوة معاوية ابن حديج لإفريقية ، وأعتقد أنه أصح التواريخ المذكورة ، فقد كان معاوية ابن حديج قائدا لجند مصر فى ولاية عتبة بن أبى سفيان لمصر سنة ٤٣هـ ،وظل فى منصبه على قيادة جند مصر حتى عزله عنها مسلمة بن مخلد فى سنة ٤٧هـ،(٤).

---

(١) المقريزى ، الخطط ، المجلد الثانى، طبعة بيروت ،ص ٦٩

(٢) الكندى ، كتاب القضاة والولاة ،ص ٣٢

(٣) المقريزى ، الخطط ، مجلد ٢ ، ص ٦٩

(٤) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ١١٨

وأعتقد أن تاريخ ٤٥ هـ يتفق مع حوادث الغزو التى استمرت ما يقرب من عامين .

خرج معاوية بن حديج من مصر فى سنة خمس وأربعين على رأس جيش ضخم(١) لغزو إفريقية . وسار جيشه فى نفس الاتجاه الذى سار فيه جيشا عمرو بن العاص وعبد الله بن سعد من قبل ، حتى وصل إلى جنوب قرطاجنة فى موضع يعرف بقمونية(٢) أو قونية(٣) ، وتقع فى نفس الموضع الذى تقوم عليه القيروان(٤) ، وهو نفس المكان الذى التقى فيـــه عبد الله بن سعد وجريجوريوس لأول مرة ، ولعلها الميناء البيزنطى المعروف باسم Caput Vada أو مدينة قمودة التى ورد ذكرها فى صفة المغرب والسودان ومصر للادريسى(٥) .

وكان الامبراطور البيزنطى قد بعث إلى إفريقية بطريقا يقال له نجفور (لعله نقفور) فى ثلاثين ألف مقاتل(٦) ، وذلك بعد أن علم بطرد أهالى

---

(١) يذكر الدكتور مؤنس أن جيش معاوية بن حديج كان يتألف من عشرة آلاف مقاتل استنادا الى ماذكره ياقوت . والواقع أن ياقوت لم يكن يقصد بهذا العدد جيش ابن حديج ولكنه كان يقصد عدد جنود الجيش الذى سيره معاوية بن أبى سفيان الى عقبة بن نافع الفهرى عندما ولاه افريقية سنة ٤٨ هـ (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٤ ، ص ٤٢٠) ويؤيد ذلك ماذكره ابن الأثير اذ يقول : « فلما استعمله معاوية (أى عقبة بن نافع) سير عليه عشرة آلاف فارس فدخل افريقية » (ابن الأثير ، ج ٣ ص ٢٣٤) .

(٢) المالكى ، ص ١٨ — ابن الأثير ، ج ٣ ص ٤٥ — السلاوى ، ج ١ ص ٧٧

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٥٨

(٤) نفس المرجع ، ص ٥٨ — المالكى ، ص ١٨

(٥) الادريسى ، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، ص ١٠٣

(٦) ابن الأثير ، ج ٣ ص ٤٥ — ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦

إفريقية لعـامله أوليمة . ونزل هؤلاء المحاربون البيزنطيون على الساحل التونسى ، وتقدموا فى الداخل لمواجهة الغزو العربى . وفى قمونية التقى الجيشان : جيش ابن حديج ، وجيش نجفور ، فانهزم البيزنطيون عند أول اشتباك ، وانسحبوا إلى مدينة سوسة ، وتحصنوا داخل أسوارها ، فتقدمت جيوش ابن حديج شمالا ، وعسكرت فى موضع مرتفع من جبل يعرف باسم القرن[١]. ومن هناك سير جيشين : أحدهما بقيادة عبد الله بن الزبير ووجهته سوسة ، والثاني بقيادة عبد الملك بن مروان ووجهته حصن جلولاء[٢] . ويبدو أن معاوية بن حديج أقام فى معسكره بالقرن فترة طويلة ، فقد ذكر المالكى أنه بنى بناحية القرن مساكن سماها قيروان ، واحتفر هناك الآبار المعروفة باسم آبار حديج(٣) .

ونجح عبد الله بن الزبير فى مهمته نجاحا تجاوز كل تقدير فى الحسبان ، وتجمع المصادر العربية على أنه افتتح سوسة ، ويذكر ابن عذارى أن عبدالله ابن الزبير نزل على شرف عال ينظر منه إلى البحر ، ويبعد عن سوسة بنحو ١٢ ميلا ، فلما بلغ ذلك نجفورا أقلع فى البحر منهرما من غير قتال ، فأقبل ابن الزبير حتى نزل على باب سوسة ، ووقف على البحر وصلى بالمسلمين صلاة العصر ، والروم يتعجبون من جرأته ، فأخرجوا إليه خيلا ، وابن الزبير مقبل على صلاته ، لا يهوله خبرها حتى قضى الصلاة ، ثم ركب وحمل على الروم بمن معه ، فانكشفوا منهزمين » ، ورجع ابن الزبير إلى معاوية بن حديج فى القرن بعد أن افتتح سوسه[٤] .

(١) ابن عبد الحكم ص ٥٨ — المالكى ، ص ١٨ — السلاوى ، ج ١ ص ٧٦
(٢) ابن عبد الحكم ص ٥٨ — البكرى ، ص ٣٢ — ابن عذارى ج ١ ص ١٦
(٣) المالكى ، ص ١٩
(٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦

أما عبد الملك بن مروان ، فقد سار إلى حصن جلولاء فى جيش عدته ألفى فارس ، وقيل ألف ، فحاصره أياما « فلم يصنع شيئا ، فانصرف راجعا ، فلم يسر إلا يسيرا حتى رأى فى ساقة الناس غبارا شديداً ، فظن أن العدو قد طلبهم ، فكر جماعة من الناس لذلك ، وبقى من بقى على مصافهم ، وتسرع سرعان الناس ، فاذا مدينة جلولاء قد وقع حائطها ، فدخلها المسلمون ، وغنموا ما فيها ، وانصرف عبد الملك إلى معاوية بن حديج » (١) . ومن المؤرخين من ينسب فتح حصن جلولاء إلى معاوية بن حديج نفسه (٢) .

مضى معاوية بن حديج بعد ذلك نحو الشمال ، فافتتح ثغر بنزرت (٣) . ويذكر البلاذرى أنه غزا صقلية أيام معاوية بن أبى سفيان ، وكان أول من غزاها (٤) . وفى موضع آخر يذكر البلاذرى نقلا عن الواقدى أن عبد الله بن قيس بن مخلد الدزقى سبي صقلية ، « فأصاب أصنام ذهب وفضة مكللة بالجواهر ، فبعث بها إلى معاوية ، فوجه بها معاوية إلى البصرة لتحمل إلى الهند فتباع هناك ليثمن بها » (٥) . ويروى ابن عذارى خبر هذه الغزوة نقلا عن البلاذرى مع إضافة سنة ٤٦ هـ كتاريخ لها (٦) . وكذلك ينقل عن

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٥٨ — البكرى ، ص ٣٢ — ابن عذارى ، ص ١٧ — ياقوت ، مجلد ٢ ، ص ١٥٦

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٥٨ — المالكى ، ص ١٨ — ابن عذارى ، ص ١٧

(٣) البكرى ، ص ٥٨ — ياقوت ، مجلد ١ ص ٥٠٠ — السلاوى ، ص ٧٨

(٤) البلاذرى ، قسم ١ ، ص ٢٧٨

(٥) نفس المرجع

(٦) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ١٨

عريب فى مختصره للطبرى، أن معاوية بن حديج « أغزى جيشا فى البحر إلى صقلية فى مائتى مركب ، فسبوا وغنموا ، وأقاموا شهرا ، ثم انصرفوا إلى إفريقية بغنائم كثيرة ، ورقيق وأصنام منظومة بالجواهر ، فاقتسموا فيئهم[١] ». إلا أن الدكتور حسين مؤنس يعتقد أن البلاذرى يقصد بهذه الغزوة الحملة التى بعث فيها معاوية بن أبى سفيان معاوية بن حديج حوالى سنة ٢٧ هـ أو ٢٨هـ ، فى خلافة عثمان ، لغزو رودس ثم صقلية ، ويرجح أن ابن عذارى أخطأ فى النقل عن البلاذرى فذكر سنة ٤٦ هـ وصحتها ٢٦ هـ ٢) . ويستند الدكتور مؤنس فى هذا الرأى على ماذكره أمارى من قيام معاوية بن حديج بغزو رودس وصقلية فى سنة ٦٥٢ م (٣٢ هـ) فى مائتى سفينة (٣) ، مما دعا كنسطانز الثانى إلى نقل عاصمته إلى مدينة سرقوصة بصقلية صيانة لأملاكه فى إفريقية وصقلية وإيطاليا من الغزو العربى (٤) . ولا ندرى من أين استقى أمارى هذا الخبر ، فالبلاذرى الذى يزعم أمارى أنه استقى منه لم يشر إلى تاريخ غزوة معاوية بن حديج لصقلية ، كما أن ابن الأثير لم يشر

---

(١) نفس المرجع ص ١٦، ١٧

(٢) حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب ، ص١٢٦

(٣) Amari, Storia dei Musulmani di sicilia, Catania, 1933, t. I P. 194 — حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ١٢٥

وأنظر أيضا : Marçais, La Berberie musulmane et l' Orient au moyen âge, Paris 1946, p. 64

وانظر كذلك : أرشيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ترجمة الأستاذ أحمد محمد عيسى ، القاهرة ، ١٩٦٠ ص ٩١ .

(٤) أرشيبالد لويس ، ص ٩٤

أيضا إلى غزو صقلية فى هذه السنة، وإنما ذكر أن أهل قبرص أعانوا الروم سنة ٣٢ هـ «على الغزاة فى البحر بمراكب أعطوهم إياها فغزاهم معاوية سنة ثلاثة وثلاثين، ففتحها عنوة فقتل وسبي، ثم أقرهم على صلحهم وبعث إليهم اثنى عشر ألفا، فبنوا المساجد، وبنى مدينة. وقيل كانت غزوته الثانية سنة خمس وثلاثين»(١). كذلك يشير ابن الأثير إلى أن قسطنطين بن هرقل أتى إلى صقلية سنة ٣٥ هـ فقتله أهلها هناك (٢). وأعتقد أن أمارى خلط بين غزو قبرص سنة ٣٣ هـ، وغزو صقلية التى تم فى سنة ٤٦ هـ. كما حدده ابن عذارى. وليس من المعقول أن يتولى المسلمون غزو صقلية سنة ٣٢ هـ بحرا فى هذا التاريخ المبكر، لأن صقلية متطرفة فى البحر المتوسط، ويحتاج غزوها إلى سيطرة كاملة على قسم من أراضى المغرب، يخرج منه الغزاة. وقد عرفنا أن المسلمين تركوا المغرب منذ حملة عبد الله بن سعد سنة ٢٨ هـ حتى معاودتهم غزو إفريقية من جديد فى ولاية عمرو الثانية. كذلك يحتاج غزو صقلية إلى معرفة تامة بالبحر المتوسط وبثقافة بحرية واسعة، والعرب فى ذلك الوقت كانوا حديثى عهد بالبحر. وإذا كان معاوية بن أبى سفيان قد غزا قبرص سنة ٢٨ هـ، فذلك لأن قبرص قريبة من ساحل الشام، ومع ذلك فقد استلزم الأمر فتحها مرة ثانية كما رأينا فى سنة ٣٢ هـ أو ٣٣ هـ، ولم يتمكن المسلمون من فتح جزيرة أرواد وهى جزيرة قريبة من ساحل الشام إلا فى سنة ٥٤ هـ (٣)،

---

(١) ابن الأثير، جـ ٣ ص ٦٧

(٢) نفس المرجع، ص ٩٨

(٣) البلاذرى، قسم ١، ص ٢٦٨

كذلك لم يتم فتح رودس إلا فى سنة ٥٢ هـ [١] .

ونضيف إلى ما سبق ذكره أن أمارى اعتمد مرة ثانية على التاريخ الذى حدده ابن عذارى لغزوة معاوية بن حديج لصقلية وهو سنة ٤٦ هـ ، فقد ذكر أن العرب أغاروا على صقلية فى سنة ٦٦٩ م (٤٩ هـ) [٢] .

ونخرج من ذلك كله بترجيح التاريخ الذى حدده ابن عذارى لغزوة صقلية فى سنة ٤٦ ، على يدى ابن حديج ، وخروجه منها بغنائم كثيرة ، ويؤيدنا فى هذا القول أن عبيد الله بن صالح يؤكد أن معاوية بن أبى سفيان عزل ابن حديج بعد أن غزا صقلية [٣] .

واختتم ابن حديج غزواته فى إفريقية بارساله رويفع بن ثابت الأنصارى لفتح جزيرة جربة (٤ . و قد تمت هـــذه الغزوة فى سـنة ٤٧ هـ ، وفقا لأبى المحاسن (٥) .

ولم يتح لابن حديج أن يستكمل فتح إفريقية ، إذ عزله معاوية بن أبى سفيان سنة ٤٨ هـ (٦٦٩ م) ، وقيـــل سنة ٥٠ هـ (٦٧٠ م) ، وولى على إفريقية عقبة بن نافع الفهرى ، وبتولية عقبة على إفريقية تبدأ المرحلة الثانية من فتح المغرب ، وهى مرحلة الفتح الثابت المنظم .

---

(١) نفس المرجع ، ص ٢٧٨

(٢) أرشيبالد لويس ، ص ٩٦ — Marçais, la Berberie, p. 64

(٣) عبيد الله بن صالح ، ص ٢١٨

(٤) البكرى ، ص ١٩ — المالكى ، ص ٥٣ — ياقوت ، مجلد ٢ ، ص ١١٨

(٥) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ١٣٢

الفصل الثاني

مرحلة الفتح المنظم

(١) الفترة الأولى (٥٠ — ٦٤ هـ)

ا — عقبة بن نافع قبل توليته إمارة إفريقية

ب — تأسيس القيروان وأثره فى تثبيت قواعد الفتح

ج — عزل عقبة بن نافع ، وولاية أبو المهاجر دينار (٥٥هـ — ٦٢هـ)

د — ولاية عقبة بن نافع الثانية (٦٢ — ٦٤هـ)

(٢) الفترة الثانية (٦٩ — ٩٠هـ)

ا — انسحاب العرب من القيروان فى سنة ٦٤هـ

ب — حملة زهير بن قيس واسترجاع العرب للقيروان

ج — حملة حسان بن النعمان الأولى ، وتخريب قرطاجنة

د — حملة حسان بن النعمان الثانية

هـ — موسى بن نصير واستكمال فتح المغرب

الفصل الثاني

مرحلة الفتح المنظم

(١)

الفترة الأولى (٥٠ – ٦٤ هـ)

١ – عقبة بن نافع قبل توليته امارة المغرب :

يعتبر عقبة بن نافع الفهري من أكابر التابعين وأفاضلهم ، فقد قيل أنه ولد قبل وفاة الرسول بعام واحد (١) ، واشترك في فتح مصر ، ولكن لا يجوز ذلك منطقيا لأن فتح مصر بدأ سنة ١٨ هـ ، فيكون عمر عقبة في هذه الحالة تسع سنوات . وأغلب الظن أنه ولد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) ، واشترك في حملة عمرو على مصر(٣) ، وكان عمرو يقدر بلاءه ، ويرفع منزلته ، ويثق في كفايته الحربية ، ولذلك عهد إليه بفتح الواحات الداخلية من إقليم برقة ، فنجح في افتتاح فزان وزويلة ، وأصبح ما بين برقة وزويلة ملكا للمسلمين . وقبل أن يعود عمرو بن العاص إلى مصر بعد أن افتتح سبرت ، ترك عقبة أميرا على برقة وطرابلس ، فظل عقبة مقيما ببرقة حتى سنة ٢٨ هـ (٤) ، عندما قابل عبد الله بن سعد عند قدومه إلى برقة في طريقه لغزو إفريقية (٥) . ولكن عقبة لم يشترك مع عبد الله بن سعد في

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٩

(٢) ابن الأثير ، أسد الغابة في معرفة الصحابة ، ج ٣ ص ٤٢٠ – ياقوت ، مجلد ٤ ، ص ٤٢٠ مادة القيروان.

(٣) كان عقبة ابن خالة عمرو بن العاص ، ولذلك أشركه معه في حملته على مصر .

(٤) ذكر ابن الأثير أنه كان مقيما ببرقة منذ أن ولاه عمرو بن العاص لها (ابن الأثير ، المرجع السابق ص ٤٢٠ – ياقوت ، معجم البلدان ، مادة القيروان ، مجلد ٤ ، ص ٤٢٠) .

(٥) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٣ ص ٤٣

حملته على إفريقية ، وآثر البقاء فى برقة ليراقب أهالى هذه البلاد ، ويؤمن مؤخرة جيش المسلمين من أى هجوم يقوم به الروم أو الأفارقة. ولاشك أن عقبة اكتسب خلال هذه السنين الستة التى قضاها منذ حملته الأولى مع عمرو حتى قدوم عبد الله بن سعد ، خبرات إفريقية واسعة، نتجت عن تجاربه الكثيرة فى محاربة البربر ، واحتكاكه بسكان البلاد . وكان طبيعيا أن يحيط بنواحى البلاد، ويلم بطبيعة أهلها، كما كان طبيعيا أن تنمو مواهبه العسكرية، لكثرة ما أحرزه من انتصارات ، وتزداد بذلك هيبته عند الأهالى . وكان لذلك أثره الكبير فى بقـــاء برقة على ولائها للعرب ، فى الفترات الطويلة التى كان ينقطع فيها غزو العرب لبلاد المغرب (من ٢٣ ﻫ إلى ٢٨ ﻫ ، ومن ٢٩ ﻫ إلى ٤٥ ﻫ) . وقد كسب الإسلام والعروبة بجهود عقبة مكسبا كبيرا، فقد كان عقبة قوى الإيمان بدينه ، شديد الحماس لنشره ، لا يجد فى حياته سعادة تعادل سعادة الجهاد فى سبيل الله ، وفى سبيل نصرة دينه . وقد كان لذلك أعمق الأثر فى فتح برقة ، إذ لم يكن فتحا حربيا فحسب ، بل كان فتحا دينيا ، انتقل سكان هـــذا الإقليم على أثره إلى الاسلام والعروبة ، واستطاع عقبة بفضل زهده عن الدنيا ، وسعيه على الاستشهاد فى سبيل الله ، أن يكون لنفسه أسطورة دينيه عاشت منذ الفتح العربى لهـذه البلاد ، حتى العصر الحاضر .

وعندما عاد عقبة إلى مصر فى أعقاب حملة عبد الله بن سعد ، نجده يعتزل الحياة السياسية ، ولا يشترك فى معمعة الفتنة التى عصفت ريحها العاتية بالدولة العربيـــة الإسلامية فى خلافة عثمان بن عفان ، وانتهت أخـيرا بمقتله ، ولكنه ما يلبث أن يستأنف الجهاد فى صحراء برقة وطرابلس عندما

يتولى عمرو بن العاص مصر للمرة الثانية ، « فانتهى إلى لواتة ومزاتة فى سنة ٤١ هـ ، وافتتح غدامس فى سنة ٤٢ هـ ، وافتتح مواضع من بلاد السودان وودان من حيز برقة فى سنة ٤٣ هـ [١] » . ثم عاد عقبة بن نافع بعد ذلك إلى مصر ، فشهد وفاة عمرو بن العاص ، ويبدو أنه عاد إلى برقة بعد وفاة عمرو ، ولكنه لم يشترك اشتراكا فعليا فى حملة ابن حديج ، وأغلب الظن أنه أقام ببرقة التى اتخذها مركزا له ، بدليل أن ابن الأثير يذكر أن عقبة كان مقيما ببرقة وزويلة منذ فتحها أيام عمرو بن العاص [٢] . ويذكر أبو الفداء أن برقة وزويلة كانتا مقر الولاة [٣] . ويذهب ابن عبد الحكم والبكرى إلى أنه خرج إلى المغرب بعد معاوية بن حديج سنة ستة وأربعين ، « ومعه بسر بن أبى أرطأة ، وشريك بن سمى المرادى ، فأقبل حتى نزل بمغمداش من سرت (خريطة رقم ٥) ، وكان توجه بسر إليها كما حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير عن الليث بن سعد سنة ست وعشرين من سرت ، فأدركه الشتاء ، وكان مضعفا ، وبلغه أن أهل ودان قد نقضوا عهدهم ، ومنعوا ما كان بسر ابن أبى أرطأة فرض عليهم ، وكان عمرو بن العاص قد بعث إليها بسرا قبل ذلك وهو محاصر لأهل إطرابلس ، فافتتحها . فخلف عقبة بن نافع جيشه هنالك ، واستخلف عليهم عمرو بن على القرشى وزهير بن قيس البلوى ، ثم سار بنفسه وبمن خف معه أربع مائة فارس ، وأربعمائة بعير ، وثمانى مائة قربة حتى قدم ودان ، فافتتحها ، وأخذ ملكهم فجدع أذنه ، فقال : لم فعلت

---

(١) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ص ٢١٢ — أسد الغابة ، ج ٣ ص ٤٢٠ — ابن عذارى ج ١ ص ١٥ — أبو المحاسن ، ج ١ ص ١٢٥ — الخطط ، مجلد ٢ ص ٦٩

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ص ٢٣٤

(٣) أبو الفداء ، المختصر فى أخبار البشر ، طبعة بيروت ، ١٩٥٦ ، ج ٢ ص ١٠١

هذا بى وقد عاهدتنى؟ فقال عقبة : فعلت هذا بك أدبا لك، إذا مسست أذنك ذكرته ، فلم تحارب العرب .واستخرج منهم ماكان بسر فرضه عليهم ثلثمائة وستين رأسا. ثم سألهم عقبة، هل من وراءكم أحد ، فقيل له : جرمة، وهى مدينة فزان العظمى، فسار اليها ثماني ليال من ودان، فلما دنا منها ، أرسل ، فدعاهم إلى الاسلام ، فأجابوا . فنزل منها على ستة أميال . وخرج ملكهم يريد عقبة ، وأرسل عقبة خيلا فحالت بين ملكهم وبين موكبه ، فأمشوه راجلا حتى أتى عقبة ، وقد لغب ، وكان ناعما ، فجعل يبصق الدم ، فقال له: لم فعلت هذا بى وقد أتيتك طائعا ؟فقال عقبة : أدبا لك إذا ذكرته لم تحارب العرب، وفرض عليه ثلثمائة عبد وستين عبدا .».ويواصل المؤرخان روايتها فيذكران أن عقبة مضى إلى قصور فزان ، فافتتحها قصرا قصرا ، ولكنه عجز عن فتح حصن خاوار (١) بعد حصار دام شهرا ، وانتهى إلى قصور كوار ، فافتتحها ، وأدب ملكها بأن قطع له إصبعا ، وفرض عليه ٣٦٠ عبدا. ثم عاد بعد ذلك عن طريق خاوار ، فلم يتعرض للحصن، ومضى فى طريقه، فظن أهل خاوار أنه لن يعود إليهم ، فأمنوا ،وفتحوا مدينتهم . أما عقبة فأقام بموضع صحراوى جدب ، فأصاب أصحابه العطش ، فدعا الله أن ينقذهم ، فاستجاب الله لدعائه ، إذ تدفقت المياه من موضع كان فرسه ينقب برجليه فيه، فسمى الموضع لذلك بماء فرس ثم باغت عقبة أهل خاوار من طريق آخر ، ودخل الحصن فاستباح ما فيه من أموال وذريات ، ثم عاد بعد ذلك إلى زويلة ، ومنها إلى معسكره بسرت ، وذلك بعد غزوة دامت خمسة أشهر. ولم يطل به المقام بسرت ، فخرج منها مغازيا ،واتجه إلى قصور مزاتة ، فغزاها ، ثم افتتح غدامس ، ووجه خيله بعد ذلك إلى قفصه فافتتحها، وافتتح

---

(١) يسميه صاحب الاستبصار قصر واجان .

قصطيلية . ووصل أخيرا إلى القيروان الذى كان معاوية بن حديج قد اختطه من قبل ، فلم يعجبه موضعه ، واختار لذلك موضع مدينة القيروان (١) .

ويعتقد الدكتور حسين مؤنس أن تاريخ هذه الغزوة دون خطئا ، فذكر المؤرخان سنة ٤٦ ھ بدلا من ٤٩ ھ . فالثابت أن القيروان أسست فى سنة ٥٠ ھ ، ولا يعقل أن تستغرق غزوته هذه السنين . ويرى الدكتور مؤنس أن ابن حديج عاد إلى مصر فى أوائل سنة ٤٨ ھ ، وأن عقبة شرع فى السير لغزوته الكبرى فى أوائل سنة ٤٩ ھ ، فقضى خمسة أشهر فى الجـــولة الصحراوية المذكورة ، ثم عاد إلى معسكره بسرت حيث قضى فترة كافية أراح فيها جنده وخيله ، وهناك ولاه معاوية بن أبي سفيان إمارة إفريقية : فسار من سرت متجها إلى إفريقية ، ويرجح الدكتور حسين مؤنس أن عقبة « قام بحملته فى الصحراء عقب عودة معاوية بن حديج من إفريقية ، وقبل تولية معاوية إياه ، وإرساله الإمداد إليه ، ولهذا عاد إلى مركزه الأول على مقربة من صرت (سرت) ، فلما وصله الأمر والمدد شرع فى المسير إلى الغرب ، واحتل غدامس ، وربما كان هـذا هو السبب فى إغفـال أكثر المورخين ذكر هذه الغزوة الداخلية ، إذ أن معظمهم بدأ تاريخ غزوة عقبة من ساعة وصـول العشرة آلاف جندى إليه فى أوائل سنة ٥٠ ھ » (٢) . ونحن نؤيد الدكتور مؤنس فى رأيه ، فان معظم المصادر العربية تذكر أن عقبه ولى إمارة إفريقية فى سنة ٥٠ ھ (٣) ، ويعتمد ابن الأثير على مصادر مغربية فى ذكر هذا التاريخ

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٦٠ ــ ٦٤ ، البكرى ، ص ١٣ ، ١٤ ــ المالكى ، ص ٦٣ ــ الاستبصار ، ص ١٤٦

(٢) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ص١٣٨

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ص ٢٣٤ ــ أبوالفـداء ، المختصر فى أخبار البشر ، ج ٢ ص ١٠١ ــ ابن عذارى ، ج ١ ص ١٩ ــ السلاوى ، ج ١ ص ٧٨

فيقول : « والذى ذكره أهـل التاريخ من المغاربة أن ولاية عقبة بن نافع إفريقية كانت هـذه السنة ، وبنى القيروان ، ثم بقى إلى سنة خمس وخمسين ووليها مسلمة بن مخلد ، وهم أخبر ببلادهم ، وأنا أذكر ما أثبتوه فى كتبهم ؛ قالوا إن معاوية بن أبى سفيان عزل معاوية بن حديج عن إفريقية حسب واستعمل ، واستعمل عليها عقبة بن نافع الفهرى ، وكان مقيما ببرقة وزويلة منـذ فتحها أيام عمرو بن العاص ، وله فى تلك البلاد جهـاد وفتوح ، فلما استعمله معاوية سير إليه عشرة آلاف فارس ، فدخل إفريقية ، وانضـاف إليه من أسلم من البربر ، فكثر جمعه ، ووضع السيف فى أهل البـلاد ، لأنهم كانوا إذا دخل عليهم أمير أطاعوا ، وأظهر بعضهم الاسلام ،فاذا عاد الأمير عنهم ، نكثوا ، وارتد من أسلم . » (١) .

ويروى ابن عذارى نصا مماثلا نقله عن ابراهيم بن القاسم فيقول: «ووصل عقبة بن نافع الفهرى إلى إفريقيـة فى عشرة آلاف من المسلمين ، فافتتحها ، ودخلها ووضع السيف فى أهلها ، فأفنى من بهـا من النصارى » ، ثم قال : « إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام ، فاذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر ، فأرى لكم يامعشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزا للاسلام إلى آخر الدهر » (٢).

ويبدو أن استعمال عقبة على المغرب لم يتم مباشرة بعد غزوته الصحراوية،

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ، ص ٢٣٤ — ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٤ ، ص ٤٢٠

(٢) ابن عذارى ، ص ١٩

فقد ذكر المؤرخون أنه غزا بأهل مصر الروم فى البحر سنة ٤٩هـ(١) ،وليس لدينا أية تفصيلات تاريخية أخرى عن ذلك ، وأغلب الظن أن معاوية بن حديج عاد إلى مصر بعد أن ترك بسرت فرقة من جيش مصر لتدعم النفوذ العربى فى أرض طرابلس وإفريقية ، وربما استخدمهم عقبة بن نافع معه فى هذه الشاتية البحرية ، وقد يكون اشترك فى هذه الشاتية جماعة من التابعين أمثال أبو عقيل زهرة بن معبد التيمى ، وأبو عبد الرحمن الحبلى،وإسماعيل ابن عبيد الله ، وأبو ليلى دجين بن عامر الحجرى الذى شهد حروب عقبة كلها فى إفريقية والمغرب، فالمالكى يذكر أن أبا عقيل زهرة «دخل إفريقية وأقام بها، وغزا برها وبحرها مع إسماعيل بن عبيد الله أمير إفريقية، وكان معه فى غزو إفريقية فى البحر أبو عبد الرحمن الحبلى التابعى (٢).

ب ـ تاسيس القيروان وأثره فى تثبيت قواعد الفتح :

سار عقبة على رأس جيش كبير يتألف من :

١ ـ فرقته التى غزا بها فزان وكوار ، وتتألف من ٤٠٠ فارس .

٢ ـ الجيش المرابط بمدينة سرت ببرقة .

٣ ـ المدد الذى أرسله معاوية إليه ، وقوامه عشرة آلاف من الفرسان.

٤ ـ جماعة البربر الذين اعتنقوا الاسلام منذ أن فتح عمرو برقة سنة ٢٢هـ ، وحسن اسلامهم .

وقد أشرنا إلى رواية ابن عبد الحكم والبكرى التى توضح لنا خط سير جيشه إلى إفريقية ، يقول ابن عبد الحكم : « فسار متوجها إلى المغرب ،

---

(١) ابن الأثير ج ٣ ص ٢٣١ ـ ابن عذارى ص ١٩ ـ ابن تغرى بردى ، ج ١ ص ١٣٨

(٢) المالكى ، ص ٩٠

وجانب الطريق الاعظم ، واخذ إلى أرض مزاتة ، فافتتح كل قصر بها ،ثم مضى إلى صفر (١) ،فافتتح قلاعها وقصورها ، ثم بعث خيلا إلى غدامس، فلما انصرفت إليه خيله سار إلى قفصة فافتتحها ، وافتتح قصطيلية » (٢) .

ونخرج من هذا النص بالحقيقة التالية : أن عقبة تجنب السير فى الجادة الرومانية ، وهى الطريق الساحليـة التى تربط سرت بقابس ، إما لكثرة الحصون والمحارس فى هـذه المنطقة الساحلية ، وقد عددتها من قبل ، وإما لأنه أرادأن يباغت أهل إفريقية باقتحامه بلادهم قادما من داخل الصحراء، قبل أن يكونوا قد تهيأوا بعـد لدفعه ومقاومته ، إذ أن أخبار حملته عندما يسلك الطريق الصحراوية لايمكن أن تصـل إلى أهل إفريقية بمثل سرعة وصولها إليهم لو سلك الطريق الساحلية . وأعتقد أن السبب الثانى هو الذى دفع عقبة إلى التزام الطريق الداخلية ،فقد ذكر المؤرخون أنه وضع السيف فى أهل إفريقية ، « فأفنى من بها من النصارى » (٣) .

لاحظ عقبة أن أهل إفريقية يدخلون فى طاعة العرب ، وربما دخل منهم البعض فى الإسلام ، طالما بقى العرب فى بلادهم ، فاذا انصرف العرب عن البلاد ، شق أهالى إفريقية عليهم عصا الطاعة ، وارتد من دخـــل منهم فى الإسلام إلى النصرانية . وكانت برقة وزويلة قاعدة الفتـح العربى المغرب حتى ذلك الحين ، ولكنهما كانتا متطرفتين للغاية عن إفريقية مما كان يساعد

---

(١) لعلها شبرو من أرض ودان (انظر الإدريسى ، ص ٤١)

(٢) ابن عبد الحـكم ، ص ٦٤ ــ الاستبصار ، ص ١٤٧ . تضم بلاد قصطيلية مدن توزر ونفطة ونقيوس والحامة .

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٩

أهل إفريقية على خروجهم على العرب ، فى كل مرة ينتهى العرب من الاغارة عليها . فرأى عقبة أنه لفتح هذه البلاد يتحتم على العرب إنشاء قاعدة عربية إسلامية فى إفريقية ، « يكون بهـــا عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ، ليأمنوا من ثورة تكون من أهل البلاد » (١) . ويذكر ابن عذارى أن عقبة خطب فى عسكره فقال : « إن إفريقية إذا دخلهـا إمام أجابوه إلى الاسـلام فاذا خرج منها رجـع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر ، فأرى لكم يامعشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزا للاسلام إلى آخر الدهر . فاتفق الناس على ذلك ، وأن يكون أهلها مرابطين » (٢) .

ولم يكن عقبة أول من فكر فى بناء قاعدة للمسلمين فى إفريقية ، فقد ذكر ابن الأثير أن معـاوية بن حديج كان « قد اختط القيروان بموضـع يدعى اليوم بالقرن ، فلما رآه عقبة بن نافع لم يعجبه » (٣) . وذكر المالـكى فى رياض النفوس أنه « اختط مدينة عند القرن قبل تأسيس عقبة للقيروان ، وأقام بها مدة إقامته بافريقية ، وحفر آبارا عند باب تونس فى ناحية الجبل منه منحرفة للشرق ، بالقرب من مصلى الجنائز ، تسمى للان آبار حديج ، غلب عليها اسم أبيه ، وذلك قبل تأسيس القيروان » (٤) .

ويبدو أن عـدول عقبة عن اتخاذ قيروان ابن حديج قاعـدة المسلمين يرجع إلى أنهـا قريبة من البحر ، أو لأنها فى موضـع غـير مسكون ولا

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ص ٢٣١

(٢) ابن عذارى ج ١ ص ١٩

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٦٤ — ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ٤٢١

(٤) المالكى ، ص ٦٠

معمور [١] ، ولعل ابن حديج اختار هذا القيروان ليكون قريبا من البحر حتى يتيسر له وللمسلمين الجهاد والرباط ، وقد رأينا أنه غزا صقلية فى سنة ٤٦ هـ ، أما عقبة فقد كان له رأى آخر ، فقد آثر أن تكون قاعدة المسلمين فى إفريقية مدينة برية ، إذ كان يخشى أن يطرقها الروم بالأساطيل فجأة فتتعرض للغزو بسهولة ، بينما يستطيع المسلمون التأهب لمدافعة الغزاة لو كانت قاعدتهم داخلية . وفى ذلك يذكر ابن عذارى أن أصحاب عقبة اقترحوا عليه أن يتخذوا مدينتهم قريبة من البحر ليتم لهم الجهاد والرباط ، فرد عليهم قائلا : « إني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية بغتة ، فيملكها ، ولكن اجعلوا بينها وبين البحر مالا يدركها صاحب البحر إلا وقد علم به ، وإذا كان بينها وبين البحر مالا يوجب فيه التقصير للصلاة فهم مرابطون »[٢]. وبالإضافة إلى هذا الموقع الداخلى الذى تتميز به قيروان عقبة ، فقد كانت تقع ايضا قريبا من السبخة لتتمكن الابل والدواب من الرعى بسهولة ، وتكون فى مأمن من عادية البربر والنصارى (٣) . وهكذا كان موقع القيروان يمتاز ببعده عن البحر ، فــلا تتعرض لغزو يقوم به الروم من جهة البحر ، كما تمتاز بكثرة مراعيها ، وهما صفتان لا بد من توافرهما فى بناء المدن ، وفى ذلك يقول ابن خلدون فى مقدمته : « إعلم أن المدن قرار تتخذه الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه ، فتؤثر الدعة والسكون ، وتتوجه إلى اتخاذ المنازل للقرار ، ولما كان ذلك القرار والمأوى ، وجب أن يراعى فيه دفع المضار بالحماية من طوارقها ، وجلب

---

(١) نفس المرجع ، ص ١٩

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ١٩

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٢٠

المنافع وتسهيل المرافق لها : فأما الحماية من المضار فيراعى لها أن يدار على منازلها جميعا سياج الأسوار ، وأن يكون وضع ذلك فى متمنع من الأمكنة، إما على هضبة متوعرة من الجبـــل ، وإما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة فيصعب منالها على العدو، ويتضاعف امتناعها وحصنها ... وأما جلب المنافع والمرافق للبلد ، فيراعى فيه أمور منها الماء بأن يكون البلد على نهر أو بازائها عيون عذبة ثرة ، فان وجود الماء قريبا من البلد يسهل على الساكن حاجة المـاء وهى ضرورية ... ومما يراعى من المرافق فى المـدن طيب المراعى لسائمتهم إذ صـاحب كل قرار لابد له من دوجن الحيوان للنتاج والضرع والركوب ولابد لها من المرعى » (١) . ويبدو أن عقبة كان متأثرا فى اختياره لموقع القيروان بمـا تعرضت له الاسكندرية سنة ٢٥ هـ من نكبات بسبب غزو البيزنطيين لها من البحر ، وكان مايزال يتذكر الجهـــد الكبير الذى بذله عمرو بن العاص لاستردادها (٢) ، ولعله قدر ماكان يصيب البلاد المصرية لو أن الاسكندرية كانت عاصمة مصر الاسلامية كما كان يريده عمرو ، وأعتقـد أن الدرس الذى تلقنـه عمرو بغزو الروم للاسكندرية وندمه على تركه سورها عنـد الفتح دون أن يهدمه قد أفاد عقبة بن نافع كثيرا ، ولا نستغرب أن يكون لذلك الحادث أثر عميق فى اختيار عقبة لموضع القيروان ، فقـد كان عقبة أحد قواد عمرو، ثم إنه كانت تربطه به صلات من القرابة . ولكن عقبـة

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، طبع المكتبة التجارية بمصر ، بدون تاريخ ، ص ٣٤٧ — ٣٤٩

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتهـا فى العصر الاسلامى ، الاسكندرية ١٩٦١ ، ص ٤٣

فى سعيه لاختيار موضع يتوافر فيه طيب المراعى ، ويبعد فى نفس الوقت عن البحر ، أغفل أمرا هاما هو الماء والمزارع ، فلم يراع إلا توافر مراعى الابل ، ولذلك تعرضت القيروان عدة مرات ، فى العصر الاسلامى للخراب ، ولولا صفة هذه المدينة الدينية ووجود مسجدها الجامع المعروف بالقيروان ، لكانت قد بادت واندثرت .

يذكر ابن عبد الحكم أن عقبة ركب ، « والناس معه حتى أتى موضع القيروان اليوم ، وكان واديا كثير الشجر ، كثير القطف ، تأوى إليه الوحوش والسباع والهوام ، ثم نادى بأعلى صوته: ياأهل الوادى ، ارتحلوا رحمكم الله ، فانا نازلون ، نادى بذلك ثلاثة أيام ، فلم يبق من السباع شيء ، ولا الوحوش والهوام إلا خرج . وأمر الناس بالتنقية والخطط ، ونقل الناس من الموضع الذى كان معاوية بن حديج نزله إلى مكان القيروان اليوم ، وركز رمحه وقال : هذا قيروانكم » . ثم يذكر رواية أخرى عن عبد الملك ابن مسلمة ، عن الليث بن سعد ، تماثل هذا النص مع اختلاف بسيط هو أنه نادى ثلاث مرات بدلا من ثلاثة أيام [١] . وقد أخذ معظم المؤرخين بهذه الرواية مع بعض التحريف [٢] ، باستثناء المالكى الذى يذكر أنه « كان فى موضع القيروان حصن لطيف للروم يسمى قمونية ، وكان فيها كنيسة ، وفيها الساريتان الحمراوان اللتان هما اليوم فى المسجد الجامع ، كانت عليهما حنيتان مبنيتان ، أقامتا إلى أيام زيادة الله بن الأغلب ، فهدمها زيادة الله ،

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٦٤ ، ٦٦

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ص ٢٣٤ — ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٠ — ياقوت معجم البلدان مجلد ٤ ص ٤٢٠

وحملها إلى المسجد الجـــامع ، فجعلها فى المكان الذى هما فيه اليوم »(١) .
ويعتقـد الدكتور مؤنس أن رواية المالكى هى الصواب ، فمن المعقول ـ فى رأيه ـ أن يكون هـذا الحصن قد تعرض للتخريب ، وأصبـح فى أوائل القرن السابع الميلادى خربا مهجورا ، فسكنته بعض الذئاب والوحوش ، فاختاره عقبة لبناء القـيروان، « ففزعت الضوارى من جلبـة الجيش الذى عسكر إلى جوارها ، فأخذت تتسرب هاربة ، فرآها العرب تفعـل ذلك ، فظنوا أنها معجزة من معجزات عقبة ، فكان ذلك موضعا خصبا لخيال الرواة فأضافوا خطابه للوحوش ، وصوروا الكرم هذا التصوير المبالغ فيـه حتى تتم المعجزة ويصبح للقيروان ما يريدونه لهـا من القداسة والجلال » (٢) .
ولكننا لانوافق الدكتور مؤنس على رأيه فى أن موضع القيروان كان حصنا لطيف الكروم ، ولا فى تفسيره لخروج الوحوش من الشعراء ، فان المصادر العربية تجمع على أن الموضـع الذى أقيمت فيه القيروان كان « دجـــلة مشتبكة » (٣) أو واديا كثير الشجر كثير القطف تأوى إليه الوحوش والسباع والهوام (٤) ، أو شعارى وغياض لاترام (٥) ، أوغيضة كثيرة الأشجار مأوى الوحـوش والحيات (٦) . ولم يكن موضـع القيروان حصنا لطيف الكروم ، ولعل الدكتور مؤنس قرأ حصنا لطيفـا للكروم

---

(١) المالكى ، ص ٢١
(٢) حسين مؤنس ، ص ١٤٢
(٣) أبو الفدا ، ج٢، ص ١٠١
(٤) ابن عبد الحكم ، ص ٦٤
(٥) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٢٠
(٦) ابن الأثير، الكامل ، ج ٣، ص ٢٣٤ ـ أسد الغابة، ج ٣، ص ٤٢١

بدلا من « حصن لطيف للروم » الواردة فى رياض النفوس ، بدليــل أن صاحب هذا الكتاب يذكر أن موضع القيروان كان وديا تسكنه الوحوش والحيات . وليس معنى هذا أننا ننكر وجود حصن فى الموضع الذىأقيمت عليه القيروان ، فلاشك أن موضع القيروان كان قريبـا من حصن رومانى قديم كالشأن فى الفسطاط مثـلا والكوفة . أما بالنسبة لخروج الوحوش والسباع بالطريقة التى شرحهــا الدكتور مؤنس فنستبعده ، وقد أشار الدكتور سعد زغلول عبد الحميد إلى مايمكن أن تتضمنه رواية الواقدى من تعليل مقبول لخروج الوحوش من الغيضة . فقد ذكر الواقدى أن موضع القيروان كان كثيرالأشجار ، فاقترح أصحاب عقبة عليه أنيحرقوه بالنار ويبنون فيه المدينة ، فقال لهم : « ياقوم ، إن الوحوش والهوام ودواب الأرض كثيرة بهذه الأرض ، وأخاف أن أحرقهـا بالنار فيحا سبنى الله عز وجل عليها ، ولكن إذا كان آخر النهار أنادى فى هذا الموضـع بأعلى صوتى : أيتها الوحوش الساكنة فى هذا المكان ، ارحـلوا منه ، فانى أريد حرق أشجاره بالنـار لأن المسلمين يريدون أن يبنوا فيه بلدة لتستقر فيهـا رحالهم ونساؤهم ، وفى آخر النهار نادى عقبة رضى الله عنــه فى الوحوش بالارتحال ، فما أتم النداء حتى رفعت الوحوش أولادهـا فى أفواهها من غزلان وذئاب ونمور وغيرها ، وبقى ينتظر خروجهامدة ثلاثة أيام لم يكن دأب الناس فيها إلا الفرجة واللعب ، فلما كان اليوم الرابـع ، أمر بالنار فأطلقت ، فأكلت الأشجار عن آخرها »[1] . ويستنتج الدكتور سعـد زغلول من تلك الرواية أن خروج الوحوش والهوام فزعة من الشعراء جاء

---

(١) الواقدى ، فتوح إفريقية ، ج ١ ، طبعة تونس ، ١٣١٥هـ ، ص ٣

نتيجة للحريق ، الذى أطلق فى الموضع لتنظيفه من الأشجار قبل البناء ، ويذكر الدكتور سعد زغلول أن « هذا أمر طبيعى يحدث عندما تلتهم النيران بعض الغابات ، فتفزع حيواناتها ، وقد يفر بعضها وهو مشتعل فيتسبب فى زيادة الرقعة المنكوبة بالحريق ، وهذا ما نظنه تفسيرا مقبولا لأصل الأسطورة » (١) .

وعلى الرغم من أن نص الواقدى لا يشير إلى قيام المسلمين بحرق الأشجار إلا بعد رحيل الوحوش ، فاننا نؤيد الدكتور سعد فيما ذهب إليه اعتمادا على ما ذكره الواقدى بالإضافة إلى ما ذكره ابن الأثير فى أسد الغابة إذ يقول : « وكان (موضع القيروان) غيضة ، كثير الأشجار ، مأوى الوحوش والحيات ، فأمر بقطع ذلك وإحراقه ، واختط المدينة » (٢) . وقد يكون عقبة قد بدأ باجتثاث الأشجار عن طريق قطعها أول الأمر ، فنفرت السباع والوحوش من الوادى ، فلما تأكد له ذلك أحرقها ، إسراعا بازالتها ، وتوفيرا لجهود أصحابه ، ويؤيد ذلك الرأى قول ابن عذارى : « فأمرهم أن يقطعوا الشجر » (٣)

وما إن أتم المسلمون تنقية الموضع من الأشجار ، حتى شرع عقبة فى اختطاط دار الامارة ، والمسجد الجامع ، ولكنه لم يقم به أى بناء ، وكان يصلى فى أرضه دون أن يكون قد أقيمت فيه جدران ، ويبدو أن الناس

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد ، فتح العرب للمغرب بين الحقيقة التاريخية والأسطورة الشعبية ، ص ٢٠

(٢) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ، ص ٤٢١

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٢٠

اختلفوا معه فى تحديد الاتجاه الصحيح للقبلة ، باعتباره أول المساجد الجامعة فى هذا القطر المفتوح ، وباعتبار قبلته الأنموذج الذى تحتذيه سائرمحاريب المساجد الجامعة فى بلاد إفريقية ، « فأقاموا أياما ينظرون إلىمطالع الشتاء والصيف من النجوم ، ومشارق الشمس فلما رأى أمرهم قد اختلف ، بات مغموما فدعا الله عز وجل أن يفرج عنه . فأتاه آت فى منامه ، فقال له : إذا أصبحت فخذ اللواء فى يدك ، واجعله على عنقك ، فانك تسمع بين يديك تكبيراً لا يسمعه أحد من المسلمين غيرك ، فانظر الموضع الذى ينقطع فيه التكبير فهو قبلتك ومحرابك ، وقد رضى الله لك أمر هذا العسكر، وهذا المسجد ، وهذه المدينة ، وسوف يعز الله بها دينه ، ويذل بها من كفر به . فاستيقظ من منامه وهو جزع ، فتوضأ للصلاة ، وأخذ يصلى وهو فى المسجد ومعه أشراف الناس ، فلما انفجر الصبح ، وصلى ركعتى الصبح بالمسلمين ، إذا بالتكبير بين يديه . فقال لمن حوله : أتسمعون ما أسمع ؟ فقالوا : لا . فعلم أن الأمر من عند الله . فأخذ اللواء فوضعه على عنقه ، وأقبل يتبع التكبير حتى وصل إلى موضع المحراب ، فانقطع التكبير ، فركز لواءه ، وقال : هذا محرابكم ، فاقتدى به سائر مساجد المدينة » (١) .

وهكذا أحيط تركيز القبلة على يدى عقبة بما يشبه القصص والأساطير . وما كاد يتم تركيز القبلة بالمسجد حتى بدأ المسلمون فى بناء الجامع ، وفى تشييد دورهم ومساكنهم ومساجدهم بالقيروان . وقد وصل إلينا اسم أحد

---

(١) الدباغ ، معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان ، تونس ١٩٠١ ، ج ١ ص ، ٩ — ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ، ص ٢٣٤ — ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٢٠ وما يليها .

من ساهم فى بناء الجامع وهو اسماعيل بن عبيد الأنصارى (١). ويقال أيضا أن عبـــد الله بن الزبير أسس مسجد القيروان (٢)، وكان ممن اختط فى القيروان من التـابعين أبو عبـد الله على بن رباح بن نصير اللخمى، الذى اختط بالقيروان داراً ومسجداً، « ومسجده عند باب نافع على يمين الخارج قبل أن يخرج » (٣)، ومنهم أبو رشيد حنش بن عبد الله السبأى الصنعاني الذى اختط بالقيروان داراً ومسجداً ينسب إليه، وكان يقع بالقرب من باب الريح (٤)، ومنهم زياد بن أنعم السفيـاني، واختط بالقيروان داراً ومسجداً بالقرب من باب نافع (٥).

عمرت القيروان بمختلف أنواع الأبنية والمنشآت، وشد الناس إليهـا الرحال وانتجعوها من كل مكان، واتسعت بالأسواق والمرافق، ودامت حركة البناء فيها نحو خمس سنوات، فاكتملت عمارتها فى سنة ٥٥ هـ (٦). وذكر ابن عذارى أن دورها فى ذلك الحين بلغ ١٣٦٠٠ ذراع أى ما يعادل سبعة آلاف وخمسمائة متر، وواضح أن هذا الرقم مبالغ فيه، وكانت مدينة القيروان فى بداية نشأتها، قاعدة حربية، ومركزا توجه منه الغزوات على جبال أوراس المواجهة لها (٧). وكان عقبة أثناء عمارته لهـــا، يغزو، « ويبعث السرايا فتغير وتنهب، ودخل كثير من البربر فى الإسلام، واتسعت خطة المسلمين، وقوى جنان من هنالك من الجنود بمدينة القيروان، وآمنوا

(١) المالكى، ص ٧٠ (٢) نفس المرجع، ص ٤٣ (٣) نفس المرجع، ص ٧٧

(٤) نفس المرجع ص ٧٩ (٥) المالكى، ص ٨٣

(٦) ابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ٢٣٤

(٧) Terrasse, histoire du Maroc, t.I, p. 80 — حسين مؤنس، فجر الأندلس، القاهرة ١٩٥٩ ص ٣٩

واطمأنوا على المقـام ، فثبت الإسلام فيها » (١). وكانت القيروان مسورة بسور من اللبن والطين ، هدم زمن زيادة الله ، (٢)، وأقيم عليهـا سور تراب بعد ذلك (٣) .

وقدر للقيروان أن تصبح حاضرة المغرب الإسلامى كله فى عصر الخلافة الأموية ، إلى أن انفصل المغرب عن الدولة العباسية فى أواخر القرن الثانى للهجرة ، وتكونت بذلك إمارات مستقلة فيه ، وفى هذه الفترة كانت القيروان على حد قول ابن حوقل « أعظم مدينة بالمغرب ، وأكثرها تجراً وأموالا ، وأحسنها منازل وأسواقا ، وكان فيها ديوان جميع المغرب ، وإليهـا تجبى أموالها ، وبها دار سلطانها » (٤) . ويصفها الإدريسى فى القرن الخـــامس الهجرى فيقول : « ومدينة القيروان أم أمصار ، وقاعدة أقطار ، وكانت أعظم مدن الغرب قطراً ، وأكثرها بشراً ، وأكثرها جباية ، وأنفقها سلعة ، وأنماها ربحا ، وأجهرهم عصيانا ، وأطغاهم أغمارا ... » (٥)

ج ـ عزل عقبة بن نافع وتولية أبو المهاجر دينار (٥٥ ـ ٦٢ هـ) :

بتأسيس مدينة القيروان أخذت إفريقية تظهر كولاية هامة من ولايات الدول العربية الإسلامية ، فتطلعت إليها أنظار الطامعين فى ولايتها . والظاهر أن اشتغال عقبة بتأسيس القيروان طوال خمسة أعوام ، وعزوفه عن الغزو

---

(١) ابن الأثير ، ج ٣، ص ٢٣٥

(٢) اليعقوبى ، كتاب البلدان ، طبعة ليدن ١٨٩٢ ، ص ٣٤٧

(٣) الإدريسى ، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، ص ١١٠

(٤) ابن حوقل ، صورة الأرض ، طبعة بيروت ، ص ٩٤

(٥) الإدريسى ، المرجع السابق، ص ١١٠

أثناء ذلك ، حرم الخلافة من مورد هام لهـا وهو الغنـائم الكثيرة التى كانت ترد من هذه البلاد . وهنا أخذت السعايات ضد عقبـة تلعب دوراً هـاما فى بلاط الخليفـــة بدمشق ، وكان مسلمة بن مخلد الأنصارى والى مصر فى مقدمة من سعى لعزل عقبة وضم ولاية إفريقية لمصر ، طمعـا فى مواردها الوفيرة (١) ، وقـد نجح فى ذلك ، وأصبحت له منـذ سنة ٥٥هـ ولاية مصر والمغرب ، من أطراف إقليم مصر إلى إفريقيـة ، « وهو أول من جمعت له مصر والمغرب » (٢) . وذكر الأستاذ هنرى تراس أن معاوية عزل عقبـة من ولاية إفريقية خوفا من أن يستقل بالمغرب عن الخلافة (٣) ، وليس من المستبعد أن يتجه تفكير معاوية إلى ذلك ، فقد كان يخشى أيضا من مطامع عمرو بن العاص ، فى مصر وإفريقية ، ولذلك جعل ولاية إفريقية تتبعـه مباشرة بعـد وفاة عمرو ، ولعله رأى فى اهتمام عقبة بافريقيـة ، وشعبيته فى بلاد برقة وإفريقية . وتأسيسه للقيروان ، اتجاهـا منه نحو الاستقلال بحكم هذا الإقليم الغنى بخيراته ، المتطرف عن أملاك الدولة الأموية ، وكان يعرف صلة القرابة التى تربط عقبة بعمرو ، فأسرع بضم ولاية إفريقية إلى مسلمة ابن مخلد الأنصارى عامله فى مصر ، ولعله أشار على مسلمة بعزل عقبـة عن ولاية إفريقية ، بدليل أنه لم يرد عقبة إلى ولايتها بعد أن قدم إليه شاكيا ، من سوء عزل أبي المهاجر له .

وذكر المالكي أن مسلمه وجه خالداً بن ثابت الفهمى التـــابعى إلى

---

(١) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ١٤٧

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٦٦ — ابن عذارى ، ص ٢١

(٣) Terrasse op. cit p. 80

إفريقية في سنة ٥٤ ه[1]، ولكنه لم يلبث أن عزله ، واستعمل على إفريقية مولاه دينارا ويكنى أبا المهاجر ، فقدم إلى القيروان فى سنة ٥٥ ه (٦٧٤ م) فى جيش من أهل الشام ومصر . وتجمع المصادر العربية على أن أبا المهاجر أساء عزل عقبة [2] ، ويذكر ابن عبد الحكم أن مسلمة كان قد أوصاه بالرفق فى عزله، وحسن معاملته. ولكنه خالفه، «وسجنه وأوقره حديداً»[3]

ويذكر المؤرخون أن خبر هذه الإساءة قد وصل إلى مسامع الخليفة معاوية فى دمشق عن طريق أنصار عقبة ، فكتب إلى أبى المهاجر مباشرة ، يأمره بتخلية سبيله ، وإطلاقه من حبسه ، وإشخاصه إليه [4] فأطلقه أبو المهاجر وأرسله فى صحبة بعض أتباعه حتى قابس (٥)، ومن هناك واصل عقبة السير حتى وصل إلى دمشق . ويعتقد الدكتور حسين مؤنس أن أبا المهاجر لم يتصرف من تلقاء نفسه ، وأنه أرغم على الإساءة إلى عقبة ، مدفوعا فى ذلك بتعليمات تلقاها من مسلمة بن مخلد الذى كان يحقد على عقبة لما ناله من شرف غزو إفريقية ، وقد اعتمد الدكتور حسين مؤنس فى ذلك الرأى على أدلة ثلاثة مستقاة من ابن عبد الحكم :

الأول ــ أن ابن عبد الحكم قال : « فلما قدم عقبة مصر ، ركب إليه مسلمة بن مخلد ، فأقسم له بالله لقد خالفه ما صنع أبو المهاجر ، ولقد

---

(١) المالكى ، ص ١٩

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٦٦ ــ المالكى ، ص ٢١ ــ ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ص ٢٣٥ ــ ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٢٢

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٦٦

(٤) نفس المرجع ، ص ٦٨

(٥) المالكى ، ص ٢١

أوصيته بك خاصة » (١) . ويستنتج الدكتور مؤنس من هـذا النص أن « سعى مسلمة إلى عقبة ، واعتذاره له ، ونفيـه التهمـة عن نفسه ، لا يعلل إلا بأن مسلمة خشى أن يغضب معاوية عليه حين يقص عليه عقبة ما نزل به من مساءة على يديه ، فأسرع وألقى التهمة على أبى المهـــاجر خوفا من معاوية » (٢) . على أن ابن عذارى يذكر أن اعتذار مسلمة حدث فى عهـد يزيد عندما أعاد عقبة إلى ولاية إفريقية سنة ٦٢هـ ، فمر عقبة على مسلمة بن مخلد فى مصر ، فاعتذر له مسلمة عما فعله به أبو المهاجر ، وأقسم له أنه خالفه فيما صنع ، وأنه كان قد أوصاه بتقوى الله وحسن السيرة ، فقبل منه عقبة هذا الاعتذار ، فلما وصل إلى إفريقية « أوثق أبا المهـــاجر فى الحديد ، وأمر بتخريب مدينته التى بناها ، ورد الناس إلى القيروان » (٣) . وأعتقد أن ما ذكره ابن عذارى أقرب إلى الصواب والمنطق ، فلو كان مسلمة قد اعتذر لعقبـة عما فعله أبو المهاجر ، وثبت لعقبة بعد ذلك أن مسلمة هو المسؤول عما لحقه لكان قد عذر أبا المهاجر ، ولما كان قد انتقم منه بعد ذلك عندما أعيـد إلى ولايته. ومن الطبيعى أن يتوجه مسلمة بالاعتذار لعقبة عن تصرف أبى المهاجر نحوه بعد أن استرد عقبة كرامته وكبرياءه باسترداد إمارته على إفريقيـة ، وهذا يفسر تحامل عقبة على أبي المهاجر بعد ذلك . ونضيف إلى ما سبق أنه لا يعقل أن يتوجه عقبة بعد أن أطلق أبو المهاجر سراحه بأمر الخليفـة إلى مصر ويقابل مسلمة ، وهو يعلم أنه هو الذى عزله . وقـد ذكر المالـكى أن

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٦٨

(٢) حسين مؤنس ، ص ١٥١

(٣) ابن عذارى ، ص ٢٣

عقبة وصل إلى قابس ، ومن هناك رحل إلى معاوية ، وأغلب الظن أنه سافر إلى دمشق رأسا عن طريق البحر .

الثانى – أن عقبة لم يكد يبسط للخليفة ظلامته من أبي المهاجر ومسلمة بقوله « فتحت البلاد ، وبنيت المنازل ومسجد الجماعة ، ودانت لى ، ثم أرسلت عبد الأنصار فأساء عزلى » ، حتى اعتذر له معاوية وقال : « قد عرفت مكان مسلمة بن مخلد من الإمام المظلوم ، وتقديمه إياه ، وقيامه بدمه ، وبذل مهجته ، وقد رددتك على عملك » (١) . ويرى الدكتور مؤنس فى ذلك الاعتذار اعترافا من معاوية بأن مسلمة هو المسؤول عما نزل بعقبة لا أبا المهاجر ، وأن عزل عقبة كان على هوى منه ، وأن عقاب الخليفة لأبى المهاجر جزاء إساءته إلى عقبة كان يسىء مسلمة ، الذى كان يتمتع بمكانة كبيرة عند بنى أمية لما قام به من جهود فى سبيل المطالبة بدم عثمان ٢.

الثالث – أن ما ذكره ابن عبد الحكم وغيره من مؤرخى العرب من أن عقبة دعا على أبي المهاجر ، وخوف أبى المهاجر من دعاء عقبة ، لأنه كان مجاب الدعوة، يتضمن براءة أبى المهاجر من تهمة الإساءة إلى عقبة (٣) .

وعلى هذا النحو نجد أن الأدلة التى استند عليها الدكتور مؤنس هى فى الواقع دليلان : الثانى والثالث ويمكننا أن نضيف إليها دليلين آخرين هما :

١ – أنه لو لم يكن مسلمة بن مخلد هو الذى حرض أبا المهاجر على إيذاء عقبة لما كان مسلمة قد ترك القضية تمر كذلك دون أن يلحق العقاب

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٧٠

(٢) حسين مؤنس ، ص ١٥١

(٣) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ١٥٢

بأبى المهاجر جزاء مخالفتة إياه ، وإساءته إلى عقبة الذى كان يعتبر شخصية من الشخصيات الاسلامية الجليلة ، والذى ساهم بنصيب وافر فى الفتوح ، والذى ثبت فتح إفريقية بتأسيس القيروان ، وبانشاء مسجدها الجامع ، بل إن ماقام به أبو المهاجر من هجر قيروان عقبة وإنشاء قاعدة أخرى للفتح ، إنما يعبر عما كان يحس به مسلمة من تحاسد وتغاير لعقبة ، على ماظفر به من شرف بقيروانه .

٢ — لو أن مسلمة لم يكن هـــو الذى دفع أبا المهاجر على الإساءة إلى عقبة ، لما كان كتاب التخلية عن عقبة وإطلاق سراحة من سجنه ، قد ورد من الخليفة رأسا . وأغلب الظن أن معاوية كان يعلم مقدما أن تصرف أبي المهاجــر لم يكن من تلقاء نفسه ، وأنه كان مرغما على ذلك التصرف ، والا لما كان قد كتب إليه بالإفراج عن عقبة ، وإشخاصه إليه ، والا لكان قد أمر بعزل أبى المهاجر وتأديبه .

* * *

كره أبو المهاجر دينار أن يستقر فى قيروان عقبة ، وآثر أن يبنى مدينة ينزل فيها ، ويجعلها قاعدة المسلمين بـــدلا من القيروان ، ولعله تلقى من مسلمة تعليمات بهذا الشأن . ويذكر ابن عبد الحكم أنه خلف الموضع الذى اختطه عقبة بميلين ، « فابتنى ونزل » [١]. وذكر المالكى : « أنه نزل بفحص تونس ، ويقال إنه نزل بسبخة وبنى بها » [٢] . أما ابن عذارى فيقول : « ونزل خارجا عن المدينة ، وكره أن ينزل المـــوضع الذى اختطه عقبة ،

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٦٨

(٢) المالكى ، ص ٢٠

ومضى حتى خلفه بميلين ، مما يلي طريق تونس ، فاختطبها مدينـة ؛ وأراد أن يكون له ذكرها ، ويفسد عمل عقبة،فبنى مدينة ، وأخذ فى عمرانها، وأمر الناس أن تحرق القيروان ، ويعمروا مدينته » . (١)

وإذا بحثنا فى هذه الروايات وجدنا أن أبا المهاجر لم يكن لديه الوقت الكافى لبناء مدينة جديدة بدلا من القيروان،صحيح أننا لاننكر كراهية أبي المهاجر لقيروان عقبة،وعزوفه عن اتخاذها مركزا للجيوش فى إفريقية،العربية ولكننا لانقبل ماذكره المؤرخون من أنه أسس مدينة جديدة ، فلا يمكن باى حال من الأحوال أن يصل التغاير بين مسلمـة وعقبة إلى حـــد تقويض الأول لأعمال الثانى التى استغرقت سنوات خمس،وأغلب الظن أن أبا المهاجر نزل فى موضع آخر غير القيروان ، ولعله اختار مدينة أو قرية إفريقية لهذا الغرض ، ويذكر المالكى أنه « انصرف فنزل بدكرور مدينة البربر ، بالقرب من موضع القيروان » (٢) . ولعله أقام فيها قصرا للامارة ومسجدا جامعا ، وأضاف اليها بعض المنشآت اللازمة لعسكره ، بعد أن رحل هذا العسكر من قيروان عقبة ، ولهـــذا السبب اختلط الأمر على الرواة ، فنسبوا اليه بناء مدينة جديدة . ونشك أيضا فيما ذكره المؤرخون خاصا باحراقه لقيروان عقبة ، ولاشك أن تدمير مدينة كالقيروان أخذ بناؤها من جهود المسلمين ماأخذه ، يعتبر عملا إجراميا لايمكن أن يحدث بايحاء من شخصية جليلة كشخصية مسلمة بن مخلد الأنصارى أو مولاه دينار. وأعتقد أن الأمر لم يزد على هجر القيروان وإخلائها من العسكر والإدارة

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٢

(٢) المالكى ، ص ٢٠

وقد يكون هذا التصرف نابعا من رغبة أبي المهاجر فى التقرب إلى البربر والإقامة فى قرية من قراهم حتى يوهمهم أن قيروانه لايمثل احتلالا أجنبيا لبلادهم .

وتمر المصادر العربية مـــرا سريعا على ولاية أبي المهاجر ، إما لأنها وقعت بين ولايتى عقبة الأولى والثانية ، أو بسبب استياء الرواة من تصرفات أبي المهاجر وإساءته إلى عقبة . ولكن نتفا قليلة من أخبار أبى المهاجر وصلتنا فى بعض المصادر . ونستخلص منها أن أبا المهاجر أحس بتكوين حلف ضد المسلمين يضم بربر أوربة البرانس والروم . ولاشك أن البيزنطيين على أيام قسطنطين الرابع تفرغوا لشؤون المغرب بعد أن شغلوا عنه طويلا بغزوات العرب لبلادهم ، وحصارهم للقسطنطينية مرتين فى سنة ٤٨ هـ ، وفى سنة ٥٥ هـ [١] ، واستيلائهم على جزر قبرص ورودس وأرواد واقريش. ويبدو أن بربر أوربة الذين كانت تربطهم بالبيزنطيين روابط وثيقة بدأ وا يحسون بخطر العرب على بلادهم منذ أن أسس عقبة بن نافع مدينة القيروان ، فأخـذ زعيمهم كسيلة بن لمزم يجمع القبائل ويؤلبها على العرب، تمهيدا لطردهم من البلاد . لذلك آثـر أبو المهاجـر أن يبدأ بمهاجمـة بربر أوربة وأحـــلافهم الذين كانوا يضربون فى نواحى تلمسان ، حتى يقضى على ما بدا له من بوادر مقاومتهم [٢] . خرج أبو المهاجر على رأس جيش من المسلمين متجها إلى مراكز أوربة وأحـلافها من البرانس ، « ففتح كل

(١) ابراهيم احمد العدوى ، الأساطيل العربية فى البحر الأبيـض المتوسط ، القاهرة ١٩٥٧، ص ٤٧ ـ ٥٥

(٢) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ١٧٢

مامر عليه حتى انتهى إلى العيون المعروفة بأبى المهاجر نحو تلمسان » (١) . ثم صالح كسيلة الأوربى وأحسن إليه بعد أن اعتنق الإسلام ، وأسلم معه كثير من بنى قومه . ونجح أبو المهاجر بفضل مؤازرة كسيلة له فى الاستيلاء على تلمسان (٢) . ويعتبر أبو المهاجر أول أمير عربى وطئت خيله أرض المغرب الأوسط ، وتدل نتائج هذه الحملة على مقدرته السياسية ، وكياسته فى كسب زعيم بربر أوربة إلى جانب المسلمين .

وما إن انتهى أبو المهاجر من القضاء على مقاومة البربر ، ومن تحطيم الحلف القائم بين أوربة والروم وذلك بانضمام كسيلة ومن ورائه برابر أوربة إلى جانب المسلمين ، حتى ولى وجهه شطر قرطاجنة ، معقل الروم فى إفريقية ، ليضرب ضربته الثانية . ويذكر أبو المحاسن أن أبا المهاجر خرج فى سنة ٥٩ ﻫ لغزو قرطاجنة ، « فخرج إليه أهلها ، فالتقوا ، وكثر القتل بين الفريقين حتى حجز الليل بينهم ، وانحاز المسلمون من ليلتهم ، فنزلوا جبلا فى قبلة بولس (يقصد تونس)، ثم عاودوهم ، وصالحوهم على أن يجلوا لهم الجزيرة (جزيرة شريك) . ثم افتتح أبو المهاجر المذكور ميلة (٣) ، وكانت إقامته بها فى هذا الغزو نحواً من سنتين » (٤) . وعاد أبو المهاجر بعد ذلك سنة ٦١ ﻫ إلى مدينته التى أسسها ، وأقام بها عاما واحدا حتى عزل .

---

(١) المالكى ، ص ٢١ — ابن عذارى ، ص ٢٨

(٢) السلاوى ، الاستقصا ، ج ١ ص ٨٠

(٣) مدينة ميلة تقع على أربع مراحل شرقى قلعة بنى حماد ، ويصفها الإدريسى بأنها « مدينة حسنة ، كثيرة الأشجار ممكنة الثمار » (الإدريسى ، ص ٩٤) . ويذكر اليعقوبى أنها مدينة عامرة محصنة تقع على البحر ولها مراسى عديدة . (البلدان ، ص ٣٥١)

(٤) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٥٢ — السلاوى ، ج ١ ص ٨٠

د - ولاية عقبة الثانية (٦٢ - ٦٤ هـ):

توفى معاوية بن أبى سفيان فى منتصف رجب سنة ٦٠ هـ ، وأفضت الخلافة من بعده إلى ابنه يزيد ، وكان يزيد مقتنعا بفضل عقبة على الإسلام وحسن بلائه فى فتح إفريقية ، فاستقطع ولاية إفريقية من مسلمة بن مخلد والى مصر ، وعزل أبا المهاجر دينار فى سنة ٦٢ هـ ، ورد عقبة بن نافع إلى ولاية إفريقية للمرة الثانية . وبذلك استرد عقبة كرامته التى نال منها مسلمة ابن مخلد عن طريق مولاه أبى المهاجر ، وتلاشى من نفسه الاحساس بالمرارة منذ أن أهانه أبو المهاجر بالسجن ، وتخريب العمل الجليل الذى جهد فى إنشائه وهو مدينة القيروان .

ويرى الدكتور مؤنس أن عقبة رد إلى ولاية إفريقية عقب وفاة مسلمة ، ويستند فى ذلك على الربط بين تاريخ مشترك هو سنة ٦٢ هـ يسجل وفاة مسلمة ، وتولية عقبة ، « فلو كان عقبة رد قبل وفاة مسلمة ، فلماذا تحدد المراجع سنة ٦٢ هـ بالذات ، أى بعد سنتين من ولاية يزيد؟ ولم لم يرده يزيد من أول ولايته ؟ وفيم كان الانتظار ؟ بل لو كان مسلمة حيا حين رد عقبة إلى عمله لتولى حماية أبى المهاجر منه أولا ستغاث به هذا الأخير على الأول . فأما وقد كان عقبة مطلق اليد يفعل بأبى المهاجر مايشاء ، فان فى ذلك لدليلا على أن هذا الأخير كان قد فقد وليه ونصيره ، فهان أمره على الناس »(١) ولكننا نرى نقيض ذلك ، فليس من الضرورى أن يرد يزيد عقبة إلى ولاية إفريقية عند توليه الخلافة مباشرة ، وتذكر المصادر العربية أن يزيد واجه عند توليه الخلافة صعوبات كثيرة فى العراق والحجاز ، وكانت بداية

---

(١) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ١٧٩

خلافته إيذانا بفترة طـــويلة من الصراع بين الشيعة وبنى أمية ، على أثر امتناع الحسين بن على وعبد الله بن الزبير عن مبايعته ، فأما الحسين فقـد استشهد فى ١٠ محرم سنة ٦١ ﻫ فى كربلاء بعد أحداث طويلة ، وأما ابن الزبير فقد فرغ له الجو ، ودعا لنفسه بالخلافة بعد شهادة الحسين ، وبايعه أهـل الحجاز وتهامة . ولاجدال فى أن هذه الأحداث شغلته كثيرا عن قضية عقبة ومسلمة ، ولاشك فى أن عقبة لم يغامر بعرض قضيته عـلى يزيد بعد توليته الخلافة مبـــاشرة ، إذ كان كل هم يزيد وقتئذ منصرفا إلى السعى للحصول على مبايعة إجماعية فى الحجاز والعراق . ونرجح أنه توجه إليه بعد أن أسفر الصراع القائم بين الشيعة وبنى أمية عن مقتل الحسين . وهنـا ننتقل إلى مناقشة السند الثاني الذى اعتمد عليه الدكتور مؤنس لإثبات رأيه وهو أنه لو كان مسلمة بن مخلد حيا عندما رد عقبة إلى ولاية إفريقيـة ، لكان قد تولى حماية أبى المهاجر من عقبة . ونرد على هـذا الاستنتاج بنص تاريخى ورد فى رياض النفوس ، جاء فيه أن عقبة توجه إلى يزيد ، «فأخبره بما صنع أبو المهاجر وما دخل عليه منه ، وقال له : لما افتتحتم إفريقية بنيت مسجد الجماعة ، ثم بعثتم عبد الأنصارى ، فأهـانني ، وأساء عزلى ، فغضب يزيد وقال : أدركوها قبل أن يخربها . ورد عقبة إليهـا ، وأزال مسلمة عنها ، وأقره بمصر ، وذلك سنة اثنتين وستين » (١) . ونستنتج من هـذا النص أن يزيد فصل ولاية إفريقية والمغرب عن ولاية مصر ، وأنه قصر ولاية مسلمة بن مخلد على مصر ، وأنه رد عقبة إلى ولاية إفريقية والمغرب. ويؤيد ذلك أيضا ماذكره ابن عذارى بقوله : « وفى سنة ٦٢ ، ولى يزيد

---

(١) المالكى ، ص ٢٢

ابن معاوية على بلاد إفريقية والمغرب كله عقبة بن نافع الفهرى ، وهى ولايته الثانية على إفريقية » [1] . ونخرج من ذلك بحقيقة هامة ، هى أن الأمر الخلافى بتولية عقبة على إفريقية ، وفصل هذه الولاية عن مصر ، صدر قبل وفاة مسلمة فى ٢٥ رجب سنة ٦٢ هـ . ونعتقد أن مسلمة كان مايزال حيا عندما رحل عقبة من الشام مارا بمصر ، فى طريقه إلى المغرب . ويذكر ابن عذارى ، أنه لما مر على مسلمة صاحب مصر خرج إليه ، واعتذر من فعل أبي المهاجر ، وأقسم له أنه خالفه فيما صنع ، وأنه كان قد أوصاه بتقوى الله وحسن السيرة ، وأن يحسن عشرة عقبة ، فقبل منه عقبة ، ومضى حنقا على أبى المهاجر » [2] . وهذا يفسر تحامل عقبة على أبي المهاجر ، ومبادرته بالاقتصاص منه بمجرد وصوله إلى إفريقية . ولم يكن مسلمة وقتئذ قادرا على حمايته من عقبة ، لأن ولاية إفريقية لم تعد تابعة له . وقد يكون رد عقبة إلى ولاية إفريقية قد تم قبل وفاة مسلمة ببضعة أشهر .

قدم عقبة إلى القيروان ومعه جيش من المسلمين من بينهم ٢٥ رجلا من أصحاب رسول الله [3] ، وكان عقبة مايزال حانقا على أبى المهاجر ، ولذلك بادر بالقبض عليه وتقييده ، وصادر مامعه من الأموال ، وجملتها مائة ألف دينار ، وجدد بناء القيروان ، ورمم ماوهى من مبانيها ، وأمر الناس بتعميرها والانتقال إليها ، فعادت إليها عظمتها [4] . ثم أشفى غليله

---

(١) ابن عذارى ، ص ٢٣

(٢) ابن عذارى ، نفس الصفحة .

(٣) ابن عذارى نفس الصفحة

(٤) المالكى ، ص ٢٢ — ابن عذارى ص ٢٣

من أبى المهاجر ، « بتخريب مدينته التى بناها » [1] . ويبدو أنه كان يسعى لنقض سياسة أبى المهـــاجر من أساسها ، وهى سياسة أثبتت نجاحا عظيما ، إذ انتهت بضم بربر أوربة إلى جانب المسلمين ، وبدخول عدد كبير منهم فى الإسلام ، ولو أن عقبة تابع سياسة أبى المهاجر ، لقـــدر له أن يستكمل فتح المغرب كله دون أن يريق كثيرا من دماء المسلمين ، ولكن اصطناعه سياسة مناقضة ، مدفوعا فى ذلك بعامل السخط على أبى المهاجر ، كان السبب فى حدوث الكارثة التى أسفرت عنها غزوته الكبرى إلى السوس الأقصى . وقد حاول أبو المهاجر أن يقنعه بجدوى الاستمرار فى سياسة اصطناع البربر ، وقدم له كسيلة على أنه من زعمائهم ، ولكن هم عقبة كان منصرفا إلى تحدى أبي المهاجر ، وإلى إذلاله وإذلال من لاذ به ، فاستخف بكسيلة وهو حديث عهد بالاسلام ، على الرغم مما أوصاه به أبو المهاجر . ويذكر المالكى وابن عـذارى أن عقبة أتى يوما « بذود غنم للعسكر ، فذبح الذود ، فأمر عقبة كسيلة أن يسلخ مع السالخين . فقال له : أصلح الله الأمير ، هؤلاء فتياني وغلمانى يكفوننى . فنهره عقبة ، وقال له : قم. فقام كسيلة مغضبا . فكان كلما دحس فى الشاه مسح يده بلحيته مما عاق بيده من بلل ذلك . وجعل العرب يمرون عليه وهـــو يسلخ ، ويقولون له : يابربرى ، ماهذا الذى تصنع ؟ فيقول : هذا جيد للشعر . فمر به شيخ من العرب ، فقــال : كلا ، إن البربرى ليتوعدكم . فقال أبو المهــاجر لعقبة : أصلح الله الأمير ، ماهذا الذى صنعت ؟ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستألف جبابرة العرب كالأقرع بن حابس التميمي ، وعيينة بن حصن ،

---

(١) ابن عذارى ص ٢٣

وأنت تجىء إلى رجل هو خيار قومه فى دار عزه ، قريب عهد بالكفر ، فتفسد قلبه ؟ توثق من الرجل فانى أخاف فتكه ، فتهاون به عقبة . فلما انصرف ، نكث البربر ما كانوا عليه ، وأقبلت النفرة إلى عقبة ، فقال له أبو المهاجر : عاجله قبل أن يجتمع أمره ، فزحف إليه عقبة ، فتنحى من بين يديه ، فقالت البربر لكسيلة : لم تهرب من بين يديه ، ونحن فى خمسين ألفا ، وهو فى خمسة آلاف ؟ فقال : إنكم كل يوم فى زيادة وهو فى نقصان ، ومدد الرجل قد افترق عنه . فاذا طلب إفريقية زحفت إليه » (١) .

ونستنتج من هذا النص أن عقبة أساء إلى كسيلة وأهانه بسلخ جلود الغنم ، ففر كسيلة من معسكر عقبة ومعه جموع بربر أوربة ، وتمكن كسيلة من تكوين جيش ضخم من البربر ، لمقاتلة المسلمين ، ولكنه لم يشأ أن يشتبك معهم فى القتال إلا بعد أن يعود عقبة من غزوته ، فيكون عسكره قد نقص عدده ، وعندئذ ينقض عليه كسيلة ويفتك به وبمن معه . وأعتقد أن عقبة أهان كسيلة بعد موقعة باغاية وهو فى طريقه إلى طنجة ، وأنه فر من معسكر المسلمين إلى جبل أوراس ، حيث جمع جيشا ضخما من البربر وعزم على الترصد لعقبة وهو فى طريق عودته من غزوة السوس ، بعد أن يكون التعب قد أرهق عسكره .

ركب عقبة فى وجوه عسكره ومن معه من الصحابة والتابعين . ويذكر ابن عذارى أنه دار بهم حول مدينة القيروان وهـــو يدعولها ويقول : « يارب املأها علما وفقها ، واملأها بالمطيعين لك ، واجعلها عزا لدينك ،

---

(١) المالكي ، ص ٢٦ — ابن عذارى ، ص ٢٩

وذلا على من كفربك » (١) . ويذكر المالكي أنه جمع أولاده وقال لهم : « إنى بعت نفسى من الله ، وما أدرى ما يأتى علي فى سفرى » ، ثم قال : « يابنى أوصيكم بثلاث خصال فاحفظوها ولا تضيعوها : اياكم أن تملأوا صدوركم بالشعر وتتركوا القرآن ، فان القرآن دليل على الله عزوجل ، وخذوا من كلام العرب مايهتدى به اللبيب ، ويدلكم على مكارم الأخلاق ، ثم انتهوا عما وراءه ، وأوصيكم أن لاتداينوا ولولبستم العباء ، فان الدين ذل بالنهار وهم بالليل ، فدعوه تسلم لكم أقداركم وأعراضكم ، وتبق لكم الحرمة فى النـــاس مابقيتم . ولا تقبلوا العلم من المغرورين المرخصين ، فيجهلوكم دين الله ، ويفرقوا بينكم وبين الله تعالى ، ولا تأخذوا دينكم إلا من أهل الورع والاحتياط ، فهو أسلم لكم ، ومن احتاط سلم ، ونجا فيمن نجا » ، ثم قال : «عليكم سلام الله ، وأروكم لا ترونني بعد يومكم هذا» ، ثم قال : « اللهم تقبل نفسى فى رضاك ، واجعل الجهاد رحمتى ودار كرامتى عندك » (٢) .

ولما أتم حديثه مع أولاده ، وأبدى لهم النصيحة استخلف زهير بن قيس البلوى وعمر بن على القرشى على رأس حامية من المسلمين عدتهم ستة آلاف مقاتل (٣) . ثم خرج فى جيش عدته خمسة عشر ألفـا (٤) ، من القيروان ،

---

(١) ابن عذارى ، ص ٢٣

(٢) المالكى ، ص ٢٢

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٧٢

(٤) الدباغ ، معالم الإيمان ، ج ١ ص ٤٣ . وفى نص عبيد الله بن صالح انه « خرج مع عسكر عظيم » ، ولكنه لم يحدد عدد هذا العسكر (عبيد الله بن صالح ، ص ٢١٩)

خروج من عزم على التماس الشهادة والموت فى سبيل الله . ولم يترك عقبة أبا المهاجر فى القيروان ، وإنما أغزاه معـــه إلى السوس ، وهو مكبل بالأغلال [1]. واشترك مع عقبة فى هذه الغزوة جموع كثيرة من مسلمى البربر يتزعمهم كسيلة البرانسى ومن معه من أوربة. وزحفت جيوش المسلمين غرباحتى وصلت إلى مدينة باغاية أو باغاى أو بغاية [2] ، وحاصرتها (خريطة رقم ٦)، وهناك اصطدمت بجيوش الروم وانتصرت عليها انتصاراً حاسما [3] ، وظفر المسلمون بغنائم كثيرة . ثم زحف عقبة غربا متخذا طريق الزاب الصحراوى وقاتل الروم وحلفاءهم من البربر على وادى المسيلة فهزمهم (٤) . واتجه بعد ذلك إلى تاهرت ، وجعلها هدفه الرئيسى حيث تجمعت فيها جموع قبائل لواتة وهوارة وزواغة ومطماطـــة وزناتة ومكناسة ، مع من انضم إليهم من الروم (٥) ، واشتبك المسلمون معهم فى قتـال عنيف انتهى بهزيمـة البربر وحلفائهم الروم هزيمة شنعاء ، ذل لها الروم (٦) . ويذكر المالكى أنه عندما نزل تاهرت ، استغاث « الروم بالبربر ، فأجابوهم ونصروهم ، فقام عقبـة فى الناس خطيبا ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال : أيها الناس ، إن أشرافكم

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٧٠ — المالكى ، ص ٢٢

(٢) يذكر الإدريسى انها مدينة كبيرة عليها سوران من حجر وربض عليه سور ، وأنها أول بلاد التمر ، ولها واد يجرى اليها من جهة القبلة ، وشربهم منه ومن آبار عذبة . وعلى أميال منها جبل أوراس (الإدريسى ص ١٠٣)

(٣) عبيد الله بن صالح ، ص ٢١٩ — المالكى ، ص ٢٣ — ابن عذارى ، ص ٢٤

(٤) نفس المرجع ، ص ٢٤

(٥) نفس المرجع ص ٢٥ — عبيد الله بن صالح ، ص ٢١٩

(٦) نفس المرجع ، ص ٢٤

وخياركم الذين رضى الله تعالى عنهم ، وأنزل فيهم كتابه ، بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الرضوان ، على من كفر بالله إلى يوم القيامة ، وهم أشرافكم ، والسابقون منكم إلى البيعة ، باعوا أنفسهم من رب العالمين بجنته بيعة رابحة ، وأنتم اليوم فى دار غربة ، وإنما بايعتم رب العالمين ، وقد نظر إليكم فى مكانكم هذا ، ولم تبلغوا هـذه البلاد إلا طلبـا لرضاه ، وإعزازاً لدينه . فابشروا ، فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل إن شاء الله تعالى ، وربكم ـ عز وجل ـ يسلمكم . فالقوهم بقلوب صادقة ، فان الله ـ عز وجل ـ جعلكم بأسه الذى لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ، فقاتلوا عدوكم على بركة الله وعونه ، والله لا يرد بأسه عن القوم المجرمين (١) » .

وهكذا قضى عقبة على كل مقاومة للبربر والروم فى المغرب الأوسط ، ومضى فى سيره متجها إلى طنجة ، ولكن أبا المهاجر نصحه بألا يفعل ، فان قبيلة أوربة البرانسية قد أسلمت باسلام كسيلة ، وليس هنـاك ما يدعو إلى غزوها ، ونصحه أيضا بأن يبعث مع كسيلة واليا . فأبى عقبة أن ينتصح(٢) ولم يلبث أن انحرف من طريقه الداخلى نحـو الساحل ، وعبر ممر تازة . ثم أوغل تجاه طنجة . وتطايرت فلول البربر والأفارقـة بعـد أن توالت عليهم الهزائم ، وكثر فيهم القتل على أيدى المسلمين إلى الحصون والمعاقل . ولكن عقبة كان حريصا على مواصلة الغزو ، « فكره المقام على محاصرتهم ، فيفوته الغزو وقتل غيرهم من طوائف الكفـار ، إذ كانت أمم المغرب من نصارى

---

(١) المالكى ، ص ٢٤

(٢) لعل ذلك كان سببا من أسباب تحامل كسيلة على عقبة ، وخروجه عليه ، وترصده له فى طريق عودته .

وبرابر لا يحصون كثرة وانتشاراً ، ولا يكاثرون بالرمل والحصا . فترك أهل إفريقية متحصنين بحصونهم ، وأوغل فى الغرب يقتل ويأسر أمة بعد أمة ، وطائفة بعد طائفة ، بائعا نفسه من مولاه ، لا تروعه كثرة ، ولا تعتريه هو ومن معه سآمة ولا كثرة ، حتى صار بأحواز طنجة »[١] .

وكان حاكم طنجة وسبتة روميا اسمه يليان ، وكان سياسيا محنكا ، فبادر بمهاداة عقبة ومهادنته ، وأعلن استعداده للنزول على حكمه ، وعقد معه عقبة معاهدة صلح ومسالمة ، ودله على مواطن البربر فيما وراء جبال الأطلس ، وأرشده إلى عوراتهم . وبفضل توجيهات يليان تمكن عقبة من الوصول إلى وليلى Volubilis ، وهنالك تلقته جموع كثيفة من البربر بالقتال ، فهزمهم هزيمة نكراء ، وطاردهم حتى درعة (٢) . وهنالك تجمعت حشود هائلة من البربر لا تحصى أعدادها ، فقاتلهم قتالا عنيفا لم يشهد البربر مثل عنفه وشدته . فدارت الدائرة على البربر وقتل منهم عدد كبير[٣] . وذكر بعض المؤرخين أن عقبة انحدر من بلاد تامسنا بالسوس الأدني ، وتوغل فى « صنهاجة ثم إلى بلاد هسكورة ، ثم نزل أغمات وريكة ، ثم نزل منها على وادى نفيس ، وقام عقبة من وادى نفيس وسار حتى نزل إيجلى بالسوس ، وبنى فيه مسجدا... قال أبو على : ثم سار عقبة من إيجلى حتى وصل ماسة ، فأدخل فرسه فى الماء » (٤) . ويصور المؤرخون نهاية مطاف عقبة عند المحيط تصويرا قصصيا

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٦

(٢) نفس المرجع ، نص عبيد الله بن صالح ، ص ٢١٩

(٣) نفس المرجع ، ص ٢٧

(٤) نفس المرجع

أسطوريا ، توكيداً لبطولة عقبة ، فيذكر ابن عذارى نقلا عن ابن أبي الفيض « إنه لما بلغ الماء بطن فرسه رفع يديه إلى السماء وقال : يارب لولا أن البحر منعني لمضيت في البلاد إلى مسالك القرنين مدافعا عن دينك ، مقاتلا من كفر بك » (١) .

وهكذا وصل عقبة حتى بلاد جزولة بالسوس الأقصى (خريطة رقم ٧) ، فبعد أن دخل بلاد صنهاجة وهسكوره ، ومر بأغمات وافتتحها ، وافتتح مدينة نفيس وتارودانت ، نزل بوادي سوس (٢) ، واتصل بقبائل جزولة فأسلمت . ورأى عقبة أن مهمته انتهت إلى هذا الحد ، فعزم على العودة بعساكره . فدار جنوبي ماسة ماراً بايغيران يطوف (٣) ، ومضى مصعداً نحو الشمال ، فوصل إلى تارنا ، ثم وصل إلى موضع شاكر الذي سمى باسم أحد أصحابه تركه هناك ، حيث أنشأ رباطا عرف باسمه ، وما زال يسمى هذا الموضع حتى اليوم باسم سيدى ثيكر (٤) . ثم رحل من هناك إلى سرنو ببلاد دكالة (٥) ، فوجد فيها قوما دعاهم إلى الإسلام فامتنعوا ، فاشتبك معهم في قتال انتهى بقتل جماعة كبيرة من جنوده ، فسمى هذا الموضع باسم مقبرة الشهداء . ثم مضى من دكالة إلى بلاد هسكوره ، وقاتل سكان هذه النواحي وشتتهم ، وعبر نهر أم الربيع ، وأوغل في البلاد شرقا حتى دخل

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٧٢ — المالكى ، ص ٢٥ — ابن عذارى ، ص ٢٧

(٢) عبيد الله بن صالح ، ص ٢١٩

(٣) نفس المرجع ص ٢١٩ — ابن عذارى ص ٢٧

(٤) تعليق الأستاذ ليفي بروفنسال على نص عبيد الله بن صالح ، ص ٢٠٩

(٥) ابن عذارى ، ص ٢٨

المغرب الاوسط . وما زال يواصل سيره إلى القيروان ، حتى أوشك على دخول المغرب الأدنى ، وقبل أن يدخل هذا الإقليم وصلته أنباء مقلقة من إفريقية ، فأرسل طائفة من عسكره إلى القيروان ، ولم يبق معه من جيشه سوى خمسة آلاف [1] . ويعلل ابن عذارى إرساله هذا العسكر إلى القيروان برغبتهم فى الإسراع « بالإياب إلى أحيائهم ، والبدار إلى عيالهم » [2] .
وأغلب الظن أن كسيلة ، الذى انقلب على العرب ، بعد أن أهانه عقبة وحارب قبيلته ، تحالف مع الروم ، وهاجم القيروان فى حشود ضخمة حتى يدفع عقبة إلى الإسراع بارسال كتائب من جيشه لحمايتها ، فيتفرغ هو بعد ذلك لمهاجمة عقبة ، فان ابن عبد الحكم يذكر أن عقبة لما تقدم إلى السوس ، « خالفه رجل من العجم فى ثلاثين ألفا إلى عمر بن على وزهير بن قيس ، وهما فى ستة آلاف فهزمه الله » [3] . وفى موضع آخر يقول : « ثم زحف ابن الكاهنة (لعله يقصد به كسيلة) إلى القيروان يريد عمر بن على وزهير ابن قيس ، فقاتلاه قتالا شديداً ، فهزم ابن الكاهنة ، وقتل أصحابه » [4] .
ويغلب على الظن أن عقبة أذن لمعظم رجاله بالانصراف إلى القيروان عندما وصل إلى مدينة طبنة [5] من أرض الزاب ، وآثر عقبة أن يعرج على مدينتى تهوذه وباديس فى أحواز الزاب بمن بقى معه من جنوده ، للاستيلاء

---

(١) عبيد الله بن صالح ص ٢٢٠ ــ ابن عذارى ، ص ٢٨

(٢) ابن عذارى ، ص ٢٨

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٧٢

(٤) نفس المرجع ، ص ٧٤

(٥) المالكى ، ص ٢٥ ــ ابن عذارى ، ص ٢٨ ــ السلاوى ، ج ١ ص ٨٣

عليها وإقامة حامية دائمة من فرسانه فيها(١). وكانت عيون الروم وجواسيسهم في هذه النواحي قد بعثوا إلى كسيلة الأوربي ، « فأعلموه بقلة من معه ، فجمع له جمعا كبيراً من الروم والبربر ، وزحف إليـــه ليلا حتى نزل بالقرب منه » (٢) .

وكان كسيلة قد جمع أكثر من خمسين ألف مقاتل ، فلما رأى عقبة عظم هذا الجيش ، وتطويق البربر لجيش المسلمين ، أيقن بقرب النهاية ، فأراد أن يبعث أبا المهاجر مع من يتبعه من المسلمين إلى القيروان ، حتى يعفيهم من القتل على أيدى البربر والروم ، فأبى أبو المهاجر إلا أن يغتنم الشهادة معـه . فنزل المسلمون عن دوابهم ، وكسروا أغماد سيوفهم ، ودارت الموقعة عند تهوذه في نهاية سنة ٦٣هـ(٣) . فاستشهد عقبة وأبو المهاجر وسيفاهما في أيديهما ، واستشهد معهما عـدد كبير من المسلمين ، ولم يفلت من الموت إلا من وقـع أسيرا في أيدى البربر أمثـــال محمد بن أوس الأنصاري ، ويزيد بن خلف العبسي ، ففداهم ابن مصاد صاحب قفصة ، وبعث بهم إلى زهير بن قيس(٤).

---

(١) عبيد الله بن صالح ، ص ٢٢٠ . يذكر عبيـــد الله أن عقبة قال لعساكره : « أريد أن أسلك على مدينة تهوذه ومدينة باديس أجعل فيهما مايقـــوم بهما من العـدة والعساكر »

(٢) المالـكي ، ص ٢٥ ـ ابن عذاري ، ص ٢٩

(٣) يرى الدكتور حسين مؤنس أن موقعة تهودة حدثت سنة ٦٤ هـ ، وأن زهير بن قيس قرر الانسحاب إلى برقـة سنة ٦٥ هـ (انظر تعليق الدكتور حسين مؤنس على نص عبيد الله بن صالح ، ص ٢٣٦)

(٤) المالـكي ، ص ٢٧ ـ ابن عـذاري ، ص ٢٩ ـ ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٦ ـ أبو المحاسن ج ١ ص ١٥٩ ـ السلاوى ج ١ ص ٨٤

ودوى خبر مقتل عقبة فى إفريقية والمغرب دويا هائلا ، وكان له أثر عميق فى نفوس المسلمين ، وكان كسيلة قد زحف بجيوش لا حصر لها من البربر والروم إلى القيروان ، « فانقلبت إفريقيـــة نارا ، وعظم البلاء على المسلمين » (١) .

(١) المالكى ، ص ٢٨ ــ ابن عذارى ، ص ٣١

(٢)

الفترة الثانية (٦٩ – ٩٠ هـ)

١ – انسحاب العرب من القيروان فى سنة ٦٤ هـ (٦٨٣ م) :

اختلف المؤرخون فى توضيح موقف زهير بن قيس، قائد جيش المسلمين فى القيروان، فبعضهم يذكر أن زهير لما بلغه خبر الكارثة التى نكب بها جيش عقبة فى تهوذة، تولاه الذعر والخوف وأراد الانسحاب إلى مصر، فأبى ابن حيان الحضرمى، إذ اعتبر ذلك هزيمة إلى مصر، وكان أول من برز، فضرب خباءه مبارزا للعدو، فلما رأى زهير بن قيس عزمه، قرر البقاء فى القيروان لمحاربة كسيلة. فلما أقبل كسيلة إلى القيروان، قاتله المسلمون قتالا شديداً، فانهزم، وقتل عدد كبير من أصحابه وتفرقوا. أما زهير فقد أقام يسيرا فى القيروان، ثم خرج إلى مصر، فأقام بلوبية ومراقية عام ٦٥ هـ، حتى أمده عبد الملك بن مروان بجيش استرد به إفريقية[١]. هذه الرواية تتناقض تفاصيلها ولا تتفق مع الأحداث التى تلت مقتل عقبة وأصحابه فى تهوذه، ونتساءل لماذا ترك زهير القيروان بعد انتصاره المزعوم إلى لوبية ومراقية، ولماذا أقام هنالك حتى أمده عبد الملك بجيش لاسترداد إفريقية ؟ ونفهم منها على الرغم من ذلك أن إفريقيـة ضاعت على المسلمين إلى أن استردها زهير ابن قيس بعد ذلك بفترة من الوقت.

ويتفق معظم المؤرخين على أن زهيرا خطب فى الناس بعد كارثة تهودة قائلا : « يا معشر المسلمين، إن أصحابكم قد دخلوا الجنـة، وقد من الله

(١) المالكى، ص ٢٨، ٢٩ – ابن عذاري، ج ١ ص ٢٩

عليهم بالشهادة ،فاسلكوا سبيلهم، ويفتح الله لكم دون ذلك» فاعترض عليه حنش الصنعاني التابعي،وطالبه بالانسحاب مع بقية الجيش العربي إلى المشرق حتى لايتعرض المسلمون لسيوف البربر ، وقال : « يامعشر المسلمين ، من أراد منكم القفول إلى مشرقه فليتبعني». فاتبعه الناس ، ولم يبق مع زهير إلا أسرته وذويه . فاضطر إلى اللحاق بهم ، ونزل بقصره فى برقة ، وأقام بها مرابطا إلى دولة عبد الملك بن مروان [1].

ولايعقل أن تؤثر حاميةالقيروان البقاء بها لكي تذبح على أيدى البربر، فالمعروف أنهم كانوا قلة ضئيلة بالقياس إلى حشود البربر الكثيفة التى كان يقودها كسيلة ، وواضح أن معظم الجنود العرب قد سئموا القتال فى غزوة عقبة ، فمالوا للعودة إلى المشرق. يضاف إلى ذلك أن فاجعة تهوذة التى لم ينج منها إلا النذر اليسير من رجال عقبة الذين بقوا معه بعد رحيل معظم عسكره إلىالقيروان (عند طبنة)،أفزعت المسلمين ، وحطمت من روحهم المعنوية ، وفتت من عزائمهم، فلم يكن هناك بدامن الانسحاب السريع ،وإلا فكيف نفسر رحيل زهير بن قيس من القيروان إلى برقة ، وانتظاره هناك لمدد يسترد به القيروان ؟. وتقدم كسيلة بعسكره بعد انتصاره فى تهوذة نحو القيروان ، فلما اقترب منها ، ولى من كان قد بقى فيها من العرب هاربين ، إذ لم يكن لهم طاقة بقتاله بعد انسحاب الجيش ، ولعظم ما اجتمع لديه من بربر وروم . ويذكر المالكى أنه لم يبق فى القيروان بعد رحيلهم إلا الشيوخ الهرم ، والنساء ، والأطفال ، وكل مثقل بالأولاد ، فأرسلوا إلى كسيلة

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٧٠ ، ٧٤ — المالكى ، ص ٢٨ — ابن عذارى ، ص ٣١ عبيد الله بن صالح ، ص ٢٢١ — السلاوى ، ص ٨٤

يسألونه الأمان ، فأجابهم إلى ذلك ، ودخل القيروان فى المحرم سنة ٦٤ هـ، وجلس فى قصر الإمارة أميرا على البربر ومن بقى فى القيروان من العرب (١).

وأسفر انسحاب الجيش العربى إلى برقة عن خروج إفريقية من أيدى العرب ، وضاعت بذلك جهود أربعين عاما قضاها المسلمون فى غزو وفتح. ولكن العرب لم يفقدوا كل شىء ، فقد تركوا بافريقية طائفة من البربر تحولت إلى الإسلام (٢). ويستنتج الدكتور حسين مؤنس من سعى صاحب قفصة لافتداء أسرى المسلمين فى تهوذة وإرسالهم إلى زهير بن قيس بالقيروان، أن العرب نجحوا فى نقل جماعات من البربر إلى الإسلام، أو أنهم أفلحوا على الأقل فى إنشاء طوائف بربرية تميل إليهم. ولذلك يشير مؤرخو العرب إلى أن استشهاد عقبة فى القيروان أحدث اضطرابا كبيرا فى إفريقية ، فابن عذارى يقول : « واضطرمت إفريقية » (٣) ، والمالكى يقول : « فانقلبت إفريقية نارا » (٤) . ولا حدال فى أن المقصود بذلك هو قيام ثورة كبيرة شملت البلاد بأسرها بعد انسحاب جيش العرب من القيروان . ويعتقد الدكتور مؤنس أنه « كان فى إفريقية فى ذلك الحين نفر عظيم لم يرضهم سقوط القيروان فى يد كسيلة ، فأثارهم ذلك ، وثارت المنازعات بينهم وبين أنصاره . ومن يكون هؤلاء الذين ثاروا تلك الثورة إلا بربرا مسلمين أو أنصارا للمسلمين؟ » (٥)

(١) المالكى ، ص ٢٨ — ابن عذارى ، ص ٣١ — السلاوى ، ص ٨٤

(٢) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٢١١

(٣) ابن عذارى ، ص ٣٠

(٤) المالكى ، ص ٢٨

(٥) حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص ٢٠٧

وإذا كان كسيلة قد نجح حربيا فى احتلال القيروان ، فانه لم يستطع أن يكسب إليه المسلمين من البربر ، فلم يلبث هؤلاء أن تنازعوا معه ، فعم الاضطراب صفوفه ، واختلت أحواله ، وسنرى بعد قليل أن هؤلاء البربر سينضمون طائعين إلى جيوش المسلمين .

ب ـ حملة زهير بن قيس واسترجاع العرب للقيروان :

عاد زهير بن قيس إلى برقة ، فأقام بها فى قصره بسرت انتظارا لمدد يبعثه إليه الخليفة الأموى لاسترداد إفريقية ، أما ضعفاء المسلمين ومن خرجوا معه من القيروان من موالى إفريقية فقد تفرقوا فى إقليم إطرابلس (١).
وكان يزيد بن معاوية قد توفى فى سنة ٦٤ هـ وخلفه ابنه معاوية الثانى الذى لم يمتد عهده أكثر من أربعين يوما ثم توفى ، وظل عرش الخلافة شاغرا زهاء ستة شهور ، قام خلالها عبد الله بن الزبير بالدعوة لنفسه فى الحجاز ، وبايعه أهل الحجاز والعراق وخراسان ومصر . وفى ذى القعدة سنة ٦٤ هـ ، انعقد مؤتمر الجابية ، وفيه تمت بيعة مروان بن الحكم . وشغل مروان منذ اعتلائه دست الخلافة بمحاربة المضرية بزعامة الضحاك بن قيس ، وكان انتصار مروان وحزبه اليمنى على المضرية فى موقعة مرج راهط ، فى المحرم سنة ٦٥ هـ ، أشبه بوقود أضرمت فيه نار ، كما كان ايذانا بهبوب ريح العصبية القبلية فى أنحاء البلاد . كذلك شغل مروان بن الحكم بمحاربة الزبيريين فى مصر والحجاز ، ونجح فى إعادة مصر إلى سلطان الخلافة الأموية ، ولكن لم يطل به العهد للقضاء على حركة الزبيرية فى الحجاز ، ومات فى رمضان سنة ٦٥ هـ قبل أن يقوم بأى عمل حاسم فى إفريقية . وخلفه ابنه عبد الملك الذى ولى

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٧٤

الخلافة الأموية والبلاد قد مزقتها العصبيات القبلية ، والفتن قد اجتاحتها من كل مكان[1] وكان زهير بن قيس وهو مقيم ببرقة منذ انسحاب العرب من القيروان، لا يكف في أثناء ذلك عن حث مروان وابنه عبد الملك من بعده على تخليص إفريقية من أيدى الروم والبربر. وعلى الرغم من كل هذه المشكلات التى صادفته منذ توليه الخلافة ، فقد عز على عبد الملك، وكان رجلا مجاهدا، قد شارك في فتوح إفريقية فى حملة معاوية بن حديج ، أن يضيع المغرب على الإسلام ضياعا نهائيا بعد سنين طويلة من جهاد واستشهاد ، فجعل مشكلة استرداد إفريقية فى مقدمة مشكلاته، وآثر أن ينظر فى استردادها قبل أن يقضى على فتنة ابن الزبير . وكان أمر المغرب يتطلب رجلا يماثل عقبة « دينا وعقلا » ، فاستشار وزراءه، فاجتمع رأيهم على تقديم زهير بن قيس البلوى، باعتباره صاحب عقبة، وأعلم الناس وأخبرهم بسيرته وتدبيره، وأولاهم بطلب دمه . ويذكر المؤرخون أنه بعث فى سنه ٦٩هـ إلى زهير وهو مقيم ببرقة يأمره بالخروج على أعنة الخيل إلى إفريقية ليستنقذ من بالقيروان من المسلمين . فكتب إليه زهير يعرفه بكثرة من اجتمع على كسيلة من البربر والروم ، وقلة من معه من الرجال والأموال[2]. ولم يبخل عبد الملك على زهير بن قيس بالمال والرجال ، ويقول المالكى أن عبد الملك أرسل « إلى أشراف العرب ليحشدوا إليه الناس من الشام، وأفرغ عليهم أموال مصر، فسارع الناس إلى الجهاد . واجتمع منهم خلق عظيم ، فأمرهم أن يلحقوا

---

(١) يعتقد الدكتور مؤنس أن زهيرا أقام بعض هذه الفترة فى مصر ، وبعضها الآخر فى برقة (فتح العرب للمغرب ، ص ٢١٧)

(٢) المالكى ، ص ٢٩ — ابن عذارى ، ص ٣١

بزهير » [١] . ووفدت جيوش العرب على زهير وهو مقيم ببرقة ، وتسرع الناس للسير معه إلى إفريقية [٢] .

خرج زهير بن قيس من برقة فى سنة ٦٩ هـ فى عسكر ضخم متجها نحو إفريقية . وبلغ كسيلة قدوم العرب إليه ، فحشد للقائهم جيشا كثيفا من البربر والروم، بالغ المؤرخون فى تقدير عدده ، فذكروا أنه كان «أضعاف ما على زهير مضاعفة» [٣] . وعلى الرغم من كثرة جيشه ، فقد أبدى تخوفا كبيرا من موقف مسلمى القيروان نحوه عند وصول جيوش العرب، وخشى أن يقع بين عدوين : عدو داخلى يتمثل فى الحزب الإسلامى الذى يتألف من مسلمى القيروان ومن يميل إليهم من البربر ، وعدو خارجى هم العرب . فدعا كسيلة أشراف البربر ، وقال لهم : « إنى رأيت أن أرحل عن هذه المدينة ، فان بها قوما من المسلمين لهم علينا عهود ، ونحن نخاف إن أخذنا القتال معهم أن يكونوا علينا ، ولكن ننزل على موضع ممس (Mamma) وهى على الماء، فان عسكرنا خلق عظيم ، فان هزمناهم إلى طرابلس قطعنا آثارهم ، فيكون لنا الغرب إلى آخر الدهر ، وإن هزمونا كان الجبل منا قريبا ، والشعراء فنتحصن بها» [٣].

ونفهم من هذا النص ، أن مدينة القيروان كانت ما تزال تضم داخل أسوارها جماعة كبيرة من المسلمين عربا وبربرا ، كما كانت تضم حزبا قويا

(١) المالكى ، ص ٣٠

(٢) ابن عذارى ، ص ٣١

٣) نفس المرجع ، ص ٣٢

(٤) المالكى ، ص ٣٠ ـ ابن الأثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٥٥ ـ ابن عذارى ، ص ٣٢

يناصر العرب ويناهض كسيلة وكان كسيلة يخشى بأسهم ويعمل لهم حسابا كبيرا .

خرج كسيلة من القيروان ، ونزل بقرية ممس ، وهو موضع يسميه البكرى ساقية ممس [1] ، ويقع جنوبى القيروان، بين القيروان والأربس (تبسا) [2] ، ويبدو أنه انتقل إلى هذا الموضع لحصانته ، ومناعة موقعه ، إذ تقع ساقية ممس هذه على مرتفع من هضبة تتصل بجبال أوراس ، كما تقع فى ذات الوقت على ماء ، وكان كسيلة ينوى – إذا دارت عليه الدائرة – أن يتحصن بالجبال . أما قوات المسلمين ، فقد نزلت فى ظاهر القيروان ، بقرية يقال لها قرشانه[3]، وأقام بجيوشه هناك ثلاثة أيام لم يدخل خلالها القيروان، حتى لا يفاجئه كسيلة بجيشه، أو لكى يتمكن من دراسة الموضع الذى ستقوم فيه المعركة القادمة . وفى اليوم الرابع زحف بكل جيوشه حتى أشرف على معسكر كسيلة بممس، واشتبك الجيشان فى قتال عنيف انتهى بهزيمة كسيلة ومصرعه ، وأمعن فرسان العرب فى طلب أتباع كسيلة من البربر والروم ، وطاردوهم فى البلاد وأتبعوهم إلى مرماجنة[4]، ثم إلى وادى ملوية بالمغرب

---

(١) البكرى ، المغرب ص ١٤٦

(٢) تعليق الأستاذ ليفى بروفنسال على نص عبيد الله بن صالح ، ص ٢١١

(٣) المالكى ، ص ٣٠ . لعلها قرية تلشانة ، وهى المعرس لمن خرج من القيروان وقدم اليها » (انظر اليعقوبى ' البلدان ' ص ٣٤٧ ، أنظر أيضا ياقوت ، معجم البلدان مجلد ٤ ' ص ٣٨٩)

(٤) مدينة صغيرة تقع بين الأربس وثامديت بالقرب من القيروان ، وكان يسكنها بربر من هوارة. (الإدريسى ص ١١٨ – ١١٩ ' ابن حوقل ' ص ٨٤ – ياقوت ' مجلد ٥ ص ١٠٩)

الأوسط . وتمكن زهير من افتتاح شقبنارية وغيرها من القلاع (١) . وتعتبر موقعة وادى ممس من المواقع الحاسمة فى تاريخ الفتح العربى للمغرب، ويعلق السلاوى عليها بقوله : « وفى هـــذه الواقعة ذل البربر ، وفنيت فرسانهم ، ورجالهم ، وخضدت شوكتهم ، واضمحل أمر الفرنجة ، فلم يعد ، وخاف البربر من زهـــير والعرب خوفا شديدا ، فلجئوا إلى القلاع والحصون ، وكسرت شوكة أوربة من بينهم ، واستقر جمهورهم بديار المغرب الأقصى ، وملكوا مدينة وليلى » (٢) .

عاد زهير إلى القيروان ، فأوطنها حينا ، نظم فيه إدارتها ، وأقام عليها كثير من أصحابه ، ولكن لسبب ما لا يمكننا تعليله قرر زهير القفول إلى برقة . ويفسر ابن عذارى والمالكى عودته بعـد انتصاره على كسيلة ، بأنه أبى المقام فى القيروان حتى لا يجرفه تيـار الدنيا وفتنتها لرفاهية العيش فيها ، وأنه ما قصد إلا الجهاد (٣) ، ولكن هذا التفسير لا يقوم على أساس قوى ، فان إفريقية كانت من أصلح الأقطار فى العالم للجهاد والمثاغرة ،وقد كانت إفريقية حتى أيام حسان بن النعمان دار حرب وجهاد، إذن فهناك سبب آخر دفع زهيراً إلى هذا الرحيل السريع . وأعتقد أن مهمة زهير انتهت باسترداد العرب للقيروان ، والثأر من كسيلة الذى ترصد لصاحبه عقبة وقتله .وكان زهير يزهد فى الإمارة . لذلك آثر العودة إلى مصر (٤).

ويتفق المؤرخون على أن زهير بن قيس لقى مصرعه فى برقة، ولكنهم

(١) المالكى ، ص ٣٠

(٢) الاستقصا ، ص ٩١

(٣) المالكى ، ص ٣٠ — ابن عذارى ، ص ٣٢

(٤) المالكى ، ص٦٠

يختلفون فى التفصيلات ، فان ابن عبد الحكم يذكر أنه أقام بمصر ، واتفق أن أغار الروم على أنطابلس (برقة) ، واستولوا عليها ، فبلغ عبد العزيز ابن مروان ذلك ، فأرسل فى طلب زهير ، وأمره بالخروج لمحاربة الروم ، غير أنه لم يجتمع لزهير من أصحابه إلا سبعون رجلا، سار بهم إلى برقة ، فلما وصل إلى درنة من طبرق باقليم أنطابلس، لقى الروم وهو فى سبعين رجلا، فتوقف حتى يتمكن من جمع بعض المسلمين فى هذه النواحى لمحاربة الروم ، ولكن الروم لم يمهلوه ، فلقيهم ، واستشهد هو وأصحابه جميعا فى سنة ٧٦ هـ. ويضيف ابن عبد الحكم أن رجلا من مذحج يقال له عطية بن يربوع كان مقيما ببلدة أملس من برية انطابلس ، استغاث بجماعة من المسلمين ، فاجتمع إليه سبعمائة رجل ، زحف بهم إلى الروم ، فقاتلهم ، وهزمهم ، فركبوا سفنهم وولوا هاربين (١) .

هذه الرواية ينفرد بها ابن عبد الحكم ، وتتضمن خلطا بين أعمال حسان ابن النعمان وأعمال زهير ، فتجعل إغارة الروم على انطابلس بعد عودة حسان بن النعمان إلى دمشق ، وتشير إلى أن زهير عاد مع حسان من إفريقية، فاستقر بمصر إلى أن أمره عبد العزيز بن مروان بالنهوض إلى الروم ، ولو أن ذلك كان صحيحا ، لكان عبد العزيز قد أمده بجيش كبير لمقاتلة الروم . ولكن زهير – وفقا لهذه الرواية – لم يجمع أكثر من سبعين رجلا ، وأنه اختلف مع عبد العزيز بن مروان ، ومضى برجاله السبعين لملاقاة الروم ، وهذا لا يمكن اعتباره إلا عملا انتحاريا من جانب زهير . ثم إن تاريخ مقتل زهير وفقا لهذه الرواية (سنة ٧٦) غير صحيح لأن هذا التاريخ يسجل عودة

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٨٢ – ٨٤

حسان بن النعمان من إفريقية إلى برقة فى معظم المصادر .

وتتفق معظم المصادر العربية : على أن زهير « رحل إلى المشرق فى خلق عظيم ، فبلغ الروم خروجه من إفريقية إلى برقة ، فأمكنهم ما يريدون ، فخرجوا إليها فى مراكب كثيرة ، وقوة عظيمة ، فأغاروا على برقة ، فأصابوا فيها سبيا كثيرا ، وقتلوا ونهبوا . ووافق ذلك قدوم عسكر زهير إلى برقة من إفريقية ، فأخبر زهير بخبرهم . فأمر عسكره بالمسير إلى الساحل طمعا فى أن يدرك سبى المسلمين فيستنقذهم . فأشرف على الروم ، وإذا هم فى خلق عظيم ، فلم يقدر على الرجوع ، وقد استغاث به المسلمون وصاحوا ، والروم يدخلونهم المراكب ، فنادى بأصحابه النزول ، فنزلوا ، وكانوا أشراف العابدين ، ورؤساء العرب المجاهدين ، أكثرهم من التابعين . فنزل الروم إليهم ، وتلقوهم بعدد عظيم ، والتحم القتال ، وتكاثرت عليهم الروم ، فقتل زهير — رضه — وأشراف من كان معه من العرب ، ومضى المسلمون إلى دمشق ، فدخلوا على عبد الملك بن مروان ، فأخبروه أن أميرهم وأشراف رجالهم قد استشهدوا . فعظم ذلك عليه ، لفضل زهير ودينه ، وكانت مصيبته مثل مصيبة عقبة قبله » (١).

ونعتقد أن هذه الرواية أقرب إلى الحقيقة، فان الروم كانوا يضمرون لزهير السوء لقضائه على حليفهم كسيلة، ومن معه من بربر أوربة البرانس، الذين كانت تربطهم بهم روابط وثيقة من الحلف ، فلما علموا برحيله من القيروان، قطعوا عليه الطريق عند برقة بحشود ضخمة ، ولم يكن مع زهير من العسكر إلا عدد قليل من أشراف العرب ، كان يزمع العودة بهم إلى مصر ، ولم يجد

---

(١) ابن عذارى ، ص ٣٣ — ورواية المالكى قريبة من رواية ابن عذارى .

زهير بدا من الالتحام معهم ، فقتل ، وقتـل معظم من كان معه من أشراف العرب . فمقتل زهير تم إذن بتدبير من الروم . وهكذا اختتم زهير بن قيس حياته شهيدا ، بعد أن قضى على مقاومة بربر أوربة البرانس . وكانت مهمة خلفه حسان بن النعمان أن يثأر أولا لمقتل زهير ، فيبادر بمهاجمة وكرهم فى قرطاجنة .

ج ـ حملة حسان بن النعمان الأولى ، وتخريب قرطاجنة :

لما استشهد زهير ببرقة اضطربت بلاد المغرب من بعده ، واضطرمت فيها نار الفتن ، وافترق أمر البربر ، وتعدد سلطانهم فى رؤسائهم ، وكان من أعظم زعماء البربر وقتئذ الكاهنة الزناتية الجراوية « صاحبة جبل أوراس » التى سنتحدث عنها بعد قليل . وانقضت بعد ذلك أربع سنوات توقف فيها الفتح لانشغال عبد الملك بن مروان بالقضاء على ثورة عبد الله بن الزبير فى الحجاز ، فقد تصادف بعـد مقتل زهير ، أن نزل الجراجمة الذين كانوا يسكنون فيما بين مدينتى بياس وبوقاس بجبل اللكام[1] بايعاز من البيزنطيين ،

(١) هى سلسلة الجبال الممتدة من أنطاكية شمالا ، وهى تعرف اليـوم بجبال العلويين (عجاج نويهض ، لجم والمردة ، بيروت ١٩٦٢ ص ١٧) . والجراجمة على حد قول الأستاذ عجاج نويهض ، لعلهم بقية من الحيثيين بقوا فى هذه المنطقة الجبلية بعـد اندثار دولتهم ، وكانوا على النصرانية كالمردة فى شرقي الأناضول ، وتربطهم بالروم روابط وثيقة . وقد ظل الجراجمة بعد فتح العرب لبلاد الشام يتجسسون حينا للعرب على الروم وأحيانا لبيزنطة على العرب ، فلما قدم المردة إلى الجراجمة ، ألفوا عصابات كانت تسرح على الجبال من اللـكام الى لبنـان ففلسطين ، وكانوا يستغلون فترات الفتن فى الدولة العربية فيغيرون على الشام (نفس المرجع ص ١٧ ، ١٨) . ويجعل الدكتور فيليب حتى من المردة والجراجمة شعبا واحدا ، ويذكر أنهم كانوا شوكة فى جانب الدولة العربية يمدون الروم من معاقلهم فى جبل =

على لبنان (١) فى سنة ٧٠ ﻫ ، فى الوقت الذى خرج فيه عبد الملك بن مروان لمحاربة زفر بن الحارث الكلابى بقرقيسياء وبلاد الرحبة يبغى استنزاله ، بعد أن استخلف على دمشق عمرو بن سعيد بن العاص . فاستغل عمرو فرصة غياب عبد الملك ودعا الناس إلى بيعته بدمشق وتحصن داخل أسوارها ، فاضطر عبد الملك إلى الرجوع ، وحاصر دمشق ، ودخلها . وقتل عمرا (٢). ثم شغل عبد الملك بعد ذلك باجلاء الجراجمة من لبنان والشام ، وخرج فى سنة ٧٢ ﻫ لمحاربة مصعب بن الزبير ، واصطدم مع جيش مصعب فى دير الجاثليق، فى ١٥ جمادى الأولى من تلك السنة ، وانتهت الموقعة بمقتل مصعب، وهزيمة جيشه (٣) . وعهد عبد الملك وهو فى الكوفة إلى الحجاج بن يوسف الثقفى بالتوجه إلى مكة على رأس جيش كبير لمحاربة ابن الزبير، وعاد هو إلى دمشق ونجح الحجاج فى دخول مكة، وقتل ابن الزبير فى ٢٧ جمادى الآخرة سنة ٧٣ ﻫ .

وكان عبد الملك يعتقد أن إفريقية لا يمكن أن تفتح فتحا منظما ثابتا إلا إذا أعد لذلك جيشا ضخما مسلحا بكل أنواع الأسلحة والمعدات ، ولم يكن ذلك مهيئا له وهو يحارب فى جبهات متعددة ، فلما انتهى من القضاء على عبد الله بن الزبير ، أخذ يتفرغ لشؤون المغرب . ويذكر المالكى أنه جهز

= اللكام وطوروس بالرجال والجنود غير النظاميين . ويذكر أيضا أن هؤلاء الجراجمة سببوا للدولة الأموية متاعب كثيرة (أنظر تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج ٢ ترجمة كمال اليازجى ، بيروت ١٩٥٩ ص ٥٢-٥٤ ، لبنان في التاريخ ، ترجمة الدكتور أنيس فريحه ، بيروت ١٩٥٩ ص ٢٩٨-٢٩٩)

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان ، قسم ١ ص ١٩٠

(٢) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ١١٢

(٣) نفس المرجع ، ص ١١٧

لهذا الغرض جيشا عدته ستة آلاف مقاتل[1]، وجعل على قيادة هذا الجيش قائداً قديراً هو حسان بن النعمان الغسانى. وقد اختلف المؤرخون فى تحديد تاريخ سير هذه الحملة إلى إفريقية ، فابن عبد الحكم يحدد لها سنة ٧٣ هـ[2] ، وابن الأثير يحدد لها عام ٧٤ هـ[3]، ويؤيده فى ذلك ابن خلدون[4]. أما ابن عذارى ، فقد حدد لهذه الحملة سنة ٧٨ هـ[5] . ويرجع سبب هذا الاختلاف، إلى أن المؤرخين العرب يخلطون بين تاريخى حملتين قام بها حسان ، الأولى سنة ٧٤ هـ ، والثانية سنة ٧٨ هـ .

لما اختار عبدالملك بن مروان حسان بن النعمان قائدا على جيوش إفريقية، أمره بالإقامة مع عسكره بادىء ذى بدء فى مصر . فأقام بها بعض الوقت حتى انتهى عبد الملك من مشكلة ابن الزبير ، فكتب إليه يأمره بالسير إلى إفريقية ، وقال له : « إنى قد أطلقت يدك فى أموال مصر ، فاعط من معك ومن ورد عليك ،واعط الناس، واخرج إلى بلاد إفريقية على بركة الله وعونه »[6] . فخرج حسان إلى إفريقية فى جيش هائل لم يسبق أن دخل المسلمون قطر إفريقية بمثل هذا العدد من عسكر حسان . وفى إفريقية انضم إلى هذا الجيش الكثيف عدد آخر من المسلمين البربر يقودهم هلال بن ثروان اللواتى ، تضخم بهم جيش حسان . وكان حسان يهدف قبل كل شىء إلى

---

(١) المالكى ، ص ٣٤

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٧٦

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ١٧٩

(٤) ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ٨٧

(٥) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٣٤

(٦) ابن عذارى ، ص ٣٤

محاربة الروم فى عاصمتهم قرطاجنة ، ويذكر ابن عذارى أنه لما وصل إلى القيروان سأل أهل إفريقية : « من أعظم الملوك بها قدراً ؟ فقالوا: صاحب قرطاجنة ، دار ملك إفريقية » . فسار حسان حتى نزل بالقرب منها . ويذكر المالكي أنه نزل فى ترشيش على شاطىء البحر [1] ، وترشيش هو الموضع القديم لمدينة تونس ، ولما افتتحها المسلمون ، وأحدثوا البناء بها سموها تونس [2] . وكان بقرطاجنة من الروم عدد كبير لا يحصى كثرة ، ونجح حسان فى إيقاع الهزيمة بهم ، وحاصر قرطاجنة حصاراشديدا من البر، ويبدو أيضا أنه أحكم حصارها من البحرحتى يمنع عنهاالإمدادات، حتى افتتحها ، وفر معظم من كان بها من الروم فى مراكبهم إلى صقلية والأندلس ، وتعرض من بقى منهم فيها لسيوف المسلمين . ولاحظ حسان أن هذه المدينة أصبحت تشكل خطرا دائما على الفتح العربى لإفريقية، فرأى ضرورة تهديمها ، فأمر بتخريب عمرانها ، فخرب حتى صارت كأمس الغابر ، [3] وقطع القناة عنها [4] .

وعلم حسان بعد ذلك أن الروم جمعوا شتاتهم ، وانضمت إليهم جماعات من البربر الموالين لهم ، احتشدت حشودهم فى بلاد صطفورة [5] ، فزحف إليهم بكامل جيشه، واشتبك معهم فى قتال عنيف ، انتصر فيه عليهم انتصارا

(١) المالكى ، ص ٣١

(٢) الإدريسى ، ص ١١١

(٣) ابن عذارى ، ص ٣٥

(٤) المالكى ، ص ٣٢

(٥) ذكر الإدريسى أن اقليم سطفورة يتصل بأرض قرطاجنه من جهة الغرب ، وهو اقليم جليل ، به ثلاث مدائن هى بالترتيب من الشرق الى الغرب : اشلونة وتينجة وبنزرت (الإدريسى ص ١١٤)

حاسما ، وسحق قواتهم سحقا ، وأذرع فيهم فاستأصلهم ، « ثم حمل عليهم أعنة خيله ، فما ترك من بلادهم موضعا إلا وطئه » ، ولجأ الروم هاربين خائفين إلى مدينة باجة ، فتحصنوا بها، وهرب البربر إلى إقليم بونة [1] ، ثم عاد حسان بعد ذلك إلى القيروان .

وأقام حسان بالقيروان بعض الوقت حتى برئت جـــراح أصحابه ، فتأهب لمواجهة المشكلة الثانية ، وهى مشكلة بربر البتر الذين اجتمعوا حول زعيمة لهم تعرف بالكاهنة . ويقال لها داهية بنت ماتية بن تيغان ملكة جبل أوراس ، وقد سأل حسان جماعة مسلمى البربر عنها فذكروا له « أن جميع من بافريقية منهـا خائفون ، وجميع البربر لها مطيعون ، فان قتلتها دان لك المغرب كله ، ولم يبق لك مضاد ولا معاند »[2]. ولم يتردد حسان فى السير نحو حشود الكاهنة ، فلما علمت بذلك سبقته إلى مدينة باغاية ، فأجلت عنها الروم ، وهدمتها ظنا منها أن حسان يريد الاستيلاء عليها والتحصن فيهـا ، أما حسان فنزل بوادى مسكيانة [3] المعروف بوادى العـذارى . وزحفت الكاهنة حتى دنت من معسكر المسلمين ، والتقى الجيشان على الأرجح فى سنة ٧٥ هـ فى قتال شديد أسفر عن هزيمة جيش حسان ، وأسر من أصحابه

---

(١) المالكى ، ص ٣٢ — ابن الأثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ١٨٠ — ابن عذارى ص ٣٥ — السلاوى ، ص ٩٢

(٢) المالكى ، ص ٣٢ — ابن عذارى ، ص ٣٥

(٣) يسميه ابن عبد الحكم بنهر البلاء (ص ٧٦) ، ويسميه ابن الأثير نهر نينى أسد الغابة ، ج ٤ ص ١٤٤)، ويسميه عبيد الله بن صالح وادى ترضى (نص عبيد الله ص ٢٢٢) . ويذكر البكرى أن قرية مسكيانة تقع على نهر قريبا من باغاية (البكرى، ص٥٠) . ويذكر الإدريسى أن هذه القرية عامرة قديمة أزلية وبها زروع ومكاسب وعيون ، أنها تقع بين سبيبة وباغاية (الإدريسى ، ص ١١٩)

ثمانين رجلا . فتراجعت فلول جيشه فى منطقة الجــــريد ، وأتبعتها حشود الكاهنة حتى تجاوز فل المسلمين بقيادة حسان مدينة قابس منسحبا إلى برقه . وهكذا تراجع جيش حسان إلى برقة ولكن بعد أن استخلف على إفريقية رجلا يسمى أبو صالح [١] . أما الكاهنة ، فلم تتعرض للقيروان بسوء، ولم تدخلها ، وإنما عادت إلى جبـل أوراس . وعملت الكاهنة على القضاء على مظاهر العمران بافريقية اعتقادامنها بأن العرب إنما يسعون وراء العمران حيث الذهب والفضة ، فوجهت قومها إلى كل ناحية من بلاد إفريقية والمغـرب ينتسفون المزارع ويهدمون الحصون ، فبعد أن كانت إفريقية ظلا واحـدا من إطرابلس إلى طنجة قرى متصلة ، ومـدنا منتظمة ، تلاشى ذلك كله ، وشمل الخراب سائر هذه البـلاد [٢] . إلا أن ذلك التدمير والتخريب أضر بالكاهنة ضرراً بالغا، فقد انفض عنها معظم أنصارها من النصارى والأفارقة، واتصل عدد كبير منهم بحسان يستنجدون به من الكاهنة. وكان البيزنطيون بعد سقوط قرطاجنة فى أيدى المسلمون ، ينتظرون فرصة مواتية يستردون بها هذه المدينة ، فانتهز الامبراطور ليونتيوس فرصـة انتصار الكاهنة على العرب ، وأعد حملة بحرية بقيادة البطريق يوحنا ، أغارت على قرطاجنة فى سنة ٧٨ هـ ، وقتل البيزنطيون من بها من المسلمين، وسلبوا ونهبوا ماوصلت إليه أيديهم [٣] .

وكانت الكاهنة قد أسرت بعد انتصارها على المسلمين فى وادى مسكيانة

---

(١) ابن عبد الحـكم ، ص ٧٦

(٢) ابن عذارى ، ص ٣٦

(٣) البـكرى ، ص ٣٨ — Ch. Diehl & Marcais, Histoire du moyen âge, t. III, p. 207

نحو ثمانين رجلا من أشراف العرب ، أفرجت عنهم بعد انسحاب حسان من إفريقية، واستثنت منهم رجلا واحدا هو خالد بن يزيد العبسي، أعجبت بشجاعته ووسامته ، فرغبت فى أن تتبناه ، وكان لها ولدان : أحدهما بربرى والآخر يونانى ، «فعمدت إلى دقيق الشعير فلتته بزيت ، وجعلته على ثديها، ودعت ولديها وقالت : كلا معه على ثديى ، ففعلا ، فقالت ، قد صرتم أخوة » (١) .

د ـ حملة حسان الثانية:

أقام حسان ببرقة منتظرا للامدادات التى وعده الخليفة عبد الملك بارسالها إليه لاسترداد إفريقية ، فأسس هنــاك قصورا ، كانت تعرف فى أيام ابن عذارى باسم قصور حسان (٢) ، وكانت انطابلس ولوبية ومراقية إلى حد أجدابية من عمله (٣) . وكان حسان على اتصال دائم بخالد بن يزيد، فكانت الكتب تتردد بينهما سرا، إذ كانا يحرصان على إخفائها عن الكاهنة أو رجالها، إما فى شقق الخبز أو فى القرابيس ، ولا شك أن حسان أفاد من الأخبار التى زوده بها خالد بن يزيد عن طريق كتبه إليه ، فى معرفة أحوال الكاهنة ، وخططها فى الحرب. وكان حسان أثناء إقامته ببرقة ، يلح على عبد الملك بأن يمده بجيش كبير ليستعيد به إفريقية ، ويحتفظ المسلمون بها نهائيا ، ولكن عبد الملك رأى ألا يغامر من جديد فى المغرب حتى ينتهى تماما من القضاء على ثورات البربر والأزارقة والصفرية ، وكان قد سخر لهذا الغـــرض كل إمكاناته ، ونجح واليـه الحجاج بن يوسف فى القضــاء أولا على الأزارقة

(١) المالكى ، ص ٣٤ ـ ابن عذارى ، ص ٣٧

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٧٦ ـ ابن عذارى ، ص ٣٦

(٣) ابن عبد الحكم ، نفس الصفحة

سنة ٧٧ هـ ، ثم تمكن اخيراً ، وبعد معارك طاحنة ، خاضها مع الخوارج من القضاء على الصفرية فى حدود سنة ٧٨ هـ . وبذلك أخذ عبد الملك يتفرغ من جديد لشؤون المغرب . ويذكر المالكى أن حسان اقام ببرقة زهاء ثلاث سنين (١) ، إلى أن وصلته الإمدادات التى بعثها إليه عبد الملك ، بينما يذكر ابن عذارى أنه أقام بها خمس بسنين (٢) . وأغلب الظن أن عبد الملك أمده فى سنة ٨٠ هـ ، أى بعد مضى خمس سنوات على انسحاب الجيش العربى من إفريقية ، بجيش ضخم للغاية ، عدته أربعون ألف مقاتل (٣)، لم تشهد إفريقية جيشا يماثله ضخامة وعدداً . وأعتقد أن المؤرخين اختلط عليهم أمر هذه الحملة، فنسبوا هذا العدد الضخم إلى الحملة الأولى التى قادها حسان ضد الروم. ولو افترضنا أن حملة حسان الأولى كانت تضم أربعين ألفا ، لما كان من المعقول أن ينهزم هذا الجيش على أيدى رجال الكاهنة . ولو لم يكن جيش حسان الثانى بمثل هذا القدر العظيم لما تنبأت الكاهنة بزوال ملكها ومقتلها بيد حسان مقدما (٤) . ولا شك أن ضخامة هذا الجيش كان نتيجة انضمام البربر إلى العرب فى محاربة الكاهنة، فان ابن عذارى يذكر « أنه كان مع حسان جماعة من البربر استأمنوا إليه ، فلم يقبل أمانهم إلا أن يعطوه من

---

(١) المالكى ، ص ٣٣

(٢) ابن عذارى ، ص ٣٦

(٣) نفس المرجع ، ص ٣٤

(٤) ذكر ابن عبد الحكم ، أنه لما أقبل حسان من برقة لغزو الكاهنة ، خرجت ناشرة شعرها ، فقالت : يابنى أنظروا ماذا ترون فى السماء ؟ قالوا نرى شيئا من سحاب أحمر ، قالت لا والهى ولكنها رهج خيل العرب » (ابن عبد الحكم ، ٧٨ — وقد ذكر المالكى ذلك أيضا ص ٣٤)

قبائلهم اثنى عشر ألفا يجاهدون مع العرب ، فأجابوه وأسلموا على يديه»[١]، وذكر المالكي إنه كان مع حسان جماعة من البربر يقال لهم البتر [٢] .

ما كادت الكاهنة تعلم بقرب وصول حسان بجيشه إلى إفريقية حتى رحلت من جبل أوراس، بعد أن أوصت خالد بن يزيد بأن يصحب ولديها، ويستأمن لها عنـد حسان ، فأمنها ، أما هي فقررت أن تقاتل حتى الموت . وزحف حسان بكامل قواته لمقاتلة الكاهنة، فلما وصل قريبا من قابس «لقيته الكاهنة في جيوش عظيمه، فقاتلهم حسان ، فهزمهم الله عز وجل ، وهربت الكاهنة تريد قلعـة بشر ، تتحصن بها ، فأصبحت القلعة لاصقة بالأرض ، فهربت تريد جبل أوراس ، ومعها صنم عظيم من خشب كانت تعبده ، يحمل بين يديها على جمـل، فتبعها حسان حتى قرب من موضعها [٣] . وما زال حسان يطاردها حتى التقى بجيشها في سنة ٨٢ هـ عنـــد بئر الكاهنـة (٤) . فهزمها هزيمة شنعاء ، وسحق جيشها ، وقتلهـا ، وبذلك قضى حسان على كل أثر للمقاومة في المغرب الأدنى ، واستقامت له البلاد . فاتجه إلى قرطاجنة للمرة الثانية لتطهيرها من البيزنطيين ، فاضطر هؤلاء إلى الفرار بحرا (٥) ، واسترد حسان المدينة [٦]، ولكنه كان يخشى أن يفاجأه الروم من البحر مرة أخرى،

(١) ابن عذارى ، ص ٣٨ — المالكى ، ص ٣٦

(٢) المالكى ، ص ٣٥

(٣) المالكى ، ص ٣٥

(٤) عبيد الله بن صالح ، ص ٢٢٣

(٥) ذكر البكرى أن أهلها كانت عندهم سفن معدة من ناحية باب النساء فحملوا فيها أموالهم وأولادهم وهربوا ليلا، ولم يبق فيها غـــير مرناق صاحبها (البكرى ، المغرب ، ص ٣٧ — أنظر أيضا المالكى ، ص ٣٧)

(٦) Ch. Diehl, op. cit p. 207 — حسين مؤنس ، ص ٢٦٠

فرأى أن يقيم تجاه قرطاجنة مدينةعربية إسلامية ، تقععلى البحر ، وتشرف على مدخل قرطاجنة، فبنى تونس على بعد نحو ١٢ ميلا شرقى قرطاجنة ، وكان يصلها بها طريق رومانى قديم . وتونس هذه هى ترشيش القـديمة ، ولم تكن تزيد عند بنائها عن قرية صغيرة ، فحولها حسان إلى قاعدة بحرية تقلع منها الأساطيل ، وأنشأ بها داراً لصناعة الأسطول (١) ، وأخرق إليها البحر ، وحفره إليها ، وبذلك أصبحت ميناء بحريا هاما ، وشيد فيها مسجدا جامعا (٢) وداراً للامارة وثكنات للجند للمرابطة. وقدر لهذهالمدينة الصغيرة أو المحرس البحرى أن تصبح أعظم ثغور إفريقية بعد ذلك بثلاثين عاما ، على يدى عبيد الله بن الحبحاب ، فقد نمت واتسع عمرانها ، وأقبل إليها الناس يستوطنونها ، وأقيم فيها مسجد جامع ، هو الجامع المعروف بالزيتونة ، وقد سمى كذلك نسبة إلى القديسة زيتونة التى عاشت فى زمن الوندال . كذلك أمر حسان بتجديد المسجد الجامع بالقيروان ، فبناه بناء حسنا، وجدده فىشهر رمضان سنة ٨٤ هـ (٣) . وذكر البكرى ، أنه هدم المسجد الذى بناه عقبة « حاشى المحراب ، وبناه ، وحمل إليـه الساريتين الحمراوين الموشاتين بصفرة ، اللتين لم ير الراءون مثلهما ، من كنيسة كانت للأول فى الموضع المعروف اليوم بالقيسارية بسوق المغرب » (٤) .

---

(١) المالـكى ، ص ٣٨ . أرسل عبد العـزيز بن مروان الى حسان ألف قبطى بأهله وولده الى ترشيش وأمره بأن يبنى لهم دار صناعة يصنع فيها المراكب ويجاهد الروم فى البر والبحر ، وأن يغـار منها على ساحل الروم فيشغلهم ذلك عن مهاجة القيروان (البـكرى ، ص ٣٨)

(٢) المالـكى ، ص ٣٧

(٣) نفس المرجع ، ص ٣٧

(٤) البـكرى ، ص ٢٢

وبعد أن فرغ حسان من استرداد إفريقية ، والقضاء على مقاومة البربر والروم ، أخذ يوجه عنايته لتنظيم البلاد إداريا على نحو ما فعله العرب فى مصر والشام والعراق وفارس ، فدون الدواوين ، ونظم الخراج ،«وكتبه على عجم إفريقية ، وعلى من أقام معهم على دين النصرانية » (١) . ثم بعث عماله على سائر بلاد المغرب ، وعمل على نشر الدين الاسلامى بين البربر ، فوزع الفقهاء إلى سائر أنحاء البلاد لتعليم البربر قواعد الدين ، ونشر اللغة العربية لغة القرآن ، فأقبل البربر على الإسلام فى حماس منقطع النظير ،وحسن إسلامهم (٢) ، فجند حسان منهم أجناده حتى أصبح أكثر جيشه من البربر ، ووزع بينهم الخطط على نحو ما كان يفعله قواد الفتوحات فى مصر على الفاتحين العرب ، وكان حسان يقسم الفىء والأرض بينهم (٣) .

وهكذا فتح حسان بلاد المغرب حربيا ومعنويا فى آن واحد ، واستطاع أن يحول إفريقية قلبا وقالبا إلى ولاية عربية إسلامية ، مستقلة نوعا ما عن والى مصر . ويبدو أن نزاعا حدث بينه وبين عبد العزيز بن مروان ، والى مصر من قبل أخيه عبدالملك بن مروان ، بسبب ذلك . فأخذ عبدالعزيز يضيق عليه ، ويحد من سلطاته ، ويكف يده عن إتمام ما شرع فيه من إصلاحات ، ثم عزله عن ولاية إفريقية فى سنة ٨٥ هـ . ويرجع سبب هذا النزاع إلى رغبة عبدالعزيز فى الاستئثار بغنائم المغرب لنفسه ، وذلك باستعمال أحد أتباعه بدلا من حسان ، وقد حاول حسان أن يتجنب الاحتكاك

---

(١) ابن عذارى ، ص ٣٨

(٢) ابن عذارى ، ص ٣٨ ـ السلاوى ، ص ٩٤

(٣) المالكى ، ٣٦

بعبد العزيز ، فلما شرع حسان فى تأسيس مدينة تونس ، اتصل بعبد الملك ابن مروان مباشرة يطلب منه أن يزوده بجماعة من الأقباط ليستخدمهم فى تأسيس دار للصناعة ، فكتب عبد الملك إلى أخيه عبد العزيز يأمره أن يوجه إلى معسكر تونس ألف قبطى بأهله وولده وأن يحملهم من مصر ، ويحسن عونهم حتى يصلوا إلى ترشيش ، وهى تونس .

هـ ــ موسى بن نصير واستكمال فتح المغرب :

عاد حسان إلى مصر يجر وراءه ماغنمه فى فتوحاته وغزواته ، وكان قد أخفى الجوهر والذهب والفضة فى قرب الماء ، وأظهر ما سوى ذلك من أمتعة ودواب ورقيق وأموال ، فصادرها عبد العزيز بن مروان فى مصر. فلما وصل حسان إلى دمشق، شكا للخليفة ماصنع به عبد العزيز ، وأفرغ له ما كان قد أخفاه عن عبد العزيز من جوهر ، فغضب الخليفة على عبدالعزيز وأبدى استعداداً لرد حسان إلى عمله على إفريقيــة ، فأبى حسان منه ذلك ، وأقسم قائلا : « لا أولى لبنى أمية أبداً [١] ».

وكان عبد العزيز بن مروان قد ولى موسى بن نصير على إفريقية بدلا من حسان ، وذلك فى أواخر سنة ٨٥ هـ ، وكان موسى بن نصير عامــــلا لعبد الملك بن مروان على العراق مع بشر بن مروان أخى الخليفة ليكون له وزيراً ومشيراً ، وكان موسى هو المـأخوذ بكل خلل وتقصير فى ديوان العراق . ثم أخذ عليه عبد الملك عدة مآخذ ، وكتب إليه الحجاج من

(١) ابن عذارى، ص ٣٩ . لاشك أن ابن عـــذارى أخطأ فى اسم الخليفة، فذكر الوليد بدلا من عبـــد الملك، ولـكن من المعروف أن عبد الملك توفى فى أول سنة ٨٦ هـ ، أى أن حسان عزل من افريقية قبل وفاة عبد الملك بما يقرب من ستة أشهر

العراق يقول : « يا أمير المؤمنين ، إنه لاقدر لما اقتطعه موسى بن نصير من أموال العراق ، وليس بالعراق فابعث به إلى » [١] . فتوجه موسى إلى بلاط الخليفة بدمشق ، وتصادف وجود عبد العزيز بن مروان ، الذى وفد إلى دمشق ومعه أموال مصر ، وكانت لموسى يد عظيمة عند عبد العزيز بن مروان ، فأدخله على عبد الملك . وذكر بعض المؤرخين أن عبد الملك أراد قتل موسى،[٢] فافتداه منه عبد العزيز بن مروان بمال [٣] . وقيل أن عبد الملك أغرم موسى مائة ألف دينار ، فأعانه عبد العزيز بخمسين ألفا ، أدى هو خمسين ألفا فى ثلاثة أشهر [٤] . وعاد موسى مع الأمير عبد العزيز إلى مصر ، فولاه منها إفريقية [٥] ، وأمده بجيش سار به إلى المغرب . ولما علم عبد الملك بتولية موسى بن نصير على المغرب ، استاء استياء كبيراً ، وأنكر على عبد العزيز ذلك ، وهم بعزل موسى ، لسوء رأيه فيه ، ثم رأى ألا ينقص ما فعله أخوه عبد العزيز ، فأقره على ولاية إفريقية مرغما ، وأوصى أخاه بحسان خيرا [٦] .

فلما قدم موسى بن نصير إلى إفريقية ، وشاهد جبالها ، جمع المسلمين ، وخطب فيهم خطبة جاء فيها : « أيها الناس ، إنما كان قبلي على إفريقية

---

(١) ابن قتيبة الدينورى ، كتاب الامامة والسياسة ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٣٧، ص ٦٢، ٦٣

(٢) نفس المرجع ، ص ٦٣

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٨٤

(٤) ابن قتيبة ، ص ٦٤ — ابن عذارى ص ٤٠

(٥) ابن عبد الحكم ص ٨٤ — ابن عذارى ، ص ٣٩

(٦) ابن قتيبة ، ص ٦٨

أحد رجلين : مسالم يحب العافية ، ويرضى بالدون من العطية ، ويكره أن يكلم ، ويحب أن يسلم ، أو رجل ضعيف العقيـدة ، قليل المعرفة ، راض بالهوينى ، وليس أخو الحرب إلا من اكتحل السهر، وأحسن النظر، وخاض الغمر ، وسمت به همته ، ولم يرض بالدون من المغنم لينجو ، ويسلم دون أن يكلم ، أو يكلم ويبلغ النفس عذرها فى غير حزق يريده ، ولا عنف يقاسيه ، متوكلا فى حزمه ، جازما فى عزمه ، مستزيدا فى علمه ، مستشيراً لأهل الرأى فى إحكام رأيه ، متحنكا بتجاربه ، ليس بالمتجابن إقحـاما ، ولا بالمتخاذل إحجاما ، إن ظفر لم يزده الظفر إلا حــــذراً ، وإن نكب، أظهر جلادة وصبراً ، راجيا من الله حسن العاقبة ، فذكر بهـا المؤمنين ، ورجاهم إياها لقول الله تعالى « إن العاقبة للمتقين » ، أى الحذرين . وبعد : فان كل من كان قبلى كان يعمد إلى العدو الأقصى ، ويترك عدواً منه أدنى ، ينتهز منه الفرصة ، ويدل منه على العورة ، ويكون عونا عليه عند النكبة ، وايم الله لا أريم هذه القلاع ، والجبال الممتنعة حتى يضع الله أرفعها ، ويذل أمنعها ، ويفتحها على المسلمين بعضها أوجمعها، أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين[1] » .

ومن هذه الخطبة ندرك السياسة الجديدة التى اصطنعها موسى بن نصير فى فتح المغرب ، وهى سياسة تتضمن عزما أكيداً على فتح المغرب بالسيف والعنف مع اصطناع الحذر ، والبدء بالعدو القريب قبل البعيد ، وعلى هـذا الأساس نراه يبدأ بفتح قلعة زغوان وما يجاورها فى أواخر سنـة ٨٥ هـ ، وهى منطقة جبلية تقع ما بين القيروان وتونس [2] ، وكان يسكن زغوان

(١) ابن قتيبة ، ص ٦٦

(٢) الإدريسى ، ص ١١٩

قوم من البربر ، يتزعمهم أمير يقال له ورقطان ، وكانوا يشكلون خطرا على القيروان ، إذ كانوا يغيرون على سرح المسلمين ويرصدون غرتهم ، فوجه إليهم موسى خمسمائة فارس بقيادة عبد الملك الخشيني ، فهزمهم وقتل أميرهم وافتتح قلعتهم ، فبلغ سبيهم يومئذ عشرة آلاف رأس ، وكان أول سبي دخل القيروان فى ولاية موسى (١) .

ثم بعث ابنه عبد الرحمن . وقيل عبد الله ، إلى بعض نواحى القيروان ، فسبي مائة ألف رأس ، ثم وجه ابنه مروان إلى منطقة أخرى من إفريقية ، فسبي مثل ذلك ، فبلغ الخمس يومئذ ستين ألف رأس من السبي ، وبادر بالكتابة من فوره إلى عبد العزيز بن مروان يبشره بأول فتحه ، ويخبره بما وصل إليه الخمس من السبي ، فأعجب عبد العزيز بذلك ، وكتب إلى الخليفة بما ظفر به موسى ، حتى يغير رأيه فيه .

وكانت الخطوة التالية فى فتوحات موسى أن بعث قائده عياش بن أخيل إلى قبائل هوارة وزناتة (٢)، فأغار عليهم ، وقتل منهم جماعات كثيرة ، وبلغ سبيهم خمسة آلاف رأس ، وكان من بين من أسره منهم أميرهم كمامون ، فبعث به موسى إلى عبد العزيز بن مروان فى وجوه الأسرى ، فقتله عبد العزيز ولقد أرغمهم عياش بن أخيل على الصلح ، وقدم على موسى

---

(١) ابن قتيبة ، ص ٦٧ — ابن عذارى ، ص ٤٠

(٢) زناتة قبيلة من بربر البتر كانت عشائرها تنزل فى اقليم المغرب الأوسط والاقليم الصحراوى الممتد جنوبى تونس ، وعلى سفوح أوراس والهضاب العليا . أما كتامة من البرانس ، فكانت تنزل فى سهول الجزائر . وقبيلة هوارة بطن من البرانس ، كان منها من ينزل في المنطقة المجاورة لطرابلس ، ومنها من ينزل في نواحى وهران .

بوجوههم رهائن عنده ، أما كتامة ، فقد صالحت موسى ، فولى عليها رجلا منهم بعد أن قدموا إليه رهائن من خيارهم [١] . وكان موسى يبعث عيونه إلى القبائل ليتجسس عليها ، ويستقصى أحوالها ، ويذكر ابن قتيبة أن عيونه أبلغوه أن صنهاجة «بغرة منهم وغفلة، وأن إبلهم تنتج ولا يستطيعون براحا ، فأغار عليهم موسى بأربعة آلاف من أهل الديوان ، وألفين من المتطوعة من قبائل البربر ، وخلف عياشا على أثقال المسلمين وعيالهم بطبية فى ألفى فارس ، وعلى مقدمة موسى عياض بن عقبة ، وعلى ميمنته المغيرة ابن أبي بردة ، وعلى ميسرته زرعة بن أبى مدرك ، فسار موسى حتى غشى صنهاجة ومن كان معها من قبائل البربر وهم لا يشعرون ، فقتلهم قتل الفناء ، فبلغ سبيهم يومئذ مائة ألف رأس، ومن الإبل والبقر والغنم والخيل والحرث والثياب ما لا يحصى ، ثم انصرف قافلا إلى القيروان »[٢] .

ثم أعاد موسى الكرة مرة ثانية على صنهاجة ، فغزا سجومة ، من المغرب الأوسط . وتفصيل هذه الغزوة أنه خرج من القيروان ، بعد أن استخلف عليها ولده عبد الله ، على رأس عشرة آلاف من المسلمين ، جعل على المقدمة عياض بن عقبة بن نافع ، وعلى الميمنة زرعة بن أبي مدرك ، وعلى الميسرة المغيرة بن أبي بردة القرشي ، وعلى ساقة الجيش نجدة بن مقسم ؛ فزحف موسى بكل جيشه غربا حتى وصل إلى نهر ملوية ، وهناك اصطدم مع ملكهم، فقتله وسبى ذراريهم ، وحمل من مدينة سجومة بنات كسيلة [٣] ، ثم بعث

---

(١) ابن قتيبة ، ص ٧٠ — ابن عذارى ، ص ٤١

(٢) ابن قتيبة ، ص ٧٠

(٣) عبيد الله بن صلح ، ص ٢٢٤

موسى إلى عياض وعثمان وعبيدة، بنى عقبة ، وأذن لهم بالتشفى من قتلة أبيهم عقبة ، فقتل منهم عياض ستمائة رجل من خيارهم ، وكان يود قتل المزيد لولا أن أمره موسى بالتوقف عن ذلك [١] . ثم عاد إلى القيروان ، بعد أن دانت له بلاد المغرب الأوسط .

ثم غزا موسى فى البحر فى آخر سنة ٨٥ هـ ، الغزوة المعروفة بالأشراف، وصل فيها إلى صقلية ، وعاد بغنائم كثيرة [٢] فى أوائل سنة ٨٦ هـ ، فبلغه وفاة عبد العزيز بن مروان فى جمادى الآخرة سنة ٨٥ هـ ، ووفاة عبد الملك ابن مروان فى أول سنة ٨٦ هـ ، فبعث موسى ببيعته إلى الوليد ، فكتب الوليد إلى موسى بن نصير يقر له بولاية إفريقية والمغرب .

وفى سنة ٨٦ هـ ، عقد موسى لعياش بن أخيل على المراكب ، فشتا فى البحر ، وأصاب سرقوسة ، كما أصاب عبد الله بن مرة سردانية ، وافتتح مدائنها فى نفس السنة (٣) . وكان المغرب قد فتح معظمه، ولم يبق منه سوى المغرب الأقصى ، فخرج موسى غازيا من إفريقية إلى طنجة ، فوجد البربر قد فروا إلى أقصى الغرب خوفا من بطش العرب بهم ، فتبعهم موسى على جيش مؤلف من وجوه العرب ومن اتصف من البربر بالقوة والجلد ، فقتل منهم باقليم مورطانية عددا كبيرا ، وسبى منهم سبيا كثيرا [٤] . ومازال يفتتح قلاع البربر ومعاقلهم حتى بلغ السوس الأدنى ، وهو بلاد درعة (٥) ، وأرسل

---

(١) ابن قتيبة ، ص ٧٢

(٢) نفس المرجع ص ٧٥

(٣) نفس المرجع — ابن عذارى ، ص ٤٢

(٤) ابن عذارى ، ص ٤٢

(٥) نفس المرجع

ابنه مروان إلى السوس الأقصى فى سنه ٨٧هـ. وكان ملك البربر فى ذلك الحين رجلا يعرف باسم مزدانة الأسوارى، فاشتبك جيش مروان مع جيش البربر فى قتال عنيف أسفر عن هزيمة أهل السوس هزيمة نكراء ، وبلغ سبيهم فى هذه الغزوة أربعين ألفا (١) .

وأحدثت غزوات موسى هزة كبرى بين قبائل البربر ، وسببت لهم الذعر والهلع ، فأخذوا يستأمنون العرب على أنفسهم ، ويستسلمون لهم ، وتسابقوا فى إعلان خضوعهم لهم ، والدخول فى طاعتهم ،واعتناق الاسلام. وأقام موسى طارق بن زياد على طنجة وما والاها ، وترك معه ١٧ رجلا من العرب يعلمون البربر القرآن وشرائع الدين الإسلامى ، فتم إسلام أهل المغرب الأقصى على يد هؤلاء (٢) . وأقام موسى أبا الجهم عبدالرحمن بن رافع التنوخى التابعى قاضيا على القيروان ، فكان أول من استقضى بها من المسلمين (٣) .

وهكذا نجح موسى بن نصير فى إخضاع بلاد المغرب كلها للاسلام ، ولم تستعص عليه سوى مدينة سبتة لمناعتها ، ووصول الإمدادات إليها من البحر،وكان يحكمها من قبل القوط يليان النصرانى .

ونلاحظ أن موسى بن نصير كان يهتم فى حروبه بما كان يجنيه من مغانم وسبايا ، ولم يكن يحفل بعد ذلك بما كانت تثيره هذه الغزوات فى

---

(١) ابن قتيبه ، ص ٧٦ .

(٢) عبيد الله بن صالح ، ص ٢٢٤ .

(٣) المالكى ، ص ٧٢ .

نفوس الوطنيين من سوء الظن ، وتأصل الحقد ، بل إن هـذه السياسة التى اتبعها موسى نحو البربر أدت إلى غرس عوامل الحقد والكراهيـة للعرب فى نفوسهم ، حتى لقد أصبح من العسير انتزاع هذا الشعور من نفوسهم . وإذا كان البربر قد قبلوا ذلك صاغرين، فلأنهم أرغموا على ذلك بقـوة السلاح، ولكن شعورهم أدى مع مضى الزمن إلى إقامة حواجز فاصلة بين العرب والبربر ، وإلى انحراف كثير من السكان إلى تقبل مذاهب ثورية انقـلابية من خارجية وصفرية وشيعية (١). وقد يكون سبب إسراف موسى فى غزوه لقبائل البربر ، واصطناعه العنف معهم ، رغبته فى إرضاء الخليفـة عبد الملك ابن مروان عنه بعد أن أساء به الظن ، فأخـذ يقاتل البربر ويفتتح مدائنهم وبلادهم ، ويذرع البلاد من شرقها إلى غربها ، ويبعث بغنائمه إلى عبد العزيز ابن مروان والخليفة عبد الملك ، حتى زال ما كان يحمله الخليفة عليه فى نفسه من ضغائن وأحقاد (٢) .

---

(١) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٤٧ وما يليهـا — السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين ص ٤٦ .

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٨٦ .

الباب الثاني

المغرب الاسلامى فى عصر الدولتين الأموية والعباسية

الفصل الثالث

المغرب فى ظل الدولة الأموية

(١) فتح المسلمين للأندلس

ا ـ مقدمات الفتح

ب ـ الدور الذى قام به بربر المغرب فى فتح الأندلس

ج ـ عودة موسى بن نصير إلى المشرق

(٢) ولاة المغرب بعد موسى بن نصير

ا ـ جهود محمد بن يزيد القرشى (٩٧ـ١٠٠هـ) واسماعيل بن عبيد الله (١٠٠ ـ ١٠١ هـ) فى نشر الاسلام

ب ـ سياسة الاستبداد مع البربر ونتائجها

ج ـ مقدمات ثورة البربر على العرب فى المغرب

د ـ ثورة البربر فى المغرب (موقعة بقدورة على وادى سبو سنة ١٢٤هـ)

هـ ـ ثورة البربر فى الأندلس وقيام النزاع بين البلديين والشاميين

(٣) المغرب فى السنوات الخمس الأخيرة من عصر الدولة الأموية

ا ـ فشل حنظله بن صفوان فى مواجهة الفتن فى المغرب وخروجه إلى المشرق .

ب ـ ثورات البربر فى المغرب فى ولاية عبد الرحمن بن حبيب الفهرى

الفصل الثالث

المغرب فى ظل الدولة الأموية

(١)

فتح المسلمين للأندلس

١ ــ مقدمات الفتح :

قلد الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك موسى بن نصير ولاية إفريقية والمغرب سنة ٨٦ هـ، بعد وفاة عبد العزيز بن مروان ، وأصبح المغرب فى هذا الوقت ولاية مستقلة عن مصر (١) . ونجح موسى بن نصير فى افتتاح المغرب كله ، ولم تستعص عليه سوى مدينة سبتة لمناعتها ، وشدة تحصنها ، واختلاف سفن القوط إليها بالميرة والإمدادات عن طريق البحر ، فلم يتمكن من التغلب عليها . وكان يحكمها من قبل القوط الغربيين (٢) حاكم اسمه جوليان ، ويسميه العرب يليان النصرانى أو وليان أو إليان (٣) .

---

(١) ابن عذارى ، البيان، ج ١ طبعة بيروت ص٣٥

(٢) ذكر صاحب أخبار مجموعة أن موسى بن نصير سار الى مداين تقع على شاطىء البحر ، فيها عمال صاحب الأندلس وعلى رأسها سبتة (أخبار مجموعة فى فتح الأندلس، نشره دون لافونتى القنطرة Lafuente Alcantra، مدريد ١٨٦٧، ص ٤

(٣) البكرى ، كتاب المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب، الجزائر ١٩١١ ص١٠٤
E. Saavedra, Estudio Sobre la invasion de los Arabes en Espana, Madrid, 1892, p. 48 - Lévi - Provençal, Histoire de l'Espagne Musulmane, Leiden, 1950, t. I, p. 13.

وقد اختلفت المصادر العربية فى شخصية يليان ، فبعضها يذكر أنه قوطى[١] وبعضها يزعم أنه رومى[٢] ، وبعضها ينسبه إلى بربر غمـارة [٣] . وأغلب الظن أن يليان كان حاكما عاما من قبل الدولة البيزنطية على ولاية موريطانية الطنجية ، وكانت تابعة لموريطانية القيصرية ، إحدى الولايات السبع الخاضعة للدولة البيزنطية ، بدليل أنه كان يحكم سبتة وطنجـة عندما قام عقبة بحملته الكبرى إلى السوس الأدنى ، فلما عجزت الدولة البيزنطية عن حمايتها ، ولت سبتة وجهها شطر إسبانيا القوطية [٤] . والظاهر أن يليان المذكـور تولى شئون هذا الإقليم فى سن مبكرة ، وأنه أقام طويـلا بأرض المغرب حتى توثقت علاقته بمن جاوره من قبائل البربر ، واستطـاع أن يكتسب صداقة البربر له ، حتى أصبح ملما بشئونهم ، وأصبح يعد نفسه واحداً منهم ، لذلك اختلط الأمر على الناس فظنوه بَربريا ، ومن هنا كان مرجـع الرواية التى تنسبه إلى غمارة . أما علاقته بالدولة القوطية ، فمرجعه أنه كان يتوجه بطلب المعونة إلى هذه الدولة ، لبعد مدينته عن بيزنطه ، واضطراب أحوال الدولة البيزنطية فى هذه الفترة .

وحدث إبان الفتح العربى للمغرب ، فى ولاية عقبة أن اغتصب لذريق

---

(١) ابن عذارى ، البيان ، ج٢ ، طبعة بيروت ، ص ٢ ، ٣

(٢) ابن خلدون ، كتاب العـبر ، طبعة بيروت (دار الكتاب اللبنانى) ١٩٥٨ ، ج ٤ ، ص ٢٥٣

(٣) السلاوى ، الاستقصا ، ج ١ ص ٩٧

(٤) ابن عبد المنعم الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، نشره ليفى بروفنسال ، القاهرة ١٩٣٧ ص ٧

Rodrigo ، دوق باطقة وحاكمها بقرطبة (١)، عرش القوط باسبانيا من أبناء غيطشة Witiza ، وأثار ذلك نقمة أنصار غيطشة وأبنائه عليه، فهبوا ضد هذا المغتصب المتسور الذى انتزع الملك من البيت الشرعى لنفسه ، وبدأت حركة استقلالية فى أطراف البلاد ، ظلت مستمرة حتى دخـــول المسلمين أرض الأندلس ، واشتعلت نيران الثورات فى طليطلة وغيرها ، وتعـذر على وقلة Achila أن يتوجه إلى العاصمة بعد وفاة أبيه غيطشه ، واضطرت أمه، التى أرادت أن تضبط ملك أبيه ، إلى الفرار هى وأخواه أرطباس Artavasdes والمند Olmundo ، وعمـه أبه Oppa أسقف إشبيلية ، والتجأ الجميـع إلى جليقيه (٢). وحاول وقلة أن يسترد عرشه ، فأعد جيشا بقيادة عمه ووصيه رخشندش Rechesindo ، فأسرع لذريق بالسير على رأس جيش كثيف واشتبك مع جيش رخشندش، وهزمه فى موقعة كبرى قتل فيها الوصى، وتفرق أتباعه (٣)

ويغلب على الظن أن وقلة فر إلى إفريقية بعـد ذلك ، وأقام عند يليان حاكم سبتة (٤) ، وكان ما يزال على ولائه للملك غيطشه وأبنائه . أما لذريق فقد استبقى ولدى غيطشة الآخرين : وهما أرطباس والمند ، إلى جواره ، حتى يستوثق من إخلاصهما له ، ويقضى بذلك على الثورات الموالية لبيت غيطشة. وأمعن لذريق فى مطاردة أنصار وقلة بالأذى ، ففروا من إسبانيا، والتمسوا

---

(١) Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne, ed. Lévi-Provençal, Leyde, 1932, p. 70.

(٢) Lévi-Provençal, op. cit. t. I, p 7

(٣) البيـان ، ج ٢ ص ٣ — Aguado Bleye, Manuel de la historia de Espana, t. I, Madrid, 1947, p. 355

(٤) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٩ — Saavedra, op. cit. p. 54

سبل النجاة إلى أقصى الشمال ، أو إلى سبتة ، ولاذوا بحماية يليان الذى كان مخاصما للذريق . وبمساعدة يليان، نجح هؤلاء اللاجئون فى الاتصال بالعرب، وحثوهم على فتح الأندلس(١)، أملا فى استرداد العرش لأميرهم وقلة، اعتقادا منهم أن العرب الطارقين للأندلس لمساعدتهم ، لن يكونوا فى حاجة إلى استيطانه بعد افتتاحهم له ، وأن مرادهم لا يعدو ملأ أيديهم من الغنائم ، ثم يخرجوا عنها لأصحابها (٢) . ويعتقد سافدرا أن يليان كان يمت بصلة القرابة والنسب إلى أسرة غيطشة (٣) ، وكان من الطبيعى لذلك السبب، أن ينضم إلى صفوف الخارجين على لذريق ، ويفتح لهم أبواب مدينته ، ويعمل على مساعدتهم لاسترداد ملكهم السليب ، مستعينا فى ذلك بالعرب . ولكن يليان، فيما يظهر ، لم يشأ أن يعلن عداءه للذريق مرة واحدة، حتى لا ينقلب عليه ، فتظاهر بولائه له حتى لا تنقطع إمدادات القوط عنه ، وكان يضمر فى قرارة نفسه الكيد له . ولكن حادثا وقع فى ذلك الوقت كان سببا فى انضمامه صراحة إلى جانب الثوار ، وإقدامه على طلب العون من العرب، وتحريضهم على فتح الأندلس . فقد زعموا أنه كانت له ابنة على حظ كبير من الجمال تدعى فلورندا ، وكان قد بعثها منذ أيام غيطشة ـ شأنها فى ذلك شأن غيرها من بنات الأمراء والنبلاء ـ إلى بلاط الملك بطليطلة للتأدب بآداب

---

(١) أنظر تعليق على هذه القضية في كتابى : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، ص ٦٦ ، ملحوظة ١

(٢) أخبار مجموعة ، ص ٧ ـ المقرى ، نفح الطيب ، طبعة محي الدين عبد الحميد ، ج١، ص ٢٤١

(٣) Saavedra, op. cit. p. 53

الملوك (١) ، فوقعت موقعا حسنا فى عينى الملك ، ويقال أنه استكرهها على نفسها ، فاحتالت الفتاة على إبلاغ أبيها سراً بما أصابها على يدى لذريق ، فتضاعف حقده عليه ، وعــزم على الانتقام ، ورأى ألا عقوبة له إلا إذا أدخل عليه العــرب ، فبعث إلى طارق بن زياد الذى ولاه موسى أميراً على طنجة قائلا : « إنى مدخلك الأندلس » (٢) . وقد تكون هـــذه الرواية

---

(١) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، طبعة مصر ١٣٥٧ هـ ، ج ٤ ، ص ١٢١

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح افريقية والأندلس ، ص ٩٠ وذكر صاحب أخبار مجموعة أنه قال : « ودين المسيح لأزيلن ملكه ، ولأحفرن تحت قدميه » (راجع أخبار مجموعة ، ص ٥ — المقرى ، ج ١ ص ٢٣٦) . وأضاف المقرى نقلا عن كتاب الحجازى : أنه ركب بحر الزقاق من سبتة في أصعب الأوقات فى صنبر (ديسمبر) قلب الشتاء ، فصار بالأندلس ، وأقبل الى الملك في قصره بطليطلة ، فأنكر عليـه قدومه فى مثل هذا الوقت ، وسأله عن سبب ذلك ، فتعلل بمرض زوجته وشدة شوقها الى رؤية ابنتها فلورندا ، وتلهفها على لقائها قبـــل أن تموت ، فاستجاب لذريق الى رغبة يليان ، ورد اليه ابنته بعــد أن توثق منها بالكتمان عليه ، وأجزل العطاء على يليان . وقيل أنه لما ودعــه ، قال له لذريق : « اذا قدمت علينا ، فاستفره لنـــا من الشذانقات التى لم تزل تطرفنا بها ، فانها آثر جوارحنا لدينا » . فقال له : « أيها الملك ، وحق المسيح ، لئن بقيت لأدخلن عليك شذانقــات ، ما دخل عليك مثلها قط » (المقرى ج١ ص ٢٣٦) ، وكان يؤمىء بذلك الى عزمه على ادخال العرب فى الأندلس .

ونلاحظ أن اسم فلورندا المذكور لم يرد فى المدونات العربية أو المسيحية ، ولــكن ظهـــر مكانه la cava ، فى مدونة بدرودل كورال Pedro del Corral المسماة بمدونة الملك دون رودريجو « Cronica del Rey don Rodrigo » ، وترجـــع الى منتصف القرن الخامس عشر ، وفيها ينسب المؤرخ اسم la Cava الى ابنـــة يليان ، وكان ميجل دى لونا Miguel de luna أول من ناقش الترجمة العربية لهذه الـكلمة فى سنـــة ١٥٨٩ فى بحثه الطويل Historia verdadera del rey don Rodrigo ، وذكر فيه أن =

صحيحة ، ولكننا لانرجح صحتها ، وأغلب الظن أنها من ابتكار القصاص والأخباريين ، بدليل أن كلمة cava التي ينسبونها إلى ابنة يليان تتضمن في الاسبانية معان أخرى غير المعنى الذى زعم مؤرخو إسبانيا أنه ترجمة للكلمة العربية « قحباء » ، وحتى إذا افترضنا صحة هذه التسمية ، وانطباقها على الكلمة العربية المذكورة ، فانها مع ذلك لاتصدق على ابنـة يليان التى كانت ضحية للذريق .

وأيا ماكانت أسباب موجدة يليان عـلى لذريق ، فانه مما لاشك فيه أن يليان هو الذى سعى عند العرب لفتح الأندلس ، وأنه ذلل للمسلمين جميع الصعوبات ، وهو الذى ضمن للعرب انحياز أنصار وقـــلة إليهم ، وهو ماحدث بالفعل عند افتتاح الأندلس ، فقدمالأ آل غيطشة العرب ، ودبروا الغدر بلذريق ، وأجمعوا على خذله فى المعركة الحاسمة ، ويدل على ذلك أن المسلمين كافأوهم برد جزء كبير من ضياع غيطشة إليهم (١) .

= هذه الفتاة فلورندا ، أطلق عليها العرب اسم «القحباء» ، وتعنى المرأة العاهرة ، ومن ثم ورد اسم فلورندا في عـــدد كبير من الروايات الاسبانية المتأخـــرة ، كما ورد فى أشعار الرومانسيرو ، وجاء فى بعض هذه الأشعار أن لذريق شاهد فلورندا تستحم يوما فى وادى تاجه بطليطلة ، فأطلق على هذا الحمام منذ ذلك الحين اسم Bano de la Cava . ويبدو أن المؤرخين الاسبان كانوا يحملون فى هذه التسمية على ابنة يليان لاعتقادهم الراسخ فى أنها السبب في دخول العرب بلاد الأندلس . ارجع الى المصادر الآتية :

Lévi - Provençal, Histoire, t. I, p. 8 - Aguado Bleye, op cit. p. 357 - Saavedra, op. cit. p. 60 - وقد وردت قصة ابنة يليان فى المصادر العربيـة الآتية :

ابن القوطية ، ص ٨ — أخبار مجموعة ، ص ٩ — الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ٧

(١) ابن القوطية ، ص ٤

وتجمع المصادر العربية للفتح على أن يليان توجه بنفسه إلى طنجة لمقابلة طارق بن زياد ، وعرض عليه أن يساعده فى إدخاله الأندلس ، ولم يتردد طارق فى الاتصال فورا بموسى بن نصير ، وكان مقيما فى القيروان ، فأبلغه ماكان من أمر يليان ، فرحب موسى بما عرضه عليه يليان (١) ، فقد كان يطمع فى المزيد من الفتح والجهاد . وعلى الرغم من تلهفه على انتهاز هـــذه الفرصة ، ودخول الأندلس بمساعدة يليان وأنصار غيطشة ، فانه لم يشأ أن يقحم المسلمين فى مغـامرة لايعلم نتائجها إلا الله ، فلم يكن قد وثق بعد بيليان ، ثم إنه كان يعمل على كسب رضاء الخليفة الوليد بن عبد الملك عليه ، وكانت فتوحات موسى فى المغرب قد رفعت منزلته عند عبد الملك ، ثم الوليد ، فرأى موسى ضرورة إطلاع الخليفة على ماهو مقبل عليه ، فكتب من فوره إلى الخليفة بفتوحاته فى المغرب ، وضمن رسالته ماذكره يليان من تذليل الأمور وتهوينها على المسلمين ، ولكن الوليد تردد فى الأمر ، وخاف على المسلمين مغبة مخاطرة كهذه فى أراض مجهولة ، يفصل بينها وبين بلاد المسلمين بحر الزقاق ، فكتب إلى موسى يأمره بأن يخوضها بالسرايا حتى يختبرها ، وأمره بألا يغرر بالمسلمين فى بحر شديد الأهوال (٢) . وعمل موسى برأى الخليفة ، واختار أحد كبار قواده اسمه طريف بن مالك المعافرى ، وقيل النخعى (٣) ، ويكنى أبا زرعة ، ويبدو أن طريف هذا كان عربى الأصل (٤) ، وأنه

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٩٠ ــ ابن القوطية ، ص ٨ ــ أخبار مجموعة ، ص ٦ ــ ابن عذارى ، ج ٢ ، ص ٦ ــ الحميرى ، ص ٨ ــ المقرى ، ج ١ ، ص ٦ ، ٧١ ، ٢٣٧

(٢) أخبار مجموعة ، ص ٦ ــ ابن الأثير ، ج ٤ ، ١٢٢ ــ الحميرى ، ص ٨ ــ المقرى ، ج ١ ص ٢٣٧

(٣) ابن خلدون ، العبر (طبعة بيروت) ج ٤ ص ٢٥٤

(٤) يعد مؤرخو العرب طريف بن مالك هذا بربريا ، فالحميرى يقول (ص ٨) =

كان قائدا بارعا فى فنون الحرب والقتال ، فجعله موسى على رأس سرية مؤلفة من خمسمائة مقاتل ، منهم أربعمائة من المشـــاة ومائة من الفرسان ، وأعدلهم يليان سفنه الأربعة لعبور الزقاق ، ونزل طريف بفرقتـه فى جزيرة تعرف باسم لاس بالوماس Isla de las Palomas [1] ، تقـع على مقربة من مدينة طريف الحالية التى سميت باسمه لنزوله فيهـــا ، وذلك فى رمضان سنة ٩١ هـ (يوليو سنة ٧١٠ م) . ومن هـذا الموضع شن طريف ورجاله سلسلة من الغارات على الساحل الجنوبى للأندلس ، المقابل لساحل سبتة،فيما بين طريف والجزيرة الخضرا . وعاد طريف بفرقته سالما ، يجر وراءه غنائم كثيرة ، فأنس موسى إلى يليان ، ووثق فيه ، واطمأنت إليه نفسه ، واشتد عزمه على فتـح الأندلس ، وتلهف شوقا إلى السير فى هـذه المغامرة . ثم إنه استدعى مولاه طارقا ، وأمره على سبعة آلاف رجل جلهم بربر [2] .

ب ـ الدور الذى قام به بربر المغرب فى فتح الأندلس :

اختار موسى بن نصير على الحملة التى أعدها لفتح الأندلس قائدا من

= فبعث موسى عند ذلك رجـلا من مواليه من البربر اسمه طريف بن ملوك المعافرى ، ويكنى أبا زرعة » . كذلك ذكر المقرى نقلا عن الحجـارى (ج١، ص ٢١٤) ونقلا عن الكتاب الخزائنى (ج ١ ص ٢٣٧) . ولا شك فى أن طريف كان عربيا ، فهـو ينتسب الى معافر أو نخع اليمنيتين، ثم اننا نستبعد أن يبعث موسى الطليعة الكشفية الأولى تحت قيادة بربرى

(١) Saavedra, op. cit. p. 64

(٢) أخبار مجموعة ، ص ٦ ـ ابن الأثير جـ ٤ ص ١٢٢ ـ ابن خلدون جـ ٤ ص ٢٥٤ ـ المقرى ، جـ ١ ص ٢١٦ ، ٢٣٨

قواده المشهورين بحسن القيادة والبلاء ، هو مولاه طارق بن زياد . وقد اختلف مؤرخو العرب فى أصله ، فـذهب بعضهم إلى أنه كان فارسيا همذانيا [١]، وذهب فريق آخر إلى أنه كان بربريا من نفزة [٢]، وذهب فريق ثالث إلى أنه كان عربيا من صدف [٣] . وأغلب الظن أنه كان بربريا من سبى البربر الذين ظفر بهم موسى بن نصير وقواده ، فأصبح مولى لموسى [٤] . وكان طارق طويل القامة ، ضخم الهامة ، أشقر اللون [٥]، وهى صفات تتوفر فى البربر ، ثم إنه كان من المنطقى أن يتولى قائد من أهل البلاد قيادة جيش كله من البربر ، حتى يستميل موسى إليه قلوب الجند فلا يثوروا عليه، كما حدث فى عهد عقبة وفى أيام حسان . ويبدو أن موسى كان يثق بطارق كل الثقة، بدليل أنه آثره فى قيادة هذه الحملة الكبرى على أعظم قواده العرب أمثال طريف بن مالك . وعياش بن أخيل ، وزرعة بن أبى مدرك ، والمغيرة بن أبى بردة العذرى . وكان موسى قد ولاه على طنجة، وهو منصب خطير لا يعطى إلا لذوى الثقة والكفاية. ومن الغريب أن يكون الجيش الذى أعده موسى للحملة مكونا كله من البربر ، باستثناء ثلاثمائة من العرب ، وهذه هى المرة الأولى فى تاريخ الفتوح العربية يتولى فيها جيش بأكمله من المغلوبين فتح قطر من الأقطار الكبرى كالأندلس .

---

(١) أخبار مجموعة ، ص ٦ — المقرى ، جـ ١ ص ٢٣٨

(٢) ابن عذارى ، جـ ١ ص ٧ — الحميرى ، ص ٨ — المقرى ، جـ ١ ص ٢٣٨

(٣) أخبار مجموعة ، ص ٢٦ — الحميرى ، ص ٩ — المقرى ، جـ ١ ص ٢٣٨

(٤) ابن عذارى ، جـ ١ ص ٣٧

(٥) نص عبد الملك بن حبيب ، نشره الدكتور محمود على مكى ، مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد، سنة ١٩٥٧ ص ٢٢١

ويدل هذا دلالة واضحة على أن بربر المغرب قد أسلموا ، وحسن إسلامهم ، وأصبحوا على هذا النحو يؤلفون القوة الكبرى التى اعتمد عليها موسى فى فتح الأندلس . وكان معظم أجناد هـــذه الحملة الأندلسية من رهائن المصامدة (١) . ويمكننا تفسير اعتماد موسى على البربر فى هذه الحملة بأن البربر كانوا أكثر إلماما من العرب ببلاد الأندلس ، فالمغرب والأندلس يؤلفان وحدة جغرافية وتاريخية ، وقديما عبر هانيبال المجاز إلى إسبانيا مع جيوشه البربرية . ونضيف إلى هذا التفسير تفسيراً آخر هو أن موسى ربما خاف على جيشه العربى من هذه المغامرة ، فآثر أن يجعـل الطليعة الأولى من البربر ، فلما استوثق من نجاح الفتح بعد انتصار طارق فى وادى لكة ، واقتحامه البلاد حتى طليطلة ، عبر المجاز بدوره على رأس جيش كثيف جله هذه المرة من العرب.

ولسنا نعرف الكثير عن نشأة طارق بن زياد بطل الفتح ، وكل ما نعرفه عنه قبل أن يوليه موسى القيادة على الحملة إلى الأندلس ، أنه اشترك فى مقاتلة البربر فى ولاية زهير بن قيس على إفريقية ، فلما قتل زهير فى برقة ، نصب طارق أميرا على برقة ، غير أنه لم يلبث طويلا فى هـــذا المنصب ، إذ اختاره موسى قائدا فى جيشه ، فأبلى بلاء حسنا فى حروبه التى خاضها مـع موسى ، وظهرت لدى موسى سطوته الحربية ومهارته فى قيادة الجيوش ، فولاه على مقدمة جيوشه فى المغرب . ويذكر عبيد الله بن صالح أن موسى جمع رهائن كتامة وزناته وهوارة مع رهائن حسان وعدتهم اثنى عشر ألف فارس (٢) ، «وولى عليهم

---

(١) نص عبيد الله بن صالح ، نشره ليفى بروفنسال ، بعنوان : نص جـديد عن فتح العرب للمغرب ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، فى صحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد ، المجلد الثانى ١٩٥٤ ، ص ٢٢٤

(٢) نفس المرجع ص ٢٢٣

طارق بن زياد ، ورجع إلى إفريقية ، وترك معهم سبعة عشر رجلا من العرب يعلمون لهم القرآن وشرائع الإسلام » (١) . ويعتبر اختيار موسى لطارق على قيادة جيوشه مأثرة من مآثره العديدة ، إذ أثبت بذلك درايته بالعناصر الصالحة فى البربر واستخدامه لهم فى قيادة جيشه . وهكذا أتيح لطارق بن زياد أن يتولى قيادة جيوش موسى ، ويشترك معه فى فتح بقية بلاد المغرب والسيطرة على حصون المغرب الأقصى حتى المحيط الأطلسى (٢) .

كان جيش طارق يتألف كما ذكرنا من سبعة آلاف مقاتل من البربر باستثناء ثلثمائة من العرب ، على رأسهم رجال سيكون لهم شأن كبير فيما بعد ، نخص بالذكر منهم عبد الملك بن أبي عامر المعافرى ، ومغيث الرومى مولى الوليد بن عبد الملك ، وعلقمة اللخمى . وأبحرت حملة طارق من ميناء طنجة فى ٥ رجب سنة ٩٢ هـ (إبريل سنة ٧١١ م) ، فى السفن الأربعة التى كانت ملكا ليليان ، ووضعها فى خدمة العرب (٣) . ولا شك أن موسى استعان ببعض قطع من أسطوله الإسلامى الذى أنتجته دار الصناعة بتونس فى جواز رجاله ، واختلفت السفن بالرجال والخيل بين شاطئى الزقاق تنقل العسكر إلى « جبل على شط البحر منيع » (٤) ، كان يعرف باسم جبل كالبى Calpe (٥) ،

---

(١) نص عبيد الله بن صالح ، ص ٢٤٤

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، طارق بن زياد ، دائرة معارف الشعب ، عدد ٦٧ ص ٢٣٧

(٣) أخبار مجموعة ، ص ٦

(٤) نفس المرجع ص ٧

(٥) Lévi - Provençal, Histoire, t. I, p. 18

وعرف منذ ذلك الحين باسم جبل طارق أو جبل الفتح . وكان نزول الحملة الإسلامية فى ذلك الوقت مناسبا للغاية ، إذ كان لذريق مشغولا إذ ذاك باخماد ثورة قام بها البشكنس فى بنبلونه (١) ، كما اتفق نزول جيش طارق فى الوقت الذى كان كثير من سكان الأندلس ساخطين على حكم لذريق الجائر ، فوقفوا موقفا سلبيا من الغزو الإسلامى . وما كادت تتوافى حشود المسلمين بعد أن تم نزولها بأدنى الجبل حتى بادر طارق بانشاء قاعدة لجيشه ، ومرسى يصل بينه وبين سبتة ، وأقام طارق حول الجبل المسمى باسمه سورا سمي بسور العرب (٢) .

ثم بعث طارق عبد الملك بن أبى عامر فى فرقة سارت بحذاء الساحل شمالا ، فاستولت على قرية حصينة تعرف بقرطاجنة الجزيرة(٣) « Carteya » ، وتقع جوفى خليج جبل طارق عند مصب نهير يسمى بوادى البحر (٤) ، ثم زحف طارق غربا ، واستولى على المنطقة المحيطة بقرطاجنة ، وأقام قاعدة لقواته فى موضع يقابل الجزيرة الخضراء ، أقيمت عليه هذه المدينة فيما بعد (٥) . وقد عهد طارق إلى يليان ومن معه من الجند بمهمة حراسة

---

(١) أخبار مجموعة ، ص ٧ — المقرى ، ج ١ ص ٢٣٩

(٢) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٣ — المقرى ، ج ١ ص ٢١٨

(٣) ابن القوطية ، ص ٩ — ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٣

وذكر سافدرا أن هذا الموضع هو المعروف اليوم باسم برج قرطاجنة Torre Cartagena أو برج الروكاديو Rocadillo (Saavedra, op. cit. p. 65)

(٤) الحميرى ، ص ١١٥ — Lévi - provençal, Histoire, t. I, p. 19

(٥) السيد عبد العزيز سالم ، طارق بن زياد ، ص ٢٣٩ — تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، ص ٧٣ .

هذه القاعدة ، والدفاع عنها فى حالة قيام القوط بأى هجوم .

ووقع على لذريق خبر نزول المسلمين على الساحل الجنوبى للأندلس وقوع الصاعقة ، فانزعج لذلك ، وكر راجعا إلى عاصمته طليطلة ، ومنها زحف فى جموع كثيفة تقدر بنحو مائة ألف مقاتل (١) ، وقيل سبعين ألفا (٢) ، وقيل أربعين ألفا (٣) . فلما علم طارق بذلك كتب إلى موسى يستمده ، ويخبره أنه فتح الجزيرة الخضراء ، وملك المجاز إلى الأندلس ، واستولى على بعض أعمالها حتى البحيرة ، وأن لذريق زحف إليه بما لاقبل له به ، فأرسل إليه موسى مدداً من خمسة آلاف من المسلمين ، كملت بهم عدة من معه إثنى عشر ألفا (٤) ، أقوياء على المغانم ، حراصا على اللقاء ، ومعهم يليان ورجاله ، يدلون المسلمين على العورات ، ويتجسسون الأخبار .

ثم أقبلت جيوش لذريق حتى عسكرت غربى طريف ، بالقرب من بحيرة خنده Janda ، على طول نهير برباط الذى يخترق البحيرة ويصب فى البحر ، ويسميه العرب وادى لكه ، تحريفا للكلمة الاسبانية Lago أى البحيرة . والتقى الجيشان فى يوم الأحد ٢٨ من رمضان سنة ٩٢ هـ (١٩ يوليو سنة ٧١١) أى بعد ٨٣ يوما من نزول المسلمين بجبل الفتح (٥) ، فى موضع على

---

(١) أخبار مجموعة ، ص ٧ — المقرى ، جـ ١ ص ٢١٦ ، ٢٤١

(٢) نص ابن حبيب ، ص ٢٢٢ — المقرى ، جـ ١ ، ص ٢٢٥

(٣) ابن خلدون ، جـ ٤ ص ٢٥٤ — المقرى ، جـ ١ ص ٢١٦

(٤) أخبار مجموعة ، ص ٧ — المقرى ، جـ ١ ص ٢٤١

(٥) المقرى ، جـ ١ ، ص ٢٣٣

وادى برباط أو لكة ، قرب مدينة شذونة . واستمرت المعـــركة عدة أيام وانتهت بهزيمة لذريق هزيمة ساحقة، بعد أن خذله ابنا غيطشة، ونكص عدد كبير من قواته . وأذرع المسلمون فى فلول جيشه بالقتل ، ولم يرفعـوا عنهم السيف ثلاثة أيام (١) . أما لذريق فقد غاب شخصه ، فلم يعثر له أحـد على أثر ، ويبدو أنه فر فى جملة الفارين ، ليعيد تنظيم قواته من جديد . ويبدو أن طارق لم ينتزع النصر بسهولة ، فقـد قتـل من رجاله ما يقرب من ثلاثة آلاف ، استناداً على ما ذكره المقرى من أنه قسم الفىء على تسعـة آلاف من المسلمين (٢) ، وكان من بين القتـلى ششبرت (٣) . وأحدث انتصار طارق فى وادى لكه دويا هائـــلا ، فى المغرب والمشرق ، الأمر الذى يعزز ما كنا نعتقده من أن حملة طارق كان ينظر إليها على أنها مغامرة حربيـة مصيرها الفشل قبل النجاح ، وإلا فما الداعى لتطاير أهل العدوة من البربر والعرب إلى الأندلس بعد انتصار المسلمين ، وإقبالهم على الفتح بقلوب مجبورة (٤)، وما السبب فى الروايات القائلة بحسد موسى بن نصـير لطارق ، وإصداره الأوامر له بالتوقف عن الفتح ؟ (٥) .

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٩٦ ـ ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٠

(٢) المقرى ، ج ١ ص ٢٤٣

(٣) فتح الأندلس لمؤرخ مجهول ، نشره دون خواكين جنثالث ، الجزائر ١٨٨٩ ص ٧

(٤) يقول الرازى: «وتسامع الناس من أهل بر العدوة بالفتح على طارق بالأندلس، وسعة المغانم فيها ، فأقبلوا نحوه من كل وجه ، وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر ، فلحقوا بطارق » المقرى ، ج ١ ص ٢٤٣

(٥) الحميدى ، جذوة المقتبس ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجى ، القاهرة ، ١٣٧١ هـ، ص ٥ ـ ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٥٤ ـ المقرى ، ج ١ ص ٢٥٤

واندفعت جيوش طارق فى أثر فلول القوط، تستولى على المدن، وتفتتح المعاقل ، وكان جيشه قد تضخم بمن وفد إليه من أهل العدوة ، بغية التماس الغنائم ، أو الاستقرار فى هذه البلاد الغنية ، ففرق أجناده إلى بعوث جانبية ومضى هو إلى طليطلة ، حيث احتشدت فلول القوط ، فافتتحها فى سنة ٩٣هـ دون مقاومة تذكر ، وألفاها خالية ، قد فر عنهـا سندرد رئيس الكنيسة الاسبانية إلى رومه ، كما فر عنها أهلها .

ثم كانت الحملة الثانية التى قام بها موسى بن نصـــير نفسه، استجابة لطلب طارق فى معاونته على فتح بلاد الاندلس، وعبر موسى إلى الجزيرة الخضراء فى سنة ٩٣ هـ فى جيش ضخم عدته ثمانية عشر ألفا جلهم من العرب ، وسلك موسى طريقا غير طريق طارق ، واستطاع أن يفتتح المدن الواقعـة فى غرب الاندلس مثل شذونة ، وقرمونة ، وقلعـــة رعواق ، وإشبيلية ، ولبلة ، وأكشونبة ، وباجة ، وماردة .

وكانت مقاومة القوط بقيادة لذريق قد اشتدت فى هذه النواحى لتعوق مسير موسى ، وتقضى على قواته .

فما كادت ماردة تسقط حتى تحصن لذريق ورجاله فى شعاب جبال سيرا دى فرانثيا مما يلى وادى أنة من الشمال ، وأقاموا هنالك ينتظرون الفرصـة الموانية للوثوب على جيش المسلمين [١] . وشم موسى رائحة كمين يعده له الأعداء فى الطريق إلى طليطلة . فبعث موسى يستـدعى طارقا وقواته فى منتصف الطريق ما بين ماردة وطليطلة ، وتم لقاء القائدين فى موضع يقال

---

(١) Saavedra, p. 98 ـــ حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٩٧ ـــ عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين ، ص ٩٧

له تايد أو تايتر (١)، وخرج طارق معظما له، ونزل بين يديه . وذكر المؤرخون أن موسى وبخ طارقا على مخالفته لرأيه، وخروجه عليه، ثم صالحه موسى، وأقره على قيادة الجيش، وأمره بالتقدم أمامه فى أصحابه، بينما تبعه موسى فى جيشه (٢) . وسلك طارق وموسى الطريق الرومانية الممتدة من ماردة إلى شلمنقه عبر السيرا، ثم مضى موسى من فج منسوب إليه (٣) بحذاء نهير سمى منذ ذلك الحين بوادى موسى (٤) . واجتاز موسى طريقا وعرة متبعا فى سيره الانحدارات الهائلة التى تنبع منها مياه نهير الهويبرا، وراء القمم الشمالية من جبال سيرا دى فرانثيا (٥). فانتهز لذريق هذه الفرصة، وانقض على جيش موسى بقواته، تجاه بلدة سيجويلا دى لوس كورنيخوس (٦)، قريبا من بلدة تمامس، حيث قامت الموقعة الفاصلة الثانية فى تاريخ الفتح الاسلامي للأندلس، فى سنة ٩٤ هـ . ونظراً لأن المكان الذى وقعت فيه الموقعة كان قريبا من بحيرات تمامس ونهير بربالوس Barbalos الذى ينتهى عند السواقى، فقد اختلط عند المؤرخين بنهر برباط وبحيرة خندة.

---

(١) وردت كلمة تايد (فى أخبار مجموعة، ١٨) بدون نقط، ولعلها تايتر، وهو اسم ذكره رودريجو الطليطلى لنهير Teitar فى هذه المنطقة.

(٢) المقرى، جـ١ ص ٢٥٥

(٣) ابن القوطية، ص ١٠ — المقرى، جـ ١ ص ٢٥٣

(٤) Saavedra, p. 99 — حسين مؤنس، فجر الأندلس، ٩٨

(٥) Saavedra, p. 100

(٦) يقابل اسم سيجويلا فى المصادر العربية كلمة السواقى أو السوانى (أنظر فتح الأندلس، لمؤرخ مجهول، ص ٨) . وذكر الرازى Seguyue وهو لفظ قريب من لفظ السواقى) Lévi - Provençal, - Histoire, t. I, p. 26 - Saavedra, p. 100 — فجر الأندلس، ص ٩٩)

وفى هذه الموقعة لقى لذريق مصرعه على يد مروان بن موسى بن نصير [١] وهزم المسلمون القوط هزيمة نكراء. وعلى أثر ذلك دخل موسى وطارق مدينة طليطلة، وبعث موسى من هناك رسولين من قبله إلى الوليد يبشرانه بالفتح، هما مغيث الرومى [٢]، وعلى بن رباح التابعى [٣]

قضت الجيوش الاسلامية فصل الشتاء بطليطلة، فلما انقضى، تعاون القائدان موسى بن نصير وطارق بن زياد على افتتاح شمال شبه الجزيرة، وصحبت الفتح فى هذه المرة موجة عاتية من التدمير والتخريب، وكان لذلك أثر كبير فى بث الذعر فى نفوس السكان [٤]. وبينما كان موسى يتأهب لاقتحام بلاد جليقية، إذ أتاه مغيث الرومى رسولا من قبل الوليد بن عبد الملك يأمره بالخروج من الاندلس، والكف عن التوسع فى البلاد. فعز على موسى أن يعود المشرق قبل أن تكون قد استكمل فتح شبه الجزيرة كلها، باقتحامه جليقية [٥]. فلاطف مغيثا، وسأله أن يمهله حتى ينفذ عزمه فى الدخول إلى جليقية، ويكون شريكه فى الأجر والغنيمة [٦]، ووعده موسى بأن يهبه الموضع المعروف باسم بلاط مغيث بقرطبة بجميع أرضه من

---

(١) Saavèdra, op. cit. p. 101. يعتمد سافدرا على نص ورد فى كتابه «الامامة والسياسة» لابن قتيبة جاء فيه على لسان موسى: «ان ابنى أتى بملك الأندلس لوذريق» ص ١٥٦ من كتاب ابن القوطية

(٢) ابن عبد الحكم، ص ١٠٢

(٣) ابن قتيبة، الامامة والسياسة من كتاب ابن القوطية «تاريخ افتتاح الأندلس» ص ١٢٦

(٤) المقرى، ج ١ ص ٢٥٥

(٥) نفس المرجع، ص ٢٥٨

(٦) نفس المرجع

أرض الخمس [١]، نظير إمهاله له بعض الوقت ومصاحبته فى غزو جليقية . فقسم موسى جيشه إلى قسمين : قسم بقيادته ، يسلك الطريق الممتدة من سرقسطة إلى قلونية وبلنسية ، وقسم بقيادة طارق يسير بحذاء نهر إبره حتى هارو ، ومن هناك يتبع برفيسكا ثم أمايه ثم ليون واسترقة . ونجح طارق فى افتتاح أماية واسترقة ، أما موسى فقد سار بحذاء الضفة اليمنى من نهر إبره وافتتح حصن بارو ، واستولى على قلعة لك بأشتوريش ، ثم تابع السير فى جليقية ، فاستولى على خيخون ولك الجليقية ،وهناك أتاه رسول آخر يكنى أبا نصر بعثه الخليفة إليه لما استبطأه فى القفول [٢] . وذكر بعض المؤرخين أن موسى بعد أن افتتح سرقسطة بث سراياه إلى قطلونية ، فاستولت على برشلونة ، واخترقت جبال البرتات ، وتوغلت فى غالة ،فاستولت على أربونة وصخرة إينيون ، وحصن لودون على وادى ردونه (الرون) [٣]. ونستبعد قيام موسى بفتح هذه الاقاليم ، واكتساحه أراضى إفرنجة حتى ليون . والأرجح أن موسى افتتح إقليم قطلونية ، وأن بعض قواته وصلت إلى قرقشونة [٤] .

ولقد لعب البربر دوراً هاما فى فتح بلاد الأندلس ، فقد كانت الطالعة

---

(١) الرسالة الشريفية فى الأقطار الأندلسية ، من كتاب ابن القوطية ، ص ٢٠٤

(٢) المقرى ، جـ ١ ص ٢٥٨ — تاريخ المسلمين فى الأندلس ، ص ١٠٣ ، ملحوظة ٥

(٣) المقرى ، جـ ١ ص ٢٥٦ — Codera, Limites probables de la conquista arabe en la Cordillera Pirenaica, en Estudios Criticos de la historia arabe espanola, VIII, Madrid, 1917, p. 107.

(٤) المقرى ، جـ ١ ص ٢٦٠ — شكيب أرسلان ، تاريخ غزوات العرب ، مصر ، ١٣٥٢ ص ١٤ — تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، ص ١٠٤ ، ١٠٥

الأولى للفتح من البربر ، ومنذ سجل طارق انتصاره على لذريق فى وادى لكه ، لم يكف البربر عن الجواز إلى الاندلس ، بغيـة التماس المغـانم أو الاستقرار فى هذه البلاد الغنية بخيراتها . وقـد زودنا ابن خلدون بأسماء قبائل أربعة كان يتألف منهـا جيش طارق ، وهى : مطغرة ، ومديونة ، ومكناسة ، وهوارة ، وكلها متفرعة من زناتة . ويضيف ابن حزم فى جمهرة أنساب العرب قائمة بقبائل أخرى وفـدت إلى الأندلس وهى : مغيـلة ، وملزوزه ، ونفزة ، وأوربة ، ومصموده (١).

وقد استقر هؤلاء البربر منذ الفتح فى المناطق الجبلية ، إذ كان العرب قد اختصوا أنفسهم بأكثر مناطق الأندلس خصبا ، ونعنى بهـــا فحوص الأندلس الأوسط والجنوبى ، ومنيـات شرق الاندلس . وعلى الرغم من صعوبة الحياة فى المناطق الجبلية ، فقـد تمكن البربر ، بمضى الزمن ، من التكيف فيها ، وأصبحوا يعتبرون هذه البـلاد وطنا لهم ، فسموا أنفسهم بالبلديين ، وهم فى ذلك يختلفون عن البربر الطارئين الذين دخلوا الاندلس فى عصر الخلافة الأموية.

ج – عودة موسى بن نصير الى المشرق :

لم يجد موسى بن نصير بدا من الاستجابة لرغبة الخليفـــة فى العودة إلى دمشق ، فقفل بعد فتحه لبلاد جليقية عائداً إلى إفريقية ، فى رفقـة طارق ، ورسولى الخليفة إليه ، مارين فى طريقهم بقرطبة ، حيث أخرج موسى مغيثا

---

(١) ابن حزم القرطبي ، جمهرة أنساب العرب ، تحقيق ليفى بروفنسال ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٤٦١ ، ٤٦٧

من بلاط قرطبة ، ووهبه داراً أخرى بغرب المدينة [1]. ولعل ذلك كان سببا فى تحامل مغيث الرومى عليه . ثم مضى موسى إلى إشبيلية ، وهناك استخلف ابنه عبد العزيز فى ذى الحجة سنة ٩٥ هـ ، بعد أن اختارها له عاصمة للأندلس [2] . وعبر القائدان الزقاق إلى إفريقية يحملان معهما غنائم هائلة من الذهب والفضة والجوهر على ما يقرب من ١١٣ عجلة [3] . واستخلف موسى ابنه الأكبر عبد الله على إفريقية ، وكان عبد الله قد وليها عوضا عن أبيه عندما قاد حملته إلى الأندلس ، إلى أن رحل أبوه منها متوجها إلى المشرق [4] فى سنة ٩٥ هـ . وذكروا أنه استخلف ابنه عبد الملك على طنجة وسبتة وما إليها [5] . ولكن ابن قتيبة يذكر أن موسى لم يترك على إفريقية وطنجه والسوس إلا ولده الاكبر عبد الله ، وأنه اصطحب معه عند عودته إلى المشرق أولاده مروان وعبد الاعلى وعبد الملك [6] .

ثم سار هو وولداه عبد الاعلى ومروان ، وصحبهم طارق ، ورسولا الخليفة ، وبعض الأسرى من قواد القوط ، ومائة رجل من أشراف الناس من قريش والأنصار وسائر العرب ، نخص بالذكر منهم : عياض بن عقبة وأبو عبيدة وعبد الجبار بن أبى سلمه بن عبد الرحمن بن عوف، والمغيرة بن

---

(١) أخبار مجموعة ، ص ٢١ — المقرى ، ج ٢ ص ١٣

(٢) ابن القوطية ، ص ١٠ — أخبار مجموعة ، ص ١٩ — ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٠

(٣) ابن عذارى ، ج ١ طبعة بيروت ص ٣٩

(٤) المرجع السابق ، ص ٣٨

(٥) ابن الأثير ، ج ٤ ص ١٢٤ — ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٩

(٦) ابن قتيبة ، الامامة والسياسة (من تاريخ فتح الأندلس ص ١٤٣)

أبي بردة، وزرعه بن أبي مدرك، وسليمان بن بحر و ومن البربر مائة رجل[1] منهم « بنو كسيلة بن لزم، وبنو يسدد ومزدانة ملك السوس، وملك ميورقة ومنورقة ، ومن أولاد الكاهنة ، ومائة من وجوه ملوك الروم الاندلسيين وعشرون ملكا من ملوك المدائن التى افتتحها بافريقية ؛ وخرجوا معه بأصناف ما كان فى كل بلد من طرفها ، واستخلف بطرابلس رجلا اسمه بكر بن عيسى القيسى ، حتى انتهى إلى مصر ، فلم يبق بها فقيه ولا شريف إلا وصله وأعطاه . ثم خرج من مصر متوجها إلى فلسطين، فتلقاه آل روح بن زنباع. ونحروا له خمسين بعيراً . ثم خرج وترك عندهم بعض أهله، وصغار ولده ، وأعطى آل روح بن زنباع عطاء جزلا [2] .

وذكر بعض المؤرخين أن الوليد بن عبد الملك كان مريضا ، وأنه كتب إلى موسى يأمره بالإسراع إليه ليدركه وهو على قيد الحياة ، وفى نفس الوقت كتب سليمان ولى عهد الخليفة إلى موسى يأمره بالتأنى فى سيره رجاء أن يصل بعد وفاة الوليد ، فتكون كل غنائم المغرب والاندلس له ، ولكن موسى استجاب لرغبة الخليفة، وجد فى سيره حتى قدم إلى دمشق ، والوليد ما يزال حيا ، فسلم له الأخماس والمغانم والتحف والذخائر ، ولم يطل العهد بالوليد، فلم يمكث إلا ثلاثة أيام بعد قدوم موسى إليه، ثم توفى . وأفضت الخلافة إلى سليمان ، وكان يحقد على موسى لمخالفته له ، فصب عليه جام غضبه [3] . وقيل أن موسى وصل دمشق بعد وفاة الوليد ، فقدم على

---

(١) ارجع الى تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، ص ١٠٦

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٠

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤١ — المقرى ، ج ١ ص ٢٦٢

سليمان حين استخلف . وكان منحرفا عليه ، إذ كان طارق ومغيث قد سبقاه إليه ، ورمياه بالتهم عند سليمان ، فعزله سليمان عن عمله ، وأقصاه ، وحبسه ، وأغرمه غرما عظيما (١) . وذكر ابن عذارى أن سليمان أمر به ، فأوقف في يوم شديد الحر في الشمس ، وكان موسى بادنا ، فلم يتحمل حرارة الشمس فسقط مغشيا عليه ، وأن سليمان أغرمه ثلثمائة ألف دينار ، وأمر بتعذيبه ، وعزم على قتله ، فاستجار بيزيد بن المهلب ، وكانت له حظوة عند سليمان ، فاستوهبه منه (٢) . ويضيف ابن الاثير أن موسى احتاج أن يسأل العرب في معونته (٣) . ونستبعد صحة هذه الروايات ، فليس من اليسير أن يقوم سليمان بتعذيب تابعي جليل مثل موسى بن نصير ، أسس ملكا من عدمه ، ووقف حياته مجاهداً في سبيل الله لمجرد قالة ظالمة ، أو وشاية في حقه من خصومه . ولو أننا صدقنا هذه الروايات ، لكان أولى بسليمان أن يعاقب موسى بعزل ولديه عبد العزيز من ولاية الأندلس ، وعبد الله من ولاية إفريقية والمغرب ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ، بل ظل عبد العزيز يقوم بولاية الأندلس حتى مصرعه في سنة ٩٨ هـ (٧١٥م) بتدبير بعض رؤساء الجيش من العرب أمثال أيوب بن حبيب اللخمي ، وحبيب بن أبي عبيدة ، وزياد ابن عذرة البلوى ، وزياد بن نابغة التميمي . وأما ما ذكره المؤرخون من تغريم سليمان له ، فلا شك أنهم خلطوا بين سليمان بن عبد الملك وبين أبيه عبد الملك ابن مروان ، الذي أغرمه حسبما ذكرناه سابقا . حقيقة أن عبد العزيز بن موسى لقي مصرعه باشبيلية على أيدي كبار الجند ، وحقيقة أن عبد الله عزل على يدي

---

(١) أخبار مجموعة ، ص ٢٠ — المقرى ، جـ ١ ص ٢٦٢

(٢) ابن عذارى ، جـ ١ ص ٤١ ، ٤٢

(٣) ابن الأثير ، جـ ٤ ص ١٢٤

محمد بن يزيد ، ثم قتل على يدى خالد بن حبيب القرشى فى أواخر عام ٩٧ هـ أو أوائل عام ٩٨ هـ (١) ، ولكن لم يكن لسليمان بن عبد الملك يد فى مقتلها ، على الرغم مما زعمه المؤرخون أنه دس عليها من قتلها (٢) ، وأنه أمر بطرح رأسيها أمام موسى بن نصير (٣) ، فلو أن سليمان كان هو المدبر لجريمة قتل عبد العزيز ، لكان قد بادر بتنصيب وال مكانه ، ولما مكث أهل الأندلس شهوراً لا يجمعهم وال حتى اجتمعوا على أيوب بن حبيب اللخمى (٤) ، ولما شق على الخليفة نبأ مقتله ، فأمر والى إفريقية عبد الله بن يزيد بالتحقيق فى مقتله ، والقبض على قتلته ، وإرسالهم إليه (٥) ، ولما أسف على قتله بعد أن ثبت له براءة عبد العزيز مما اتهم به (٦) من الانتزاء بالاندلس .

ويعتقد الاستاذ محمد على دبوز ، أن سليمان أنكر على موسى سلوكه فى المغرب ، وأنه كان حانقا عليه لمبالغته فى السبى ، وعدم عدله فى البربر ،

---

(١) ابن عذارى ، جـ ١ ص ٤٤

(٢) ابن القوطية ، ص ١١ — ابن قتيبة ، ص ١٧٠ (من كتاب ابن القوطية) — بن عذارى ، جـ ٢ ص ٣٢ — المقرى ، جـ ١ ص ٢٦٣

(٣) ابن قتيبة ، ص ١٧٤ (من كتاب ابن القوطية) — ابن عذارى ، جـ ١ ص ٤٥

(٤) ابن عذارى ، جـ ٢ ص ٣٢ ، ٣٣

(٥) يقول صاحب أخبار مجموعة : « ولما بلغ سليمان مقتل عبد العزيز بن موسى شق ذلك عليه ، فولى افريقية عبيد الله بن يزيد لقريش .. ، وإلى والى افريقية كان أمر الأندلس وطنجة ، وكل ما وراء لافريقية ، وأمره سليمان فيما فعله حبيب بن أبى عبيدة ، وزياد بن النابغة من قتل عبد العزيز بأن يتشدد فى ذلك ، وأن يقفلهما إليه ، ومن شركهما فى قتله من وجوه الناس . ثم مات سليمان ، فسرح عبد الله بن يزيد والى لافريقية على الأندلس الحر بن عبد الله الثقفى وأمره بالنظر فى شأن قتل عبد العزيز » (أخبار مجموعة ، ص ٢٢)

(٦) ابن قتيبة (من كتاب ابن القوطية) ص ١٧٦

واحتجانه للأموال وتفريقها فى الأولياء والأنصار (١) . ونعتقد أن سليمان أخذ على موسى بعض الهفوات ، وأنه كان حانقا عليه إما لأن مغيث الرومى وطارق قدشكياه إليه ، أو لأنه قد بلغه سعى موسى لفصل المغرب والأندلس عن الخلافة بعد أن ولى ولديه عبد العزيز وعبـــد الله عليهما ، وضرب العملات باسمه ، وفرق قسما من غنائم المغرب والأندلس على صنائعه فى مصر . وأيا ما كانت أسباب حنقه عليه ، فلم يكن ذلك مبرراً لتنكيله به على النحو الذى ذكره المؤرخون ، وأغلب الظن أن سليمان عفـا عنه بفضل وساطة عمر بن عبد العزيز فاستبقاه سليمان إلى جواره رحمـة بشيخوخته ، إذ كان قد قارب الثمانين من عمره ، بدليل أنه كان يخرج معه فى نزهاته (٢) ، وأنه حج معه إلى مكة فى سنة ٩٧ هـ (٧١٥م) حيث توفى موسى هناك (٣).

ونعتقد أيضا أن عبد العزيز بن موسى لقى مصرعه على أيدى كبار جنده لأسباب منها : أن زوجته أيلة ، وهى أرملة لذريق ، كانت تحرضـه على الإستقلال بالاندلس ، وتأسيس دولة يكون ملكا عليها ، ونجحت فى التأثير عليه ، ولعل ذلك كان أساسا للرواية القائلة بأنها أقنعته بوضع التـاج على رأسه تشبها بالملوك . ومن أسباب مصرعه أيضا أنه أظهر امتعاضا على تصرف الخليفة سليمان نحو أبيه ، بعـــد كل ما قام به موسى من خدمات للدولة الأموية ، فاضطر عبد العزيز إلى التنفيس عن نفسه « بكلام خفيف » (٤) ،

---

(١) محمد على دبوز ، تاريخ المغرب الـكبير ، جـ ٢ ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ١٦٥

(٢) ابن قتيبة ، ص ١٧٨ ــ نص عبد الملك بن حبيب ، ص ٢٣٥

(٣) ابن قتيبة ، ص ١٨٤ ــ ابن عذارى ، جـ ١ ص ٤٣

(٤) نفس المرجع ، ص ١٧٠

أساء إلى الخليفة ، فتناول الناس هذا الكلام محرفا مشوها ، فوصـــل إلى رؤساء الجند ، وعلى رأسهم حبيب بن أبى عبيده بن عقبة ،الذى كان موسى قد أقامه وزيراً لابنه ، وأيوب بن حبيب اللخمى، ابن أخت موسى بن نصير وغيرهما ، فأجمعوا على قتله ، غيرة على الخلافة الأموية ، ثم أبلغـوا الخليفة بمقتله بسبب خروجه عليه ، وخلعه دعوة بنى مروان ، واستبداده بأمره « لما بلغه مانزل بأبيه وأخيه وأهل بيته »(١). وقد يكونوا قدقتلوه بدافع من الغيرة والحسد لما صار إليه بنو موسى من علو الذكر ،فقتلوه ، واختلقوا هذه التهم كذبا . وقد حقق سليمان فى قضية عبد العزيز ، فاتضح له أنه برىء مما نسبوه إليه ، « وألفى ذلك باطلا، وأن عبد العزيز لم يزل صحيح الطاعة مستقيم الطريقة » (٢) .

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٤

(٢) ابن قتيبة ، ص ١٧٦

(٢)

ولاة المغرب بعد موسى بن نصير

أ ـ جهود محمد بن يزيد (٩٧ ـ ١٠٠) واسماعيل بن عبيد الله (١٠٠ ـ ١٠١) فى نشر الاسلام :

لم يكن سليمان بن عبد الملك راضيا عن تصرف موسى بن نصير فى استبداده بحكم المغرب والأندلس ، ولعل ذلك كان من الأسباب التى أدت إلى استغنائه عن خدماته ، فقد رأى سليمان فى استئثار موسى بحكم المغرب والأندلس بواسطة ولديه عبد العزيز وعبد الله ميلا إلى الخروج عن الخلافة ، وجنوحا إلى الانشقاق عن الدولة . وعلى الرغم من ذلك فقد استبقى الخليفة سليمان عبد العزيز بن موسى على ولاية الأندلس لآثره العديدة ، وجهوده المضنية فى استكمال فتح البلاد ، وتنظيم الدولة الأندلسية . أما بالنسبة لعبد الله بن موسى، فقد كان يستهجن سياسته القائمة على العنف والتسلط فى معاملة البربر. فاستشار وزيره رجاء بن حيوه فيمن يصلح لولاية المغرب ، وقال له : «أريد رجلا له فضل فى نفسه ، أوليه إفريقية » ، فاستمهله ابن حيوة أياما ليفكر ويبحث عن شخص تتوفر فيه هذه الصفة ، ثم قدم عليه وقال له : « قد وجدت رجلا له فضل . قال : من هو ؟ . قال : محمد بن يزيد مولى قريش. فقال : ادخله على ، فأدخله عليه ، فقال سليمان : يامحمد بن يزيد ، اتق الله وحده لاشريك له ، وقم فيما وليتك بالحق والعدل ، وقد وليتك إفريقية والمغرب كله » (١) .

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٤

ويذكر ابن عذارى أن محمداً بن يزيد استقر بافريقية بأحسن سيرة وأعدلها ، وكان سليمان قد أمره بالقبض على عبد الله بن موسى وتعذيبه ومصادرة أمواله وأموال بنى موسى حتى يؤدوا ثلاثمائة ألف دينار (١) . ولكن هذا الخبر يتناقض مع ماذكره ابن عذارى قبل ذلك ، من أن موسى افتدى من سليمان بألف ألف دينار (٢) . وقد استبعدنا من قبل قيام سليمان بتعذيب آل موسى بن نصير . وأغلب الظن أن ذلك تم فى عهد يزيد بن عبد الملك ، عندما اتهم عبد الله بن موسى بقتل يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج وكاتبه ، وتولى بشر بن صفوان مهمة قتله ، ومصادرة أموال ذويه (٣) .

وساد السلم والأمن بلاد المغرب فى ولاية محمد بن يزيد ، وفى خلال هذه الفترة السلمية القصيرة ، التى نعم فيها البربر بالاطمئنان والعدل ، قام محمد بن يزيد بفتح المناطق الداخلية من المغرب الأقصى ، كما بعث السرايا إلى ثغور إفريقية والجزر المجاورة لها (٤) . وكان محمد بن يزيد يقسم مايصيبه من غنائم على جنوده دون أن يحتجز لنفسه شيئا منها ، فكان مثلا طيبا للوالى العادل النزيه . وقد كان لهذه السياسة الحكيمة أثرها العميق فى كسب أفواج جديدة من البربر إلى الإسلام . فلما توفى سليمان بن عبد الملك سنة ٩٩ هـ ، استعمل الخليفة الجديد عمر بن عبد العزيز تابعيا جليلا وإماما زاهدا هو اسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر دينار على إفريقية فى

(١) ابن عذارى ، ج١ ، ص٤٤
(٢) نفس المرجع ج ١ ص ٤٢ — نص عبد الملك بن حبيب ص ٢٣٣
(٣) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ١٥٣
(٤) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٤٥

محرم سنة ١٠٠ ﻫ ، وكان اسماعيل هذا مصلحا من أعظم ولاة بنى أمية على المغرب ، فقد ورث عن جده صفات الحزم والحكمة وحسن التدبير، وكان يجمع إلى جانب كياسته وحكمته ورعا وتقوى ، ولذلك نراه يتفانى فى نشر الإسلام بين قبائل البربر ، ويعمل جهده على تعليم البربر وتثقيفهم بالتعليم والثقافة الإسلامية (١) . ويذكر المؤرخون أن الخليفة عمر بن عبد العزيز بعث معه عشرة من التابعين أهل علم وفضل، وأمرهم بأن يبذلوا جهدهم لتفقيه البربر فى علوم الدين حتى يقوم إسلامهم على أساس متين ، وهؤلاء التابعون هم : أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المعافرى الحبلى (المتوفى سنة ١٠٠ ﻫ)، وأبو مسعود سعيد بن مسعود التجيبى ، واسماعيل بن عبيد الأنصارى المعروف بتاجر الله (ت . سنة ١٠٧ ﻫ) ، وأبو الجهم عبد الرحمن بن رافع التنوخى (ت . سنة ١١٣ ﻫ) ، وأبو سعيد جعثل بن عاهان بن عمير الرعينى الغسانى (ت . فيما يقرب من سنة ١١٥ ﻫ) ، وحيان بن أبى جبله القرشى (ت . سنة ١٢٥) ، وموهب بن جنى المعافرى ، وطلق بن حابان الفارسى ، وبكر بن سوادة الجذامى (ت.سنة ١٢٨) ، واسماعيل بن عبيد الله الأعور (٢) (ت . سنة ١٣٢) . وقد تولى اسماعيل بن أبى المهاجر توزيع هؤلاء التابعين فى أنحاء المغرب ، وتحول البربر بفضل هؤلاء وبفضل الفقهاء الذين كان قد وزعهم حسان بن النعمان وموسى بن نصير من قبل فى بلاد البربر إلى أمة إسلامية ، ولم يبق على غير الإسلام فى المغرب سوى جماعة من الروم ،وطائفة من اليهود . ويجمع المؤرخون على أن برير إفريقية أسلموا جميعهم فى أيام

---

(١) ابن عذارى، ج١، ص ٤٥

(٢) المالكى، رياض النفوس، أنظر الفصل الخاص بتراجم هؤلاء التابعين، ص٦٤–٧٦

اسماعيل بن أبى المهاجر [1] . ويعلق الأستاذ جورج مارسيه على انتقال البربر إلى الإسلام بمثل هذه السرعة بقوله : « فنى أقل من قرن واحد اعتنق العدد الأعظم من أبناء أولئك المسيحيين [2] الإسلام فى حماس يجعلهم راغبين فى اغتنام الشهادة ، وقد تمت النقلة بصورة نهائية فى خـــلال القرنين الأول والثانى للهجرة أو القرون الثلاثة التالية ، غير تاركة من بـلاد المغرب سوى بقع ضئيلة ، أصبح حتى مجرد الاعتقاد فى وجـودها أمرا مشكوكا فيه . وبينما كانت معظم البلاد التى انتشر فيها الاسلام تحتفظ بطوائف مسيحية ، كـانت لها مكانة مرموقة فى الدولة فى بعض الأحيان كـالشأن مع سكان جبل لبنان فى بلاد الشام ، والأقباط فى مصر ، والمعاهدة المستعربين فى الأندلس ، الذين كانوا يعيشون جميعا جنبا إلى جنب مع ساداتهم المسلمين، فان وطن سان أوجستين لم يعرف نظيرا لذلك » [3] .

ونتج عن انتقال البربر إلى الإسلام انتشار اللغة العربية ، لغة القرآن ، فى بلاد المغرب . ويذكر الأستاذ عثمان الكعاك أن الفتـح العربى المغرب يمتاز عن غيره من الفتوحات السابقة للمغرب كـالفتح الفينيقى والرومانى ، بأنه فتح ثقافى ، فقد حمل الفاتحون معهم اللغة والدين ممثلين فى القرآن الكريم « الذى هو قوام دين ، ودستور سياسة ، وبحر إخلاق ، وقاموس

---

(١) ابن عذارى ج ١ ، ص ٤٥ — ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٤٠٣ ، ج ٦ ص ٢٢٠

(٢) يقصد بهم نصارى البربر الذين كانوا يؤلفون الأغلبية العظمى لسكان المغرب . ويذكر الاستاذ مارسيه أن بعض سكان المغرب كانوا وثنيين ، ويعتقد استنادا الى ابن خلدون أن هؤلاء الوثنيين هم صنهاجة السوس .

(٣) G. Marcais : la Berberie musulmane et l'Orient au Moyen âge, Paris, 1946, p. 36

لغة ، وديوان ثقافة ، لذلك بنى الفتح على الثقافة فى يوم الفتح نفسه » [1] ، وكان من الطبيعى أن يحرص البربر الذين دخلوا فى الإسلام على تعلم العربية لدراسة ماجاء فى القرآن الكريم من آيات بينات. ولكن انتشار اللغة العربية التى حلت محل اللاتينية لم يقض على اللغة البربرية التى كانت منتشرة على وجه خاص فى أطراف المغرب وفى المناطق الجبلية والرعوية ، إلا أن لغة البربر كانت وسيلة للتعبير الشفوى عند البدو ، ولم تكن قط لغة حضارة . ويرجع الفضل فى انتشار الإسلام واللغة العربية إلى عقبة بن نافع الفهرى الذى أسس القيروان ومسجدها الجامع ، وإلى حسان بن النعمان الذى أسس مدينة تونس ووزع الفقهاء فى سائر البلاد لتثقيف البربر وتعليمهم أصول الإسلام ، وإلى موسى بن نصير الذى أرسل المعلمين إلى السوس الأقصى وحول الكنائس فيها إلى مساجد ، فجعلها مراكز لتحصيل العلوم الدينية ، وأسس مسجدى تلمسان وأغمات هيلانه [2] ، وأخيرا إلى إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر الذى كان لتقواه وورعه وزهده وحرصه على الإصلاح أعمق الأثر فى انتقال البربر إلى الإسلام جملة ، بفضل التابعين العشرة الذين بعثهم معه الخليفة العظيم عمر بن عبد العزيز . ومن بين المساجد التى أسست على أيدى هؤلاء التابعين مسجد الرباطى الذى بناه أبو عبد الرحمن عبد الله ابن يزيد المعافرى الإفريقى ، وجامع الزيتونة بتونس الذى بناه إسماعيل بن عبيد الله المعروف بتاجر الله . ولقد كانت المساجد الأولى التى بناها المسلمون مراكز علمية هامة ، ومعاهد للدرس والتحصيل قبل أن تظهر الجامعات

---

(١) عثمان الكعاك ، مراكز الثقافة فى المغرب ، مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ١٢

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٣٧

والمدارس ، ففيه كان يسمع التلاميذ على أساتذتهم فى الفقه ، واللغة ، والحديث ، والقراءات ، والطب ، والفلك ، وغيرها من الدراسات العلمية دينية وأدبية ولغوية ، ولهذا السبب نشهد ثلاث ظواهر فى هذا القرن الثانى الهجرى فى بلاد المغرب ، الظاهرة الأولى ، إنشاء المساجد فى داخل بلاد البربر ، وفى بلاد السوس . والظاهرة الثانية ، إرسال بعثات من علماء العرب وفقهائهم ومن التابعين إلى سائر أنحاء بلاد المغرب . والظاهرة الثالثة ، تأسيس مساجد خاصة بقصد الأعمال الخيرية ، وأشهرها بالقيروان مسجد الرباطى أو الحبلى ، ومسجد أبى ميسرة ، ومسجد محمد بن خيرون الاندلسى(١) ، والمسجدان اللذان أسستهما مريم بنت محمد بن عبد الله الفهرى وأختها فاطمة القروية أم البنين بربضى الأندلسيين والقرويين بفاس (٢) .

ب ـ سياسة الاستبداد مع البربر ونتائجها :

توفى الخليفة عمر بن عبد العزيز بدير سمعان فى ٦ شعبان سنة ١٠١ هـ ، وولى الخلافة المروانية بعده يزيد بن عبد الملك ، وكان يزيد هذا لا يقر سياسة التسامح واللين التى اتبعها الخليفة المصلح عمر بن عبد العزيز ، وإنما كان يرى أن سياسة الترهيب والعنف أجدى على الدولة ، كذلك كان يرى أن انتقال البربر إلى الإسلام قد أدى بطبيعة الحال إلى ضياع مورد هام من موارد الدولة وهو الجزية التى كانت تفرض على المعاهدين من النصارى وأهل الذمة ، ولذلك بادر منذ توليه الخلافة بعزل إسماعيل بن أبى المهاجر ،

---

(١) عثمان الكعاك ، مراكز الثقافة فى المغرب ، ص ١٤

(٢) الجزنائى ، كتاب زهرة الآس فى بناء مدينة فاس ، الجزائر ١٩٢٢ ، ص ٣٤

وولى على إفريقية صاحبا للحجاج بن يوسف هو يزيد بن أبى مسلم ، كاتب الحجاج وصاحب شرطته ، ليطبق على البربر نفس السياسة التى طبقها الحجاج الطاغية على أهل العراق . فقدم يزيد بن أبي مسلم إلى إفريقية سنة ١٠٢ هـ ، وعزم على أن يسير فى البربر « بسيرة الحجاج فى أهل الإسلام الذين سكنوا الأمصار ممن كان أصله من السواد من أهل الذمة ، فأسلم بالعراق ، فانه ردهم إلى قراهم ، ووضع الجزية على رقابهم على نحو ما كانت تؤخذ منهم وهم كفار » (١) . وهكذا تشبه يزيد بن مسلم بالحجاج ، واستبد مع البربر ، وفرض عليهم الجزية ، واستخف بهم ، واشتد عليهم فى جمع أموالهم ، وسبى نسائهم ، وأسرف فى ذلك حتى أو غر عليه صدورهم . ويذكر ابن عبد الحكم أنه قبض على محمد بن يزيد القرشى ، فعذبه وجلده جلدا وجيعا ، فاستسقاه ، فسقاه رمادا ، وكان قد بنى له فى السجن بيتا ضيقا ، فجعله فيه، وكساه جبة من الصوف الغليظ وختمها بالرصاص(٢) . وذكر ابن عذارى أنه « كان ظلوما غشوما ، وكان البربر يحرسونه ، فقام على المنبر خطيبا : إنى رأيت أن أرسم اسم حرسى فى أيديهم كما تصنع ملوك الروم بحرسها ، فأرسم فى يمين الرجل اسمه ، وفى يساره حرسى ، ليعرفوا بذلك من بين سائر الناس ، فاذا وقفوا على أحد أسرع لما أمرت به . فلما سمعوا ذلك منه ، أعنى حرسه ، اتفقوا على قتله ، وقالوا : جعلنا بمنزلة النصارى » (٣) . وأخذ هؤلاء الحراس ومعظمهم من موالى عبد الله

---

(١) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، طبعة القاهرة ١٩٣٩ ، جـ ٥ ، ص ١٠٣ — ابن الأثير ج ٤ ، ص ١٨٢

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، تحقيق عبد المنعم عامر ، ص ٢٨٨

(٣) ابن عذرى ، ج ١ ، ص ٤٦

ابن موسى بن نصير ، يترقبون الفرصة المواتية للوثوب عليه ، وقد نجحوا في قتله وهو يؤدي الصلاة بعد شهر واحد من ولايته (١) . ثم اتفق القوم على تولية المغيرة بن أبي بردة ، ولكن ابنه عبد الله نصحهم بأن يختاروا محمداً بن يزيد ، وكان غازيا بصقلية ، لأن أباه شهد مقتل يزيد بن أبي مسلم ، فخشي أن يتهم بقتله ، فوافق القوم على ذلك ، فلما قدم محمد بن يزيد ، قلده أمر إفريقية والمغرب ، وكتبوا إلى الخليفة يزيد بن عبد الملك: « إنا لم نخلع أيدينا من طاعة ، ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يرضاه الله والمسلمون ، فقتلناه ، وأعدنا عاملك » ، فكتب إليهم يزيد بن عبد الملك : « إني لم أرض ماصنع يزيد بن أبي مسلم » وأقر محمد بن يزيد على عمله » (٢) .

لم يجد يزيد بن عبد الملك بدا من الإذعان لرغبة البربر ، وقبول الأمر الواقع ، ولكنه بدأ يحترز من البربر ويعمل لهم حسابا كبيراً ، فرأى أن يغير سياسته معهم ، ثم أقام عليهم بشر بن صفوان الكلبي واليا سنة ١٠٣ هـ ، وكان بشر واليا على مصر عند مقتل يزيد بن أبي مسلم ، فقدم إلى القيروان . واصطنع مع البربر سياسة تقوم على المساواة بينهم وبين العرب ، وحسن المعاملة والعدل ، تهدئة لخواطرهم ، ونجح في تمهيد المغرب ، وتسكين أرجائه بحسن سيرته ولينه ، وساد البلاد في عهده فترة من السلم والهدوء . ويبدو أن يزيد بن عبد الملك كان غاضبا على بني موسى بن نصير في المغرب ، إذ كان يعتقد أن لهم يداً في تحريك مواليهم على الثورة على يزيد وقتله ، وكان

(١) ابن عبد الحكم ، طبعة عبد المنعم عامر ، ص ٢٨٩ — السلاوي ، الاستقصا ، ج ١ ، ص ١٠٣

(٢) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ١٨٢ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٠٣ — السلاوي ، ص ١٠٣

معظم الثائرين على يزيد بن أبي مسلم من موالى موسى بن نصير ، فعظم ذلك على يزيد بن عبد الملك ، وأمر عامله بشراً بقتل عميدهم عبد الله بن موسى ومصادرة أموالهم ، فكان أول ما فعله بشر قتل عبدالله بن موسى وتعذيب آله واستصفاء أموالهم (١) ، ولعله كان يطمع فى أخذ هذه الأموال الطائلة لنفسه عن هذا الطريق بعد أن انقطع عنه المورد الآخر وهو الجزيات بمقتل يزيد بن أبي مسلم . ثم رحل بشر بعد ذلك إلى دمشق ليقدم هذه الأموال والتحف إلى الخليفة ، ولكن يزيد كان قد توفى قبل وصول بشر إلى دمشق ، فقدم بشر الهدايا والأموال إلى هشام بن عبد الملك ، فأقره على عمله بالمغرب فقدمها وتتبع أموال موسى بن نصير بالمصادرة وعذب مواليه . وفى سنة ١٠٩ هـ خرج بشر بن صفوان بنفسه لغزو صقليه ، فأصاب بها سبيا كثيراً (٢) ، ولكنه أصيب عند عودته بمرض خطير يقال له الدبيلة مات على أثره بالقيروان فى شوال سنة ١٠٩ هـ ، وكان بشر قد استخلف على المغرب أثناء مرضه العباس بن باضعة الكلبى ، فظل العباس يقوم بولاية المغرب حتى وصل عبيدة بن عبد الرحمن السلمى ، الوالى الجديد إلى القيروان فى ربيع الاول سنة ١١٠ . وكان عبيدة هذا قيسيا متعصبا ، فتحامل على عمال بشر وأنصاره ، فسجنهم ، وأغرمهم ، وعذب بعضهم ، ثم ولى على الاندلس من قبله ولاة أربعة على التوالى هم . عثمان بن أبى نسعة الخثعمى فى شعبان سنة ١١٠ ، وحذيفة بن الأحوص القيسى ، فى أول محرم سنة ١١١ هـ ، والهيثم بن عبيد الكنانى فى محرم سنة ١١٢ هـ ، وعبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ، فى محرم

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٢٩٠

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٨ — ابن الأثير ، ج ٤ ص ٢٠١

سنة ١١٣ﻫ وكان من ضحايا سياسته التعصبية عامل من عمال بشر بن صفوان هو أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبى، عزله عبيدة ونكل به ، فكتب أبو الخطار الأبيات الثلاثة الآتية :

أفأتم بنى مروان قيسا دماءنا
وفى الله إن لم تنصفوا حكم عدل
كأنكم لم تشهدوا مرج راهط
ولم تعلموا من كان ثم له الفضل
تعاميتم عنا بعين جلية
وأنتم كذا ما قد علمنا لنا فعل

وبعث بهذه الأبيات إلى الخليفة هشام ، فأمر هشام بعزل عبيدة عن إفريقية والمغرب ، فاستخلف عبيدة أحد أصحابه هو عقبة بن قدامة ، فى شوال سنة ١١٤ ﻫ ، وتوجه إلى الشام ومعه من الهدايا والتحف العظيمة والإماء والدواب الكثير [١] ، وذكر ابن عبد الحكم أنه حمل إلى هشام من الجوارى المتخيرة سبعمائة جارية وغير ذلك من الخصيان والخيل والدواب والذهب والفضة والآنية [٢] .

وكان عبيدة رغم حسن رأيه وحزمه شديداً فى معاملته للبربر ، فأسرف فى غزو قبائلهم وسبى نسائهم ، وبالغ فى التعسف معهم والجور بهم ، وقد كان لهذه السياسة الغاشمة أثرها فى تقبل البربر لمبادىء الخوارج ، على النحو الذى سنفصله فيما بعد . ومن جلائل أعمال عبيدة إرساله المستنير بن الحارث الحريق

(١) نفس المرجع ص ٥٠ — ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢١٥
(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٢٩٢

إلى صقلية حيث قضى فيها الشتاء غازيا ، وعند قفوله من غزوته ثار البحر ، فغرق من معه من المسلمين ، ونجا المستنير فى مركبة ، ونزل بساحل طرابلس ثم قدم إلى القيروان ، فعاقبه عبيدة بالجلد والتشهير بالقيروان، ثم أمر بسجنه فظل به إلى أن قدم عبيد الله بن الحبحاب واليا على إفريقية سنة ١١٤ هـ ، فأفرج عن المستنير ، وولاه تونس(١) .

وكان عبيد الله بن الحبحاب قد أثبت مهارة كبيرة فى إدارة شئون مصر، فاختاره الخليفة هشام بن عبد الملك واليا على المغرب كله لصرامته وشدته ، فاستخلف عبيد الله بن الحبحاب على مصر ابنه القاسم،واستعمل على الأندلس عقبة بن الحجاج السلولى القيسى ، واستعمل على طنجة وما والاها من المغرب الأقصى ابنه اسماعيل ، ثم عمر بن عبد الله المرادى (٢) . وكان عبيد الله قيسيا متعصبا لقيسيته ، كما كان متعصبا للعرب عامة على البربر ،فجعل يتعسف معهم كما كان يتعسف مع اليمنية ، ويبدو أن بربر السوس الأقصى شقوا عليه عصا الطاعة ، فبعث إليهم حبيب بن أبى عبدة بن عقبة بن نافع سنة ١١٦هـ غازيا ، فبلغ أرض السودان ، وتغلب عليهم ، وأصاب كثيراً من السبى (٣) والذهب والفضة ، كذلك سير عبيد الله بن الحبحاب جيشا إلى صقلية لغزوها ، واشتبكت سفن المسلمين مع سفن الروم فى قتال عنيف انتهى بهزيمة الروم (٤) .

---

(١) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢١٥

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٥١

(٣) ابن عذارى ، ص ٥١ — ابن الأثير ، ج ٤ ص ٢١٩ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٠٤ ، ج ٦ ص ٢٢١

(٤) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢١٩

وأساء عمال ابن الحبحاب فى المغرب السيرة مع البربر ، واعتبروهم فيئا للمسلمين وعبيداً لهم ، وكان أشد هؤلاء العمال ظلما واستبدادا عامله على طنجة عمر بن عبد الله المرادى ، الذى « أساء السيرة ، وتعدى فى الصدقات والعشر ، وأراد تخميس البربر ، وزعم أنهم فيء المسلمين ، وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله ، وإنما كان الولاة يخمسون من لم يجب للاسلام ، فكان فعله الذميم هذا سببا لانتقاض البلاد ، ووقوع الفتن العظيمة المؤدية إلى كثير من القتل فى العباد » (١) . وكان هشام بن عبد الملك يستحب طرائف المغرب ويكتب إلى عامله بطنجة أن يرسل إليه « جلود الخرفان العسلية » التى تسلخ من جلود سخال الضأن عند ولادتها أى قبل أن تصبح خشنة بنمو الخراف ، فيصنعون منها الجباب الصوفية الناعمة ، وكان الخليفة يؤثر اللون العسلى ، ويطلب من عامله أن يأتيه بها عسلية اللون غير مصبوغة . ولما كان من العسير للغاية التوصل إلى خراف وليدة بهذا اللون العسلى ، فقد عمد العامل إلى النعاج الحاملة ، فيأمر ببقر بطونها واستخراج أجنتها بحثا عن هذه الجلود العسلية . ويذكر صاحب أخبار مجموعة أنه كانت تذبح « مائة شاه فربما لم يوجد فيها جلد واحد » (٢) . وكان من الطبيعى أن يتعذب صاحب قطيع الغنم إذ يرى غنمه تهلك بالذبح لاتخاذ الجلود العسلية من سخالها ، ويعز عليه ضياع كل ماله بهذه الكيفية الوحشية ، ولا يستطيع أن يفعل شيئا أمام هذا الظلم والإستبداد . وكان الخلفاء يستحبون أيضا طرائف المغرب ونسائه ، ويبعثون إلى عامل إفريقية بطلبهن ، فكان العامل يحرص كل

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٢

(٢) أخبار مجموعة ، ص ٣٢

الحرص على إرسال البربريات المسبيات (١) ، وهو أمر كان ينكره البربر على عاملهم . ويذكر ابن عذارى أنه « لما أفضى الأمر إلى ابن الحبحاب ، مناهم بالكثير ، وتكلف لهم أو كلفوه أكثر مما كان ، فاضطر إلى التعسف وسوء السيرة » (٢) .

ويلخص ابن خلدون أسباب ثورة البربر بقوله: استعمل ابن الحبحاب « عمر بن عبد الله المرادى على طنجة والمغرب الأقصى ، وابنه اسماعيل على السوس وما وراءه، واتصل أمر ولايتهم، وساءت سيرتهم في البربر، ونقموا عليهم أحوالهم ، وما كانوا يطالبونهم به من الوصائف البربريات والأفرية العسلية الألوان وأنواع طرف المغرب . فكانوا يتغالبون في جمعهم ذلك وانتحاله ، حتى كانت الصرمة من الغنم تهلك بالذبح لاتخاذ الجلود العسلية من سخالها ولا يوجد فيها مع ذلك إلا الواحد وما قرب منه ، فكثر عبثهم بذلك في أموال البربر وجورهم عليهم » (٣) .

وهكذا كانت نفوس البربر تغلى لهذه المظالم في الوقت الذى انقسم فيه العرب إلى عصبيتين: يمنية وقيسية . وفي أثناء ذلك ، كثر وفود الخوارج إلى بلاد المغرب لبعدها عن مركز الخلافة ، وتسللوا بين البربر ، وأخذوا يبثون تعاليمهم بينهم، مستغلين الخصومات القائمة بين العصبيتين اليمنية والقيسية واشتغال الولاة بهذه المنازعات . ويقبل البربر هذه التعاليم المنادية بالمساواة بينهم وبين العرب ، وفتحوا للخوارج صدورهم واحتضنوهم ، وكان لبربر البتر ، وعلى الأخص هوارة وزناتة الفضل الأعظم في استكمال فتح المغرب

(١) ابن عذارى ، جـ ١ ص ٥٣

(٢) نفس المرجع

(٣) ابن خلدون ، جـ ٦ ص ٢٤٠

وفتح الأندلس ، وكانوا لذلك يتوقعون من العرب أن يعاملوهم معاملة الأنداد ، ولكنهم صدموا لاستذلال الولاة لهم ، فتغيرت نفوسهم نحو العرب وبدأوا ينقلبون عليهم ، وتحالفت زناتة مع الأفارقة الذين ساءهم أن يضعهم العرب فى منزلة الروم ، فاعتبروا الأفارقة موالى ، وغنموا أراضيهم وأموالهم ، وهذا يفسر انضمام عبد الأعلى بن جريج الافريقى إلى ميسرة المطغرى فى الثورة [1] .

ج ـ مقدمات ثورة البربر على العرب فى المغرب (موقعة الأشراف سنة ١٢٢هـ) :

فر عدد كبير من العلويين والخوارج إلى الطرف الغربي من الدولة العربية ونعنى به بلاد المغرب من بطش الأمويين بهم ، والتمسوا الأمان بين البربر الساخطين على عمال بنى أمية فى المغرب . ووجد دعاة الخوارج من العرب فى بلاد المغرب أرضا خصبة لغرس تعاليمهم القائمة على المساواة بين المسلمين والثورة على الظلم ، ولكن البربر اختلفوا فى مدى تقبلهم لهذه التعاليم ، فبربر القسم الشمالى من المغرب الأقصى والمغرب الأوسط تقبلوا المذهب الإباضى المعتدل ، بينما اعتنق بربر القسم الجنوبي من المغرب الأقصى ـ فى المناطق الجبلية الممتدة من السوس الأدنى إلى جبال درن ـ مذهب الصفرية المتطرف. وبينما كان المعتدلون من البربر يدعون إلى الثورة على الظلم ، كان الغلاة وقد داخلتهم الشعوبية البربرية يدعون إلى إقامة حكومة بربرية دينها الإسلام ، أو إسلام متبربر ، ولغتها البربرية ، وظهرت هذه النزعة فى برغواطة [2] التى كانت تدين بديانة شرعها لها صالح بن طريف الذى تسمى بصالح المؤمنين

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٠ ـ حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ١٤٨

(٢) عثمان الكعاك ، المرجع السابق ص ١٥

وزعم أنه المشار إليه فى القرآن (١) . ومن الغريب أن تنقلب فرقتا الإباضية والصفرية اللتين لم تكونا حربا على الخلافة فى المشرق ، إلى حركة تفوق فى قسوتها وتطرفها حركة الأزارقة بالمشرق (٢) ، مما دعا الدكتور حسين مؤنس إلى أن يشك فى نسبة حركات البربر فى المغرب الأقصى إلى الصفرية والإباضية لاعتدال هذين المذهبين ، فيرجعهما إلى أسباب سياسية (٣) . فالمذهب الإباضي يتفق فى كثير من أصوله وفروعه مع مذاهب أهل السنة، وهو أقرب إلى أهل السنة من بقية الفرق الأخرى ، كما أن مذهب الصفرية يكاد يكون أكثر مذاهب الخارجية اعتدالا (٤) .

وأول من أدخل مذهب الإباضيه إلى إفريقية سلمة بن سعيد الذى قدم إليها من المشرق فى أوائل القرن الثالث لينشره هناك بين البربر ، وأخذه عنه فيها عاصم السدراتي ، واسماعيل بن درار الغدامسي ، وداود القبلي النفزاوى وعبد الرحمن بن رستم الفارسى . وقد رحل هؤلاء إلى البصرة ، وتلقوا هناك أصول المذهب على أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة البصرى من كبار علماء الإباضية ، وانضم إليهم بالبصرة عبد الأعلى بن السمح ، ثم عادوا إلى المغرب بعد أن أقاموا عند أبى عبيدة خمسة أعوام حتى أصبحوا من أعلام الإباضية، وعرفوا لذلك عند الإباضية فى المغرب بحملة العلم (٥) .

---

(١) البكرى ، ص ١٣٤ - ١٤١ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، تحقيق الدكتور مختار العبادى ، ص ١٨٢

(٢) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى للدولة العربية ، الجزء الثانى ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٢٨٨

(٣) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ١٤٩

(٤) نفس المرجع

(٥) الطاهر احمد الزاوى ، ص ١٢١

ذكرنا أن بربر البتر بالذات تقبلوا التعاليم التى نشرها دعاة الخارجية ، ولم يشرع البربر فى إعلان ثورتهم على العرب إلا بعد أن يئسوا من الاصلاح. ويبدو أن دعاة الخارجية بذلوا جهدا كبيرا فى إقناع البربر على الوثوب بالعرب ، ولكن البربر آثروا إبلاغ أولى الأمر من الخلفاء عن مساوىء عمالهم فى المغرب ، فسيروا وفدا إلى الخليفة هشام لمطالبته باصلاح الوضع فى المغرب ، ولكنهم لم يتمكنوا من مقابلته ، إذ حال الأبرش وزيره بينهم وبينه، فعادوا إلى المغرب وقد عزموا على الثورة . وفى ذلك يقول الطبرى : « ... فما زال أهل المغرب من أسمح أهل البلدان ، وأطوعهم إلى زمان هشام بن عبد الملك ، فلما دب إليهم أهل العراق ، واستثاروهم ، قالوا: إنا لا نخالف الأئمة بما تجنى العمال ، ولا نحمل ذلك عليهم ، فقالوا لهم : إنما يعمل هؤلاء بأمر أولئك . فقالوا لهم : لا نقبل ذلك حتى نخبرهم . فخرج ميسرة المضغرى فى بضعة عشر إنسانا (١) حتى قدم على هشام . فطلبوا الإذن ، فصعب عليهم ، فأتوا الأبرش (٢) ، فقالوا : أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزو بنا وبجنده ، فاذا أصاب نفلهم دوننا ، وقال هم أحق به ، فقلنا ، هو أخلص لجهادنا . وإذا حاصرنا مدينة قال : تقدموا ، وأخر جنده . فقلنا : تقدموا ، فانه ازدياد فى الجهاد ، ومثلكم كفى إخوانه . فوقيناهم بأنفسنا وكفيناهم . ثم إنهم عمدوا إلى ماشيتنا ، فجعلوا يبقرونها عن السخال ، يطلبون الفراء الأبيض لأمير المؤمنين ، فيقتلون ألف شاة فى جلد ، فقلنا : ما أيسر هذا لأمير المؤمنين ، فاحتملنا ذلك ، وخليناهم وذلك.

---

(١) ذكر المالكى فى رياض النفوس ، وابن خلدون فى العبر أنه خرج فى بضعة وعشرين رجلا .

(٢) كان الأبرش رئيسا لوزراء هشام بن عبد الملك.

ثم إنهم ساموها أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا ، فقلنا : لم نجد هذا فى كتاب ولا سنة ، نحن مسلمون . فأحببنا أن نعلم ، أعن رأى أمير المؤمنين ذلك أم لا ؟ قال الأبرش : نفعل . فلما طال عليهم ، ونفذت نفقاتهم ، كتبوا أسماءهم فى رقاع ورفعوها إلى الوزراء ، وقالوا : هذه أسماؤنا ، وأنسابنا ، فان سألكم أمير المؤمنين عنا فأخبروه . ثم كان وجههم إلى إفريقية ، فخرجوا على عامل هشام فقتلوه ، واستولوا على إفريقية ، وبلغ هشاما الخبر . فسأل عن النفر ، فرفعت إليه أسماؤهم ، فاذا هم الذين صنعوا ما صنعوا » [١] .

ولما لم يجد ميسرة المطغرى ورفاقه من الخليفة هشام اهتماما ببحث شكايتهم ، لجئوا إلى الثورة على عامل الخليفة فى المغرب ، وكان ميسرة هذا شيخا من شيوخ قبيلة مطغرة البترية [٢] . وكان عالما مستنيرا ، فساءه أن لا يصغى الخليفة لشكاية قومه ، فعزم على الانتقاض على العرب ، فتولى دعوة الصفرية فى المغرب الأقصى بين ذويه وقومه من بنى مطغرة ، ولم يلبث أن انضم إليه برير مكناسة وبرغواطة بزعامة صالح بن طريف ، كما انضم إليه الأفارقة فى طنجة بزعامة عبد الأعلى بن جريج ، وبايعه البربر إماما « وخاطبوه بأمير المؤمنين ، وفشت مقالته فى سائر القبائل بافريقية » [٣] . وهكذا وجد

---

(١) الطبرى ، عن دبوز ج ٢ ص ٢٤٨ ، ٢٤٩

(٢) ميسرة المطغرى المعروف فى المصادر العربية بالحقير أو الفقير ، أو الحقير كان سقاء يبيع الماء بسوق القيروان (ابن القوطية ص ١٤ ــ البكرى ص ١٣٤ ــ ابن الأثير ج ٤ ص ٢٢٤ ــ ابن عذارى ج ١ ص ٥٢) ، ولكن الدكتور مؤنس يستبعد أن يكون كذلك ، ويعتقد استنادا على ابن خلدون أنه كان رئيسا لقبيلة مطغرة ، أو عينا من أعيانها وقد اثبتت الأحداث أنه كانت له عصبية لها خطرها (حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ١٦٥)

(٣) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٠٥

البربر لهم رئيس يقودهم ، فاقتدوا بخوارج الأزارقة وأهـــل النهروان أصحاب عبد الله بن وهب الراسبي ، وحلقوا الرؤوس [1] . وذكر ابن خلدون أنهم «فحصوا عن أوساط رؤوسهم ، ونادوا بشعار الخارجية» [2]. وسنحت الفرصة لميسرة للخروج على العرب عنـــدما خرج جيشهم بقيادة حبيب بن أبى عبدة فى حملة إلى صقلية ، فجمع أنصاره ، ونقضوا الطـاعة لعبيد الله بن الحبحاب بطنجة وأقاليمها ، وتداعت برابر المغرب بأسره ، فثار البربر فى المغرب الأقصى سنة١٢٢ هـ (٧٣٩م)، وخرج ميسرة المطغرى ، ووثب على عمر بن عبد الله المرادى بطنجة فقتله ، وولى ميسرة مكانه مولى من موالى موسى بن نصير هو عبـد الأعلى بن جريج الإفريقى الرومى الأصل ، وكان مقـــدما للصفرية فى طنجة . وسار ميسرة إلى السوس ، وهاجم قوات اسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب، فهزمه وقتله ، واضطرم المغرب على أثر ذلك نارا ، فانتقض أمره على خلفـــاء بنى مروان فى المشرق [3] .

وهكذا تحرج موقف عبيد الله بن الحبحاب فى بـلاد المغرب ، وساء مركز العرب ، وفى نفس الوقت ، عظمت مكانة ميسرة وأتباعه من البربر الخوارج ، وكـثر جمعه من البربر ، وقـوى أمره فى المغرب الأقصى . وغضب عبيد الله لزوال هيبة العرب بقتل عامله على طنجة وولده اسماعيل،

---

(١) أخبار مجموعة، ص٣٢

(٢) ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٤٣

(٣) ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٤٠ . أخطأ الأستاذ محمد على دبوز إذ ذكر أن اسماعيل ابن عبيد الله بن الحبحاب تغلب على ابن جريج وقتله لتفوق اسماعيل عليه فى العدد والسلاح (ج ٢ ص ٢٥٦)

فكتب إلى حبيب بن أبي عبدة يأمره بالرجوع من صقلية حتى يتمكن العرب من التكتل، ومواجهة ثورة البربر (١).

وأعد عبيد الله بن الحبحاب بالقيروان جيشا مؤلفا من خيار العرب، جعل على مقـدمته خالد بن حبيب بن أبي عبدة الفهرى، وتقدم هذا الجيش قاصدا إلى طنجة لمقابلة حشود ميسرة من البربر، وعبر خالد وادى شليف بالقرب من تاهرت، والتقى هناك بجيش أبيه حبيب الذى عاد من صقلية، فنزل حبيب على مجاز الوادى وآثر البقاء هناك، فلم يبارحه. أما ابنه خالد فقد مضى من فوره حتى لقى ميسرة بالقرب من طنجة، فاقتتل جيشاهما، وتراجع ميسرة، فثار عليه البربر وقتلوه، وولوا أمرهم مكانه زعيما من الغلاة المتطرفين هو خالد بن حميد الزناتى، فالتقى خالد بن حبيب بالبربر بقيادة ابن حميد الزناتي، ولكنه لم يستطع أن يصمد أمام جيوشهم الكثيفة، فانهزم، وانهزم وراءه العرب هزيمة مخزية لم يسمع بمثلها، وقتل ابن حبيب ومن معه، « ولم يبق من أصحابه رجل واحد، فقتل فى تلك الواقعة حماة العرب وفرسانها وكماتها وأبطالها، فسميت الغزوة «غزوة الأشراف» (٢).

د ـ ثورة البربر فى المغرب (موقعة بقدورة على وادى سبو سنة ١٢٤هـ) :

انتقضت البلاد بعد انهزام العرب فى موقعة الأشراف، ومرج أمر النـاس (٣)، ووصلت أخبار هزيمـة العرب فى طنجة إلى مسامع بربر

(١) ابن عذارى ج ١، ص ٥٤ ـ ابن الأثير ج ٤، ص ٢٢٢

(٢) نفس المرجـع ص ٥٥ ـ ابن الأثير ج ٤، ص ٢٢٣. ويذكر ابن خلدون أن موقعة الأشراف حدثت على وادى شلف (ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢)

(٣) ابن الأثير، ج ٤ ص ٢٢٣ ـ ابن عذارى، ج ١ ص ٥٥ ـ ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٢٢

الأندلس ، فثاروا على عاملهم عقبة بن الحجاج السلولى ، وعزلوه فى صفر سنة ١٢٣ ، وولوا عبد الملك بن قطن الفهرى (١) ، وتحرج موقف ابن الحبحاب فى المغرب لذلك ، فاجتمع أعيان العرب فى القيروان وعزلوه (٢) .

ولما علم هشام بالكارثة التى أصابت العرب فى المغرب ، كتب يستدعى عبيد الله بن الحبحاب من إفريقية ، فخرج منها فى جمادى الأولى سنة ١٢٣ (٧٤٠ م)، وعزم هشام على الانتقام من البربر وعبر عن ذلك بقوله : «والله لأغضبن لهم غضبة عربية ، ولأبعثن لهم جيشا أوله عندهم وآخره عندى» (٣) . وشرع فى العمل ، فأقام على المغرب بدلا من ابن الحبحاب رجلا قيسيا آخر من غلاة القيسية هو كلثوم بن عياض القشيرى ، وسير معه جيشا كثيفا عدته ١٢ ألفا من الشاميين ، انضم إليهم ثلاثة آلاف من مصر ، وثلاثة آلاف من جند قنسرين ، كما انضم إليه فى طرابلس حشد هائل من جند طرابلس ، وتولى قيادة الجيش ابن أخيه بلج بن بشر القشيرى . وكان هشام قد أوصى كلثوما بأن يجعل الأمر عند إصابته إلى ابن أخيه بلج ، ثم إلى ثعلبة بن سلامة العاملى (٤) ، وكلاهما من غلاة القيسية. وكان معظم عرب إفريقية ، الذين توطنوا هذه البلاد منذ أيام الفتح العربى للمغرب ، وأصبحوا بلديين ، شأنهم فى ذلك شأن عرب الأندلس ، من

---

(١) ابن القوطية ص١٤ — ابن الأثير، ج ٤ ، ص ٢٢٣ — ابن عذارى ، ج ١ ص٥٥— ابن خلدون ج ٦ ، ص ٢٤٠

(٢) ابن عذارى ، جـ ١ ، ص ٥٥

(٣) نفس المرجع — ابن القوطية ، ص ١٤

(٤) ابن القوطية ، ص ١٤ — أخبار مجموعة ، ص ٣٠

اليمنيين . وكانت بين الفريقين ثارات وأحقاد قديمة ترجع إلى أيام وقعة الحرة التي حدثت في سنة ٦٣ هـ في عهد يزيد بن معـــاوية ، وكان الموقف يستلزم نسيان هذه الأحقاد ، ودفنها أمام الخطر الجاثم ، ولكن الأحـداث أثبتت غير ذلك .

وصل كلثوم بن عيـاض إلى إفريقية في رمضان سنة ١٢٣ ، ولكنه تنحى عن دخول القيروان (١) ، وعامل بلج بن بشر العرب الأفارقة بجفاء ، وقال لهم : « لا تغلقوا أبوابكم حتى يعرف أهل الشام منـازلهم » ، فغضب العرب البلديون من قوله ، وكتبوا إلى قائد قواتهم حبيب بن أبي عبدة وهو بتلمسان مواقف للبربر ، يشكون إليه بلجـا وكلثوما . فكتب حبيب إلى كلثوم رسالة جاء فيها : « إن ابن عمك السفيه قال كذا وكذا ، فارحل بعسكرك عنهم وإلا حولنا أعنة الخيل إليك » ، فكتب كلثوم يعتذر إليه ، ويأمره أن يقيم بشلف حتى يقدم عليه (٢) . فأقام كلثوم عـــلى القيروان عبد الرحمن بن عقبة الغفاري ، ومسلمة بن سوادة القرشي ، وزحف بجيشه إلى تلمسان مارا ببلدة سبيبة (٣) . ويذكر ابن عبد الحكم أنه استخلف على القيروان عبـد الرحمن بن عقبة الغفاري ، وعـلى الحرب مسلمة بن سوادة القرشي ، ثم رحل من إفريقية متجها إلى طنجة . فقـــام عكاشة بن أيوب الفزاري ، وكان من الخوارج الصفرية ، من ناحية قابس ، وبعث أخا له في جمع من البربر فحاصروا حبيب بن ميمون ومن معه من العرب في سبرت .

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٥٦

(٢) نفس المرجع

(٣) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٤٠٦

فاستنجد ابن ميمون بصفوان بن مالك ، أمير طرابلس ، فقدم لنجدته ، فانهزم البربر وتراجعوا إلى قابس . وكان خبر هذه الغزوة قد وصل إلى القيروان ، فخرج القائد مسلمة بن سوادة القرشي إلى قابس للقضاء على حركة البربر ، ولكنه انهزم فى جموعه بأحواز قابس ، وقتل عامة من خرج معه ، وتراجع إلى القيروان حيث تبعته حشود البربر وحاصرته فيها (١) ، وازداد بذلك تحرج موقف العرب . ثم خرجت فرقة من العرب إلى جيش عكاشة ، فهزمته ، فلحق ببلاد الرمل (٢) .

ولما وصل كلثوم إلى معسكر حبيب بن أبي عبدة على وادى شليف ، استخف بحبيب وأهانه ، وسبه بلج وتنقصه ، وقال : «هذا الذى يحول أعنة الخيل إلينا ؟ » (٣) . فغضب عبد الرحمن بن حبيب ، ودعا إلى المنازلة ، وتوترت النفوس توتراً يؤذن بالقتال، وانفصل العرب الأفارقة إلى جانب ، وانضم إليهم عسكر مصر . وكاد القتال ينشب بين الشاميين والأفارقة العرب، بل إن ابن عبد الحكم وابن خلدون يؤكدان نشوب القتال بين الجانبين قبل أن يلقوا البربر ، ولم يتمكن كلثوم من إقرار الصلح إلا بعد جهد كبير . فتصافى الفريقان ، واتحدا فيما بينهما للقاء العدو المشترك . ولكن هذا الصفاء لم يكن إلا ستاراً زائفاً يخفى تحته ما كان قائماً بالفعل بينهما من انقسام وتغاير . ويعلق ابن عذارى على ذلك بقوله : « فكان هذا الاختلاف سبب هلاكهم مع سوء رأى كلثوم وبلج » (٤). ثم زحف كلثوم مع جيوش العرب

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٢٩٥ — حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ١٧٢

(٢) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٢٣

(٣) ابن عذارى ، ص ٥٦

(٤) نفس المرجع ، ص ٥٧

مجتمعة (١) نحو البربر وكان الخليفة هشام قد أمر كلثوم بأن يستخدم هرون القرنى مولى معاوية بن هشام ، ومغيثا الرومى مولى الوليد لمعرفتهما بالبلاد ، فجعل كلثوم على رجالة إفريقية مغيثا ، وجعل على خيلها هرون القرنى . واشتبك العرب بقيادة كلثوم مع البربر بقيادة خالد بن حميد الزناتي عند بليدة بقدورة الواقعة على وادى سبو ، بالقرب من مدينة تاهرت ، فى طليعة عام ١٢٤ . ولما رأى مغيث وهرون كثرة حشود البربر ، نصحا كلثوم باقامة خندق يحيط بمعسكر المسلمين ، وقالا له : « خندق أيها الأمير ، وتلوم بالكراديس ، واعطنا الخيل نخالفهم إلى قرارهم ودراريهم » (٢) . ويبدو أن كلثوم قد اقتنع بوجاهة رأيهما ، وهم بحفر الخندق حول المعسكر ، غير أن بلج ، وقد ملأه الغرور ، قاطعه فى ذلك ، وكان كلثوم لا يعصى له أمراً ، فقال له بلج : « لا تفعل ، ولا يرعك كثرة هؤلاء ، فان أكثرهم عريان أعزل ، لا سلاح لهم » (٣) . فناشبهم كلثوم القتال ، وجعل بلجا ابن أخيه على قيادة الخيالة الشاميين ، وهرون القرنى على خيالة عرب إفريقية ، ومغيثا على رجالة عرب إفريقية ، بينما قاد كلثوم رجالة أهل الشام . ويذكر ابن عذارى أن كلثوم « وجه بلجا ليلا ليوقع بالبربر ، فسرى ليلته ، وأوقع بهم عند الصباح ، فخرجوا إليه عراة ، فهزموه ، ووصلوا إلى كلثوم » (٤) ،

---

(١) يذكر ابن عذارى أن جيوش العرب بلغت ثلاثين ألفا (البيان ص ٥٧) ، بينما يذكر صاحب أخبار مجموعة أنها وصلت سبعين ألفا (أخبار مجموعة ص ٣١) . والظاهر أن هذا الرقم الأخير يتضمن جيش عرب إفريقية كذلك .

(٢) أخبار مجموعة ص ٣٢

(٣) نفس المرجع .

(٤) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٥٧

فاشتد القتال ، ولجأ البربر إلى وسيلة مبتكرة كسبوا بها المعركة، فقد كانوا يستقبلون خيل بلج بالجلود اليابسة المحشوة بالحجارة ، فيرغمون خيل أهل الشام على النكوص والتراجع، كما عمدوا إلى الرمك الصعبة فعلقوا فى أذنابها القرب والأنطاع اليابسة ، ثم وجهوها نحو معسكر كلثوم، فنفرت الخيل (١) واختل مصاف العرب ، واضطر كلثوم إلى المناداة بالنزول عن الخيل ، وكان ذلك ما يرمى إليه البربر ، إذ لم تكن لديهم خيول تكافىء خيول المسلمين ، فاعتمدوا على كثرتهم العددية ،وأعملوا فى العرب سيوفهم ،وبدت أعراض الهزيمة على جيش كلثوم . ثم خالطت خيالة البربر ورجالاتهم كلثوما ورجاله ، فاستشهد كلثوم وحبيب بن أبى عبدة ، وسليمان بن أبى المهاجر ، وهرون القرني ، ومغيث الرومى ، وعدد هائل من وجوه العرب وانتهت المعركة بابادة البربر لجيش كلثوم ، وأسفرت الوقعة عن هزيمة شنعاء أصيب بها جيش العرب . وركب من نجا من العرب منهزما إلى إفريقية وتبعهم البربر يقتلونهم ويأسرونهم، حتى ذكروا أن البربر قتلوا ثلث الجيش. وأسروا ثلثه الثانى ، وطاردوا الثلث المنهزم (٢). أما بلج فلم يجد بداً من الفرار هو ومن بقى من فرقته وعددهم عشرة آلاف ، فلاذ بمدينة سبتة، وأقبل البربر وراءه يحاصرون المدينة ويهاجمونها المرة بعد المرة ، ولكنهم لم يتمكنوا من اقتحام أسوارها ، لحصانتها ومناعتها ، فعمدوا إلى نسف مزارعها وتخريبها، فأقفرت الأرض حول سبتة مسيرة يومين، وبذلك قطعوا على العرب المعاش ، فجاعوا حتى أكلوا دوابهم ، وأكلوا الجلود وأشرفوا على الهلاك (٣) .

(١) أخبار مجموعة ص ٣٣ — ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٢٤٣

(٢) ابن القوطية ، ص ١٥ — أخبار مجموعة ، ص ٣٤

(٣) أخبار مجموعة ، ص ٣٧ — ابن عذارى ، ج ٢ ، ص ٤٢

وكان عبد الرحمن بن حبيب قد فر إلى الأندلس عقب موقعة بقدورة التى استشهد فيها أبوه (١) ، وأقام فى قرطبة فى كنف أميرها عبد الملك بن قطن ، وكان يمنيا مثله وبلديا . أما بلج فقد اضطر إلى الاستنجاد بعبد الملك ابن قطن ، واستأذنه فى العبور هو وأصحابه إلى الاندلس وذكر له ما صار إليه فل عرب الشام من الجهد ، فنصحه عبد الرحمن بن حبيب بألا يأذن لهؤلاء الشاميين بالجواز إلى الاندلس ، وخوفه من غدرهم (٢) ، فتغافل ابن قطن عن إنجادهم ، وسره هلاكهم ، وخافهم على سلطانه (٣) . فاشتدت الحال ببلج وأصحابه ، وضاق عليهم الأمر . واتفق أن ثار بربر الأندلس على عربها عندما بلغهم ظهور بربر العدوة على عرب الشام والعرب البلديين ، فاضطر عبد الملك إلى الاستعانة ببلج ورجاله المحصورين بسبتة ، واتفق معهم على أن يبارحوا الأندلس بعد قضاء مهمتهم ، ثم أرسل إليهم السفن والأطعمة .

ازدادت ثورة البربر فى المغرب عنفا بعد انتصارهم على العرب فى موقعة بقدورة ، وظهر فى هذه الآونة زعيمان بربريان هما : أبو يوسف الهوارى ، وعكاشه بن أيوب الفزارى الصفرى الذى رأيناه يهاجم العرب فى القيروان ، وأخذ هذان الزعيمان يتأهبان للزحف على القيروان ، وأخذت حشودهم تتجمع فى منطقة الزاب . وكانت أنباء الهزيمة التى منى بها العرب فى بقدورة وما تبعها من استشهاد كلثوم وحبيب وغيرهما من كبار قادة العرب قد

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٦٥

(٢) نفس المرجع ، ص ٥٩

(٣) أخبار مجموعة ، ص ٣٧ — ابن عذارى ، ج ٢ ، ص ٤٢

وصلت إلى الخليفة هشام ، فكان لها صدى أليم فى نفسه ، فغضب غضبا شديداً، ورأى ضرورة اتخاذ موقف إيجابى حاسم تجاه الثورة البربرية العاتية قبل أن يستفحل خطرها ، فينتهى الأمر بضياع المغرب والأندلس نهائيا على العرب ، فأمر حنظلة بن صفوان عامله على مصر ، بالسير فوراً إلى المغرب ، وقلده ولاية المغرب ، وأمده بجيش ضخم من العرب ، فخرج حنظلة من الفسطاط فى صفر سنة ١٢٤ هـ، ووصل إلى إفريقية فى ربيع الآخر، واستقر بالقيروان . فلما علم عكاشة وعبد الواحد بوصول حنظلة زحفا بقواتهما من الزاب فى طريقين ليصلا إلى القيروان من جهتين ويطوقانها ، فسلك عكاشه طريق مجانة واقترب من القيروان، وعسكر عند القرن ، بينما سار عبد الواحد فى طريق الجبال، وجعل على مقدمته أبا قرة المغيلى (١) .

وآثر حنظلة أن يقابل كل منهما على حدة (٢) ، إذ لا طاقة له بمواجهة أعدائه مجتمعين ، فلما اقترب عكاشة من القيروان خرج إليه حنظلة بجماعة من أهل القيروان ، واشتبك مع قوات عكاشة فى القرن ، واشتد القتال بينهما ، فدارت الدائرة على عكاشه ، وقتل من البربر أعداد هائلة . وبادر حنظلة بالعودة إلى القيروان بعد انتصاره خوفا من أن يصل إليها عبدالواحد ويذكر ابن عذارى ، نقلا عن عبد الله بن أبي حسان ، أن حنظلة « أخرج كل ما كان فى الخزائن من السلاح ، وأحضر الأموال ، ونادى فى الناس ، فأول من دخل عليه رجل من يحصب ، فقال له : ما اسمك ؟ فقال : نصر بن ينعم ، قال : فتبسم حنظلة كالمكذب له ، وقال له : بالله اصدق . فقال : والله مالى اسم غير ما قلت ... فتفاءل به وقال : نصر وفتح . فأعطى الناس ، وخرج

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٦٢ — ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٢٣

(٢) أخبار مجموعة ، ص ٣٧ — ابن الأثير ، ص ٢٢٣

لمقابلة الصفرية » [١] وكان عبد الواحد قد نزل على بعد ثلاثة أميال من القيروان فى موضع يقال له الأصنام ، على مقربة من طبنة . وقد تجمع له من الجيوش ما يقدر بثلثمائة ألف مقاتل [٢] . فحشد حنظلة كل من بالقيروان من العرب ، ووزع عليهم الأسلحة ، فكثر جمعه . ويصف ابن الأثير موقف المسلمين أمام هذا الخطر البربرى فيقول : « فلما دنا الخوارج مع عبد الواحد خرج إليهم حنظلة من القيروان . واصطفوا للقتال ، وقام العلماء فى أهل القيروان يحثونهم على الجهاد وقتال الخوارج، ويذكرونهم مايفعلونه بالنساء من السبى وبالأبناء من الاسترقاق وبالرجال من القتل ، فكسر الناس أجفان سيوفهم ، وخرج إليهم نساؤهم يحرضنهم، فحمى الناس،وحملواعلى الخوارج حملة واحدة، وثبت بعضهم لبعض ، فاشتد اللزام ، وكثر الزحام ، وصبر الفريقان ، ثم أن الله تعالى هزم الخوارج والبربر ونصر العرب، وكثر القتل فى البربر ، وتبعوهم إلى جلولاء يقتلون ، ولم يعلموا أن عبد الواحد قد قتل حتى حمل رأسه إلى حنظلة، فخر الناس لله سجداً » (٣) . وبلغ عدد القتلى نحو ١٨٠ ألفا (٤) ، ووقع عكاشة أسيراً فى يد العرب، فأمر حنظلة بقتله . وقد علق الإمام الليث بن سعد على هذا الانتصار المؤزر الذى أحرزه العرب على البربر بقوله : ما من غزوة كنت أحب أن أشهدها بعد غزوة بدر أحب إلى من غزوة القرن والأصنام » (٥) . وتوفى هشام فى ٦ ربيع الآخر سنة ١٢٥هـ

---

(١) ابن عذارى ، ص ٦٣

(٢) ابن الأثير ج ٤ ، ص ٢٢٣

(٣) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٢٤

(٤) نفس المرجع — ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٦٤ — ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٢٢

(٥) نفس المرجع — ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٦٤ — ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٢٣

قبل أن يصل إليه خبر انتصار العرب فى الأصنام ، وخلفه الوليد بن يزيد ، فأمر حنظله على ولاية إفريقية .

ه ـ ثورة البربر فى الأندلس وقيام الصراع بين البلديين والشاميين :

لما علم بربر الاندلس بانتصار إخوانهم فى المغرب على جيوش العرب ، ثاروا بدورهم على عرب الاندلس، فأخرجوا عرب جليقية وقتلوهم ، وأخرجوا عرب استرقة والمداين التى خلف الدروب ، فلم يرع ابن قطن إلا فلهم قد قدم عليه ، وانضم عرب الأطراف كلها إلى وسط الأندلس» (١). ويبدو أن البربر وثبوا على العرب فى المناطق البعيدة عن مركز الإمارة الواقعة فى أطراف الأندلس ، مثل المناطق الشمالية فى جليقية وأشتوريش وغرب الأندلس، وهى المناطق التى يسكنها جمهور البربر حيث يؤلفون هناك أغلبية السكان ، بينما كان العرب أقلية بالنسبة إلى كثرتهم العددية فيها (٢) . ويدل على ذلك أن البربر لم يهاجموا عرب سرقسطة وثغرهم ، لأنهم كانوا يفوقون عليهم فى العدد . والتف بربر الاندلس حول زعيم لهم يقال له ابن هدين (٣) ، ويسميه صاحب فتح الاندلس زقطرتق (٤) ، على نحو ما فعله بربر المغرب عندما بايعوا ميسرة ثم ابن حميد الزناتى . فلما تحرج موقف

---

(١) أخبار مجموعة ، ص ٣٨

(٢) يوضح صاحب فتح الأندلس ذلك فيقول : « وتطاولت البربر أيضا بالأندلس على العرب الساكنين بجليقية واسترقة والمداين التى خلف الدروب ، وقاتلوهم وطردوهم لكثرتهم هناك وقلة العرب .» (فتح الأندلس ، ص ٣١)

(٣) أخبار مجموعة ، ص ٣٩

(٤) فتح الأندلس ، ص ٣١

عبد الملك بن قطن بثورة بربر الاندلس، أخرج إليهم جيوشا هزموها ، وقتلوا العرب فى الآفاق ، فخاف أن يكون مصير عرب الاندلس نفس مصير عرب المغرب ، فاضطر إلى الإستعانة بالشاميين المحصورين فى سبتة ، للقضاء على عدوهم المشترك، وعزم على السماح لهم بالجاز الى الاندلس ، على شريطة أن يبارحوها بعد انتهاء مهمتهم، واشترط عليهم مقام سنة بالأندلس ثم يخرجون عنها إلى المغرب . فرضى عرب الشام بكل ما اشترط عليهم ، إذ وجدوا فى الانتقال إلى الاندلس فرصة مواتية لتقوية أنفسهم ، وعندئذ يمكنهم أن يملوا على ابن قطن رغباتهم . كذلك اشترط ابن قطن عليهم، تأكيدا لعدم نكثهم، أن يسلموه عددا من رهائنهم ،أنزلهم بجزيرة أم حكيم . ثم أذن لبلج بالعبور إلى الاندلس ، وأرسل اليهم السفن وعليها الاطعمة والأدم . فدخلوا الأندلس عراة لا تواريهم إلا دروعهم، وقد بلغ بهم الجهد كل غاية، « وكانوا نحو عشرة آلاف من عرب الشام، فلما دخلوا كساهم عرب الاندلس على قدر أقدارهم ، فرب رجل يكسو مائة رجل ، وآخر عشرة ، وآخر واحداً ، إلى ما بين ذلك » (١) ، وأعطاهم ابن قطن العطايا.

بدأ عرب الشام مهمتهم بمهاجمة جماعة من البربر بقيادة رجل من زناتة ، كانوا قد انتقضوا على عبد الملك بن قطن فى شذونة ، فلم يكن للعرب فيهم إلا نهضة حتى أبادوهم، وأصابوا أمتعتهم ودوابهم ، فاكتسى أصحاب بلج وانتعشوا ، وأصابوا المغانم ، ثم مضوا مع عبد الملك إلى قرطبة (٢) ، ومنها زحفوا إلى الشمال . أما البربر فقد أقبلوا فى حشود هائلة من جليقية واسترقة

---

(١) أخبار مجموعة ، ص ٣٩

(٢) ابن عذارى ، ج ٢ ، ص ٤٣

وماردة وقورية وطلبيرة متجهين جنوبا نحو قرطبة، وعبروا وادى تاجة، والتقوا مع قوات العرب مجتمعة من الشاميين والبلديين فى حوز طليطلة، على وادى سليط، فحلق البربر رؤوسهم اقتداء بميسرة المطغرى، حتى لا يختلطوا فى جموع العرب فلا يخفى أمرهم (١). ثم انحط الشاميون على البربر كالبواشق حانقين، فمزقوا صفوفهم، وأذرعوا فيهم القتل وأبادوهم، فأطفئوا بذلك جمرة نقمتهم بحيث لم ينج من البربر إلا من فر بحياته. وبذلك انتهت مهمة بلج. وطالبه عبد الملك بن قطن بالخروج من الاندلس، فسأله بلج وأصحابه أن يهيىء لهم الرحيل من ساحل إلبيرة أو ساحل تدمير(٢) فى سفن تنقلهم إلى تونس. فاعتذر عبد الملك بن قطن عن ذلك بوجود السفن فى الجزيرة الخضراء، لكى تنقلهم إلى سبتة. فقالوا له: «تعرضنا لبربر طنجة. اقذف بنا فى لجة البحر أهون لنا» (٣) فلما تبين لهم أن قصده من ذلك إهلاكهم، ثاروا عليه وأخرجوه من القصر، وأقاموا على إمارة الاندلس بلجا فى أول ذى القعدة سنة ١٢٥. أما ابن قطن فنزل داره، وقد أذهله تطور الاحداث ضده. ونتج عن تغلب الشاميين وظفرهم بالإمارة استحكام الفوضى فى الاندلس، وأمسك والى الجزيرة الخضراء عن إمداد رهائن الشاميين الذين كان قد وضعهم ابن قطن فى جزيرة أم حكيم بالطعام والشراب تضامنا منه مع ابن قطن، فمات من الرهائن رجل غسانى من أشراف الشام، واتهم عرب الشام ابن قطن بأنه قد تسبب فى موته، فثار عرب اليمن لموت الغسانى، وطالبوا بلجا بأن يسلم لهم ابن قطن ليقتلوه مقابل الغسانى، فحاول

---

(١) أخبار مجموعة، ص ٤٠

(٢) ابن عذارى، ج ٢، ص ٤٤

(٣) أخبار مجموعة، ص ٤١

بلج أن يردهم عن ذلك عبثا ، إذ اتهموه بأنه يحمى مضراً ، فخاف أن تتفرق كلمتهم ، فأمر باخراجه من داره ، فأخرجوه وهو شيخ كبير تجاوز التسعين ، وهم ينادونه : « يافال ، فلت من سيوفنا يوم الحرة ، ثم عرضتنا أكل الكلاب والجلود طلبا بثأر الحرة ، ثم بعث جند أمير المؤمنين » (١) . فقتلوه عند رأس القنطرة ، وصلبوه .

وأثار مقتل ابن قطن موجة من الغضب فى الأندلس ، واتحد العرب البلديون بقيادة قطن وأمية ابنى عبد الملك بن قطن مع البربر الذين كانوا يتلهفون لنيل ثأرهم من أهل الشام ، وانضم إليهم عبد الرحمن بن علقمة اللخمى عامل عبد الملك فى أربونة ، كما انضم إليهم نفر من أصحاب عبد الملك أمثال عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبدة الذى كان يطمع فى الظفر بامارة الأندلس (٢) . والتقى هذا الجيش مع جيش الشاميين فى موضع يقال له أقوة برطورة ، وانتهت الموقعة بهزيمة البلديين من العرب والبربر وانتصار الشاميين ، وقتل بلج فى هذه الموقعة ، فخلفه ثعلبة بن سلامة العاملى . ولما بلغ الخليفة هشام ما أصاب اليمنيين على أيدى القيسية من أهل الشام ، شاور أخاه العباس بن الوليد فى هذا الأمر ، فنصحه بأن يولى على الأندلس أحد اليمنيين وكان الخليفة قد تلقى بضعة أبيات كتبها أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبى أحد عمال بشر بن صفوان ، ممن نكبهم عبيدة بن عبد الرحمن السلمى نصها :

---

(١) نفس المرجع ، ص ٤٢

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٦٥

أفأتم بنى مروان قيسا دماءنا
وفى الله إن لم تنصفوا حكم عدل
كأنكم لم تشهدوا مرج راهط
ولم تعلموا من كان ثم له الفضل
وقيناكم حر الوغى بصدورنا
وليست لكم خيل تعدو ولا رجل
فلما رأيتم واقد الحرب قد خبا
وطاب لكم منها المشارب والأكل
تغافلتم عنا كأن لم يكن لنا
بلاء وأنتم ما علمت لها فعل
فلا تجزعوا إن عضت الحرب مرة
وزلت عن المرقاة بالقدم النعل
تصرم حبل الوصل وانقطع القوى
ألا ربما يلوى فينقطع الحبل (١)

فكتب الخليفة يأمر حنظلة بن صفوان بأن يولى أبا الخطار الاندلس ليضع حدا للفتنة القائمة بين البلديين والبربر وبين الشاميين . فقدم إليها فى رجب سنة ١٢٥ هـ (مايو سنة ٧٤٣ م) ، وكان عبد الرحمن بن حبيب مقيما بقرطبة عند قدوم أبى الخطار إليها ، فخاف على نفسه منه ، وخرج مستترا، فركب البحر إلى تونس ، فنزل بها أملا فى الدعوة إلى نفسه .

---

(١) ابن القوطية ، ص ١٨

(٣)

المغرب فى السنوات الخمس الأخيرة من عصر الدولة الأموية

ا ـ فشل حنظلة بن صفوان فى مواجهة الفتن فى المغرب وخروجه الى المشرق:

لم يكن حنظلة بن صفوان قيسيا كما يذكر الدكتور حسين مؤنس [1]، ولكنه كان كلبيا يمنيا ، وكان معتدلا فى سياسته ، فلم يتعصب للكلبيين على القيسيين، ولذلك ساد الأمن والهدوء ربوع إفريقية فى السنة التالية لانتصاره على عبد الواحد الهوارى وعكاشة الفزارى الخارجيين ، فى خلافة الوليد ابن يزيد الذى عرف باعتداله فى عصبيته . ولكن فترة السلام كانت قصيرة الأمد ، إذ وردت الأخبار بنزول عبد الرحمن بن حبيب الفهرى بتونس فى جمادى الأولى سنة ١٢٦ هـ ، وقيامه بالدعوة إلى نفسه فى تونس . وقد كان عبد الرحمن بن حبيب قد سار إلى الأندلس بعد انهزام العرب فى بقدورة ،

(١) يبدو أن الدكتور مؤنس قد اختلط عليه أمر حنظلة بن صفوان فذكر أنه كان قيسيا بقوله : « ولكن الثابت أن حنظله بذل أقصى جهده فى الاستعداد لهذه المعركة الخطيرة الحاسمة، وأنه تناسى قيسيته فى هذه اللحظة الحاسمة .. » (أنظر فجر الأندلس ص ١٧٧) . وعلى هذا الأساس عرض الدكتور مؤنس رأيه فى أن مقتل الوليد بن يزيد كان إيذانا بانتصار اليمنيين وعودتهم الى السلطان ، ويعنى باليمنيين عبد الرحمن بن حبيب الفهرى وأنصاره من العرب . وحقيقة الأمر أن المسألة لاتعدو صراعا بين البلديين من عرب المغرب وبين العرب الطارئين على المغرب من المشرق وهم الشاميون من القيسية واليمنية معا . ولم يكن خطر الصراع بين العصبيتين اليمنية والقيسية قد قام بعد ، إنما قام فى الأندلس عندما تضامن أبو الخطار ويحيى بن حريث الجذامى على الصميل ويوسف فى سنة ١٣٠ ، واشتعلت نار الحرب بين العصبيتين اليمنية والقيسية ، « وهى أول حرب كانت فى الاسلام بهذه الدعوة ولم تكن حرب قبل هذه الوقيعة » (أخبار مجموعة ، ص ٥٩ .)

عسى أن يجد لنفسه هناك سبيلا للوصول إلى الإمارة ، ولكنه لم يتمكن من الظفر بها فى دوامة الصراع بين البلديين والشاميين، فلما وجه حنظلة أبا الخطار إلى الأندلس أميرا ، يئس عبد الرحمن مما كان يرجوه ، وخاف أن يقع فى قبضة أبى الخطار الذى كان لا يتردد فى القضاء على كل متمرد ثائر . فركب سفينة حملته إلى تونس. وكان عبد الرحمن مايزال متعطشا إلى الإمارة. ولم يكن يبالى بركوب الصعاب فى سبيل نيلها ، ولا ندرى لماذا عاد إلى المغرب ، فقد كان حنظلة بن صفوان كلبيا يمنيا مثله ، كما أن تعليل مجيئه بأن مقتل الوليد بن يزيد كان يعنى انتصار اليمنيين على القيسيين لا يعدو أن أن يكون تعليلا ضعيفا ، فحنظلة بن صفوان كان كلبيا ، وأبو الخطار الحسام كان كلبيا كذلك ، بل إن الأحداث التى جرت فى الأندلس ستثبت انتصار القيسية على اليمنية (١) ، وأعتقد أن وفود عبد الرحمن بن حبيب إلى المغرب وقيامه بالدعوة لنفسه يرجع إلى أنه آثر أن يتعاون مع العرب الأفارقة والبربر الزناتيين ، فقد كان لا يهمه إلا أن يحظى بتأييد البربر ما دام فى ذلك سبيلا يوصله إلى الإمارة (٢) . وقد فعل عمه يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ما يشبه ذلك بتحالفه مع القيسية ضد اليمنية ، لكى يصل إلى إمارة الأندلس . ولا شك أن عبد الرحمن بن حبيب كان يشعر بأنه زعيم العرب الأفارقة ، فهو من أقدم بيوت العرب الفاتحين الذين استقروا بافريقية منذ أسس جده الأول عقبة بن نافع مدينة القيروان ، وساهم أبوه حبيب ابن أبى عبدة وجده أبو عبدة بن عقبة بنصيب وافر فى الفتح العربى للمغرب .

---

(١) تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، ص ١٦٢ وما يليها .

(٢) كانت أمه بربرية من جبال أوراس وربما كان ذلك سببا فى توكيد أفريقيته.

فلما أجاب أهل تونس من العرب البلديين والبربر عبد الرحمن بن حبيب إلى دعوته، فكر حنظلة بن صفوان فى الخروج إليه، والزحف لمقاتلته، ولكنه لم يلبث أن عدل عن هذا الخاطر حقنا لدماء العرب(١). فقد كان حنظلة لا يرى القتال إلا لكافر أو خارجى (٢)، وآثر أن يبعث إليه وفدا من وجوه إفريقية عددهم خمسين رجلا، ليراجعوه فيما هو بسبيله، ويدعوه إلى مراجعة الطاعة، فلما قدموا إليه، انتهز هذه الفرصة وقبض عليهم، وأوثقهم فى الحديد، وأقبل بهم إلى القيروان (٣)، مع أنصاره الأفارقة، وعسكر بهم فى موضع قريب من القيروان يعرف بسبخة سجوم فى أوائل سنة ١٢٧ هـ (٧٤٥ م) (٤). وكتب من هناك إلى حنظلة ومن معه يطلب إليهم ترك القيروان وإخلاء البلاد، وأمهلهم ثلاثة أيام للخروج منها، وذكر لهم أنه سيدخل القيروان، وأنذرهم بقوله: «إن رمى أحد من أوليائهم بحجر قتلتهم» (٥). وكان فى إمكان حنظلة أن يقاوم عبد الرحمن ابن حبيب، ولكنه أنف من مقاتلة إخوان له، لأن فى ذلك تمكين لأعداء العرب من البربر الصفرية الذين كانوا يترصدون للعرب، وينتظرون فرصة موانية للوثوب عليهم وإبادتهم، وهم الذين يفيدون بطبيعة الحال من انقسام

---

(١) ابن عذارى، ج ١ ص ٦٥

(٢) ابن الأثير، ج ٤، ص ٢٧٨

(٣) ابن عبد الحكم، ص ٣٠٠ — ابن عذارى، ج ١، ص ٦٥ — ابن الأثير، ج ٤ ص ٢٧٨ — ابن خلدون، ج ٤، ص ٤٠٧

(٤) حسين مؤنس، نقلا عن النويرى، فجر الأندلس، ص ١٧٩

(٥) ابن عذارى، ج ١، ص ٦٥ — ابن الأثير، ج ٤، ص ٢٧٨ — السلاوى، ج ١، ص ١١٧

الصف العربى ، ثم إن حنظلة كان قد زهد فى الإمارة ، وكره أن يقاتل،من أجل الإحتفاظ بها، عربا مثله وعربا يمنيين بالذات ، يضاف إلى ذلك أن إنذار عبد الرحمن بن حبيب كان يعنى ذبح رجال أبرياء ، وهم الرسل الذين كان قد بعثهم حنظلة إلى عبد الرحمن ليراجعوه عن قصده ، لذلك كله آثر أن يتنازل عن الإمارة له ، ويعود إلى دمشق ، « فدعا القاضى والعدول ، وفتح بيت المال ، فأخذ منه ألف دينار ، وترك الباقى ، وقال : لا أتلبس منه إلا بقدر ما يكفينى ويبلغنى » (١) . ثم إنه جمع أتباعه وخرج عن إفريقية فى جمادى الأولى سنة ١٢٧ هـ ، متجهـا إلى دمشق . ودخل عبد الرحمن بن حبيب القيروان ، ونهى الناس عن تشييع حنظلة .

ب ـ ثورات البربر فى المغرب فى ولاية عبد الرحمن بن حبيب الفهرى :

لم يمكث الخليفة يزيد بن الوليد المعروف بالناقص فى الخلافة سوى ستة أشهر ثم توفى فى ١٩ ذى الحجة سنة ١٢٦ هـ، فتولى الخلافة من بعده أخوه ابراهيم بن الوليد بعهد منه ، ثم خلع نفسه لمروان الجعدى بعد مضى نحو شهر ونصف شهر فقط من توليته الخلافة ، وذلك بعد أن انهزم جيشه بقيادة سليمان بن هشام أمام جيش مروان الجعدى فى عين الجر (عنجر بلبنان) ، وبايع أهل دمشق مروان بالخلافة فى سنة ١٢٧ هـ . فبادر عبد الرحمن ابن حبيب بارسال بيعته إلى مروان مع بعض الهدايا (٢) . فأقره مروان على ولاية إفريقية . ولم يكن ابن حبيب فى حاجة إلى هذه الولاية، إذ كان قد اغتصبها بالفعل ، وأصبح أميراً شبه مستقل عن الخلافة ، ولكنه أراد أن يسبغ على

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٦٧

(٢) نفس المرجع

حكمه شرعية تدعم سلطانه عند البربر ، وإن كان البربر فى المغرب كله أصبحوا لا يقيمون وزنا للخلافة الأموية بعد أن فقدت هيبتها ، بل كانوا يتطلعون للقضاء على أى نفوذ لها ، ويترقبون الفرص المواتيــة للاستقلال ببلادهم .
فلم يمض شهر واحد على إمارة عبد الرحمن بن حبيب حتى تفجرت براكين الثورة فى أنحـاء المغرب . ففى تونس ثار عليه عروة بن الوليـد الصدفى ، واستولى على تونس ، وفى الساحل شق عليه العرب عصا الطاعة تحت زعامة أبى عطاف عمران بن عطاف الأزدى ، فنزل بطيفاس [1] ، وثار البربر فى المناطق الجبلية ، « واستشرى داء البربر ، واعضل أمر الخارجيــــة ورؤوسها ، فانتقضوا من أطراف البقاع ، وتواثبوا على الأمر بـكل ما كان، داعين إلى بدعتهم ، وتولى كبر ذلك يومئذ صنهاجـــة » [2].والتفت صنهاجة حول زعيم من زعمائهم اسمه ثابت الصنهاجى واستولوا على باجة ، كما ثار معه عبد الله بن سكرديد من أمرائهم فيمن تبعه من بربر صنهاجة .
وفى طرابلس ثار عبد الجبار والحارث من هوارة ، وكانوا على مذهب الإباضية ، لقيام الياس بن حبيب الفهرى بقتل زعيمهم عبد الله بن مسعود التجيبى . فقتلوا عامل طرابلس بكر بن عيسى القيسى عندما خرج يدعوهم إلى السلم [3] ، كذلك ثار إسماعيل بن زياد الإباضى فيمن معــــه من بربر نفوسة ، واستولى على قابس . وكان لا بد لعبـد الرحمن بن حبيب الذى تشبث بالإمارة أن يعمل على إخماد هذه الثورات ، فبدأ بثابت الصنهاجى

---

(١) ابن الأثير ، ج ٤ ص ٢٧٩

(٢) ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٢٢٣

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٦٦ — ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٧٩ — ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٢٢٣

بباجة ، وأرسل أخاه الياس بن حبيب الفهرى على رأس ستمائة فارس لمهاجمة أبى عطاف الأزدى ، وأوصاه أن يتظاهر بمتابعة السير إلى تونس لقتال عروة بن الوليد الصدفى ، فيخدعهم بذلك . فيأمنون عاديته ، ثم ينقلب عليهم ويفاجأهم بالهجوم . ففعل إلياس ما أوصاه به أخوه ، وأغار على طيفاس وأهلها غافلون ، لا يتوقعون منه ذلك ، فدهمهم برجاله . فقتل منهم عددا عظيما . من بينهم أبو عطاف نفسه ، وذلك فى سنة ١٣٠هـ. ثم كتب إلى عبد الرحمن يبشره بهذا النصر ، فأمره بالسير إلى تونس ، ومفاجأة عروة ابن الوليد وأصحابه قبل أن يتنبهوا له . ففعل ما أمره به ، ونجح فى هزيمة عروة بن الوليد ، وقتله ، واسترجع تونس،وأقام بها (١) .

ثم ولى عبد الرحمن وجهه بعد ذلك نحو الحارث بن تليد الهوارى ، وعبد الجبار بن قيس الهوارى الثائرين بطرابلس ، فزحف إليهما بجيش كثيف فى سنة ١٣١ هـ ، وتمكن من قتلهما بالخديعة ، وقضى بذلك على ثورتهما ، كما هاجم اسماعيل بن زياد النفوسى وقتله ، وهزم جيشه ، واستعاد طرابلس ، وعمر سورها فى العام التالى سنة ١٣٢ هـ (٢) ، فانتقل الناس إليها من كل مكان (٣) . وما كاد عبد الرحمن ينتهى من خوارج طرابلس حتى عاد إلى القيروان ، ثم غزا تلمسان فى سنة ١٣٥ هـ . وقضى على الثائرين فيها من البربر (٤) .

---

(١) نفس المرجع ـ ابن الأثير ، ج ٤ ص ٢٧٩

(٢) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٧٩

(٣) أنظر تفاصيل مقتلهما فى فتوح افريقية والأندلس لابن عبد الحكم ـ ابن عذارى ج ١ ، ص ٦٩ .

(٤) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٧٩ ـ ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٢٢٣

وهكذا بطش عبدالرحمن بن حبيب بأعدائه البربر الإباضية فى كل مكان، وكان سفاكا للدماء ، وفى ذلك يقول ابن عـذارى : « وأمعن عبد الرحمن ابن حبيب فى قتل البربر ، وامتحن الناس بهم ، وابتلاهم بقتل الرجال صبرا، يؤتى بالأسير من البربر ، فيأمر من يتهمه بتحريم دمه بقتله ، فيقتله » (١) . وكان يصطنع الحيلة والخديعة فى التغلب على أعدائه، فقد رأينا كيف انتصر على خصميه أبى عطاف عمران الأزدى فى طيفاس ، وعروة بن الوليـد فى تونس ، كذلك استعمل دهاءه فى القضاء على ثورة طرابلس التى تأسست فيها إمامة عبد الله بن مسعود التجيبى ، وهى إمامة كانت من تمتد من سرت إلى قابس، وكانت هذه الإمامة قد تقوت بانضواء بربر هوارة ونفوسه إلى الإباضية ، فعمد عبد الرحمن بن حبيب إلى تولية أخيه الياس على طرابلس حتى يقضى على حركة الإباضية قبل أن تستفحل ، ولم يتردد إلياس فى قتل عبد الله بن مسعودالتجيبى زعيم الإباضية ظنا منه أنه إذا قضى على الرئيس تفرق شمل الإباضية (٢) ، ولكن الاباضية بايعوا الحارث بن تليد الحضرمى بالإمامةعليهم فاتخذ عبد الجبار بن قيس وزيرا ، وأسس الحـارث بذلك جمهورية مستقلة عن المغرب، ولما لم يتمكن عبدالرحمن من التغلب على خصميه بقوةالسلاح لجأ إلىالخديعة، فدس عليهما عصابة من أتباعه فى طرابلس قتلوهما فىدار الندوة، ثم أدخلوا على كل منهما سيفا وجعلوا مقبضه إلى جهة الآخر ليوهموا الناس بأنهما تنازعا ، فتقاتلا فقتل كل منهما الآخـــر . وأحـــدث عبد الرحـن بذلك انقساما بين الإباضيـة حول قضية

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٦٦

(٢) محمد على دبوز ، تاريخ المغرب الكبير ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٤١١

القتيلين ، فانقسم الإباضية على أنفسهم ، وقامت إمامة اسماعيل بن زياد النفوسي بين مظاهر الاضطراب والإنقسام ، فعاجله عبد الرحمن بالهجوم قبل أن يتمكن الإباضية من توحيد صفوفهم ، فقتل اسماعيل، وانهزم جيشه .

وعلى هذا النحو تغلب عبد الرحمن بن حبيب على جميع خصومه .

الفصل الرابع

المغرب فى فترة الإنتقال بين سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية

(١) النزاع بين بنى عبد الرحمن بن حبيب

ا ــ مقتل عبد الرحمن بن حبيب وولاية إلياس

ب ــ انقراض بنى حبيب الفهرى فى المغرب

(٢) الصراع بين الإباضية فى طرابلس والصفرية فى إفريقية

ا ــ غلبة الخارجية على المغرب

ب ــ موقف الخلافة العباسية من الخوارج فى المغرب

ج ــ ولاة إفريقية فى العصر العباسى حتى قيام دولة بنى الأغلب :

١ ــ الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمى (١٤٨ ــ ١٥٠ ﻫ)

٢ ــ أبو جعفر عمر بن حفص بن عثمان بن قبيصة المعروف بهزار مرد

٣ ــ يزيد بن حاتم وقضاؤه على ثورة البربر الإباضية

٤ ــ روح بن حاتم بن قبيصة

٥ ــ الفضل بن روح بن حاتم

٦ ــ هرثمة بن أعين

٧ ــ محمد بن مقاتل العكى

الفصل الرابع

المغرب فى فترة الإنتقال بين سقوط الدوله الأموية وقيام الدوله العباسية

(١)

النزاع بين بنى عبد الرحمن بن حبيب

١ ـ مقتل عبد الرحمن بن حبيب وولاية الياس :

سقطت الدولة الأموية فى سنة ١٣٢هـ ، وقامت الدولة العباسية على أنقاضها ، فأعلن عبد الرحمن بن حبيب دخوله فى طاعة أبي العباس السفاح، ولما توفى السفاح فى سنة ١٣٦هـ، وبويع أبو جعفر المنصور بالخلافة، أقر عبد الرحمن بن حبيب على ولاية إفريقية، وأرسل إليه خلعة سوداء ، وهو أول سواد دخل إفريقية، ثم كتب إلى عبد الرحمن بن حبيب يدعوه إلى الطاعة ، فأجابه، ودعا له ، ووجه إليه بهدية من بينها بعض الذهب وبزاة وكلاب ، وكتب إليه يقول : « إن إفريقية اليوم إسلامية كلها ، وقد انقطع السبى منها والمال ، فلا تطلب منى مالا »[1] . فغضب المنصور، وأرسل إلى عبد الرحمن كتابا يتهدده فيه ويتوعده . فلما وصل الكتاب ، جمع عبد الرحمن الناس للصلاة ، ثم صعد المنبر ، وأخذ يسب أبى جعفر ويقول : « إني ظننت أن هذا الخائن يدعو إلى

(١) ابن الأثير ، ج ٤ ص ٢٨٠

الحق ، ويقوم به ، حتى تبين لى خلاف ما بايعته عليه من إقامة العدل ، وإنى الآن قد خلعته ، كما خلعت نعلى هذا ، وقذفه من رجله . ثم دعا بخلع السود . وأمر بتخريقها » ، وقيل إنه أحرقها (١) .

وكان العباسيون يتعقبون أمراء بنى أمية حيث كانوا ، ويقتلونهم أينما وجدوهم ، فتفرق بنو أمية فى أطراف البلاد للنجاة بأرواحهم ، وكان فى جملة من فر إلى المغرب إبنان للوليد بن يزيد ، هما العاص وعبد المؤمن ، وكان عبد الرحمن بن حبيب وأخواه عبد الوارث والياس ، قد تزوجوا من بنات أعمامهما ، فلما قدما إلى المغرب استضافهما عبد الرحمن فى دار من دوره ، ولكنه علم أنهما يسعيان للظفر بالإمارة ، فقتلهما . فحرضت بنت أبان ، زوجة إلياس ، زوجها على قتل أخيه عبد الرحمن ، ويذكر ابن الأثير أنها قالت : « إن أخاك قد قتل أختانك ولم يراقبك فيهم ، وتهاون بك ، وأنت سيفه الذى يضرب به ، وكلما فتحت له فتحا كتب إلى الخلفاء إن إبنى حبيبا فتحه ، وقد جعل له العهد بعده ، وعزلك عنه ، ولم تزل تغريه به ، فتحرك لقولها ، وأعمل الحيله على أخيه » (٢) . ووافقه على ذلك أخوه عبد الوارث وجماعة من القيروان . واتفق أن خلع عبد الرحمن بن حبيب فى هذه الآونة طاعة المنصور ، فاتخذ المتآمرون من ذلك وسيلة لقتله ، وتأمير إلياس ، وإعادة الدعوة لأبى جعفر المنصور . ويبدو أن عبد الرحمن أحس بشىء من تلك المؤامرة (٣) . فولى أخاه إلياس على تونس ، فأتاه الياس ليودعه قبل رحيله ،

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٧٦

(٢) نفس المرجع ص ٦٨ — ابن الأثير ص ٢٨٠

(٣) ابن الأثير ، ص ٢٨٠

ثم قتله . ويروى ابن عذارى قصة قتله بقوله : «وكان عبد الرحمن قد ولى أخاه الياس تونس ، وودعه للخروج إليها ، وعبد الرحمن إذ ذاك مريض ، فدخل عليه وهو فى غلالة ورداء ، وابن له صغير فى حجره ، فقعد طويلا ، وعبد الوارث يغمزه ، فلما قام يودعه ، أكب عليه ووضع السكين بين كتفيه حتى وصل إلى صدره ، ثم رد يده على السيف فضربه ، وخرج هاربا دهشا . فقال له أصحابه : ما فعلت ؟ قال : قتلته . قالوا : إرجع فحز رأسه . فرجع وحزه ، وثارت الصيحة ، وأخذ إلياس أبواب دار الإمارة . وسمع إبنه حبيب الصيحه ، فأخبر بقتل والده ، فاختفى ، ثم تحاول على وجهه إلى باب تونس ، أحد أبواب القيروان . فخرج منه ، ومضى الى عمه عمران بن حبيب ، وهو والى تونس لوالده » (١) . وتم قتل عبد الرحمن فى ذى الحجة سنة ١٣٧ هـ .

وهكذا أسدل الستار على عبد الرحمن بن حبيب الفهرى بعد أن قضى فى الإمارة عشر سنوات وسبعة أشهر ، قضاها كلها فى حروب مع البربر ، وقد كان عبد الرحمن هذا يطمع فى التغلب على الاندلس منذ أن فر اليها بعد هزيمة البربر للعرب فى بقدورة ، ومع أنه ظفر بامارة المغرب ، إلا أنه كان ما يزال طامعا فى احتلال الاندلس ،وفى ذلك يروى المؤرخون أن كان فى بلاط ابن حبيب يهودى عالم بالحدثان قد صحب مسلمة بن عبد الملك ، فذكر لابن حبيب أنه يغلب على الاندلس رجل من أبناء الملوك يقال له عبد الرحمن له ضفيرتان ومن بيت الملك ، فاتخذ ابن حبيب ضفيرتين أرسلهما رجاء أن تناله الرواية ، فلما قدم عبد الرحمن بن معاوية الى المغرب

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٧٧

بعد أن أفلت من أيدى العباسيين ، وكانت له ضفيرتان ، هم بقتله حتى لا تتحقق نبوءة اليهودى (١) ، وطارده ولكن ابن معاوية تمكن من دخول الأندلس ، والتغلب على يوسف بن عبد الرحمن الفهرى (٢) ، وأحيا بذلك ملك بنى أمية فى الاندلس بعد انقطاعه .

ب ـ انقراض بنى حبيب الفهرى فى المغرب :

لما قتل عبد الرحمن بن حبيب على يدى أخيه الياس ضبط هذا أبواب قصر الإمارة حتى يمنع حبيبا بن عبد الرحمن من الفرار ، ولكن حبيبا تمكن من الإفلات . ولاذ بعمه عمران الذى كان يطمع فى إمارة إفريقية . واتفق حبيب وعمه عمران على محاربة إلياس وعبد الوارث ، فأعدا جيشا لذلك الغرض ، ولكن الياس فضل أن يبدأ هو بالهجوم ، فسار إليها على رأس جيشه ، ويذكر إبن الاثير أن الياس سار اليها « واقتتلوا قتالا يسيرا ، ثم اصطلحوا على أن يكون لحبيب قفصة وقسطيلة ونفزة (لعلها نفطة باقليم الجريد) ويكون لعمران تونس وصطفورة والجزيرة ، ويكون سائر

---

(١) أخبار مجموعة ص ٥٥ . ارجع الى تعليق على هذه القصة فى كتابى « تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس » ص ١٧٧

(٢) ذكر السلاوى أن يوسف الفهرى كان ابنا لعبد الرحمن بن حبيب الفهرى (السلاوى جـ ١ ، ص ١١٨) . والواقع أن يوسف الفهرى كان ابنا لعبد الرحمن بن عقبة بن نافع ، وكان طاعنا فى السن عندما ولاه الصميل لإمارة قرطبة ، فليس من المعقول أن يكون ابنا لعبد الرحمن بن حبيب . وتذكر مدونة موساك أنه كان حاكما لمدينة أربونة فى عام ١١٦هـ (٧٣٤) (أنظر Chronicon Moissiacense, Apud. Ajbar Machmuâ, p.166) كذلك أشار المقرى الى أنه كان عاملا بأربونة فى عهد عبدالملك بن قطن فى ولايته الأولى على الأندلس ، وفى عهده صار رباط المسلمين على نهر ردونة (المقرى ، جـ ١ ، ص ٢٢٠)

إفريقية لإلياس ، وكان هذا الصلح سنة ثمان وثلاثين ومائة [١] » . ولكن الياس كان يضمر السوء بأخيه عمران ، إذ كان يخشى منـــه على إمارة إفريقية ، فعمل على التخلص منه أولا ، ثم يتفرغ بعد ذلك للتخلص من حبيب. فلما سار حبيب إلى عمله من بلاد الجريد، ورحل عمه عمران إلى تونس غدر إلياس بعمران فقتله، وقتل أنصاره من أشراف العرب واسترجع تونس، ثم عاد إلى القيروان[٢]. وذكر ابن عذارى ان الياس وثب على عمران، وبعث به إلى الاندلس ، وولى على تونس محمد بن المغيرة ، وانصرف بعـــد ذلك إلى القيروان [٣] ولكن الارجح أن الياس قتل عمرا ، لأنه كان يخاف منه على ملكه، ويؤيد ذلك ابن خلدون[٤]. فلما قتل عمران، لم يعد الياس يخاف من حبيب وظن انه أصبح سيد الموقف ، فبعث بطاعته إلى أبى جعفر المنصور مع وفد من العرب منهم عبد الرحمن بن زياد بن أنعم قاضي إفريقية [٥] .

وكان من الطبيعي أن يستاء حبيب لغدر الياس بعمه عمران ، ونكثـه لعهده معه ، ويبدو انه عزم على محاربة إلياس ، وبلغ الياس ذلك ، « فدس له من زين له الخروج إلى الأندلس ، ففعل ، ووجه معه شقيقه عبد الوارث ومن أحب من مواليه ، فركبوا البحر ، وقد تعذرت بهم الريح ، فكتب حبيب إلى الياس ، إن الريح ردته ، ووقفوا بطبرقة ، فكتب الياس إلى عامله بها يحذره من أمره . فسمع به موالى عبد الرحمن وأهل طاعته ، فأتوا

(١) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٨٠

(٢) نفس المرجع

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٧٨

(٤) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٤٠٨

(٥) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٨٠ ـ ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٤٠٩

إليه من كل ناحية ، وطرقوا سليمان بن زياد عامل الياس ، وهـــو فى معسكره يحرس حبيبا ، فأسروه ، وشدوا وثاقه ، وركبوا إلى حبيب ، فأخرجوه الى البر » [١] .

التف موالى عبد الرحمن بن حبيب بابن مولاهم ، فاجتمعوا على طاعته ، ثم زحف نحو القيروان ، فاستولى على الاربس ، وعندئذ خرج الياس بعد أن استخلف على القيروان محمد بن خالد القرشى [٢] . فلما التقيا تقـاتل الفريقان قتالا خفيفا ، فلما أمسى حبيب أوقد النيران ليظن الناس أنه مقيم ، ثم أسرى ، فأصبح بجلولا ، ثم نفذ الى القيروان فاستولى عليهـــا » [٣] وأخرج من سجنها من كان محبوسا ، فكثرت جموعه ، وعاد الياس لمحاربته ولكن أكثر جنده افترقوا عنه ، وانضمـــوا إلى عسكر حبيب . عندئذ خرج إليه حبيب فى حشود كثيفة ، فلما التقيا ، ناداه حبيب : لم نقتل صنائعنا ومواليناً ، وهم لنا حصن ، ولكن أبرز أنت وأنا ، فأينا قتل صاحبه إستراح منـه فناداه الناس : قد أنصفك يا إلياس . فخرج كل واحد منهما إلى صاحبه ، ووقف أهل العسكر ينظرون . فتطاعنـا حتى تكسرت قناتاهما . ثم تضاربا بسيوفهما ، وعجب الناس من طول صبرهما على القتال ، ولكن التعب بدأ يظهر على الياس ، وبدأت قواه تخور ، فضربه حبيب ضربة أسقطته . ثم أكب عليه فحز رأسه ، وأمر برفعه على رمح ، وأقبل به إلى

(١) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٧٨

(٢) نفس المرجع ، ص ٧٩

(٣) نفس المرجع .

القيروان فدخلها ، فى سنة ١٣٨ هـ (١) .

ولاذ إخوة الياس بعد مقتله ببطن من بطون بربر نفزة يقـــال لهم ورفجومـة ، وكانوا من غلاة الصفرية ، ونزلوا فى كنف أمير ورفجومـة ويدعى عاصم بن جميل ، فكتب إليه حبيب يأمره بردهم إليه ، ولكن عاصم نصرهم وحماهم من بطش حبيب بهم . فزحف إليه حبيب ، واصطدم معه فى موقعة انتهت بهزيمـــة حبيب ، فتراجع إلى قابس ، وقوى أمر ورفجومة على أثر ذلك ، وتضخم عسكرهم بمن انضم إليهم من الخوارج. وكان عاصم زعيمهم كاهنا « ادعى النبوة والكهانة ، فبـدل الدين ، وزاد الصلاة ، وأسقط ذكر النبي ﷺ من الأذان »(٢). ولما رأى أهل القيروان تغلب عاصم على حبيب ، كتبوا إليه يدعونه للولاية عليهم على أن يدعو لأبى جعفر المنصور ، فزحف عاصم وأخوه مكرم على رأس جموع البربر ومن انضم إليهم من العرب ، إلى القيروان ، وخرج القاضى أبو كريب جميل ابن كريب، نائب حبيب فى القيروان، لمقاتلة ورفجومة ، ولكن الناس تفرقوا عنـه ، وبقى أبو كريب مع ما يقرب من ألف رجل يقـاتلون حتى الموت ، فقتل أبو كريب وأكثر رجاله ، ودخل بربر ورفجومـة القيروان فى ذى الحجة سنة ١٣٨ هـ ، فاستحلوا المحارم . وارتكبوا الكبـائر . ونزل عاصم بمصلى روح (٣) ، وذكر ابن الأثير أنهم ربطوا دوابهم فى جامـع القيروان

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٨٠ ــ ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٨٠ ــ ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٤٠٩ ــ السلاوى ، ج ١ ، ص ١٢١

(٢) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٨٠ ــ ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٤٠٩

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٨١

وأفسدوا فيه (١) .

ثم استخلف عاصم بن جميل عبد الملك بن أبي الجعد الورفجومى على القيروان ، وسار لقتال حبيب فى قابس ، فهزمه ، وفر حبيب إلى جبل أوراس ، واحتمى ببربره ، وطارده عاصم واشتبك معه فى قتال عنيف أسفر عن قتل عاصم فى جملة أصحابه . فسار حبيب على أثر ذلك إلى القيروان ، للقضاء على عبد الملك بن أبي الجعد ، خليفة عاصم بن جميل ، فهزمه عبد الملك وقتله فى المحرم سنة ١٤٠هـ (٢) .

وبمقتل حبيب تمت سيادة البربر الصفرية على إفريقية والمغرب ، وفقد العرب كل سلطان لهم فى هذه البلاد .

---

(١) ابن الأثير ، ص ٢٨٠

(٢) نفس المرجع ، ص ٢٨١ — ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٨١ — ابن خلدون ، ص ٤٠٩

(٢)

الصراع بين الخوارج الاباضية فى تونس والصفرية فى إفريقية

ا ــ غلبة الخارجية على المغرب :

بعد أن قضى عبد الرحمن بن حبيب على إمامة الإباضية بطرابلس بقتل مؤسسيها الحارث بن تليد ، وعبد الجبار بن قيس الموارى ، وخليفتهما إسماعيل بن زياد النفوسى ، استعمل على طرابلس عمرو بن سويد المرادى(١). ولكن قضاء ابن حبيب الفهرى على زعماء الإباضية لم يقض على الحركة نفسها فى ولاية طرابلس ، فقد كانت تعاليمها قد رسخت فى النفوس ، بل إن الوسيلة البشعة التى توسل بها ابن حبيب للقضاء على الإمامة الإباضية أثارت عليه نفوس سكان هذا الإقليم . ولما انتصرت ورفجومة على حبيب بن عبد الرحمن ، وتغلبت على القيروان ، وانقرضت بذلك دولة بنى حبيب الفهرى فى إفريقية والمغرب ، انتهز الإباضية بنواحى طرابلس هذه الفرصة ، وبايعوا أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى إماما عليهم فى طرابلس سنة ١٤٠هـ، من خليج سرت إلى قابس . وقد رأينا أنه كان واحدا من حملة العلم الخمسة الذين أخذوا فى البصرة أصول الخارجية الإباضية على أبى عبيدة مسلم ابن أبي كريمة البصرى . وكان سكان المغرب الأوسط قد تشبعوا أيضا بتعاليم الإباضية ، فلم يلبث معظم هؤلاء السكان أن انضووا تحت لواء أبى الخطاب ، وبايعوه بالإمامة . وعلى هذا النحو أصبحت إمامة الإباضية تضم إقليم طرابلس ، وقسما كبيرا من المغرب الأوسط .

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص ٣٠٢

أما إفريقية فقد خضعت لورفجومة ، بعد أن استولى زعيمهم عاصم بن جميل على القيروان . فلما قتل عاصم خلفه عبد الملك بن أبى الجعد على القيروان ، وكانت ورفجومة صفرية متطرفة ، قد خرج زعماؤها عن الدين الإسلامى ، وقد ذكرنا أن عاصم بن جميل ادعى النبوة ، والكهانة ، ولذلك فقد كانوا من الفساد والظلم والاستهتار بالدين [1] بحيث يستحلون المحرمات ويستهينون بالمساجد . وقد قام برير ورفجومة بارتكاب كثير من الفظائع فى القيروان بعد مقتل زعيمهم عاصم ، فسفكوا كثيرا من دماء أهل القيروان ، وهتكوا الحرمات ، وأساءوا إلى الدين الإسلامى . ويذكر بن الأثير ، أن رجلا من الإباضية شاهد قوما من ورفجومة ، « قد أخذوا إمرأة قهرا والناس ينظرون ، فأدخلوها الجامع ، فترك الإباضى حاجته ، وقصد أبا الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافرى ، فأعلمه بذلك ، فخرج أبو الخطاب وهو يقول : بيتك اللهم بيتك ، فاجتمع إليه أصحابه من كل مكان ، وقصدوا طرابلس الغرب ، واجتمع إليه الناس من الإباضية والخوارج وغيرهم [2] » . أما المغرب الأقصى ، فقد كان يخضع منذ هزيمة العرب فى وقعة الأشراف للخوارج الصفرية البربر ، وقد حاول الصفرية بزعامة أبى يوسف الهوارى وعكاشة بن أيوب الفزارى ، وعبد الواحد بن يزيد الهوارى ، وأبى قرة المغيلى ، القضاء على العرب فى إفريقية ، ولكن حنظلة تمكن من التغلب على حشود الصفرية ، فتفرق عسكرهم فى نواحى المغرب الأقصى ، وكان من جملتهم عسكر برغواطة بزعامة طريف بن شمعون [3] ، فسار طريف إلى

---

(١) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٨١

(٢) نفس المرجع

(٣) فى أعمال الأعلام صالح بن طريف (ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ص ١٨)

تامسنا ، وبايعه الناس هناك ، ويذكر ابن عذارى أنه شرع لهم تشريعا مخالفا للاسلام ، فلما مات خلفه ابنه صالح ، فادعى أنه أنزل عليه قرآن الصفرية الذى كانوا يقرأونه ،« وعهد صالح إلى ابنه الياس بديانته، وعلمه شرائعه، وفقهه فى دينه ، وأمره ألا يظهر الديانة حتى يظهر أمره ، وينتشر خبره ، فيقتل حينئذ من خالفه » ، وزعم أنه المهدى الذى يكون فى آخر الزمان لقتال الدجال . ثم إنه خرج إلى المشرق فى سنة ١٢٤ هـ ، وخلفه ابنه اليساس الذى ظل يحكم خمسين سنة (١) . وهكذا كان المغرب الإسلامى كله بعد انقراض دولة بنى حبيب الفهرى فى قبضة الخوارج الاباضية والصفرية والمراطقة البرغواطيين ، وسنرى موقف الخلافة العباسية إزاء هؤلاء الخوارج .

ب ـ موقف الخلافة العباسية من الخوارج فى المغرب

لما استولت ورفجومة على القيروان سامت أهلها الظلم والعسف، وأسرفوا فى ارتكاب المعاصى والفظائع وأعمال المنكر من سفك الدماء ،وهتك الحرمات، ففر كثير من أهل القيروان إلى طرابلس لائذين فى حمى أبى الخطاب عبد الأعلى بن السمح ، وطالعوه بما ارتكبه الورفجوميون من ضروب البطش والظلم والطغيان والفساد، واستباحة الأعراض ، وتدنيس المساجد . وكان عبد الأعلى عربيا من وجوه العرب الذين تقبلوا الخارجية على المذهب الإباضى المعتدل ، فلما بلغه ذلك غضب وأنكر من ورفجومة سلوكها ، فتحركت فى نفسه عوامل الغيرة على الإسلام ، فاستنفر أتباعه من الإباضية،

---

(١) ابن عذارى ، جـ ١ ، ص ٦٠ ، ٦١ ـ ابن الخطيب ، المرجع السابق ، ص ١٨٤

وشايعه بربر طرابلس وفى مقدمتهم هوارة ، وزحف بجموعه نحو القيروان لتطهيرها من دنس ورفجومه ، وتحرير أهل القيروان من استبدادها وطغيانها ، وما إن علم عبد الملك بن أبى الجعد الورفجومى بذلك حتى خرج من القيروان فى حشود كثيفة من ورفجومة ومن أهل القيروان ، واشتبك الفريقان بالقرب من القيروان فى صفر سنة ١٤١ هـ ، واشتد القتال ، ودارت الدائرة على عبد الملك ، إذ خذله أهل القيروان وانهزموا عنه ، فأثخن فيهم عبد الأعلى ، وهزمهم، وقتل منهم عدداً كبيراً، من بينهم عبد الملك نفسه، وتمكن عبد الأعلى من دخول القيروان (١)، واستخلف عليها زميله عبد الرحمن بن رستم الفارسى أحد كبار علماء الإباضية ، وعاد هو إلى طرابلس إستعداداً لملاقاة القوات العباسية التى سيرها الخليفة أبو جعفر المنصور لمقاتلته .

واضطرب أمر الصفرية فى المغرب الأقصى بعد تغلب عبد الأعلى على إفريقية ، فاجتمع الصفرية من مكناسة على أبى القاسم بن سمغون بن واسول المكناسى فى الموضع الذى قامت عليه سجلماسة ، وشرعوا فى بناء هذه المدينة ، ثم قدموا على أنفسهم عيسى بن يزيد الأسود ، أحد موالى العرب ، ثم أخذوا عليه بعض مآخذ فعزلوه وولوا على أنفسهم أبا القاسم بن سمغون للمرة الثانية ، فلم يزل واليا عليهم حتى سنة ١٦٨ هـ ، وهو جد بنى المدرار أصحاب سجلماسة ، وسنتحدث عنهم فى الفصل القادم .

وكان قد وفد على أبى جعفر المنصور بعض عساكر العرب ، منهم نافع ابن عبد الرحمن ، وعبد الرحمن بن أنعم ، يستصرخونه لإنقاذ إفريقية من فساد

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٨٢ — ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٨١ — ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٤١٠ — السلاوى ، ج ١ ، ص ١٢٤

ورفجومة ، كما وفد إليه أيضا جميل السدراتى أحد جنود عبدالأعلى الإباضى الخارجين عليه (١) ، فولى المنصور محمـــد بن الاشعث الخزاعى على مصر وإفريقيـــة ، وسير من مصر جيشا من المسودة بقيادة أبي الاحوص عمر ابن الاحوص العجلى لاسترجاع المغرب ، وكان ذلك هـو السبب فى عودة عبد الاعلى إلى طرابلس بعد تغلبـه على عبد الملك بن أبي الجعد . فاشتبك عبد الاعلى مع القوات العباسية فى سرت ، وهزمهم فى سنة ١٤٢ هـ (٢) ، وعاد فلهم إلى مصر . فعزل المنصور محمد بن الاشعث عن ولاية مصر ، وولاه قيادة الجيوش إلى المغرب ، وأقام مكانه على مصر حميد بن قحطبة ، فخرج ابن الاشعث على رأس جيش كثيف عدته خمسون ألف مقاتل (٣) ، وكان فى جملة عساكره عدد من كبار القواد العباسيين ، نخص بالذكر منهم : الاغلب ابن سالم التميمى ، والمحارب بن هلال ، والمخارق بن غفار الطائى وكان جيش عبد الاعلى يضم عسكرا من زناتة وهوارة ، فتنازعت هاتان القبيلتان ، واتهمت زناته عبد الاعلى بالميل إلى هوارة ومحاباتها ، وفارقه جماعة كبيرة من الزناتيين . وبلغ ابن الاشعث تخلى الزناتيين عن عبد الأعلى ، فقوى عزمه . ثم إنه تظاهر بأن المنصور أمره بالعودة إلى مصر ، وتباطأ فى سيره ، وتراجع بالفعل مسيرة ثلاثة أيام ، فوصل عيون أبى الخطاب وأخبروه بعودة ابن

---

(١) محمد على دبوز ، المغرب الكبير ، ج ٣ ، ص ٥ ، ٦

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٤١١ . ويذكر ابن عذارى أن المعركة حـــدثت فى مغمداس على شاطىء البحر.

(٣) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٨١ . أشار ابن عذارى الى أن ابن الأشعث خرج فى زهاء ٢٠٠ ألف مقاتل عسكر بهم فى أرض سرت (ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٨٣) ، وفي موضع آخر يذكر أنه خرج فى أربعين ألفا عليهم ٢٨ قائدا ، وهو الأقرب الى الصواب .

الاشعث ، فتفرق عنه كثير من أتباعه ، واطمأن الباقون ، فعاد ابن الاشعث مسرعا، وفاجأ قوات عبد الاعلى على غير استعـــداد للحرب، وهاجمها، فوضع العباسيون السيوف فى الخوارج، واشتد القتال ، وأسفرت الموقعة عن مقتل عبد الاعلى وعامة أصحابه فى صفر سنة ١٤٤هـ [١] . حدثت هـذه الموقعـة بالقرب من تورغا الواقعة إلى الشرق من طرابلس ومسراطه ، وقـد أبدى فيها الإباضية مع قلة عددهم وعدم تأهبهم للقتال كثيراً من ضروب الشجاعة والإقدام، واستماتوا فى القتال حتى استشهدوا جميعـــا ، فاحتز ابن الاشعث رأس أبى الخطاب وأرسله إلى المنصور .

وكان أبو الخطاب قـــد استنفر الإباضيـة فى سائر نواحى طرابلس للجهاد ، وبادر هو للقاء بن الاشعث . فلما انتصر بن الاشعث على أبى الخطاب وقتله فى عامة أصحابه ظن أنه ضمن بذلك القضاء نهائيـا على الاباضيه ، ولكنه فوجىء بوصول أبى هريرة الزناتي أحد قادة أبى الخطـاب فى ستة عشر ألفا من زناتة وغيرها [٢] ، جاءوا ملبين نداء أبي الخطاب ، ولكن بعد فوات الأوان ، فتلقاهم ابن الاشعث، ومزق صفوفهم، وتمكن من إلحـاق الهزيمة بهم فى ربيـــع الاول من سنة ١٤٤ هـ [٣] . وكان عبـد الرحمن ابن رستم قد تأهب لنجدة أبي الخطاب ، فلما وصل إلى قابس ، بلغه ما انتهى إليه مصير أبى الخطاب ، فحمل ولده، وخرج من القـيروان، ولحق باباضية المغرب الاوسط، فنزل فى لمايه ، وهى بطن من بنى فاتن بن تامصيت من البتر ،

(١) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٨١

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٣ — ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٨١

(٣) نفس المرجع .

لخلف كان بينه وبينهم ، فالتفوا حوله ، وبايعوه بالخلافة ، ورأى ابن رستم أن يقيم مدينة تكون قاعدة له فى المغرب الأوسط على نحو ما فعله بنو المدرار فى سجلماسه ، فشرع فى بناء مدينة تاهرت فى سنة ١٤٤ هـ ، وأتمها واستقر بها فى سنة ١٤٥ (١).

وكان ابن رستم قد استخلف أحد أتباعه على القيروان ، فأوثقه أهلها فى الحديد ، وولوا على أنفسهم عمرو بن عثمان القرشى ، فظل يقوم بأمرهم إلى أن وصل ابن الأشعث إلى القيروان ، ودخلها فى غرة جمادى الاولى من نفس السنة (٢) . ثم كتب ابن الاشعث بانتصاراته إلى المنصور ، وأخذ يولى عماله على المغرب ، فأقام على طرابلس المخارق بن غفار الطائى ، كما ولى على طبنة والزاب الاغلب بن سالم (٣) . وأقام ابن الاشعث فى القيروان سنة ١٤٥ هـ ، وأمر ببناء سورها فى ذى القعدة سنة ١٤٥ ، وتم بناء السور فى رجب سنة ١٤٦ هـ (٤) . وسير من هناك جيشا بقيادة قائده إسماعيل بن عكرمة الخزاعى فدخل زويلة وودان ، وقتل زعيم الاباضية بزويلة ويدعى عبد الله بن حيان الاباضى (٥) . وهكذا فرض ابن الأشعث سطوته على البربر ، فأذعنوا له بالطاعة . ولم يشأ ابن الاشعث أن يقاتل الاباضية فى المغرب الاوسط ، واكتفى باستيلائه على إفريقية ، إذ كان العباسيون يحرصون على الاحتفاظ بها فى أيديهم لتكون سداً منيعا أمام حركة الخارجية (٦) .

(١) السلاوى ، ج ١ ص ١٢٨
(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٤
(٣) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٤١١
(٤) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٨٤ وما يليها
(٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٤ — ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٨١
(٦) محمد على دبوز ، ج ٣ ص ٢٠

ثم اشتعلت نار العصبية العربية من جديد فى بلاد المغرب ، فقد كان ابن الأشعث يمنيا ، وكان معظم عسكره من المضرية ،فثار عليه رجل من جنده يقال له هاشم بن الشاهج بقمونية وتبعه عدد كبير من الجند ، فسير إليهم ابن الأشعث فرقة من جيشه هزمها هاشم ،وهنا أخذ القواد المضرية فى جيش ابن الاشعث يخرجون عليه وينضمون إلى هاشم كراهية لابن الاشعث(١) ، فسير إليهم ابن الاشعث جيشا آخر تمكن من إلحاق الهزيمة بهم ، وفر هاشم إلى تاهرت، وجمع هناك جموعا كثيفة من البربر بلغ عددهم نحو عشرين ألفا سار بهم إلى تهوذه ، فخرج إليهم جيش ابن الاشعث فهزمهم ، ففر هاشم وفلول جيشه إلى طرابلس، وهناك قتله رسول من الخليفة المنصور فى صفر سنة ١٤٧هـ، وبذل الامان لأتباع هاشم، فعادوا،ولكن ابن الاشعث طاردهم وقتل منهم عددا كبيرا . فثار المضرية على ابن الاشعث ، واتفقوا على خلعه ، وأقاموا على إفريقية بعده عيسى بن موسى بن عجلان الخراساني، وذلك فى ربيع الآخر سنة ١٤٨ هـ(٢) .فخرج ابن الاشعث من إفريقية إلى المشرق، وظل عيسى بن موسى على إمارة المغرب إلى أن ولى المنصور على إفريقية الأغلب بن سالم .

ج ـ ولاة أفريقية فى العصر العباسى حتى قيام دولة بنى الاغلب :

١ ـ الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمى (١٤٨ ـ ١٥٠):

هو جد بنى الاغلب الذين استقلوا بافريقية على أيام ابنه ابراهيم، وكان

(١) ابن الأثير ، ج ٤ ص ٢٨٢
(٢) نفس المصدر ، ج ٤ ص ٢٨٣

الأغلب من أصحاب أبي مسلم الخراساني ، وساهم فى نشر الدعوة العباسية بخراسان وعرف بالشجاعة والبلاء وحسن الرأى ، واشترك فى حملة محمد بن الاشعث على المغرب ، فولاه على طبنة والزاب . فلما قام المضرية بثورتهم فى القيروان على ابن الاشعث، وخلعوه من ولاية إفريقية، وطردوه إلى المشرق ، واختار أبو جعفر المنصور لهذا المنصب الخطير القائد الأغلب بن سالم ، لما عرفه عنه من الحزم والشجاعـــة وحسن الرأى ، ولكونه مضريا يرضاه المضريون الذين ثاروا على ابن الأشعث ، وبعث إليه المنصور عهده بولايته فى آخر جمادى الآخرة سنة ١٤٨ هـ ، ثم كتب إليه المنصور يأمره بالعدل فى الرعية وحسن السيرة فى الجند ، وأوصاه بأن يحصن مدينة القـيروان ، ويخندق حولها ، وينظم حاميتها ، ومن ينوب عنه فيها إذا ما استلزم الأمر رحيله لقتال الأعداء (١) . هذا الحرص على تحصين القيروان يدل دلالة واضحة على إلمام المنصور بشئون البربر وعلى بعد نظره، فقد كان يدرك كل الادراك أن شعب البربر يتأهب من جديد لجولة ثانية مع العرب ، وقد صدق المنصور فى ظنه وحدسه ، فان زناتة التى تمثل أكبر قبائل البربر البتر والتى تمكنت المذاهب الخارجية منها ، أحست بأن ولاة العباسـيين على المغرب يسعون إلى محاربة الخارجيـة ، والقضاء عليهـا فى المغرب كله ، ولذلك بايعت زناتة فى نفس العام الذى تولى فيه الأغلب إمارة إفريقية بالإمامة رجـلا لا يقـل عن خالد بن حميد الزناتى الصفرى فى الشجاعة والبأس ، هو أبو قرة بن دوناس اليفرنى الصفرى ، الذى ضم الصفرية فى المغربين الأوسط والأقصى ، ونظم صفوفهم (٢) ، واتخذ من تلمسان قاعدة له فى المغرب الأوسط ، ومن طنجـة

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٦

(٢) محمد على دبوز ، المغرب الكبير ج ٣ ص ٣٦

قاعدة له فى المغرب الأقصى ثم خرج أبو قرة على رأس جيش كثيف من البربر الزناتيين ، فآثر الأغلب أن يسير للقائهم ، فزحف بجيوشه حتى انتهى إلى الزاب ، فخاف أبو قرة أن يشتبك معه هناك فى قتال ، فيتمكن الأغلب من التغلب عليه بسبب كثرة أنصاره فى الزاب ، وقربها من القيروان قاعدة الأغلب فى إفريقيـــة ، فانسحب غربا إلى طنجـــة ليستدرج الأغلب وجيوشه إلى المغرب الأقصى موطن الصفرية ، فيقضى عليه كما قضى خالد بن حميد الزناتي من قبل على كلثوم بن عياض القشيرى ومعظم من كان معـه . ولم يكن الأغلب يهاب شيئا من ذلك ، فأراد أن يتابع زحفه ، ولكن جنده بدأوا يتفرقون من حوله ، فاضطر الأغلب إلى العودة إلى القيروان ، فعاد أبو قرة الى تلمسان (١) .

ثم جهز الأغلب جيشا آخر ، وخرج به للمرة الثانية لغزو الصفرية فى المغربين الأوسط والأقصى فى سنة ١٥٠ هـ ، بعد أن استخلف على القـيروان سالم بن سوادة ، ولما أوغل فى بلاد المغرب أخذ جنده وقواده ينفضون من حوله ويتسللون إلى القيروان ، واتفق أن ثار على الأغلب أثناء مسيره أحد أجناده من اليمنية بتونس وهو الحسن بن حرب الكندى ، وكان قد نجح فى إيغار قلوب القواد والجند على الأغلب ، واستمالهم إليه ، وكان ذلك هو السبب الذى دعا عسكر الأغلب إلى الإنفضاض من حوله وتفرقهم عنه إلى القيروان . وتمكن الحسن بن حرب من الاستيلاء على تونس ، وخرج فى حشود كثيفة من أنصاره ومن انضم إليه من عسكر الأغلب إلى القيروان ،

(١) السلاوى ، الاستقصا ، ج ١ ص ١٢٩

فاستولى عليها ، وقبض على عاملها سالم بن سواده وحبسه [١]. وبلغ الأغلب هذه الأخبار ، فاغتم ، وانحرف عن خطته فى مقاتلة أبى قرة ، وعاد فى عدة يسيرة إلى القيروان ، وكتب إلى الحسن بن حرب « يعرفه بفضل الطاعة ووبال المعصية ، فأعاد الجواب إلى الاغلب ، وفى آخره :

ألا قولا لأغلب غير سر * مغلغـلة عن الحسن بن حـرب
بأن البغى مرتعـه وخيم * عليـك وقـربه لك شر قـرب
فان لم تدعنى لتنال سلمى * وعفوى فادن من طعن وضرب [٢]

غضب الأغلب عند قراءة هذه الأبيات التى تتضمن معنى الوعيد والتهديد ، وعزم على السير إلى الحسن ومقاتلته ، ولكن أصحابه نصحوه بالسير إلى قابس ، وحشد عساكره هناك ، وقالوا له : « ليس من الرأى أن تعدل إلى لقاء العدو فى هذه العدة القليلة ، ولكن الرأى أن تعـدل إلى قابس ، فان أكثر من معه يجىء إليك لأنهم إنما كرهوا المسير إلى طنجه لاغير ، وتقوى بهم ، وتقاتل عدوك » [٣]. ففعل الأغلب ما نصحوه به ، وتمكن من جمع حشود كثيفة من الجند ، واشتبك مـع قوات الحسن ، فتغلب عليه ، وانهزم الحسن بن حرب إلى تونس ، ودخل الأغلب القـيروان [٤] ولم يسكت الحسن على ما أصابه من الهزيمة ، فكر بجيش هـائل على الأغلب ، فخـرج إليه الأغلب فى جمادى الآخرة سنة ١٥٠هـ ، واقتتل الفريقان ، واشتد القتال

(١) ابن عذارى ، جـ ١ ص ٨٧
(٢) نفس المرجع
(٣) ابن الأثير ، جـ ٥ ص ٢٦
(٤) نفس المرجع ـ ابن عذارى ، جـ ١ ص ٨٧

فأصيب الأغلب بسهم قتله ، بينما ثبت رجاله وقدموا على أنفسهم المخارق بن غفار الطائي، عامل الأغلب على القيروان ، وكان في ميمنة جيش الأغلب . وانتهت المعركة بهزيمة الحسن بن حرب وفراره إلى تونس في شعبان سنة ١٤٠ هـ ، وتولى المخارق إفريقية في رمضان من نفس السنة ، فوجه الخيل في أثر الحسن، فلجأ الحسن إلى كتامة ، فأقام في كنفهم شهرين ثم عاد إلى تونس ، فقتله بعض الجند هناك (١)، وصلبوه. أما الأغلب، فقد اعتنى جنده بدفنه، وسموه الشهيد (٢) .

٢ ـ ابو جعفر عمر بن حفص بن عثمان بن قبيصة المعروف بهزار مرد :

عرف عمر بن حفص بشجاعته المفرطة في ميادين القتال ، ولذلك لقب بهزار مرد ، وهي لفظة فارسية معناها ألف رجل ، دلالة على شدة بأسه ومراسه ، ولاه المنصور على المغرب ليقضي على الفتن والثورات التي احتدمت في أرضه ، ويعيد الجيش العباسي إلى الطاعة ، وأرسل معه فرقة تتألف من خمسمائة فارس ليستعين بهم في مهمته الكبرى (٣) . فقدم عمر بن حفص إلى القيروان في صفر سنة ١٥١ هـ. وأول ما عني به عمر هو تهدئة خواطر الجند ، وتسكين الاهالي في القيروان ، فاجتمع فور وصوله بوجوه المدينة ، ووصلهم وأحسن إليهم ، فهدأت الأحوال ثلاث سنوات ، واستقامت أمور البربر طوال هذه الفتره .

ويبدو أن المنصور اغتر بهذا السكون ، فتطلع بنظره إلى امتلاك المغرب

(١) ابن عذارى ، جـ ١ ص ٩١ ــ ابن الأثير جـ ٥ ص ٢٦
(٢) ابن الأثير ، جـ ٥ ، ص ٢٦
(٣) ابن عذارى ، جـ ١ ص ٨٨ ــ ابن الأثير ، جـ ٥ ص ٣١

الأوسط ، فأمر واليه عمر بالتوجه إلى طبنة قاعدة إقليم الزاب وتحصينها بسور حتى تكون مركزا لغاراته المقبلة على المغربين الأوسط والاقصى ، للقضاء على دولة الرستميين بتاهرت، ودولتى الصفرية فى تلمسان وسجلماسة فاستخلف عمر بن حفص على القيروان حبيب بن حبيب بن يزيد بن المهلب، وعزم على السير لقضاء مهمته ، وأحس الرستميون بالخطر الذى يتهدد دولتهم من تحصين مدينة طبنة، فاتفق ابن رستم مع أنصاره فى طرابلس وجنوب إفريقية وتلمسان على الانتقاض ، ومحاربة العباسيين ، فما كاد عمر بن حفص يخرج إلى طبنة ، وتخلو إفريقية من عسكر العباسيين حتى ثار بها البربر ، ولما خرج إليهم حبيب لملاقاتهم، قتلوه بعد أن هزموا جيشه وجيش طرابلس الذى سيره الجنيد بن بشار عامل عمر بن حفص على طرابلس [1] . ونتج عن انتصار البربر فى إفريقية قيام الفتنة فى سائر أنحائها . واجتمعت حشود البربر من كل فج ، وولوا على أنفسهم أبا حاتم يعقوب بن حبيب الإباضى. فكتب الجنيد ابن بشار الأسدى عامل طرابلس إلى عمر يستمده ، فأمده من طبنه بعسكر فتقوى بهم ، واشتبكت قوات الجنيد مع قوات أبي حاتم ، فانتصر البربر ، وسحقوا قوات العباسيين سحقا ، وتراجع فل العباسيين إلى قابس ، فحاصرهم أبو حاتم [2] .

احتشدت جموع البربر من كل ناحيه لمهاجمة عمر بن حفص فى طبنة . ويجمع مؤرخو العرب على أنه تجمع للبربر اثنىعشر عسكرا ، توجهوا جميعا نحو الزاب ، منهم أبو قرة الصفرى الذى قدم فى أربعين ألف مقاتل، وعبد

(١) ابن الأثير ، جـ ٥ ص ٣٢ — ابن خلدون ، جـ ٤ ، ص ٤١٢

(٢) نفس المرجع

الرحمن بن رستم الاباضى فى خمسة عشر ألفا ، وأقبـل عاصم السدراتى من سدراته فى سـتة آلاف مقاتل ، وأبو حاتم فى جيش كبير ، وعبد الملك بن سكرديد فى ألفين ، والمسور بن هانيء الزناتى فى عشرة آلاف (١). وأسهم من خوارج صنهاجه وزناتة وهوارة أعداد لا تحصى من البربر غير أن ابن رستم آثر أن يعسكر بعسكره فى تهودة التى تقع جنوبى طبنـة ، ليكون مدداً لقوات أبى قرة عند الحاجة .

ولم يكن مع عمر بن حفص من العسكر سوى خمسة عشر ألفا وخمسمائة، فهاله ما رآه من حشود البربر الهائلة التى تجمعت بالقرب من طبنة ، فتحصن داخل أسوار المدينة، ولما طال عليه حصار البربر له، أنف أن يكون سجينا لهم فى طبنة ، وعزم على الخروج مع عسكره مرة واحدة خروج من وطن نفسه علي الموت . فأشار عليه قواده بأن يبقى فى طبنة حتى لا يعرض نفسه للهلاك ، ونصحوه باعمال الحيلة والدهاء ، فتبع نصيحتهم ، وكان يعرف ما للمـال من تأثير كبير فى نفوس من يحتاج إليـه ، وكان اضطراب الأحوال السياسية فى المغرب منذ أواخـر عصر الدولة الأموية قد سبب ارتباكا فى البناء الاقتصادى ، فكثرت المجاعات، وعم القحط فى البلاد ، وعانى البربر كثيراً من ضروب البؤس والفقر ،وكان ذلك من أسباب تقبلهم لمبادىء الخارجية ، فوجه عمر رســـله إلى أبي قرة يعرضون عليه ستين ألف درهم وكسى كثيرة حتى ينصرف برجاله، فرد عليهم بقوله « بعد أن سلم على بالخلافة أربعين سنة أبيع حربكم بعرض قليل من الدنيا» ولم يجبهم إلى ذلك (٢) . ولما

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٨ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣٢

(٢) نفس المرجع ، ص ٨٩ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣٢

رأى عمر أن إغراء المال وبريق الذهب لم ينجحا فى تحويل أبي قرة عن عزمه ، أعاد المحاولة مع أخ لأبى قرة ، فدفع رسوله إليه قدرا من المال مقداره أربعة آلاف درهم وبعض الثياب ، بشرط أن يعمل على صرف أخيه أبى قرة والصفرية إلى بلادهم . ونجح عمر هذه المرة ، فقد ضعف عزم شقيق أبى قره أمام هذا العرض ، فشرع من ليلته فى إثناء الصفرية عن محاصرة العرب، «ولم يعلم أبو قرة حتى انصرف عنه أكثر العسكر ، فلم يجد بدا من اتباعهم » (١) . وهكذا نجح عمر فى تفريق كلمة البربر بأمواله ، وعندئذ وجه عسكره إلى عبد الرحمن بن رستم ، وكان مرابطا فى تهوذه ، فانهزم ابن رستم وتراجع إلى تاهرت ، ولم يجد من بقى من الإباضية على حصار طبنة بدا من التراجع إلى القيروان ومحاصرتها ، وزحف عمر بعسكره من طبنة متجها إلى القيروان لفك الحصار عنها بعد أن استخلف على طبنة بعض عسكره . وفى هذه الأثناء علم أبو قرة بخروج عمر من طبنة ، فقدم إليها ، واشتبك مع عسكر العباسيين، فولى منهزما بعد أن قتل من رجاله عدد كبير.

وكان أبو حاتم قد لازم حصار القيروان مدة ثمانية شهور حتى نفذ الطعام من أهرائها ، وأكل الناس دوابهم وكلابهم ، وجهدهم الجوع ، وجاءت الأخبار بوصول عمر بن حفص من طبنة فى سبعمائة فارس ، ففك أبو حاتم الحصار عن المدينة ، واتجه إلى الأربس حيث نزل عمر ، فغادر عمر الأربس إلى تونس ، فتبعه البربر ، فعاد إلى القيروان مجداً ، وأدخل إليها ما يحتاج من طعام ودواب وحطب وكل ما يصلحه من المرافق استعدادا لحصار طويل ، وتحصن العباسيون فى داخل أسوار المدينة ، ثم أقبل أبو حاتم فى

---

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٨٩

حشود كثيفة من البربر قيل أن عدتهم ١٣٠ الف مقاتل [1] ، وحاصروا القيروان، وكان عمر بن حفص يخرج لمنازلتهم كل يوم ثم يعود إلى المدينة. فلما طال الحصار على أهل القيروان، وقلت لديهم الأقوات ، وانعدمت المؤن ، وضاق أمرهم « أكلوا دوابهم وكلابهم وسنانيرهم ، وانتهى الملح عندهم أوقية بدرهم » [2]

ثم بلغه أن المنصور قد سير إليه يزيد بن حاتم على رأس جيش قوامه ستين ألف مقاتل لنصرة أهل القيروان . فعز على عمر أن تكون نجاة القيروان على يدى قائد آخر ، فقال : « لاخير فى الحياة بعد هذا أن يقال : يزيد أخرجه من الحصار ، إنما هى رقدة وأبعث إلى الحساب »[3]. وخرج يقاتل البربر ، ويطعن فيهم حتى قتل فى ١٥ ذى الحجة من سنة ١٥٤ ﻫ ، فخلفه على قيادة جيش العباسيين أخوه جميل بن حفص [4] ، وقيل حميد بن صخر أخو عمر لأمه [5] . ولما طال الحصار على العباسيين دون أن تصل إليهم قوات يزيد بن حاتم ، وساءت أحوال المسلمين بداخل القيروان ، اضطر جميل بن حفص إلى مصالحة أبى حاتم بشرط أن يظل العباسيون فى القيروان موالين للمنصور العباسى، لاينازعهم أبو حاتم فى سوادهم وسلاحهم،

---

(١) ذكر ابن عذارى أن عدد قوات البربر التى كان يقودها أبو حاتم الإباضى وأبو غادي بلغت ٣٥٠ ألفا ، والخيل منها ٣٥ الفا ، وأربعين الفا مع أبى قرة اليفرنى (البيان ص ٩١)

(٢) ابن عذارى ج ١ ص ٩٠

(٣) نفس المرجع ص ٩١

(٤) نفس المرجع

(٥) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣٢ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤١٣

فرفض أبو حاتم هذا الشرط ، ثم هاجم القيروان ، وأحرق أبوابها ، وهدم سورها (١) ، ودخلها فلم يسفك دماء أهلها ومن كان فيها من عسكر العباسيين، ثم إنه أمر باخراج معظم هؤلاء العسكر من القيروان حتى يتجنب بذلك قيامهم بالثورة عليه مستقبلا، ويأمن لنفسه الإقامة بها دون أن يترصده عدو يقيم معه بها ، وأنزلهم بطبنة . ولم يبق في القيروان من جند العباسيين إلا عدد قليل .

وجاءته الأنباء بوصول يزيد بن حاتم إلى طرابلس ، فاستخلف على القيروان عبد العزيز بن السمح المعافرى (٢) . وترك معه عددا قليلا من الجند ، وسار هو بمعظم جيشه إلى طرابلس لملاقاة جيش يزيد بن حاتم قبل ان يصل إلى إفريقية. ومبالغة منه فى الحذر من العباسيين المقيمين فى القيروان، أمر أبو حاتم عامله على القيروان بأن يجرد هؤلاء العرب من السلاح ، وأن يفرق بينهم حتى لايفكروا فى القيام بثورة مسلحة عليه داخل المدينة . ولما علم العباسيون فى القيروان بما اعتزم عليه أبو حاتم من تجريدهم من سلاحهم ، قدموا على أنفسهم عمر بن عثمان الفهرى ، ووثبوا على عسكر أبى حاتم فى القيروان ، وقتلوهم ، واسترجعوا المدينة . وبلغ أبو حاتم غدرهم به ، فعاد أدراجه إلى القيروان ، فهرب عمر بن عثمان إلى تونس ، بينما نجح جميل بن حفص ، والجند العباسيون فى التوجه شرقا ، وانضموا إلى قوات يزيد بن حاتم بسرت .

أسرع أبو حاتم إلى العمل ، فأرسل فرقة من جيشه بقيادة جرير بن

(١) المرجع السابق — ابن خلدون ص ٤١٣

(٢) ابن عذارى ، ص ٩٠ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤١٤

مسعود المديونى للقبض على عمر بن عثمان والمخارق بن غفار بتونس ، فإن ابن خلدون يذكر أنهما فرا إلى جيجل من سواحل كتامة ، فتركهما ، واستخلف على القيروان عبد العزيز بن السمح المعافرى ، ومضى هو لملاقاة جيوش العباسيين بقيادة يزيد بن حاتم . أما جرير المديونى فقد أدرك عمر ابن عثمان بجيجل، فتقاتلا ، فقتل جرير وأصحابه ، وتمكن عمر بن عثمان والمخارق بن غفار من دخول تونس (١) .

٣ – يزيد بن حاتم وقضاؤه على ثورة البربر الاباضية :

كانت أخبار الثورات التى أشعلها البربر فى المغرب الأدنى قد وصلت إلى مسامع أبي جعفر المنصور ، فبادر بتولية يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب على المغرب ، وسيره إلى إفريقية فى جيش من عرب الشام والعراق وخراسان عدته ستون ألفا (٢) . ووصل يزيد إلى سرت فى عام ١٥٥ هـ ، وانضم إلى جيشه هناك عدد كبير من عرب إفريقية وطرابلس ، كما انضم إليه جماعة من البربر ، فتضخم بهم جيشه . وكان أبو حاتم قد خرج من القيروان على رأس جيشه من الإباضية لملاقاة يزيد بن حاتم ، وانضم إليه قائد عربى من أعقاب عقبة بن نافع هو عبد الرحمن بن حبيب بن عبد الرحمن الفهرى (٣) . وآثر أبو حاتم أمام كثرة أعدائه أن يلاقيهم فى منطقة جبلية يسهل عليه أن يتغلب فيها عليهم ، فاختار لهذا الغرض جبل نفوسة لكثرة من فيه من المشايعين له ولحركته ، فسير يزيد بن حاتم طائفة من عسكره إلى قابس ،

---

(١) النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٢٢ ، عن محمد على دبوز ، المغرب الكبير ، جـ٣ ص٧٤

(٢) ابن الأثير ، جـ ٥ ص ٣٣ — ابن خلدون ، جـ ٤ ص ٤١٤

(٣) ابن عذارى ، جـ ١ ص ٩٤ — ابن الاثير ، ص ٣٣ — ابن خلدون ، ص ٤١٤

فاشتبك معهم أبو حاتم ورجاله فى معركة دامية انتهت بهزيمة العباسيين، وعاد فلهم إلى يزيد بن حاتم(١) . ورأى يزيد أنه أمام خصم شديد المراس ، فعزم على السير بنفسه لملاقاته ومقاتلته، ولما علم أبو حاتم بقدومه إليه تحصن فى مكان وعر ، وخندق على عسكره ، ثم التقى الجيشان فى ربيع الأول سنة ١٥٥ هـ واشتد القتال بينهما ، واستمات أبو حاتم فى مدافعة العباسيين حتى قتل هو وأهل نجدته ، وطارد يزيد فلول جيشه فى السهول والجبال ، وقتل منهم مايقرب من ثلاثين ألفا . وظل العباسيون يقتلون الإباضية فى جبل نفوسة شهرا حتى سحقوهم ، ثم استخلف يزيد على طرابلس سعيد بن شداد ، ومضى بجيشه إلى القيروان ، فدخلها فى ٢٠ جمادى الآخره سنة ١٥٥ هـ (٢) .

وكان عبد الرحمن بن حبيب حفيد عبد الرحمن بن حبيب الفهرى الثائر على حنظلة بن صفوان ، قدا نضوى تحت لواء أبى حاتم والإباضية ، واشترك فى معركة جبل نفوسة، فلما انهزم جيش أبى حاتم، فر عبد الرحمن مع من فر من أصحاب أبى حاتم إلى جبال كتامة الواقعة فى شمال قسنطينة ، واعتصم بقلعة صحاب ، فبعث إليه يزيد بن حاتم المخارق بن غفار الطائى والى طبنة لمحاصرته ، ويبدو أن المخارق أبدى عجزا فى استنزال عبد الرحمن بن حبيب، فوجه يزيد بن حاتم مددا إلى المخارق بقيادة العلاء بن سعيد المهلبى سنة ١٥٦ هـ (٣) . ونجح القائدان هذه المرة فى التغلب عليه ، ففر عبد الرحمن بن حبيب عن القلعة ، وعبر البحر إلى الأندلس (٤) . وفى نفس هذا التاريخ

(١) ابن الأثير ، جـ ٥ ص ٣٣

(٢) ابن عذارى ، جـ ١ ص ٩٤

(٣) نفس المرجع

(٤) ابن الأثير ، جـ ٥ ص ٦٠

ثار بطرابلس على يزيد ، أبو يحيى بن قرياس الهوارى ، فالتف حوله كثير البربر ، فاشتبك معه عبـــد الله بن السمط الكندى ، قائد جيش يزيد فى إطرابلس فى قتال عنيف ، انتهى بهزيمة أبى يحيى وسحق ثورته (١) .

وكان يزيد من خـيرة ولاة إفريقية ، إذ قضى على الثورات ، وضبط البلاد ، وأمن الناس على معاشهم ، وأموالهم ، وبدأت بعهده صفحة جديدة فى تاريخ المغرب الأدنى . وظل الهدوء مخيما عـلى المغرب الأدنى فى عهده حتى سنة ١٦٤ هـ ، عندما انتفضت قبيلة ورفجومة بزعامة أيوب الهوارى . فسير إليهم يزيد جيشا ضخما بقيادة يزيد بن مجزأة المهلبى ، والمخـارق بن غفار الطائى ، فالتقى الفريقان بالزاب فى معركة حامية ، انهزم فيها يزيد ، وقتل المخارق والى الزاب ، فولى يزيد بن حاتم مكانه المهلب بن يزيد المهلبى ، إلى أن استعمل على الزاب العـلاء بن سعيد المهلبى ، وأمده يزيد بن حاتم بجيش كثيف تمكن بواسطته من القضاء على ثورة ورفجومة (٢) .

ثم ساد البلاد فترة من الهدوء مرة ثانية ، عكف خلالها يزيد بن حاتم على الاصلاحات الداخليـة ، وترميم ما أفسدته الحروب والثورات . اهتم يزيد بالعمارة والفنون ، فأعاد تنظيم مدينة القيروان ، وجعـــل لكل حرفة من الحرف سوقا خاصة بها ، وجدد بناء المسجد الجامع بالقيروان (٣) ، وأزاد فيه سنة ١٥٧ هـ . وشهدت البلاد الإفريقية فى أيامه ازدهارا لم تشهده منـذ أيام حسان بن النعمان ، وظلت إفريقية تنعم بالهدوء والأمن حتى توفى يزيد بن

---

(١) ابن عذارى ، ص ٩٤

(٢) ابن الاثير ، جـ ٥ ص ٣٣

(٣ ابن الأبارة ، كتاب الحـلة السيراء ، جـ ١ ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٦٣ ص ٧٣

حاتم فى رمضان سنة ١٧٠ هـ ، فى خـــلافة الرشيد [١] ، وقيل توفى فى سنة ١٧١ [٢] .

٤ ـ روح بن حاتم بن قبيصة :

لما مرض يزيد بن حاتم استخلف ولده داود على ولاية إفريقية ، فلما توفى يزيد ظل داود يقوم بولايتها زهاء تسعة أشهر قضـــاها فى محاربة الإباضية الثائرين عليه ، فقد انتقض الإباضية بجبال باجة ، وتزعمهم نصير ابن صالح الإباضى ، فسير إليهم داود جيشا بقيادة المهلب بن يزيد ، فهزمه الإباضية ، وقتلوا جملة من عسكره ، فوجه إليهم داود جيشا بقيادة سليمان ابن يزيد ، يتألف من عشرة آلاف مقاتل ، ونجح جيشه هذه المرة فى تمزيق صفوف الثوار والقضاء على ثورتهم . وأقام داود على ولاية إفريقية إلى أن قدم إليها عمه روح بن حاتم أميرا على المغرب من قبل الرشيد [٣] .

وفى عهد روح ساد الهدوء إفريقية ، فقد هادن عبد الوهاب بن رستم بتاهرت ، ووادعه [٤] . ولم يطل عهده إذ توفى فى القيروان فى ٢٣ رمضان سنة ١٧٤ هـ .

٥ ـ الفضل بن روح بن حاتم :

لما توفى روح بويع ابنه قبيصة فى المسجد الجامع ، وكان الفضل بن

---

(١) ابن الأثير ص ٣٣ ، ٨٢ ـ ابن خلدون ، جـ ٤ ص ٤١٥ ـ ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، القسم الثالث ص ٩

(٢) ابن عذارى ، جـ ١ ص ٩٦ ، ٩٨

(٣) ابن عذارى ، جـ ١ ص ٩٩ ـ ابن الأثير جـ ٥ ص ٨٣

(٤) ابن خلدون ، جـ ٤ ص ٤١٥

روح عاملا لأبيه فى الزاب ، ولكن الرشيد استعمل على إفريقية بعد وفاة روح ، حبيبا بن نصر المهلبى فى رمضان سنة ١٧٤ ، فخرج الفضل بن روح إلى بغداد ، وطالب الرشيد بولاية إفريقية باعتباره أحق بها من حبيب بن نصر ، فولاه الرشيد على إفريقية ، وعندئذ عاد الفضل إلى القيروان فى سنة ١٧٧هـ ، فولى ابن أخيه المغيرة بن بشر على مدينة تونس ، وكان أرعنا ، فاستخف بالجند ، وأساء السيرة معهم ، فشكوا إلى الفضل ، فلم يحرك ساكنا ، فاتفق الجند فيما بينهم على تقديم قائد منهم يقال له عبدالله ابن الجارود ، ويعرف بعبدويه الأنبارى ، والتف حوله عدد كبير من الساخطين على الفضل ، وأعلنوا الثورة عليه ، وطردوا عامله على تونس ، وكتب ابن الجارود إلى الفضل بن روح : « أما بعد ، فانا لم نخرج على المغيرة خروجا عن الطاعة ، ولكن لأحداث أحدثها فينا ، ظهر فيها فساد الدولة ، فعجل لنا من ترضاه ليقوم بأمرنا ، وإلا نظرنا لأنفسنا » ، فأجابه الفضل : « أما بعد ، فان الله يجرى قضاؤه على ما أحب الناس أو كرهوا ، وليس اختيارى واليا اخترته لكم أو اخترتموه بحائل دون شىء أراد الله عز وجل بلوغه فيكم ، وقد وليت عليكم عاملا ، فان دفعتموه فهو آية النكث منكم والسلام » (١) . وبعث إليهم عبد الله بن يزيد المهلبى ، عاملا على تونس ، فى صحبة النضر بن حفص ، وأبو العنبر والجنيد بن سيار ، فلما وصلوا إلى ظاهر تونس أدرك ابن الجارود أن مجىء العامل فى رفقة ثلاث من القواد يعنى عزمه على القبض على رؤساء الثورة والتنكيل بهم ، فحث رجاله على القبض عليهم ، فخرجوا إلى عبد الله بن يزيد فقتلوه ، وأسروا من معه .

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٦ — ابن الأبار ، الحلة السيراء ص ٧٧

فسير إليهم الفضل جيشا لمقاتلتهم ، ولكن جيشه منى بهزيمة نكراء ، وارتد منهزما إلى القيروان ، وأقبل ابن الجارود بعسكره ، وحاصر القيروان ، وتمكن من اقتحام المدينة فى جمادى الآخرة سنة ١٧٨ ، وأخرج الفضل ومن معه إلى قابس ، ثم ردهم ابن الجارود وقتل الفضل خوفا من أن يتوجه إلى طرابلس ويعود منها بجيش يحاربه . وعندما عبر الجند عن غضبهم لمقتل الفضل قاتلهم ابن الجارود وهزمهم ، ففروا إلى الأربس . وأقاموا على أنفسهم العلاء بن سعيد والى الزاب (١).

٦ ـ هرثمة بن اعين :

لما بلغ الرشيد مقتل الفضل بن روح وما أثاره ذلك من عوامل الفوضى والاضطراب فى إفريقية ، ولى على إفريقية هرثمة بن أعين ، وبعث إلى ابن الجارود يحيى بن موسى ، لمكانته عند أهل خراسان (٢) ، وقصد من إرساله أن يستميل ابن الجارود ليعاود الطاعة قبل وصول هرثمة . ونجح يحيى بن موسى فى استمالة جماعة من أجناد ابن الجارود على رأسهم محمد بن الفارسى ، ولكن ابن الجارود قتل محمد بن الفارسى وهزم عسكره ، فعاد يحيى إلى هرثمة بطرابلس ، وفى نفس الوقت تمكن العلاء بن سعيد من جمع قوات كثيرة للزحف بهم إلى القيروان ، فكتب ابن الجارود إلى يحيى فى أول صفر سنة ١٧٩ هـ يدعوه للحضور إلى القيروان قبل العلاء . ولكن العلاء سبق يحيى فى دخول القيروان ، وقتل من أتباع ابن الجارود عددا كبيرا ، ثم أقبل يحيى بن موسى إلى القيروان ، وأمر العلاء بالخروج منها ، فخرج

---

(١) ابن الأثير ، جـ ٥ ص ٩٥

(٢) نفس المرجع ـ ابن خلدون ج ٤ ، ص ٤١٧

إلى طرابلس [١] . ثم قدم هرثمة إلى إفريقية ، ودخل القيروان فى غرة ربيع الآخر سنة ١٧٩ . فهدأ نفوس أهلها ، وأقام على الزاب ابراهيم بن الأغلب . وكان هرثمة مولعا بالبناء ، فأقام القصر الكبير بالمنستير سنة ١٨٠ هـ وبنى سور مدينة طرابلس مما يلى البحر [٢].

وفى سنة ١٨٠ هـ ثار على هرثمة عياض بن وهب الهوارى ، وكليب ابن جميع الكلبى ، ووجها إليه جيشا لمحاربته ، فسير هرثمة إليهما يحيى بن موسى فى جيش كثيف ، تمكن من إيقاع الهزيمة بهما ، والتغلب عليهما [٣] . ولكن هرثمة لم يرض بالبقاء أكثر من ذلك فى إفريقية لكثرة ثورات أهلها وتقلب أجنادها ، فطلب من الرشيد الاستعفاء ، فأمره بالقدوم إليه، فخرج من إفريقية فى رمضان سنة ١٨١ هـ .

٧ ـ محمد بن مقاتل العكى :

استعمل الرشيد على إفريقية بعد هرثمة محمداً بن مقاتل بن حكيم العكى وكان أخاه فى الرضاع ، فقدم إليها فى أول رمضان سنة ١٨١ هـ . ولم ينجح ابن مقاتل فى تهدئة نفوس الجند ، بل على الضد من ذلك أثار عليه كراهية الجند لسوء سيرته ، وقبيح ما يؤثر من أخباره ، من ذلك إقدامه على ضرب البهلول بن راشد بالسياط ، وتسببه فى قتله بسبب وعظه له ، ومعارضته فى تصرفاته ، خاصة عندما أمد الروم فى صقلية بالأسلحة . وكان البهلول من كبار أئمة البربر فى الشريعة ، ولذلك كان مقتله سببا فى بغض الناس لابن مقاتل،

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ١٠٩ ـ ابن الأثير ، ج ٥ ص ٩٦

(٢) نفس المرجع ص ١١٠ ـ ابن الأثير ص ٩٦

(٣) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٩٦ ـ ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤١٨

يضاف إلى ذلك أنه اقتطع أرزاق الجند ، وأساء السيرة فيهم وفى الرعيـة ، ولذلك اختلف جنده عليه [١]، واتفقوا على تقديم مخلد بن مرة الأزدى . ولما علم ابن مقاتل بذلك ، سير إليه جيشا للقضاء على ثورته ، وتمكن هذا الجيش من هزيمة أنصار مخلد ، فاختفى فى مسجد ، ولكن جند ابن مقـاتل تمكنوا من القبض عليه ، وذبحوه [٢] .

ثم ثار عليه أبو الجهم تمام بن تميم التميمى عامله فى تونس ، لاستهجـانه تصرفات ابن مقاتل ، وسار تمام فى جموع هائلة إلى القيروان فى رمضان سنة ١٨٣ هـ ، واشتبك مع ابن مقاتل فى منية الخيل من القيروان ، فانهزم ابن مقاتل ، « وتحصن فى داره التى بناها ، وترك دار الإمارة ، وأقبل تمام ، فنزل بعسكره خلف باب أبي الربيع . فلما أصبح تمام فتحت له الأبواب ، فدخل القيروان يوم الأربعاء لخمس بقين من رمضان سنة ١٨٣ ، فأمن تمام العكى على دمه وأهله وماله . فكانت ولايته إلى أن أخرجه تمام من القيروان سنتين وعشرة أشهر » [٣] .

خرج العكي من القيروان بعد أن أمنه تمـــام ، وسار إلى طرابلس ، فأدركه قوم من الخراسانيين ، منهم طرحون صاحب شرطته ، فدخل بهم طرابلس وأقام بها . واستاء ابراهيم بن الأغلب التميمى من خروج تمـام على والى إفريقيـة الشرعى ، فجمع ابن الأغلب جيشا من الزاب سار به إلى القيروان ، وقبل أن يصل إليها كان تمـام قد فر إلى تونس ، فدخل

---

(١) ابن عذارى ، جـ ١ ص ١١١ — ابن الأثير ، جـ ٥ ص ١٠٤

(٢) ابن الأثير ، جـ ٥ ص ١٠٤

(٣) ابن عذارى ، جـ ١ ص ١١٢

ابراهيم بن الأغلب القيروان واتجه مباشرة إلى المسجد الجامع ، وصعد المنبر ، وخطب فى الناس خطبة بليغة ، أشار فيها إلى أنه قدم إلى القيروان لنصرة محمد بن مقاتل العكى ، لأنه الأمير الشرعى على إفريقية [١] . ثم كتب ابراهيم إلى العكي بطرابلس يدعوه إلى دخول القيروان . فعاد العكي إلى القيروان ، فانزعج الناس لعودته ، وبدأو يفزعون إلى تمام بتونس . فلما عاين تمام كثرة من وفد إليه من الجند والمشايعين ، عزم على مهاجمة القيروان ، فخرج ابن الأغلب لمقاتلته ، فانهزم تمام ، وانسحب إلى تونس ، فطارده ابن الأغلب ، وتأهب لمحاصرته فيها فى محرم سنة ١٨٤هـ . فلما رأى تمام ألا طاقة له على مقاتلة ابن الأغلب ، استأمنه على نفسه ، فأمنه ، وأقبل به إلى القيروان فى ٨ من المحرم ، ثم أرسله إلى بغداد ، فأمر الرشيد بحبسه فى المطبق [٢] .

أصبح ابراهيم بن الأغلب رجل إفريقية القوى ، بعد أن هزم تمام ، وأعاد ابن مقاتل إلى مقر ولايته ، ولكن أهل البلاد والجند كانوا قد سئموا حكم ابن مقاتل ، وكرهوا عسفه ، فاتصلت جماعة منهم بابراهيم بن الأغلب وطلبوا منه أن يتولى شؤونهم بدلا من ابن مقاتل ، وحملوه على أن يكتب إلى الرشيد طالبا منه أن يقره على ولاية إفريقية ، فكتب إليه فى ذلك ، وأبلغه أنه مستعد فى مقابل ذلك أن يتنازل عن المائة الف دينار التى كانت تبعثها حكومة مصر كل عام معونة لإفريقية ، بالإضافة إلى استعداده لإرسال أربعين الف دينار كل عام إلى الخليفة . فلما عرض الرشيد الأمر

---

(١) ابن عذارى ، ص ١١٣

(٢) ابن خلدون ، ص ٤١٩ — النويرى ، عن دبوز ، ج ٣ ، ١٢٧

على هرثمة بن أعين ليسأله النصيحة ، أشار إليه بأن يوافق على منحه ولاية إفريقية لكفايته ، وحزمه ، ومقدرته الحربية فى إخماد الثورات والقضاء على الفتن . فكتب له الرشيد عهدا بولاية إفريقيـة فى جمـادى الآخرة سنة ١٨٤ هـ ، فقفل بن مقاتل عائدا إلى المشرق (١) .

وبولاية ابن الأغلب يبدأ عهد جديد فى تاريخ إفريقية والمغرب .

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٦ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ١٠٤ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤١٩ — السلاوى ، ج ١ ص ١٣٥

الباب الثالث

الولايات المستقلة بالمغرب فى القرن الثالث الهجرى

الفصل الخامس

دولة الأغالبة فى المغرب الأدنى

(١) عصر الأمراء الأقوياء :

١ - ابراهيم بن الأغلب (١٨٤ - ١٩٦ هـ) .
٢ - أبو العباس عبد الله بن ابراهيم (١٩٦ - ٢٠١ هـ) .
٣ - زيادة الله بن ابراهيم (٢٠١ - ٢٢٣)

(٢) خلفاء زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب :

١ - أبو عقال الأغلب (٢٢٣ - ٢٢٦ هـ) .
٢ - أبو العباس محمد بن الأغلب بن ابراهيم (٢٢٦ - ٢٤٢) .
٣ - أبو ابراهيم أحمد بن محمد (٢٤٢ - ٢٤٩) .
٤ - أبو محمد زيادة الله بن محمد (٢٤٩ - ٢٥٠) .
٥ - أبو الغرانيق محمد بن احمد (٢٥٠ - ٢٦١) .
٦ - ابراهيم بن احمد (٢٦١ - ٢٨٩) .
٧ - أبو العباس عبد الله بن ابراهيم (٢٨٩ - ٢٩٠) .
٨ - زيادة الله بن عبد الله ، آخر أمراء بنى الأغالب (٢٩٠ - ٢٩٦).

(٣) ازدهار الحياة الاقتصادية فى المغرب الأدنى فى عصر الأغالبة .

(٤) سكان إفريقية فى عصر الاغالبة : ١ - العرب ٢ - العجم الفرس ٣ - البربر
٤ - الروم والأفارق ٥ - الفتيان .

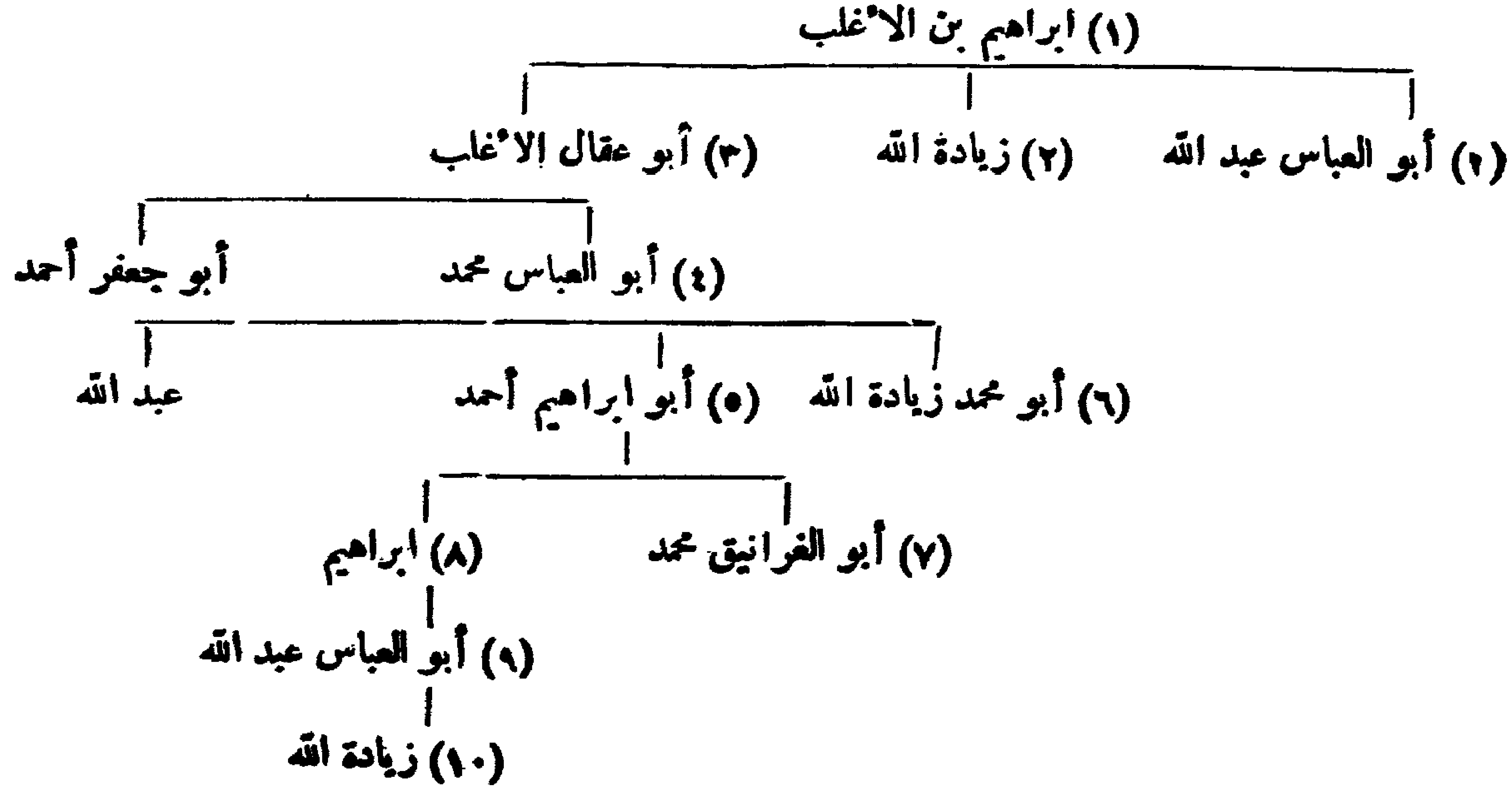
(٥) منشآت الأغالبة فى إفريقية :

ا ـ العمارة الدينية : ١ ـ المسجد الجامع بالقيروان ٢ ـ جامع الزيتونة بتونس ٣ ـ المسجد الجامع بسوسة ٤ ـ مسجد أبى فتاتة بسوسة ٥ ـ مساجد أخرى خاصة .

ب ـ العمارة الحربية : ١ ـ رباط سوسة ٢ ـ رباط المنستير ٣ ـ سور سوسة ٤ ـ سور سفاقس

ج ـ العمارة المدنية والمنافع العامة : ١ ـ مدينة العباسية ٢ ـ مدينة رقادة ٣ ـ المواجل والخزانات والقناطر .

جدول بامراء بنى الأغلب



الفصل الخامس

دولة الأغالبة فى المغرب الأدنى

(١)

عصر الأمراء الأقوياء

شهد المغرب الإسلامى منذ أواخر القرن الثانى الهجرى قيام دويلات مستقلة فى سائر أجزائه ، ففى المغرب الأدنى ، بالقيروان ، قامت دولة الأغالبة ، وفى المغرب الأوسط بتاهرت قامت دولة الرستميين، وفى المغرب الأقصى بفاس قامت دولة الأدارسة ، وفى سجلماسة قامت دولة بنى المدرار، وفى نكور والريف الغربى قامت دولة بنى صالح بن منصور الحميرى ، وفى شالة بتامسنا قامت دولة بنى صالح بن طريف البرغواطى . وأهم هذه الدويلات جميعا دولة بنى الأغلب ، وهم أسرة مستنيرة ، حكمت إفريقية طوال القرن الثالث الهجرى ، أسسها ابراهيم بن الأغلب بن سالم التميمى ، الذى ثبته الرشيد فى ولاية إفريقية فى سنة ١٨٤هـ . وأسرة الأغالبة أسرة راقية فى مضمار الحضارة ، عملت على نشر الحضارة الإسلامية فى البلاد التى خضعت لنفوذها ، أى فى إفريقية وصقلية ، كما أن أمراءها أقاموا المدن والقصور، وشيدوا المساجد والحصون، وشجعوا الآداب والعلوم والفنون. وفيما يلى دراسة لأمراء هذه الأسرة الأقوياء :

١ - ابراهيم بن الأغلب (١٨٤ - ١٩٦) :

أقنعت أحداث إفريقية المتوالية ، من معارك خاضها العرب ضد البربر

الصفرية والإباضية ، ومن حركات التمرد التي قام بها الجند ، ومن فتن طاحنة متواصلة ، الرشيد بأن انفصال المغرب عن الامبراطورية العباسية أصبح حقيقة واقعة ، وقد دفعه هذا إلى قبول ما عرضه عليه ابراهيم بن الأغلب ، عامل الزاب من قبل ابن مقاتل ، والتسليم باستقلال ولاية إفريقية استقلالا جزئيا عن الخلافة العباسية ، والاكتفاء بتبعيته الإسمية لها نظير مبلغ من المال يبعثه إلى الخليفة . هذا الوضع الجديد الذى وافق عليه الرشيد يؤكده لقب الإمارة الذى أطلقه المؤرخون كثيراً على بنى الأغلب ، كما يؤكده قيام كل خليفة عباسى جديد باقرار الأمير الأغلبي على ولاية إفريقية(١) . ولاشك أن الرشيد بارساله عهد ولاية إفريقيـة إلى ابراهيم بن الأغلب ، كان يقر استقلاله الفعلى بهذه البلاد مع التبعية الإسمية للخلافـة لسبب آخر يمكن أن نضيفه إلى السبب السابق . فقد كان إدريس بن عبد الله بن الحسن قد فر إلى المغرب الأقصى بعد انهزام إخوته فى موقعة فخ بمكة سنة ١٦٩ هـ ، وتمكن إدريس من الإفلات مع مولاه راشد إلى مصر ، ومن هناك مضى إلى أقصى الطرف الغربى من العـالم الإسلامى ، حيث استقر ببلدة وليلى قاعـدة جبل زرهون فى سنة ١٧٢ هـ (٢) ، وبايعه بربر أوربة بالإمامة ، ونجح فى تكوين دولة شيعية فى هذا الصقع من بلاد المغرب ، وانضمت إليه قبـائل أخرى منها زواغة ، وزواوة ، وسدرتة ، وغياثة ، ومكناسة ، وغمـارة . وتطلع

(١) — Marçais, la Berberie musulmane et l'Orient au Moyen âge, p. 59.

(٢) الجزنائى ، كتاب زهرة الآس فى بناء مدينة فاس ، نشرة ألفريد بل ، الجزائر ١٩٢٢ ، ص ٩

إدريس بعد ذلك إلى توحيد المغرب [١] وكان من الطبيعى أن يخشي الخلفاء العباسيون من مطامع الأدارسة فى المغرب ومصر ، فرضى الرشيد باقامة دولة الأغالبة فى المغرب الأدنى لتكون حاجزاً بين البلاد الخاضعة للدولة العباسية وبلاد الأدارسة فى المغرب الأقصى الذين كانوا يتطلعون إلى فصل المغرب عن بقية العالم الإسلامى ، بل كانو يهدفون إلى توحيد المغرب والمشرق العربيين تحت قيادتهم [٢]. فلقد أورد الأستاذ الدكتور احمد مختار العبادى نصا لرسالة وجهها إدريس بن عبد الله إلى المصريين يمكن أن نستنتج منها مدى اتصال الأدارسة بأهل مصر كذلك [٣] .

كان ابراهيم بن الأغلب من أفضل ولاة المغرب ، فقد كان يجمع إلى علمه وتفقهه فى الدين وأدبه ، حسن الرأى ، والنجدة ، والبأس ، والحزم ، والمعرفة بالحروب ومكائدها ، « ولم يل إفريقية أحسن سيرة منه ، ولا سياسة ، ولا أرأف برعية ، ولا أوفى بعهد ، ولا أرعى لحرمة منه ، فطاعت له قبائل البربر ، وتمهدت إفريقية فى أيامه » [٤] .

واتخذ الأمير ابراهيم بن الأغلب مدينة القيروان عاصمة لولايته ،وأخذ يعمل منذ استقلاله عن الخلافةالعباسية على تكوين قوة بحرية هائلة ، مكنت أعقابه من بعده، من غزو جزيرةصقلية وافتتاحها سنة ٢١٢هـ، وغزو مالطة

(١) اسماعيل بن محمد الرشيد ، جلاء الظلام الدامس فى موجز تاريخ المغرب الى عصر محمد الخامس ، الرباط ، ١٩٥٧ ص ٣٠

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، القسم الثالث الخاص بالمغرب ، ص ١٧ ، حاشية رقم ٢

(٣) نفس المرجع ،

(٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٦

وسواحل إيطاليا الجنوبية والجنوبية الغربية. ولقد اهتم ابراهيم بن الأغلب بالعمران اهتماما خاصا ، فشرع فى سنة ١٨٥ ﻫ فى بناء مدينة القصر القديم التى تقع أطلالها على بعد ثلاثة أميال جنوبى القيروان(١)، وسماها العباسية(٢) تعبيراً عن ولائه للعباسيين .

وفى عهد ابراهيم بن الأغلب ثار بتونس رجل من رجالات العرب اسمه حمد يس، ونزع السواد شعار بنى العباس، فبعث إليه إبراهيم قائده عمران بن مجالد فى جيش كبير لقمع حركته ، والتقى عمران معه فى موقعة بالقرب من تونس انهزم فيها حمد يس وأنصاره ، وقتل منهم نحو عشرة آلاف ، وتمكن عمران من دخول مدينة تونس (٣) . وكان ابراهيم ابن الأغلب مخلصا للخلافة العباسية ، فجعل يترصد أعداءها فى المغرب ، فصرف نظره إلى المغرب الأقصى ، وكان إدريس بن إدريس بن عبد الله قد أكمل من العمر عشر سنوات ، فجدد له راشد مولى أبيه البيعة ، ومهد له الأمور فى المغرب ، فكثر جمعه بأقاصى المغرب ، واستفحل أمره بفضل ما بذله راشد من جهود مضنية ، فعمل ابن الأغلب على الكيد لراشد ، فجعل يدس إلى البربر ويسرب فيهم الأموال حتى قتل راشد ، وسيق رأسه إليه فى سنة ١٨٦ ﻫ (٤) . ثم تولى أمر إدريس بعد راشد زعيم من زعماء البربر اسمه بهلول عبد الرحمن المظفر (٥) ، وقيل بهلول بن عبد الواحد (٦) ، فأخذ ابن

---

(١) المرجع السابق ، ص ١١٧
(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ص ١٠٤ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤١٩
(٣) نفس المرجع ص ١٠٤ — ابن خلدون ص ٤١٩
(٤) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٢٠
(٥) نفس المرجع
(٦) ابن الأثير ، ج ٥ ص ١٠٤

الأغلب يستميله بالكتب والهدايا إلى أن انحرف عن دعوة الأدارسة ، وفارق إدريس وانضم إلى ابن الأغلب، فتفرق جمع إدريس من أتباع بهلول، فكتب إدريس إلى ابن الأغلب يستعطفه ويسأله أن يكف عن التدخل فى شؤون بلاده ، ويذكره بقرابته من رسول الله ، فأجابه ابراهيم بن الأغلب إلى ذلك ووادعه (١) .

ولم يخل عهد ابن الأغلب من الثورات والفتن ، ولكنها كانت لا تقاس بالثورات التى كانت تضطرم فى إفريقية فى العهود السابقة ، فمن هذه الثورات: ثورة أهل طرابلس على ولاتهم من قبل ابن الأغلب فى سنة ١٨٩ ، وقد أورد ابن الأثير خبر هـــذه الثورة فى شىء من التفصيل ، فذكر أن أهل طرابلس كانوا يشكون إليه من ولاته عليهم ، فيعزلهم ويولى غيرهم. وحدث أنه ولى عليهم فى هذه السنة عامله سفيان بن المضاء (٢) للمرة الرابعة ، فثـار أهل طرابلس على سفيان ، وعزموا على خلعـه وطرده ، وزحفوا إليـه ، فقـاتلهم فى المسجد الجـامع ، فهزموه ، ثم أمنوه ، فخرج من طرابلس فى شعبان من سنة ١٨٩ هـ ، واستعمل الجند وأهل طرابلس عليهم ابراهيم بن سفيان التميمى (٣) ، فبعث ابن الأغلب جيشا هزمهم ، ودخل طرابلس ، وقضى على الثورة .

---

(١) المرجع السابق ـ ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٢٠ ـ ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، القسم الثالث ، ص ١٤

(٢) يسميه ابن خلدون سفيان بن المهاجر (ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٢٠)

(٣) ابن الأثير ، ج ٥ ص ١٢١ ـ ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٢٠

والثورة الثانية قام بها عمران بن مجالد ، وكان من بطانة إبراهيم بن الأغلب، ثم انتقض عليه في سنة ١٩٥ هـ وافترق عنه، وثار عليه هو وخريش ابن التونسى ، واجتذبا إليهما عدداً كبيراً من الأنصار والمشايعين ، في القيروان وأكثر مدن إفريقية ، فاضطر ابن الاغلب إلى النزول بين القيروان والعباسية، وأحاط العباسية بخندق منيع، وتحصن فيها ،فحاصره فيها عمران سنة كاملة، فأرسل الرشيد إلى ابن الأغلب كثيراً من الأموال أغرى بها أصحاب عمران ، فتفرقوا عنه ، وانهزم عمران. وأقام في الزاب إلى أن توفى ابراهيم ابن الأغلب ، وتولى ابنه عبد الله ، فاستأمنه على نفسه ، فأمنه ، وأحضره إليه ، وأسكنه معه ثم قتله (١) .

أما الثورة الثالثة ، فقد قامت بطرابلس في سنة ١٩٦ هـ ، ففى هذه السنة ولى ابراهيم بن الأغلب ولده عبد الله على طرابلس، فلما قدم إليها ثار عليه الجند ، وحاصروه في داره ، ثم صالحوه على أن يخرج من بلدهم ، فلم يبعد عن طرابلس كثيراً حتى التف حوله عدد كبير من الناس ، وأخذ عبد الله يجتذب الأنصار من البربر بالأموال والعطايا ، ويذكر ابن الأثير أنه كان يعطى الفارس كل يوم أربعة دراهم ، والراجل درهمين ، فكثرت حشوده ، فزحف بهم إلى طرابلس ، وتغلب على جندها ، وتمكن عبد الله بن ابراهيم من دخول المدينة . ثم عزله أبوه ، واستعمل سفيان بن المضاء ، فثارت قبيلة هوارة ، وهاجمت عسكر المدينة ، فانهزم الجند ، وخرجوا لهوارة عن طرابلس، فدخلتها، وهدمت أسوارها. وتراجع جند طرابلس إلى القيروان، فاضطر ابن الأغلب إلى تسيير ولده أبي العباس عبد الله في ١٣ ألف فارس،

---

(١) ابن الأثير ، ج٥ ص ١٢١ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٢١ — ابن الأبار ، الحلة السيراء ص ١٠٥

واستطاع بهم اقتحام المدينة ، وهزيمة هوارة . وأقام عبد الله بها بعض الوقت، فأعاد بناء أسوارها (١). ولما بلغت أنباء هزائم البربر إلى عبد الوهاب ابن رستم فى تاهرت ، خرج لنصرة بربر طرابلس فى جيش عظيم ، فحاصرها وأغلق عبد الله باب زناتة ، وكان يقاتل من باب هوارة ، ولم يزل يقاوم جيش الرستميين إلى أن توفى أبوه ابراهيم فى شوال سنة ١٩٦ هـ ، وعهد إليه بالإمارة ، فأخذ أخوه زيادة الله له العهود على الجند ، وكتب إلى عبد الله يخبره بوفاة أبيه . فاضطر عبد الله إلى مصالحة عبد الوهاب الرستمى على أن يكون البلد والبحر أى المدينة وما يطل منها على البحر لعبد الله ، أما مازاد على ذلك من أرباض فلعبدالوهاب. وبهذه الاتفاقية عاد إلى القيروان، وتسلم زمام أمورها (٢) فى سنة ١٩٧ هـ ، فتلقاه زيادة الله ، وسلم أمور الولاية إليه .

ويعتبر إبراهيم بن الأغلب أول من اتخذ العبيد لحمل سلاحه ، واستكثر من طبقاتهم، واستغنى بذلك عن استخدام الرعية فى أى شأن من شؤونه(٣). وقد عمل ابراهيم على اسكان عبيده وأهل الثقة به من خدمه حوله (٤) .

٢ ـ أبو العباس عبد الله بن ابراهيم (١٩٦ ـ ٢٠١ هـ) :

كان أبو العباس وقت وفاة أبيه فى ٢١ شوال سنة ١٩٦ هـ ، مشغولا باخماد ثورة قامت فى طرابلس ، فقام له زيادة الله، أخوه من أبيه ، بأمره،

---

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٢٠

(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ص ١٥٦ ـ ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٢١

(٣) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، القسم الثالث ، ص ١٤

(٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٧

وتلقى البيعة له على نفسه وعلى أهل بيته وجنده وخدمه ، وبعث إليه بذلك وهو محاصر فى طرابلس ، فعجل بالصلح مع عبد الوهاب بن رستم ، وعاد إلى القيروان فى صفر سنة ١٩٧ هـ . فاستقبله أخوه استقبال الأمراء ، وتسلم منه عبد الله الإمارة . ولكن بدلا من أن يعترف أبو العباس بفضل زيادة الله عليه ، أخذ يتحامل عليه ويتنقصه ، ويأمر ندماءه باطلاق ألسنتهم بسببه ، ومع ذلك فقد ظل زيادة الله يبدى له التعظيم والتبجيل ، ولا يظهر عليه أى أثر من ذلك (١) ، وكان أبوه قد ترك له ملكا ممهدا ، فاتسم عهده بالهدوء والسلم . وكان أبوالعباس جائراً متعسفا ظلوما مع رعيته ، ويذكر ابن عذارى أنه « أحدث بافريقية وجوها من الظلم شنيعة ، منها أنه قطع العشر حبـا ، وجعله ثمانية دنانير للقفيز أصاب أو لم يصب ، وغير ذلك من الظلم والمغارم ، فاشتد على الناس ذلك » . فضاق الناس لذلك ، وبدأوا يتذمرون من ظلمه ، ويبدو أن تصرفاته الجائرة دفعت جماعة من الصالحين كانوا قد وفدوا إلى القيروان قادمين من الجزيرة ، على رأسهم الصالح حفص بن حميد الجزرى إلى نصحه بالعـدول والإنصاف ، ووعظـوه فى الدين وفى ضرورة رعاية مصالح المسلمين ، ويذكر ابن الخطيب أن الصالح حفص نصحه بإزالة الجور عن رعيته ، وتطبيق قواعد السنة (٢) ، فاستخف بهم ، وتهاون بنصائحهم ، فخرجوا من قصره بالعباسية ، وقد ساءهم منه هذا الاستخفاف ، فلما وصلوا إلى وادى القصارين بالقرب من القيروان ، نزلوا هنـاك وصلوا فى كدية روح ركعتين ، ودعوا الله أن يكف عن المسلمين جور أبى العباس ، ويريحهم

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٠ — ابن خلدون ، ٤ ص ٤٢٢

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، القسم الثالث ، ص ١٥

من أيامه . فلم يمض على دعائهم خمسة أيام حتى توفى أبو العبـــاس بسبب قرحة أصابته تحت أذنه فى ٦ من ذى الحجة سنة ٢٠١ هـ (٨١٧ م) (١) .

٣ ـ زيادة الله بن ابراهيم (٢٠١ ـ ٢٢٣ هـ) :

كان زيادة الله أعظم أمراء بنى الأغلب وأفضلهم على الإطلاق ، لم تنعم البلاد التونسية فى عهودهم كما نعمت فى عهده ، وكان رجل بناء وتشييد، فقد ترك لنا آثارا كثيرة بالقيروان والعباسية وتونس وسوسة ، وكان يجمع إلى جانب حبه للفنون والعمارة والآداب ، مقدرة وكفاية حربيـة ، فقد تمكن من إخماد الثورات التى اشتعلت بمجرد اعتلائه الامارة ، وبذلك دعم البناء الذى أسسه أبوه من قبل، وتشهد بذلك آثاره فى سوسة والمنستير والقيروان وتونس من مساجد وقناطر وأربطة وخزانات ومواجل.

تولى زيادة الله إمارة إفريقية بعـد وفاة أخيه أبي العبـاس ، ووصله التقليد بالإمارة من قبل الخليفـة المـأمون ، فظل زيادة الله مخلصا للمأمون عندما توثب على الخلافة ببغداد ابراهيم بن المهدى الملقب بالمبارك (٢٠٢ ـ ٢٠٤ هـ)، فلما دخل المأمون بغداد فى سنة ٢٠٤ هـ ، وخلصت له الخلافة ،شكر له ذلك (٢) . وكان زيادة الله أبي النفس ، فعندما كتب إليه المأمون بالدعاء لعبد الله بن طاهر على منابر إفريقية ، غضب غضبا شديداً ، وبعث مع رسول الخليفة إليه كيسا به ألف دينار مضروبة بأسماء بنى إدريس (٣) ، وفى ذلك

(١) ابن عـذارى ، ج ١ ص ١٢١ ـ ابن الأثير ، ج ٥ ص ١٨٤ ـ ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٢٢ ـ ابن الخطيب ص ١٦

(٢) ابن الخطيب ، المرجع السابق ص ١٦

(٣) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٢٢ ـ ابن الخطيب ، المرجع السابق ص ١٧

تهديد للخليفة بخروج الأغالبة على العباسيين وانضمامهم إلى الأدارسة لو فكر العباسيون فى مس استقلال بنى الأغلب الذاتى .

وأهم الأحداث البارزة فى عصره ثورة زياد بن سهل المعروف بابن الصقلبية عليه فى سنة ٢٠٧ هـ، وثورة عمرو بن معاوية القيسى عليه فى سنة ٢٠٨هـ ، ثم ثورة منصور الطنبذى عليه بتونس فى سنة ٢٠٩هـ، وهذه الثورة الأخيرة هى أخطر الثورات التى اشتعلت نيرانها فى عهده .

ففى الثورة الأولى ، قام زياد بن سهل وحاصر مدينة باجة بجموع كثيفة ، فسير إليه زيادة الله جيشاً تمكن من إيقاع الهزيمة به ، وقتلوا من رجاله عددا كبيرا . وفى الثورة الثانية تمكن عمرو بن معاوية القيسى ، عامل زيادة الله على القصرين ، من التغلب على هذه البليدة ونواحيها ، فسير إليه زيادة الله جيشا حاصره أياما ، ثم استنزله بالأمان هو وولديه ، حباب وسمعان ، ولكنه نكث بعهده وقتلهم بعد ذلك [1] . وفى الثورة الثالثة انتقضت إفريقية على زيادة الله حتى لم يبق فى يده منها غير الساحل وقابس، ففى سنة ٢٠٩ هـ ، ثار منصور بن نصير الطنبذى بطنبذه ، وأخذ يسعى للاستيلاء على تونس ، فأرسل إليه زيادة الله قائده محمد بن حمزه فى ثلاثمائة فارس مسلحين ، وأوصاه بسرعة السير إلى تونس ومفاجأة منصور فيها دون أن يشعر بقدومه ، فيقبض عليه ، ويأتيه به . فلما وصل محمد بن حمزة إلى تونس ألفى منصورا غائبا فى قصره بطنبذة ، فنزل بدار الصناعة بتونس وبعث إلى منصور وفدا يتألف من ٤٠ من شيوخ تونس على رأسهم شجرة ابن عيسى القاضى فى صفر سنة ٢٠٩ هـ ، ليناشدونه الطاعة ، ونبذ الخلاف

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٦

والعصيان . فأنكر منصور هذه التهمة ، وتظاهر أمامهم بأنه ما زال مخلصا للأمير لم يخلع يدا ، ولم يحدث حدثا ، وأبدى استعداده للسير معهم إلى زيادة الله ، ولكنه عرض عليهم المبيت عنده هذه الليلة (١) ، وفى نفس الوقت بعث إلى محمد بن حمزة بتونس ينهى إليه بقدومه فى اليوم التالى فى صحبة القاضى ورفاقه ، ووجه إلى محمد بن حمزة بقرا وغنما وعلفا . فاطمأن ابن حمزة لذلك ، وذبح الغنم والبقر ، وأكل منه هو وعسكره . ولكن منصور غدر بالقاضى ورفاقه ، فسجنهم فى قصره ، وزحف فى خيله وأشياعه إلى تونس ، وباغتوا ابن حمزه بالهجوم ليلا ، فقتل معظم رجاله ، إلا من رمى بنفسه فى البحر ، ثم أمر منصور باحضار اسماعيل بن سفيان بن سالم بن عقـال ، عامل زيادة الله على تونس ، وولده محمد ، فأمر بقتلهما ، واستولى على المدينة . فلما علم زيادة الله بذلك ، وجه وزيره الأغلب بن عبد الله بن الأغلب ، المعروف بغلبون فى جيش كثيف إلى منصور الطنبذى لمقاتلته ، واسترجاع تونس ، وهدد زيادة الله هؤلاء الجند بالقتل إذا انهزموا أمام منصور . فسار غلبون فى ١٠ ربيع الأول إلى تونس ، فلمـا وصل إلى سبختهـا اصطدمت قواته بقوات منصور ، فانهزم غلبون فى ٢٠ ربيع الأول ، وخاف جنده أن يعودوا إلى زيادة الله فيعاقبهم بالقتل ، فتفرقوا عن غلبون ، واستولوا على عدد من مدن إفريقية وحصونها امتنعوا فيها من زيادة الله ، وخلعوا طاعة بنى الأغلب وأعلنوا تبعيتهم لمنصور الطنبذى ، فوقعت باجـــة والجزيرة وصطفورة والأربس ، « واضطرمت إفريقية نارا » (٢) .

ولما كثرت جموع منصور الطنبذى ، ولمس من نفسه القدرة على منازلة

---

(١) المرجع السـابق

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٨ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ١٨٥

زيادة الله فى حاضرته ، زحف إلى القيروان فى ٥ من جمادى الأولى ، وحاصرها حصارا شديدا ، ثم خندق على نفسه ، وحدثت بينه وبين زيادة الله وقائع كثيرة ، انضم فيها أهل القيروان إلى جانب منصور ، ثم زحف زيادة الله فى منتصف جمادى الآخرة بجيوش كثيفة هاجمت قوات منصور ، فانهزم هزيمة نكراء ، فر على أثرها إلى قصره بتونس ، وتمكن زيادة الله من دخول القيروان ، وعفا عن أهلها ، واكتفى منهم بتخريب سور المدينة (١) .

تفرق أنصار منصور إلى مدنهم التى تغلبوا عليها ، فمضى زعيمهم عامر ابن نافع الأزرق إلى سبيبة ، فأرسل إليه زيادة الله محمد بن عبد الله بن الأغلب ، فالتقى مع عامر بن نافع فى موقعة حدثت فى ٢٠ من المحرم سنة ٢١٠ هـ ، فانهزم ابن الأغلب وقتل (٢) ، فعظم الأمر على زيادة الله . ولم يكتف الثوار بذلك ، بل هاجموا القيروان من جديد ، واستولوا عليها ، فلم يبق فى طاعة زيادة الله من إفريقية سوى قابس والساحل ونفزاوة وطرابلس ، وكتب الثوار إلى زيادة الله يطلبون منه أن يرحل من إفريقية ، ويمنحونه الأمان هو وأهله ، فضاق به الحال ، فأشار عليه سفيان بن سوادة بأن يبعثه فى مائتى فارس إلى قبيلة . نفزاوة ، ليدعو بربرها إلى نصرته ، ففعل زيادة الله ، ونجح سفيان فى مهمته ، وتجمعت لديه حشود هائلة منهم ، اشتبك بهم فى معركة عنيفة مع قوات عامر بن نافع ، وأسفرت المعركة عن هزيمة جيش عامر ، وفراره إلى قسطيلية ، فتبعه ابن سوادة إلى قسطيلية ، فاستولى عليها.

---

(١) ابن عذارى ، ج١ ص ١٢٩ — ابن الأثير ج ٥ ص ١٨٥ — ابن خلدون ج ٤ ص ٤٢٣

(٢) نفس المرجع — ويذكر كل من ابن الأثير وابن خلدون أنه عاد ومن معه الى القيروان .

ثم دب الخلاف بين عامر ومنصور سنة ٢١١ ﻫ ، وانتهى بعد وقائع طويلة بسجن منصور فى جزيرة جربة ، وقتل أخيه حمدون (١) . أما عامر فظل مقيما بتونس إلى أن توفى فى سنة ٢١٣ﻫ . فاستأمن أولاده وبنوه إلى زيادة الله ، وبوفاة عامر انتهت الثورة الكبرى التى أشعلها منصور الطنبذى فى إفريقية وكادت تطيح بملك بنى الأغلب .

ولم تمض خمس سنوات على استنزال زيادة الله لبنى منصور حتى اشتعلت نار الثورة فى الجزيرة بتونس، وأشعلها هذه المرة ثائر يعرف باسم فضل بن أبى العنبر ، وانضم إليه فى ثورته عبد السلام بن المفرج الربعى ، وكان عبد السلام هذا من أنصار منصور الطنبذى ، فسير زيادة الله إليهما جيشا ، قاتلهما، وانتصر عليهما فى موقعة حدثت عند مدينة اليهود بالجزيرة ، قتل فيها عبد السلام ، وحمل رأسه إلى زيادة الله ، ولكن فضل بن أبى العنبر تمكن من الفرار إلى تونس ، ودخلها وامتنع بها (٢). فسير إليه زيادة الله جيشا بقيادة أبى فهر محمد بن عبد الله بن الأغلب ، حاصره بتونس ، ونجح فى اقتحام المدينة ودخولها عنوة ، وقتل جنوده عدداً كبيراً من أهل تونس ، نخص بالذكر منهم الفقيه الصالح عباس بن الوليد (٣) ، وفر عدد كبير من أهل تونس إلى النواحى المجاورة،وطلبوا الأمان من زيادة الله ، فأمنهم فى طليعة سنة ٢١٩ﻫ فعادوا إليها (٤).

---

(١) طالع تفاصيل هذا النزاع فى البيان المغرب لابن عذارى ص ١٣٠، ١٣١

(٢) ابن الأثير ج ٥ ص ٢٣١

(٣) ابن عذارى ج ١ ص ١٣٥

(٤) ابن عذارى ج ١ ص ١٣٦ — ابن الأثير ج ٥ ص ٢٣١

ومن مآثر زيادة الله عنايته بالاسطول الإسلامى ، وقيامه بغزو بعض الجزر القريبة من تونس ، ففى سنة ٢٠٦ هـ، سير محمد بن عبد الله التميمى فى الأسطول إلى جزيرة سردانية ، فغزاها ، وغنم منها غنائم كثيرة ، ولكن بعض قطع من أسطوله أصيبت أثناء هذه الغزوة .

وأهم الغزوات البحرية التى تمت فى عهده غزو جزيرة صقلية فى سنة ٢١٢ هـ، ولم تكن هذه الغزوة فى الواقع أولى الغزوات الاسلامية إلى صقلية ، فقد وجه إليها المسلمون منذ أيام معاوية بن حديج الأساطيل المرة تلو المرة ، وكانوا يعودون منها بغنائم كثيرة (١) . وفى سنة ٨٦ هـ ، عقد موسى بن نصير لعياش بن أخيل على أسطول المغرب ، فغزا صقلية ، وهاجم سرقوصة ، وغنم منها غنائم هائلة (٢). وفى سنة ١٠٤ هـ ، غزا بشر بن صفوان بنفسه جزيرة صقلية ، فأصاب بها سبيا كثيراً (٣)، كذلك غزاها المسلمون فى ولاية عبيد الله بن الحبحاب سنة ١٢٢ هـ ، إذ بعث لغزوها حبيب بن أبى عبدة . ولكن المسلمين انقطعوا عن غزو تلك الجزيرة منذ أن شغل ولاة العباسيين فى إفريقية بقمع الثورات الداخلية، فتجرأت سفن الروم على مهاجمة السواحل الإفريقية ، ولعل ذلك كان السبب الذى جعل هرثمة بن أعين يهتم ببناء القصر الكبير بالمنستير سنة ١٨ هـ ، وبناء سور مدينة طرابلس مما يلى البحر . وظل الروم يواصلون هذه الغارات البحرية على الساحل التونسى فى أيام ابراهيم بن الأغلب إلى أن اتفق البطريق جريجورى مع أمير

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢

(٢) نفس المرجع ، ج ١ ص ٣٦

(٣) نفس المرجع ، ج ١ ص ٤٨

القيروان فى سنة ١٩٧ هـ (٨١٣ م) على هدنة لمدة عشر سنوات ، ولم تمض ١٤ سنة بعد ذلك حتى تجددت أعمال القرصنة والغارات المتبادلة بين المسلمين والروم [1].

وعلى هذا الأساس يمكننا أن نرجع فتح المسلمين لصقلية فى عهد زيادة الله للأسباب الآتية :

١ ـ يمكن اعتبار غزوة صقلية سنة ٢١٢ هـ بمثابة محـــاولة للقضاء على غارات الروم ، وعودة إلى سياسة الاعتداء على أراضى الروم، وهى السياسة التى جرى عليها ولاة بنى أمية .

٢ ـ كانت صقلية بالنسبة للمسلمين بلادا غنية بالغنائم ، فى الوقت الذى أقفرت بلاد المغرب من هـــذه الغنائم . كذلك كانت صقلية تمثل أراض جديدة يمكن فتحها واستغلالها .

٣ ـ هناك عامل دينى هو الجهاد فى سبيل الله ، ولا ننسى أن أهـــل إفريقية كانوا قد تفقهوا فى الدين الإسلامى وأصبح منهم العلماء والفقهاء ، وساعدت الأربطة على تكوين طبقة من الصالحين الذين كرسوا حيـاتهم للجهاد ضد الروم . وكان الخروج لمدافعة الروم فى صقلية أقصى ما يتمناه العابدون والصالحون . ولاشك أن موافقة زيادة الله على اختيار القاضى أسد ابن الفرات ، مصنف الأسدية فى الفقه عـلى مذهب مالك ، قائدا للحملة ، يعبّر أصدق تعبير عن روح الجهاد المسيطرة على الفاتحين ، فلقد ولاه زيادة الله قائدا على الجيش ، « وأقره على القضاء مع القيادة ، فخرج معه أشراف

---

(١) Marçais, la Berberie musulmane, p. 65.

إفريقية من العرب ، والجنـــد ، والبربر ، والأندلسيين ، وأهل العلم والبصائر » [1] .

٤ ـ أراد زيادة الله أن يظهر أمام رعيته بمظهر المجاهد الثاغر فى سبيل الله فيكسب بذلك قلوبهم ، ويوطد مكانته ومنزلته فى نفوسهم .

٥ ـ عانى زيادة الله كثيراً من ثورات جنده ، وفتنهم المتعددة ، فأراد أن يكسر شوكتهم ، ويتخلص منهم باشراكهم فى هذه الغزوة .

٦ ـ ذكر ابن الأثــير أن قائد الأسطول الرومى بصقلية فيمى Euphemius ثار على الامبراطور ميخائيل الثانى واستولى عـلى سرقوصة Siracuse ، ثم أعلن نفسه ملكا على صقلية . ولكن أتبـاعه خرجوا عليه وتفرقوا عنه ، وتمكن والى مدينة بلرم Palermo من هزيمة فيمى ، والاستيلاء على سرقوصة ، فركب فيمى ومن معـه سفنهم وتوجهوا إلى إفريقية ، وأرسل إلى الأمير زيادة الله يستنجد به ، ويعـده بملك جزيرة صقلية [2] ، فاستنجاد فيمى بزيادة الله كان سببا مباشرا فى إغراء زيادة الله على فتح هذه الجزيرة . وفتح صقلية من هذه الناحية يشبه فتـح الأندلس لأن فيمى يقابل يليان الذى ساعد المسلمين على دخول الأندلس .

يذكر المؤرخون أن زيادة الله احتفـــل بخروج المسلمين لغزو صقلية احتفالا عظيما فى ربيع الأول سنة ٢١٢ هـ وأقلع أسطول الأغالبة فى نحـو

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣

(٢) ابن الأثير ج ٥ ص ١٨٧ ـ احسان عباس ، العرب فى صقلية ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٣٢ .

مائة مركب سوى مراكب فيمى ، ونزلت الجيوش العربية ببلدة مازر Mazara ، وزحفوا إلى الروم وهزموهم هزيمة نكراء ، وفر بلاطة Plato منافس فيمى بصقلية إلى قلورية ، فقتل بها ، واستولى المسلمون على عدة حصون فى الجزيرة ، ثم حاصر أسد بن الفرات مدينة سرقوصه براو بحرا ، وجاءته الإمدادات من إفريقية لنجدة المسلمين ، ولكن والى بلرم زحف على المسلمين فى سرقوصة ، فخندق المسلمون على أنفسهم ، وحفروا خارج الخندق حفراً كثيرة ، فلما حمل الروم على المسلمين ، سقط منهم كثيرون فى الحفر ، وقتل منهم عدد كبير . وشدد المسلمون على أثر ذلك الحصار على سرقوصة ، ولكن وباء شديدا أصاب معسكر المسلمين فهلك بسببه قائدهم أسد بن الفرات ، وعدد كبير منهم فى رجب سنة ٢١٣ هـ ، فدفنه المسلمون فى مدينة قصريانة [1] Castrogiovanni . ثم توفى محمد بن أبى الجراوى فى سنة ٢١٣هـ وتولى بعده زهير بن غوث . وحدث أن سرية من المسلمين خرجت بقصد تجميع بعض المؤن ، فاصطدم بهم الروم وهزموهم ، ثم التقى المسلمون مع الروم مرة ثانية ، فانهزموا ، وقتل منهم نحو ألف ، وعاد فل المسلمين إلى معسكرهم بقصريانة ، وخندقوا على أنفسهم ، فحاصرهم الروم حصارا طويلا ، وانعدمت الأقوات عن المسلمين ، فعزموا على التسلل من المدينة ، دون أن يعلم الروم ، ولكن هؤلاء عرفوا مايقصدونه ، ففارقوا المعسكر ، وترصدوا للمسلمين فى كل مكان ، ثم كروا عليهم ، وأكثروا فيهم القتل ، وفر الناجون إلى ميناو Mineo ، بينما استولى الروم على قصريانة ، ثم شدد الروم عليهم الحصار حتى قلت الأقوات لديهم ، فأكلوا الدواب

---

(١) ابن الأثير ج ٥ ص ١٨٧ — ابن خلدون ج ٤ ص ٤٢٦ .

والكلاب[1] ، فلما علم المسلمون فى جرجنت مآآل إليه مصير إخوانهم فى ميناو ، هدموا مدينة جرجنت ، وخرجوا إلى مازر ، وحاولوا الإتصال باخوانهم المحصورين لنصرتهم ، فتعذر عليهم الأمر ، وأشرف المسلمون فى ميناو على الهلاك . وفى هذه اللحظة الحرجة التى يتوقف عليها مصير هؤلاء المسلمين ، حدث أمر لم يكن فى الحسبان ، إذ أقبل أسطول من الأندلس فى أول سنة ٢١٤هـ يحمل رجالا وطنوا أنفسهم للجهاد ، يقودهم أمير البحر إصبغ بن وكيل المعروف بفرغلوش ، وفى نفس الوقت ، وصلت سفن كثيرة من إفريقية مددا للمسلمين فبلغ عدد القطع الوافدة ثلثمائة سفينة . ونزل المسلمون بالجزيرة ، وأقبلوا لفك الحصار عن المسلمين المحصورين فى ميناو ، فانهزم الروم ، وفكوا الحصار عن المسلمين .

ثم زحفت جيوش المسلمين إلى مدينة بلرم ، فحاصروها حصارا محكما ، وافتتحوها بالأمان فى رجب سنة ٢١٦ هـ . وكان فتح بلرم فى الواقع خطوة كبيرة فى سبيل افتتاح صقلية كلها ، ولما كانت بلرم ميناء بحريا على الساحل الشمالى لصقلية ، فقد كانت تصل إليها السفن بسهولة من إفريقية ، وعليها المؤن والإمدادات . بعد أن دخل المسلمون بلرم خرج عاملها الرومى إلى القسطنطينية[2] ، وقام المسلمون بحرق المدينة وخربوها[3] . ثم زحف المسلمون إلى مدينة غلوالية ، فحاصروها ، وتمكنوا من الاستيلاء عليها . غير أن وباء انتشر فى المدينة بعد دخول المسلمين فيها ، كان سببا فى وفاة

---

(١) ابن الأثير ج ٥ ص ١٨٧ .

(٢) نفس المرجع ص ١٨٨ .

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٥

عدد كبير منهم ، من بينهم فرغلوش نفسه ، وعدد من القادة. واستغل الروم هذه الفرصة ، فهاجموا المسلمين ، وقتلوا كثيرا منهم . ويبدو أن خلافا قام بين الأندلسيين وأهل إفريقية فى صقلية ، بشأن قيادة الجيوش ، فقد وجه زيادة الله بن الأغلب على صقلية قائدا مشهورا من قواده هو أبو فهر محمد ابن عبد الله التميمى فى سنة ٢١٧ هـ (١)، فعزم الأندلسيون على القفول إلى بلادهم (٢) . إلا أنهم وافقوا أخيرا على ولاية أبى فهر سنة ٢١٩هـ . واتخذ أبو فهر مدينة بلرم عاصمة له ، وذلك لسهولة اتصالها بافريقية ؛ ومن هناك أخذ يوجه الغارات على قصريانة فى سنتى ٢١٩ ، ٢٢٠ هـ . كذلك سير سير عسكرا بقيادة محمد بن سالم إلى مدينة طبرمين Taormina الواقعة بشرق الجزيرة ، فغنم غنائم كثيرة . ولكن جنده تمردوا عليه وقتلوه ، فأرسل زيادة الله من إفريقية الفضل بن يعقوب عوضا عنه ، وأحرز المسلمون على الروم عدداً من الانتصارات فى سرقوسه ، وغنموا غنائم كثيرة، كما تمكنت فرقة من المسلمين من هزيمة الروم وأسر قائدهم بطريق صقلية (٣).

ويبدو أن زيادة الله بن الأغلب لم يرض عن سياسة أبى فهر محمد ابن عبد الله فى صقلية فولى عليها أخا لأبى فهر هو أبو الأغلب ، فوصلها فى منتصف رمضان سنة ٢٢٠هـ. وقد أحرز المسلمون بعد وصوله انتصارات بحرية كثيرة ، فظفروا بأسطول للروم ، وغنموا ما فيه وقتلوا بحارته من الروم. وبعث أبو الأغلب أسطولا إلى قوصرة ، فظفر فيها بحراقة رومية ،ووجه

---

(١) ابن الأثير ص ١٨٨ .

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٥

(٣) ابن الأثير ، ج ٥ ص ١٨٨.

فى سنة ٢٢١ سرية إلى جبل النار (مسينة Messina) بشمال جزيرة صقلية، فغزاها ، وغنم المسلمون غنائم لاتحصى . وكان أبو الأغلب يبعث سراياه وفرقه من يلزم للاغارة على مدن صقلية ، وفى كل مرة كان المسلمون يعودون مظفرين غانمين . وتمكن المسلمون فى إحدى غاراتهم على قصريانة من الاستيلاء عليها (١) ، كما افتتحوا حصن مدنار ومعاقل كثيرة فى غزوة قام بها الفضل بن يعقوب فى سنة ٢٢٢ ﻫ . وفى العام التالى وصلت إلى الروم بصقلية إمدادات بيزنطية ، وكان المسلمون يحاصرون إحدى مدن صقلية فاضطروا إلى رفع الحصار عنها ، وقامت بينهم وبين الروم القادمين عدة وقائع ، وبينما كانت هذا الوقائع دائرة بينهم وبين الروم ، وصلت الانباء بوفاة زيادة الله بن الأغلب فى ١٤ رجب سنة ٢٢٣ ﻫ ، وأحدثت وفاته أثرا كبيرا فى نفوس المسلمين ، فدب الوهن فى نفوسهم ، ولكنهم تمالكوا أنفسهم ، واستعادوا حماسهم فى قتال الروم . وقد ظلت صقلية طوال العصر الأغلبى مركزا للجهاد ، واهتم أمراء بنى الأغلب اهتماما خاصا بغزوها وبامدادها بالمؤن والرجال والسلاح ، ولم يكتف المسلمون بالاستيلاء على صقلية بل أغاروا على مالطة وافتتحوها فى أيام محمد بن الأغلب سنة ٢٦١ ﻫ ، وقدم الأمير الأغلبى ابراهيم بن أحمد إلى صقلية للجهاد فى ربيع الأول سنة ٢٨٤ ﻫ ، وتمكن من فتح ميقش Miques بنواحى طبرمين فى شرق صقلية ، وعبر مجاز مسينة ، وغزا قلورية Calabria وهى المنطقة الواقعة فى أقصى الجنوب من شبه جزيرة إيطاليا ، ويفصلها عن صقلية مضيق مسينة ، وحاصر مدينة كوسنثة Cosenza من كلابريا ، وتقع قريبا من خليج تارنتو ، وتوفى وهو

(١) المرجع السابق ص ١٨٩ — ابن خلدون ص ٤٢٧

يحاصرها في ٢٨٩ هـ (١). وفي العصر الفاطمي تولى أمر صقلية أسرة الحسن ابن علي بن أبي الحسين، وظلوا يتوارثون إمارتها ، ويجاهدون الروم فيها، إلى أن انقرضت دولة بني الحسين على أيدي النورمان سنة ٤٨٥هـ .

(١) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، القسم الثالث ، ص١٢٥

(٢)

خلفاء زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب

١ ـ أبو عقال الأغلب (٢٢٣ ـ ٢٢٦)

لما توفى زيادة الله خلفه أخوه أبو عقال الأغلب الملقب بخزر ، وكان أول ما قام به الأغلب فى صدر ولايته تأمين الناس على أنفسهم ، والإحسان إليهم وإلى جنده ، وإزالة المظالم ، وزيادة أرزاق عماله ، حتى يكفوا أيديهم عن الرعية [١] ، والتودد إلى الناس والتقرب إليهم باسقاط كثير من المحدثات التى بالغ فيها العمال . وذكروا أنه حرم على الناس تعاطى النبيذ والخمور فى القيروان ، وعاقب على بيعه وشربه [٢] حتى يكسب رجال الدين والفقهاء إلى جانبه .

وكانت أيام أبى عقال لذلك كلها هادئة ، ولم يقطع هذا الهدوء إلا انتقاض خوارج زواغة ولواتة ومكناسة سنة ٢٢٤هـ ، فى إقليم قسطيلية ، وقيامهم بقتل عامله على هذا الاقليم . فسير إليهم جيشا بقيادة عيسى بن ربعان الأزدى ، اشتبك معهم فيما بين قفصة وقسطيلية ، فأبادهم عن آخرهم [٣]. واهتم أبو عقال فى أول ولايته بأمر صقلية فبعث فى سنة ٢٢٤هـ سرية غزت بعض مواضع من الجزيرة وغنمت غنائم كثيرة ، ونجح المسلمون فى افتتاح

---

(١) ابن عذارى جـ ١ ص ١٣٩ ـ ابن الأثير ج ٥ ص ٢٠٣ ـ ابن خلدون جـ ٤ ص ٤٢٨ ـ ابن الخطيب ، القسم الثالث من أعمال الأعلام ، ص ٢٠ .

(٢) ابن عذارى ، ص ١٣٩ ـ ابن الأثير ص ٢٠٣

(٣) نفس المرجع ـ ابن الأثير ، جـ ٥ ص ٢٠٩ ـ ابن خلدون جـ ٤ ص ٤٢٨

عدد من حصونها ، فاستولوا على حصن البلوط ، وأبلاطنو وقرلون ومرو. وافتتح الأسطول الإسلامى مدينة قلورية ، واشتبك مع الأسطول البيزنطى فى موقعة بحرية دارت خارج قلورية ، وانتهت بانتصار المسلمين . وأغارت فرقة من جيش المسلمين على قصريانة ، ثم توجهت بعـــد ذلك إلى حصن الغيران، وعادت بغنائم كثيرة[1]. وتوفى الأغلب فى ربيع الآخر سنة ٢٢٦هـ، وخلفه ابنه أبو العباس محمد بن الأغلب .

٢ ـ أبو العباس محمـد بن الأغلب بن ابراهـيم (٢٢٦ ـ ٢٤٢هـ)

ساد الأمن والسلام بلاد إفريقية فى أول ولايته ، وظل الهدوء سائداً خمس سنوات من ولايته ، قام خلالها بتوسيع دائرة نفوذه فى المغرب الأدنى، فأسس مدينة بالقرب من تاهرت سماها العباسـية فى سنة ٢٢٧ [2] ، ولكن الإمام أفلح بن عبد الوهاب بن رستم قام بتخريبها ، وقـــد كافأه الأمير عبد الرحمن الأوسط بالأندلس على ذلك بأن أرسل إليه مائة ألف درهم[3].

وفى سنة ٢٣١ هـ قام أخوه أبو جعفر أحمـد بن الأغلب بالثورة عليه ، فقد كان ساخطا عليه بسبب تسلط الوزير أبى عبدالله بن على بن حميد على أمور الدولة ، وسكوت أخيه على ذلك ، لاشتغاله بلهوه وعكوفه على لذاته بمدينة القصر القديم . فاستغل أبو جعفر أحمد اشتغال أخيه بلهوه وعكوفه .لى لذاته بمدينة القصر القديم . فاستغل أبو جعفر أحمد اشتغال أخيه بلهوه فى القصر، وخرج فى جملة من أتباعه إلى القصر القديم ، وقد خـلا القصر من الرجال ، فدخل القصر ومعه أتباعه ، وأغلقوا الأبواب ، ثم هجموا على أبى عبد الله

(١) ابن الأثير ص ٢٥٣

(٢) ابن خلدون ، جـ ٤ ص ٤٢٩

(٣) ابن الأثير جـ ٥ ص ٢٦٣ ـ ابن خلدون ، المرجع السابق

ابن على بن حميد الوزير ، وقتلوه . وبلغ أبا العباس محمد خبر قيام أخيه ، فتحصن فى علية مرتفعة بقصره (١) ، ونشب القتال بين حراس القصر وبين رجال أحمد ، فتغلب حراس القصر على الثوار ، فأخذ أحمد ورجاله ينادون « نحن فى الطاعة ، لم نخلع عنها يدا ، وإنما قمنا على بنى حميد الذين قهروا السلطان ، واستأثروا بالمال » (٢) . فتوقف القتال ، وتوجه محمد فى مجلسه العام ، واستقدم أخاه أحمد ، فعاتبه ، واصطلحا بعد أن اتفقا على ألا يغدر أحدهما بصاحبه . ومنذ ذلك الحين عظم أمر أحمد ، ونقل الدواوين إليه ، وقبض على من شاء من خصومه ، واستصفى من أراد ، واستوزر نصر بن حمزة ، ولم يبق لمحمد من الامارة غير الاسم فقط (٣) .

فلما لمس محمد عزم أخيه إلى خلعه من الامارة ، « أقصر عن اللذات ، وأخذ فى الاحتيال على أخيه ، والكتب إلى قواده وخواصه فى السر ، وينتهى ذلك إلى أخيه فيكذبه ، إلى أن تم له الأمر ، وحضر الوعد ، وتيسر من إعداد الرجال الغرض ، وضرب محمد الطبل — وهو العلامة — فأقبل القوم ، وكانت بين الفريقين حرب عظيمة ، إلى أن كوثر أصحاب أحمد فانهزموا » (٤) ويذكر ابن عذارى أن محمد بن الأغلب اعتمد على جماعة من بنى عمه ومواليه ، واحتال على بوابى القيروان ، حتى دخلها وأطلق من كان فى حبس أخيه ، فاستمد بهم ، ووصل أهل القيروان حتى نفذ جميع ما فى خزائنه من الاموال

---

(١) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ص ٢١ .
(٢) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ١٤١ — ابن الخطيب ، المرجع السابق ص ٢١
(٣) نفس المرجع ، ص ١٤٢ — ابن الاثير ، ج ٥ ص ٢٧٥ — ابن الخطيب ، ص ٢١
(٤) ابن الخطيب ، ص ٢٢

والاكسية (١) . ولما تغلب على أخيه أحمد ، نفاه بأهله وولده إلى مصر ، واستقام أمر محمد بافريقية بعد ذلك . ولم تكن ثورة أحمد هي الثورة الوحيدة التي واجهها أبو العباس محمد ، ففي سنة ٢٣٣ هـ عزل محمد بن الأغلب سالم بن غلبون، عامله على الزاب، فاستاء سالم لذلك، وأعان الثورة على الأمير، وأقبل بجيش من أنصاره نحو القيروان ، فلما وصل إلى قلعة يلبسير عدل عن خطته فسار إلى الأربس وحاول دخولها ، فمنعه أهلها من ذلك ، فزحف إلى باجه ودخلها ، وامتنع بها ، فسير اليه الأغلب قائده خفاجه بن سفيان ، فقتله ، وحمل رأسه إلى الأمير (٢) .

وفي العام التالي ثار عمرو بن سليم التجيبي المعروف بالقويع في تونس ، واستمرت ثورته عامي ٢٣٤ ، ٢٣٥ هـ، وفشل القائد خفاجة بن سفيان في القضاء عليها ، فبعث إليه ابن الأغلب جيشا آخر بقيادة محمد بن موسى المعروف بعريان ، ولكن عدداً كبيراً من عسكر ابن الأغلب انضم إلى القويع ، فانهزم محمد بن موسى وعاد فله إلى القيروان. وقويت حركة القويع، فسير إليه ابن الأغلب للمرة الثالثة جيشا بقيادة خفاجة بن سفيان ، وتمكن خفاجة هذه المرة من هزيمة القويع وقتله ، ودخل جيش ابن الأغلب مدينة تونس في ١٠ ربيع الأول سنة ٢٣٦ (٣) . وتوفي أبو العباس محمد في أول محرم سنة ٢٤٢ هـ وكان عهد محمد بن الأغلب عهد سلم بالنسبة للعهود السابقة ، ومن مآثره أنه استقضى على القيروان أبا سعيد عبد السلام سحنون الملقب

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ١٤٢

(٢) نفس المرجع ص ١٤٣ — ابن الاثير ج ٥ ص ٢٨١

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٤ — ابن الاثير ج ٥ ص ٢٨٢

بسراج القيروان ، وكان عالما فى أصول الدين والفقه على مذهب مالك (١).

٣ ـ أبو ابراهيم أحمد بن محمد (٢٤٢-٢٤٩هـ)

لما توفى أبو العباس محمد خلفه ابنه أبو ابراهيم أحمد ، وكان على حداثة سنه حسن السيرة ، كريم الفعال ، رفيقا برعيته ، متجنبا للظلم . ويذكر ابن عذارى أنه كان يخرج من القصر القديم ويمشى حتى يدخل من باب أبي الربيع ومعه دواب بالدراهم ، فكان يعطى الفقراء والمساكين حتى ينتهى إلى المسجد الجامع بالقيروان (٢) . وكان أبو ابراهيم أحمد مولعا بالبناء ، فى سنة ٢٤٥ هـ أخرج مالا كثيراً لحفر المواجل وبنيان المساجد والقناطر. وفى سنة ٢٤٦ هـ شرع فى حفر الماجل الكبير الواقع على باب تونس ، وتم بناء هذا الماجل فى سنة ٢٤٨ هـ، وهو على شكل صهريج عظيم مستدير الشكل، يبلغ قطره نحو ١٥٠ متراً ، وكانت مياه الأودية تجرى اليه . وكان أهل القيروان يشربون من هذا الماجل فى سنوات المحل والجفاف (٣) .

وأبو ابراهيم هذا هو الذى زاد فى جامع القيروان، وأصلح قنطرة باب أبي الربيع سنة ٢٤٨ هـ (٤) وبنى سور سوسه فى سنة ٢٤٥هـ (٥) ، وشرع فى

---

(١) المالكى ، رياض النفوس ، ج ١ ص ٢٤٩ — ٢٩٠

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٧ — ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، ص ٢٣ .

(٣) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ص ٢٣ حاشية رقم ١ — حسن حسنى عبد الوهاب ، خلاصة تاريخ تونس ، ١٣٧٣ هـ ص ٦٨

(٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٨ — ابن الأبار ، الحلة السيراء ص ١٦٤

(٥) ابن الخطيب ص ٢٣

إصلاح المسجد الجامع بتونس والزيادة فيه سنة ٢٤٩ هـ، ولكنه توفى قبل تمامه (١) . وذكر ابن الخطيب أنه اعتل فى أثناء إجراء المياه إلى الماجل الذى أقامه بالقصر القديم ، « فكان يسأل : هل دخله الماء ؟ إلى أن دخله الوادى ، فعرفوه بذلك فسر به ، وأمرهم أن يأتوه بكأس مملوءة منه فشربها قال : الحمد لله الذي لم أمت حتى تم أمره، ثم مات على أثر ذلك » (٢) .

وفى عهد أبى ابراهيم أحمد ثار خوارج البربر من الإباضية فى طرابلس سنة ٢٤٥هـ، وهزموا عاملها أخاه عبد الله بن محمد، فسير إليهم أخاه زيادة الله، فانهزم الإباضية ، وقتل منهم عدد كبير (٣) . وتوفى أبو ابراهيم أحمد فى ذى القعدة سنة ٢٤٩ هـ .

٤ ـ أبو محمد زيادة الله بن محمد (٢٤٩-٢٥٠هـ)

لما توفى أبو ابراهيم أحمد خلفه أخوه أبو محمد زيادة الله الثاني ، وعلى الرغم من صغر سنه عند توليه الامارة لم يطل به العهد فيها ، إذ توفى بعد عام واحد ، فى ذى القعدة سنة ٢٥٠هـ . وزيادة الله هذا هو الذى أتم زيادة أخيه أبى ابراهيم أحمد فى جامع الزيتونة بتونس .

٥ ـ أبو الغرانيق محمد بن أحمد (٢٥٠-٢٦١هـ)

قام بالامارة فى إفريقية بعد وفاة زيادة الله ابن أخيه أبى الغرانيق محمد ابن أبى ابراهيم أحمد ، وقد لقب بهذا اللقب بسبب حبه لصيد الغرانيق

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٨

(٢) ابن الخطيب ، ص ٢٤

(٣) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣٠٠ ـ ابن خلدون ج ٤ ص ٤٣١

حتى أنه بنى قصراً يخرج إليه لصيدها أنفق فيه ٣٠ ألف مثقال من الذهب(١).
وكان أبو الغرانيق مولعا بالبناء والتشييد، فبنى حصونا ومحارس على ساحل البحر بالمغرب، على مسيرة ١٧ يوما من برقة الى جهة الغرب (٢) . وفى عهده أقام محمد بن حمدون الاندلسى المعافرى المسجد الشريف المنسوب إليه بالقيروان فى سنة ٢٥٢ هـ (٨٦٦ م) ويعرف بمسجد الأبواب الثلاثة ، بناه بالآجر والجص والرخام ، وتعتبر زخارف واجهته من أروع الزخارف المنسوبة الى عصر الأغالبة (٣)

٦- ابراهيم بن أحمد (٢٦١ – ٢٨٩هـ) .

لما توفى أبو الغرانيق فى ٦ جمادى الأولى سنة ٢٦١هـ، خلفه أخوه إبراهيم ابن أحمد . ويعتبر الأمير ابراهيم هذا أعظم أمراء بنى الأغلب على الاطلاق، فهو الذى أسس مدينة رقادة سنة ٢٦٣هـ، وبنى فيها جامعا وقصرا سماه الفتح(٤)، وهو الذى أتم بناء المسجد الجامع بتونس ، وماجل القيروان ، وذكر ابن خلدون أنه بنى الحصون والمحارس بسواحل البحر حتى كانت النار توقد فى ساحل سبتة للنذير بالعدو فيصل إيقادها بالاسكندرية فى الليلة الواحدة . وهو الذى بنى سور سوسة (٥) .

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٠

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ٤٣١

(٣) G. Marçais, l'Architecture musulmane d'Occident, Paris. 1954. pp. 47 - 48.

(٤) أقام هذا الجامع والقصر فى سنة ٢٦٤ هـ

(٥) ابن الأثير ج٦ ص ٥ – ابن خلدون، ج ٤ ص ٤٣١

وفى عهده كانت فتنةالعباس بن أحمد بن طولون،الذى انتهز فرصة غياب أبيه فى الشام وأعلن خروجه عليه فى مصر ، وأزمع الاستقلال بهـا ، فلما بلغه قدوم أبيه إلى مصر، عزم علىغزو إفريقية فى سنة ٢٦٧هـ، وإخراج بنى الاغلب عنها، أملا في إقامة ملك له بشمال إفريقية . ولكنه فشل فى الاستيلاء على طرابلس ولبدة (١) .

وكان ابراهيم بن أحمد فى السنين الست الأولى من إمارته يسير على نهج أسلافه من حسن السيرة والعدل ، ثم أخذ يتغير بعد ذلك، فكان يزداد تغيرا وسوءا فى كل سنة ، وأصبح جائرا ظالما ، سفاكا للدماء . ثم أصيب فى آخر عمره بجنون القتل (٢) ، أسرف بسببه فى قتل أقرب الناس إليه من ذويه وأصحابه وحجابه ، فقتل ابنه أبا الأغلب ، وقتل بناته ، وقتل ثمانية إخوة له ، وأتى بأمور لاتصدر إلا من المتوحشين الهمج . وقيل أنه افتقد منديلا صغيرا كان يمسح به فمه من الشراب ، قد سقط من بعض جارياته وألقاه خادم له ، فقتل بسببه ثلاثمائة خادم ، كذلك قتل ابنه أبا عقال لأن حمديس المنجم أنبأه بأن ابنه هـــذا يلى الملك فى وقت حدده له ، وقتل وصيفاته وجواريه دون سبب أو جريرة (٣) . وفى أيامه ظهر أبو عبد الله الشيعى الداعى فى قبائل كتامة ، يدعو للاسماعيلية ، ونجح فى اجتذاب

---

(١) راجع التفاصيل فى البيان المغرب ، ج ١ ص ١٥٦ — ١٥٨

(٢) ذكر ابن خلدون أنه أصابه « ماليخوليا » (ج ٤ ، ص ٤٢٦)، وذكر ابن عذارى أنه غلب عليه خلط سوداوى (البيان ج ١ ص ١٧٨) ، وذكر ابن الخطيب أنه انقلب الى ضد ما كان عليه، وفسد فكره لغلبة مزاج سوداوى ساءت له أحلامه وتغيرت ظنونه، فأسرف فى القتل » (أعمال الاعلام ص ٢٩)

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧٨ ، ١٧٩ — ابن الخطيب ، ص ٢٩ — ٣٤

الكتاميين إلى دعوته ، ويبدو أن ظهور الشيعى كان سببا فى استقامة ابراهيم أحمد وتوبته ، حتى يستميل الناس بأفعاله فلا ينضموا إلى دعوة الشيعة (١)، « فرد المظالم ،وأسقط القبالات ، وأخذ العشر طعاما ، وترك الأهل الضياع خراج سنة وسماها سنة العدل،وأعتق مماليكه،وأعطى فقهاء القيروان ووجوه أهلها أموالا عظيمة ليفرقوها فى الضعفاء والمساكين » (٢) ،ولكن ابنه أبا العباس استرد هذه الأموال التى أخرجها أبوه إلى الفقهاء، وأنفقها فى ملذاته وشهواته (٣). وذكر المؤرخون أنه أخرج من فى السجون ، وبعث يستدعى ابنه أبا العباس من صقلية للقيام بأعباء الحكم ، فقدم عليه فى ربيع الأول سنة ٢٨٩هـ ، وعزم ابراهيم بن أحمد على الجهاد بصقلية (٤) ، فاستنفر الناس ، ودعاهم إلى الجهاد ، ووزع عليهم الأموال الطائلة، وخرج من مدينة سوسة فى أواخر ربيع الآخر فى الأسطول ، وأبحر إلى صقلية ، فنزل بمدينة بلرم فى ٢٨ رجب سنة ٢٨٩ هـ، وحاصر ميقش Miques (٥) سبعة عشر يوما ، ثم فتح مسينة ، وهدم أسوارها ، ثم فتح طرمين Taormina فى آخر شعبان من سنة ٢٨٩ هـ (٦) . وبعث حفيده زيادة الله إلى قلعة ميقش فافتتحها ، بينما بعث

---

(١) المرجع السابق ص ١٧٧ — ابن خلدون ج ٤ ص ٤٣٧

(٢) نفس المرجع ص ١٧٧

(٣) نفس المرجع ص ١٧٩

(٤) ذكر ابن الأثير أنه عزم على الحج ، وعلم أنه ان جعل طريقه الى مكة عن مصر منعه صاحبها ابن طولون، فتجرى بينهما حرب فيقتل المسلمون ، فجعل طريقه على جزيرة صقلية ليجمع بين الحج والجهاد .

(٥) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٦ — ابن الخطيب ص ٣٥

(٦) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٣٦

ابنه أبو محرز إلى رمطة Rametta، وهى قلعة حصينة تقع غربى مدينة مسينة، فأعطاه أهلها الجزية [١] . ولم يكتف ابراهيم بن أحمد بذلك ، بل عبر مضيق مسينة من صقلية، وأغار على ساحل إيطاليا الجنوبى الغربى ، « وسار فى بر الفرنج ، ودخل قلورية عنوة ، فقتل وسبى ، ورهب منه الفرنجة »[٢] وقلورية المذكورة هى كلابريا Calabria، ويفصلها عن صقلية مضيق مسينة. ثم مضى نحو كسنثة Cozenza ، وهى مدينة تقع بالقرب من خليج تارنتو ، فنازل أهلها ، فعرضوا عليه الجزية ولكنه لم يقبل منهم ذلك ، فحاصرها [٣] وأصيب وهو قائم بحصارها بمرض شديد ، سبب وفاته فى ١٨ ذى القعدة سنة ٢٨٩هـ بأرض كلابريا ، وحمل ميتا إلى جزيرة صقلية ، فدفن ببلرم بعد ثلاثة وأربعين يوما من وفاته [٤] . وبنى على قبره قصر [٥] أورباط .

٧ ـ أبو العباس عبد الله بن ابراهيم (٢٨٩ ـ ٢٩٠ هـ) :

وبوفاة ابراهيم بن أحمد بدأ الضعف والوهن يدب فى دولة الأغالبة ، فقد تولى بعده ابنه أبو العباس عبد الله بن ابراهيم . وفى أيامه اضطرب الحكم حتى إن ابنه زيادة الله تآمر على قتله [٦] . فحبسه أبوه فى بيت داخل داره، ومات أبو العباس عبد الله بن ابراهيم مقتولا فى ٢٩ شعبان سنة ٢٩٠هـ

(١) المرجع السابق ـ ابن الخطيب ، ص ٣٥

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٣٧ ـ ابن الخطيب ، ٣٥

(٣) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٦ ـ ابن الخطيب ، ص ٣٥ .

(٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٧٨ . وذكر ابن خلدون وابن الخطيب أنه دفن فى مدينة بلرم فى ٢٤ من ذى الحجة .

(٥) ابن الخطيب ، ص ٣٦

(٦) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٣٨

بأيدى فتيين من فتيانه الصقالبة بايعاز من ولده زيادة الله (١) . وكان أبو العباس عبد الله حسن السيرة عادلا ، أكثر من الجهـــاد فى صقلية ، وذكر المؤرخون أن ولايته كانت رحمة ، نسخت العذاب الذى كان سائدا فى عهد أبيـه (٢) ، « وأظهر التقشف ، والجلوس على الأرض وإنصاف المظلوم ، وجالس أهل العلم ، وشاورهم ، وكان لا يركب إلا إلى الجامع » (٣) . ولم يسكن قصر أبيه ولكنه اشترى دارا مبنية من الطوب ، فأقام فيها حتى قتل.

٨ ـ زيادة الله بن عبد الله اخر امراء بنى الأغلب (٢٩٠ ـ ٢٩٦ هـ) :

لما تولى زيادة الله الثالث الإمارة ، قبض على أعمامه وأرسلهم إلى جزيرة الكراث ، وهى جزيرة صغيرة تقع على بعد كيلو مترين ونصف شمالى تونس ، وأمر بقتلهم ، فقتلوا جميعا (٤). كذلك أمر بقتل الفتيين اللذين قتلا أباه (٥)، وقتل أخاه أبا عبد الله الأحول بعد أن استقدمه من طبنة ، ثم ولى وزارته وشؤون البريد عبدالله بن الصائغ ، كما ولى أبا مسلم منصور بن اسماعيل ديوان الخراج . وعكف على لذاته ولهوه ومعاشرة المضحكين والعابثين ، وأهمل أمور دولته . وكان مقيما بتونس ، فأمر أبا مسلم منصور بن اسمـــاعيل باصلاح ما وهى من قصور مدينـة رقادة ، وترميمها ، وأنشأ مركبـا على ما جل القيروان سمى بالزلاج ، وقـدم من تونس فى شهر ربيع الآخر سنة

---

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٠٣

(٢) ابن الخطيب ، ص ٣٦

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٨٠

(٤) نفس المرجع ، ص ١٨٣ ـ ابن الخطيب ، ص ٣٨

(٥) نفس المرجع ـ ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٣٩ ـ ابن الخطيب ، ص ٣٨

٢٩٢ هـ ، ونزل على الماجل الكبير بالقيروان (١) ، وكان خطر الداعى الشيعى قد استفحل ، إذ استولى فى سنة ٢٩٢ هـ على سطيف بالجزائر ، فسير إليه زيادة الله جيشا من أربعين الف مقاتل بقيادة ابراهيم بن حبشى ، فالتقى مع حشود الشيعى فى كينونة ، فانهزم ابن حبشى هزيمة شنعاء ، وزحف أبو عبد الله الشيعى بجيشه الظافر فى أملاك الأغالبة ، فأخرج إليه زيادة الله جيشا بقيادة مدلج بن زكريا ، وأحمد بن مسرور الخال ، ولكنها خرجا عليه ، فسار زيادة الله بنفسه إلى مدينة الأربس فى سنة ٢٩٣هـ ، واجتمعت إليه الجنود ، وأنفق عليهم أموالا طائلة لترغيبهم فى مقاتلة الشيعى وأنصاره. وأمر زيادة الله أثناء مقامه بالأربس بارسال العسكر إلى باغاية ، وشحن طبنة عاصمة الزاب بالرجال ، وأقام عليها حاجبه أبا المقارع حسن بن أحمد ابن نافع ، وشبيب بن أبي شداد القمودى ، وخفاجة العبسى ، وكانوا من كبار قواده ، وأمرهم بشن الغارات على كتامة .

وعلى الرغم من كل الاحتياطات التى اتخذها زيادة الله لإيقاف تقدم الشيعى ، فقد تمكن الشيعى من محاصرة مدينة طبنة ، ونصب عليها الدبابات ، ونقب برجا وبدنة ، فسقط السور بعد قتال شديد ، واستولى أبو عبد الله الشيعى على مدينة طبنة ، فاحتمى المقدمون بحصن المدينة ، فحاصرهم ، فطلبوا الأمان فأمنهم ، ثم دخل الحصن فى آخر ذى الحجة ٢٩٣هـ ، وزحف بعد ذلك إلى مدينة بلزمة ، وكان قد حاصرها من قبل عدة مرات ، ولم يتمكن من الاستيلاء عليها ، فحاصرها هذه المرة ونصب عليها الدبابات ، ورماها

(١) ابن عذارى ، ص ١٨٦

بالنار أحرقها ، وفتحها بالسيف ، وقتل الرجال ، وهدم أسوارها (١) .

وخاف زيادة الله أن يباغته الشيعي بغزو الأربس ، فرحل إلى رقادة بعد أن بنى سورها بالطوب والطوابى ، واستخلف على جيشه بالأربس ابراهيم ابن أحمد بن أبى عقال (٢) . وواصل الشيعى تقدمه فى البلاد التونسية ، فاستولى على باغاية فى شعبان من نفس السنة بالأمان ، وفى سنة ٢٩٦ هـ وصلت خيله إلى قسطيليه ، وانسحبت جيوش زيادة الله إلى توزر ، فاستولى الشيعى على تيجس صلحا ، ثم سقطت قفصة وبلاد قسطيلية فى يده ، وزحف بعد ذلك إلى الأربس ، ونازلها ، وافتتحها عنوة فى ٢٤ جمادى الآخرة سنة ٢٩٦ هـ (٣) . وأخذت جيوش الشيعى تستولى على مدن إفريقية الواحدة بعد الأخرى ، فسقطت فى يده مجانة وتيفاش وسبيبة وقمودة (٤) ، ثم تبعتها سكيانة وتبسة . وفى مدبرة وجد أن أهالى قصر الإفريقى ومرمجنة ومجانة قد التجئوا إليها ، وتحصنوا بها ، فافتتح الحصن ، ثم رحل إلى القصرين من قمودة وأمن أهلها ودخلها (٥) .

ولما علم زيادة الله بذلك سقط فى يده ، وعزم على الهرب إلى مصر ، فخرج من رقادة ومعه وجوه رجاله وفتيانه وعبيده ، وقد حمل من الذهب والجوهر ما خف حمله ، وانتخب من عبيده الصقالبة ألف خادم جعل على

---

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٣٠

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٩٣ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٣٩

(٣) نفس المرجع ص ٩٩ — ابن الخطيب ص ٤٢

(٤) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٤٠ ، ٤٤١

(٥) ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٣١

وسط كل واحد منهم ألف دينار، ورحل من رقادة فى ٢٦ من جمادى الآخرة. وأصبح الناس غداة ليلة خروجه، وهجموا على قصوره برقادة ، فانتهبوا ما فيها من أموال وآنية ذهبية وفضية (١) .

وبلغ أبا عبدالله الشيعى نبأ هروب زيادة الله ، فبعث قائده غروبة بن يوسف إلى رقادة فدخلها فى غرة رجب ، ونزل بقصرها المعروف بقصر الصحن (٢) .

أما زيادة الله فقد سار فى الجادة الموصلة إلى طرابلس، فأقام بطرابلس ١٧ يوما ، ثم سار بعد ذلك إلى مصر . وانقرضت بذلك دولة بنى الأغلب .

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٠١ — ابن الخطيب ٣ ص ٤٤

(٢) نفس المرجع ص ٢٠٥

(٣)

ازدهار الحياة الاقتصادية فى المغرب الأدنى فى عصر الأغالبة

لم يزودنا المؤرخون بمعلومات كافية توضح لنا الحالة الاقتصادية فى إفريقية فى عصر الأغالبة ، ولهذا فاننا نلجأ عادة إلى كتب الجغرافيا والرحلات ، وخاصة اليعقوبى المعاصر لدولة الأغالبة ، والذى زار المغرب فيما بين عامى ٢٦١ ، ٢٧٤ هـ (٨٧٦ – ٨٨٩ م) .

لم تعرف بلاد إفريقية منذ العصر الرومانى ازدهارا اقتصاديا كما عرفته أيام الأغالبة ، فقد أصيب اقتصادها منذ النصف الثانى من القرن الثالث الميلادى حتى أواخر القرن السابع باضطراب شديد بسبب تعاقب الغزاة على إفريقية ، وقيام البربر بالثورات المتواصلة على حكامهم ، والفتن التى اضطرمت نيرانها فى البلاد بسبب غارات سكان الجبال والبدو الصحراويين على المدن والسهول . وعلى هذا النحو لم تكن المزارع الإفريقية تعرف الأمن والسلام اللازمين لقيام الزراعة واتصال عبور القوافل التجارية . وكان البناء الاقتصادى فى إفريقية عند بداية الفتح العربي لبلاد المغرب فى غاية التصدع ، وعجلت ثورة كسيلة وثورة الكاهنة على هذا التصدع ، وأتى عليه تشدد أمراء بنى أمية فى جباية الضرائب على السكان ، وما تبع ذلك من ثورات البربر وحركات الصفرية والإباضيه ، وتحولت بلاد إفريقية إلى ميادين للقتال بين جيوش العرب أموية وعباسية ، وبين حشود البربر الخوارج المنادين بالمساواة . ولما قامت أسرة الأغالبة بامارة إفريقية ، أحس المزارعون بنوع من الاستقرار النسبي كانوا يفتقدونه منذ عهود طويلة ، وفى ظل هذا الأمن

الذى ساد فى معظم عهود بنى الأغلب ، زادت المحاصيل الزراعية (١) . ولم تتعرض إفريقية للمحل والقحط إلا فى عصر أبى الغرانيق سنة ٢٦٠ هـ (٢) .

واشتدت الأزمة الإقتصادية بافريقية نتيجة لذلك فى ولاية ابراهيم بن أحمد فى سنة ٢٦٦هـ(٣) . ويبدو أن أمد هذه المجاعة كان قصيرا ، بحيث لم يهتم المؤرخون بذكر شيء عنها بعد ذلك . ثم إن اليعقوبى الجغرافى رغم زيادة اهتمامه بالمدن على الريف أبدى دهشته لمظهر الخضرة وكثافة الأشجار فى المنطقة الممتدة ما بين قمودة والساحل ، وهى مسافة تقدر بمائة وخمسين كيلو مترا ، وتبدو اليوم على الرغم من تقدم حركة التشجير بسفاقس منطقة شبه صحراوية (٤). ويذكر اليعقوبى أن أشجار الزيتون والنخيل تسود زراعتها فى هذه السهول الرملية وعلى طول الساحل، ففى هذه المنطقة الساحلية بساتين وقرى متصلة ، كل منها تضم معصرة للزيت (٥) . وبالإضافة إلى الزيتون ، كانت تزرع أنواع مختلفة من الفواكه ، نخص منها بالذكر العنب الذى كان يصنع منه النبيذ وهو الشراب الأثير عند الأغالبة . وعلى الرغم من قيام بعض أمراء الأغالبة بمنع صناعته ومعاقبة من يتولى بيعه وشربه ، مثل الأمير أبو عقال الأغلب بن ابراهيم (٦) ، فقد كان بعضهم يدمن شرابه

---

(١) Marçais, la Berberie musulmane, pp. 76,77.

(٢) ابن عذارى ، جـ ١ ص ١٥٢

(٣) نفس المرجع ، ص ١٥٥

(٤) اليعقوبى ، كتاب البلدان، ليدن ١٨٩١ ص ٣٤٩ — Marçais, op. cit. p. 78

(٥) Marçais, Ibid.

(٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٩

أمثال زيادة الله الثالث[١] ، وأبو العباس محمد بن الأغلب [٢].

وإلى جنوب إقليم قمودة كانت تكثر فى إقليم قسطيلية من بلاد الجريد أشجار الزيتون والكروم والنخيل (٣) . أما المنطقة الواقعة إلى الشمال من قمودة فكانت مزارع للحبوب ، فكانت بلاد باجة التى امتدح الجغرافيون العرب خصبها من المدن المنتجة للقمح .

أما من حيث ثروة إفريقية المعدنية فقد اشتهرت مجانة بمعادنها الكثيرة، وعلى الأخص الفضة والكحل والحديد والمرتك والرصاص (٤). ويعتقد الأستاذ مارسيه أن منطقة مجانة أصبحت منذ منتصف القرن الثانى تتمتع بنشاط اقتصادى، يبرره وجود المعادن بكثرة فى أرضها [٥]. وينقلنا الحديث عن المعادن بافريقية إلى الصناعات ، وأهم الصناعات التى ازدهرت بافريقية فى عصر الأغالبة صناعة الآلات الحديدية اللازمة لصناعة السفن ، والسيوف، والسروج ، ولجم الخيل ، وصناعة التحف المصنوعة من الذهب والفضة ، وقد أشار المؤرخون إلى كثير من هذه التحف كانت موجودة بقصور رقادة، وانتهبها العامة بعد خروج زيادة الله الثالث من رقادة هاربا إلى مصر . كذلك ازدهرت صناعة الزجاج، وكان فى القيروان حيا خاصا بالزجاجين،

(١) ابن عذارى ، ص ١٩٤ . يذكر ابن عذارى أن زيادة الله كان ينادم العيارين والشطار والزمامرة ، وكان اذا فكر فى زوال ملكه وغلبة الشيعى على أكثر أعماله يقول: «املأ واسقنى من القرن يكفينى»

(٢) ابن عذارى ، ص ١٤٠

(٣) اليعقوبى ، ص ٣٥٠

(٤) نفس المرجع ص ٣٤٩

(٥) Marçais, op. cit. p. 79.

مما يدل على شهرة القيروان فى هذا النوع من الصناعات . أما صناعة الخزف فقد تأثرت بصفة خاصة بالتقاليد العراقية ، فقد ذكر الدباغ فى معالم الايمان ، عند حديثه عن أبى ابراهيم أحمد (٢٤٢ – ٢٤٩هـ) أنه « جلبت لهذا الأمير تلك القراميد الثمينة لمجلس أراد أن يعمله ، وجلبت له من بغداد خشب الساج ليعمل له منها عيدان ، فعملها منبرا للجامع ، وجاء بالمحراب مفصلا رخاما من العراق ، عمله فى جامع القيروان ، وجعل تلك القراميد فى وجه المحراب ، وعمل له رجل بغدادى قراميد زادها إليها ، وزينه تلك الزينة العجيبة بالرخام والذهب والآلة الحسنة » (١) . ولاشك أن زخارف التربيعات الخزفية التى تزين جدار المحراب بجامع القيروان تبدو من طراز يختلف عن الزخارف الرخامية التى تكسو وجه المحراب ، ثم أنها تشبه مجموعة من الخزف ذى البريق المعدنى ، عثر عليها فى سامرا والرقة وسوسة مما لا يدع مجالا للشك فى تأثر هذه الصناعة فى القيروان بالتقاليد العراقية (٢) .

كذلك اشتهرت إفريقية بصناعة السجاد وذلك منذ أقدم العصور ، وهى صناعة محلية لم يكن للعرب فضل فى إدخالها فى البلاد ، وإنما كانت معروفة منذ العصر الرومانى (٣) . كذلك اشتهرت إفريقية بصناعة المنسوجات. وإلى سوسة كانت تنسب الثياب السوسية الرفيعة ذات البياض الناصع (٤) . وكانت منسوجات دور الطراز بافريقية مما يهادى به للخلفاء

(١) الدباغ ، معالم الايمان فى معرفة أهل القيروان ، ج ٢ تونس ١٩٢٠ م ص ٩٧.

(٢) Marçais, les faiences à reflets métalliques de la grande mosquée de Kairouan, Paris, 1928

(٣) Marçais, la Berberie, P. 81

(٤) البكرى ، ص ٣٤ – الاستبصار ، ١١٩

العباسيين . ويذكر ابن عذارى أن أبا عبد الله الشيعى لما هزم جيش ابراهيم ابن حبشى قائد زيادة الله بن الأغلب ، غنم كثيرا من الأموال ، «والسلاح ، والسروج ، واللجم ، وضروب الأمتعة ، وهى أول غنيمة أصابها الشيعى وأصحابه ، فلبسوا أثواب الحرير ، وتقلدوا السيوف المحلاة ، وركبوا بسروج الفضة واللجم المذهبة» (١) . وكان أمراء بنى الأغلب يبعثون إلى الخلفاء العباسيين كثيرا من الهدايا والطرف ، ويذكر ابن عذارى أن زيادة الله الثالث بعث الحسن بن حاتم إلى العراق رسولا منه بهدايا وطرف (٢) .

أما فيما يتصل بالسكة فيعتقد الأستاذ مارسيه أن المشرفين على دار السكة كانوا من الموالى الروم أو العبيد أو الفتيان الذين أولاهم أمراء بنى الأغلب كل ثقتهم ، ويذكر مارسيه بعض أسماء هؤلاء الفتيان منهم موسى فى عهد ابراهيم بن الأغلب ، ومسرور فى عهد زيادة الله الأول ، وخلف فى عهد أبى العباس ، وبلج وشاكر فى عهد ابراهيم الثانى ، وخطاب فى عهد زيادة الله الثالث (٣) . وقد ورد ذكر خطاب فى البيان ، فيذكر ابن عذارى أن زيادة الله الثالث « اشتد كلفه بغلام له يسمى خطاب ، فكتب اسمه فى سكة الدنانير والدراهم ، ثم وجد عليه ، فحبسه وقيده ، فغنت له جارية تستعطفه على خطاب :

يا أيها الملك الميمون طائره
رفقا فان يد المعشوق فوق يدك

---

(١) ابن عذارى ج ١ ص ١٨٧
(٢) نفس المرجع ص ١٨٥
(٣) Marçais, la Berberie, p. 82

كم ذا التجلد والأحشاء خافقة
أعيذ كفك أن تسطو على كبدك

فرضي عن خطاب ، وأعاده إلى منزلته » [١] .

ويغلب على الظن أن الدنانير التى كانت تصدر من دار السكة فى القيروان والعباسية لم تنقص عن وزنها قط طوال العصر الأغلبى ، وإن كان وزنها قد قل نسبيا فى عهد زيادة الله الثالث من ٤ر٢٠ جراما إلى ٤ر١٢ جراما . أما الدراهم الفضية فقد أمر إبراهيم بن أحمد فى سنة ٢٧٥هـ بضرب الدراهم الصحاح ، وحرم ما كان يتعامل به من القطع المعدنية الأخرى والدراهم المتداولة فى الأسواق . فأنكرت العامة ذلك ، وأغلقوا الحوانيت، واجتمعوا فى مظاهرة صاخبة ، وساروا إلى رقادة ، وصاحوا على ابراهيم يعلنون احتجاجهم ، فأمر بحبسهم فى جامع رقادة . واتصل ذلك بأهل القيروان ، فخرجوا إلى الباب ، وأظهروا المدافعة ، فوجه إليهم ابراهيم ابن أحمد وزيره أبا عبد الله بن أبى اسحق ، فرموه بالحجاره وسبوه ، فانصرف إلى الأمير وأخبره بذلك ، فركب ابراهيم إلى القيروان ، ومعه حاجبه نصر بن الصمصامة فى جماعة من الجند ، فناصب أهل القيروان القتال، فتوجه الأمير إلى المصلى ، وهدأ الناس ، وبعث إليه أهل القيروان فقيههم أبا جعفر أحمد بن مغيث ، فتباحث مع الأمير ، واتفق معه على إطلاق المحبوسين من جامع رقادة ، وإلغاء القطع من إفريقية ، وعلى أثر ذلك هدأت نفوس أهل القيروان . ثم ضرب ابراهيم بن أحمد دنانير ودراهم سماها

(١) ابن عذارى ، ص ١٩٤

العاشرية فى كل دينار منها عشرة دراهم (١) .

ويذكر ابن الأثير أن هذا الأمير فرض الأمن فى الطرق والمسالك المؤدية إلى القيروان ، فكانت القوافل التجارية والتجار يسيرون فى الطرق آمنين (٢) ، وأصبحت القيروان على هذا النحو مركزا للطرق المؤدية إلى سائر إفريقية والمغرب ، وتحولت هذه المدينة التى كان عقبة بن نافع قد أسسها لغرض عسكرى ودينى إلى مدينة تجارية من الدرجة الأولى ، وكان لحى الأسواق الذى يشغل قلب المدينة شارع فسيح مستقيم يتجه من الشمال إلى الجنوب ، تكتنفه الحوانيت من كل من جانبيه ، يعرف بالسماط ، يتوسطه المسجد الجامع (٣) .

وازدهرت الحياة التجارية فى القيروان حاضرة بنى الأغلب ازدهارا عظيما ، وكثرت فى أيدى أهلها الأموال بسبب التجارة . ويصفها اليعقوبى فى عصر الأغالبة بقوله : « والقيروان مدينة كان عليها سور من لبن وطين ، فهدمه زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب لما ثار عليه عمران بن مجالد ، وعبد السلام بن المفرج ومنصور الطنبذى ، فانهم ثاروا عليه بالقيروان ، وهم من الجند القدم الذين كانوا قدموا مع ابن الأشعث ، وشربهم من ماء المطر إذا كان الشتاء ، ووقعت الأمطار والسيول دخل ماء المطر من الأودية إلى برك عظام يقال لها المؤاجل ، فمنها شرب السقاة . ولهم واد يسمى وادى السراويل فى قبلة المدينة يأتى فيه ماء صالح لأنه فى سباخ

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٠ — Marçais, la Berberie, p. 83

(٢) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٥

(٣) Marçais, la Berberie, p. 84

للناس يستعملونه فيما يحتاجون إليه » [١] .

ويعبر الإدريسى عن رخاء أهل القيروان بقولة : « أم أمصار ، وقاعدة أقطار ، وكانت أعظم مدن الغرب قطرا ، وأكثرها بشرا ، وأيسرها أموالا ، وأوسعها أحوالا ، وأتقنها بناء ، وأنفسها هما ، وأربحها تجارة ، وأكثرها جباية ، وأنفقها سلعة ، وأنماها ربحا » [٢] .

(١) اليعقوبى ، ص ٣٤٧ — ٣٤٨

(٢) الادريسي ، ص ١١٠

(٤)

سكان إفريقية فى عصر الأغالبة

كان يسكن إفريقية فى العصر الأغلبى أخلاط بشرية مختلفة فى الجنس وفى اللغة ، ويمكننا أن نميز منها خمسة عناصر هى : ١ ـ العرب ٢ ـ العجم الفرس ـ البربر ٤ ـ الروم والأفارق (عجم البلد) ٥ ـ الفتيان. أما العرب فينقسمون إلى فريقين : الأول وهو أكثرية سكان العرب من أعقاب العرب الفاتحين للمغرب واستوطنوا هذه البلاد ، وأصبحوا بمرور الزمن عربا أفارقة أو عربا بلديين ، ونضم إلى هذا الفريق جماعات العرب الذين وفدوا من المشرق فى العصرين الأموى والعباسى واستقروا فى إفريقية وأصبحوا من أهل البلاد . والفريق الثانى من العرب الوافدين على المغرب فى العصر العباسى فى الجيوش التى كان يبعثها الخلفاء العباسيون ، وقد استقر بهؤلاء المقام على مايشتهون فى إفريقية وكانوا يؤلفون طبقة الجند .

أما العجم فهم : الفرس الذين وفدوا من المشرق الإسلامى مع الجيوش العباسية ، ومنهم الخراسانيون ، الذين كانوا يؤلفون معظم أجناد العباسيين فى إفريقية ،وهناك غير العجم الفرس عجم البلد [1]، وهم الروم أو الأفارقة الذين ظلوا يحتفظون بالدين المسيحى .

أما البربر فهم سواد سكان إفريقية والمغرب :

١ ـ العرب : كان بعضهم من أعقاب الفاتحين الذين استوطنوا أرض إفريقية ، وأصبحوا من أهل البلاد ، ومعظمهم كان يقيم فى بلزمة ، وأكثر

(١) اليعقوبى ، ص ٣٤٨

هؤلاء العرب من قيس ، وقـــد قاموا فى عصر الأغالبة بدور كبير فى كبح جماح بربر كتـامة ، ولكن ابراهيم بن أحمد أوقـع بهم فى سنة ٢٨٠ هـ ، واستقدم منهم نحـوا من سبعمائة من أبطالهم فى القـيروان ، ووسع عليهم ، وبنى لهم داراً كبيرة تشتمل على دور لامنفذ لها غير باب واحد ، فأنزلهم بهذه الدار ، ثم أمر بقتلهم جميعا (١) . كذلك كانت هناك جماعات من العرب الشاميين الذين اشتركوا فى الحملات التى كان يسيرها خلفاء بنى العبـاس إلى إفريقية . وكان عرب بنى تميم المستقرون فى تونس يتمتعون بامتيـازات كبيرة فى عصر الأغالبة لانتساب الأغالبة إليهم ، ولكن ابراهيم بن أحمـد انقلب عليهم ، وأرسل إليهم فى سنة ٢٨١ هـ ميمونا الحبشى فقتل جمـــاعة منهم (٢) . وكان معظم عرب إفريقية جنـدا يستنفرهم الأمراء فى أوقات الحرب ، ولكن هؤلاء الجند كانوا كثيرا مايعلنون ثوراتهم عـلى الأمراء والعمال فى مدن إفريقية ، ويشكلون بذلك خطرا جسيما على دولة الأغالبة. وقد عانى ابراهيم بن الأغلب من ثورات جنـده كثيرا ، ففى سنة ١٨٦ هـ خرج عليه حمديس الكندى ونزع السواد ، كما ثار عليه عمران بن مجالد ، وهدد ابن الأغلب ، ولذلك عمد ابن الأغلب إلى اصطناع العبيـــد لحمل سلاحه ، واستكثر من طبقاتهم (٣) .

وقد اشتد خطر الجند فى عصر الأمير زيادة الله بن ابراهيم ، وكان سبب قيامهم بالثورة عليه يرجع إلى استخفافه بهم ، وإمعانه فى سفك دمائهم لسوء ظنه بهم . وأولى ثورات الجند فى عهده ثورة عمر بن معاوية القيسى

(١) ابن عذارى ، ص ١٦٤
(٢) نفس المرجع ، ج ١ ص ١٧٣
(٣) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، القسم الثالث ، ص ١٤

فى القصرين سنة ٢٠٨ هـ ، ثم ثورة منصور الطنبذى بتونس فى سنة ٢٠٩ هـ ، وهى الثورة التى أدت إلى توائب القواد العرب على أعمال إفريقية وامتناعهم فيها ، وثورة عامر بن نافع بسبيبة فى سنة ٢١٠هـ . وقد ساء مركز زيادةالله بسبب هذهالثورات إلىدرجة أن الجند كتبوا إليه أن يرحل عن إفريقية[1]، وليس أدل على خطورة ثورة عامر بن نافع من تعليق زيادة الله عندما بلغه وفاة عامر فى سنة ٢١٤هـ بقوله : « اليوم وضعت الحرب أوزارها » [2] . وتجددت ثورات الجند فى عهد ابراهيم بن أحمد فى بلزمة ، وقد تمكن الامير من القضاء عليها عن طريق المكر والخديعة ، وقتل نحو ٧٠٠ من كماة العرب وأبطالهم ، وقد أثار ذلك غضب عرب إفريقية على الأمير ، فثار عرب بنى تميم بتونس ، وعرب الجزيرة ، والأربس ، وباجة ، وقمودة ، وقدموا على أنفسهم رجالا من الجند [3] .

٢ ـ العجم الفرس : يشير اليعقوبى إلى جماعات من المشارقة تضم عربا وعجما كانت تسكن بلاد إفريقية ، ويقصد اليعقوبى بالعجم ، الفرس الذين قدموا من خراسان وفارس مع ولاة بنى العباس على إفريقية [4] ، وكان هؤلاء الفرس يؤلفون قسما هاما من الجند ، وكانوا يعيشون فى القلاع البيزنطية القديمة بقابس والقيروان وبونة وباجة ومجانة ، أو فى القلاع القديمة باقليم نوميديا الرومانى الذى أصبح يؤلف الثغر الغربي لدولة الأغالبة مثل قلاع طبنة وباغاية والأربس . وقد ساهم الخراسانيون بنصيب كبير فى

(١) ابن عذارى ص ١٣٠ .
(٢) نفس المرجع ، ص ١٣٢
(٣) نفس المرجع ، ص ١٦٤
(٤) يسميهم اليعقوبى « عجم من أهل خراسان » (اليعقوبى ص ٣٥٠) .

الجهاد بصقلية » فالحملة التى نظمها زيادة الله بن ابراهيم لغزو صقلية كان معظم جنودها من الفرس الخراسانيين ، يقودهم القاضى أسد بن الفرات ، وكان خراسانيا كذلك (١) .

٣ ـ البربر : كان البربر يؤلفون السواد الأعظم من سكان إفريقية ، وكان معظمهم من الإباضيـة المعتدلين الذين طـالبوا الأمويين بالمساواة ، وحاولوا إقامة جمهورية لهم فى المغرب . وقد رأينا ثوراتهم المتعاقبـة على ولاة بنى أمية وبنى العباس . فلما تولى ابراهيم بن الأغلب إمارة إفريقية ، أطاعته قبائل البربر . ولكن ابراهيم لم يلبث أن تعرض لثوراتهم فى طرابلس معقل الإباضية الأمنع ، ويذكر ابن عـذارى أنه كان له مع بربر إفريقيـة حروب يطول ذكرها (٢) . وقـد حرص زيادة الله على إشراك البربر فى حملته التى أعدها لغزو صقلية ، حتى يشغلهم بمقاتلة الروم عن التفكير فى القيام عليه . وعلى الرغم من ذلك فقد قام بربر لواتة ومكناسة وزواغة فى عهد أخيه أبي عقال الأغلب بالثورة على الأمير فى منطقة قسطيلية ، فتمكن قائد الاغالب من هزيمتهم ، وأباد معظم تجمعاتهم (٣) . وفى عهد ابراهيم بن أحمد قامت فى صقلية فتنة بين العرب والبربر فى سنة ٢٨٥هـ ، فكتب إليهم الأمير يدعوهم إلى الرجوع إلى الطاعة (٤) .

٤ ـ الروم والافارقة : أشار اليعقوبى فى سياق حديثه عن مدن إفريقية

(١) إحسان عباس ، العرب في صقلية ، ص ٣٤

(٢) ابن عذارى ج ١ ص ١١٧

(٣) نفس المرجع ص ١٣٩

(٤) نفس المرجع ص ١٧٥ .

إلى الروم والأفارقة الذين كانوا كالبربر من سكان البلاد من غير العرب ، ويعنى اليعقوبي بالروم بقايا الروم (١ أو الروم القـدم (٢) ، الذين كانوا يخدمون بيزنطة قبل الفتح العربي ، والذين لم يجلوعن قرطاجنة بعد أن سقطت فى أيدى المسلمين . وقد تمكن هؤلاء الروم بفضل عزلتهم من الاحتفاظ بنقاء دمائهم ، وبلغتهم ، وبتقاليدهم ، وكانوا يقيمون فى القلاع البيزنطية القديمة مثل طبنة وباغاية ، وفى مدن الجريد الصغيرة التى يبدو أنهـا اتخذت ملاذا لغير العرب من أهل البـلاد ، كما أقام بعضهم فى القيروان باعتبارها حاضرة البلاد ، أملا فى الحصول على عمـــل يتعيشون منه . أما الأفارقـة أو الأفارق فكانوا من أهل البلاد من بقايا الفينيقيين واللاتين ، وكانوا يتكلمون باللسان اللاتينى الإفريقى (٣) ، ويدينون بالمسيحية . وكانوا يستوطنون فى عصر الأغالبة إقليم الجريد فى قفصة وتوزر ونفطة ونقيوس والحـامة ، كما كانت طائفة منهم تقيم فى طبنة عاصمة الزاب ، وفى باغاية وفى السهول الساحلية (٤) . وكان هؤلاء الأفارقة والروم يشتغلون بزراعة الزيتون ، ويستخرجون منه الزيوت ، وقد اتبـع أمراء بنى الأغلب بالنسبة لهؤلاء العجم البلديين سياســـة تقوم على التسامح ، فأسنـد بعض الأمراء إلى نفر من الأفارق مناصب هامة فى الدولة (٥). ويبدو أن أمراء بنى الأغلب

---

(١) اليعقوبى ، ص ١٣٥

(٢) نفس المرجع

(٣) الادريسى ص ٧٥ : يقول الادريسى : « أهل قفصة كانوا قوما متبربرين، وأكثرهم يتكلم اللسان اللاتينى الأفريقى »

(٤) Marçais, la Berberie p. 71

(٥) Ibid. p. 73

كانوا يشترطون فيمن يتولى هذه المناصب الحساسة أن يعتنق الاسلام، فابن عذارى يذكر أن ابراهيم بن أحمد عرض ديوان الخراج على سوادة النصرانى على أن يسلم ، « فقال : ماكنت لأدع دينى على رئاسة أنالها ، فقطع بنصفين وصلب » (١) .

٥ ـ الفتيان والعبيد : كان الأمير ابراهيم بن الأغلب أول من اتخذ العبيد حرسا له ، فاستكثر منهم ، وجعلهم على خدمته وحراسته فى مدينة القصر القديم . وكان هؤلاء العبيد إذا تقادم بهم العهد فى خدمة الأمير ، يطلق عليهم اسم موالى أو فتيان (٢) . وكثيرا ماكان العبيد من النوع الأسود ، إذ كان الأمراء يشترونهم من الصحراء أو من بلاد السودان ، وكانت بلاد الجريد فى عصر الأغالبة مركزا هاما لهذه التجارة . وكان الأمراء يعلمونهم فنون القتال ليصبحوا جندا . وقد حل هؤلاء العبيد تدريجيا محل جند العرب، ووكل اليهم الأمراء بمهمة حراستهم والذود عنهم. كذلك اتخذ الأمراء عبيدا من الجنس الأبيض وهم المعروفون باسم الصقالبة وكانت غزوات المسلمين فى صقلية وسردانية وقلورية ومالطة سببا فى حمل أعداد كبيرة من أطفال هذه البلاد ، إلى إفريقية ، حيث ينشأون نشأة عسكرية ، ويتعلمون العربية، ثم تسند إليهم مناصب هامة فى الدولة(٣) .

ولقد لعب الفتيان والعبيد دورا هاما فى دولة الأغالبة ، وسجلت أسماء بعضهم على العملات باعتبار أن القائمين بالإشراف على دار السكة منهم ،

---

(١) ابن عذارى ، جـ ١ ص ١٦٢

(٢) Marcais, l'Architecture musulmane d'Occident, P. 6.

(٣) أحمد مختار العبادى ، الصقالبة فى اسبانيا وعلاقاتهم بحركة الشعوبية، مدريد ١٩٥٣
Marçais, l'Architecture musulmane d'Occident, p. 6

فهم موضع ثقة الامراء فى هذه الوظائف الخطيرة. كذلك سجلت اسماء بعضهم فى النقوش التاريخية على بعض المنشآت التى تمت على أيديهم ، ومن هذه الاسماء المسجلة : اسم مسرور الخادم مولى الامير زيادة الله بن ابراهيم ، ونراه منقوشا على لوحة من الرخام تعلو باب المئذنة برباط سوسة الذى أسس فى سنة ٢٠٦ هـ ، واسم خلف الفتى اسم يطلق على برج من أبراج سور سوسة، ويقع فى الزاوية الجنوبية الغربية من السور . ونقرأ اسم نصر وفتح الله على قبة المحراب بجامع الزيتونة فى نقش نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم مما أمر بعمله المستعين بالله أمير المؤمنين العباسى طلب ثواب الله ، وابتغاء مرضاته ، على يدى نصر مولاه سنة خمسين ومائتين ـ يا أيها اللذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ـ صنعه فتح الله » (١).

---

(١) Marçais, idid. . ينقص فى قراءة الاستاذ مارسيه المقطع الثانى من اسم الصانع

(٥)

منشآت الأغالبة فى إفريقية

ا ـ العمارة الدينية :

١ ـ المسجد الجامع بالقيروان

تاريخ المسجد : هو أقـــدم مساجد المغرب الإسلامى ، والمصدر المعمارى الأول الذى اقتبست منـــه العمارة المغربية الاندلسية عناصرها ، ومنه انبثقت الافكار المعمارية والزخرفية وتطورت فى العصور المختلفة . اختطه عقبة بن نافع فى سنة ٥٠ هـ ، ولكنه لم يحـــدث فيه بناء إلى أن ركز لواءه فى القبلة ، وأصبحت قبلة جامع القيروان منذ ذلك التاريخ موضع إجلال الناس وتعظيمهم ، فلم يتعرض لها أحد من الأمراء بسوء ، فى الزيادات المتالية التى أجريت فى الجامع عامة ، وفى بيت الصلاة بصفة خاصة . ولم يتغير وضع القبلة ، ولم يهدم جدار المحراب على الرغم من انحراف هذه القبلة عن الاتجاه الصحيح ، وذلك لانها ركزت على يدى عقبة التابعى الجليل . وكان جامع عقبة فيما يظهر بناء بسيطا صغير المساحة ، وكانت أسقفه على الأرجح تقوم مباشرة على الأعمده دون أن تحملها عقود على نحو ما كانت عليه أسقف جامع الكوفة ، لذلك لم يكد يمضى على بنائه عشرون عاما حتى هدمه حسان بن النعمان الغسانى فى حدود سنة ٨٤ هـ حاشا المحراب ، ونصب فى محرابه ساريتين موشاتين بصفرة كانتا فى كنيسة [١] ، ثم شيد حسان على موضعه مسجدا جديدا فيما بـين عامى ٧٩ - ٨٤ هـ (٦٩٤ - ٦٩٨ م) ، احتفظ فيه بمحراب عقبة . وتم بناء مسجد حسان من الجهة الشمالية المقابلة

---

(١) البكرى ، ص ٢٢ ، وذكر ابن الأبار أنه بناه بالطوب .

للمحراب تجنبا لتغيير جدار القبلة . ويعتقد الاستاذ الدكتور أحمد فكرى فى كتابه الذى صنفه عن المسجد الجامع بالقيروان أن حسان قد زاد فى عدد أروقة الجامع ، وأن بيت الصلاة الجديد كان يشتمل على أربعة أساكيب ، ولم يكن للمسجد فى ذلك الوقت مجنبات تظل على الصحن ، وتدور حوله [١] .

وفى عام ١٠٥ هـ (٧٢٣ م) ضاق الجامع بالمصلين ، فأمر الخليفة هشام ابن عبد الملك بشر بن صفوان ، عامله على القيروان، (١٠٣-١٠٩هـ) بزيادة المسجد ، فاشترى بشر أرضا محيطة بالجامع من شماله وضمها اليه ، وبنى فى الصحن ماجلا ، وأضاف إلى بيت الصلاة ثلاثة أساكيب أخرى مد بها طول بلاطاته ، ويمكننا أن نشاهد حدود هذه الزيادة اليوم فى صف العقود التى تمتد بعرض بيت الصلاة فى خط مستقيم، عند نهاية الاسكوب السابع، ابتداء من القبلة ، مما يدل على أن بيت الصلاة كان ينتهى عند هذا الحد . ثم بنى بشر مئذنة للمسجد فى منتصف جداره الشمالى داخل الصحن، على بئر كانت تعرف ببئر الجنان ، ونصب أساسها على الماء [٢] . ويذكر ابن عذارى أن يزيد بن حاتم جدد بناء المسجد الجامع بالقيروان عام ١٥٧ هـ [٣] ، ولكننا نعتقد أن أعمال يزيد لم تكن تزيد على إصلاح وتجديد بعض زخارف الجامع . وظل المسجد على حالته بعد زيادة بشر بن صفوان إلى أن تولى زيادة الله ابن ابراهيم إمارة إفريقية، فبدأ بهدم أجزاء كثيرة من المسجد سنة ٢٢١ هـ،

---

(١) أحمد فكرى ، المسجد الجامع بالقيروان ، القاهرة ١٩٣٦ ص ٢٣

(٢) البكرى ، ص ٤٣ — فكرى، ص ١٣

(٣) ابن عذارى، ج ١ ص ٩٥

دون أن يغير كثيرا من نظامه أو يبدل من حدوده [١] . ويذكر البكرى أن زيادة الله أراد هدم المحراب ، فقيل له : إن من تقدمك توقفوا عن ذلك لما كان واضعه عقبة بن نافع ومن كان معه ، فألح فى هدمه لئلا يكون فى الجامع أثر لغيره ، حتى قال له بعض البناة : أنا أدخلة بـــين حائطين ، ولا يظهر فى الجامع أثر لغيرك ، فاستصوب ذلك وفعله، ولم يمسسه بسوء، وبنى المحراب الجديد بالرخام الابيض [٢] . فمحراب عقبة ما يزال يرى اليوم من خلال هذه الكسوة الرخامية المخرمة [٣] . ويعتقد الاستاذ الدكتور أحمد فكرى أن بيت الصلاة فى عهـد بشر بن صفوان كان يتألف من ١٨ بلاطا . فهدم زيادة الله الرواقين التاسع والعاشر ، وأقام منهما بلاطا واحداً فسيحا ، فأصبح للمسجد ١٧ بلاطا ، الا وسط منها أكثر ارتفاعا واتساعا من بقية البلاطات الأخرى (٤) . وعلى هذا النحو يمكن تفسير هدم زيادة الله للجامع كله بأنه هدم أسقف الجامع وأقامها من جديد بعد أن رفعهـا عما كانت عليه ، وبنى قبة على أسطوان المحراب ، زخارفها على نمط زخارف اللوحات الرخامية التى كسا بها المحراب الجديد . أما أسوار الجامع ومحرابه وأعمدته ، فظلت كما كانت عليه أيام بشر بن صفوان (٥). ويبدو أن زيادة الله أنفق على هذه الاعمال المعمارية أموالا طائلة (١٨٠ ألف مثقال) (٦)،

---

(١) فكرى ، ص ١٣ ، ٢٤

(٢) البكرى ، ص ٢٣ .وذكر ابن الأبار أنه « بنى جامع القيروان بالصخر والآجر والرخام بعد أن هدمه ، وبنى المحراب كله بالرخام من أسفله الى أعلاه وهو منقوش بكتاب وغير كتاب، ويستدير به سوار حسان ، بعضها مجزعة بأسود ناصعة البياض شديدة السواد، ويقابل المحراب عمودان أحمران ...» الحلة السيراء ص ١٦٣

(٣) فكرى ، مساجد القاهرة ومدارسها ، الاسكندرية ١٩٦١ ص ٢٠٥ .

(٤) نفس المرجع ص ٢٠٨

(٥) فكرى ، المسجد الجامع بالقيروان ، ص ٢٤ ــ ٢٦

(٦) البكرى ، ص ٢٤

وانه زود الجامع بصورته الاخيرة التي نراها في يومنا هذا ، وهي صورة لم تتغير كثيرا من بعده : فهو الذي وضع للبلاطات نظامها الفريد الذي يشف عن أصالة وابتكار . ويذكر ابن عذارى أنه كان يقول « ما أبالي ما قدمت عليه يوم القيامة وفي صحيفتي أربع حسنات: بنياني المسجد الجامع بالقيروان، وبنياني قنطرة أبي الربيع ، وبنياني حصن مدينة سوسة ، وتوليتي أحمد بن أبي محرز قاضي إفريقية » (١) .

وفي عام ٢٤٨ هـ (٨٦٢ م) تمت زيادة أبي ابراهيم أحمد بن محمد في جامع القيروان (٢) ، ولا ندري ما المقصود بهذه الاعمال ، وأغلب الظن أنها تتمة لأعمال البناء التي شرع فيها زيادة الله (٣) ، وإن كان الأستاذ كريسويل يؤكد أنه هو الذي زين جدار المحراب بالقراميد الخزفية واللوحات الرخامية والمنبر (٤) . ولما تولى ابراهيم بن أحمد الامارة ، زاد في طول الجامع في سنة ٢٦١ هـ (٨٧٥ م) ، وبنى القبة المعروفة بباب البهو على مدخل البلاط الاوسط ، وكذلك اقام ابراهيم بن أحمد المجنبات التي تدور حول الصحن (٥) .

ظل المسجد على هذه الصورة دون أي تغيير جوهري حتى أضاف اليه

---

(١) ابن عذارى ، ص ١٣٨

(٢) ابن عذارى ، ص ١٤٨

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، المسجد الجامع بالقيروان ، كتاب الشعب رقم ٧٨ ، جـ٢ من كتاب مساجد ومعاهد ، ١٩٦٠

(٤) Creswell, a short account of early Muslim architecture, London, 1958, p. 298

(٥) البكري ، ص ٢٤

بنوزيرى واجهات الصحن ، وقد سجل تاريخ هذه الاضافات على أحد أعمدة المجنبة الغربية ، إذ نقشت عليه كتابة بالخط الكوفى نصها : « هذا ما أمر بعمله خلف الله بن غازى الأشيرى فى رمضان من عام اثنين وأربعمائه »(١). كذلك أقام المعز بن باديس المقصورة الخشبية التى ماتزال منصوبة حتى اليوم بجوار المحراب ، فى سنة ٤٤١ هـ . ويرى الأستاذ مارسيه أن المسجد زود بأسقف خشبية ، وجددت زخارف أسقفه القديمة فى عهد المعز بن باديس (٢) .

تخطيط الجامع : وجامع القيروان من أكبر المساجد الجامعة الباقية فى الاسلام ، وأعظمها مظهرا ، إذ يبلغ طوله ١٢٦ مترا ، وعرضه ٧٧ مترا ، وطول بيت الصلاة فيه ٧٠ مترا ، وعرضه ٣٧٫٧٠ مترا ، وصحنه واسع فسيح طوله ٦٧ مترا وعرضه ٥٦ مترا ، ولهذا الصحن مجنبات عرض كل منها نحو ستة أمتار وربع متر ، وتنقسم المجنبة إلى رواقين . ويشتمل بيت الصلاة على ١٧ بلاطا عموديا على جدار القبله ، تمتد على عشرة أساكيب أو بلاطات عرضية(٣) . وبلاط المحراب وأسكوبه أوسع من بقية البلاطات والأساكيب ، ولا تعترضهما أية عقود ، فهما يؤلفان مجازين متعامدين . ونلاحظ أن تخطيط جامع القيروان يتميز بظاهرة جديدة ، فعلى بلاط المحراب أو البلاط الاوسط قبتان: الأولى عند تقاطعه مع أسكوب المحراب أمام القبلة ، والثانية على مدخل البلاط الاوسط مما يلى الصحن . وتعرف القبة الاولى

(١) فكرى ، المسجد الجامع بالقيروان ، ص ١٥

(٢) Marçais, Coupoles et plafonds de la grande mosquée de Kairouan Tunis, 1926 p. 35

(٣) فكرى ، المسجد الجامع بالقيروان ، ص ١٩

بقبة المحراب ، والثانية بقبة باب البهو . وقد أثر هـذا النظام الذى ابتدعه مهندسو زيادة الله على أنظمــة المساجد التونسية الأخرى ، فنراه فى جامع الزيتونة ، ونراه فى مساجد أخرى ، كما قلده مهندسو الحكم المستنصر عند زيادتهم فى المسجد الجامع بقرطبة (١) .

وتمتد فى بيت الصلاة صفوف منتظمة من العقود ، تحملها أعمدة قديمة اتخذت من الكنائس المهدمة ، وأعيد استخدامها بالجامع ، ونظرا لقصر هذه الأعمدة ، وتفاوتها فى الارتفــــاع ، توسل المهندسون المسلمون بوسيلتين لزيادة ارتفاع سقف المسجد، وتسوية ارتفاع الأعمدة ، فاستعانوا بمكعبات حجرية مستطيلة أو مربعة ، محاطة من أعلى بطنوف ، ومن أدنى بقرم ، على النحو الشائع فى العمارة البيزنطية ، ثم رفعوا فوق هذه الحدائر عقودا متجاوزة تشبه حدوة الفرس (٢) . وعقود مجنبات الصحن تقوم على

---

(١) Lambert, l'Architecture musulmane du xe siècle à cordoue et à Tolède, Gazette des Beaux Arts, t. XII, 1952 p.p. 141 - 161 - Lambert, les coupoles des grandes mosquées de Tunisie et de l'Espagne au IX e et Xe siècles, t. XXII, fasc. 2, 1936 - Lambert, les mosquées de type andalou en Espagne et en Afrique du Nord, al - Andalus, vol. XIV, fasc. 2. 1949 p. 281 - Lambert, La grande mosquée de Cordoue et l'art byzantin. daus Actes du VI congrès d' Etudes byzantines. 1948 - 1952. p.p. 331. 332

السيد عبد العزيز سالم ، المساجد والقصور بالاندلس ، سلسلة اقرأ، عـــدد ١٩٠ ، اكتوبر ١٩٥٨ ص ٣٤ ــ ٣٦

(٢) فكرى ، المسجد الجامع بالقيروان ص ١٦٨ ــ ١٧٠

Marçais, l'Architecture, p. 18

أعمدة مزدوجة يلتصق كل زوج منها بركيزة ضخمة،وهذه الركائز تكسب البناء قوة وثباتا (١) .

ومحراب الجامع جوفة فى جدار القبلة يرجع تاريخها إلى أيام عقبة بن نافع ، وقد ذكرنا أن هذه الجوفة تختفى وراء لوحات مخرمة من الرخام الابيض . ويرى الاستاذ مارسيه أن وجود هذه الجوفة أمر طبيعى لأن هذه اللوحات الرخامية تتطلب أن يكون خلفها فراغ معتم حتى تتضح نقوشها وتظهر جلية ، وأن هـذا الاحتيال البسيط أدى إلى اختلاق المؤرخين لأسطورة محراب عقبة (٢) ، ويؤيده الأستاذ كريسويل فى هـذا الزعم ، فهو يستنكر أن تكون تلك الجوفة التى تشاهد من خلال خروم المحراب الجديد هى محراب عقبة بن نافع القديم ، ويقول إن هذه الخروم التى تبطن لوحات المحراب ، وتملؤها ، قصـد منها أن تكون ستارة قاتمة لتوضيح الزخرفة الرخامية المفرغة فى لوحات الرخام ، ولا يعتقد الأستاذ كريسويل أن جامع عقبة كان به محراب مجوف ، فالمحاريب المجوفة فى رأيه لم تظهر فى الإسلام حتى زمن الوليد (٣) . وقد اعترض الأستاذ الدكتور أحمد فكرى على هذه الآراء ، وفندها جميعا ، وأدلى برأيه فى ذلك واضحا لا لبس فيه ولا غموض، معززا بالأدلة القوية والحجج والبراهين المقنعة، وأثبت أن هذه الجوفة التى تظهر من خلال لوحات الرخام هى محراب عقبة القديم ، ونحن

---

(١) المرجع السابق ص ٨١

(2) Marçais, Manuel d'art musulmane, t. I, paris 1926. p. 22.
L'architecture musulmane d'Occident, p. 11

(3) Creswell, a short account of early muslim architecture p.279

نؤيد هذا الرأى ونأخذ به للأسباب التى ذكرها الأستاذ الدكتور أحمد فكرى [1].

ويدعم جدران المسجد الشرقية والغربية من الخارج ركائز ضخمة تلتصق بالجدران ، وظيفتها ليس كما قد يتبادر إلى الذهن دعم البناء ، وتحمل الضغط الذى تمارسه عقود بيت الصلاة ، لأن هذه الركائز أقيمت فى مواضع بعيدة عن نقط امتداد العقود ومراكز اندفاعها ، وإنما الغرض منها أن تتمشى فى مظهرها مع الدعائم البارزة التى تكتنف أبواب المسجد ، فتضفى عليه جمالا ، لأن هذه الدعائم لو تركت بمفردها لظهرت كأنها زيادات منفرة تشوه المظهر الجمالى للمسجد من الخارج [2] .

أما المئذنة فتتوسط الجدار الشمالى للجامع ، وتتكون من ثلاثة طوابق ، تعلوها قبة مفصصة ، والطابق الأدنى مربع القاعدة ، تنحدر جدرانه إلى الداخل انحدارا طفيفا ، فيقل عرضها كلما ارتفعت مما يكسب المئذنة قوة وارتكازا وثباتا . وبنيت قاعدة هذا الطابق حتى ارتفاع ثلاثة امتار ونصف المتر بقطع حجرية ضخمة مصقولة ، أما بقية الطابق ، فمن كتل حجرية مستطيلة الشكل تشبه قوالب الآجر . ويعلو هذا الطابق طابق آخر مربع ولكنه اصغر كثيرا من الطابق الأدنى ، ويتراجع الطابق الثالث عن الطابق الثانى ، وتزدان جدران الطابق الثانى بطاقات ثلاث مسدودة ، ومعقودة فى كل وجه من أوجهه ، فى حين يزدان كل وجه من أوجه الطابق الأعلى بنافذة تكتنفها طاقتان مسدودتان . ويعلو الجدار الأعلى من كل طابق

---

(١) فكرى ، المسجد الجامع بالقيروان ، ص ٥٨ ، ٥٩ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١١٥ ، ١١٦ .

شرفات على هيئة عقود متصلة ومفرغة فى وسطها . ويدور بداخل المئذنة درج ضيق ، سقفه على هيئة قبوات نصف اسطوانية ، وتتخلل جدران المئذنة فتحات تبدو ضيقة من الخارج ، ولكنها تتسع كلما نفذت فى الجدران، وظيفتها إنارة الدرج ، وتعلو هذه الفتحات من خارج المئذنة عقود مخففة للضغط تشبه حدوة الفرس (١) . وينسب الدكتور فكرى هذه المئذنة إلى بشر بن صفوان الذى قام ببنائها فى سنة ١٠٥ه بأمر الخليفة هشام بن عبد الملك وقد اتخذت هذه المئذنة أنموذجا للمآذن الاسلامية فى المغرب والأندلس ، مثل مئذنة جامع سفاقس، ومآذن جوامع تلمسان وأغادير والرباط والقرويين بفاس ، وقرطبة وإشبيلية ومراكش والرباط ، كما قلدت فى المآذن المصرية (٢) ، مثل مئذنة مسجد الجيوشى وضريحه ، ومئذنة مسجد دير سانت كاترين بشبه جزيرة سيناء من العصر الفاطمى(٣).

قباب الجامع : وننتقل إلى قباب الجامع ، وأولها قبة المحراب التى أقامها زيادة الله عند تقاطع البلاط الأوسط مع أسكوب المحراب المحاذى لجدار القبلة ، وهى قبة أودعها البناء كل روائع الفن المغربى من زخارف ونقوش ، وهى أقدم قبة فى بلاد المغرب كلها ، وعلى مثالها أقيمت قباب المحراب بمساجد المغرب والأندلس . والقبة الثانية هى قبة باب البهو التى أقامها ابراهيم بن أحمد فى سنة ٢٦١ه على مدخل البلاط الاوسط من جهة الصحن ، وأتم بها تتويج بلاط المحراب من جهتيه القبلية والجوفية، واستكمل

---

(١) المرجع السابق، ص ١١٠ ــ السيد عبد العزيز سالم ، المسجد الجامع بالقيروان ص ١٧٣

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، المآذن المصرية ، نظرة عامة عن أصلها وتطورها ، بولاق سنة ١٩٥٩

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، الآثار الاسلامية فى دير سانت كاترين بطور سيناء ، مجلة العلوم ، العدد الأول من السنة العاشرة ، يناير ١٩٦٥ ص ٦

بيت الصلاة بهذه القبة تناسقه واتزانه ، واصبح بناء قبتين على البـــلاط الأوسط ببيت الصلاه منذ ذلك الحـــين قاعدة عامة اتبعتها مساجد المغرب والأندلس (١) .

ثم أقام الخليفه أبو حفص سنة ٦٩٣ هـ قبتين تعلوان مدخلى بيت الصلاة شرقا وغربا ، وهناك قبتان أخرتان : إحداهما تعلو المئذنة ، والثانية تتوج المدخل الأوسط بالجنبة الغربيـة ، ويذكر الأستاذ الدكتور فكرى أنه بالرغم من اختلاف مظهرهذه القباب، فانها تتشابه جميعا فى البنيان، وتتشعب من فكرة واحدة ، فكرة خصيبة ، متزنة وأصيله (٢) .

وتتكون قباب جامع القيروان من ثلاثة أجزاء: القاعدة المربعة ، والعنق الأوسط الدائرى، والخوذةالكروية المضلعة. وعناصر البناء فى قباب الجامع تتكون من عقود وأقواس وضلوع وأعمدة ، وتتصل هذه العناصر بعضها ببعض ، وتترك فراغا بينها يزدان بقواقع زخرفية ، ومقرنصات، وعيون، وطاقات ، ودوائر ، ونوافذ ، وقنوات (٣) . ويعتقد الأســتاذ الدكتور أحمد فكرى أن قبة المحراب أقامهـا زيادة الله على مثال قبــة كانت قائمة بالمسجد قبل زيادة الله، ثم جاءت قبة زيادة اللهبالمحراب تطورا لها ،ويرجح

---

(١) Lambert, les mosquées de type andalou, p. 282

(٢) فكرى ، المسجد الجامع بالقيروان ص ٨٩

(٣) ارجع الى وصف هذه القباب فى المراجع التالية :

Marçais, Coupoles et plafonds, p. 9 et s. 99

فكرى ، المسجد الجامع بالقيروان ، ص ٩٠ — ٩٨

Creswell, a short account, p. 298, 299

عبد العزيز سالم ، المسجد الجامع بالقيروان ، ص ١٧٤ ، ١٧٥

أن تكون هذه القبة القديمة هي قبة المدخل الغربي إلى الصحن . وقد عزز رأيه بأدلة مقنعة توصل اليها من عمارة القبتين (١) .

وقد انتشر نظام قباب القيروان فى المغرب والأندلس، واتخذ أنموذجا لقباب جامع الزيتونة بتونس الذى يشتمل بيت الصلاة فيه على قبتين تعلوان بلاط المحراب ، كما هو الشأن فى جامع القيروان ، إحداهما قبـة المحراب ، والأخرى قبة باب البهو . وعناصر قبة المحراب بجامع الزيتونة مماثلة لعناصر قبة المحراب بجامع القيروان ، كما أن عـدد العقود والأعمدة والضلوع متساو فى كل من القبتين . ولكننا نشهد فى قبة المحراب بجامـع الزيتونة تطورا للعناصر الجديدة التى ظهرت لأول مرة فى جامع القـيروان ، وهى الضلوع البارزة والمقرنصات ، كما نلاحظ فيهـا تفوقا فى البناء ، وتقدما فى الزخرفة . وقبة الزيتونه تعرض فكرة استقلال الضلوع البارزة عن الخوذة المفصصة فى وضوح تام ، كما أنهـا تبشر بظهور القبـاب ذات الضلوع المتقاطعة التى ظهرت فى جامع قرطبة بعد ذلك بما يقرب من قرن من الزمان (٢) . ويرى الأستاذ الدكتور فكرى أن فكرة تصميم قباب قرطبة تتفق مع قبة مسجد القيروان ، واتفاق هذه الفكرة فى رأيه يرجع إلى وحدة تفكير

---

(١) فكرى ، المرجع السابق ، ص ٩٦

(٢) Lambert, les coupoles des grandes mosquées de Tunisie et d'Espagne - les origines de la Croisée d'ogîves, offices des Instituts d'Archéologie et d'histoire d'art, No· 8 - 9. Nov. 1936 - Mars 1937, pp. 131 - 146. - Ahmad Fikry, la mosquée az-Zaytoûna â Tunis, (Recherches archéologiques) dans : Egyptian Society of historical Studies, vol. II. le Caire 1952 , pp. 27-64.

رجال الفن المسلمين ، وارتباطهم بعوامل واحدة ، وتتمثل عناصر هـذه الفكرة متجمعة فى قبة المحراب بجامع قرطبة ، وإن كانت تطورت كثيرا ، فتعددت الخطوط الهندسية، وزاد تجزىء الفضاء، واتخذت العقود والاقواس والضلوع والأعمده رسما أكثر وضوحا ، أما المقرنصات ، فبدت فى مظهر زخرفى بحت (١) . وقد انتقل نظام التقبيب القائم على تقاطع الضلوع من قرطبة إلى طليطلة ، فنراه ممثلا فى صور مختلفة بمسجد باب مردوم ، ومن قبابه ما يبدو رباعيا منحرفا ذا أقطار ، كأنه قبوتان من الطراز القوطى ، إحداهما داخل الأخرى ، ومنها ما يبدو مثمنا ، ومنها ما يقلد تقاطع ضلوع قبة المحراب بقرطبة ، ثم انتشر هذا النوع من القباب منذ ذلك الحين انتشارا واسعا يشهد به ذلك العدد الهائل من القباب والقبوات التى نراها فى الكنائس المسيحية بطليطلة (٢) ، والمزان بقشتاله ، وتوريس دل ريو ، ودير موساك ، وأولورون ، وسان بليز . ومن هـذه القبوات الأخـيرة استلهم الفنانون والفرنسيون فكرة قبواتهم القوطية المصلبة (٣) .

---

(١) فكرى ، المسجد الجامع بالقيروان ، ص ١٠٤

(٢) Lambert, les coupoles des grandes mosquées de Tunisie et d'Espagne-L'art de l'Islam occidental, dans Annales de l'Université de Paris, 1953, P. 8 - Gomez-Moreno, Ars Hispaniae, t. III. Madrid 1951

السيد عبد العزيز سالم ، أثر الفن الخلافى بقرطبة فى العمارة المسيحية بأسبانيا وفرنسا المجلة ، العدد ١٤ ، القاهرة ١٩٥٨ — المساجد والقصور بالأندلس ص ٥٠ ، ٥٣ — تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٤٠٤

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، أثر الفن الخلافى بقرطبة ، ص ٨٨

Lambert; Les Origines de la croisée d'ogives, pp. 131-146.

زخارف الجامع : يغلب طابع البساطة على بناء الجامع بوجه عام ، ويتجلى ذلك فى عقوده الملساء بجدرانها ، وقرمها ، وطنفها ، وتيجانها ، ولكن هذه الصورة البسيطة ما لبثت أن دخلتها بعض الحليات ، فعلا العقود صف من عقود زخرفية صغيرة فى صورة رواق مصغر أو بائكة متصلة العقود ، أو أحاط بالعقد إفريز مستطيل نقشت فيه مربعات موضوعة على رأسها كعقد باب الميضأة ، ثم تطور المظهر الزخرفى بمرور الزمن ، وازدانت بعض عناصر الجامع بزخارف فى غاية الأناقة والجمال ، كزخارف المحراب وقبته وبلاطه [1] .

وتكسو جوفة المحراب غلالة رقيقة من الرخام نقشت فيها زخارف نباتية مخرمة يتسرب الضوء من بين خرومها. وتصطف هذه اللوحات الرخامية صفوفا أربعة فى كل صف سبع حشوات ، عرض كل منها ١٤ سم ، ويزدان الشريط الأفقى العلوى الذى يفصل الصف العلوى من الحشوات عن السفلى بكتابة كوفية منقوشة فى الرخام نقرأ فيها :[بسم الله الرحمن الرحيم قل هو الله أحد . الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم][2] . وتزدان الحشوات الرخامية بزخرفة نباتية تقوم على التوريقات ، وهندسية تكثر فيها المربعات والدوائر والخطوط المتقاطعة ، وقوام هذه الزخارف ورقة العنب فى صور مختلفة ، فهى مقصوصة أو ملفوفة ، أو ممتدة ، أو منكمشة ، وكثيرا ما يتفرع من السيقان الملتفة أوراق وأزهار تملأ الفراغ أو تتفرع هذه الأوراق النباتية من ساق

(١) فكرى ، المسجد الجامع بالقيروان ، ص ١٢٤ــ١٢٦

(٢) عبد العزيز سالم ، المسجد الجامع بالقيروان ، ص ١٧٧

متوسطة منحنية فى تموجات (١) . وبعض هذه الحشوات الرخامية يزدان بزخرفة فى صورة قواقع ، ولكن العدد الأكبر منها يشغله فرعان منحنيان متناسقان يتشابكان أحيانا على امتداد المحور ، وتبرز وسط هذا التشابك زهرة . وبجانب هذه الحشوات تبدو الشبكات الزخرفية التى تغطى نوافذ القبة ، وتتكون زخارفها عامة من ساق متوسطة تشبه شجرة الحياة الفارسية ، أو من فروع متموجة تتدلى منها أغصان بها أوراق العنب وعناقيده ، وتشبه هذه الزخارف نظائرها بواجهة مسجد الأبواب الثلاثة الذى أقامه محمد بن خيرون المعافرى الأندلسى بالقيروان فى سنة ٢٥٢ هـ . ويكسو الجدران التى تعلو البلاط الأوسط بجامع القيروان زخرفة هندسية ونباتية تمتد إلى بنيقات العقود ، وتعد من أروع أمثلة الزخرفة فى عصر الأغالبة .

ومنبر جامع القيروان من أجمل وأبدع أمثلة الحفر فى الخشب فى بلاد المغرب ، وينسب هذا المنبر إلى أبى ابراهيم أحمد سنة ٢٤٨ هـ ، وزخارفه هندسية تقوم على الدوائر والخطوط ، ونباتية تتمثل فى أوراق العنب . وبالجامع مقصورة خشبية ، صنعت فى سنة ٤٣١ هـ ، فى عهد المعز بن باديس ، وأبوابها غنية بالزخرفة والكتابة (٢) .

٢ ـ جامع الزيتونة بتونس :

يعتبر هذا الجامع من أهم مساجد إفريقية لقدم عهده ، واحتفاظه بعناصره المعمارية والزخرفية الأولى منذ نشأته ، ثم لشهرته كجامعة علمية قديمة

---

(١) Marçais l'Architecture, p. 50, 51 ـ فكرى ، المرجع السابق ص ١٣٦ ـ ١٣٨

(٢) عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ١٧٨

ما زالت تدرس فيها علوم اللغه والتاريخ والفقه . وتاريخ هذا الجامع يكتنفه الغموض ، فقد أغفل المؤرخون وصفه ، يضاف إلى ذلك أنه كان مغلقا فى وجه الأجانب من غير المسلمين ، فلم تقم حوله أى دراسة أثرية علمية، وظل هـــذا الجامع مع أهميته مجهولا لدى مؤرخى الفن ، لا يذكرون عنه إلا إشارات تتعلق بوصف جدرانه الخارجية والأسواق المحيطة به حتى قام أستاذى الكبير الدكتور أحمد فكرى بدراسة هـذا الأثر الجليل علميا بين عامى ١٩٣٢ - ١٩٤٨ ، ونشر أول أبحاثه عنه فى سنة ١٩٥٢ (١) . وقد ضمنه المؤلف آراء ونظريات على جانب كبير من الأهمية أوضحت ما خفى من هذا الفن فى عصر الأغالبة .

وجامع الزيتونة من بناء عبيد الله بن الحبحاب ، أسسه فى عام ١١٤ هـ ، ويذكر النويرى أن أبا إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب أمر ببناء المسجد الجامع بتونس، وأنه شرع فى البناء فى سنة ٢٤٨ هـ (٨٦٣ م)، وتوفى الأمير بعد ذلك بسنة واحدة دون أن يتم ما شرع فيه من بناء، فأتمه أخوه زيادة الله الثانى الذى تولى الإمارة من بعده ، ولم يطل العهد بزيادة الله ، فمات بعد عام واحد وسبعة أيام من توليه الامارة فى ذى القعدة سنة ٢٥٠ هـ ، ولعل ذلك هو السبب فى أن اسمى هذين الأميرين لم يسجلا فى النقوش التذكارية بهذا المسجد (٢) . ويؤكد الأستاذ الدكتور فكرى أن أعمال أبى ابراهيم

---

(١) Fikry, la mosquée az-Zaytoûna à Tunis ، وقد اعتمدت فى هذا المقال على هذا البحث ، وعلى المقال الذى نشرته فى كتاب مساجد ومعاهد ، ج ٢ ص ١٦٤ — ١٦٨

(٢) Fikry la mosquée Az-Zaytoûna à Tunis p. 29

أحمد واخيه زيادة الله تمت داخل نطاق جدران المسجد القديم الذى ظل يحتفظ منذ إنشائه سنة ١١٤ هـ بحدوده الخارجية ، واقتصرت هذه الاعمال الإنشائية على زيادة ثلاثة أساكيب فى بيت الصلاة ، وإقامة قبـــة أمام المحراب (١) .

وتصمت المراجع التاريخية خلال القرون الاربعة التالية عن ذكر شيء عن هذا المسجد ، ثم تعود فتروى ما طرأ على الجامع من إصلاحات ، فيذكر الزركشى أنه شرع فى إصلاح جامع الزيتونة وتحسينه وزخرفته فى عهد الواثق ، وتمت أعمال الإصلاح فى ١٥ من شـعبان سنة ٦٧٦ هـ . ويذكر المؤرخ نفسه أن السلطان يحيى زكريا أمر بصنع أبواب خشبية ووضع جـــوائز خشبية فى عرض المسجد . ويعلق الدكتور فكرى على ذلك بقوله : « إذا كانت هذه الإشارات الموجزة لا تكفى لدراسة تاريخ الجامع فان الجامـع نفسه أمدنا بنصوص تاريخية هامة للغـاية ، فهو يحمل تاريخه مسجلا واضحا لا غموض فيه » ، ويذكر أيضا أن هذا المسجد يمتاز عن غيره بأنه يحتفظ بنقوش تاريخية ، فقد أنشىء وجـدد وأصلح وأضيف إليه وزخرف فيه فى عصور مختلفة لو تركت لعلماء الآثار لتضاربت فيهـا أقوالهم ، ولكن ذلك كله ، بالإضافة إلى أسماء الصناع الذين تولوا عمـله ، مسجل فى نقوش هذا الجامع (٢) ، مثل ذلك أننا نقرأ تاريخ بنائه مسجلا فى قبة المحراب ، ونصه : (بسم الله الرحمن الرحيم ، مما أمر بعمله الإمام المستعين أمير المؤمنين العباسى ، طلب ثواب الله وابتغاء مرضاته ، على يدى

---

(١) فكرى مساجد القاهرة ومدارسها ، ص ٢٥٥ ، ٢٥٦

(٢) نفس المرجع ، ص ٢٥٥

نصير مولاه سنة خمسين ومائتين . يا أيهـــا الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله . صنعه فتح الله) ، وبفضل هذه النقوش التى نراها أيضا فى واجهة الصحن القديمة ، وفى قبة البهو (١) ، وعلى الباب الشرقى النافذ من صحن الجنائز ، عرف تاريخ المسجد .

والمسجد مربع فى غير انتظام، يغطى مساحة من الأرض طولها ٧٦ مترا وعرضها ٦١ مترا ، ويبلغ طول جـدار المحراب ٦١ مترا ، والجدار الشرقى ٦٥ مترا والغربي ٧٦ مترا ، والشمالى ٥٧ مـترا (٢) . وبيت الصلاة فى هـذا المسجد يشتمل على سبعة أساكيب موازية لجدار القبلة، طول كل منها ½ ٥٤ مترا ، تخترقها ١٥ بلاطة ، طول الواحدة منها ٢٥ مترا تقريبا، ومتوسط عرض كل من الأساكيب والبلاطات فيما بين الأعمدة ثلاثة أمتار، عدا أسكوب المحراب، فعرضه ٤٫٣٠ مترا، وبلاط المحراب عرضه ٤٫٨٠ مترا (٣). وعقود المسجد تتجه اتجاهين فى آن واحد : عمودية على جدار القبلة، وموازية لهذا الجدار . والعقود لا ترتكز على جدران الجامع ، بل تظهر مستقلة عن هذه الجدران وترتكز على أعمدة . هذه العقود تشبه حـدوة الفرس ، ولا تختلف فى شىء عن عقود جامع القيروان ، وتقوم على حدائر ، بأعلاها قرم وبأدناها

---

(١) حد هذا النقش التاريخى مسجلا فى قبة البهو، وقد سقطت من التاريخ الـكلمة التى تبين العدد العشرى ، وبقى رقم الآحاد ورقم المئات (احـدى ... وثلثمائة) ، ولكن هـذا النقش نفسه نراه مسجلا على تاج سارية من سوارى هذه القبة ونقرأ فيه [كان ابتداء العمل فى الجنبات والداموس والقبة فى شهر ربيع الاول من سنة ثمانين وثلثمائة وتم جميـع ذلك من شهر جمادي الاولى سنة خمس وثمانين وثلثمائة]

(٢) فـكرى ، مساجد القاهرة ومدارسها ، ص ٢٥٨

(٣) Fikry, la Mosquée Az-zaytoûna, p. 31 — مساجد القاهرة ومدارسها ، ص ٢٥٨

طنف من الحجارة . وتزدان حدائر جامع الزيتونة بزخارف نباتية محفورة في كتلة الحجر ، في حين تركت عارية من الزخرفة في جامع القيروان . وتزدوج هذه الحدائر في أسكوب المحراب بجامع الزيتونة لدعم الأعمدة وتركيز الضغط على كتلة واحدة بدلا من تشتيته وبعثرته .

وأعمدة بيت الصلاة وتيجانها متنوعة،جلبت من آثار رومانية وبيزنطية ، وأعيد استعمالها في الجامع ، ومع ذلك فاننا نجد في جامع الزيتونة تيجانا إسلامية ترجع إلى القرن الحادي عشر الميلادي ، وتظهر في قبتي هذا المسجد ملتصقة بالدعائم ، وتتفتح فيها وريقات الاكنثس على أكثر من صف (١) .

وجدران الجامع مبنية جميعا بالحجر الجيري المصقول ، ويبلغ ارتفاعها ما يقرب من تسعة أمتار ، وسمكها ٢٠و١ مترا ، وليس بها من الخارج ركائز كما هو الحال في جامع القيروان . وصحن الجامع مربع غير منتظم الأضلاع ، تحيط به مجنبات من جهاته الأربع ، وترتفع في ركنه الشمالي الغربي مئذنة أقيمت في عام ٧١٢ هـ على أنقاض المئذنة القديمة .

ولمسجد الزيتونة قبتان : واحدة أمام المحراب، والثانية على مدخل البلاط الأوسط مما يلي الصحن . وتتكىء قبة المحراب بجامع الزيتونة على ٣٢ عمودا كما هو الحال في قبة جامع القيروان ، وتتخلل هذه الأعمدة طاقات مفتوحة ومغلقة متعاقبة في المحيط الدائري لعنق القبة . أما الطابق الأدنى ، وهو الذي يؤلف قاعدة القبة ، فمربع تقوم على أركانه مقرنصات أربعة معقودة ، في كل مقرنص منها عقدان متراجعان في هيئة قواقع ، تتشعع فصوص جوفاتها

---

(١) Fikry, op. cit. p. 41

من أركان القاعدة . وترتكز عقود المقرنصات على أعمدة ، ويتوسط أعلى كل جانب من جوانب القاعدة المربعة للقبة عقد آخر يضم قوقعة على شكل زهرة . وهذا التقسيم الداخلى إلى ثلاثة طوابق يتفق مع التقسيم الخارجى، فالطابق الأدنى مربع طول ضلعه نحو ½ ٦ مترا ، وبكل من الوجهين الشمالى والجنوبي من هذا الطابق بقبة المحراب ثلاث طاقات . وتختلف عقود طاقات قبة الزيتونة عن عقود طاقات قبة القيروان فى أنها تتألف من أربعة صفوف مسنجة متراكبة فى تراجع . أما الطابق الثانى فشبه دائرى ، ويقابل الطاقات العشر بالداخل عشر دعائم موزعة بين النوافذ (١) .

أما قبة البهو التى أقيمت فى سنه ٣٨١ هـ ، فهى بحق أروع القباب التونسية جميعا ، لتناسق تخطيطها ، ودقة تفاصيلها المعمارية ، وتوافق نسبها ، وثراء زخارفها . وعناصر هذه القبة من الداخل كعنصر قبة المحراب، ولكنها تبدو مستقلة واضحة . وقد سجل تاريخ بناء قبة المحراب تحت القبة ، كما سجل اسم صانعها فتح الله ، وقد أخطأ الأستاذ مارسيه فى إسمه، ويبدو أنه نقل هذا النص التاريخى ناقصا ، فلم ينقل من اسم الصانع سوى مقطعه الأول فتح (٢) ، وظن أنه من الفتيان الصقالبة وأنه ساهم فى بناء القبة . وقد اعترض الدكتور أحمد فكرى على هذا الاعتقاد ، وأثبت بصورة لا تدع مجالا للشك وجود طائفة من كبار المهندسين والعرفاء المسلمين فى بلاد تونس منذ طليعة القرن التاسع الميلادى ، تخصصوا فى فن بناء القباب ، وبرعوا فيه وحذقوه (٣) .

---

(١) Fikry, Ibid. p. 46 - 52

(٢) Marçais, l'Architecture, p. 7

(٣) Fikry, op. cit. p. 56

ويتميز جامع الزيتونه بظهور عنصر زخرفى جليـل يقوم على تناوب اللونـين الأبيض والرمادى فى كتل الحجارة التى تؤلف سنج العقود أو مداميك البناء داخل قبة المحراب . وقد ظهرت هـــذه الزخرفة أول ما ظهرت فى قبة المحراب من الداخل ، ثم اتبعت فى زخرفة عقود قبة البهو، وفاضت فى داخلها وخارجها ، وغمرت كل بنائها، فغطت العقود، وامتدت إلى الجـدران نفسها ، والطرر التى تحيط بالعقود . وازدانت دعائم الطابق الثانى من القبة بمربعات ملونة قائمة على رؤوسها . وقد تحول اللون الرمادى خارج القبة إلى اللون الأحمر ، وهكذا اكتسبت هاتان القبتان مظهرا زخرفيا رائعا انفردتا به من بين قباب الإسلام جميعا (١) .

ومن المحتمل أن يكون مهندس جامع الزيتونة قد استلهم فكرة تناوب اللونين من عقود جامع قرطبة التى تتناوب فيها قطع الحجاره البيضاء مع قطع الآجر، فيحدث من ذلك نوع من الزخرفة المعمارية البسيطة. وظهر هذا النوع من الزخرفة فى بوابات الجامع على هيئة تربيعات شطرنجية. ولا نستبعد انتقال هذه الفكرة إلى جامع الزيتونة عام ٢٥٠ هـ ، وتطبيقها على الحجارة الملونة . فقـد أخذ جامع قرطبة من القيروان كثيرا من عناصره ، مما يثبت وجود مجال للتأثيرات المتبادلة (٢) .

ويزدان صفا عقود بلاط المحراب من الداخل بثلاثة عناصر زخرفيـة مرتبة فى محور رأسى واحد ، فهناك حشوة عليها زخرفة محفورة فى الجص تشغل موضع التقاء منبق كل عقدين ، ابتداء من قرمة الحدارة حتى نقطة

---

(١) Fikry, op. cit. p. 58

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، جامع الزيتونة بتونس ، ص ١٦٧

انطلاق الشريط البارز المحيط بالعقد . وتعلو هـذه الحشوة حشوة أخرى مربعة ، قائمة على رأسها ، وتشغل هذه الحشوة بنيقتى كل عقد . أما الطابق الأعلى فتشغله حشوة ثالثة مستطيلة الشكل ، أكبر من الحشوتين السابقتين محفورة فى الجدار الذى يعلو العقد ، وتقع على محور الحشوتين السابقتين . وللأسف ضاع كثير من هذه الحشوات ، وحل محلها حشوات أخرى فى القرن السابع عشر الميلادى . ومعظم ما تبقى من هـذه الحشوات ، يقتصر على الحشوات العليـا ، وتتكون زخارفها من تكوينات تذكرنا بزخارف الرخام بجوفة المحراب ، فهى تتألف من إطار مستطيل يضم جوفة على هيئة قوقعة ، يحيط بها عقدمزدوج متجاوز، يقوم على كل من منبتيه على عمودين صغيرين توأمين . والجزء الأدنى من الجوفة يزخر بزخارف كثيفة تتداخل فيها السيقان والتوريقات. وتمتاز زخارف هذه الحشوات بأنها حفرت حفرا غائرا يظهر مسطحات الزخارف واضحة نتيجة للتباين الشديد بـين الظلمة والضوء ، وقد شاهدنا بعض أمثلة لهذا النوع فى قباب القيروان، ولكنها فى الزيتونة أكثر رقة ومرونة (١).

وبجامع الزيتونة منبر يرجع تاريخه إلى عام ٢٥٠ هـ يشبه إلى حد كبير منبر جامع القيروان ، ولكنه أصغر منه حجما ولم يبق من حشواته التى كانت تؤلف كتفيه سوى ٢٢ حشوة مستطيلة الشكل فى كل من الـكتفين . ولا توجد من بين هذه الحشوات واحدة تماثل الأخرى فى الزخرفة . وتزدان هذه الحشوات بزخارف هندسية ، محفورة حفرا غائرا مفرغا ، من مربعات ودوائر ومعينات ، وزخارف نباتية من زهرات متكررة ذات أربع ورقات

(١) Fikry, op. cit. p. 58

تخضع للأسلوب الهندسي ، فتتحول إلى زخرفة هندسية لا تذكرنا بأصلها النباتي إلا عروق وقنوات تخترق خطوطها المنتظمة، ويحيط بهذه الحشوات طرز من زخارف نباتية قوامها سيقان تملؤها التوريقات (١) .

٣ ـ المسجد الجامع بسوسة:

اتخذ الأغالبة من سوسة ميناء لعاصمتهم القيروان ، يركبون منها السفن للجهاد في صقلية ، ولذلك حظيت باهتمام أمرائهم ، فزودوها بأسوار قوية ، وأقاموا بها الرباط المشهور ، ومسجدا يعرف بأبي فتاتة ، فيما بين ٢٢٣ ، ٢٢٦ هـ ، والمسجد الجامع بسوسة في سنة ٢٣٦ هـ .

أقيم جامع سوسه في عهد الأمير أبي العباس محمد بن الأغلب ، في الطرف الشمالي الشرقي من المدينة ، قريبا من باب البحر (٢) ، وقد سجل تاريخ بنائه على إفريز من الكتابة الكوفية الرائعة منقوشة على الحجر حول الصحن ، ويتضمن النقش آيات قرآنية ، وتاريخ بناء المسجد ، ولكن هذا الإفريز الحجري تهدم ما يقرب من نصفه في سنة ١٩٤٤ . وقد ساهم الأستاذ الدكتور أحمد فكري في إعادة تركيبه على حالته الأولى ، إلا أن الجزء الذي كان يمتد منه على واجهة بيت الصلاة ، فقد بعض حروفه وكلماته ، ولذلك فان النص التاريخي لهذا المسجد غير كامل، ونقرأ فيه [مما أمر به ... محمد الأ ... ست وثلاثون ومائتين في المسجد ...] (٣).

(١) Ibid., pp. 60 - 63

(٢) Creswell, a short account, p. 269

(٣) فكري ، مساجد القاهرة ومدارسها ، ص ٢٥٠

وعلى الرغم من الزيادات التى أضيفت إلى المسجد فى العصور التاليـة مثل المجنبة التى أضيفت لصق واجهة بيت الصلاة سنة ١٠٨٦ هـ (١) ، وما طرأ على جدار القبلة الأغلبى من تغييرات نتيجة لاضافة ثلاثة أساكيب قبلية ، فانه يمكننا بوضوح تحـديد المسجد بصورته التى بنى عليها ، وحـدوده القديمة ، ولا يهمنا بطبيعة الحال من بناء جامع سوسة إلا هذا الجزء القديم الذى بنى فى عصر الأغالبة .

كان هذا المسجد على شكل مستطيل طوله ٥٢ مترا ، وعرضه ٤٤ مترا ، وكانت مساحة الصحن فيه تبلغ ٤١ × ٢٧ مترا مربعا ، وطول بيت الصلاة ٤٩ مترا ، وعرضه نحو عشرة أمتار . وينفتح بيت الصلاة على الصحن بواجهة من ١١ عقدا ، ويشتمل هذا البيت على ١٣ بلاطة ممتدة على ثلاثة أساكيب يفصلها فيما بينها دعائم ضخمة مصلبة الشكل عددها فى كل أسكوب ١٢ دعامة ، وتحمل هذه الدعائم عقودا نصف دائرية مرتفعة موازية لجدار القبلة ، وأخرى متجاوزة ومنخفضة عمودية على هـذا الجـدار ، أى أن كل دعامة تحمل أطراف أربعـــة عقود . ونلاحظ أن بلاطة المحراب يزيد اتساعها عن البلاطات الأخرى ، فبينما يصل اتساع البلاطة الجانبية ٣ أمتار تقريبا ، يبلغ اتساع البلاط الأوسط ٤,٣٠ مترا (٢) . ويمتـد البلاطان الشرقى والغربى المتطرفان فى بيت الصلاة شمالا بامتداد الصحن ، فيشكلان مجنبتين شرقية وغربية ، تطل كل منهما على الصحن بستة عقود ، وتصلهما من طرفيهما الشمالى مجنبة شمالية بائكتها تتكون من ١١ عقدا . أما المجنبة الرابعة القبلية ،

---

(١) Marçais, l'Architecture musulmane, p.24 — فكرى ، المرجع السابق ص ٢٥٠

(٢) فكرى ، مساجد القاهرة ص ٢٥٢

فقد أضيفت كما ذكرت فى سنة ١٠٨٦ هـ . وكان يعلو المجنبات الأغلبية الثلاثة قبوات نصف أسطوانية متصلة فيما بينها . ونلاحظ أن العقود المتجاوزة التى تدور بالصحن يزيد ارتفاعها مرتين عن ارتفاع الدعائم التى تحملها ، ويعلو العقود جدار يزدان بالإفريز الكتابي الذى أشرنا إليه (١).
ويشغل الزاوية الشمالية الشرقية من الصحن درج يصعد إلى جوسق مثمن الشكل ينتهى بقبة ، ويقوم هذا الجوسق على برج أسطوانى الشكل يبرز عن الجدارين الخارجيين الشرقى والشمالى للجامع . ويعتقد الأستاذ كريسويل أن بناء هذا الجوسق أحدث عهدا من بناء البرج (٢).

وسقف المسجد قبوات نصف أسطوانية تغطى بلاطاته ، وتقوم هذه القبوات على العقود نصف الدائرية التى ذكرناها قبل ذلك (٣) . ويعلو الأسطوان المواجه للمحراب قبة نصف كروية عنقها من الخارج مثمن الشكل ، ضلوعه مقعرة ، وتفصلها زعانف مفصصة ، ويقوم هذا العنق على قاعدة مربعة تعلوها زخرفة من أسنان بارزة . والقبة من الداخل تقوم على جوفات مقوسة فى الأركان .

٤ ـ مسجد أبى فتاتة بسوسة :

يقع هذا المسجد قريبا من باب سوسة الجنوبى ، وهو مسجد صغير تبلغ مساحته الخارجية ١٣ × ١٠ م٢ ، ويعتقد الأستاذ الدكتور أحمد فكرى أن صحن هذا المسجد كان يحيط به من الشرق والغرب والشمال ، على غير

(١) Marçais, l'arhitecture musulmane, p .24

(٢) Creswell, a short account, p. 272

(٣) Marçais, op. cit. p. 24

النظام الذى تبدو عليه الجدران التى تحيط به حاليا من الشرق ومن الشمال ، ذلك لأن الكتابة الكوفية المسجلة على الحجارة فى الإطار الذى يعلو جدار الواجهة الشمالية للمسجد ، كانت تمتد على الواجهة الغربية للجامع، إذ ما تزال بعض آثارها ظاهرة على هذه الواجهة . ونقرأ فى بقايا النقش الكتابى الذى كان يعلو واجهات الجامع عبارة (ابن إبراهيم الأغلب) ، وتشير هـــذه العبارة إلى الأمير أبى عقال الأغلب بن ابراهيم الذى ولى إمارة إفريقية بعد وفاة زيادة الله فى سنة ٢٢٣ هـ [(١)] . ولم يتبق من هـذا المسجد سوى بيت الصلاة ، ورواق يمتد أمامه كان يطل على الصحن ، ولعله كان صحنا للجنائز [(٢)] . وبيت الصلاة مربع الشكل طول كل ضلع ينقص قليلا عن ٨ مترا ، ويشتمل على ثلاثة بلاطات عمودية على جدار القبلة، وتنقسم هـــذه البلاطات إلى ثلاثة أساكيب تمتد بحذاء هذا الجدار، بحيث يضم بيت الصلاة تسعة أساطين مربعة الشكل ، يبلغ طول كل جانب منها ٢ ½ مترا تقريبا ، وترتكز عقودها على أربعة دعائم مصلبة الشكل . والمسجد على هذا النحو يشبه من حيث التخطيط مسجد صغير بطليطلة يعرف باسم باب مردوم، أسسه أحمد بن حـديدى القاضى ، فى سنة ٣٩٠ هـ [(٣)] ، كما يشبه من حيث النظام الداخلى للبنـاء المسجد الجامع بسوسة الذى أقيم فى سنة ٢٣٦ هـ ، إذ أن سقف مسجد أبى فتاتة على شكل قبوات نصف أسطوانية تقوم على عقود

---

(١) فكرى ، مساجد القاهرة ومدارسها ، ص ٢٥٤

(٢) نفس المرجع ص ٢٥٤

(٣) السيد عبد العزيز سالم، المساجد والقصور بالأندلس ص ٥٠ — ٥٣ ، مسجد المدجنين بطليطلة ، مقال بمجلة كلية الآداب جامعة الاسكندريه ، ١٩٥٨

نصف دائرية مطولة ، بينما تفصل الاساكيب الثلاثة عقود منخفضة نصف دائرية متجاوزة (١) .

٥ ــ مساجد اخرى خاصة:

وإلى جانب المساجد التى ذكرناها ، أقيمت فى إفريقية مساجد أخرى على نفقة بعض الأشخاص الصالحين ، كعمل من الأعمال الخيرية ، منها المسجد الذى أقامه محمد بن خيرون المعافرى الأندلسى بالقيروان ، فى سنة ٢٥٢ هـ ، ويعرف هذا المسجد بذى الأبواب الثلاثة، وقد اكتسب هذه التسمية بسبب واجهته الشمالية ذات العقود الثلاثة المتجاوزة لنصف الدائرة، وتمتاز هذه الواجهة بكسوتها الزخرفية الرائعة (٢) .

ومنها المسجد الجامع بسفاقس الذى بناه على بن سالم الجبنيانى ، أحد تلامذة الفقيه الصالح أبى سعيد سحنون بن سعيد الملقب بسراج القيروان (٣)، وذلك فى سنة ٢٣٥ هـ . وتقوم مئذنة هـــذا الجامع فى منتصف الواجهة الشمالية على نحو مئذنة جامع القيروان . ويشبة جامع سفاقس المذكور جامع القيروان من حيث عناصره المعمارية (٤) .

ثانيا ــ العمارة الحربية :

اهتم أمراء بنى الأغلب بتحصين مدن إفريقية ، فيذكر ابن خلدون أن أبو ابراهيم أحمـــد بنى بافريقية « نحوا من عشرة آلاف حصن بالحجارة

(١) Marçais, l'architecture musulmane, p. 24

(٢) Ibid, pp. 25, 47

(٣) المالكى ، رياض النفوس ج ١ ص ٢٤٩ ــ ٢٩٠

(٤) Marçais op. cit, p. 25

والكلس وأبواب الحديد »[١]. وتتضمن هذه الرواية مبالغة واضحة ، ولكن النص على أى حال يكشف لنا اهتمام هذا الأمير بتحصين البلاد . وقد يكون المقصود ببناء هذه الحصون ترميم سلسلة التحصينات التى كان قد أقامها البيزنطيون على عجلة على تخوم الصحراء إبتداء من طرابلس شرقا حتى نوميديا غربا ، وكانت هذه التحصينات تشتمل على قلاع وأبراج تكاد تكون متصلة ، ومن هذة القلاع قلعة جلولاء الواقعة على بعد نحو ٣٠ ك.م إلى الشمال الغربي من القيروان ، وقلعة القصرين التى لعبت دورا هاما على الحدود الغربية لدولة الأغالبة [٢] ، وقلعة بلزمة التى افتتحها أبو عبد الله الشيعى وخربها ، وقد ذكر البكرى أنها قصر قديم البناء ، ومنها قلعة باغاية التى ظلت قائمة حتى هدمها أبو عبد الله الشيعى . ومن قلاع إفريقية فى عصر الأغالبة قلعه طبنة التى بناها أحد الولاة العرب [٣] ، وقصبة مقرة التى شاهد اليعقوبى حصونها الكثيرة [٤] . وكانت معظم بلاد قسطيلية محصنة بالقلاع المنيعة . ولقد عنى الأغالبة بتحصين السواحل ، خوفا من طروق الروم لها ، وأعظم أمراء الأغالبة الذين تهمموا بالأبنية الحربية الأمير ابراهيم بن أحمد الذى بنى الحصون والمحارس على سواحل البحر ، حتى كانت النار توقد فى ساحل سبتة ، للنذير بالعدو ، فيتصل إيقادها بالاسكندرية فى الليلة الواحدة [٥] ، ولعل المقصود بالمحارس الأربطة . وقد أشار اليعقوبى فى

---

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٤٢٩

(٢) Marçais, op. cit. p. 29

(٣) Idid .

(٤) اليعقوبى ، ص ٣٥١

(٥) ابن الأثير ، ج٦ ص ٥ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٣٤

كتابه البلدان انه من اسفاقس إلى بنزرت ثمانية أيام ، وفى جميع المراحل حصون متقاربة ينزلها العباد والمرابطون (١) .

وإلى أبى ابراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب ينسب بناء أسوار سوسة(٢)، وإن كان ابن الأثير وابن خلدون ينسبانها خطئا إلى إبراهيم بن أحمد (٣)، لأن سور مدينة سوسة يحمل تاريخ الانشاء سنة ٢٤٥ ھ وهو يتفق مع عصر أبي ابراهيم أحمد بن محمد .

وأهم المنشآت الحربية فى عصر الأغالبة الآثار التالية :

١ ـ رباط سوسة :

كان الخوف من غارات الروم على السواحل التونسية ، من جهة ، والاستعداد الدائم للجهاد ضد الروم فى صقلية حافزا على عناية الأغالبة بتحصين هذه السواحل ، وذلك باقامة المحارس والأربطة ، وقد لعبت الأربطة دورا هاما فى الحياة الدينية والحربية ببلاد إفريقية. وكان الرباط يزود عادة بمنار توقد فيه النار ليلا للنذير باقتراب سفن العدو ، وعن طريق هذه الإشارة تستعد المحارس والأربطة المجاورة ، لملاقاة العدو بحرا وبرا، ولذلك كثر عدد الأربطة على السواحل التونسية .

ورباط سوسة المعروف بقصر الرباط من أهم الأربطة التى أقيمت فى عصر الأغالبة ، وقد وصلت إلينا عمارته فى حالة جيدة. وهو من بناء الأمير

(١) اليعقوبى، ص ٣٥٠

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ص ٢٣

(٣) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٥ ـ ابن خلدون ج ٤ ص ٤٣٤

زيادة الله بن الأغلب ، أسسه فى سنة ٢٠٦ هـ ، وتاريخ الإنشاء مسجل على لوحة من الرخام بأعلى مدخل المنار[١]، نقرأ عليها النص التالى: (مما أمر به الأمير زيادة الله بن ابراهيم أطال الله بقاه على يدى مسرور الخادم مولاه فى سنة ست ومائتين اللهم أنزلنا منزلا مباركا وأنت خير المنزلين) . ويقع رباط سوسة على خليج قابس ، بداخل أسوار مدينة سوسة ، فى القسم الأدنى من المدينة ، ولقد بنى قبل إنشاء أسوار سوسة بنحو ٣٩ سنة . ويشتمل الرباط على سور مربع الشكل طول ضلعه ٣٩ مترا تقريبا ، مزود عند أركانه ومنتصف أسواره بأبراج معظمها نصف أسطوانية ، (ست منها نصف أسطوانية ، أما البرج الواقع فى الركن الجنوبي الغربي فمربع الشكل، يقوم عليه منار أسطوانى الشكل ، ينتهى من أعلاه بجوسق تعلوه قبة)، ويكتنف المدخل بناء مربع الشكل يعلوه فوق السور قبة.

وتزدان الأسوار والأبراج فى أعلاها بطراز ممتد من العقود الصغيرة المتصلة ، وتنتهى الأسوار من أعلى بشرافات مستديرة الرؤوس .

ومدخل الرباط بارز ، يتوسط الواجهة القبلية ، ويصل المرء إلى داخل الرباط عن طريق درج هابط ، يؤدى إلى باب معتب مفتوح فى هذا السور القبلى ، فاذا ما اجتاز المرء هذا الباب ، وجد نفسه فى ممر ينقسم إلى ثلاثة أقسام : الأول أسطوان تعلوه قبوة قبوة متعارضة ، ويكتنفه على كل من الجانبين أسطوان قبوته نصف أسطوانية . أما القسمان الآخران فتعلوهما قبوتان نصف أسطوانيتين ، ويؤدى هذا الممر شمالا إلى صحن الرباط .

Creswell, a. short account, p. 232 (١)

والصحن مستطيل الشكل ، طوله من الشرق إلى الغـــرب ٢٠,٤٠ مترا ، وعرضه من الشمال إلى الجنوب ١٩,٢٠ مترا . ويحيط بالصحن من جهاته الشمالية والشرقية والغربية أروقة تطل عليه ببوائك ، عقودها قائمة على دعائم . ووراء هـذه البوائك غرف لا نوافذ لهـا ، سقفها قبوات نصف أسطوانية ، ويتراوح اتساع الغرفة الواحـدة ما بين ٣,٥٠ مترا ، ٣,٦٠ مترا ، باستثناء غرف الجانب الشرقى التى لا يزيد اتساع الواحـدة منها على ثلاثة أمتار . ويعلو هذا الطابق من الغرف طابق ثان مشابه للطابق الأرضي ولا يختلف عنه إلا فى أن مجنبات الصحن حل محلها سطح ارتفاعه من مستوى سطح أرض الصحن نحو ٥,٣٠ مترا (١) . ويشغل الجانب الجنوبى من هذا الطابق مسجد صغير طوله من الداخل ٣٩ مترا ، وعرضه ٧ أمتار. ويتألف هذا المسجد من ١١ بلاطة عمودية على جدار القبلة تمتـد على أسكوبين . ونلاحظ أن البلاطتين المتطرفتين أكثر اتساعا من بقية البلاطات. ويتوسط المحراب جدار السور الجنوبى للرباط ، وترتفع أمام المحراب قبة ، تبدو من الخارج بارزة (٢). وللمسجد خمسة أبواب مفتوحة فى الجدار المواجـــه لجدار القبلة: اثنان عن يمين الشخص المواجه للمحراب، وثلاثة عن يساره، ولم يفتح فى هذا الجدار باب يواجه المحراب (٣) . أما المنـار فاسطواني الشكل ، قدره نحو ٤,٧٢ مترا ، وارتفاعه فوق مستوى سطح ممشى السور ١٥,٣٨ مترا (٤) .

---

(١) Creswell, a short account of early Muslim architecture, p. 231

(٢) Marçais, l'architecture, p. 31

(٣) فكرى ، مساجد القاهرة ومدارسها ، ص ٢٥٣

(٤) Creswell, op. cit. p. 232

٢ ـ رباط المنستير :

كانت المنستير ميناء يقع بين سوسة والمهدية ، وكانت فى الأصل رباطا أو قصرا يرابط فيه المسلمون لحماية ثغور إفريقية من الغارات البحرية التى كان يقوم بها الروم . بناه هرثمة بن أعين والى إفريقية من قبل الرشيد فى سنة ١٨٠ هـ (١) . ومنذ تأسس هذا القصر انتجعه الناس وبنوا بيوتهم حوله حتى أصبح قصر المنستير مدينة عامرة كثيرة السكان . وقد وصف البكرى هـذا الرباط أو القصر بقوله : « وبالمنستير البيوت والحجر والطواحـين ومواجل الماء ، وهو حصن عالى البناء ، متقن العمل ، وفى الطبقة الثانية منه مسجد لا يخلو من شيخ خير فاضل يكون مدار القوم عليه ، وفيه جماعة من الصالحين والمرابطين ، قد حبسوا أنفسهم فيه منفردين دون الأهل والعشائر . وهو قصر كبير عال ، داخله ربض واسع ، وفى وسط الربض حصن ثان كبير ، كثير المساكن والمساجد والقصاب العالية . طبقات بعضها فوق بعض ، وفى القبلة صحن فسيح ، فيه قباب عالية متقنة ، ينزل حولها النساء المرابطات وله فى يوم عاشوراء موسم عظيم ومجمع كبير ، وكان أهل القيروان يخرجون إليهم بالأموال والصدقات الجزلة . وبقرب المنستير محارس خمسة متقنة البناء ، معمورة بالصالحين » (٢) .

من هذا الوصف يتضح لنا أن هذا الرباط أضيف إليه فى العصور التالية إضافات كثيرة عقدت تخطيطه الأصلى ، وغيرت معالمه ، ومع ذلك فانه

---

(١) ابن عذارى ج ١ ص ١١٠ ـ ابن الأثير ج ٥ ص ٩٦ ـ ابن خلدون ج ٤ ص ٤١٧ ـ ابن الخطيب ، ص ١١

(٢) البكرى ، ص ٣٦ ـ ابن الخطيب ، ص ١١ ، حاشية رقم ٢

يمكننا أن نتعرف على العناصر الأساسية لهذا الرباط . كان السور محاطا بأبراج مستديرة أو كثيرة الأضلاع ، ويحيط بالصحن الفسيح من جهاته الثلاثة الشمالية والغربية والشرقية طابقان أو ثلاثة من الغرف التى لاتتقدمها بوائك تطل على الصحن على نحو النظام المتبع فى رباط سوسة . ويرتفع فى الركن الجنوبى الشرقى برج أسطوانى الشكل ، يشبه نظيره فى رباط سوسة. ويشغل الجانب القبلى بالطابقين الأدنى والأعلى مسجدان ، الأدنى منهما بسيط فى تخطيطه ، إذ يتكون من ثلاث بلاطات وأسكوبين . أما العلوى فيشتمل على تسع بلاطات وأسكوبين . وتقوم العقود التى تتكىء عليها القبوات نصف الأسطوانية ، والعقود الأخرى المنخفضة التى تفصل بين البلاطات على دعائم مطولة [1] .

٣ ـ سور سوسة :

يذكر المؤرخون أن الأمير أبو ابراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب بنى سور سوسة فى سنة ٢٤٥ هـ [2] ، ويؤكد هذا التاريخ النقش المسجل على السور القبلى من أسوار سوسة . وأسوار سوسة مبنية من الحجر المصقول، ويعلوها جدار مشرف الذروة لحماية ممشى السور . ويدعم الأسوار من الخارج أبراج ضخمة تتجاوز فى ارتفاعها مستوى ممشى السور بنحو أربعة أمتار ؛ وفى الزاوية الجنوبية الغربية من أسوار سوسة ، وهى أكثر مناطق سوسة ارتفاعا ، ينتصب برج مرتفع ، يسميه البكرى منار خلف الفتى ،

---

(١) Marçais, l'architecture Musulmane, p. 32

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ص ٢٣

وهو برج مربع الشكل كالصوامع يعلوه برج أقل حجما ، ويشغله من الداخل أربع غرف تعلو الواحدة منها الأخرى ، السفلى منها مسقوفة بقبوة نصف أسطوانية ، والغرفة الثانية التى تعلوها تسقفها قبوة متعارضة ، أما الثالثة فسقفها قبوة نصف أسطوانية ، والغرفة الرابعة تتكون من أربع قبوات متعارضة تقوم على عقود مصلبة . ويبلغ ارتفاع هذا البرج ما يزيد على ثلاثين مترا (١) .

٤ — سور سفاقس :

يذكر اليعقوبي أن سفاقس مدينة على ساحل البحر ، يضرب البحر سورها (٢) . هذا السور الذى شاهده اليعقوبي فى عهد الأمير ابراهيم بن أحمد ، أقيم فى عصر هذا الأمير من التراب واللبن ، ثم رمم بعد ذلك بالأحجار. ويتألف من ستارة مبنية من الحجر المصقول، وقطع من الحجارة غير المهذبة ، ويدعم السور أبراج مستطيلة الشكل ، مستديرة الرؤوس ، وبعضها مضلع (٣) .

ثالثا — العمارة المدنية :

١ — مدينة العباسية (القصر القديم) :

أسسها ابراهيم بن الأغلب فى سنة ١٨٥ هـ ، وتقع على بعد ثلاثة أميال .

---

(١) Marçais, op. cit. p. 36

(٢) اليعقوبى ، ص ٣٥٠

(٣) Marçais, l'Architecture Musulmane p. 36

جنوبي القيروان(١)، ويبدو أن سبب بناء ابن الأغلب لهذه المدينة ، يرجع إلى أن سكان القيروان بما كانوا يتصفون به من تدين وورع ، أبدوا سخطهم على الامير لإقباله على الخمـر وانغماسه فى حيـاة اللهو والملذات ، فاضطر ابن الأغلب إلى إقامة هذه المدينة للاستمتاع بالحياة بعيدا عن أنظار رعيته، فلا يناله شيء من تقريع فقهائهم وانتقادهم لسلوكه . وقد يكون قد اتخذ هـــذه المدينة تقليدا للخلفاء الأمويين والعباسيين فى اتخاذهم القصور خارج عواصمهم ، أو إشبـاعا لرغبته فى الظهور بمظهر العظمة والأبهة . ولقد اشترى ابن الأغلب لهذا الغرض أرضا من بنى طالوت ، وبنى قصرا للامارة ، نقل إليه السلاح والعـــدد سرا ، وأسكن حوله عبيده وفتيانه ومواليه ، وأهل الثقة من خدمه (٢) ، وسمى بالقصر القديم بالنسبة لقصر رقادة الذى بناه ابراهيم بن أحمد فى سنة ٢٦٤هـ(٣) ، وعرف بالقصر الابيض ربما لبياض لون جدرانه . ولقد أطلق ابراهيم بن الأغلب على هذه المدينة اسم العباسية ، إمعانا فى إظهار ولائه للعباسيين (٤) . وفى هذه المدينة استقبل الأمير رسل شارلمان إليه سنة ١٨٥ هـ عندما قدموا لنقل رفات القديس سان سيبرين (٥) . وظلت هـــذه المدينة دارا للامارة فى عهد خلفاء ابراهيم بن الأغلب ، وأسس فيها زيادة الله بن ابراهيم القصور والمنيـات ، وحصنها

---

(١) ابن عذارى ، ص ١١٧ — ويذكر اليعقوبى أنها تقع على ميـلين من القيروان (البلدان ص ٣٤٨)

(٢) نفس المرجع، ص ١١٧

(٣) نفس المرجع، ص ١٠٤

(٤) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة العباسية

(٥) Marçais, l'Architecture Musulmane, p. 26

٢٠١ هـ (١) . كذلك أقام الأمير أبو الغرانيق محمد بن أحمد في العباسية ، وكان نزقا مبذرا ، شغوفا باقتناص الطير ، وكان له برج في موضع منها يعرف بالساحلين يستطيع فيه أن يركن إلى هوايته المفضلة . وكان لمدينة القصر القديم جامع له صومعة مستديرة مبنية بالآجر والعمد سبع طبقات لم ير أجمل منها (٢) .

اتسعت العباسية ، وأصبحت مدينة كبيرة مسورة ، وكان ينفتح فيها خمسة أبواب، منها بابا الرحمة والحديد في السور القبلي ، وبابا غلبون والريح في السور الشرقي ، وباب السعادة في السور الغربي (٣) . وقد أقيم في المدينة كثير من المنشآت من حمامات وفنادق وأسواق ومواجل ، ويذكر البكري أيضا أنه كان يتوسطها ميدان فسيح ، أقيم تجاهه قصر يعرف بالرصافة . ولما كانت سنة ٢٦٤ هـ هجر الأغالبة مدينة القصر القديم وانتقلوا إلى مدينة جديدة هي مدينة رقادة . وقد آل مصير القصر القديم إلى الهدم والتخريب ، ولكن موقعه مازال معروفا حتى اليوم . ولقد أجريت على طول الجانبين الشمالي والغربي من الأطلال حفائر أثرية في سنة ١٩٢٣ ، أسفرت عن كشف بعض الغرف الصغيرة ، كما كشفت عن بعض القبوات والمخازن المنقورة في باطن الأرض (٤)

(١) ابن عذارى ، ص ١٢٣

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة قصر قيروان ، مجلد ٤ ص ٣٦٢

(٣) البكري، ص ٢٥

(٤) Marçais, l'architecture musulmane, p. 27

٢ ـ رقادة :

تقع رقادة على بعد ثمانية أميــــال جنوبى القيروان ، وهى الحاضرة الأغلبية الثانية ، شرع ابراهيم بن أحمد فى تأسيسها سنة٢٦٣ هـ ، وتم تأسيسها فى سنة ٢٦٤هـ ، وأصبحت رقادة منذ ذلك التاريخ مقر أمراء بنى الأغلب حتى انقراض دولتهم . ويصفها البكرى بقوله : « وأكثرها بساتين ، وليس بافريقية أعدل هـواء ، ولا أرق نسيما ، ولا أطيب تربة من مدينة رقادة وسميت رقادة لأن الأمــير إبراهيم أرق يوما ، وشرد الكرى عن جفنيه ، فلم ينم ، وأمر بالخروج والسير ، فلما وصل إلى هذا الموضع نام ، فسمى رقادة ... والذى بنى رقادة واتخذها دارا إبراهيم بن أحمــــد بن محمد بن الأغلب ، انتقل إليها من مدينة القصر القديم ، وبنى بها قصورا عـديدة ، وجامعا ، وعمرت بالأسواق والحمامات والفنادق » (١) ، وكان من قصورها قصر بغداد ، والمختار ، والفتح ، وقصر البحر ، وقصر العروس ، وقصر الصحن . وكان يحيط برقادة سور من الآجر واللبن أصلحه الأمير زيادة الله الثالث حتى يتحصن فيها عند محاصرة أبى عبد الله الشيعى لها .

ولم تزل هذه المدينة بعـد ذلك دار ملك بنى الأغلب حـتى هرب منها زيادة الله الثالث أمام زحف قوات أبى عبد الله الشيعى ، فاحتلها عبيد الله المهدى ، وأقام فى قصر الصحن برقادة حتى سنة ٣٠٨ هـ ، ثم انتقل بعد ذلك إلى المهدية . ثم فقدت رقادة بالتدريج مكانتها القديمة ، وأخذ الخراب يدب فى قصورها وديارها ، حتى تولى معد بن اسماعيل الخلافة الفاطمية ، فهدم

(١) البـكرى ، ص ٢٧

ماتبقى منها ، وأصبحت رقادة محجرا تستخرج منه مواد البنـاء فى العصور التالية . وقد تبقى منهـا اليوم آثار حوض ، لعله حوض القصر المعروف بقصر البحر (١) .

٣ ـ المواجل والخزانات والقناطر :

اهتم خلفاء بنى أمية ، وعلى الأخص هشـام بن عبد الملك ، بالمنشآت الخاصة بالأعمال المائية والخزانات والمواجل فى إفريقية اهتماما كبيرا ، فلما استقلت أسرة بنى الأغلب بافريقية ، حرص أمراؤها عـــلى زيادة هذا الاهتمام باقامة هذه المنشآت ووجهوا إليهاعناية خاصة. ويعتبر أبو إبراهيم أحمد أكثر بناة هذه الأسرة نشاطا ، ويتجلى هذا النشاط فى بنائه لمواجل القيروان والقصر القديم . ويذكر ابن الخطيب ، أن بنـاءه للماجل الكبير بباب تونس فى القيروان كان أعظم حسنة قام بها هـذا الأمير (٢) . وقد كان قد شرع فى بنائه سنة ٢٤٥ هـ وأتمه فى سنة ٢٤٨ هـ (٣) . ويروى أنه اعتل أثناء اتخاذ الماجل بالقصر القديم ، « فكان يسأل : هل دخله المـاء ؟ إلى أن دخـــله الوادى فعرفوه بذلك فسر به ، وأمرهم أن يأتوه بكأس مملوءة منه فشربها ، وقال : الحمد لله الذى لم أمت حتى تم أمره ، ثم مات على أثر ذلك » (٤) .

وكانت مياه المطر والسيول تسيل فى أودية ، وتصب فى المواجـل ،

---

(١) راجع التفصيلات فى : Marçais, op. cit. p. 28

(٢) ابن الخطيب ، ص ٢٣

(٣) ابن عذارى ، جـ ١ ص ١٤٨

(٤) ابن الخطيب ، ص ٢٤

وهى برك عظيمة منها كان يشرب أهل القيروان (١) . وكان بالقيروان فيما يذكره البكرى ١٥ ماجلا ، وكانت هـــذه المواجل مستديرة الشكل ، تكسو سطوحها طبقة من الملاط شديد الصلابة ، كما أنهـا كانت تحاط من أعلى بسور يدعمه من الداخل أو من الخارج أو منهما معا ركائز . وكان الماجل يسبقه أحيانا ماجـل أصغر حجما يترسب فيـه الطمى الذى تحمله القنوات ، أو يتصل فى بعض الأحيان بخزان فى جوف الأرض توزع منه المياه للسقيا . وكانت المواجل تزود بالمياه عن طريق جداول تجرى نحـو المواجل بواسطة قناطر أو جسور ، أو بواسطة تجميع مياه العيون (٢).

ويصف الإدريسى الماجل الكبير بالقيروان بأنه « من عجيب البنـاء ، لأنه مبنى على تربيع ، وفى وسطه بناء قائم كالصومعة ، وذرع كل وجـه منه مائتا ذراع ، وهـــو مملوء كله ماء » (٣) . ويصف البكرى الماجل الكبير بالقيروان ، فيذكر أنه مستدير الشكل ، عظيم الاتساع ، يتوسطه برج مثمن الشكل، يعلوه مجلس له أربعة أبواب، وبأعلاه قبة يحملها ١١ عمودا. وبجوار هذا الماجل مباشرة ، وفى الجهة الشمالية منه ماجل آخر أقل اتساعا، يعرف بالفسقية ، يتلقى مياهه من الوادى (٤) عند جريانهـا ، فيخفف من سرعتها . وعندما يمتلىء بالمياه حتى ارتفاع قامتين ، تتدفق فى الماجل الكبير عن طريق فتحة يسميها الصرح . وكان زيادة الله الثالث قد أنشأ مركبا

---

(١) اليعقوبى ، ص ٣٤٨

(٢) Marçais, l'architecture, p. 38

(٣) الادريسى ، ص ١١٠

(٤) يسمى هذا الوادى وادى مرج الليل (Creswell, op. cit. p. 291

لهذا الماجل سماه الزلاج ، وقدم من تونس إلى القيروان فى سنة ٢٩٢ هـ ونزل فى مجلس الماجل الكبير (١) . ويذكر الأستاذ مارسيه أن ماجل القيروان الكبير ليس دائريا ، وإنما هو متعدد الضلوع ، تصل عدد ضلوعه إلى ٤٨ ضلعا، تؤلف مايقرب من الدائرة قطرها ١٢٨ مترا ، وكل زاوية من هذا الضلع ترتكز على ركيزة مزدوجة من الداخل والخارج ، وفى وسطه تنتصب قاعدة من البناء مربعة الشكل ، يلصق كل وجه منها دعامة أسطوانية ، وكانت هذه القاعدة تحمل مجلسا كان يقيم فيه الأمير للراحة .
أما الماجل الآخر فمتعدد الأضلاع ، من ١٧ ضلعا، ويصل بين الماجلين فتحة نصف دائرية تقع على عدة أمتار من القاع . وللماجل الصغير ١٧ ركيزة داخلية تكتنف الأركان ، و ٢٨ ركيزة خارجية تكتنف الأركان الخارجية بالاضافة إلى منتصف كل ضلع. ونلاحظ أنه يقابل كل ركيزة تتوسط الأضلاع من الخارج جوفة من الداخل . وما زالت المياه تملأ الماجل القيرواني فى الوقت الحاضر ، بينما جفت مياه ماجل رقادة (٢) . وإذا كانت المواجل هى أحواض مكشوفة للهواء ، فقد كانت هناك خزانات جوفية للمياه أو جباب تحفظ فيها مياه الأمطار ، وأكبرها جب السفرة فى سوسة ، ويرجع تاريخ إنشائه إلى هذا العصر . ويتألف من ست بلاطات تعلوها قبوات نصف أسطوانية ، تفصلها عن بعضها عقود نصف دائرية قائمة على دعائم ضخمة ارتفاعها يتجاوز ستة أمتار. وكانت للأربطة والمحارس جباب من هذا النوع لتوفير المياه لنزلائها من الصالحين والمجاهدين . وتشبه هذه الجباب جب

---

(١) ابن عذارى ج ١ ص ١٨٩

(٢) Marçais, op. cit. p. 38

المياه بمدينة الرملة ، وهو الجب المعروف ببئر العنزية ، الذى أقيم فى سنة ١٧٢هـ فى عهد الخليفة العباسى هارون الرشيد (١) .

كذلك اهتم الأغالبة بانشاء القناطر على الوديان ومجارى المياه لعبور السابلة والمسافرين إلى الطرق المؤدية إلى القيروان . ويؤثر عن زيادة الله ابن ابراهيم أنه بنى قنطرة أبي الربيع (٢) ، وتقع خارج باب أبي الربيع جنوبي مدينة القيروان ، حيث يبدأ الشارع الرئيسى فى مدينة القيروان وهو الشارع المخصص لجميع المتاجر والصناعات(٣). ولكن هذه القنطرة تثلمت على أثر سيل سنة ٢٤٢هـ ، فأمر الأمير أبو ابراهيم أحمد باصلاحها ، فكمل ذلك فى سنة ٢٤٨ هـ (٤) .

---

(١) Marçais, l'architecture musulmane, p. 39 - Creswell, a short account, p. 230

(٢) ابن عذارى ، جـ ١ ص ١٣٨

(٣) البكرى ، ص ٢٥

(٤) ابن عذارى ، ص ١٤٨

الفصل السادس

دولة الأدارسة بفاس

(١) قيام دولة الأدارسة

ا ـ ادريس بن عبد الله بن الحسن مؤسس دولة الأدارسة

ب ـ إمامة إدريس الثانى

(٢) خلفاء إدريس الثاني حتى سقوط فاس فى أيدى الفاطميين

ا ـ تقسيم دولة الأدارسة فى إمامة محمد بن إدريس

ب ـ خلفاء محمد بن إدريس

(٣) مدينة فاس حاضرة الأدارسة

ا ـ مشكلة تاريخ تأسيس فاس

ب ـ تاريخ مدينة فاس منذ تأسيسها حتى نهاية عصر بنى مرين

١ ـ فاس فى عصر الأدارسة

٢ ـ فاس فى عصر بنى موسى بن أبي العافية

٣ ـ سيطرة زناتة على فاس وموالاتها لخلفاء بنى أمية بقرطبة

٤ ـ فاس فى ظل دولتى المرابطين والموحدين

٥ ـ فاس عاصمة بنى مرين

جدول بالأئمة الأدارسة

(١) إدريس بن عبد الله

(٢) إدريس بن إدريس

داود | ادريس | عيسى | القاسم | (٣) محمد | عمر | أحمد | حمزة | يحي | عبد الله | جعفر | عبيدالله

محمد (٨) يحي (٥) يحي (٤) علي (حيدرة) (٧) علي إدريس

(١٠) الحسن (٦) يحي (٩) يحي

الفصل السادس

دولة الأدارسة فى فاس

(١)

قيام دولة الأدارسة

١ ـ ادريس بن عبد الله بن الحسن مؤسس دولة الأدارسة :

فى سنة ١٤٥ هـ خرج محمد بن عبد الله بن الحسن بن حسن (السبط) بن على بن أبى طالب ، المعروف بالنفس الزكية ، فى الحجاز على أبي جعفر المنصور ، مطالبا بحقه فى الخلافة ، فأجمع أهل الحجاز على نصرته ، واستولى على المدينة [١] ، ثم تغلب على مكة ، وجرت بينه وبين المنصور رسائل طويلة فى أحقية كل منهما بالخلافة ، أوردها ابن الأثير [٢] ، والطبرى [٣] وابن خلدون [٤] . ثم بعث محمد أخاه ابراهيم إلى البصرة لنشر دعوة محمد ابن عبد الله بن الحسن فى العراق ، فتغلب ابراهيم على البصرة والاهواز وفارس [٥] . وكان محمد قد استعمل محمد بن الحسن بن معاوية بن عبد الله على مكة ، والقاسم بن اسحق على اليمن ، وموسى بن عبد الله على الشام . ولما بلغ

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ، ص ٢ ـ ٨

(٢) نفس المرجع ، ص ٥ ـ ٧

(٣) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، طبعة القاهرة ١٣٣٦ هـ ، ج ٩ ص ٢١٢

(٤) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٦ ـ ١٢

(٥) نفس المرجع ، ج ٤ ص ٦

المنصور خروج محمد بن عبد الله بن الحسن سير جيشا بقيادة أخيه عيسى ابن موسى إلى المدينة ، لمقاتلة محمد ،والقضاء على حركته . فخندق محمد بن عبد الله على نفسه فى المدينة ، ولكن أهل المدينة تخلوا عنه ، وبقى فى شرذمة قليلة من الناس ، وظل يقاتل جنود عيسى بن موسى حتى استشهد فى ١٤ رمضان سنة ١٤٥ هـ . وكان محمد بن عبد الله بن الحسن قد بعث إلى محمد بن الحسن، عامله على مكة،والقاسم بن إسحاق يأمرهما بالمسير إليه لنجدته. فقدما، ولكنهما علما فى نواحى قديد بمقتله ، فلحق محمد بن الحسن بابراهيم بن عبد الله فى البصرة ، أما القاسم فقد اختفى فى المدينة حتى استؤمن ، وأما موسى بن الله فقد فشل فى دعوته بالشام ، وعاد إلى المدينة [1] ، وأما ابراهيم بن عبد الله فقد بادر الخليفة بمحاربته ، فاشتبك أنصاره مع جيش المنصور بقيادة عيسى بن موسى فى باخمرى (بين الكوفة وواسط) فى قتال عنيف ، انتهى بهزيمة ابراهيم ومقتله فى ٢٧ ذى القعدة سنة ١٤٥ [2].

ولم تفت هذه الهزائم المتوالية فى عضد العلويين ، فقد أخذوا ينتظرون الفرصة المواتية للوثوب على الخلافة العباسية ، فلما توفى المنصور ، وآلت الخلافة العباسية إلى الهادى بن المهدى ، خرج العلويون بمكة والمدينة بزعامة الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن على ذى القعدة سنة ١٦٩هـ بسبب سوء معاملة عمر بن عبدالعزيز بن عبد الله بن عمر، عامل المدينة من قبل الهادى، لهم[3]. وبويع الحسين بالخلافة فى المدينة، وأقام بها ١١يوما ، ثم سار

(١) ابن الأثير ، جـ ٥ ص ٧

(٢) نفس المرجع ص ٢٠ ـ السلاوى ، الاستقصا جـ ١ ص ١٥١

(٣) محمد بن على بن طباطبا ، كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية، طبعة بيروت ١٩٦٠ ص ١٩٠ ـ ابن الأثير ج ٥ ص ٧٥ ـ السلاوى ج ١ ص ١٥١

إلى مكة ، فالتقى مع الجيش العباسى بقيادة سليمان بن المنصور بفخ ، وهو وادى فى طريق مكة ، يبعد عنها بنحو ستة أميال ، فانهزم العلويون هزيمة نكراء ، وقتل فى هذه الواقعة معظم أصحابه . وكان قد اشترك فى القتال مع الحسين عماه إدريس بن عبد الله بن الحسن ، ويحيى ، ونجح إدريس فى الإفلات مـــع المنهزمين من بنى حسن (١) ، فاستتر بعض الوقت ، وألح العباسيون فى طلبه ، « فخرج به راشد ، وكان عاقلا ، شجاعا ، أيدا ، ذا حزم ولطف ، فى جملة الحاج ، منحاشا عن الناس ، بعد أن غير زيه ، وألبسه مدرعة وعمامة غليظة ، وصيره كالغلام يخدمه ، وإن أمره ونهاه أسرع فى ذلك ، فسلما حتى دخلا مصر ليـلا » (٢) . ويختلف المؤرخون فى رواية الطريقـة التى تمكن بواسطتها من الوصول إلى المغرب الأقصى سالما ، فالبكرى ذكر أنهما مرا فى مصر بدار مشيدة ، يدل ظاهرها على نعمة أهلها ويسارهم ، فجلسا فى دكان على باب الدار ، فرآهما صاحبها ، فعرف من لهجتهما أنهما من الحجاز ، فأخذ عليه راشد موثقا أن يقوم بأحـد أمرين : إما إيوائهما أو التستر عليهما . ففعل ، فأخـبره بخبر إدريس ، وقال له : « هذا إدريس بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبي طالب ، خرج من موضعه مع حسين بن على ، فسلم من القتل ، وقد جئت به ، اريد بـلاد البربر ، فانه بلد ناء لعله يؤمن فيه ، ويعجز من يطلبه » ، فأدخلهما الرجل واختبأ عنده فترة من الوقت إلى أن تهيـــأ لبعض أصحابه الخروج إلى إفريقية ، فاكترى لهما جملا ، وزودهما وكساهما ، واتفق معهما على أن يسير هو مع إدريس فى طريق غامضة غير طريق القوافل المارة بمسالح مصر ،

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٧٦ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٣

(٢) البكرى ، ص ١١٨

خشية أن يكتشف أمر إدريس عند تفتيش المسافرين ، ويمضى راشد مع القافلة ، فيلتقيان فى موضع قريب من إفريقية ، ورحل الرجل مع إدريس حتى حدود إفريقية ، ومن هناك اخترقا بلاد البربر حتى انتهيا إلى بلاد فاس وطنجة (١) أما بقية المؤرخين فيتفقون على أنهما نزلا بمصر ، وكان على بريدها واضح مولى صالح بن المنصور ، ويعرف واضح هذا بالمسكين ، وكان يتشيع لعلى ، وبلغه وصول إدريس إلى مصر ، فأتاه إلى الموضع الذى كان مستخفيا به ، وساعده على الفرار إلى المغرب ، فحمله على البريد إلى المغرب الأقصى هو ومولاه راشدا ، فنزلا بوليلى من أعمال طنجة (٢) .

ونعتقد أن هذه الرواية الثانية أقرب إلى الحقيقة ، فرواتها ابن الأثير وابن خلدون أولى بالثقة ، وبدليل أن الهادى عندما بلغه الدور الذى قام به واضح أمر بضرب عنقه وصلبه (٣) ، ثم أنه من المنطقى ألا يبوح راشد بسر إدريس فى مصر إلا لرجل من دعاة الشيعة ، وأغلب الظن أنهما كانا يعرفان واضحا قبل ذلك فنزلا عنده ، وتحايل هو على مساعدتهما فى النجاة إلى أرض المغرب .

ويذكر ابن أبي زرع أن إدريس ومولاه راشدا وصلا إلى القيروان (٤) ، فأقاما بها فترة من الوقت ثم خرجا إلى المغرب الأقصى ، « فعمد إلى إدريس

---

(١) المرجع السابق ، ص ١١٩

(٢) ابن عذارى ، جـ١ ص ١٠١ — ابن الأثير ، جـ ٥ ص ٧٦ — ابن خلدون ، ص ٢٤ — الجزناءى ص ٩ — الاستقصا ، جـ ١ ص ١٥٢ .

(٣) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٧٦

(٤) اتفق وصول ادريس الى افريقية فى ولاية يزيد بن حاتم .

حين خرج من القـــيروان فألبسه مدرعة صوف خشنة ، وعمـامة غليظة وصيره كالخادم له ، يأمره وينهاه ، كل ذلك خوفا عليه وحياطه له ، فـلم يزالا على ذلك حتى وصلا إلى مدينة تلمسان ، فاستراحا بها أياما ، ثم ارتحلا عنها نحو بلاد طنجة . فسارا حتى عبرا وادى ملوية ، ودخلا بلاد السوس الأدنى وحده من وادى ملوية إلى وادى أم الربيـع ، وهو أخصب بلاد المغرب ، وأعظمها بركة ، والسوس الأقصى من جبل درن إلى وادى النون ، فسار إدريس ومولاه راشد حتى نزلا بمدينة طنجـة ، وهى يومئذ قاعدة بلاد المغرب ، وأم مدنه ، إذ لم يكن بالمغرب مدينة أعظم ولا أقدم منهـا فلما وصل إدريس إلى مدينة طنجة أقام بها أياماً ، فلم يجـد بهـا مراده ، فرجع مع مولاه راشد حتى نزل مدينة وليلى قاعدة جبل زرهون »٢ .

نزل إدريس بمدينة وليلى فى غرة ربيع الأول سنة ١٧٢هـ ، فنزل على إسحق ابن عبد الله الأوربي ، أمير أوربة وكبيرهم فى هذا الوقت ، فأجاره وأكرمه فأقام عنده زهاء ستة أشهر تمكن خـلالها من نشر دعوته . وتمكن بفضل فصاحة لسانه وبلاغته من التأثير فى نفوس البربر ، خاصة بعد أن عرفوا قرابته من الرسول ، فاجتمعت عليه قبائل أوربة ومغيلة وصدينة ، وتبعتها قبـــائل زناته وهى زواوة لواتة وسدراته ونفزة ومكناسة وغمارة ، وبايعـــوه بالإمامة ، وتمكن إدريس من تأليف جيش كبير غزا به بلاد تامسنا ، فافتتح شالة وسائر حصون تامسنا ، حتى وصل إلى تادلا ، فافتتح حصونها ، ثم بلغ ماسة (٢) . وكان أكثر سكان هـذه البـلاد على دين

(١) Lévi - Provençal, Extraits des historiens arabes du Maroc, Paris, 1948, p. 16, 17

(٢) الجزنائى ، ص ٩

النصرانية واليهودية والمجوسية، ولم يكن الإسلام قد انتشر بعد فى أنحائها(١) وعاد إدريس بعد هذه الغزوة إلى وليلى فى ذى الحجة سنة ١٧٢ هـ، فأراح عسكره، فى شهر محرم ١٧٣ هـ، ثم خرج للغزو مرة ثانية، فغزا حصون فندلاوة وحصون مديونة وبهلولة، وقلاع غياثة وبلاد فازاز، ثم عاد بعد ذلك إلى وليلى فدخلها فى منتصف جمادى الآخرة سنة ١٧٣ (٢) هـ. وأقام بوليلى بقية شهر جمادى الآخرة، ونصف رجب التالى، ريثما استراح جنده ثم خرج فى منتصف رجب برسم غزو مدينة تلمسان، ومحاربة من بها من قبائل مغراوة وبنى يفرن الخوارج، فحاصرها، فخرج إليه صاحبها محمد ابن خزر الزناتي مستأمنا وبايعه، وبايعته قبائل البربر، فقبل إدريس بيعتهم ودخل تلمسان، وبنى فيها مسجدا، ثم عاد إلى وليلى (٣).

وعلى هذا النحو تمكن إدريس من إقامة إمارة قوية بالمغرب الأقصى، واتصل بالرشيد ما بلغه إدريس فى المغرب من دخول البربر فى طاعته وافتتاحه مدن المغرب الأقصى بسيفه، وأبلغ بحزمه وقوته، فعظم عليه الأمر، وخاف أن يقضى الأدارسة بفضل دعوتهم على النفوذ العباسى فى إفريقية وطرابلس، كما خاف أن يمتد نفوذهم إلى مصر، ولا شك أن اصطناع إدريس بن عبدالله بن الحسن لسياسة الغزو المسلح فى نواحى تامسنا وتادلا وتلمسان، يعبر عن رغبته فى التوسع ومد نفوذه على المغرب كله. وكان لذلك صدى عميق فى المشرق الإسلامى، وأصبح الخليفة العباسى قلقا

---

(١) ابن الخطيب، ص ١٩٢ — ابن خلدون، ج ٤ ص ٢٤ — الجزنائى ص ١٠

(٢) السلاوى ج ١ ص ١٥٦

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ٢٥ — ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثالث ص ١٩٢ — السلاوى ج ١ ص ١٥٧.

على مصير المغرب الإسلامي ومصر [1] ، ففكر في اللجوء إلى السيف في القضاء على الدولة الإدريسية الناشئة ، ولكن الأمر لم يكن من السهل على الخلافة إلى هذا الحد ، فالنفوذ العباسي الفعلي لم يكن يتجاوز حدود مصر الغربية ، فاضطر الرشيد إلى استشارة يحيى بن خالد البرمكي ، « وأخبره بأمر إدريس ، واستشاره فيه ، وقال له : إنه ولد علي بن أبي طالب ، وابن فاطمة بنت النبي صلعم وقد قوي سلطانه ، وكثرت جيوشه وعلا شأنه . واشتهر أمره واسمه ، وفتح مدينة تلمسان ، وهو باب إفريقية ، ومن ملك الباب يوشك أن يدخل الدار ، وقد عزمت على أن أبعث له جيشا عظيما لقتاله ، ثم إني فكرت في بعد البلاد ، وطول المسافة ، وتنائي المغرب عن المشرق ، ولا طاقة لجيوش العراق على الوصول إلى السوس من أرض المغرب ، فرجعت عن ذلك ، وقد هالني أمره ، فأشر علي برأيك فيه (٢) » فأشار عليه يحيي بأن يبعث إلى إدريس رجلا تتوفر فيه صفات الذكاء والمكر والدهاء مع البلاغة والجرأة ليغتاله ، ووقع اختيار يحيي على سليمان بن جرير (٣) ، وقيل سليمان بن جدير (٤) ، وقيل سليمان ابن حريز (٥) ويعرف بالشماخ (٦) وكان هذا الرجل من أهل

---

(١) ذكر صاحب روض القرطاس ، أن الرشيد أخبر بعزم ادريس « على غزو افريقية فخاف أن يعظم أمره ، فيصل اليه ، لما يعلم من فضله وكماله ، ومحبة الناس في أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فاغتم لذلك غما شديدا ، وعظم عليه شأنه »

(أنظر نص روض القرطاس في Lévi - Provençal , Extraits des historiens arabes, p. 18

(٢) نفس المرجع

(٣) نفس المرجع — الجزنائي ، ص ١٠

(٤) ابن الخطيب ، المرجع السابق ، ص ١٩٣

(٥) البكري ص ١٢٠ — ابن خلدون ص ٢٥

(٦) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٢٩٩

الشجاعة والدهاء والفصاحة ، وأخبره يحيى بالمهمة التي يعهد إليه بها ، ووعده برفعة المنزلة ، والصلات السنية ، وأعطاه أموالا جزيلة ، وتحفا مستطرفة ، وجهزه بما يحتاج إليه ، وأعطاه قارورة فيها غالية مسمومة ، ثم وجه معه رجلا يثق به وبشجاعته . فانطلق سليمان مع صاحبه من بغداد ، وهو يتظاهر بالطب ، وما زال يجد في السفر حتى وصل إلى وليلى . فاتصل بادريس ، فسأله عن اسمه ونسبه ووطنه وسبب قدومه إلى المغرب، فذكر له أنه من بعض موالي أبيه ، وأنه اتصل به خبرة ، فأتاه برسم خدمته ، بسبب محبته لأهل البيت ، فأنس اليه إدريس ، وسر به ، واتخذه صاحبا ونديما ، لا يجلس إلا معه ، ولا يأكل إلا إذا أكل معه ، إذ كان إدريس في هذا البلد البربري ، يحن إلى مجالسة العرب ومحادثتهم ، وكان سليمان هذا قد أبدى من العلم والأدب والبلاغة والجدال ما جعل إدريس يرفعه إلى تلك المنزلة (١) ، وأخذ سليمان الشماخ يترصد فرصة لاغتيال إدريس بالسم ، فلم يتهيأ له ذلك ، إذ كان راشد لا يزايله ولا يفارقه ، وظل سليمان منتظرا إلى أن واتته الفرصة أخيرا بغياب راشد ذات يوم في بعض شؤونه ،فدخل سليمان بن جرير على المولى إدريس ، فألفاه وحده ، « فجلس بين يديه على عادته ، فتحدث معه مليا ، فلم ير لراشد أثرا ، فانتهز الفرصة واغتنم الخلوة فقال : ياسيدي جعلت فداك ،إني جئت من المشرق بقارورة طيب أتطيب بها، ثم إني رأيت هذه البلاد ليس بها طيب ، فرأيت أن الإمام أولى بها مني ،نخذها تتطيب بها،فقد آثرتك على نفسي،وهو من بعض مايجب لك علي ،ثم أخرجها

---

(١) ابن الخطيب، ص ١٩٣ — ابن أبي زرع من كتاب Extrits des historiens ص ١٩ — الجزنائي ، ١٠

من وعاء ، ووضعها بين يديه ، فشكره إدريس على ذلك ، ثم أخذ القارورة وشمها ، وتحصل بمراده منه ، فتمت حيلته فيه ، وجعل يده فى الأرض ، وخرج كأنه يريد قضاء حاجة الإنسان ، فسار إلى منزله ، وركب فرسا له من عتاق الخيل وسباقها ، كان قد أعدها لذلك . وخرج من مدينة وليلى يطلب النجاة ، وكانت القارورة مسمومة ، فلما انتشق إدريس الطيب صعد السم فى خيشومه ، وانتهى إلى دماغه ، فغشى عليه ، وسقط بالأرض على وجهه ، لا يفهم ولا يعقل ، ولا يعلم أحد ما به ولا ما أصابه » [١] . وقضى إدريس فى غشيته إلى عشى النهار ، فتوفى فى مستهل ربيع الآخر من سنة ١٧٧ هـ [٢] ، وقيل فى سنة ١٧٥ هـ (٣) . وانتبه راشد مولى إدريس إلى غياب الشماخ ، فعلم أنه سمه ، وكان سليمان الشماخ وصاحبه قد قطعا على فرسيهما أثناء ذلك مسافة طويلة ، فركب راشد فى طلبه مع جماعة من أصحابه حتى أدركه بوادى ملوية ، فضربه بسيفه ضربتين قطع بهما يده ، ولكنه لم يستطع أن يجهز عليه ، إذ كبا به فرسه ، ونجح الشماخ فى عبور الوادى واحتمى فى البربر (٤) . فأمن الشماخ من مطاردة راشد ، وعصب جراحه ، ووصل الى بغداد (٥) . فولاه الرشيد على بريد مصر [٦] :

---

(١) نص القرطاس من كتاب : Extraits des historiens, p. 20

(٢) نفس المرجع ـ الاستقصا ج ١ ص ١٥٩

(٣) البكرى ، ص ١٢١ ـ ابن عذارى ج ١ ص ٢٩٩ ـ ابن الأثير ، ج ٥ ص ٩٠ ـ ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٥ ـ القلقشندى ، ج ٥ ص ١٨٠ ـ الجزناءى ، ص ١١

(٤) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٥

(٥) البكرى ، ص ١٢١ ـ ابن عذارى ، ص ٢٩٩ ـ ابن الخطيب ، ص ١٩٥ ـ السلاوى ج ١ ص ١٥٩ .

(٦) البكرى ، ص ١٢١

وذكر بعض المؤرخين أنه سمه بوضع ذرور مسموم فى سن له موجوعة ، وقيل أنه سمه فى دلاعة (١) .

ودفن إدريس بخارج باب وليلى ، فى صحن رابطة ليتبرك الناس بتربته (٢) .

ب ـ امامة ادريس الثانى :

توفى إدريس بن عبد الله دون ولد ، ولكنه ترك جارية له من جارياته اسمها كنزة حاملا فى السابع من أشهر حملها ، فجمع راشد قبائل البربر ، وذكر لهم ، ما كان من أمر هذه الجارية ، فقالوا له : « أيها الشيخ المبارك، تقوم بأمرنا كما كان إدريس يفعل فينا حتى تضع الجارية ، فان وضعت غلاما ربيناه، وبايعناه تبركا بأهل البيت، بيت النبوة وذرية رسول الله ﷺ، وإن كانت جارية نظرنا لأنفسنا »(٣) . فقام راشد بأمرهم حتى وضعت كنزة فى ربيع الآخر سنة ١٧٥هـ (٤)، وكان غلاما أشبه الناس بأبيه إدريس، فأخرجه راشد إلى رؤساء البربر، فأعجبوا من شبهه الكبير بأبيه ، فقالوا : « هذا إدريس كأنه لم يمت » (٥) ، فسمى لذلك باسم أبيه ، وقام راشد مولاه بأمره ، وكفله الى أن فطن وشب ، فأحسن تأديبه ، وأقرأه القرآن ، وأحفظه إياه ، ولم يتجاوز إدريس من العمر بعد ثمان سنوات ، ثم علمه السنة والفقه وأشعار العرب وأيامهم ، وسير الملوك ، ثم دربه على ركوب الخيل ،

---

(١) البكرى ، ص ١٢١ ـ ابن الخطيب ، ص ١٩٤

(٢) الجزناءى ، ص ١١ ـ السلاوى ، ج ١ ص ١٥٩

(٣) ابن الخطيب ، ١٩٦ ـ السلاوى ، ج ١ ص ١٦٠

(٤) البكرى ، ص ١٢٢ ـ ابن الخطيب ، ص ١٩٦

(٥) ابن الخطيب ، ص ١٩٦ ـ السلاوى ج ١ ص ١٦٠

والمصاولة والمجاولة ، وإحكام الرماية بالسهام (١) . ولما تم إدريس من العمر عشر سنوات ، جدد له راشد البيعة ، بجامع وليلى فى أول شهر ربيع الأول سنة ١٨٦ هـ . ويذكر ابن خلدون أن ابراهيم بن الأغلب صرف همه إلى تمهيد المغرب الاقصى ، إذ ساءه استفحال أمر إدريس براشد . فلم يزل يدس الى البربر ، ويسرب فيهم الأموال ويستميلهم حتى قتلوا راشدا ، وسيق رأسه اليه (٢) ، وذلك سنة ١٨٦ هـ. وفى ذلك يقول ابراهيم ابن الاغلب يخاطب الرشيد ، ويكذب ادعاء محمد بن مقاتل العكي الذى نسب الى نفسه محاولة قتل راشد :

ألم ترني أهلكت بالكيد راشدا
وإنى لأخرى لابن إدريس راصد
وتاه أخوعك بمهلك راشد
وقد كنت فيه ساهرا وهو راقد (٣)

وتجمع معظم المصادر أنه قام بكفالة إدريس بعد مقتل راشد رجل اسمه أبو خالد بن يزيد بن الياس العبدى (٤). وذكر البكرى أنه جددت لإدريس

(١) المرجع السابق ـ الجزناءى ، ص ١٢٣

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٥ ، ٤٢٠

(٣) ابن الخطيب ، ١٩٧ ــ وأورد السلاوى نصا آخر لهذه الأبيات نقله عن عبد الملك ابن الوراق نصها :

ألم ترنى بالكيد أرديت راشدا — وانى باخرى لابن ادريس راصد
تناوله عزمى على بعد داره — بمحتومة يعطى بها من يكايد
فتاه أبو عك بمقتل راشد — وقد كنت فيه شاهدا وهو راقد

(٤) البكري ، ص ١٢٢

البيعة فى ٧ ربيع الاول سنة ١٨٧ هـ(١) . وهو ابن إحـــدى عشر سنة . وبايعته جميع القبائل من زناتة ، وأوربة وصنهاجة وغمارة وسائر قبـائل البربر ، فاستقام له الامر بالمغرب الاقصى وتوطد ملكه ، وعظم سلطانه ، وقوى عسكره ، ووفد إليه الناس من سائر البلدان (٢) ، وكان ممن وفد عليه نحو ٥٠٠ فارس من إفريقية والأندلس ، من القيسية والأزد والخزرج ومدلج وبني يحصب ، فسر إدريس بوفادتهم عليه ، ونزوعهم إلى بلاده ، وأجزل صلاتهم ، وقربهم منه ، وجعلهم بطانته (٣) ، واستوزر منهم عمير ابن مصعب الأزدى الملقب بالملجوم (٤) .

ولما رأى ابراهيم بن الأغلب عظم قوة إدريس استمال اليه كبير أوربة أبا ليلى اسحق بن محمود الأوربي ، ويبدو أن إدريس تبين له ميل اسحق لابن الأغلب،فقتله فى ٦ من ذى الحجـة سنة ١٩٢ هـ (٥) . وكثرت حاشية إدريس وأنصاره ، وضاقت وليلى بهم ، وبمن وفد عليه من العرب والبربر، فأسس لهم ربض القرويين من مدينة فاس فى سنة ١٩٣ (٦) هـ ، وانتقل من عدوة الأندلسيين إلى الموضع المعروف بالقرمدة من عدوة القرويين حيث بنى دار القيطون ، وبنى بجوارها جامع الشرفاء (٧) .

---

(١) المرجع السابق ــ ابن عذارى ، جـ ١ ص ٢٩٩ ــ ابن خلدون ، جـ ٤ ص ٢٦

(٢) الجزنائى ، ص ١٣

(٣) ابن خلدون ، جـ ٤ ص ٢٦ ــ الجزنائى ، ص ١٣

(٤) ابن خلدون ، ص ٢٩ ــ الجزنائى ، ص ١٣ ــ السلاوى ، ١٦٣

(٥) البكرى ، ص ١٢٣ ــ ابن خلدون ، ص ٢٦

(٦) البكرى ، ص ١٢٣ ــ ابن عذارى ، ص ٢٩٩ ــ ابن خلدون ، ص ٢٦

(٧) ابن الخطيب ، ص ٢٠١ ــ الجزنائى ، ص ١٤، ٢٠

استقام الأمر لإدريس بفاس ، فأقام بها حتى سنة ١٩٧هـ ، ثم عزم على غزو قبائل البربر الوثنيين فى نفيس وبلادالمصامدة ، فخرج على رأس جيش كثيف ، واستولى على مدينة نفيس ومدينة أغمات ، وفتح سائر بلاد المصامدة ، وعاد إلى فاس ، فأقام بها إلى شهر محرم من سنة ١٩٩ هـ ، ثم خرج إلى غـزو قبيلة نفزة بتلمسان ، فافتتحها وأصلح أسوارها ، ورمم جامعها بأكادير (أغادير) وأقام له منبرا . وظل مقيما بتلمسان ثلاث سنوات (١) ، ثم عاد إلى فاس فى شهر محرم (٢) سنة ٢٠٢هـ . واستقبل فيها فوجا كبيرا من ثوار الربض بقرطبة الذين طردهم الامير الحكم الربضى عقب واقعة الربض ، فسمح لهم إدريس بالإقامة فى عدوة الاندلس (٣) .

وكان إدريس قد أبدى فى محاربة الصفرية من البربر فى تلمسان ما أثار إعجاب رجاله ، ويذكر البكرى أن داود بن القاسم بن اسحق بن عبد الله ابن جعفر قال : « كنت مع إدريس بن إدريس فى المغرب ، فخرجت معه يوما الى قتال الخوارج . فلقيناهم وهم فى ثلاثة أضعاف عددنا ، فقاتلناهم قتالا شديدا ، فأعجبنى إدريس ذلك اليوم ، وجعلت أديم النظر اليه ، فقال : ويحك ، لم توالى النظر الى ، قلت لخصال ، أما أولها فانك تبصق بصاقا

---

(١) ابن خلدون ، جـ ٤ ص٢٧ . وأقام ادريس لجامع أبيه بتلمسان منبرا شاهده عبد الملك بن الوراق فى سنة ٥٥٥ هـ ، ورأى فى رأس المنبر ألواحا من بقية المنبر القديم مسمرة هناك ، وقد كتب عليها : « هذا ما أمر به الامام ادريس بن ادريس بن عبد الله بن حسن ابن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فى شهر محرم سنة تسع وتسعين ومائة » (الجزناءى ، ص ٢٢)

(٢) ابن عذارى ، ص ٢٩٩ – ابن خلدون ، جـ٤ ص ٢٧ – الجزناءى ، ص ١٢ – السلاوى ، ص ١٦٩

(٣) ليفى بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والاندلس ، ص ١٠

مجتمعا وأنا أطلب قليل ماء أبل به حلقي فلا أجده ، قال : ذلك لاجتماع قلبي وذهاب بصاقك لذهاب عقلك ، قال ، قلت : والثانية ، لما أرى من منتك قال ان النبي ﷺ صلى علينا ، قلت : والثالثة ، لما أرى من حركتك وقلة فرارك على الدابة . قال : ذلك زمع الى القتال فلا تحسه رعبا » (١) .

ويبدو أن إدريس اتخذ له بالاضافة الى وزيره عمير بن مصعب وزيرا من البربر اسمه بهلول بن عبد الواحد المطغرى ، وكان بهلول هذا من أركان دولته ، فلما أخضع إدريس خوارج المغرب الاوسط لطاعته، وامتد نفوذه حتى شلف ، أصبح يهدد نفوذ العباسيين بافريقية ، فاضطر ابن الأغلب الى أن يدافع عن حماه ، فأخذ يلاطف بهلول ويستميله إليه بالكتب والهدايا حتى « انحرف عن دعوة الادارسة إلى دعوة العباسية »، ونجح ابن الاغلب فى استمالة بهلول بمن معه من قومه ، فوفد عليه بالقيروان ، واستراب إدريس بالبربر ، فصالح ابن الأغلب (٢) . ولعل ذلك كان سببا فى استكثار إدريس من العرب فى دولته ، وانتقاله من وليلي إلى فاس ، وأقام إدريس بعد ذلك فى فاس حتى توفى فى أول شهر ربيع الأول سنة ٢١٣ هـ ، وكان سبب وفاته أنه أكل عنبا ، فغص بحبة منه، فلم يزل مفتوح الفم سائل اللعاب حتى مات (٣) . وقيل أنه توفى مسموما (٤) ، ودفن على

---

(١) البكرى ، ص ١٢٣ ــ ابن الخطيب ، ص ١٩٨ ــ السلاوى ، ١٦٨

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٧ ، ٤٢٠ ــ ابن الخطيب ، ص ١٤

(٣) البكرى ، ص ١٢٣ ــ ابن الخطيب ، ص ٢٠٢ ــ الجزنائي ، ص ٢٣

(٤) ابن عذاري ، ص ٢٩٩

حد قول المؤرخين فى مدينة وليلى (١) . وذكر بعضهم أنه دفن بفاس فى فى مسجد الشرفاء ، إزاء الجدار الشرقى منه ، وقد أنشأ فى ذلك بعض الشعراء :

منازل أهل الله آل رسوله
فاحبب بهم أهلا وأحبب بهم مغنى

مدينة إدريس بن إدريس الـتى
بها قبره نار وقبره مبنى (٢)

(١) البكرى ، ص ١١٥ — ابن الخطيب ، ص ٢٠١ — السلاوى ، ج ١ ص ١٧١
(٢) الجزنائى ، ص ٣٢ — السلاوى ، ص ١٧١

(٢)

خلفاء ادريس الثانى حتى سقوط فاس فى أيدى الفاطميين

أ – تقسيم دولة الادارسة فى امامة محمد ابن ادريس :

لما توفى إدريس خلفه على الإمامة ابنه محمد، بعهد من أبيه إليه، وأوصته جدته كنزة أن يشرك إخوته معه فى سلطانه ، فيقسم دولته إلى أعمال يتولاها إخوته، فولى أخاه القاسم سبتة وطنجة وقلعة حجر النسر وبسكرة وتيطاوين، وما يلحق بهذه المدن من بلاد وقبائل ، واختص أخاه عمرا ببلاد صنهاجة الهبط وغمارة ، وولى داود بلاد هوارة ، وتسول ، وتازى وما بينهما من القبائل مكناسة وغياثة . أما عبد الله ، فولاه أغمات وبلد نفيس ، وجبال المصامدة ، وبلاد لمطة، والسوس الأقصى. وولى يحيى على آصيلا والعرائش وبلاد زواغة ، وخص عيسى بشالة ، وسلا ، وآزمور، وتامسنا، وبرغواطة وما إلى ذلك . وخص أحمد بمدينة مكناسة ، ومدينة تادلا ، وما بينهما من بلاد فازاز . وولى حمزة على وليلى وأعمالها ، وأبقى تلمسان لابن عمه سليمان بن عبد الله ، أما الباقون فقد أبقاهم فى كفالة جدته كنزة ، لصغر أعمارهم عن الولاية ، أما هو فاكتفى بحاضرته فاس (١) . وأقام محمد بن إدريس بفاس عاصمة مملكته ، ولكن عيسى لم يلبث أن ثار بشالة ، وشق عصا الطاعة على محمد طالبا الأمر لنفسه ، فكتب محمد إلى أخيه القاسم صاحب طنجة ، يأمره بمحاربة عيسى ، ولكن القاسم امتنع عن ذلك ،

(١) البكرى ، ص ١٢٤ – ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٠٠ – ابن خلدون ، ج٤، ص ٢٧ ، ٢٨ – ابن الخطيب ، ص ٢٠٤ – السلاوى ، ج ١ ص ١٧٢

وخالف أمر اخيه الإمام محمد ، فاضطر هذا إلى أن يكتب إلى أخيه عمر صاحب صنهاجـة وغمارة . فامتثل لأمره ، وسارع إلى نصرته ، إذ كان على خلاف مع أخيــه عيسى ، وزحف إلى عيسى فى حشود هائله من بربر صنهاجة وغمارة ، وأمده أخوه محمد بألف فارس من قبيلة زناتة، واشتبكت قوات عمر مع قوات عيسى وهزمتها ، وكتب عمر إلى الإمام محمد بهـذا الانتصار ، فولاه على مافتحه من أعمال عيسى ، وأمره بالسير لمحاربة القاسم، فزحف عمر إلى القاسم ، ونزل عليه بظاهر طنجة ، قامت الحرب بينهما ، فانتصر عمر ، واستولى على طنجة وسائر أعمال القاسم ، وأصبح الريف البحرى كله تابعا لعمر من بـلاد غمارة إلى سبتة وطنجة فى منطقة البحر المتوسط ، ثم إلى أصيلا وسلا وآزمور وبلاد تامسنا، وكلها بلاد مطلة على المحيط (١) . أما القاسم فقد سار إلى ساحل البحر ممـا يلى أصيلا ، فاتخـذ هنالك مسجدا ورباطا ، ما زال قائما بالقرب من تاهدارت ، رابط فيـه ، وزهد فى الدنيا ، إلى أن توفى هناك .

واتسعت ولاية عمر بما انضم اليه من عمـل أخويه عيسى والقاسم ، وأخلص عمر للامام محمد ، الى أن توفى فى ٢٢٠ ﻫ ببلاد صنهاجة فى موضع يقال له فج الفرس ، وكان منية له ، فحمل الى فاس ، ودفن فيها مع أبيه . وخلفه على عمله ابنه على بن عمر (٢) . وعمر هذا هو جد بنى حمود الذين تلقبوا بالخلافة فى الأندلس فى عصر ملوك الطوائف .

---

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٨ ـ السلاوى ، ج ١ ص ١٧٣

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٠٠ ـ ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٨ ، ٢٩ ـ ابن الخطيب، ص ٢٠٦ ـ السلاوى ، ج ١ ص ١٧٤

ولم يطل العهد بالإمام محمد ، إذ مرض ، ثم توفى بعـد سبعة أشهر من وفاة أخيه عمر فى سنة ٢٢١ هـ ، ودفن بشرقى جامع الشرفاء بفاس .

ب ــ خلفاء محمد بن ادريس :

كان الإمام محمد قد استخلف ابنه عليا الملقب بحيدرة أثناء مرضه، وكان على لا يتجاوز عمره تسع سنوات ، فقام بأمره « الأولياء والحاشية من العرب وأوربة وسائر البربر وصنائع الدولة »(١) ، وبايعوه بالإمامة وهو غلام ، فسار سيرة أهل العدل والفضل والدين ، وتمتـع الناس فى عهـده بالأمن والدعة ، ثم توفى فى رجب سنة ٢٣٤ هـ ، وعهد بالأمر من بعده إلى أخيه يحيى بن محمد (٢).

تولى يحيى بن محمد الامامة بعد وفاة أخيـه ، وشهدت فاس فى عصره القصير ازدهارا فى العمران ، وفى ذلك يقول ابن خلدون : « واستجدت فاس فى العمران ، وبنيت بها الحمامات والفنادق للتجار ، وبنيت الأرباض ، ورحل اليها الناس من الثغور القاصية » (٣) . وفى عهـده أسست أم البنين فاطمة بنت محمد الفهرى المسجد الجامع بعدوة القرويين بفـاس . وتوفى يحيى بن محمد فى تاريخ غير معروف . وخلفه ابنه يحيى بن يحيى ، وكان ماجنا ،محبا للشراب ، معجبا بالنساء ، فأساء السيرة ، وخالف طريق سلفه ، وذكروا أنه دخل يوما الحمام المقصور على النساء ، بسبب امرأة جميلة من

---

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٩

(٢) نفس المرجع ــ ابن الخطيب ، ص ٢٠٧ ــ السلاوى ، ج ١ ص ١٧٥

(٣) نفس المرجع

اليهود [١] ، يقال لها حنة [٢] ، وراودها على نفسها ، فتغير عليه أهل فاس، وثارت به العامة ، وعلى رأسهم عبد الرحمن بن أبى سهل الجذامى،فأخرجوه من عدوة القرويين إلى عدوة الأندلسيين ، وأبت زوجته عاتكة بنت علي ابن عمر بن إدريس أن تخرج معه إلى عدوة الأندلسيين[٣] . أما يحيى فقد توارى بهذه العدوة ليلتين ، ثم توفى أسفا .

وبلغ خبر وفاته عليا بن عمر صاحب الريف ، واستدعاه أهل الدولة من العرب والبربر والموالى ، فقدم إلى فاس ودخلها ، وبايعه أهلها بالإمامة[٤]، وخطب له بمنابر أعمال المغرب ، وانتقلت الإمامة على هذا النحو من بنى محمد بن إدريس إلى بنى عمر بن إدريس ، واستقام الأمر لعلى بن عمر، إلى أن ثار عليه عبد الرزاق الفهرى الخارجى الصفرى، وزحف إليه من جبل مديونة الواقع قبلى فاس ، ودارت بينه وبين على بن عمر مواقع حربية ، انتهت بهزيمة علي وفراره إلى بلاد أوربة ، واستولى عبد الرزاق على عدوة الأندلسيين . ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء على عدوة القرويين ، وبعث أهالى عدوة القرويين إلى يحيى بن القاسم المعروف بالعدام ، فولوه على أنفسهم ، فلم يزل بها حتى قتله ربيع بن سليمان سنة ٢٩٢ هـ [٥] . وقد تمكن يحيى هذا من التغلب على عبد الرزاق ، وإخراجه من عدوة

---

(١) البكرى ، ص ١٢٤ — ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٠٠ — ابن الخطيب ، ص ٢٠٧ — السلاوى ، ج ١ ص ١٧٨

(٢) البكرى ، ص ١٢٤

(٣) نفس المرجع ، ص ١٢٥

(٤) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٠

(٥) البكرى ، ١٢٥ — ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٠١ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٠

الأندلسيين ، واستعمل عليها ثعلبة بن محارب بن عبد الله الأزدى ، من أهل الربض بقرطبة الذين لجئوا إلى فاس ، واستقروا بعدوة الأندلسيين . ولما توفى ثعلبة استعمل مكانه ابنه عبد الله بن ثعلبة المعروف بعبود ، ثم استعمل بعد وفاة عبد الله ولده محارب بن عبود (١) .

ولما قتل يحيى بن القاسم خلفه يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس سنة ٢٩٢ هـ ، فبايعه أهل فاس فى العدوتين ، وخطب له فيهما ، وفى سائر دولة الأدارسة . وكان يحيى هذا على حد قول ابن خلدون « أعلى بنى إدريس ملكا ، وأعظمهم سلطانا ، وكان فقيها عارفا بالحديث ، ولم يبلغ أحد من الأدراسة مبلغه فى السلطان والدولة » (٢) .

ولم يزل يحيى قائما بأمر دولة الأدارسة ، حتى قدم مصالة بن حبوس الكتامى ، قائد عبيد الله المهدى سنة ٣٠٥ هـ ، فخرج إليه يحيى بن إدريس لمدافعته بجموع من برير أوربة وسائر القبائل ، والتقوا على مكناسة الزيتون ، فانهزم يحيى هزيمة نكراء ، ورجع مفلولا إلى فاس ، وحاصره فيها مصالة ، فصالحه يحيى على مال يؤديه إليه ، وعلى مبايعة عبيد الله الشيعى ، ورحل عنهم مصالة إلى إفريقية فى سنة ٣٠٧ هـ ، بعد أن أقام موسى بن أبى العافية المكناسى أميرا على تسول وبلاد تازى ، وترك يحيى أميرا على فاس . وكانت بين يحيى وموسى عداوة قديمة ، فلما عاد مصالة إلى المغرب الأقصى فى غزوته الثانية فى سنة ٣٠٩ هـ ، سعى ابن أبى العافية بيحيى بن إدريس عنده ، حتى ضاق مصالة بيحيى ، وعزم على القبض عليه ،

---

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣١ — ابن الخطيب ، ص ٢٠٩ — السلاوى ، ج ١ ص ١٨٠

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣١

فلما قرب مصالة من فاس ، خرج إليه يحيى مسلما فى جملة من عسكره ، فقبض عليه مصالة ، وكبل يحيى بالأغلال ، وأدخله المدينة ، واستصفى أمواله ، ثم أطلقه ، فخرجه يحيى إلى ناحية أصيلا والريف ، وكانت عمل ذوى قرباه (١) . أما فاس ، فقد أقام عليها مصالة ريحانا الكتامى من كبار قواده ، ورحل بعد ذلك إلى إفريقية . أما يحيى ، فقد تمكن موسى بن أبى العافية من اعتقاله وسجنه عشرين سنة بمدينة لكاى ، ثم أطلقه بعد ذلك ، فرحل إلى المهدية سنة ٣٣١ هـ (٢) ، حيث توفى بها جوعا أثناء حصار أبى يزيد بن كيداد اليفرنى للمهدية فى سنة ٣٣٢ هـ (٣) .

أما فاس ، فقد ثار بها حسن بن محمد بن القاسم بن إدريس المعروف بالحجام بعد ثلاثة أشهر من ولاية ريحان فى سنة ٣٠٩ هـ ، فقدم إلى فاس فى حشود كثيفة من شيعته ، وأنصاره ، فباغت أهلها ، واستولى عليها ، ونفى ريحانا منها ، وملكها عامين ، ثم قام بينه وبين موسى بن أبى العافية خلاف ، فزحف الحسن إلى موسى فى سنة ٣١١ هـ ، واشتبك معه فى قتال شديد ، على مقربة من وادى المطاحن ، بين فاس وتازى ، انتهى بهزيمة موسى بن أبى العافية ، وقتل من رجاله أكثر من ألفين ، من جملتهم ابنه منهل (٤) . ولكن ابن خلدون يذكر أن الحسن عاد إلى فاس منهزما (٥) .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٢ — ابن الخطيب ، ص ٢١١ — القلقشندى ، صبح الاعشى ج ٥ ص ١٨٢ — السلاوى ، ج ١ ص ١٨٣

(٢) البكرى ، ص ١٢٦ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٢

(٣) ذكر البكرى أنه توفى بالمهدية سنة ٣٣٤ هـ .

(٤) البكرى ، ص ١٢٧ — ابن عذارى ، ٣٠٢ — ابن الخطيب ، ص ٢١٢ — السلاوى ، ج ١ ص ١٨٥

(٥) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٢ — القلقشندى ، ص ٢٨٣

وأغلب الظن أن النصر تم لموسى فى النهاية ، وأن الحسن الحجام عاد مفلولا إلى فاس ، فغدر به عامله علي عدوة القرويين حامد بن حمدان الهمذانى المعروف باللوزى ، فقبض عليه ، وأغلق أبواب عدوة القرويين عن عسكر الحجام ، ثم أرسل حامد إلى موسى ، فأتاه بجيوشه ، ودخل عدوة القرويين ، وأخذ يحث حامدا على قتل الحجام فى سجنه ، ولكن حامد سوف فى ذلك وماطل فى تنفيذه ، ثم أطلق الحسن متنكرا بعد ماعاين من قسوة موسى بن أبي العافية . فتدلى الحسن من سور العدوة ، فسقط ، وكسرت ساقه ، فتحامل على نفسه حتى وصل إلى عدوة الأندلسيين ، حيث مات بعد ليلتين من هروبه فى سنة ٣١٣ هـ : أما حامد فقد فر إلى المهدية ١ .

ثم تمكن موسى بن أبي العافية من الاستيلاء على عدوة الأندلسيين ، وقتل عبد الله بن ثعلبة بن محارب وابنيه محمد ويوسف ، وانقرضت بذلك دولة الأدارسة بفاس ،وخضعت بلادهم لموسى بن أبى العافية ، الذى انتقم من الأدراسة ، وأجلاهم عن مواضعهم ، ونفاهم بمدينة حجر النسر .

(١) البكرى ، ص ١٢٧ — ابن عذارى ، ص ٣٠٣ — ابن خلدون ، ص ٣٣ — ابن الخطيب ، ص ٢١٢

(٣)

مدينة فاس حاضرة الأدارسة

١ ـ مشكلة تاريخ تأسيس مدينة فاس :

يؤكد الجغرافيون العرب الذين وصفوا مدينة فاس بأنها تتألف من مدينتين منفصلتين ، وأقدم هؤلاء الجغرافيين اليعقوبي ، وابن حوقل ، والبكرى ، والإدريسى .

فقد وصف الجغرافى اليعقوبى مدينة فاس فى القرن الثالث الهجرى بقوله : « ثم يدخل إلى المدينة العظمى التى يقال لها مدينة إفريقيا على النهر العظيم الذى يقال له فاس ، بهـا يحيى بن يحيى بن إدريس ، وهى مدينة جليلة ، كثيرة العمارة والمنازل . ومن الجانب الغربى من نهر فاس ، وهو نهر يقال إنه أعظم من جميع أنهار الأرض ، عليه ثلاثة آلاف رحى تطحن، المدينة التى تسمى مدينة أهل الأندلس ، ينزلها داود بن إدريس » [1] .

ووصفها أيضا الجغرافى ابن حوقل فى القرن الرابع الهجرى بأنها : « مدينة جليلة يشقها نهر ، وهى جانبان يليها أميران مختلفان ؛ وبين أهل الجانبين الفتن الدائمة ، والقتل الذريع المتصل ، ونهرهـا كبير غزير الماء ، عليه أرحية كثيرة ، وهى مدينة خصبة مفروشة بالحجارة ، أحدثها إدريس بن إدريس ... » [2] .

---

(١) اليعقوبى ، ص ٣٥٧ ، ٣٥٨

(٢) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٩٠

ويصفها البكرى فى القرن الخامس الهجرى بقوله : « ومدينة فاس مدينتان مقترنتان مسورتان ، وبينهما نهر مطرد ، وأرحاء وقناطر ، وعدوة القرويين فى غربى عدوة الأندلسيين ... وعلى باب دار الرجل فيها رحاه وبستانه بانواع الثمر ، وجداول الماء تخرق داره . وبالمدينتين أزيد من ثلاث ماية رحا ، وفيها نحو عشرين حماما ، وهى أكثر بلاد المغرب يهودا ، يختلفون منها إلى جميع الآفاق ، ومن أمثال أهل المغرب « فاس بلد بلاناس » ، وكانتا عدوتى فاس فى صفح جبل ، والنهر الذى بينهما مخرجه من عين غزيرة فى وسط برج ببلاد مطغرة ، على مسيرة نصف يوم من فاس، وأسست عدوة الأندلسيين فى سنة ١٩٢ هـ ، وعدوة القرويين فى سنة ثلاث وتسعين ومائة فى ولاية إدريس بن إدريس »[١] .

وأخيرا يصفها الإدريسى فى القرن الخامس الهجرى بقولة : « ومدينة فاس مدينتان بينهما نهر كبير يأتى من عيون تسمى عيون ، وعليه فى داخل المدينة أرحاء كثيرة تطحن بها الحنطة بلاثمن له خطر ، والمدينةالشمالية منها تسمى القرويين ، وتسمى الجنوبية الأندلس ، والأندلسماؤهـا قليل ، لكن يشقها نهر واحد يمر بأعلاها ، وينتفع منه ببعضها ، وأما مدينة القرويين فمياهها كثيرة ... وفى كل مدينة منها جامع ومنبر وإمام ، وبين المدينتين أبدا فتن ومقاتلات ، وبالجملة إن أهل مدينتى فاس يقتل فتيانهما بعضهم بعضا »[٢] .

وتتضمن المصنفات التاريخية المغربية كثيرا من التفاصيل عن تاريخ

---

(١) البكرى ، ص ١١٥

(٢) الادريسى ، ص ٧٥ ، ٧٦

فاس ونشأتها ، وأهمها روض القرطاس لابن أبي زرع ، وزهرة الآس للجزناءى ، وجذوة الاقتباس لابن القاضى . وكل هذه المصنفات تجمع على أن إدريس بن إدريس بن عبد الله هو مؤسس مدينة فاس ، وأنه شرع فى تأسيس عدوة الأندلسيين فى عام ١٩٢ ، وأسس عدوة القرويين بعد ذلك فى سنة ١٩٣هـ . وقبل أن نخوض فى مشكلة تاريخ بناء مدينة فاس ، وهى مشكلة أثارها المستشرق الفرنسى الأستاذ ليفى بروفنسال (١) ، أود أن أستعرض بايجاز ماأورده القرطاس وزهرة الآس ، وجذوة الاقتباس فيما يختص بتأسيس مدينة فاس :

١ ـ لما رأى الإمام إدريس بن إدريس أن الأمر استقام له ، وعظم ملكه ، وكثر أنصاره وحشمة ، وضاقت بهم وليلى ، عزم على الانتقال منها إلى مدينة جديدة يؤسسها ، ويسكنها هو وخاصته وجنوده ووجوه أهل دولته ، فركب بعد الاستخارة فى خاصة من قومه فى سنة ١٩٠ هـ ، وطاف ببعض النواحى إلى أن بلغ جبل زالغ ، فعزم على أن يبنى فيه المدينة ، وشرع بالفعل فى بنائها ، فبنى بعض دورها ونحو الثلث من سورها ، فأتى السيل من أعلى الجبل فى بعض الليالى ، وهدم السور والدور ، وحمل ماحول ذلك من الخيام والزروع وأتى به فى نهر سبو . فعدل عن هذا الموضع .

٢ ـ ثم خرج فى العام التالى فى بداية عام ١٩١ هـ ، ليرتاد موقعا يبنى فيه مدينته ، فانتهى إلى نهر سبو بالقرب من حمة خولان ، فأعجبه الموضع

---

(١) ليفى بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والأندلس ، ترجمة الدكتور السيد عبدالعزيز سالم ، والأستاذ محمد صلاح الدين حلمى ، القاهرة ١٩٥٨ ص ١ـ٥٠

لقربه من الماء ، ولوجود الحمة الساخنة ، وشرع فى حفر الأساس ، وعمل الجيار ، وابتدأ بالبناء . ثم فكر فى نهر سبو وما يأتى به من المدود والسيول ، زمن الشتاء ، وما يحدث نتيجة ذلك من الضرر العظيم للناس ، فكف عن البناء ، وعاد إلى وليلى .

٣ ـ عهد إدريس بعد ذلك إلى وزيره عمير بن مصعب الأزدى بمهمة ارتياد موضع لتأسيس مدينته ، فنزل على عين ماء سميت بعين عمير ، ثم ركب إلى خص سايس حتى وصل إلى العيون التى ينبع منها نهر وادى فاس ، فرأى عيونا كثيرة تزيد على الستين عينا ، ورأى مياهها تفيض على الأرض فسيحة ، فشرب من الماء ، فاستطابه ، ثم سار فى اتجاه الوادى حتى وصل إلى الموضع الذى قامت عليه مدينة فاس ، فنظر إلى ما بين الجبلين ، فرأى غيضة ملتفة الأشجار ، مطردة العيون والأنهار ، وفى مواضع منها خيام من شعر يسكنها قوم من زواغة يعرفون ببنى الخير ، وقوم من زناتة يعرفون ببنى يرغش ، كانوا على دين المجوسية ، وكان بيت نارهم فى الموضع المعروف بشيبوبة ، وكان بعضهم على دين اليهودية ، وبعضهم على دين النصرانية . وكان بنو الخير ينزلون بعدوة القرويين ، وبنو يرغش ينزلون بعدوة الأندلسيين ، وكانوا على خلاف دائم لتباين أديانهم ، واختلاف نزعاتهم .

٤ ـ رجع عمير إلى إدريس ، وعبر له عن استحسانه لذلك الموضع ، من كثرة مياهه ، وطيب تربته ، ورطوبة هوائه ، فسر إدريس ، وركب إلى هناك ليشاهد الموضع ، فوجد بنى الخير وبنى يرغش يقتتلون ، فأصلح بينهم ، وأسلموا على يده ، ثم إنه اشترى منهم موضع الغيضة بستة آلاف درهم ، فرضوا بذلك .

٥ ـ ضرب إدريس أخبيته وقبابه بالموضع المعروف بجرواوة من عدوة الأندلس ، وابتدأ ببناء سورها ، وبنى بها جامعا للخطبة قريبا من رحبة البئر ، يعرف بجامع الأشياخ .

٦ ـ انتقل إدريس بعد ذلك إلى الموضع المعروف بالمقرمدة من عدوة القرويين ، حيث دار القيطون المتصلة بمسجد الشرفاء ، وابتدأ بحفر الأساس بفأس من ذهب . وتبعه الفعلة فى ذلك فسميت المدينة فاسا ، وقيل أنه لما شرع فى حفر أساسها من جهة القبلة وجد فى الحفير فاس أثرى كبير ، فسميت المدينة فاسا لذلك .وقيل أن راهبا أخبره بأنه كانت تقوم فى موضع القرويين مدينة أزلية ، خربت منـــذ ألف عام ، وكان اسمها ساف ، فآثر إدريس أن يسمى مدينته باسم المدينة القديمة مقلوبا . وشرع فى بنائها فى غرة ربيع الأول سنة ١٩٣ هـ ، وأدار حولها السور ، وبنى لها مسجدا لصق داره المعروفة بدار القيطون سمى بمسجد الشرفاء . وكان فى أثناء ذلك قد أمر الناس ببناء الدور والغرس ، ونادى فيهم أن كل من بنى موضعا أو اغترسه قبل تمام السور فهو له هبة لله تبارك وتعالى .

٧ ـ لما فرغ إدريس من بناء أسوار المدينة (القرويين) وجامع خطبتها ، أنزل الوافدين عليه من الأندلس بالعدوة الشرقية ، فسميت لذلك بعدوة الأندلس ، وأنزل الوافدين عليه من القيروان بالعدوة الغربية منها فسميت لذلك بعدوة القرويين . ثم أمر الناس بزيادة البناء والغرس ، فبنى الناس الدور والمساجد فى القرويين ، وغرسوا جانبى الوادى من منبعه بفحص سايس إلى مصبه فى نهر سبو بأنواع الأشجار ، وعمرت الأرض بغرس الأشجار ومختلف أنواع المزروعات ، وزاد العمران ، وقصد الناس مدينة

فاس (يقصد القرويين) . ولما كملت المدينة واستقامت حال رعيته فيها ، خطب في الناس بجامعها (١) .

* * *

ويخرج الأستاذ ليفي بروفنسال من هذه الروايات المختلفة في نشأة مدينة فاس بثلاثة أسئلة لا إجابة عنها في المصادر العربية ، الأول : ماهو مغزى تأسيس إدريس الثاني لمدينتين متجاورتين ومنفصلتين في آن واحد ، لكل منها سور مستقل ، في تاريخ متقارب ، بحيث لايفصلها من العمر إلا عام واحد ؟

والثاني : كيف استطاع هذا الإمام الصغير الذي لم يكن يتجاوز من عمره ١٧ عاما أن يقوم بتنفيذ مشروع ضخم وهو إنشاء مدينتين مختلفتين في مكان واحد ؟

الثالث : لماذا آثر إدريس إيجاد تعارض عنصري وسياسي واجتماعي لمدينتين متماثلتين ؟

وعندئذ يعرض الأستاذ ليفي بروفنسال نظرية جديدة في نشأة فاس ، وتقوم أساسا على أن إدريس بن عبد الله أسس مدينة فاس في سنة ١٧٢ هـ في الموضع الذي تقوم عليه عدوة الأندلس ، وأن إدريس بن إدريس

(١) ارجع الى : ابن أبي زرع ، كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، نشرة تورنبرج Carolus Johannes Tornberg أبسالة ١٨٤٣ — الجزنائي ، كتاب زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، نشرة الفريد بل ، الجزائر ١٩٢٢ — السلاوي ، الاستقصا ، لأخبار دول المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ، ج ١ ، ١٩٥٤

أسس عـــدوة القرويين فى سنة ١٩٢ ﻫ فى غرب مدينة أبيه ، وعلى الضفة اليسرى من وادى فاس ، فى الموضع المعروف بدار القيطون . وقد اعتمد الأستاذ ليفى بروفنسال لإثبات هذه النظرية على أدلة مادية ، وعلى نصوص تاريخية نجملها فيما يلى :

الأدلة المادية :

١ ـ فى المكتبة الأهلية بباريس درهم ضرب بمدينة فاس فى سنة ١٨٩ﻫ، قبل التاريخ المتواتر فى المصادر السابقة لتأسيس مدينة إدريس الثانى بسنتين.

٢ ـ فى متحف مدينـة خاركوف درهم آخر ضرب فى مدينـة فاس فى سنة ١٨٥ ﻫ .

٣ ـ فى نفس الوقت توجد عملات يظهر فيها اسم إدريس الثاني ضربت فى وليلى وتدغة تحمل التواريخ المتعاقبة لسنوات ١٨١ ،١٨٢ ، ١٨٣ ﻫ .

٤ ـ معظم العملات التى تحمل اسم إدريس الثانى ضربت فى مدينة العالية فى سنوات ١٩٨ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٤ ﻫ . والمقصود بهذه المدينة حسب مايراه الأستاذ ليفى بروفنسال إما أنها تعنى المرتفعة باعتبار أن عدوة القرويين أكثر ارتفاعا من عـدوة الأندلسيين ، وإما نسبة إلى على ، أو أنها صفة الحضرة العلية ، بدليل أن المدينـــة البيضاء التى أسسها بنو مرين كانت تسمى بفاس العليا .

ويفسر الأستاذ ليفى بروفنسال هـــذا التباين فى أسماء دور السكة الإدريسية بأن فاس كانت مركزا لسك العملة قبل سنة ١٩٢ ﻫ ، استنادا على الحقائق المستمدة من نقوش العملات ، إذ أن اسم فاس يختفى منذ

سنة ١٩٨ هـ وما بعدها ، ويحل اسم العالية محل اسم فاس ، ولا يعود اسم فاس إلى الظهور على العملات المغربية إلا منذ سنة ٣٦٩ هـ على درهم فاطمى ، وعلى عملات أموية مضروبة تحمل اسم هشام المؤيد كما تحمل تاريخا يتراوح ما بين عامى ٣٧٧ ، ٣٩٨ هـ . ويخرج الأستاذ ليفى بروفنسال من كل ذلك بأن فاس أسست قبل سنة ١٨٥ هـ (١).

الأدلة التاريخية :

١ - رواية عن المؤرخ القرطبى أبو بكر أحمد بن محمد الرازى المتوفى سنة ٣٤٤ هـ نقلها ابن الأبار فى الحلة السيراء ، جاء فيها أن إدريس بن عبد الله دخل المغرب فى سنة ١٧٢ هـ فى شهر رمضان ، وذلك بعد أن هرب من تعقب أبي جعفر المنصور له ، ونزل فى موضع يعرف بوليلى يقع قريبا من وادى الزيتون . وهنـاك اجتمعت اليه قبائل من البربر ، وبايعوه بالإمامة ، فأسس مدينة فاس ، وكانت أجمة شعـراء . وسميت بفاس لأنهم لما شرعوا فى حفر أساسها وجدوا فأسا فى موضع الحفر ، وسكنها البربر ، ولم يطل عهد إدريس بن عبد الله ، إذ توفى فى سنة ١٧٤ هـ تاركا إحدى جارياته حاملا منه ، فوضعت غلاما ذكرا سمى إدريس ، وهو الذى خلف أباه على مدينة فاس ، وطال به العهد فى الامامة حتى توفى فى شهر ربيع الأول سنة ٢١٣ هـ ، وكان مولده فى شهر ربيع الثانى سنة ٧٥ هـ(٢).

ويخرج الأستاذ ليفى بروفنسال من هذا النص بالحقيقة التالية : أن

---

(١) ليفى بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والأندلس ، ص ١٥-١٩

Roger le Tourneau, Fès avant le Protectorat, Casablanca, 1949, pp. 33. et sqq.

(٢) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ج ١ ص ٥٥

إدريس بن عبد الله أسس فاسا سنة ١٧٢ هـ على أكثر تقدير ، وهى سنة وصوله إلى المغرب الأقصى ، ولا يمكن أن تكون قد تأسست بعد سنة ١٧٤ لأنه توفى فى هذه السنة ، وأن هذه المنشأة المدنيـة التى سميت بفاس كانت منذ نشأتها مدينة بربرية .

٢ - رواية لابن سعيد المغربي فى المغرب ، ولابن فضـل الله العمرى فى مسالك الأبصار ، وللقلقشندى فى صبح الأعشى ، وهى رواية نقلت عن مصدر واحد هام ، ونصها :

قال ابن سعيد فى المغرب : « وهى مدينتان إحـداها بناها إدريس بن عبد الله أحد خلفاء الأدارسة بالمغرب وتعرف بعدوة الأندلس ، والأخرى بنيت بعدها وتعرف باسم عدوة القرويين » (١).

وهـــذه الرواية تثبت أن فاسا من إنشاء إدريس بن عبد الله ، وأنها هى نفس المدينة التى أطلق عليها فيما بعد اسم عدوة الأندلسيين ، وأن عدوة القرويين من إنشاء إدريس بن إدريس (٢) .

٣ - نص رواه البكرى (بخلاف النص الذى أشرنا إليه سابقا فى وصف فاس) نقلا عن أبي الحسن النوفلي جاء فيه ما يلى : « وقتل أبا ليلى اسحق، وهو القايم به وبأبيه ، يوم السبت لست خلون من ذى الحجـة سنة اثنتين وتسعين ومائة ، وبعث رأسه إلى المشرق مع أحمد وسليمان ابنى عبد الرحمن ، ثم نزل مدينة فاس فى عدوة الأندلسيين ، وأقام بها شهرا ، وذلك سنـة

(١) القلقشندى ، صبح الأعشى في صناعة الانشا ، جـ ٥ ، ص ١٥٣

(٢) ليفى بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والأندلس ، ص ٢٣

اثنتين وتسعين ومائة ، ولما كانت عدوة القرويين غياضا فى أطرافها أبيات من زواغة ، فأرسلوا إلى إدريس ، فدخل عندهم ، فاسس مدينـة القرويين سنة ثلاث وتسعين » (١). ويثبت هذا النص بصورة لاتدع مجالا للشك أن مدينة فاس وهى عدوة الأندلسيين كانت موجودة بالفعل قبل مجيئه إليها وإقامته بها شهرا كاملا.

٤ ـ وينقل هذا النص ابن الأبار فى كتابه الحلة السيراء نقـــلا عن النوفلى بشىء من الإيجـاز ، فيذكر أن إدريس بن إدريس أسس مدينة فى القرويين فى سنة ١٩٣ هـ(٢).

٥ ـ رواية لمؤرخ غرناطى مجهول عاش فى القرن الثامن الهجـرى ، فى عصر سلاطين دولة بنى نصر بغرناطة ، فى مجموعة متفرقات تاريخية بعنوان: « الزهرة المنثورة فى الأخبار المأثورة» فيها إشارة لثوار ربض شقندة الذين نفاهم الحكم بن هشام من الأندلس ، وقد نقل المقرى هذه الرواية فى كتاب نفح الطيب ، وملخصها : أن فريقا من أهل الربض اتجه إلى بلاد المغرب ، فنزلوا بعدوة الاندلس ، وهى قسم من مدينة فاس ، سمى منذ ذلك الحـــين باسم عدوة الاندلسيين ، وعمرت هذه العدوة بالسكان بفضل هؤلاء الوافدين سنة ٢٠٢ ، وتمدينت بهم . وكان أمير المغرب وقتئـــذ القاسم بن إدريس المهاجر من المغرب ، وكان إبنا لعبد الله . وكانت قد مضت ثلاثون سنة بين إعادة تأسيس المدينة على يد الاندلسيين ، وبين تأسيس مدينة فاس القديمة ، التى بنيت فى سنة ١٧٢ هـ ، عندما دخل المغرب إدريس بن عبد الله جد القاسم هاربا من تعقب أبي جعفر المنصور له ، حيث التف حوله البربر ، وجعـلوه

---

(١) البكرى ، ص ١٢٣

(٢) ابن الأبار : الحلة السيراء ، جـ ١ ص ٥٣

إمامهم ، وبنوا له مدينة فاس وكان موضعها غيضة .وعندما حفرت الأسس وجدوا فأسا فى باطن الأرض ، وسميت المدينة لذلك السبب بفاس .

ويؤكد هذا النص قيام إدريس بن عبدالله ببناء مدينة فاس فى سنة ١٧٢ ه، أى قبل وفود الاندلسيين بثلاثين عاما . ويخرج الأستاذ ليفى بروفنسال من جميع هذه الأدلة بالنتائج الآتية :

١ ـ أن ادريس بن عبد الله أسس مدينة على الطراز البربرى فى الجزء الواقع شرقى فاس الحالية فى سنة ١٧٢ ه. ، سميت بفاس ، وسكت فيها العملات الإدريسية فى تاريخ غير معروف ولكنه يرجع على الأقل إلى سنة ١٨٩ ه.

٢ ـ أن إدريس بن إدريس أسس بعد ذلك بنحو ٢١ سنة، فى موضع يقع غربي الموقع الذى أقيمت فيه مدينة فاس فى عهد أبيه ، وهو موضع أفضل من حيث المناخ ووفرة المياه من موضع فاس القديمة ، مدينة على الطراز الافريقى أطلق عليها رسميا اسم العالية . ولعلها سميت أيضا بافريقية على حد قول اليعقوبى ، وهو اسم له علاقة واضحة بما انتهى إليه اسمها ، وهو مدينة القرويين أى مدينة القيروانيين .

٣ ـ لما وفد أهل الربض بقرطبة إلى المغرب الأقصى لاجئين إلى دولة الأدارسة ، أنزلهم إدريس فى مدينة أبيه ، فاستقروا فيها ، وأنشأوا بها مدينتهم التى سميت بمدينة الأندلسيين . وعلى هذا النحو أصبح اسم فاس يطلق على العدوتين معا (١) .

---

(١) ليفى بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والأندلس ، ص ٢٧ ، ٢٨

ونضيف إلى الأدلة السابقـــة التي أوردها ليفى بروفنسال أدلة ثلاثة أخرى مستقاة من كتاب زهرة الآس للجزناءى ، ودليلا من ابن عذارى، ودليلا آخر من ابن الخطيب وأخيراً نضيف دليلا يقوم على المقارنة .

ا ـ الادلة المأخـوذة من الجزناءى :

١ ـ أن الجزناءى ذكر أن الغيضة التي شاهدها عمير بن مصعب الازدى، وفيها العيون والأنهار هى الموضع الذى بنى فيـه إدريس بن إدريس مدينة فاس ، ولا ينطبق هذا الموضع إلا على عدوة القرويين .

٢ ـ أن الجزناءى قال نقلا عن ابن الرقيق : « ثم إن ضرب الإمام أخبيته وقبابه بالموضع المعروف بجرواوه من عـدوةالاندلس ، ودور عليه جرواوة من الخشب فسمى الموضع جرواوة إلى زمنناهـذا . ثم انتقل بعد ذلك إلى الموضع المعـروف بالقرمدة من عدوة القرويين حيث دار القيطون المتصلة لمسجد الشرفاء ، ثم شرع فى البناء »[1] . ومعنى هـذا أن إدريس لم يؤسس شيئا فى عدوة الاندلسيين ، وإنما أقام بها بعض الوقت ثم انتقل الى القرمدة حيث شرع فى بناء مدينته .

٣ ـ أن الجزناءى عندما تعرض لذكر عدوةالاندلسيين لم يذكر أن ادريس ابن إدريس هـــو الذى أسسها ، وإنما قال : « أما عدوة الاندلس ، فانها أسست فى يوم الخميس مهل شهر ربيع الاول سنه اثنتين وتسعين ومائة، أقام الإمام ادريس منها بالموضع المعروف بجرواوة حيث نزل بأخبيته وقبابه، وابتدأ

---

(١) الجزناءى ، ص ١٤

سورها من جهة القبلة» ويمضى بعد ذلك فى ذكر الأبواب التى فتحت فى هذا السور . أما بالنسبة لعدوة القرويين ، فانه يذكر قيام ادريس بانشاء السور ثم يضيف بعد ذلك أنه أمر الناس ببناء الدور والغرس ، وأن كل من بنى موضعا أو اغترس قبل تمام السور فهو له . وهذا دليـــل على أن عدوة الاندلسيين كانت بها دور وأبنية من قبل .

ب ـ الدليل المأخوذ من ابن عذارى :

ذكر ابن عذارى فيما يختص ببناء فاس النص التـالى : « وكانت عدوة القرويين غياضا فى أطرافها بيوت من زواغة ، فأسلموا إليه ، ودبر فى البناء عندهم ، فكان ابتداء بناء مدينة فاس سنة ١٩٣ وذلك عدوة القرويين »[١] . وواضح من هذا النص أن ابن عذارى يشـير إلى قيام إدريس بن إدريس ببناء عدوة القرويين .

ج ـ الدليل المأخوذ من ابن الخطيب :

عندما ذكر ابن الخطيب قيـام ادريس بن ادريس ببناء مدينة فاس سنة ١٩٢ ، ذكر أنه « بنى داره المعروفة اليوم لسلفه بدار القيطون ، ومسجدها بجواره ، وعظم شأنها بالعمارة بعده ، وسكنها الملوك والاشراف »[٢] . ولما كانت دار القيطون المذكورة تقع فى ربض القرويين ، فانه يتضح لنا من هذا النص أن المقصود ببناء فاس هو بناء مدينة القرويين .

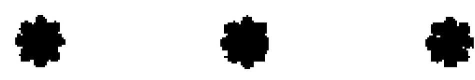
---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٩٩

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، القسم الثالث ، ص ٢٠٩

د ـ الدليل القائم على المقارنة :

عندما اجتمعت قبائل زناتة الصفرية حول أبي القاسم سمغون بن واسول المكناسي الصفري اختط لهم مدينه سجلماسة سنة ١٤٠ هـ، كذلك أسس عبد الرحمن بن رستم الفارسي مدينة تاهرت سنة ١٤٤ هـ، وهي نفس السنة التي انهزم فيها أبو الخطاب على يدي ابن الأشعث، وفر ابن رستم على أثر ذلك إلى جبل سوفجج حيث اجتمع إليه الإباضية، فأسس لهم مدينة تاهرت. وفي المغرب الادنى قام ابراهيم بن الاغلب بتأسيس مدينة العباسية أو القصر القديم بعد توليته الإمارة بعهد من الخليفة الرشيد في جمادى الآخرة سنة ١٨٤ هـ، بأقل من عام، وانتقل إليها في سنة ١٨٥ هـ. ونستخلص من ذلك أن قيام الدول المستقلة بالمغرب في القرن الثاني الهجري كان يتبعه مباشرة قيام مدن جديدة. ولا نشك في أن ادريس بن عبد الله أسس في حياته مدينة فاس اقتداء ببني واسول المدراريين بسجلماسة، وبني رستم بتاهرت، وليس من المعقول أن ينتظر الأدارسة عشرين سنة لكي يؤسسوا مدينة تكون مقرا لهم.



بقي علينا تفسير نقطة أخيرة، وهي أنه إذا كان تاريخ سنة ١٧٢ هو الذي حددناه لبناء مدينة فاس في عهد إدريس الأول فلماذا لم يذكره المؤرخون وينصوا عليه صراحة، ولماذا جعلوا إنشاء مدينتي فاس في عامي ١٩٢، ١٩٣ بدلا من هذا التاريخ؟.

يفسر الاستاذ ليفي بروفنسال كيف استقر التاريخ الخاطىء لبناء فاس سنة ١٩٢ في الرواية القديمة، وحل محل التاريخ الحقيقي وهو سنة ١٧٢،

بأنه من المحقق وقوع لبس بين إنشاء مدينة فاس وانشاء مدينة العالية، وظهر هذا اللبس منذ أن أطلق اسم فاس على المدينتين معا . ومما أزاد هذا اللبس تشابه إسمى المؤسسين . ويعتقد أن أساس هـذا اللبس التاريخى يرجع إلى خطأ يسير فى القراءة بين رقمى سبعين وتسعين ، وهو خطأ أدى إلى تحريف سنة ١٧٢ هـ. إلى ١٩٢ هـ. (١) . ونحن نؤيد الاســتاذ ليفى بروفنسال فى ذلك الرأى ، فكثيرا ما نعثر على أخطاء تاريخية ناتجـة عن التحريف فى النقل ، ونذكر مثالا لذلك التحريف الذى يقع فيـه النساخ فى كثير من الاحيان ، فابن الخطيب يذكر عندما يتعرض لذكر دولة العدام بن القاسم بن إدريس أنه اغتيل على يدى ربيع بن سليمان سنة اثنتين وسبعين ومائتين بدلا من التاريخ الصحيح وهو سنة اثنتين وتسعين ومائتين (٢) .

ب ــ تاريخ مدينة فاس منذ تأسيسها حتى نهاية عصر بنى مرين :

١ ــ فاس فى عصر الادارسة :

لم تكن مدينة فاس التى أسسها إدريس بن عبد الله فى سنه ١٧٢ هـ، وهى سنة نزوله فى أرض وليلى سوى بلدة صغـيرة ذات طابع بربرى ريفى ، شأنها فى ذلك شأن القرى المتناثرة التى نشاهدها فى جنوب المغرب الأقصى والتى لا تضم من العمران غير بضعة دور متوزعة . وكانت فاس التى بناها إدريس بن عبد الله تحمل طابعا بربريا مماثلا ، ويتجلى ذلك فى اسم الموضع الذى نزل فيه إدريس بن إدريس بها فى سنة ١٩٢هـ وهو المعروف بجرواوة

(١) ليفى بروفنسال ، المرجع السابق ص ٢٩ ، ٣٠

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، ص ٢٠٩

وهو جدار من جذوع الشجر والغاب ، سور به معسكره الذى كان يجتمع فيه مع مشايخ البربر [١] . كذلك يحمل جامع الاشياخ أيضا هـذا الطابع البربرى ، والمقصود بالاشياخ شيوخ البربر الذين كانوا يرافقون إدريس فى رحلته ، ويعرفون بالآمغارن .

وعلى الرغم من قيام إدريس بن عبد الله بانشاء مدينة فاس ، فقد آثر أن يقيم فى وليلى بين أنصاره من البربر ، الذين أيدوه ونصروه ، ولما توفى دفن بوليلى . وآثر ابنه إدريس الثانى الإقامة فى وليلى بين أنصار أبيه ، حتى إذا ما بويع بالإمامة فى سنة ١٨٦هـ ، واستقام له الأمر بالمغرب الأقصى ، ووفد عليه العرب من كل مكان من إفريقية والأندلس ، وقدم إليه فى جملة الوافدين فى سنة ١٨٩ نحو خمسمائة من الفرسان العرب من القيسية والأزد والخزرج ومدلج وبنى يحصب ، بدأ إدريس يفكر فى الخروج من عزلته التى فرضها عليه الأوصياء عليه والكافلين له ، فقرب العرب اليه ، وجعلهم بطانته دون البربر ، واعتز بهم « لأنه كان فريداً بين البربر » [٢] .

ويبدو أن وزيره العربى عمير بن مصعب الازدى هو الذى أوحى إليه بفكرة الانتقال من وليلى ، إلى مدينة يؤسسها بنفسه وتكون مركزا له ، لأن مدينة أبيه ماؤها قليل ، إذ يشقها نهر واحد يمر بأعلاها ، وأما موضع مدينة القرويين الذى أعجب به عمير فكان كثير المياه ، بحيث كانت المياه بعد تأسيس عدوة القرويين تجرى فى كل شارع منها وفى كل زقاق [٢] . ويبدو

---

(١) ليفى بروفنسال ، ص ٣٥

(٢) الجزنائى ، ص ١٣

(٣) الادريسى ، ص ٧٥

أن هذه الفكرة لقيت قبولا واستحسانا عند إدريس ، فنراه يخرج فى سنة ١٩٠ هـ ليرتاد موضعا ينشىء فيه مدينته الجديدة، ويبدو أن زعيم بربر أوربة اسحق خالفه فى ذلك وتآمر مع ابن الاغلب ، فقتله إدريس فى سنة ١٩٢ هـ. وأخيرا اهتدى إدريس إلى موضع مدينة القرويين ، فأسسها قبالة مدينة فاس ، على النحو الذى فصلناه آنفا .

ولقد أسس إدريس فى القرويين مسجدا جامعا هو الجامع المعروف بالشرفاء ، وقيسارية إلى جانب هذا الجامع ، وأدار الأسوار من كل جانب[1] وكان لا بد لمدينة القرويين التى بناها إدريس وسماها بالعالية أن تنمو سريعا وتعمر بالبناء ، فأسكنها العرب الوافدين عليه من القيروان والأندلس ورجال الحاشية، والخاصة، فسميت بعد ذلك بعدوة القرويين، وأمرهم إدريس بزيادة البناء والغرس، فأسس الناس الدور والمساجد والحوانيت (انظر خريطة رقم ٨ ، ٩). أما البربر فلم يكن لديهم ما يشكون منه ، إذ كانت لهم مدينتهم الخاصة ذات الطابع البربرى الذى يتفق مع طابع حياتهم ، وهى مدينة فاس التى أقامها إدريس بن عبد الله ، فسكن فيها فرسان الأمير وعسكره وقواده من البربر [2] ، وأخذت عدوة القرويين تنمو ويزدهر فيها العمران ، بينما ظلت مدينة فاس القديمة متأخرة عنها . وفى سنة ٢٠٢ هـ قدم على إدريس جماعة من الربضيين الاندلسيين ، الذين أخرجهم الامير الحكم الربضى من ربض شقندة بقرطبة ، فأنزلهم إدريس مدينة فاس . ولم تكن فاس تعدو

---

(١) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٩ ، ٢٠

(٢) ليفى بروفنسال ، الإسلام فى المغرب والأندلس ص ٤٠

Terrasse Histoire' du Maroc, t.I, p. 118

وقتئذ قرية ، بيوتها متواضعة مبنية من اللبن ، مسقوفة بفروع الاشجار ، ولم يمض عهد قصير على نزول الاندلسيين بهـا حتى ارتفعت من مجـــرد قرية إلى مصاف المدن ، وإن كان الطابع الريفى ما زال يفرض نفسه على أحيائها المتطرفة حتى اليوم (١) . وكان ينفتح بسور عدوة الاندلسيين عدة أبواب هى : أبواب القبلة ، والكنيسة أو الخوخة ، وأبو سفين ، وجراوة والشيبوبة ، والمخفية . أما أبواب سور عدوة القرويين فهى : إفريقية ، والقلعة ، والحديد ، والفرج أو السلسلة ، والفصيل أو النقبة (٢) . إلا أن هذه الأسماء تغيرت فيما بعد ، وحلت محلها أسماء أخرى .

٢ – فاس فى عصر بن موسى بن أبى العافية :

فى سنة ٣١٩هـ استعمل موسى على عدوة الأندلس طوال بن أبى يزيد ، بينما استخلف موسى ابنه مدين على عدوة القرويين . وفى هذه السنة كاتب موسى بن أبي العافية الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله صاحب الاندلس، « ورغب فى موالاته والدخول فى طاعته ، وأن يستميل له أهواء أهل العدوة المجاورين له (٣) » . فتقبله عبد الرحمن أحسن قبول ، وأمده بالخلع والأموال ، وبفضل ذلك تمكن موسى من التغلب على مدينة جراوة ، وأخرج عنها الحسن بن أبي العيش بن إدريس .

ولما بلغ عبيد الله المهدى نبأ خروج موسى على طاعته، سير إليه قائده حميد ابن يصلى المكناسى ، صاحب تاهرت ، فى عشرة آلاف فارس ، فتقدم حميد فى سنة ٣٢١ هـ إلى المغرب ومعه حامد بن حمدان الهمذانى . فلما علم مدين ابن موسى بقدومهما إلى فاس، فرعنها ولحق بأبيه . فدخلها حميد، واستعمل

---

(١) ليفى بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والاندلس ، ص ٤٠

(٢) الجزنائى ، ص ١٩ ، ٢٠

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٢٨٢

عليها حامد بن حمدان الهمذانى . ثم عادحميد إلى إفريقية(١). وأقام حامد واليا على فاس من قبل الفاطميين، إلى أن ثار عليه أحمد بن بكر بن عبد الرحمن بن أبى سهل الجذامى فى سنة ٣٢٢ هـ، عقب وفاة عبيدالله المهدى، فقتل حامدا ابن حمدان، وبعث برأسه ورأس ولده إلى موسى بن أبى العافية، فأرسلهما موسى إلى عبد الرحمن الناصر بقرطبة مع سعيد بن الزراد، وعادت الدعوة فى فاس باسم الخليفة عبد الرحمن الناصر. ولكن الخليفة الفاطمى أبا القاسم بن عبيد الله المهدى لم يرض بهذا الوضع، فسير قائده ميسور الفتى إلى المغرب فى سنة ٣٢٣ هـ، وتقدم ميسور إلى فاس، فحاصرها أياما، فخرج إليه أحمد بن بكر إلى معسكره مبايعا، وقدم إليه هدية نفيسة وأموالا، فقبض عليه ميسور، وبعث به إلى المهدية (٢). وما إن علم أهل فاس بغدر ميسور، امتنعوا عليه، وتحصنوا داخل أسوار مدينتهم، وقدموا على أنفسهم حسن ابن قاسم اللواتى، فحاصرهم ميسور سبعة أشهر، ولما طال عليهم الحصار فاوضوه فى الصلح، فصالحهم على أن يعطوه ستة آلاف دينار، وأنطاعا ولبودا وقربا للماء وأثاثا، وعلى أن يبايعوا لأبى القاسم الشيعى، ويسجلوا اسمه فى السكة، ويخطبوا له على منابرهم، وأقر ميسور عليهم حسن بن قاسم اللواتى، ثم ارتحل عنهم (٣). وظل حسن اللواتى عاملا على فاس إلى أن قدم أحمد بن بكر من المهدية، فتخلى له حسن عن الولاية فى سنة ٣٤١ هـ.

---

(١) البكرى، ص ١٢٨ — ابن الخطيب، أعمال الأعلام ص ٢١٦

(٢) نفس المرجع — ابن الخطيب ص ٢١٦ — القلقشندى، جـ ٥ ص ١٨٤ — السلاوى جـ ١ ص ١٨٩

(٣) البكرى، ص ١٢٨ — القلقشندى ص ١٨٤ — السلاوى ص ١٨٩

ثم بايع أهل فاس الناصرلدين الله فيمن بايعه من أهل العدوة ، فولى عليهم محمدا بن الخير المغراوى ، فظل بليها من قبل الخليفة الأموى ما يقرب من عام ، ثم رحل إلى الأندلس للجهاد ، واستخلف عليها ابن عم أحمد ابن أبى بكر بن أحمد بن عثمان بن سعيد الزناتى، وهو الذى بنى صومعة جامع القرويين بفاس سنة ٣٤٤ هـ (١) .

٣ ـ سيطرة زنانة على فاس وموالاتها لخلفاء بنى امية بقرطبة :

غضب المعز لدين الله الفاطمى لخروج المغرب الاقصى من طاعته ، وانضوائه إلى الخلافة الاموية فى الأندلس ، فسير جوهرا الصقلى فى جيش كثيف من برابر كتامة وصنهاجة ، لاستنزال الثوار فى المغرب ، وإعادة النفوذ الفاطمى على المغرب ، ونجح جوهر فى استرجاع بلاد العدوة ، وقدم إلى فاس لمحاصرتها ، ولكنها استعصت عليه ، فتركها إلى سجلماسة ، واستولى عليها . ومن هناك مضى إلى فاس ، فنزل عليها فى سنة ٣٤٩ هـ ، فحاصرها من سائر جهاتها زهاء نصف شهر ، ثم اقتحمها قائده زيرى ابن مناد الصنهاجى بالسيف ، إذ تسنم أسوارها ليلا ودخلها فقتل بها عدداً كبيرا من سكانها ، وقبض على أميرها أحمد بن أبى بكر الزناتى عامل الناصر الأموى عليها ، ونهب المدينة ، وقتل حماتها وشيوخها ، وسبى أهلها، وهدم أسوارها. ودخلها جوهر فى ٢٠ رمضان سنة ٣٤٩ هـ . ويروى ابن الأثير قصة سقوط فاس فيقول : « ثم سار منها إلى فاس وبها أحمد بن بكر ، فأغلق أبوابها، فنازلها جوهر ، وقاتلها مدة ، فلم يقدر عليها، وأتته هدايا الأمراء الفاطميين بأقاصى السوس، وأشاروا على جوهر وأصحابه

---

(١) الجزناءى ص ٣٦ ـ السلاوى ص ١٩٧

بالرحيل إلى سجلماسة .... وسلك تلك البلاد جميعها، فافتتحها ، وعاد إلى فاس فقاتلها مدة طويلة، فقام زيرى بن مناد، فاختار من قومه رجالا لهم شجاعة ، وأمرهم أن يأخذوا السلاليم ، وقصدوا البلد، وصعدوا إلى السور الأدنى فى السلاليم ، وأهل فاس آمنون ، فلما صعدوا على السور ، قتلوا من عليه ونزلوا إلى السور الثانى ، وفتحوا الأبواب ، وأشعلوا المشاعل ، وضربوا الطبول ، وكانت الإمارة بين زيرى وجوهر ، فلما سمعها جوهر ركب فى العساكر فدخل فاس » (١) .

وظل النفوذ الفاطمى قائما بفاس إلى أن أرسل الخليفة الحكم المستنصر قائده غالب إلى المغرب فى سنة ٣٦٢ ، فسار إلى فاس فى سنة ٣٦٣ هـ ، فدخلها ، واستعمل عليها محمد بن أبى على بن قشوش بعدوة القرويين ، وعبد الكريم بن ثعلبه بعدوه الأندلس ، وعاد غالب بعد ذلك فى آخر رمضان سنة ٣٦٣هـ إلى الأندلس . ولم يمض على رحيله ست سنوات حتى زحف بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى على المغرب الأقصى ، وحاصر مدينتى فاس ، وقتل عامليها محمد أبى على بن قشوش، وعبد الكريم بن ثعلبة، واستعمل على فاس محمد بن عامر المكناسى ، ولما تغلب بلكين على المغرب خرج بنو مغراوة من بنى خزر وبنى يفرن إلى سبتة ، وعبر محمد بن الخير من آل خزر إلى المنصور يستنجد به . وظل نفوذ الفاطميين قائما فى فاس حتى أرسل المنصور بن أبى عامر ابن عمه أبا الحكم عمرو بن عبدالله بن أبى عامر الملقب بعسكلاجه سنة ٣٧٥هـ لمواجهة تقدم الحسن بن كنون الوافد من مصر . ونجح عسكلاجة فى دخول فاس ، واستولى على عدوة الأندلس ،

---

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ، ص ٣٥٤

وخطب فيها لبني أمية . وبقي محمد بن عامر المكناسي عامل الفاطميين بعدوة القرويين حتى دخلها أبو بياش عنوة في سنة ٣٧٦ هـ ، وقبض على محمد بن عامر وقتله ، وخطب فيها أيضا لبني أمية (١) .

عاد عسكلاجة إلى الأندلس، فعقد المنصور على المغرب الأقصى للوزير حسن بن أحمد بن عبد الوذود السلمي سنة ٣٧٦ هـ ، وأوصاه بمغراوة ، ولاسيما مقاتل وزيري ابني عطية ، لإخلاصهم للأمويين. فنزل الوزير حسن بن أحمد بفاس ، وضبط المغرب ، وأحسن إدارته .

ولما قتل الوزير ابن عبد الودود في سنة ٣٨١هـ ، وعقد المنصور بن أبي عامر لزيري بن عطية من بعده على المغرب وفاس . وكان أبو البهار بن زيري بن مناد الصنهاجي قد خرج على أخيه أبي الفتح منصور بن بلكين أمير إفريقية وظهير الدولة الفاطمية في مصر ، وتغلب على تلمسان ووهران وهنين وشلف وونشريش وتنس ، وخطب للخليفة هشام المؤيد ، وبايع له، وكتب إلى ابن أبي عامر يخبره بأنه دخل في طاعته ، وأنه يرغب في أن يتصل به زيري بن عطية الزناتي صاحب فاس ، فاشترط عليه ابن أبي عامر لذلك أن يبعث إليه ابنه رهينة ، ففعل أبو البهار ، ووجه ابنه في مركب مع كاتبه ميمون المعروف بابن الداية ، فغرقت بها في البحر ، فوجه أبو البهار ولده الآخر فوصل إلى المنصور (٢) ، وعندئذ أرسل إليه المنصور بن أبي عامر بعهده على مابيده من بلاد، كما أرسل إليه هدية وخلعا وأربعين ألف

---

(١) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٥ ص ١٨٥ — السلاوي ، الاستقصا ، ص ٢٠٨

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ٣٥٠

دينارا (١)، ثم كتب المنصور إلى زيرى بن عطية، يأمره أن ينتصر لأبي البهار ويعضده ، فلما بلغ أبا البهار ذلك ، رحل إلى فاس ، والتقى مع زيرى بن عطية ، واتفق معه . وأقام أبو البهار على بيعة هشام المؤيد شهرين ثم نكث وخلعها ، وعاد يظاهر الدولة الفاطمية، فغضب المنصور لذلك ، وكتب إلى زيرى بن عطية بعهده على بلاد أبي البهار ، وأمره بمحاربته عليها . فزحف زيرى بن عطية من مدينة فاس في جيوش لا تحصى من قبائل زناتة وغيرهم ففر أبو البهار أمامه ، ولحق بأخيه منصور بن بلكين بافريقية. وتمكن زيرى من الاستيلاء على جميع أعمال أبي البهار ، وبذلك امتد سلطان زيرى من السوس الأقصى إلى الزاب . وكتب بالفتح إلى ابن أبي عامر ، وبعث إليه في سنة ٣٨١هـ هدية نفيسة القيمة، منها مائتا فرس من عتاق الخيل، وخمسون جملا مهريا، وألف درقة من جلود اللمط ، وأحمال كثيرة من قسى الزان، وقطوط الغالية والزرافة ، وأصناف الوحوش الصحراوية ، وألف حمل من التمر الجيد في جنسه ، وأحمال كثيرة من ثياب الصوف الرقيقة ، فسر بها المنصور (٢) .

وأقام زيرى بفاس ، وأسكن قبيلته مغراوة الزناتيين بأنحائها ، بينما رفع بني يفرن عنها وعن أخوازها ، وأبعدهم إلى نواحي سلا ، فسكنوها ؛ وفي عام ٣٨٢هـ استدعاه المنصور بن أبي عامر لزيارة قرطبة ، فاستخلف زيرى على المغرب ولده المعز بن زيرى ، وأمره بسكنى تلمسان ، واستخلف على عدوة الأندلس من فاس عبد الرحمن بن عبد الكريم بن ثعلبة ، وعلى عدوة القرويين منها علي بن محمد بن ابي علي بن قشوش ، ومضى إلى الأندلس ،

---

(١) السلاوى ، ج ١ ص ٢١٠

(٢) السلاوى ، ج ١ ص ٢١٠

وقدم بين هدية عظيمة،منها طائر فصيح يتكلم العربية والبربرية، ودواب من دواب المسك والغاليـة ، ومهاة وحشية تشبه الفرس ، وحيوانات غريبة ، وأسدان عظيمان فى قفصين من حديد ، وشىء كثير من التمر فى غاية الكبر الواحدة منه تشبه الحيارة عظما، وحمل معه من قومه ٣٠٠ فارس، ومن خدمه وعبيده ٣٠٠ عبد . فاحتفل المنصور بقدومه احتفالا عظيما وخرج إلى لقائه فى خاصته وحاشيته (١) ، وأنزله فى قصر جعفر الحـاجب ، وتوسع له فى الجرايات والإكرام ، ولقبه باسم الوزير، ومنحه الأموال الكثيرة ،وخلع عليه الخلع النفيسة ،ولم يطل مقام زيرى بقرطبة ، فقدعجل المنصور بارساله إلى المغرب عندما علم باستيلاء يدو بن يعلى اليفرنى صاحب سلا على عدوة الأندلس من فاس فى ذى القعدة سنة ٣٨٢هـ . فأقفل زيرى عائدا ، فـنزل مرسى طنجة . ويذكر السلاوى أنه لما نزل بهـذه المدينة عبر عن رغبته فى الاستقـلال بالمغرب بقوله : « الآن علمت أنك لى » فقـد استخف بلقب الوزارة الذى منحه المنصور إياه ، وكان يطمع فى الإمارة ، فلما بلغت مقالته المنصور صر عليها أذنه ، وزاد فى اصطناعه (٢) .

ولما نزل زيرى بن عطية إلى طنجة جد فى السير حتى وصل إلى فاس لاستخلاصها من بنى يفرن ، واشتبك زيرى بن عطية مع يدو بن يعلى فى عدة مواقع بالقرب من فاس ، انتهت بهزيمة بنى يفرن ،وتمكن زيرى من دخول فاس ، وقبض على يدو وقتله ،وأرسل رأسه إلى المنصور فى سنة ٣٨٣هـ (٣).

---

(١) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ج ٣ ص ١٥٧ ـ السلاوى ، ص ٢١١

(٢) السلاوى ، ص ٢١١

(٣) ابن الخطيب ، المرجع السابق ص ١٥٨ ـ السلاوى ، ج ١ ص ٢١٢

وصفا له الجو بعد ذلك فى المغرب ،وأصبح يحكمه بـلا منازع ،وظلت عـلاقته مع المنصور حسنه فى الظاهر ، ولكنه كان يضمر فى قـرارة نفسه الخروج عليه .

وفى سنة ٣٨٦ ﻫ فسدت العلاقات بينهما بسبب استبداد المنصور بالخليفة هشام المؤيد وتغلبه على الدولة بتفويض من الخليفة أذاعه المنصور فى سائر أنحاء الدولة الأموية بالأندلس والمغرب ،وكانت السيدة صبح قد اتصلت بزيرى بن عطية ، وأغرته على خلع طاعة المنصور ،وعهدت إليه بأن يقوم مقـام المدافع عن حقوق الخليفة الشرعية (١) . وذكـر ابن عذارى أسباب خروج زيرى على المنصور بقوله : « ثم إن زيرى بن عطية المغراوى نكث على ابن أبى عامر بعد الحب الشديد ، والوفاء الأكيد ، وطعن على ابن أبى عامر سلبه الملك هشام ،وامتعض لهشام المؤيد وغلبة ابن أبى عامر عليه » (٢). واتصـل بالمنصور أن زيرى ينتقصه ، ويعـرض فى شأنه ، وحجره على المؤيد ، فقطع عنه رزق الوزارة الذى كان يجريه عليه فى كل سنة ، ودفع هذا التصرف من جانب المنصور زيرى إلى قطـع اسم المنصور من الخطبة وقصر الدعاء فيها لهشام (٣) . ولم يكتف زيرى بذلك بل طرد عمال المنصور من العرب وألجأهم إلى سبتة (٤) . وعلى أثر ذلك سير ابن أبى عـامر فتاه واضحـا فى جيش كثيف ، إلى المغرب ، فعبر واضح الزقاق إلى ساحـل

(١) على أدهم ، المنصور بن أبى عامر ، دائرة معـارف الشعب ، عدد ٦٧ ، القاهرة ١٩٥٩ ص ٢٩٩

(٢) ابن عذارى ج ١ ص ٣٦٢

(٣) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، ص ١٥٨

(٤) السلاوى ، ج ١ ص ٢١٣

العدوة ، ونزل بطنجة حيث انضم إليه كثير من بربر غمـارة وصنهاجة ، وزحف واضح نحو فاس ، فخرج إليه زيرى بن عطية فى جموع كثيرة من زناتة ، والتقى الجيشان فى موضع يعـرف بوادى ردات ، يقع بالقرب من أحواز البصرة (١) . ودام القتال بينهما زهاء ثلاثة أشهر ، تمكن زيرى فى نهايتها من التغلب على واضح ، فتراجع منهزما إلى طنجة ، وكتب إلى المنصور من هناك يستمده . فخرج إليه بنفسه من قرطبة حتى وصـــل الجزيرة الخضراء ، وأجاز إليه ابنه عبد الملك المظفر ، على رأس جيش ضخـم من عسكر الأندلس ، وبلغ ذلك زيرى ، فاستنفر قبـائل زناتة ، فوافته فى جموع كثيفة من البربر قادمين من بلاد الزاب فيما وراء ملوية وسجلماسه ، فسار بهم زيرى لمقاتلة عبد الملك بن المنصور ، وتم اللقاء بوادى منى بأحواز طنجة ، ودارت بين الجيشين معركة عنيفة دامت طوال اليوم ، وتمكن غلام أسود كان زيرى قد قتل خاله من طعن زيرى بسكينه فى لبته ، فجرح جرحا بالغا ، وانهزمت زناتة ، وفر زيرى ومن بقى معه إلى موضع يعرف بمضيق الحية بالقرب من مكناسة ، حيث اجتمع إليه فله ، ولم يكد زيرى يستدرك أمره ، ويجمع فله حتى باغته عبد الملك بخمسة آلاف من كماة رجـاله على رأسهم واضح الفـتى ، وذلك فى منتصف رمضان سنة ٣٨٨ هـ ، فأوقع بهم واضح وقيعة عظيمة ، استأصل فيها رجال زيرى ، وأسر منهم نحو ألفين ، ضمهم إليه عبد الملك ، وأركبهم فى جنده ، وفر زيرى فى شرذمة من أصحابه إلى فاس (٢)

---

(١) ابن الخطيب ، ص ١٥٨ — السلاوى ، ص ٢١٤

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٦٣ — ابن الخطيب ، ص ١٥٩ — السلاوى ، ص ٢١٦

وكان أهل فاس قد علموا بهزيمته، فأغلقوا أبواب المدينة دونه، وأخرجوا إليه ذويه، فانصرف بهم إلى الصحراء، ونزل بأحواز صنهاجة. ودخل المظفر عبد الملك مدينة فاس في شوال سنة ٣٨٨ هـ، وكتب إلى أبيه بالفتح، فقرىء كتابه بمنابر الأندلس، وكتب إليه المنصور بعهده على المغرب.

انصرف واضح إلى قرطبة، بينما أقام المظفر ستة أشهر بفاس، فأحسن إلى أهلها، ورأوا من فضله وعدله مالم يروه من ولاة فاس من قبل. ثم صرفه المنصور إلى الأندلس، واستعمل على فاس عيسى بن شعيد، صاحب الشرطة، فأقام بها إلى صفر سنة ٣٨٩ هـ، ثم عزله وولى عليها واضحا [١]. فأقام بها فترة من الوقت، ثم استخلف عليها عبد الله بن أبي عامر ابن أخي المنصور، ثم تعاقب على ولاية فاس من قبل واضح اسماعيل بن البوري، فالأحوص معن بن عبد العزيز، الذى ظل يقوم بأمر فاس حتى وفاة المنصور [٢].

أما زيرى فقد جمع حشوداهائلة من زناتة، واستغل فرصة اختلاف الصنهاجيين على باديس بن منصور أمير إفريقية وزحف زيرى إليهم، وهزمهم، ودخل تاهرت وتنس وتلمسان وشلف، وأقام فى هذه البلاد الدعوة للمؤيد هشام ثم توفى فى المحرم سنة ٣٩١ هـ، فخلفه ابنه المعز بن زيرى. واتصل المعز بالمظفر عبد الملك فى قرطبة يطلب منه أن يصفح عنه، فصرف عبد الملك بن أبي عامر واضحا عن ولاية المغرب، وكتب إلى المعز بن زيرى بعهده على

(١) السلاوى ج ١ ص ٢١٦

(٢) ابن عذارى ج ١ ص ٣٦٣

فاس وسائر أعمال المغرب فى سنة ٣٩٣ هـ بعد أن استوثق منه بأخذ ولده معنصر رهينة عنده. ولما توفى المظفر وخلفه أخوه عبد الرحمن شنجول على الحجابة ،بعث إليه المعز بن زيرى هدية رائعة تتألف من ٧٠٠ من الخيـل ، وأحمال من الدرق واللمط والسلاح ، فسر عبد الرحمن وجـدد له ولاية المغرب(١). وظل المعز أميرا على فاس والمغـرب حتى توفى فى جمادى الأولى سنة ٤٢٢ هـ ، فخلفه ابن عمه حمـامة بن المعز بن عطية ، وكانت الخـلافة الأموية فى قرطبة قد انقرضت فى هذه السنة ،فاستقل حمامة بالمغرب الأقصى، واستفحل ملكه ، ثم نازعه على المغرب الامير أبو الكمال تميم بن زيرى بن يعلى اليفرني سنة ٤٢٤ هـ ، وقامت بينهما حروب طويلة انهزم فيها حمامة ، وفر إلى تلمسان ،ودخل تميم مدينة فاس ،وقتل فيها عدداً كبيراً من اليهود . ولكن حمامة لم يلبث أن تغلب عليه وأجلاه عن فاس فى سنة ٤٣١ هـ ،وأقام بالمغـرب حتى توفى سنة ٤٤٠ هـ [٢] ، وقيل سنة ٤٣٣ [٣] . وكان حمـامة مستنيرا ، حسن السياسة ، فتمتعت فاس فى أيامه ، وشهدت فترة من الرخاء والازدهار. وكان الشعراء يقصدونه من الأندلس ، ويمدحونه بأشعارهم[٤].

ولما توفى خلفه ابنه أبو العطاف دوناس واستولى على فاس وسائر ما كان لأبيه من مدن المغرب ، ولكن عهده كان مشحونا بالاضطراب والفتن ، فقد خرج عليه ابن عمه حماد بن معنصر بن المعز بن زيرى ، فقامت بينهما حروب طويلة ، وغلب حماد على ضواحى فاس ،وحاصرها حصارا شديدا ، وقطع

---

(١) المرجع السابق ص ٣٦٤
(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ص ١٦١
(٣) ابن عذارى ، ص ٣٦٥
(٤) نفس المرجع ، ص ٣٦٥

مياه الوادى من عدوة القرويين ، إلى أن توفى حماد، واستقام أمر دوناس، وسادفاس عهد من السلم والهدوء ، استمر حتى وفاته فى سنة ٤٥٢ هـ . وقد ازدهرت فاس فى عهده ، ونمـا عمرانها ، وأصبحت بحق عاصمة المغرب ، وكان دوناس قد احتفل بعمارتها ، وأدار سورا يحيط بها وبأرباضها ، وبنى بهـا المساجد والحمامات والفنـــادق ، وأصبحت فاس مدينة واحـدة فى أيامه (١) .

ولما توفى دوناس فى سنة ٤٥٢هـ خلفه على فاس ابنه الفتوح بن دوناس، ونزل بعدوة الأندلس ، فنازعه الأمر أخوه الأصغر عجيسة ، فاستولى على عـدوة القرويين ، وقامت الحرب بين الأخوين ، فحصن الفتـوح عدوة الاندلس ، وبنى بها قصبة لسكناه بالموضع المعروف بالكدان ، وفتح بابا فى العدوة من الجهه القبلية سماه باسمه . كذلك حصن عجيسة عدوة القرويين، وبنى بها قصبة لسكناه بعقبة الصعتر ، وفتح هنـاك بابا فى الجهه الشمالية سماه باسمه ، واشتد العداء بين فتوح وعجيسة ، وأصبح القتال بينهما يوميا فى الموضع المسمى بكهف الوقادين ، ونتـج عن كثرة الحروب والاضطرابات اشتداد الغـلاء ، وانتشار المجاعة فى المدينة . واستمر القتــــال دائرا بين الأخوين زهاء ثلاث سنوات ، إلى أن تمكن الفتوح من اقتحـــام عدوة القرويين ، وقتل أخاه ، واستـــولى على العدوتين ، فأمر بتغيير اسم باب عجيسة ، فأسقط العين وأضاف إلى الاسم حرفا الألف واللام ، فأصبح هذا

---

(١) ابن الخطيب ، ص ١٦٢ ــ القلقشندى ، ص ١٨٧ ــ الجـــزناءى ص ٣٠ ــ السلاوى ص ٢٢٢

الباب يعرف بباب الجيسة (١) . وفى أثناء ذلك كانت لمتونه قد ظهرت فى أطراف البلاد ، وتغلبت عليها ، وتمكن عبد الله بن ياسين من دخول أغمات وما يليها (٢) ، وتمكن خليفته يوسف بن تاشفين من افتتاح بلاد كثيرة ، فخاف الفتوح على نفسه من الملثمين ، فتخلى عن مدينة فاس لأحد أقاربه هو معنصر بن حماد بن منصور بن المعز بن زيرى ، وعندئذ زحف بلكين بن محمد بن حماد ، صاحب قلعة بنى حماد ، إلى فاس فى سنة ٤٥٤ هـ ، ودخلها ، وأخذ عدد من أعيانها رهائن لديه ، ثم عاد إلى قلعته . وكان معنصر بن حماد قد تلقى بيعة قبائل مغراوة بفاس وأحوازها فى رمضان سنة ٤٥٥ ، وكان معنصر هذا شجاعا حازما ، تمكن من مدافعة الملثمين من لمتونة ، وانتصر عليهم فى إحدى المواقع ، ولكن يوسف تمكن من دخول مدينة فاس صلحا فى سنة ٤٥٥هـ ، وخلف عليها عامله ، ومضى لمحاربة غمارة ، وافتتح كثيرا من بلادها وقلاعها ، فاستغل معنصر فرصة اشتغال ابن تاشفين بمحاصرة قلعة فازاز ، ودخل مدينة فاس ، وقتل عامل يوسف عليها ومن معه من لمتونة .
ولما بلغ يوسف بن تاشفين خبره ، سير مهدى بن يوسف الكزنائى ، صاحب مكناسة ، إلى فاس ، فهاجمه معنصر فى طريقه ، وهزمه وقتله فى سنة ٤٥٦هـ ، فسرح يوسف عساكر لمتونة إلى حصار فاس ، وقطع المرافق عنها ، حتى اشتد الأمر على أهلها ، فبرز إليه معنصر ، واشتبك مع لمتونة فى قتال شديد انتهى بهزيمة معنصر ومقتله فى سنة ٤٦٠ هـ . فبايع أهل فاس ابنه تميم .
وعانى أهل فاس فى أيامه من حصار الملثمين ومن الفتنة ومن الغلاء

---

(١) الجزنائى ، ص ٣١

(٢) ابن عذارى ، ص ٢٦٥

ولما فرغ يوسف بن تاشفين من أمر غمارة سنة ٤٦٢هـ ، زحف إلى فاس، وحاصرها أياما ، ثم افتتحها عنوة المرة الثانية ، وقتل بها زهاء ثلاثة آلاف من قبائل مغراوة وبنى يفرن ومكناسة ، وقبائل زناتة ، وكان تميم من جملتهم[1] . وقيل أن يوسف دخل مدينة فاس فى سنة ٤٦١ [2] ، وقيل فى سنة ٤٦٧ [3] .

٤ ـ فاس فى ظل دولتى المرابطين والموحدين:

لما دخل يوسف بن تاشفين مدينة فاس ، أمر بهدم الأسوار التى كانت تفصل بين عدوتى القرويين والأندلسيين ، وجعلها مدينة واحدة [4] ، وحصنها ، وأمر ببنيان المساجد فى شوارع فاس وأزقتها ، كما أمر ببناء الحمامات والفنادق والأرحاء والأسواق [5] . واهتم يوسف بن تاشفين بمدينة فاس اهتماما كبيرا على الرغم من اتخاذه مدينة مراكش عاصمة لدولته، وفى ذلك يقول الجزناءى : « ومازال كبير لمتونة وأميرها يوسف بن تاشفين فى زيادة المساجد ، وسقاياتها ، وحماماتها ، وخاناتها ، وإصلاح أمورها ، وأقدم من قرطبة جملة من صناع ، فبنوا منها كثيرا إلى ما يذكر بعد إن شاء الله تعالى ، وفى أيامه صارت العدوتان قطرا واحدا » (٦) . وفى أيام

(١) القلقشندى ، ص ١٨٨ ـ السلاوى ، ص ٢٢٥

(٢) ابن الخطيب ، ص ١٦٣

(٣) الحلل الموشية ، ص ١٦

(٤) القلقشندى ، ص ١٨٨ ، ١٩٠ ـ السلاوى جـ ٢ ، ص ٢٩

(٥) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٠

(٦) الجزناءى ، ص ٣٢

علي بن يوسف شيد سور القوراجة(١) التي تقع بين باب الجيسة وباب أصليتن على يد قاضيه عبــــد الحق بن معيشه ، كما أقام يوسف بن تاشفين سور زيتون بن عطية وأقام البرج الكبير القائم هناك (٢) .

وقد ازدهرت فاس في عهد المرابطين ، وأصبحت بحق العاصمة الثانية للمغرب. ولقد وصفها الإدريسي في عصر المرابطين بقوله : « وبمدينة فاس صناع ومعايش، ومبان سامية ، ودور وقصور ، ولأهلها اهتمام بحوائجهم ومبانيهم وجميع آلاتهم ، ونعمها كثيرة ، والحنطـة بها رخيصة الأسعار جدا دون غيرها من البلاد القريبة منها ، وفواكهها كثيرة ،وخصبها زائد ، وبها في كل مكان منها عيون نابعة ، ومياه جارية، وعليها قباب مبنية ، ودواميس محنية، ونقوش وضروب من الزينة ، وبخارجها الماء مطرد نابع من عيون غزيرة ، وجهاتها مخضرة مونقة ، وبساتينها عامرة ، وحدائقها ملتفة ، وفي أهلهـــا عزة ومنعة » . ثم يقول الإدريسي في موضع آخر : « ومدينة فاس قطب ومدار لمدن المغرب الأقصى... ومدينة فاس هي حضرتها الكبرى ومقصدها الأشهر ، وعليها تشد الركائب ، وإليها تقصد القوافل ويجلب إلى حضرتها كل غريبة من الثياب والبضائع والأمتعة الحسنة ، وأهلها مياسير ولها من كل حسن أكبر نصيب ، وأوفر حظ » (٣).

ظلت فاس تحتل المكانة الثانية في المغرب كله بعـد مدينة مراكش التي أسسها يوسف بن تاشفين في سنة ٤٥٤ هـ ، وفقـــا لرواية ابن أبي زرع ،

---

(١) القوراجة سور من البناء يتفرع من السور الأصلي للمدينه، وينتهي عادة ببرج برائي، يقوم بناؤه في أضعف المواقع الدفاعية في المدينة .

(٢) المرجع السابق

(٣) الادريسي ، ص ٧٥

وأقام بهـــا قصر الحجر سنة ٤٦٣ هـ (١)،وسورها علي بن يوسف سنة ٥٢٠ (٢).وظلت فاس خاضعة للمرابطين إلى أن ظهر الموحدون ، وتغلبوا على المرابطين .

وفي سنة ٥٤٠ هـ ،حاصر عبد المؤمن بن علي مدينة فاس ، وقد تحصن بها يحي بن أبي بكر الصحراوي (٣) ، من فلول جيش المرابطين في وهران ، وأقام الموحدون على حصار فاس ، وأهلهـــا يقاتلونهم خارج البلد قتالا عنيفا ، فعمد عبدالمؤمن إلى وسيلة لإرغام أهل فاس على التسليم، فأمر بسد فاس بالبناء والخشب والحطب ، ورفع التراب على الوادي سدا بعـد آخر حتى احتبس الماء عن مجراه ففاض على الفحص كله ، فأصبح الفحص بحيرة،

(١) الحلل الموشية ، ص ١٣

(٢) نفس المرجع ص ٧٠

(٣) هو يحيى بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين، حفيد الأمير يوسف بن تاشفين، ويلقب بالصحراوي ، وهو لقب أخذه عن أمه الصحراوية ، وكان لقبه الصحيح «ابن الصحراوية» ولقد تولى قيادة جيوش المرابطين بعد مقتل تاشفين بن علي ، فولي القيادة العامـــة لجيش المرابطين ، وفر الى فاس (ارجع الى ابن الاثير) . وقد أبلى يحي هذا في محاربة الموحدين بلاء حسنا ، ثم دخل في طاعة الموحدين ، وانضوى تحت لوائهم ، وحظي عندهم ، فتودوه على من وحد من لمتونة ، وظل كذلك الى أن نقلت عنه الى عبـد المؤمن تصرفات وأقوال أحنقته عليه . وكانت أخت يحيى متزوجة من الـكاتب الـكبير أبي جعفر أحمـــد بن عطية الذي استوزره عبد المؤمن ، فأراد أبو جعفر أن ينقذه من غضب عبد المؤمن عليه ، فنصحه بالفرار الى جزيرة ميورقة. فلما استدعاه عبد المؤمن تظاهر بالمرض،وبلغ عبد المؤمن ما فعله كاتبه أبو جعفر ، فقتل أبا جعفر في سنة ٥٥٣ ، ثم أمر بالقبض على يحيى وسجنه فمات فيه. (ارجع الى : أبو بكر الصنهاجي المعروف بالبيذق ، كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ، باريس سنة ١٩٢٨ ، تعليق ليفي بروفنسال ، ص ١٦٠ ، ملحوظـــة ١ ــ المراكشي ، المعجب ، ص ١٩٩ ، ٢٠٠)

واستعان عبد المؤمن على ذلك بالآلات واتساع الفحص ، ثم خرق السد مرة واحدة . فتدفقت المياه كالسيل العارم فهدمت السور بباب السلسلة، وتهدم من دور فاس مايزيد على ألفى دار . ولكن أهل فاس لم يستسلموا لذلك ، بل ازدادت مقاومتهم للموحدين،ووقفوا على متهدم السور ، وقاتلوه من خارجها ، وكان عبد المؤمن قد خرج من محاته أثناء الليل إلى مكناسة لمحاصرتها ، وترك على جيشه بفاس أبا بكر بن جبر فلما طال الحصار على أهل فاس إلى تسعة أشهر توجه والى المدينة أبو محمد الجيانى (١) خفية إلى أبي بكر بن جبر ، وأدخله من باب الفتوح ،وكان الجيانى المذكور موتوراً من الصحراوى إذ كان قد طالبه بمال كثير، وضيق عليه فيه ، ولم يكن فى وسع الجيانى أن يعطيه هذا المال، فتحايل على إدخال الموحدين ، فلم يشعر الصحراوى إلا وقد اقتحم الموحدون المدينة فى فجر يوم ١٤ ذى القعدة سنة ٥٤٠ هـ ، وتمكن الصحراوى من الفرار ومعه عمر بن بينتان، ويحيي بن سير، وجدال بن موسى وشيوخ لمطة . فهبطوا معنهر سبو إلى بنى تاودا ، ودخلوا قلعة آمرجو وتحصنوا بداخلها ، ثم فر الصحراوى إلى الأندلس ، أما عبد المؤمن فقد دخل مدينة فاس ، وأقام بها بعض الوقت،ثم خرج منها بعد أن ترك عليها أبا عبد الله محمد بن يحيي الجدميوى والجيانى (٢).

ولما دخل عبد المؤمن مدينة فاس ، أمر بفتح ثغرات واسعة بسورها،

---

(١) هو أبو محمد بن عبد الله بن خيار الجيانى كان عاملا على مدينة فاس فى دولة الملثمين(انظر ابن الابار ، الحلة السيراء ، ملحق رقم ٢ من كتاب البيذق ، أخبار المهدي ابن تومرت ، ص ١٤٦)

(٢) البيذق ، ص ١٠١ ، ١٠٢ — الحلل الموشية ، ص ١٠١ ، ١٠٢ — السلاوى، ص ١٠٧

وقال : « إنا لا نحتاج إلى سور ، وإنما أسوارنا سيوفنا وعدلنا » .وظلت فاس بلا أسوار إلى أن شرع الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور فى بنائها، وأكملها ابنه أبو عبد الله محمد الناصر عند زيارته لفاس فى سنة ٥٩٥هـ، وأقام بها ثلاث سنوات أتم خلالها بناء أسوار فاس وقصبتها الواقعة على الوادى (١)» كذلك أقام بها أبو عبد الله محمد الناصر باب الشريعة الذى سمى بباب المحروق نسبة إلى العبيدى الثائر بجبال وزان من أحواز فاس ، الذى علق رأسه على باب الشريعة ، وأحرق جسده فى وسط هذا الباب فى اليوم الذى ركبت فيه مصاريع الباب سنة ٦٠٠ هـ (٢) .

ولقد ازدهرت فاس فى عصر المرابطين والموحدين ، ازدهارا لم تشهده هذه المدينة من قبل، وتألقت تألقا جعلها جديرة بأن تكون العاصمة الفعلية للمغرب كله ، فى عصر هاتين الأسرتين . ويذكر عبد الواحد المراكشى ، أن « مدينة فاس هذه هى حاضرة المغرب فى وقتنا هذا ، وموضع العلم فيه، اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة ، إذ كانت قرطبة حاضرة الأندلس كما كانت القيروان حاضرة المغرب. فلما اضطرب أمر القيروان – كما ذكرنا – بعيث العرب فيها ، واضطرب أمر قرطبة باختلاف بنى أمية بعد موت أبي عامر محمد بن أبي عامر وابنه ، رحل من هذه وهذه من كان فيها من العلماء والفضلاء من كل طبقة ، فراراً من الفتنة ، فنزل أكثرهم مدينة فاس ، فهى اليوم على غاية الحضارة ، وأهلها فى غاية الكيس ونهاية الظرف ، ولغتهم أفصح اللغات فى ذلك الإقليم ، ومازلت أسمع المشايخ يدعونها بغداد المغرب ،

(١) الجزنائى ، ص ٣٢ – السلاوى ، ج ٢ ص ١٠٧

(٢) نفس المرجع ص ٣٣ – الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية ، تحقيق محمد بن أبى شنب ، الجزائر ، ١٩٢٠ ص ٣٨ .

وبحق ما قالوا ذلك ، فإنه ليس بالمغرب شيء من أنواع الظرف واللباقة فى كل معنى إلا وهو منسوب إليها ، وموجود فيها ، ومأخوذ منها ، لا يدفع هذا القول أحد من أهل المغرب ، ولم يتخذ لمتونة والمصامدة مدينة مراكش وطنا ، ولا جعلوها دار مملكة لأنها خير من مدينة فاس فى شيء من الأشياء ، ولكن لقرب مراكش من جبال المصامدة وصحراء لمتونة ، فلهذا السبب كانت مراكش كرسى المملكة ، وإلا فمدينة فاس أحق بذلك منها »(١). ثم يصف المراكشى مدينة فاس ، ويذكر عظمتها ونمو عمرانها فيقول : « وما أظن فى الدنيا مدينة كمدينة فاس ، أكثر مرافق ، وأوسع معايش وأخصب جهات ، وذلك أنها مدينة يحفها الماء والشجر من جميع جهاتها ، وتتخلل الانهار أكثر دورها زائدا على نحو من أربعين عينا ينغلق عليها أبوابها ، ويحيط بها سورها ، وفى داخلها وتحت سورها نحو من ثلاثمائة طاحونة تطحن بالماء ، ولا أعلم بالمغرب مدينة لاتحتاج إلى شيء يجلب إليها من غيرها ، إلا ما كان من العطر المندى سوى مدينة فاس هذه ، فانها لاتحتاج إلى مدينة فى شيء مما تدعو إليه الضرورة ، بل هى توسع البلاد مرافق ، وتملؤها خيرا »(٢).

كذلك يعظمها ابن أبى زرع ، ويذكر أن المرابطين والموحدين إنما نزلوا بمراكش واتخذوها قاعدة لدولتهم لقربها من بلادهم ، ولأنها مبنية فى جوارهم وبين قبائلهم(٣). ويصفها الجزنائى فى عصر دولتى المرابطين والموحدين

(١) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ٣٠٨

(٢) نفس المرجع ، ص ٣٥٩

(٣) Levi - Provençal, Extraits des historiens, p. 21

وصفا رائعا ،ويذكر عظمتها وما بلغته من عمران وعمارة ، ويشير إلى الصناعات التي ازدهرت فيها فيقول : « وانتهت مدينة فاس في أيام المرابطين والموحدين من بعدهم من الغبطة ، والرفاهية ، والدعة ، والأمن ، والعافية ما لم تبلغه مدينة من مدن المغرب لاسيما في زمن المنصور الموحدى وولده محمد الناصر ، وكانت المساجد بها سبعمائة وخمسة وثمانين ، ودور الوضوء اثنتين وأربعين ، والسقايات ثمانين ، والحمامات ثلاثة وتسعين ، وأرحاء الماء أربعمائة واثنين وسبعين ، ودور السكنى تسعا وثمانين ألفا ومائتين وستة وثلاثين ، والمصارى (١) سبعة عشر ألفا وإحدى وأربعين ،والفنادق أربعمائة وسبعة وستين ، والحوانيت تسعة آلاف واثنين وثمانين ، وقيسارية واحده في كل عدوة منها ، ودار السكة واحدة في كل عدوة منها ، والأطرزة(٢) ثلاثة آلاف وأربعة وتسعين ، ودور عمل الصابون سبعا وأربعين ، ودور الدباغين ستا وثمانين ، ودور الصباغ مائة وستة عشر ، ودور تشبيك الحديد والنحاس اثنى عشر ، ودور عمل الزجاج إحدى عشرة ، وكوش الجير مائة وخمسا وثلاثين ،وأفران الخبز ألفا ومائة وسبعين ، وأحجار عمل الكاغيد (٣) أربعمائة ، كل ذلك بداخل المدينة ، ودور الفخارة مائة وثمانين بخارج المدينة » (٤) .

(١) المصارى جمع مصرية ، والمصرية غرفة عليا بالدار تطل على الطريق ببروز ، وتشبه المشربية أو العلية، وكانت الغرفة في معظم الأحيان مشربية أى مزودة بنافذة مشبكة الاخشاب .

(٢) المقصود بالاطرزة الانوال

(٣) الكاغيد هو الورق

(٤) الجزنائى ، ص ٣٣

ولكن هـــذا العمران المزدهر لم يلبث أن تعرض للتدمير فى أيام المجاعة والفتنة التى قامت فى أيام العادل وأخيه المأمون أبى العلاء إدريس ، فى أواخر عصر الموحدين زهاء عشرين سنة (١).

٥ ـ فاس عاصمـة بنى مرين : (أنظر خريطة رقم ١٠)

انقرضت دولة الموحدين بوفاة أبى العلاء إدريس الواثق بالله المعروف بأبي دبوس ، ودرست آثارها ، واستولى الخراب والدمار على معظم ديار المغرب ، وخاصة فاس ، بسبب الحروب القائمة بينه وبين المرتضى أبي حفص عمر بن اسحق . وقد تحالف أبو دبوس مع بنى مرين ليظفر بالخلافة، وتخلى لهم نظير معاونتهم له عن مراكش حاضرة الموحدين ، ففر المرتضى إلى آزمور حيث مات قتيلا فى سنة ٦٦٥ هـ ، ولكن أبا دبوس نكث بعهده مع بنى مرين، فاضطر الأمير أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المرينى إلى مهاجمة مراكش فى نفس هذه السنة ، وانتهى الأمر بمقتل أبى دبوس أمام أسوار مدينة مراكش ، فدخلها بنو مرين ، وبعثوا برأس أبي دبوس إلى فاس . وكانت فاس قد تعرضت لهجمات بنى مرين فى سنة ٦٤٢ هـ فى خلافة السعيد على ، ولكنهم لم يتمكنوا من دخولها ، ولم يمض أربع سنوات على ذلك حتى تمكن الأمير أبو بكر بن عبد الحق المرينى من الاستيلاء على مدينة فاس ، وانتزعها من عاملها السيد أبي العباس ، إذ بايعه أهلها فى الرابطة الواقعة خارج باب الشريعة ، ودخلها جيش بنى مرين فى ٢٦ ربيع الآخر سنة ٦٤٦ هـ بعد موت السعيد فى مراكش بنحو شهرين. واستخلف عليها مولاه السعود بن خرباش، وسار لمحاصرة فازاز ، فانتقض أهل فاس ، مع طائفة من المرتزقة النصارى

(١) المرجع السابق ص ٣٤

بقيادة شريد الفرنجي على بني مرين في ٢٠ شوال سنة ٦٤٧ ، وقتلوا السعود وأربعين من رجاله، وبايعوا المرتضى. وعندما علم أبو بكر بن عبدالحق بذلك رفع الحصار عن فازاز ، وقدم إلى فاس ، وأحاطها بعسكره ، وقطع المادة عنها ، ويئس أهل فاس من نصرة المرتضى لهم ، فسألوا أبا بكر الأمان ، فأمنهم ، واسترجع المدينة [1] . وفي فاس توفي الأمير أبو بكر في قصره بالقصبة في سنة ٦٥٦ ، ودفن داخل باب الجيسة ، وخلفه من بعده ابنه أبو حفص عمر ، ولكن عمه المنصور بالله يعقوب بن عبد الحق هاجم فاس ودخلها في سنة ٦٥٧ هـ ، وأصبحت فاس حاضرة دولة بني مرين ، فانتعشت المدينة في عصرهم . وكان أول مافعله أبو يوسف يعقوب أن أمر باخراج أجناد الروم الذين كانوا يسكنون فاس ، وبنى لهم المرسى القديم بخارج باب الشريعة على يد عامله عليها أبي العلاء بن أبي طلحة [2] .

اهتم بنو مرين بفاس اهتماما خاصا ، واعتنوا بأمرها ، وزودوها بمدينة ألحقت بها تعرف بالمدينة البيضاء المعروفة بفاس الجديد ، واتخذوها داراً للامارة[3] منذ عهد المنصور أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني ، فقد عزم أبو يوسف بعد أن تمهد ملكه في المغرب أن يختط بلدا ينسب إليه، ويتخذها دار ملكه، وقرار سلطانه، ويسكنها هو وحاشيته وحشمه وأولياؤه، فأمر ببناء المدينة البيضاء ، بلصق مدينة فاس ، فخرج في ٣ شوال من سنة

(١) تعرضت فاس لحريق كبير في أسواقها من قنطرة الصباغين قرب باب السلسلة، فأحرقت سوق السقاطين والقيادين والصباغين ووصلت الى باب الجنائز فأحرقت مصاريعه (الذخيرة السنية ، ص ٨٠)

(٢) نفس المرجع ص ١٠٠ ، ١٠٦

(٣) اسماعيل بن الاحمر، روضة النسرين في دولة بني مرين، الرباط ، ١٩٦٢ ص ١٩

٦٧٤ ﻫ ومعه العرفاء والبنائين وأهل المعرفة بالصنائع ، فتخيروا موضعها على وادى فاس من جهة أعلاه ، وشرع فى حفر أساسها فى هذا اليوم واختطها ، وبناها ، وشيدها ، وبنى أسوارها وجامعها وأسواقها (١) ، ونزلها بحاشيته وذويه فى نفس هذه السنة ، واختط الناس بها الدور والمنازل ، وأجريت فيها المياه إلى القصور (٢) ، وأقام القناطر بطرقاتها مثل قنطرة وادى النجاء وقنطرة مرين(٣) . ولما أتم بناء سور مدينة فاس الجديد ، أمر فى سنة ٦٧٦ﻫ ببناء الجامع الكبير بفاس الجديد للخطبة (٤) ، فأسس على يدى أبى عبد الله ابن عبد الكريم الحدودى ، وأبى على بن الازرق والى مكناسة ، واشتغل فى فى البناء أسرى الروم الذين قدم بهم من الأندلس . وقد تم بناء هذا الجامع فى رمضان سنة ٦٧٧ ﻫ ، وأقيمت فيـــه الصلاة . وفى سنة ٦٧٩ ﻫ ، أقام بمدينته الجديدة الأسواق من باب القنطرة إلى باب عيون صنهاجة ، وبنى بها حماما عظيما ، وقصورا لوزرائه ، وعمرت المدينة بعد ذلك بالمدارس والفنادق والأسواق » (٥) . ولقـــد أجرى يعقوب المياه إليها عن طريق وادى الجواهر وغدير الحمص الذى ينبثق ماؤه من الموضع المعـروف برأس الماء غربي هـــذه البلدة ، اختط به أبو يوسف يعقوب قصرا مشرفا على محل خروجه (٦).

---

(١) الذخيرة السنية ، ١٨٦ ، ١٨٧

(٢) السلاوى ، ج ٣ ص ٤٤

(٣) الذخيرة السنية ص ٩٩

(٤) Boris Maslow, les mosquées de Fès et du Nord du Maroc, Paris 1937, pp. 38 - 53

(٥) نفس المرجع ص ١٨٨ — روضة النسرين ص ٢٠

(٦) روضة النسرين ، ص ٢٠

وقد مدح ابن الخطيب ما اشتملت عليه فاس الجديد بقوله : « وأما مدينة الملك فبيضاء كالصباح ، أفق للغرر الصباح ، يحتقر لإيوانها إيوان كسرى ، وترجع العين حسرى ، ومقاعد الحرس ، وملاعب الليث المفترس ، ومنابت الدوح المغترس ، ومدرس من درس أو درس ، ومجالس الحكم الفصل ، وسقائف الترس والنصل ، وأهداف الناشبة أولى الخصل ، وأواوين الكتاب ، وخزائن محمولات الاقتاب ، وكراسي الحجاب ، وعنصر الأمر العجاب ... »(١).

ووصفها ابن أبى زرع فى عصر بنى مرين فذكر محاسنها بقوله : « وهى الآن قاعدة ملوك بنى مرين أطال الله أيامهم ، وأعلى أمرهم ، وخلد سلطانهم ، فهى منهم فى المحل الرفيع والشكل البديع ، وقد جمعت مدينة فاس بين عذوبة الماء ، واعتدال الهواء ، وطيب التربة ، وحسن الثمرة ، وسعة المحرث ، وعظيم بركته ، وقرب المحطب ، وكثرة عوده وشجر وشجرة ، وبها منازل مونقة ، وبساتين مشرقة ، ورياض مورقة ، وأسواق مرتبة متنسقة ، وعيون منهمرة ، وأنهار متدفعة منحدرة ، وأشجار ملتفة ، وجنات دائرة بها مجتمعة ، وقالت الحكماء ، أحسن مواضع المدن أن تجمع خمسة أشياء وهى : النهر الجارى ، والمحرث الطيب ، والمحطب القريب ، والسور الحصين ، والسلطان إذ به صلاح حالها ، وأمر سبلها ، وكف جبابرتها ، وقد جمعت مدينة فاس هذه الخصال التى هى كمال المدن وشرفها ، وزادت عليها بمحاسن كثيرة ، فلها المحرث العظيم سقيا وبعلا ، على كل جهة منها ما ليس هو على مدينة من مدائن المغرب ، وعليها المحطب فى جبل بنى بهلول الذى فى قبلتها يصبح كل

(١) ابن الخطيب ، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب فى المغرب والاندلس ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى ، الاسكندرية ١٩٥٨ ، ص ١١٢.

يوم على أبوابها أحمال حطب البلوط والفحم ما لا يوصف كثرة ، ونهرها يشقها بنصفين ويتشعب في داخلها أنهارا وجداول وخلجانا ، فتتخلل الأنهار ديارها وبساتينها وجناتها ، وشوارعها وأسواقها وحماماتها ، وتطحن به أرحاؤها ، ويخرج منها وقد حمل أثقالها وأقذارها ورماداتها (١) ».

ولقد اهتم سلاطين بنى مرين بانشاء الحمامات ، فأنشئت حمات خولان وشتتانة وأبى يعقوب . وكانت بفاس دار صناعة لإنشاء القوارب والسفن الصغار بالموضع المعروف بالحبالات قرب ملتقى وادى فاس ، كان قد أنشأها عبد المؤمن ، وفى هذه الدار أمر السلطان أبو عنان المرينى بانشاء جفنين بمنزل خولان أحدهما شيطى يحمل مائة وعشرين محاربا ، والثانى شلير يحمل ستين محاربا ، ودفعا بوادى سبو إلى أن وصلا إلى سلا سنة ٧٥٦ هـ (٢).

وظلت فاس قاعدة بنى مرين حتى ضعفت دولتهم ، وظهرت دولة الأشراف السعديين على أنقاض دولة بنى مرين ، وأخذ سلطانهم محمد الشيخ يستولى على مدن المغرب ، فاستولى على مراكش فى سنة ٩٤٦ هـ ، واكتسب محمد الشيخ محبة أهل المغرب لجهاده ضد البرتغاليين ، ونجاحه فى افتتاح حصن فونتى وحصن آسفى وآزمور ، فاختط مرسى أغادير بالسوس الأقصى فى سنة ٩٤٧ هـ ، واستولى على مكناسة الزيتون فى سنة ٩٥٥ ، وأخذ يلتهم مدن بنى مرين الواحدة بعد الأخرى ، ثم تقدم فى سنة ٩٥٦ لمحاصرة فاس ، وتمكن من الاستيلاء عليها ، وفر قائد جيش بنى مرين وهو أبو حسون الوطاسى

---

(١) ابن أبى زرع ، نص وارد بكتاب: Extraits des historiens arabe، ص ٢١ — ٢٢ — الجزنائى ، ص ٢٥ ، ٢٦

(٢) الجزنائى ، ص ٢٦ ، ٢٧

إلى ثغر الجزائر ، حيث استنجد بالأتراك ، ونجح بفضلهم فى استرجاع فاس فى سنة ٩٦١هـ ، ولكن الأتراك تصرفوا تصرف الفاتحين ، فانتهكوا الحرمات ، وعاثوا فى البلاد ، واضطر أبو حسون إلى صرفهم عن خدمته ، وإخراجهم من فاس ، ووجد نفسه بعد إخراجهم وحيدا دون نصير . وكان محمد الشيخ قد استنصر القبائل واستنفرها ، وعبأ الأجناد ، فزحف إلى فاس ، ودخلها فى ٢٤ شوال سنة ٩٦١ هـ ، وقتل أبا حسون ، وتلقب بالخلافة ولكنه لم يتخذ فاسا عاصمة له ، وآثر مدينة مراكش لهذا الغرض (١).

وفى عهد دولة الأشراف العلويين بالمغرب ، استرجعت فاس عظمتها ، وأصبحت حاضرة المغرب فى عهد مولاى الرشيد سنة ١٠٧٧هـ ، وقد زودها بمنشآت كثيرة منها قنطرة وادى سبو القائمة على أقواس أربعة ، شيدها فى سنة ١٠٨٠ هـ بالقرب من مدينة فاس ، والقصبة الجديدة التى أسسها فى سنة ١٠٨١ بفاس بالى ، كما أقام قصبة الخميس بالبلدة نفسها (٢) : أما ابنه مولاى إسماعيل فقد فضل مدينة مكناس واتخذها حاضرة له . وأصبح للمغرب عاصمتان : فاس فى الشمال ، ومكناس فى الجنوب ، ثم استعادت فاس عظمتها فى عهد مولاى سليمان (١٢٠٦ - ١٢٣٨ هـ) الذى أنشأ فيها أبوابا كثيرة ومساجد جديدة . وظلت فاس منذ ذلك الحين المدينة الأولى فى المغرب .

---

(١) السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الاسلامى ، ج ٢ ص ١٧٩

(٢) André Julien, histoire de l'Afrique du Nord depuis la conquête arabe Paris 1952

الفصل السابع

دولتا الرستميين بتاهرت والمدراريين بسجلماسة

(١) أولية الرستميين

ا ـ انتشار دعوة الإباضية فى المغربين الأدنى والأوسط

ب ـ عبد الرحمن بن رستم وتأسيس تاهرت

ج ـ عبد الرحمن بن رستم إمام الرستميين

د ـ إمامة عبد الوهاب بن عبدالرحمن بن رستم وبداية ظهور الانقسامات المذهبية عند الإباضية

(٢) خلفاء عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم

ا ـ خلافة الإمام أفلح

ب ـ الإمام أبو بكر بن أفلح

ج ـ إمامة أبى اليقظان محمد

د ـ إمامة أبى حاتم يوسف بن محمد

هـ ـ إمامة اليقظان بن أبى اليقظان ونهاية دولة الرستميين .

(٣) علاقة الدولة الرستمية بجيرانها

ا ـ علاقة الدولة الرستمية بولاة إفريقية

ب ـ علاقة الرستميين بالأمويين فى الأندلس

ج ـ علاقة الرستميين بمصر

د ـ علاقة الدولة الرستمية بدولة بنى واسول بسجلماسة

هـ ـ علاقة الدولة الرستمية بالسودان

الفصل السابع

دولتا الرستميين بتاهرت والمدراريين بسجلماسة

(١)

أولية الرستميين

ا ــ انتشار دعوة الاباضية فى المغربين الادنى والاوسط :

كانت السياسة الجائرة التى جرى عليها خلفاء وبنى أمية قد جعلتهم فى نظر كثير من أتقياء المسلمين منحرفين عن تعاليم الإسلام ومبادئه القائمة على العدل والمساواة والشورى ، فقد استأثروا بالخلافة ، واستبدوا برئاسة الدولة ، ولم يطبقوا نظام الشورى فى اختيار الخلفاء ، وحادوا عن العدل والمساواة بين المسلمين ، وانحرفوا عن الاشتراكية التى نادى بها الإسلام ، وتقوم على التزام العدل وإنفاق مال الدولة فى مصالح المسلمين ، وأصبحت الأموال فى العصر الأموى تنفق على الشهوات والنزوات ، وعلى الأولياء والأنصار والمؤيدين . أدت هذه السياسة الغاشمة إلى قيام جماعات فى العراق تنادى بتطبيق مبادىء الاسلام القائمة على المساواة والعدل ، والرجوع إلى الشورى فى اختيار الإمام ، فظهر الإباضية ، وهى فرقة خارجية تنسب إلى داعية منهم هو عبد الله بن إباض المرى التميمى ، ومن أئمتها ابو الشعثاء جابر بن زيد الأزدى العمانى ، الذى يعتبر المؤسس الحقيقى لهذه الفرقة ، وكان من أعظم علماء عصره بالشريعة والفقه الإسلامى ، متبحرا فى أصول الفقة ، أخذ العلم عن كثير من الصحابة ، وكان مما قاله على نفسه اعتزازا وتحدثا

بنعمه الله عليه : « أدركت سبعين رجلا من بدر ، فحوينا ماعندهم من العلم إلا البحر الزاخر (يقصد عبد الله ابن عباس) » ، وكان ابن عباس يمتدح علمه فيقول : « اسألوا جابر بن زيد ، فلو سأله من بالمشرق والمغرب لوسعهم علمه » ، ولما توفى جابر عبر مالك بن أنس عن خسارة الإسلام بفقده بقوله : « مات اليوم أعلم من فى الأرض » (١) . ومن تلاميذ جابر ، أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة ، وضمام بين السائب ، وحيان الأعرج ، وأبو حمزة الأشعث ، وأبو نوح صالح الدهان ، وعمرو بن دينار . وكان جابر بن زيد ينادى بالقضاء على بدعة الملك الذى اصطنعه الأمويون ، والرجوع بالاسلام إلى نظام الشورى والعدل والمساواة بين المسلمين المعروف فى عصر الخلفاء الراشدين ، لذلك حاربه بنو أمية ، ونفاه الحجاج إلى عمان ، فأقام بها مدة ، ثم عاد إلى البصرة لاستكمال رسالته ، وظل يعمل جاهدا لإنشاء الجمهورية الإسلامية العادلة ، إلى أن توفى فى سنة ٩٣ هـ . وخلفه على إمامة الإباضية أبو عبيدة مسلم ، وكان مثالا للورع والتمسك بالدين ، عالما من أبرز علماء عصره ، شديد التمسك بمبادىء أستاذه ، فسجنه الحجاج مع جماعة من الإباضية ، ثم أفرج عنه فى خلافة سليمان بن عبد الملك . وأدرك عبيد الله صعوبة الدعوة للمذهب الإباضى فى المشرق الاسلامى ، ورأى أن ينطلق الإباضية بدعوتهم إلى أطراف الدولة الإسلامية ، وعلى الأخص بلاد المغرب . فاختار رجلا من تلامذته معروفا بحماسة للاباضية ، وبعلمه الغزير ، وتقواه وورعه مع بلاغته وفصاحة لسانه هو سلمة بن سعد ، بعثه إلى المغرب لنشر دعوة الإباضية . وبوفود سلمة بن سعد فى أول القرن الثانى للهجرة

---

(١) أبو الربيع سليمان البارونى ، مختصر تاريخ الإباضية ، تونس ، ١٩٣٨ ص ٢٩.

إلى سرت ، انتشر المذهب الإباضى على نحو تجاوز كل تقدير فى الحسبان ، ومنذ ذلك العهد بدأ دعاة الإباضية يتوافدون على المغرب لنشر الدعوة تمهيدا لإنشاء دولة إباضية . وقد ساعد على انتشار الإباضية ، وتوافد دعاتها أن الدولة العباسية كانت أشد وطأة على الخارجية من الدولة الأموية ، فاستبد العباسون بالدولة ، وداسوا على مبادىء الإسلام الكريمة ، ورفعوا السيف على كل من ناوأ سلطانهم . وكان المغرب الإسلامى يغلى سخطا على ولاة الأمويين والعباسين لمظالمهم ، وكان إقبال البربر على الإباضية سريعا ، فلم تلبث هذه الشرارة الأولى أن أشعلت نارا احتدم لظاها فى المغربين الأدنى والأوسط فى طرابلس وإقليم قسطيلية ، ومعظم بلاد المغرب الأوسط من مليانة إلى وهران .

وأراد البربر التعمق فى دراسة مذهب الإباضية، فقد شوقهم سلمة بن سعد إلى شد الرحال إلى المشرق لتلقى علوم هذا المذهب على الإمام أبي عبيدة (١)، فرحل فريق من علمائهم إلى البصرة للأخذ على هذا الإمام ، وكانوا أربعة هم : عبد الرحمن بن رستم الفارسى ، وعاصم السدراتى ، وأبو داود القبلى النفزاوى ، وإسماعيل بن ضرار الغدامسى ، وانضم إليهم عند أبي عبيدة مسلم ثائر آخر هو أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى اليمنى، اختاره أبو عبيدة لرئاسة الدولة الإباضية التى ينوى البربر إقامتها فى المغرب ، لغزارة علمه ، وتفهمه العميق للدين ، ومهارته فى الاستنباط . وعاد حملة العلم الخمسة إلى المغرب الاسلامى ، بعد إقامة دامت خمس سنين فى البصرة ، عادوا إلى المغرب وهم يشتعلون حماسا لإنشاء دولة على مذهبهم الإباضى ، وتمت مبايعة

---

(١) أبو الربيع سليمان البارونى ، مختصر تاريخ الإباضية ، ص ٣٥

أبي الخطاب بالإمامه، واعلن قيام الدولة الإباضية فى محرم سنة ١٤٠ هـ فى موضع يعرف باسم صياد غربى طرابلس، وتمكن الإباضية بعد مبايعة أبى الخطاب من الاستيلاء على طرابلس واتخذوها مقرا لهم (١). ودانت لأبي الخطاب البلاد بالطاعة لما شاع عنه من الرفق بالرعية، والعدل بين الناس، فعظم شأنه فيهم، وامتد سلطانه شرقا إلى برقة، وغربا إلى القيروان، وجنوبا إلى فزان (٢). واختار أبو الخطاب عبد الرحمن بن رستم رفيقه فى العلم قاضيا بطرابلس (٣).

وفى هذه الأثناء كانت قبيلة ورفجومة النفزية بقيادة عاصم بن جميـل، وكانت من غـلاة الصفرية قد دخلت القيروان، واستحلت فيهـا المحارم، وارتكبت الكبائر، وأساء رجالها إلى الاسلام، فقدربطوا دوابهم فى المسجد الجامع، وعاثوا عيثا شديدا فى مدينة القيروان (٤). ولما علم أبو الخطـاب بما أصاب القيروان، بكي رحمة باهلها، ودفعته غيرته على الإسلام إلى استنفار الناس لمقاتلة هؤلاء المتوحشين، وخرج بجيش من أتباعه عدته نحو ستة آلاف فى سنة ١٤١ هـ، وافتتح قابس، ومنهـا سار إلى القـيروان، واشتبك مع ورفجومة فى قتال عنيف، فى صفر سنة ١٤١ هـ انتهى بانتصار الإباضية، وقتل عبد الملك بن أبى الجعدى اليفرنى، قائد عاصم بن جميل، ودخل أبو

---

(١) محمد على دبوز: تاريخ المغرب الكبير، ج٣ ص ١٣٥ — ٢٠٩
(٢) مختصر تاريخ الاباضية، ٣٣
(٣) نفس المرجع ص ٣٥ — سليمان بن عبد الله البارونى النفوسى: كتاب الأزهار الرياضية فى أئمة وملوك الإباضية، بدون تاريخ، ص ٨٤
(٤) ابن عذارى، ج ٨١ — مختصر تاريخ الاباضية، ص ٣٣

الخطاب مدينة القيروان ، وحررها بذلك من الصفرية المتطرفين . ثم علم أبو الخطاب وهو بالقيروان بعزم محمد بن الأشعث الخزاعى ، عامل بنى العباس على مصر على تسيير حملة إلى طرابلس بقيادة أبى الأحوص عمرو بن الأحوص العجلى . فولى عبد الرحمن بن رستم الفارسى ، قاضى طرابلس ، وأحد زعماء الإباضية ، على إفريقية ، وقسم من بلاد المغرب الأوسط كان سكانه من الاباضية ، يمتد من جزائر بنى مزغنة إلى وهران . وعاد أبو الخطاب إلى طرابلس . وفى سنة ١٤٢ ﻫ أقبل الجيش العباسى بقيادة أبى الأحوص العجلى ، فزحف إليه أبو الخطاب بجموع الإباضية من البربر والعرب ، والتقى الجيشان فى مغمداس ، فانهزم أبو الأحوص وجيشه ، وعاد إلى مصر . ولم يسكت أبو جعفر المنصور على هذه الهزيمة ، ورأى فى ضياع نفوذ بنى العباس بالمغرب تهديدا مباشرا لمصر والشام ، فعزم على القضاء على دولة الإباضية ، وإعادة بسط النفوذ العباسى على إفريقية ، وأخذ يعبىء كل طاقات الدولة وإمكاناتها لهذا الغرض ، فولى إفريقية محمد بن الأشعث الخزاعى ، عامله السابق على مصر ، وأعد جيشا ضخما عدته أربعون ألف مقاتل ، يقودهم عشرة من أعظم قواد دولته نخص بالذكر منهم الأغلب بن سالم التميمى ، والمحارب بن هلال ، والمخارق بن غفار الطائى . وزحف هذا الجيش إلى برقة . وأمام هذا الخطر الذى يتهدد الإمامة الإباضية الفتية ، خرج أبو الخطاب فى جيش هائل عدته مائتى ألف مقاتل ، عسكر بهم فى أرض سرت . وأمام هذه الكثرة الهائلة أحجم ابن الأشعث عن لقاء الإباضية ، فتظاهر بالانسحاب إلى مصر ، ثم دهم معسكر أبى الخطاب فى تاورغا فجاة فى صفر سنة ١٤٤ ، فانهزم الإباضية ، وقتل أبو الخطاب فى جملة من خيار

أصحابه يبلغ عددهم ١٢ ألفا [١] . وكان عبد الرحمن بن رستم يتأهب لنجدة أبي الخطاب ، فسمع وهو في طريقة إليه نبأ الهزيمة الشنعاء التي منى بها جيشه ، وآثر أن يترك المغرب الأدنى وشأنه ، ويمضى إلى المغرب الأوسط حيث لا يصل نفوذ العباسيين ، وحيث يتركز جمهور الإباضية الذين انتصروا لأبي الخطاب وله ، فيمكنه هناك أن يؤسس دولة إباضية على نسق دولة أبي الخطاب .

ب – عبد الرحمن بن رستم وتأسيس تاهرت :

أجمع المؤرخون على أن عبد الرحمن بن رستم من أصل فارسى ، وذكر بعضهم أنه من أعقاب رستم قائد جيش الفرس في موقعة القادسية (٢) ، بينما يرفع بعضهم نسبه إلى بهرام كور كسرى فارس (٣) . وكان ابن رستم هذا مولى لعثمان بن عفان (٤) ، ثم وفد إلى المغرب مع العرب الفاتحين [٥] ، ويبدو أنه قدم في أواخر العصر الأموى ، واستقر بالقيروان ، وأخذ في بيئتها العلمية الزاهرة على كبار علمائها ، وكان من بين العلماء الأربعة الذين

---

(١) ابن عذارى ، ص ٨٣ – ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤١١ – مختصر تاريخ الاباضية ، ص ٣٤

(٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٤٦

(٣) البكرى ، معجم ما استعجم ، مادة تاهرت – ياقوت ، معجم البلدان ، مادة تاهرت – ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٧٧

(٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٧٧ – ياقوت ، معجم البلدان ، مادة تاهرت ، ج ٢ ص ٨

(٥) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٤٦ . وقيل أن أباه رستم بن بهرام قدم مكة بزوجته وابنه للحج فمات بها ، فتزوجت زوجته رجلا من القيروان ، فأقبل مع أمه إلى القيروان (دبوز ، ص ٣٠١ نقلا عن الشماخي صاحب السير).

وقع عليهم اختيار إباضية البربر للأخذ على أبى عبيـدة مسلم بن أبي كريمة التميمي البصرى ، ولما عاد إلى المغرب مع رفاقه ، وقامت إمامة أبى الخطاب، ولاه على قضاء طرابلس ، وكان عبد الرحمن بن رستم أكبر أعوانه فى إدارة دولته وتصريف أموره ، وفى حل المشكلات التى يستعصى عليه حلها (١) ، وكان أبو الخطاب قد عاين مقدرته وكفايته وحسن سياسته ماجعله يستخلفه على القيروان والمغرب الأوسط ، قبل أن يمضى هو لمحاربة المسودة ، ولما قتل أبو الخطاب ، وتمكن ابن الأشعث من القضاء على الولايات الإباضية بطرابلس ، وزحف بجيشه لاسترداد القيروان ، وجـد ابن رستم أن من الأسلم له ولأتباعه النجـاة إلى المغرب الأوسط ، حيث يستطيـع بفضل أنصاره هناك،أن يعيد إنشاء دولة على المذهب الإباضى ، على نسق دولة أبي الخطاب فى طرابلس . فخرج مستخفيا قاصدا المغرب ، ولم يكن معه شيء إلا ماخف من ماله ولم يكن يرافقـه إلا ابنه عبد الوهاب ومملوكه (٢) ، فتوجهوا إلى قبيلة لماية البترية وذلك لحلف قديم كان قائما بينه وبينهم (٣) . وقطعوا فى سيرهم مسافة غـير قصيرة ، ولكنهم فوجئـوا بموت فرس عبد الرحمن ، فدفنوه حتى لايعلم بموته أحد من حزب عبد الرحمن بن حبيب فيطمع فيهم ويتبع أثرهم ، ولما كانت المسافة إلى لماية طويلة ، فقـد كان من الطبيعى أن يحس عبد الرحمن بن رستم بالتعب ، لكبر سنه وشيخوخته ،

---

(١) محمد على دبوز ، ج ٣ ص ٢٥١

(٢) الأزهار الرياضية فى أئمة وملوك الإباضية جـ ٢ ص ٢ — مختصر تاريخ الاباضية، ص ٣٦

(٣) ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٤٧

فاضطر ابنه عبد الوهاب ، وعبده إلى حملة على ظهريهما بالتناوب (١). ويبدو أن عبد الرحمن سلك فى سيره الطريق الجنوبية المـــارة بقسطيلية . وذكر الأستاذ دبوز أنه اخترق شمال وادى سوف، وسار مغربا على شمال تيفورت ومدينتى القرارة وبيرريان من وادى ميزاب إلى مدينة الأغواط ، فاجتاز جبال بنى راشد غربا ، ثم انحرف شمالا ، شرقى مدينة آفلو ، وغربى وادى شلف حتى نزل على وادى سوفجج الذى ينبع من سفح جبـل سوفجج ، ويقع بين مدينتى سلالة شرقا والسوفر غربا (٢) ، وجنوبى مدينة تاهرت . ويعتقد الأستاذ دبوز أن هذا الجبل هو نفس الجبـل المعروف اليوم بجبل سوففيف . وكان هذا الجبل فى غاية المنعة والحصـانة لصعوبة مرقاه ، فنزله عبد الرحمن ، وتحصن فيـه ، وكان عامرا بالإباضية ، فأدركوه ، وأنزلوه بينهم ، وسمع به وجوه الإباضية وعلماؤهم ، فقصدوه من كل النواحى حتى اجتمع لديه من طرابلس وجبل نفوسة من العلماء وحدهم مايزيد على ستين من كبار أهل العلم والفضل والرأى (٣) . وتسارعت قبائل هوارة ولواته ولماية بالانضمام إليه ، والالتفاف حوله . ولما علم ابن الأشعث فى القيروان بتمكن ابن رستم من الفرار إلى المغرب الأوسط ، واجـتماع قبائل البربر إليه ، والتفافهم حوله ، جهز جيشا ، وسار به إلى هذا الجبل بقصد استنزال عبد الرحمن بن رستم قبل أن يستفحل أمره ، فلما قـــدم بجيشه عسكر فى سفح الجبل ، وحفر خندقا حول معسكره خوفا من أى هجوم قد يقوم به الإباضية على معسكره ، ثم طوق الجبل من كل ناحية ، واستمر محاصرا له

---

(١) الأزهار الرياضية ، ٣ ــ مختصر تاريخ الإباضية ، ص ٣٦

(٢) دبوز ، ج ٣ ص ٢٥٦

(٣) الأزهار الرياضية ، ص ٣ ــ مختصر تاريخ الإباضية ، ص ٣٦

مدة حاول خلالها بكل الوسائل عبثا الوصول إلى معقل ابن رستم ، ولما طال الحصار ، سئم جنده البقاء ، واتفق أن فشا بينهم وباء الطاعون ، فهلك منهم عدد كبير ، وقد اضطر لذلك إلى فك الحصار والعودة إلى القيروان ، وعبر عن صعوبة فتح الجبل بقوله : « إن سوفجج لايدخلة إلا دارع ومدجج » (١) . وأقام عبد الرحمن هناك حتى اجتمع إليه عدد كبير من فضلاء الإباضية وكبارهم ، وأجمع هؤلاء على مبايعة عبد الرحمن بن رستم برئاستهم ، وكان لابد لمؤسس دولة الرستميين أن يؤسس مدينة ينزل فيها هو وأتباعه وأنصاره ، تكون مقرا لدولته على نحو مافعله أبوالقاسم سمغون ابن واسول المكناسى الصفرى عندما اختط سجلماسة سنة ١٤٠ هـ (٢) ، فتطلع عبد الرحمن بعد أن بويع بزعامة الإباضية إلى إنشاء مدينة تكون جديرة بمركز هذه الدولة الفتية . وكان يهدف إلى اختيار موضع منيع تحوطه الجبال ، لتكون درعا طبيعيا لهذه المدينة ،ووقع اختياره على الموضع الذى تقوم عليه مدينة تاهرت القديمة ، وكانت حصنا لبرفجامة ، وشرع فى بناء دورها . ويذكر البكرى « أنهم لما أرادوا بناء تاهرت ، كانوا يبنون النهار ، فاذا جن الليل ، وأصبحوا ، وجدوا بنيانهم قد تهدم ، فبنوا حينئذ تاهرت السفلى ، وهى الحديثة ، وهى على خمسة أميال من القديمة » (٣) . ويمتاز موقع هذه المدينة الرستمية بأنه على سفح جبل جزول المرتفع ، وتكتنفه غابة ملتفة بالأشجار ، يمكن أن تكون أرضا صالحةللزراعة ، وتنبع

---

(١) الأزهار الرياضية ، ص ٣

(٢) ابن عذارى ، جـ ١ ص ٢٨٢ — ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٤٧

(٣) البكرى ص ٦٧ — ياقوت ، معجم البلدان ، مادة تاهرت ، ص٨

فيها العيون الطبيعية ، ويجرى فيها نهر لاينقطع ماؤه اسمه نهر مينة (١) ، ويكتنف المدينة بأعلى المناطق الجبلية غابات خضراء رائعة الجمال .

ولما وقع اختيار عبد الرحمن على هذا الموضع لبناء مدينته المقبلة ، وأعجبه مناخه المعتدل ، اشتراه من أصحابه ، وهم بربر من صنهاجة ومنداسة ، بعد أن اتفق مع أصحابها على أن يؤدى إليهم خراجا معلوما يأخذونه من غلاتها ، واتبع الإباضية في تطهير الغابة وإزالتها نفس السبيل الذى اتبعه عقبة بن نافع من قبل في تطهير الغيضة التي أقيمت عليها القيروان ، فأحرق الأشجار ، فلما خمدت النيران ، قام أتباعه بتنقية هذه الأشجار وتمهيد الأرض ، وأصبحت بذلك صالحة للعمارة عليها . ثم شرع في تخطيط تاهرت الجديدة ، وحفر أسس أسوارها سنة ١٤٤ ، وأسس مسجدها الجامع ، وكان يتألف من أربع بلاطات (٢) . وكان لهذا الجامع مصلى للجنائز (٣) على نحو جامع الزيتونه وجامع القرويين بفاس . ثم أقبل الناس على بناء الدور والقصور ، والحمامات ، والفنادق ، والحوانيت ، والأسواق ، والأرحاء ، فأصبحت تاهرت في أمدوجيز مدينة عامرة ، تجارتها زاهرة ، وقومها مياسير . وكان لها عدة موانىء منها مرسى فروخ ترسو فيه مراكبها ، ومرسى تنس ، ومستغانم ، ووهران ، وهذا المرسى الأخير كان يربط الدولة الناشئة بالأندلس . وقصدها الناس من كل الأقطار الاسلامية ، وانتجعوها من كل مكان ، فازدهر اقتصادها ، وتألقت الحضارة فيها . وأصبحت تاهرت

---

(١) الاستبصار ، ص ١٧٨

(٢) ابن عذارى ، ص ٢٧٧

(٣) ابن الصغير المالكى ، سيرة الأئمة الرستميين ، باريس ١٩٠٧ ، ص ٤٤

على هذا النحو مقصد الرحلات ، ومركز الهجرات ، لما شاع من عدل عبد الرحمن بن رستم فى رعيته وحسن سيرته فيهم ، ففتحت أبوابها لكل من طرقها من الخارجين على الدولة العباسية ، ومن ضاقت نفوسهم بعسف خلفاء بنى العباس واستبدادهم . وكان من جملة الوافدين عليها طائفة من الفرس . وقام الوافدون على تاهرت بالبناء والعمارة وغرس البساتين وإجراء الأنهار واتخاذ الرحى والمستغلات وغير ذلك ، فاتسع لذلك عمران المدينة حتى « لا نرى داراً إلا قيل هذه لفلان الكوفى ، وهذه لفلان البصرى ، وهذه لفلان القروى » (١) .

وقد وصف اليعقوبى مدينة تاهرت فى القرن الثالث الهجرى بقوله : « والمدينة العظمى تاهرت جليلة المقدار ، عظيمة الأمر ، تسمى عراق المغرب ، لها أخلاط من الناس تغلب عليها قوم من الفرس ، يقال لهم بنو محمد بن أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الفارسى ... » (٢) . ووصفها المقدسى فى القرن الرابع الهجرى بقوله : « تاهرت هى اسم القصبة أيضا هى بلخ المغرب ، قد أحدق بها الأنهار ، والتفت بها الأشجار ، وغابت فى البساتين ، ونبعت حولها الأعين ، وجل بها الإقليم ، وانتعش فيها الغريب ، واستطابها اللبيب ، يفضلونها على دمشق وأخطأوا ، وعلى قرطبة وما أظنهم أصابوا ، هو بلد كبير كثير الخير ، رحب رفق ، طيب ، رشيق الأسواق ، غزير الماء ، جيد الأهل ، قديم الوضع ، محكم الرصف ، عجيب الوصف ... بها جامعان على ثلثى البلد ، قد بنيا بالحجارة ، والجير ،

---

(١) الأزهار الرياضية ، ص ٤٢

(٢) اليعقوبى ، ص ١٥٣

قريبان من الأسواق . ومن دروبهـا المعروفة أربعة : باب مجـانة ، درب المعصومة ، درب حارة القفير ، درب البساتين » [١] . ووصفها ابن حوقل فى القرن الرابع الهجرى أيضا فقال : « وتاهرت مدينتـــان كبيرتان ، إحداها قديمة أزلية ، والأخرى محدثة ، والقـديمة ذات سور ، وهى على جبل ليس بالعالى ، وفيها كثير من الناس ، وفيها جامع . وفى المحدثة أيضا جامع ، ولكل إمام وخطيب ، والتجار والتجارة بالمحدثة أكثر ، ولهم ميـاه كثيرة تدخل على أكثر دورهم ، وأشجار وبساتين ، وحمـامات وخانات . وهى أحد معادن الدواب ، والماشية ، والغنم ، والبغال ، والبراذين الفراهية ، ويكثر عندهم العسل والسمن وضروب الغلات » [٢] ويصفهـا البكرى فى القرن الخامس فيقول : « ومدينة تاهرت مدينة مسورة لها أربعة أبواب : باب الصفا ، وباب المنـازل ، وباب الاندلس ، وباب المطـاحن . وهى فى سفح جبل يقال له جزول ، ولها قصبة مشرفه على السوق تسمى المعصومة ، وهى على نهر يأتيها من جهة القبلة يسمى مينة ، وهو فى قبليها ، ونهر آخر يجرى من عيون تجتمع يسمى تاتش ، ومنه شرب أهلها وأرضها ، وهو فى شرقيها ، وفيها جميع الثمار . وسفرجلها يفوق سفرجل الآفاق حسنا وطعما ، وحشما ، وسفرجلها يسمى بالفارسى . وهى شـــديدة البرد كثيرة الغيوم والثلج » [٣] .

ويصفها صاحب الاستبصار فى القرن السادس الهجرى بقوله : « ومن

---

(١) المقدسى ، أحسن التقاسيم لمعرفة الاقاليم ، ليدن ، ١٩٠٧ ص ٢٢٨

(٢) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ط . بيروت ١٩٦٢ ، ٨٦

(٣) البكرى ، ص ٦٦

مدن المغرب الأوسط المشهورة مدينة تاهرت ، وهى مدينة مشهورة قديمة كبيرة ، عليها سور صخر ، ولها قصبة منيعة على سوقها تسمى المعصومة . ومدينة تاهرت فى سفح جبل يسمى قرقل ، وهى على نهر كبير يأتيها من ناحية المغرب يسمى منية ، ولها نهر آخر يجرى من عيون تجتمع يسمى نانس ، ومنه تشرب أرضها وبساتينها ، وكان لها بساتين كثيرة فيها جميع الثمار ، فيها سفرجل يفوق سفرجل جميع البلاد حسنا وطعما ورائحة » (١) . وفى تاهرت يقول أيضا ياقوت : « هى مدينة جليلة ، وكانت قديما تسمى عراق المغرب ، ولم يكن فى طاعة صاحب إفريقية ، ولا بلغت عساكر المسودة إليها قط ، ولا دخلت فى سلطان بنى الأغلب ، وإنما كان آخرما فى طاعتهم مدن الزاب ... وهذه تاهرت الحديثة ، وهى على خمسة أميال من تاهرت القديمة ، وهى حصن ابن بخاتة ، وهو شرقى الحديثة ، ويقال إنهم لما أرادوا بناء تاهرت القديمة كانوا يبنون بالنهار ، فاذا جن الليل وأصبحوا وجدوا بنيانهم قد تهدم ، فبنوا حينئذ تاهرت السفلى وهى الحديثة ... » (٢) .

ح ـ عبد الرحمن بن رستم امام الرستميين :

لم يبايع الإباضيه ابن رستم بالإمامة إلا فى سنة ١٦٠ هـ بعد أن رست قواعد الدولة ، ورسخت دعائمها ، وتوطدت أركانها ، وامتدت جذورها ، وأصبحت قادرة على الدفاع عن نفسها ، وبعد أن نظم مؤسسوها صفوفهم، وأذابوا مشاكلهم . وأهم هذه المشاكل التى صادفتها الدولة قبل سنة ١٦٠ هـ،

---

(١) الاستبصار ، ص ١٧٨

(٢) ياقوت ، معجم البلدان مجلد ٢ ص ٨

مشكلة الإتحـاد مع صفرية تلمسان فى ضرب العباسيين الذين كانوا يهدفون إلى القضـاء معا على الصفرية والإباضية بالمغرب . كذلك لم يكن إباضية طرابلس قد ألقوا سلاحهم ، بعد استشهاد إمامهم أبى الخطاب فى سنة ١٤٤، فظلوا يخوضون المعارك مع العباسيين ، متخذين من جبل نفوسة حصنا ومعقلا يتحصنون فيه . ففى ولاية الأغلب بن سالم ، تمكنت زناتة البترية فى تلمسان من جمع شملها تحت لواء أبى قـــرة بن دوناس اليفرنى الصفرى ، وكان الأغلب ينوى الإصطدام مع زناتة الصفرية، ولكنه، أصيب فى موقعة حدثت بينه وبين الحسن بن حرب ، بسهم أرداه قتيلا فى سنة ١٥٠ هـ . وخلفه على إفريقية عمر بن حفص ، وكان يهدف إلى تحصين طبنة ، واتخاذها مركزا لشن غاراته على الإباضية والصفرية ، فما كاد يخرج إلى طبنة فى سنة ١٥٤ هـ ، وتخلو إفريقية من عسكر العباسيين حتى ثار بها البربر باتفاق مع الصفرية فى تلمسان والإباضية فى تاهرت وطرابلس وجنوب إفريقيـــة . هاجم البربر الجنيد بن بشار الأسدى ، عامل عمر بن حفص على إفريقية. واجتمع الإباضية فى طرابلس ، وبايعوا أبا حاتم يعقـوب بن حبيب الإباضى بالإمامة فى سنة ١٥٤ . ولما هوجم الجنيد ، استنجد بعمر بن حفص فى طبنة ، فأمده بعسكر لمواجهة الموقف . ولكن قوات الإباضيـة أبادتهم ، وفر فلهم إلى قابس، فحاصرهم أبو حاتم بها (١) . وتجمعت حشود الخوارج من كل ناحية ، حتى قيل أن عـدد جيوشهم بلغ ١٢ جيشا ، توجهوا جميعا إلى الزاب . واشترك عبد الرحمن بن رستم فى المعركة المقبلة بجيشه، ولكنه رابط فى تهوذه استعدادا للتدخل عند الحاجة إليه. وقد رأينا كيف نجح عمر بن حفص فى إغراء جماعة من

---

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣٢

البربر بماله للتخلى عن أبى قرة ، ثم تمكن بذلك من فك الحصار ، ووجه عسكره إلى ابن رستم ، فانهزم ابن رستم إلى تاهرت . وعلى الرغم من انتصار إباضية طرابلس بقيادة أبي حاتم ، على عمر فى القيروان ، فقد انتهى أمر هؤلاء بالهزيمة على أيدى قوات يزيد بن حاتم فى جبال نفوسة فى ربيع الأول سنة ١٥٥ هـ ، وقتل أبو حاتم هو وصفوة قواده (١) .

عاد ابن رستم إلى تاهرت بعد هزيمته على يد عمر بن حفص ، فاهتم بتنظيم بلاده ، وأجمع أهل الحل والربط من الإباضية على مبايعته بالإمامة فى سنة ١٦٠ هـ ، كما اشترك فى مبايعته إباضية طرابلس ، فاتسع سلطانه بين القبائل العديدة التى دخلت فى طاعته ، وعلى رأسها نفوسة . وساد الأمن والسلام ربوع بلاده ، إذ كان يسلك فى الناس سبيل العدل والإنصاف ، وكان لايستبد برأى ، وإنما كان يصطنع أهل الرأى فى مجلس الشورى ، وانتشرت فى المشرق الاسلامى سيرته العطرة ، فكثر أنصاره ، لا فى البلاد المغربية فحسب ، بل فى العراق ومصر وخراسان ، واعتز إباضية البصرة بهذه الدولة التى تحققت بها أمنيتهم فى قيام إمامة إباضية تطبق فيها مبادىء مذهبهم . ولم يتردد هؤلاء الإباضية فى البصرة عن مساعدة هذه الإمامة الفتية بالأموال ؛ ويذكر ابن الصغير أن إباضيه البصرة وغيرها من بلاد المشرق الاسلامى جمعوا أموالا عظيمة وبعثوا بها مع نفر من ثقاتهم لتسليمها إلى عبد الرحمن بن رستم ، عندما يتبين لهم صدق مايشاع عنه من حسن السيرة والعدل . فمضى هذا الوفد البصرى حتى وصلوا إلى تاهرت ، ونزلوا المصلى ؛ فأناخوا جمالهم ودخلوا تاهرت من باب الصفا ، ودلهم الناس على دار الإمام عبد الرحمن ؛

---

(١) مختصر تاريخ الإباضية ، ص ٣٤ .

« فوجدوا عند بابها غلاما يعجن طينا ، فيناوله رجلا على سطح الدار يصلح شقوقا فيه . فسلموا على الغلام ، فرد السلام . فقالوا : أهذه دار الإمام ؟ — تعجبا من بساطتها، وظنا أن لا تكون هي دار الإمام ، إذ كانوا يتوهمون أن يجدوا داره قصرا منيفا — فقال الغلام نعم . فقالوا له : استأذن لنا منه ، واعلمه إنا رسل إخوانه إليه من البصرة . فرفع الغلام رأسه إلى سيده ، وقد علم أنه سمع كلامهم . فقال : قل للقوم يصبرون قليلا . ثم أقبل على ما كان من إصلاح السطح حتى انقضى ، والقوم ينظرون إليه ، وهم شاكون فيه ، هل هو صاحبهم أم لا . فنزل من سطحه إلى داره ، فغسل ما كان بيديه من أثر الطين ، ثم توضأ وضوء الصلاة ، فأذن للقوم فدخلوا عليه ، فوجدوا رجلا جالسا على حصير فوقه جلد ، ولبس فى بيته سوى وسادته وسدته التى ينام عليها وسيفه ورمحه ، وفرس مربوط فى ناحية من داره . فسلموا عليه، وأعلموه أنهم رسل إخوانه إليه . فأمر غلامه باحضار طعامه ، فأتاه بمائدته عليها قرص ساخن وسمن وشيء من ملح . فأمر بذلك القرص فهشم ، وأمر بالسمن فلت به . ثم قال : على اسم الله ادنوا وكلوا ، فأكل معهم . فلما انقضى طعامهم، جدد الترحيب بهم ، فسألهم : ما مرادكم ، وما جاء بكم ؟ فقالوا له : نريد أن تأذن لنا فنخلو بأنفسنا ، ثم نكلمك بعد ذلك ، فقال : افعلوا . فنهض لتواضعه ، فأخلى لهم المجلس، فجلسوا نجيا ، فقال بعضهم لبعض : يكفينا من السؤال عنه ما رأينا منه من إصلاحه لداره بنفسه، ومطعمه وملبسه وحلية بيته، فما نرى إلا أن ندفع إليه المال ، ولا نشاور أحدا فيه. وكان الذى معهم من المال ثلاثة أحمال من المال ، ست غرائر ، فأجمع رأيهم على حمل المال إليه . فرجعوا إليه . » (١) . ثم أبلغوه بأمر مساعدة إباضية

---

(١) ابن الصغير المالكى ، ص ١٠ — الازهار الرياضية ص ٨٥ وما يليها

المشرق له فى تمكين دولته بهذا المال ، فعزم ابن رستم على عقـــد مجلس الشورى من وجوه القبائل فى المسجـد الجامع . فلما اجتمع أعضاء المجلس قرروا قبول هـذه المساعدة لحاجة الإمامة الفتية إلى ما من شأنه أن يقوى دعائمها ، على أن يقسم ثلث هذا المال للكراع ، وثلثه للسلاح ، وثلثه للفقراء والضعفاء . فشرع الإمام فى شراء الكراع والسلاح ، وتحسنت أحـــوال الناس، وأنسوا من أنفسهم قدرة على توسيع نطاق العمران فشرعوا ، فى إجراء الأنهر واتخاذ الأرحاء والمستغلات . ولم يمض ثلاث سنين على هذه المعونة المشرقيـة حتى عاد وفد إباضية البصرة يحملون عشرة أحمال من الذهب لإعانة الإمامة من جديد حتى تتقوى وتتمكن بذلك من الوقوف أمام مطامع العباسيين . ولكنهم شاهدوا مدينة تاهرت قد تبدلت ، إذ أقيمت فيها « قصور مشيدة ، ودور منظمة ، وأبنية مبهجة ، وقباب مرتفعة، وأسواق مزدحمة، ومساجد متعددة بمنارات عالية ، وحمامات متقنة ، ويحيط بالعاصمة بساتين متنوعة ، ومطاحن منتصبة ، على الأنهار الجارية، واتخذ أهلها الفرش والستائر المزخرفة ، والخيل المسومة ، وتنوعت الألبسه وتعددت اللغات والأزياء ، ورأوا ما لم يخطر لهم ببال » [1] ، ولكنهم رأوا دار الإمام على ما كانت عليه من البساطة وسذاجة البنــــاء . فلما قابلوا عبد الرحمن بن رستم ، جمع مجلس الشورى كالمرة السابقة لاستشارة أصحـابه ، فتركوا له أمر التصرف فى هذه الأموال . فأمر عبـد الرحمن أعضاء الوفد البصرى ، بارجاع هذه الأموال إلى أصحابها ليستعينوا بها فى جهادهم مع العبـاسيين ، فهم أولى من الرستميين بذلك ، بعـد أن أثرت الدولة الرستمية ، وقويت دعائمها ، وعبثا

---

(١) نفس المرجع ص ١٣

حاول البصريون إقناع الإمام بوجوب قبوله لها ، ولكنه أصر على رأيه[1] .

نجح عبد الرحمن بن رستم فى أمد وجيز للغاية فى أن يؤسس دولة قوية، هابها جيرانها، واتصلوا به يطلبون صداقته، ويسعون إلى خطب مودته وموادعته. وهاجر إليها كثيرون من أهل المشرق والمغرب والأندلس ، ونزلوا بها ، وقصدها التجار ، والكتاب ، والعلماء ، ورجال الصناعة والفن ، وأرباب الحرف من سائر أنحاء العالم الاسلامى . وقد كان لذلك أكبر الأثر فى تطور عمرانها، ونمو تجارتها ، واتساع مواردها الاقتصادية ، وشهد المغرب الأوسط فى عهد عبد الرحمن بن رستم سنينا من الهدوء والأمن لم يعرفها من قبل ، بينما كان المغرب الأدنى يضطرم بنار الفتن والثورات .

ولما أحس عبد الرحمن بدنو أجله ، اقتدى بعمر بن الخطاب ، فاختار سبعة من خيرة رجال الدولة الرستمية ، ممن كان يتوسم فيهم الصلاح والزهد والعلم ، وهم : مسعود الأندلسى ، وعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، وعمران بن مروان الأندلسى ، وأبو الموفق سعدوس بن عطية ، وشكر ابن صالح الكتامى ، ومصعب بن سدمان ، ويزيد بن فندين وأوصاهم بالاجتماع والتشاور فيما بينهم لاختيار إمام من بينهم . ثم توفى عبدالرحمن فى سنة ١٧١ هـ[2] ، وقيل سنة ١٦٨ [3] ، وتاريخ سنة ١٧١ أولى بالثقة .

---

(١) الازهار الرياضية ، ص ٩٠ ، ٩١ — مختصر تاريخ الإباضية ص ٣٨

(٢) نفس المرجع ص ١٠١ — مختصر تاريخ الاباضية ص ٣٨

(٣) ابن عذارى ، ص ٢٧٧ — زامباور ، معجم الأنساب والاسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى ، ج ١ ، القاهرة ١٩٥١ ص ١٠٠

د ـ امامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وبداية ظهور الانقسامات المذهب عند الاباضية :

بعد أن توفى عبد الرحمن بن رستم ،اجتمع المرشحون للامامة ، وطال اجتماعهم شهرا ، وانتهوا أخيرا إلى اختيـار عبدالوهاب بن عبد الرحمن ، وبويع له بالإمامة فى جامع تاهرت . ولكن اختيارعبد الوهاب لم يتم باجماع الآراء ، فقـد كانت كفة مسعود الأندلسي أكثر رجوحا ، وكان القـوم يميلون إليه ، إذ كانوا لايقبلون مبـدأ الوراثة من أصله . وكادت الإمامـة تخرج عن عبد الوهاب ،لولا تأييد زناتة له ، لأن أمه كانت يفرنية من زناتة ، ولولا تأييد الفرس له أيضا باعتباره من أصل فارسي(١)، ولولا زهد مسعود الأندلسى عن تولى الإمامة وعزوفه عن هـــذا المنصب الخطير . ويذكر الشيخ سليمان البارونى النفوسى أن عامة الإباضية كانوا يميلون إلى اثنين من من السبعة المرشحين للامامة ، وهما عبـد الوهاب ومسعود الأندلسى . ثم أجمعوا أخيرا على مسعود الأندلسى ، إما لأن مبـدأ الإباضية كان يقضى بالشورى دون الوراثة ، أو لأن مسعود كان أعلم من عبد الوهاب ،ولكن مسعود الأندلسى كان ينفر من الرئاسة ويزهد فيها ، فآثر أن يتخلى عنها لعبد الوهاب، فلما تقرر عقد المجلس فى دار الإمامة ، توارى عن الأنظار، فلما بحثوا عنه لم يجدوه،فابتدروا عبد الوهاب لمبايعته،وبينما كانوا يتأهبون لذلك فوجئوا بوجود مسعود فى مقدمة المبايعين (٢) .

---

(١) محمد بن تاويت ، دولة الرستميين أصحاب تاهرت، صحيفة معهدالدراسات الاسلامية فى مدريد ، المجلد الخامس ١٩٥٧ ،ص١١٣

(٢) الازهار الرياضية ص ٩٩

وكان يزيد بن فندين يطمع فى الإمامة لنفسه ، فلما وجد إجماع الناس على مبايعة عبد الوهاب حاول أن يفسد على عبد الوهاب مبايعة الناس له ، فأعلن فى الجامع أنه مستعد لمبايعة عبد الوهاب على أن يجعل معه فى الإمامة جماعة لا يقطع فى أمر دون مشورتهم (١) . ولكن مسعود الاندلسى عارضه فى ذلك بقوله « لا نعلم شرطا فى الإمامة غير أن يحكم بيننا بكتاب الله وسنة نبيه عليه السلام ، وآثار الصالحين قبله (٢) »،وعلى أثر ذلك تمت مبايعة العلماء لعبد الوهاب ، وحمل إلى دار الإمامة فى موكب غصت به طرق تاهرت ، وتمت له البيعة العامة . ولكن ابن فندين لم يسكت على ذلك ، ففى أول ولاية عبد الوهاب قام يزيد بن فندين فى تاهرت باثارة الفتنة ،وطعن فى إمامة عبد الوهاب ، وذلك لأنه كان يطمع فى الظفر بأحد المناصب الخطيرة فى الدولة ، فلما لم يظفر بشىء منها نقم على عبد الوهاب ، ولم يجد ما يحاربه به فى أول الأمر غير إثارة الفتنة والتلبيس على من اتبعه ؛ فطالبه باقامة هيئة استشارية لا يصدر الإمام فى أمر من الأمور إلا عن رأيها ، ثم تدرج إلى إنكار إمامة عبد الوهاب من أصلها بدعوى أن فى المسلمين من هو أعلم منه (٣) ، وأدى ذلك إلى حدوث انقسام مذهبى عند الإباضية إلى نكارية ووهابية ، وكان الوهابية هم جمهور الإباضية ، كذلك أدى إلى استفتاء الفريقين لعلماء الإباضية وفقهائهم فى المشرق . وفى هذه الاثناء دبر ابن فندين مؤامرة لقتل عبد الوهاب فى غرفة نومه ، ولكن المؤامرة فشلت من أساسها

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٠ — دبوز ، ج ٣ ، ٤٥٦

٢ نفس المرجع ، ص ١٠٠ — دبوز ، ص ٤٥٧

(٣) مختصر تاريخ الإباضية ، ص ٣٩

فزادت نقمة المتآمرين من النكارية على عبد الوهاب ، وقامت المعارك فى المدينة ، وانتهت بانهزام فرقة النكارية ، هزيمة شنعاء ، وقتل منهم نحو ١٢ ألفا ، كان من بينهم ابن فندين صاحب الحركة نفسه (١) . وأعقب هزيمة ابن فندين وأتباعه ، وصول رسل الاباضية من المشرق بصحة ولاية الإمام عبد الوهاب ، فغضب النكارية أصحاب ابن فندين لذلك ، وعبروا عن غضبهم وسخطهم بقتل ميمون بن عبد الوهاب ، والتمثيل بجثته (٢) . وقد تمكن أحد أبناء ميمون من التعرف على قتلة أبيه ، وقاتلهم هو وجده الإمام عبد الوهاب فى الجبال ، وقتل منهم عددا كبيرا .

ولم تنته حركة النكارية عند هذا الحد ، إذ انضم إليهم الواصلية المعتزلة ومعظهم من زناتة ، وخرجوا على عبد الوهاب لعدة أسباب منها : أنه قتل ابن فندين ، ولأن إدريس بن عبد الله بن الحسن كان قد غزا محمد بن خزر الزناتى أمير تلمسان سنة ١٧٣ هـ ، فانضوى ابن خزر تحت لواء الأدارسة ، وأقره إدريس على تلمسان ، ولكى يوسع محمد بن خزر نفوذه أخذ يحرض قومه الزناتيين فى شمال تاهرت على الثورة والانفصال عن الرستميين ، وكان معظمهم من الواصلية ، ولأن اسحاق بن محمد الأوزبى كان زعيما للواصلية فى وليلى ، وهو الذى ناصر الأدارسة وأسس دولتهم ، وكان يطمع فى مد نفوذهم على كل بلاد المغرب ، فعمد إلى إثارة الواصلية فى تاهرت على الإمام ، وحرضهم على الانفصال عن الدولة الرستمية .

وكان الواصلية يؤلفون حزبا قويا فى شمال تاهرت ، فقد ذكر ياقوت

---

(١) الأزهار الرياضية ، ص ١١٦ — مختصر تاريخ الإباضية ، ص ٣٩

(٢) نفس المرجع ص ١١٢

أن مجمعهم كان قريبا من تاهرت، وكان عددهم يبلغ نحو ثلاثين ألفا، وكانوا يعيشون في بيوت كبيوت الاعراب يحملونها[1]، وكانوا ينتشرون في شمال تاهرت من مستغانم إلى وهران، وفي جنوبها في تيلغمت وفي الصحراء، وفي وادى ميزاب، كما انتشر مذهبهم في شمال غربي المغرب الاقصى في وليلي ونواحيها[2]. وكان هؤلاء الواصلية يدعون إلى الإمامة الإسلامية باللسان، ولذلك لم يختلفوا مع الاباضية في الدولة الرستمية، بل التقوا معهم في الاتجاه المذهبي العام، وعاشوا في كنف الرستميين، إلى أن واتتهم الفرصة للانفصال عن الامامة الرستمية، فاضطر الإمام عبد الوهاب إلى محاربتهم بالسيف، وقضى على تمردهم (٣).

وفي إمامة عبد الوهاب حاولت قبيلة هوارة الخروج على طاعة الإمام، وشرعت أولا في محالفة قبيلة لواتة عن طريق المصاهرة، ولكن عبد الوهاب تنبه إلى ذلك، فحارب قيام هذا الحلف بنفس الوسيلة، وأصهر من شيخ لواتة، وتزوج ابنته التي كان قد خطبها أمير هوارة. وبذلك انحازت إليه قبيلة لواتة (٤).

وساد الهدوء بلاد الرستميين بعد ذلك، واستقر الأمر لعبد الوهاب، وازدهرت تاهرت في ظل هذه الحياة الآمنة الهادئة، فعزم عبد الوهاب على أن يختتم حياته بالحج إلى مكة براحتي عمر بقبيلة نفوسة. فاستخلف ابنه

---

(١) ياقوت، معجم البلدان ج ٢ ص ٨

(٢) الأزهار الرياضية ص ١١٦ وما يليها ــ دبوز، ج ٣ ص ٤٨١

(٣) نفس المرجع ص ١٨٨ ــ دبوز ص ٤٨٣

(٤) نفس المرجع ص ١٢٥ ــ محمد بن تاويت، دولة الرستميين، ص ١١٤

أفلح على القيروان وامتطى صهوة جواده ، ومضى شرقا وفى صحبته زوجته وجمع كبير من رجاله ، وسلك عبد الوهاب الطريق الصحراوية المارة بقسطيلية وجبل دمر الواقع إلى الجنوب من قابس ، وإلى الشمال الغربى من جبل نفوسة ، وكان جبل دمر تسكنه قبائل من دمر الزناتية ، ومع أنهم كانوا إباضية إلا أن استقرارهم قريبا من إفريقية جعلهم يؤثرون الاستقلال عن الدولة الرستمية حتى لا يتعرضوا لضربات العباسيين . وعلم أهل دمر بقدوم الإمام ، فاحتفلوا باستقباله ، ودعاهم الإمام للانضمام إلى إخوانهم بالدولة الرستمية ، فبايعوه ، وانضموا إلى دولته ، فولى عليهم شيخا صالحا يقوم بشؤونهم اسمه مدرار (١) . ومضى بعد ذلك إلى جبل نفوسة ، فنزل فى مدينة شروس عاصمة هذا الجبل ، وأقبل إليه أهلها وأهل الجبل ، ومنعوه من متابعة السير إلى مكة إشفاقا عليه من الوقوع فى أيدى العباسيين فيقتلوه (٢) .

وأقام الإمام فى جبل نفوسة سبع سنين تولى فيها شؤون القوم ، وانتقل إلى مدينة جادو مقر ولاة الرستميين فى هذا الجبل ، وأقام فى قرية منها تعرف باسم ميرى ، وبنى فيها مسجدا ، وكان يتولى فى خلال هذه السنين التى قضاها فى نفوسة ، التدريس فى مسجدها (٣) . ويبدو أن إقامة عبد الوهاب بن رستم فى جبل نفوسة شجعت قبائل هوارة الخاضعة لأمير إفريقية على إعلان ثورتها على العباسيين بطرابلس ، وأعلنت استقلالها فى سنة ١٩٦ هـ ، فاستنجد عاملها بابراهيم بن الاغلب ، فسير ابنه أبا العباس عبد الله على رأس

---

(١) المرجع السابق ص ١٣٧ — دبوز ص ٥٠٢

(٢) الازهار الرياضية ص ١٣٨

(٣) نفس المرجع ص ١٤٢ — دبوز ، ج ٣ ص ٥٠٧

جيش عدته ١٣ ألف فارس ، فانهزم البربر ، وتمكن ابن الاغلب من دخول طرابلس ، وبنى سورها [١] . فاستغاثت هوارة بالإمام عبد الوهاب ، فلم يتردد فى نجدتها ، وزحف إلى طرابلس بجيش ضخم ، فتحصن عبـــد الله الأغلبى داخل أسوار طرابلس وعندئذ حاصره الرستميون محاصرة محكمة وكان عبد الله بن ابراهيم قد أغلق أبواب المدينة ، ولم يترك منها مفتوحا إلا باب هوارة، وذلك لكى يخرج منه لقتال الرستميين(٢). وواصل عبدالوهاب ابن عبد الرحمن حصاره حول طرابلس إلى أن حدث ما لم يكن فى الحسبان، فقد علم عبد الله بوفاة أبيه ابراهيم بن الأغلب فى ٢٠ شوال سنة ١٩٦ هـ ، فعزم على العودة إلى القيروان للظفر بالإمارة الاغلبية قبل أن يغتصبها منه أحد من إخوته ، فاصطلح مع عبد الوهاب على أن تكون أعمال طرابلس كلها للدولة الرستمية بينما يحتفظ الأغالبة بمدينة طرابلس والساحل (٣). وعلى هذا الاساس رفع عبد الوهاب الحصار عن طرابلس ، وعاد إلى نفوسة بعد ان امتد سلطـانه على صحراء طرابلس الواسعة . ثم عزم عبـد الوهاب على العودة إلى تاهرت ، فأقام السمح بن أبي الخطـــاب عبد الأعلى ، أعز اصدقائه وقربهم إليه ، عاملا من قبله على جبل نفوسة وما يليه إلى ضواحى طرابلس وقابس ، ثم مضى عبد الوهاب بعد ذلك إلى تاهرت .

ولما توفى السمح بن أبى الخطاب أسرع كثير من العامة إلى مبايعة ابنـه

---

(١) ابن الاثير ، ج ٥ ص ١٥٦

(٢) نفس المرجع ص ١٥٧ ـ الازهار الرياضية ص ١٤٤ ـ دبوز ، ص ٥١٢

(٣) نفس المرجع ـ ابن خلدون ج ٤ ص ٤٢١ ـ الازهار الرياضية ص ١٤٥ ـ محمد ابن تاويت ، ١١٦

خلف بولاية الجبل ، وتابعهم فى ذلك بعض أعيان الجبل ، ممن رأوا الاستقلال عن الدولة الرستمية . ولكن الإمام عبدالوهاب لم يرض عن ذلك، فصمم على عزل خلف وتولية غيره من أهل الفضل ، فولى أيوبا بن العباس على الجبل (١) . فلما توفى أيوب ولى أبا عبيدة بن عبد الحميد ، وقد قامت بين خلف الثائر وأتباعه الذين عرفوا بالخلفية منذ أن بايعوا خلفا بالإمامة ، وبين هذين العاملين معارك طويلة ، انتهت بهزيمة خلف فى موقعة حدثت فى سنة ٢٢١ هـ فى عهد الإمام أفلح بن عبد الوهاب ، على يدى أبى عبيدة عبد الحميد . ولم يتم القضاء نهائيا على خلف إلا على يدى العباس الذى أسند إليه أفلح ولاية الجبل فتعقب خلفا ، وشتت شمل من بقى من أصحابه ، إلى أن توفى خلف ، وفر ابنه إلى جزيرة جربة (٢).

وتوفى الإمام عبد الوهاب فى سنة ٢١١ (٣) . وقيل سنة ٢٠٨ (٤) ، بعد أن وصلت الدولة الرستمية فى عهده إلى درجة كبيرة من الاتساع .

---

(١) الازهار الرياضية ص ١٥٢ — مختصر تاريخ الاباضية ص ٤٠

(٢) مختصر تاريخ الاباضية ص ٤٠

(٣) دبوز ، جـ ٣ص ٦٢٤ ، وذكر البارونى أنه توفي في سنة ١٠٩ ، وفى ذلك خطأ كبير لأن عبد الوهاب كان ما يزال حيا عندما حاصر قوات ابن الاغلب فى سنة ١٩٦ ، كما كان حيا عندما قام خلف بن السمح بالثورة عليه

(٤) انظر الانساب لزامباور ، ودائرة المعارف الاسلامية ، مادة تاهرت لجورج مارسيه — ومحمد بن تاويت ، دولة الرستميين ص ١١٨

(٢)

خلفاء عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم

١ ـ خلافة الامام افلح :

كان أفلح قد مارس الحكم أثناء غياب أبيه فى جبل نفوسة ، فلما توفى أبوه عبد الوهاب ، اجتمع أهل الشورى من علماء الدولة ، وأجمعوا على مبايعة أفلح بالإمامة ، إذ كان قد أظهر أثناء حياة أبيه من الورع والتقوى وحسن السيرة والعلم ما جعل الناس يتمسكون به إماما . فسار فى العدل والاحسان سيرة أبيه ، وعنى بنشر الأمن فى ربوع البلاد ، فتقدمت الحضارة الرستمية ، ووصلت الدولة فى عهده إلى ذروة عظمتها ، ومنتهى ازدهارها .

ولم يقطع الهدوء الذى ساد بلاد الرستميين إلا استمرار خلف بن السمح بالثورة على الإمام ، وخروج فرج النفوسى المعروف بنفات بن نصر عليه . أما ثورة خلف فقد رأينا كيف قضى عليها فى عهد أفلح ، وأما فرج النفوسى ، فقد شق عصا الطاعة على الإمام عندما عين أفلح سعداً بن أبى يونس عاملا على قنطرارة ، وكان سعد يطمع فى أحد المناصب ، فأخذ يثير بعض المشاكل المذهبية ، منها إنكاره الخطبة فى يوم الجمعة ، مدعيا أنها بدعة ، ومنها إنكاره استعمال الإمام العمال والسعاة لجباية الحقوق الشرعية . (١) وقد تولى أفلح نصحه فى عدة رسائل ، حذره فيها من سوء العاقبة ، وأنذره أخيرا بمعاقبته إن لم يرتدع . فخاف نفات على نفسه ، وتوجه إلى بغداد . وقد كان لنفات بعض التابعين الذين عرفوا باسم النفاتية .

---

(١) مختصر تاريخ الإباضية ص ٤٢

ونجح أفلح فى كسب الواصلية إلى جانبه ، فاتخـذوه إماما لهم ، وكان أتباعه من الواصلية، وجدهم ثلاثين ألفا ظواعن يسكنون الخيام[1]. وتوفى أبو سعيد ميمون الأفلح سنة ٢٤٠ هـ (٢) .

ب ـ خلافة الامام ابى بكر بن افلح

كان أبو اليقظان بن أفلح وقت وفاة أبيه أسيرا عند بنى العباس ، فقد قبض عليه عامل الحجاز وهو متوجه للحج ، فأودع السجن ببغداد ٣). واتفق الخليفة الواثق كان غاضبا على أخيه المتوكل فسجنه كذلك ، فتصادق أبو اليقظـان مع المتوكل أثناء مقامهما بالسجن ، فلمـا ارتقى المتوكل إلى دست الخلافة ، أذن لأبي اليقظان بالعـودة إلى بلاده ، فقدم إلى تاهرت فى إمامة أخيه أبي بكر .

فلما توفى أفلح، تولى ابنـــه أبو بكر الإمامة مع قلة كفايته ، إذ كان أخوه اليقظان أقدر منه على إدارة شؤون الدولة ، ولكنه كان ما يزال عند مسجونا ببغداد ، وكان أخوه الثالث يعقوب حدثا صغير السن ، ولذلك بويع أبو بكر بالإمامة . وكان أبو بكر شابا أرعنا لم يحسن الإدارة ، كما أنه لم يكن دينا عادلا يقظا كآبائه ، وإنما كان يميل إلى الراحة وحيـــاة الخمول ، فانغمس فى الترف وأسرف فى اللهو ، فلما عاد أخوه أبو اليقظان من بغداد بعد أشهر من إمامة أخيــه ، أسلم إليه أبو بكر مقاليد الإمامة ،

---

(١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٤٨

(٢) الأزهار الرياضية، ص ٢٢١ ـ مختصر تاريخ الاباضية، ص ٢٤٠ ويحمل زامبا ور تاريخ وفاته سنة ٢٥٨

(٣) ابن الصغير المالكى ، سيرة الأئمة الرستميين ، ص ٢٧ ـ مختصر تاريخ الإباضية ص ٤٤

وترك له مهمة القيام بشؤون الدولة وحل مشكلاتها ، واستغرق هو فى حياة اللذات والشهوات ، واحتجب عن العامة ، ثم إن أبا بكر وكل إلى صهره محمد بن عرفه ، وكان من أعيان تاهرت ، مهمة الاتصال بالرعية ، والنظر فى قضاياهم ، وكان ابن عرفة شخصية لطيفة ، وكان يحسن إلى الناس ، ويسعى إلى حل مشاكلهم ، فافتتنوا به ، وأحبـــوه ، وأصبح مقصدهم فى العاصمة ، وأصبح له أشياع وأنصار يمجدونه ، فأصبحت الإمامة الفعلية لمحمد بن عرفة ، والاسمية لأبى بكر (١) .

وكان قد وفد إلى تاهرت عدد كبير من جند القيروان الذين أعلنوا فى مناسبات كثيرة تمردهم على بنى الأغلب ، واستقروا بها ، وأسسوا لهم ربضا كبيرا فى تاهرت ، سوروه حتى أصبح يبدو وكأنه مدينة عامرة ، وكان من الطبيعى أن يؤيد هؤلاء الجند الوافدين محمد بن عرفة ، ويناصروه ، لأنه عربى وقروى مثلهم وافد من القيروان (٢) . فلما أحس محمد بن عرفة بعلو مكانته ، وضخامة شأنه ، ومشايعة جمهور تاهرت له ، غلبه الغرور وملك نفسه ، فاستبد بالأمر استبداداً كاملا ، وأصبح لا يكترث لأبى بكر ، ولا يهتم بشأنه . وكان أهل الشورى من علماء تاهرت وآل بنى رستم يشاهدون ما يجرى فى الدولة وهم ساكتون ، فلما أسرف ابن عرفه فى استبداده ، خافوا على إمامتهم من غروره واستبداده ، فشخصوا إلى أبى بكر بدار الإمامه ، وأطلعوه على افتتان الناس بابن عرفة ، وبينوا له سوء العاقبة إذا لم يتصرف تصرفا سريعا ، وحثوه على الخروج من قمقمه وعزلته ، ومباشرة الأمر بنفسه . ولكن أبا بكر كان

---

(١) ابن الصغير ، ص ٣١

(٢) دبوز ، ج ٢ ص ٥٧١

يغلى غضبا من ابن عرفه الذى استغل ثقته به،فعهد أبو بكر إلى أحد غلمانه بقتل ابن عرفة ، فاغتاله الغلام ، وأخفى جثته . وعندئذ اشتعلت نار الفتنة فى تاهرت ، وثار أنصار محمد بن عرفة ، ومشايعوه على أبى بكر ،وانقسم أهل تاهرت إلى فريقين : فريق يشايع الإمام ويتألف من نفوسة والعجم، والفريق الآخر من أنصار ابن عرفة ، ويتألف من جند العباسيين وصنائعهم فى تاهرت ، وعلى رأسهم محمود بن الوليلى ، وخلف الخادم مولى الأغلب ابن سالم وغيرهم ، وقد قام هذا الفريق بمهاجمة درب النفوسيين بتاهرت وإحراقه ، واحتدمت نار الفتنة فى المدينة ، فاضطر أبو اليقظان إلى الخروج من تاهرت هو وخاصته ، وبايعوه بالإمامة ، واستغل محمد ابن مسالة الهوارى الإباضى فرصة قيام الفتنة وخروج أبي اليقظان وخاصته من تاهرت ، واستولى عليها (١) .

ج ـ امامة ابى اليظقان محمد :

بويع بالإمامة بعد قيام الفتنة،وقيل بعد موت أخيه أو بتسليم منه إليه(٢) سنة ٢٤١ هـ . ، وتمت بيعته وأحوال البلاد فى غاية السوء من الاضطراب والفتنة ، ولكنه تمكن بفضل عزيمته وشجاعته من استنزال الثوار ، فجيش الجيوش ، واستنجد بسكان جبل نفوسة ، فأمدوه بجيش كثيف تمكن بفضله من إخماد نيران فتنة أتباع ابن عرفة ، ثم وجه أبو اليقظان همه إلى استرجاع تاهرت بعد قتال عنيف،وحصار دام نحو سبع سنوات(٣).

(١) ابن الصغير ص ٣٧ ـ الأزهار ص ٢٣٢ ، مختصر تاريخ الإباضية ص ٤٥

(٢) مختصر تاريخ الاباضية،ص ٤٥

(٣) المختصر ص ٤٥. ويذكر الأستاذ دبوز ان محمد بن مسالة مال إلى السلم بعد أن نصحه النفوسيون بالتزام الهدوء (دبوز ، جـ ٣ ، ص ٥٨٥)

عكف أبو اليقظان بعد ذلك على إصلاح ما أفسدته الفتنة ، فبسط الأمن والعدل فى البلاد ، فسادها الهدوء ، واطمأن الناس فى حياتهم ومعاشهم ، وأحبه أهل جبل نفوسة إلى درجة الافتتان (١). ومن الأحداث المشهورة فى عهده ، قيام قائده أبى منصور إلياس النفوسى بهزيمة جيش العباس بن أحمد بن طولون فى سنة ٢٦٧ هـ ، وتفصيل ذلك أن العباس انتهز فرصة غياب أبيه فى بلاد الشام ، وخرج فى عسكر كثيف قاصدا بلاد إفريقية للتغلب عليها ، فلما علم إبراهيم بن أحمد بن الأغلب بذلك سير إليه قائده أحمد ابن قرهب إلى طرابلس ، وهناك حشد ابن قرهب من أمكنه من جند طرابلس وبربرها ، ثم خرج إلى لبدة فدخلها قبل وصول العباس ، ثم قدم العباس من برقة والتقى جيشه مع جيش ابن قرهب على بعد خمسة عشر ميلا من لبدة ، فانهزم ابن قرهب وانسحب بفلوله إلى طرابلس ، فركب العباس فى أثره حتى نزل طرابلس ، ونصب عليها المجانيق ، وظل يحاصرها ٤٣ يوما . ولكن بعض جنوده اعتدوا على حرم البوادى ، أتباع الدولة الرستمية ، فاستغاثوا بأبى منصور قائد أبى اليقظان ، وكان مقيما بجبل نفوسة ، وشاركهم فى الاستغاثة أهل طرابلس ، فأغاثهم بجيش هائل يتألف من ١٢ ألف مقاتل من رجال نفوسة ، واشتبك مع العباس بن أحمد بن طولون ، فدارت الدائرة على جيش العباس ، فانهزم ومضى منسحبا إلى برقة ، وترك النفوسيون ما خلفه الطولونيون وراءهم من معدات وأموال وأسلحة ، زاهدين فيها ، متورعين عنها ، فانتهبها أهل طرابلس (٢) . وعاش أبو اليقظان نحوا من مائة سنة ، قضى منها فى الإمامة أربعين عاما ، ثم توفى سنة ٢٨١ هـ .

---

(١) ابن الصغير ، ص ٤٦

(٢) ابن عذارى ص ١٥٨ — البارونى ، مختصر تاريخ الإباضية ، ص ٤٦

د ـ امامة أبي حاتم يوسف بن محمد :

بايعه مجلس الشورى بالإجماع ، استجابة لرغبة الجمهور الأعظم من أهل تاهرت. وكان أبو حاتم حسن السيرة ، مصلحا ، محبا للعدل ، ورث عن أبيه ذكاءه وشجاعته وعلمه ، وفي أول إمامته خرج عليه عمه يعقوب بن أفلح ، بتحريض من بعض سكان تاهرت ممن لم يرضهم الإمام ببعض المناصب ، فأعلنوا الثورة عليه ، واستقدموا يعقوب من زواغة ، وبايعوه بالإمامة (١). فقامت الحرب الأهلية في تاهرت ، واحتدم القتال بين أنصار أبي حاتم وأنصار يعقوب ، ودامت الحروب بينهم أربع سنوات ، وانتهت بانتصار أبي حاتم وإعادته إلى الإمامة، وعودة عمه يعقوب إلى زواغة (٢).

وفي عهد الإمام أبي حاتم ، شق الطيب بن خلف عصا الطاعة عليه في حيز طرابلس وجبل نفوسة ، فعهد الإمام بتأديبه إلى أبي منصور إلياس ، واليه على الجبل ، فوجه إلى الطيب جيشا لمحاربته ، فالتجأ الطيب إلى زواغة معقل أنصار أبيه ، فتتبعه أبو منصور إلياس ، وطالب زواغة بتسليمه إليه ، ولكنهم أبوا ذلك ، فحاربهم أبو منصور وهزمهم ، ففر الطيب مع فريق ممن لم يقبل الدخول في طاعة الإمام إلى جزيرة جربة ، فطاردهم أبو منصور ، وحاصر جربة ، ثم دخلها وقبض على الطيب ، وحمله مقيدا إلى جبل نفوسه ، وحبسه فترة ، ثم أخرجه بعد أن أعلن توبته ، وعاد إلى الولاء للامام (٣).

ولما توفي أبو منصور إلياس ، أسند الإمام ولاية نفوسة إلى أفلح بن

(١) الباروني ، مختصر تاريخ الاباضية ص ٤٧
(٢) الازهار ، ص ٢٧١ ـ المختصر ، ص ٤٧
(٣) الازهار ، ص ٢٧٧ ـ المختصر ، ص ٤٨

العباس ، ولم يكن لأفلح مهارة أبي منصور فى قيادة الحروب ، فقد انهزم على أيدى الأغالبة فى سنة ٢٨٤ هـ ، وذلك أن ابراهيم بن أحمد الأغلبى عزم على أن يغـزو الطولونيين بمصر ، ففى سنة ٢٨٣ هـ ، زحف ابن الأغلب فى جيش كثيف بقيادة أبى بحر بن أدهم (١) متجها إلى مصر لمحاربة أحمد بن طرلون ، فاعترضته نفوسة بين قابس وطرابلس ، ومنعته من المرور ، فناصبهم الحرب قريبا من قصر مانو ، وكانت عـدة النفوسيين ٢٠ ألف مقاتل يقودهم أفلح ابن العباس ، واشتد القتال بين الأغالبة والنفوسيين ، وانتهى بهزيمة أهـل جبل نفوسة هزيمة شنعاء ، وقتل من عامة نفوسة فى هذه الواقعة نحو ١٢ ألفا ، ومن علمائهم ٤٠٠ رجل . ومنذ ذلك العهد لم تعـد نفوسة توافى الرستميين بالإمدادات ، وكان لذلك أعمق الأثر فى اضمحلال دولة الرستميين (٢).

ولم يكتف ابراهيم بن أحمد بذلك ، بل سير ابنه أبا العباس فى العام التالى إلى نفوسة ، فقتل منهم عددا كبيرا ، وأسر نحو ثلاثمائة ، أخـذهم معه إلى القيروان حيث أمر ابراهيم بن أحمد بذبحهم ، واستخلاص قلوبهم ونظمها فى حبال نصبت على باب تونس (٣).

وكانت هذه الهزائم كفيلة بسقوط هيبة الإمام ، وطمع بعض أقاربه فى الإمامة ، فتآمر عليه أبنـاء اليقظان ، وكان أخاه من أبيه ، فقتـلوه فى سنة ٢٩٤ هـ .

---

(١) ابن عذارى ، ص ١٧٣

(٢) الازهار ، ص ٢٨٠ ــ المختصر ، ص ٤٩

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧٤

ﻫ ـ امامة اليقظان بن ابى اليقظان ونهاية دولة الرستميين :

بويع اليقظان بعد مصرع أخيه ، وقامت إمامتـه بين عوامل الانقسام والاضطراب . أما الانقسام فلأن شيوخ الدولة كانوا ساخطين عليه لاتهامه بقتل أخيه ، وأما الاضطراب فلأن خطر الاسماعيلية قد اقترب من دولتهم ، وأصبح يهـــددها بالسقوط ، فقد تمكن أبو عبد الله الشيعى من احتلال الزاب ، والتغلب على دولة الأغالبة ، ودخـل رقادة سنة ٢٩٦ ﻫ . وأحس اليقظان بعجزه عن مواجهة الشيعة ، وأدرك قرب نهايته ونهاية دولته . وفى ١٥ رمضان خرج أبو عبدالله الشيعى من رقادة متجها إلى تاهرت ، فدخلها بالأمان ، ولكنه قتل يقظان ومن ظفر به من بنى رستم ، وأرسل رؤوسهم إلى أخيه أبى العباس وإلى أبى زاكى خليفته برقادة ، فطوفت بالقيروان ثم نصبت على باب رقادة (١) . ولم يكتف الشيعى بذلك بل استباح أموال الرستميين ، وتوجه إلى المكتبة الكبرى المعصومة ، وأخذ مافيها من الكتب الخاصة بالرياضيات ، والصنائع ، والفنون ، وأحرق ماعدا ذلك (٢) . إذ أن معظم كتبها خاص بالشريعة الإسلامية وبمذهب الإباضية وبتاريخ الرستمية . وقضى الإسماعيلية بذلك على الدولة الرستمية ، ففر كثير من سكانها إلى جبل أوراس ، وجبال بنى راشد ، وإلى واحة ورجلان فى الصحراء ، وإلى جبل نفوسة ، وإلى جزيرة جربة .

ولقد حاول أحد الإباضية النكارية وهو أبو اليزيد الملقب بصـاحب

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٠٨

(٢) مختصر تاريخ الإباضية ص ٤٩

الحمار (١) أن يعيد إنشاء الدولة الإباضية على مذهب النكارية ، فخرج على الفاطميين فى عهد المهدى بجبل أوراس سنة ٣١٦ هـ ، وكثر اتباعه فى أيام القائم بالله أبي القاسم محمـــد بن المهدى ، ودعا للخليفة عبد الرحمن الناصر بالأندلس ، وأخـذ يستولى على مدن المغرب مثل تبسة ومجانة والأربس وسبيبة وباجة، ودخل رقادة ، وأخذ يناوىء نفوذ الفاطميين فى المغرب ، ولكن الخليفة المنصور ، تمكن من القبض عليه بقلعة كتامة بعـد أن سقط أبو اليزيد جريحا فى رمضان سنة ٣٣٥ هـ ، فلمـا توفى أبو اليزيد فى محرم سنة ٣٣٦ أمر الخليفة الفاطمى بسلخ جلده وحشوه تبنا ، وقيل قطنا ، واتخذ له قفصا ، فأدخل فيه مع قردين يلاعبانه (٢) .

أما جبـل نفوسة ، فقد استقل بعـد انقراض الدولة الرستمية . وتولى إمارته أحفاد من بنى أبى المنصور إلياس (٣) ، كما فر عدد كبيرمن الإباضية الرستميين إلى واحة ورجلان ، وأقاموا فيها حتى قدمت جيوش المرابطين، فهاجروا إلى مزاب ، وحولوا الأقاليم الصحراويةهناك إلىواحاتخضراء سميت فيما بعد باسم سبع مدن (٤) ، ومازال سكان إقليم مزاب إباضية حتى اليوم .

---

(١) سمى كذلك لأنه كان يركب حمارا أشهب اللون (ابن خلدون ج ٤ ص ٨٥)

(٢) ابن عذارى ج ١ ص ٣١٣ ـ ابن خلدون ، ج ٤ ص ٩٤

(٣) مختصر تاريخ الإباضية ص ٥٠

(٤) محمد بن تاويت ، ص ١٢٧

(٣)

علاقــة الدولة الرستمية بجيرانها

١ ـ علاقة الدولة الرستمية بولاة افريقية :

رأينا من قبل كيف فشـل ابن الأشعث فى استنزال عبد الرحمن بن رستم بجبل سوفجيج سنة ١٤٤ هـ ، وكيف اضطر إلى العودة إلى القيروان بعد أن طال حصاره لابن رستم ، وتفشى المرض فى صفوف رجاله . فلمـا أسس عبد الرحمن مدينة تاهرت ، واتخذها حاضرة له ، واستقرت دعائم دولته لم يحاول ولاة إفريقية بعد ابن الأشعث مهاجمة هذه الدولة الناشئة ، وعلى الرغم من تمكن عمر بن حفص من إنزال الهزيمـة بجيش ابن رستم بالقرب من تهوذه سنة ١٥١ هـ (١) ، فانه لم يفكر بعد فى مهاجمـــة تاهرت ، فعاد إلى القيروان حيث قتل فى إحدى معاركه مع قوات أبى حاتم يعقوب بن حبيب الإباضى (٢) . وبمرور الزمن استطاع ابن رستم أن يسير بدولته فى طريق القوة والمنعة ، فهابه روح بن حاتم ، ورغب فى موادعة عبد الرحمن بن رستم ، فوادعه وهادنه سنة ١٧١ هـ (٣) ، كما وادع ابنه عبد الوهاب بن عبد الرحمن من بعده (٤) .

ولمـا قامت دولة بنى الأغلب بدأ أمراؤها ينـازعون الرستميين فى

---

(١) ابن عذارى ، جـ ١ ص ٨٩

(٢) نفس المرجع ص ٩٠

(٣) ابن خلدون ، جـ ٦ ص ٢٢٨

(٤) نفس المرجع جـ ٤ ص ٤١٥

أملاكهم بنفوسة ، فلمـــا استغاثت قبيلة هوارة بالإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن سنة ١٩٦ هـ ضـد أبي العبـاس عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب رحف عبد الوهاب بحشود هـائلة من بربر نفوسة ، وضرب الحصار عـلى طرابلس ، فاضطر ابن الأغلب إلى مهادنته على أن يحتفظ الأغالبة بمدينة طرابلس والساحل بينما يضـــع الرستميون أيديهم على ضواحي طرابلس والصحراء (١) .

وظلت العلاقات متوترة بين الرستميين والأغالبة ، وكانت تاهرت قد ازدهرت ازدهارا كبيرا في عهد أفلح بن عبـد الوهاب ، وأصبحت بحق حاضرة المغرب كله ، إذ اجتذبت إليها الخارجين على دولة الأغالبة من الجند وأهـالي القيروان ، وتضخم ملك الرستميين تضخما كبيرا ، وتألق نجمهم في سماء المغرب ، وعندئذ عمد أبو العباس محمد بن الأغلب إلى محاربة الرستميين وذلك بانشاء مدينة تجاور تاهرت ، كان الغرض من إنشائها أن تحتل المكانة التي تشغلها تاهرت . ففي سنة ٢٢٧ هـ أسس مدينـة بالقرب من تاهرت سماها العباسية ، فسكت عليه الإمام أفلح ، ولم يحاول أن يثنيه عن إقامتها وتخطيطها ، فلما تم بناؤها ، ونظمت أسواقها ، وثب عليها بجيوشه، وأجلاسكانها عنها ، ثم أحرقها (٢) . ومع ذلك فقـد لزم أبو العباس محمد الصمت، ولم يعمل على محاربة الرستميين ، إذ لم يكن له طـاقة بحربهم . وأخيرا تمكن إبراهيم بن أحمد من هزيمة جيش الرستميين بقيـادة أفلح بن

---

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ١٥٧ — ابن خلدون ج ٤ ص ٤٢١ ، ج ٦ ص ٢٤٨ — الباروني ، الازهار ص ١٤٥

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ٤٢٩

العباس فى واقعة قصر مانو سنة ٢٨٣ هـ ، وفى هذه المعركة ، استنفذ الطرفان قواهما ، وكان ذلك مقدمة لسقوط كل من دولتى الأغالبة والرستميين على أيدى الشيعة العبيديين .

ب ـ علاقة الرستميين بالأمويين فى الاندلس:

كان من الطبيعى أن يلتقى أمراء بنى أمية فى قرطبة بأئمة الرستميين فى تاهرت ، وتقوم بينهم علاقات من الصداقة والمودة ، فان العباسيين الذين كانوا يحاربون بنى أمية فى الأندلس ، كانوا أيضا أعداء للاباضية فى تاهرت (١) ، فقامت بين الأندلس وتاهرت علاقات تجارية ، وكانت السفن تتردد بين وهران والمرية حاملة المتاجر والعلماء والمسافرين إلى كل من الثغرين . ويذكر الأستاذ دبوز أن قيام دولة الرستميين هو الذى مكن

(١) ذكر الأستاذ الدكتور محمود على مكى أن الإمارة الأموية فى الأندلس كانت تعمل منذ عهد بعيد على محاربة أى دعوة شيعية فى شمال افريقية ، فمنذ تكونت دولة الأدارسة الشيعية فى المغرب الأقصى ، « عمل أمراء بنى أمية فى الأندلس على توطيد صلاتهم ببعض الدويلات المغربية حتى ما كان يخالفها فى الناحية المذهبية كدولة بنى رستم الخارجية فى تاهرت ، وذلك حرصا على اضعاف جيرانهم الأدارسة العلويين » (التشيع فى الأندلس ، صحيفة المعهد المصرى بمدريد ، ١٩٥٤ ص ١٢١) ومعنى هذا أنه لم يعد أمام الأمويين فى الأندلس من منفذ فى المغرب سوى المغرب الأوسط ، لأن المغرب الأدنى كانت تقوم فيه دولة الأغالبة الموالين للعباسيين ، والمغرب الأقصى كانت تقوم فيه دولة الأدارسة الشيعية . كذلك كان من الطبيعى أن يتحالف عمر بن حفصون فى الأندلس بعد خروجه على السلطة المركزية بقرطبة مع بنى الأغلب ، فابن حيان يذكر أنه كاتب ابن الأغلب أمير افريقية وأخبره بانه يصل لبنى العباس ، ولاطفه بالهدايا ، فأجابه ابن الأغلب ، ورد على هديته بهدية (ابن حيان ، كتاب المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس ، جـ ٣ ، نشره الأب ملشور م . باريس ١٩٤٧ ، ص ٩٢)

دولة عبد الرحمن الداخل من الرسوخ ، وأتاح لها السبيل إلى الازدهار ، كما أن الدولة الرستمية كانت الجسر الذى يصل دولة بنى أمية فى الأندلس بالمشرق الاسلامى ، لذلك كان أمراء بنى أمية يهادون أئمة الرستميين توددا لهم واكتسابا لصداقتهم (١) . وقد كثر وفود أهل الأندلس إلى تاهرت، فكان منهم عمران بن مروان الأندلسى ومسعود الأندلسى اللذان رشحهما عبد الرحمن بن رستم فى جملة من اختارهم للامامة من بعده . ويذكر ابن القوطية أن عمر بن حفصون فر إلى مدينة تاهرت ، فاشتغل مساعدا لخياط أصله من رية ، وبينما هو « جالس فى حانوته إذ أتاه شيخ معه ثوب يقطعه، فقام إليه الخياط ، ووضع له كرسيا يقعد عليه ، فسمع الشيخ كلام ابن حفصون ، فأنكره عند الخياط ، فقال له : من هذا . فقال : غلام من جيرانى برية أتي ليخيط عندى ، فالتفت الشيخ إليه ، فقال له : متى عهدك برية ؟ قال : منذ أربعين يوما . قال تعرف جبل ببشتر ؟ فقال له : أنا ساكن عند أصله . قال له الشيخ : فيه حركة ؟ قال : لا . قال : قد آن له ذلك . ثم قال له : هل تعرف فيما يجاوره رجلا يقال له عمر بن حفصون ، فذعر من قوله ، وأحد الشيخ النظر إليه ، وكان ابن حفصون أفضم الثنية ، فقال له: يامنحوس ، تحارب الفقر بالابرة . ارجع إلى بلدك ، فأنت صاحب بنى أمية، وسيلقون منك غيا ، وستملك ملكا عظيما ، فقام من فوره ، وذلك خوفا من أن ينتشر الأمر وأن يتقبض عليه بنو أبي اليقظان وكانوا مالكى تاهرت ،

(١) Lévi-Provençal, Histoire de l'Espagne, t. II, p. 245 - 248

دبوز ، ج ٣ ، ص ٣٥٠

وولاؤهم لبنى أمية ، فأخذ خبزتين من الخباز ، وألقاها فى كمه ، وخرج ، فأتى الأندلس » (١) .

ونستنتج من هذه الرواية أمرين : الأول ، أن تاهرت كانت تضم جالية أندلسية كبيرة ، والثاني أن العلاقات بين بنى أمية بالأندلس والرستميين بتاهرت كانت قائمة على الصداقة والمودة . ويذكر البارونى صاحب الأزهار الرياضية أنه كان لافلح بن عبد الوهاب مع ملوك الأندلس مواصلة وارتباط ومودة ، يهادونه بالهدايا النفيسة ، ويهاديهم بمثلها ، وله عندهم مقام رفيع ، ينظرونه بعين الإجلال والاعتبار (٢) . وعندما أحرق أفلح مدينة العباسية ، وخربها سنة ٢٢٧ هـ ، كتب إلى الامير عبد الرحمن الاوسط بالاندلس يتقرب إليه بذلك ، فبعث إليه مائة الف درهم (٣) .

وفى عهد أبي اليقظان محمد بن أفلح ، دامت علاقات المودة والصداقة بين تاهرت وقرطبة ، وكان أبو اليقظان « لا يقدم ولا يؤخر فى أموره ومعضلاته إلا عن رأيه (أى الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ٢٣٨ — ٢٧٣ هـ) وأمره ، وكذلك بنو مدرار بسجلماسة » (٤) .

ج — علاقة الرستميين بمصر :

كانت دولة الرستميين ترتبط ارتباطا وثيقا بمصر ، فقد كان كثير من

---

(١) ابن القوطية ، ص ٩١ ، ٩٢

(٢) الازهار ص ١٨٦

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ٤٢٩

(٤) ابن عذارى ج ٢ ص ١٦١ — ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الخاص بالأندلس ، تحقيق ليفى بروفنسال ، ص ٢٤

أهل مصر على مذهب الإباضية ، وكان من بين علماء الإباضية فى مصر شعيب المصرى ، الذى كان يطمع فى الإمامة الرستمية لنفسه ، فقدم إلى تاهرت عندما قامت الفتنة بين عبد الوهاب وابن فندين التى أدت إلى الانقسام الإباضى إلى نكارية ووهابية ، وأيد شعيب ابن فندين فى نزاعه مع ابن رستم . فلما تغلب ابن رستم على خصومه عاد شعيب إلى مصر (١) . ويذكر الاستاذ دبوز أن مصر فتحت دراعيها للدولة الرستميه ، فتدفقت قوافلها التجارية إليها ، وكانت هوارة فى شرق طرابلس ونفوسة تجوب صحراء سرت ذاهبة آيبة بين المدن الرستمية فى المغرب الادنى والأوسط وبين مصر وقوافلها مثقلة بالسلع الرستمية والمصرية (٢).

د ـ علاقة الدولة الرستمية بدولة بنى واسول المدراريين بسجلماسة :

كانت دولة بنى واسول دولة صفرية معتدلة ، ولذلك التقت أهدافها مع أهداف الدولة الرستمية ، وتوطدت بينها أواصر المودة والصداقة ، وازدادت هذه الروابط وثاقة ، وإحكاما منذ أن زوج اليسع بن إلياس ، وكان إباضيا صفريا (٣) ، ابنه مدرار من أروى ابنة عبد الرحمن بن رستم (٤). وقد أنجب مدرار من أروى ولداً سماه ميمونا ، وكان يؤثره على بقية بنيه ، وقد لعب ميمون هذا دورا هاما فى تاريخ دولة بنى واسول بسجلماسة ، إذ تولى الإمارة فى عهد أبيه ، ولكن أخاه ميمونا غلبه عليها (٥).

---

(١) مختصر تاريخ الإباضية ص ٣٩
(٢) دبوز ، ج ٣ ص ٣٥١
(٣) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٦٨ ـ الأزهار ص ٩٤
(٤) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٦٨ ـ الأزهار ، ص ٩٤
(٥) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٦٨ ـ ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ص ١٤٣

هـ ـ علاقة الدولة الرستميه بالسودان :

اتصلت الدولة الرستمية بالسودان اتصالا تجاريا ؛ وذلك عن طريق القوافل التجارية التى كانت تخرج من ورجلان (ورجلة) قاعدة الرستميين التجارية فى الصحراء . وكان تجار الدولة الرستمية يحملون المنسوجات الصوفية والقطنية ، والكتانية ، وأواني الزجاج ، والفخار والخزف ذى البريق المعدنى ، والملح ، إلى بلاد السودان لندرته عندهم ، فيبيعونه هناك بأسعار مرتفعة للغاية ، ويعودون محملين بالذهب والعاج وجلود الحيوانات . وكان أهل ورجلان يقودون هذه القوافل التجارية إلى بلاد السودان (١) . وكان الامام أفلح قد عقد مع ملك كوكو فى السودان الشمالى الغربي علاقات من المودة ، فأهدى إلى هذا الملك هدية نفيسة ليوثق الصداقة بينهما ، ويشكره على ما يجده تجار بلاده من حسن معاملتهم . وكان رسوله إلى ملك كوكو هو محمد بن عرفه ، وقد أعجب الملك بشخصية ابن عرفه وبثقافته وفروسيته ولطفه ، وكان لذلك اكبر الأثر فى توثيق عرى الصداقة بينه وبين الإمام أفلح (٢) .

---

(١) الأزهار الرياضية ص ١٨٤، ١٨٥

(٢) دبوز ، ج ٣ ص ٣٤٦، ٥٧١ .

(٤)
حضارة الرستميين فى تاهرت

ا ـ الحياة العلمية :

كان أئمة الدولة الرستمية من العلماء الذين كرسوا حياتهم للعلوم ونشرها فى كل طبقات المجتمع، وقد شارك هؤلاء الأئمة العلماء مشاركة فعالة فى الحركة العلمية فى تاهرت بتشجيع الناس على طلب العلم ، فكانوا يقومون بالتدريس فى جامع تاهرت وجامع جبل نفوسة . وكان عبد الرحمن بن رستم من كبار العلماء فى عصره ، فكان بارعا فى علوم الدين واللغة والفلك ، وكان محبا للعلم فأقبل على التأليف على قلة ما كان يجده من الوقت ، فصنف كتابا فى التفسير لم يصل الينا (١) . وكان الامام عبد الوهاب محبا للعلم ، تواقا إلى المعرفة ، وكان يبعث الأموال إلى العراق لشراء الكتب ، ولا يمل قراءتها فى شتاء أو صيف (٢) . وقد صنف كتابا سماه « نوازل نفوسة » وهو مجموعة من الفتاوى الشرعية كان علماء نفوسة يستفتونه فيها (٣) . وكان الامام أفلح عالما فى الحساب والفلك ، كما كان أديبا شاعرا ، ينظم الشعر ، وله قصيدة يشجع فيها على العلم ويحث على طلبه ، منها :

العلم أبقى لأهل العلم آثارا
يريك أشخاصهم روحا وأبكارا
حى ـ وإن مات ـ ذو علم وذو ورع
ما مات عبد قضى من ذاك أوطارا
وذو حياة على جهل ومنقصة
كميت قد ثوى فى الرمس أعصارا

---

(١) دبوز ، ج ٣ ص ٣١٢
(٢) نفس المرجع ، ص ٣٧٣
(٣) نفس المرجع ، ص ٤٦١

وفى هذه القصيدة يدعو الامام أفلح إلى الاقبال على العلوم الدينية فيقول : —

فاطلب من العلم مما تقضى الفروض به
واعمل بعلمك مضطرا ومختارا
وأطلبه ما عشت فى الدنيا ومدتها
لموقف العرض أن لا تورد النارا
واجعله لله لا تجعله مفخرة
ولا ترائى به بدواً وأحضارا

وكان طلاب العلم يحصلونه فى مساجد تاهرت ونفوسة على أيدى كبار علماء الإباضية فى أصول الدين والشريعة ، والرياضيات والطب والكيمياء . وقد شاركت المرأة فى هذه الحركة العلمية ، وساهمت بدور هام فى ازدهار الحياة العلمية فى عصر الرستميين، وممن نبغن فى العلوم أخت الامام أفلح التى برعت فى علم الحساب والفلك والتنجيم . ومن المراكز العلمية الهامة فى الدولة الرستمية مدينة تاهرت ومدينة شروس بجبل نفوسة ، ومدينة جادو ، وقرية أجناون ، وجزيرة جربة ، وورجلان . ولقد حمل جبل نفوسة شعلة العلم فى عصر الرستميين ، فظهر من علمائه الشيخ مهدى النفوسى ، ومحمد بن يانس ، وأبو الحسن الأبدلاني ، وعمروس بن فتح ، ويعقوب بن أفلح ، وأبو عبيدة عبد الحميد الجناوني ، ومعبد الجناونى وغيرهم ، وبرز من علماء تاهرت ابن أبي إدريس ، وأحمد التيه ، وأبو العباس بن فتحون، وعثمان بن الصفار وأحمد بن منصور ، وأبو عبيدة الاعرج ، وقد ترجم لهم أبو العباس أحمد

الدرجينى فى طبقاته ، وأحمد بن سعيد بن عبد الواحـــد الشماخى فى كتابه السير [1] .

واشتهرت تاهرت فى عصر الرستميين بمكتبتها المعصومة التى كانت تضم نحواً من ٣٠٠ ألف مجلد فى مختلف أنواع العلوم والفنون ، وقد خربت هذه المكتبة على أيدى الفاطميين ، بعد أن أخذوا منهـا ما اهتموا به من كتب الرياضيات والفلك والهندسة والطب .

ب ـ الحياة الاقتصادية :

كان نفوذ الرستميين يشمل مناطق زراعيـة واسعة تخترقهـا الوديان ، وتتفجر فيها العيون ، وأهم هذه الوديان وادى شلف الذى يتفرع منه وادى مينة ، ويمتد مجراه حتى يصل إلى تاهرت من جهة الجنوب ، ومنها وادى عين سوفجج ، وهو واد ينبع من عين بجبل سوفجج ، ويتجه شرقا فيلتقى بوادى الفرعـة ، ثم بوادى الوحش ويتألف من ذلك كله واد يمر جنوبى مدينـة شلالة . ويلتقى بوادى سوفجج من الشمال واد آخر يسمى قسنى . هـذه الوديان ، بالإضافة إلى الأمطار الغزيرة ، كان لها أثر كبير فى تكوين السهول الخصبة فى المغرب الاوسط ، وهى سهول أسرسوفى جنوب تاهرت، وسهول وادى شلف الغنية ، وسهول الساحل وفى هذه السهول كانت تزرع الحبوب والفواكه ، وأخصها السفرجل الذى كان يفوق فى طعمه سفرجل الآفاق . وبالاضـــافة إلى هذه السهول النهرية والساحلية ، كانت بالدولة الرستمية واحات خصبة فى وسط الصحراء أهمها واحة ورجلان التى كانت تشتهر بنخيلها وزيتونها .

---

(١) دبوز ، جـ ٣ ص ٣٩٢ ، ٣٩٣

وإلى جانب هذه الثروة الزراعية التى أتاحها توافر الميـــاه وخصوبة الارض ، كانت دولة الرستميين تعتمد اعتمادا خاصا على التجارة ، وكانت سفن الأندلس تصل إلى موانئها بتنس ومستغانم ووهران، مشحونة بالبضائع الاندلسية، فتفرغها، وتحمل منتجات البلاد الرستمية من منسوجات صوفية ومن العاج والجلود التى كانت تصل إلى المغرب الأوسط من بلاد السودان وغانة . وكانت الدولة الرستمية بحكم موقعها المتوسط بين المغربين الأدنى والأقصى، وبحكم علاقاتها الحسنة مع بلاد السودان والأندلس وسجلماسة تحتل مركزا تجاريا ممتازا فى بلاد المغرب كلها ، فكانت مركزا هاما للتجارة . وكانت القوافل التجارية تصل إليها من فاس والقيروان وسجلماسة وبلاد كوكو فى شمال السودان ، وكان الرستميون يصـدرون إلى بـلاد كوكو المنسوجات الصوفية والكتانية والحرير والقوارير الزجاجيـة ، والأوانى الخزفية البراقة والملونة ، والأصواف والتحف المعدنية، والأفاوية والعطور وكانت تستورد من السودان وغانة الذهب الخـام والعاج وريش النعـام وجلود الحيوانات . وكانت ورجلان أكبر قواعد الدولة الرستمية للتجارة الجنوبية ، ولذلك أثرى تجار هذه المدينة ثراء فاحشا بفضل ما كان يتدفق عليهم من أموال ، وينعكس هـذا الثراء فى سائر مدن الدولة الرستمية ، وخاصة فى حاضرتها تاهرت التى ازدهرت فى ظل الرستميين ، ونما عمرانها نموا لفت أنظـار الرحالة والجغرافيين . وقد وصلت إلينا أسمـاء لبعض الأثرياء فى دولة الرستميين ، نخص بالذكر منهم يبيب بن زلفين المزاتي ، وكان يملك من الابل ثلاثين ألفا ، ومن الغنم ثلاثمائة ألف ، ومن الحميرائنى عشر ألفا (١) ، ومنهم ابن وردة الفـارسى الذى ابتنى بتاهرت سوقا خاصا

(١) الأزهار الرياضية ص ١٣٧ ـ مختصر تاريخ الإباضية ص ٤٣

له[1]. وكان أهل جبل نفوسة أيضا يشتغلون بالتجارة فى الذهب مع بلاد السودان . وكان لازدهار الحياة الاقتصادية فى دولة الرستميين أثره فى اجتذاب كثير من تجار المسلمين وصناعهم ، فوفد إليها الناس ، وقصدوها من كل مكان ، واستوطنوها واشتغلوا فيها بالتجارة والصناعة ، وفى ذلك يقول ابن الصغير المالكى « وأتتهم الوفود والرفاق من كل الأمصار ، وأقاصى الأقطار ، فقل أحد أن ينزل بهـا من الغرباء إلا استوطن معهـم ، وابتنى بين أظهرهم ، لما يراه من رخاء البلد ، وحسن سيرة إمامه ، وعدله فى رعيته ، وأمانه على نفسه وماله ، حتى ترى دارا إلا قيل هذه لفلان الكوفى وهذه لفلان البصرى، وهذه لفلان القروى،وهذا مسجدالقرويين ومربعتهم وهذا مسجد البصريين ، وهذا مسجد الكوفيين ، واستعملت السبل إلىبلاد السودان ، وإلى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجـــارة وضروب الأمتعة » (٢) وقد ظهر هذا الرخاء فى تقدم العمران بتاهرت، وليس أدل علىذلك مما ذكره ابن الصغير عند اشارته إلىوفود رسل البصرةالذين قدموا للمرة الثانية إلى تاهرت بقصد منح الامام عبد الرحمن بن رستم عشرة أحمال من الذهب يستعين بهم فى تدعيم دولته الناشئة ، فهالهم التطور الهـائل الذى طرأ علىعمران المدينة ، فقددخلوا المدينة،«فرأوا هيئتها قد تبدلت ، ولاح عليها رونق المدينة واليسار ، وعلت وجوه أهلها سيماء الحضارة والرفاهيـة وبدت من محياهم آثار النعمة والغنى ، وازينت المدينةبقصور مشيدة ودور منظمة ، وأبنية مبهجة ، وقباب مرتفعة ، وأسواق مزدحمـة ، ومساجـد متعددة بمنارات عالية ، وحمامات متقنة ، ويحيط بالعاصمة بساتين متنوعة ،

---

(١) ابن الصغير ص ٢٧

(٢) نفس المرجع ص ١٢ ، ١٣ ـ الأزهار ص ٤٢

ومطاحن منتصبة على الأنهار الجارية ، واتخذ أهلها الفرش والستائر المزخرفة والخيل المسومة ، وتنوعت الألبسة ، وتعددت اللغات والازياء ، ورأوا مالم يخطر لهم ببال ، ولا شاهدوه فى مجيئهم الأول ..» (١)

وفى عهد الامام أفلح تقدمت الدولة الرستمية تقدما سريعا ، ووصلت إلى أوج عظمتها ، وبلغت فى السؤدد منتهى العز والترف ، فقد ابتنى الأغنياء القصور الفخمة ، واتخذوا الضياع الواسعة ، واستكثروا من العبيد والحشم ، واتسع نطاق التجارة اتساعا عظيما إلى حد أن بعض التجار أصبح يملك سوقا قائما بذاته ، وعلى عهده كثر المسافرون إلى السودان عن طريق الصحراء للاتجار واستجلاب التبر ، وضربه دراهم ودنانير للتعامل واتخاذه حليا (٢) .

ج — الحياة الفنية :

كان من آثر الازدهار الاقتصادى الذى شهدته دولة الرستميين أثر كبير فى إقبال سكان هذه الدولة على تشييد القصور العظيمة والمبانى الفخمة ، خاصة فى عصر الإمام أفلح الذى بلغت فيه الدولة ذروة تقدمها فى مضمار الحضارة ، فقد «شمخ فى ملكه ، وابتنى القصور ، واتخذ أبوابا من الحديد ، وبنى الجفان ، وأطعم فيها الجيعان ، وعمرت معه الدنيا ، وكثرت الأموال والمستغلات ، وأتته الرفاق والوفود من كل الأمصار والآفاق بأنواع التجارات ، وتنافس الناس فى البنيان حتى ابتنى الناس القصور والضياع

---

(١) المرجع السابق ص١٣ — الأزهار ص ٨٩ — دبوز ج ٣ ص ٤٤٢

(٢) مختصر تاريخ الإباضية ، ص ٤٢

خارج المدينة ، وأجروا الأنهار إليها ، فابتنى أبان وحموية القصرين المعروفين بها بأملاق ، وابتنى عبد الواحد قصره الذى يعرف به اليوم » (١).

غير أنه لم يتبق من هذه المنشآت الكثيرة التى زخرت بها تاهرت شيء يذكر فقد اضمحلت هذه المدينة عقب سقوط دولة الرستميين ، فهجرها علماؤها ، وكبار أعيان الدولة الرستمية ، ولكنها ظلت ثغرا لأعمال الشيعة الفاطميين، فوليها أيام المهدى أبو حميد دواس اللهيصى ، ثم وليها مصالة بن حبوس المكناسى . وفى ولاية حميد بن يصلى بن حبوس أقيمت قلعتها ، وبنى سورها (٢) . وظلت تاهرت تنحدر نحو النهاية بسبب المعارك التى كانت تدور فى ساحتها بين المتغلبين عليها إلى أن كانت الضربة الكبرى التى أصابتها فى أوائل القرن السابع الهجرى ، عندما خرج بنو غانية على الموحدين فى ناحية قابس ، ومازال يحيى بن غانية يشن عليها الغارات مرات متعددة إلى أن خرج عنها أهلها وهجروها تماما سنة ٦٢٠هـ (٣ . ومنذ ذلك التاريخ تخربت عمائرها، واعتورت المصائب عمرانها ، وأصبحت اليوم أطلالا دارسة. وقد تبقى من هذه العاصمه آثار قصبتها التى شيدها الرستميون ، وجددها الصنهاجيون ، واستخدمها الأمير الثائر عبد القادر الجزائرى فى القرن ١٩م مركزا لقيادته .ويذكرنا نظام البناء فيها بالقصور الأموية التى شيدها خلفاء بنى أمية فى بادية الشام ، مما لا يدع مجالا للشك فى أن الرستميين تأثروا بالتقاليد المعمارية السورية (٤) . وسور هذه القصبة مستطيل الشكل ، يتوجه

(١) ابن الصغير ، ص ٢٦ — الأزهار الرياضية ص ٤٢

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٧٦

(٣) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٤٩

(٤) Marçais , l'architecture musulmane, p.29

نشز له موقع استراتيجى رائـــع يسيطر على المدينةوما يحوطها من بسائط ومروج . ويسبق سورها فى الجانب الشمالى الشرقى سور أمامى صغير ، وفى الداخل فناء فسيح ، يشغل القسم الأعظم من القصبة ، وتلتصق بجدرانهـا من الداخل غرف مختلفة الاتساع (١) .

غير أننا يمكن أن نشاهد عددا كبـيرا من آثار الرستميين فى سدراتة بالصحراء الجزائريةوذلك أنه لما سقطتدولة الرستميين ، لم تنقرض سلالتهم من الجزائر ، بل هاجرت أسراتهم من تاهرت ، إلى الصحراء التى لم تتعرض لغزو الفاطميين ، فاستقرت هذه الا سرات فى ورجلان ،ثم عمروا فى القرن الرابع الهجرى مدينة سدراتة وظلت هذه الأسرات الإباضية هنـاك حتى هاجمتها جيوش المرابطين ،فهاجرت من ورجلان إلى صحراءميزاب ،ومالبث بقايا الرستميين أن حفروا الآبار فى هذه البقاع الجدباء وعمروها ،وجعلوا من هذه الأماكن واحات خصبة سميت فيها بعد باسم سبع مدن (٢) . وتقع سدراتة على بعد ٦٠٠ كيلو مترا جنوب شرقى الجزائر ، ١٤ ك. م . جنوبى واحة ورجلان ، وقد جددت سدراتة حضارة تاهرت ، ولكنها خربت بعد ذلك فى القـرن السابع الهجرى بسبب الفتن المتوالية فى الجنوب ، وطمرت الرمال آثار حضارتها إلى أن أسفرت الحفائر الأثرية التى أجراها علمـاء الآثار الفرنسيون فى أرضهـا ، أمثـال الأساتذة تارى ، وبول بلانشيه ، وفوشيه ، ومرجريت فان برشام ، عن كشف آثار بناء يعتقد أنه مسجد ،

---

(١) .Ibid ـــ السيد عبد العزيز سالم ، روائع الآثار الاســلامية بجمهورية الجزائر ، المجلة ، عدد ٢٩ سنة ١٩٥٩ ص ٢٧

(٢) محمد بن تاويت ص ١٢٧

ويرى الاستاذ تارى أن بيت الصلاة فى هذا المسجد كانت تعلوه قباب بيضاوية الشكل ، يلتصق بعضها إلى بعض ، وأنه كان يشتمل على ثلاثة صفوف من الدعائم الأسطوانية ، وكان أحد جدرانه مزينا بطاقات حفرت فيها جوفات مقوسة تعلوها أنصاف قباب مسطحة ، إحداها مزين بضلوع بارزة كالفصوص ، تشبه إلى حد كبير جوفات قصر الأخيضر بالعراق ، أو طاقات كنيسة طيسفون ، مما يدل دلالة واضحة على مدى تأثر الفن الزخرفى عند الرستميين بالفن العراقى الفارسى ، كذلك أسفرت الحفريات الأثرية ، التى أجريت بأرض سدراتة ، عن كشف بقايا دور كانت مزينة بزخارف جصية رائعة ، تشبه زخارف سامراء فى العراق ، وقوامها العناصر الهندسية التى تتألف من مربعات وجامات مستديرة وفصوص ، والعناصر النباتية التى تقوم على الفروع المموجة التى تتوزع فيها بينها التوريقات (١)

---

(١) السيد عبد العزيز سالم ، روائع الآثار الإسلامية ، ص ٢٨

Marçais; op. cit. pp. 55 — 60

(٥)

دولة بنى المدرار بسجلماسة

١ ـ نشاة سجلماسة وقيام دولة بنى واسول المداربين :

انتشر المذهب الصفرى فى أقصى القسم الجنوبى والجنوبى الغربي من المغرب على أيدى أئمة من العرب الخوارج ، الذين لجئوا إلى هذه النواحى البعيدة عن النفوذ الأموى . ولذلك اعتنق أهل مواطن سجلماسة من مكناسة الإسلام على المذهب الصفرى ، ثم انتزوا مع المنتزين على الدولة الاموية على أثر قيام ميسرة بفتنته . وكان من زعماء الصفرية فى هذه النواحى عيسى ابن يزيد الاسود المكناسى الصفرى ، وكان صاحب ماشية ينتجع بها المراعى بجنوب بلاد المغرب ، وكثيرا ما كان ينتجع أرض سجلماسة ويتردد عليها (١) ، وكان موضعا براحا يجتمع الناس فيه من قبائل البربر المجاورين له يتسوقون فيه ، فنزل عيسى فى أرض سجلماسة سنة ١٣٨ هـ ، وهناك اجتمع إليه كثيرون من زناته الصفرية ، وسكنوا معه فى خيام(٢) ، وكان عددهم يتجاوز أربعة آلاف شخص ، فبايعه كبيرهم أبو القاسم سمغون بن واسول المكناسى الزناتي ، وحمل قومه على طاعته ، فولوه عليهم ، فقام بأمرهم ، وشرع فى تخطيط مدينة سجلماسة سنة ١٤٠ هـ « فأكمل بناءها ، وأتقن أسوارها ، وقسم مياهها فى خلجان بقدر موزون ، وصرف إلى كل ناحية قدرها من مائه ، وأمر بغرس النخل والاستكثار منه » (٣) .

---

(١) ابن الخطيب ، القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام ، ص ١٣٨

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢١٥

(٣) ابن الخطيب ، المرجع السابق ص ١٣٩

ويبدو أن أهل سجلماسة أخذوا على عيسى بعض مآخذ أنكروها عليه، فقبضوا عليه ، وشدوا وثاقه إلى أصل شجرة فى سفح الجبل ، بعد أن طلوه بالعسل ، وتركوه حتى قتلته الزنابير والنحل سنة ١٥٥ هـ (١) ، فسمى هذا الجبل لذلك باسم جبل عيسى ، ويختلف ابن الخطيب وابن خلدون فيمن تولى بعده ومدة حكمه ، فيذكر ابن الخطيب أنه تولى بعده أبو الخطاب الصفرى (١٦٧ – ١٩١ هـ) بينما يتفق ابن خلدون وابن عذارى على أن أبا القاسم سمغون بن واسول المكناسى الملقب بمدرار (١٥٥ – ١٦٧) هو الذى تولى أمر سجلماسة بعد عيسى ، ويتفق معهما السلاوى فى ذلك (٢) . ورأى ابن خلدون أولى بالثقة لأن أبا الخطاب المذكور كان قائما باقليم طرابلس ، وقد أشرنا إلى إمامته من قبل . ويذكر صاحب الاستبصار أن أبا القاسم سمغون هذا الملقب بالمدرار كان حدادا من جالية الربض بقرطبة، خرج من الاندلس بعد وقعة الربض ، فنزل منزلا بقرب سجلماسة ، فأنشأ بها مدرار خيمة ، وسكنها فبنى الناس حوله ، وظفر برئاسة البربر(٣). ويذكر ابن خلدون أنه كان إباضيا صفريا ، وخطب فى سجلماسة للمنصور وللمهدى من بنى العباس (٤) . ولما توفى سنة ١٦٧ هـ خلفه ابنه إلياس الملقب بالوزير ، ولكن أهل سجلماسة ثاروا عليه فى سنة ١٧٤ ، وخلعوه ، وأقاموا مكانه أخاه اليسع بن أبى القاسم الملقب بأبى منصور (١٧٤-٢٠٨ هـ)، ويعتبر اليسع بن أبي القاسم بن المدرار هذا المؤسس الحقيقى لدولة بنى

(١) ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٦٧ — ويجعلها ابن الخطيب سنة ١٦٧
(٢) السلاوى ، جـ ١ ص ١٢٥
(٣) الاستبصار ص ٢٠١ — ابن الخطيب ، ص ١٤٠
(٤) ابن خلدون ، جـ ٦ ص ٢٦٨

واسول المعروفة بدولة بنى مدرار . فنى عهده استفحل ملك بنى المدرار فى سجلماسة ، « وهو الذى أتم بناءها وتشييدها ، واختط بها المصانع والقصور » ، وانتقل إليها فى سنة ١٩٩ هـ [١] ، وفيه يقول ابن عذارى : « وكان جبارا عنيدا ، فظفر بمن عانده من قبائل البربر ، وقهرهم وأذلهم ، وأظهر الصفرية ، وأخذ خمس معادن درعة ، وعظم قدره فى ذلك الوقت ، وكان موضع سجلماسة قد عمر بالديار دون سور ، ثم زاد ملك اليسع المذكور ، وأمر ببناء السور ، أسفله بالحجارة وأعلاه بالطوب ، فقيل أن بناءه كان من ماله ، لم يشاركه فيه أحد ، فسكن سجلماسة، وتوفى سنة ٢٠٨هـ، فكانت مدته بها نحو أربع وثلاثين سنة » [٢] . وذكر ابن الخطيب أنه هدم سور المدينة الأول ، وبناه بناء أعظم من البناء الأول ، وفتح فيه ١٢ بابا محددة ، وقسم داخل المدينة على القبائل [٣] . وهكذا ازدهرت مدينة سجلماسة فى أيامه ، وأصبحت حاضرة لهذه الدولة . وتقع مدينة سجلماسة على نهر يسميه اليعقوبي بنهر زيز ، وليس بها عيون ولا آبار (٤) .

ويصفها ابن حوقل فى القرن الرابع بقوله : « وسجلماسة مدينة حسنة الموضع جليلة الأهل، فاخرة العمل على نهر يزيد فى الصيف كزيادة النيل... فيزرع بمائة حسب زروع مصر فى الفلاحة ، وربما زرعوا سنة عن بذر ، وحصدوا ماراع من زرعه ، وتواترت السنون بالمياه ، فكلما أغدقت تلك

---

(١) ابن خلدون ، جـ ٦ ص ٢٦٨ ــ السلاوى ، جـ ١ ص ١٢٥

(٢) ابن عذارى ، جـ ١ ص ٢١٥ ، ٢١٦

(٣) ابن الخطيب ، ص ١٤٣

(٤) اليعقوبى ، ص ٣٥٩

الأرض سنة فى عقب أخرى ، حصدوه إلى سبع سنين (١) ، بسنبل لا يشبه سنبل الحنطة ولا الشعير ، بحب صلب المكسر ، لذيذ المطعم ، وخلقه ما بين القمح والشعير (٢) ، ولها نخيل وبساتين حسنة وأجنة ، ولهم رطب أخضر من السلق فى غاية الحلاوة ، وأهلها قوم سراة مياسير ، يباينون أهل المغرب فى المنظر والمخبر ، مع علم ، وستر ، وصيانة ، وجمال ، واستعمال للمروءة ، وسماحة ورجاحة ، وأبنيتها كأبنية الكوفة إلى أبواب رفيعة على قصورها مشيدة عالية » (٣). وذكر البكرى أن أهل سجلماسة يعتمدون على التمر لقلة غلتهم ، وأشار إلى مهارة نسائها فى غزل الصوف وصناعة الأزر البديعة التى تفوق ما كان يصنع فى مصر من القصب ، وكان ثمن الإزار الواحد منها يبلغ ٣٥ دينارا ، ويتحدث البكرى عن غنى أهلها ، وكثرة أموالهم ، لاشتغالهم بالتجارة إلى بلاد غانة والسودان ، وهى بلاد مشهورة بالذهب . ويؤكد الاصطخرى هذا المعنى بقوله: « وهى قريبة من معدن الذهب بينها وبين أرض السودان وأرض زويلة ، ويقال إنه لا يعرف معدن للذهب أوسع ذهبا ولا أصفى منه ، إلا أن المسلك إليه صعب ، والاستعداد شاق جدا » (٤) .

---

(١) فسر البكرى ذلك بأن سجلماسة بلاد شديدة الحرارة ، وكانت الحرارة تشقق الأرض ، فاذا يبس الزرع تناثر حبه عند الحصاد ، فتتساقط فى الشقوق ، فاذا كان العام الثانى حرث بلا بذر ، وكذلك فى العام الثالث (البكرى ، ص ١٤٨)

(٢) أشار اليعقوبى الى أن أكثر مزروعات سجلماسة الدخن والذرة

(٣) ابن حوقل ، صورة الأرض ص ٩٠

(٤) أبو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسى الاصطخرى ، المسالك والممالك ، تحقيق الاستاذ محمد جابر عبد العال الحينى ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٣٤

ويصفها المقدسى فى القرن الرابع الهجرى بقوله : « سجلماسة قصبة جليلة على نهر بمعزل عنها ، يفرغ فى قبليها ، وهى طولانية نحو القبلة ، عليها سور من طين ، وسطها حصن يسمى العسكر ، فيه الجامع ودار الإمارة شديدة الحر والبرد جميعا ، صحيحة الهواء ، كثيرة التمور ، والأعناب والزبيب ، والفواكه والحبوب ، والرمان ، والخيرات ، كثيرة الغرباء ، موافقة لهم ، يقصدونها من كل بلد ، ومع ذلك ثغر فاضل ، برستاقها معادن الذهب والفضة ، وهم أهل سنة ، وقوم جياد ، بها علماء وعقلاء ، لها باب القبلى ، باب الغربى ، باب غدير الجزارين ، باب موقف زناته ، وغيرها ، وهى فى رحال ، ولهم مياه » (١) .

وكانت سجلماسة فى عصر الموحدين مركزا تجاريا هاما ، وكان يتولاها أمير من أمراء الموحدين ، ويصفها صاحب الاستبصار بقوله : « ولمدينة سجلماسة ١٢ بابا ، ولها بساتين ، وهى كثيرة النخل والأعناب وجميع الفواكه ، وزبيب عنبها المعرش الذى لاتناله الشمس لايزبب إلا فى الظل ، ويسمى الظلى ، وما أصابته منه زبب فى الشمس ، وهى على نهرين من عنصر واحد فى موضع يسمى أكاف ، وتمده عيون كثيرة ، ولهم مزارع كثيرة يسقونها من النهر فى حياض كحياض البساتين » (٢) . وقد اندثرت مدينة سجلماسة اليوم ، وقامت على أنقاضها تافيللت .

ب ــ خلفاء اليسع بن أبى القاسم سمغون الملقب بالمدرار:

تولى بعده ابنه مدرار الملقب بالمنتصر ، وهو الذى تزوج أروى ابنة

(١) المقدسى ، أحسن التقاسيم لمعرفة الأقاليم ، طبعة ليدن ١٩٠٦ ص ٢٣١

(٢) الاستبصار ، ص ٢٠١

عبد الرحمن بن رستم ، وأنجب منها ولده ميمون ، وكان له ولد آخر من امرأة تعرف بتقية اسمه ميمون أيضا ، وكان اليسع يميـل إلى ابن الرستمية ولذلك تنازع الولدان فى عهده ، وقامت بينهما الحرب ثلاث سنوات ، تغلب فى نهايتها ابن أروى ، فلما استبد بالأمر وأساء السيرة خلعه أهل سجلماسة، وأعادوا مدرار على ولايتهم ، ولكنه أخذ يميل من جديد إلى ابن الرستمية ، فخلعوه وقدموا على أنفسهم ميمونا ابن التقية ، وتوفى مدرار فى سنة ٢٥٣ هـ وظل ابنه ميمون قائما بامارتهم حتى توفى سنة ٢٦٣ هـ .

وخلفه ابنه محمد بن ميمون بن مدرار وكان إباضيا ، ولم يطل عهده إذ توفى فى صفر سنة ٢٧٠ هـ ، وولى بعده عمه اليسع بن مدرار سنة ٢٧٠ هـ . وفى عهده وصل عبيد الله المهدى وابنه أبو القاسم إلى سجلماسة ، فحبسهما ، إلى أن زحف إليه أبو عبد الله الشيعى ، وتغلب عليه وقتـــله ، ودخل سجلماسة فى ذى الحجـة سنة ٢٩٧ هـ ، وخلص المهدى وابنه ، وأقام على سجلماسة ابراهيم بن غالب المزانى ، من رجال كتـامة [1] . وماكاد أبو عبد الله الشيعى يعود إلى إفريقية حتى ثار أهل سجلماسة على عامله عليهم ، وقتلوه بعد مضى ٥٠ يوما فقط من انصراف أبي عبد الله الشيعى ، وقدموا على أنفسهم الفتح بن ميمون بن مـدرار ، الملقب بالرسول وذلك فى ربيع الأول سنة ٢٩٨ هـ . وظل الفتح يقوم بأمر سجلماسة إلى أن توفى فى رجب سنة ٣٠٠ هـ ، ثم خلفه أخوه أبو العباس أحمد على إمارة سجلماسة. واستقام أمره فى البلاد ، غير أن المهدى لم يتركه ينعم بالإمارة ، فوجه إليه مصالة بن حبوس الصنهاجى على رأس جيش كثيف من بربر كتامة ومكناسة فحاصر

(١) ابن عذارى ج ١ ص ٢١٧ — ابن خلدون ج ٦ ص ٢٦٩ — ابن الخطيب القسم الثالث من أعمال الأعلام، ص ١٤٥

سجلماسة ، وافتتحها عنوة ، وقتل أبا العباس أحمـــد وارسل رأسـه إلى عبيد الله المهدى فى محرم سنة ٣٠٩ . ورأى مصالة أن يقيم عـلى سجلماسة أميرا من آل مدرار حتى يحد بذلك من ثوراتهم ، فأقام المعتز بن محمد بن ساور بن مدرار، وكان المعتز هذا يدعو للفاطميين . ولما توفى فى سنة ٣٢١هـ خلفه ابنه محمد الملقب بأبى المنتصر ، واستقـام ملكه عشر سنوات ، وتوفى فى سنة ٣٣١ . ثم تولى ابنه المنتصر ، وكان صغيرا لايتجـاوز من العمر ١٣ سنة ، فوثب عليه ابن عمه محمد بن الفتح بن ميمون بن مدرار فى سنة ٣٣٢هـ، وأخرج المنتصر من سجلماسة ، وقطع الدعوة عن خلفاء الفاطميين ودعا إلى نفسه ، وتسمى بأمـــير المؤمنين ، وتلقب بالشاكر لله (٢) ، ورفض الخارجية ، وأخذ بمذهب أهل السنة ، واتخذ السكة اسمه ولقبه ، وكانت تسمى الدراهم الشاكرية (٣) . وكان عادلا حسن السيرة ، وظل يقوم بأمر سجلماسة وما يليها حتى زحف إليه جوهر الصقلى فى خـلافة المعز لدين الله الفاطمى سنة ٣٤٧هـ ، فحاصر سجلماسة ثلاثة أشهر ، ففر الشاكر لله فى جماعة من أهله وخاصته ، وتحصن بحصن من حصون سجلماسة يبعـد عنها بنحو ١٢ ميلا . أما جوهر فدخل مدينة سجلماسة . ويذكر ابن الخطيب أن الشاكر لله خرج من حصنه فى نفر من أصحابه يتجسس الاخبار ، ودخل سجلماسة متنكرا ، فغدر به قوم من مطغرة ، فقبض عليه جوهر ، وحبسه فى قفص من الخشب ، وحمله إلى القيروان ، ثم سجن برقادة إلى أن توفى سنة ٣٥٤ . وبوفاته انقرض آل مدرار أمراء سجلماسة .

---

(١) ابن الخطيب ، المرجع السابق ص ١٤٨

(٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٧٠

الفصل الثامن

المغرب فى ظل الفاطميين

(١) قيام الدولة الفاطمية فى المغرب

ا ـ دور أبي عبد الله الشيعى فى تأسيس الدولة الفاطمية : ١ ـ مرحلة الاعداد ٢ ـ مرحلة الصدام المسلح

ب ـ خلافة عبيد الله المهدى :

١ ـ التخلص من الشيعى وأصحابه

٢ ـ القضاء على ثورة الإباضية بطرابلس

٣ ـ تأسيس المهدية والتمهيد لبسط النفوذ الفاطمى على مصر أو الأندلس

٤ ـ رد الفعل الأموى ضد مطامع الفاطميين فى الأندلس وأثر ذلك فى تحويلهم نحو مصر

٥ ـ فتح برقة ومحاولة فتح مصر

(٢) ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الخارجى

ا ـ قيام الثورات فى بداية عهد القائم

ب ـ ثورة أبي يزيد :

١ ـ المرحلة الأولى : (٣٢٢ - ٣٣٢ هـ)

٢ ـ المرحلة الثانية : (٣٣٢ ـ ٣٣٣ هـ)

٣ ـ المرحلة الثالثة : (٣٣٣ ـ ٣٣٤ هـ)

٤ ـ المرحلة الرابعة : (٣٣٤ ـ ٣٣٦ هـ)

(٣) خلافة المعز لدين الله الفاطمي

ا ـ بسط نفوذ الفاطميين على المغرب الأقصى

ب ـ استيلاء المعز على مصر وانتقاله إليها

الفصل الثامن

المغرب فى ظل الفاطميين

(١)

قيام الدولة الفاطمية فى المغرب

ا ـ دور ابى عبد الله الشيعى فى تاسيس الدولة الفاطمية :

كان قيام الدولة الفاطمية فى جد ذاته ثورة وانقلابا فى التاريخ الاسلامى، إذ أن نجاح الشيعة الإسماعيلية فى إقامة خلافة لهم فى المغرب جاء بعد محاولات طويلة فاشلة قام بها الشيعة منذ قيام الدولة الأموية ، للظفر بالخلافة ، وكان هذا الفشل نتيجة لانقسامهم على أنفسهم وتفككهم [1]. وكان لهذا النجاح الذى أحرزه الفاطميون آثار حاسمة فى تقرير مصير بلاد المغرب لأمد بعيد ، فان المغرب الإسلامى رغم انفصاله عن الدولة العباسية كانت تسود فيه المذاهب السنية ، وذلك لأن المذهب الإباضى فى تاهرت ، وهو مذهب المعتدلين من الخوارج ، كان لايختلف كثيرا عن مذاهب أهل السنة ، حتى أطلق عليه حديثا اسم المذهب الخامس ، وهذا يفسر ، وفقا لما يراه الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد وكيف أن إمارة سجلماسة الصفرية كانت تدين بالولاء للخلافة العباسية ببغداد ، كما أن دولة الأدارسة فى فاس ، على

---

(١) حسن ابراهيم حسن وطه شرف ، عبيد الله المهدي امام الشيعة الاسماعيلية ، القاهرة ١٩٤٧ ص ٢٠

بالرغم من كونها دولة علوية، إلا أن الأدارسة كانوا معتدلين بشكل لا يفرقهم عن أهل السنة ، مما دعا إلى تسمية هـذه الدولة بالدولة الهاشمية ، شأنهم فى ذلك شأن العباسيين ، وعلى هــذا قامت فاس وتاهرت وسجلماسة بنشر الإسلام السنى فى المغرب الأقصى والأوسط ، وبذل حكام هذه العواصم الثلاث جهدا صادقا فى القضاء على هرطقات البربر فى المناطق الجبلية بالمغرب الأقصى ، وخاصة هراطقة برغواطة . فقيام الدولة الفاطمية فى المغرب انقلاب خطير ، أدى إلى قطع علاقة المغرب بالمشرق ، وبالخلافة العباسية ببغداد [1]، مما دعا أمراء بنى أمية فى الأندلس بعد ذلك إلى التلقب بألقاب الخلافة فى ذى القعدة سنة ٣١٦ ، بعــد أن فقدت الخلافة العباسية هيبتها من جهة ، ومناوءة الخلفاء الفاطميين فى المغرب من جهة ثانية .

وقبل أن نتحدث عن قيام الدولة الفاطمية بالمغرب لا بد أن نذكر أن هناك مرحلتان لنشر دعوة الاسماعيلية فى هذه البلاد : الأولى ، هى مرحلة الاعداد للدولة ، وتكوين الأنصار والمشايعين للمذهب الاسماعيلى فى المغرب . والثانيـة ، مرحلة الصدام المسلح مع الدويلات القائمة فى المغرب .

١ ـ مرحلة الإعداد :

كانت بلاد اليمن مركزا هاما للدعوة الشيعية ، وذلك لبعدها عن مركز الخلافة العباسية ، ومناعتها وصعوبة الطرق الموصلة إليها ، ولقربها من الحجاز

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد ، فترة حاسمة من تاريخ المغرب ، مجلة كلية الآداب والتربية بالجامعة الليبية ، المجلد الأول ١٩٥٨ ، بنغازى ، ص ٢١٩ ـ ٢٢١

بجمع الحجاج (١). ولقد كان القائم بالدعوة الاسماعيلية رجلا من الكوفة اسمه رستم بن الحسين بن فرج بن حوشب الذى عرف بمنصور اليمن لانتصاره على الوالى العباسى ، وعلى أمراء اليمن(٢) . وكان ابن حوشب يرسل الدعاة إلى اليمامة وعمان والبحرين ومصر والمغرب، وجاء اختيار المغرب موفقا كل التوفيق لبعده عن مركز الخلافة العباسية ، وتذمر البربر من الحكم العباسى ، ولهذا فقد كانت بلاد المغرب تربة خصبة للدعوات الشيعية (٣). وكان الامام جعفر الصادق قد أنفذ إلى المغرب داعيين هما : الحلوانى وأبا سفيان ، وقال لهما : « بالمغرب أرض بور ، فاذهبا واحرثاها حتى يجىء صاحب البذر » (٤). فنزل أحدهما ببلدة مراغة، والآخر ببلد سوف جمار من أرض كتامة ، فانتشرت الدعوة الشيعية فى هذه النواحى ، ولما بلغ ابن حوشب نبأ وفاة هذين الداعيين ، عهد إلى أبي عبد الله الشيعى بالدعوة للاسماعيليه فى بلاد المغرب ، فخرج أبو عبد الله إلى مكة ، والتقى هناك ببعض رؤساء كتامة ، ومنهم موسى بن حريث ، وأبو القاسم الورفجومى ، ومسعود بن غيسى بن ملال الساكتى (٥) . وذكر ابن عذارى ، أنهم كانوا نحو عشرة

(١) أحمد مختار العبادى ، سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس، صحيفة معهد الدراسات فى مدريد ، المجلد الخامس ، ١٩٥٧ ص ١٩٤

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ٦٥ — السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الإسلامى ، ج ١ ص ١٠٤

(٣) محمود على مكى ، التشيع في الأندلس ، صحيفة المعهد المصرى فى مدريد ، المجلد الثانى ، ١٩٥٤ ص ٩٨

(٤) المقريزى ، اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الخلفا ، نشره الدكتور جمال الدين الشيال، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص ٥٧ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٦٥

(٥) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٦٦

من قبيلة كتامة ملتفين على شيخ منهم ، فسألهم عن بلادهم ، فأخبروه بصفتها، وسألهم عن مذهبهم ، فصدقوه عنه ، فتكلم أبو عبد الله الداعى فى المذاهب، فوجد الشيخ يميل فى مذهبه إلى مذهب الإباضية النكارة ، فدخل عليه من هذه الثلمة ، ولم يزل يستدرجهم ، ويخلبهم بما أوتى من فضل اللسان ، والعلم بالجدل ، إلى أن سلبهم عقولهم بسحر بيانه (١). فلما آن لهم العودة إلى بلادهم، سألوه عن مقصده ، فادعى أنه يريد مصر ليعلم بها ، فدعوه إلى بلادهم للقيام بهذه المهمة، ونزل ببلاد كتامة فى منتصف ربيع الأول سنة ٢٨٨ هـ ، (٢) . فنزل على موسى بن حريث ببلده ، وسمى مكان منزله بفج الأخيار، وأخبره بأن النص عنده من المهدى بذلك ، وأن اسمهم مشتق من الكتمان (٣). وأخذ أبو عبد الله الشيعى يضع لأهل كتامة من الأحاديث والتنبؤات بظهور المهدى ، ويستخدم السحر والطلاسم ، الأمر الذى أثار حماسهم ، وجعلهم يلتفون حوله ، ويعضدونه .

ولقد اعترضت أبا عبد الله الشيعى بعض الصعاب تمكن من التغلب عليها، ذلك أن وجوده أحدث انقساما بين البربر ، انتهى بانتصار الفريق الذى كان يسانده ، والتزمت كتامة الطاعة له ، ودخلت قبائل كثيرة فى دعوته ، فجعل لهم ديوانا ، وألزمهم الجندية ، وقال لهم : « أنا لا أدعوكم لنفسى ، وإنما أدعوكم لطاعة الإمام المعصوم من أهل البيت » (٤) .

---

(١) ابن عذارى ، جـ ١ ص ١٦٦

(٢) ابن خلدون ، جـ ٤ ص ٦٦ — أحمد مختار العبادي ، سياسة الفاطميين ، ص ١٩٤

(٣) نفس المرجع ص ٦٧

(٤) ابن عذارى جـ ١ ص ١٧٢

استقام أمر أبي عبـــد الله الشيعى بكتامة وعجيسة وزواوة ، وكثر الداخـلون فى دعوته من البربر ، فقوى أمره ، واستفحل خطره ، وأحس بقوته ، فبدأ الأمير ابراهيم بن أحمـد يخاف هذه القوة الجديدة ، ويعمل لها حسابا كبيرا ، وكان لا بد له أن يسعى لتحطيمها قبل أن تحطمـه . ويذكر ابن الخطيب ، أنه بعث إلى أبي عبد الله الشيعى من يتلطف فى تعرف خبره، وسبرغوره ، فلما دخل عليه قال له : « إن الأمير ابراهيم بن أحمـد وجهنى إليك يقول لك : ماحملك على التعرض لسخطى ، والوثوب على ملكى ،وإفساد رعيتى ، والخروج على . فان كنت تبتغى غرضا من أغراض الدنيا ، فانك تجده عندى ، وإن كان قصدك غير ذلك ، فقد عرفت عواقب من سولت له نفسه ما سولت لك نفسك ، وإنما أردت الإعذار إليك ، وهذا أول كلامى لك وآخره . فانظر فى يومك لغدك » . فرد عليه أبو عبد الله الشيعى بقوله: قد قلت فاسمع ، وبلغت فأبلغ : أما ما ذكرت من التهديد ، فما أنا ممن يروع بالإيعاد ،وأما تخويفك إياى برجال دولتك أبناء حطام الدنيا، فانى فى أنصار الدين ، وحماة المؤمنين ، الذين لا تروعهم كثرة أنصار الظالمين ، مع قول الله (كم فئة ضئيلة غلبت فئة كثيرة باذن الله، والله مع الصابرين) ، وأما ما أطمع به من دنياه ، فلست من أهل الطمع فيما عنده ، أنا بعثت رسولا لأمر حم ، وقرب ، وإنجاز وعد من الله سبق، والله لا يخلف الميعاد . هذا جواب ما جئت به » . ثم صرف الرسول على أحسن حال . فلما بلغ ابراهيم بن أحمد قوله ، ووصفت له صفته ، عرف أنه صاحب قطع دعوته ، وكان له علم عن الحدثان (١).

ويبدو أن إبراهيم بن أحمد لما تلقى هذا الرد الجرىء أراد أن يرضى العامة

---

(١) ابن الخطيب ، ص ٣٩

ويستميل قلوب الخاصة بفعله ، فرد المظالم ، وأسقط القبالات [1] ، وأعلن توبته ، وهنا تبدأ المرحلة الثانية من مراحل الدعوة الاسماعيلية .

٢ ـ مرحلة الصدام المسلح :

وتبدأ هذه المرحلة منذ سنة ٢٨٩ هـ وتنتهي باسقاط الشيعة الاسماعيلية لدولتي الأغالبة والرستميين سنة ٢٩٦هـ . شرع أبو عبد الله الشيعي في عام ٢٨٩هـ في مصادماته الحربية مع الأغالبة ، فقد زحف إلى طبنة ، وأغار عليها ، فسير إليه أبو العباس بن ابراهيم بن أحمد ابنه أبا عبدالله الاحول لمحاربته [2] ، ولكنه انهزم مرتين [3] . ثم استدعاه أخوه زياده الله من طبنه بعد أن تولى الإمارة عقب مقتل أبيه ، وقتله ، وانتقل من تونس إلى رقادة ، واستغرق في ملذاته . وفي هذه الأثناء كانت جيوش أبي عبد الله الشيعي ، قد انتشرت في البلاد . وفي سنة ٢٩٢ هـ حدثت موقعة كينونة ، وتفصيلها أن زيادة الله سير إلى أبي عبد الله الشيعي حملة بقيادة ابراهيم بن حبشي ، فلما علم الشيعي بخروج العسكر إليه وكثرة من معهم من الرجال وما لديهم من العدة وآلات الحـرب ، استنفر كتامة ، وتأهب ملاقـاة ابراهيم بن حبشي . فلما اشتبك الجيشان ، دارت الدائرة على ابن حبشي ، وغنم أنصار الشيعي غنائم كثيرة ، وهي أول غنيمة أصابها أصحابه ، فلبسوا أثواب الحرير ، وتقلدوا السيوف المحلاة ، وركبوا بسروج الفضة واللجم المذهبة ، وكثرت لديهم الأسلحة . ثم كتب الشيعي إلى عبيد الله المهدي ، بسلمية من أرض حمص يخبره بما فتح

---

(١) ابن عذارى ج ١ ص ١٧٧

(٢) نفس المرجع ص ١٨٠

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ٧٠

الله عليه ، فتنكر المهدى فى زى تاجر ، وقدم إلى مصر ، ثم ارتحل منها إلى القيروان ، ثم مضى بعد ذلك إلى قسنطينة ، ثم توجه منها إلى سجلماسة فأكرمه أميرها اليسع بن مدرار (١) .

وكان انتصار أبى عبد الله الشيعى فى كينونه فاتحة انتصارات شيعية جديدة ، فقد زحف أبو عبد الله الشيعى إلى سطيف ، فحاصرها فترة ، فاستأمن أهلها ، فأمنهم ، ودخلها ، فهدمها . وفى سنة ٢٩٣هـ استولى الشيعى على مدينتى بلزمة وطبنة ، وفى سنة ٢٩٤ هـ تمكن من الاستيلاء على باغاية بالأمان ، ثم افتتح قرطاجنة واستأمن أهل تيفاش ، ثم سقطت تبسة فى يده وتبعتها القصرين من إقليم قمودة . وفى سنة ٢٩٥ استولى الشيعى على قسنطينة ، وتوغل بعد ذلك إلى إقليم قسطيلية ، فاستولى على تيجس ثم على قفصة . وفى سنة ٢٩٦ هـ سقطت الأربس فى يده ، وعلى أثر ذلك فر زيادة الله إلى مصر ، فدخل أبو عبد الله الشيعى مدينة رقادة فى رجب سنة ٢٩٦هـ ، وسقطت دولة الأغالبه باستيلائه أخيرا على القيروان .

وفى هذه الأثناء كان اليسع بن مدرار قد اكتشف أمر عبيد الله المهدى (٢) ، فسجنه هو وولده أبا القاسم ، فلما علم أبو عبد الله الشيعى بذلك عزم على السير إلى سجلماسة لتخليصهما من السجن ، فاستخلف على إفريقية أخاه أبا العباس ، وأبا زاكى تمام بن معارك ، ومر فى طريقة إليها على

(١) ابن خلدون جـ ٤ ص ٧١

(٢) ذكر ابن خلدون أن زيادة الله ، وقيل المكتفى العباسى ، كتب الى اليسع بشأن عبيد الله ، وذكر له أنه المهدى الذى يدعو له الشيعى فى كتامة ، فحبسه اليسع لذلك (ابن خلدون جـ ٤ ص ٧١ ، ٧٢

تاهرت حاضرة الرستميين ، فاستولى عليها ، وقضى على الدولة الرستمية . وولى على تاهرت أبا حميد دواس بن صولات اللهيصى ، وابراهيم بن محمد اليمانى المعروف بالهوارى ، وكان يلقب بالسيدالصغير (١) . ثم تابع الشيعى بعد ذلك سيره إلى سجلماسة ، فحاصرها ، ودخلها ، وأخرج المهدى وابنه من السجن (٢) . ويذكر المؤرخون أنه عندما أبصر المهدى ، ترجل وخضع بين يديه من فرحته بهذا اللقاء ، ثم إنه مشى أمامه راجلا حتى أنزله بالمخيم ، وسلم إليه الأمر ، وقال لمن معه : « هذا مولاى ومولاكم ، قد أنجز الله وعده ، وأعطاه حقه ، وأظهر أمره »(٣) .

وأقام أبو عبد الله الشيعى وعبيد الله المهدى بسجلماسة أربعين يوما ، ثم رحلوا نحو القيروان ، بعد أن ولى الشيعى على سجلماسة إبراهيم بن غالب المزاتى ، فوصلوا إلى رقادة فى ربيع الأول سنة ٢٩٧هـ ، وهناك خرج أهل القيروان من الفقهاء ووجوه المدينة لاستقبال المهدى ، فهنأوه بالوصول ، وسألوه تجديد الأمان لهم ، فأمنهم على أنفسهم ، ولم يذكر الأموال ، فعاوده بعضهم وسألوه أن يؤمنهم على أموالهم ، فأعرض عنهم ، فخافه أهل العقل منذ ذلك الحين (٤) . ونزل عبيد الله المهدى فى قصر الصحن ، بينما نزل ابنه أبو القاسم فى قصر أبى الفتح ، وبويع للمهدى فى رقادة البيعة العامة ، وتلقب بالمهدى أمير المؤمنين ، واستقام له الأمر ، فضربت السكة باسمه ،

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢١٠

(٢) يذكر المؤرخون أنهما كانا معتقلين فى غرفة عند مريم بنت مدرار (ابن عذارى ج ١ ص ٢١٠ — الاستبصار ص ٢٠٤)

(٣) ابن عذارى ج ١ ص ٢١٠

(٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢١٨

وأسند المناصب إلى رجال يثق فيهم ، فولى بيت المال أبا جعفر الخزرى ، وعلى ديوان الخراج أبا القاسم بن العديم ، وعلى السكة أبا بكر الفيلسوف المعروف بابن القمودى ، وعلى العطاء عبدون بن حباسة ، وعلى قضاء رقادة أفلح بن هارون الملوسى ، ثم أقر على عمالة القيروان الحسن بن أبى خنزير ، وعلى القضاء بها المروزى القاضى ، وبعث العمال على البلاد ، وجبى الأموال وذكر ابن عذارى ، أنه « أمر أن تقلع من المساجد والمآجل والقصور والقناطر أسماء الذين بنوها ، وكتب عليها اسمه ، وأظهر عبيد الله التشيع القبيح ، وسب أصحاب النبى (صلعم) وأزواجه ، حاشا على بن أبى طالب والمقداد بن الأسود ، وعمار بن ياسر ، وسلمان الفارسى ، وأبى ذر الغفارى . وزعم أن أصحاب النبى (عم) ارتدوا بعده ، غير هؤلاء الذين سميناهم . ومنع المروزى الفقهاء أن يفتى أحدهم إلا بمذهب زعم أنه مذهب جعفر بن محمد ، منه سقوط الحنث عمن طلق بالبتة ، وإحاطة البنات بالميراث ، وأشياء يطول ذكرها . ومدحت الشعراء عبيد الله بالكفر ، فاستجازه» (١) :

ب ـ خلافة عبيد الله المهدى :

١ ـ التخلص من الشيعى وأصحابه :

كان عبيد الله المهدى ، منذ أن استقامت له الأمور فى المغرب ، يهدف إلى تدعيم مركزه فى بلاد المغرب ، وذلك باصطناع سياسة تركيز السلطات وجمعها فى يده ، وكان لابد له أن يصطدم فى ذلك مع أبى عبد الله الشيعى مؤسس دولته ، ويذكر ابن خلدون أنه « لما استقام سلطان عبيد الله المهدى

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢٠

بافريقية استبد بأمره ، وكفح أبا عبد الله الشيعى وأخاه أبا العبـاس عن الاستبداد عليه ، والتحكم فى أمره ، فعظم ذلك عليهما ، وصرح أبو العبـاس بما فى نفسه ، فنهاه أخوه عبد الله عن ذلك ، فلم يصغ إليـــه ، ثم استماله أبو العباس لمثل رأيه ، فأجابه ، وبلغ ذلك إلى المهدى ، فلم يصدقه ، ثم نهى أبا عبد الله عن مباشرة الناس ، وقال إنه مفسد للهيبة » (١) . فأخـذ أبو عبد الله منذ ذلك الحـين يدعو الناس إلى خلعه ، ويطعن سرا فى خلافته .
وحاول أن يقنع الناس أنه ليس هو الإمام المعصوم ، وزعم لهم ان للمهدى الصحيح علامة ، وهى أن بين كتفيه مكتوب « المهدى رسول الله » ، وحث أبو عبدالله رؤساء كتامة على امتحانه ، وذكروا أن شيخا من شيوخ كتامة ذهب إلى المهدى وقال له : « جئنا بآية على أمرك ، فقد شككنا فيك » ، فقتله المهدى على الفور. وبلغ المهدى أن أبا عبدالله الشيعى وأخاه أبا العباس وأبا زاكى تمام بن معارك وآخرين يتآمرون عليه ، فعزم على قتلهم ، وبدأ بأبى زاكى ، فبعثه على طرابلس ، وفى نفس الوقت بعث إلى عاملها ماقنون الاجابى يأمره بقتله ، فقتله فور وصوله . ثم أمر بقتل ابن القديم وكان من أصحاب زيادة الله ، واستصفاء أمواله وعمد بعد ذلك إلى التخلص من أبى عبد الله الشيعى وأخيه ، فأمر عروبة بن يوسف وأخاه حباسة بقتلهما ، فترصدا لهما ، فى موضع يمران فيه إلى القصر ، فلما مرا بهـذا الموضع حمـلا عليه ، فلما هم عروبة بقتل أبى عبدالله قال له هذا : « لا تفعـل ياولدى » ، فقال له عروبة « أمرنى بقتلك من أمرتنى بطاعته ، وانخلعت له من الملك بعد توطئته (٢) » . ثم أجهز القاتلان عليهما فى أول ذى الحجـة سنة ٢٩٨ هـ ،

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ٧٩

(٢) ابن عذارى ج ١ ص ٢٢٨ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٧٧

وظلا صريعين على صف الحفير المعروف بالبحر إلى أن أمر المهدى بدفنها ، فدفنا فى الجنان .

وقد أثار مقتل أبي عبدالله الشيعى فتنة كبيرة، قام بها أتبـاعه ، وذكر المؤرخون أن من كان حول رقادة من كتامة أظهروا الخلاف على عبيد الله وقدموا على أنفسهم حدثا يعرف بالمارطى ، واسمه كادو بن معارك وجعلوه قبلة يصلون إليها ، وكتبوا كتابا فيه شريعـة زعموا أنهـا أنزلت على أبى عبدالله ، وزعموا أن هذا الطفل هو المهدى المنتظر ، فامتدت هذه الدعوة فى جميع بلاد الزاب ، وقوى أمر هذا المهدى ، واشتدت شوكته ، فسير عبيد الله قوادا حاربوهم ، فانضم إليهم قائد من جيش عبيد الله المهدى هـــو صولات بن جندة فى نحو مائتى رجل ، فاضطر عبيد الله إلى تسيير حملة قوية بقيادة ابنه أبي القاسم إلى بلاد كتامة ، لمحـاربة المارطى وأتبـاعه ، فافتتح قسنطينة وغيرها من أرض كتامة ، وتمكن أبو القاسم من هزيمة الكتاميين فى عدة مواقع ، وقبض على المارطى وجماعة من كبار أهل كتامة ، فطوفوا بالقيروان على الجمال وعليهم القلانس الطوال المشهرة بالقرون والمصافع ، فقتلوا بمدينة رقادة [1] .

٣ ـ القضاء على ثورة الإباضية بطرابلس سنة ٣٠٠هـ :

ثار أهـل طرابلس فى سنة ٣٠٠ هـ على ما قنون الإجابي عامل عبيد الله عليهم ، ففر ماقنون ، وامتنع أهل طرابلس داخل مدينهم ، وقـدموا على

(١) نفس المرجع ص ٢٣٣ . ويذكر ابن خلدون أن أبا القاسم هزم الكتاميين، وقتل الطفل الذى نصبوه ، وعاد الى القيروان (ابن خلدون جـ ٤ ص ٧٨)

أنفسهم محمد بن اسحق المعروف بابن القرلين (١) . فأرسل عبيد الله ابنه أبا القاسم لاسترجاع طرابلس وإخماد الثورة ووجه إليها عبيد الله ١٥ مركبا حربية أحرقها أهل طرابلس . أما أبو القاسم ، فقد هزم أهل هوارة ، ثم حاصر طرابلس ، وقطع عن أهلها المؤن والأقوات ، فاستسلموا لأبى القاسم على الأمان ، واشترط عليهم نظير ذلك أن يسلموا إليه ثلاثة من زعماء الثورة ، حملهم معه إلى رقادة ، حيث قتلوا ، كما أغرم أهل طرابلس مبلغا قدره ٣٠٠ الف دينار (٢) .

٣ـ تأسيس المهدية والتمهيد لمد النفوذ الفاطمي إلى مصر أو الأندلس:

كان لقيام الثورات على عبيد الله أثر كبير فى حمله على بناء مدينة يتخذها عدة عند الشدة ، وملاذا فى أوقات الفتن (٣) . ويذكر ابن خلدون أنه قال : « بنيتها لتعتصم بها الفواطم ساعة من نهار » (٤) . وكانت مدينة رقادة بوقوعها فى وسط سهل فسيح عرضة لغزو من كل جانب ، فآثر أن يتخذ عاصمة تقع على البحر حتى تكون قاعدة لمحاولاته المستقبلة لغزو مصر أو الأندلس .

والواقع أن أهل المغرب خاب أملهم فى المهدى ، إذ اتضح لهم أن الوعود التى وعدهم بها أبو عبد الله الشيعى عن انقطاع الفساد بخلافة المهدى ،

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٣٣

(٢) نفس المرجع ، ج ١ ص ٢٣٤ ــ ابن خلدون ج ٤ ص ٧٨

(٣) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ص ٥٠ ــ ابن خلدون ج ٤ ص ٧٩

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ٧٩

وحلول عهد العدل والإنصاف والاصلاح لم تكن إلا سرابا ، فبالإضافة إلى البدع لدينية الجديدة، «من إعلان عصمة الإمام وتقديسه ، وتناول بعض الشعائر أو الطقوس الدينية المتعارف عليها بالحذف والتغيير ، وتجريح كبار الصحابة وأئمة الاسلام - ممـــا لا يمكن أن يقبله شعب نشأ على السنة ، وتعصب لمذهب مالك منذ أجيال - انتهج الفاطميون سياسة مالية متعسفة ، على عكس ما بشر به الداعى فى أول الامر ، فاشتطوا فى جمع الضرائب ، وتفننوا فى تنويعها ، حتى فرضوا على الحجاج جميعـا أن يمروا بالمهدية حتى يدفعوا ضريبة الحج »(١) ، بل إن إقدام المهدى على مـكافأة مؤسس دولته وصاحب الفضل الأعظم فى إمامته بالمغرب ، بالقتل ، كان له أسوأ الأثر فى نفوس البربر ، مما حملهم على الثورة عليه كما رأينا ، إذ أصبح المهدى فى نظرهم شبيها بأبى جعفر المنصور الذى قتل أبا مسلم الخراساني سيف دولته . وعلى الرغم من نجاح قادة المهدى فى إخماد نيران الثورات المشتعلة فى كل مكان ، فقد أحس المهدى فى قرارة نفسه بعدم الاطمئنان فى بلاد المغرب ، وأدرك أنه إذا كان قد نجح هو فى فرض سيادته على المغرب فان خلفاؤه سيخفقون أو على الأقل سيواجهون متاعب كثيرة . فقد ذكر ابن خلدون « أنه لما ارتفع سور المهدية رمى فوقه بسهم إلى ناحيـة المغرب ، ونظر إلى منتهـاه وقال : إلى هذا الموضع يصل صاحب الحمار » (٢) ، ويعنى به أبا يزيد مخلد بن كيداد الذى سيثور على الفاطميين فى خلافة أبي القاسم الملقب بالقـائم بأمر الله .لذلك كان من الطبيعى أن يفكر عبيد الله فى أمرين :

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد ، فترة حاسمة ، ص ٢٢٢

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ٨٣

الأول : تأسيس مدينة يعتصم بها ، وتكون مركزا لعملياته الحربيه والبحرية المقبلة .

الثاني : محاولة فتح مصر أو الأندلس ، ونقل الخلافة الفاطمية إليها.

فخرج المهدى يرتاد موضعا لبناء المدينة المذكورة فى سنة ٣٠١ هـ ، فمر بتونس وقرطاجنة ، حتى وقف على موضعها بين سفاقس والمنستير ، فى جزيرة متصلة بالبر كصورة كف اتصلت بزند (١) . وقد وصفها البكرى بأن البحر يحيط بها من جميع جهاتها إلا الجانب الغربى ، وفيه بابها . وللمهدية بابان من حديد لا خشب فيهما ، عليهما رسوم حيوانية (٢) . وجلب عبيد الله إليها الماء من قناة تمتد ما بين قرية مشانس والمهدية ، وأقام لها مرسى للسفن منقور فى صخر صلد ، يسع ٣٠ مركبا ، وشيد على المرسى برجين بينهما سلسلة من الحديد يغلق بها بعد دخول السفن ، وذلك تحصينا لها حتى لا تتطرقها مراكب الروم من صقلية وغيرها (٣) . وشيد بها أيضا دارا للصناعة نقرت فى الجبل تسع مائة سفينة حربية كبيرة ، وفيها قبوان كبيران لوقاية السفن من الشمس أو المطر ، وزود المدينة بالمواجل وصهاريج المياه والاهراء ، وبنى بها القصور ، فلما أسس المهدية قال : « أمنت اليوم على الفواطم »(٤) . وقد اكتمل سور المهدية ، ونصبت به الأبواب الحديدية

---

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٧٩

(٢) شاهد ابن حوقل هذين البابين ، وذكر أنه لم يرهما فى الأرض شبيه ولا نظير الا بابى سور الرافقة ، وهى بلد متصل البنـاء بمدينة الرقة ، بناها أبو جعفر المنصور سنة ١٥٥ (ابن حوقل ، صورة الأرض ص ٧٣)

(٣) البكرى ، ص ٢٩ ، ٨٤ — ٨٥ — الاستبصار ، ص ١١٧ ، ١١٨

(٤) نفس المرجع — ابن خلدون ج ٤ ص ٨٠

فى ربيع الأول سنة ٣٠٤ هـ (١) . وانتقل إليها فى ٨ شوال سنة ٣٠٨ هـ (٢)، وأقام بها ، وعمرت المدينة بالاسواق ، وأصبح لها أرباض كثيرة عامرة مثل ربض زويلة، وكان أقرب أرباضها إلى قصر الخليفة، وربض الحمة ، وربض قفصة (٣) . ثم أمر المهدى بعد ذلك ببناء مدينة بجوار المهدية سماها زويلة نسبة إلى إحدى قبائل البربر ، وجعل بين المهدية وزويلة ميدانا فسيحا ، وحوط زويلة بسور وأبواب وحراس ، وأسكنها التجار بأسرهم وعائلاتهم، وقال : « إنما فعلت ذلك لأمن غائلتهم ، وذلك لأن أموالهم عندى وأهاليهم هناك ، فان أرادونى بكيد ، وهم بزويلة كانت أموالهم عندى ، فلا يمكنهم ذلك ، وإن أرادونى بكيد وهم بالمهدية خافوا على حرمهم هنـاك ، وبنيت بينى وبينهم سورا وأبوابا ، فأنا آمن منهم ليلا ونهـارا ، لأنى أفرق بينهم وبين حرمهم نهارا (٤) » .

أما الأمر الثانى الذى فكر فيه المهدى فهو محاولة فتح مصر أو الأندلس فقد رأى المهدى بعد أن امتد نفوذه فى بلاد المغرب أن هذه البلاد لا تصلح لأن تكون مركزا لدولته ، ففضـــلا عن ضعف مواردها كان يسودها الاضطراب ، وتشتعل فيها الثورات من حين لآخر (٥) ، فتطلع بنظره إلى مصر والأندلس لوفرة ثرواتها، وأخذ المهدى يجس النبض، ويتأهب للهجوم

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٣

(٢) نفس المرجع ص ٢٠٨

(٣) البكرى ، ص ٣٠

(٤) نفس المرجع ص ٢٩ — ٣٠

(٥) جمال الدين سرور ، مصر فى عصر الدولة الفاطمية ، القاهرة ، ١٩٦٠ ص ٢٧

إما شرقا نحو مصر أو شمالا نحو الأندلس (١) . فبدأ بتوجيه حملاته على مصر منذ عام ٣٠١ هـ ، وقد كشفت الحملة الأولى ، على الرغم من فشلها ، عن ميل كثير من المصريين إلى الدعوة الفاطمية ، بفضل الجهود التى بذلها دعاة الاسماعيلية فيها كأبى على الداعى . وفى نفس الوقت أرسل دعاته وعيونه إلى الأندلس . أما الدعاة فلنشر الدعوة الفاطمية هناك وتمهيد البلاد قبل فتحها لقبول المذهب الإسماعيلى ، وأما العيون فلاستطلاع أحوال الأندلس وتعرف مداخلها ومواطن الضعف فيها (٢) ، ومن هؤلاء العيون أو الجواسيس المشارقة الذين دخلوا الأندلس قبل قيام الدولة الفاطمية فى المغرب ، ثم خدموا عبيد الله المهدى بعد ذلك، وزودوه بكثير من المعلومات عن أوضاع الأندلس الاجتماعية وأحوالها السياسية ، أبو اليسر الرياضى (ت. سنة ٢٩٨ هـ) ، وابن هارون البغدادى الذى تولى الكتابة للمهدى بعد وفاة أبى اليسر الرياضى ، بالإضافة إلى منصب رئيس ديوان البريد (٣) . ومن الجواسيس الذين قاموا بدور هام فى الاندلس ابن حوقل النصيبى (ت. سنة ٣٦٧ هـ) ، وقد دخل الأندلس ليستطلع أحوالها . ويسجل ملاحظاته عن أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية والعسكرية (٤) . ولكن هذه الجهود التى قام بها عبيد الله وخلفاؤه من بعده حتى عهد المعز ، لم يكتب لها نجاح كبير ، فان الدعاية الفاطمية التى مارسها دعاة الفاطميين وعيونهم فى الأندلس ، لم تجتذب إلا عددا محدودا من الأنصار والمشايعين من أهل

---

(١) محمود على مكى ، التشيع فى الأندلس ص ١١١

(٢) محمود على مكى ، التشيع فى الأندلس ، ص ١١٢

(٣) نفس المرجع ص ١١٤

(٤) نفس المرجع ص ١١٥ — مختار العبادى ، سياسة الفاطميين ص ٢٠٥

الفكر الأندلسي ، نخص بالذكر منهم ابن أبي المنظور الذى ولى القضاء لاسماعيل المنصور (٣٣٤ – ٣٤١ هـ)، والشاعر الإلبيرى ابن هانىء الاندلسي (ت . سنة ٣٦٢) الذى طرد من الأندلس حين تكشفت ميوله الفاطمية ، فالتحق بخدمة المعز الفاطمي (١) ، ومنهم القائد على بن حمدون الجذامى المعروف بابن الأندلسى ، الذى قدم إلى المغرب ، واتصل بالمهدى وبابنه من بعده، وقدعهد إليه عبيد الله ببناء مدينة المسيلة سنة ٣١٣ هـ ،وسماها المحمدية فى وسط أرض بنى برزال وبنى كهلان ، قريبا من هوارة (٢)، وقد عقد له القائم بالله على المحمدية ، بعد اختطاطها، فبناها وحصنها وشحنها بالاقوات، فكانت مدداً للمنصور فى حصار صاحب الحمار أبى يزيد بن كيداد (٣) .

٤ – رد الفعل الأموى ضد مطامع الفاطميين فى الأندلس وأثر ذلك فى تحولهم نحو مصر :

كان عبد الرحمن بن محمد الأموى يتتبع فى تيقظ وانتباه الخطوات التى يخطوها الفاطميون لبسط سلطانهم مذهبيا وعسكريا على الأندلس، فاضطر إلى الوقوف أمام مطامع الفاطميين فى بلاده موقفا صارما ،وبدأ يحاربهم ليس بنفس السلاح الذى يحاربونه به فحسب ، بل بأسلحة أشد مضاء ، وبأعمال إيجابية حاسمة، أثبتت أنه بحق من أعظم رجال السياسة فى العصور الاسلامية الوسطى ، وتتلخص هذه الأعمال فيما يلى :

(١) بث العيون والوسطاء فى أنحاء المغرب ، قد تمكن هؤلاء العيون من

---

(١) المرجع السابق، ص ١١٥ ، ١١٦

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٦٨

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ٨٢

تزويد حكومة قرطبة بمعلومات قيمة عن نوايا الأندلسيين الذين توطنوا المغرب منذ القرن الثالث . وقد كانوا من الحزب المعارض للفاطميين ، ولذلك تعرضوا لسخطهم ، ومنهم أبو جعفر محمـــد بن خيرون الأندلسى المعافرى صاحب المسجد الشريف الذى أسسه بالقيروان فى سنة ٢٥٢ هـ (١)، وصاحب الفنادق المجاورة للسجن ، وقـد أمر المروزى ، قاضى القيروان ، بقتله (٢) ، ومنهم أبو على حسن بن مفرج الفقيه ، ومحمد الشذونى الزاهد ، وقد أمر عبيد الله المهدى بقتلها لتفضيلهما الصحابة على على (٣) .

(ب) فى سنة ٣٠٢ هـ ، وصـل إلى الجزيرة الخضراء ، « وضبط البحر ، ونظر فى أساطيله ، واستكثر منها ، ومنـع ابن حفصون من البحر » (٤) . وأغلب الظن أنه وزع أساطيله على السواحل الجنوبية والجنوبية الشرقيـة من الأندلس حتى يمنع وصول الامدادات من القيروان إلى عمر بن حفصون الخارج عليه ، خاصة وأن ابن حفصون كان قد أرسل بيعته إلى المهـدى ، وأخذ يدعو له فى منطقة نفوذه بالأندلس (٥) . وقـد اهتم عبد الرحمن بن محمد بالأساطيل البحرية اهتماما جديا ، فعمل على إنشاء أسطول قوى يدفع عن الاندلس الأخطـار التى تتعرض لهـا من غارات النورمانديين والغزو الفاطمى على السواء ، وينازع به سلطان الفاطميين فى البحر المتوسط. ويذكر

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٠

(٢) نفس المرجع ، ص ٢٣٥

(٣) نفس المرجع ، ص ٢٦٢

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ٣٠٣

(٥) نفس المرجع ، ص ٢٩٣

ابن خلدون أن أسطول الاندلس انتهى فى أيامه إلى نحو مائتى مركب (١). وقد تولى قيادة هذه الاساطيل القائد ابن رماحس ، وكان مرفؤها للحط والإقلاع مدينة المرية ، القاعدة البحرية الرئيسية للأندلس ، وكانت دار الصناعة فيها تقوم بانتاج السفن والعدة والآلات اللازمة لهـا وما يقوم به الأسطول (٢) . ويعتبر الخليفة عبد الرحمن بن محمد المؤسس الحقيقى للأساطيل الأندلسية ، فقد قام بانشاء دور الصناعة والإنشاء فى طركونة ، والمرية ، والجزيرة الخضراء ، ومالقة ، وميورقة ، ولقنت ، وشلب ، واستخدم لذلك الغرض أخشاب الصنوبر بطرطوشة ، وهى أخشاب مشهورة بجودتها وعدم تعرضها للتلف الناشىء من السوس (٣) . وكان لهذا الأسطول الفضل الكبير فى استيلائه على طنجة ومليلة فى سنة ٣١٤ هـ وعلى سبتة فى سنة ٣١٩ هـ (٤). وعلى أثر ذلك أعلن موسى بن أبى العافيـة ، أمير فاس والمغرب ، وكان مواليا للمهدى ، خروجه عن طاعة المهدى ، وانضوائه إلى عبـد الرحمن بن محمد ، وكتب إلى عبد الرحمن سنة ٣١٩ هـ مبديا له رغبته فى موالاته والدخول فى طاعته ، على أن يستميل له أهواء أهـل العدوة المجاورين له (٥) . وفى

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٧٨

(٢) ابن غالب الاندلسى ، كتاب فرحة الانفس في تاريخ الاندلس ، قطعـة نشرها الدكتور لطفى عبد البديع ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، ١٩٥٦ ، ص ١٤

(٣) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس من كتاب الروض المعطار ، ص ١٢٤

(٤) ابن عذارى ج ١ ، ص ٢٨٣

Lévi - Provençal, la Potitica africana de Abd al-Rahman III, - al Andalus, vol. XI, fasc. 2, 1946, p. 366 - Lévi - Provençal, Histoire t. II, p. 96, t. III, p. 106

(٥) ابن عذارى ، جـ ١ ص ٢٨٢

العام التالى طلب موسى بن أبي العافية من عبد الرحمن أن يساعده فى افتتاح جزيرة أرشقول ، فاستجاب عبد الرحمن لرغبته ، وأمر أهل بجانة وغيرهم من أهل السواحل باقامة خمسة عشر مركبا حربية مجهزة بالرجال والسلاح لمحاصرة جزيرة أرشقول التى لجأ إليها الحسن بن عيسى ابن أبى العيش ، ولكن الحملة فشلت ، وعادت السفن الأندلسية إلى المرية فى شهر رمضان من هذه السنة [1] . ولما رأى عبيد الله المهدى انضواء موسى بن أبي العافية إلى عبد الرحمن بن محمد ، سير قائده حميد بن يصلى أمير مكناسة وعامله على تاهرت لمحاربة موسى بن أبى العافية ، وذلك فى سنه ٣٢١ ﻫ ، فكتب موسى بن أبى العافية إلى عبد الرحمن بن محمد يستنجد به ، فأخرج إليه عبد الرحمن قائده قاسم بن طملس فى العساكر والأسطول الأندلسى ، فوصل إلى سبتة ، وبلغه أن موسى هزم جيش حميد ، فعدل عن التدخل الحربى[2] . وفى سنة ٣٣٣ جاز الأسطول الأندلسى بقيادة أحمد بن إلياس ، ويونس بن سعيد مرسى الجزيرة ، واحتلا العدوة ، وحاصرا محمد بن أبى العيش بن عمر بن إدريس . ومنذ ذلك الحين أخذت الأساطيل الأندلسية تسدد ضرباتها إلى ممتلكات الفاطميين فى المغرب الأقصى [3] .

وفى سنة ٣٤٤ ﻫ أمر عبد الرحمن بن محمد بانشاء مركب كبير ، لم يعمل مثله ، فى دار الصناعة بالمرية ، وسير فيـــه أمتعة إلى بلاد المشرق ، فلقى فى البحر مركبا يحمل رسولا من صاحب صقلية إلى المعز لدين الله الفاطمى ،

---

(١) البكرى ، ص ٧٨

(٢) ابن خلدون ج ٤ ، ص ٣٠٦

(٣) عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ٢٨٨

فقطع عليه بحريو المركب الأندلسى طريقه ، واستولوا على ما فيه ، كما استولوا على الكتب التى أرسلها الحسين بن على صاحب صقلية إلى المعز ، فلما بلغ إلى المعز ذلك ، عمر أسطولا بقيادة الحسين بن على صاحب صقلية، وسيره إلى الأندلس، فهاجم الاسطول الفاطمى مدينة المرية فى نفس السنة، ودخل المهاجمون مرسى المرية ، وأحرقوا جميع ما فيه من السفن ، واستولوا على المركب الكبير ، وكان قد غاد من الاسكندرية وفيه أمتعة لعبد الرحمن وجوار ومغنيات . ثم دخلوا المدينة وقتلوا ونهبوا ، وعادوا سالمين إلى المهدية (١) . وكان رد الفعل الأندلسى على هذه الغارة البحرية ، أن هاجم الأسطول الأندلسى بقيادة غالب القائد ، سواحل إفريقية سنة ٣٤٥ هـ فى ستين سفينة ، وكان مرسى الخرز وساحل سوسة هدف هذه الغارة (٢) .

وزاد اهتمام الحكم المستنصر بالأسطول الأندلسى زيادة كبيرة ، فارتفع عدد قطعه من ثلثمائة (٣) سفينة إلى ستمائة جفن غزوى وغيره (٤) ، وكان قائده فى البحر عبد الرحمن بن رماحس .

(ج) تلقب الأمير عبد الرحمن بن محمد الأموى فى ٢٨ ذى القعدة سنة

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٦ ص ٣٤٩

(٢) ابن عذارى ، جـ ٢ ص ٣١٨ —

Lévi-Provençal, Histoire, t. II. p. 108 - Torres Balbas, Atarazanas hispanomusulmanas, Al-Andalus, vol. XI, 1946, p. 180

(٣) ابن الخطيب ، الاحاطة فى أخبار غرناطة ، تحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان ، جـ ١ ، القاهرة ، ١٩٥٥ ص ٤٨٧

(٤) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الخاص بالاندلس، تحقيق ليفى بروفنسال ، ط . بيروت ص ٤٢

٣١٩ هـ بألقاب الخلافة، ليدعم مركزه في داخل الأندلس وخارجه، ويفرض هيبته في نفوس أهـــل الأندلس حتى لا يتأثروا بالدعوة الاسماعيلية، وقد أصدر الناصر منشورا بذلك، وزعه عماله في النواحي المختلفة (١).

(د) وطد الناصر علاقته بأعـداء الفاطميين ، فتحالف مع هيوج دى بروفانس (يسميه العـــرب أقوه ، ملك الفرنجة وراء المغرب (٢).) ، Hugues de province ، الذي كان يحنق على الفاطميين لتدميرهم ميناء جنوة ، كما تحالف مع امبراطور بيزنطة الذي كان يرمى إلى استرجاع صقلية من أيدى الفاطميين (٣) . ثم وطد الناصر علاقتـه بالإخشيديين في مصر ، وعمل على إرسال الفقهـاء المالكية من الأندلس إلى مصر لمحـاربة المذهب الشيعى ، ومن أمثال هؤلاء أبو اسحق محمد بن القاسم بن شعبان المعروف بابن القرطبي الأندلسى (٤) .

(هـ) فتحت الأندلس أبوابها لأعـداء الفاطميين في المغـرب ، ومنهم ابن الخراز المليلى الذى كان قاضيا بمليلة ، ذهب إلى قرطبة في سنة ٣٢٥ هـ خوفا من جنود الشيعة ، فسجل له الناصر على قضاء بلده ، وحكم بن محمد القيرواني القرشى ، الذى تعرض لسجن عبيـــد الله المهدى بسبب مهاجمته

---

(١) Una cronica anonima de 'Abd al-Rahman III al-Nasir, ed. par Lévi - Provençal Y. Emilio Garcia Gomez, Madrid, 1950, p.79

(٢) ابن خلدون ، جـ ٤ ص ٣١٠

(٣) Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne, t. II, p. 159

(٤) محمـود على مكى ، التشيع في الأندلس ص ١٢٤ ـ مختـــار العبادى ، سياسة الفاطميين ، ص ٢٠٨

الفاطميين ، وكان يتردد بين قرطبـة والقيروان (١) . كما وفد إلى قرطبة أيضا بنو سعيد بن صالح صاحب نكور بعد أن دخلها مصالة بن حبوس ، وقتل أميرها سعيد فى ٣ محـــرم سنة ٣٠٥ هـ . وكان هؤلاء اللاجئون إلى الأندلس ثلاثة أبناء لسعيد بن صالح ، هم: صالح ، وإدريس ، والمعتصم ، فعبروا البحر إلى مالقة ، فقام الناصر بانزالهم ، والتوسع عليهم ، وبعث إليهم بضروب الكسوة وكل ما احتاجوا إليه من المرافق ، وخيرهم بين القـدوم إلى قرطبة أو المقام بمالقة ، فاختاروا المقام بها ، لقربها من بلدهم ، وأملهم فى العودة إليه . وكان مصالة قد استخلف على نكور رجلا يقال له ذلول ، وانصرف إلى مقر ولايته بتاهرت ، فعبر صالح وإخوته إلى نكور ، واسترجعها بعد أن قتل ذلولا .

* * *

وقد سجل الناصر باحتفاله ببنى صالح أصحـاب نكور أول تدخل له فى شؤون المغرب ، وحمل ذلك المهدى فيما بعد على معاودة غزو مصر فى سنة ٣٠٨ هـ (٢) ، والواقع أن عبد الرحمن الناصر اعتبر انتصـار بنى صالح على المهدى انتصارا شخصيا له ، فعبر عن اغتباطه بذلك الحدث الهام بأن أرسل إلى صالح الأخبية والآلات والبنود والطبول (٣) ، ورد عليه صالح بهدية من الخيل والجمال (٤) . ومنذ ذلك الحين أخذ الناصر يتتبع أحداث المغرب

---

(١) المرجع السابق ص ١٢٤ ، ١٢٥

(٢) Lévi-Prevençal, Histoire de l'Espagne, t. II p. 93

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٠٢

(٤) نفس المرجع ص ٢٤٥

باهتمام كبير ، باحثا عن أنصار له بين القبائل المعادية للفاطميين ، وتمكن من استمالة مغراوة وبنو إفرن الزناتيين ، وكان محمد بن خزر يتزعم قبيلة مغراوة ، وأدرك المهدى خطورة السياسة التى ينتهجها الناصر ضده ، فأمر مصالة بن حبوس صاحب تاهرت بمحاربة الزناتيين سنة ٣١٢ ﻫ ، فخرج مصالة من تاهرت إلى قبائل زناتة الضاربة من وادى شلف حتى تلمسان. واصطدم بقوات ابن خزر فى معركة عنيفة انتهت بمقتل مصالة ، وانهزام جيشه فى ٢٠ شعبان سنة ٣١٢ ﻫ (١). وقد اعتبر الناصر انتصار ابن خزر انتصارا لسياسته الإفريقية على الفاطميين . وفى سنة ٣١٤ ﻫ أحرز ابن خزر عدة انتصارات على قوات الفاطميين فى تاهرت نفسها (٢) ، وقد استغل الناصر هذه الفرصة ليرفع القناع عن وجهه ، فانقض على مليلة فى سنة ٣١٤ ﻫ ، واستولى عليها ، وحصن أسوارها(٣) . وأخذت الأحداث تتوالى بعد ذلك التاريخ فى سرعة مذهلة ، فقد تمكن ابن خزر سنة ٣١٧ ﻫ من التغلب على إقليم الزاب كله ، فعمد موسى بن أبي العافية إلى مهاجمة نكور ، وحاصر أميرها المؤيد بن عبد البديع بن صالح ، وتغلب عليها وقتل المؤيد ، وهدم أسوارها (٤) ، ثم حاصر الحسن بن عيسى المعروف بابن أبى العيش أمير جراوة ، ودخلها ، ففر الحسن إلى مدينة مليلة ثم إلى جزائر ملوية (٥) . وفى هذه اللحظة نزلت قوات عبد الرحمن الناصر بقيادة فرج بن عفير على ساحل العدوة واستولت

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٦٦

(٢) نفس المرجع ص ٢٦٩

(٣) البكرى ، ص ٨٩

(٤) البكرى ، ص ٩٣ — ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٧٤

(٥) ابن الخطيب ، (القسم الثالث) ، ص ٢١٤

على مدينةسبتة ، وشكها عبد الرحمن بالرجال، وأتقنها بالبنيان (١). وأحدث سقوط سبتة صـــدى عميقا فى المغرب ، فقدتهيأ للناصر باستيلائه على سبتة تكوين قاعدة حربية بحرية علىساحل العدوة تجاه ساحل الجزيرة الخضراء ، تمهيدا للسيطرة الفعلية على المغرب الأقصى ومحاربة موسى بن أبي العافيـة . وأدرك موسى بن أبي العـافية تحرج مركزه ، فرأى أن يسالم عبد الرحمن الناصر الذىأصبح سيد الموقف فى المغرب الأقصى ، فبادر بشق عصا الطاعة على المهدى ، وكان موسى يمثله فى بلاد المغرب ، ثم أعلن دخوله فى طـاعة الخليفةالأموى ، وهكذا أثمرتسياسة الحذر والتدخل التى اتبعها عبدالرحمن الناصر ، وأصبح الجزء الاعظم من شمال المغرب الأقصى ، ومساحات واسعة من المغرب الأوسط فى حماية عبد الرحمن الناصر ، بفضل انضواء كل من محمدبن خزر المغراوى ، وموسى بن أبي العافية المكناسى تحت لوائه(٢) . ولما علم المهدى بذلك جهز جيشا إلى المغرب بقيادة حميد بن يصلى المكناسى، فالتقى معه جيش ابن أبى العـافية فى فحص مسون ، الواقع شرقى تازى ، فانهزم موسى أمامه ، وتمكن حميد مندخول فاس سنة ٣٢١ هـ ، واستعمل عليها حامد بن حمدان الهمذانى ، ثم عاد حميد إلى إفريقية . فثار عليه أحمد ابن بكر بن عبدالرحمن الجذامى فى سنة ٣٢٢ هـ ، عقب وفاة المهدى، وعادت الدعوة فى فاس باسم الخليفة الناصر (٣) . وظـل النفوذ الأموى قائما على المغرب الأقصى وفاس حتى سقوط الخلافة الأموية بالأندلس ، على الرغم

---

(١) ابن عذارى، جـ ١ ص ٢٨٤

(٢) ابن خلدون جـ ٤ ص ٣٠٦ — Lévi - Provençal, Histoire, t. II, p. 79

(٣) ارجع إلى الفصل الخاص بمدينة فاس حاضرة الأدارسة .

مما قام به ميسور الفتى فى أيام القائم بأمر الله من جهود للقضاء على هذا النفوذ عند استيلائه على فاس فى سنة ٣٢٣ هـ ، وقهره لموسى بن أبي العافية ، وعلى الرغم من قيام جوهر الصقلى قائد المعز لدين الله الفاطمى ، باعادة فتح بلاد المغرب وفاس سنة ٣٤٧ هـ . والسبب فى فشل الفاطميين فى القضاء على نفوذ الأمويين يرجع إلى احتفاظ هؤلاء بقواعدهم العسكرية فى منطقة الريف .

٥ ـ فتح برقة ومحاولة فتح مصر :

حاول عبيد الله المهدى فتح مصر ثلاث مرات ، بعد أن تبين له استحالة فتح الأندلس ، ولكن هذه المحاولات باءت كلها بالفشل ، ولم يتم فتح مصر إلا فى عصر المعز لدين الله الفاطمى ، بسبب ضعف الخلافة العباسية صاحبة السيادة على مصر ، وضعف الدولة الإخشيدية صاحبة السلطان الفعلى فيها(١). فنى سنة ٣٠١ هـ سير المهدى جيشا ضخما من المغاربة بقيادة حباسة بن يوسف، فدخل مدينة سرت بالأمان ، ثم زحف إلى إجدابية واستولى عليها بالأمان، ثم دخل برقة ، وقتل من أهلها عدداً كبيرا بلغ نحو ألف رجل ، ثم أغرم أهلها مائة ألف مثقال . وفى أثناء مقام حباسة ببرقة ، قدمت إليه الجيوش العباسية من مصر ، فدارت بين الجيشين العباسى والفاطمى عدة معارك انتهت بهزيمة الجيش العباسى (٢) . زحف حباسة بعد ذلك متجها نحو الاسكندرية، وتغلب أثناء مسيره إليها على الحصون المتناثرة فى الطريق إليها ، وأدركه

---

(١) انظر تفاصيل ذلك فى بحث الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال ، عن مصر فى العصر الفاطمى ، فى موسوعة تاريخ الحضارة المصرية ، المجلد الثانى ، الجزء السادس ص ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، القاهرة ١٩٦٣

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٣٦ ـ سعد زغلول ، فترة حاسمة ، ص ٢٣٠ ، ٢٣١

أبو القاسم بن عبيد الله بجيش كثيف قبل أن يدخل الاسكندرية ، فدخلاها معا فى سنة ٣٠٢ هـ فألفياها خالية ، قد هرب أهلها فى البحر ، ثم تقدم جيش الفاطميين بقيادة أبى القاسم إلى الفيوم ، ولـكن حباسة تخلف فى الطريق بسبب خلاف حدث بينه وبين أبى القاسم ، وعاد إلى المغرب فى ثلاثين من فرسانه ، فاضطر أبو القاسم إلى الانسحاب أمام قوات العباسيين بقيادة مؤنس الفتى [1] ، وكتب إلى أبيه بخبر حباسة . فلما وصل حباسة إلى حيز برقـة قبض عليه وسجن ، وكان أخوه عروبة عاملا على تاهرت ، فلما بلغه خبر القبض على أخيه ، هرب بما استطاع حمله من أمـوال ، ولكنه اعتقل بجبل أوراس ، وقتل ، وأمر الخليفة بقتل أخيه حباسة كذلك .

وما كاد أبو القاسم ينصرف عن برقة إلى إفريقية حتى قام أهلها بالثورة على الفاطميين ، وقتلوا من كان بها من الكتاميين فى ١٠ ذى القعدة سنة ٣٠٢ هـ ، فسير إليهم عبيد الله الجيوش بقيادة أبى مدين بن فروخ اللهيصى [2] ، ويبدو أن أبا مدين لاقى كثيرا من الصعوبات فى فتح برقة ، لأنه لم يدخلها إلا فى سنة ٣٠٤ هـ بعد حصار دام ١٨ شهرا ، قتل فيها من أهلها معظمهم ، ولما دخلها استصفى أموال من قتل من سكانها ، وبعث بجماعة منهم إلى عبيـــد الله ، فأمر بقتلهم (٣) .

وفى أول ذى القعـدة عام ٣٠٦ هـ ، خرج أبو القاسم لغزو مصر المرة الثانية ، وخرج معه من قادة الفاطميين خليل بن اسحق ، وأبو غانم الكاتب ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٣٩

(٢) نفس المرجع ص ٢٤١

(٣) نفس المرجع ص ٢٤٤

ومن الله بن الحسن بن أبي خنزير ، وسليمان بن كافى . ولما اقترب أبو القاسم من الإسكندرية ، سير إليها سليمان بن كافى فى جملة من رجال كتامة، فاجأوا أهل الاسكندرية ، ودخلوها ، وانتهبوا أموال أهلها ، ثم سار ، أبو القاسم إلى الفيـوم ، ودخلها بالسيف ، ثم نزل الأشمونين . وفى هذه الأثناء تحرك الأسطول العبـاسى من سواحل الشام ، ونزل بالاسكندرية ، واشتبك فى قتال عنيف مع الأسطول الفاطمى فى رشيد ، انتصر فيه ثمل الفتى ، وتمكن من إحراق كثير من سفن الفاطميين ، وأسر عـددا من كبار قوادهم ، اقتادهم معه إلى الفسطاط ، ومنهم سليمان الخادم ، ويعقوب الكتامى ، ونتيجة لذلك تراجعت الجيوش الفاطمية إلى المغرب (١) .

وعلى الرغم من هذا الفشل المتلاحق ، فقـد ظل المهدى يتطلع إلى غزو مصر بعد أن أيقن باستحالة فتح الأندلس ، فأعاد الكرة للمرة الثالثة عندما اضطربت أمور العباسيين فى المشرق الاسلامى بعـد وفاة الخليفة المقتدر ، وانقسم الأتراك فى بغداد على أنفسهم . فأعد حملة سيرها إلى مصر عام ٣٢١هـ وبعد مناوشات بين الاخشيديين والمغاربة ، أبرمت معاهدة للصلح فى صفر سنة ٣٢٢ ، غير أن هذا الصلح لم يطل أمده ، فقد حدثت وقائع بين المغاربة والإخشيديين فى الجيزة وبلبيس ، ونجح محمد بن طغج الإخشيد فى هزيمـة المغاربة ، سنة ٣٢٤ ، وأسر عدداً كبيرا منهم (٢) .

---

(١) ابن عذارى ص ٢٥٥ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٦١

(٢) انظر التفاصيل فى كتاب عبيد الله المهدى ، للدكتور حسن ابراهيم حسن ، ص ١٨١ — ١٨٣

(٢)

ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرنى الخارجى

١ ـ قيام الثورات فى بداية عهد القائم :

توفى عبيد الله المهدى فى ربيع الأول سنة ٣٢٢ هـ ، وبوفاته أحس أهل المغرب بزوال كابوسه الذى كان جاثما عليهم ، فاستعادوا كثيرا من حرياتهم ، وأطلقوا العنان لثوراتهم التى أخذت براكينها تتفجر فى المغرب كله ، فاشتعلت البلاد من حممها نارا فى أول ولاية القائم بأمر الله ، ذلك أن قبائل البربر وجدت فى اختفائه فرصة مواتية للتحرر من سلطان الفاطميين ، وأول هذه الثورات التى أعقبت وفاة المهدى ثورة رجل عربى يعرف باسم ابن طالوت القرشى بنواحى طرابلس ، فقد ادعى أنه ابن المهدى ، فاتبعه البربر ، والتفوا حوله ، وزحف ابن طالوت إلى مدينة طرابلس وحاصرها ، ولكن حامية طرابلس تمكنت بمساعدة الأهالى من التصدى لهجوم هذا المدعى ، واتضح لأتباعه كذبه ، فانقلبوا عليه وقتلوه ، وبعثوا برأسه إلى القائم بأمر الله (١) . وفى فاس ثار أحمد بن بكر بن أبى سهل الجذامى على واليها حامد ابن حمدان الهمذانى ، فاضطر القائم بالله إلى تسيير ميسور الفتى إلى فاس ، لإعادة النفوذ الفاطمى على فاس والمغرب الأقصى ، فوصل ميسور إلى فاس فى سنة ٣٢٣ هـ ، وغدر بأحمد بن بكر ، إذ قبض عليه عندما قدم إلى معسكره ، فامتنع أهل فاس داخل أسوارهم ، وقدموا على أنفسهم حسن بن قاسم اللواتى ، فحاصرهم ميسور زهاء سبعة شهور ، ثم صالحهم على أن

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ ـ ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٨٣ ـ سعد زغلول ، المرجع السابق ص ٢٢٣

يبايعوا للقائم بالله ، ويسجلوا اسمه فى السكة . وأقر ميسور عليهم حسن اللواتي ، ثم رحل إلى المهدية (١).

وفى سنة ٣٢٣هـ بعث القائم بأمر الله عسكرا إلى برقة بقيادة قائده زيدان، وعامر المجنون ، وأبي زرارة ، وانضم إلى هذا العسكر جماعة من الجنود الكتاميين المرابطين ببرقة، ولكن هذا الجيش انهزم على أيدى قوات الإخشيد.

أما الثورة الكبرى التى كانت تشكل خطرا حقيقيا على كيان الدولة الفاطمية ، فهى ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرنى الزناتى ، وقد شغلت عصر القائم بالله كله ، وعامين من عهد ابنه أبي العباس إسماعيل المنصور ، أى أنها استغرقت نحو ١٤ سنه ، ومما يدل على خطورة هذه الثورة ، وأهمية القضاء عليها بالنسبة للدولة الفاطمية أن اسماعيل المنصور سجل انتصاره على أبى يزيد بانشاء مدينة المنصورية فى سنة ٣٣٧ هـ (٢) .

ب ــ ثورة ابى يزيد مخلد :

١ ــ المرحلة الأولى (٣٢٢ ــ ٣٣٢ هـ)

صاحب هذه الثورة هو أبو يزيد مخلد بن كيداد بن سعد الله بن مغيث بن كرمان بن مخلد من قبيلة يفرن الزناتية (٣) ، وكان أبوه كيداد من أهل توزر ، وكان يشتغل بالتجارة بين بلاد السودان وإفريقية (٤) ، ومن المعروف أن قوافل التجارة كانت تمر فى العادة بمدينة ورجلان ، وكان سكان

---

(١) البكرى ، ص ١٢٨ ــ القلقشندى ، ج ٥ ص ١٨٤ ــ السلاوى ، ج ١ ص ١٨٩

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٥ ، مادة المنصورية

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٠٧ ــ ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣٠٢

(٤) بن خلدون ، ج ٤ ص ٨٤

ورجلان من الإباضية وأكثرهم من أهل تاهرت الذين رحلوا عنها بعد سقوط تاهرت فى أيدى الفاطميين ، واستقروا فى ورجلان . ولد أبو يزيد مخلد بالسودان من جارية هوارية ، فأتى به أبوه إلى توزر ، فنشأ بها وتعلم القرآن منذ طفولته فى نفطة ، ثم اتصل بالإباضية النكارية أتباع ابن فندين الذين أنكروا إمامة عبد الوهاب بن رستم ، فمال إلى مذهبهم وأخذ به ، ثم رحل إلى تاهرت مركز الإباضية فى العهد الأخير من الدولة الرستمية ، فأقام بها مشتغلا بتعليم الصبيان . فلما استولى أبو عبد الله الشيعى على تاهرت سنة ٢٩٦ هـ ، رحل منها إلى تقيوس من مدن قسطيلية الكبار ، فاستقر به المقام هنالك أيام عبيد الله المهدى ، واشترى ضيعة ، واستمر يشتغل بتعليم الصبيان القرآن والعلوم الدينية ، وأخذ يدعو هناك إلى تكفير الشيعة واستباحة الأموال والدماء ، والخروج على سلطان الفاطميين الذين انحرفوا عن مبادىء الإسلام بسبهم لأبي بكر وعمر ، ووجد من الناس تجاوبا معه، فقد ضاقوا ذرعا بتشدد الفاطميين عليهم فى تطبيق المذهب الاسماعيلى ، ثم اتجه فى دعوته منذ سنة ٣١٦ هـ إلى تغيير المنكر ، فكثر أتباعه ، وقوى حزبه ، فلما توفى عبيد الله المهدى خرج من تقيوس لنشر دعوته للاباضية على مذهب النكارية ، ورحل إلى جبل أوراس الذى كان معقلا للثورات طوال عصور التاريخ . فانضم إليه عدد هائل من البربر الساخطين على الحكم الفاطمى ، فتلقب بشيخ المؤمنين . وكان من الطبيعى أن يعتمد فى ثورته على إحدى الشخصيات المناهضة للفاطميين ، فلم يجد خيرا من الاستناد على عبد الرحمن الناصر الذى كان له أنصار عديدين فى المغرب ، فاجتذب بذلك الأنصار والأتباع من البربر (٣) .

---

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٨٤

٢ ـ المرحلة الثانية (٣٣٢ - ٣٣٣ هـ)

لما عظم أمره، واستفحل خطره ، وأحس بقوته جاهر بعدائه للفاطميين سنة ٣٣٢ هـ ، ثم « هبط من جبل أوراس يدعو الحق بزعمه ،ولم يعلم الناس مذهبه ، فرجوا فيه الخير والقيام بالسنة ، فخرج على الشيعة ، ودخل إفريقية » (١) . واشتد أمره حتى أن القائم اضطر إلى الفرار أمامه من رقادة ، وأقام فى المهدية ، وسير إليه عامل مدينة باغاية ، فزحف إليه أبو يزيد فى جموع كثيرة من البربر ، ودارت الموقعة بالقرب من باغاية، فانتهت بهزيمة جيش القائم وتراجعها ، فزحف أبو يزيد على أثر انتصاره إلى باغاية وحاصرها . ولما طال الحصار ، آثر أن يترك على حصارها جماعة من قبائل بنى زناتة بضواحى قسنطينة ، فحاصروها فى سنة ٣٣٣ هـ ، أما هو فمضى إلى تبسة فافتتحها صلحا ، ثم افتتح مجانة كذلك وهدم سورها ، واستولى بعد ذلك على مرماجنة ، وأهدى إليه رجل من أهل مرماجنة حمارا أشهب اللون ، فكان يركبه ، ولذلك سمى بصاحب الحمار ، وكان يلبس جبة من الصوف ضيقة الكمين (٢) . وزحف أبو يزيد إلى الأربس ، فانهزمت عنها حاميتها الكتاميه ، ولم تلبث أن سقطت الأربس فى يده ، فأحرقها ونهبها ، وقتل من لجأ من أهلها إلى المسجد الجامع ، ثم وجه عسكرا إلى سبيبة فافتتحها ، وقتل عاملها . وكان لابد للقائم أن يعمل على إيقاف هذا السيل المدمر ، فجهز الجيوش ، وبعثها إلى رقادة والقيروان بقيادة ميسور الفتى ، كما سير عسكرا بقيادة بشرى الفتى إلى باجة ، فزحف إليه أبو يزيد ، وهزم

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٠٧

(٢) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣٠٣ — ابن خلدون، ج ٤ ص ٨٥

قوات بشرى فى باجة ودخلها ، وأحرقها ، وقتل من بها من الأطفال ، وسبى النساء . واجتمعت إليه هناك حشود كثيفة من البربر ، وكان بشرى قد لجأ إلى تونس ، فثار عليه أهلها ، ففر بنفسه ، وتمكن أبو يزيد من دخول تونس ، وأمن على أهلها ، واستخلف عليها أحد أتباعه ، ثم مضى نحو القيروان . ولم يسكت القائم على هذه الهزائم المتوالية ، فسير بشرى فى جيش من الكتاميين لمحاربة أبى يزيد ، وتمكن بشرى فى هذه المرة من التغلب على قوات أبي يزيد ،وقتل منهم نحو أربعة آلاف ،وجيء بأسراهم وعددهم نحو خمسمائة إلى المهدية ، حيث قتلتهم العامة (١) . غضب أبو يزيد لهذه الهزيمة ، ، فسار فى جيوش مجتمعة ، وعدتها نحو ٢٠٠ ألف مقاتل ، لمقاتلة الكتاميين ، فهزم طلائعهم ، فانسحب الكتاميون إلى القيروان ، فطاردهم أبو يزيد إليها . ورأى أن يبدأ بالاستيلاء على رقادة ، وكان عاملها خليل ابن إسحق ينتظر وصول ميسور الفتى لنجدته ، ولكن أبا يزيد لم يمهله ، فهزمه ودخل رقادة ، فعاث فيها ، ووجه من هناك أحد رجاله وهو أيوب الزويلى فى عسكر إلى القيروان ، فدخلها فى صفر سنه ٣٣٣ ﻫ ، ونهبها . ثم قدم أبو يزيد إلى القيروان ، فخرج إليه شيوخ القيروان ، فأمنهم ، ورفع النهب عنهم ، وأظهر الخير لأهلها ، وترحم على أبى بكر وعمر ، «ودعا الناس إلى جهاد الشيعة ، وأمرهم بقراءة مذهب مالك . فخرج الفقهاء والصلحاء فى الأسواق بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ،وعلى أصحابه وأزواجه ، حتى ركزوا بنودهم عند الجامع ، فلما كان يوم الجمعة اجتمعوا بالمسجد الجامع ، وركبوا مع أبي يزيد بالسلاح ومعهم البنود والطبول ، منها بنذان

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٠٤ — ابن خلدون ص ٨٦

أصفران مكتوب فى أحدهما البسملة ومحمد رسول الله ، وفى الآخر : نصر من الله وفتح قريب ، على يدى الشيخ أبى يزيد . اللهم انصر وليك على من سب أولياءك ، وبند آخر مكتوب عليه : قاتلوا أئمة الكفر ، الآية ، وبند آخر فيه مكتوب : قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم وينصركم عليهم ، وبند آخر مكتوب فيه ، البسمله أيضا : محمد رسول الله ، أبو بكر الصديق ، عمر الفاروق . وبند آخر وهو السابع عليه مايلى: (لا إله إلا الله. إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذهما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا) ، فلما اجتمع الناس وحضر الإمام وطلع على المنبر ،خطب خطبة أبلغ فيها ،وحرض الناس على الجهاد، وأعلمهم بما لهم فيه من الثواب . ثم لعن عبيد الله ، وابنه ، ثم خرج الناس معه لقتال الشيعة » (١) . وكانت جيوش ميسور الفتى قد قدمت لمحاربة أبى يزيد ، فانخذل عنه بنو كملان ، وانضموا إلى أبى يزيد ، فخرج أبو يزيد للقائهم، واشتبك الجيشان فى معركة رهيبة بوادى الملح أسفرت عن هزيمة ميسور ، وقتله جماعة من بنى كملان ، وجاؤوا برأسه إلى أبي يزيد ،فأمر بأن يطاف به فى القيروان (٢) ، وأصبح أبو يزيد متغلبا على معظم إفريقيه. فلما بلغت القائم أنباء هزيمة ميسور ومصرعه ، تأهب للحصار ، فأمر بحفر الخنادق حول المهدية ، والاستعداد لحصار طويل الأمد ، فشحن المدينة بكل ما يلزمها من مؤن وأقوات . وأقام أبو يزيد سبعين يوما فى مخيم ميسور بث خلالها السرايا فى كل نواحى إفريقية ، فافتتح سوسة عنوة ، وخرب عمران

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٣٠٨ ، ٣٠٩

(٢) المرجع السابق ص ٣١٠ — ابن الأثير ، ج ٦ ، ص ٣٠٤ — ابن خلدون ، ج

إفريقية ، ثم زحف بجيوشه إلى المهدية لحصارها، وعندئذ استنجد القائم بزيرى ابن مناد الصنهاجي زعيم قبيلة صنهاجة البربرية الموالية للفاطميين، وقد كان لذلك أثر كبير فى تغيير مصير المعركة لصالح الفاطميين ، ويذكر الأستاذ الدكتور أحمد مختار العبادى أن هذا الانضمام « راجع إلى عداء تقليدى قديم بين صنهاجة وزناتة التى تناصر أبا يزيد، فالحرب فى ظاهرها كانت بين خوارج وشيعة ، ولكنها فى باطنها بين أهل البداوة والرحل أو البربر البتر ومنهم زناتة ، وبين أهل الزراعة والاستقرار أو البربر البرانس ومنهم صنهاجة»(١).

٣ ـ المرحلة الثالثة (٣٣٣ ـ ٣٣٤) :

نزل أبو يزيد على بعد ١٥ ميلا من المهدية ، وأخذ يشن الغارات على أطرافها ونواحيها، فانتهب ماحولها من القرى ، ودمر ماصادفه من عمران، واصطدم فى هذه الأثناء بعسكر الكتاميين ، فهزمهم ، ولكن وصول زيرى ابن مناد فى جموع صنهاجة حول مجرى الأحداث ، فرجحت كفة الفاطميين، وبدأت الهزائم تتوالى على عسكر أبى يزيد ، فاضطر إلى حفر خندق حول معسكره ، وبعث فى طلب النجدة ، فاجتمع إليه حشد هائل من بربر نفوسة والزاب وأقاصى المغرب ، وكان من جملة من انضم إليه محمد بن خزر الزناتى ، فضيق الخناق على المهدية ، وزحف إليها فى آخر جمادى الثانية ، ولكنه عجز عن اقتحامها ، وانهزم أمامها ، فاضطر إلى الكتابة إلى عامل القيروان يستمده ، فأمده بعسكر كثيف زحف بهم للمرة الثالثة فى آخر رجب سنة ٣٣٤ ، ولكنه انهزم فى هذه المرة أيضا ، وأبيد قسم كبير من

(١) مختار العبادي ، سياسة الفاطميين ، ص ٢٠٢ ، ٢٠٣

جيشه أثناء المعركة . وفى آخر شوال ، زحف للمرة الرابعة للهجوم على المهدية ، ولكن نتيجة المعركة فى هذه المرة لم تكن أحسن من المرات السابقة ، إذ انهزم هزيمة مخزية ، ورجع إلى معسكره مكتفيا بمحاصرة المهدية .

واشتد الحصار على أهل المهدية حتى أكلوا الدواب والميتة ، وخرج أكثر السوقة والتجار من المهدية ، ولم يبق بها غير الجند ، وكان كل من خرج من المهدية وقع فى أيدى البربر ، وأخذوا ماله ، وشقوا بطنه طلبا للذهب(١). فاضطر القائم إلى فتح الأهراء التى كان المهدى قد أقامها فى المدينة ، ووزع مافيها من حبوب على رجاله (٢) . ويبدو أن بطنا من بطون كتامة الضاربة فى المغرب الأوسط تأهب للمجىء إلى المهدية ، وعسكرت قواته فى قسنطينة ، فسير إليهم أبو يزيد عسكرا من ورفجومة وغيرهم ، فهزموا الكتاميين ،واجتمع إلى أبى يزيد عقب ذلك حشد كبير من البربر من كل ناحية ، فحاصر مدينة سوسة التى كانت قد خرجت عليه (٣) . ويغلب على الظن أن سياسة أبي يزيد القائمة على تفضيل فريق من أبناء البربر على فريق آخر أغضبت جماعات كبيرة منهم ، فانفضوا عنه ، ولم يبق معه سوى هوارة وأوراس وبنى كملان ، وثار عليه أهل القيروان ، وأعلنوا طاعتهم للقائم ، وكان على بن حمدون فى هذه الأثناء يبث الغارات على المدن التابعة لأبي يزيد ، فهزم هوارة ، وتغلب على مدينتى تيجس وباغاية (٤) .

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ٣٠٥

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٣٠٥ — ابن خلدون ج ٤ ص ٨٨

(٣) المرجع السابق — ابن خلدون ج ٤ ص ٨٨

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ٨٩

وفى جمادى الآخرة اتجه أبو يزيد إلى سوسة لمحاصرتها ، وبينما كان يحاصرها توفى القائم بالله ، وخلفه ابنه أبو الطاهر اسماعيل الملقب بالمنصور ، فكتم موت أبيه حرصا على ألا يطلع عليه أبو يزيد وهو يحـاصر سوسة ، فلم يغير الوضع عما كان عليه قبل وفاة أبيه .

٤ ـ المرحلة الرابعة (٣٣٤ ـ ٣٣٦ هـ) :

اشتد حصار أبى يزيد على سوسة ، فبعث اسماعيل المنصور الأساطيل من المهدية إلى سوسة مشحونة بالمـــدد من المقاتلة والأمتعة والميرة مع رشيق الكاتب ويعقوب بن اسحق ، فلما وصلت المؤن والأقوات إلى سوســة ، تقوى أهلها بالمدد ، وخرجوا مع عسكر المنصور لقتال أبى يزيد فهزموه ، واستباحوا معسكره نهبا وحرقا ، ففر إلى القيروان ، فمنعه أهلهـــا من الدخول ، وثاروا بعامله عليها ، فخرج إليه ، ورحلوا إلى سبيبة فى أواخر شوال سنة ٣٣٤ (١) . وقدم المنصور على أثر ذلك إلى القـيروان ، وأمن أهلها ، وأبقى على حرم أبى يزيد وأبنائه ، فأحسن إليهم .

ولما علم أبو يزيد بدخول المنصور القيروان قدم على رأس جيش كبير لمهاجمة المنصور ، فهزمه المنصور أولا ، ثم انتصر أبو يزيد ، وظل العسكران يتبادلان النصر والهزيمة حتى حل شهر محرم سنة ٣٣٥ هـ ، والقتال متواصل ، فبعث أبو يزيد يطلب من المنصور حرمه وأولاده ، فبعثهم بعد أن اشترط عليه أن يرحل عن القيروان ، فلما وصلوا إليه نكث بوعده ، وقاتل المنصور فى ٥ محرم سنة ٣٣٥ هـ وهزم جيشه . وأمام هذه الهزيمـــة عبأ المنصور

---

١) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٣٠٨ ـ ابن خلدون ج ٤ ص ٩٠

عسكرا جرارا فى منتصف محرم ، واشتبك مع أبى يزيد فى معركة ضارية انهزم فيها أبو يزيد هزيمة شنعاء ، وسحق عسكره سحقا، فبلغ عـدد القتلى من قواته عشرة آلاف ، وتعرف هذه الواقعـة بواقعـة يوم الجمعـة ، وفر أبو يزيد مع من بقى من رجاله إلى باغاية ، فمنعه أهلها من الدخـول فيها ، فأقام يحاصرها (١) . وعندئذ خرج المنصور فى ربيـع الأول سنة ٣٣٥ لمطاردته بعد أن استخلف على المهدية مرام الصقلى ، وأدرك أبا يزيد وهو يحاصر باغاية ، ففر أبو يزيد وجيوش المنصور تلاحقه من حصن إلى حصن، فلما نزل المنصور مدينة طبنة بالزاب جاءته رسل محمد بن خزر أمير مغراوة تعلن خضوعها إليه، وانضمامها إلى جانبه، ومازال أبو يزيد يتراجع من موضع إلى آخر حتى سلك الأوعار والمضايق ، وأصاب رجاله الجهد والإرهاق ، ولم يبق أمامه إلا المفازة المؤدية إلى السودان . وكان المنصور قـد اعتل أثناء مطاردته لأبى يزيد ، فانتهز أبو يزيد هذه الفرصة وسار إلى المسيلة (مدينة المحمدية) وحاصرها ، فلما أبل المنصور من مرضه رحل فى أول رجب سنة ٣٣٥ ، لاستئناف مطاردة أبى يزيد ، فرفع أبو يزيد الحصار عن المسيلة ، وأوغل فى الجنوب بقصد الالتجاء إلى بلاد السودان ، فأبي بنو كملان مسايرته ، وأرغموه على العودة إلى جبال كتامة وعجيسة ، فتحصنوا بها (٢) ، فعزم المنصور على محاربته ،فانهزم أبو يزيد هزيمة نكراء ، وقتل من رجاله مايزيد على عشرة آلاف ، وفر هذه المرة وهو مثخن بالجراح إلى قلعة كتامة ، فحاصرها المنصور حتى افتتحها ، وأضرم النيران فى الشعراء

---

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣٠٨ — ابن خلدون ج ٤ ص ٩١

(٢) نفس المرجع — ابن خلدون ص ٩٢

المحيطة بالقصر حتى يضىء ماحوله ، فينكشف من حاول الفرار ، فقبض عليه ، وحمل إلى المنصور . وتوفى أبو يزيد بعد ثلاثة أشهر من هزيمته ، وذلك فى محرم سنة ٣٣٦ هـ ، فأمر المنصور بسلخ جلده وحشوه تبنا .

وبوفاة أبى يزيد انتهت الثورة الكبرى التى صدعت دعائم الدولة الفاطمية فى المغرب وكادت تقضى عليها . وقد سجل أبو الطاهر اسماعيل المنصور انتصاره على أبي يزيد ببناء مدينة صبرة المعروفة باسم المنصورية فى سنة ٣٣٧ هـ لصق القيروان ، ولاتبعد عنها بأكثر من نصف ميل . فانتقل إليها ، واستوطنها ، ونقل إليها المعز لدين الله ابن المنصور أسواق القيروان كلها وجميع الصناعات . وكان لصبرة خمسة أبواب : القبلى والشرقى وزويلة وكتامة (شمالى) والفتوح . ولما أعاد المعز بن باديس بناء سور القيروان سنة ٤٤٤ هـ ، جعل السور ممايلى صبرة كالفصيل : حائطان يتصلان إلى مدينة صبرة ، وبينهما نحو نصف ميل ، ولا سبيل لتاجر ولاوارد أن يدخل القيروان إلا بعد جوازه على مدينة صبرة . وقد أثر بناء صبرة على عمران المهدية ، فخلت أكثر أرباضها ، وتهدمت وانحسر العمران عنها [1] .

(١) البكرى ، ص ٢٥ — ابن عذارى ص ٣١٢ — معجم البلدان ، ج ٥ ص ٣٩١

(٣)

خلافة المعز لدين الله الفاطمى

١ ـ بسط نفوذ الفاطميين على المغرب الأقصى :

شغلت ثورة أبى يزيد الفاطميين عن بسط نفوذهم فى بلاد المغرب الأقصى، فاستغل الأمويون بالأندلس هذه الفرصة، ومدوا نفوذهم على طول الساحل الإفريقى حتى الجزائر، كما أقاموا قواعد عسكرية فى الثغور المطلة على جبل طارق مثل طنجة وسبتة ومليلة [١] . ونجح الخليفة عبد الرحمن الناصر فى اجتذاب رؤساء البربر من زناتة ومغراوة، فانضموا تحت لوائه .

ولما تولى أبو تميم معد الملقب بالمعز لدين الله الخلافة الفاطمية فى سنة ٣٤١ هـ، كان سلطان الفاطميين يمتد فى المغرب الأوسط حتى إيفكان الواقعة فيها وراء تاهرت، وكان يتولى تاهرت من قبله يعلى بن محمد اليفرنى، كما كان يتولى أشير وأعمالها زيرى بن مناد الصنهاجى، والمسيلة جعفر بن على الأندلسى، وباغاية قيصر الصقلى. وإلى زيرى يرجع الفضل فى بناء مدينة أشير عندما استقل بولاية الزاب سنة ٣٢٤ هـ، كما جدد بناء مدينة مليانة القديمة وأسكنها ابنه بلكين، وبنى مدينة جزائر بنى مزغنة والمدية [٢] . أما جعفر بن على بن حمدون المعروف بابن الأندلسى، فقد خلف أباه على المسيلة والزاب كله، وظل مقيما عليها إلى ان خرج عنها فى سنة ٣٦٠ هـ فى فتنة

---

(١) مختار العبادى، سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس، ص ٢٠٤

(٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثالث، ص ٦٣ حاشية رقم

زيرى(١). أما فاس فكان يليها من قبل المعز أحمد بن بكر بن أبي سهل الجذامى، فخرج أهل فاس على المعز، وبايعوا لعبد الرحمن الناصر، فولى عليهم محمد ابن الخير المغراوى الذى أقام على ولايتها عاما واحدا ثم ارتحل إلى الأندلس للجهاد، واستخلف على فاس ابن عمه أحمد بن أبي بكر بن أحمد بن عثمان الزناتي (٢). كذلك خرج على المعز يعلى بن محمد اليفرني سنة ٤٤٧، ونقض طاعة الشيعة، وبايع لعبد الرحمن الناصر (٣). فغضب المعز لخروج المغرب الأقصى من طاعته، وانضوائه إلى الخلافة الأموية بالأندلس. فسير جوهر الصقلى على رأس جيش كثيف إلى المغرب لإعادة النفوذ الفاطمى على بلاد المغرب الأقصى. وخرج مع جوهر جعفر بن على صاحب المسيلة، وزيرى بن مناد أمير أشير. ونجح جوهر فى الإيقاع بعلى بن محمد اليفرنى، وخرب إيفكان، ومضى إلى فاس، ثم تجاوزها إلى سجلماسة، فاستولى عليها، وقبض على أميرها الشاكر لله محمد بن الفتح من بنى واسول المدراريين، ثم عاد إلى فاس، وأحكم عليها الحصار، وتمكن زيرى بن مناد من افتتاحها فى سنة ٣٤٨ هـ (٤). وبذلك نجح جوهر فى مهمته، وأعاد النفوذ الفاطمى على القسم الأعظم من المغرب الأقصى. وفر كثير من أعداء الدولة الفاطمية إلى الأندلس، ومنهم بنو يعلى اليفرنى، وبقايا بنى إدريس، ووفدا من برغواطة، على رأسهم الأمير أبو صالح البرغواطى رسولا من أبى منصور عيسى بن أبى الأنصار، أمير برغواطة.

---

(١) ابن عذارى ج ١ ص ٣٠٦

(٢) الجزناءى، ص ٣٦ — السلاوى ج ١ ص ١٩٧

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ٩٦

(٤) ابن الأثير، ج ٦ ص ٣٥٤ — ابن خلدون، ج ٤ ص ٥٧

ب ـ استيلاء المعز على مصر ، وانتقاله اليها :

استطاع المعز ، بفضل جهود قائديه جوهر الصقلي وزيرى بن مناد الصنهاجي ، أن يمكن سلطانه من حدود طرابلس شرقا حتى المحيط الاطلسى غربا ، وكان فتح مصر أمنية خلفاء الفاطميين منذ أيام عبيد الله المهدى ، بعد أن استحال عليهم فتح الاندلس. وكانت مصر بالنسبة للفاطميين معقد آمالهم لثرائها ، وأهمية موقعها الجغرافى سياسيا وحربيا ، وقربها من بلاد الشام والحجاز . وازداد تطلعهم لفتحها بعد أن قضى اسماعيل المنصور على ثورة أبي يزيد . فلما خلفه المعز اشتدت رغبته فى فتحها ، ولكنه لم يشأ أن يقدم على ذلك قبل أن يؤمن ظهره من الأمويين وأنصارهم ، ويخضع بلاد المغرب الأقصى لسلطانه ، فلما تم له ذلك ، أخذ يتفرغ منذ عام سنة ٣٥٥ لهذه المهمة ، ورأى أن يعزز جيشه بكل الوسائل حتى يضمن لنفسه النصر . وساعدته الظروف السياسية فى العالم الإسلامى وقتئذ على نجاحه فى فتح مصر . فقد كانت أمور مصر قد انتهت بعد وفاة محمد بن طغج الإخشيد سنة ٣٣٤ هـ إلى الضعف ، وعلى الرغم من استبداد كافور بالحكم دون ولدى الإخشيد ، ونجاحه فى إخماد الثورات ، فانه لم ينجح فى تحسين الاحوال الإقتصادية بمصر ، « ففي سنة ٣٥٢ هـ ، قصر النيل فى فيضانه ، وحدث بمصر غلاء شديد ، نتجت عنه مجاعة ظلت تسع سنوات ، قاسى المصريون خلالها الشدائد » (١) ، وساءت أوضاع مصر بعد وفاة كافور سنة ٣٥٧ هـ ، وانتشرت بها الفوضى والاضطراب وعظم فيها الغلاء (٢) . وفى ذلك يقول

---

(١) جمال الدين الشيال ، مصر فى العصر الفاطمى ، ص ٤٢٩

(٢) ابن خلدون ، جـ ٤ ص ٩٩

المقريزى : « وكثر الاضطراب ، وتعددت الفتن ، وكانت حروب كثيرة بين الجند والأمراء قتل فيها خلق كثير ، وانتهبت أسواق البلد، وأحرقت مواضع عديدة ، فاشتد خوف الناس ، وضاعت اموالهم ، وتغيرت نياتهم ، وارتفع السعر ، وتعذر وجود الأقوات حتى بيع القمح كل ويبة بدينار ، واختلف العسكر ، فلحق الكثير منهم بالحسن بن عبد الله بن طغج ، وهو يومئذ بالرملة ، وكاتب الكثير منهم المعز لدين الله الفاطمى ، وعظم الإرجاف بمسير القرامطة إلى مصر » (١) . وبالإضافة إلى ذلك كانت ظروف الدولة العباسية قد ساءت إلى درجة كبيرة ، وكثرت الفتن فى بغداد بين بختيار بن معز الدولة ، وابن عمه عضدالدولة ، وشغلت بغداد بهذه الفتن عن الاهتمام بشؤون مصر (٢) . يضاف إلى ذلك ان دعاة الشيعة الإسماعيلية فى مصر نجحوا فى اجتذاب عدد كبير من المصريين إلى هذا المذهب . وهكذا كان الجو فى مصر ممهدا للغزو الفاطمى ، فلم يتردد المعز فى تعبئة كل طاقاته وإمكاناته لغزوها ، وبدأ منذ سنة ٣٥٥ يتأهب لفتح مصر ، فجمع الأموال الوفيرة ، وكتب إلى عمال برقة لحفر الآبار فى الطريق من إفريقية إلى برقة ، وإقامة المنازل على رأس كل مرحلة من هذا الطريق . فلما اجتمعت له حشود كتامة ، وتمت كافة الاستعدادات للسير ، خرج جوهر الصقلى على رأس جيش عدته نحو مائة ألف من البربر فى ١٤ ربيع الثانى سنة ٣٥٨ هـ (٣) ، فى طريقة إلى مصر.ووصل جوهر إلى الاسكندرية

---

(١) المقريزى ، اتعاظ الأمة بكشف الغمة ، نشره الدكتور محمد مصطفى زيادة ، والدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٤٠ ص ١٢ ، ١٣

(٢) ابن خلدون جـ ٤ ص ٩٩

(٣) جمال الدين الشيال ، مصر فى العصر الفاطمى ، ص ١٣٠

فخرج إليه وفد من القضاة والتقى به فى تروجة، فأجابهم إلى ملتمسهم، ودخل الاسكندرية دون مقاومة (١) . وتقدم جوهر نحـــو الفسطاط ، فاستعد الاخشيديون والكافورية لقتـاله ، والتقى الجيشان بالقرب من الفسطاط : جيش الإخشيدية بقيادة نحرير الأرغلى ، ويمن الطويل ، والجيش الفاطمى بقيادة جوهر ، وانتهت الموقعـــة بانتصار جوهر . وزال بذلك سلطان الإخشيديين والعباسيين عن مصر ، وأصبحت مصر ولاية فاطمية . ودخـل جوهر الفسطاط فى ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ ، ثم إنه نزل بعسكره إلى الشمال الشرقى من الفسطاط ، فى الموضع الذى اختط فيه مدينة القاهرة ، وهناك وضع أسس هـذه المدينة العظيمة التى قدر لها أن تتزعم العـالم العربي حتى يومنا هذا ، وبدأت أعمـال الإنشاء فى سرعة عظيمة ، فلم يمض عامان حتى كان جوهر قـد انتهى من تأسيس القـــاهرة ، وبناء جامعها المعروف بالأزهر (٢) .

وقبل أن يرحل المعز لدين الله إلى عاصمته الجديدة أراد أن يبقى عـلى النفوذ الفاطمى فى بلاد المغرب مع أنه كان يدرك أن استمرار هـذا النفوذ لن يدوم طويلا ، لما كان يعرفه من شدة مراس البربر ، وطبيعتهم الثورية. ويرى الدكتور مختار العبـادى أنه رأى أن خير وسيلة للاحتفـاظ بتبعية المغرب للفاطميين أن يعمل على إضعافه ، باثارة الفرقة والتنافس بين قبائله حتى تظل فى حروب متواصـلة ، ولايفكر أهل المغرب فى الخـروج من

(١) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ص١٤٧ ـ السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الاسلامى ، الاسكندرية ١٩٦١ ص ٥٦

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الإسلامى ص ١١٣

طاعة الفاطميين (١) . فاستخلف لذلك أبا الفتوح يوسف بن زيرى بن مناد الصنهاجى على إفريقية ، ومضى إلى مصر بأمواله ورجاله ، وحمل توابيت آبائه وأجداده ، ودفنهم بقصره فى القاهرة .

(١) مختار العبادى ، سياسة الفاطميين ، ص ٢٠٩

الفصل التاسع

المغرب الأدنى والأوسط فى ظل بنى زيرى

وبنى حماد الصنهاجيين

(١) أمراء بنى زيرى منذ قيامهم بأمر المغرب حتى استقلال الحماديين بالمغرب الأوسط

ا ـ دولة أبى الفتوح يوسف بن زيرى

ب ـ دولة أبى الفتح المنصور بن بلكين

ج ـ دولة نصير الدولة باديس بن أبى الفتح المنصور

د ـ انقسام دولة الصنهاجيين

(٢) علاقة الصنهاجيين بالخلافة الفاطمية بمصر

ا ـ الدور الأول من انفصال بنى زيرى عن الخلافة الفاطمية بمصر

ب ـ الدور الثانى » » » »

ج ـ الدور الثالث » » » »

د ـ الدور الأخير » » » »

(٣) انتقام المستنصر بالله الفاطمى: غزو عرب الهلالية وبنى سليم لبلاد المغرب

ا ـ دخول قبائل بنى هلال وبنى سليم فى أرض المغرب

ب ـ هزيمة جيوش المعز على أيدى العرب

ج ـ نتائج غزو الهلالية للمغرب

(٤) استيلاء النورمانديين على المهدية

ا ـ غارات الزيريين على سواحل إيطاليا وصقلية وآثارها

ب ـ سقوط المهدية في أيدى النورمانديين .

(٥) انقراض دولة بنى حماد

الفصل التاسع

المغرب الأدنى والأوسط فى ظل بنى زيرى وبنى حماد الصنهاجيين

(١)

أمراء بنى زيرى منذ قيامهم بأمر المغرب حتى استقلال الحماديين بالمغرب الاوسط .

١ ـ دولة ابى الفتوح يوسف بن زيرى :

ذكر المقريزى أن المعز قبل رحيله إلى مصر استقدم جعفر بن على بن حمدون ، وعرض عليه أن يتولى إمارة المغرب نيابه عنه ، ولكن جعفر اشترط عليه لقبول هذا المنصب شروطا تتيح له الاستقلال الداخلى ، وقال له : « تترك معى أحد أولادك أو إخوتك يجلس فى القصر وأنا أدبر ، ولا تسألنى عن شىء من الأموال ، لان ماأجبيه يكون بازاء ماأنفقه ، وإذا أردت أمر فعلته من غير أن أنتظر ورود أمرك فيه ، لبعد ما بين مصر والمغرب ، ويكون تقليد القضاء والخراج وغيره إلى » . فغضب المعز ، وقال : « ياجعفر ، عزلتنى عن ملكى ، وأردت أن تجعل لى فيه شريكا فى أمرى ، واستبددت بالأعمال والأموال دونى ، قم فقد أخطأت حظك ، وماأصبت رشدك » ، ثم أقصاه عنه ، واستقدم بلكين بن زيرى بن مناد ، وعرض عليه ولاية المغرب ، ولكن بلكين قال له : « يامولانا ، أنت وآباؤك الأئمة من ولد الرسول (صلعم) ما صفا لكم المغرب ، فكيف

يصفو لي ، وأنا صنهاجي بربري ؟ قتلتني يامولانا بغير سيف ولارمح »(١). ومازال به المعز حتى قبل ولاية المغرب نيـــابة عنه ، فولاه أمر إفريقية والمغرب ماعدا صقلية التي كان يتولاها بنو أبي الحسين الكلبي ، وطرابلس التي كان يتولاها عبد الله بن يخلف الكتامي ، وسمي بلكين يوسفا ، وكناه أبا الفتوح ، ولقبه سيف العزيز بالله (٢) ، ووصله بالخلع والأكسية الفاخرة. ثم توجه المعز إلى قابس وقال لبلكين وهو يودعه : « إن نسيت شيئاً مما أوصيتك به فلا تنس ثلاثة أشياء : لاترفع الجباية عن أهل البادية ، ولاترفع السيف عن البربر ، ولا تول أحدا من إخوتك و بني عمك ، فانهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك ، واستوص بالحضر خيرا » (٣) . وعهـد إليه بأن يشرع في غزو المغرب الأقصى لحسم دائه ، والقضاء على النفوذ الأموي منه (٤) . أثارت تولية بلكين إمارة المغرب غيرة منافسه جعفر بن عـلي بن حمدون أمير الزاب ، فشق عـــلى الفاطميين عصا الطاعة ، ورحل إلى الأندلس ، ملتجئا عند الحكم المستنصر ، كما ثارت عليه قبيـلة زناتة القائمة بدعوة المروانيين في الاندلس ، وخرج عليه أهل تاهرت .

فسار على رأس جيش كبير إلى تاهرت ، فدخلهـا وخربها ، ثم مضى إلى تلمسان ليقضي على جموع الزناتيين ، فحاصرها ، ودخلها . وعاد إلى

(١) المقريزي ، اتعاظ الحنفـا ، ص ١٤٣ ـ المقريزي ، الخطط ، طبعة بيروت ، مجلد ٢ ص ١٥٨

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٣١٧ ـ ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ص ٦٥

(٣) ابن عذاري ج ١ ص ٢٦٣ ـ ابن خلدون ج ٦ ص ٣١٨ ـ ابن الخطيب ، ص ٦٥

(٤) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣١٨

القيروان بعد أن وصله كتاب من المعز ينهاه عن التوغل فى المغرب ، وفى سنة ٣٦٧ هـ عقد له العزيز بالله ولاية طرابلس وسرت وأجدابية زيادة على ولاية المغرب ، فاستخلف بلكين عليها يحيى بن خليفة الملياني (١) ، واستفحل ملك بلكين بما أصبح له من ولايه طرابلس وبرقة ؛ فخرج فى هذه السنة لغزو المغرب الأقصى عندما بلغه أن خزرون بن فلفل بن خزر الزناتي قد زحف سنة ٣٦٦ هـ إلى سجلماسة فى جيش كثيف وقتل أبا محمد المعتز بالله من أولاد الشاكر لله المدرارى ، واستولى على سجلماسة ، وبعث برأس المعتز إلى قرطبة (٢) ، وبدأ أبو الفتوح بلكين بحصار سبتة ، فاستعصت عليه لمناعتها ، فتركها إلى فاس ، فاستولى عليها فى سنة ٣٦٨ هـ ، وقتل عامليها محمد بن أبي على بن قشوش ، وعبدالكريم بن ثعلبة، واستعمل على فاس محمد بن عامر المكناسى . ثم افتتح سجلماسة ، وقبض على ابن خزر أمير مغراوة وقتله ، ففر ملوك زناتة أمامه ، ومنهم بنو يعلى بن محمد اليفرني، وبنو عطية بن عبد الله بن خزر ، وبنو فلفل بن خزر ، ويحيى بن على بن حمدون صاحب البصرة ، إلى سبتة ، واستنجدوا بالمنصور بن أبى عامر(٣). فطاردهم أبو الفتوح بلكين إلى سبتة مرة ثانية وحاصرها ، ولكنها استعصت عليه لحصانتها ، وصعوبة الوصول إليها إلا بالسفن ، فرجع عنها مرغما . ومضى إلى البصرة مركز يحيى بن على بن حمدون فهدمها وخرب عمرانها ، وسار بعد ذلك إلى أصيلا ، ومنها إلى شالة مركز برغواطة ،

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٢٩

(٢) نفس المرجع — ابن خلدون ج ٦ ص ٢٧٣

(٣) ابن خلدون، ج ٦ ص ٣١٩

فغزاهم ، وقتل أميرهم ابن عيسى ، وسبى من نسائهم و ذراريهم أعدادا كبيرة (١) .

وتوفى أبو الفتوح فى سنة ٣٧٣ ه فى طريق عودته إلى إفريقية وذلك فى بلدة وارلنغوّ الواقعة بين سجلماسة وتلمسان .

ب ـ دولة ابى الفتح المنصور بن بلكين :

كان واليا بأشير عندما بلغه خبر وفاة أبيه، فخلفه على الإمارة فى أوائل سنة ٣٧٤ ه، وقلده العزيز بالله أمر إفريقية والمغرب، فعقد لعمه أبى البهار على تاهرت ، ولأخيه يطوفت على أشير ، وبلغ المنصور أن زيرى بن عطية الخزرى المغراوى قد قام فى المغرب، واستولى على فاس وأصبح أمير زناتة كلها ، وكان يدعو لبنى أمية فى دولة هشام المؤيد ، فأمر المنصور فى سنة ٣٧٤ ه أخاه يطوفت بالخروج على رأس جيش كثيف إلى مدينتى فاس وسجلماسة لاستردادهما من الزناتيين ، فوصل إلى مدينة فاس ،وكان يقوم بولايتها زيرى بن عطية الزناتى الملقب بالقرطاس(٢) . فلما علم زيرى بقدومه بادر بمهاجمته بجموع الزناتيين ، وهزمه هزيمة شنعاء ، وقتل من الصنهاجيين عدداً كبيراً ، وقتل من رجال يطوفت قائدين هما ابن شعبان وابن عامل ، وعادت فلول جيش يطوفت إلى تاهرت ومنذ ذلك الحين لم يحاول المنصور معاودة الغزو إلى المغرب وزناتة . ولكن فريقا من الزناتيين انضم إلى المنصور بن بلكين ،ومنهم سعيد بن خزرون الذى قدم إلى المنصور فى

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٣٨ ، ٣٣٩

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٤٤ ـ ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٢٠

سنة ٣٧٩ هـ ، فولاه على مدينة طبنة ، وزوج ابنته من وروا بن سعيد (١). وظل سعيد بن خزرون عاملا على طبنة إلى أن توفى رجب سنة ٣٨٢ هـ ، فولى المنصور ابنه فلفل بن سعيد على طبنة ، وأهداه ثلاثين حملا من المال ، وثمانين تختا من أنواع الكسى ، وخيلا بسروج محلاة ، وعشرة بنود مذهبة (٢) .

وفى عهـــد المنصور قامت ثورتان الأولى قام بها أبو الفهم الخراسانى الداعى سنة ٣٧٦ هـ ، وأيدته قبائل كتامة ، فحاربه المنصور ، وخرب بلاد كتامة سنة ٣٧٨ ، وتمكن من القبض عليه وقتله (٣) . والثانيـة ثورة أبى البهار بن زيرى فى تاهرت سنة ٣٧٩ هـ ، فزحف إليه المنصور إلى تاهرت ، ففر منها أبو البهار إلى المغرب حيث دخـل فى طاعة المنصور بن أبى عامر ، فدخل عسكر أبى الفتح المنصور مدينة تاهرت ، وقتل من تصدى لهم من أنصار أبي البهار . ثم أمنهم بعـد ذلك ، وولى على تاهرت أخاه يطوفت ، وعاد إلى أشير (٤) . ثم اختلف أبو البهار فى فاس مع زيرى بن عطيـة سنة ٣٨٢ هـ ، فعاد أبو البهـار إلى قومه ، ووصل إلى المنصور فى ١٥ شعبان سنة ٣٨٣ هـ ، فرحب به المنصور ، وخلع عليـه (٥) . وتوفى المنصور فى ٣ ربيع الأول سنة ٣٨٦ هـ ، ودفن بقصره الجديد بظاهر المنصورية .

---

(١) ابن عذارى ج ١ ص ٣٤٩
(٢) نفس المرجع ص ٣٥٣
(٣) نفس المرجع ص ٣٤٨
(٤) نفس المرجع ص ٣٤٩ — ابن خلدون ج ٦ ص ٣٢١
(٥) نفس المرجع ص ٣٥٣ — ابن خلدون ص ٣٢١

ج ـ دولة نصير الدولة باديس بن أبى الفتح المنصور :

تولى إمارة إفريقية والمغرب الأوسط بعد وفاة أبيه ، وكان لايتجاوز من العمر ١٢ سنة ، فأقر عمه يطوفت على ولاية تاهرت ، وأقر عمه حماد على ولاية أشير . ولما بلغ أمراء زناتة نبأ وفاة المنصور ، وولاية ابنه باديس ، استغلوا صغر سنه ، فزحف زيرى بن عطية فى جموع هائلة من زناتة سنة ٣٨٩ هـ إلى مدينة تاهرت ، وحاصره ، فكتب يطوفت بن يوسف إلى ابن أخيه باديس يستمده ، فبعث إليه جيشا يقوده محمد بن أبى العرب الكاتب ، فسار هذا الجيش إلى أشير وانضم إليه عسكر آخر ، بقيادة حماد بن يوسف ، ووصل الجيشان إلى تاهرت فى أول جمادى الأولى سنة ٣٨٩ هـ ، وكان زيرى بن عطية قد عسكر بجيش فى موضع يقال له آمسار يقع قريبا من تاهرت ، فخرج الجيش الصنهاجى إليه ، وكانت معركة عنيفة فى ٤ من جمادى الأولى ، انتهت بهزيمة الصنهاجيين هزيمة مخزية ، وانسحب حماد ويطوفت مع ابن أبى العرب إلى أشير ، وتركوا محلاتهم ومضاربهم بما فيها من الأموال والسلاح ، واستولى عليها زيرى بن عطية ودخل تاهرت (١).

ولما بلغ نصير الدولة باديس خبر هذه الهزيمة ، خرج لمحاربة زيرى بن عطية فى ٢ جمادى الآخرة سنة ٣٨٩ هـ ، فلما وصل طبنة بعث فى طلب فلفل ابن سعيد بن خزرون الزناتى ، فبعث يعتذر له ويسأله أن يكتب له سجلا بولاية طبنة ، فكتبه له ، وبعث إليه ، ثم رحل باديس إلى أشير ، فانتهز فلفل فرصة رحيله عنه ، وأغار على ما حوله من النواحى . ثم واصل باديس زحفه حتى وصل إلى المسيلة ، فبلغه رحيل زيرى بن عطية من تاهرت إلى

---

(١) نفس المرجع ص ٣٥٨ ، ٣٥٩

فاس ، فعاد إلى أشير ، ودخل عمه يطوفت تاهرت ،واستخلف عليها ابنه أيوب فى أربعة آلاف فارس . ووصلت الأنبـاء إلى باديس بما قام به فلفل ابن سعيد ، فسير عسكرا من أشير لمحاربة فلفل، ورحل هو بعدهم ومعه أبو البهـار بن زيرى ، فنزلا بالمسيلة ، وبلغهما أن ماكسن وزاوى ومغنين شقوا عصا الطاعة على باديس فى أشير ، وأنهم قبضوا على يطوفت ، فرحل أبو البهار هاربا فى بنيه ورجاله (١) . ويبدو أن باديس اتفق مع حماد على أن يتولى هو أى باديس محاربة فلفل بن سعيد، بينما يتولى حماد محاربة أعمامه بنى زيرى ، فرحل باديس إلى إفريقية ، فعلم وهو ببلزمة أن فلفل قـد تمادى إلى القيروان ، فسار إلى باغاية فى طلبة ، والتقى معه فى ١٠ من ذى القعدة بالقرب من باغاية ، فانهزم فلفل وتراجع إلى جبل الحناش ، وقد قتل من رجاله نحو سبعة آلاف (٢).

ولم يكتف نصير الدولة باديس بهذا الانتصار ،فخرج فى سنة ٣٩٠ هـ لمحاربة فلفل ، ففر فلفل متجها إلى الشرق لقلة أنصاره ، وعاد نصير الدولة إلى إفريقية . أما فلفل فقد مضى إلى طرابلس حيث دخلها واستوطنها سنة ٣٩١ .

أما حماد فقد ظل يحارب إخوته حتى تمكن أخيرا وبعد حروب طويلة من قتـــل ماكسن بن زيرى وولديه محسن وباديس فى ٣ رمضـان سنة ٣٩١ هـ (٣) . أما زاوى بن زيرى وابنا أخيه ماكسن : حبـاسة وحبوس ،

(١) ابن عذارى جـ ١ ص ٣٦٠

(٢) نفس المرجع

(٣) نفس المرجع ص ٣٦١

فقد نجوا إلى جبل سبوة ، فنازلهم حماد أياما ، ثم عقد لهم السلم على أن يجيزوا إلى الأندلس ، فعبروا الزقاق إلى ساحل الأندلس، ولاذوا بعبد الملك ابن المنصور(١) . واستقبلهم عبد الملك بن المنصور سنة ٣٩٢ هـ أعظم استقبال، ووصلهم بصلاته الجليلة ، ويذكر ابن بسام الشنتريني ، أنهم : « استقلوا ما وصلهم به عبد الملك على كثرته، وما استقروا الدار إلا على قلعة، ولا حمدوا معروفهم ، ولا لبسوا أعالي المراتب السلطانية إلا على ابتذال ومحقرة ، ولا قطعوا أن المقام بالأندلس إلا بذكر الرحلة ، والتماس التسريح بكرة وعشية ، جهلا وفرط أنفة »(٢) وكان عبد الملك يرغب في رفع منزلة زاوى ابن زيرى وإخوته وعشيرته ، فولاه الوزارة ، فرفضها زيرى محتجا بأن خطته لا تعدو الحرب ، وأن أقلامه الرماح ، وصحائفه الأجساد (٣) . وقد اشترك زاوى بن زيرى وبنو ماكسن بن زيرى في الفتنة التي اشتعلت نيرانها بقرطبة بعد مقتل عبد الرحمن شنجول بن المنصور سنة ٣٩٩ هـ ، فأيدوا سليمان المستعين ضد المهدى محمد بن عبد الجبار ، فكافأ بني زيرى بأن منحهم البيرة ، فاستأثر بنو حبوس بن ماكسن بامارة البيره وغرناطة بعد أن رحل زاوى بن زيرى إلى افريقية في سنة ٤٠٩ (٤)، وذلك بعد وفاة باديس ٥) ، فنزلها في دولة المعز بن باديس بعد أن ملك غرناطة نحو سبع

---

(١) ابن خلدون جـ ٦ ص ٣٢٢

(٢) ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، مجلد ١ قسم ٤ ص ٦١ ، القاهرة ، ١٩٤٥

(٣) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ٣٣٨

(٤) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، قسم ثالث ، ص ٦٨ — اللمحة البدرية في أخبار الدولة النصرية ، القاهرة ١٩٢٨ ص ٢٠

(٥) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ٣٥٩

سنوات ، واستخلف عليها ابن أخيه حبوس بن ماكسن (١) . وظل بنو زيرى يتوارثون ملك غرناطة حتى سنة ٤٨٣ هـ عندما خلع يوسف بن تاشفين أميرهم عبد الله بن بلكين بن باديس بن حبوس (٢) .

ظل نصير الدولة باديس على وفاق مع عمه حماد إلى أن تحركت قبائل زناتة فى سنة ٣٩٥ هـ فى نواحى المسيلة وأشير ، فسير إليهم باديس عمه حماد ، فنازل زناتة وهزمها ، ثم نزل مدينة تيجس من أحواز قسنطينة (٣) . ثم نزل بأبى طويل وهى قلعة بأحواز قلعة حماد ومنفذها على الساحل ، وهناك اختط مدينة القلعة وشيد القصور (٤) . وأخذ حماد يعمل على الاستقلال عن باديس .

وأحس باديس بما يتأهب له حماد ، فأراد اختبار طاعته ، فكتب إليه طالبا أن ينزل عن عمل تيجس وقسنطينة ، فأبى حماد وأظهر الخلاف (٥) .

د ـ انقسام دولة الصنهاجيين :

رأينا من قبل كيف بدأ حماد يعمل على الانفصال عن ابن أخيه ، فأسس مدينة القلعة ونزلها وجعلها مقرا له ، فأدرك باديس منه هذا الميل للاستقلال ، فأراد أن يختبر مدى ولاءه له ، فأمره بالنزول عن عمل تيجس وقسنطينة لابنه (المنصور بن باديس) فأبى ، وأعلن استقلاله بهذه الولاية . فسير إليه باديس ابراهيم بن يوسف سيف الدولة بلكين أخا حماد ، فى

---

(١) ابن الخطيب ، اللمحة البدرية ص ٢٠

(٢) نفس المرجع

(٣) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، ص ٧٠

(٤) ابن خلدون ج ٦ ص ٣٢٣

(٥) نفس المرجع

شوال سنة ٣٩٥ هـ ، فما كاد يصل إلى القلعة حتى انضم إلى أخيـه حماد ، فاجتمعت كلمتهما ، وخلعا أيديهما عن الطـاعة لباديس (١) ، بل إن حماد لم يكتف بذلك ، فأعلن نبذه لطاعة الفاطميين ، ودعا للخلفاء العباسيين فى سنة ٤٠٥ هـ (٢) . عندئذ عزم باديس على محاربة عميه ، فرحل بعسكره متجها إلى قلعة حماد فى المحرم سنة ٤٠٦ ، وانضم إليه فى طريقه إليها عزم وفلفل ابنا حسون بن سفون وماكسن بن بلكين ، وعدنان بن معلم ، فى عدة من فرسان جيش حماد ، فخلع عليهم ، وأحسن إليهم ، ومازال نصير الدولة باديس يواصل سيره إلى أن وصـــل إلى تامديت ، فبلغه هناك وفاة ابنه المنصور عزيز الدولة ، فأقام بتامديت حتى ٦ من صفر ، ثم واصل سيره حتى وصل إلى المحمدية ، ومنها تابع سيره ، فعبر وادى شلف (٣) ، وهناك دخل فى طاعته بنو توجين ، إذ كانوا ساخطين على حماد لقتله أميرهم دافلين (٤) . فسار باديس حتى قرب من جيش حماد وحشوده من زناته وغيرهم فى العدوة الأخرى من الوادى ، والتقى الجيشان فى معركة انتهت بهزيمة حماد ، وفراره إلى القلعة تاركا مخيماته ، فنهبها جنود باديس . ومات باديس فى ٢٧ ذى القعدة سنة ٤٠٦ هـ .

واتفق الجند بعد وفاة باديس على مبايعة ولده المعز ، واستنابة ابن عمه كرامة بن المنصور حتى تتم مبايعة المعز البيعة العامة فى المهدية ، وتمت هذه

---

(١) ابن عذارى ج ١ ص ٣٧٧ — ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٢٣

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٣٥١

(٣) ابن عذارى ج ١ ص ٣٧٩

(٤) ابن خلدون ج ٦ ص ٣٢٣

البيعة فى ٢١ ذى الحجة سنة ٤٠٦ هـ ، وهو ابن ثماني سنوات . واستغل حماد فرصة موت باديس فدخل المسيلة وأشير ، وحاصر باغاية ، وبلغ ذلك المعز ابن باديس ، فزحف اليه فى سنة ٤٠٨ هـ ، فاضطر حماد إلى رفع الحصار عن باغاية واشتبك مع جيش المعز بن باديس فى معركة عنيفة أسفرت عن هزيمة حماد ، وفراره إلى القلعة . ثم آثر حماد الصلح مع المعز ، فاشترط عليه المعز أن يبعث ولده إليه وتم الصلح بين المعز وحماد ، وبمقتضاه يستقل حماد بعمل المسيلة وطبنة والزاب وأشير وتاهرت وما يفتح من بلاد المغرب . وعقد لابن حماد على طبنة والمسيلة ومقره ومرسى الدجاج وسوق حمزه وزواوة . وبذلك الصلح وضعت الحرب أوزارها ، وانقسمت دولة الصنهاجيين إلى دولتين: دولة آل المنصور بن بلكين أصحاب القيروان ، ودولة آل حماد بن بلكين أصحاب القلعة (١) ، ثم بجاية بعد ذلك (٢) .

ويعتقد الأستاذ جورج مارسيه فى كتابه « المغرب الاسلامى والمشرق فى العصر الوسيط » أن هذا الاستقلال أمر طبيعى ، فقيام الدولة الحمادية جاء نتيجة طبيعية للحوادث ، إذ أن المناطق التى كان يحكمها بنو زيرى عند رحيل المعز لدين الله الفاطمى إلى مصر ، وكانت تعد مهمة ثقيلة بالنسبة لبلكين ، وابنه المنصور ، لأنها كانت تضم المغربين الأدنى والأوسط ، فاضطر المنصور إلى أن يعهد بولاية المغرب الأوسط إلى أخيه حماد بن بلكين ، وبطبيعة الحال طمع حماد فى هذه الولاية لنفسه . فلما حاول باديس استرجاع هذه الولاية ، اعترضه حماد وخرج عن طاعته وعن طاعة الخليفة الفاطمى

---

(١) ابن خلدون جـ ٦ ص ٣٢٤

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، ص ٧٦

الحاكم بأمر الله فى آن واحد، ويذكر ابن خلدون أن حمادا دعا للخلفاء العباسيين ، وقتل الرافضة وأعاد ولايته إلى المذهب السنى ، وترحم على أبي بكر وعمر . ويذكر مارسيه أنه لو صح ما ذكره ابن خلدون ، لكان حماد هذا أول من أعلن انفصاله السياسى عن الخلافة الفاطمية فى مصر ، وأنه سبق فى ذلك المعز بن باديس بنحو ثلاثين عاما حين شق عصا الطاعة على الخليفة المستنصر بالله الفاطمى (١) .

(١) Marçais, la Berberie musulmane et l'Orient, p. 164

(٢)

علاقة الصنهاجيين بالخلافة الفاطمية

ا ـ الدور الأول من انفصال بني زيرى عن الخلافة الفاطمية بمصر :

سادت العلاقات الودية بين الدولة الفاطمية فى مصر والدولة الصنهاجية فى إفريقية فى إمارة أبي الفتوح يوسف بلكين بن زيرى . ولما توفى ، وخلفه ابنه أبو الفتح المنصور أبدى ميلا صريحا إلى الانفصال الروحى والسياسى عن الخلافة الفاطمية ، وعبر عن ذلك بقوله لشيوخ القيروان ووجوه الناس ممن قدموا إليه لتهنئته بالإمارة : « إن أبى وجدى أخذا الناس بالسيف قهرا ، وأنالا آخذهم إلا بالإحسان ، وماأنا فى هذا الملك ممن يولى بكتاب ويعزل بكتاب ، لأنى ورثته عن آبائى وأجدادى ، وورثوه عن آبائهم وأجدادهم حمير » (١) . فالمنصور يستنكر بهذا القول ان يتولى الإمارة بكتاب ، ويعزل بكتاب ، ويرى أن بلاد إفريقية والمغرب مالك ورثه عن آبائه وأجداده ، وفى ذلك تلميح بتحديه للعزيز بالله الفاطمى .

ولا شك أن العزيز بالله قد غضب لهذا القول ، وأحس بما يعتمل فى نفس المنصور من نوايا الانفصال ، فعمل على إزعاجه وتأليب قبائل البربر عليه ، فأرسل داعيا له فى سنة ٣٧٦ هـ اسمه أبو الفهم الخراسانى إلى قبائل كتامة لكى يدعوهم إلى طاعته ، ويبدو أن العزيز بالله ، كان يهدف من وراء ذلك إثارة قبائل كتامة على ولاة إفريقية ، إضعافا لنفوذهم فى البلاد.

---

(١) ابن عذارى ، جـ١ ص ٣٤٣ ـ ابن الأثير ، جـ ٧ ص ١٢١

فلما ظهر أبو الفهم الداعي فى قبـــائل كتامة ، التفت حوله ، وألف منهم أبو الفهم جيشا جرارا زوده بالسلاح . وبلغ من نفوذ أبي الفهم فى كتامة أنه صنع البنود وضرب السكة (١) . فكتب المنصور إلى العـزيز بالله يبلغه بأمر أبي الفهم ، فأرسل إليـــه العزيز بالله رسولين ينهيانه عن التعرض له ومحـاربة كتامة ، فغضب المنصور لذلك ، وأغلظ القول لهما وللعزيز أيضاء وأغلظا له ، فصمم على محاربة كتامة، فزحف بجيوشـه فى سنة ٣٧٨ هـ إلى بلاد كتامة ، فخرب ميلة ، وهدم سورها ، ودمر كل ما قابله من حصون كتامة وقصورها حتى بلغ سطيف مركز أبي الفهم ، ثم اشتبك مع الكتاميين فى موقعة انتهت بانتصاره عليهم ، وهرب الثائر أبو الفهم إلى جبل وعر(٢) ، فقبض عليه أحد أتباع المنصور ، وأمر به فلطم لطما شديدا ، ونتفت لحيته حتى أشرف على الموت ، ثم أخـــذه بعض رجاله ، ونحره وشق بطنه ، وقتل معه والى ميلة وجماعة من رؤساء كتامة (٣) . فلما رأى العزيز بالله فشل خطته ، آثر أن يصطنع سياسة الملاطفة ، فأرسل فى سنة ٣٨٤ هـدية جليلة إلى المنصور من بينها فيل كبير(٤)، وتبعتها فى أيام الحاكم هدية أخرى بعثها إلى المنصور فى سنة ٣٨٨ هـ وتشتمل على جوهر وأعلاق نفيسة (٥).

ب ـ الدور الثانى من انفصال بنى زيرى عن الخلافة الفاطميه بمصر :

ظلت العـلاقات الودية بين مصر والمغرب الأدنى سائدة فى عصر نصـير

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٤٥

(٢) ابن الاثير ، جـ ٧ ص ١٣٣

(٣) ابن عذارى ، جـ ١ ص ٣٤٩

(٤) نفس المرجع ص ٣٥٣

(٥) نفس المرجع ٣٥٧

الدولة باديس، ولكن هذه العلاقات كانت فى الواقع قناعا زائفا يخفى وراءه ماكان قائما بالفعل بين الحاكم وباديس من حقد وعداء، فقد كان الحاكم يضمر فى نفسه السوء لباديس، لاتجاهه إلى الاستقلال عن الدولة الفاطمية، فأخذ يحيك له المؤامرات متتبعا نفس الخطة التى كان يتبعها العزيز بالله من قبل، فقد أمر الحاكم يانس العزيزى واليه على برقة بالسير إلى طرابلس والاستيلاء عليها فى سنة ٣٩٠ هـ، ولما كانت طرابلس تابعة لباديس، فانه لم يسكت على هذا الاعتداء السافر، ولم يتردد فى الاشتباك مع قوات يانس فى معركة أسفرت عن هزيمة الجيش الفاطمى ومقتل يانس، فبعث فلفل بن خزرون بذلك إلى الحاكم، فغضب الحاكم، وسير حملة ثانية بقيادة يحيي بن على بن حمدون الذى كان قد فر إلى مصر بعض مقتل أبيه جعفر، ونزل على العزيز بالله فى القاهرة[1]، فوصل يحيى إلى طرابلس فى ٩ ربيع الأول سنة ٣٩٢، واجتمع جيش يحيي بن على بن الأندلسى بجيش فلفل بن سعيد، وتقدم الجيشان إلى قابس فى سنة ٣٩٣ هـ، ولكنهما لم يلبثا أن تراجعا إلى طرابلس خوفا من الاصطدام مع جيوش باديس. ولما رأى يحيي اختلال الحال لديه، وعجزه عن محاربة باديس اضطر إلى العودة إلى مصر[2].

وأخيرا لجأ الحاكم بأمر الله إلى حث قبيلة زناتة على الاستيلاء على طرابلس، ونجح فى ذلك، وتمكنت زناتة بقيادة فلفل بن سعيد من النزول بطرابلس، ونتج عن ذلك قيام الاضطرابات بين صنهاجة وزناتة فى هذه المنطقة.

---

(١) ابن خلدون، ج ٤ ص ١٢٤

(٢) ابن عذاري، ج ١ ص ٣٦٨ — ابن الأثير ج ٧ ص ٢١٨

ولما توفى فلفل فى طرابلس سنة ٤٠٠ هـ، وخلفه أخوه وروا ، زحف إليه نصير الدولة باديس فى جيش كثيف ، ونزل بظـاهر طرابلس فى ٧ شعبان ، ودخلها ، ثم جاءته رسـل وروا بن سعيد أخى فلفل ، تطلب منه الأمان والعفو ، فأمنهم وعفا عنهم ،وعاد إلى المنصورية مظفرا ١) . وهكذا تمكن باديس من القضاء على جميع مؤامرات الحاكم ضده، فلما عاين الحاكم ذلك ، لم يجد بدا من العودة إلى السياسة القديمة وهى سياسة التودد ، فأخذ يعمل على التماس مودة باديس، ويذكر ابن عذارى ، أنه وصل إلى المهدية فى سنة ٤٠٣ هـ مركب « فيه هدية جليلة من الحـاكم إلى نصير الدولة باديس صاحب إفريقية ، وإلى ولده منصـور عزيز الدولة ، فتلقاها المنصور مع أهل القيروان على قصر الماء بالبنود والطبول ، ووصلت سجلات منه إلى نصير الدولة باضافة برقة وأعمالها إليه » (٢). وفى العام التالى ، أرسل الحاكم سجـلا إلى نصير الدولة يذكر فيه أنه جعل ولاية العهد فى حياته (أى فى حياة الحاكم) إلى ابن عمه عبد الرحيم بن إلياس بدلا من ابنه أبى الحسن على الذى لقب فيه بعد بالظـاهر لاعزازدين الله ، وقد غضب باديس على هذا الإجراء إذ رأى فيه خروجا على المذهب الإسماعيلى وقال «لولا أن الإمام لا يعترض على تدبير لكاتبته ألا يصرف هذا الأمر من ولده إلى ابن عمه»(٣)، وسادت العلاقات الطيبة بين الحاكم وباديس بعد ذلك ، فقد رد باديس على هدية الحاكم له بهدية أخرى أرسلها إليه فى سنة ٤٠٥ هـ ، وكانت تضم مائة

---

(١) نفس المرجع ، ص ٣٧٢

(٢) نفس المرجع ص ٣٧٣ ، ٣٧٤

(٣) ابن عذارى ، ص ٣٧٥

فرس لها سروج محلاة ، شدت فى ثمانية عشر حمـــلا أقفاصا ، وكان فيها ثمانيةعشر حملا من الخز والسمور والمتاع السوسى المذهب النفيس، وعشرون وصيفة، وعشرة من الصقالبة ، كما وجهت السيدة أم ملال أخت باديس إلى السيدة أخت الحاكم هدية أخرى . ولكن هذه الهدية لم تصل إلى الحاكم وأخته ، إذ استولى عليها العرب فى برقة (١) .

ج ـ الدور الثالث من انفصال بني زيرى عن الخلافة الفاطمية بمصر :

يعتبر هـذا الدور أهم الأدوار التى مرت بها حركة انفصال المغرب عن الخلافة الفاطمية بمصر ، ويبدأ منذ أن تولى المعز بن باديس إمارة إفريقية. ويذكر ابن الأثير أن المعز بن باديس كان ماشيا فى القيروان والناس يسلمون عليه ويدعون له ، فاجتاز بجماعة كانت هناك ، فقيل له هؤلاء رافضة يسبون أبا بكر وعمر ، فقال المعز : « رضى الله عن أبى بكر وعمر » ، فانصرفت العامة من فورها إلى درب المقلى بالقيروان ، وهو موضع يجتمع فيه الشيعة من كان يسكن فيه منهم (٢) . وذكر ابن عذارى أن المعز بن باديس ،تعلمذ على وزيره أبى الحسن بن أبي الزجال ، وكان ورعازاهدا ، فعلمه وأدبه، ودله على مذهب مالك وعلى السنة والجماعة،والشيعة لا يعلمون ذلك ولا أهل القيروان ، فخرج المعز فى بعض الأعياد إلى المصلى فى زينته وحشوده وهو غلام ، فكبا به فرسه ، فاستغاث بالشيخين أبي بكر وعمر، فسمعته العـامة فثاروا بالرافضة ووضعوا السيف فى الشيعة «فقتل منهم ما ينيف على الثلاثة

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٧٥

(٢) ابن الأثير ، ج ٧ ص ٢٩٥

آلاف » (١) . ويضيف ابن خلدون أنه قتل دعاة الرافضة يومئذ فى سائر بلاد إفريقية (٢) .

ولم يكتف المعز باضطهاد الشيعة فى البلاد إلى درجة أن طائفة منهم يبلغ عددها نحو ٢٠٠ فارس خرجوا بأولادهم فى سنة ٤٠٩ﻫ إلى المهدية للركوب منها إلى صقلية ٣) ، بل إنه أخذ يحمل الناس على اعتناق المذهب المالكى ونبذ المذهب الاسماعيلى ، وكان يهدف من وراء ذلك إلى الانفصال المذهبى والسياسى بطبيعة الحال عن مصر . وذكر المؤرخون أن المعز اضطهد الشيعة فى إفريقية ، وقتل منهم عدداً عظيما ، وسميت هذه الحركة بحركة التطهير ، وفى ذلك يقول القاسم بن مروان الشاعر .

وسوف يقتلون بكل أرض
كما قتلوا بأرض القيروان

وقال أحد الشعراء :

يامعز الدولة عش فى رفعة
وسرور واغتباط وجذل
أنت أرضيت النبى المصطفى
وعتيت فى الملاعين السفل
وجعلت القتـــل فيهم سنة
بأقاصى الأرض فى كل الدول

---

(١) ابن عذارى ، ص ٣٩٥ ـ ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٩

(٢) ابن خلدون ، جـ ٦ ص ٣٢٥

(٣) ابن عذارى ، جـ ١ ص ٣٨٨

ومع كل ما قام به المعز بن باديس للقضاء على الشيعة ، فان الخليفة الفاطمى الحاكم أغضى عن ذلك ، ولم يحاول أن يستثيره أكثر مما فعل ، بل نراه يحرص على استرضاء المعز ، ففى أواخر سنة ٤٠٧ ، أى بعد مضى شهور على مذبحة الشيعة ، وصل إلى المعز بن باديس سجل من الحاكم خاطبه فيه بشرف الدولة (١) ، وفى سنة ٤١١ هـ ، ورد على المعز أبو القاسم بن اليزيد رسولا من الحاكم إليه ومعه من الهدايا سيف مكلل بنفيس الجوهر ، وخلعة من لباسه لم ير مثلها ، كما قدم إلى المعز محمد بن عبد العزيز بن أبى كدية ومعه سجل من الحاكم وخمسة عشر علما منسوجة بالذهب (٢) . وفى سنة ٤١٤ هـ قدم هذا الرسول من قبل الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمى بتشريف عظيم لشرف الدولة المعز ابن باديس ، وزاده لقبا إلى لقبه ، فسماه شرف الدولة وعضدها ، وبعث إليه بثلاثة أفراس من خيل ركوبه مزودة بسروج نفيسة ، كما بعث إليه أيضا خلعة من نفيس ثيابه ومنجوقين منسوجين بالذهب على قصب فضة لم يدخل إفريقية مثلها قط ، وعشرين بندا مذهبة ومفضضة (٣) .

كل ذلك يعبر عن رغبة الحاكم بأمر الله وابنه الظاهر لإعزاز دين الله فى تحسين العلاقات بين مصر وإفريقية بعد أن توترت على أثر أعمال العنف التى قامت فى برقة وطرابلس بين جيوش مصر وإفريقية .

د ـ الدور الاخير من انفصال بنى زيرى عن الخلافه الفاطمية بمصر :

ذكر ابن عذارى أن المعز أظهر فى سنة ٤٣٣ الدولة العباسية ، وورد

(١) ابن عذارى ، جـ ١ ص ٣٨٨

(٢) نفس المرجع ، ص ٣٨٩

(٣) نفس المرجع ، ص ٣٩٢

عليه عهد الخليفة القائم بأمر الله العباسى (١) . وأتبع هذه الحركة بقطع الخطبة للخليفة المستنصر وبحرق بنوده الخضراء والدعوة على منابر إفريقية للعباس بن عبد المطلب (٢) ويختلف المؤرخون فى تحديد تاريخ انفصال المعز بن باديس نهائيا عن الدولة الفاطمية ، فابن عذارى وابن الأثير وابن خلدون يحددون له عام ٤٤٠ هـ (٣) ، وابن تغرى بردى والمقريزى يجعلانه فى سنة ٤٤٣ هـ (٤) . ويرجح الدكتور مختار العبادى حدوث الانفصال فى سنة ٤٤٣ هـ استناداً على ماذكره المقريزى فى اتعاظ الحنفا ، وعلى أن وزارة اليازورى – الذى كان خلافه مع المعز بن باديس سببا مباشرا فى هذا الانفصال – تبدأ فى عام ٤٤٢ هـ (٥) . ولكننا نرجح سنة ٤٤٠ هـ تاريخا لهذا الانفصال ، فان وزير المستنصر الفاطمى قبل اليازورى وهو أبو القاسم على ابن أحمد الجرجرائى المتوفى سنة ٤٣٦ هـ (٦) كان قد بلغه ماأظهره المعز ابن باديس فى سنة ٤٣٣ من التودد للخليفة العباسى القائم بأمر الله ، وما كان يقوم به المعز من اضطهاد الشيعة الإسماعيلية والدعوة للمذهب المالكى ، فخاطب المعز « محذرا وهو يراجعه بالتعريض بخلفائه والقدح فيهم ، حتى

(١) المرجع السابق ، ص ٣٩٧

(٢) نفس المرجع ، ص ٣٩٩

(٣) ابن عذارى ، ص ٣٩٩ – ابن الأثير ، جـ ٨ ص ٥٥ – ابن خلدون ، جـ ٦ ص ٣٢٥

(٤) ابن تغرى بردى ، جـ ٥ ص ٥١ – المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، نص نشره الدكتور مختار العبادى عن النسخة المحفوظة بمكتبة سراى أحمد الثالث بأسطنبول ، ضميمة لمقاله : سياسة الفاطميين ص ٢٢٢

(٥) مختار العبادى ، سياسة الفاطميين ، ص ٢١٨ ، حاشية رقم ٢

(٦) ابن عذارى ، جـ ١ ص ٣٩٨

أظلم الجو بينه وبينهم (١)». وأعتقد أن العلاقات ساءت للغـاية بعد ذلك بين مصر وإفريقية، ومع ذلك فقد كان الخليفة المستنصر ، رغم غضبه من سياسة المعز بن باديس ، لايرغب فى أن تتم القطيعة على يديه ، ثم إنه كان يأمل فى أن تتحسن العلاقات بينه وبين المعز ، هذا بالإضافة إلى أنه كان مشغولا وقتئذ بالأحداث الجارية فى الشام ، وقيام العرب فى هذه البلاد بالحركات الإنفصالية عن الدولة الفاطمية ، فقـــد تملك حسان بن مفرج فلسطين ، واستولى معز الدولة صالح الكلابى على حلب (٢) . وكان الموقف السياسى يستلزم أن يقوم بتلطيف الجو بينه وبين المعز بن باديس ، على نحو ماكان يفعل آباؤه من قبل وعلى الأخص الحاكم بأمر الله ، ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك ، ولم يحاول أن يهادى المعز أو يتودد إليه ، فازدادت هوة الخـلاف عمقا ، وتوترت العلاقات توترا أدى فى النهاية إلى القطيعة والانفصال فى سنة ٤٤٠ هـ . فلقد كان المعز بن باديس ينتظر فرصة مواتية لإعلان انفصاله عن الخلافة ، وكان يطالع رغبة أهل القيروان الملحة فى قطع الدعـوة للخليفة الفاطمى ، وكان هو نفسه يميل إلى المذهب السنى كما رأينا من قبل ، ولكنه لم يرض أن ينكث بعهود آبائه للفاطميين ، وإنمـــا كان يتوقع أن يقوم المستنصر بترضيته ، ولما لم يفعل اعتبر هذا استخفافا منه بأمره ، واحتقارا لشأنه ، وعز عليه أن يعامل بمثل هذه المعاملة مع مالديه من الإمكانات الكثيرة التى تهيىء له الانفصال عن الدولة الفاطمية نهائيا ، ووجـــد فى سكوت

---

(١) ابن خلدون جـ ٦ ص ٣٢٥

(٢) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ط بيروت ١٩٠٨ ، ص ٧٢ وما يليها — ابن خلدون ، جـ ٤ ص ١٣٠ — جمال سرور ، النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق فى القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة ، ١٩٥٩ ص ٥٦ وما يليها

المستنصر عن مخاطبته ذريعة لقطع الدعوة له ، وهـو السلاح الذى كان يشهره دائمـا هو وآباؤه فى وجوه خلفاء الفاطميين فى مصر منـذ المرحلة الأولى التى نتحدث عنها . ويذكر ابن خلدون أن المستنصر لما بلغه ماقام به المعز بن باديس من قطع الخطبة له والدعوة للخليفة القائم العباسى ، كتب إلى المعز يتهـــدده (١) . ويذكر ابن خلكان أن المستنصر كتب إلى المعز يتهدده بقوله: « هلا اقتفيت آثار آبائك فى الطاعة والولاء »، فرد الصنهاجى يؤكد حق أسرته فى الاستقلال ، فقـال : « إن آبائى وأجدادى كانوا ملوك المغرب قبل أن تملكه أسلافك ، ولهم عليهم من الخدم أعظم من التقديم، ولو أخروهم لتقدموا بأسيافهم » (٢) . وأمام تهديد المستنصر بالله له فقد كان من الطبيعى أن يتحداه المعز بن باديس ، فيأمر فى نفس هذا العام بلعن الفاطميين فى الخطب (٣) ، ويأمر فى العام التالى بسبك ما لديه من الدنانير والدراهم والقطع التى تحمل أسماء بنى عبيد الله ، وإزالة أسمائهم من الرايات والطرز (٤) . ومع ذلك كله ، فلم يكن المعز قد شرع بعد فى تغيير لون أعلام الفاطميين ، فظل محافظا على الشكليات . فلمـــا تولى اليازورى الوزارة الفاطمية فى سنة ٤٤٢ هـ ، اشتد الخلاف بينه وبين المعز بسبب إنزال المعز من قدر اليازورى ، إذ كان يخاطبه دون ما كان يخاطب به من سبقه من الوزراء (٥) ، وكان لهذه الخصومة الجديدة أثرها فى قيام المعز بإعلان

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣١

(٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ج ٤ ، ص ٣٢١ — سعد زغلول ، فترة حاسمة ، ص ٢٥٤

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٠١

(٤) نفس المرجع ص ٤٠٢

(٥) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣١ — المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ضميمة بمقال سياسة الفاطميين ، ص ٢٢١ ، ٢٢٢

انفصاله الروحى والسياسى نهائيا عن الخلافة الفاطمية ، وكان قد قطع فى السنين الثلاث السابقة شوطا كبيرا فى ذلك حتى لم يبق إلا شكليات يسيرة ، فأرسل رسولا إلى بغداد ليستحضر الخلع والألوية السوداء(١) ، واستجاب الخليفة العباسى لرغبته ، فأرسل إليه أبا غالب الشيرازى رسولا من قبله ومعه العهد واللواء الأسود ، فاتفق أنه مر ببلاد الروم ، فقبض عليه الامبراطور البيزنطى ، وأرسله هو واللواء والعهد والهدية إلى القاهرة ، فأمر المستنصر باحراق العهد واللواء والهدية فى حفرة بين القصرين (٢) . فاستعاض المعز ابن باديس عن اللواء العباسى بثياب بيضاء أمر باخراجها من فندق الكتان بالقيروان ، وصبغها باللون الأسود الحالك ، وجمع الخياطين وأمرهم بقطعها أثوابا ، ثم جمع الفقهاء ، والقضـــاة إلى قصره ، وخطيبى القيروان وجميع المؤذنين ، وكساهم ذلك السواد ، وانصرفوا جميعا إلى الجامع ، وركب المعز وراءهم حتى وصل إلى جامـع القيروان ، « ثم صعـد الخطيب ، وخطب خطبة أتى فيها على جميـع الأمراء بأجزل لفظ وأحسن معنى ، ثم دعا لأبي جعفر عبد الله القائم بأمر الله العباسى ، ودعا للسلطان المعز بن باديس ولولده أبى الطاهر تميم ولى عهده من بعده ، ثم أخزى بنى عبيـد ولعنهم » (٣) . وبذلك انشق المغرب الادني نهائيا عن الخلافة الفاطمية .

ونستخلص مما سبق عرضه أن هذا الانفصال تم على مراحل مختلفة ، وقد ساعد على حدوثه سياسة الخلفاء الفاطميين العدوانية نحـو أمراء بنى

---

(١) اتعاظ الحنفا ، ص ٢٢٢

(٢) نفس المرجع ص ٢٢٣

(٣) ابن عذارى ، ج١ ص ٤١٥

زيرى ، وإثارتهم المنافسة بين صنهاجة وزناتة ، ثم تدخل الوزراء منذخلافة المستنصر بالله فى هذا الخلاف ، وسوء تصرفهم فى معاملة المعز بن باديس ، وأخيرا إسراف الخلفاء الفاطميين فى الاستخفاف بالدين وسب الصحابة ، وادعاء الحاكم الالوهية ودعوته الناس إلى عبادته . وأحدث خروج المغرب عن الفاطميين صدى عميقا فى طرابلس ، فاقتدى النـاس بالمعز بن باديس وقام الفقيه أبو الحسن بن المنتصر بتحريض العامة على الشيعة ، واشترك معهم فى قتلهم ، ثم قطع من الأذان عبارة « حى على خير العمل » ، وأذن أذان أهل السنة بنفسه (١) .

كذلك حذا أهل برقة حذو المعز بن باديس ، ففى سنة ٤٤٣ هـ نفسهـا كتب الأمير جبارة بن مختـــار العربى من ابرقة إلى المعز بن باديس يبايعه بالطاعة ، ويخبره بأنه وأهل برقة قد أحرقوا المنـابر التى كان يدعى عليها للعبيدية ، وأحرقوا راياتهم ، وتبرأوا منهم ، ولعنوهم على منابرهم ، ودعوا للقائم بأمر الله العباسى (٢) .

ونلاحظ أن المعز بن باديس تأخر عن حماد بن بلكين فى الانفصال عن الدولة الفاطمية ، فان ابن خلدون يذكر أنه « خالف دعوة باديس ، وقتل الرافضة ، وأظهر السنة ، ورضى عن الشيخين ، ونبذ طاعة العبيديين جملة ، وراجع دعوة آل العباس ، وذلك سنة خمس وأربعمائة » (٣) .

---

(١) سعد زغلول : فترة حاسمة ص ٢٥٥ ، عن التيجانى : الرحلة ، طبعة تونس ١٩٢٧

(٢) ابن عذارى ج ١ ص ٤١٦

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ٣٥١

ويعلق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد على انفصال المغرب عن الدولة الفاطمية بقوله : « عندئذ تحطم كل أمل فى إيجاد تسوية مناسبة ، فقد مضى الزمن الذى كان يوحى فيه المعز بقتـل الشيعة ويرسل بهـــداياه وآيات خضوعه إلى القاهرة ، فيرد الحاكم بسجلات التشريف ، ولا يذكر ماكان من تابعه إلى الشيعة من القتل والاحراق » (١) .

(١) سعد زغلول ، فترة حاسمة ، ص ٢٥٥

(٣)

انتقام المستنصر بالله الفاطمى : غزو عرب الهلالية وبنى سليم لبلاد المغرب

١ ـ دخول قبائل بنى هلال وبنى سليم فى أرض المغرب :

أصل قبائل بنى هلال وبنى سليم من مضر ، وكانوا مايزالوا متبدين منذ قيام الدولة العباسية ، ثم نجعوا إلى الحجاز ، فنزل بنو سليم مما يلى المدينة ، ونزل بنو هلال فى جبل غزوان عند الطائف (١) . وكانوا يطرقون العراق والشام فى رحلة الشتاء والصيف ، فيغيرون على أطراف البلاد ، ويفسدون العمران ، وكان بنو سليم يغيرون على الحجاج أيام الحج بمكة وزيارة المدينة ، ولم تستطع الخلافة العباسية أن تضع حدا لغاراتهم . فلما ظهر القرامطة ، انضم إليهم بنو سليم فى جملة من انضم من بنى ربيعة بن عامر ، ودخلوا فى جيوشهم فى البحرين وعمان، وقدموا معهم إلى الشام ،فلما تغلب المعز لدين الله الفاطمى ، والعزيز بالله على القرامطة ، انسحب هؤلاء إلى البحرين ، ونقل العزيز بالله حلفاءهم من عرب بنى هلال وبنى سليم إلى مصر، وأنزلهم فى العدوة الشرقية من النيل، فاستقروا هناك ،ولكنهم كانوا عنصرا هداما فى البلاد،فعاثوا فى الصعيد فساداً. وكانت قبائل بنى هلال تضم أحياء من جشم والأثبج وزغبة ورياح وربيعة وعدى . وكانت هذه القبائل فى فى عصر المستنصر بالله فى حرب مستمرة فيما بينها ، « وقد عم ضررهم ، واحرق البلاد والدولة شررهم » (٢). فأشار الوزير أبو محمد الحسن بن على

---

(١) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، المرجع السابق ص ٢٢٤ ـ ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٧

(٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٠

اليازورى على المستنصر باصطناعهم ، واستقدام مشايخهم ، وتوليتهم أعمال إفريقية ، ودفعهم إلى محاربة الصنهاجيين ، فاذا ماانتصروا عليهم أصبحوا أعوانا للدولة وعمالا بتلك البلاد ، وأمر عرب البادية أهون من صنهاجة الملوك ، وإذا هزموا فانه بذلك يتخلص من عنصر مدمر فى مصر ، دون أن يتكلف أى مشقة فى محاربتهم أو محاربة الصنهاجيين . واقتنع الخليفة المستنصر بالله بوجاهة هذا الرأى ، وكان يتحرق شوقا إلى الانتقام من بنى زيرى المارقين . فأحضر الوزير ، مكين الدولة أبا على الحسن بن على بن ملهم بن دينار العقيلى أمير أمراء الدولة ، وكان معروفا بكياسته ، وحسن رأيه ، وسيره إلى زغبة ورياح من بطون هلال بخلع سنية ، وإنعام كثيرة وأمره أن يصلح مابينهما ، ويتولى دفع ماعليها من ديات[1]. فلما تم له ذلك ، وصل عامتهم بعير ودينار لكل فرد منهم ، وأباح لهم إجازة النيل ، وكان لا يسمح لهم بذلك ، فجاز منهم عدد كبير دون أن يوصيهم بشىء ، « لعلمه أنهم لايحتاجون لوصية » (٢) . وذكر ابن خلدون أن اليازورى قال لهم : « قد أعطيتكم المغرب وملك المعز بن بلكين الصنهاجى ، العبد الآبق ، فلاتفتقرون » ، ثم كتب إلى المعز : « أما بعد فقد أرسلنا إليكم خيولا وحملنا عليها رجالا فحولا ، ليقضى الله أمرا كان مفعولا » [٣] . وسارت هذه القبائل إلى برقة فوجدوها خاليه ، إذ كان المعز قد أباد معظم سكانها من زناتة ، فنزل العرب برقة ، واحتقر المعز شأنهم ، واستكثر من شراء العبيد حتى كون

---

(١) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ضميمة ص ٢٢٣

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤١٧

(٣) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٣١ ، ج ٦ ص ٣١

منهم فرقة يبلغ عددها ٣٠ ألفا (١) .

وفى أثناء ذلك كتب العرب النازلون ببرقة إلى إخوانهم بشرق النيل يرغبونهم فى البلاد ، فأجازوا إليهم ، واستقر بنو سليم ببرقة ، وخربوا المدينة الحمراء وأجدابية وأسمرا ومرت أما هلال فسار جميع بطونها إلى إفريقية « كالجراد المنتشر لايمرون على شىء إلا أتوا عليه » (٢) ، فوصلوا إليها فى سنة ٤٤٣ هـ ، وكان أول من وصل من بنى هلال مؤنس بن يحيى الرياحى أميررياح ، فقدم على المعز ، وكان المعز قد سئم صنهاجة ، فأراد أن يستبدلهم بعنصر آخر ، فاستلطف مؤنسا ، وكان سيدا فى قومه ، شجاعا عاقلا ، فاستدناه المعز إليه ، وزوجه من إحدى بناته ، وفاوضه فى استدعاء عرب بنى هلال من إطرابلس وحدود إفريقية ليستعين بهم على بنى عمه (٣) ، فنصحه مؤنس بعدم التفكير فى ذلك ، وعرفه بقلة اجتماعهم على الكلمة ، وعدم انقيادهم إلى الطاعة ، ولكنه ألح عليه إلحاحا متواصلا ، وعلل امتناعه من استقدامهم إلى إفريقية بحسده لقومه ، فلم يسع مؤنس أمام هذا الإلحاح إلا أن يدعوهم .

ب ـ هزيمة جيوش المعز على أيدى العرب :

ما كاد عرب بنى هلال يصلون إلى نواحى إفريقية حتى عاثوا فيها فساداً ، فعظم الأمر على المعز ، وظن أن مؤنس إنما دفعهم إلى ذلك ، فأمر بالقبض على أخى مؤنس وبثقاف أولاده ، وختم على داره بالقيروان ،

---

(١) المرجع السابق ، جـ ٤ ص ١٣١

(٢) نفس المرجع جـ ٦ ص ٣١

(٣) ابن عذارى ، جـ ١ ص ٤١٧ ـ ابن خلدون ، جـ ٦ ص ٣٢

وبعث يستنجد ببنى عمه بقلعة حماد ، فبعث إليه القائد بن حماد كتيبة من ألف فارس ، واستنفر المعز قبيلة زناتة ، فقدم إليه المستنصر بن خزرون المغراوى فى ألف فارس من زناتة (١) ، وعزم المعز على المبادرة بمحاربة العرب قبل أن يستفحل خطرهم ، فخرج بجيوشه من صنهاجة وزناتة والبربر والعبيد وبقايا عرب الفتح ، فبلغ عدد جيوشه ثلاثين ألفا (٢) ، واشتبك مع عرب بنى هلال من رياح وزغبة وعدى بالقرب من حيدران من جهة قابس فى ذى الحجة سنة ٤٤٣ هـ ، ولكن العرب البلديين الذين كانوا فى جيش المعز آثروا الانضمام إلى إخوانهم فى الجنس ، فانحازوا إلى صفوف الهلالية ، أما زناتة وصنهاجة فقد خذلوه وفروا ، فانهزم المعز هزيمة نكراء ، وصمد أمام العرب إلى أن وصلت رماحهم إليه ، وقتل من عبيده عدد كبير ، ففر بنفسه وخاصته إلى القيروان ، وانقض عرب الهلالية على مضارب المعز وخيامه ، فانتهبوها ، وكان فيها من الذهب والفضة والأمتعة والاثاث والكراع أعداد هائلة ، وكان فيها من الأخبية مايتجاوز عشرة آلاف ، ومن الجمال نحو ١٥ ألفا ،

---

(١) ابن خلدون ، جـ ٦ ص ٣٢

(٢) ذكر ابن عذارى نقلا عن ابن شرف أن عسكر المعز كان يتألف من ثمانين ألف فارس ونحو ذلك من المشاة ، وكان عدد فرسان عرب الهلالية ثلاثين ألفا ، وعدد مشاتهم نحو ذلك (ابن عذارى ، جـ ١ ص ٤٢٠) ، وأغلب الظن أن عدة جيش المعز لم تكن تتجاوز ثلاثين ألف مقاتل استنادا الى قول على بن رزق الرياحى بعد هزيمة المعز :

لقد زار وهنا من أميم خيال ∴ وأيدى المطايا بالزميل عجال
وان ابن باديس لأفضل مالك ∴ لعمرى ولكن ما لديه رجال
ثلاثون ألفاً منهم هزمتهم ∴ ثلاثة آلاف وذاك ضلال

(ابن خلدون جـ ٦ ص ٣٣)

ومن البغال مالا يحصى [١] . وقتل من الصنهاجيين وأتباع المعز على ماذكره ابن خلدون ثلاثة آلاف وثلثمائة مقاتل [٢] . وفر معظم فلول جيش المعز فى جبل حيدران ، ثم توافدت على القيروان طلائع المنهزمين ، وفى مقدمتهم ابن البواب ، ووصل العرب إلى نواحى القيروان وبثوا خيولهم إلى ضواحى المدينة وقراهـــا ، يفسدون مزارعها ويدمرون عمرانها ، وفر سكان هذه المناطق إلى القيروان. فأمر المعز بأن ينتقل أهل صبرة وسوقتها إلى القيروان، وأن ينتقل جميع عسكره من الصنهاجيين إلى صـبرة ويـنزلوا فى أبنيتهـا وأسواقها ، ولمـا دخل العبيد وعسكر صنهاجة صـبرة ، أساءوا استخدام مبانيها ، فخربت عمائرهاالعظيمة [٣] ، وأقبلت جيوش العرب إلى القيروان فحاصرتها ، وخرج بعض الأهالى من القيروان بقصد محاربة العرب خارج باب تونس ، فحمل عليهم فرسان العرب ، وتمكنت منهم سيوفهم ورماحهم، فحصدوهم حصدا ، وأبادوهم (٤) .

وأقام العرب يحاصرون القيروان وينهبون البـلاد حتى أتوا على عمران إفريقية ، وأدار المعز على القـيروان سورا داخلياسنة ٤٤٦هـ (٥) . وكان عرب بنى هلال ، قد استولوا على باجةوقابس وقسنطينة وتونس وبونة، فلما رأى المعز ضياع ملكه ، صاهر ببناته ثلاثة من أمراء العرب هم فارس بن

---

(١) ابن عذارى ، جـ ١ ص ٤١٩
(٢) ابن خلدون ، جـ ٦ ص ٣٣
(٣) ابن عذارى ص ٤٢٢
(٤) نفس المرجع ، ص ٤٢٣
(٥) ابن خلدون ، جـ ٤ ص ١٣٢

أبي الغيث ، وأخاه عائذاً ، والفضل بن أبي على المرداسى (١) ، وفى سنة ٤٤٨ بعث ابنه تميم إلى المهدية ، وفى شهر رمضان من العام التالى ركب المعز مع مؤنس بن يحيي أمير رياح إلى المهدية ونزلها ، ودخل العرب القيروان فاستباحوها ،وخربوا عمرانها ومبانيها،وعاثوا فى محاسنها ،وطمسوا معالمها، وجردوا قصورها ممـا كانت تحتويه من روائع وتحف ، وشملوا بالعيث والنهب كل من بقى فيها من أهلها ، فتفرق الناس فى الأقطار (٢) .

وقضى المعز بن باديس السنوات الباقية من عمره حزينا فى المهدية ، إلى أن توفى فى أوائل سنة ٤٥٤ هـ ، ودفن فى رباط المنستير (٣) . وخلفه ابنه تميم ، الذى اقتصر ملكه على شريط ضيق من الساحل يحيط بالمهدية،ويشمل المهدية وأحوازها وسفاقس وقابس وجزيرة جربة (أنظر خـريطة رقم ١١ ، ١٢) .

ج ـ نتائج غزو الهلالية للمغرب :

١ ـ نتج عن انحسار ملك الدولة الصنهاجية فى إفريقيـة إلى الساحـل ، بسبب الضغط الذى كانت تمارسه قبـائل العرب على المدن الداخلية ، عناية الصناجيين بشؤون البحر ، فأسس تميم بن المعز أسطولا ضخما بدار الصناعة بالمهدية ، وقام هو وابنه يحيي بن تميم من بعده بالغارات البحرية المتواصلة على جزيرة صقلية وعلى السواحل الإيطالية (٤) ، وكان دخول صقلية فى فلك

---

(١) المرجع السابق ، جـ ٦ ص ٣٤

(٢) نفس المرجع ، جـ ٦ ص ٣٤

(٣) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، ص ٧٧

(٤) مختار العبادى ، سياسة الفاطميين ، ص ٢٢٠

النورمانديين قـــد دفع كثيرا من رجال البحـر المسلمين إلى الهجرة منها إلى المهدية . واشتغالهم بأعمال القرصنة البحرية . وقـــد قام يحيي بن تميم بن المعز (٥٠١-٥٠٩) بدور كبير فى هذه الغارات ، « فقد كانت له غزوات بحرية عملها إلى بلاد الروم إلى أن طلبوا سلمه » (١) . ففى سنة ٥٠٣ هـ جرد من أسطوله خمسة عشر غرابا لغزو بلاد الروم ، فأصيب منها ستة . وعادت السفن الباقية إلى المهدية (٢) ، وفى سنة ٥٠٧ هـ ، أغار أسطول المهـدية على بلاد الروم وعاد بسبى كثير فى ربيع الآخر ، وقـد كان لهذه الغارات أثر كبير فى قيام النورمانديين بتوجيه ضرباتهم إلى المهدية ، وانتهى الأمر باستيلائهم على جربة فى سنة ٥٤١ ، وسفاقس فى سنة ٥٣٨ ، وبونة والمهدية فى سنة ٥٤٣ ، وزويلة فى سنة ٥٥٢ .

٢ - نتج عن تخريب العرب للبلاد وعيثهم فيها قيام فترة من الاضطراب السياسى والاقتصـادى فى إفريقية والمغرب الأوسط ، فقـد خرب العرب العمران ، وأتوا على معالم الحضارة بافريقية من زراعة وتجارة ومنشآت ، فخربت صبرة والقيروان وتونس وطبنة والمسيلة وقلعة بنى حماد ، واكتسحت كل بلاد إفريقية من طرابلس حتى حدود المغرب الأقصى موجة عاتية من الدمار ، تركت البلاد قاعا صفصفا (٣) .

٣ - كان لغزو الهلالية المغرب رغم مضـــاره ومساوئه الكثيرة فضل

---

(١) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ص ٨٠

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٣٨

(٣) Marçais, la Berberie musulmane, pp. 208-214

كبير فى تعريب البلاد وتخفيف حدة اللهجات المحليـة فى القرى البربرية التى لم تصل إليها بعد إشعاعات الحضارة العربية .

٤ ـ انقسمت بلاد المغرب إلى دول للطوائف على نحو ماحـــدث فى الأندلس عقب سقوط الخلافة الأموية بقرطبة فقـد استولى بنو هلال على المناطق الممتدة فى الداخل من قابس إلى الغرب ، وظل بنو زيرى يحتفظون بالمهدية ومايليها ، واستقر بنو حمـــاد فى بجاية ، واستقل حمو بن مليل البرغواطى ، الذى تحالف مع العرب من زغبة ورياح وعـدى والأثبج ، فى سفاقس ، واستقـل ابن خراسان بتونس سنة ٤٥٨هـ ، واستقل موسى بن يحيى بقابس ، واستقل حاكم قفصـة الزيرى بها بعـد أن خرج على سيده واستعان بالعرب لتوسيع نفوذه فى مقابل جزية سنوية.

(٤)

إستيلاء النورمانديين على المهدية

ا ـ غارات الزيريين على سواحل إيطاليا وصقلية وآثارها:

سقطت صقلية في أيدى النورمانديين عقب نزاع قام بين ابن الثمنة الملقب بالقادر بالله صاحب طرابنش Trapani وبين صهره القائد ابن الحواس على بن نعمة صاحب قطانية وسرقوسة ، فاستنجد ابن الثمنة بالنورمانديين المقيمين بقلورية فى كالابريا سنة ٤٤٤ هـ ، وسجل دخولهم على مسرح الاحداث بصقلية ضياع هذه الجزيرة ، من أيدى المسلمين ، وقد تمكن روجار النورمندى من بسط سلطانه على الجزيرة تدريجيا ، واستنجد أهل صقلية بالمعز بن باديس ضد روجار ، فجمع الأمير عدداً من سفنه ، وأبحر قاصدا صقلية ، ولكن عاصفة عاتية أغرقت سفنه عند قوصره ، وكانت هذه الكارثة ضربة قاضية لآماله ، فقد استطاع النورمانديون السيطرة على معظم جزيرة صقلية ، بينما تمكن عرب الهلالية من التغلب على معظم إفريقية . وحاول الأمير تميم استرجاع الجزيرة ، فأرسل ولديه أيوبا وعليا إلى صقلية ، ولكن عبيدهما سببا قيام فتنة فى الجزيرة ، فاضطر أيوب وعلى إلى العودة إلى المغرب فى سنة ٤٦١ هـ تاركين صقلية لمصيرها التعس[1]. وفى سنة ٤٦٤ خرج ابن الحواس بأهله وماله صلحا ، وتملك رجار كل الجزيرة [2] ، باستثناء مدينتى قصريانه وجرجنت ، اللتين حاصرهما النورمانديون حصارا شديدا ،

---

(١) ابن الاثير ، جـ ٨ ص ١٠٨

Marçais, la Berberie musulmane, pp. 219-220

(٢) ابن خلدون ، جـ ٤ ص ٤٥٠

حتى ضاق الأمر على أهلها فأكلوا الميتة ولم يبق لديهم ما يأكلونه، واضطر أهل جرجنت إلى التسليم . أما قصريانة فظلت بعدها ثلاث سنوات ، فلما اشتد الأمر على أهلهـا أذعنوا إلى التسليم، فتسلمها النورمانديون فى سنة ٤٨٤ هـ (١) .

وقد ذكرنا من قبل كيف أرغمت الظروف خلفاء المعز بن باديس فى المهديه على اصطناع سياسة بحرية ، وكيف كانوا يغيرون على السواحل الايطالية ، وعلى جزر سردانية وصقلية ، وكانت هذه الغارات البحرية نوعا من الجهاد ضد النصارى ، وكانت الاعتداءات الزيرية على بلاد النصارى قد بلغت ذروتها فى عهـد تميم بن المعز ، بحيث اضطرت الدول التى تعرضت لغاراته إلى الإتفاق فيما بينها على القيام بعمل مشترك لتأديبه . وشجع البابا فكتور الثالث على تكوين طائفـة من رجال البحر من البيزيين والجنويين للاغارة على السواحل الإفريقية ، ردا على غارات الزيريين : ففى سنة ٤٨٠ هـ قدم « أهل جنوة وبيشة » (٢) Pisa فى أسطول يتألف من ٣٠٠ سفينة تحمل ٣٠ ألف مقاتل لمحاصرة المهدية ، فاستولوا على المهـدية وزويلة ، وأحرقوا ديارها ، وقتلوا السكان فيها ، ويعلل ابن عذارى دخولهم فى هاتين المدينتين « بغيبة عسكر سلطانها عنها ، ومفاجأة الروم قبل استقدامه إليها ، وأخـذ الأهبة للقائهم ، وخلو كافة الناس من الأسلحة والعـدد ، وقصر الأسوار وتهدمها ، وتكذيب تميم بخبرهم ، وسوء تدبير عبـد الله بن منكور متولى أمور الدولة فى قصده مخالفة قائد الاسطول فى الخروج إليهم للقـائهم فى

(١) ابن الأثير ، جـ ٨ ص ١٥٩

(٢) ابن عذارى ، ١ ص ٤٣١ — ابن الأثير ، جـ ٨ ص ١٤٧ — ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٢٨ — ابن الخطيب ، ص ٨٧

الماء ومنعهم من النزول فى البر ، فكان ذلك كله سبب تغلبهم على المدينتين المهدية وزويلة ، ونهبهم إياهما ، وقتلهم الناس فيهما ، وإحراقهم بالنار ما هو مشهور بالمهدية إلى الآن ، وقد استوعب ذلك أبو الحسن الحداد فى قصيدته التى أولها :

أنى يلم الخيال أو يقف
وبين أجفاننا ثوى الدنف
غزا حمانا العدو فى عدد
هم الدبى كثرة أو اللفف
عشرون ألفا ونصفها ائتلفوا
من كل أوب وليت ما ائتلفوا
جاؤوا على غرة إلى نفر
قد جهلوا فى الحروب ما عرفوا »(١)

ولجأ تميم إلى قصر المهدى ، ثم فاوضهم فى الصلح ، واضطر إلى تقديم مائة ألف دينار إلى الغزاة نظير تنازلهم عنهما ، فدفع هذا المبلغ بين ناض وأوانى ذهب وفضة ، فأقلعوا بذلك كله وبعدد عظيم من أسارى المسلمين رجالا ونساء (٢) . وأحدثت هذه الغزوة الإيطالية دويا هائلا عند المسلمين. وقد أعاد الروم الكرة مرة أخرى فى سنة ٤٩٨ هـ، فقدموا فى أجفان كثيرة حربية تعرف بالشوانى ، و ٢٣ مركبا، ويذكر ابن عذارى أنهم كانوا

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٣٢

(٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٢٨ — ابن الخطيب ، القسم الثالث من أعمال الأعلام، ص ٧٨ — Marçais, la Berberie musulmane, p. 221

يهدوفون إلى إيجاد فرصة لدخول المهدية كالمرة السابقة ، « فقصدوا إلى باب دار الصناعة ليمنعوا أسطول المهدية من الخروج إليهم ، فخاب ظنهم ، وخرج أسطول المهدية إليهم فهزموهم ، وقتلوا كثيرا منهم » (١) .

ولكن هذه الغزوات الرومية لم تعرقل حركة الجهاد البحرى الإسلامى ، فقد صرف يحيى بن تميم همه « إلى غزو النصارى فى الأساطيل البحرية ، فاستكثر منها ، واستبلغ فى اقتنائها ، وردد البعوث إلى دار الحرب فيها حتى اتقته أمم النصرانية بالجزى من وراء البحر من بلاد الفرنجة وجنوة وسردينية » (٢) .

ب ـ سقوط المهدية فى أيدى النورمانديين :

كان تميم قد عقد بينه وبين روجار الأول هدنة فى سنة ٤٦٨ هـ ، وظلت هذه الهدنة قائمة فى عهد تميم وابنه يحيى ثم على ، غير أن المنافسات التجارية بين صقلية والمهدية أدت فى النهاية إلى خرق الهدنة (٣) . وحدثت بين روجار وعلى بن يحيى بن تميم جفوة شديدة كان سببها خلافا حدث بين على ابن يحيى ورافع بن كامل بن جامع الرياحى ، بسبب رغبته فى احتكار التجارة البحرية ، وقد أدى هذا الخلاف إلى خروج على لحصار رافع فى قابس سنة ٤١١ هـ ، ودون بعض قبائل العرب ، فاستعان رافع بروجار صاحب صقلية الذى أمد رافع بأسطول صقلى أغار به على المهدية ، فتمكن على بن

---

(١) ابن عذارى ، ص ٤٣٤

(٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٢٩

(٣) Marçais, la Berberie, p. 221

يحيى من هزيمة أسطول صقلية بساحل قابس [١] ، وبدأ منـذ ذلك الحين يدعم أسطوله ويقويه استعدادا للحرب . ولما كان على يدرك تماما عـدم قدرته على مواجهة روجار وحده، فقد كاتب المرابطين بمراكش للاجتماع معه على الدخول إلى صقلية وكف روجار عما يعتزمه (٢) . ويذكر ابن عذارى أن رجار صاحب صقليـة أرسل فى سنة ٥٢١ هـ رسولا إلى الأمير على بن يحيى « يلتمس تجـديد العقود وتأكيد العهود ، ويطلب أموالا كانت له موقفه بالمهدية وذلك بعنف وغلظة ، فرد على رسوله دون جواب ، وجبهه بالقول ، فتزايدت الوحشة بينه وبين رجار ، فأوسع شرا ، وحاول بعد ذلك مكرا » (٣) .

وتوفى على وخلفـه ابنه الحسن آخـــر أمراء بنى زيرى ، وحدث فى عهـــده أن قام أبو عبد الله بن ميمون ، قائد أسطول على بن يوسف بن تاشفين بالإغارة سنة ٥١٦ على جزيرة صقليـة ، فافتتح مدينـة نقوطرة Nicotera ، من عمل رجار الثانى ، وسبى نساءها وأطفالها ، وقتل شيوخها ، وسلب جميع ما وجده فيها ، فلم يشك روجار فى أن المحرك لذلك والمسبب له « هو أمير إفريقية الحسن بن على ، لما تقـدم بينه وبين أبيـه من الوحشة العظيمة ، فاستنفر أهل بلاد الروم قاطبة ، فالتأم له مالم يعهد مثله كثرة ، فعلم بذلك الحسن بن على ، فأمر بتشييد الأسوار ، واتخـاذ

---

(١) ابن الأثير : ج ٨ ص ٢٧٩ — ابن خلدون ج ٦ ص ٣٣٠ ، ٣٤٢ — محمد المرزوقى ، قابس ، القاهرة ١٩٦٢ ص ١٧٢

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٤٤ — ابن الأثير ج ٨ ص ٢٧٩

(٣) ابن عذارى ج ١ ص ٤٤٣

الأسلحة ، وحشدالقبائل واستقدام العرب ، فجاءت الحشود من كل جهة ومكان ، والناس متأهبون لما يطرقهم منهم » (١) .

اتخذت حملة روجار طابع الحملات الصليبية ، وأبحرت الحملة من ميناء مرسالة بقيادة جرجى بن ميخائيل الأنطاكى وعبد الرحمن بن عبد العزيز ، وكان جرجى نصرانيا هاجر من الشام بعد أن تعلم العربية ، وبرع فى الحساب ، فاصطنعه تميم ، فلما توفى تميم رحل جرجى إلى صقلية، فاستخدمه روجار على قيادة أسطوله ، فلما عزم روجار على حصار المهدية ، بعثه فى أسطوله سنة ٥١٦ه المذكورة فى ٣٠٠ جفن تحمل نحو ألف فارس ، ووصل هذا الاسطول فى أواخر جمادى الأولى سنة ٥١٧ ه إلى ساحل إفريقية ، فافتتح جرجى جزيرة قوصرة ، ثم قصد بأسطوله إلى ساحل المهدية ، واستولى على جزيرة الأحاسى وقصر الديماس فى ٢ جمادى الآخرة، ولكن المسلمين تمكنوا من دخول الجزيرة وهزيمة الروم إلى أجفانهم، وحاصروا قصر الديماس ، فاضطر عسكر صقلية إلى طلب الأمان من الأمير الحسن ، ولكن العرب الذين اشتركوا معه فى تحرير الجزيرة رفضوا ذلك ، فخرج الصقليون من القصر فى منتصف جمادى الآخرة ، فأخذتهم السيوف ، وأبيدوا عن آخرهم (٢) . وأقلع الروم بمن فر من الجزيرة منهم فى السفن عائدين إلى صقلية .

أدرك رجار الثانى بعد هذه الهزيمة استحالة فتح المهدية فى ذلك الوقت ،

---

(١) المرجع السابق

(٢) نفس المرجع ص ٤٤٥ — ابن خلدون ج ٦ ص ٣٣١

فأرجأ ذلك إلى فرصة مواتية ، وأخذ يعد العدة لحملة أخرى . ولما أغار بنو حماد على المهدية سنة ٥٣٠ هـ ، وحاصرها يحيي بن العزيز بالله صاحب بجاية بقواته برا وبحرا ، « صالح الحسن رجار ووصل يده به ، واستمد منه أسطوله » (١) ، فأمده رجار بعشرين سفينة ، كما استنجد الحسن بأعراب بني هلال ، فقدموا لنجدته واضطر يحيي بن العزيز إلى رفع الحصار عن المهدية رغما عنه ، والعودة بجيشه إلى بجاية . ومنذ ذلك الحين بدأ ملك صقلية يتطلع إلى الاستيلاء على مدن إفريقية التي خرجت على طاعة الحسن ابن علي ، فقد سير رجار أسطوله في سنة ٥٣١ هـ إلى جزيرة جربة واستولى عليها (٢) ، وفي سنة ٥٣٦ هـ ، أغار جرجي الأنطاكي على مرسى المهدية في ٢٥ غرابا ، واستولى على ما كان راسيا به من سفن (٣) ، وفي العام التالي ، أغار أسطول صقلية على طرابلس ، ولكن النورمان لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها لحصانتها وشدة دفاع أهلها عنها . وفي سنة ٥٣٨ هاجم أسطول النورمان مدينة سفاقس واستولوا عليها ، وأصبحت سفاقس تابعة لملك صقلية ، وفي نفس هذه السنة استولى النورمان على بونة وجيجل ، وتمكنوا من الاستيلاء كذلك على برشك في العام التالي (٤) . ثم سار أسطولهم بعد ذلك إلى سواحل إفريقية وتمكنوا من الاستيلاء على جزيرة قرقنة سنة ٥٤٠ هـ ، وقتلوا رجالها ، وسبوا حريمها . فأرسل الحسن إلى رجار يذكره بالعهود القائمة بينهما ، ويعنفه على نقض هذه العهود ، فاعتذر

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٣٣١

(٢) ابن عذارى ج ١ ص ٤٥٠

(٣) نفس المرجع ص ٤٥١

(٤) ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٠

له رجار بأنه لم يهاجم إلا البلاد التى خرجت على طاعة الحسن ، وأنه مازال حافظا للعهود (١) .

ثم أعاد النورمان الكرة على طرابلس مرة ثانية فى سنة ٥٤١ وحاصروها بقيادة جرجى الأنطاكى . وأتفق أن دب الخلاف بين المدافعين عن المدينة، فاستغل النورمان ذلك واستولوا عليها (٢) . وفى سنة ٥٤٢ هـ ثار أهل قابس على يوسف مولى محمد بن رشيد بن كامل بن جامع ، فاستنجد يوسف برجار ، فقدم أسطول النورمان إلى مدينة قابس ، وفى الوقت نفسه تدخل الحسن بن على فى النزاع القائم بين الأهالى ويوسف ، لمصلحة الأهالى ، وانتهى الأمر بمقتل يوسف . فاتخذ رجار من مقتل حليفه ذريعة لنقض المدنة بينه وبين الحسن ، ومهاجمة المهدية ، وكان قد عقد مع الحسن صلحا لمدة سنتين ، ويذكر ابن الأثير أن رجار « علم أنه فاته فتح البلاد فى هذه الشدة التى أصابتهم ، وكانت الشدة دوام الغلاء فى جميع المغرب من سنة سبع وثلاثين إلى هذه السنة (٥٤٣) . وكان أشد ذلك منه سنة ٥٤٢ ، فان الناس فارقوا البلاد والقرى ، ودخل أكثرهم إلى مدينة صقلية ، وأكل الناس بعضهم بعضا ، وكثر الموت فى الناس ، فاغتنم رجار هذه السنة ، فعمر أسطوله ، وأكثر منه ، فبلغ نحو ٢٥٠ شينيا مملوءة رجالا وسلاحا وقوتا ، وسار الأسطول عن صقلية ، ووصل إلى جزيرة قوصرة ، وهى مابين المهدية وصقلية ، فصدفوا بها مركبا وصل من المهدية ، فأخذ أهله ، وأحضروا بين يدى جرجى مقدم الأسطول ، فسألهم عن حال إفريقية ،

---

(١) نفس المرجع ص ١١
(٢) نفس المرجع ص ١٢

ووجد فى المركب قفص حمام ، فسألهم : هل أرسلوا منها ، فحلفوا بالله أنهم لم يرسلوا شيئا ، فأمر الرجل الذى كان الحمام صحبته أن يكتب بخطه: إننا لما وصلنا جزيرة قوصرة ، وجدنا بها مراكب من صقلية ، فسألناهم عن الأسطول المخذول ، فذكروا أنه أقلع إلى جزائر القسطنطينية ، وأطلق الحمام ، فوصل إلى المهدية ، فسر الأمير الحسن والناس ، وأراد جرجى بذلك أن يصل بغتة » ، ووصل الأسطول النورمندى إلى المهدية فى أواخر سنة ٥٤٣ ، وخادع أهلها بأنه إنما جاء مدداً للأمير ، ودخل النورمان المهدية بدون مقاومة ، واحتل جرجى قصر الأمير فوجده كما هو بكل ما فيه من ذخائر ، فأمن الناس ، ثم أرسل من هناك أسطولا إلى سفاقس ، فاستولى عليها ، وأتبعها بسوسة ، وأصبحت بلاد الساحل كلها تابعة لملك صقلية (١) .

أما الأمير الحسن بن على فقد خرج من المهدية بحاشيته ، وتبعه أهل المدينة ، فاتجه إلى قلعة محرز بن زياد بقرطاجنة ، فلم يرحب به محرز صاحبها ، فعزم على الرحيل إلى مصر ، والإقامة فى كنف الحافظ عبد المجيد (٢). فترصد له جرجى الأنطاكى فى البحر ، فاضطر إلى الرحيل نحو قسنطينة ، وكان بها سبع بن العزيز أخى يحيى صاحب بجاية ، فأرسله إلى جزائر بنى مزغنة حيث أقام بها إلى أن فتح الموحدون الجزائر سنة ٥٤٧ هـ فأكرمه عبد المؤمن ، واشترك معه بعد ذلك فى منازلة المهدية ، فلما افتتحها فى ١٠ محرم سنة ٥٥٥ هـ ، أسكن بها الحسن (٣) .

---

(١) ابن الأثير ، جـ ٩ ص ١٨ — ٢٠

(٢) كان يحيى بن تميم قد دخل فى طاعة العبيديين ، ووصلته المخاطبات والهدايا (ابن خلدون جـ ٦ ص ٣٢٨) . وفى عهد ابنه على وصله رسول الخليفة الفاطمى من مصر بالمخاطبات والهدايا سنة ٥١١ هـ (ابن عذارى ، ص ٤٤٢ — ابن خلدون جـ ٦ ص ٣٢٩)

(٣) ابن خلدون جـ ٦ ص ٣٣٣

(٥)

انقراض دولة بنى حماد

رأينا من قبل كيف انقسمت دولة الصنهاجيين فى المغرب منذ عهد نصير الدولة باديس بن المنصور بن بلكين سنة ٤٠٥ هـ إلى شعبتين : شعبة من آل باديس وكان مقرهم المهدية ، وشعبة من آل حماد بن بلكين ، وكان مقرهم قلعة حماد ثم انتقلوا بعد ذلك إلى بجاية ، التى بنيت من جديد فى عهد الناصر ابن علناس بن حمادسنة ٤٥٧ هـ . وقد رأينا أن المنصور بلكين كان قدعقد لأخيه حماد على أشير والمسيلة ، وكان يتداول ولايتها مع أخيه يطوفت وعمه أبى البهار ، ثم استقل بها سنة ٣٨٧ هـ فى عهد باديس بن المنصور . وكان المنصور قد عهد إليه بمحاربة زناته سنة ٣٩٥ هـ ، بالمغرب الأوسط نظير ولاية أشير والمغرب الأوسط وكل بلد يفتحه ، وقد بذل حماد جهودا موفقة فى محاربة زناته ، واختطمدينة القاعة بجبل كتامة سنة ٣٩٨ هـ ، ونقل إليها جماعة من أهل المسيلة وأهل جراوة ، ومصر القلعة ، وشيد بنيانها وأسوارها ، فازدهرت فى عهده وأصبحت مركز الرحلة . وغاية طلاب العلم، وأرباب الصنائع (١) ، وظل حماد يفتتح الحصون والبلاد ويضمها إلى ولايته ، فافتتح تيجس وقسنطينة وغيرها ، فلما طالبه باديس بالتخلى عن هاتين المدينتين ، أبى وخالف دعوة باديس ، ونبذ طاعة الفاطميين كذلك. وزحف إلى باجة واستولى عليها ، فحاربه باديس فى سنة ٤٠٦ هـ ، وظل مقيما على محاربته إلى أن توفى . فلما تولى المعز بن باديس الإمارة ، تم الصلح بينه وبين حماد ، على أن يستقل هذا بالمغرب الأوسط .

---

(١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٥٠

ولما توفى حمادفى سنة ٤١٩ هـ ، خلفه ابنه القائد ، وكان القائد بن حماد سديد الرأى ، حسن السيرة ، فاستقام له أمر المغرب الأوسط ، وسار القائد على نهج أبيه حماد فى الخروج على طاعة الفاطميين . وتوفى القائد فى سنة ٤٤٦ هـ ، فخلفه ابنه محسن ، ولكن محسن لم ينعم بالإمارة أكثر من تسعة شهور ثم قتل بيد عمه بلكين بن محمد بن حماد ، وكان بلكين سفاكا للدماء ، فقتل وزير ابن أخيه محسن ، ثم قتل والى بسكرة لما أحس بخروجه عليه ، ثم قتل ناميرت بنت عمه علناس بن حماد . وقد حارب بلكين المرابطين ، واستولى على فاس سنة ٤٥٤ هـ ، ثم عاد إلى القلعة ، ولكنه قتل على يد الناصر بن علناس انتقاما منه لقتله أخته ناميرت [١] . وخلفه الناصر بن علناس الذى تنسب إليه مدينة الناصرية ، وهى بجاية ، وأقام الناصر بها قصرا رائعا خارج بجاية يعرف بقصر اللؤلؤة[٢] ، وانتقل إليها فى سنة ٤٦١ هـ . واتسع ملك الناصر بن علناس اتساعا كبيرا ، فبايعه أهل القيروان سنة ٤٦٠ . ولما توفى فى سنة ٤٨١ خلفه ابنه المنصور الذى عرف بولعه بالبناء ، فأسس جامع بجاية ، وجدد قصورها ، وتأنق فى اختطاط المباني ، وتشييد القصور ، وإجراء المياه فى الرياض والبساتين ، فبنى فى القلعة قصر الملك ، وقصر المنار ، وقصر الكوكب ، وقصر السلام وغيرها (٣) . وقد حارب المرابطين ، وحاصر تلمسان ، ثم تركها صلحا . وفى أيامه قدم عز الدولة بن صمادح إلى بجاية ، بعد أن دخل المرابطون المرية ، فأقطعه تدلس بالجزائر .

ولما توفى المنصور ، سنة ٤٩٨ هـ ، خلفه ابنه باديس ، الذى لم يطل به

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٥٣ — ابن الخطيب ص ٨٨

(٢) نفس المرجع ص ٣٥٧ — ابن الخطيب ص ٩٦

(٣) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٠٨

العهد في الإمارة ، إذ توفي في نفس السنة التي تولى فيها . وخلفه أخوه العزيز ، وفي عهد العزيز هاجم العرب الهلالية قلعة بني حماد ، فاكتسحوا عمرانها ، وعظم عيثهم بنواحيها ، ثم تولى بعده ابنه يحيى سنة ٥١٥ ﻫ ، وقد قضى يحيى حياته بين العبيد والملهين والمضحكين ، وفي عهده انقرضت دولة بني حماد ، إذ تمكنت جيوش عبد المؤمن بن علي من دخول بجاية في سنة ٥٤٧ ، واستولوا كذلك على قلعة بني حماد .

الباب الرابع

المغرب الاسلامى فى ظل دولتى المرابطين والموحدين

الفصل العاشر

قيام دولة المرابطين فى المغرب

(١) تأسيس دولة المرابطين

ا ـ أصل المرابطين

ب ـ رباط عبد الله بن ياسين

ج ـ انطلاق المرابطين إلى المغرب الأقصى

د ـ ظهور يوسف بن تاشفين

(٢) تأسيس مراكش وقيام دولة المرابطين

(٣) المرابطون فى الأندلس

ا ـ أحوال الأندلس عند قيام دولة المرابطين

ب ـ موقعة الزلاقة

ج ـ تغلب يوسف بن تاشفين على الأندلس

د ـ جهاد المرابطين فى الأندلس منذ دخولها فى فلك دولتهم فى المغرب

(٤) أسباب ضعف دولة المرابطين وانهيارها

(٥) منشآت المرابطين فى المغرب

ا ـ دور المرابطين السياسى والحضرى فى المغرب

ب ـ دراسة لأهم مساجد المرابطين فى المغرب

ج ـ جامع القرويين بفاس

د ـ آثار القلاع والأسوار

الفصل العاشر

قيام دولة المرابطين فى المغرب

(١)

تأسيس دولة المرابطين

١ ـ اصل المرابطين :

أخذ المغرب الإسلامى يعتمد على نفسه منذ أن أعلن المعز بن باديس الانفصال السياسى والمذهبى عن الدولة الفاطمية وبينما كانت إفريقية فى صراع متواصل مع عرب بنى هلال وبنى سليم من جهة ، والنورمان الغازين لسواحلها من جهة أخرى، كانت هناك قوة جديدة أخذت تنبثق فى أقصى جنوب المغرب الأقصى، فيما وراء جبال درن ، وما لبثت أن تولدت منها دولة المرابطين الكبرى التى شملت النصف الغربى من بلاد المغرب، وأنقذت الإسلام الذى كانت تتهدده المسيحية باسبانيا ، ودام عهدها نحو قرن من الزمان ، من منتصف القرن الخامس إلى منتصف القرن السادس الهجرى .

فنى الوقت الذى قدمت فيه حشود القبـــائل العربية من مصر تدمر فى طريقها عمران طرابلس وإفريقية ،وتقضى على معالم الحضارة فى هذه البلاد، خرجت قبيلة لمتونة الصنهاجية من جـوف الصحراء ، واستقرت فى المغرب الأقصى حيث أسست دولة كبرى هى دولة المرابطين .

وأصل المربطين من صنهاجة الجنوب الضاربة فى الصحراء . وقد أرغمت الظروف قبائلها : لمتونة وجدالة ومسوفة على التحالف فيما بينها ، وكانت لمتونة تتولى رئاسة سائر هذه القبائل ، ويعتقد الدكتور حسن محمود أن هذا

الحلف كان يرمى إلى مدافعة ملك غانة فى الجنوب ، والسيطرة على مسالك تجارة السودان إلى المغرب بالاستيلاء على مدينة أودغشت (١) الواقعة إلى الشمال الشرقى من تمبكتو شمالى نهر النيجر . وآلت رئاسة قبائل صنهاجة في أوائل القرن الخامس الهجرى إلى محمـد بن نيفات اللمطى ، وكان من أهل الفضل والدين والجهاد، واستشهد فى واقعة بين قومه وبين أهل السودان (٢). ولما توفى انتقلت الرئاسة إلى قبيلة جدالة التى كانت أقدر على محاربة السودان لأن ديارها كانت أقـرب إلى ديار السودان . فتولى أمر صنهاجة يحيي بن ابراهيم الجدالى ، وكان يحيي هـذا متعطشا إلى علوم الدين التى حرم منها هو وقومه فى هذه البقاع الصحراوية ، فأراد أن يسعى إلى طلب العلم والوقوف على أصول الدين الاسلامى فى مدارس القـيروان وفاس ، والاستزادة من العلوم الدينية ، فخرج من بلاده فى سنة ٤٢٧ هـ بعد أن استخلف عليها ولده يحيي (٣) ، للحج أولا ، ثم لارتياد المراكز الثقافية فى المغرب بحثـا عن فقيه يتولى توجيه قومه توجيها دينيا سليما . فلما عاد من الحج سنة ٤٢٨ هـ ، نزل بالقيروان ، وكانت القيروان فى هذه الفترة قد نبذت المذهب الشيعى، وعادت إلى السنية ، واسترجعت مكانتها القديمة كقاعدة للمالكية فى المغرب ، وأتيح ليحيي فى القـــيروان سماع عالم من أعظم أئمة المالكية وعلوم الدين ، هو الفقيه أبو عمران موسى بن الحاج الغفجومى الفاسى (٤) ، ويبدو أن يحيي بن

---

(١) حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ١٠١ — ١٠٣

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ص ٢٢٦ . وورد اسمه فى روض القرطاس محمد بن تيفاوت المعروف بتارشتا ، بينما ذكره ابن خلدون باسم أبى عبدالله بن تيفاوت المعروف بناشرت اللمتونى (ابن خلدون جـ ٦ ص ٣٧٣)

(٣) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ص ٧٦

(٤) ابن خلدون جـ ٦ ص ٣٧٤ — ابن الخطيب ، المرجع السابق ، ص ٢٢٦

ابراهيم تأثر بتعاليم أبي عمران ، واجتذبه سحر بلاغته وفصاحته وتفقهه فى الدين ، فطلب منه أن يبعث معه إلى قبيلته من يثق فيه من طلبته لهدايتهم وتبصيرهم ، فوجد منه قبولا واستجابة ، فوجه أبو عمران الدعوة لهذه المهمة الكبرى إلى طلبته ، ولكنهم زهدوا فى قبول هذه المهمة لبعد مواطن لمتونة عن بلادهم . وكان لأبي عمران فقيه بربرى من طلبته يكرس حياته لهذه الرسالة السامية ، هو وجاج بن زللو اللمطى [1] ، ويسميه ابن خلدون محمد وكاك ابن زلو اللمطى [2]، وكان مقيما برباط أقامه ببلدة نفيس من بلاد السوس [3]، وما إن تلقى وجاج رسالة أستاذه أبي عمران حتى انتدب ليحيى بن إبراهيم طالبا صنهاجى الاصل من جزولة ، من أهل الدين والفقه والتقوى ، يعرف باسم عبد الله بن ياسين الجزولى ، ولم يتردد ابن ياسين فى قبول هذه المهمة إذ اعتبرها من صميم رسالته فى الجهاد ونشر تعاليم الإسلام الصحيحة بين سكان هذه النواحى الذين حرموا من نعمة المعرفة والعلم .

ومضى يحيى بن إبراهيم ، أمير جدالة ، يصحبه عبد الله بن ياسين إلى مضارب لمتونة ، فأعجب به شيوخها ، واحتفلوا بقدومه ، وأقبلوا عليه للسماع والتحصيل ، وشرع عبدالله بن ياسين فى تثقيفهم وإرشادهم إلى الأصول الصحيحة للدين والفقه ، ولم تقف تعاليمه إلى هذا الحد ، بل عمد إلى تقويم أخلاقهم ، وتطبيق حدود الشريعة ، وتغيير المنكر ، ومقاومة شهوات النفس ،

---

(١) الحلل الموشية ، ص ٩

(٢) ابن خلدون جـ ٦ ص ٣٧٤

(٣) الحلل الموشية ، ص ٩ — ابن الخطيب ، ص ٢٢٧ ، ويذكر ابن خلدون أنه كان مقيما بسجلماسة

وعندئذ زهد الناس بهذه الأحكام والحدود ، وبرموا بدعوته الإصلاحية الأخلاقية التي تدعو إلى إزالة المنكرات واجتناب المحذورات (١) ، لما ألفوه من الإقبال على أعمال السلب والنهب . ومع تبرمهم وتذمرهم من هذه التعاليم ، فقد احتملوا وجوده رهبة من زعيمهم يحيى بن إبراهيم ، فلما توفى يحيى لم يستطع خليفته يحيى بن عمر أن يمنع صنهاجة من الاعتزال عن ابن ياسين ، وترك الاخذ عنه ، فعزم ابن ياسين على الرحيل .

ب ـ رباط عبد الله بن ياسين :

خرج عبد الله بن ياسين قاصدا بلاد السودان حيث يمكنه أن يؤدى رسالته بين أقوام أقل ضراوة من اللمتونيين الصناهجة (٢) . وأبى رئيس صنهاجة إلا أن يرافقه ، ورحل معها أبو بكر بن عمر ، شقيق يحيى بن عمر . فنبذوا عن الناس فى ربوة يحيط بها الماء من جهاتها ، فدخلوا فى غياضها منفردين برسم الانقطاع للعبادة (٣) . وذكر ابن الخطيب أنه صحبهم سبعة رجال من جدالة (٤) . ومن المرجح ان هذه الجزيرة التى قصدها ابن ياسين وأتباعه تقع فى السنغال الأدنى (٥)، وهناك أسس عبد بن الله ياسين رباطا ، والرباط من المرابطة ، أى ملازمة الثغور للجهاد حيث ترابط خيل المجاهدين ، من قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون

---

(١) ابن الخطيب ، ص ٢٢٧

(٢) Marçais, la Berberie musulmane, p. 239

(٣) ابن الخطيب ، ص ٢٢٧ ـ ابن خلدون ج ٦ ص ٣٧٤

(٤) نفس المرجع ص ٢٢٧

(٥) Marçais, la Berberie, p. 239

به عدو الله وعدوكم» . فالرباط فى الأصل هو المكان الذى تجتمع فيه الخيل استعدادا لمقاتلة العدو ، وترتبط الكلمة بواجبات الجهـاد ، وحينئذ يقصد بالرباط ارتباط الخيل إزاء العدو فى الثغور ، ومنها جاء تصريف مرابط ، أى الملازم لثغر العدو أخذا من قوله تعالى : « يا أيهـا الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » . والرباط هو بناء يجتمع فيه من تفرغ للعبـادة من الزهاد والصالحين استعدادا للجهـاد فى سبيل الله ضد أعداء الدين ، فهو بناء يجمع بين الصفتين الدينية والحربية ، ويسمى من يسكنه مرابطا (١) . وقد كان بناء الأربطة من أهم الأعمال التى يقوم بهـا الأمراء والخلفاء ، فالاسكندرية كانت تعتبر ثغرا من الثغور الإسلامية التى يجاهد فيها المسلمون ، ولذلك قسم عمرو بن العاص أجنـاده قسمين : قسم أبقاه معه فى الفسطاط ، وقسم وزعه إلى نصفين، نصف لرباط الاسكندرية وحدها ، والنصف الثانى لسائر السواحل . وكان عمر بن الخطاب يبعث كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط فى الاسكندرية (٢) . كذلك اهتم عثمان بن عفان برابطة الاسكندرية . وقد وصف ابن رسته رباطـات الاسكندرية فقال : « بالاسكندرية رباطات مع الساحل يضرب ماء البحر حيطانها تسمى المحارس » (٣) . كذلك كانت سواحل الشام مزودة بالمحـارس والأربطة المشحونة بالمقاتلة، وكان معاوية يوجه إلى هذه الأربطة جماعات كثيفة من

---

(١) Marçais, Ribat, dans l'Encyclopedie de l'Islam

(٢) السيوطى (جلال الدين) ، حسن المحاضرة فى اخبار مصر والقاهرة ، ج ١ ص ٧١ ، طبعة مصر ١٣٢٧ هـ

(٣) ابن رستة ، (أبو على أحمد بن عمر) : كتاب الأعلاق النفيسة ، الجزء السابع من المكتبة الجغرافية العربية ، ليدن ١٨٨١ ص ١١٨

الجند يشحنها بهم للدفاع عنها إذا ما أغار عليها الروم من جهة البحر (١) . ولقد اهتم العباسيون ببناء الاربطة على سواحل المغرب، اهتماما كبيرا ، وقد أشرنا إلى ذلك عند حديثنا عن منشآت الاغالبة .

تسامع بعبد الله بن ياسين كثير من الصالحين والراغبين فى تحصيل العلوم الدينية ، فتسايلوا إليه ، وأخذوا عنه ، ولم يمض زمن طويل حتى كان رباط ابن ياسين يضم نحو ألف رجل . وقد أخلص له هؤلاء الرجال وأطاعوه طاعة عمياء ، وعرفوا بالمرابطين . نسبة إلى رباط ابن ياسين ، الذى تلقوا فيه تكوينهم الروحى والحربي ، وحولهم من رعاة جمال إلى طبقة من المجاهدين (٢) ، فهم أهل الرباط الذين آلوا على أنفسهم منذ انضمامهم إلى ابن ياسين التفانى فى سبيل النهى عن المنكر ، وقيل أنهم سموا بالمرابطين لشدة صبرهم وحسن بلائهم (٣) . وعرفوا أيضا بالملثمين ، لاتخاذهم لثاما داكن اللون يغطى الجزء الأدنى من وجوههم على نحو ما يفعله الطوارق اليوم ، كما عرفوا باللمتونيين ، نسبة إلى قبيلة لمتونة التى كانت تتولى الرئاسة على سائر قبائل صنهاجة الضاربة فيما وراء الرمال الصحراوية جنوبي جبال درن .

وكان ابن ياسين يفرض على من يخالف تعاليمه عقوبات رادعة، ولذلك فإن تعاليم المرابطين تشبه إلى حد كبير تعاليم الخوارج الاباضية . وقد استطاع

---

(١) السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام : تاريخها وآثارها فى العصر الاسلامى ، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية عدد ١٦ ، ١٩٦٢ — ١٩٦٣ ص ٤٩

(٢) Marçais, la Berberie, p. 232

(٣) الحلل الموشية ، ص ١٠

عبد الله بن ياسين ، فى أمد وجيز ، أن يؤلف جيشا محاربا جعل على قيادته صاحبه يحيى بن عمر ، وكان يحيى هذا مخلصا لدعوة ابن ياسين ، متفانيا فى الطاعة له ، وهكذا كون ابن ياسين جيشا قويا ، وعندئذ شرع فى نشر تعاليمه بين قبائل صنهاجة .

ج ـ انطلاق المرابطين الى المغرب الاقصى :

لما اكتمل عدد أتباع ابن ياسين ألفا ، جمعهم وقال : إن ألفا لن تغلب من قلة ، وقد تعين علينا القيام بالحق والدعاء إليه ، وحمل الكافة عليه ، فاخرجوا بنا لذلك » (١) . وكان ابن ياسين يأمر أتباعه بجهاد من خالفهم من قبائل صنهاجة على أن يبثوا الإعذار والإنذار سبعة أيام ، فلما يئس من إجابتهم ، شرع فى الغزو ، وبدأ بجدالة فأوقع فيهم واقعة قتل فيها منهم نحو ستة آلاف رجل وأسلم باقيهم إسلاما حسنا (٢) . وسرعان ما خضعت لمتونة ومسوفة وجدالة ولمطة وغيرها من قبائل صنهاجة الضاربة فى الشمال حتى نهر درعة ، وأذعنت صنهاجة لطاعته ، واستقاموا على الاسلام الصحيح ، فسماهم بالمرابطين .

وبلغ عبد الله بن ياسين عن طريق الفقيه وجاج اللمطى ، ما نال المسلمين من العسف والجور على أيدى بنى وانودين المغراويين ، أمراء سجلماسة ، وقد حرضهم وجاج على تغيير أمورهم (٣) . فخرج المرابطون من الصحراء فى سنة ٤٤٥ فى أعداد ضخمة ، واتجهوا إلى درعة ، فاصطدموا بجيش مسعود ابن وانودين أمير مغراوة ، وصاحب سجلماسة ودرعة ، فانهزم هزيمة نكراء

(١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٧٥

(٢) ابن الخطيب ، ص ٢٢٨

(٣) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٧٥

وقتل فى المعركة ، ودخل المرابطون مدينة سجلماسة ، واصلحوا من أحوالها وغيروا المنكرات ، وأسقطوا المغارم والمكوس ، وبعثوا عمالهم على الصدقات .

ثم تدفق المرابطون فى موجات كاسحة إلى الواحات المغربية الواقعة بين نهر درعة الأوسط وتافيلالت، إلا أن زناته ، لم تحتمل غزو الصناهجة ، فثارت تافيلالت ، وخرجت سجلماسة على المرابطين ، فأعلن عبد الله بن ياسين الجهاد ، وسار إلى قتال زناتة ، ولكن قائده يحيى بن عمر قتل فى إحدى المعارك سنة ٤٤٧ هـ ، فخلفه على القيادة أخوه أبو بكر بن عمر ، ثم تدعمت جيوش المرابطين بانضمام جزولة ولمطة ، وقاتل المرابطون الشيعة الرافضة فى تارودانت ، وتمكنوا من افتتاحها وافتتاح ماسة ، وبذلك استولوا على السوس بأسره سنة ٤٤٨ هـ . وبعث أبو بكر ابن عمه يوسف بن تاشفين إلى واحات درعة فنجح فى استردادها فيما بين عامى ٤٤٨ هـ ، ٤٤٩ هـ ، وتوغل المرابطون فى هذا العام فى الحوز ، واجتازوا أطلس الغربى ، واحتلوا بلاد جدميوة ، وأمتدت فتوحهم حتى وادى تنسيفت من بلاد رجراجة .

ثم ولى المرابطون وجوههم شطر المغرب الجنوبى الشرقى ، فدخلوا مدينة أغمات وما يليها سنة ٤٤٩ هـ ، وفر أميرها لقوط بن يوسف بن على المغراوى إلى تادلا ، وتدفقت جيوشهم على بلاد المصامدة بجبال درن ، فجاسوا خلالها ، ثم غزوا تادلا ، واشتبكوا مع بنى يفرن أصحابها فى سنة ٤٥٠ هـ ، وقتل فى هذه المعارك لقوط بن يوسف صاحب أغمات .

ثم دعا المرابطون إلى جهاد برغواطة بتامسنا وأنفا والريف الغربى ، واستشهد عبد الله بن ياسين فى إحدى المعارك بالقرب من وادى كريفلة سنة

٤٥٠هـ . وذكر ابن الخطيب أن ابن ياسين أصيب في هذه المعركة بجرح مميت، فلما أحس بدنو أجله جمع أشياخ صنهاجة وقال : « يامعشر المرابطين ، أنا ميت في يومي هذا ، وأنتم في بلاد أعدائكم ، فإياكم أن تجبنوا وتفشلوا وتذهب ريحكم ، كونوا ألفة على الحق ، وإخوانا في الله ، وإياكم والمخالفة والتحاسد على الدنيا ، وإني ذاهب عنكم ، فانظروا من ترضونه لأمركم ، يقود جيوشكم ، ويغزو أعداءكم ، ويقسم فيكم زكاتكم ، وأعشاركم»[(1)] . ولما توفي ابن ياسين تولى زعامة المرابطين الروحية بعده فقيه اسمه سليمان بن عدو ، ولكنه توفي بدوره في عام ٤٥١ ، ولم يخلفه رئيس آخـــر ، وإنما توارث سلطته فقهاء المالكية الذين واصلوا تعاليم ابن ياسين ، وكانوا يوجهون الأمراء ويحركونهم، وخاصة في عهد الأمير علي بن يوسف .

ويبدو أن المرابطين أخذوا يخففون من غلوهم في حركة الإصلاح التي قاموا بها ، وتحولت هذه الحركة الدينية تدريجيا إلى حركة سياسية ، كان الغرض منها السيطرة على المغرب .

ثم نازل أبو بكر بن عمر مدينة لواتة وافتتحها سنة ٤٥٢ هـ ، وقتل من كان بها من الـ... يين، غير أن هذه الفتوحات لم يكتب لها الاستمرار ، فقد حدث في هذه السنة شقاق بين لمتونة ومسوفة ببلاد الصحراء ، «حيث أصل أعياصهم ، ووشائج أعراقهم ، ومنبع عددهم »[(2)] ، فخشي أبو بـكر أن تفترق كلمتهم وتتشتت جموعهم ، وتتصدع صفوفهم ، ورأى ضرورة السفر إلى الصحراء ليصلح بين القبيلتين ، ويرأب الصدع ، وعهد إلى ابن عمه يوسف بن تاشفين بقيادة جيوش المرابطين في المغرب ، وفوض إليـه قتـال زناتة ، ثم مضى إلى الصحراء .

---

(١) ابن الخطيب ، ص ٢٣٠

(٢) ابن خلدون ، جـ ٦ ص ٣٧٧

د ـ ظهور يوسف بن تاشفين :

اتفق فى هذا الوقت أن قام بلكين بن محمد بن حماد بغزو المغرب الأقصى، وافتتح فاس سنة ٤٥٤ هـ (١)، ثم أخذ بعض رهائن من أهلها، وعاد بهم إلى قلعته، وكان الفتوح بن دوناس بن حمامة قد تنازل عن فاس إلى ابن عمه معنصر بن المعـز بن زيرى بن عطية، فبايعته قبائل مغراوة بفـاس وأحوازها فى رمضان سنة ٤٥٥ . ولما قفل الأمير أبو بكـر بن عمر إلى الصحراء، أقام يوسف بن تاشفين بأطراف المغرب، فى سنة ٤٥٤، وعمد إلى تأسيس عاصمة للمرابطين بدلا من أغمات، لتكون مركزا لقواته فى جنوب المغرب، واختار موقعها على ضفاف نهر تنسيفت، بين مدينتى أغمات ونفيس، حتى يتهيأ لهـا مراقبة المصامدة، ثم تحرك يوسف فى سنة ٤٥٥ هـ ليستأنف فتوحاته بعد أن استعرض قواته، « فكانوا أربعين ألفا، عقدهم على أربعة من القواد وهم محمد بن تميم الجدالى، وعمر بن سليمان المسوفى، ومزدالى التلكاتى، وسير بن أبى بكر اللمتونى » (٢)، ثم زحف إلى أحواز فاس، وأبدى أميرها معنصر شجاعة عظيمة فى مقاومة المرابطين، فصابرهم وانتصر عليهم فى إحدى المواقـع، ولكن يوسف تمكن من دخول فاس صلحا فى سنة ٤٥٥ هـ بعد أن فر عنها معنصر، وخلف يوسف عليها عامله، ثم مضى لمحاربة غمارة، وفتح كثيراً من حصونها وقلاعهـا، فانتهز معنصر فرصة قيامه بمحاصرة قلاع بلاد فازاز (٣)، ودخل مدينة فاس، وقتل عامل

---

(١) ابن الخطيب، ص ٨٨

(٢) ابن الخطيب، ص ٢٣٤

(٣) ابن خلدون جـ ٦ ص ٣٧٩

يوسف عليها ومن كان بها من المرابطين ، ولما بلغ يوسف ذلك سير المهدى ابن يوسف الجزناءى أمير مكناسة ، وكان قد بايع يوسف بن تاشفين بالإمارة ، إلى فاس ، فهاجمه معنصر وقتله سنة ٤٥٦ هـ، وكان يوسف وقتئذ مشغولا بمحاصرة قلعة مهدى من بلاد فازاز ، فوجه بعض قواته لمحاصرة فاس ، أما هو فقد مضى يفتتح الحصون والمعاقل ، فنازل بلاد بنى مراسن ونزلاوة وورغة سنة ٤٥٨ هـ ، ثم مضى إلى بلاد غمارة سنة ٤٦٠ هـ ، وكانت قواته المحاصرة لفاس قد قطعت عنها المرافق حتى اشتد الأمر على أهلها ، وقتل معنصر أثناء إحدى الاشتباكات سنة ٤٦٠ هـ ، فخلفه ابنه تميم . ولما فرغ يوسف من أمر غمارة سنة ٤٦٢ هـ ، زحف إلى فاس ، وحاصرها أياما ثم افتتحها الفتح الثانى سنة ٤٦٢ (١) ، ودخلها بالسيف ، وقتل من أهلها سبعة آلاف نسمة من جملة سكانها وعددهم ٤٣ ألفا (٢)، وقيل أنه قتل ثلاثة آلاف من أهلها (٣) .

وفى هذه الأثناء كان أبو بكر بن عمر قد وطد الأمن فى الصحراء ، وأزال الخلاف القائم بين قومه . ثم عاد إلى المغرب الأقصى لاستئناف فتوحاته. ولكنه وجد يوسف قد استبد عليه. ويذكر ابن الخطيب أن يوسف لما قابل أبا بكر بن عمر ، « تلقاه راكبا لم ينزل له وعامله معاملة مختصرة ،

---

(١) نفس المرجع ، ص ٣٨٠ . وذكر صاحب الحلل الموشية انه افتتحها فى سنة ٤٦٧ هـ (الحلل ص ١٦) ، بينما يذكر ابن ابى زرع أنه فتحها فى سنة ٤٦٢ (الروض القرطاس، ص ٩١)

(٢) ابن الخطيب، ص ٢٣٦

(٣) القلقشندى ، جـ ٥، ص ١٨٨ — السلاوى ،الاستقصا جـ ٢ ص ٢٢٥

واستظهر من جيوشه بما هاله عدده ، وقال له ماتصنع بهذه الجيوش يا يوسف؟ فقال : أستعين بها على من خالفنى . ونظر إلى بعير موقورة خلفه ، فقال : وما هذه الإبل ؟ فقال : جئتك بها بكل ماعندى من مال وكساء وطعام لتستعين به على الصحراء . فعرف قصده فى استمساكه بالأمر ، وتورع عن هياجه ، وقعد معه على الأرض ، وقال له : يايوسف ، اتق الله فى المسلمين ، ولا تضيع شيئا من أمورهم ، فانك مسؤول عنهم ، والله خليفتى عليك وعليهم » (١). ثم مضى إلى الصحراء فى سنة ٤٦٥ هـ (٢) حيث استشهد فى إحدى معاركه ببلاد السودان (٣) .

ولما دخل يوسف مدينة فاس حصنها وأتقنها ، وأمر بهدم الأسوار التى كانت تفصل بين المدينتين ، وردها مصرا واحدا ، وأدار عليها الأسوار ، وأمر ببناء المساجد فى أحوازها وأزقتها وشوارعها ، فاذا اكتشف زقاقا لايقوم فيه مسجد عاقب أهله . وبنى بفاس الحمامات ، والفنادق ، والأرحاء ، وأصلح أسواقها (٤) .

---

(١) ابن الخطيب ، ص ٢٣٣
(٢) الحلل الموشية ، ص ١١
(٣) ابن الخطيب ، ص ٢٣٣
(٤) روض القرطاس ، ص ٩١ — ابن خلدون ج ٦ ص ٣٨٠

(٢)

تأسيس مراكش وقيام دولة المرابطين

يذكر صاحب الحلل الموشية أن الأمير أبا بكر بن عمر اللمتونى شرع فى بناء مراكش فى سنة ٤٠٢ هـ، وكان موضعها خلاء لا أنيس به إلا الغزلان والنعام، ولاينبت إلا السدر والحنظل، ويذكر أيضا أن الناس أقاموا دورهم فيها دون أن يحيطوا المدينة بسور. ويضيف صاحب الحلل إلى ماسبق أن يوسف بن تاشفين أقام بها فى سنة ٤٦٣ هـ الحصن المعروف بحصن قصر الحجر برحبة مراكش، وجعله بأدنى السور وحصنه (١).

ويكاد يجمع المؤرخون على أن يوسف بن تاشفين اختط مدينة مراكش فى سنة ٤٥٤ هـ ٢، ولكن ابن عذارى يشير إلى أن أبا بكر بن عمر اللمتونى هو الذى شرع فى بنائها فى سنة ٤٦١ هـ (٣). ويذكر صاحب الاستبصار أن يوسف بن تاشفين أسسها فى سنة ٤٥٩ هـ (٤)، فى حين يذكر ياقوت أن يوسف بن تاشفين خططها فى حدود سنة ٤٧٠ هـ (٥). ومن هذه التواريخ المتعددة نستبعد تاريخ سنة ٤٠٢ الذى حدده صاحب الحلل للشروع فى بناء مراكش، لأنه تاريخ يسبق مبايعة المرابطين لأبي بكر بن عمر بالإمارة عليهم

---

(١) الحلل الموشية، ص ٦، ١٣

(٢) ابن الخطيب، ص ٢٣٤ — ابن خلدون، ج٦ ص ٣٧٨ — روض القرطاس ص ٨٩

(٣) ابن عذارى، ص ٤٣٠ — ارجع ايضا الى : أحمد مختار العبادى، دراسة حول كتاب الحلل الموشية، تطوان، ١٩٦٠

(٤) الاستبصار ص ٢٠٨

(٥) ياقوت، معجم البلدان، مادة مراكش مجلد ٥، ص ٩٤

بنحو ٤٥ عاما . وتاريخ سنة ٤٦١ ﻫ الذى حـدده ابن عذارى للشروع فى بناء مراكش تاريخ غير معقول لأن يوسف بن تاشفين لم يشرع فى فتح فاس وقلاع فازاز إلا بعد أن أسس قاعدة له فى الجنوب للسيطرة على جبل درن الذى يسكنه المصامدة (١) . كما نستبعد أيضا تاريخ سنة ٤٧٠ ﻫ الذى حدده ياقوت لتخطيط المدينة فهو متأخر كثيرا . ويبقى لنا تاريخان هما سنتا ٤٥٤ و٤٥٩ . أما سنة ٤٥٩ فهو التاريخ الذى حدده صاحب الاستبصار لتأسيس المدينة ، وينفرد به دون غـيره ، وأما سنة ٤٥٤ ﻫ فهى سنة أجمع عليها عدد من المؤرخـين للشروع فى تأسيس مراكش . ونعتقد أن مراكش أسست على يدى يوسف بن تاشفين فى سنة ٤٥٤ أى فى الفترة التى غادر فيهـا الأمير أبو بكر بن عمر أرض المغـرب إلى الصحراء ، ولا شك فى أن يوسف بن تاشفين هو الذى تولى بناءها ، لأن أبا بكر كان مشغولا فى هـــذا التاريخ بازالة الخلافات القائمة بين قبائل صنهاجة ، ولما عاد بعد أن فضها تماما تخلى ليوسف عن الإمارة ، ونعتقـد أن بناء المدينة استغرق خمس سنوات ، وأنه تم فى حدود سنة ٤٥٩ التى ذكرها صاحب الاستبصار .

ويذكر ابن أبى زرع أنه اشترى موضع مدينة مدينة مراكش من جماعة من المصامدة ، فسكن الموضع بخيـام من الشعر ، وأسس مسجدا للصلاة ، وقصبة صغيرة لخزن أمواله وسلاحه ، لعلها القصر المعروف بقصر الحجر (٢) . وعندما شرع فى بناء المسجد كان يحتزم ويعمـل فى الطين والبناء بنفسه مع الخدم والفعلة تواضعا منه وتورعا ، ولم يؤسس يوسف بن تاشفين حـول

---

(١) الاستبصار ، ص ٢٠٩ — ابن خلدون ج ٦ ص ٣٧٨

(٢) الحلل الموشية ، ص ١١

المدينة سورا ، ويحدد ابن أبى زرع الموضع الذى كانت تشغله مراكش فى عهد يوسف من مدينة مراكش التى كانت على أيامه بالموضع المعروف فى عصره بسور الخير ، إلى الشمال من جامع الكتبيين (١) .

وكانت مراكش فى أرض صحراوية منخفضة ، فحفر لها يوسف الآبار، وجلب إليها المياه(٢) ، ولم يكن يحيط بمراكش من الجبال سوى جبل صغير كانت تقطع منه الأحجار التى بنى على بن يوسف بها قصره ، أما عامة بناء مراكش فكان من الطوب واللبن (٣) .

وسور مدينة مراكش من بناء الأمير على بن يوسف ، بناه فى ثمانية أشهر فى سنة ٥٢٦ هـ (٤) ، وقيل فى سنة ٥١٤ هـ (٥) ، وكان لهذا السور عدة أبواب منها أبواب أغمات ودكالة والدباغين وبينتان والصالحة والشريعة والمخزن . وظلت مدينة مراكش معسكرا حربيا ، وقاعدة عسكرية لقوات المرابطين إلى أن حاصرتها قوات الموحدين بقيادة عبد المؤمن بن على فى المحرم سنة ٥٤١ هـ ، فنزل بجبل بغربها يسميه صاحب الحلل بجبل الجبليين(٦)، وصحة الاسم جبل ايكليز (٧) وفقا لما ذكره البيذق أو جبل الجليز على حد

(١) روض القرطاس ، ص ٨٩

(٢) نفس المرجع ص ٨٩

(٣) نفس المرجع

(٤) نفس المرجع

(٥) الاستبصار ص ٢٠٩ — ابن خلدون ج ٦ ص ٣٧٨

(٦) الحلل الموشية ، ص ١٠٢ — Lévei - Provençal, Extraits, p. 40

(٧) أبو بكر الصنهاجى المكنى بالبيذق ، كتاب أخبار المهدى بن تومرت وابتداء دولة الموحدين ، نشره ليفى بروفنسال ، باريس ١٩٢٨ ، ص ١٠٢

ما ذكره صاحب الحلل الموشية فى موضع آخر (١). وهناك ضرب عبدالمؤمن القبة الحمراء ، ويذكر صاحب الحلل أن عبد المؤمن أقام على هذا الجبل مدينة استند إليها ، وبنى فيها مسجداوصومعة طويلة يشرف منها على مراكش (٢)، ثم زحف الموحدون بجموعهم إلى مراكش ، ووضع عبدالمؤمن الكائن عند مدينته ، فخرج جيش المرابطين لملاقاة الموحدين،فتظاهر هؤلاء بالهزيمة، ثم خرجت الكمائن على فرسان المرابطين وسحقتهم سحقا، وقتل منهم مالا يحصى عدده، وأتبع الموحدون فل المرابطين بالسيف إلى الأبواب، وأحكموا عليهم الحصار. غير أن البيذق الذى حضر دخول الموحدين مراكش يذكر أن القتال بين المرابطين والموحدين استمر أربعة أيام ، كان يخرج فيها من المرابطين الأمير اسحق بن بينتان (٣) ، ومحمد بن حواء ، ومحمد بن يانكالا ، وفى اليوم الخامس تمكن الموحدون من هزيمتهم ، وأتبعوهم بالسيوف حتى باب الشريعة وهناك قتلوا منهم عددا هائلا (٤) .

وطال الحصار على أهل مراكش ، « واشتد الجهد بهم ، ولكثرة خيلهم ورجلهم نفذ طعامهم ، وفنيت مخازنهم ، حتى أكلوا دوابهم ، ومات منهم بالجوع ما ينيف على مائة وعشرين ألفا » (٥) . ويذكر ابن خلدون أن الحصار استمر سبعة أشهر ، فلما طال على أهل المدينة ، وجهدهم الجوع ،

---

(١) الحلل الموشية ، ص ١٠٢

(٢) نفس المرجع

(٣) هو الأمير اسحق بن على بن يوسف ، بويع له بالامارة وهو صبى ، بعد أن خلع شيوخ المرابطين ابن أخيه ابراهيم بن تاشفين (ابن خلدون ج ٦ ص ٢٨٩)

(٤) البيذق ، ص ١٠٣

(٥) الحلل الموشية ص ١٠٢ ، وواضح أن صاحب الحلل قد بالغ في احصائه لعدد القتلى

برزوا إلى مدافعة الموحدين ، فانهزموا وتتبعهم الموحدون بالقتل ، وفى ١٨ شوال سنة ٥٤١ هـ ، اتصل الروم ، الذين كانوا يؤلفون فرقة من جيش المرابطين ، بعبد المؤمن ، واستأمنوه ، فأمنهم ، واتفقوا معه على أن يدخلوه مراكش من الباب المعروف بباب أغمات (١) ، فأمر عبدالمؤمن بعمل السلالم للأسوار ، فلما تمت وزعها على القبـــائل المحاصرة للمدينة ، وبفضل هذه السلالم تمكن جنود الموحـدين من تسنم الأسوار ، فدخلت هنتاتة وأهل تينمال من جهة باب دكالة ، ودخلت صنهاجة وعبيدالمخــــزن من جهة باب الدباغين ، ودخلت هسكورة مع القبـائل من جهـة باب يينتان ، فافتتحت مراكش ، ودخلهـا الموحدون بالسيف ، ودار القتال فى المدينـة ، وامتنع الأمير اسحق بن على وجمـلة قادته بداخل القصبة المعروفة بقصر الحجر وكان قصرا حصينا . ودار القتال حـول القصر حتى الزوال ، ولم يتمكن الموحدون من دخوله إلا بعـد أن ماتت فانو بنت عمر بن يينتان ، وكانت تقاتل فى زى الرجال ، واستسلم الأمير وجملة من الأمراء ، فنقلهم الموحدون إلى جبل الجليز حيث قتلهم أبو الحسن بن واكاك (٢) .

وبقيت مراكش بعد أن دخلها الموحدون لا يدخلها داخـل ولايخرج منها خارج ثلاثة أيام ، فقد أبي الموحدون دخولها لأن المهدى كان يقول لهم لاتدخلوها حتى تطهروها ، فسأل الموحدون فقهاءهم عن ذلك ، فأخبروهم بأن محاريب مساجـدها تميل إلى الشرق ، وهى فى ذلك تنحرف عن القبـلة الصحيحة ، والتشريق والتحريف غير جائز فى الإسلام ، ولابد من تطهير هذه المساجد بهدمها وبناء مساجد أخرى، فهدمت جوا مع مراكش لذلك السبب،

(١) المرجع السابق

(٢) البيذق ، ص ١٠٣ ـ الحلل الموشية ص ١٠٢ ـ ابن خلدون ج ٦ ص ٤٧٩

ومن بينها المسجد الجامع الذى بناه على بن يوسف فى أدنى المدينة ، بدار الحجر ، فهدم بعضه (١) وأقيم الجامع المعروف بالكتبية. ونزل عبد المؤمن مراكش ، واتخذها عاصمة لدولته ، وأقام فيها الدور ، واتخذ القصور (٢) ، وجلب إليها المياه من جهة أغمات لسقاية البساتين التى اتخذها فيها (٣) ، « وأخذ فى البناء والغراسة وترتيب القصور» (٤). وقد اهتم خلفاء عبد المؤمن بمدينة مراكش اهتماما خاصا ، فأقاموا بها المنشآت العظيمة ، وأمهروها بمختلف أنواع المبانى ، ونخص من هؤلاء بالذكر المنصور الموحدى الذى كان مولعا بفن البناء ، فبنى بمراكش بعد انتصاره فى الأرك بيمارستانا من أعظم ما أقيم فى العالم الاسلامى سمى بدار الفرج (٥) ، وكان يقع إلى الشرق من المسجد الجامع المعروف بالكتبية ، وكان قد تخير لبنائه ساحة فسيحة من أجمل مواضع مراكش ، وأمر البنائين باتقان بنائه ، فزينوه بالنقوش البديعة والزخارف الرائعة ، وأمر الخليفة بأن يغرس فيه من جميع أشجار الفاكهة ، وأجرى فيه مياها كانت تصل إلى جميع غرفه[٦] ، كما أقام به أربع برك فى

---

(١) البيذق ص ١٠٥

(٢) المراكشى ، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، ص ٢٠٧

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة مراكش ، مجلد ٥ ، ص ٩٤

(٤) المراكشى ، ص ٢٢٧

(٥) الاستبصار ، ص ٢١٠

(٦) أدرك البناة والمهندسون المسلمون ما للبرك والبحيرات الصناعية من أهمية فى بعث الراحة وبث الهدوء فى النفس ، ولذلك اتجهوا الى مزج الطبيعة بالعمارة ، وذكر المقريزى أن بناة بيمارستان قلاوون بالقاهرة فطنوا الى أهمية البرك والمسقيات فى علاج المرضى ، فتولى الأمير علم الدين سنجر الشجاعى أمر عمارته ، فأقام بيمارستانا يتألف من أربعة ايوانات بكل ايوان شاذروان ، وبدور قاعتها مسقية يجرى اليها الماء من الشاذروانات ، =

وسط صحنه إحداها من الرخام الأبيض ، وأمر له من الفرش النفيسة من أنواع الصوف ، والكتان، والحرير ، والأديم،وغيره بما يزيد على الوصف، ويأتي فوق النعت ، وأجرى له ثلاثين دينارا فى كل يـــوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة ، خارجا عما جلب إليه من الأدوية ، وأقام فيه من الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال وأعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهـــاز الصيف والشتاء ، فاذا نقه المريض ، فان كان فقيرا ، أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل ، وإن كان غنيا دفع إليه ما له ، وترك وسببه ، ولم يقصره على الفقـراء دون الأغنياء ، بل كل من مرض بمراكش من غريب حمل إليه وعولج إلى أن يستريح أو يموت، وكان فى كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخله ، ويعود المرضى ويسأل عن أهل بيت ، أهل بيت » (١) .

كذلك اهتم المنصور ببناء قصبة مراكش ، وجامعها إزاءها ، وصومعته، كما اهتم باتمام بناء منار جامع الكتبيين المشهور ، وذلك بعـــد انتصاره فى الأرك (٢) . ولقد ازدهرت مراكش فى عصر الموحدين ازدهارا لم تشهده من قبـل فى عصر المرابطين ، فاتسع عمرانها ، وزادت مرافقهـا ، وعمرت بمختلف أنواع الأبنية والمنشآت التى تهمم خلفاء الموحدين باقامتها ، وقد

= كما أجرى الماء فى جميع قاعات البيمارستان (انظر المقريزى: الخطط ، ج ٢ ص ٣٢١ — ٢٢٣ ، طبعة بيروت ١٩٥٩ وانظر أيضا أثر مزج المنظر الطبيعى بالعمارة فى محاضرتى : القيم الجمالية فى فن العمارة الاسلامية ، بيروت ١٩٦٢ ص ٢١)

(١) المراكشى ، ص ٢٨٧

(٢) روض القرطاس ، ص ١٥١

وصفها ابن سعيد المغربى فى هـذا العصر بقوله : « وهى ممـــا سكنت بها وعرفتها ظاهرا وباطنا ، ولا أرى عبارة تفى بما تحتوى عليـه ، ويكفى أن كل قصر من قصورهـا مستقل بالديار والبساتين والحمـام والاصطبلات والمياه وغير ذلك ، حتى إن الرئيس منهم يغلق بابه على جميع خوله وأقاربه ومايحتاج إليه ؛ ولا يخرج من بابه إلى خارج داره كحاجــــة يحتاجها ، ولايشترى شيئا من السوق لأكل ، ولا يقرىء أولاده فى مكتب وبظاهرها مدينة اختطهـا المنصور يعقوب [1] ولخواصه بتا مراكش ، وبهـا قصر الخلافة الذى بناه ، به دور عظيمة ، وبها بستان يعرف بالبحـيرة طوله ١٢ ميلا ، به بركة عظيمة لم يعمـل مثلها ، وبمراكش جامع جليــــل يعرف بالكتبيين طوله مائة وعشرة أذرع ، وعــــلى بابه ساعات مرتفعة فى الهواء خمسين ذراعا كان يرمى فيها عند انقضاء كل ساعة صنجة زنتها مائة درهم ، تتحرك لنزولها أجراس تسمع على بعد تسمى عندهم بالبجانة » [2] .

ويصفها صاحب الاستبصار فى أواخر القرن السادس الهجرى بقوله : « ومدينة مراكش اليوم من أعظم مدن الدنيا بهجـة وجمالا بما زاد فيهـا الخليفة الإمام ، وخليفته أمير المؤمنين أبو يعقوب ، وخليفتها أبو يوسف ، رضى الله عنهم ، فان الخليفة الإمام بنى فيها جامعا عظيما ، ثم زاد فيه مثله أو أكثر فى قبلته ، كان قصرا [3] ، ورفع بينهما المنار العظيم الذى لم يشيد فى الإسلام مثله ، وأكمله ابنه وخليفته أبو يعقوب رضه . وجلب الخليفة الإمام

---

(١) يقصد القصبة التى بناها المنصور

(٢) القلقشندى ، ج ٥ ص ١٦٢

(٣) يقصد بذلك أن الجامع أنيم على أنقاض قصر الحجر المرابطى

المياه من أودية درن ، وغرس بحيرة عظيمة بغربي المدينة قبـــل نفيس ، دورها ستة أميال ، وبنى فيها وخارجها صهريجين عظيمين ، كنا فى تلك المدة نعوم فيهما ، فلايكاد القوى منا يقطع الصهريج إلا عن شقة ، وكنا نتفاخر بذلك . وأحدث الخليفة بعده ابنه أبو يعقوب ، رضه ، بحائر مثلها فى الغرس بل أجمل ، وجلب لها المياه ، وأخـــذها فى صهاريج أعظم من المتقدمة ، وزاد فى قبلة المدينة حصنا أنفـذه الآن ابنه الإمام الخليفـة أبو يوسف ، رضه ، وزاد عليه مدينة أخرى تقارب الاولى فى دورها ، وكانت بحائر عظيمة ، فبناها قصورا وجامعا وأسواقا وفنادق ، وجلب التجار إلى قيسارية عظيمة لم يبن فى مدن الأرض أعظم منها ، و أمر بعمارتها أول سنة ٥٨٥ هـ . ومدينة مراكش أكثر بلاد المغرب جنـــات وبساتين وأعناب وفواكه وجميع الثمرات ، وكانت قبل ذلك يطير الطائر حولهـا فيسقط من العطش والرمضـاء ، وأكثر شجرهـا الزيتون ، ففي مراكش اليوم من الزيتون والزيت ، مايستغني به عن غيرها من البلاد ، وتمير بلادا كثيرة . وكان زيتها قبل اليوم دهن المرجان ، لأنه بتلك البلاد كثيرجدا ، وزيتون مراكش أكثر من زيتون مكناسة ، وزيتها أرخص وربما أطيب » (١).

وظلت مراكش عاصمة للموحـدين حتى أيام الواثق بالله أبي العـلاء إدريس المعروف بأبي دبوس ، فقد تحالف أبو دبوس مع بنى مرين ليتولى الخلافة ، نظير تخليه لهم عن مدينة مراكش . وكان المرتضى غافلا عن شأن أبي دبوس ، وكانت الأسوار خالية من حراسها ، وحاميتهـا ، فانتهز أبو دبوس هذه الفرصة ، وتسور مراكش من باب أغمات ، ودخلها على حين

(١) الاستبصار ص ٢٠٩ ، ٢١٠

فجأة، وقصد القصبة، فدخلها من باب الطبول(١)، ففر المرتضى من مراكش إلى آزمور حيث مات قتيلا فى سنة ٦٦٥ هـ، ولكن أبا دبوس نكث بعهده لبنى مرين، فاضطر الأمير أبو يوسف يعقوب المرينى إلى مهاجمة مراكش فى سنة ٦٦٨ هـ، وانتهى الأمر بمقتل أبي دبوس إمام أسوار مراكش التى دخلها جيش بنى مرين فى ٢ من المحرم سنة ٦٦٨ هـ (٢).

ولقد تأثر عمران مراكش بالفتن المتواصلة التى اشتعلت نيرانها فى أواخر أيام الموحدين، واستولى الهدم والخراب على معظم ديارهم بمراكش عند سقوط دولتهم. ويذكر الوزير أبو الحسن بن سعيد العنسى أنه وجد على بعض قصورها مكتوبا بالفحم:

ولقد مررت على رسوم ديارهم
فبكيتها والربع قاع صفصف
وذكرت مجرى الجور فى عرصاتهم
فعلمت أن الدهر فيهم منصف

فأخذ قطعة من البياض المتبقى من الجيار، وكتب تحت البيتين السابقين:

لهفى عليهم بعدهم بشمالهم
بالله قل لى فى الورى هل يخلف
من ذا يجيب مناديا لوسيلة
أم من يجير من الزمان وينصف(٣)

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٥٤٨

(٢) أبو الوليد اسماعيل بن الأحمر، روضة النسرين فى دولة بنى مرين، الرباط ١٩٦٢، ص ١٩

(٣) الحلل الموشية، ص ١٢٨

ولقد ضعف شأن مراكش فى عصر بنى مرين ، لاتخاذهم مدينة فاس حاضرة لهم ، فتأثر عمرانها بذلك ، وانخفضت مكانتها السياسية. وقد وصف ابن الخطيب أسوارها الحصينة ، وزيتونها وفواكهها فى عصر بنى مرين بقوله : « اقتعدت البسيط المديد ، واستظهرت بتشييد الأسوار وأبراج الحديد ، وبكى الجبل من خشيتها بعيون العيون ، فسالت المذانب كصفاح القيون ، وقيدت طرف الناظر المفتون أدواح الشجر بها وغابات الزيتون... زيتها الزمن يعصر ، وخيرها يمد ولايقصر ، وفواكهها لاتحصى ولا تحصر ، فاذا تناصف الحر والبرد ، وتبسم الزهر وخجل الورد ، وكسا غدرانها الحائرة الحلق السرد ، قلت انجز للمتقين من الجنة الوعد ، وساعد السعد ، وماقلت إلا بالذى علمت سعد » . ثم يصف خرابها وتدهورها فى عصر بنى مرين فيقول : « وخرابها موحش هائل ، وبعد الأقطار عن كثير من الأوطار بها حائل ، وعدوها ينتهب فى الفتن أقواتها ، وجرذان المقابر تأكل أمواتها ، وكانت أولى المنازل بالاغياء ، لو أنها اليوم معدودة فى الأحياء » (١) .

ثم استعادت مراكش مكانتها فى عصر الأشراف السعديين كعاصمة للبلاد ، وخاصة فى عصر السلطان أحمد بن محمد السعدى الملقب بالمنصور الذهبى ، الذى أمهرها بأروع الأبنية التى أعادت ذكرى منصور الموحدين ، واستحضر لعمارة قصوره عمالا وصناعا من سائر البلاد ، وجلب الرخام من إيطاليا ، وشرع السلطان فى بناء قصره المعروف بالبديع داخل قصبة

---

(١) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب ، ص ١٠٨

السعديين سنة ٩٩٦ ﻫ ، وكان قصرا مربع الشكل فى كل جهة منه قبة ، وكان يزدان بالرخام المجزع ، والمرمر الأبيض المفضض والأسود (١) ، « كل رخامة طلى رأسها بالذهب الذائب ، ومو به بالنضار الوافى ، وفرشت أرضه بالرخام العجيب النحت ، الصافى البشرة ، وجعل فى أصناف ذلك الزلاج(٢) » المتنوع التلوين حتى كأنه خمائل الزهر ، أو برد موشى ، وأما سقوفه فتجسم فيها الذهب ، وطليت الجدارات به ، مع بريق النقش ورائق الرقم بخالص الجبص ... وفيه الأشعار المرقومة فى الأستار ، والأبيات المنقوشة فى الخشب والزليج والجبص ما يسر الناظر ويروق المتأمل ويبهر العقول »(٣). واتخذ المنصور لنفسه فى مراكش بلاطا أقرب ما يكون إلى البلاطات الشرقية فى الترف والعظمة ، إذ كان يجلس فى قصر البديع ، وقد مد فيه ، ومهد من فرش الحرير ، وصفة النمارق ، وتدلت الأستار والكلل والحجال المخوضة بالذهب على كل قبة وحناية (٤) .

* * *

كان تاسيس مراكش تدعيما لمركز المرابطين فى المغرب ، ثم كان استيلاؤهم على مدينة فاس فى سنة ٤٦٢ ﻫ سببا فى اختلاطهم بالحضارة الأندلسية المغربية ، ونجح يوسف بن تاشفين ، فى إخضاع قبيلى مكناسة

---

(١) ارجع الى اعمال المنصور الذهبى فى كتاب « نزهة الحادى باخبار ملوك القرن الحادى » تأليف محمد الصغير ، نشره هوداس Houdas ، باريس ١٨٨٨ .

(٢) جمع كلمة زليج ، ويعرف بالاسبانية اليوم باسم Azulejos ، وهو نوع من الفسيفساء يبسط بقاعات ديار أهل الأندلس ويشبه المفضض (الفسيفساء) ، وهو ذو ألوان عجيبة يقيمونه مقام الرخام الملون (المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ١٨٧ ، ١٨٨)

(٣) محمد الصغير كتاب نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى .

(٤) عبد العزيز سالم ، المغرب الإسلامى ، ج ٢ ص ١٨١

ولواتة ، واستولى على أكثر بلاد المغرب الغربى ،ثم وجه ابن تاشفين جهوده بعد ذلك إلى ناحية الشمال الشرقى ، فى سنة ٤٦٣ ﻫ زحف إلى وادى ملوية ، فافتتح بلادها ، وعلى حصون وطاط من نواحيها ، وأخضع قبيلة غمارة مرة أخرى ، وافتتح حصن علودان من حصونها (١) . وفى سنة ٤٦٧ ﻫ ، وجه همه إلى إخضاع غياثة وبنى مكود بأحواز تازى ، وافتتح تازى . وقسم يوسف بن تاشفين المغرب بين أبنائه وذويه وشيوخ قومه وأمرائهم . ثم تطلع بعد ذلك إلى معبرى الاندلس طنجة وسبتة ، وكان يحكمها سكوت البرغواطى وعشيرته من أولياء الدولة الحمودية بسبتة . فاشتبك المرابطون بقيادة صالح بن عمران مع سكوت فى ظاهر طنجة ، فانهزم سكوت وقتل فى المعركة ، وتحصن ابنه ضياء الدولة بسبتة (٢) . ويبدو أن المعتمد بن عباد ملك إشبيليه أرسل سفارة برئاسة أبى بكر بن القصيرة إلى يوسف لينجده على الفونسو السادس، وأبدى يوسف استعداده لذلك ، إذا تهيأ له الاستيلاء على معبرى الاندلس ، طنجة وسبتة (٣) .

---

(١) ابن خلدون ، ج ص ٣٨٠

(٢) سكوت البرغواطى كان من سبى برغواطة فى زمن على بن حمود، ثم ألقى اليه يحيى ابن على بمقاليد سبته ، وأشرك معه فى عمالتها مولى آخر من مواليه اسمه رزق الله ويكنى بأبى العطاف . وفي عهد إدريس بن يحيى ، تمكن سكوت من القضاء على شريكه في سبتة ، وأصبح منذ ذلك الحين أميرا مستقلا بسبتة ، وتلقب بالمنصور المعان فى سنة ٤٥٣ ، وظل سكوت قائما بسبتة وطنجة وأصيلا الى أن سير اليه يوسف بن تاشفين ، قائده صالح بن عمران فنزل بموضع يعرف بالدمنه سنة ٤٧١ ﻫ ، واصطدم المرابطون بابنه ضياء الدولة فى طنجة ، فتغلب المرابطون ، ودخلوا طنجة ، وقتل سكوت (انظر :
Joaquin Vallvé Bermejo, Suqut al-Bargawati, rey de Ceuta, al-Andalus, vol. XXVIII fasc. 1, Madrid, 1963, pp. 171-209)

(٣) Ibid. p. 180

وفى سنة ٤٧٢ هـ سار القائد المرابطى مزدلى التلكاتى على رأس جيش كثيف لمحاربة مغراوة ملوك تلمسان فى المغرب الأوسط ،وفى العام التالى قام يوسف بفتح المغرب الشرقى وساحل الريف ، فاستولى على مليلة ، وخرب نكور ، واستولى على وجدة وبلاد بنى سناسن ، واستولى بعد ذلك على تلمسان وقتل أميرها العباس بن بختى ، وأقام مكانه محمد بن تينعمر ، وبذلك فقدت زناتة عاصمتها الأخيرة . وأقام يوسف مدينة جديدة هى تاكرارت بجوار أغادير القديمة ، وتوغلت جيوشه فى المغرب الأوسط واستولت على تنس ووهران وجبل وانشريس (١) ، ووصلت حتى الجزائر ، وتوقفت عند مدخل بلاد قبيلى من من أراضى صنهاجة الشرقية ، ولم يدخل المرابطون فى صراع مع إخوانهم الصنهاجيين فى الجزائر وتونس ، وهكذا انقسم المغرب الإسلامى إلى قسمين : شرقى يحكمه بنو زيرى وبنو حماد الصنهاجيين وغربى يحكمه المرابطون .

عاد يوسف إلى مراكش فى سنة ٤٧٥ هـ ، ويبدو أنه وصلته فى ذلك الوقت كتب من أهل الأندلس يسألونه أن ينقذ الأندلس مما ألم بها من مصائب على أيدى القشتاليين ، وكان لابد له أن يحتاط للتدخل فى الأندلس ، فوجه ابنه المعز فى عساكر المرابطين إلى سبتة معبر الأندلس ، فنازلها برا ،ويذكر ابن خلدون أن أساطيل ابن عباد حاصرتها بحرا ، وتمكن المعز بن يوسف من الاستيلاء عليها عنوة فى ربيع الآخر سنة ٤٧٦هـ، وقبض على ضياء الدولة وقتله بسيفه . وتفصيل ذلك كما ورد فى الذخيرة لابن بسام أن المعتمد بن عباد سير إلى سبتة سفينة ضخمة كأنها قصر بناه على الماء ،

---

(١) ابن خلدون جـ ٦ ص ٣٨١

فهاجمت ميناء سبتة ، ثم قدم أسطول المرابطين فى صفر سنة ٤٧٦ هـ لمحاصرة سبتة من البحر ، « ولقيه العز بن سقوت ببقية جمته من أسطول طالما أوسع البلاد شرا ، وملأ قلوب أهلها ذعرا ، فكان لأول ذلك اليوم ظهر على أسطول المرابطين حتى أخذ منه قطعة جليلة المقدار ، ظاهرة الحماة والأنصار ... وارتاعت محلة المرابطين لاخذ تلك القطعة حتى هموا بالإحجام، وقوضوا بعض الخيام ، وغضب أمير المسلمين وناصر الدين رحمه الله إحدى غضباته فكانت إياها ، ونفرت المنايا على سبتة ، وتقدمت تلك السفينة فأطلت على أسوارها ، ورفعت صوتها ببوارها ، وأفضت بدولة صاحب سبتة إلى سوء قرارها » (١) . وحاول العز بن سقوت الفرار فى البحر ، ولكن المرابطين طاردوه ، فدخل دارا تعرف بدار تنوير بمدينة سبتة ، وهنالك قبض عليه .

---

(١) نص ابن بسام فى كتاب الذخيرة ، نشره السنيور خواكين فالبى Joaquin vallvé فى مقاله السابق ص ٢٠٢

(٣)

المرابطون فى الأندلس

١ ــ احوال الاندلس عند قيام دولة المرابطين :

بعد أن وحد يوسف بن تاشفين بلاد المغرب ، وأقام دولة قوية تضم أقاليم القسم الغربي من المغرب لم يحاول أن يتلقب بالخلافة ، واكتفى بلقب أمير المسلمين ، وناصر الدين سنة ٤٦٨ هـ ، ودعا للخليفة العباسى ببغداد. ويذكر صاحب الحلل أن ابن تاشفين لما طالبه بعض أصحابه باتخاذ لقب أمير المؤمنين قال : حاشا الله أن نتسمى بهذا الاسم ، إنما تسمى به خلفاء بنى العباس ، لكونهم من تلك السلالة الكريمة ، ولأنهم ملوك الحرمين مكة والمدينة . وأنا راجلهم ، والقائم بدعوتهم » (١) . هذا اللقب خلعه يوسف ابن تاشفين على نفسه دون الرجوع إلى الخليفة العباسى ، فلما انتصر يوسف فى موقعة الزلاقة ، وأسقط ملوك الطوائف ، كتب إلى الخليفة المقتدى بالله ، يطلب منه الخلع والأعلام والتقليد ، فلم يعترض الخليفة على ذلك ، ولكنه لم يخاطبه بلقب أمير المسلمين ، وقد نشر الأستاذ الدكتور حسين مؤنس نص رسالة من الخليفة عبد الله العباس المستظهر بالله العباسى إلى على بن يوسف ، لم يخاطبه فيها بلقب أمير المسلمين (٢) . وقد استخدم المرابطون لذلك السواد شعارا لهم فى ملابسهم وأعلامهم (٣) .

---

(١) الحلل الموشية ، ص ١١

(٢) حسين مؤنس ، سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وايامهم في الأندلس ، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد الثانى ، ١٩٥٤ ص ٦٦ ــ ٦٨

(٣) أحمد مختار العبادى ، نظام الخلافة فى المغرب الإسلامى فى العصور الوسطى ، فصلة من كتاب فلاسفة الإسلام في المغرب العربي ، ص١٥٦

وبينما كان يوسف بن تاشفين يعمل لتأسيس دولة كبيرة فى المغرب كانت الاحداث تتطور تطورا سريعا فى الأندلس ، فقد أدى انقسام الأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية بقرطبة إلى دويلات للطوائف إلى ظهور العنصرية الهدامة بين المسلمين عربهم وبربرهم وصقالبتهم ، واستعان بعضهم على بعض، بنصارى الشمال الذين وجدوا فى ذاك سيفا مسلطا على الإسلام ، وفرصة مواتية للقضاء عليهم ، فاستغل فرناندو الأول ، وتسميه المصادر العربية فرذلند ، ملك قشتالة وليون هذه الفرصة، (١٠٣٥-١٠٦٥م) واستولى على عدد من مدن الأندلس مثل بازو ، وقلمرية ، وأرغم ملوك الطوائف على شراء حمايته للاحتفاظ بعروشهم ، فلاذوا بالجزيات يدفعونها إليه ، إنقاء لشره ، ودرءاً لتهديداته ، ورغبة فى خطب سلمه ومرضاته ، كما كانت وطأة ابنه الفونسو السادس أشد على المسلمين من وطأة أبيه فرذلند ، فقد رأى أن يسدد الضربة الأولى فى طليطلة ، قلب الأندلس ، فأخذ يعد العدة ، للاستيلاء عليها ، ويتأهب لتحقيق هذا الهدف منذ سنة ٤٧١ ، وتمكن أخيرا من تحقيق أمنيته فى سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥م) ، وازداد بذلك قوة على قوته ، « وأخذ يجوس خلال الديار ، ويستفتح المعاقل والحصون » . [١] وأحدث سقوط طليطلة فى أيدى القشتاليين دويا هائلا فى المغرب والأندلس على السواء ، وقرعت نواقيس الخطر تنذر ملوك الإسلام فى الأندلس بسوء المصير ، فأحسوا بضعفهم ، وتنبهوا بعد فوات الأوان إلى نهايتهم الوشيكة ، بل إن سقوط طليطلة ، كان نذيرا بالنهاية المحتومة لدولة الإسلام فى الأندلس . وقد أدرك الشاعر عبد الله بن

---

(١) المقرى ، نفح الطيب ، ج ٦ ص ٨٨

فرج اليحصبي المشهور بابن الغسال هذه الحقيقة ، فانشد يقول :

يا أهـــل أندلس حثوا مطيـــكم
فمـــا المقام بهـــا إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى
ثوب الجزيرة منسولا من الوسط
ونحـن بين عـدو لا يفارقنـــا
كيف الحياة مع الحيات فى سفط (١).

استفحل خطر الفونسو السادس على دويلات الطوائف ، وذاق حلاوة الانتصار على المسلمين فى طليطلة ، فعزم على فتح مدن الأندلس كلهـا ، وعرض عليه رعيته أن يلبس التاج ويعيد عادة أسلافه القوط، فأرجأهم فى ذلك حتى يستولي على دار ملك المسلمين بقرطبة (٢) ، إذ كان يعتبر طليطلة نقطة دائره الأندلس (٣) . ثم عمــد إلى استذلال ملوك الطوائف بفرض الإتاوات والجزيات عليهم، ثم إنه بدأ بالمعتمد بن عباد، كبير ملوك الطوائف، فكتب إليه يطلب منه تسليم بعض حصونه وأعمـاله إلى رسلة وعمـاله ، فكتب إليه بين ما كتبه : « من الأنبطور ذى الملتين ، الملك المفضل الأدفنش ابن شانجة إلى المعتمد بالله سدد الله رأيه وبصره ، مقاصد الرشاد، سلام عليك من مشيد شرفته العنا ، وثبت فى المنى ، فاهتز اهتزاز الرمح بعامله ، والسيف بساعد حامله ، وقد أبصرتم منازل بطليطلة وأقطارها ، وماصار بأهلها حين

---

(١) المرجع السابق ج ٦ ص ٨٤
(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الخاص بالاندلس ، ص ٢٤٤
(٣) الحلل الموشية ، ص ٢٢

حاصرها بمن صار فى هذه السنين ... » (١) . فلما رأى ابن عباد ما رآه من إدبار أمره ، وما يجثم على دولة الإسلام فى الأندلس من أخطار ، شاور خاصته ، ووجوه دولته فى الاستنجاد بيوسف بن تاشفين ، على القشتاليين ، فأشاروا بمداراة ألفونسو ، ومصانعته ، وعقد السلم معه على ما يشتهيه من شروط ، إذ كانوا يخافون من يوسف بن تاشفين أن يسلبهم ملكهم ، ويشتت شملهم ، وحذروه ، من مغبة الاستنجاد بيوسف بن تاشفين، وقالوا له : « الملك عقيم ، والسيفان لا يجتمعان فى غمد واحد » (٢) . ثم اختلى المعتمد بابنه وولى عهده الرشيد أبى الحسن عبيد الله ، فقال له : « أنا فى هذه الأندلس غريب بين بحر مظلم وعدو مجرم ، وليس لنا ولى ولا ناصر إلا الله تعالى ، وإن إخواننا وجيراننا ملوك الأندلس ، ليس فيهم نفع ولا يرجى منهم نصرة ، ولا حيلة إن نزل بنا مصاب أو نالنا عدو ثقيل ، وهو اللعين أذفنش ، وقد أخذ طليطلة من ابن ذى النون بعد سبع سنين ، وعادت دار كفر ، وها هو قد رفع رأسه إلينا ، وإن نزل علينا بطليطلة ما برفع عنا حتى يأخذ إشبيلية ، ونرى من الرأى أن نبعث إلى هذه الصحراء وملك العدوة ، نستدعيه للجواز ليدفع عنا هذا الكلب اللعين ، إذ لا قدرة لنا على ذلك بأنفسنا ، فقد تلف لحاؤنا ، وتدبرت بل تبردت أجنادنا ، وأبغضتنا العامة والخاصة » . ولكن ابنه الرشيد لم يقره على هذا الرأى ، فقال لأبيه : « يا أبت ، تدخل علينا فى أندلسنا من يسلبنا ملكنا ، ويبدد شملنا » ، فقال : « أى ابنى ، والله لا يسمع عنى أبدا أنى أعدت الأندلس دار كفر ولا تركتها للنصارى ،

---

(١) المرجع السابق ص ٢٣

(٢) الحميرى ، ص ٨٥

فتقوم على اللعنة فى منابر الإسلام مثل ماقامت على غيرى، وحرز الجمال ، والله ، عندى خير من حرز الخنازير » . فقال له : « ياأبتى افعل ماأمرك الله » ، فقال « إن الله لم يلهمنى بهذا إلا وفيه خير وصلاح لنا ولكافة المسلمين » (١) . فكتب من فوره إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين فى غرة جمادى الأول سنة ٤٧٨ هـ (٢) ، يستصرخه على ألفونسو، ويدعوه إلى الجواز إلى الأندلس للجهاد وإحياء شريعة الإسلام . فاستشار ابن تاشفين كاتبه عبد الرحمن بن أسباط فى هذا الشأن ، وكان أندلسيا من أهل المرية ، فأشار عليه بأن يشترط على ابن عباد أن يتخلى له عن الجزيرة الخضراء ليجعلها قاعدة لإنزال قواته ، فلما علم ابن عباد بذلك جاز إلى المغرب فى أسطول الأندلس فى سنة ٤٧٨ ، بعد أن استخلف على إشبيلية ولده الرشيد ، وكتب لابن تاشفين عقدا يقضي بتسليم الجزيرة الخضراء إلى المرابطين فى ربيع الأول سنة ٤٧٩ هـ (٣) . ويذكر عبد الواحد المراكشى أن يوسف بن تاشفين عبر لابن عباد عن رغبته فى الجهاد بقوله : « أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين ، ولايتولى هذا الأمر أحد إلا أنا بنفسى » (٤) ، وعاد ابن عباد على أثر ذلك إلى إشبيلية ، أما يوسف فقد أخذ يستنفر جيوشه ، ثم رحل إلى سبتة ، للاشراف على نقل قواته إلى الأندلس فى شهر جمادى الأولى من

---

(١) الحلل الموشية ، ص ٢٨ — ابن الخطيب ، أعمال الأعلام، القسم الخاص بالأندلس ، ص ٢٤٥

(٢) ابن الخطيب ، المرجع السابق — ويذكر صاحب الحلل سنة ٤٧٩ تاريخا لمكاتبة ابن عباد لابن تاشفين

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ٣٨٢ — ابن الخطيب ، المرجع السابق ص ٢٤٦

(٤) المراكشى ، ص ١٣١

السنة ، فاجتمع له نحو ٧ آلاف فارس عبر بهم البحر إلى الجزيرة الخضراء . ويبدو أن الفونسو لما بلغه اتصال ملوك الأندلس بيوسف واعتزامهم به عليه ، واعتزام يوسف المجاز إلى الأندلس لنصرة إخوانه فى الدين ، وتمرد المعتمد بن عباد عليه فى دفع الجزية ، أراد أن يحث يوسف على سرعة القدوم إلى الأندلس أملا فى إلحاق الهزيمة به ، والتفرغ بعد ذلك للقضاء على ملوك الطوائف ، فأغار على البلاد حتى وصل إلى ساحل البحر عند الجزيرة ، وكتب إلى الأمير يوسف مانصه : « من أمير النصرانية أدفونش بن فرذلند إلى يوسف بن تاشفين : أما بعد فانك اليوم أمير المسلمين ببلاد المغرب وسلطانهم ، وأهل الأندلس قد ضعفوا عن مقاومتى ومقابلتى ، وقد أذللتهم بأخذ الجزيه منهم وبالقتل والأسر والذل والقهر ، وأنا لا أقنع إلا بأخذ البلاد ، وقد وجب عليك نصرهم لأنهم أهل ملتك فاما أن تجوز إلى ، وإما أن ترسل إلى المراكب أجوز إليك ، فان غلبتنى كان ملك الأندلس والمغرب إليك ، وإن غلبتك انقطع طمع الأندلس من نصرك إياهم ، فان نفوسهم متعلقة بنصرتك لهم » . فلما وصل هذا الكتاب إلى يوسف أمر أن يكتب له على ظهر كتابه : « من أمير المسلمين يوسف إلى أدفونش ، أما بعد فان الجواب ماتراه بعينك لاما تسمعه بأذنك ، والسلام على من اتبع الهدى » . وأردف الكاتب بيت أبى الطيب :

ولا الكتب إلا المشرفية والقنا
ولا رسل إلا الخميس العرمرم (١)

والقارىء لهذه الرسالة يشك فى صحتها ، ولكن الأساتذة ليفى بروفنسال ،

---

(١) الحلل الموشية ص ٢٦ — ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، ص ٢٤٠

وغرسية جومث ، وأوليفر آسين ، نشروا رسالة كتبها يوسف بن تاشفين إلى الناصر تميم بن المعز بن باديس يذكر له فيها هزيمته لألفونسو بالزلاقة ، تضمنت هذه الحقيقة . يقول ابن تاشفين : « وكان قد تقدم إلينا بالعدوة من قبل الأذفونش أمير النصارى رسالة يخاطبنا فيها بالجواز إلينا ، إذا عجزنا عنه ، وفرقنا منه ، نعطوه المراكب ونسلموا إليه الشوانى والقوارب ليرد علينا ، ويقاتلنا فى مأمننا ، فلم نلتفت إليه ، ولا عرجنا عليه » (١) .

ب ــ موقعة الزلاقة:

أجاز المرابطون البحر إلى الجزيرة الخضراء ، وتلقاهم المعتمد أحسن لقاء ، واستقبل المعتمد أميرهم يوسف بن تاشفين فى وجوه أهل دولته ، وقدم إليه الهدايا والتحف ، ولما دعاه للنزول إلى إشبيلية للراحة من الرحلة ، لم يبد ابن تاشفين قبولا ، ولم يرحب بهذه الدعوة ، وقال : « إنما جئت ناويا جهاد العدو فحيثما كان العدو توجهت وجهه » (٢) . ثم أخذت قوات المرابطين تتقدم نحو إشبيلية ، وكان يقودها من قوادهم الكبار سليمان بن داود ابن عائشة ، وانضمت إليها قوات المعتمد ، وبعض قوات بعثها ابن صمادح صاحب المرية (٣) . وساهم فى هذا الجيش الاسلامى المؤتلف عبد الله بن

---

(١) Lèvi-Provençal, Garcia Gomez, Oliver Asin: Novedades sobre labatalla llamada al-Zallaqa, al-Andalus, vol. XV, 1950, P. 112

(٢) المراكشى ، ص ١٣٢

(٣) اعتذر ابن صمادح ليوسف عن عدم استطاعته الشخوص بنفسه ، بسبب العدو الملاصق له بحصن لييط من عمل لورقة ، كما اعتذر بكبر السن مع الضعف (أنظر كتاب التبيين ، أو مذكرات الأمير عبد الله الزيرى ، نشره ليفى بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٥٥ ص ١٠٤) . ويعتقد الأستاذ امبروسيو اويثى ميراندا أنه آثر البقاء انتظارا لنتيجة المعركة المقبلة (ارجع =

بلكين صاحب غرناطة وأخوه تميم صاحب مالقة ، وابن ذى النون . وبلغ الفونسو السادس ، وهو مقيم على حصار سرقسطة تحرك القوات المغربية الأندلسية نحو إشبيلية ، فاضطر إلى رفع الحصار عن سرقسطة وبدأ يحشد القوى النصرانية، ويستنجد بأمم المسيحية، فوفدت إليه سريات من الفرسان من ولايات فرنسا الجنوبية من لانجدوك ، وجوويانة ، وبرجونية ، وبروفانس ، وقد عقدت آمالا كبيرة فى الظفر بمغنم كبير . وتحالف الفونسو مع سانشو راميرث ملك أرغون وصاحب بنبلونة ،والكونت برنجار ريموند ، وكان سانشو مشغولا بمحاصرة طرطوشة ، بينما كان برنجار يتأهب لغزو بلنسية ،فانضما إلى الفونسو السادس بجميع قواتهما، أما الفونسو فقد حشد قوات هائلة من جليقية ، وليون ، وبسكونية ، وأشتوريش ، وقشتالة (١) . وكانت قوات المرابطين قد وصلت إلى إشبيلية ، وأقامت بها ثلاثة أيام ، ثم ارتحلت إلى بطليوس ، فلقيهم المتوكل بن الأفطس بالقرب من بطليوس ، واحتفل لهم بالتضييف والعلف والقرى الواسع (٢) . وعسكرت قوات المسلمين شمالى بطليوس ،بين بطليوس وقورية ، أى بين ضفتى وادى آنه ووادى تاجه، وتحركت قوات الفونسو متجهة نحو بطليوس (٣) حتى وصلت على بعد ثلاثة أميال من معسكرات المسلمين ،

=إلى: Ambrosio Huici Miranda, la invasion de los Almoravides y la batalla de Zalaca, Hesperis, t. XI, 1953, p. 40.)

(١) يوسف اشباخ ، تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ' ترجمة الأستاذ محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٥٨ ص ٨٠

(٢) الحلل الموشية ص ٣٤

(٣) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، ص ٢٤٢

وضربت خيامها فى فحص الزلاقــة (باللاتينية Sacralias) حيث قامت المعركة الكبرى الحاسمة بين جيوش الإسلام والمسيحية . وكانت معسكرات أهل الأندلس قد ضربت بازاء محلات النصارى، بينما عسكرت قوات يوسف ابن تاشفين وراءهم على أميال منهم (١) . وفى ليلة ١٢ رجب سنة ٤٧٩ هـ ، باغتت قوات الفونسو معسكرات أهل الأندلس ، فانهزمت عند أول لقاء، ودارت عليهم الدائرة ، وأبلى ابن عباد بالرغم من ذلك بلاء حسنا ، ثم أرسل كاتبه ابن القصيرة إلى يوسف بن تاشفين ، فركب يوسف من فوره على رأس قواته ، وقصد محلة الفونسو ، « فاقتحمها وأضرمها ناراً ، وضرب طبوله ، فاهتزت لهــا الأرض ، وتجاوبت الآفاق ، فارتاعت قلوبهم ، وتخلخلت أفئدتهم ، ورأوا النار تشعل فى محلتهم ، وأتاهم الصريخ بهــلاك أموالهم وأخبيتهم، فسقط فى أيديهم فألووا أعنتهم ورجعوا قاصدين محلتهم، فالتحمت الفئتان ، واختلط الملتان ، واشتدت الكرة ، وعظمت المحجات ، والحرب تدور على اللعين ، وتطحن رؤوس رجاله ، ومشاهير أبطاله، وتقذف بخيلهم عن يمينه وشماله ، وتداعى الأجناد والحشم والعبيد للنزال والترحيل على ظهور الخيل ، ودخول المعترك ، فأمن الله المسلمين ، وقذف الرعب فى قــلوب المشركين ، وتحطــوا بين عسكر ابن عباد وعسكر يوسف بن تاشفين » (٢) .

أرسل يوسف فرقة العبيد للمساهمة فى القتال ، فدخلوا ساحة المعركة بالمزارق ، ، وانقضوا على قوات الفونسو ، فــدارت الدائرة عليه وعلى

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤٣

(٢) الحلل الموشية ، ص ٤٣

أصحابه ، وجرح الفونسو جرحا بالغـا ، إذ لصق به عبد أسود طعنه في فخذه بخنجر ، ففر الفونسو في جنح الظلام ، ولاذ هو وفلول جيشه بربوة ، ثم تسللوا هاربين إلى طليطلة . وعلى أثر انتصار المسلمين ، قفل يوسف ابن تاشفين إلى المغرب ، إذ ورد عليه الخبر بموت ابنه أبي بكر (١) ، فترك لسير بن أبي بكر مهمة مواصلة الجهاد . ويعتقد الدكتور حسن محمود ، أن سنة ٤٨٠ هـ هي السنة التي توفي فيهـا أبو بكر بن عمـر رئيس المرابطين ، بدليل أن العملات المرابطية ظلت تضرب باسم أبي بكر بن عمر من ٤٥٠ إلى ٤٧٩ هـ ، فليس ببعيد أن يكون الأمر قد اختلط على المؤرخين ، فقالوا إنما رحل لوفاة ابنه بدلا من ابن عمه (٢) . وهكذا محت قوات المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين العار الذي لحق ملوك الأندلس ، من مذلة الفونسو السادس لهم .

ولقد كان لانتصار المسلمين في الزلاقة عدة نتائج هي :

١ ـ حرر سرقسطة وحماها من الوقـوع في أيدي القشتاليين ، وكانوا يحاصرونها عندما نزلت قوات المرابطين بالأندلس .

٢ ـ أحدث تغييرا مفاجئـا في مجرى حركة الاسترداد التي خططها الفونسو السادس ، فقد أرسل الفونسو بعد هزيمته في الزلاقة طالبـا العون من أمراء الأقاليم الجنوبية بفرنسا ، مهددا لهم حالة في عدم مساعدتهم له

---

(١) المرجع السابق ص ٤٧

(٢) حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٢٨٧ . ارجع الى تفصيلات هذه المعركة في A. Huici Miranda ; op .cit. ــ الدكتور حسن محمود ، قيـام دولة المرابطين ، ص ٢٧٣ ــ ٢٨٨ .

بمحالفة المسلمين ، فأخذ الفرنسيون يتنافسون فى تنظيم حملة كبيرة. ولكن الفونسو عدل عن خطته فى الاستعانة بالفرنسيين خشية أن يعقد ذلك من علاقته مع ملوك الطوائف بعد أن عاد يوسف بن تاشفين إلى مراكش . فأرسل الفونسو يستغنى عن خدمات من لم يعبر منهم جبال البرانس بعد . غير أن الوافدين منهم دخلوا فى خدمة سانشو راميرث ملك أرغون ، وهاجموا تطيلة فى شتاء سنة ٤٨٠ هـ ، وفشلوا فى هذا الهجوم ثم تراجعوا .

٣ ـ صالح الفونسو السادس قائده السيد الكنبيطور بعد أن احتاج إلى سيفه ، واستقبله فى طليطلة فى هذا العام [١] .

٤ ـ رفع من شأن المرابطين أمام الرأى العام الإسلامى ، وصورهم فى صورة المجاهدين عن الاسلام ، المدافعين عن أراضيه ، الذابين عن ثغوره .

٥ ـ أسقط من قدر ملوك الطوائف فى نظر رعيتهم ، ومهد السبيل إلى إسقاط دويلات الطوائف ، وضم الأندلس إلى دولة المرابطين فى المغرب.

ج ـ تغلب يوسف بن تاشفين على الاندلس :

جاء انتصار المسلمين فى الزلاقة بعد سلسلة من الهزائم المتتالية على أيدى القشتاليين ، لذلك بالغ المسلمون فى تقديره ،وقارنوه بأيام الإسلام الكبرى. ويعبر صاحب الحلل الموشية عن ذلك بقوله : « وكان يوما لم يسمع بمثله من اليرموك و القادسية ، فياله من فتح ،ما كان أعظمه ، ويوم كبير ما كان

(١) ارجع الى رسالة الدكتوراه الآتية Afif Turk, El Reino de Zaragoza en el siglo XI de Jesucristo, tesis para el grado de Doctor, Madrid, 1956" pp. 224 - 225.

أكرمه ، فيوم الزلاقة ثبتت قدم الدين بعد زلاقتها ، وعادت ظلمة الحق إلى إشراقها ، نفست مخنق الجزيرة بعض التنفس ، واعتز بها رؤوس الأندلس ... » (١) .

ولكن موقعة الزلاقة لم تكن سوى صدمة أصابت القشتاليين لزمن قصير ، ثم أخذوا يفيقون منها ، فان هزيمتهم لم تكن عن ضعف وتخاذل ، وإنما ترجع إلى غرور الفونسو بنفسه ، واعتزازه بقوته وسوء تصرفه . فلم يكد يمضي عام واحد على هزيمته حتى كان قد تمكن من استعادة قواه ، فنقل ميدان نشاطه هذه المرة إلى شرق الأندلس ، إذ أن غربها كانت تقوم فيه مملكتان قويتان هما مملكتا إشبيلية وبطليوس ، تعضدهما فرقة من المرابطين قوامها ثلاثة آلاف مقاتل ، تركها يوسف بن تاشفين تحت تصرف المعتمد بن عباد . أما الشرق فعلى الضد من ذلك كان ممزقا من الناحية السياسية (٢) ، بالإضافة إلى أن جيوش المرابطين لم تكن قد وصلت إليه بعد (٣) ، فبادر الفونسو السادس بمصالحة السيد الكنبيطور (صاحب

---

(١) الحلل الموشية ، ص ٤٧

(٢) كانت تقوم فيه دويلات صغيرة ضعيفة ، هي لاردة ، والسهلة ، والبونت ، وبلنسية ، ودانية ، ومرسية ، والمرية . وكانت تتوسطه قلعة منيعة لا ترام لحصانتها هي قلعة لييط التي كانت تستوعب حامية يتراوح عدد رجالها ما بين ١٢، ١٣ ألف مقاتل ، وكانت العصابات القشتالية تغير من هذا الحصن على المناطق المجاورة ، وتنشر الدمار فيها . (ارجع الى :
Remiro (Mariano Gaspar) : Murcia musulmana, Zaragoza, 1950 p. 133.

(٣) Menendez Pidal (R.) : El Cid Campeador, Coleccion Austral, Buenos Aires, 1950, p. 133 - Menendez-Pidal, Espana del Cid, Madrid, 1947, t. I, p. 350

الفحص) فى طليطلة فى ربيع سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) ، فعفا عنه بعد ١٦ سنة قضاها السيد فى خدمة ملوك سرقسطة : المقتدر أحمد بن سليمان بن هود (٤٣٨ - ٤٧٤ هـ) ، وابنه المؤتمن يوسف بن أحمد (٤٧٤ - ٤٧٨) ، ثم ابنه أحمد المستعين الثانى (٤٧٨ - ٥٠٣ هـ) ضد القطلانيين حينا والأرغونيين حينا ، والقشتاليين حينا آخر (١) . ثم منحه إقطاعات واسعة ، منها حصنا غرماج الأموى ودونيـاس (٢) . وفى العام التالى اتجـه الكنبيطور إلى سرقسطة عند أصحابه بنى هود ، ومن هناك بدأ يعمل على تنفيذ الخطة التى رسمها مع سيده الفونسو لضم شرق الأندلس ، وبالذات مدينة بلنسية (٣) ، بينما قام غرسية خيمنث قائد حصن لييط (٤) بشن غاراته المدمرة عـلى إمارات المرية ومرسية ولورقة ، فنشر الخراب فى هـذه المناطق ، وحول أراضيها إلى صحارى قاحلة ، ونتج عن هذه الغارات المتواصلة أن أصبحت إمارتي مرسية ولورقـة مهددتان بغزو قشتالى محتوم (٥) ، وافتقـد أهل الأندلس الأمن والسلام ، وساء الموقف فى الأندلس من جديد . ولم يكن قد مضى على انتصار المسلمين فى الزلاقة عامان ، فضج المسلمون بالشكوى، واستصرخـوا المرابطين للمرة الثانية ، فوفدت عـلى يوسف بن تاشفين

---

(١) Afif Turk, op. cit. pp. 171 - 185

(٢) Menendez - Pidal, El Cid, p. 130

(٣) كان القادر بن ذى النـون ملك طليطله قد تنازل لألفونسو عن طليطلة على أن يملكه بلنسية عوضا عنها ، وقد أوفى له الفونسو بهـذا الشرط ، وساعده فى دخول بلنسية، فدخلها قهرا فى سنة ٤٧٥ (ابن عذارى ، جـ ٣ طبعة ليفى بروفنسال ، ص ٣٠٤)

(٤) Codera, Decadencia y desaparicion de los Almoravides en Espana, Zaragoza, 1899, p. 3 - Remiro, op. cit. p.130

(٥) Ibid. p. 134

بحاضرته مراكش جملة من أهل بلنسية ومرسية ولورقة ، فشكوا له ماحل بأهل بلنسية من قوات الكنبيطور ، كما شكوا له ماحل بأهل مرسية وأعمال لورقة وبسطة من غارات حامية لييط القشتالية (١) . ثم قدم إليه المعتمد ابن عباد ، فتلقاه ابن تاشفين أحسن قبول فى موضع بوادى سبو . وكان مجيئه لغرضين : الأول ، استرجاع نفوذه بمرسية بعد أن تغلب عليها ابن رشيق ، والثانى ، وضع حد لغارات القشتاليين المتواصلة على أملاكه فى شرق الأندلس ، « وعظم له شأن لييط ، وأنه فى قلب البلد ، وأن لاراحة للمسلمين إلا بفقده » (٢) . ولم يجد يوسف بن تاشفين بدا من استجابة رغبات أهل الأندلس ، فى مقاتلة القشتاليين ، فعبر الزقاق للمرة الثانية ، وتوافت إليه جيوش الأندلس ، ممثلة لكل دويلات الطوائف . ولكن حصار المسلمين للحصن ، رغم طول أمده ، انتهى بالفشل ، لشدة مقاومة الحامية القشتالية ، ولحصانة الحصن ومناعته ، واستعصاء نقبه ، ولاختلاف كلمة المسلمين . فقد شكا المعتمد بن عباد ابن رشيق صاحب مرسية ، الثائر بها عليه ، إلى يوسف بن تاشفين ، وذكر اعتداءه عليه ، كما اختلف ابن صمادح مع ابن عباد . وأخذ ملوك الطوائف يتراشقون التهم أمام ابن تاشفين ، ويحكمونه فى منازعاتهم ، حتى ضاق بذلك ؛ وكان الحصار قد طال ، وتأهب الفونسو للزحف بجيشه لنجدة حامية لييط ، كل هذه الأسباب حملت يوسف على رفع الحصار ، والعودة إلى حاضرته مراكش عن طريق المرية (٣) . ثم بلغ ابن تاشفين وهو بحاضرته فى المغرب أن الأمير عبد الله

---

(١) الحلل الموشية ، ص ٤٧ ، ٤٨

(٢) مذكرات عبد الله الزيرى ، ص ١٠٨

(٣) Codera, op. cit. p. 3

الزيرى صاحب غرناطة اتفق مع البرهانش Alvar Hanez ، وكيل ألفونسو السادس فى جهات غرناطة والمرية ، وتعاقد معه على نصرته نظير ٣٠ ألف دينار . وكان ابن رشيق قد ثبت تعاونه مع النصارى أثناء قيام المسلمين بحصار حصن لييط [1] . لذلك عزم ابن تاشفين عزما صادقا على استئصال شأفة ملوك الطوائف ، والإطاحة بعروشهم ، بحجة أنه لاينبغى لهم قتال الروم ، ويتركوا وراءهم الأعداء ممن يواسى عليهم معهم [2] . فجاز إلى الأندلس للمرة الثالثة فى سنة ٤٨٣ هـ ، وهو ينوى هذه المرة القضاء على دويلات الطوائف ، وتوحيد كلمة الأندلس ، وتأليف جبهة أندلسية مغربية متحدة لمواجهة خطر النصارى المتزايد . وبدأ يوسف بنكبة الأمير عبد الله الزيرى صاحب غرناطة ، فعزله عن ملكه ، ونفاه إلى مكناسة (٣) . ثم أردفه بأخيه تميم صاحب مالقة . وفى سنة ٤٨٤ هـ أرسل أربعة جيوش مرابطية إلى الأندلس لمنازلة ملوك الطوائف وحصارهم فى بلادهم، فعهد إلى ابن عمه الأمير سير بن أبى بكر بمحاصرة إشبيلية ودخولها ، والقبض على المعتمد بن عباد وحمله أسيرا إلى المغرب ، كما عهد إليه أيضا بالاستيلاء على بطليوس وإسقاط دولة المتوكل على الله عمر بن المظفر بن الأفطس ، وقد نفذ سير أمر يوسف ، فدخل المرابطون إشبيلية ، وسيق المعتمد أسيرا إلى أغمات حيث توفى فى سنة ٤٨٨ هـ . أما المتوكل ، فقد كان مصيره أسوأ من ذلك ، إذ قتل هو وابناه فى أواخر سنة ٤٨٨ هـ .

---

(١) كان يقويهم ويعينهم خوفا مما قد يحل عليه بتقدم (مذكرات الأمير عبدالله الزيرى)

(٢) نفس المرجع ص ١٧٥

(٣) الحلل الموشية ص ٥١

كذلك عهد يوسف بن تاشفين إلى أبى عبد الله بن الحاج بفتح قرطبة ، وإلى أبى زكريا بن واسنو بفتح المرية ، وإلى حرور الحبشى بفتح رندة ، وإلى داود بن عائشة بفتح السهلة والبونت ومرسية . وقد علل يوسف بن تاشفين إسقاطه لملوك الطوائف بقوله : « إنمـــا كان غرضنا فى ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدى الروم ، لما رأينا استيلائهم عـلى أكثرها ، وغفلة ملوكهم ، وإهمالهم للغزو ، وتواكلهم ، وتخاذلهم ، وإيثارهم الراحة ، وإنما همة أحـدهم كأس يشربها ، وقينة تسمعه ، ولهو يقطـع به أيامه ، ولئن عشت لأعيدن جميع البـــلاد التى ملكها الروم فى طول هذه الفتنة إلى المسلمين ، ولأملأنها عليهم — يعنى الروم — خيلا ورجالا لاعهد لهم بالدعة ، ولا علم عندهم برخاء العيش ، إنما هم أحدهم فرس يروضه ويستفرهه ، أو سلاح يستجيده ، أو صريخ يلبى دعوته ... »[1] .

ولم يستثن من ملوك الطوائف سوى المستعين بالله أحمد بن هود ، صاحب سرقسطة ، فقد كان لا ينازعه ما فى يده ، « ولا تطرق لخلعه ، قبولا منـه للعفو ، وإقرارا فيما بينه وبين العدو ، لما تجده مضايقته من تصيير ما بيده إلى الروم ، فكان يلاطفه ، ووجه إليه ابن هود ولده عبد الملك (فى صحبـة وزيريه أبى الاصبع وأبى عامر) ، فقـام بحقه ، وصرفه مكرما ، وأصحبه كتابه »[2] . وكان ابن هود ، قد كتب إليه قائلا : « نحن بينكم وبـين العدو سد ، لايصل إليه ضرر ، ومطاعين قطوف ، وقد قنعنا بمسالمتكم »[3] .

---

(١) المراكشى ، ص ١٦٣

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الخاص بالأندلس ، ص ١٧٣ .

(٣) الحلل الموشية ص ٥٤ ، ٥٥ .

فرد عليه يوسف بن تاشفين رسالة ذكر ابن الخطيب نصها الكامل (١) .

ويعتقد الأستاذ الدكتور عفيف ترك أن المستعين كان يهدف من وراء هذه السفارة اجتذاب المرابطين إلى مظاهرة الإسلام فى الأندلس ، بعد أن ساء الوضع كثيرا عقب مقتل القادر بن ذى النون فى بلنسية فى ١٣ رمضان سنة ٤٨٥ هـ وماتلا ذلك من أحداث خطيرة ، حملت السيد الكنبيطور على حصار بلنسية ودخولها فى جمادى الأولى من سنة ٤٨٧ هـ . ولا يستبعد الدكتور عفيف ترك أن يكون المستعين بالله ويوسف بن تاشفين ، قد اتفقا على تطهير منطقة بلنسية من القشتاليين ، وتحريرها من احتلالهم ، ويذكر أنه قد « يكون من بين بنود المعاهدة أن يساعد يوسف المستعين بالله على استرجاع أراضى طرطوشة ولاردة من المنذر التجيبى، وضمها إلى مملكة سرقسطة لتكوين جبهة قوية مع المرابطين للوقوف أمام نوايا قطالونية وأرغون التوسعية . ومن المرجح أن تكون هذه السفاره الهودية قد وصلت إلى مراكش عندما انتهى ابن عائشة المرابطى من التغلب على مرسية ودانية فى الوقت الذى كان السيد فيه يضيق الخناق حول بلنسية فى أواخر سنة ١٠٩٣ (٤٨٦ – ٤٨٧ هـ) » (١) .

ولقد قامت العلاقات الودية بين ملك سرقسطة وبين يوسف بن تاشفين، ففى سنة ٤٩٦ هـ قدم ابن تاشفين إلى قرطبة ، فأرسل إليه المستعين بالله ابنه عبد الملك الملقب بعماد الدولة بهدية جليلة من جملتها ١٤ ربعا من آنية

---

(١) ابن الخطيب ، المرجع السابق ، ص ١٧٣ ، ١٧٤

(٢) Afif Turk, op. cit. p. 232-235

الفضة مطرزة باسم المقتدر بن هود (١) ، وظلت هذه العلاقات الودية قائمة في حياة المستعين ، إلى أن استولى المرابطون على سرقسطة في عهد عبدالملك عماد الدولة في ١٠ من ذي القعدة سنة ٥٠٣ هـ .

٥ ـ جهاد المرابطين في الاندلس منذ دخولها في فلك دولتهم في المغرب :

كانت رسالة المرابطين منذ بداية تدخلهم في شؤون الأندلس تهدف إلى إنقاذ الإسلام في الأندلس ، ولقد بذلوا حقا في هذا السبيل جهودا جبارة، وقضوا الستين عاما التي دامت فيها دولتهم بالأندلس في جهاد ومثاغرة ضد القشتاليين والأرغونيين . فقد تمكن القائد ابراهيم بن اسحق اللمتوني من هزيمة قوات النصارى بقيادة البرهانش في المدور جنوبي الأندلس ، ونجح داود بن عائشة في استرجاع حصن لييط . وكان الكنبيطور قد استولى على بلنسية في سنة ٤٨٨ هـ[٢] ، كما كان بدرو بن سانشو راميرث المعروف في المصادر العربية بابن ردمير ، ملك أرغون قد استولى على وشقـة من بلاد المستعين بالله أحمد بن هـود سنة ٤٩٠ هـ . ولكن القائد المرابطي محمد بن مزدلي نجح في استرداد بلنسية سنة ٤٩٥ هـ بعد وفاة الكنبيطور[٣] . وتبع ذلك استيلاء المرابطين على مربيطر والمنارة والسهلة وغـيرها من الحصون الموزعة في شرق الأندلس ووسطها ، وانتصروا عـــلى قوات الفونسو السادس في قنسوجرة ، وقونكة ، وملجون في سنة ٤٩٤ هـ . وفي عهـد الأمير علي بن يوسف ، تمكن المرابطون بقيادة تميم بن يوسف من هزيمة

(١) ابن الخطيب ، المرجع السابق ص ١٧٤

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ ٣ ، ص ٣٥٦

(٣) نفس المرجع ، ص ٣٠٦ ــ المقري ، جـ ٦ ص ١٩٨

قوات الفونسو السادس عند أقليش Uclès فى ١٧ شوال سنة ٥٠١ هـ ، وفى هذه الواقعة قتل الأمير سانشو بن الفونسو السادس من زايدة المسلمة ، كنة المعتمد بن عباد (١) ، كما قتل عدد كبير من مقاتلة النصارى وكانهم ، يبلغ نحو ٢٣ ألفا ، من بينهم سبعة قوامس ، ولذلك عرفت الموقعة بموقعة القوامس السبعة « Batalla de los Siete Condes » (٢) . وقد استولى المرابطون على أثر ذلك على مدينتى قونكة وويذة . وفى سنة ٥٠٣ هـ جاز على بن يوسف إلى الأندلس ، وخرب منطقة طليطلة ، واستولى على بعض الحصون، نخص بالذكر منها حصنى مجريط Madrid ووادى الحجارة . وفى ذى القعدة سنة ٥٠٤ هـ غزا الأمير سير بن أبى بكر الغرب ، وتغلب على شنترين وبطليوس وشنترة وبرتقال ويابرة وأشبونة . أما بالنسبة لمملكتى أرغون وقطالونية ، فقد لقى المرابطون منهما أشد العنـــاء بسبب غزوات الفونسو المحارب ملك أرغون . فى رجب سنة ٥٠٣ هـ ، هزم ملك أرغون المستعين بالله بن هود ، وقتله فى واقعة بلتيره ، واستولى على تطيلة ، ثم استردها منهم المرابطون وفى سنة ٥١١ هـ هزم الفونسو المحارب قوات المرابطين أمام سرقسطة ، فاضطروا إلى الانسحاب منها ، وفى سنة ٥١٢ هـ دخلها الفونسو المحارب ، واتخذها عاصمة له ، وضم بعد ذلك طركونة

---

(١) Lévi - Provençal, Islam d'Occident, Paris 1948, pp. 137-151 والترجمة العربية ، الاسلام فى المغرب والاندلس ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ١٥١ — ١٦٤ . وانظر أيضا : الونشريشى ، أسنى المتاجر فى بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، مجلة المعهد المصرى بمدريد ، ١٩٥٧ ، ص ١٨٩ ، ١٩٠ .

(٢) Codera, op. cit p. 9

وقلعة أيوب . وفى سنة ٥١٤ هـ كانت هزيمة المرابطين فى كتنـدة من حيز دروقة ، وتبع ذلك سقوط طرسونة ، وألجون ، ومدينة سالم ، ودورقة فى أيدى الأرغونيين . وفى عام ٥١٩ هـ ، كانت غزوه الفونسو المحارب الكبرى التى اخترق فيها بلاد المسلمين مخربا ومدمرا ماقابله من قرى وحصون ومراكز عمرانية ، حتى وصل بالقرب من غرناطة ، وانضم إليه المعاهدون من نصارى الأندلس ، وفى هذه الغزوة يقول صاحب الحلل الموشية : « وفى هذه السنة خرج الطاغية ابن ردمير إلى بلاد المسلمين ، بلاد الأندلس ، فتحركت له ريح الظهور ، وذلك أن النصارى المعاهـــدين بكورة البيرة خاطبوه بتلك الأقطار ، وتوالت عليه كتبهم ، وتواترت رسلهم ملحة فى الاستدعاء ، مطمعة بدخول غرناطة . . . فخرج إلى سرقسطة ، ومنها إلى بلنسية ، وانضم إليه عدد من النصارى المعاهدين الذين يرشدون طريق سيره ، واجتاز إلى جزيرة شقر ، ثم إلى دانيـــة ، فشاطبة ، فمرسية ، ثم برشانة ، ثم بسطة ، ووادى آش . . . ومازال فى سيره حتى بيانة واستجة ، وهزم المسلمين فى أليسانة ، ثم جاز على وادى متريل ، وعاد من حيث أتى بعد أن قضى عاما كاملا وثلاثة شهور »(١). وفى سنة ٥٢٨ هـ تطلع الفونسو

(١) الحلل الموشية ، ص ٦٦ — ٦٩ . وقد أورد ابن الخطيب خبر هذه الغزوة فى شىء من من التفصيل ، استنادا على ما رواه ابو بكـــر الصدق الغرناطى صاحب كتاب « الأنوار الجلية فى أخبار الدولة المرابطية » (أرجع الى الإحاطة فى أخبار غرناطه ، ص ١١٤—١٢٠) وقد أحس المسلمون بالخطر الذى تتعرض له الأندلس بعد هذه الغـــزوة الجريئة ، فأفتى القاضى أبو الوليد بن رشد بنفيهم الى بلاد المغرب. وهناك وثيقة مرابطية كتبها أبو عبد الله ابن أبى الخصال عن على بن يوسف بهذا الشأن (محمود على مكى ، وثائق تاريخية عن عصر المرابطين ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، ١٩٥٩ المجلد السابع ص ١٦٧)

المحارب إلى الاستيلاء على لاردة وإفراغة ، ولكنه انهزم هزيمة نكراء فى إفراغة على أيدى المرابطين ، وقوات ابن غانية وابن مردنيش بقيادة يحيى بن على (١) ، وفيها قتل أكثر رجاله . وتتفق الروايات على أن الفونسو المحارب لقى حتفه فى هذه الموقعة (٢) .

---

(١) الحميرى ص ٢٤

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الخاص بالأندلس ، ص ٢٥٩ — يوسف أشباخ ، تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، ص ١٦٥

(٤)

أسباب ضعف دولة المرابطين وانهيارها

لما توفى يوسف بن تاشفين فى سنة ٥٠٠ هـ خلفه ابنه على بن يوسف، وتلقب بلقب أبيه «أمير المسلمين» ، فجرى على سنن أبيه فى إيثار الجهاد ، وإخافة العدو ، وحماية البلاد ، وكان حسن السيرة ، جيد الطوية ، نزيه النفس ، بعيدا عن الظلم . وقد بلغ فى ذلك مبلغا كبيرا قربه من الزهاد المتبتلين من الملوك المتغلبين (١) . وكان على يقرب إليه أهل الفقه والدين ، فلا يقطع بأمر من أمور دولته دون مشاورة الفقهاء ، فأصبح للفقهاء فى أيامه سطوة وصولة لم يبلغوها من قبل . ويذكر المراكشى أنه «لم يكن يقرب من أمير المسلمين، ويحظى عنده إلا من علم علم الفروع ، أعنى فروع مذهب مالك ، فنفقت فى ذلك الزمان كتب المذهب ، وعمل بمقتضاها ، ونبذ ماسواها ، وكثر ذلك حتى نسى النظر فى كتاب الله ، وحديث رسول الله صلعم ، فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتنى بهما كل الاعتناء ، ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض فى شىء من علوم الكلام ، وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام ، وكراهة السلف له ، وهجرهم من ظهر عليه شىء منه ، وأنه بدعة فى الدين، وربما أدى أكثره إلى اختلال فى العقائد ، فى أشباه لهذه الأقوال، حتى استحكم فى نفسه بغض علم الكلام وأهله، فكان يكتب عنه فى كل وقت إلى البلاد بالتشديد فى نبذ الخوض فى شىء منه، وتوعد من وجد عنده شىء من كتبه ، ولما دخلت كتب أبى حامد الغزالى ـ رحمه الله ـ المغرب ، أمر أمير المسلمين باحراقها ، وتقدم

---

(١) المراكشى ، ص ١٧١

بالوعيد الشديد من سفك الدم ، واستئصال المـال إلى من وجد عنده شيء منها ، واشتد الأمر في ذلك » (١) .

كانت دولة المرابطين إذ ذاك في أوجها ، فقـد ترك يوسف بن تاشفين لابنه امبراطورية كبرى تمتـد من بجاية شرقا إلى السوس الأقصى غربا ، ومن السودان جنـوبا إلى سرقسطة والثغـر الأعلى في الأندلس شمالا ، ويبدو أن المرابطين أخذوا ينغمسون في الترف والرفاهية والرقة على مرور الأيام، وسادت الثقافة الأندلسية في مراكش، وأقبل رجال الأدب والعلم من الأندلس إلى بلاط الأمير في مراكش ، ومن أمثال هؤلاء أبو القاسم بن الجد ، وأبو بكـر محمد بن محمد المعروف بابن القبطرنة ، وأبو عبد الله بن أبي الخصال ، وأبو محمد عبد المجيد بن عبدون وغيرهم (٢) . غير أن هذا الإقبال على الترف ومظاهر الدنيا خفف من جفوة المرابطين وخشونتهم التي كان يعتز بها يوسف بن تاشفين عند مقارنتهم بالأندلسيين (٣). وسرعان ما نسي هؤلاء في غمرة هذه الحياة الجديدة المبـادىء الأولى التي قامت عليها حركة المرابطين ، وبالتدريج فقد الملثمون الصفات التي جعلت منهم رجال حرب مظفرين ، فتدهور حال جيش المرابطين في الأندلس . ولكننا لا يجب أن نبالغ في حكمنا على المرابطين ، فننسب هذا الضعف الذي اعترى دولة المرابطين إلى تراخي جنـودهم في الدفاع عن الثغور الاسلامية ، ففي ذلك ظلم كبير ، وتجني عليها ، والحقيقة أن هذا الضعف جاء أيضا ، وبصفة

(١) المرجع السابق ، ص ١٧٢ ، ١٧٣

(٢) ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، ص ٢٤٧

(٣) المراكشي ، ص ١٦٣

خاصة بسبب الضربات العنيفة التي كان يسددها نصارى إسبانيا إلى الأندلس، وتكتل ممالك قطالونية وأرغون وقشتالة والبرتغال ضدهم، كما لا ينبغى أن نغفل عاملا آخر فى غاية الأهمية، وهو قيام المهدى بن تومرت بالثورة على المرابطين فى بلاد المغرب، مما اضطرهم إلى صرف قسم كبير من جهودهم للقضاء عليها. والواقع أن المعارك المتواصلة التى خاضها المرابطون فى شبه الجزيرة، وبالذات فى شرق الأندلس والثغر الأعلى، هى التى استنزفت قوى المرابطين، وقضت على كل مواردهم، فلما طالبوا أهل الأندلس بمعونتهم هم تنكر هؤلاء لهم، وتحولوا عنهم، وطردوا فى نهاية الأمر ولاتهم عليهم، ودعوا الموحدين إلى دخول الأندلس. وقد بدت نذر الضعف الذى طرأ على دولة المرابطين فى أواخر أيام يوسف بن تاشفين نفسه، ويكفى دليلا على ذلك ماروواه المقرى من أن يوسف كتب إلى أهل المرية يطالبهم بالمعونة، فرد عليه قاضيها أبو عبد الله بن الفراء بكتاب رفض فيه أن يمده بالمال، وطلب منه أن يدخل الجامع بمراكش، فيقسم أمام الملأ بأنه ليس عنده درهم ولا فى بيت مال المسلمين، أسوة بما فعله الرسول صلعم، والخليفة عمر بن الخطاب، ثم وعده فى النهاية بالنظر فى معاونته إذا أثبت ذلك (١). وقد اضطر المرابطون إلى فرض ضريبة على أهل المرية وغيرها من مدن الأندلس الهامة، تعرف بالتعتيب أو التعطيب، يخصص دخلها لإقامة أسوار جديدة وترميم ماوهى من الأسوار القديمة (٢)، وذلك عندما

---

(١) المقرى، جـ ٤ ص ٣٥٧

(٢) الادريسى، ص ٢٠٠ — الحميرى، ص ٢٢٣ من الترجمة، ملحوظة ١

Torres Balbas, el Arte de al - Andalus bajo los Almoravides, al-Andalus, vol. XVII, 1952, p. 413 - Torres Balbas, —

تعرضت الأندلس لغزوة الفونسو الأول المحارب سنة ٥١٩ ، التى اخترق فيها كل بلاد الأندلس حتى غرناطة وشواطىء البحر المتوسط .

ولقد صرف على بن يوسف الجزء الاعظم من جهوده فى متابعة شؤون الأندلس ، ومراعاة أحوالها ، فقدم بنفسه إليها أربع مرات ليتفقد بنفسه أحوالها ، ويسد خللها ، وشغل المرابطون فى الأندلس بمقاتلة النصارى ، والحد من نشاطهم فى التوسع على حساب دولة المسلمين فى الأندلس ، وجندوا فى سبيل ذلك كل طاقاتهم ، وسخروا جميع إمكاناتهم ، إلا أن العدو المتربص كان يشن هجومه فى كل مكان فى الأندلس ، فتعددت جبهات القتال ، وتوزعت قوى المسلمين فى هذه الجبهات . وبالرغم من كل هذه الجهود العظيمة التى بذلها المرابطون للجهاد ونصرة الإسلام فى الأندلس ، فقد تكسرت هذه الجهود أمام تقاعس أهل الأندلس عن مساعدتهم ، وتخاذلهم وتراخيهم فى المساهمة فى مدافعة النصارى ، بل كنا نراهم أكثر من ذلك يتحالفون مع النصارى ضد المرابطين (١) ، ويثورون عليهم للتخلص

= Almeria Islamica, al - Andalus, vol, XXII, 1957, p. 444.

ومما يدل على فراغ خزانة المرابطين ، واستهتار أهل الاندلس بأمر الدفاع عن مدنهم أن سور اشبيلية فى عهد المرابطين كان يحتاج الى الترميم بعد سيل أتى على جانب منه ، ولم يكن باشبيلية يومئذ مال متوفر ، ففرض القاضى أبو بكر بن عربى على الناس جلود ضحاياهم فى عيد الاضحى ، فاحضروها كارهين ، ثم اجتمعت العامة العمياء ، وثارت عليه ونهبت داره ، فاضطر الى اقامة السور من ماله الخاص (المقرى ، ج ٢ ص ٢٣٤، ٢٣٥)

(١) من أمثلة ذلك انحياز عبد الملك بن أحمد المستعين الى جانب ملك قشتالة ، وتسببه فى ضياع سرقسطة نهائيا من المسلمين ، سنة ٥١٢ هـ ، وتعلق ابنه أحمد القائم بثغر روطة بأذيال ابن ردمير (الفونسو المحارب ملك أرغون) وتنازله عن روطة (ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الخاص بالأندلس ، ص ١٧٥ ، ١٧٦)

من تبعيتهم لهـم (١) . أما تعليل المراكشى لحـالة الضعف التى أصابت دولة المرابطين بالاختلال الذى طرأ عليهم فى آخر دولة على بن يوسف ، نتيجة تخاذلهم ،وتواكلهم ، وطاعتهم للنساء ،فمقالة ظالمة ،وتحامل صريح، وتجاهل لحقيقة الأوضاع السياسية فى الأندلس ، يبرره تحيز المراكشى للمصامدة الموحدين ، وميله إلى قضيتهم .

ولما توفى على بن يوسف فى سنة ٥٣٣ هـ ، وخلفه ابنه تاشفين ، توالت عليه الهزائم فى المغرب على أيدى عبد المؤمن بن على خليفة الموحدين ، واستغل أهل الأندلس هذه الفرصة ،وأعلنوا ثوراتهم فى الأندلس ،فتمزقت البلاد من جديد بعد وفاته سنة ٥٣٩ هـ إلى دويـلات للطوائف ، واستعان هؤلاء الثوار على المرابطين بجيوش قشتالية وبرتغالية ، ومن بين هؤلاء الثوار ابن وزير ، وأبو محمد سدراى ،ويوسف البطروجى،ولبيد بن عبد الله بشنترين، وأبو القمر بن عـزوز بشريش، وابن عياض بشرق الأندلس ، وعلى بن عيسى بن ميمون بقادس ،ومحمد بن على الحجام ببطليوس،ومحمد بن المنذر بشلب ، وابن عنان بيابرة ، والقاضى ابن حمـدين بقرطبة ، والقاضى أبو الحكم بن حسون بمالقة ، والقاضى أبو مروان عبد الملك بن عبد العزيز ببلنسية ، ثم خلفه عبد الرحمن بن عياض ، فمحمد بن سعد الجذامى المعروف بابن مردنيش الذى ضم إليه مرسية . ومن الثوار أيضـا القاضى أبو أمية أحمد بن عاصم بأوريولة ، والقاضى يوسف بن عبد الرحمن بن جزى بجيان،

---

(١) ثار أهل قرطبة على الأمير على بن يوسف فى سنة ٥١٥ هـ (الحلل الموشية ، ص ٦٣) . وفى أواخر عصر دولة المرابطين قامت الثورات فى سائر أنحاء الأندلس ضد المرابطين منها ثورة الصوفية أو المريدين فى غرب الأندلس ورائدها ابن قسى بمرتلة .

وأحمد بن ملحان بوادى آش أما المرية فقد ثار أهلها كذلك على المرابطين، ودخلت فى فلك دولة الموحدين ، فتولى على جيوش الموحدين فيها عبد الله ابن سليمان الذى قتله البحريون (١) . وكان أول ولاة الموحدين عليها من قبل عبد المؤمن بن على ، وال يقال له يوسف بن مخلوف ، فثار عليه أهل المرية وقتلوه ، وعرضوا رئاستهم على قائد البحر محمد بن ميمون ، فلم يقبل ، فقدموا على أنفسهم أبا يحيى ابن الرميمى ٢ فضبطها إلى أن استولى عليها الفونسو السابع ريموند الملقب عند مؤرخى العرب بالسليطين ملك قشتالة(٣)، فى ٢٠ جمادى الأولى سنة ٥٤٢ ﻫ ، ودخلها عنوة (٤) .

ونعود إلى الحديث عن أسباب ضعف دولة المرابطين فنذكر منها أيضا أن فقهاء المرابطين لم يولوا دراسة الحديث من الاهتمام ما تستحقه ، فنراهم ينصرفون عنه ولا يرجعون إلى الأصول لكى يستنبطوا منها الأحكام ، ويتخذوها مادة للدراسة ، وإنما اكتفوا بتلك الأحاديث المجموعة فى كتب الفروع ، وجعلوها مرجعهم الوحيد من غير تحفظ ، كما أشرنا إلى ذلك . ويعلق الأستاذ ليفى بروفنسال على ذلك بقوله : « وكان من أثر هجر الفقهاء لدراسة الحديث وما يتصل به من مصادر أن ألغى علم أصول الفقه

---

(١) البيذق ، ص ١٢٦

(٢) المراكشى ، ص ٢١٠ ــ المقرى ، ج ٦ ص ٢٠٦

(٣) مجموع رسائل موحدية من كتاب الدولة المؤمنية ، نشرها ليفى بروفنسال ، الرباط ١٩٤١ ، ص ٧٥ ــ المقرى ج ٦ ص ٢٠٧

(٤) استولت عليها قوات قشتالية ونبرية وقطلانية وبيزية وجنوية مشتركة (Codera, op. cit. p. 135) ، يوسف أشباخ ، تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، ص ٢٢٥)

الذى تستنبط بمقتضاه أحكام قد تكون جديدة ، وأدى الإعتماد على الفروع التى تتضمنها كتب المذهب إلى تجـريد الدراسة من روح الكشف الجذابة ، وانساق القوم وراء التقليد، وانصرفوا عن النظر والاجتهاد، وكان موقف الدراسات الـكلامية فى موضعه من الجمود المشتهى عند ظهور دعوة ابن تومرت ، ومن هنا لم يلبث هذا الناقد البربرى حين عاد من المشرق أن صدمته العقيدة السائدة فى المغـرب ، وراح يناهضها بأقصى قوة ، إلا أن ذلك لم يكن قط المأخذ الوحيد الذى أخذه المهدى المقبل على المرابطين ، بل كان هناك ماهو أشد خطرا فى رأيه ، ألا وهو التجسيم ، وكان منشأ هذا الخطأ فى نظره ، أن فقهاء المغرب فى عهد المرابطين خلافا لزملائهم فى المشرق ، وقد بلغوا حينئذ من التطور غايته فيما يتعلق بمباحث علم الـكلام ، ظلوا يلتزمون فى الآيات القرآنية التى فيها ذكر لصفات الله النص الحرفى لها مما يفضى إلى تجسيم للـذات الإلهية ، وإلى إثبات صفات جسمانية له تعالى ، كانت هناك بطبيعة الحال عقبة كأداء بين هذه النظرية القائمة على التفسير الساذج لما تعبر عنه النصوص الأصلية وبين النظرية القائلة بالتنزيه المطلق على نحو ماتعلمه ابن تومرت من أساتذته المشارقة ، واعتنقها فى حماس كبير » (١) .

كذلك أثارت قراءة كتاب إحياء عـلوم الدين للغزالى فى بلاد المغرب موجة من الغضب عند فقهاء المرابطين ، لأن قراءة الناس لهذا الكتاب كانت شؤما على نفوذهم الهـائل ، إذ كان الغزالى قد فضح فيه نزعات الفقهاء فى دراساتهم الفقهية ، وحرصهم على الدنيا ، وطمعهم فى الحصول على المناصب الرفيعة ، وحسدهم للعلماء والزهاد . ولم يكن العلم فى نظره حرفة كالحرف

---

(١) ليفى بروفنسال ، الإسلام فى المغرب والأندلس ، ص ٢٥٠

الأخرى ، أو مهنة دنيوية تعود على صاحبها بالربح العاجـــل ، وإنما هو « عبادة القلب ، وصـلاة السر ، وقربة الباطن إلى الله تعالى » (١) ، فاتخذ الفقهاء فى المغرب قرارا أملوه على السلطـان على بن يوسف سنة ٥٠٣ هـ ، ويقضى باحراق كتب الغزالى فى أنحاء دولة المرابطين . وكان من الطبيعى أن يثور أهل المغرب على هذا التصرف ، ولكن الفرقة المسيحية التى استعان بها على بن يوسف فى المغرب ، وكان يقودها القائد القطلاني روبرتير كانت تحول دون قيام الأهالى بالثورة . ولذلك نبعت الثورة من مصدر آخر هو ثورة المهدى بن تومرت (٢) .

---

(١) أبو حامد الغزالى ، احياء علوم الدين ، ج ١ ص ٤٥ ، طبعة مصر سنة ١٣٠٢ هـ
(٢) السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الاسلامى ، ص ١٣٨

(٥)

منشآت المرابطين فى المغرب

ا ـ دور المرابطين السياسى والحضارى فى المغرب :

لما تم ليوسف بن تاشفين فتح بلاد المغرب سنة ٤٧٦ هـ ، استطاع الصنهاجيون أن يفرضوا نفوذهم فى القسم الغربي من بلاد المغرب ، ويهزموا أعداءهم الزناتيين الذين لم يتمكن الفاطميون ، أو أمراء بنى زيرى من التغلب عليهم ، وبذلك ربط المرابطون بين بلاد المغرب ، وألفوا دولة كبرى بربرية الأصل لا يحكمها مشارقة ، كما كان الحال فى العهود السابقة (١) . ويرجع إليهم الفضل فى تكوين الوحدة السياسية للمغرب الأقصى ، فلم يكن المغرب الأقصى حتى ظهور المرابطين دولة قائمة بذاتها ، فالى يوسف بن تاشفين يرجع الفضل فى ضم الأراضى المغربية للمرة الأولى فى وحدة وثيقة تحت لواء أسرة واحدة ، وستظل هذه الوحدة قائمة حتى العصر الحاضر .

أما من ناحية البناء الاجتماعى والاقتصادى ، فقد كان للمرابطين الفضل فى قيام تجمعات عمرانية هامة مثل مكناس وتلمسان ومراكش (٢) على الرغم من قضائهم على التكتل البرغواطى أساس قوة السهول المغربية ، وتدميرهم للقرى والمجاشر أثناء صراعهم مع قبائل زناتة وبرغواطة .

ومن الناحية الدينية عمل المرابطون على نشر المذهب المالكى فى البلاد ، فانتهى الأمر بالمغرب إلى ارتباطه بوحدة مذهبية وثيقة تقوم أساسا على

---

(١) Marçais, le Berberie, p. 231

(٢) Terrasse, Histoire du Maroc, t. 1, p. 257

المذهب المالكي . كذلك يرجع إلى المرابطين الفضل في رفع راية الجهاد ضد النصارى في إسبانيا ، فأنقذوا بذلك الاسلام في إسبانيا من استرداد مسيحي وشيك .

أما من الناحية الفنية ، فالمرابطون هم الذين دفعوا الحضارة الأندلسية إلى الأمام، وفتحوا أبواب المغرب ليتلقى فيضا من التأثيرات الأندلسية التي بدأت تتدفق في عصرهم على البلاد المغربية ، بعد أن كانت هذه الأبواب موصدة في العصور السابقة أمام هذه التأثيرات ، فلم تكن تنفذ منها إليها إلا ما كان يتسلل عن طريق منافذ فتحها الأمويون في سبتة وفاس . ولأول مرة ارتبط المغرب والأندلس في وحدة فنية وثيقة ، وأصبحت الأندلس في المجال الفني أستاذا للمغرب ، فساد الفن الأندلسي في المغرب ، وظهرت تقاليده واضحة وضوحا تاما فيما تخلف من آثار المرابطين في المغرب (١) . وإذا كان يوسف بن تاشفين قد أبدى امتعاضه عند زيارته لإشبيلية من مظاهر الترف الأندلسي ، فانه لم يلبث أن شجع شعراء الأندلس وأدباءها وأهل العلم منها إلى الوفود إليه ، بعد أن أسقط ملوك الطوائف ، فاصطنعهم في بلاطه ، وفي ذلك يقول المراكشي : « فانقطع إلى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم ، واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة مالم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار » (٢) . ومن هؤلاء أبو بكر

---

(١) Tarrasse, l'art Hispano mauresque, Paris 1932, p. 223-
Marçais, l'Architecture musulmane d'Occident. pp. 185 - 187

(٢) المراكشي ص ١٦٣ — ١٦٤

المعروف بابن القصيرة ، كاتب المعتمد ، وكان من أهل البلاغة ، ثم الوزير أبو محمد عبد المجيد بن عبدون ، وأبو القاسم بن الجد المعروف بالأحدب ، وأبو بكر محمد بن محمد المعروف بابن القبطرنة ، وأبو عبد الله بن أبى الخصال ، وأخوه أبو مروان وغيرهم (١) . وعلى هذا النحو تبدل بلاط يوسف بن تاشفين دفعة واحدة من بلاط يتسم بالخشونة والبساطة إلى بلاط متأنق متحضر (٢) ، وأخذ أمراء المرابطين منذ أيام يوسف بن تاشفين يستقدمون من الأندلس كثيرا من رجال الفن والبناء ، ويشركونهم فى الأعمال الفنية بالمغرب ، فقد ذكر الأدريسى أن على بن يوسف عندما عزم على بناء قنطرة على وادى تنسيفت ، استقدم من الأندلس الخبراء فى بناء القناطر (٤) . ويذكر الأستاذ تراس أن حصن تاسغيموت الذى أقيم فى سنة ١١٢٥ م فى عهد الأمير على بن يوسف تم بناؤه تحت إشراف مهندس أندلسى هاجر إلى مراكش ، اسمه الفلكى (٤) ، وإن كان البيذق يذكر أن الذى بناه هو ميمون بن ياسين (٥) . ويذكر الجزنائى أن على بن يوسف أمر قاضيه أبى محمد عبد الحق بن عبد الله بن معيشة الغرناطى بعمل منبر جامع القرويين بفاس (٦) . كذلك تدل الآثار المعمارية الباقية فى تلمسان

---

(١) نفس المرجع ص ١٧٣ ، ١٧٤

(٢) ليفى بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والأندلس ، ص ٢٤٧

(٣) الأدريسى ، ص ٦٩

(٤) Terrasse, l'art hispano mauresque, pp. 226, 227

(٥) البيذق ، ص ١٢٨

(٦) الجزنائى ، ص ٤٢

والجزائر ومراكش على ان فنانين ومهندسين أندلسيين ساهموا مساهمة فعالة في بنائها وتزيينها بالزخارف على النحو الذى سنراه فيما بعد .

ب ـ دراسة لاهم مساجد المرابطين فى المغرب :

اهتم المرابطون ببناء المساجد اهتماما خاصا ، والدليل على ذلك أن يوسف ابن تاشفين عندما دخل مدينة فاس فى سنة ٤٦٢ هـ « حصنها وأتقنها ، وأمر بهدم الأسوار التى كانت بها فاصلة بين المدينتين ، عدوة القرويين وعدوة الأندلس وردها مصرا واحدا ، وأمر ببنيان المساجد فى أحوازها وأزقتها وشوارعها، وأى زقاق لم يجد فيه مسجدا عاقب أهله وجبرهم على بناء مسجد فيه ... » (١) . ولما هدم الأسوار الفاصلة بين مدينتى فاس ووحدهما ، أصبح جامع القرويين الجامع الرئيسى بفاس ، ولذلك حظى هذا الجامع فى عهد ابنه على بن يوسف بزيادة كبيرة فيه ، بينما ترك جامع الأندلس على حاله حتى أضيف إليه فى عصر محمد الناصر الموحدى سنة ٦٠٠ هـ . كذلك أسس يوسف بن تاشفين عددا من المساجد فى جزائر بنى مزغنة وفى ندرومة وفى تاكرارت بتلمسان ، كما أسس جامع مراكش ، وكان يعمل فى الطين والبناء بيده مع القومة والفعلة . وقد أعاد ابنه علي بن يوسف بناء هذا الجامع بجوار قصر الحجر فشيده بناء فاخرا .

وجامع تلمسان بناء مستطيل الشكل طوله من الشمال إلى الجنوب ٥٥ مترا، وعرضه من الشرق إلى الغرب ٥٠ مترا . وتاريخ بناء هذا الجامع مسجل فى كتابة نسخية تدور بقاعدة قبة المحراب ، وتشير إلى الفراغ من بنائه فى

---

(١) روض القرطاس ، ص ٩١

سنة ٥٣٠ هـ ، أما اسم منشيء هذا الجامع ، وهو الأمير علي بن يوسف ، الذي كان منقوشا فى الجص ، فقد شوهه الموحدون عند دخولهم المدينة . ويتألف المسجد من بيت للصلاة مستطيل الشكل ، وصحن مربع تكتنفه من الغرب مجنبة تتألف من أربع بلاطات ، الاثنتان المتطرفتان منها غير كاملة ، إذ تحدد شكلها بالبناء القـــائم لصق الجامع من الجهة الغربية . أما المجنبة الشرقية فتتألف من ثلاث بلاطات تعتبر امتداداً لبلاطات بيت الصـلاة . ويشتمل بيت الصلاة على ١٣ بلاطة عمودية على جدار القبلة ،وتستند عقود الجامع على خمسة صفوف من الدعائم تمتد بحذاء جدار القبلة ، كل منها يشتمل على ١٢ دعامة . هـذه الصفوف من الدعائم تقسم سطح بيت الصـلاة إلى ٦ أساكيب تمتـــد من الشرق إلى الغرب ، وبمعنى أصح إلى مجموعتين من الأساكيب كل منها يضم ثلاثة . وتفصل بين المجموعتين دعائم مصلبة الشكل تقوم عليها بائكة من العقود المتعددة الفصوص ، تقطع المسجد عرضا بحذاء جدار القبلة . أما العقود الاخرى المتجهة عموديا على جدار القبلة فمن النوع المنفوخ الذي يشبه حدوة الفرس . وسقف المسجد خشبي مسطح ، يعـلوه سطح منشوري الشكل أو مسنم على النحو المتبع فى جامع قرطبة . والبلاطة الوسطى تزيد فى الاتساع عن البلاطات الأخرى ، ويقطع سطحها قبتان ، يعلوها جوسقان من الخارج ، واحدة منها تقع بأعـلى الأسطوان الأوسط من القسم الشمالي من البلاطة الوسطى ، أي فى نفس الموضـــع تقريبا الذي تقوم عليه القبة المخرمة الكبرى المساة بقبة فلافسيوسا بجامـع قرطبة . أما القبة الثانية فتتقدم المحراب ، وهي قبة من النوع القائم على الضلوع المتقاطعة، تذكرنا بقباب المسجد الجامع بقرطبة وقباب مسجد باب مردوم بطليطلة ، وتختلف عنها فى أنها تقوم على جوفات ركنية مقربصة ، وينبت من القاعدة

المربعة للقبة ١٢ عقدا كبيرا بارزاً تتقاطع فيا بينهما تاركة فى الوسط قبيبة مقربصة ، وتزدان الفراغات الناشئة من تقاطع العقود بتوريقات مفرغة فى الجص ، ويتجلى تقاطع العقود من الخارج أيضا . وكان يحيط بأسطوان المحراب ، أى بأدنى قاعدة هذه القبة مقصورة من الخشب ، حفظت أجزاء منها فى متحف تلمسان ، ويرجع تاريخ إنشائها إلى سنة ٥٣٢ هـ .

وبناء جامع تلمسان مر بثلاث مراحل : المرحلة الأولى عند بنائه على أيام يوسف بن تاشفين فى سنة ٤٧٥ هـ (١٠٨٢ م) ، والثانية فى سنة ٥٣٠ هـ عندما زينه على بن يوسف بالزخارف الرائعة التى يزدان بها خاصة فى وجه المحراب وجداره والبلاطة الوسطى . ويعتقد الأستاذ مارسيه أن يغمراسن ابن زيان ، من سلاطين بنى عبد الواد ، هو الذى أضاف إلى الجامع القسم الشمال من مسطح بيت الصلاة بما فى ذلك القبة الثانية والصحن والمئذنة [1]. ونعتقد أن بيت الصلاة كان قائما فى عهد على بن يوسف بقبتيه اللتين ترتفعان فى أعلى بلاطة المحراب ، وأن مهندس هذا الجامع تأثر فى بنائه ببناء جامع قرطبة من هذه الناحية ، وفى هذه الحالة تصبح أعمال بنى عبد الواد مجرد ترميات لبناء كان قائما بالفعل منذ أيام على بن يوسف . أما المسجد الجامع بالجزائر ، فقد أقيم أيضا فى عهد يوسف بن تاشفين ، ويعتقد الأستاذ مارسيه أنه أسس فى سنة ٤٩٠ هـ ، وهو التاريخ المسجل على منبر الجامع [2] ، وإن كنا نعتقد أن هذا المسجد أقيم قبل هذا التاريخ فيا بين عامى ٤٧٣ هـ ، ٤٧٥ هـ . وبيت الصلاة فى هذا المسجد يشتمل على ١١ بلاطة

---

(١) Marçais, l'Architecture musulmane, p. 197

(٢) Marçais, l'Architecture mus. p. 191

عمودية على جدار القبلة ، تخترقها خمسة أساكيب عرضية . ونلاحظ أن كل من بلاطة المحراب وأسكوبه تزيد فى الاتساع على البلاطات والأساكيب الأخرى . ويحيط بالصحن ثلاث مجنبات : الشرقية والغربية تشتمل كل منها على ثلاثة أروقة تمتد بامتداد بلاطات بيت الصلاة ، أما الشمالية فلاتضم إلا رواقا واحداً . وعقود المسجد العمودية على جدار القبلة من النوع المنفوخ المنكسر ، أما الموازية للجدار القبلى فمفصصة ، وترتكز هذه العقود كما هو الحال فى جامع تلمسان على دعائم ، بعضها مستطيل الشكل والبعض الآخر منها مصلب الشكل (١) .

ومن أروع آثار المرابطين ، قبة البروديين بمراكش ، وترجع إلى عصر على بن يوسف ، وتقع فى وسط المدينة ، وكانت تؤلف جزءا من ملحقات جامع على بن يوسف ، وهى من أروع القباب المرابطية الباقية ، وتقوم فى أركان المثمن الذى يقوم عليه عنق القبة جوفات ، تكسوها زخارف حصية رائعة ، من التوريقات الدقيقة التى تمثل أوراق الأكنتس فى تكوينات رائعة ، وتتوسط الجوفات قواقع مروحية فى غاية الروعة والجمال (٢) .

ج — جامع القرويين بفاس :

وأعظم آثار المرابطين على الإطلاق الجامع المعروف بالقرويين بفاس ،

---

(١) Ibid.

(٢) Boris Maslow, la Qoubba Barudiyyin à Marrakech, al-Andalus, vol. XXII 1948 - Marçais, l' architecture musulmane d'dOccident, p. 200

الذى يعتبر من أهم المساجد الجامعة فى بلاد المغرب ، وأكثرها شهرة ، باعتباره جامعة إسلامية قديمة يمكن مقارنتها بجامعة الأزهر فى القاهرة . وقد كان لهذا الجامع أثر بالغ فى مساجد فاس كلها ، إذ كان نظامه الفريد يؤلف طابعا انتشر فى كثير من مساجد فاس ومكناس ومراكش حتى وقتنا الحاضر (١) . وقد وصل إلينا تاريخ بناء جامع القرويين بفاس مفصلا بفضل روايات أوردها ابن أبي زرع فى روض القرطاس والجزنائى فى زهرة الآس . ولقد مر بناء جامع القرويين بثلاثة أدوار : الأول عند تأسيسه سنة ٢٤٥ هـ (٨٥٩ م) (٢) ، والثانى عند الزيادة فيه سنة ٣٤٥ هـ (٩٥٦) . والثالث عندما زيدت مساحته فى عصر المرابطين فى سنة ٥٣٠ هـ (١١٣٥ م) . ومن الثابت أن الزيادات التى أضيفت إلى الجامع القديم تمت من سائر الجهات .

ويذكر ابن أبى زرع أن الخطبة لم تزل « بجامع الشرفاء الذى بناه إدريس بعدوة القرويين ، وبجامع الأشياخ من عدوة الأندلس طول أيام

---

(١) Lambert, les mosquées de type andalou en Espagne et en Afrique du Nord, al - Andalus, vol. XIV, 1949

(٢) عثر الأستاذ عبد الهادى التازي في الأرض التى كان يقوم عليها المسجد الأول على لوحة تأسيسية للجامع تتضمن النص التالى: [هذا مما أمر به الإمام أعزه الله داود بن ادريس أبقاه الله ونصره] ، ويستنتج الأستاذ التازى أن هذا المسجد أقيم فى سنة ٢٦٣ فى ايام الامام داود بن ادريس . (أنظر مقاله: نظرية جديدة فى بناء جامعة القرويين ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، ١٩٥٨ ، ومقاله : الحروف المنقوشة بالقرويين فى خدمة الآثار ، المؤتمر الثالث للآثار في البلاد العربية ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٤٤٦) ، ولما كان هذا النص لا يشير الى بناء معين فالأرجح أنه يشير الى بنية ملحقة بالجامع وليس من الضرورى أن يكون خاصا ببناء الجامع

الادارسة » ، فلما اتسعت مدينة فاس ، ووفد إليها العرب والبربر من أنحاء المغرب والأندلس ، ضاق كل من الجامعين بالمصلين ، واستلزم الأمر بناء جامعين جديدين ، وكان فى جملة هؤلاء الوافدين رجـل عربي من القيروان اسمه محمد بن عبد الله الفهرى ، فمات وترك أمـوالا كثيرة ورثتها ابنتـاه : فاطمة المدعوة بأم البنين ، ومريم . وأبدت الابنتسان رغبة صادقة فى صرف قسم من هذا الإرث الكبير فى عمل البر والخير ، ويبدو أنهما سمعتا بضيق جامعى العدوتين ، عن الاتساع لجمهور المصلين ، وقيام مشكلة بناء جامعين جديدين ، فشرعت فاطمة فى بناء جامع القرويين فى مستهل رمضان سنة ٢٤٥ هـ ، وكان فى موضعه حقل يمتلكه رجل من هوارة، فاشترته منه فاطمة وتطوعت بالإنفاق على البناء من إرثها . وتذكر الرواية أن جميع مواد بناء الجامع استخرجت من أرض المسجد نفسه ، وفى ذلك يقول الجزنائى : « فحفر فى أرضه ، وأخذ منها التراب والكذان لبنائه ، وحفر بهـا بئر لأخذ الماء لبنائه، ونصبت قبلته على نحو قبلة جامع الشرفاء الذى أسسه الإمام إدريس » (١) . وكان هذا الجامع الأول يتألف من قسمين : بيت الصلاة والصحن ، وكان بيت الصلاة يشتمل على أربع بلاطات عرضية تمتد من الشرق إلى الغرب ، تتوسطها بلاطة وسطى أكثر ارتفاعا من البلاطات العرضية الاخرى . كان طول بيت الصلاة من الشرق إلى الغرب مائة وخمسين شبرا أي ما يعادل ٣٠ مترا ، وجعلت فاطمة محرابه فى موضع الثريا الـكبرى الموجودة فى المسجد فى الوقت الحاضر ، وأقامت صومعة غير مرتفعة فى

---

(١) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٢١ الجزء الأول ، ص ٣٥ — ابن القاضى ، جذوة الاقتباس عن ليفى بروفنسال Extraits ، ص ٢٢

موضع القبة التي تعلو العنزة الحالية . ويذكر الأستاذ جورج مارسيه أن هذه المعلومات التي زودنا بها المؤرخان السابقان على جانب كبير من الأهمية لأنها أتاحت لنا تحديد المكان الذي كان يشغله بيت الصلاة القديم من جامع القرويين في صورته الحاضرة . ويؤكد الأستاذ مارسيه ، ويؤيده في ذلك الأستاذ لامبير أن طول بيت الصلاة القديم كان يمتد من بداية البلاط الرابع من الصحن حتى نهاية البلاط السابع من المسجد الحالي ، وكان عرضه يشتمل على العقود الاثني عشرة الوسطى المحصورة بين البلاطات المذكورة ، ويحدد هذا العرض صفان من العقود تقطع بيت الصلاة من الصحن حتى جدار القبلة . أما الصحن القديم فكان يشغل الأروقة الثلاثة الأولى ابتداء من العنزة ، في حين كانت المئذنة تقوم على الواجهة الشمالية للمسجد في محور المحراب ، شأنها في ذلك شأن مئذنتي جامع القيروان وجامع قرطبة ، ومئذنة العروس بجامع دمشق (١) .

وظل المسجد على هذه الصورة القديمة حتى دالت دولة الادارسة ، فلما تولى بنو زناتة حكم البلاد ، واستقام أمرهم بالمغرب ، بنوا الأسوار حول أرباض العدوتين ، وزادوا في جامع القرويين زيادة كبرى ، حدودها ظاهرة حتى اليوم ، تشمل بلاطات وصومعة ، وذلك حين كثر الناس بفاس ، وانتابوها من كل صوب ، وأصبح جامع الشرفاء القديم ضيقا لا يتسع لكل من كان يؤمه من المصلين ويمكننا تحديد هذه الزيادة بالنسبة للمسجد الحالي على النحو التالي ، مد الأمير أحمد بن أبي بكر البلاطات العرضية مسافة خمسة

(١) Marçais, l'architecture, p. 198 - Lambert, les mosquées de type andalou.

عقود شرقا وأربعة عقود غربا ، ثم أضاف لبيت الصلاة ثلاث بلاطـــات غرضية جديدة شمالا ، فشغلت هذه البلاطات الجديدة الصحن القديم (١) . وبطبيعة الحال قام لبيت الصلاة بعد اتساعه صحنا جديدا. أما المئذنة التي أقامها فتقوم فوق منتصف الرواق المطل على الصحن من المجنبة الغربية ، وقاعدة هذه المئذنة مربعة ، طول كل ضلع منها نحو خمسة أمتار ، وارتفاعها أربعة أمثال طول قاعدتها ، أى ما يقرب من عشرين مترا ، وفقا للنظام المتبع فى مآذن الأندلس فى العصر الأموى ، وجعل بابها من جهة الجنوب على النحو المتبع فى مئذنة جامع القيروان ، وقد علق ابن أبي زرع على ذلك بقوله : « كذلك يجب أن تكون من جهة البناء والنظر الهندسى » . ولقد شرع الأمير أحمد فى بنائها وتشييدها عام ٣٤٤ هـ ، وفرغ منـــه فى ربيع الآخر سنه ٣٤٥ هـ ، وبنيت من الحجر المنجور المحكم ، وركبت على رأسها تفاحات صغيرة مموهة بالذهب ، تنتهى بسيف الإمام إدريس بن إدريس الذى أقام عدوة القرويين تبركا به (٢) .

ونلاحظ أن هذه المئذنة تشبة إلى حد كبير مآذن قرطبة وإشبيليـــة فى عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وإن كانت تغلب عليها البساطة . وفى داخلها درج حلزوني يدور حول دعيمة مربعة ، وبجدرانها من الخـارج فتحات ضيقة تشبه منافذ السهام، كان الغرض منها تزويد الدرج بالضوء ، وبأعلى المئذنة نافذة على هيئة عقدين توءمين متجاورين ، يستندان على عمود مشترك ، ويحيط بها إطار مستطيل على النحو الذى نراه فى مآذن الأندلس

---

(١) الجزنائى ، ص ٣٦ ــ جذوة الاقتباس ، ص ٢٤

(٢) نفس المرجع ، ص ٣٧

كلها ،وفى أعلى نهاية جدار المئذنة شرفات هرمية . أما سطح المئذنة فتعلوه قبة ، يتوجها سفود بارز ركبت به التفاحات المذكورة (١) .ولم تحتفظ هذه المئذنة بمظهرها القديم فى عصر بنى أمية ، إذ كسيت بطبقة من الجص فى سنة ٦٨٨ هـ (١٢٨٩ م) ، فقد أمر السلطان أبو يعقوب يوسف بن عبد الحق المرينى قاضيه أبا عبد الله بن أبي الصبر باصلاحها وتبييضها من أموال أعشار الروم ،فشرع فى تبييضها، وكسا المئذنة بالجص والجيار ،وسمر المسامير الكبيرة بين أحجارها، ليثبت التلبيس والبناء ، ثم صقلها بعد ذلك حتى أصبحت كالمرآه المصقولة ، بعد أن كانت الطيور تتخذ من بعض فتحات بها أوكارا[٢] . ولم يطرأ على المسجد تغيير يذكر حتى كانت أيام الخليفة الأموى هشام المؤيدوحاجبه المنصور بن أبى عامر ، فبنى بالمسجد قبة هى التى تعلو العنزة الحالية أى فى الموضع الذى كانت تشغله المئذنة القديمة، ونصب على رأسها أعمدة من حديد ركبت فيها تماثيل وطلاسم . ولقد أجريت بالمسجد أعمال كثيرة فى عهد المظفر عبد الملك بن المنصور ،فبنى البيلة والسقاية المستطيلة على يسار الخارج من باب الحفاة وهو باب مفتوح فى منتصف الجدار الشمالى للمسجد ، وجلب إليها المياه من وادى حسن من جهة باب الحديد ، كذلك أقام عبد الملك بن المنصور منبرا من الأبنوس وشجر العناب ، وكان مكتوبا عليه « بسم الله الرحمن الرحيم ،وصلى الله

---

(١) فيما يختص بالمآذن القرطبية ارجع الى المقال الآتى:

Torres Balbas, la primitiva mezquita mayor de Sevilla, al-Andalus, vol. XI, 1946, pp. 425 - 436

وارجع الى بحثى : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، ص ٤٠١

(٢) الجزناءى ، ص ٣٨

على سيدنا محمد وآله وسلم ، هذا ما أمر به الخليفة المنصور ، سيف الاسلام ، عبد الله هشام المؤيد بالله ، أطال الله بقاءه ، على يد حاجبه عبد الملك المظفر ابن المنصور بن أبى عامر ، وفقهم الله تعالى ، وذلك فى ثمان وثمانين وثلاثمائة » (١) . ودام هذا المنبر حتى أمر على بن يوسف بعمل منبر جديد من خشب الصندل والآبنوس والنارنج والعناب وعظم العاج .

* * *

ازدهرت فاس فى عصر المرابطين ، وكثر العمران بعدوة القرويين حتى ازدحمت المدينة ، واكتظت بسكانها ، وضاق جامع القرويين بالمصلين حتى كان الناس يصلون فى الأسواق والشوارع والطرق المحيطة بالجامع أيام الجمع ، وكانوا يلاقون متاعب كثيرة لتعرضهم لحرارة الشمس أيام الصيف ، فاجتمع الفقهاء والأشياخ ، وخاطبوا قاضى القضاة فى هذا الأمر ، فاستأذن القاضى أمير المسلمين على بن يوسف فى إجراء زيادة بالمسجد ، فأذن له بالشروع فيها فى سنة ٥٢٨ هـ (١١٣٣م) ، وتمت فى سنة ٥٣٨ هـ(٢) . وابتدأ القاضى بنزع ملكية الدور الملاصقة للجامع من جهة قبلته وهدمها ، وأقام مكانها ثلاث بلاطات عرضية ، أضيفت إلى البلاطات السبعة القديمة ، وزود الجامع بمحراب جديد ومنبر أشرنا إليه فيما سبق . وأعاد بناء الباب الغربى الكبير المعروف بباب الفخارين ، فسمى بباب الشماعين . وكان يشرف على البناء بنفسه . وأقام على الباب قبة بداخلها نقش ، ذكر ابن أبى زرع نصه كالآتى : [صنعت هذا الباب والقبة وكلف بالبناء والتركيب فى شهر ذى

(١) المرجع السابق ، ص ٤٢

(٢) ولكن النقوش الكتابية بأعلى النافذة الوسطى التى تعلو المحراب ، وفى الجهتين الشرقية والغربية من القبة المستطيلة التى تلى قبة المحراب وعلى يمين باب الجنائز ، تؤكد أن الفراغ من الزيادة تم فى سنة ٥٣١ (راجع الحروف المنقوشة بالقرويين ص ٤٨)

حجة سنة ثمان وعشرين وخمسمائة] (١) . وبنيت الزيادة بحجر الكذان ، وتأنق في بنائها غاية التأنق، وكسيت أبواب المسجد جميعها بالنحاس الاصفر، وأقيمت على كل منها قبة . وأقيمت على المحراب قبة من الجص المقربص ، بلغت الغاية في الروعة والجمال ، فقد زينت هى والمحراب بنقــوش الذهب واللازورد وأصناف الأصبغة ، فبهرت الناس بحسنها ولألائها (٢)، وركبت في شماسات القبة (النوافذ المشبكة بزخارف الجص) أشــكال رائعة من الزجاج الملون (٣) :

ويذكر الأستاذ تراس أن هــذه الأعمال الإنشائيه تمت على أيدى فنانين استقدمهم الأمير من الأندلس (٣) . ففى زخارف هذا المسجد نشاهد مجموعات من المراوح النخيلية المعرقة والمختمة التى تشبه أوراق الأكنش، تغمر القسم الأعلى من البلاطة الوسطى ، وجوفة المحراب من أعلاها ، وأركان القباب ، وتذكرنا هذه الزخارف النباتية بنظائرها في قصر الجعفرية بسرقسطة ، وقصر القصبة بمالقة ، وبعض الآثار الزخرفية بقصبة المرية وجامعها ، من عصر الطوائف . ونشاهد في زخارف جامع القرويين كذلك عقودا متقاطعة،وعقودا مفصصة ومتجاوزة،وعقودا من النوع الذى تتناوب فيه الأقواس نصف الدائرية مع أقواس صغيرة مدببة ، تمثل حلقة الاتصال بين العقود التى نشاهدها في الجعفرية بسرقسطة ، والعقود الشائعة في عصر الموحدين . وزخارف جامع القرويين تجلو علينا عنصرا جديدا ظهر لأول

(١) ابن أبى زرع ، ص ٣٣
(٢) ابن أبى زرع ، ص ٣٣ — ٣٥
(٣) الجزناءى ، ص ٥٨
(٤) Terrasse, la reviviscence de l'Acanthe dans l'art hispano-mauresque, sous les Almoravides, al-Andalus, vol. XXVI, fasc, 2, 1961, p. 430

مرة فى فن الزخرفة الإسلاميه وهو نظـــام الزخرفة الثعبـــانية الشكل « Serpentiforme » عند منابت العقود ، وهو نظـــام زخرفى شاع فى عصر الموحدين ، ونشاهد هذا النظام الزخرفى فى أبواب مسجـد الجنائز الملحق بجامع القرويين ، وقد طبق على منابت العقود التوأمية المنفوخة ، ولكن هذه العقود دائرية من أعلى بينما نراها منكسرة فى مساجد الموحدين (١).

كذلك ظهرت لأول مرة فى الزيادة التى أضيفت فى جامع القرويين فى المرابطين ، قباب مقربصة ، تتمثل فى مسجد الجنائز ، وفى البلاطة الوسطى المؤدية إلى المحراب (ست قباب مقربصة) . وقبة مسجد الجنائز تقوم على قاعدة مربعة من المقربصات ، رصعت بقبيبات صغيرة مفصصـــة (٢) . أما قباب البلاطة الوسطى فكلهـا مقربصة وتكسوها زخارف نبـاتية فى غاية الروعة والجمال ، وكانت هذه الزخارف مغطاة بطبقة من الجص، أزيلت عنها تدريجيا ، فظهرت هـــذه الزخارف للناظرين آية فى دقة الأداء وجمال التكوين (٣) .

وبهذه الزيادة المرابطية اكتملت عمارة المسجد ، واشتمل على حدوده التى نراها اليوم ، ويمثل محور المسجد من الداخل بلاطـة وسطى فسيحة ، تعلوها القباب المقربصة الست التى أشرنا إليها ، ومن الخارج يقطـع صفوف

---

(١) Terrasse, art almoravide et art almohade, al-Andalus, 1961, p. 440

(٢) Terrasse, l'art hispano- mauresque, p. 235

(٣) Terrasse, l'art de l'empire almoravide; ses sources et son évolution, dans : Studia Islamica, t. III, 1955, p.32

الأسقف المنشورية الشكل الممتدة بحذاء جدار القبلة ، جوسق منشورى الشكل ، عمودى على جدار القبلة ، يزيد ارتفاعه على ارتفاع هذه الأسقف (١).

أما المنبر فقد أقيم على يدى القاضى أبى محمد عبد الحق بن عبد الله بن معيشة الغرناطى ، ولم يتم فى حياته فأتمه القاضى أبو مروان عبد الملك بن بيضاء القيسى ، وقد صنع من عود الصندل والآبنوس والنارنج والعناب وطعم بالعاج ، وتولى صناعته وتركيبه الشيخ أبو يحيى العتاد (٢) . ويعتبر هذا المنبر من أجمل منابر الإسلام ويشتمل على تسع درجات ويزدان جانباه بتشابكات رائعة متعدده الضلوع قوامها أشكال نجمية ذات ثمانية رؤوس ، ويشبه فى ذلك منبر جامع الكتبية بمراكش الذى صنع بقرطبة . ويحدد التشابكات المذكورة أشرطة من العاج ، وتزدان الحشوات النجمية بتوريقات نخيلية معروقة ومختمة وفقا للأسلوب الأندلسى المغربى. أما ظهر المنبر وعقده الأمامى فرصعان بالعاج والأخشاب الثمينة ذات الألوان الهادئة ، وما زال هذا المنبر محفوظا حتى اليوم بجامع القرويين (٣) .

أما صحن الجامع فقد فرشه الفقيه أبو عبد الله بن داود ، وصنع بكرا وأشرطة غليظة ركبها فى قلاع من شقاق الكتان فى سعة الصحن ، فاذا اشتدت حرارة الصيف شدت البكرات فنصبت القلاع وظللت الصحن كله (٤).

ولما دخل الموحدون مدينة فاس فى ١٥ ربيع الآخر سنة ٥٤٠ هـ ، خاف

---

(١) Marçais, l'architecture musulmane, p. 198

(٢) الجزنائى ، ص ٤٢

(٣) طرز المنبر حول مدخله بكتابة نسخية من الصدف ، بينما نقشت على جانبيه كتابات بالخط الكوفى من العاج (راجع الحروف المنقوشة بالقرويين ، ص ٤٤٩)

(٤) ابن ابى زرع ، ص ٣٥ ، ٣٦ — الجزنائى ، ٥٦

فقهاء المدينة وأشياخها أن يأخذ الموحدون عليهم هـذا الإسراف فى النقش والزخرفة والتذهيب بالمحراب والقباب ، « فأتى الجماعون الجامع تلك الليلة فنصبوا على ذلك النقش والتذهيب الذى فوق المحراب وحوله بالكاغيد ، ثم لبسوا عليه بالجص وغسل عليه بالبياض وذلك » ، فاختفت هذه النقوش وأصبحت بياضا (١) . ولكن هـذه الكسوة الجصية أزيحت فى سنة ١٩٤٩ فظهرت النقوش والزخارف بألوانها الزاهية الرائعة .

د ـ آثار القلاع والاسوار :

ذكر صاحب روض القرطاس أن يوسف بن تاشفين عندما أمر ببناء مراكش أقام قصبة صغيرة لحفظ أمواله وسلاحـه فى موضع يعرف بسور الخير من مدينة مراكش شمالى جامع الكتبيين (٢). ولقد أسفرت الحفريات الأثرية التى أجريت حديثا فى الموضع الذى كان يقوم عليه جامع الكتبية القديم وما يليه عن كشف أسس هذه القصبة ، وأثبتت الحفريات أنها كانت مقـامة من قطع الحجر غير منتظمة القطع ، ولـكنها موضوعـة فى صفوف منتظمة ، أما الحجـر المصقول فكان يستخدم فى الأركان . هـذه الطريقة تذكرنا بنظام بناء قصر البحر الحمادى وتحصينات المهدية . ونظام بناء باب قصبة مراكش أيضا ، يجلو لنا تأثيرات إفريقية واضحة المعالم ، فهو باب ممره مبـاشر ، على نقيض الأبواب الأندلسية فى هـذه الفترة ، إذ كانت من النوع المزود بالمرافق الدفاعية . كذلك نجـد محفورا على البرجين اللذين يكتنفان المدخل جوفات نصف دائرية تذكرنا أيضا بنظائرها فى فن

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٧ ـ الجزنائى ، ص ٥٨

(٢) نفس المرجع ، ص ٨٩

العمارة الزيرية والحمادية (١) .

وفى عصر على بن يوسف زودت مراكش بسور من الطابية على النظام الأندلسى ، وقد تم التنقيب عن بابين من أبواب هذا السور القديم هما باب العروس ، وباب فى الجهة الغربية لعله باب المخزن ، وقد ثبت أن أحدهما على الأقل كان مبنيا على نظام المرافق (٢) . وقد أثبتت الحفريات الأثرية أيضا فى قصر الحجر المجاور لجامع الكتبية ، أن أعمال على بن يوسف فى هذا القصر كانت مستوحاة من الفن الأندلسى سواء من ناحية التخطيط أو من ناحية الزخرفة ، فقد كشف عن بهو له ممران متعامدان على النحو الذى نراه فى الأندلس فى قصير منتقوط Monteagudo بمرسية (٣) . وقد استخدم فى البناء الطابية والآجر ، وكسى البناء بطبقة من الجص مدهونة باللون الأحمر والأصفر ، وهى طريقة كانت شائعة فى البناء فى الأندلس فى القرن الرابع الهجرى . ولقد أقام على بن يوسف أمام باب قصبة أبيه فوارة زينها بتشابكات هندسية رائعة ملونة على طبقة جصية ، ولا تختلف هذه الزخارف بأى حال من الأحوال عن زخارف قصيرة منتقوط بمرسية (٤).

وفى تلمسان اكتشفت آثار لسورها القديم الذى بناه يوسف بن تاشفين

---

(١) Meunié et Henri Terrasse, Recherches archéologiques à Marrakech, Paris 1952 - Terrasse, l'art de l'empire almoravide : ses sources et son évolution, pp. 27 - 29.

(٢) Terrasse, l'art hispano - mauresque, p. 224 - Marçais, l'architecture musulmane d'Occident, p. 219

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، دائرة معارف الشعب ، عدد ٦١ ، مادة مرسية

(٤) Terrasse, l'art de l'empire almoravide, p. 13

عندما اختط تكرارت غربى أغادير القديمة ، عند باب القرمدين وما يليه ، وإن كان لم يتحقق بعد نسبة هذه الآثار المبنية بالطابية إلى عصر يوسف ابن تاشفين (١) . كذلك يحتفظ سور أغادير القديمة بباب قديم يعرف باسم باب الأقباء ، وهو باب مفتوح فى سور مشيد بقطع حجرية غير مهذبة القطع ، وعقد الباب من الآجر ، منفوخ متجاوز ، ويقوم على صفوف من الحجارة المصقولة على النظام الرومانى ، ويشبه هذا الباب فى نظام بنائه الباب الرئيسى بقلعة آمرجو (٢) .

ويذكر البيذق أن المرابطين أقاموا حصونهم « فى مواضع دارت بها الجبال من جميع الجهات لكى ينتصروا بها على الموحدين أعزهم الله » (٣) ، ومن هذه القلاع قلعة آمرجو وقلعة بنى تاودا ، وقلعة تاسغيموت .

وقلعتا بنى تاودا وآمرجو من القلاع المرابطية الأصيلة ، وقد بنيتا خصيصا لمراقبة سكان الجبال فى منطقة الريف . أما قلعة بنى تاودا فقد بنيت بقطع حجرية غير مهذبة القطع ترتبط فيما بينها بملاط شديد الصلابة ، ونظمت هذه القطع الحجرية فى صفوف منتظمة ، وللأسف لم يتبق من هذه القلعة إلا أجزاء يسيرة ، تقتصر على الأسوار ، وفى وسط القلعة آثار بناء لعله كان خاصا بالقصبة .

أما قلعة آمرجو فتقوم على مرتفع من الأرض يشرف على وادى ورغة المتفرع من وادى سبو جنوبى قلعة بنى تاودا ، وهى من أروع أمثلة العمارة

---

(١) Ibid. p. 28

(٢) Marçais, op. cit. p. 220

(٣) البيذق ، ص ١٢٨

الحربية فى المغرب فى عصر المرابطين . وفى بناء هذه القلعة تتداخل التقاليد المحلية مع التأثيرات الأندلسية ، التى تدفقت على المغرب الاسلامى فى عصر على بن يوسف ، والتأثيرات الإسبانية المسيحية التى حملها النصارى المرتزقة فى الجيش المرابطى (١) . وتتجلى هـــذه التأثيرات المسيحيـة فى الأبراج المستديرة الشكل، وفى السور الأمامى . والقلعة على شكل متعدد الأضلاع يميل إلى الاستطالة ، ويدعم سورها الخارجى ١٢ برجا نصف دائرية ، تقوم فى زوايا السور ، ويخترق أسوارها ثـلاثة أبواب ، وينتصب أمام السور الواقع فى الجانب الشمالى الشرقى من القلعة برجان يمتـد بينهما سور أمامى . وفى داخل القلعة ترتفع قصبة صغيرة مستطيلة الشكل ترتـكز فى أركانهـا أبراج نصف دائريه ، وينفتح فى سورها بابان (٢) . والباب الرئيسى لقلعة آمرجو له ممر يتصل مباشرة بمدخليها ولا أثر فيه للتقاليد الاندلسية .

وقلعة تاسغيموت من أهم القلاع التى أسسها المرابطون لمدافعة الموحدين بناها ميمون بن ياسين ، وكانت تقيم بها حاميـة مرابطية من مائتى فارس ، وخمسمائة من المشاة لحراسة بلاد هزرجة (٣) .

وتقع هذه القلعة على بعد ٣ كيلو مترات جنوب شرقى مراكش ، وعلى

---

(١) Terrasse, La forteresse almoravide d'Amergo, al-Andalus vol. VIII, pp. 389-400

(٢) Terrasse, l'art hispano - mauresque, p. 226 - Marçais, l'architecture musulmane d'Occident, p. 219 - Terrasse, la forteresse almoravide d,Amergo.

(٣) البيذق ، ص ١٢٨ . ويذكر الاستاذ تراس نقلا عن الحلل الموشية أن الذى تولى بناء قلعة تاسغيموت رجل أندلسى اسمه الملـكى . ارجع الى :

=

بعد نحو عشرة كيلو مترات شرقى أغمات ، على سطح هضبة أطرافها ذات أجراف وعرة شديدة الانحدار ، يصعب على الغازين ارتقاؤها . وأسوارها تمتد على حافة الهضبة كلها ، متتبعة تعرجاتها وتندمج قواعد هذه الاسوار فى صخور الهضبة نفسها (١) . وتشرف قلعة تاسغيموت على وادى أغمات أيلان المتفرع من وادى تنسيفت الأعلى ، ومن هنا ندرك أن الغرض من بنائها هو حماية عاصمة المرابطين : وينفتح الباب الرئيسى للقلعة ، وهو الباب المعروف باسم باب الموحدين فى الجهة الشمالية الغربية ، وهناك باب آخر فى الجهة الشمالية ، ولكنه باب صغير أقرب إلى أن يكون خوخة أو نقبة . والقلعة من الداخل معسكر فسيح كانت ترابط فيه حامية كبيرة العدد ، ولا أثر بداخله اليوم لبناء ثابت إلا فى الجانب الغربى حيث تقوم بقايا بناء واسع ، لعله كان حصنا يقيم فيه رئيس الحامية ، أو مخازن للمهمات والعدد. وقد راعى بناة القلعة ، أن تكون مزودة بكل شىء ، استعدادا لحصار طويل الأمد ، ولذلك زودت بالمياه من نبع فى الهضبة ، حيث كانت تجرى إلى خزان ضخم مازال قائما حتى اليوم (٢) . ولقد افتتح الموحدون هذه القلعة فى سنة ٥١٧هـ ، وخلعوا أبوابها ، وركبوها على باب الفخارين بمدينة تينملل (٣) .

= Terrasse, l'art Hispano - mauresque, p. 227 - Terrasse et H. Basset, Sanctuaires et Forteresses almohades, Paris, 1932, p. 379.

(١) Terrasse et H. Basset, op.cit. p. 382

(٢) Terrasse et Basset, Sanctuaires et forteresses almohades, p. 380

(٣) البيذق ، ص ٨٤ ، ١٢٨ ، ١٣١

الفصل الحادي عشر

المغرب في عصر الموحدين

(١) ظهور الموحدين :

ا ـ المهدى بن تومرت فقيه السوس ، وعبد المـــؤمن بن على سراج الموحدين

ب ـ الاشتباكات الأولى مع المرابطين

(٢) فتوحات عبد المؤمن بن على

ا ـ المرحلة الأولى : إسقاط دولة المرابطين

١ ـ فتح تلمسان ووهران ٢ ـ فتح فاس ٣ ـ فتح مراكش

ب ـ المرحلة الثانية : فتح الاندلس

ج ـ المرحلة الثالثة : فتح المغربين الأدنى والأوسط

(٣) عصر أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن

ا ـ الصعاب التى واجهته فى المغرب والأندلس

ب ـ جهاده فى الأندلس واستشهاده فى شنترين

(٤) المنصور بطل الأرك

ا ـ حروبه مع بنى غانية

ب ـ جوازه الأول إلى الأندلس واسترجاع المسلمين لشلب

ج ـ انتصار أبى يوسف المنصور فى موقعة الأرك

الفصل الحادي عشر

المغرب فى عصر الموحدين

(١)

ظهور الموحدين

١ - المهدى بن تومرت فقيه السوس وعبد المؤمن على سراج الموحدين :

هو محمد بن عبد الله بن تومرت (١) ، من أهل السوس ، وهى بلاد يسكنها بربر جفاة متقشفون فى حياتهم ، خشنون فى مظهرهم ، تغلب على طباعهم السذاجة ،وقوة الإيمان ، والاعتقاد فى القوى الخفية ، وقل منهم من كان يرتفع فى علمه إلى مستوى العلم الإسلامى الحق ، ويلم بالمسائل الكلامية على نحو يتبلور معه ذو العلم بها ، ويستحيل إلى آلة تسرد وتردد ، وإلى عالم يلتزم فى تفسيره للآيات النص الحرفى (٢) .

ولد ابن تومرت فى عام ٤٨٥ هـ فى ضيعة من بلاد السوس تعرف بإيجيليز (٣)

---

(١) لم يكن هذا هو اسمه الأصلى ، فقد كان يحمل اسما مختلفا ثم استبدل به اسم محمد بعد عودته من المشرق تيمنا باسم الرسول ، ثم رأى أن يكون اسم أبيه عبد الله ، ولم يكن هذا هو اسم أبيه الحقيقى ، اذ كان يسمى بتومرت بن وجليد ، ولكن الاستاذ ليفى بروفنسال يرى أن اسم تومرت هو اسم احدى جدات المهدى غلب على نسبه (ليفى بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والاندلس ، ص ٢٦٥) . وكان جده لأبيه يسمى وجليد ، وجده لأمه يسمى وابوركن ، وهى أسماء بربرية بحتة (البيذق ص ٣٠)

(٢) ليفى بروفنسال ، المرجع السابق ص ٢٥٧

(٣) يسميها المراكشى ايجلى أن وارغن (المراكشى ص ، ١٧٨)

من قرى هرغة الواقعة على سفح جبل إيجيليز ، من قوم شرفاء (إيسر غينن) ، وكان أبوه أمغار (١) القبيلة ، أى شيخها ، فقضى ابن تومرت طفولته يحفظ القرآن فى مكتب القرية . فلما اشتد عوده ، وأصبح شابا يافعا ، دفعه طموحه إلى الرحيل عن قبيلته ، لا للسعى وراء عمل فى السهول ولا للاقامة فى مراكش حاضرة المرابطين رغم تألقها ، وإنما للدراسة والتحصيل فى المشرق الإسلامى ، مصدر العلوم ، ومنبع الحضارات ، ومهد جميع الأديان فخرج من قبيلته فى طلب العلم عام ٥٠١ هـ ، وانتهى إلى بغداد ، ولقى فيها أبا بكر الشاشى ، فاخذ عنه شيئا من أصول الدين ، وسمع الحديث على المبارك بن عبد الجبار وغيره من المحدثين . وقيل أنه لقى أبا حامد الغزالى فى الشام (٢). وذكروا أن الغزالى أحيط علما بما فعله المرابطون بكتبه التى وصلت إلى المغرب من إحراقها وإفسادها ، وكان ابن تومرت موجودا وقتئذ فى مجلس الغزالى ، فعلق الغزالى قائلا : « ليذهبن عن قليل ملكه (ملك على بن يوسف) ، وليقتلن ولده ، وما أحسب المتولى لذلك إلا حاضرا مجلسنا » (٣) . وأحس ابن تومرت أنه يعنيه ويومىء إليه بهذه العبارة ، وأن تمزيق دولة المرابطين سيتم على يديه .

قضى ابن تومرت ما يقرب من ١١ سنة يجوب عواصم المشرق الإسلامى ، فلما عزم على العودة إلى مسقط رأسه ، مر بمصر فى عهد الآمر بأحكام الله الفاطمى ، ويغلب على الظن أنه قضى بها بعض الوقت ، وكانت الاسكندرية

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٧٨

(٢) نفس المرجع ، ص ١٧٨

(٣) نفس المرجع ، ص ١٧٩

وتلك مدينة ازدهرت فيها الحياه العلمية ، فقد استوطنها فى العصر الفاطمى جلة من العلماء كان لهم أثر كبير فى نهضتها العلمية، ومنهم فقيه الاسكندرية محمد بن ميسر ، والفقيه عبد الرحمن بن عوف بن عمرو العلاف ، والإمام الشيخ أبو بكر الطرطوشى ، والحافظ المقدس (١) . وكان المهدى يختلف إلى مجلس أبى بكر الطرطوشى الفقيه ، وكان له رفاق فى العلم فى مصر . ويبدو أنه كان ساخطا على مظاهر الترف التى أقبل عليها أهل الاسكندرية، فأحس ابن تومرت منذ ذلك الحين أن عليه رسالة لا بد من أن يقوم بتحقيقها فى حماسة المقتنع الملهم ، وهى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فأفضت به تعاليمه هناك إلى نفيه من المدينة (٢) .

ركب ابن تومرت سفينة متجهة إلى المغرب ، ويبدو أنه لم يفتر أثناء رحلته البحرية عن وعظ الركاب والمسافرين ، واستنكار أعمالهم ، ويذكر المراكشى أن أهل السفينة ضاقوا بتعاليمه ، فألقوه فى البحر ، « فأقام أكثر من نصف يوم يجرى فى ماء السفينة لم يصبه شىء ، فلما رأوا ذلك من أمره أنزلوا إليه من أخذه من البحر ، وعظم فى صدورهم ، ولم يزالوا مكرمين له إلى أن نزل من بلاد المغرب بجاية » (٣). ويذكر الأستاذ ليفى بروفنسال

(١) حسن عبد الوهاب ، الاسكندرية فى العصر الاسلامى ، مجلة الكتاب ، ١٩٤٦ ، ص ٣٨١ — ٣٨٢ — السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الاسلامى ، الاسكندرية ١٩٦١ ، ص ١٧٨ ، وتخطيط الاسكندرية وعمرانها فى العصر الاسلامى ، طبعة بيروت ١٩٦٤ ، ص ٧٨ — جمال الدين الشيال ، أعلام الاسكندرية فى العصر الاسلامى ، القاهرة ١٩٦٥ : الطرطوشى ، ص ٥٠ — ١٠٠ ، والحافظ السلفى ، ص ١٣٠ — ١٥٩

(٢) المراكشى ، ص ١٧٩ — السيد عبد العزيز سالم ، المهدى بن تومرت ، دائرة معارف الشعب ، عدد ، ٧٠ ، القاهرة ، ١٩٦٠ ص ٤٦٦

(٣) نفس المرجع ص ١٧٩ .

نقلا عن المؤرخ ابن القطان أن « عصمته تجلت فى هذه الرحلة ، فقد كسر جرات الخمر التى كانت موجودة على ظهر السفينة التى أقلته ، وصاح فيهم عندما أبصر أن أوقات الصلاة كانت تمضى دون أن يهتم أى شخص بأدائها ، وكان القوم يهزون أكتافهم حين يسمعونه يدعوهم فى غير رفق إلى الصلاة معه ، وكان لا بد أن تحدث معجزة ، فهبت عاصفة ، واستطاعت دعوات الناقد وحدها أن تهدىء من هياج البحر ، وتمت الرحلة بسلام بفضل هذا الولى الذى وجد منذ هذه اللحظة من يصغى إليه بانتباه على ظهر السفينة ، مكبرين له ، نادمين على ما بدر منهم نحوه » (١) .

ويغلب على الظن أن ابن تومرت نزل المهدية فى إمارة يحيى بن تميم بن المعز بن باديس ، وبدا له أن يقيم فى المهدية بعض الوقت ، فنزل فى مسجد من مساجدها فى رفقة ثلاثة من أتباعه رافقوه فى رحلته ، هم الحاج يوسف الدكالى ، والحاج عبد الرحمن ، وأبو بكر بن على الصنهاجى المكنى بالبيذق(٢) .

واجتمع إليه جماعة من أهل المدينة ، فقرأ عليهم كتابا فى أصول الدين ، وكان إذا شاهد منكرا حاول تغييره بالقوة ، فتسامع الناس به ، وقصدوه ، واستهوتهم شخصيته .

ثم رحل ابن تومرت إلى المنستير ، فأقام بها بضعة أيام ثم رحل إلى تونس ، وأخذ يعرف الناس هناك بالسنة وأصول الدين ، ثم مضى بعد

---

(١) ليفى بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والاندلس ، ص ٢٦٩

(٢) البيذق ص ٥١

ذلك إلى قسنطينة ، فنزل بها عند الفقيه عبد الرحمن الميلى ، ويحيى بن القاسم، وعبد العزيز بن محمد ، وكان يليها فى ذلك الوقت سبع بن العزيز ، فأقام بها عدة أيام ثم رحل إلى بجاية ، فنزل بها فى مسجد الريحانة ، وكانت بجاية مدينة كبيرة ، اتخذها بنو حماد ، منذ عهد الناصر بن علنـاس سنة ٤٥٤ ﻫ ، حاضرة لهم ، فكانت مركزا حضاريا متألقـــا ، فاقت القيروان وتونس ، ونالت من رقة الحياة فى الأندلس وترفها قـدرا كبيرا ، وظهر أثر ذلك فى الحياة الاجتماعية . فلما خرج ابن تومرت من المسجد لرؤية المدينة ، شرع فى نهى الناس عن « الاقراق الزرارية ، وعمائم الجاهليـة، ولبـاس الفتوحيات للرجال ، ويقـول : لا تتزينوا بزى النساء لأنه حرام »[1] . وكان يبيح الطيب للرجال والنساء أسوة بما كان يفعله الرسول ، فى الحدود التى لا إثم فيها . وكان الفقهاء يأتون لسماعه فى شهر رمضان ، فلما انتهى هـذا الشهر وأقبل العيد ، خرج الرجال والنساء لصلاة العيد فى الشريعة (أى المصلى)، فلما رآهم ابن تومرت تناول عصاه ، وأخذ يضربهم بها يمينا وشمـالا حتى بدد جموعهم (٢) . ويذكر المراكشى أن صاحب بجاية أمره بالخروج منهـا حين خاف عاديته ، فخرج متجها إلى المغرب ، فنزل بضيعة يقال لها ملالة ٣ وهناك أقام مسجدا ، وأقبل الطلبة إليه من كل مكان . وكان يقضى يومه فى العبادة والتدريس لطلبته، وينطلق بعد ذلك إلى رحبة قريبة ، فيجلس تحت شجرة من شجر الخروب، يتأمل ويفكر ، ويذكر الله فى همهمة خافتة لا تنقطع

---

(١) البيذق ، ص ٥٢

(٢) نفس المرجع

(٣) المراكشى ، ص ١٨٠

وهو ناظر إلى الطريق . وذات يوم سمعه الطلبة يقول: « الحمد لله الذى أنجز وعده ، ونصر عبده ، وأنفذ أمره »، وأقبل نحو المسجد ، وركع ركعتين ، ثم قال : الحمد لله على كل حال ، قد بلغ وقت النصر ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ، يصلكم غدا طالب ، طوبى لمن عرفه ، وويل لمن أنكره » (١) . وفى اليوم التالى ظهر عبد المؤمن بن على الكومى (٢) الذى سيصبح خليفة الموحدين . وكان عبد المؤمن هذا متوجها إلى المشرق لطلب العلم ، فى رفقة عمه الذى كان يقوم له مقام الدليل . فلما وصلا إلى بجاية ، نزلا فى مسجد الريحانة ، فلما صليا الصبح ، سمعا الناس يقولون : « سيروا بنا نحو الفقيه السوسى » ، ولما سمعهم عبد المؤمن يذكرون صلاح دينه ، ويثنون على علمه وفهمه لكتاب الله والسنة طلب من عمه أن يذهب معه لرؤيته وسماعه مع هؤلاء الذاهبين (٣) . وما إن رآه ابن تومرت ، وقرأ

(١) البيذق ، ص ٥٣

(٢) هو عبد المؤمن بن على بن علوى بن يعلى بن على بن حسن بن أبى نصر بن مقاتل ابن كومى ، وبعض المؤرخين ينسبه الى على بن أبى طالب .

(٣) يذكر البيذق أن عبد المؤمن عندما وصل الى متيجة رأى وهو نائم رؤيا غريبة وهى أنه يحمل على ركبتيه صحفة من طعام يأكل الناس فيها كافة . فلما أصبح قص على عمه الرؤيا ، فقال له اكتمها . فلما وصلا الى بنى زلدوى ، رأى المنامة بعينها مع اختلاف يسير فى أن الصحفة على رأسه ، فأخبر عمه بها ، فنصحه بكتمانها . فلما نزلا بجاية ، ونام عبد المؤمن رأى الرؤيا بعينها الا أن الناس يبايعونه . فلما أخبر عمه بها نصحه بكتمان هذه الرؤيا ، فان أمه رأت وهى حامل به كأن النار تخرج منها فتحرق المغرب والمشرق والقبلة والجوف ، فأخبرها المعبر بتلمسان أنه لا بد لهذه المرأة من مولود يسيطر على المغرب والمشرق والشمال والجنوب ، وأوصاها بأن تكتم ذلك ولا تفشيه . ثم ذكر له عمه نبوءة أخرى ، وهى أن آل عبد المؤمن كانوا يحصدون الزرع ، فتعبت أم عبد المؤمن =

على وجهه علامات الذكاء ومخايل النبوغ والمعرفة حتى ميزه عن بقية القوم، وعرف فيه « المختار » . يقول البيذق: « فرفع المعصوم رضه رأسه ، فواتفه أمامه . فقال : ادخل ياشاب ، فدخل . فأراد أن يقعد فى جملة الناس ، فقال له الإمام المعصوم رضه : إدن ياشاب، فلم يزل يدنو من الامام ، والمعصوم يقربه حتى دنا منه ، فقال له المعصوم : ما اسمك يافتى . فقال : عبد المؤمن . فقال له المعصوم . وأبوك على ؟ . فقال : نعم فتعجب الناس من ذلك. فقال له ، ياشاب ، من أين إقبالك ؟ قال له : من نظر تلمسان من ساحل كومية، فقال له المعصوم. من تاجرا أم لا ؟ . فقال له : نعم . فزاد الناس تعجبا . فقال له المعصوم رضه . أين تريد يافتى ؟ فقال : ياسيدى نحو المشرق التمس فيه العلم . فقال له المعصوم رضه : العلم الذى تريد اقتباسه بالمشرق وجدته بالمغرب » (١) . ثم طلب منه ابن تومرت أن يبيت عنده ، فأجابه عبد المؤمن . ويضيف البيذق إنه : « لما جن الليل أخذ الإمام المعصوم بيد الخليفة رضها ، وسارا ، فلما كان نصف الليل ناداني المعصوم . يا أبا بكر ، ارفع لى الكتاب الذى فى الوعاء الأحمر ، فدفعته له ، وقال : اسرج لنا سراجا ، فكان يقرأه على الخليفة من بعده وأنا يومئذ ماسك السراج أسمعه يقول : لا يقوم الأمر الذى فيه حياة الدين إلا بعبد المؤمن بن على سراج الموحدين . فبكى الخليفة (يقصد عبد المؤمن) عند سماع هذا القول ، وقال: يافقيه ، ما كنت

= وكانت حاملا به ، فنامت، فأقبل بندان من نحل فنزلا عليها، وتصادف أن أم عبد المؤمن لما ولدته خرجت لحصاد سنبل القمح ، وتركته نائما ، فاذا بالنحل يقبل على الطفل وهو نائم ، ثم يفترق عنه فرقتين : واحدة الى المشرق والأخرى الى المغرب (انظر البيذق، ص ٤٥)

(١) البيذق ، ص ٥٦

فى شىء من هذا ، إنما أنا رجل أريد ما يطهرنى من ذنوبى . فقال له المعصوم ، إنما تطهيرك صلاح الدنيا على يديك . ثم دفع له الكتاب ، وقال : طوبى لأقوام كنت أنت مقدمهم ، وويل لقوم خالفوك أولهم وآخرهم . أكثر من ذكر الله يبارك لك فى عمرك ويهديك ويعصمك مما تخاف وتحذر »[1].

استقر رأى عبد المؤمن على البقاء مع ابن تومرت ، فقضى أشهرا يقرأ عليه ، وكان أكثر الطلبة فهما ، ثم رحل ابن تومرت وطلبته وأتباعه من ملالة إلى المغرب الأقصى، فوصلوا إلى تلمسان، ونزلوا بأغادير فى مسجد بظاهرها يعرف بالعباد [2] . فاستراحوا بها فترة قصيرة ثم واصلوا السير مجدين إلى وجدة (انظر خريطة رقم ١٣)، ثم رحلوا منها متجهين إلى فاس، فمروا بقرى آجر سيف وآمليل وقلال والمقرمدة وعين الرقى حتى وصلوا إلى فاس . وكان الطلبة يهرعون إليه فى كل مكان حل به ، فلما وصل إلى فاس نزل بمسجد ابن الغنام ، ثم انتقلوا منه إلى مسجد ابن الملجوم ، فمسجد بطريانة ، حيث استقروا فى بيت صومعته ، واتخذه ابن تومرت للتدريس . وقام ابن تومرت أثناء مقامه بفاس بمهاجمة حوانيت الآلات الموسيقية بزقاق بزقالة من فاس ، وكانت هذه الحوانيت مملوءة بالدفوف والقراقر والمزامير والعيدان والروط والأربية والكيتارات ، فتولى طلبته كسر هذه الآلات (٣) .

ولما بلغ والى المدينة أمره ، جمعه مع نفر من فقهاء فاس للمناظرة ، فظهر عليهم وفاقهم ، فأشار الفقهاء إلى الوالى باخراجه من المدينة حتى

---

(١) المرجع السابق ص ٥٦

(٢) المراكشى ، ص ١٨٣

(٣) البيذق ص ٦٥

لايفسد عقول العامة ، فأمره الوالى بالخروج من فاس [١] . فمضى هو وأتباعه إلى مراكش ، ماربن بمغيلة ، ومكناسة ، ثم رحلوا منها إلى خميس فنزارة ، ثم وصلوا إلى سلا ، فأقاموا بها أياما ، وواصلوا السير إلى مراكش ، فدخلوها ، ونزلوا بها فى مسجد صومعة الطوب . ويبدو أن ابن تومرت تناظر فى مراكش مع جماعة من الفقهاء ، فأفحمهم ، فنصحوا على بن يوسف بحبسه ، فأبى أن يفعل ذلك دون ذنب جنــاه ابن تومرت ، واكتفى باخراجه من مراكش [٢] . فخرج ابن تومرت هو وأصحابه من مراكش إلى أغمات أن وايلان ، ومنها إلى أغمات وريكة ، ثم مضى بعد ذلك إلى قريته إيجيليز من هرغة ، فنزل داره فى سنة ٥١٤ ه (٣) ، وأقام رابطة للعبادة فى سنة ٥١٥ ه (٤) ، واجتمع إليه الطلبة والقبائل .

وكان ابن تومرت فى كل هذه البلاد التى طاف بهــا ينشر تعاليمه فى التوحيد والأمر بالمعروف ، والنهى عند المنكر ، فحارب فكرة التجسيم الشائعة عند أهل المغرب فى عصر المرابطين ، وذهب إلى أن صفات الله من ذاته ، وأضاف ابن تومرت إلى هذه الآراء والتعاليم آراء أخرى فى الفقه ،

---

(١) المراكشى ، ص ١٨٤

(٢) ذكر ابن الأثير أن ابن تومرت كان فى طريقه فى مراكش يوما ، إذ رأى أخت الأمير أبى الحسن على بن يوسف فى موكب من الجوارى الحسان عدة كثيرة وهن مسفرات ، وكانت هذه عادة الملثمين ، يسفر نساؤهم وجوههن ، ويلتثم الرجال ، فلما رأى ابن تومرت ذلك أنكره عليهن ، وأمرهن بستر وجوههن ، وضرب هو وأصحابه دوابهن ، فسقطت أخت على بن يوسف عن دابتها ، وكان ذلك سببا فى خروجه من فاس

(٣) البيذق ، ص ٧٢

(٤) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٤٦٩

إذ كان يرى أن الشريعة الإسلامية يجب أن تقوم مباشرة على دراسة القرآن والأحاديث ، واستبعد في ذلك تعاليم الفقهاء القائمة على القياس والإجماع .

ب ـ الاشتباكات الأولى مع المرابطين :

رحل ابن تومرت وأتباعه بعد ذلك إلى تينملل من السوس ، فبايعوه بها تحت شجرة خروب سنة ٥١٥ هـ (١) ، وكان أول من بايعه عبد المؤمن ابن علي ، ثم سائر أصحابه ، وتلقب بالمهدي ، وصرح بدعوى العصمة لنفسه ، وأنه المهدي المعصوم ، فأقبل إليه الأشياع والأتباع من سائر قبائل المغرب الأقصى ، وبايعوه مرة ثانية في سنة ٥١٧ هـ ، ولم تزل طاعتهم له تزداد ، وفتنتهم به تشتد ، وتعظيمهم له يقوى ويتأكد ، حتى بلغوا في ذلك إلى حد « لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه أو ابنه لبادر إلى ذلك من غير إبطاء » (٢) . ومن تينملل قدر لدعوته القائمة على التوحيد أن تنطلق في ربوع المغرب كله . وقد سمى أصحابه بالموحدين لأنهم أول من تحدث في التوحيد وعلم الكلام في المغرب ، وسماهم أيضا بالمؤمنين لانه ليس على الأرض من يؤمن إيمانهم . وقد قسم ابن تومرت أصحابه إلى طبقات ، فجعل منهم أهل العشرة ، وهم المهاجرون الأوائل الذين أسرعوا إلى إجابته فسماهم الجماعة ، وأولهم عبد المؤمن بن علي ، وأبو حفص عمر بن علي الصنهاجي ، وأبو الربيع سليمان بن مخلوف الحضرمي ، وسليمان آحضري كاتب رسائل المهدي ، وأبو محمد عبد الله بن محسن الوانشريشي ، وأبو حفص عمر بن يحيي الهنتاتي . ومنهم أهل خمسين وهم الطبقة الثانية ، وقد كانوا

---

(١) وقيل بويع برباط هرغة

(٢) المراكشي ص ١٩١

يمثلون قبائل مختلفة من البربر من هرغة ، وهنتاتة ، وجدميوة ، وجنفيسة ، وصنهاجة ، وهسكورة ، ومنهم المستدركون بعد التمييز . وقد تمكن ابن تومرت من تأليف جيش قوى من المصامدة ، ثم غزا الموحدون تسع غزوات ، ولم تكن هذه الغزوات سوى اشتباكات خفيفة مع بعض القبائل الموالية للمرابطين ، وقد انتصر الموحدون في معظمها . وفي سنة ٥١٧ ﻫ تجددت الاشتباكات بين المرابطين والموحدين ، ونجح الموحدون بقيادة عبد الرحمن بن زجو في الاستيلاء على قلعة تاسغيموت ، وكانت من أعظم قلاع المرابطين ، وحملت أبوابها إلى تينملل [١] . وفي سنة ٥١٨ ﻫ افتتحت بلاد ماغوسة ، وهناية على وادى نفيس ، وفي سنة ٥٢١ ﻫ بعث ابن تومرت عبد المؤمن بن على إلى جزولة ، وهى أول غزوة تقاتل فيها مع تاشفين بن على بن يوسف ، والشنيور الإبرتير Reverter قائد الروم في جيش المرابطين .

ومنذ سنة ٥٢٤ ﻫ (٢) أخذت هذه الاشتباكات تأخذ طابع الصدام المسلح مع جيش المرابطين ، ففى هذه السنة جهز المهدى ابن تومرت جيشا ضخما من الموحدين ، ووجهه إلى مراكش عاصمة المرابطين ، وقال لهم : « اقصدوا هؤلاء المارقين المبذلين الذين تسموا بالمرابطين ، فادعوهم إلى إماتة المنكر ، وإحياء المعروف ، وإزالة البدع ، والإقرار بالإمام المهدى المعصوم ، فان أجابوكم ، فهم إخوانكم ، لهم مالكم ، وعليهم ماعليكم ، وإن

---

(١) البيذق ص ١٣١

(٢) نفس المرجع ص ٢٨ ، ١٣٣ . ويذكر المراكشى أن الموقعة حدثت في سنة ٥١٧ (المراكشى ، المعجب ص ١٩٣)

لم يفعلوا فقاتلوهم ، فقد أباحت لكم السنة قتـــالهم » ، ثم أمر على الجيش خليفته عبد المؤمن بن عـلى ، وقال : « أنتم المؤمنون ، وهــذا أميركم » فاستحق عبد المؤمن منذ ذلك اليوم لقب أمير المؤمنين (١) .

وخرج جيش الموحــدين إلى مراكش فى أربعين ألفا ، فوصــلوا إلى موضع اسمه البحيرة ، يقع فى ظـــاهر مراكش ، فخرجت إليهم جيوش المرابطين بقيادة الزبير بن على بن يوسف من باب إيلان ، ونزل المرابطون قريبا من معسكر الموحدين ، فدعاهم عبد المؤمن إلى دعــوة ابن تومرت ، وحاول قائد المرابطين أن يحذر عبد المؤمن عاقبة مفارقة الجمــاعة ، وينهاه عن الفتنة ، فزاده ذلك طمعا فى المرابطين ، واشتبك الجيشـــان فى معركة ضارية،انتهت بهزيمة الموحدين ، وقتل منهم عدد كبير ، من بينهم أبوعبدالله الوانشريشى ، وسليمان آحضرى ، وأبو عمران موسى الجدميوى ، وأبو يحيي بن بجيت ، وأبو عبد الله محمد بن سليمان ، وكلهم من أهل العشرة (٢) . ونجا عبد المؤمن بن على فى نفر من أصحابه وقــد أصيب بجرح عميق فى فخذه الأيمن ، فلما وصــل الخبر إلى ابن تومرت قال : « أليس قـــد نجا عبد المؤمن ؟ قالوا نعم . قال : لم يفقد أحد » (٣) .

أحس ابن تومرت بالمرض بعد أربعـــة أشهر من وقيعــة المرابطين بالموحدين سنة ٥٢٤هـ ، فدخل داره بتينملل ، ولم يخرج منها إلا إلى قبره ، فى المسجد الملاصق لداره ، حيث دفن به سرا فى ٢٩ رمضان سنة ٥٢٤ هـ ،

---

(١) المراكشى ، ص ١٩٢

(٢) البيذق ، ص ٣٣

(٣) البيذق ، ص ٧٩ ــ المراكشى ، ص ١٩٣

وأخفى أصحابه نبأ وفاته ثلاث سنوات ، قام الموحدون خلالها بشن الغارات على المرابطين ، ثم أعلنت وفاة المهدى رسميـــا فى سنة ٥٢٧ هـ . فبويع لعبد المؤمن فى هذا التاريخ بفضـل ثلاثة أشياخ من الموحـدين هم : عمر أصناج ، وعبد الرحمن بن زجو ، وأبو ابراهيم اسماعيل الهزرجى ، من أهل الجماعة (١) .

(١) المرجع السابق ، ص ١٣٣

(٢)

فتوحات عبد المؤمن بن على

ا ـ المرحلة الأولى : اسقاط دولة المرابطين :

١ ـ فتح تلمسان ووهران :

كانت مهمة عبد المؤمن بعد أن تولى خلافة الموحدين صعبة للغاية ، فقد كان عليه أن يقضى على دولة المرابطين ، ويضم بلاد المغرب الأدنى والأوسط إلى المغرب ، حتى يصبح المغرب كله خاضعا للموحدين ، ولم يكن تحقيق هذا الأمر هينا ، خاصة ، وقد ذاق من قبل مرارة الهزيمة حين تجرأ على مهاجمة مراكش عاصمة المرابطين ، فتلا فى النزول إلى السهل، إلا فى المناطق المقابلة للصحراء . وكانت القبائل الجبلية قد أطاعت عبد المؤمن ، وزاد أتباعه ، وانتقضت القبائل على المرابطين فى سائر بلاد المغرب ، فأرسل على بن يوسف ابنه تاشفين لقتال الموحدين سنة ٥٣٣ هـ ، فاصطدم معه عبد المؤمن فى معركة بموضع فى بلاد حاحة ، وفيها انتصر عبد المؤمن ، وعاد تاشفين إلى مراكش منهزما ، وجرح من قواده الابرتير، قائد الروم . وفى سنة ٥٣٥هـ اشتبك عبد المؤمن مرة أخرى مع الابرتير فى أجظرور ، فانتصر عبد المؤمن فى هذه المرة أيضا . وفى هذه السنة خرج عبد المؤمن فى جيش كثيف غازيا المغرب الاوسط ، فأطاعته غمارة بشمالى المغرب ، وفى أثناء هذه الغزوة ، توفى على بن يوسف سنة ٥٣٧ هـ ، فخلفه ابنه تاشفين ، وحدث خلاف بين لمتونة ومسوفة من قبائل المرابطين ، فانضمت مسوفة إلى الموحدين [1] . ثم

---

(١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٤٧٤

حاصر عبد المؤمن مدينة سبتة ، ولكنها استعصت عليه ، فاضطر إلى تركها ، وواصل زحفه شرقا إلى جبال غياثة وبطوية ، فافتتحها . ثم مضى إلى بلاد ملوية، وتمكن من افتتاح حصونها ، ومن هنالك واصل زحفه شرقا إلى زناتة فأخضعها وأخضع معها قبائل مديونة ، ونازل تلمسان بعد ذلك في سنة ٥٣٩ هـ . فقتل الابرتير ، ونجح في دخول تلمسان .

تراجع تاشفين بن على على أثر ذلك إلى وهران ، فحاصره الموحدون بحصنها ، وأشعلوا النيران على باب الحصن ، فحاول تاشفين الخروج بفرسه من الحصن ، فتردى في بعض حافات الجبل ، ومات في ٢٧ رمضان سنة ٥٣٩ هـ . فبعث عبد المؤمن رأسه إلى تينملل ، ودخل الموحدون وهران ، فقتلوا من كان بها من المرابطين ،وقد أمر عبد المؤمن ببناء سور تاكرارت من تلمسان ، كما بنى مسجدها الجامع (١) .

٢ ـ فتح فاس :

تطلع عبد المؤمن بعد ذلك إلى فتح فاس،فعزم على السير إليها ،واستولى في طريقه على أجرسيف ثم المقرمدة . فلما علم يحيى بن أبى بكر بن يوسف ابن تاشفين المعروف بالصحراوى ، قائد فاس ، بقدوم الموحدين خرج لمقاتلتهم ، فانهزم الصحراوى ، وانسحب إلى فاس (٢) . وفي اليوم التالي نزل الموحدون بعدوة سبو في موضع يعرف باسم عقبة البقر (٣) ، وهنالك قسم عبد المؤمن جيشه إلى قسمين : قسم بقيادة قائده أبى بكر بن الجبر مع

---

(١) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٢٣

(٢) البيذق ،ص ٩٩

(٣) موضع شديد الانحدار في الطريق من فاس الى تازى

صنهاجة وهسكورة ، وجهه إلى نوج إيجران ، وهو موضع من فاس ، أما الخليفة فقد ارتقى مع بقية العسكر جبل العرض (١) . وأمر الخليفة رجاله بقطع الأشجار ، فقطعت ، ثم حملت إلى الوادى ، فسد بها ، وأمر عبد المؤمن بتحويل مجرى النهر إلى ناحية الأسوار ، وأطلق المياه فى المجرى الجديد فجرفت المياه باب السلسلة وهدمته (٢) ، وغمرت أحياء المدينة فأغرقت عددا كبيرا من دورها . واضطر الصحراوى إلى الخروج مع فريق من رعيته لبناء السور المهدم ، فأتم بناءه . ثم أرسل عبد المؤمن فرقة استطلاعية (تيظاف بالبربرية) (٣) . سيرها إلى مكناسة ، فخرج عليهم بدر بن ولجوط وقتلهم جميعا ماعدا ثمانية من الفرسان . فلما علم عبد المؤمن بن على بذلك غضب غضبا شديداً ، وزحف إلى مكناسة بعسكر كثيف أثناء الليل تاركا أبا بكر بن الجبر على حصار فاس . فافتتح جميع أرباض مكناسة ما عدا تاجرارت .

ولما طال الحصار على أهل فاس ، خرج أبو محمد الجيانى والى فاس خفيه إلى أبى بكر بن الجبر ، واتفق معه على أن يفتح له فاس . وفوجىء الصحراوى فى الصباح برؤية الموحدين على السور فى ١٤ ذى القعدة سنة ٥٤٠ هـ . فركب الصحراوى فرسه هو وبعض عسكره وجماعة من شيوخ لمطة ، نجوا بأنفسهم من باب الفتوح ، واحتموا بقلعة آمرجو ، ولكن الصحراوى فر إلى الاندلس ، فخرج أبو يحيى بن الجبر إليهم ، وقبض عليهم،

(١) هو جبل الشواشى الحالى ويقع شرقى فاس

(٢) القرطاس ، ج ١ ص ١٢٣ ـ الحلل الموشية ، ص ١٠١،١٠٢

(٣) البيذق ، ص ١٠٠

وساقهم إلى فاس وقتلهم . وهكذا افتتح الموحدون مدينة فاس بعد تسعة أشهر من الحصار . ثم قدم عبد المؤمن إلى فاس ، وأقام بها بعض الوقت ، وأمر أثناء ذلك بسور فاس فهدمت فيه ثلمات كثيرة ، وقال: إننا لانحتاج إلى سور ، وإنما الأسوار سيوفنا وعدلنا ، فظلت بلا سور حتى عصر محمد الناصر من خلفاء الموحدين ، الذى أقام لها سورا جديدا فى سنة ٦٠٠ هـ (١)، وأقام قصبة الوادى ، وبنى باب الشريعة (٢) .

ثم ترك عبد المؤمن على مدينة فاس أبا عبد الله محمد بن يحيى الجدميوى وأبا محمد الجيانى (٣) ومضى بكل جيشه إلى مكناسة .

٣ ـ فتح مراكش :

توجه عبد المؤمن بعسكره لحصار مكناسة ، ولكن قبيلة صنهاجة تيسغرت أرسلت إليه سنبلة من القمح مع رسالة أخبروه فيها أن يبادر بالظفر بزرع دكالة قبل أن يدخل مراكش، فلا يستطيع بعد ذلك أن يدخلها أبدا، فصمم على السير إلى مراكش ، فعهد بمحاصرة مكناسة إلى قائده يحيى بن يومور، ومضى هو بمعظم عسكره إلى مراكش عن طريق تادلا وفى تادلا أمدته قبيلتا هسكورة وصنهاجة بعسكر ضخم ، هبط بهم عبد المؤمن إلى وادى أم الربيع ، واستولى على آزمور ، ثم ضم صنهاجة آزمور إلى جيشه، وانضم إليه أيضا أهل دكالة جيرانهم ، ودخلوا فى طاعته لأول مره . فسار بعد ذلك إلى مراكش، (انظر خريطة رقم ١٣) وعبر نهر تنسيفت حتى وصل إلى

---

(١) روض القرطاس ، جـ ١ ص ١٢٣

(٢) الجزنائى ، ص ٣٢

(٣) راجع ما سبق أن كتبته عن مدينة فاس

تاقايط [١] ، ومنها اتجه إلى جبل إيجيليز الذى يشرف على مراكش، وضرب عنده القبة الحمراء [٢] . وذكر صاحب الحلل أنه نزل بجبل إيجيليز ، وبنى عليه مدينة استند إليها ، وبنى فيها مسجدا وصومعة طويلة يشرف منها على مراكش ، وذلك فى محرم سنة ٥٤١ هـ [٣] . ثم خرج جيش المرابطين فى مراكش بقيادة اسحق بن على بن تاشفين الذى نصبه المرابطون أميرا عليهم بعد خلع إبراهيم بن على بن يوسف ، وقائدين من قواده هما محمد بن حواء ومحمد بن يانكلا لمقاتلة الموحدين وذلك فى ٥ من المحرم، فهزمهم الموحدون عند أول لقاء ، وتراجع المرابطون إلى باب الشريعة ، وقتل منهم عدد كبير فى المعركة وأثناء تسابقهم إلى دخول مراكش. وفى ١٨ شوال تمكن الموحدون من تسلق الأسوار بالسلالم ، واقتحموا المدينة ودخلوها ، وقتلوا عددا كبيرا من أهلها ، فامتنع الامير اسحق فى جملة من رجاله بالقصبة المعروفة بقصر الحجر ، واستمر الموحدون يقاتلون حتى الزوال ، وعجز المحصورون عن مدافعة الموحدين، فدخل الموحدون بقيادة أبي الحسن بن وجاج الحصن، وقبضوا على الامراء والقواد ، وساقهم ابن وجاج إلى جبل إيجيليز ، وحاول عبد المؤمن أن يمنع ابن وجاج من قتل اسحق وبعض أبناء الامراء من الصبيان ، فصاح به أبو الحسن بن وجاج : « ويوا ويوا الموحدين ، ارتد علينا عبد المؤمن يريد أن يربي علينا فراخ السبوعة » [٤] . فانسحب عبد المؤمن من المجلس غاضبا ، وأتبعه الموحدون ماعدا أبو الحسن والشيخ أبو

---

(١) مدينة صغيرة كانت تقع على مسافة قصيرة الى الشمال من مراكش ، وقد اختفت اليوم

(٢) البيذق ص ١٠٢

(٣) الحلل ، ص ١٠٢

(٤) البيذق ١٠٤ — الحلل ، ص ١٠٢

حفص. فبدأ أبو الحسن بقتل اسحق ، فضرب عنقه ، ثم جذب طلحة ليقتله، فسأله طلحة أن يفك وثاقه ، ليعطيه أسلحته ، وبينما انهمك أبو الحسن بفك وثاقه ، أسرع طلحة إلى خنجر في وسطه ، سدده إلى قلب أبي الحسن ، فقتله وانهقم طلحة بذلك لنفسه وللأمير اسحق قبل أن يقتله الموحدون (١) . وأصبح عبد المؤمن بعد فتح مراكش سيد المغرب كله .

ب ــ المرحلة الثانية : فتح الأندلس :

كان عبد المؤمن قد تلقى عند خروجه من فاس لمحاصرة مراكش بيعة أهل سبتة له ، فولى عليهم يوسف بن مخلوف الهنتاتي (٢) . ولكن أهل سبتة انتقضوا على يوسف بن مخلوف ، وقتلوه هو ومن معه من الموحدين، وجاز القاضي عياض ، واليهم السابق، إلى يحيي بن على بن غانيـــة المسوفي والي الأندلس ، فلقيه بالجزيرة الخضراء ، وطلب منه واليا على سبتة ، فبعث معه يحيي بن أبي بكر المعروف بالصحراوي ، فقـــام بأمر سبتة ، وتحالف مع القبائل الخارجة عن طاعة الموحدين أمثال برغواطة ودكالة ، فاضطر عبد المؤمن إلى محاربة هؤلاء الخارجين عليه ، فاستأصل شأفتهم حتى انقـــادوا لطاعته ، ثم عاد إلى مراكش . وتقدم الصحراوي بطلب العفو عنه ، فعفـا عبد المؤمن عنه ، وراجع أهل سبتة طاعتهم ، وكذلك أهل سلا الذين كانوا قد انتقضوا عليه (٣) .

---

(١) البيذق ، ص ١٠٤

(٢) ابن خلدون ج ٦ ، ص ٤٧٩

(٣) كان قد خرج على عبد المؤمن ثائر في جزولة من أهل سلا يعرف بعمر بن الخياط (البيذق ص ١٠٦) ، ويسميه ابن أبي زرع وابن خلدون بمحمد بن عبد الله بن هود =

ثم وجه عبد المؤمن نظره بعد ذلك إلى الأندلس، فقد كان أهلها قد انتهزوا فرصة ضعف تاشفين بن علي ، وتوالى الهزائم عليه فى المغرب على أيدى الموحدين ، وأعلنوا الثورات فى كل مكان بالأندلس ، وزادت هـذه الثورات عنفا بعد وفاته فى سنة ٥٣٩ هـ. وكان علي بن عيسى بن ميمون من بين هؤلاء الثوار ، فاستقل بقادس ودخل فى طاعة الموحدين، وخطب أول خطبة لهم فى قادس سنة ٥٤٠ هـ. كذلك قام أحمد بن قسى الصوفى الثائر فى مرتلة ، فلما استولى أبو محمد سدراى على مرتلة أجاز ابن قسى إلى عبد المؤمن بمراكش فى سنة ٥٤١ ، ورغبة فى امتلاك الأندلس ، فسير عبد المؤمن معه جيشا بقيادة براز بن محمد المسوفى (١) فى شعبان سنة ٥٤١ ، ثم أمده بجيش آخر بقيادة موسى بن سعيد ، وجيش ثالث بقيادة عمر بن صالح الصنهاجى . فلما عبروا الزقاق ، ونزلوا بالأندلس ، هاجموا أبا القمر بن عزوز المنتزى بشريش ورندة ، فدخل فى طاعة الموحدين ، ثم قصدوا لبلة وأخضعوا يوسف بن أحمد البطروجى ، ثم مضوا إلى مرتلة ، فدخلوها ، وافتتحوا بعد ذلك شلب ، وقصدوا باجة وبطليوس ، فدخـل أبو محمد سدراى

=(القرطاس، ص ١٢٤ — ابن خلدون ، ج ٦ ص ٤٨٠) فارتد معه أهل حاحة ورجراجة وهزميرة وهسكورة الوطاء ودكالة وبنو ورياغل ، كما ارتد معه عن طاعة الموحدين أهل سبتة وطنجة . فسير اليهم عبد المؤمن جيشا بقيادة يحيى بن أنكمار المسوفى ، فانهزم ، فسير اليهم للمرة الثانية الشيخ أبا حفص عمر بن يحيى وأشياخ الموحدين ، فسار أبو حفص الى هزميرة وهزمهم ، وبدد شملهم ، ثم اتجه الى رباط ماسة وهزم جزولة وقتل الثائر عمر بن الخياط ، ثم مضى الى هسكورة فهزمهم ، وحارب برغواطة . (انظر البيذق ص ١٠٧ — ابن خلدون ج ٦ ص ٤٨٠)

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٤٨٠ ، ويذكر ابن الخطيب أن اسمه ابراهيم بن براز المسوفى

ابن وزير فى طاعتهم ، كما انضوت إشبيلية فى سنة ٥٤١ تحت لوائهم بعد أن اقتحموها برا وبحرا ، ثم دخلوا مالقة فى هذه السنة . غير أن يوسف البطروجى لم يلبث أن نكث بطاعته الموحدين، وحول الدعوة عنهم ، كما ارتد عن طاعتهم ابن قسى فى شلب ، وعلى بن عيسى بن ميمون فى قادس ، ومحمد بن على بن الحجـــام فى بطليوس ، بينما بقى أبو القمر بن عزوز على طاعتهم فى شريش ورندة .

اضطرت أحداث الأندلس عبد المؤمن إلى إرسال جيش إليها يقوده يوسف بن سليمان، فنزل يوسف باشبيلية التى اتخذها الموحدون حاضرة لهم فى الأندلس ، وتمكن يوسف من بسط نفوذ الموحدين على بطليوس وشنتمرية وقادس وشلب ولبلة، ثم دخلت قرطبة وجيـان فى طاعة الموحدين سنة ٥٤٣. ولم تبدأ سنة ٥٤٥ هـ حتى كان رؤساء الأندلس الذين كانوا قد أعلنوا ثوراتهم على المرابطين، واستقلوا بمدنهم، قد بايعوا عبد المؤمن بن على وأعلنوا الدخول فى طاعته. أما المرية ، فقد كان أهلها قد ثاروا على المرابطين أيضا ، ودخلت فى فلك دولة الموحدين سنة ٥٤١ هـ ، وتولى على جيوش الموحدين فيها عبد الله بن سليمان الذى قتله البحريون رجالة القطائع [1] ، ثم وليها من قبل الموحدين يوسف ابن مخلوف ، فثار عليه أهل المرية وقتلوه ، وقدموا على أنفسهم أبا يحيى بن الرميمى [2] ، فضبطها إلى أن استولى عليها الفونسو السابع ريموند الملقب فى المصادر العربية بالسليطين ملك قشتالة [3] ، فى ٢٠ جمـادى الأولى سنة

---

(١) البيذق ، ص ١٢٦

(٢) المراكشى ص ٢١٠ ـ المقرى ، ج ٦ ، ص ٢٠٦

(٣) مجموعة رسائل موحدية من كتاب الدولة المؤمنية ، نشرها ليفى بروفنسال ، الرباط ١٩٤١ ، ص ٧٥ ـ المقرى ، نفح الطيب ، ج ٦ ص ٢٠٧

٥٤٢ هـ ودخلها عنوة [١] . ويبدو أن المرية كانت قد دخلت قبل استيلاء النصارى عليها فى طاعة محمد بن سعد الجذامى الملقب بابن مردنيش ، صاحب شرق الأندلس [٢] . ويرجح إشباخ أنها كانت إمارة مستقلة ، يحكمها القراصنة ، ويذكر أن السبب فى غزو النصارى لها اتخاذ القراصنة من مرساها وكرا لسفنهم يغيرون منه على شواطىء إسبانيا المسيحية وفرنسا وإيطاليا الجنوبية (٣) . وكان محمد بن سعد أمير بلنسية ومرسية وقت غزو القشتاليين للمرية مشغولا بمحاربة الموحدين والنصارى فى آن واحد ، فلم تتهيأ له فرصة الدفاع عنها ، وأحاط النصارى بالمرية من البر والبحر ثلاثة شهور حتى استسلم أهلها لهم (٤) . وكان الموحدون قد فرضوا طاعتهم على قادس ، وإشبيلية ، وقرطبة ، ومالقة ، والجزيرة ، ولبلة ، وشلب ، وشريش ، ومرتلة ، فحاولوا استرجاع المرية فى سنة ٥٤٦هـ (٥) ، وحاصروها ، إلا أنهم فشلوا فى اقتحامها وتخليصها من العدو بسبب حصانة أسوارها وإن كانوا قد نجحوا فى اقتحام المرسى وحرق السفن والأجفان الراسية به ، ووصلوا إلى المسجد الجامع (٦) .

وفى سنة ٥٤٩ هـ ، تغلب الموحدون على غرناطة بعد أن خرج عنها ميمون بن يدر اللمتونى ، وتوطد نفوذهم فى جنوب الأندلس . ثم تلقى

---

(١) دخلتها قوات قشتالية وقطلانية وجنوية ونبرية .

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الخاص بالأندلس ، ص ٢٥٩ ، ٢٦٠

(٣) اشباخ ، ص ٢٢٤

(٤) المقرى ، جـ ٦ ص ٢٠٦ — اشباخ ، ص ٢٢٦

(٥) القرطاس ، ص ١٢٦ — المقرى ، جـ ٦ ص ٢٠٦

(٦) مجموعة رسائل موحدية ، ص ١٠—١٣

السيد أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن ، والى الجزيرة ومالقة وغرناطة ، أمر أبيه بمحاصرة المرية برا وبحرا ، وتخليصها من النصارى ، فتقدم أبو سعيد إلى المرية للجهاد بصحبة أخيه أبي حفص (١) ، ونصب الموحدون المجانيق على القصبة بعد أن احتلوا المدينة (٢) وحاصروها حصاراً محكما . فاستصرخ النصارى ملكهم الفونسو السابع السليطين فأقبل إلى نصرتهم على رأس جيش من ١٢ ألف مقاتل ، وانضم إليه حليفه ابن مردنيش فى قوة من ٦ آلاف مقاتل ، اضطر السيد أبو سعيد عثمان إلى استمداد الخليفة ، فوجه إليه القائد الكاتب أبا جعفر بن عطيه ، ومعه الأمير أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، والى إشبيلية ، فازدادت قوة الموحدين بقدومه ، وخجل ابن مردنيش من نفسه ، إذ رأى « العار على نفسه فى قتالهم مع كونهم يقاتلون النصارى ، فارتحل » (٣) . وولى عسكر الفونسو الأدبار تاركين حامية قصبة المرية لمصيرها التعس ، ومات الفونسو فى طريقه إلى بياسة سنة ٥٥٢ هـ ، وخلا الجو للموحدين ، فشددوا الحصار على القصبة ، واستولوا عليها فى سنة ٥٥٢ هـ ، وهكذا استرد الموحدون المرية ، وقد تهدمت أبنيتها ، وتغيرت محاسنها (٤) .

وفى سنة ٥٥٥ هـ أمر عبد المؤمن ولده أبا سعيد عثمان ببناء جبل الفتح

---

(١) المقرى ، جـ ٦ ص ٢٠٧

(٢) ابن الخطيب ، الاحاطة فى أخبار غرناطة ، جـ ١ ، تحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان ، ص ٢٧٩

(٣) المقرى ، جـ ٦ ص ٢٠٧

(٤) الادريسى ، ص ١٩٨

وتحصينه ، فتم بناؤه على يدى الحاج يعيش المهندس(١). وعلى أثر ذلك جاز عبد المؤمن من طنجة إلى الأندلس ، فنزل بجبـــل الفتح ، وأقام شهرين أشرف خلالها على أحوال الأندلس ، ووفد إليه قوادها وأشياخها لتحيته، ثم أمر بغزو غرب الأندلس ، فسير الشيخ أبا محمد عبد الله بن أبى حفص من قرطبة ، ففتح حصن أطرفكمش من أحـواز بطليوس ، واستولى الموحدون على بطليوس وباجة ويابرة وحصن القصر ، ثم عاد عبد المؤمن بعد ذلك إلى مراكش (٢) .

ج ـ المرحلة الثالثة : فتح المغربين الأدنى والاوسط :

أخذ الموحدون يتدخلون حربيا فى الأندلس منذ سنة ٥٤١ هـ ، وتمت لهم السيطرة على الأندلس فى سنة ٥٥٦ هـ ، وبينما كانت قوات عبد المؤمن تعمل على بسط نفوذ الموحدين فى الأندلس ، تفتحت أمامه جبهة ثانية فى المغربين الأدنى والأوسط ، فقد بلغه ماوصل إليه أمر إفريقية من اختلاف الأمراء ، وتطاول العرب من بنى سليم وهلال عليهـا بالعيث والفساد ، كما بلغه استيلاء النورمانديين على سواحل إفريقية ، فزحف فى سنة ٥٤٦ هـ من مراكش قاصـدا مملكة يحيى بن العزيز بن المنصور بن الناصر بن علنـاس الحمادى ببجاية ، فدخل مدينة الجزائر على حين غفلة ، فخرج إليـه الأمير الحسن بن على بن يحيى بن تميم ، وكان قد انتقل إليها بعـد سقوط المهدية فى أيدى النورمان ، فقدمه أهلها على أنفسهم ، فلما علم بقدوم عبد المؤمن بن

---

(١) الحلل الموشية ، ص ١١٨

(٢) روض القرطاس ، ص ١٣٠

علي ، خرج للقائه ، فتلقاه بحفاوة بالغة ، وصحبه فى غزو إفريقية (١) .
ثم سار عبد المؤمن نحو بجاية ، فأخرج يحيى بن العزيز أخاه سبع للقاء جيوش عبد المؤمن ، فانهزم هزيمة نكراء ، ودخل الموحدون بجاية (٢) . ولما رأى يحيى ألا طاقة له بمحاربة عبد المؤمن ، هرب فى البحر إلى صقلية بقصد الانتقال منها إلى بغداد ، وحمل معه مااستطاع حمله من الذخائر والأموال ، ثم عدل عن ذلك ، ونزل فى بونة على أخيه الحارث ، ثم رحل عنه إلى قسنطينة ، فنزل على أخيه الحسن . أما عبد المؤمن ، فقد سار إلى قلعة بنى حماد معقل الصنهاجيين الأعظم ، وحرزهم الأمنع ، واقتحمها عنوة ، فخربها ، وأضرم النار فى مساكنها ، وقتل جوشن بن العزيز ، وابن الدحامس من الأثبج ، ويذكر ابن خلدون أن عدد القتلى بها بلغ ١٨ ألفا (٣) .

ولما استولى عبد المؤمن على الجزائر وعلى بجاية والقلعة وأعمالها ، استعمل عليها ابنه عبد الله ، ورتب من الموحدين من يقوم بالدفاع عنها ، وكر عائدا إلى مراكش (٤) . وكان يحيى بن العزيز قد نزل عن قسنطينة لعبد المؤمن على أن يؤمنه ، فأمنه ، وأصحبه معه إلى مراكش فى سنة ٥٤٧ هـ ، وأسكنه بها ، ثم انتقل يحيى إلى سلا سنة ٥٥٨ هـ ، فسكن قصر بنى عشيرة إلى أن توفى فى هذه السنة (٥) . أما الحسن بن علي فقد صحب عبد المؤمن

---

(١) ابن خلدون ، جـ ٦ ص ٣٣٣
(٢) نفس المرجع ص ٣٦٤
(٣) نفس المرجع ، جـ ٦ ص ٤٩١
(٤) المراكشى ، ص ٢٠٧
(٥) ابن خلدون ، جـ ٦ ص ٣٦٤ — ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الخاص بالأندلس ، ص ١٠٠

فى غزوته الأولى إلى إفريقية ، كما صحبه فى سنة ٥٥٤ فى غزوته الثانية ، فحاصر معه المهدية ، ثم دخلها ، وسكن بها ثمان سنوات إلى أن استدعاه أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، فرحل بأهله إلى مراكش ، وتوفى بتامسنا فى سنة ٥٦٣ هـ (١) .

كان عبد المؤمن فى طريقه إلى مراكش عندما بلغه وهو فى متيجة خبر قيام عرب الأثبج ورياح وزغبة فى سطيف بالثورة على ابنه عبد الله ، وعزمهم على إعادة دولة بنى حماد . فأرسل إلى ابنه مدداً ، والتقى عبد الله بن عبد المؤمن بهم فى سطيف ، فانهزم العرب ، وأعلنوا خضوعهم للموحدين ، وقدم إليه وفد من كبرائهم طـــائعين ، فأكرمهم ، ووصلهم ، وأعادهم إلى إفريقية معززين . وكان لذلك أكبر الأثر فى دخول العرب فى طاعته ، فاتخذ منهم جندا ، وأقطع رؤساءهم بعض تلك البـــلاد ، ثم إنه استنفرهم إلى الغزو بالأندلس ، فاستجاب له منهم جمع عظيم . فلما أراد الجواز إلى الأندلس فى سنة ٥٥٥ هـ ، أدخلهم بها ، وجعل بعضهم فى نواحى قرطبة ، وبعضهم فى إقليم إشبيليـة ، مما يلى شريش وأعمالها ، وقـد استكثر منهم أبو يعقوب يوسف وأبو يوسف يعقوب المنصـور ، ويذكر المراكشى أن بالجزيرة فى أيامه من عرب زغبة ورياح وجشم وغيرهم نحو من ٥ آلاف فارس سوى الرجالة (٢) .

وفى هذه الأثناء كان عبد الله بن عبد المؤمن قـد خرج فى جيش كبير

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ، ص ٣٣٤

(٢) المراكشى ، ص ٢٢٦

من المصامدة والعرب ونزل على مدينة تونس فى سنة ٥٥٢ هـ ، فحاصرها ، وأخذ فى قطع أشجارها وتغوير مياهها ، وكان قد استقل بها عبد الله بن خراسان ، فخرج أهل تونس لمقاتلة الموحدين ، وانضم إليهم محرز بن زياد أمير بنى على من بطون رياح هو وقومه من العرب ، فهزموا الموحدين(١)، وتوفى عبد الله بن خراسان أثناء ذلك ، فخلفه على بن أحمد بن عبد العزيز ابن خراسان ، وعاد عبد الله بفلول أصحابه إلى بجاية ، فكتب إلى أبيه بذلك (٢) . فخرج أبوه من مراكش فى جيوش لاتحصى فى ١٠ شوال سنة ٥٥٣ هـ بعد أن استخلف على مراكش أبا حفص بن يحيى ، وترك معه ولده السيد أبا الحسن (٣) . ثم زحف إلى مدينة تونس فافتتحها عنوة ، ثم واصل زحفه إلى المهدية ، وضرب عليها الحصار . وكانت الإمدادات تأتى حاميتها من صقلية ،ولذلك طال الحصار إلى سبعة أشهر،ثم افتتحها عبدالمؤمن بعد أن أمن حاميتها على أن يخرجوا منها إلى صقلية ، ودخلها فى سنة ٥٥٤ هـ (٤) . وكان عبد المؤمن أثناء حصاره للمهدية ، قد بعث ابنه عبد الله لمحاصرة قابس، فاستولى عليها من بنى كامل من رياح ، المتغلبين عليها ، كما استولى على قفصة من بنى الورد ، وعلى طبرقة من مدافع بن علال ، وجبل زغوان من بنى حماد بن خليفة ، وشقنبارية من بنى عماد بن نصر الله الكلاعى ، والأربس من بنى فتاتة العرب (٥) . ويذكر المراكشى أنه افتتح طرابلس

(١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٣٧
(٢) المراكشى ص ، ٢٢٨
(٣) القرطاس ، ص ١٢٩
(٤) المراكشى ، ص ٢٣٠ — الحلل الموشية ص ١١٧
(٥) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٤٩٤

المغرب أيضا ، وافتتح بلاد الجريد كلها (١) . وعاد بعد ذلك إلى مراكش بعد أن أتم إخضاع إفريقية كلهـا وضمها إلى دولته ، وأصبحت دولة الموحدين تمتد من طرابلس شرقا إلى السوس الأقصى غربا ، لأول مرة فى تاريخ المغرب منذ أن افتتحها العرب .

ثم عاد عبد المؤمن بعـد ذلك فى طريقه إلى حاضرته مراكش ، مارا ببجاية وتلمسان وتاجرا ، وأقام بمراكش بقية سنة ٥٥٥ هـ ، حتى سنة ٥٥٦ هـ . وبلغه أن ابن همشك وابن مردنيش ومدار الأقرع قدهاجموا إشبيلية مع حشود كبيرة من النصارى ، وأن ابنه أبا يعقوب قد خرج إليهم فهزموه ، وقتل فى تلك الموقعة محمد بن عمر الصنهاجى ، ويحيى بن أبي بكر ابن الجبر ، وعمر بن ميمون المرغى من كبار قادة الموحدين ، كما بلغه هزيمة ابنه أبى سعيد عثمان فى غرناطة ، فخرج عبد المؤمن إلى سلا ، وأعد جيشا ضخما للجهاد ، وجاز إلى جبل الفتح ، وسارت عساكره إلى غرناطة ، فهرب ابن مردنيش إلى محلته بحدره ، وابن همشك إلى شقورة ، ودخل الموحدون غرناطة . ثم جاز الخليفة إلى سلا ، حيث مرض الخليفة ، وتوفى فى ٢٧ من جمادى الآخرة من سنة ٥٥٨ هـ ، ودفن فى تينملل بجوار قبر المهدى (٢) .

---

(١) المراكشي ، ص ٢٣٠

(٢) البيذق ، ص ١٢١

(٣)

عصر أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن

ا ـ الصعاب التى واجهته فى المغرب والاندلس :

لما توفى عبد المؤمن بن على خلفه محمد أكبر أبنائه ، وبايع الناس له ، فتولى الخلافة ٤٥ يوما ، ثم عزل عنها لأمور أخذت عليه ، وأجمعت آراء شيوخ الموحدين على مبايعة أبى يعقوب يوسف ، وكان أبو يعقوب هذا قد تأثر برقة الحياة فى الأندلس وحضارتها منذ أن كان واليا على إشبيلية من قبل أبيه ، فزالت عنه جفوة البربر ، وكان قد درس على كثير من علماء الأندلس فى اللغة والنحو والقرآن ، وكان محبا للجهاد فى سبيل الله ، فجاز إلى الأندلس مرتين مرة فى سنة ٥٦٦هـ للنظر فى ضبط الثغور وإصلاح حال البلاد، ومحاربة القشتاليين والأرغونيين وبقايا العناصر التى مازالت موالية للمرابطين فى الأندلس، ثم جاز مرة أخرى فى سنة ٥٧٩ لمحاربة البرتغاليين.

اعترضت أبا يعقوب منذ توليته الخلافة عدة صعاب واجهها فى شجاعة وعزم ، واستطاع أن يتغلب عليها ، ففى المغرب قامت فتنتان : الأولى سنة ٥٦٢ هـ ، عندما ثار سبع بن منغفاد بجبال غمارة على الخليفة ، وتابعته فى الفتنة صنهاجة ، فسير إليه الخليفة قائدة الشيخ أبا حفص ، ولكنه لم ينجح فى إخمادها ، فاضطر إلى الخروج بنفسه ، وهزمهم ، واستأصل شأفتهم ، وقتل الثائر سبع . وفى سنة ٥٧٥ ثار على بن المعز المعروف بالطويل من أعقاب بنى الرند ملوك قفصة ، وتلقب ابن الرند هذا بالناصر لدين النبى (١) ، فسار أبو يعقوب إلى قفصة وحاصرها إلى أن استنزله ، فعاد إلى

---

(١) المراكشى ، ص ٢٥٢

مراكش . وكانت هذه الثورات مقدمة لخطر وافد من المشرق وهو خطر مماليك الغز المصريين ، وعلى رأسهم شرف الدين ابن أخى صلاح الدين ؛ فحالفوا عرب بنى هلال ، وأغاروا على الأطراف الشرقية لدولة الموحدين، وقد تمثل هذا الخطر فى عهد أبى يوسف يعقوب المنصور ، إذ تحالف مماليك مصر مع بنى غانية الميورقيين ، وأعراب بنى هلال ، ضد الموحدين (٢) .

أما فى الأندلس ، فانه لم يمض عامان على ارتقائه إلى دست الخلافة حتى كان ابن مردنيش قد حشد قواته من المعادين للموحدين فى الأندلس ، ومن حالفه من القشتاليين والأرغونيين ، وأغار على قرطبة ، فسير إليه أبو يعقوب السيد أبا سعيد من غرناطة وأبا حفص ، فى جيوش ضخمة من الموحدين ومن انضم إليهم من قبائل العرب زغبة ورياح والأثبج ، فالتقى الموحدون مع جيش ابن مردنيش فى فحص مرسية ، فانهزم ابن مردنيش وأصحابه ، وفر إلى مرسية، ونازله الموحدون بها . ثم عاد السيدان أبو حفص وأبو سعيد إلى مراكش فى سنة ٥٦١ هـ بعد أن هدأت الأحوال فى الأندلس (٢).

ب ـ جهاده فى الأندلس واستشهاده فى شنترين :

ثم بلغ أبا يعقوب قيام فرديناند ملك ليون بغزو منطقة وادى آنه ، بينما أخذ الفونسو هنريكى ملك البرتغال يوسع حدوده الجنوبية والشرقية على حساب أملاك المسلمين فى غرب الأندلس ، واستولى على ترجالة ويابرة وحصنى شبرينه وجلمانية الواقعين إزاء بطليوس (٣) ، ثم سار بعد ذلك

---

(١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٩٤ ، ٣٩٥

(٢) نفس المرجع ص ٤٩٧

(٣) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٤٩٩ .

لحصار بطليوس . فسير إليه أبو يعقوب الشيخ أبا حفص فى عساكر كثيفة من الموحدين ، وسار أبو حفص لاستنقاذ بطليوس من حصار الفونسو هنريكى (وتسميه المصادر العربية « ابن الريق ») . فلما وصل إلى إشبيليه بلغه أن أهل بطليوس هزموا البرتغاليين ، فعدل عن متابعة السير إلى بطليوس. وفى سنة ٥٦٦ ﻫ توافت عند أبى يعقوب بمراكش حشود هائلة من العرب قادمه من إفريقية فى صحبة السيد أبى زكريا والى بجاية والسيد أبى عمران والى تلمسان ، فاستعرضهم وسائر عساكره ، ثم عزم على الجواز إلى الأندلس للجهاد ، واستخلف على مراكش أخاه أبا عمران ، ثم عبر الزقاق إلى الأندلس فى صفر سنة ٥٦٦ ﻫ ، ونزل بعاصمته إشبيلية، ثم كتب إلى أخيه عثمان والى غرناطة بالسير إلى مرسية قاعدة ابن مردنيش ، والتقى جيش الموحدين بجيش ابن مردنيش فى موقعة الجلاب ، على بعد أربعة أميال من مرسية ، فانهزم ابن مردنيش ، وتحصن بمرسية ، فحاصره الموحدون . وفى أثناء الحصار ، تمكن الموحدون من الاستيلاء على لورقة وبسطة ، وتوفى ابن مردنيش وهو محاصر بمرسيه فى رجب سنة ٥٦٧ ﻫ ، فدخل ابنه هلال فى طاعة الموحدين [1] ، وسلم لهم حصون أبيه وهى بلنسية ومرسية ومربيطر وشاطبة ودانية ولقنت وشقر ولورقة وقرطاجنة . ومكث أبو يعقوب فى إسبانيا أربعة أعوام ، نظم خلالها عدة حملات ضد البرتغاليين والقشتاليين ، ففى سنة ٥٦٧ خرج من إشبيلية إلى جنوب البرتغال فى جيش ضخم ، وحاصر شنترين ، ثم سار إلى القنطرة متبعا طريق بطليوس والبكرك ، واستولى عليها ، ثم عاد إلى إشبيلية مثقلا بالغنائم . وفى عام ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، أغار على

---

(١) المراكشى ، ص ٢٤٩ — ابن خلدون ج ٦ ، ص ٥٠٠

ناحية قلعة رباح وأثخن فى بـــلاد قشتالة ، ثم عاد إلى إشبيلية . وفى سنة ٥٧١ هـ ، غادر أبو يعقوب الأندلس ، إلى مراكش بعد أن أقام فى عاصمته الأندلسية كثيرا من المنشآت الرائعة كالمسجد الجامع ، والجسر ، والقصبة، والزلالق للسور ، والأرصفة على الوادى الكبير (١) .

غير أن الأحوال فى الأندلس لم تلبث أن ساءت من جديد بعد قفول أبي يعقـــوب يوسف إلى مراكش ، ففى سنة ٥٧٢ هـ ، تمكن القشتاليون بمساعدة الفونسو الثاني ملك أرغون من الاستيلاء على قونكة (٢) وأخذت ضربات القشتاليين والـبرتغاليين والليونيين والأرغونيين تتوالى على بلاد الأندلس . وكانت مملكة البرتغال أشد هذه الممالك وطأة على بلاد المسلمين، فعزم أبو يعقوب على الجواز إلى الأندلس للمرة الثانية وذلك فى سنة ٥٧٩ هـ، ورأى المبادرة بمهاجمة مملكة البرتغال ، فزحف بجيوش لم تر الأندلس مثل كثرتها من قبل ، وسار إلى شنترين ، وكانت من المعاقـل الكبرى فى غرب الأندلس ، التى استولى عليها البرتغاليون فى سنة ٥٤١ هـ، وحاصرها حصارا شديدا ، ودمر مزارعها ، وخرب مروجهـا ، وشن الغارات على نواحيها ، وكان هنريكي ملك الـبرتغال قد تأهب لذلك الحصار فـــملأها بالأقوات والسلاح وكان واثقـا من حصانتها وشدة مناعتهـا ، فبالغ أبو يعقوب فى التضييق عليها ، وانتساف معايشها ، وقطع المواد والعدد عنها ، لما زاد ذلك

(١) P. Antuna Melchor, Sevilla y Sus monumentos arabes, el- Escorial, 1930. وارجع الى كتابي : المساجدوالقصوربالأندلس ، اقرأ ، ١٩٠ ، ١٩٥٨ ــ كتاب الشعب عدد ٦١، ٩.٨،

(٤) اشباخ ، ص ٣٢١.

أهلها إلا صرامة وشدة وجلدا ، « فخاف المسلمون هجوم البرد ـ وكان فى آخر فصل الخريف ـ وخافوا أن يعظم النهـــر (نهر تاجه قرب مصبه) فلا يستطعون عبـــوره ، وينقطع عنهم المدد ، فأشاروا على أمير المؤمنين بالرجوع إلى إشبيلية » [1] . ويبدو أن الخليفة يئس من فتح شنترين بعد بعد أن طال حصاره لها دون جدوى ، فأراد أن يحاصر مدينة أخرى غيرها هى مدينة أشبونه ، كما يبدو أن بعض رجاله عجل بتقويض الأخبية تمهيدا للرحيل ، وأحـدث ذلك هرجا فى معسكر المسلمين ، وعـبر أكثر جنود المسلمين نهر تاجة متزاحمين متسابقين ، ولم يبق إلا عدد قليل من العسكر ظل مرابطا بقرب خباء الخليفة ، فلما رأى البرتغاليون ذلك ، وشاهدوا رحيل معظم جيش أبي يعقـوب أغاروا على معسكره ، فقتل عدد كبير من كبار رجال الجيش ، وأصيب الخليفة بسهم مسموم ، وتدارك الناس حين سمعوا صرخات الجنود ، وأقبلوا يحمون الخليفة ، فتراجع البرتغاليون إلى شنترين ، بينما حمل الجنود خليفتهم جريحا على محفة ، فمات بعد ليلتين من هذه المعركة فى ٧ رجب سنة ٥٨٠ هـ ، وحملت جثته إلى إشبيلية ، وأرسل منها فى تابوت إلى تينملل حيث دفن بجوار أبيه عبد المؤمن [2] .

---

(١) المراكشى ، ص ٢٥٨

(٢) نفس المرجع ، ص ٢٦١

(٤)

المنصور بطل الأرك

ا ـ حروبه مع بنى غانية :

واجه أبو يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف كثيرا من المهام الصعبة فى المغرب والأندلس معا ، ففى بداية عهده انتهز بنو غانية فرصة وفاة أبيه ، وخرج أميرهم علي بن اسحق بن غانية من جزيرة ميورقة قاصدا مدينة بجاية فى حشود كثيرة من أتباعه، فاستولوا عليها ، وأخرجوا من كان بها من الموحدين .

وبنو غانية من قبيلة مسوفة ،وكانوا يمتون بصلة القرابة إلى بنى تاشفين أمراء المرابطين ، وفى عهد المرابطين قام بنو غانية بولاية دانية ، فامتلكوا جزر البليار : ميورقة ومنورقة ويابسة ، واستقل محمد بن غانية بحكم هـذه الجزر ، وأقام فيها جاريا على أمر لمتونة ، داعيا لبنى العباس ، وخلفه ابنـه أبو ابراهيم اسحق ، وفتح بابه لمن وفد إليه من بقـايا عنـاصر المرابطين فى الأندلس ، وأقبل على الغزو ، وتوفى فى سنة ٥٧٩ هـ . وقام بالأمر بعده ابنه على فخرج بأسطول ميورقة إلى العدوة ، وقصد مدينة بجاية حين راسله جماعة من أعيانها. وقد وجـد الميورقيون لهم فى إفريقية حلفـاء جمعتهم بهم الظروف السياسية وقتئذ وهم بنو هلال وسليم والمماليك الغز وعلى رأسهم قراقوش ، وكان مملوكا لتقى الدين ابن أخى صلاح الدين،وكانوا يعملون لحسابهم الخاص فى المغرب ضد الموحدين ، وبطبيعة الحـــال انضم هؤلاء المماليك الميورقيين ، وأصبحوا حلفاء لهم خاصة بعد أن دعا على بن اسحق للخليفة العباسى أبو العباس أحمد الناصر فى الخطبـة . ثم بعث على بن اسحق

ابنه مع كاتبه عبد البر بن مرشان إلى الخليفة العباسى طلبا للخلع والأعلام السوداء . وكان انضمام مماليك مصر إلى بنى غانية ، أعداء الموحدين ،سببا فى غضب أبى يوسف يعقوب على صلاح الدين سلطان مصر ، ويبدو أن ذلك كان سببا من أسباب رفضه لنجدة صلاح الدين فى جهاده ضدالصليبيين [(١)].

وخرج على بن اسحق من بجايه بعد أن وطد سلطانه فيها ، وهاجم قلعة بنى حماد فاستولى عليها ، وعلى ما يجاورها من قلاع ، ثم تمكن على بن اسحق من الاستيلاء على كل إفريقية بما فى ذلك قفصة وتوزر عدا تونس والمهدية، كذلك استولى على الجزء الشرقى من المغرب الأوسط ابتداء من الجزائر حتى قسنطينة بما فى ذلك مليانة والقلعة [(٢)] . وعلم أبو يوسف فى سبتة بذلك عقب عودته من الأندلس ، ويذكر ابن خلدون أن السيد أبا زيد ابن عم الخليفة سير لمحاربة ابن غانية ابنه السيد أبا حفص ، كما عقد لمحمد بن أبى اسحق بن جامع على الأساطيل ، بقيادة أبى محمد بن عطوش وأحمد الصقلى .

أما السيد أبو زيد فقد مضى إلى تلمسان ليتفقد حصونها ، ثم مضى إلى مليانة ،ونادى بالعفو عن الرعية ، فثار أهل مليانة على ابن غانية وأخرجوه ، وكانت الأساطيل الموحدية قد سبقت الجيش إلى الجزائر ، وتمكن الصقلى من الاستيلاء عليها ، وأسر يحيى بن طلحة ويدر بن عائشة ، وتقدم القائد أحمد الصقلى بأسطوله إلى بجاية فدخلها ، وفر يحيى بن غانية إلى أخيه اسحق

(١) سعد زغلول عبد الحميد ، العلاقة بين صلاح الدين وأبى يوسف يعقوب المنصور ، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، المجلدان ٦ ، ٧ ، ١٩٥٨ ص ٨٤ — ١٠٠

(٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٥٠٧

وهو ما يزال يحاصر قسنطينة، فأقلع عنها ، ومضى إلى الصحراء ، وطارده الموحدون إلى مقره ونقاوس من بلاد الزاب ، ثم عادوا بعد ذلك إلى بجاية(١).

أما ابن غانية فقد زحف إلى قفصة ، واستولى عليها ، وحاصر توزر ، ولكنها استعصت عليه، فتركها ومضى إلى طرابلس حيث قابل قراقوش الغزى المظفرى ، واتفق معه على أن يتحالف معه ضد الموحدين ، واستمال ابن غانية قبائل بنى سليم من العرب ومن جاورهم ببرقة ، واجتمع إليه من كان منحرفا عن طاعة الموحدين من قبائل بنى هلال مثل جشم ورياح والأثبج ، كما انضم إليه أيضا فلول لمتونة من أطراف البقاع ، فمضى إلى بلاد الجريد ، وافتتح كثيرا من مدنها وحصونها ، وأقام الدعوة العباسية فيها ، وافتتح قراقوش قابس ، وبلغ ابن غانية ان أهل قفصة خلعوا طاعته ، فحاصرها ، وظاهره قراقوش فى استرجاعها ، ثم رحل ابن غانية إلى توزر وافتتحها ايضا . ولما بلغت المنصور هذه الأخبار خرج بنفسه من مراكش فى سنة ٥٨٢ هـ . وهو عازم على القضاء نهائيا على بنى غانية وحلفائهم من العرب والمماليك ، واسترجاع نفوذه على إفريقية ، فمر فى طريقه إلى إفريقية بفاس ورباط تازى وتونس . وأقام بتونس ، وسير من هناك جيشا بقيادة السيد أبى يوسف يعقوب بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن ، ومعه عمر بن أبى زيد ، لمحاربة ابن غانية ، فاشتبك الجيشان فى عمرة ، فانتصر جيش بنى غانية، انتصارا حاسما ، وهزموا الموحدين ، وقتل ابن أبى زيد وأبو على بن يغمور ، وفر فلول الموحدين إلى قفصه ، فأثخن فيهم جنود بنى غانية والمماليك قتلا، ونجا الباقون إلى تونس ، فلم المنصور شعثهم ، وخرج بنفسه لمحاربة على بن

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٥٠٨

غانية ، والتقى معه فى حامة دقيوش ، فانهزم ابن غانية ، وافلت بنفسه مع صاحبه قراقوش ، وتمكن المنصور من استرجاع قابس وتوزر وقفصة ، وهدم أسوار قفصة ، ثم قفل المنصور عائدا إلى المغرب ، فمر بالمهدية واتبع طريق تاهرت ، ومنها إلى تلمسان . أما ابن غانية فقد نزل فى بلاد الجريد ، وهلك فى بعض حروبه مع أهل نفزاوة سنة ٥٨٤ هـ . وخلفه أخوه يحيى بن أسحق (١) . فعاد إلى مناوءة الموحدين ، وتمكن من الاستيلاء على بسكرة عنوة ، وحاصر قسنطينه وبجاية ، وكثر عيثه فى البلاد .

ب ـ جوازه الأول الى الأندلس واسترجاع المسلمين لشلب :

كان البرتغاليون بعد انتصارهم على الموحدين فى شنترين قد توغلوا فى غرب الأندلس ، وأخذوا يشنون الغزوات على أراضى المسلمين . فاضطر أبو يوسف يعقوب إلى العبور إلى الأندلس فى ٣ ربيع الأول سنه ٥٨٥هـ، فسار مباشرة بجيشه إلى شنترين وأشبونة ، لكى ينتقم لهزيمة أبيه ولمقتلة ، وعاث فى المروج ، وأحرق القرى ، ونهب الضياع ، وقتل السكان ، وسبى سبيا كثيرا . ثم عاد إلى المغرب (٢) . واستغل ملك البرتغال دون بدرو بن الفونسو هنريكى هذه الفرصة ، وعمل على افتتاح مدينة شلب ، مستعينا فى ذلك بالفرنج (الصليبيين الذين قدموا من انجلترا وهولندا ورسوا قبالة أشبونة) (٣) . فنزل الإفرنج على شلب من البحر ، وحاصرها بدرو من البر ، وتمكن من دخولها (٤) .

---

(١) ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧ ، ٥٠٩ ـ ٥١٠

(٢) القرطاس ، ص ١٤٤

(٣) اشباخ ص ٣٣٠

(٤) المراكشي ص ٢٨٠

ثم أغار البرتغاليون بعد ذلك على غرب الأندلس . ويذكر ابن أبى زرع أن بدرو تمكن من الاستيلاء على باجة ويابرة سنة ٥٨٦ ﻫ (١) .

وصلت أنباء هذه الاعتداءات البرتغالية على أراضى المسلمين إلى مراكش ، فغضب المنصور لذلك وبعث إلى رؤساء الأندلس يوبخهم على تقاعسهم عن مدافعة النصارى ، فقام محمد بن يوسف واليه على قرطبة ، بغزو شلب بخيله ورجاله ، وتمكن من افتتاحها ، كما افتتح قصر أبى دانس وباجة ويابرة ، ثم عاد إلى قرطبة فى سنة ٥٨٧ ﻫ ، ويذكر ابن خلدون أن المنصور هو الذى افتتح شلب فى سنة ٥٨٧ ﻫ (٢) .

ج ـ انتصار أبى يوسف المنصور فى موقعة الارك :

بعد أن عاد أبو يوسف يعقوب من غزوته فى الأندلس مرض مرضا شديدا ، ثم أبل من مرضه ، وأشار عليه الأطباء بالاقامة بعض الوقت فى فاس ، فسار إليها ، وأقام بها ستة أشهر حتى شفى تماما ، فعاد إلى الرباط حيث أعجبته الاقامة بها ، وفكر فى أن يتخذها حاضرة لدولته . ثم واصل سيره حتى وصل إلى مراكش ، حيث وجد رسل ملك قشتالة قد قدموا إليه للمفاوضة فى تجديد المعاهدة ، فى الوقت الذى كان ملك قشتالة يضمر فى نفسه الكيد للمسلمين ، فلم يقبل أبو يوسف شروطهم ، وقطع المفاوضات ، وشيعهم من مراكش وهو عازم على التأهب لمحاربة ملك قشتالة (٣) .

---

(١) القرطاس ص ١٤٤

(٢) المراكشى ص ٢٨٠ ـ ابن خلدون ج ٦ ص ٥١١

(٣) Huici Miranda, la Campana de Alarcos, Revista del Instituto Egipcio de Estudios Islamicos de Mardrid, vol. II, 1954, p.2

وفى سنة ٥٨٩ هـ أمر بأن يبنى له على نهر الوادى الكبير إزاء إشبيلية حصن يتخذه مقرا للمجاهدين فى الأندلس من أهل المغرب ، وهو الحصن المعروف بحصن الفرج ، وهو اليوم قرية تعرف باسم San Juan de Aznalfarache . وفى أثناء ذلك ، وبعد أن فشلت مهمة ابن منقذ فى أن يقوم المنصور بمساعدة صلاح الدين بأساطيله ، لمنازلة عكا وصور وطرابلس ، توتر الموقف فى إفريقية واضطربت أمور البلاد ، فبعد أن دخل قراقوش فى طاعة الموحدين سنة ٥٨٦ هـ ، خلع طاعتهم ، واستولى على طرابلس الغرب ، وتحالف مع يحي بن غانية ، وأصبحت طرابلس وبلاد الجريد من جديد فى أيدى الثوار . وأمام هذه الظروف عزم أبو يوسف على الخروج بنفسه لمحاربة بنى غانية وحلفائهم من العرب والمماليك الغز . وكان الفونسو الثامن ملك قشتالة قد بلغه ماعزم عليه أبو يوسف يعقوب من التوجه إلى إفريقية « وكان أمد الصلح مع ملك قشتالة قد انصرم ، فجمع أجناده وضرب لهم ميثاقا ارتبطوا عليه فى شن الغارات على بلاد المسلمين ، فأغاروا على جميعها بالأندلس شرقا وغربا فى يوم واحد ، وانتشرت الطائفة الواصلة إلى إشبيلية على جميع أقطارها ، وعاثت فى جهاتها ، وقاتلت بعض حصون شرفها ، وكادت تنتهز فيه الفرصة لولا ندب من الموحدين من سبق إليه ، ودافع عنه ، فأقلعوا عنه بعد أن قتل عليه جماعة منهم ، وخيب الله سعيهم فيه ، فوردت الأنباء بذلك على أمير المؤمنين المنصور ، وهو على قدم الحركة إلى إفريقية . ورسول الطاغية عنده بالمحلة المنصورة » (١) .

---

(١) الشريف الغرناطى ، رفع الحجب المستورة فى محاسن المقصورة ، نص أورده الأستاذ لويثى ميراندا فى المقال السابق ، ص ٥٧

وامام هذه الاخبار التى بلغتـــه لم يسع أبو يوسف إلا ان يعدل عن مشروعه الاول وهو القضاء على بنى غانية إلى الجواز إلى الاندلس لمحاربة القشتاليين . فعبر الزقاق إلى الاندلس فى ٢٠ جمـادى الآخرة سنه ٥٩١ ، ونزل بطريف يوما واحدا ، ثم واصل سيره حتى وصل إلى ظاهر إشبيلية ، فنزل بقصر البحيرة الواقع خارج باب جهور ، فخرج الملأ من أهل إشبيلية لتحيته ، فاستقبل سادات المدينة من سائر الطبقات فى ٢٧ من جمادي الآخرة ، وركب فى اليوم التالى إلى حصن الفرج ، فأبدى إعجابه ببنائه ، ثم عاد فى فى نفس اليوم ، فصلى فى الجامع الكبير . ثم خرج فى ٢٩ من جمادى الآخرة ، وأمر بعرض قواته بكامل عدتهم وأزيائهم ، ومشى مع الكتائب والوزراء ومن حضر من قرابته ، « وطاف عليهم فى مواضعهم صفا صفا ، وقبيلا قبيلا ، وشكر استيفاءهم واستعدادهم شكرا جزيلا ، وخرجت المرتبـات والبركات » (١) ، وأغـــدق عليهم بالاموال ووزع الاسلحة والخيل على الجند ، وامر باخراج من وسع الشرع فى إخراجـــه من السجون (٢) ، ثم خرج فى ١١ رجب سنة ٥٩١ هـ ، بحذاء الوادى الكبير حتى وصل إلى قرطبة فى ١٩ رجب . ولم يزل يواصــــل السير حتى انتهى إلى الموضع المعروف بالارك ، وهو موضع قريب من مدينة قلعة رباح . وكانت قد خرجت من قلعة رباح وماجاورها سرية من فرسان القلعة بقصد الوقوع عـلى أخبار المسلمين والتجسس عليهم ، فظفرت بهم طائفة من طلائع عسكر الموحدين واستأصلوا هذه السرية بالقتل ، فاستبشر الموحدون بذلك خيرا (٣) .

---

(١) ابن عذارى ، نص أورده الأستاذ اويثى ميرا نда فى المقال السابق ، ص ٤٣

(٢) الشريف الغرناطى ، ص ٥٨

(٣) الشريف الغرناطى ، ص ٥٨ . يذكر ابن عذارى أن سرية من خيل النصارى ضربت =

وما كاد الفونسو يعلم بنزول أبى يوسف إلى الاندلس حتى توجه إلى طليطلة حيث قضى بها أياما حشد خلالها جيشا ضخما لمنازلة الموحدين ، ثم مضى نحو الأرك . وكان الأرك هذا حصنا يقع على حدود مملكة قشتالة ، وتأهب الفونسو لملاقاة الموحدين ، قبل أن يشرعوا فى الإغارة على بلاده على نحو مافعله المنصور من قبل فى حملته على البرتغال . وكان الفونسو واثقا من النصر حتى أنه دخل المعركة دون أن ينتظر وصول جيش ملك ليون وجيش ملك نبرة (٢) . ويذكر الضبى فى بغية الملتمس أنه أحضر معه جماعة من التجار اليهود لشراء أسرى المسلمين . ويذكر ابن أبى زرع أن المنصور عندما وصل إلى ميـــدان المعركة أمر باجتماع المسلمين ، فلما كملت جموع المسلمين قام الوزير أبو يحيى بن أبى محمد بن الشيخ أبى حفص ، وقال : « يقول لكم أمير المؤمنين اغفروا له ، فان هذا موضع غفران ، وتغافروا فيما بينكم ، وطيبوا نفوسكم ، وأخلصوا لله نياتكم » فبكى الناس ، وأعظموا

= على قلعه رباح وما جاورها ، ليتجسسوا الأخبار ، فخرج اليهم من كان بالحصن ، فقضوا عليهم قضاء مبرما ، وتركوهم بتلك البطاح ولائم للنسور والعقبان (انظر نص ابن عذارى بمقال اويثى ميراندا ص ٤٣) . ويرى الأستاذ اويثى ميراندا أن قلعة رباح كانت فى ذلك الوقت داخل أملاك قشتالة ، منذ ان استولى عليها الفونسو السابع سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧م) وأن القشتاليين خرجوا عنها بعد انهزامهم فى الأرك ، فاستولى عليها المنصور وشحنها بالمقاتلة ، بقيادة يوسف بن قادس (انظر المقال السابق ص ٤) . ويؤيد اويثى ميراندا فى ذلك قول الحميرى أن « قلعة رباح أول حصون أذفونش فى الأندلس » (ص ١٢) والواقع أن قلعة رباح المذكورة تقع على بعد نحو ٢٠ كم شمال شرق الأرك ، فليس من المعقول أن يستولى عليها الموحدون قبل الأرك ، واستيلاء الموحدين عليها لم يتم إلا بعد انتصارهم على الفونسو الثامن وجيوشه فى الأرك بيومين .

(١) Huici Miranda, op. cit. pp. 4,5

ماسمعوه من المنصور . ثم قام القاضى أبو عــــلى بن حجاج ، وخطب فى المسلمين يحثهم على الجهاد ، ثم أمرهم أبو يحيى بن أبى محمد بن أبى حفص بلباس أسلحتهم ، والاستعداد من الغد للقاء العدو ، فتركوا بالمحلة أثقالهم ، وزحفوا فى بطء حتى دنوا من العدو ، وأصبح فى مرأى بصرهم ، وأخذوا مراكزهم ، ونظموا صفوفهم ، « أسرابا تتـلو أسرابا ، وأمواجا تعقب أمواجا » ، فهاجموا القلب حيث الأعلام ، بقيادة الوزير أبى يحيى بن أبى حفص ، ووراءها قـوات الأندلسيين والعرب وزناتة والمطوعة ، وصمد قلب الجيش الموحدى ، وقاوم الوزير مقاومة عنيفة حتى استشهد ، ومال قوم من المطوعة وأخلاط الناس إلى الميسرة ، وعندئذ ترك المنصور سـاقة الجيش ومشى منفردا بين الصفوف يشجع رجاله ، ويحثهم على مهاجمة العدو ، فاشتد حماس المسلمين وغيرتهم ، وحملوا على القشتاليين حملة عنيفة ، وأخذت فرقة القواسين ترمى العدو بالسهام ، فانهزم القشتـاليون وولوا الأدبار ، وتحكمت فيهم سيوف الموحدين ، فقتل من فرسان نظـام سانتياجو ثلاثة أساقفة ونحو ١٧ قسا ، كما قتل عدد كبير من فرسان قلعة رباح ، وقتـل رئيس فرسان نظام يابرة ، واسمه جنثالو فيجاس ، ومن معـــــه من مطوعة البرتغاليين . ونهب المسلمون معسكر النصارى ، وأفلت الفونسو الثـامن بنفسه إلى طليطلة ، وتحصن فل جيشه بحصن الأرك . وكان عـدد هؤلاء النصارى نحو خمسة آلاف مقاتل ، فتدخـــــل بيطرة بن فراندس ، الموالى للمسلمين ، فى الأمر ، وطلب من المنصور أن يفك حصارهم على أن يفك القشتاليون نظيرهم من أسرى المسلمين ، فوافق المنصور ، وأخـذ معه إلى إشبيلية عددا من الأسرى رهائن ، وسرح الباقون (١).

---

(١) Huici Miranda, op. cit. p. 25

تمكن المسلمون بعد انتصارهم فى الأرك من استرداد بعض حصون النصارى مثل ملجون وبنافنتى وكاراكويل وقلعةرباح ، وكلها مدن وقلاع تقع فى دائرة تبعد عن الأركبنحو١٥ ك.م. ويذكر المراكشى أن المنصور دخل فى قلعة رباح ، وقد جلا عنها أهلها ، فأمر بتحويل كنيستها إلى مسجد (١) . ويعلل الأستاذ ميراندا هزيمة القشتاليين بأن المنصور نجح فى اختيار الوقت المناسب للمعركة ، فقد كان الفونسو الثامن فى عداء مستحكم مع ملك ليون وملك نبرة ، ولم تنجح جهود الكاردينال جريجوريوس لمحو هذا العداء ، وكان الفونسو معتادا على شن الغارات على أراضى المسلمين دون أن تقابله مقاومة من جانبهم ، فظن أن من السهل التغلب على جيش الموحدين ، ولم يفكر فى مدى قوة جيش الموحدين ولم يعمل حساب حسن قيادة المنصور وشجاعته ، وتشجيعه لجنوده ، وحسن توزيعه لقواته ، الذين كانوا يتقنون طريقة الكر والفر ، ويجيدون الرماية بالسهام (٢) . كذلك يعزى هزيمة الفونسو إلى سوء تقديره لقوى الموحدين ، وعدم استعداده لمواجهة التفوق العددى للموحدين ، ولم يفكر فى احتمال انضمام عدوه اللدود بدرو فرناندث دى كاسترو (بيطرة ابن فراندس) إلى الموحدين (٣) .

عاد المنصور إلى إشبيلية ظافرا ، فدخلها فى ٢٧ من شعبان سنة ٥٩١ ، وأكمل بناء الجامع الكبير وصومعته ورفع بأعلاها التفافيح المذهبة فى عمود من الحديد فى ١٩ ربيع الآخر سنة٥٩٢ (٤) . وفى هذه السنة انتقل المنصور

---

(١) المراكشى ، ص ٢٨٣

(٢) Huici Miranda, op. cit. p. 24

(٣) نص ابن عذارى فى المقال السابق، ص ٤٦

(٤) Antuna Melchor, op. cit. p. 139

إلى حصن الفرج بتاج الشرف ، وأكمل غرس البحيرة التى أمر بانشائها أدناه ، وأمر بعمل نواعير على شاطىء النهر بأدنى الحصن (١) . ووفد عليه سفراء مملكة ليون لعقد معاهدة تحالف مع الموحدين ، كذلك أبدى ملك نبرة رغبته فى كسب صداقة الموحدين للدفاع عن مملكته الصغيرة من أطماع ملك قشتالة . عندئذ وجد المنصور الفرصة سانحة لإعداد حملة ضد مملكة قشتاله (٢) . وكان ملك ليون قد قطع علاقته مع الفونسو الثامن لنقضه معاهدة توردى هو موس Tordehumos ، وأخذ يطالب الفونسو الثامن بأن يسلم إليه حصون ألبه ولونا وبورتيا وغيرها مما أخذه وفقا لهذه المعاهدة ، ولكن الفونسو أبى أن يسلمه هذه الحصون ، وبدلا من أن يعرض ملك ليون مشكلته على الكاردينال ، قطع علاقته نهائيا مع الفونسو . كذلك وجد دون بدرو فرناندث دى كاسترو (بيطرة بن فراندس) فى ذلك فرصة طيبة لمواصلة حربه ضد مملكة قشتالة ، فاتفق مع المنصور على شن هجوم عنيف فى فصل الربيع على مملكة قشتالة ، ويقضى هذا الاتفاق بأن يتولى المنصور تخريب بلاد قشتالة جنوبى سيرا وادى رامة ، بينما يقوم الليونيون مع حلفائهم المسلمين بمهاجمة قشتالة من الفحص .

د ـ غزوة طليطلة (سنة ٥٩٢) :

كان فصل الشتاء قد انتهى ، وأقبل الربيع ، وهو أكثر فصول السنة ملاءمة للجهاد ، فاستنفر أبو يوسف قبائل الموحدين من منازلهم ، وحشد قواته ، واستعرضها ، ثم خرج فى منتصف رجب سنة ٥٩٢ هـ ، وزحف

---

(١) نص ابن عذارى فى مقال الأستاذ اويثى ، ص ٤٩

(٢) Huici Miranda, op. cit. p. 33

بجيوشه فى إقليم استراما دورة ، ثم قدم أبو يوسف جماعة من الأندلسيين إلى حصن منتانجش Montanchez ، وكان من المعاقل المرتفعة المعروفة بالتوعر والامتناع ، فحاصرة الأندلسيون فى هذا اليوم ، وفى اليوم التالى وصلت قوات المنصور بأكلها ، فاستسلمت حامية الحصن ، وأمنهم الخليفة ، وأمر القائد أبا عبد الله بن صناديد بتوصيلهم إلى حيث يأمنون فى أقرب المواضع إلى بلادهم ، ولكن ما كاد ابن صناديد يسير بهم مسافة فرسخ حتى غشيهم جماعة من العرب فوضعوا فيهم السيوف ، واستأصلوهم قتلا عن آخرهم ، وسبوا ما كان معهم من النساء والذرية [1] . فغضب أبو يوسف لجهل هؤلاء العرب بعهود المسلمين ، فقبض على بعضهم ، وسجنهم ، وجمع النساء والأطفال ، وأوصلهم إلى أول حدود بلادهم . ثم مضى أبو يوسف إلى ترجاله Trujillo فدخلها دون منازلة . ويعلق ابن عذارى على انتصارات الموحدين بقوله : « وهبت ريح الفتح فى تلك الكور المأخوذة والأقطار ، وبلغ الرعب فيها مالا تبلغه سمر الأسل وبيض الشفار ، وأتى عليهم الاستيصال والجلاء بالاضطرار ، وقنعوا من السلامة بالفرار ، واصطكت فى هذه الحصون المذكورة دعوة الإسلام ، وتعوضت فى أسبوع واحد من ملة الكفر بشريعة محمد عليه السلام » (٢) . ومضى الموحدون فى زحفهم حتى نزلوا على بلنسية Plasencia التى كان قد أسسها الفونسو الثامن فى سنة ١١٨٩ م ، أى قبل ذلك بسبع سنوات ، واهتم بها وأنزل فيها جماعة من أهل الشمال ، فافتتحها المنصور ، وأسر قائدها مع مائة وخمسين من أعيانها

---

(١) نص ابن عذارى ، من مقال اويثى ميراندا ص ٥٠

(٢) نفس المرجع

فوجههم إلى المغرب حيث ساهموا فى بناء جامع سلا الكبير (١)، ويقصد به جامع الرباط ، وواصلت القوات الإسلامية زحفها بطول نهر تاجة حتى وصلت إلى طلبيرة « أكبر قواعد طليطلة وأثراها ، وأعظمها منعة وأعلاها » (٢) ، فأمر المنصور بتخريب ماحولها ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يقيم عليها حصارا طويلا لنقص ماكان لديه من المؤن والأقوات ، وآلات الحصار والعرادات . وقبل أن يشرع فى الإغارة على طليطلة ، توغل فى الشمال ، فخرب سانتا أولايا ، وإسكالونا ، وحاول الاستيلاء على مكادة ، دون أن يتهيأ له ذلك ، وأخيرا وصل إلى ساحة طليطلة ، وقسم الجيوش على جنباتها ، وشن الغارات على سائر منطقتها ، وأقام على حصارها عشرة أيام اشتبك خلالها عدة مرات مع المدافعين عنها ، وانتسف رجاله الزروع والعمران فيما حولها . ثم بادر بالعودة إلى إشبيلية ، بعد أن أحس بعجزه عن افتتاحها .

هـ ـ الغزوة الثالثة (سنة ٥٩٣) :

قضى المنصور باشبيلية شتاء عام ٥٩٢ هـ ،فلما أقبل ربيع سنة ٥٩٣ ، عزم على الرحيل للغزو ، واستنفر قواته وخرج من إشبيلية إلى طليطلة ، فنزل أولا بقرطبة ، وأقام بها بعض الوقت ، واستكمل استعداداته ثم تحرك متخذا طريق طلبيرة . وما كاد المنصور يدخل فى أراضى قشتالة حتى بعث إليه الفونسو رسله فى طلب المهادنة والسلام ، فصرفهم المنصور من غير

---

(١) الحميرى ص ١٣

(٢) نص ابن عذارى من مقال لويثى ميراندا ص ٥٠

جواب إلا « انتظار سنان ، وصارم قضاب » (١) . فلما وصل إلى طليطلة بعد أن فشل فى الاستيلاء على مكادة أثناء مسيره إليها ، عمد إلى إتلاف ماحولهـا من مزارع وتخريب العمران ، وبلغه وهو يحاصرها أن ملك أرغون قد اتفق مع ملك قشتاله على أن يزوده بالجيوش ، وعلم أنهما مجتمعان بحصن مجريط ، فعزم المنصور عـلى محاربتهما ، وأحاط جيشه بمجريط ، ولكنه عجز عن افتتاحها فقد أبلى دون دييجو لوبث دى هارو بـلاء حسنا فى الدفاع عنها ، فمضى المنصور إلى وادى الحجارة وهو يخرب كل ماقابله من مراكز عمرانية ومزارع (٢) .

ثم رحل المنصور إلى قرطبة ومنها إلى إشبيلية فى أول شوال سنة ٥٩٤ هـ. ولما رأى ملك قشتالة ماحل ببلاده من أضرار وتخريب ، سعى من جديد لطلب السلم والمهادنة ، فأجابه المنصور إلى ذلك بعد أن اشترط عليـه عدة شروط ، وهادنه لمدة عشرة أعـوام ، ثم أجاز إلى بر العدوة فى أول جمادى الآخره سنة ٥٩٤ هـ ، وتوفى بمراكش فى ٢٢ ربيع الأول سنة ٥٩٥ هـ .

---

(١) نص ابن عذارى من مقال اويثى ميراندا ص ، ٥٥

(٢) نفس المرجع، ص ٥٦ .

(٥)

محمد الناصر وهزيمة الموحدين فى العقاب

١ ـ ثورات المغرب فى عصر محمد الناصر :

لما توفى المنصور بويع ابنه وولى عهده أبو عبد الله محمد بالخلافة ، وتلقب بالناصر لدين الله . ولقد واجهته فى أول خلافته مشكلات كثيرة : فيحيى بن اسحق بن غانية كان قد استولى على أكثر بلاد إفريقية مستغلا اشتغال الموحدين عنه بمحاربة القشتاليين فى الأندلس (١) . وظهر بالمهدية ثائر يدعى محمد بن عبد الكريم الركراكى ، وتسمى صاحب قبة الأديم ، ودعا لنفسه بالخلافة ، وتلقب بالمتوكل على الله ، ونازع ابن غانية والموحدين الأمر ، فنازل تونس ، وعاث فى قراها سنة ٥٩٦ هـ ، وحارب ابن غانية بقابس ، فامتنع عليه ، ولكن ابن غانية تمكن من هزيمته فى قفصة ، وحاصره فى المهدية ، ثم دخلها فى سنة ٥٩٩ هـ ، وقتله (٢) . ودخل ابن غانية تونس بعد ذلك فى نفس هذا العام ، وأطاعه أهل بونة ، وبنزرت ، وبسكرة ، وشقبنارية ، والأربس ، والقيروان ، وتبسة ، وسفاقس ، وقابس ، وطرابلس .

وكان الناصر أثناء الفتنة القائمة بافريقية فى أول خلافته قد عقد للسيد أبى الحسن بن أبى حفص على بجاية ، ولكن أبا الحسن لم يلبث أن انهزم أمام ابن غانية فى سنة ٥٩٦ بالقرب من قسنطينة ، فسير الخليفة السيد أبا

---

(١) المراكشى ، ص ٣١٣ ، ٣١٤

(٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٥١٧

زيد بن أبي حفص إلى تونس لسد ثغورها ، وأردفه بالسيد أبي سعيد بن أبي حفص ، فلما استولى ابن غانية على تونس سنة ٥٩٩ هـ ، قبض على أبي زيد ، وبلغ الناصر استبداد ابن غانية فى إفريقية وطرابلس ، فعزم على السير لمحاربته ، فخرج من مراكش فى ٦٠١ هـ ، وأرسل الأسطول الموحدى بقيادة أبي يحيى بن أبي زكريا الهزرجى إلى تونس ، فدخلها الموحدون ، وقتلوا من كان بها من أتباع ابن غانية . ثم نازل الناصر مدينة المهدية بعد ذلك وحاصرها أربعة أشهر ، وأرسل الناصر أبا محمد بن الشيخ أبي حفص لملاقاة ابن غانية ، فالتقى الجيشان فى تاجرا من نواحى قابس ، ودارت الدائرة على ابن غانية ، وغنم الموحدون من عسكره غنائم هائلة ، وتمكن ابن غانية من النجاة بأهله وولده . وفى نفس الوقت استسلمت المهدية ، وعاد الناصر بعد ذلك إلى تونس فى سنة ٦٠٣ [1] .

ولم يسكت ابن غانية على هذه الهزائم ، فقد كان يتبع طريقة العرب فى الفر والكر ، فعزم على قتال الموحدين بتونس ، وجمع لهذا الغرض حشودا هائلة من العرب الدواودة من رياح وغيرهم من أعراب بنى سليم ، فاشتبك معهم أبو محمد بن أبي حفص ، فانهزموا ، واستولى الموحدون على محلاتهم ، فلجأ ابن غانية إلى إقليم طرابلس . وظل ابن غانية يناوىء سلطان الموحدين فى إفريقية وطرابلس طوال عصر الناصر ، وكان أبو محمد ابن أبي حفص يهزمه فى كل مرة يحاول فيها ابن غانية الاستيلاء على إفريقية . فلما توفى أبو محمد فى سنة ٦١٨ هـ ، وخلفه السيد أبو العلاء إدريس ، عاد ابن غانية إلى الظهور ، وزاد عيثه فى البلاد ، فخرج عليه السيد أبو العلاء ،

---

(١) المرجع السابق ص ٥١٨ ، ٥١٩ .

ونزل فى قصر العروسيين ، وسير ابنه السيد ابا زيد ، فطارده إلى غدامس وودان والزاب وبسكره ، واصطدم معه بظاهر تونس فى سنة ٦٢١ هـ ، فانهزم ابن غانية هزيمة نكراء . وبلغ السيد أبا زيد نبأ وفاة أبيه بتونس فى شعبان سنة ٦٢٠ هـ ، فعــاد إلى تونس ، وخاطب المستنصر الموحدى بمقتل أبيه أبى العلاء إدريس ، وكان المستنصر قد عزل السيد أبا زيد عن ميورقة ، واتفق أن المستنصر توفى أيضا فى سنة ٦٢٠ وخلفه عبد الواحد المخلوع ، فكتب إلى أبى زيد بالبقاء فى عمله بتونس . فلما توفى المخـلوع ، وتولى العادل الخلافة من بعده ، كتب إلى أبي زيد بالقدوم ، فقدم إليه فى سنة ٦٢٣ ، وتولى أبو محمد عبد الله بن محمد بن أبى حفص على إفريقية . ومنذ ذلك التاريخ استقل بنو حفص بافريقية ودافعوا ابن غانية ، وشردوه فى أقطارها إلى أن توفى فى سنة ٦٣١ هـ فى بلاد الزاب (١) .

وبالإضافة إلى حركة ابن غانية قامت فى المغرب الأقصى بعض الثورات ، ولكنها كانت أقل خطورة من ثورة بنى غانية . فقد ثار فى بداية خلافتـه ثائر من غمارة يدعى علودان الغمارى ، فخرج الخليفة فى أول جمـــادى الأولى سنة ٥٩٥ هـ قاصدا مدينة فاس ، فأقام بها بعض الوقت ، وسار منها إلى جبال غمارة ، فأخمد الفتنة هنالك ، وعاد إلى فاس مرة أخرى ، فأقام بها ، وبنى قصبتها وأسوارها التى كان قد خربها عبد المؤمن بن على عند استيلائه عليها ، فتم بناؤها فى سنة ٦٠٠ هـ ، وأنشأ محمد الناصر دار الوضوء والساقية بازاء جامع الأندلسيين فيها ، وجلب إليها الماء من العين الواقعة خارج باب

---

(١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٤٠٥ — ٤٠٧ ؛ ٥١٧ — ٥٢٠

الحديد ، كذلك قام الناصر ببناء البـاب الكبير المدرج المشرف عـلى صحن الجامع . ولم تقف أعمال النـاصر إلى هذا الحد ، فقد جـــدد مصلى عدوة القرويين من فاس. وظل الخليفة مقيما بفاس حتى سنة ٥٩٨، وفى أثناء مقامه بها ثار بالسوس رجل يدعى أبا قصبة عبد الرحمن ويعرف بابن الجزارة، وذلك فى سنة ٥٩٧ هـ ، فـدعا إلى نفسه ،وهاجم حامية الموحدين هنـاك، وتمكن من الانتصار عليهم ، فبعث إليه الناصر جيشا يتألف من الموحـدين والمالك الغز والعرب ، فانهزم ابن الجزارة وقتل (١). وفى سنة ٦٠٠ هـ ثار عليه رجل من سلالة الفاطميين فى مصر اسمه محمد بن العاضد ، بجبال ورغة، فقبض عليه الخليفة وقتله ، وأمر باحراق جثته ، فأحرقت أمام باب الشريعة من أبواب مدينة فاس ، فسمى هذا الباب باب محروق ، وهو أحد الأبواب التى أمر الناصر باقامتها فى سور فاس (٢) .

ب ـ هزيمة المسلمين فى العقاب :

لم ينس الفونسو الثامن هزيمـة الموحدين له فى الأرك ، فظل يفكر فى محو آثار الهزيمة ، وبدأ يحصن قلاع بلاده الواقعة على الحدود الإسلامية، وعقد مع ملكى نبرة وأرغون عهود الصلح والحلف . وفى سنة ٦٠٧ هـ نقض القشتاليون الهدنة القائمة بينهم وبين الموحدين، وأغاروا على بلاد المسلمين، وخربوا أراضى جيـان وبياسة وأندوجر ،ووصلوا إلى أحواز مرسية . فلما بلغ النـاصر ذلك انزعج ، وأبدى غضبه ، وكتب إلى الشيخ أبى محمـد ابن أبي حفص يستشيره فى الغزو، فنصحه بعدم خوض الحرب فى هذه الآونة،

---

(١) المراكشى ، ص ٣٠٥ ، ٣١٦

(٢) الجزنائى ص ٣٣ ـ الاستقصا ج ٢ ص ٢١٩

فخالفه الناصر ، « ففرق الأموال على القواد والأجناد ، وكتب إلى جميع بلاد إفريقية والمغرب وبلاد القبلة يستنفر المسلمين لغزو الكفار، فأجابه خلق كثير ، وألزم كل قبيلة من قبائل العرب بحصة من الخيل والرجال تخرج للجهاد ، فتقدمت عليه الجيوش من سائر الأقطار ، وتسارع الناس إليه خفافا وثقالا من البوادى والأمصار» (١). ثم جاز إلى الأندلس فى ١٩ من ذى القعدة سنة ٦٠٧ هـ ووصل إلى إشبيلية ، وأقام بها للراحة ، والاستعداد للغزو . وقسم جيوشه إلى خمس فرق : فجعل للعرب فرقة ، وزناتة وصنهاجة والمصامدة وغمارة وسائر قبائل المغرب فرقة ، وجعل المتطوعة فرقة ، وجعل جند الأندلس فرقة ، والموحدين فرقة . ولما انتهى من تنظيم جيشه تحرك فى أوائل سنة ٦٠٨ هـ إلى بلاد قشتالة ، فنزل على قلعتين هما اللج وشلبطرة فحاصرهما ، وضيق عليهما ، واستولى على حصن اللج أولا ، ثم حاصر شلبطرة ، وهو حصن منيع قائم بأعلى جبل ، فنزل عليه الناصر ، ونصب عليه أربعين منجنيقا ، فخرب أرباضه ، ولكنه عجز عن فتحه ، وطال حصاره له ، وأعياه أمره ، فعزم على رفع الحصار إلى حصن آخر ، ولكن وزيره أبا سعيد بن جامع أشار عليه بالبقاء على محاصرته ، وأقام عليه الحصار « ثمانية أشهر فنيت فيها أزواد الناس ، وقلت علوفاتهم ، وكلت عزائمهم ، وفسدت نياتهم ، وانقطعت الأمداد عن المحلة ، فغلت بها الأسعار ، ودخل فصل الشتاء ، فاشتد البرد ، وأصاب المسلمين كل ضر» (٢).

---

(١) الاستقصا ، ص ٢٢٠

(٢) نفس المرجع ص ٢٢٢ – René Millet, les Almohades, Paris, 1923, p. 139

ومازال الناصر يواصل محاصرة الحصن حتى استسلمت حاميته، وتغلب عليه ، وعاد إلى إشبيلية ظافرا .

وأحس ملك قشتالة بما يدبره الموحدون من خطط لغزو بلاده، وأدرك نيتهم فى مهاجمة طليطلة عاصمة مملكة قشتالة ، وتبين له أن انتصار الموحدين قد يؤدى إلى تحطيم قوى النصرانية فى إسبانيا كلها ، فاستغاث على حد قول الحميرى « بأهل ملته ، وحثهم على حماية دينهم ، فاستجابوا ، وانثلوا عليه من كل مكان » (١) . والواقع أن انتصـــار الموحدين فى موقعة الأرك كان إنذاراً لدول إسبانيا المسيحية، إذ أصبحت طليطلة وقونكة مهددتان بغزو وشيك . وأثار ذلك عوامل الذعر الهلع فى نفوس النصـارى . فاستغل ذلك أسقف طليطلة رودريجو خيمنث دى رادا هو وأسقف بلنسية تيوتيث دى مينسس . ويعتبر رودريجو خيمنث المذكور من أشهر شخصيـات العصر الوسيط فى إسبانيا المسيحية ، فلم يكن هذا الأسقف رجـــل دين وإدارة فحسب ، بل كان أديبا ومؤرخا ،وهو الذى دعا إلى ضرورة اتحاد الولايات المسيحية ، وإلى فتح أبواب حرب صليبية دوليةداخل إسبانيا ، وبهذا أخذ يعد العدة للرد على انتصار الموحدين فى الأرك (٢) ، فأخـذ يسعى جاهدا منذ سنة ٦٠٣ هـ (١٢٠٦ م) للتوفيق بين ملوك إسبانيا المسيحية وتوحيدهم، واجتاز جبـال البرت إلى فرنسا وإيطاليا ، داعيا فيهما إلى محاربة المسلمين ، فاجتمع إليه عدد كبير من غلاة المسيحيـة من فرنسا وإيطاليا . وأثمرت جهوده فى التوفيق بين ملوك إسبانيا المسيحية ، فقد زار الملك سانشو السابع ملك نبرة (١١٩٤-١٢٣٤م) الفونسو الثامن ملك قشتالة سنة ٦٠٤هـ (١٢٠٧م)

(١) الحميرى ، ص ١٣٧

(٢) Terrasse, Histoire du Maroc, t. I, p. 340

فى مدينة وادى الحجارة ، واتفق الطرفان على عقد هدنة لمدة خمس سنوات ، كما تعهد الفونسو الثامن لملك نبرة بالتوسط لدى بدرو الثانى ملك أرغون (١١٩٦ - ١٢١٣ م) للوصول إلى اتفاق بين مملكتى نبرة وأرغون . كذلك عقد الفونسو ملك ليون (١١٨٨ - ١٢٣٠ م) عهد صلح مع الفونسو الثامن فى وادى الحجارة ، وأظهر سانشو ملك البرتغال (١١٨٥ - ١٢١١ م) كذلك استعدادا تاما لتقديم كل ما يطلبه منه ملك قشتالة من مساعدات .

ولما استولى الناصر على شلبطرة ، أرسل ألفونسو الثامن ملك قشتالة الأسقف جيراردو من مدينة شقوبية سفيرا من قبله لدى البابا اينوسنت الثالث ، الذى لم يسعه أمام استيلاء الموحدين على شلبطرة ، المعقل الأعظم لنظام سسترالحربى ، إلا أن يتوجه إلى سائر أساقفة فرنسا وبروفانس ، داعيا إلى حملة صليبية واسعة النطاق داخل إسبانيا . وبارك البابا عدداً كبيرا من الفرسان الوافدين من إيطاليا وألمانيا والبرتغال وقطالونيا ، ممن دفعهم حماسهم الدينى إلى الاشتراك فى هذه الحملة الصليبية (١) .

وقبل أن ينتهى عام ٦٠٨ هـ ، اجتمعت فى طليطلة عاصمة قشتالة حشود هائلة من الصليبيين . وفى بداية عام ٦٠٩ هـ ، عاد رودريجو خيمنث وفى صحبته جموع كبيرة من الفرنسيين ، وانضم إليهم فرسان قلعة رباح وسانتياجو الاسبتارية والداوية . واجتمع القوامس وفرسان قشتالة إلى الملك الفونسو الثامن فى أكمل هيئة وسلاح . ومن بين الفرسان القشتاليين قوامس أسرة دى لارا ، ويرأسهم القومس دييجو لوبث دى هارو ، ولوبى

---

(١) Aguado Bleye, Manuel de historia de Espana, t. I, Madrid, 1947

دياث دى‌هارو ، وكان يرأس فرسان قلعة رباح جوميث راميريث، وتقدم فرسان سانتياجو بدرو آرياس، ويرأس الاسبتارية ابن جوتيروهرمنخلدو ، وقدم من أساقفة فرنسا، أسقف برديل وأسقف نانت وأسقف أربونة ،وعدد كبير من رجال الدين الفرنسيين من ليموج ، وسانتونج وبرى ، وبواتو ، وآنجو ، وبريطاني [١] .

وزحفت جيوش النصارى من طليطلة فى ٢٠ يونيو سنة ١٢١٢م (٦٠٩هـ) بعد أن توزعت إلى ثلاثة جيوش :

الجيش الأول: يقوده فارس قشتالة دون دييجو لوبث دى‌هارو ، وعدته نحو مائة ألف مقاتل ، ويقود وحـــداته المختلفة أسقف أربونة وأسقف برديل وأسقف نانت وغيرهم .

الجيش الثاني : يتألف من الأرغونيين والقطلانيين وفرسان الداوية، ويقوده الملك بدرو الثانى .

الجيش الثالث : يتألف من القشتاليين والليونيين والبرتغاليين ، وفرسان قلعة رباح ، وفرسان سانتياجو ،والاسبتارية ، ويقوده الفونسو الثامن ملك قشتالة،ويقود وحداته الأمير الليوني سانشو فرناندث والأمير البرتغالى بدرو ، والأسقف رودريجو خيمنث [٢] .

تقدم جيش دييجو لوبث إلى ملجون ، واستولى عليها، وقتل القشتاليون جميع سكان هذه المدينة ، ثم واصل هذا الجيش زحفـه حتى وصل إلى قلعة

---

(١) أشباخ ، ص ٣٥٦ — ٣٦٠

(٢) نفس المرجع ص ٣٦١

رباح ، التى تقع على بعد ميلين من ملجون،وهناك اجتمع هذا الجيش بجيش قشتالة وأرغون ، وضربت هذه الجيوش الحصار على المدينة ، فكتب أبو الحجاج يوسف بن قادس ، عامل قلعة رباح إلى الخليفة يستمده ، ولكن رسائله كانت تقع بين يدى ابن جامع الوزير فيخفيها عن الخليفة . فلما طال الحصار على المدينة ، ورأى ابن قادس استحالة المقاومة مع فناء الأقوات وقلة السلاح ، ويئس من إمداد الناصر له بالعدة والأقوات ، وخاف على سكان المدينة ، صالح الفونسو على تسليم الحصن له على أن يخرج المسلمون آمنين على أنفسهم (١) . ووافق الفونسو على ذلك ، لرغبته فى الاحتفاظ بقلعة رباح سليمة حتى يستطيع استخدامها بعد ذلك ضد جيوش المسلمين . أقام بدرو الثانى بعض الوقت فى قلعة رباح انتظارا لوصول سانشو السابع ملك نبرة ، بينما زحف الفونسو الثامن إلى الأرك ؛ فاستولى على حصنها ، وسقطت كرمويل وبنافنتى وبيطروبوينه فى يده ، ثم مر بقلعة شلبطرة ، ولم يحاول الاستيلاء عليها لما كان يعرفه من مناعتها .

ولما علم الناصر بخروج جيوش المسيحية مجتمعة واستيلائها على قلعة رباح تألم كثيرا ، وعزم على مقابلتهم ، فاستنفر الناس من أقاصى البلاد، فاجتمعت إليه جيوش كثيفة ، ووفد عليه باشبيلية أبو الحجاج يوسف بن قادس ، فأمر بقتله بسبب تسليمه قلعة رباح للنصارى دون أن يسمع حجته فى ذلك وأثار مقتله غضب الكتائب الأندلسية ، فتغيروا عليه ، وفسدت نياتهم ، ويذكر الحميرى أن الناصر أخرج حشودهم من الجيش غضبا عليهم (٢) . ولكن هذا القول مبالغ فيه ، فقد ورد ذكر الكتائب الأندلسية

---

(١) القرطاس ص ١٥٧ ــ الاستقصا ، ص ٢٢٢

(٢) الحميرى ص ١٣٢

أثناء المعركة ، وتخاذلهم وفتورهم فى القتال،وأغلب الظن أنه اكتفى بعزل قوادهم من الجيش وأبقى على الكتائب . ثم خرج من إشبيلية فى شهر محرم سنة ٦٠٩ ﻫ على رأس جيش لم تلتق أهدافه ، فقد كان العدد الأعظم من رجاله لايرغب فى الغزو بسبب تقتيره عليهم ، فقابلوا العدو بفتور وعدم مبالاة . كذلك أخطأ الناصر خطئا فاحشا بعـــزل قادة الكتائب الأندلسية من جيشه ، وكانوا قد تعودوا على قتال النصارى فى الأندلس ، وعرفوا خططهم فى القتال ، وفى ذلك يقول صاحب الذخيرة السنية : « فان رجال الأندلس العارفين بقتـــال الإفرنج استخف بهم الناصر ووزيره ، فشنق بعضهم ، ففسدت النيات ، فكان ذلك من بخت الإفرنج »[١] . وصل الناصر إلى قرطبة ثم سار بعد ذلك إلى مدينة جيان ، وواصل سيره فى اتجاه بياسة وأبدة ، ونزل فى الفحص المعروف بفحص البلوط الواقع بين جيان وقلعة رباح .

أما قوات الفونسو ، فقد زحفت جنوبا ، فاخترقت جبال سيرا مورينا فى ١٢ صفر سنة ٦٠٩ ﻫ (١٤ يوليو سنة ١٢١٢ م) وانسابت فى أحـــد الوديان الواقعة بين الجبال نفسها وهضبة لينارس،بالقرب من بلدة تولوسا، ويطلق النصارى على هذه الوديان اسم نافاس ، ولذلك عرفت الموقعة عندهم باسم لاس نافاس دى تولوسا Las Navas de Tolosa ، ويسمى مؤرخـو العرب هذا الموضع بالعقاب نسبة إلى حصن أموى قائم بالقرب من الفحص الذى دارت فيه الموقعة .

---

(١) الذخيرة السنية في أخبار الدولة المرينية ، تحقيق محمد بن أبى شنب ، الجزائر، ١٩٢٠

وأول خلفاء الموحدين الضعاف المستنصر بالله أبو يعقوب بن محمـــد الناصر الذى بويع بالخلافـة وعمره ١٦سنة ، وتوفى فى سنة ٦٢٠ هـ ، وفى عهده انبعثت الثورات والفتن ، وكثر الخارجون عليه فى أنحاء البلاد . ولما توفى اضطرب الأمر ، واجتمع الناس على تقديم عبد الواحد بن يوسف ابن عبد المؤمن ، وفى عهده تفرق أمر الموحدين، وازدادت مطـــامعهم فى الخلافة ، فاستقل أبو محمـد عبد الله بن يعقوب المنصور بالأندلس ، وتلقب بالعادل وأيده بعض أعيان الموحدين ، فخلعوا عبد الواحد ، وقتلوه بعـد أشهر من ولايته . كذلك لم يطل عهد العادل بن المنصور ، إذ انتهى الأمر بمقتله سنة ٦٢٤ هـ وخلفه أخوه أبو العـــلاء إدريس بن المنصور ، فبويع بالخلافة فى إشبيلية ، مقر ولايته ، أيام أبيه المنصور وأيام أخيه العـادل ، وتلقب أبو العلاء بالمأمون ، وبايعه أهل الأندلس . وفى الوقت الذى بايعه فيه أهل الأندلس بويع أبو زكريا يحيى بن الناصر بالخلافـة فى مراكش ، وتلقب بالمعتصم ، وقام صراع عنيف بين خليفـة الموحـدين فى الأندلس وخليفتهم فى المغرب، ولم ينته هذا الصراع إلا بوفاة أبى العلاء إدريس فى سنة ٦٣٠ هـ . وكان أبو العلاء قد استعان بفرقة من النصـارى المرتزقة ، أدخلهم فى جيشه ، فأدخلهم مراكش ، وبنى لهم فيها كنيسة (١) . وبينما كان المأمون مشغولا بمحاربة المعتصم ، قام عليه أخوه أبو موسى فى سبتة ، وتلقب بالمؤيد، ومنذ ذلك الحين أصبح المغرب مسرحا للقتال بين خلفاء الموحدين ، وقامت الثورات فى كل مكان .

---

(١) ابن الخطيب ، ص ٥٣١

لحراسته وتلقى الضربات ، وكان فرسه بادنا ، فلم يطق الحركة ، فنزل له أحد قواد العرب عن فرسه ، وكان الناصر قد أمر أبا بكر بن عبدالله بن أبي حفص بالوقوف تحت الراية ، وظن النصارى أن الناصر تحت هذه الراية ، فحملوا عليها ، ووضعوا السيف فيمن واجهها ، فقتل أبو بكر بن عبد الله الحفصي ، وقتل كل من دافع عن الراية ، وانهزم المسلمون هزيمة نكراء ، واستولى العدو على جميع المحلة وأكثر مضاربها (١) . وما زالت بعض أعلام الموحدين وخيمهم فى العقاب محفوظة حتى اليوم بدير لاس إويلجـــاس فى مدينة برغش ، ومن بينها سجادة خيمة الخليفة محمد الناصر أو لعلها علما من الأعلام الموحدية ، وهى قطعة من النسيج المصنوع من الديباج المحلى بخيوط الذهب ، وألوانها حمراء وزرقاء وبيضـــاء وخضراء وصفراء . وتتألف زخارفها من جامة مركزية ، بداخلها زخرفة هندسية من تشابكات تحيط بها طرز مربعة ، ويحيط بالسجاده شريطان من الكتابة النسخية ، وبأدناها شريط من دوائر متصلة (٢) .

قضى النصارى المنتصرون يومين التماسا للراحة بعد المعركة ، وفى اليوم الثالث ، انقضوا على المدن الأندلسية المجاورة لحصن العقاب ، فاستولوا على بانيوس ، وكاسترو فرات وتولوسا ، ثم استولوا على بيـــاسة ، وأحرقوا المسلمين الذين لاذوا بمسجدهم ، ثم حاصروا أبدة واستولوا عليها ، واستولوا كذلك على بسطة . ثم عاد الفونسو الثامن إلى طليطلة بعد أن اكتفى بمـــا

(١) الحميرى ص ١٣٨

(٢) Gomez Moreno, el Pantéon Real de las Huelgas de Burgos, Madrid, 1946 pp. 81 et sqq. - Torres Balbas, Ars Hispaniae, t. IV, 1949
السيد عبد العزيز سالم ، الفنون والصناعات بالأندلس ، دائرة معارف الشعب ، ج ٢ ، ص ١٩٢ ، القاهرة ١٩٥٩

أحرزه من انتصارات بحيث استقبله شعبه هناك بمواكب من الموسيقى والأناشيد . أما الناصر ، فقد عاد إلى إشبيلية متظاهرا بعدم الاكتراث لهذه الهزيمة ، ثم عبر الزقاق إلى مراكش ، وهو حزين لهذه الهزيمة ، واحتجب الخليفة بعد ذلك فى قصره بمراكش بقية سنة ٦٠٩ هـ . وتوفى فى ٤ شعبان من سنة ٦١٠ هـ أى بعد سبعة أشهر من هزيمته فى العقاب .

ج ـ انهيار دولة الموحدين بعد هزيمتهم فى الارك :

يمر المؤرخون العرب مرا سريعا على معركة العقاب ، ويذكرون أنها الواقعة المشؤومة التى لم يقم للمسلمين بعدها قائمة تحمد، ولم تستقل الأندلس بعدها العثرة [1] ، لأن النصارى استولوا بعدها على أكثر مدن الأندلس . ويسجل تاريخ وفاة محمد الناصر بداية انهيار دولة الموحدين التى امتدت على الرغم من ذلك حتى سنة ٦٦٨ هـ ، وهى السنة التى قتل فيها أبو دبوس أمام أسوار مراكش التى دخلها بنو مرين . ولقد أعان على انهيار دولة الموحدين عدة عوامل منها : ١ ـ الضعف الحربى والسياسى والنفسى الذى منيت به بعد هزيمتهم فى موقعة العقاب .

٢ ـ فوضى الإدارة وتفكك وحدة قبائل الموحدين ٣ ـ الاضطراب الذى أحدثه العرب الهلالية ، والمماليك الغز فى البلاد ، وغاراتهم المستمرة فى نواحى دولة الموحدين ٤ ـ التوسع المسيحى فى إسبانيا الإسلامية منذ النصف الثانى من القرن السادس الهجرى ، واستنفاذ قوى الموحدين فى إيقاف مدهم ٥ ـ حركة بنى غانية فى المغرب وهى حركة بعثرت قوى الموحدين واستهلكتها . ٦ ـ ضعف الخلفاء الذين تولوا بعد محمد الناصر ، وازدياد نفوذ رجال الإدارة والولاة ، والصراع بين أمراء بيت عبد المؤمن من أجل الظفر بالخلافة .

(١) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الخاص بالأندلس ، ص ٢٧٠

اشتبك الجيشان فى ١٥ صفر ، فى قتال عنيف سرعان ما أنجلى عن سيطرة النصارى على المعركة ، ويصف السلاوى هـذه الموقعة فيذكر أن الناصر ، ضرب قبته الحمراء المعدة للقتال على رأس ربوة وجلس أمامها على درقته وفرسه قائم بازائه ، « ودارت العبيد بالقبة من كل ناحية ، ومعهم السلاح التام ، ووقفت الساقات والبنود والطبول أمام العبيد مع الوزير ابن جامع ، وأقبلت جموع الفرنج على مصافها كأنها الجراد المنتشر ، فتقدمت إليهم المتطوعة ، وحملوا عليهم أجمعـون ، وكانوا مائة وستين ألفا ، فغابوا فى صفوفهم ، وانطبقت عليهم الفرنج ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، فاستشهد المتطـوعة عن آخرهم ، هذا وعساكر الموحدين والعرب والأندلس ينظرون إليهم ، لم يحرك إليهم منهم أحد ، ولما فرغ الفرنج من المتطوعة حملوا بأجمعهم على عساكر الموحدين منهم والعرب حمـلة منكرة ، فلما انتشب القتال بين الفريقين ، فرت قوات الأندلس وجيوشها لما كانوا قد حقدوه على ابن جامع فى قتل ابن قادس أولا ، وتهديدهم وطرده لهم ثانيا ، فجروا الهزيمة على المسلمين ، ولاحول ولاقوة إلا بالله ، وتبعهم قبائل البربر والموحدون والعرب ، وركبتهم الفرنج بالسيف ، وكشفوهم عن الناصر حتى انتهوا إلى الدائرة التى دارت عليه من العبيد والحشم ، فألفوها كالبنيان المرصوص ، لم يقدروا منها على شىء ، ودفع الفرنج بخيلهم المدرعة على رماح العبيد وهى مشرعة إليهم فدخلوا فيها ، والناصر قاعد على درقته أمام خبـائه يقول : صدق الرحمن ، وكذب الشيطان . حتى كانت الفرنج تصل إليه ، وحتى قتل حوله من عبيد الدائرة نحو عشرة آلاف » (١) .

ولم يبق أمام الناصر سوى الفرار ، فركب فرسه وحوله ثلة من العبيـد

---

(١) الاستقصا ، ج ٢ ص ٢٢٤

كذلك شهدت الأندلس في هذه الآونة فترة مشحونة بالاضطرابات العنيفة، وأخذ رؤساء الأندلس ـ بعد أن التاث أمر الموحدين ـ ينتزون بنواحي الأندلس ، وقامت الفتنة الثالثة في تاريخ الأندلس ، واشتعلت نار الثورة واحتدمت في سائر مدنه ، وكان المحرك الأول لهذه الثورات محمد بن يوسف ابن هود الجذامي الثائر بمرسية [1] . وقد تمكن ابن هـود من التغلب على شرق الأندلس كله، وفرض سلطانه على مرسية وقرطبة وإشبيلية وغرناطة ومالقة والمرية والجزيرة الخضراء وماردة ، وأيقن أهل الأندلس أن إمارته ستكون مخرجا لهم من حالة الفوضى والاضطراب التي شملت بلادهم في ذلك الحين، ولكن جهود هذا الأمير اصطدمت بحركات مضادة من جانب أبي العلاء إدريس من جهة ، والقشتاليين والأرغونيين من جهة ثانية، وبعض خصومه من رؤساء الأندلس من جهة ثالثة ، ونخص بالذكر منهم محمد بن يوسف بن نصر صاحب حصن أرجونة الذي تمكن من الاستيلاء على جيان وشريش في سنة ٦٣٠ هـ ، وعلى إشبيلية في سنة ٦٣٢ هـ ، وعلى غرناطة ووادي آش وبسطة في سنة ٦٣٥هـ . وانتهز القشتاليون والأرغونيون فرصة قيام الحرب الأهلية بين المسلمين في الأندلس ،واستولوا على بعض المدن الأندلسية الهامة، وكان القشتاليون قد اغتصبوا القسم الأعلى من الأندلس حتى أندوجر منذ بداية الفتنة حتى سنة ٦٣٣ هـ ، بينما أتم الليونيون فتح إقليم استرامادورة . فلما اتحدت مملكتا قشتالة وليون تحت تاج واحد في ظل الملك فرناندو

---

(١) محمد بن هود من سلالة بني هود الجذاميين أصحاب سرقسطة في عصر الطوائف ، ويسميه الاسبان في مدوناتهم التاريخية باسم Zafadola أي سيف الدولة وهو لقبه الذي تلقب به .

الثالث الملقب بالقديس، أتيح له الاستيلاء على بياسة وأبدة فى سنة ٦٣٣ هـ، وعلى قرطبة حاضرة الخلافة الأموية فى الأندلس فى سنة ٦٣٦ هـ (١)، وعلى إشبيلية، حاضرة الموحدين، فى سنة ٦٤٦ هـ. وتمكن أخيرا من ضم قادس وولبة وجميع المدن الواقعة بالقرب من مصب الوادى الكبير. أما فى شرق الأندلس، فقد كان خطر خايمى الأول ملك أرغون أعظم من خطر فرناندو، إذ تمكن من الاستيلاء على ميورقة والجزر الشرقية فيما بين عامى ٦٢٧، ٦٣٥ هـ، واستسلمت له بلنسية فى سنة ٦٣٦ هـ، ونجح فى سنة ٦٤٥ فى الاستيلاء على جزيرة شقر ومدينة شاطبة. أما مرسية فقد تمكن فرناندو الثالث من الاستيلاء عليها فى سنة ٦٤١ هـ (٢).

وظلت الفوضى ضاربة أطنابها فى المغرب والأندلس فى عهد خلفاء الموحدين الضعاف حتى كانت أيام المرتضى أبي حفص بن اسحاق الذى تولى بعد وفاة المعتضد بن المأمون سنة ٦٤٦، فى موقعة نشبت بينه وبين يحيى بن زيان أمير تلمسان، غير أن عهد المرتضى لم يطل كثيرا، إذ خرج عليه أمير من أمراء الموحدين هو أبو العلاء إدريس الثاني المعروف بأبي دبوس.

وانقرضت دولة الموحدين بمصرع أبي دبوس على أسوار مراكش، ودرست آثارها، واستولى الخراب والدمار على معظم ديار مراكش.

---

(١) كان سقوط قرطبة في أيدى القشتاليين ضربة شديدة أصابت الاسلام فى الاندلس، وكان عاملا رئيسيا فى انهيار سلطان الموحدين نهائيا في الاندلس.

(٢) Terrasse, Histoire du Maroc, t. I, pp. 349 et sq.

(٦)

مساجد الموحدين وتحصيناتهم فى المغرب

١ ـ الأثر الأندلسى فى الفن الموحدى :

أسرة الموحدين من الأسرات الإسلامية التى اهتم خلفاؤها بالبناء والتعمير ، وليس فى بلاد المغرب كلها آثار تعادل فى الكثرة وفى العظمة والجمال آثار الموحدين ، والموحدون أصحاب مدرسة فى فن العمارة وفى الزخرفة من أهم تعاليمها التبسيط بقدر الإمكان من التكوينات الزخرفية ، وتجريد التوريقات من عناصرها الحية، وطبعها بطابع من الورع الذى يعكس اتجاههم الإصلاحى . ولقد تأثرت فنون الموحدين فى العمارة والزخرفة ، تأثرا عميقا بالحضارة الأندلسية ، وتمكنت الأندلس من غزو المغرب فنيا وعلميا فى نفس الوقت الذى غزا المغرب فى عصر الموحدين بلاد الأندلس عسكريا . وعصر الموحدين هو العصر الذى توثقت فيه العلاقات الفنية بين المغرب والأندلس ، وانتقلت التأثيرات الأندلسية إلى المغرب ، وظهرت فى جميع الأبنية التى أقامها خلفاء الموحدين فى المغرب مثل جامع الكتبية بمراكش، وجامع القصبة بنفس المدينة، وجامع حسان برباط الفتح وقصبة رباط الفتح. ويذكر ابن سعيد المغربى ، « أن حضرة مراكش هى بغداد المغرب ، وهى أعظم ما فى بر العدوة ،وأكثر مصانعها ومبانيها الجليلة وبساتينها إنما ظهرت فى مدة بنى عبد المؤمن ، وكانوا يجلبون لها صناع الأندلس من جزيرتهم، وذلك مشهور معلوم إلى الآن ، ومدينة تونس بافريقية قد انتقلت إليها السعادة التى كانت فى مراكش بسلطان إفريقية الآن أبى زكريا يحيى بن أبى محمد بن أبى حفص ، فصار فيها من المبانى والبساتين والكروم ماشابهت

به بلاد الأندلس وعرفاء صناعه من الأندلس وتماثيله التى يبنى عليها ، وإن كان أعرف خلق الله باختراع محاسن هذا الشأن ، فإنما أكثرها من أوضاع الأندلسيين ، وله من خاطره تنبيهات وزيادة ، ظهر حسن موقعها ، ووجوه صنائع دولته لاتكاد تجدهم إلا من الأندلس »(١)

ولقد ازداد الأثر الأندلسى فى فنون المغـرب فى عصر الموحدين ومن تبعهم فى المغرب من بنى مرين وبنى زيان وبنى حفص بسقوط معظم قواعد الأندلس مثل قرطبة وبلنسية وجيان وغيرها ، وفى ذلك يقول ابن غالب الأندلسى : « ولما نفذ قضاء الله تعالى على أهل الأندلس بخروج أكثرهم عنها فى هذه الفتنة الأخـــيرة المبيرة ، تفرقوا ببلاد المغرب الأقصى من بر العدوة مع بلاد إفريقية ، فأما أهل البادية فمالوا فى البوادى إلى ما اعتادوه ، وداخلوا أهلهـا ، وشاركوهم فيها ، فاستنبطوا الميـاه ، وغرسوا الأشجار ، وأحدثوا الأرحى الطاحنة بالمـاء وغير ذلك ، وعلموهم أشياء لم يكونوا يعلمونها ولا رأوها ، فشرفت بلادهم ، وصلحت أمورهم ، وكثرت مستغلاتهم ، وعمتهم الخيرات ، فهم أشبه الناس باليونانيين . . . وأما أهل الحواضر فمالوا إلى الحواضر واستوطنوها ، فأما أهل الأدب فكان منهم الوزراء والكتاب والعمال وجباة الأموال والمستعملون فى أمور المملكة ، ولا يستعمل بلدى ما وجد أندلسى ، وأما أهـل الصنائع ، فانهم فاقوا أهـل البلاد ، وقطعوا معاشهم ، وأخمـلوا أعمالهم ، وصيروهم أتباعا لهم ، ومتصرفين بين أيديهم ، ومتى دخلوا فى شغل عملوه فى أقرب مدة ، وأفرغوا فيه من أنواع الحذق

---

(١) المقرى ، جـ ٤ ص ١٤٩

والتجويد مايميلون به النفوس إليهم، ويصير الذكر لهم»[1] . هذه المقتطفات توضح لنا كيف انتقلت التأثيرات الأندلسية إلى المغرب الأقصى فى عصر الموحدين وماتلاه من عصور .

وإذا تتبعنا الأثر الأندلسى فى فنون المغرب وجدنا أنه يرجع إلى أيام عبد المؤمن بن على الذى أحاط نفسه بعدد من أدباء الأندلس ، واستخدم بعضهم كتابا له ، من أمثالهم : أبو جعفر أحمد بن عطية ، وأبو محمد عياش ابن عبد الملك القرطبى ، ومن قضاته عبد الله بن عبد الرحمن المالقى ، ومن شعرائه الأصم المروانى الشاعر ، وابن سيد الملقب باللص ، وأبو عبد الله محمد بن غالب البلنسى المالقى . أما أبو يعقوب يوسف فكان على حد قول المراكشى، « أعرف الناس كيف تكلمت العرب وأحفظهم لأيامها ومآثرها وجميع أخبارها فى الجاهلية والاسلام ، صرف عنايته إلى ذلك أيام كونه باشبيلية واليا عليها فى حياة أبيه ، ولقى بها رجالا من أهل علم اللغة والنحو والقرآن ، منهم الأستاذ اللغوى المتقن أبو اسحق ابراهيم بن عبد الملك المعروف عندهم بابن ملكون ، فأخذ عنهم جميع ذلك وبرع فى كثير منه ... وكان أحسن الناس إلفاظا بالقرآن، وأسرعهم نفود خاطر فى غامض مسائل النحو ، وأحفظهم للغة العربية ، وكان شديد الملوكية ، بعيد الهمة ، سخيا جوادا ، استغنى الناس فى أيامه، وكثرت فى أيديهم الأموال، هذا مع إيثار للعلم شديد، وتعطش إليه مفرط... وكان له مشاركة فى علم الأدب، واتساع فى حفظ اللغة ، وتبحر فى علم النحو حسبما تقدم . ثم طمح به شرف نفسه ، وعلو همته إلى تعلم الفلاسفة ، فجمع كثيرا من أجزائها وبدأ من ذلك بعلم

(١) المرجع السابق ، ج ٤ ص ١٤٧ ، ١٤٨

الطب ، فاستظهر من الكتاب المعروف بالملكي أكثره مايتعلق بالعلم خاصة دون العمل ، ثم تخطى ذلك الى ماهو أشرف منه من أنواع الفلسفة ،وأمر بجمع كتبها،فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموى»[1] وكان ممن صحبه من العلماء الأندلسيين أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسى الوادى آشى الفيلسوف ،وأبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي، وأبو بكر محمد بن أبي مروان عبد الملك بن زهر ، طبيب إشبيلية .

وكما تأثر خلفاء الموحدين بعلماء الأندلس وأدبائهم فقد تأثروا أيضا برجال الفن الأندلسيين ومهندسيهم ،ونخص بالذكر منهم مهندسين اشتركوا فى تشييد معظم آثار بنى عبد المؤمن ، وهما أحمد بن باسة عريف البنائين فى الأندلس ، والحـــاج يعيش المالقى[2]: الأول تولى بناء جامع إشبيلية، والثانى اشترك فى بناء حصن جبل طارق (٣) .

ب ـ اهتمام الموحدين بالبناء :

اهتم من خلفاء الموحدين بالبناء الأربعة العظام : عبد المؤمن بن على ، وأبو يعقوب يوسف ، والمنصور ، والنـــاصر . أما عبد المؤمن فقد اهتم بالعمارة والتشييد اهتماما خاصا ، فهو الذى أمـــر ببناء سور تاكرارت أو

---

(١) المراكشى ، ص ٢٣٨

(٢) P. Antuna Melchor, Sevilla y sus monumentos arabes, pp. 131 - 133

(٣) الحلل الموشية ، ص ١٠٨

Torres Balbas, Arquitectos andaluces de las epocas almorávide y almohade, Al-Andalus, 1946, fasc. I, pp. 214 - 224

تاجرارت من تلمسان فى سنة ٥٤٠ هـ ، وببناء مسجدها الجامع (١) ، وهو الذى أمر ببناء حصون جبل الفتح فى سنة ٥٥٥هـ (٢) وأقام به القصور (٣)، وهو الذى قام ببناء جامع تينملل ووسع المدينة عند زيارته لقبر المهدى فى سنة ٥٤٨ (٤) ، وببناء القصور فى مراكش (٥) ، وببناء المساجد وإصلاحها فى جميع بلاده سنة ٥٥٠ هـ (٦) . وعبد المؤمن هو الذى أسس جامع الكتبيين بمراكش بقصر الحجر المرابطى بعد أن هدم جامع على بن يوسف .

أما ابنه أبو يعقوب يوسف فكان مولعا بالعمارة ، محبا لها، فاليه يرجع الفضل فى الشروع فى بنيان مدينة رباط الفتح ، وعاقه الموت عن إتمامها فأتمها ابنه المنصور (٧) ، واليه يرجع الفضل فى إنشاء الجسر الموصل بين إشبيلية وربضها القبلى طريانة ، وقصور البحيرة الواقعة خارج باب جهور باشبيلية ، والقصور المقامة خارج باب الكحل من أبواب هذه المدينة ، وقنوات المياه المحمولة على القناطر والحنايا من قلعة جابر إلى باب قرمونة من أبواب إشبيلية . وأهم ماقام به أبو يعقوب من أعمال البناء قصبة إشبيلية وجامعها الأكبر. وقد استحضر لذلك الغرض عرفاء أهل الأندلس وعرفاء مراكش وفاس وشرع فى بنائه فى سنة ٥٦٧ ، وتم فى ٥٧١هـ ، ونقلت إليه

(١) القرطاس ، ص ١٢٣

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٠ ــ الحلل ، ص ١١٨

(٣) المراكشى ، ص ٢١٣

(٤) القرطاس ، ص ١٢٦

(٥) المراكشى ، ٢٢٧

(٦) القرطاس ، ص ١٢٧

(٧) المراكشى ، ص ٢٢٦

الخطبة من جامع ابن عدبس فى سنة ٥٧٧هـ (١). أما المنصور فهو أكثر خلفاء الموحدين ولعا بالعمارة والبناء ، وقد ضرب الرقم القياسى فى بناء المساجد والقصور والتحصينات، فهو الذى أسس حصن الفـرج من إشبيلية بقبابه المشرفة على نهر الوادى الكبير (٢) ، وهو الذى أسس بمراكش البيمارستان الكبير ، وأجرى المياه إلى قاعاته (٣) ، وهو الذى أتم بنـاء جامع إشبيلية وأقام له الصومعة والتفافيح المركبة على العمود الحـديدى بأعلاها فى سنة ٥٩٣ هـ ، وهو الذى أتم بناء منار جامع الكتبية بمراكش وقصبة مراكش وجامعها ، ومدينة رباط الفتح من أرض سلا ، وجامع حسان (٤).

وإلى الناصر تنسب الزيادة بجـامع الأندلس بفاس (٥) ، وأسـوار مدينة فاس التى كان قد هدمها جده عبد المؤمن فى سنة ٥٤٠ هـ (٦) .

ثم اتجه خلفاء الموحدين الضعـاف فى الأندلس بوجه خاص إلى تشييد القلاع والحصون أمام الدفع السريع للاسترداد الإسبانى ، فالى أبى العـــلاء إدريس ينسب برج الذهب باشبيليه الذى أمر بتشييده فى سنة ١٢٢١ م، كما ينسب اليه أيضا السور الأمامى المعروف بالحزام البراني أمام أسوار إشبيلية (٧) .

---

(١) Antuna Melchor, op. cit. p. 130 - 138

(٢) المراكشى ، ص ٢٩٢ — نص ابن عذارى بمقـــال اويثى ميراندا ، ص ٤٢ — القرطاس ، ص ١٥١

(٣) المراكشى ، ص ٢٨٧

(٤) القرطاس ، ص ١٥١ ، ١٥٢

(٥) القرطاس ، ص ٤٦ — الذخيرة السنية ، ص ٤٠

(٦) القرطاس ، ص ١٢٣

(٧) السيد عبد العزيز سالم ، العمارة الحربية بالاندلس ، دائرة معارف الشعب ، عدد ٦٤ ، ص ١٥٦ ، ١٥٨

جـ ـ أهم مساجد الموحدين وتحصيناتهم فى المغرب والاندلس :

١ ـ جامع الموحدين برباط تازى :

أصبحت تازى منذ قيام دولة الموحدين أهم مركز حربى فى القسم الشرقى من المغرب الأقصى ، فقد اتخذها عبد المؤمن بعد أن افتتحها فى سنة ٥٢٧ هـ (١) قاعدة للحملات التى كان يوجهها إلى المغرب الأوسط الذى كان يحتله المرابطون وبلاد الريف . ولقد حلت تازى لمدة طويلة محل مدينة تينملل التى أصبحت متطرفة بعد أن اتسعت أملاك الموحدين فى المغرب ، ولم تعد تشغل إلا الموضع الثانى من الأهمية (٢) . ولقد عمل عبد المؤمن على تحصين تازى، فى سنة ٥٢٩ هـ أمر ببناء رباط تازى فبنيت، وحصن سورها (٣) . وكانت رباط تازى على حد قول صاحب الاستبصار «مدينة كبيرة فى سفح جبل مشرفة على بسائطه ، تشقها جداول المياه العذبة ، وعليها سور عظيم وقد بنى بالجير والحصى يبقى مع الدهر ، وهى فى فسحة على ٦ أميال ما بين جبال ، ينصب إليها من تلك الجبال مياه كثيرة ، وأنهار تسقى جميع بساتينها فى أعلاها وأسفلها ، ولها نظر كبير ، كثير الزرع وجميع الفواكه والخيرات » ، ويذكر صاحب الاستبصار أن هذه المدينة أسست فى سنة ٥٦٨هـ على الطريق المار من بلاد المغرب إلى بلاد المشرق ، وكانت تسمى مكناسة تازى نسبة إلى قبيلة مكناسة (٤) .

---

(١) السلاوى ، الاستقصا ، ج ٢ ص ١٠٩

(٢) Terrasse, la grande mosquée de Taza, paris, 1943, p. 17

(٣) السلاوى ، المرجع السابق ، ص ١١٠

(٤) الاستبصار ، ص ١٨٦ ، ١٨٧

وإلى عبد المؤمن يرجع الفضل فى تأسيس جامع تازى الذى يؤلف جزءا من الجامع الحالى ، وكان جامع الموحدين بتازى يشتمل على ٩ بلاطات عمودية على جدار القبلة ، وكان البلاط الأوسط أكثرها اتساعا ، وكان يخترق هذه البلاطات خمسة أساكيب، الأسكوب الأول المحاذى للقبلة أكثر اتساعا من الأساكيب الأخرى، وكانت تعلوه ثلاث قباب: واحدة أمام المحراب، واثنتان فى نهاية طرفى هذا الأسكوب. وكانت لصحن الجامع مجنبتان كل منها تشتمل عن بلاطين هما امتداد لبلاطات بيت الصلاة المتطرفة شرقا وغربا. وكانت المئذنة تقع فى الركن الشمالى الشرقى من المسجد. ويشبه تخطيط هذا المسجد تخطيط المسجد الجامع بتينملل كل الشبه ، ويمكننا أن نميز تخطيط المسجد الذى أسسه الموحدون فى تازى من مجموع بناء الجامع الحالى من أعلى سطحه ، فان الأسطح المنشورية التى تعلو بيت الصلاة تقف بعد الأسكوب الرابع ، وعلى هذا فان الزيادة المرينية بالجامع تشبه فى وضعها بالنسبة للمسجد الأول زيادة الحكم المستنصر فى جامع قرطبة من حيث استقلالها عن سائر البناء(١). كذلك تتميز الزيادة المرينية بداخل بيت الصلاة عن البناء الموحدى الأول ، فان أساكيب هذه الزيادة أكثر اتساعا من الأساكيب الأخرى، كما أن عقود هذه الزيادة المرينية من النوع المنفوخ المتجاوز ، فى حين أن عقود جامع عبد المؤمن من النوع المنفوخ المنكسر الذى يشبه عقود جامع الكتبية بمراكش .

٢ — جامع تينملل :

تعتبر تينملل قاعدة الدعوة الموحدية ، فمنها انطلقت فتوحات الموحدين

---

(١) Terrasse, la Grande mosquée de Taza, p. 24

فى المغرب ، وفيها دفن المهدى وخلفاؤه عبد المؤمن وأبو يعقوب يوسف وأبو يوسف يعقوب المنصور . ولم تكن تينمال فى أيام المهدى تزيد عن كونها قرية كبيرة ، فلما أصبحت مركز دعوة الموحدين، لم تعد تتسع لحشودهم الكثيرة ، فاضطر المهدى إلى توسيعها وزيادة عمرانها ، وحوطها بالأسوار ، وأسس بها مسجدا جامعا ، فى نفس الموضع الذى يقوم عليه الجامع الحالى[١].
والجامع الحالى من بناء عبد المؤمن ، أقامه تقريبا فى نفس الوقت الذى أقام فيه جامع الكتبية ، وذلك عند زيارته لقبر المهدى فى سنة ٥٤٨ هـ . وفى هذا الجامع الجديد يتجلى مدى التقدم الفنى الذى أحرزته الدولة الفتية فى أمد وجيز .

ويقع الجامع فى الطرف الغربى من المدينة، ويغطى مساحة مستطيلة الشكل، طولها ٤٨ مترا وعرضها ٤٣٫٦٠ مترا . والجامع يتسم بالانسجام والتناسق فى تخطيطه ، وفى زخارفه ، فالمحراب يقسم بيت الصلاة إلى قسمين متعادلين فى البناء والزخرفة بصورة تظهر لأول مرة فى العمارة المغربية [٢] . وصحن الجامع صغير بالنسبة لمسطح بيت الصلاة ، وتحف به مجنبتان شرقية وغربية، كل منها تشتمل على رواقين . وينفتح بجدار المحراب على جانبيه فتحتان ، ويضم بيت الصلاة تسع بلاطات عمودية على جدار القبلة، البلاطتان المتطرفتان منها أكثر اتساعا من البلاطات الأخرى ، وتشتمل كل من هذه البلاطات على خمسة صفوف من الدعائم تقسم هذه البلاطات أربعة إلى أساكيب، ويسبق

(١) H. Terrasse et R. Basset, Sanctuaires et forteresses almohades, p. 18

(٢) Ibid. p. 48

المحراب أسكوب فسيح يماثل فى اتساعه بلاطة المحراب الوسطى، ويقوم على نقطة تقاطع بلاطة المحراب بأسكوبه قبة ، ويعلو الأسطوانين المتطرفين على أسكوب المحراب قبتان أخرتان . ولاشك أن وضع هذه القباب يختلف عن وضع قباب مساجد المرابطين ، التى لم تعرف نظام القبتين اللتين تكتنفان قبة المحراب ، وكل ما كانت تعرفه هو قبة المحراب ، وأحيانا قباب تتوزع على البلاطة الوسطى .

هذه القباب الثلاثة مكسوة كلها بالمقربصات ، ويعتقد الاستاذ مارسيه أن نظام وضع هذه القباب الثلاثة على أسكوب المحراب متأثر بنظام قباب جامع الحاكم بأمر الله بالقاهرة الذى يتضمن حلا مماثلا (١) .

وللمسجد سبعة أبواب : اثنان ينفتحان فى كل من الجدار الشرقى والجدار الغربى لبيت الصلاة ، وواحد فى كل من جدارى المجنبتين الشرقية والغربية، والباب السابع صغير ينفتح فى الواجهة الشمالية للمسجد إزاء المحراب . وتتميز أبواب جامع تينملل بأن مداخلها كلها ، باستثناء الباب الشمالى، تقع بين كتلتين بارزتين من البناء ، وقد يكون هذا النظام متأثرا بنظام أبواب المساجد الفاطمية فى المهدية والقاهرة ، إذ لانشاهد له أمثلة فى عمائر المرابطين ولا فى عمائر الأمويين فى الأندلس . ويكتنف المحراب إلى اليمين واليسار بابان ضيقان : أحدهما باب الإمام ، والآخر باب المنبر ، ويماثل هذان البابان نظائرهما فى مسجدى الكتبية بمراكش والقرويين بفاس (٢) ، وأصل هذا النظام ابتدع فى جامع قرطبة .

---

(١) Marçais, l'architecture musulmane, p. 202

(٢) Basset & Terrasse, Sanctuaires et forteresses, p. 48

ومئذنة تينملل ، من حيث الموقع ، ومن حيث الشكل ، تختلف عن ماذن الموحدين الأخرى ، ولكنها أقرب من حيث زخارف القاعدة إلى مئذنة جامع الكتبية . والمئذنة مستطيلة الشكل (٩½ × ٥½ مترا مربعا)، وتلتصق بالمحراب من الخارج وترتفع بأعلاه ، بحيث تبدو من الخارج بارزة عن جداره . ويذكر الاستاذ تراس أن بسلا مئذنة صغيرة، يبدو أنها ترجع إلى عصر الموحدين، مستطيلة الشكل ، وترتفع على سطح المسجد بأعلى المحراب (١) .

ودعائم بيت الصلاة متنوعة الشكل ، فان الكتل المربعة تزدان في جوانبها الشمالية والجنوبية بأنصاف أعمدة صغيرة محفورة في الجص ، وسيسود هذا النوع من الدعائم في سائر مساجد الموحدين . وعقود الجامع متنوعة للغاية، فان عقود البابين الصغيرين اللذين يحفان بجوفة المحراب ، وكذلك عقود النوافذ نصف دائرية منكسرة من أعلى انكساراً طفيفا ، أما العقود الفاصلة بين البلاطات ، وعقود المجنبات المطلة على الصحن ، فمن هذا النوع ، وإن كان انكسارها أكثر حدة ، بحيث تبدو أقرب إلى أن تكون منفوخة مدببة . أما العقود التي تؤلف قاعدة القباب الثلاثة فعقود مفصصة تتداخل في فصوصها مقربصات من النوع الذي تتداخل فيه الخطوط المستقيمة والمنحنيات .

أما محراب الجامع فيعتبر من أجمل المحاريب المغربية في عصر الموحدين ، وفيه تتمثل القيم الجمالية في الزخرفة الاسلامية من التناسق والانسجام في سائر التكوينات الزخرفية(٢). وعقد جوفة المحراب منفوخ منكسر انكسارا

---

(١) Ibid. p. 51

(٢) Terrasse, et Jean Hainaut, les arts décoratifs au Maroc, Paris, 1925, p. 66

طفيفا ، ويحيط به عقد زخرفى مفصص ، وظيفته الإيهام بضخامة المحراب ، ويشغل بنيقتى المحـراب قوقعتان تمتد منها دوائر تشبـه رؤوس المسابح . ويحيط بطرة المحـــراب إفريز واسع مستطيل الشكل يدور حولها ، تملؤه زخارف هنـدسية تتناوب فيها مربعـات ومستطيلات ذات رؤوس نجمية . ويكتنف هذا الإفريز الزخرفى إطار آخر صغير زخارفه أقل ثراء من زخارف الإفريز المذكور . وتقل الزخارف في جدار المحراب كلما ارتفعنا حتى تصل إلى قاعدة القبة ، ثم تبدأ من جديد تتفتح كالزهرة ، حيث تقوم فى الأركان مقربصات رائعة تمتد على جوانب القـاعدة ، وعلى جانبى كل من المقربصات الركنية بقاعدة القبة شمسيات عبارة عن شبكات من التوريقات مفرغة فى الجص فى غاية الروعة والجمال ، تتمثل فيها مراوح نخيلية بسيطة ومزدوجة ، تشبه نظائرها فى باب أجناو بمراكش ، وتعبر هذه الزخرفة عن تأثر كبير بالزخارف الأندلسية (١) . أما قباب الجـامع فمقربصة ، وللاسف لم يتبق منها فى حالة جيدة سوى قبة المحراب والقبة الشرقية (٢) .

٣ ـ جامع الكتبية بمراكش :

لمـا دخل عبد المؤمن بن على مراكش بقيت ثلاثة أيام لايدخلها داخل ولا يخرج منها خارج ، « وأبى الموحدون دخولها لأن المهـدى كان يقول لهم : لاتدخلوها حتى تطهروها ، فسأل الموحدون الفقهاء عن ذلك فقـالوا لهم : تبنوا أنتم مسجدا آخر ، فكان ذلك » (٣) . فأمر عبد المؤمن ببنـاء

---

(١) Terrasse, Sanctuaires ; p. 66, 67

(٢) لدراسة هذا المسجد ارجع الى : Terrasse, op. cit. pp. 41-83

(٣) الحلل الموشية ، ص ١٠٨

جامع آخر فى قصر الحجر ، وهدم الجامع الذى كان قد بناه على بن يوسف بأدنى المدينة . فلما أكمل بناءه ، جعل فيه ساباطا يتردد عن طريقه بين القصر والجامع ، ونقل إليه منبرا عظيما كان قد أمر بصنعه فى الأندلس من العود والصندل الأحمر والأصفر ، وصفائحه من الذهب والفضة ، وأقام للمسجد مقصورة من الخشب لها ست أضلاع تسع أكثر من ألف رجـل ، وكان الذى تولى صنع المقصورة والمنبر ، الحاج يعيش المالقى (١) .

ويذكر صاحب الاستبصار أن عبد المؤمن « بنى فيها جامعا عظيما ، ثم زاد فيه مثله أو أكثر فى قبلته ، كان قصرا ، ورفع بينهما المنار العظيم الذى لم يشيد فى الإسلام مثله ، وأكمله ابنـه وخليفته أبو يعقوب » (٢). ونفهم من هـــذا النص أن عبد المؤمن أقام مسجدين جامعين للكتبية بمراكش ، أحدهما بعد الآخر ، ويغلب على الظن أن الجامع الأول كانت قبلته منحرفة عن الاتجاه الصحيح نحو مكة ، فكانت تميـل كثيرا إلى الشرق . فاضطر عبد المؤمن إلى بناء جامع آخر صحيح القبلة إلى الجنوب من الجامع الأول ، وبطبيعة الحال أمر بهدم الجامع الأول فيما بعد ، عندما أتم بناء الجامع الثاني، ومازال آثار الجامع الأول ظاهرة ، وزخارف محراب هذا الجامع الأول تشبه كل الشبه زخارف محراب جامع تينملل ، مما يقطع بأن هـــذه الآثار ليست آثار جامع على بن يوسف ، الذى أمر عبد المؤمن بهدمه عنـد دخول الموحدين مراكش .

أما عن تاريخ بناء جامع الكتبية الأول فأغلب الظن أن بناءه تم قبـل

---

(١) المرجع السابق

(٢) الاستبصار ، ص ٢٠٩

بناء جامع تينملل ، عقب دخول الموحدين مدينة مراكش فى سنة ٥٤١ ه ، فهو بذلك يلى فى القدم جامع رباط تازى الذى أسس فى سنة ٥٢٩ ه . أما الجامع الثانى فهو معاصر تقريبا لجامع تينملل ، يؤكد ذلك، ماذكره المقرى نقلا عن ابن رشيد الذى يقول : « فبدىء ببنائه ، وتأسيس قبلتـه فى العشر الأول من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ، وكمل منتصف شعبان المكرم من العام المذكور على أكمل الوجوه ، وأغرب الصنائـع ، وأفسح المساحة ، وأبعد البناء والنجارة » (١) . كذلك يذكر السلاوى فى هذا التاريخ نفسه (٢) .

أما الصومعة ، فقد شرع فى بنائهـا فى عهد عبد المؤمن بن عـلى ، وأتم المنصور بناء القسم الأعلى منها ، وهى لذلك الأنموذج الذى احتذاه بنـاة صومعتى إشبيلية والرباط (٣) .

وجامع الكتبية الحـالى ضخم المساحة ، وهـو مستطيل الشكل ، جانبه الشمالى المشترك مع الجدار القبلى لجامـع الكتبية الأول منحرف إلى الشمال الشرقى . وتصميم الجامع هو تطور منطقى ومتناسق لتصميم جامعى تازى وتينملل ، فعلى جانبى بلاط المحراب نجد عدداً من البلاطات يعـادل ضعف عدد بلاطات هذين الجامعين ، مع اختلاف يسير هو أن البلاطات الأربعـة الأخيرة من كل جانب منها أقل فى الاتساع من البلاطات الأربعة الموزعة

(١) المقرى ، ج ٢ ص ١٤٥

(٢) السلاوى ، الاستقصا ، ج ٢ ص ١٢٨

(٣) Terrasse et Basset, Sanctuaires, P. 106

على يمين ويسار بلاط المحراب مباشرة (١) . ويعلو أسكوب المحراب خمس قباب : واحدة أمام المحراب ، واثنتان على كل من الأسطوان الرابع التالى على يمين أسطوان المحراب ويساره ، على النحو الذى رأيناه فى جامعى تازى وتينملل ، ثم قبتان يعلوان الأسطوانين المتطرفين فى نهاية أسكوب المحراب شرقا وغربا . ويفصل بلاطات الجامع التسعة عن الزيادة الجانبية دعائم مصلبة الشكل ، تحدد تخطيطا لبيت الصلاة يماثل تخطيط بيت الصلاة فى الجامعين المذكورين .

وكما تضاعف عدد البلاطات المجاورة لبلاط المحراب ، تضاعف عدد الأساكيب كذلك ، وزاد بذلك اتساع بيت الصلاة . ونلاحظ أن الدعائم التى تحمل القباب الستة بأعلى البلاطة الوسطى، والقباب الخمسة بأعلى أسكوب المحراب ، والدعائم التى تفصل الصحن وأروقة المجنبتين الشرقية والغربية مما يلى الصحن عن بيت الصلاة ، كلها مصلبة الشكل ، باستثناء الدعائم الملتصقة بجدار القبلة فقطاعها مستطيل الشكل . أما الدعائم التى تنتهى بها صفوف البلاطات فأنصاف مصلبة ، فى حين أن الدعائم التى ترتكز عليها عقود المجنبات الدائرة بالصحن فتتميز بأنها مسننة لها زاويتين قائمتين على جانبى وجهها البارز المطل على الصحن ، شأنها فى ذلك شأن الدعائم المحيطة بصحون جامع تينملل والكتبية وإشبيلية (٢) . ومع أن معظم عناصر الجامع المعمارية من جدران وقباب مشيدة بقطع الحجارة غير المهذبة ، فان أبواب الجامع فى الجهة الشرقية مبنية بالآجر ، أما الأبواب الغربية فتختلط فيها قطع الحجارة

---

(١) Ibid p. 85

(٢) Ibid p. 86

بالآجر. وثبت كذلك أن قباب البلاطـة الوسطى كلهـا من الآجر ، بينما شيدت القباب القائمة على أسكوب المحراب بقطع الحجارة. والجدار الشرقى للجامع مشيد بقطع حجرية مصفوفة تصفيفا رائعا ، وينتهى البناء من أعلى بصفوف من الآجر. أما دعائم بيت الصلاة والصحن والعقود فمشيدة بالآجر(١).

ومئذنة الجامع تنتصب فى الركن الشمالى الشرقى من الجامع ، بين الجامع القديم والجامع الحالى، وتعتبر هذه المئذنة بحق من روائع فن العمارة الإسلامية على الرغم من بنائها بقطع الحجارة غير المهذبة ، وزخارف المئذنة تختلف من وجه إلى آخر ، وتتحكم الفتحات والنوافذ التى زودت بها أوجه المئذنة فى توزيع الزخرفة (٢). ونلاحظ أن هذة الفتحات قد أمـــلاها تدرج السلم الداخلى للمئذنة .وتتنوع العقود التى تزدان بهـا هذه الفتحـات تنوعا يشهد بعبقرية الفنانين الذين تولوا بناءها وزخرفتها ، فمن عقود منفوخة إلى عقود مفصصة إلى عقود مقربصة، إلى عقود تتقاطع فيما بينها مؤلفة فى بيت المؤذن شبكة من المعينات تشبه نظائرها فى مآذن مساجد القصبة والرباط وإشبيلية. ويبلغ ارتفاع المئذنة ½٦٧ مترا حتى أعلى التفافيح الثلاثة المتوجة لقبتها (ذكر ابن سعيد أن ارتفاعها بلغ ١١٠ ذراعا) (٣) ، وطول كل جانب منها ½١٢ مترا، ولقد قام الأستاذان تراس وباسيه بدراسة هذه المئذنة دراسة وافية شاملة (٤).

---

(١) Terrasse, Sanctuaires, pp. 87 - 90

(٢) Marçais, l'architecture musulmane, p. 244

(٣) المقرى ، جـ ٢ ص٩٩

(٤) Terrasse, op. cit. pp. 107 - 182

٤ ـ جامع القصبة بمراكش :

قبل أن يعبر المنصور المجاز إلى الأندلس، فى غزوته المعروفة بالأرك، كان قد أمر ببناء قصبة مراكش والجامع الواقع بإزائها وصومعته . فلما عاد من غزوته مظفرا منصورا فى سنة ٥٩٤هـ وجد كل ما أمر به من البناء قد تم(١). وتصميم جامع القصبة بمراكش غريب الشكل ، فصحنه عظيم الاتساع بالنسبة لبيت الصلاة الذى يضم ١١ بلاطة عمودية على جدار القبلة ، تخترقها ثلاثة أساكيب ، ويقوم على أسكوب المحراب ثلاث قباب ، واحدة أمام المحراب، والأخرتان على الأسطوانتين المتطرفتين منه ، ويدور حول الصحن رواق فى سعة بلاطة ، ويختلف هذا المسجد عن غيره من مساجد الموحدين فى أنه يحف بصحنه إلى اليمين واليسار صحنان آخران يفصلها بلاط مواز لجدار القبلة ، فيصبح حول الصحن الكبير أربعة صحون صغيرة ، تتوسطها فسقيات مستديرة مفصصة (٢) . ومحراب الجامع يقوم على عضادتين ، ترتكز كل منها على عمودين ، وجوفة المحراب تعلوها قبوة مقربصة ، جدد الأشراف السعديون بناءها . ومئذنة الجامع ليست فى كبر صومعة الكتبية ، وتزدان الصومعة ابتداء من ارتفاع السطح بشبكة زخرفية من الفصوص المتقاطعة ، مؤلفة شبكة رائعة من زهرة الزنبق ، وينتهى الجزء الأعلى من الصومعة بافريز عظيم من الزليج ، ويعلو المئذنة بيت للمؤذن تسقفه قبة مفصصة (٣) .

---

(١) القرطاس ، ص ١٥١ ، ١٥٢ . ويذكر صاحب الاستبصار أن المنصور هو الذى أمر ببناء هذه القصبة بكل مرافقها فى أول عام ٥٨٥ هـ (الاستبصار ، ص ٢١٠)

(٢) Terrasse, op, cit. p. 278

(٣) Terrasse et Basset, Sanctuaires, pp. 294 - 310

٥ ـ جامع حسان بالرباط:

ذكر المراكشي أن المنصور شرع في بنيان مسجد عظيم بالرباط « كبير المساحة ، واسع الفناء جدا ، لا أعلم في مساجد المغرب أكبر منه ، وعمل له مئذنة في نهاية العلو ، على هيئة منار الاسكندرية ، يصعد فيه بغير درج ، تصعد الدواب بالطين والآجر والجص وجميع ما يحتاج إليه إلى أعلاها ، ولم يتم هذا المسجد إلى اليوم لأن العمل ارتفع عنه بموت أبي يوسف»[1]. وكانت دولة الموحدين بعد انتصارهم في الأرك قد بلغت ذروة قوتها وعظمتها ، وكان من الطبيعي أن يعتز بطل الأرك بانتصاره ، ويكتب عنه بلغة العمران والبناء ، وجامع حسان بالرباط بمساحته الهائلة (١٨٠ × ١٤٠م) يعبر لنا عن هذا الاتجاه نحو العظمة ، والإسراف في التفخيم.

وتخطيط جامع حسان غريب عن تخطيط المساجد الاسلامية الجامعة بوجه عام ، فبيت الصلاة فيه يتألف من قسمين : قسم أمامي يشتمل على ٢١ بلاطة عمودية على جدار القبلة ، البلاطة الوسطى والبلاطتان المتطرفتان منها أكثر اتساعا من البلاطات الأخرى ، ويخترق هذه البلاطات عرضا سبعة أساكيب موازية لجدار القبلة . ثم يتعقد التخطيط بعد ذلك تعقيدا شديدا ، فان البلاطات الإحدى عشر الوسطى تمتد جنوبا على ١١ أسكوبا ، ويكتنف هذه البلاطات شرقا وغربا صحنان مستطيلا الشكل، وإلى الشرق وإلى الغرب من هذين الصحنين بلاطتان تمتدان بطول البلاطات الأخرى. أما القسم الثاني فيشتمل على ثلاثة أساكيب ممتدة بعرض المسجد كله بحذاء جدار القبلة . ونلاحظ أن الأعمدة في الأساكيب الثلاثة والبلاطتين

(١) المراكشي ، ص ٢٢٦

المتطرفتين فى بيت الصلاة ، تزيد فى الارتفاع عن أعمدة البلاطات الأخرى فى بقية أجزاء المسجد ، وليس فى إمكاننا تعليل هذه الظاهرة بسبب حالة التخريب التى يتسم بها الجامع فى الوقت الحاضر (١) . ومئذنة الجامع لم تصل إلينا كاملة ، فارتفاعها الحالى يصل إلى ٤٤ مترا ، وهى مشيدة بالحجر المصقول ، ويدور حول مركز المئذنة من الداخل طريق منحدر ، عرضه متران ، على نحو ماهو متبع فى مئذنتى جامع إشبيلية ، وجامع الكتبية بمراكش ، ويشتمل مركز المئذنة من الداخل على غرف موزعة على طوابق ستة كما هو الحال فى جامع الكتبية بمراكش ، ويعلو هذه الغرف قبوات مختلفة الاشكال ، منها القبوة المقربصة والقبوة المضلعة والقبوة نصف الكروية .

٦ـ جامع الأندلس بفاس :

هذا الجامع شرع فى بنائه سنة ٢٤٥ هـ من أموال مريم بنت محمد الفهرى ، فى نفس العام الذى بنى فيه جامع القرويين ، وقد سمى بجامع الا ندلس ، لا لأنه أقيم فى عدوة الأندلسيين ، ولا لأنه المسجد الجامع فى هذه العدوة ، وإنما لأن جماعة من أهل الأندلس ، كانوا يعيشون حوله ، ساهموا فى بنائه (٢) . وقد ظل جامع الأندلس كما هو منذ بنائه إلى أن رفعت الخطبة من جامع الأشياخ ، وانتقلت إليه فى عام ٣٢١ هـ بأمر حامد بن حمدان والى فاس من قبل عبيد الله المهدى ، وقد أفاد هذا الجامع من النزاع السياسى بين الفاطميين بالمهدية ، وبين الأمويين فى سبتة ، ويتجلى هذا النزاع فى المنبر الذى وصل إلينا من هذا العصر وعليه نقشان كتابيان يسجلان

(١) Marçais, l'architecture, p. 209

(٢) الجزنائى ، ص ٨١

تاريخين مختلفين ، ولكنهما متقاربان . وفى جمادى الأولى سنة ٥٤٣هـ ، زود هذا الجامع مثل قرينه جامع القرويين بمئذنة مربعة الشكل هى التى نشاهدها اليوم ، ولكن هذه المئذنة تبدو أقل ثراء من مئـــذنة القرويين ولقد زاد أبو العباس أحمـــد بن أبى بكر الزناتى والى فاس بجامع الأندلس زيادة كبيرة ، فأصبح يتألف من ست بلاطات تتجه من الشرق إلى الغرب ، وكانت عقود هذه البلاطات تقوم على أعمدة من حجر الكذان [1]، وقد استبدلت بهذه الأعمدة الحجرية دعائم من الآجر فى الزيادة الأخيرة التى قام بها الخليفة محمد الناصر الموحدى فى سنة ٦٠٠هـ .

ويذكر الجزناءى أن المسجد ظل على حالته منذ أعمال أحمد بن أبى بكر الزناتى فيه ، إلى أيام الخليفة محمد الناصر ، رابع خلفاء الموحدين (٢) ، فلم يضف إليه على بن يوسف أى إضافة لسببين : الأول أنه كان يود أن يفض المنافسة التقليدية بين هذين الجامعين ، بانتصاره لجامع القرويين ، خاصة وأن عدوة القرويين كانت قد تفوقت عمرانيا على عدوة الأندلس . والسبب الثانى كما يذكره الأستاذ تراس ، هو أن تعادل ميزان هـذين الجامعين كان مضادا لسياسة المرابطين الدينية ، التى كانت تدعو إلى عـدم تعدد الصلاة الجامعة فى مصر واحد يوم الجمعة ، وهذا يفسر قيام يوسف بن تاشفين بهدم الأسوار الفاصلة بين العدوتين ، وردها إلى مصر واحد(٣) . وهكذا يمضى عصر المرابطين دون أن يحظى جامع الأندلس باهتمام أولى الأمر منهم ،

---

(١) البـكرى ، ص ١١٦

(٢) الجزناءى ، ص ٨١

(٣) Terrasse, la Mosquée des Andalous à Fes, t. I, Paris 1942

ويفتتح عبد المؤمن بن على مدينة فاس فى سنة ٥٤٠ ﻫ، فيأمر بهدم أجزاء من سورها(١)، ويختار مدينة مراكش حاضرة لدولته، ويمر النصف الأول من عصر الموحدين دون أن يعنى أحد من خلفاء الموحدين بهذا الجامع. فلما تولى محمد الناصر الخلافة بعد أبيه المنصور، زار مدينة فاس، وأقام فيها بعض الوقت، وتولى فى أثناء إقامته إعادة بناء أسوار المدينة الحالية، كما أعاد بناء جامع الأندلس كله، ولم يترك من الجامع القديم سوى المئذنة الأموية والمنبر، وحتى هذا المنبر نفسه لم يستثن من أعمال الترميم، فلقد كسا الناصر كتفيه بجانبين جديدين، ويقول ابن أبى زرع، فى بيان أعمال هذا الخليفة: « وأما جامع عدوة الأندلس، فلم يزل على ما بنى عليه أولا، ولم يزد فيه أحد زيادة إلى سنة ستمائة، فأمر أمير المؤمنين أبو عبدالله الناصر ببنائه وإصلاحه وتجديد ماتهدم منه، وأمر بفتح الباب الكبير الجوفى المدرج الذى بصحنه، وجعل بأسفله بيلة من رخام أحمر، وأمر بعمل السقاية والميضآت »(٢).

ويحدثنا الجزناءى فى شيء من التفصيل عن الباب الجوفى الكبير، وعن البيلة التى أقامها الناصر بجوار هذا الباب، وعن الباب الذى نتجه إلى مقصورة النساء، وعن القبة المقربصة التى تعلوه، وعن المصرية (٣) التى أقامها بأعلى هذا الباب لأئمة المسجد، وعن دار الوضوء التى بناها على الجانب الآخر من الطريق المقابل للباب الكبير (٤)، ولكنه لم يحدثنا عن تفاصيل ما أجراه

---

(١) القرطاس، ص ١٢٣

(٢) نفس المرجع، ص ٤٦

(٣) المصريه غرفة مطلة على الشارع بأعلى البناء، وهذه المصرية المشار اليها تخربت فى عصر متأخر

(٤) الجزناءى، ص ٨١، ٨٢

الناصر فى بيت الصلاة من تغيير . ويعتقد الأستاذ تراس أن بيت صلاة هذا الجامع قد بنى من جديد على يدى هذا الخليفة . ومواد البناء التى استعملت فى بنائه فقيرة للغاية، فأغلب جدران الجامع مبنية من الطابية ، أما الدعائم والعقود وعضادات الأبواب فكلها من الآجر ، وقد رمم هذا الجامع بعد ذلك وأضيفت إليه إضافات ثانوية فى عصر بنى مرين.

وتخطيط جامع الأندلس يوهم بأنه من بناء المرابطين ، إذ أن من يرى بلاطاته بعقودها ودعائمها لايخطر بباله قط أنها من بناء الموحدين ، فالتصميم غير متناسق ، والبناء غير منتظم الشكل ، وبلاطات الجامع غير عمودية على جدار القبلة كمساجد الموحدين ، وأسقفه غير متناسقة ، ولا تقوم على بلاطته الوسطى قباب مقربصة كمساجد الموحدين . ولاشىء يربط جامع الاندلسيين بهذه المساجد إلا نسبة الصحن بالنسبة لمسطح بيت الصلاة ، فانها تخضع إلى حدما للقاعدة التى تسير عليها مساجد الموحدين بمراكش وتينملل .

ويتألف بيت الصلاة من سبعة بلاطات عرضية تمتد من الشرق إلى الغرب بحذاء جدار القبلة على خمسة عشر عقدا ، فى كل بلاط . ويخترق هذه البلاطات جميعا بلاطة وسطى ، مثلها ارتفاعا، ولكنها تزيد عنها اتساعا ، بعكس نظيرتها فى جامع القرويين . وعلى الرغم من انعدام روح التناسق فى تخطيط الجامع ، فانه لا يخلو من أصالة معمارية تتجلى بأوضح صورة فى الباب الشمالى للجامع ، وهو الباب الذى فتحه الخليفة الناصر الموحدى، ويشف بناء هذا الباب عن براعة هندسية ، وحذق فى الزخرفة ، فهو يفوق فى ارتفاعه أسقف الجامع ، ويطل على منظر خارجى فى غاية الروعة والجمال . وقد نجح مهندس هذا الباب فى الجمع بين العمارة والمنظر الطبيعى ، وهى نفس

الطريقة التى اتبعها مهندسو قصر الحمراء بغرناطة فيا بعـــد ، ونجحوا فى تطبيقها فى قصور بنى نصر كلها . ويبدو هـذا الباب من عدوة القرويين كقوس نصر فخم ، تتضاءل بجانبه مئذنة الجامع مع ارتفاعها عنه (١) .

وعقود بيت الصلاة كلها متجاوزة منكسرة ماعدا عقود بلاطة المحراب، متجاوزة على هيئة حدوة الفرس ، وتتكىء هذه العقود على مناكب بسيطة تتوج دعائم أكثر ارتفاعا من العقود ، ويحيط بالعقود طرر مستطيلة بارزة. أما العقود المتجاوزة بالبلاط الأوسط ، فأكثر تجـــاوزا من عقود جامع قرطبة ، وتتكىء على دعائم قطاعها يشبه زهرة ذات أربـع ورقات نصف دائرية ، وهو طراز من الدعائم كان شائعـا فى العمائر المسيحية باسبانيا . وصحن الجامع شبه منحرف ، تتوسطه خصة مفصصة من الرخام الأبيض، تحيط بها فسقية مربعة ، مزينة بالفسيفساء ، وتدور حول هذه الفسقية قناة رفيعة . وعقود مجنبات الصحن غير متساوية الارتفاع والاتساع ، ويتوسط المجنبة الشمالية عقد خشبى منقوش ، يحمل ظلة (رفرف) خشبية قائمة عـلى كوابيل خشبية ، ويسود المجموع طابع أندلسى خالص (٢) .

٧ – جامع القصبة الكبير بأشبيلية:

لم يبق من مساجد الموحدين الجامعـة فى الأندلس سوى آثار المسجد الجامع بقصبة إشبيلية ، وهو الجامع الذى أمر ببنائه الخليفـة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن فى سنة ٥٦٧ هـ ، وشرع فى بنائه فى رمضان من هذه

---

(١) Terrasse, la mosquée des Andalous à Fes

(٢) Ibid. – السيد عبد العزيز سالم، بيوت الله مساجد ومعاهد ، ج ٢ ص ١٨٦–١٩٧

السنة ، فهدمت الديار فى داخل القصبة لذلك الغرض، وحضر شيخ العرفاء أحمد بن باسة وأصحابه العرفاء البناؤون من أهل إشبيلية وجميع عرفاء أهل الأندلس ، مع من قدم من عرفاء البنائين بمراكش وفاس والعدوة (١).

وهـذا يوضح لنا كيف أن بناء الجامع وزخارفه قد جمعا بين بساطة الفن الموحدى وبين الغلو الزخرفى الذى اتسم به الفن الأندلسى ، فأسس الجامع من الماء بالآجر والجيار والجص والأحجار ، وامتدت أسس الدعائم فى جوف الأرض . واستمر بناء الجامع حتى كمل بالتسقيف، وأصبح يقارب فى الاتساع جامع قرطبة . وكان جامع إشبيلية مثل جامع الكتبية بمراكش يضم ١٧ بلاطة تتجه من الشمال إلى الجنوب ، وتتسع هذه البلاطات لأربعة عشر أسكوبا ، كل بلاطة يصل عرضها إلى ٦٫٤٠مترا . أما البلاطة الوسطى المؤدية إلى المحراب فيبلغ عرضها ٧٫٧٠ مترا . كذلك كان أسكوب المحراب فى مثل اتساع البلاطة الوسطى (٢) . ومن المرجح أن عقود جامع إشبيلية كانت تستند على دعائم أو أرجل من الآجر على نفس صورة دعائم الصحن. أما العقود فكانت متجاوزة منكسرة انكسارا طفيفا، وكانت مخارجها تنطلق من مناكب الدعائم كما يتجلى ذلك فى عقود الصحن. وكانت أسقف بلاطات بيت الصلاة هياكل هرمية تقوم على سماوات مسطحة بين جوائز السقف. ويغلب على الظن أن قبابا ثلاثة كانت تقوم فوق الأساطين الثلاثة الناشئة من تقاطع البلاطات الثلاثة الواسعة بأسكوب المحراب، وكانت هذه القباب مقربصة كما فى جامع

---

(١) Antuna Melchor, Sevilla y sus monumentos arabes, p. 134

(٢) Elsayed Abdel Aziz Salem, l'Architecture à Seville sous les Almohades, Thèse du Doctorat ès-Lettres, presentée à l'Université de Paris en 1957 (sous presse)

الكتبية بمراكش استنادا على القبوة المقربصة القائمة اليوم بالمدخل الشرقى للصحن ، واستنتاجا من قـــول ابن صاحب الصلاة : « واهتبل العرفاء ، واستغرقوا ، وتحذقوا فى بناء القبة التى على محرابه أعظم الاهتبال فى العمل بصنعة الجبس » [(١)] ، أو كانت على النحو الذى نشاهده فى مقصورة سان فرناندو بجامع قرطبة ، كما يرجح الأستاذ توريس بلباس[(٢)] ، واستنادا على قول ابن صاحب الصلاة : « وعقد الأقواس منه بالأقباء » (٣). وكان يحف بالمحراب إلى اليمين باب معقود يؤدى إلى قبو كان يحفظ فيه المنبر ، وإلى اليسار باب آخـــر معقود للساباط الموصل إلى القصر [(٤)] . وكان يدعم الجدران الخارجية ركائز ضخمة للدفع ، تماثل ما نشاهده منها اليوم فى الجدار الشمالى للجامع . وكانت تنفتح فى جدران الجامع الخارجية ثلاثة أبواب تؤدى إلى مجنبـات الصحن: واحد فى امتداد محور بيت الصلاة يعرف اليوم بباب الغفران Puerta del Pardon ، وبابان آخران فى المجنبتين الشرقية والغربية، تبقى منها اليوم الباب الشرقى فقط ، وهو باب يليه أسطوان تعـلوه قبوة مقربصة من نفس طراز قبـوات جامع الكتبية بمراكش (٥) ، ويطل على الصحن بوائك من عقود آجرية منفوخة منكسرة ، ويحيط بها عقود أخرى

---

(١) Antuna Melchor, op. cit. p. 135

(٢) Torres Balbas, Ars Hispaniae, t. IV, p. 168 - Torres Balbas, la Mezquita de Cordoba y las ruinas de Madinat al-Zahra Madrid, 1952, p. 106

(٣) Antuna, Melchor, p. 136

(٤) Ibid. p. 135

(٥) عبد العزيز سالم ، المساجد والقصور بالاندلس ، القاهرة ١٩٥٨

بارزة ، من أرجل العقود إلى رؤوسهـا الأمر الذى يكسب دعائمها شكلا مصلبا .

وما حفظ من زخارف جامع إشبيلية قليل ، ومع ذلك فهو بالغ الأهمية إذ يكشف عن اتجاه الزخرفة الأندلسية المغربية فى عصر الموحدين ، ويقتصر على بعض الزخارف المحفورة فى الجص بباطن العقد الداخلى لباب الغفران ، والعقد الكبير المطل على الصحن فى امتداد هذا الباب . وزخارف عقد هذا المدخل قوامها أشرطة بارزة ترتسم فيها مستطيلات ومربعات قائمة على رؤوسها ، وهى طريقة بيزنطية الأصل لها نظائرها بجامع قرطبة ومدينة الزهراء . أما الشريط الأوسط من زخارف هذا العقد فيتألف من مراوح النخيل الملساء التى تخلو من السيقان ، تطوقها خطوط محزوزة ، وأطرافها تنحنى فى تجعدات ، وتتلاحم فى تناسق وإيقاع . وترتسم فى بعضهـا خطوط لولبيـة محزوزة ، وقد حفرت التوريقات على طبقتين ، مما يضفى عليها نوعا من التبـاين الشديد بين الظلمة والضوء ، وقد سمى الأستاذ مارسيه هذا اللون من الزخـرفة باسم الزخرفة الكثيفة « decor compact » (١) ، وتشبه إلى حـــد كبير زخرفة محراب جامع توزر بافريقية ، وهو مسجـد ينخرط فى سلك الفن الأندلسى ، ويعاصر المسجد الجامع باشبيلية ، إذ بنى فى سنة ٥٦٠ هـ .

أما صومعة الجامع المعروفة اليوم باسم لاخيرا لدا La Giralda ، فقد تم بناؤها بعد انتصار الموحدين فى موقعة الأرك ، وارتفعت فى رشاقة ، مشرفة على فحص إشبيلية وما يحيط بها من المنطقة المعـروفة باسم الشرف . وقد

---

(١) Marçais, l'architecture musulmane, p. 252

كانت تتألف من طابقين : الأول وهو الجزء الأعظم منها ينتهى بالإفريز الأفقى الذى تعلوه فتحات النواقيس ، والثانى برج صغير الحجم يعلو البرج الأدنى فى امتداد نواته الداخلية . وكانت تعلو هـذا الطابق بدوره قبيبـة مقرمدة يتوجها سفود بارز ، ركبت فيـه تفافيـح أربعة تتـدرج فى الصغر كلما ارتفعت، فتتناسق تماما مع القبيبة ، وتفصح عن إيقاع وتناسق ، تؤكده رشاقة المئذنة وسموقها ، وتدعم اتجاهها التصاعدى الذى يزداد قوة بالتقسيمات الثلاثية الرأسية لزخرفة المعينات . وتتألف هذه المعينات من ثلاث شبكات تقوم كل منها على ثلاثة عقود . وقاعدة الصومعة مربعة الشكل ، طول كل جانب منها ١٣٫٦٥ مترا ، بداخله نواة مربعة الشكل ، يبلغ طول الجانب منها ٦٫٢٥ مترا ، يدور حـولها طريق منحـدر صاعد مؤلف من ٣٥ مقطع ، وتعلوه قبوات متقاطعة صغـــيرة متصلة ، خمسة منها فى كل مقطع ، وتشغل النواة الداخلية للبرج سبع غرف ، مربعة الشكل . وزخارف الجيرالدا تعبر عن فن يختلف عن فنون المغرب المعاصرة له ، فقد أثرتها عناصر أندلسية وفدت عليها من قرطبة وسرقسطة والمرية ومالقة (١) .

ب ـ المنشآت الحربية :

١ ـ أسوار المدن :

كانت الأسوار الأولى التى أسسها الموحدون فى بعض مدن المغرب مثل رباط تازى وتينملل ماتزال تخضع من حيث طريقة البناء والأسلوب للنظام الذى كان سـائدا فى عصر المرابطين ، فالسور الغـربي من تازى يتألف من

---

(١) ارجع الى مقالى : لاخيرالدا باشبيلية ، المجلة، العدد التاسع ١٩٥٧

صفوف مبنية من قطع حجرية ضخمة غير مهذبة القطع ، تتخللها قطع من الحجارة مسطحة ، هذا النظام يشبه نظام البناء فى قلعة آمرجو . ونلاحظ أن عرض السور فى العادة يبلغ ١٫٩٠ مترا ، وعرض ممشاه الأعلى ١٫٣٠ مترا ، وترتكز عليه أبراج مستطيلة الشكل تبرز عنه بنحو ثلاثة أمتار ، ويصل طولها إلى خمسة أمتار تقريبا . هذا السور يتوج حافه أخدود عميق . وينتصب فى الزاويه الجنوبيه الغربيه برج أسطوانى الشكل مرتفع ، تضيق جدرانه قليلا كلما ارتفع (١) . ويتغير نظام البناء فى الواجهة الجنوبية من السور ، فيصبح من الطابيه ، ويمتد بحذاء هذا السور من أدناه خندق منقور فى الصخر . ويعتقد الأستاذ تراس أن هذا السور متأخر عن البناء الحجرى ، ويرجح أنه من عصر بنى مرين ، ويرى أن الجزء الباقى من أسوار الموحدين لايعدو الواجهه الغربيه من باب الريح حتى البرج . أما الأسوار الأماميه فى السور الغربى الموحدى ، وفى السور الشرقى فترجع إلى عصر بنى مرين (٢) .

أما سور مدينة تينملل ، فالمعروف أنه من إنشاء المهدى ابن تومرت ، ولكن عبد المؤمن أعاد بناءه وجدده ووسع المدينة فى سنة ٥٤٨ هـ (٣) . ولم تكن المدينة تحتاج إلى نظام دفاعى معقد إذ أن أطرافها كانت مزودة بتحصينات طبيعية رهيبة ، فهى تقوم على الضفة اليسرى من وادى نفيس ، عند مدخل السهل الأعلى ، وفى موضع يضيق فيه هذا السهل للغاية ، ثم إنها

---

(١) Marçais, l'architecture musulmane, p. 221, 222

(٢) Terrasse, la grande Mosquée de Taza, p. 17, Note 2, p. 19, Note 1

(٣) القرطاس ، ص ١٢٦

تستند من الشمال على الجبل، ومن الجنوب على الوادى الذى تنتصب فى ضفته المقابلة أجراف متوعرة شديدة الانحدار ، ولذلك فانها لم تزود فى هـــذه الناحية بأسوار . ولم يتبق من أسوار تينملل اليوم سوى آثار قليـلة ، ومن هذه الآثار استطعنا أن نلم بتخطيط أسوارها ، فقد كانت هـذه الأسوار مستقيمة، وكانت ترتكز عليها أبراج بين كل ثلاثين أو خمسة وثلاثين مترا. هذا السور مبنى حتى ارتفاع قامة من قطع الحجارة غير المهذبه ، أما بقيـة السور من أعلى فمن الطابية [١] . وينفتح فى سور تينملل باب واحد مرتفع ، ينحنى فى شكل المرفق ، والباب مثل باب قلعة آمرجو عقـــده من الآجر منفوخ ، ويكتنفه من الجانبين بدنتان بارزتان من الحجارة .

* * *

ثم أخذ بناء الأسوار فى عصر الموحدين يتجه نحو البناء بالطابية ، وهى طريقة عرفتها الأندلس منذ القرن الرابع الهجرى ، وكانت هذه الطريقة معروفة فى المغرب أيضا قبل عصر الموحدين ،ولكن إذا كانت بعض المناطق الجنوبية من المغرب قد اعتـادت منذ عهد بعيد البنـاء بالتراب، فان استخدام الطابية القوية التى تدخل فيها الجيار والنورة كان يعتبر من طرق البنـاء التى نقلت إلى المغرب من بلاد الأندلس (٢) . ولكن البناء بالطابية لم يتم دون مقدمات ، فان رباط تيط الذى بناه مولاى عبدالله من أسرة إسماعيل الآمغار للمجاهدين ، ويقع على ساحـل المحيط الأطلنى ، على بعد نحـو ١٢ ك.م : جنوب غـربى الصويرة (٣) ، قد زود بأسوار تجمع بين طريقتى البنــــاء

(١) Terrasse, sanctuaires etforteresses, p. 38

(٢) Terrasse, l'arth ispano-mauresque p. 292

(٣) يبدو أنه أقيم فى منتصف القرن السادس الهجرى ، للتصدى لغزوات النصارى =

المذكورتين . فالأسوار من الطابية تقوم على قواعد من الحجر ، بينما أقيمت الأبراج جميعا من الحجر . ويمتاز رباط تيط بوجود أسوار أمامية وبرج براني مثمن الشكل قائم على البحر ، يتصل بالسور الرئيسي للرباط عن طريق ستارة من البناء ، والبرج مع كونه مثمن الشكل ، إلا أنه يقوم على قاعدة نصف كروية (١) . وينفتح في السور ثلاثة أبـــواب ، جدرانها مكسوة بلوحات من الحجر المصقول: منها بابان يتقدمها سور أمامي ، والباب الثالث يتبع في مدخله طريقة المرفق .

أما في مراكش فأسوار المدينة كلها من الطابية ، وفي الرباط يسود البناء بالطابية باستثناء واجهة الأبواب التي أقيمت من الحجر . وفي فاس أقيمت الأسوار الموحدية في عصر محمد الناصر من الطابية . ونلاحظ أن الطابية التي كان يستخدمها الموحدون في الأسوار تتميز بصلابتها الشديدة .

٢ ـ الأبواب ذات المرافق :

تعتبر أبواب المدن من التحصينات الهامة في عصر الموحدين ، فقد كانت الأبواب القديمة تتبع النظام البيزنطي وقوامه عقدان متقابلان أحدها ينفتح إلى داخل المدينة ، والآخر ينفتح إلى خارجها ، ولكن المرابطون ابتدعوا نوعا آخر من الأبواب ، وهي الأبواب ذات المرافق ، ونعني بذلك أن الممر الواصل بين فتحتي الباب ينحني بزاوية قائمة في شكل المرفق ، ويمتاز

= على الساحل المغربي . وكانت تيط قبل ذلك مركزا للجهاد ضد برغواطة الهراطقة حتى أيام عبد المؤمن (أنظر البيذق ، ص ١١١) ولكن بناة هذا الرباط أقاموه لحراسة البحر خوفا من نزول النصارى بهذا الجزء من الساحل .

(١) - Terrasse, Sanctuaires et forteresses almohades, p. 349
Marçais, l'architecture, p. 222

هذا النظام بأنه يضع العراقيل والعقبات وراء انحناء الممر أمام المهاجمين، وقد عقد الموحدون من هذا النظام، إذ أنشأوا أبوابا ذات مرفقين وأخرى ذات ثلاثة مرافق، ولم يسقفوا أجزاء من الممرات الواقعة بين مداخل الأبواب ومخارجها حتى يساعد ذلك المدافعين على قذف المهاجمين بالنبال أو النار الإغريقية(١).

ومن بين أبواب الموحدين ذات القيمة الدفاعية الكبرى سواء من حيث التصميم أو الزخرفة باب الرواح بمدينة رباط الفتح التى اختطها أبو يعقوب يوسف على المحيط الأطلسى ، وأكملها المنصور ، ولا يفصلها عن سلا العتيقة سوى وادى الرمان (٢) ، وهو الوادى المعروف الآن ببورجرج . هذا الباب مبنى من قطع حجرية متوسطة الحجم ، منتظمة الشكل ، ويؤلف الباب نظاما دفاعيا شديد الإتقان ، إذ يكتنفه برجان مربعان يحميان مدخله، ويقصرا الدخول إلى المدينة على ممر ذى مرفقين . وعندما يجتاز المرء هذا المدخل قادما من خارج المدينة ، يصل إلى الأسطوان الأول ، وهو دهليز مربع الشكل تعلوه قبة مضلعة قائمة على جوفات مقببة بأنصاف قبوات متعارضة ، ويتصل بهذا الدهليز المربع دهليز ثانى مربع الشكل أيضا ، تعلوه قبة نصف كروية ، ويؤدى هذا الدهليز بدوره عن طريق ممر إلى دهليز ثالث ، مكشوف من أعلى ، يتعرض عنده المهاجمون لقذائف المدافعين بأعلى سطح الباب ، ويتصل هذا الدهليز الثالث بدهليز رابع ، تعلوه قبة نصف

---

(١) السيد عبد العزيز سالم ، وسائل الدفاع الاسلامى فى العصور الوسطى ، مجلة الجيش عدد ٨٢ ، ١٩٥٨ — المساجد والقصور بالاندلس ، ص ٤٣

(٢) المراكشى ، ص ٣٥٩

كروية ، ينتهي منها الداخل الى المدينة (١). وكان يتعين لإقامة هذه الأبواب ذات المرافق المزدوجة زيادة سمك البناء (٢).

وكان يقوم فيما بين مصب وادي بورجرج والبحر رباط قديم كانت مهمته محاربة برغواطة ، ثم تحول عند بناء مدينة الرباط إلى قصبة سميت بقصبة الودايا نسبة إلى عرب ودي وهم بطن من بني المعقل الهلاليين ، وكان السلطان مولاي أبو النصر اسماعيل العلوي (١٠٨٣ - ١١٣٦ هـ / ١٦٧٢ - ١٧٢٧ م) قد استخدم من الودايا العرب فرقة في جيشه (٣) ، وهذه القصبة تعد من أروع أمثلة القلاع الحربية في المغرب الإسلامي . وأهم ما تبقى منها باب يعرف باسم باب قلعة الودايا ، وهو باب من الحجر المصقول . ومدخل الباب يكتنفه بدنتان صغيرتان ، وعقد المدخل منفوخ منكسر ، يتوجه عقد زخرفي مفصص ، قد تجاوز نصف الدائرة تجاوزا قليلا ، وتتناوب فيه فصوص صغيرة مدببة الرؤوس ، وأخرى نصف دائرية ، وتزينه شبكة زخرفية من معينات متصلة ، وتزدان بنيقتاه بتوريقات رائعة تتوسطها في كل بنيقة محارة زخرفية في غاية الجمال . وعندما يجتاز المرء مدخل هذا الباب ، يصل إلى ممر طويل من ثلاث غرف مربعة الشكل ، متصلة فيما بينها ، يعلو الغرفة الأولى منها قبة على جوفات مقوسة ، والثانية تعلوها قبة على جوفات مثلثة ، والثالثة تعلوها قبة نصف أسطوانية ، وعلى الجانب الأيمن من كل من الغرفتين الثانية والثالثة ، ينفتح باب معقود بعقد متجاوز منكسر ،

---

(١) Marçais, l'architecture p. 223

(٢) Terrasse, l'art hispano-mauresque, p. 295

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الاسلامي ج ٢ ص ١٨٨ ، ١٨٩

ويؤدى كل من هذين البابين إلى داخل قلعة الودايا (١) .

وبقصبة مراكش باب يسمى بباب أجناو ، ومظهر هذا الباب من الخارج رائع للغاية ، وهو يشبه إلى حد ما فى زخارفه باب الودايا المذكور ، ولكنه فقد بدنتيه .

(١) Marçais, l'architecture musulmane d'Occident, p. 223

خاتمة

ورثة الموحدين فى المغرب

ا ـ بنو مرين فى المغرب الأقصى

ب ـ بنو عبد الواد فى المغرب الأوسط

ج ـ بنو حفص فى المغرب الأدنى

خاتمة

ورثة الموحدين فى المغرب

شهد المغرب الإسلامى فى القرن السابع الهجرى انقساما سياسيا جديدا إلى ثلاثة دول بربرية مستقلة، ويذكرنا هذا الانقسام بنظيره فى القرن الثانى الهجرى ، ويرجع سبب قيام هذه الدول إلى انهيار دولة الموحدين ، فقد استغل بنو حفص المصامدة ، ولاة إفريقية فى عصر الموحـــدين فرصة احتضار هذه الدولة ، وأعلنوا استقلالهم عنها فى أيام أبى زكريا الحفصى ، واعترف بسلطنته أهل طنجة وسبتة وبعض مدن الأندلس ، بينما اقتسم بنو مرين وبنو عبد الواد الزناتيين بقية بلاد المغرب فيما بينهـم ، فاختص بنو مرين بالمغرب الأقصى ، بينما استقل بنو عبد الواد بالمغرب الأوسط . وتم انفصال المغربين الأدنى والأوسط عن دوله الموحدين دون جهد كبير بذلوه فى هذا السبيل ، بينما دفع بنو مرين ثمن ارتقائهم إلى السلطان غاليا ، فكان عليهم أن يخوضوا مع خلفاء الموحدين فى عصر الاضمحلال حروبا ومعـارك طاحنة استغرقت ما يزيد على نصف قرن من الزمان ، وانتهت بدخول بنى مرين فى النهاية مدينة مراكش .

١ — بنو مرين فى المغرب الاقصى :

قامت دولة بنى مرين منذ أن تمكن السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق من دخول مدينة مراكش عاصمه الموحـدين فى سنة ٦٦٨ هـ . ويتصل نسب أبى يوسف يعقوب هذا بمرين بن ورتاجن بن ماخوخ الزناتى، وكان مركزهم بأرض الزاب من جبل يقال له ايكجان . وقـد سميت

دولتهم بالدولة المرينية حينا نسبة إلى مرين هذا، وبالدولة الوطاسية حينا آخر نسبة إلى وطاس بن فجوس بن جرماط بن مرين . وكان أمير بنى مرين فى عهد يعقوب المنصور هو أبو خالد محيو بن أبى بكر بن حمامة بن محمد ابن ورزير بن فجوس بن جرماط بن مرين ، وقد ساهم بنو مرين فى غزوة الأرك عندما استنفرهم أبو يوسف يعقوب إلى الجهاد، فشهدوا هذه الغزوة، وأبلوا فيها بلاء حسنا ، وأصيب محيو بن أبى بكر إصابة قاتلة أدت إلى وفاته فى صحراء الزاب فى سنة ٥٩٢ هـ (١١٩٥ م) ، فخلفه على رئاسة بنى مرين ابنه عبد الحق ، وفى عهده دخل بنو مرين بلاد المغرب الأقصى ، وأقاموا ببلاد الريف فى سنة ٦١٠ هـ عندما لمسوا ضعف خليفة الموحدين يوسف المنتصر ، وسوء تدبيره واختلال حال الدولة ، وتهاون أمراء الموحدين فى الدفاع عن الثغور ، فأخذوا يغيرون على النواحى ، ويهاجمون بوادى المغرب ، ويعيثون فى البلاد فسادا ، وشكا الناس إلى المنتصر الموحدى، فعزم على محاربتهم ، وأعد لذلك الغرض جيشا يتألف من عشرين ألف فارس يقودهم أبو على بن وانودين وأبو ابراهيم بن يوسف بن عبد المؤمن والى مدينة فاس . والتقى هذا الجيش بجيش بنى مرين بوادى نكور فى سنة ٦١٣ هـ (١٢١٦م)، فدارت الدائرة على الموحدين، وامتلأت أيدى بنى مرين بالأسلاب والغنائم . وزحف الأمير عبد الحق بجموع هائلة من بنى مرين إلى رباط تازى ، وانتصر على جيوش الموحدين فيها ، فضاقت نفوس بنى عسكر بن محمد من عشيرتهم لانتصارات بنى مرين المتواليه، وأكلت الغيرة صدورهم ، فخالفوا الأمير عبد الحق وظاهروا الموحدين وأتباعهم من عرب رباح أشد قبائل المغرب قوة ، وتحالفوا

معهم ضد عبد الحق فى جموع بنى مرين ، والتقى الفريقان بالقرب من وادى سبو على بعد أميال من تافرطاست سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) ، وفى هذه الموقعة قتل الأمير عبد الحق وابنه الأكبر إدريس . فغضب بنو مرين لذلك، وأقسموا على الثأر له ، وما زالوا يقاتلون بنى رياح حتى انتصروا عليهم ، واستولوا على ما كان فى محلتهم من السلاح والخيل . ثم خلف عبد الحق ابنه أبو سعيد عثمان . واستغل عثمان ضعف الموحدين وأخذ يدعو قبائل المغرب إلى الدخول فى طاعته ، فبايعه من قبائلهم هوارة وزكارة وتسول ومكناسة وبطوية وفشتالة وسدراتة وبهلولة ومديونة ، ففرض عليهم الخراج، ووزع عليهم العمال ، وألزم أهل فاس ومكناسة وتازى وقصر كتامة بضريبة معلومة يؤدونها إليه فى كل سنة اتقاء لغاراته. واغتيل أبو سعيد عثمان فى سنة ٦٢٨ هـ (١٢٤٠ م) وخلفه أخوه أبو معرف محمد ، فاقتفى أثره فى مقاتلة الموحدين والتغلب على بلاد المغرب وجباية المغارم ، واشتبك مع الموحدين فى عدة مواقع، وانتصر على جيش الرشيد بن المأمون بقيادة أبى محمد بن وانودين بالقرب من مكناسة . فلما تولى السعيد بن المأمون خلافة الموحدين سنة ٦٤٠ صرف جهوده لمحاربة بنى مرين، وأعد لذلك جيشا ضخما يتألف من المصامدة والعرب والروم، والتقى مع جيش أبى معرف فى أحواز فاس سنة ٦٤٢، فانهزم بنو مرين وقتل أميرهم أبو معرف، ولاذوا بجبال غياثة من نواحى تازى .

وفى إمارة أبى بكر بن عبد الحق تمكن بنو مرين من التغلب على مكناسة فى سنة ٦٤٣، وافتتحوا أعمال وطاط وحصون ملوية سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨م) وانتزعوا مدينة فاس من الموحدين ودخلوها فى ٢٦ ربيع الآخر سنة ٦٤٦ ، ولم

تلبث مدينة رباط تازى أن سقطت فى أيديهم . ولكن أهل فاس انتهزوا فرصة غيابه عن المدينة وانتقضوا عليه ، وقتلوا عامله عليها ، وبايعوا المرتضى الموحدى ، فقدم اليهم أبو بكر، وحاصر المدينة فى سنة ٦٤٨هـ . فلما يئس أهل فاس من نجدة المرتضى لهم ، استأمنوا أبا بكر على أنفسهم ، فدخل فاسا وقتل الخارجين عليه ، فانقادت له البلاد ، وأذعن الناس له بالطاعة . ثم تابع فتوحاته بعد ذلك فاستولى على سلا ورباط الفتح سنة ٦٤٩، وأقام عليها ابن أخيه يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق ، ثم افتتح سجلماسة ودرعة سنة ٦٥٣ هـ . وأقام بفاس ، واتخذها حاضرة لدولته .

ولما توفى أبو بكر فى سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) خلفه عمه أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق ، وفى عهده حاول النصارى الإسبان الاستيلاء على سلا فردهم عنها ، وبنى سورها الغربي . وتمكن أخيرا من افتتاح مراكش سنة ٦٦٨ هـ (١٢٦٩ م) . ويعتبر استيلاء بنى مرين على مراكش بداية لتاريخهم كدولة ، وقد ركز بنو مرين نشاطهم بعد ذلك فى مجالين كتب لهم فيهما النصر : مجال الأندلس حيث خفوا لمساعدة بنى نصر أصحاب غرناطة ضد القشتاليين ، ومجال المغربين الأوسط والأدنى حيث حدثت بينهم وبين بنى عبد الواد ، والحفصيين حروب كثيرة .

ولعب بنو مرين دورا هاما فى مساعدة بنى نصر ، فخرج السلطان يعقوب بن عبد الحق سنة ٦٦٨ هـ من فاس وجاز إلى الأندلس ، واكتسح بجيوشه الفحوص والزروع ، ووزع كتائبة فى البسائط والوديان تنسف الزروع وتخرب العمران ، وعاد إلى فاس فى سنة ٦٧٤ هـ . وفى هذا العام شرع يعقوب فى بناء المدينة البيضاء لصق فاس وجعلها مقرا لسلطنته وجاز

إلى الأندلس للمرة الثانيــة سنه ٦٧٦ هـ وحاصر إشبيلية ، وبث سراياه فى كل نواحى الشرف ، ودخل حصن قطنيانة وجليانة والقليعة عنوة ، وغزا شريش ، واكتسح حصن روطة وحاصر قرطبة ، وخرب حصن بركونة وأرجونة وهاجم مدينة جيان . ثم جاز للمرة الثالثة سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢م) وللمرة الرابعة فى سنة ٦٨٤ . وفى هذه الغزوة الأخيرة مرض مرضا شديدا وتوفى بقصره فى الجزيرة الخضراء فى أول محرم سنة ٦٨٥ ، ودفن بجامع شالة من رباط الفتح. وبويع ابنه أبو يعقوب يوسف بن يعقوب .

جرى أبو يعقوب يوسف على سنن أبيه فى العدل وفى الجهاد ، وأجاز إلى الأندلس عـدة مرات ، وغزا تلمسان . ثم خلفه ابنه أبو ثابت عامر (٧٠٦ – ٧٠٨ هـ) وإليه ينسب بناء مدينة تطاوين .

وفى سلطنة أبى سعيد عثمان بن يعقوب استطاع بنو مرين الاستيلاء على المغرب الأوسط ، إذ سار على رأس جيش إلى تلمسان سنة ٧١٤ هـ ، وانتزعها من موسى بن عثمان بن يغمراسن سلطان بنى عبد الواد بها ، كما أجاز إلى الأندلس حـين استصرخه سلطان غرناطة . وتوفى أبو سعيد عثمان سنة ٧٣١ هـ (١٣٣٠ م) ، وخلفه ابنه أبو الحسن على بن عثمان الذى امتلك تلمسان سنــة ٧٣٧ من ابن أبي تاشفين سلطان بنى عبـد الواد ، كما استولى على تونس وهزم أميرها أبا يحيى الحفصى فى جمادى الآخرة سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٧) ، واتصل ملكه ما بين برقة إلى السوس الأقصى والمحيط الأطلسى واستمرت سيادة بنى مرين على المغربين الأوسط والأدنى قائمة فى عهـد ابنه أبى عنـان بن أبي الحسن ، الذى استولى على بجـاية وقسنطينة عقب تنازل الأمير محمد بن أبى زكريا الحفصى عنها .

ثم ضعفت دولة بني مرين ، وتولى الحكم سلاطين ضعاف ، ففقدت الدولة المرينية المغرب الأدني ، ثم فقدت بعد ذلك المغرب الأوسط ، وعادت إلى حدودها الأولى ، وكان استيلاء البرتغاليين على مدينة سبتة سنة ٨١٨هـ (١٤١٥) نذيرا بانهيار دولة بني مرين . وهكذا انقلب الوضع بالنسبة للمسلمين ، وتحولت الحرب المقدسة من أرض الأندلس إلى أرض المغرب ، وتمكن البرتغاليون من الاستيلاء على جزء كبير من ساحل المغرب ، واحتلوا آصيلا سنة ٨٧٦ ، وصافي وآزمور وطنجة سنة ٨٦٩ هـ . وهكذا اختلت دولة بني مرين ، واقتصرت أملاكها على فاس ، بينما خرجت مراكش وتافيلات ودرعة والسوس والريف عن طاعتهم ، ولم تلبث دولة بني مرين أن سقطت على أيدى الأشراف السعديين ، بسقوط مدينة فاس سنة ٩٥٦ هـ .

ب - بنو عبد الواد فى المغرب الاوسط :

كان بنو عبد الواد فى الأصل من أمراء القبائل الرحل التى تجوب فى صحراء المغرب الأوسط ، ثم أتاحت لها الظروف الاستقرار وتكوين دولة استمرت ما يقرب من ثلثمائة سنة تقريبا . فلقد رحلت هذه القبائل إلى سواحل المغرب الأوسط ، وهى منطقة لم تتأثر كثيرا بغزوات بنى هلال ، وفرض بنو عبد الواد أنفسهم فرضا على أهالى هذه البلاد ، وما لبثوا أن أصبحوا سادة هذه البلاد وحماتها ، واتخذوا تلمسان حاضرة لهم .

وقد لعب يغمراسن بن زيان دوراهاما فى تأسيس هذه الدولة ، إذ تم له ذلك بموافقة الموحدين أنفسهم ، فلقد كان بنو عبد الواد وأقاربهم من

القبائل الأخرى يتركون الصحراء ، ويستقرون فى سهول وهران ، ويضعون رجالهم فى خدمة عامل الموحدين بتلمسان. وبمرور الزمن ساهم بنوزيان مساهمة فعالة فى الدفاع عن منطقةوهران ، وتلقوا نظير ذلك بعض الامتيازات، إذ عين خليفة الموحدين منهم يغمراسن بن زيان عاملا على تلمسان وبلاد زناته سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م) واستقل هذا الحاكم بالبلاد عقب سقوط دولة الموحدين . والواقع أن استقلال بنى عبدالواد ، بالمغرب الأوسط لم يكن كاملا من جميع الوجوه ، فلقد كان الخطر يحدق ببلادهم شرقا وغربا ، وكان لموقع المغرب الأوسط أثره فى التنبؤ بمصيرهم ، فلقد كان العرب يسيطرون على وديان الساحل الشمالى للجزائر ، ويفرضون الإتاوات على سكانه ، ولم تكن حكومة الجزائر بالقوة التى تمكنها من إخضاعهم ، وبينما كانت هذه الصعوبات الداخلية تكاد تشل نشاطها ، كان خطر جيرانها من الشرق والغرب يهدد استقلالها، فمن الشرق كان بنو حفص بتونس يزعمون أنهم ورثة الموحدين ، وأن لهم الحق فى بسط نفوذهم على المغرب الأوسط ، وبالفعل اضطر زعيم بنى عبد الواد إلى الاعتراف بسيادتهم ، وأصبحت البلاد الجزائرية تحت وصاية بنى حفص. ومن الغرب أخذ بنو مرين يترقبون الفرصة المواتية للتدخل فى المغرب الأوسط ، وضمه إلى حوزتهم ، وقدمت جيوش بنى مرين إليه من فاس فى عهد أبى سعيد عثمان ، وحاولت انتزاع تلمسان من صاحبها موسى بن عثمان بن يغمراسن ، ولكنه لم يفلح أمام أسوار تلمسان الحصينة . وفى سنة ٧٣٧ هـ (١٣٣٦ م) سار أبو الحسن على بن عثمان إلى تلمسان وشدد عليها الحصار، وأقام معسكرا ثابتا أمام تلمسان يكون قاعدة هامة لعملياته الحربية ،

واتسع نطاق هـذا المعسكر فيما بعد فأصبح مدينة كبيرة سميت بالمنصورة واستمرت جيوش بنى مرين تحاصر تلمسان حتى سقطت فى سنه ٨٣٨ ﻫ (١٣٣٧ م) فى أيدى بنى مرين ، وتمـكن أبو الحسن المرينى من قتـل الأمير ابن أبى تاشفين.

وظلت تلمسان مدة ١١ عاما مركزا لحكومة مرينية ، ثم خرجت سنة ٧٥٠ ﻫ من سلطان بنى مرين ، واستعادها بنو عبد الواد . ولم يلبث أن قام أبو عنان بن أبى الحسن المرينى بالاستيلاء عليها فى سنة ٧٥٣ ﻫ . ولم يدم ملك بنى مرين بتلمسان ، إذ شق أهلهـا عصا الطاعة على سلطان بنى مرين ، فدخلها السلطان أبو سالم ابراهيم بن أبى الحسن بالأمان سنة ٧٦١ ﻫ (١٣٥٩م)، وأقر أميرها أبا زيان من أحفاد بنى عبد الواد وعاد إلى فاس . ثم تولى أبو حمو على بن أبى زيان امارة تلمسان، وأخذ يحكم المغرب الأوسط أمراء من تلمسان خاضعين لحكومة فاس ، وازدهرت مدينة تلمسان فى عهـدهم رغم هدّة العواصف والأنواء ، وكانت تحظى بموقع ممتاز ، وكان لمياهها الجارية فضل كبير فى إحاطتها بالجنان والبساتين ، فاستعادت بذلك مجدها القديم ، وكانت مركزا تجاريا هاما يقصده تجار المسلمين والمسيحيين على السواء ، كما كانت مركزا للقوافل التى تمر بهـا إلى تافيلات والسودان . وابتنى فيها بنو عبد الواد وبنو مرين القصور والمدارس . ثم بدأ عهد من الاضطراب والفوضى منذ أواخر القرن التاسع الهجرى ، فقـد تغلب السلطان أبو فارس عبد العزيز بن أحمد الحفصى على السلطان الواثق بالله ملك تلمسان ، واستمر غزو بنى حفص لتلمسان فى عهد السلطان أبى عمرو عثمان بن محمد الحفصى . ففى سنة ٨٧٠ ﻫ (١٤٦٥ م) نجح عثمان بن محمد فى هـدم

أسوار تلمسان ، ومع ذلك فقد ظلت حكومة بني عبد الواد متماسكة ، إلى أن ظهر الإسبان على المسرح السياسي ، وكانت حركة الاسترداد الإسباني للأندلس وقتئذ على أشدها ، فدفعت غارات القراصنة المسلمين على سواحل إسبانيا الشرقية الإسبان إلى الاستيلاء على بعض المدن الساحلية بالمغرب الأوسط ، فسقطت بجاية في أيديهم سنة ٩١٠ هـ (١٥٠٤ م) ، ثم استولوا على وهران سنة ٩١٤هـ ، ثم سعوا بعد ذلك إلى الاستيلاء على مدينة الجزائر . وعاشت هذه المدينة تحت تهديد المدافع الإسبانية التي كانت تصيبها من قلعة بنيون المشيدة في جزيرة مجاورة للساحل الجزائري ، وفكر أهل الجزائر إلى الاستنجاد بعروج أحد القراصنة الأتراك المشهورين ، وأخيه خير الدين بربروسة. ولم يمض وقت طويل حتى خضعت الجزائر لبربروسة الذي كان السبب في دخول الأتراك العثمانيين بلاد المغرب .

ج ـ بنو حفص في المغرب الادنى :

ينسب بنو حفص إلى الشيخ أبي حفص يحيى بن عمرو الهنتاتي من هنتاته أعظم قبائل مصمودة، وكان للشيخ أبي حفص مكانة سامية في دولة الموحدين لسابقتهم في الجهاد، وكان لأولاد أبي حفص من بعده هذه المكانة ، فقد تداولوا الرئاسة ، وتقلبوا في مناصب الإمارة في المغرب والأندلس .

ويعتبر أبو زكريا يحيى الحفصي المؤسس الحقيقي لدولة الحفصيين بتونس، فقد استقل بإمارة إفريقية في سنة ٦٢٥ هـ بعد أن عزل أخاه أبا محمد عبد الله ابن أبي محمد بن أبي حفص وكان سبب استقلاله بافريقية استياءه مما قام به المأمون الموحدي من قتل الموحدين بمراكش، وخاصة هنتاتة وتينملل ومن

بينهم أخوا المأمون أبو محمد عبد الله المخلوع وابراهيم، ومن طعن لعصمة المهدى ، وتغيير لرسوم الدعوة الموحدية .

وقد حكمت دولة بنى حفص زهاء ثلاثة قرون ونصف على الرغم من الأحداث الخطيرة التى اجتازتها . وقد بايع أهل شرق الأندلس واشبيلية والمرية الأمير أبى زكريا ، عندما ركدت ريح الموحدين فيها ،وإليه وجه الأديب أبو عبدالله بن الأبار قصيدته السينية التى يستصرخه فيها للمسلمين ومنها الأبيات الآتية :

أدرك بخيلك خيــل الله أندلسا
إن السبيل إلى منجـاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست
فلم يزل منك عز النصر ملتمسا
وحاش مما تعانيـــه حشاشتها
فطالما ذاقت البلوى صباح مسا
ياللجزيرة أضحى أهلهـا جزرا
للنائبـات وأمسى جـدها تعسا
فى كل شارقة المـام بائقة
يعود مأتمها عنـد العـدى عرسا
وكل غاربة إجحـاف نائبـة
تثنى الأمان حذاراً والسرور أسا
تقاسم الروم لانالت مقـاسمهم
إلا عقـائلهـا المحجوبة الأنسا

وفى بلنسية منها وقرطبة
ما يذهب النفس أو ما ينزف النفسا
مدائن حلها الإشراك مبتسما
جذلان وارتحل الإيمان منبئسا
وصيرتها العوادى عائثات بها
يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا
ما للمساجد عادت للعدى بيعا
وللنداء يرى أثناءها جرسا
لهفا عليها إلى استرجاع فائتها
مدارسا للمثانى أصبحت درسا

فأجاب الأمير أبو زكريا داعيتهم ، وبعث إليهم أسطوله مشحونا بالأقوات والأسلحة . وقد تأثرت حضارة بني حفص فى إفريقية فى عهده بالحضارة الأندلسية ، وفتح أبو زكريا أبواب مدنه للمهاجرين من أهل الأندلس ، وقد بلغ تأثير الأندلس فى الدولة الحفصية ذروته فى عهد أبى عبد الله المستنصر خليفة أبي زكريا يحيى ، وكان من أعظم بناة هذه الأسرة ، وكان بلاطه يزخر بأهل الأندلس الذين هاجروا إلى جواره ، وفى عهده أقيم قصر الطابية فيما بين عامى (٦٤٧ – ٦٧٥ هـ) ، وكانت بساتين هذا القصر تتبع نظام بهو السباع بقصر الحمراء . وإلى المستنصر الحفصى تنسب جنة أبي فهر وتبعد كيلو مترا واحدا جنوبي تونس ، وإليه ينسب أيضا بناء مسجد باب الدرب بالمنستير ، وكل أبنيته تأثرت بالأسلوب الأندلسى . وفى عصر المستنصر توطدت العلاقات التجارية بين تونس وبرشلونة ومرسيليا

وجنوة وبيزا وصقلية والبندقية ، وأنشئت الفنادق الأجنبية بتونس . وفى أواخر عهده تعاقبت الفتن على البلاد بسبب طمع بعض الامراء للسيطرة على السلطنة ، وقد أضعفت هذه الفتن من مركز السلطان ، وتولى بعد وفاته فى سنة ٦٧٥ الأمير أبو عصيدة . وبوفاته خرج الحكم فى تونس من فرع أبي زكريا ، فقد حكم أخ ثالث المستنصر هو أبو حفص ، ثم إبن عم له هو أبو يحيى بن اللحياني ، وأخيرا استقر السلطان فى أعقاب ابن من أبناء أبى زكريا هو أبو اسحق ابراهيم . وازداد ضعف بنى حفص بانقسامهم وخروج بجاية عن طاعتهم . واستغل بنو مرين فرصة ضعف الحفصيين ، واستولوا على تونس فى عصر السلطان أبى عنان المرينى ، ومع ذلك فقد حاول أبو اسحق ابراهيم إعادة وحدة البلاد بعد أن خرج جنوبها عن سلطانه ، وظهرت دويلات مستقلة فى تلك النواحى مثل بنى يملول فى توزر ، وبنى الخلف فى نفطة ، وبنى مكى فى قابس ، وبنى ثابت فى طرابلس .

وفى عهد أبى العباس استعادت الدولة الحفصية بعض عظمتها ، وتصدى الأمير لجماعة من النصارى هاجموا المهدية فى سنة ١٣٩٠ م ، وهزمهم ، وقام ابنه أبو فارس بالاغارة بحرا على مالطة وجربة ، واستطاع أن يستولى على تلمسان . ولقد عرفت دوله بنى حفص فى عهده بازدهارها وقوتها ، وتمكن أبو فارس من ضم الإمارات التى كانت قد استقلت فى حياة أبيه أبى العباس ، ففى سنة ١٣٩٨ ضم مدينة طرابلس إلى دولته ، وفى سنة ١٤٠٠ م (٨٠٣ ﻫ) استولى على توزر وقفصة ، وفى سنة ١٤٠٢ استولى على بسكرة ، ونجح فى سنة ١٤١٠ فى الاستيلاء على مدينة الجزائر . وفى عهد أبي فارس قدمت

السفارات من سائر أنحاء العالم إلى تونس تهادنه وتخطب موادته، ومن هذه السفارات : سفارة سلطان غرناطة ، وسفارة سلطان فاس ، وسفارة سلطان مصر . وتوفى أبو فارس في سنة ١٤٣٤ م وخلفه ابنه الاصغر المستنصر، وكان شابا عليلا تغلبت عليه الامراض فمات بعد ١٤ شهرا من توليه الامارة وفى عهد أخيه أبى عمرو عثمان اشتعلت نيران الفتن فى البلاد بسبب طمع أعمامه فى السلطان ، ونجح أبو عمرو فى القضاء على هذه الثورات سنة ١٤٤٦ م بعد أن هزم عمه أبا الحسن .

وازدهرت البلاد التونسية فى عهده ازدهارا تشهد به المعاهدات التجارية التى عقدها من ملك فرنسا لويس الحادى عشر ، كما عقد معه سلاطين مصر والأندلس معاهدات مماثلة ، لكن هذا الازدهار لم يطل أمده بعد وفاة أبي عمرو عثمان ، فما لبثت وحدة الدولة الحفصية أن تمزقت بعد وفاته بسبب انتقاض القبائل عليها ، ومهاجمة الإسبان للسواحل التونسية انتقاما من القراصنة الأتراك الذين اتخذوا هذه السواحل أوكارا لهم .

مراجع الكتاب

أولا ـ المصادر العربية

ثانيا ـ المراجع العربية الحديثة والأوربية المعربة

ثالثا ـ المراجع الأوربية

أولا : المصادر العربية

١ ـ ابن الأبار (أبو عبد الله محمد) : كتاب الحلة السيراء ، جزءان، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣

٢ ـ ابن أبي دينار القيرواني : المؤنس فى تاريخ إفريقية وتونس، تونس، ١٢٨٦ هـ

٣ ـ ابن أبي زرع (على بن محمد الفاسى) : الأنيس المطـــرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينـــة فاس ، نشره تورنبرج Tornberg ، أبسال ١٨٤٣

٤ ـ ابن الأثير (على بن أحمد بن أبي الكرم) : كتاب الكامل فى التاريخ، بولاق ، ١٢٩٠ هـ والقاهرة ، ١٣٥٧ هـ

٥ ـ ... : أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، القاهرة، ١٢٨٠ ـ ١٢٨٦

٦ ـ ابن الأحمر (أبو الوليد إسماعيل) : روضة النسرين فى دولة بنى مرين تحقيق الأستاذ عبد الوهاب بن منصور ، الرباط ، ١٩٦٢

٧ ـ ابن الخطيب (لسان الدين محمد) : اللمحة البدرية فى الدولة النصرية ، القاهرة ١٣٤٧ هـ

٨ ـ ... : الإحاطة فى أخبـار غرناطـة ، الجزء الأول ، تحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٥٥

٩ ـ ... : كتاب أعمال الأعلام ، فيمن بويع قبل الاحتلام من من ملوك الاسلام ، نشره ليفى بروفنسال ، بيروت ١٩٥٦

١٠ ـ ... : كتاب أعمال الأعلام ، فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاســلام ، القسم الثالث ، تحقيق الدكتور أحمد مختار

العبادي ، والأستاذ محمد ابراهيم الكتاني ، الدار البيضاء ، ١٩٦٤

١١ ـ ابن الخطيب : مشاهدات لسان الدين بن الخطيب فى بلاد المغرب والأندلس ، مجموعة من رسائله ، نشرها وحققها الدكتور مختار العبادى ، الاسكندرية ، ١٩٥٨

١٢ ـ ابن الصغير المالكى : سيرة الأئمة الرستميين ، باريس ، ١٩٥٨

١٣ ـ ابن الفقيه الهمذانى (أبو بكر أحمد بن ابراهيم) . مختصر تاريخ البلدان ، ليدن ، ١٨٨٥

١٤ ـ ابن القلانسى (أبو يعلى حمزة) : ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ، ١٩٠٨

١٥ ابن القوطية القرطبي (أبو بكر محمد) : تاريخ افتتاح الأندلس، نشره دون خليان ربيرا ، مدريد، ١٩٢٦

١٦ ـ ابن بسام (أبو الحسن على الشنترينى) : كتاب الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، القسم الأول ، الجزء الرابع ، القاهرة ، ١٩٤٥

١٧ ـ ابن بلقين (الأمير عبد الله الزيرى) : مذكرات الأمير عبد الله الزيرى ، المسماة بكتاب التبيين ، نشره وحققه الأستاذ ليفى بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٥٥

١٨ ـ ابن تغرى بردى(أبو المحاسن يوسف) : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، نشر دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٦

١٩ ـ ابن حبيب (عبد الملك) : أخبار فى فتح الأندلس نشرها الدكتور محمود على مكى فى مقاله :

Egipto y los origines de la historiografía arabigo-Espanola,

صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد، المجلد الخامس ، ١٩٥٧

٢٠ ـ ابن حزم (أبو محمد على بن أحمد) : جمهرة أنساب العرب ، تحقيق الاستاذ ليفي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٤٨

٢١ ـ ابن حوقل النصيبي : صورة الأرض ، طبعة بيروت ، ١٩٦٢

٢٢ ـ ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) : التعريف با بن خلدون ، ورحلته غربا وشرقا ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجى ، القاهرة ، ١٩٥١

٢٣ ـ ... : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، سبعة أجزاء ، طبعة بولاق ، ١٢٨٤ ﻫ (١٨٧٠م) وطبعة بيروت ، منشورات دار الكتاب اللبنانى ، ١٩٥٨

٢٤ ـ ابن خلكان (أبو العباس أحمد بن ابراهيم) : وفيات الأعيان ، وأنباء أبناء الزمان ، نشره الأستاد محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٤٨

٢٥ ـ ابن رسته (أبو على أحمد بن عمر) : كتاب الأعلاق النفيسة ، نشره دى غويه ، ليدن ، ١٨٨١ ـ ١٨٨٢

٢٦ ـ ابن صاحب الصلاة ، مدونة عن أعمال خليفتى الموحدين أبى يعقوب يوسف ، وأبى يوسف يعقوب المنصور ، نشرها الأب أنطونية ملشور بعنوان : Sevilla y sus monumentos arabes الاسكوريال ، ١٩٣٠

٢٧ ـ ابن طباطبا (محمد بن على) : كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية ، طبعة بيروت ، ١٩٦٠

٢٨ ـ ابن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبد الله) : فتوح مصر والمغرب ،

تحقيق الأستاذ عبد المنعم عامر ، القاهرة ١٩٦١ ، وطبعة
Conquête de l'Afrique du Nord et بعنوان Albert Gateau
l'Espagne ، الجزائر ، ١٩٤٧

٢٩ ـ ابن عذارى (أبو العباس أحمد) : البيان المغرب فى أخبار المغرب ، تحقيق ليفى بروفنسال وكولان ، جزآن، ليدن ١٩٤٨ – ١٩٥١ وطبعة دار صادر ، جزآن ، بيروت ، ١٩٥٠

٣٠ ـ ... : البيان المغرب فى أخبار المغرب ، الجزء الثالث ، باريس ١٩٣٠

٣١ ـ ابن قتيبة الدينورى (أبو محمد عبد الله بن مسلم) : كتاب الإمامة والسياسة ج ٢ ، القاهرة ١٩٠٧ ، والنص الخاص بفتح الاندلس من كتاب الإمامة والسياسة الوارد فى كتاب « تاريخ افتتاح الاندلس » لابن القوطية ، نشره خليان ريبيرا ، مدريد ، ١٩٢٦

٣٢ ـ أبو العرب تميم : طبقات علماء إفريقية ، طبعة ابن شنب ، الجزائر ، ١٩١٥

٣٣ ـ أبو الفداء (اسماعيل بن علي) : المختصر فى أخبار البشر، بيروت ١٩٥٦،

٣٤ ـ الإدريسى (الشريف أبو عبد الله محمد) : صفة المغرب والاندلس مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق نشره دى غويه ودوزى ، ليدن ١٨٦٦، ونسخة بعنوان صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، ليدن ١٨٩٤

٣٥ ـ الاصطخرى (أبو اسحق ابراهيم بن محمد):المسالك والممالك ، تحقيق الاستاذ محمد جابر عبد العال الحينى ، القاهرة ١٩٦١

٣٦ ـ البكرى (أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز) : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، نشره دى سلان de Slane بعنوان :
Description de l'Afrique Septentrionale ، الجزائر، ١٩١١

٣٧ ـ ... : معجم ما استعجم ، مادة تاهرت

٣٨ ـ البلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر) : كتاب فتوح البلدان ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، ٣ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٥٦

٣٩ ـ البيذق (أبو بكر الصنهاجى) : كتاب أخبار المهدى بن تومرت ، تحقيق الاستاذ ليفى بروفنسال ، باريس ، ١٩٢٨

٤٠ ـ الجزناءى (أبو الحسن على) : كتاب زهرة الآس فى بناء مدينة فاس ، نشره الفريد بيل ، الجزائر ، ١٩٢٢

٤١ ـ الحميدى (أبو عبد الله محمد بن فتوح) : جذوة المقتبس فى ذكر رجال الأندلس، حققه محمد بن تاويت الطنجى، القاهرة، ١٣٧١هـ

٤٢ ـ الحميرى (ابن عبد المنعم) : صفة جزيرة الأندلس، من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار ، ليفى بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٣٧

٤٣ ـ الدباغ (عبد الرحمن الأنصارى): معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان، تونس ، ١٩٠١

٤٤ ـ السلاوى (أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى) : الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ، ١٩٥

٤٥ ـ السيوطى (جلال الدين) : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، جزءان ، مصر ، ١٣٢٧ هـ

٤٦ ـ الصغير (محمد) : كتاب نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى ، نشره Houdas ، باريس ، ١٨٨٨

٤٧ ـ الطبرى (محمد بن جرير) : تاريخ الأمم والملوك ، القاهرة ١٩٣٩

٤٨ ـ الطرابلسى (أبو عبد الله محمد بن خليل) : تاريخ طرابلس الغرب المسمى التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار ، نشره الأستاذ الطاهر أحمد الزاوى ، القاهرة ، ١٣٤٩ هـ

٤٩ ـ عبيد الله بن صالح : نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، نشره الأستاذ ليفى بروفنسال ، وعلق عليه الدكتور حسين مؤنس ، فى صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد ، ١٩٥٤

٥٠ ـ الغزالى (أبو حامد) : إحياء علوم الدين ، ج ١، طبعة مصر، ١٣٠٢هـ

٥١ ـ القلقشندى (أبو العباس أحمد) : صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ، ج ٥ ، طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩١٣ ـ ١٩١٩

٥٢ ـ المالكى (أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله) : كتاب رياض النفوس ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥١

٥٣ ـ مجهول : أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ، نشره دون لافونتى القنطرة Lafuente Alcantara ، مدريد ، ١٨٦٧

٥٤ ـ مجهول : كتاب الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية ، طبعة تونس ، ١٣٢٩ هـ

٥٥ ـ مجهول : كتاب الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية ، تحقيق محمد ابن أبى شنب ، الجزائر ، ١٩٢٠

٥٦ ـ مجهول : كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار لكاتب مراكشى من كتاب القرن السادس الهجرى ، نشره وعلق عليه الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية ، ١٩٥٨

٥٧ ـ مجهول : فتح الأندلس، نشره دون خواكين جنثالث،الجزائر ١٨٨٩

٥٨ ـ مجهول : مدونة تاريخية عن عصر عبد الرحمن الناصر ،تحقيق الأستاذان ليفى بروفنسال وغرسيةجومث ، مدريد ، ١٩٥٠

٥٩ ـ المقدسى (شمس الدين أبي عبد الله) : أحسن التقاسيم لمعرفة الأقاليم، ليدن ، ١٩٠٦

٦٠ ـ المراكشى (محيي الدين عبد الواحـــد بن على) : كتاب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق الأستاذان محمد سعيد العريان ، ومحمد العربى العلمى ، القاهرة ،١٩٤٩

٦١ ـ المسعودى (أبو الحسن على) : كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق الأستاذ محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٥٨

٦٢ ـ المقرى (أحمد بن محمد) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٤٩

٦٣ ـ المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) : الخطط المقريزية ، المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطـــط والآثار ، بيروت ، منشورات مكتبة العرفان .

٦٤ ـ ... : اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الخلفا ، نشره الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٤٨

٦٥ - المقريزى : إغاثة الأمة بكشف الغمة ، نشره الدكتور محمد مصطفى زيادة ، والدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٤٠

٦٦ - النويرى (أحمد بن عبد الوهاب) : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٢٣

٦٧ - الواقدى : فتوح الشام ، ج١ ، طبعة القاهرة ، ١٣٦٨ هـ

٦٨ - ... : فتوح إفريقية ، ج ١ ، طبعة تونس ، ١٣١٥ هـ

٦٩ - الونشريشى : أسنى المتاجر فى بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، صحيفة المعهد المصرى بمدريد ، ١٩٥٧

٧٠ - ياقوت (شهاب الدين أبي عبد الله الحموى) : معجم البلدان ، ٥ مجلدات بيروت ، ١٩٥٥ - ١٩٥٨

٧١ - اليعقوبى (أحمد أبى يعقوب بن جعفر) : كتاب البلدان ، ليدن ١٨٩١

ثانيا : المراجع العربية الحديثة والأوربية المعربة

٧٢ - أدهم (الأستاذ على) : المنصور بن أبي عامر ، مقال بدائرة معارف الشعب ، عدد ٦٧ ، القاهرة ١٩٥٩

٧٣ - أرسلان (الأمير شكيب) : تاريخ غزوات العرب ، مصر ، ١٣٩٢ هـ

٧٤ - أشباخ (يوسف) : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة الاستاذ محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، ١٩٥٨

٧٥ ـ الباروني (الشيخ أبو الربيع سليمان بن عبــــد الله) : مختصر تاريخ الإباضية ، تونس ، ١٩٠٨

٧٦ ـ ... : كتاب الأزهار الرياضية فى أئمة وملوك الإباضية ، بدون تاريخ

٧٧ ـ بالنثيا (آنخل جنثالث) : تاريخ الفكر الأندلسى ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥٥

٧٨ ـ التازى (الأستاذ عبد الهادى) : نظرية جديدة فى بناء جامعة القرويين ، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية ، مدريد ، ١٩٥٨

٧٩ ـ ... : الحروف المنقوشة بالقرويين فى خدمة الآثار ، المؤتمر الثالث للاثار فى البلاد العربية ، القاهرة ، ١٩٦٦

٨٠ ـ حسن (دكتور حسن ابراهيم) وشرف (الاستاذ طـــه) : عبيد الله المهدى ، إمام الشيعة الإسماعيلية ، القاهرة ، ١٩٤٧

٨١ ـ حسن (دكتور حسن ابراهيم): تاريخ الدولة الفاطمية ، القاهرة، ١٩٥٨

٨٢ ـ دبوز (الاستاذ محمد على): تاريخ المغرب الكبير ، ج ٢، ٣، القاهرة، ١٩٦٣

٨٣ ـ الرشيد (الأستاذ اسماعيل بن محمد) : جلاء الظلام الدامس فى موجز تاريخ المغرب إلى عصر محمد الخامس ، مطبعة فضالة ، ١٩٥٧

٨٤ ـ الزاوى (الأستاذ الطاهر أحمد) : تاريخ الفتح العـــربى فى ليبيا ، القاهرة ، ١٩٦٣

٨٥ ـ زامباور : معجم الأنساب والاسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٥١

٨٦ ـ زيادة (دكتور نقولا): الجغرافية والرحلات عند العرب، بيروت، ١٩٦٢

٨٧ ـ سالم (دكتور السيد عبد العزيز) : طارق بن زياد ، مقال بدائرة معارف الشعب عدد ٦٧ ، القاهرة ١٩٥٩ ـ مرسية ، مقال بدائرة معارف الشعب عدد ٦١ ـ المهدى بن تومرت ، مقال بدائرة معارف الشعب رقم ١٩٦٠ ـ الفنون والصناعات بالأندلس ، مقال بدائرة معارف الشعب ، عدد ٦٤

٨٨ ـ ... : المسجد الجامع بالقيروان ، وجامع الزيتونة بتونس : مقالان بكتاب بيوت الله مساجد ومعاهد ، القاهرة ١٩٦٠ ، كتاب الشعب عدد ٧٨

٨٩ ـ ... : المساجد والقصور بالأندلس ، سلسلة إقرأ ، عدد ١٩٠ ، القاهرة ، ١٩٥٨

٩٠ ـ ... : أثر الفن الخلافى بقرطبة فى العمارة المسيحية باسبانيا وفرنسا ، المجلة ، العدد ١٤ ، ١٩٥٨

٩١ ـ ... : مسجد المدجنين بطليطلة ، مقال بمجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، ١٩٥٨

٩٢ ـ ... : روائع الآثار الإسلامية بجمهورية الجزائر العربية ، المجلة ، العدد ٢٩ ، ١٩٥٩

٩٣ ـ ... : المغرب الإسلامى ، كتاب الشعب عدد ١٣٨ ، ١٣٩ ، القاهرة ، ١٩٦١

٩٤ ـ ... : المآذن المصرية ، نظرة عامة عن أصلها وتطورها منذ الفتح العربي حتى الفتح العثمانى ، القاهرة ، ١٩٥٩

٩٥ ـ ... : تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الاسلامى ، الاسكندرية ١٩٦١

٩٦ ـ سالم (دكتور السيد عبد العزيز): تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، بيروت ، ١٩٦٢

٩٧ ـ ... : طرابلس الشام : تاريخها وآثارها فى العصر الإسلامى ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، ١٩٦٣

٩٨ ـ ... : القيم الجمالية فى فن العمارة الإسلامية ، من محاضرات الموسم الثقافى بجامعة بيروت العربية ، ١٩٦٢ — ١٩٦٣

٩٩ ـ ... : تخطيط مدينة الاسكندرية وعمرانها فى العصر الإسلامى ، مكتبة المدن الإسلامية ، العدد الاول ، بيروت ، ١٩٦٤

١٠٠ ـ ... : إحدى روائع الفن العالمى: لاخيرالدا باشبيلية ، المجلة ، العدد التاسع ، ١٩٥٧

١٠١ ـ ... : وسائل الدفاع الإسلامى فى العصور الوسطى ، مجلة الجيش ، عدد ٨٢ ، ٨٣

١٠٢ ـ ... : الآثار الإسلامية فى دير سانت كاترين بطور سينا ، مجلة العلوم ، العدد الأول ، يناير ١٩٦٥ ، ص ١ — ٩

١٠٣ ـ سرور (الدكتور جمال الدين) : مصر فى عصر الدولة الفاطمية ، القاهرة ، ١٩٦٠

١٠٤ ـ ... : النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق فى القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة ، القاهرة ، ١٩٥٩

١٠٥ ـ الشرقاوى (دكتور محمد عبد المنعم) ، الصياد (دكتور محمد محمود): ملامح المغرب العربي ، الاسكندرية ، ١٩٥٩

١٠٦ ـ الشيال (دكتور جمال الدين) : مصر فى العصر الفاطمى ، بحث فى موسوعة تاريخ الحضارة المصرية ، المجلد الثانى ، الجزء السادس ، القاهرة ١٩٦٣

١٠٧ ـ الطنجى (الأستاذ محمد بن تاويت) : دولة الرستميين ، صحيفة المعهد المصرى بمدريد ، المجلد الخامس ، ١٩٥٧

١٠٨ ـ العبادى (دكتور أحمد مختار) : سياسة الفاطميين نحـــو المغرب والأندلس ، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد ، مدريد ، ١٩٥٧

١٠٩ ـ ... : الصقالبة فى إسبانيـــا وعـلاقتهم بحركة الشعوبية ، مدريد ، ١٩٥٣

١١٠ ـ ... : نظام الخلافة فى المغرب الإسلامى فى العصور الوسطى ، فصلة من كتاب فلاسفة الإسلام فى المغرب العربى .

١١١ ـ ... : مؤلفات لسان الدين بن الخطيب فى المغرب ، مقال فى مجلة Hesperis, 3e, 4e trimestres, 1959

١١٢ ـ ... : دراسة حول كتاب الحلـــل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية ، وأهميته فى تاريخ المرابطين والموحدين ، مجلة تطوان ، العدد الخامس ، ١٩٦٠

١١٣ ـ العبادى (الأستاذ عبد الحميد) المجمل فى تاريخ الأندلس ، سلسلة المكتبة التاريخية ، العدد الأول ، القاهرة ، ١٩٥٨

١١٤ ـ عبد الحميد (دكتور سعد زغلول) : العلاقة بين صلاح الدين وأبى يوسف يعقوب المنصور ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية المجلدان السادس والسابع ، ١٩٥٨

١١٥ ـ ... : فترة حاسمة من تاريخ المغرب ، مجـلة كلية الآداب والتربية بالجامعة الليبية ، المجلد الأول ، بنغازى ، ١٩٥٨

١١٦ ـ عبد الحميد (الدكتور سعد زغلول) : فتح العرب للمغرب بين الحقيقة التاريخية والاسـطورة الشعبية ، مقال فى مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، العدد ١٦ ، ١٩٦٢ – ١٩٦٣

١١٧ ـ عبد الوهاب (الأستاذ حسن حسنى) : خلاصـــة تاريخ تونس ، القاهرة ، ١٩٦٠

١١٨ ـ عبد الوهاب (الاستاذ حسن) : الإسكندرية فى العصر الإسلامى ، مجلة الكتاب ، ١٩٤٦

١١٩ ـ فشل (ولتر ج.) : نشاط ابن خلدون فى مصر المملوكية ، مقال فى كتاب دراسات إسلامية ، ترجمة الأستاذ أنيس فريحة وآخرين ، بيروت ، ١٩٦٠

١٢٠ ـ فكرى (دكتور أحمد) : المسجد الجامع بالقيروان ، القاهرة ، ١٩٣٦

١٢١ ـ ... : مساجد القاهرة ومدارسها (المدخل) الاسكندرية ، ١٩٦١

١٢٢ ـ الكعاك (الأستاذ عثمان) : مراكز الثقافـة فى المغرب ، مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، ١٩٥٨

١٢٣ ـ لويس (أرشيبالد) : القوى البحرية والتجـارية فى حوض البحر المتوسط ، ترجمة الأستاذ أحمد محمد عيسى ، القاهرة ، ١٩٦٠

١٢٤ ليفى بروفنسال : مجموعة رسائل موحدية ، من كتـاب الدولة المؤمنية ، الرباط ، ١٩٤١

١٢٥ ـ ... : نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، مقال بصحيفـة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد ، المجلد الثاني ، ١٩٥٤

١٢٦ ـ ليفي بروفنسال : الإسلام في المغرب والاندلس، ترجمة الدكتور السيد عبد العزيز سالم والاستاذ محمد صلاح الدين حلمي ، القاهرة ، ١٩٥٨

١٢٧ ـ ماجد (دكتور عبد المنعم) : التاريخ السياسي للدولة العربية ، ج٢، القاهرة ، ١٩٦٠

١٢٨ ـ محمود (دكتور حسن أحمد) قيام دولة المرابطين ، صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٥٧

١٢٩ ـ المرزوقي (الأستاذ محمد) : قابس ، القاهرة ١٩٦٢

١٣٠ ـ المشرفي (الأستاذ محمد محي الدين) : تاريخ إفريقية الشماليه ، الرباط ، ١٩٥٠

١٣١ ـ مكي (دكتور محمود علي) : التشيع في الأندلس ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد الثالث ، ١٩٥٤

١٣٢ ـ ... : وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ، المجلد السابع ، العدد ١ ، ٢ ، ١٩٥٩

١٣٣ ـ مؤنس (دكتور حسين) فتح العرب للمغرب ، القاهرة ١٩٤٧

١٣٤ ـ ... : سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم في الأندلس ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد الثاني ، ١٩٥٤

١٣٥ ـ ... : فجر الأندلس ، القاهرة ، ١٩٥٩

١٣٦ ـ النجار (الأستاذ عبد الوهاب) : الخلفاء الراشدون ، القاهرة ، ١٩٦٠

ثالثا - المراجع الأوربية الحديثة

1. Bermejo (Joaquin Vallvé): Suqut al-Bargawati, rey de Ceuta, al-Andalus, vol. XXVIII,' 1963.

2. Bleye (Aguado): Manuel de la historia de Espana, t. I, Madrid, 1947.

3. Boigues (Francisco Pons): Ensayo bio-bibliografico sobre los historiadores y géografos arabigo espanoles, Madrid 1898.

4. Codera (Franciscó): Limites probables de la conquista arabe en la cordillera pirenaica, en Estudios criticos de la historia arabe espanola, VIII, Madrid, 1919.

5. Codera (Francisco): Decadencia y desaparicion de los Almoravides en Espana, Zaragoza, 1899.

6. Creswell (K.A.C.): A short account of early muslim architecture, Pelican Books, 1958.

7. Diehl (charles): Histoire du moyen âge, t. III, Paris, 1932.

8. Dozy (R.): Histoire des Musulmans d'Espagne, ed. Levi-Provençal, Leyde, 1932.

9. Fikry (Ahmad): La mosquée Az-Zaytoûna à Tunis: recherches archéologiques, dans Egyptian Society of historical studies, II, le Caire, 1952.

10. Julien (André): Histoire de l'Afrique du Nord (Jusqu' à la conquête arabe), Paris, 1951.

11. Julien (André): Histoire de l'Afrique du Nord (depuis la conquête arabe), Paris, 1952.

12. Lambert (Elie) : l'Architecture musulmane du Xe siécle à cordoue et a Tolède, dans Gazette des Beaux arts, t. XII, 1925.

13. ... : Les coupoles des grandes mosquées, de Tunisie et d'Espagne, au IX e et Xe Siècles, Hesperis, t. XXII, fasc. 2, 1936.

14. ... : Les Origines de la croisée d'ogîves, Offices des Instituts d'Archéologie et d'histoire d'art, No 8-9, 1936 - 193'.

15. ... : Les mosquées de type andalou en Espagne et en Afr que du Nord, al-Anda'us, vol. XIV, 1949.

16. ... : La grande mosquée de Cordoue et l'art byzantin, Actes du VI e Congrés International, Paris 1951.

17. ... : L'art de l'Itslam Occidental, Annales de l'Université de Paris, 1953.

18. Lévi-Provençal (E.) : La politica africana de Abd al - Rahman III, al-Andalus, vol XI, fasc. 2, 1948.

19. ... : Islam d'Occident, Paris, 1948.

20. ... : Extraits du historiens arabes du Maroc, Paris, 1948.

21. ... & Garcia Gomez et Oliver Asin : Novedades sobre la Batalla llamada al-Zallaqa, al-Andalus, 1950, vol. XV, fasc. I.

22. ... : Histoire de l'Espagne Musulmane, 3 vols., Leiden-Paris, 1950.

23. Lévi-Provençal & Garcia Gomez : Una Cronica anonima de Abd al Rahman III al-Nasir, Madrid, 1950.

24. Makki (Mahmud) : Egipto y los origines de la historiagrafia arabe espanola, revista del Instituto de Estudios Islamicos en Madrid, vol. V, 1957.

25. Marçais (Georges) : Article Ribat, dans l'Encyclopédie de l'Islam.

26. : Coupoles et Plafonds de la grande mosquée de Kairouan, Tunis, 1926.

27. ... : Les faiences à reflets metalliques, de la grande mosquée de Kairouan, Paris, 1928.

28. ... : La Berberie musulmane et l'Orient au Moyen âge, Paris, 1946.

29. ... : L'architecture musulmane d'Occident, Paris, 1954.

30. Maslow (Boris) : La Qoubba Barudiyyin a Marrakech, al-Andalus, vol. XII, 1948.

31. Millet (René) : Les Almohades Paris, 1923.

32. Miranda (Ambrosio Huici) : Invasion de los Almoravides y la batalla de Zallaka, Hesperis, 1-2 trimstres, t. XI, 1953.

33. : Al Hulal al-Mawsiyya, cronica arabe de las dinastias almoravide, almohade y benimerin, Tetuan, 1952.

34. ... : La Campana de Alarcos, revista del Instituto Egipcio de Madrid, vol. II, 1954.

35. Moreno (Manuel Gomez) : El Panteon Real de las Huelgas de Burgos, Madrid, 1946.

36. Moreno (M.G.) : Ars Hispaniae, t. III, arte espanol, hasta los Almohades, Madrid, 1951.

37. Pellegrin : Histoire de la Tunisie, Tunis, 1942.

38. Pidal (Ramon Menendez) : Espana del Cid, 2vols., Madrid 1947.

39. ... : El Cid Campeador, Coleccion Austral, Buenos Aires, 1950.

40. Remiro (Mariano Gaspar): Murcia musulmana, Zaragoza,1905

41. Saavedra (Edouardo) : Estudio sobre la invasion de los arabes en Espana, Madrid,1892.

42. Salem (Elsayed Abdel Aziz) : L' architecture à Seville sous les Almohades, Thèse du Doctorat ès-Lettres, presentée à l'Université de Paris, 1956 (sous presse).

43. Terrasse (Henri) : Les Arts décoratifs au Maroc, Paris, 1925

44. ... : L'art hispano-mauresque, dès origines au XIIIe Siècle, Paris, 1932.

45. ... & Basset : Sanctuaires et forteresses almohades, Paris, 1932.

46. ... : La grande mosquée des Andalous à Fès, Paris,1942

47. ... : La grande mosquée de Taza, Paris, 1943.

48. ... : Histoire du Maroc dès origines à l'établissement du Protectorat français, Casablanca; 1949.

49. ... & Meunié : Recherches archéologiques à Marrakech, Paris, 1952.

50. ... : La forteresse almoravide d'Amergo, al-Andalus, vol. XVIII, fasc.2, 1953.

51. Terrasse : L'art de l'empire almoravide, ses sources et son évolution, dans Studia Islamsica, t. III, 1955.

52. ... : art almoravide et art, almohade, al-Andalus, vol. XXVI, 1961.

53. ... : La reviviscence de l'Acanthe dans l'art hispano-mauresque, sous les almoravides, al-Andalus, vol. XXVI, 1961.

54. Torres Bàlbas (Leopoldo) : Arquitectos Andaluces de las épocas almoràvide y almohade, al-Andalus, 1946.

55. ... : Atarazanas hispanomusulmanas, al-Andalus, vol. XI, 1946.

56. ... : La primitiva mezquita mayor de Sevilla, al-Andalus, vol. XI, 1946.

57. ... : Ars Hispaniae, t. IV : arte almohade, Nasiri et Mudejar, Madrid, 1949.

58. ... : La mezquita de Cordoba y las ruinas de Madinat al-Zahra, Madrid, 1952.

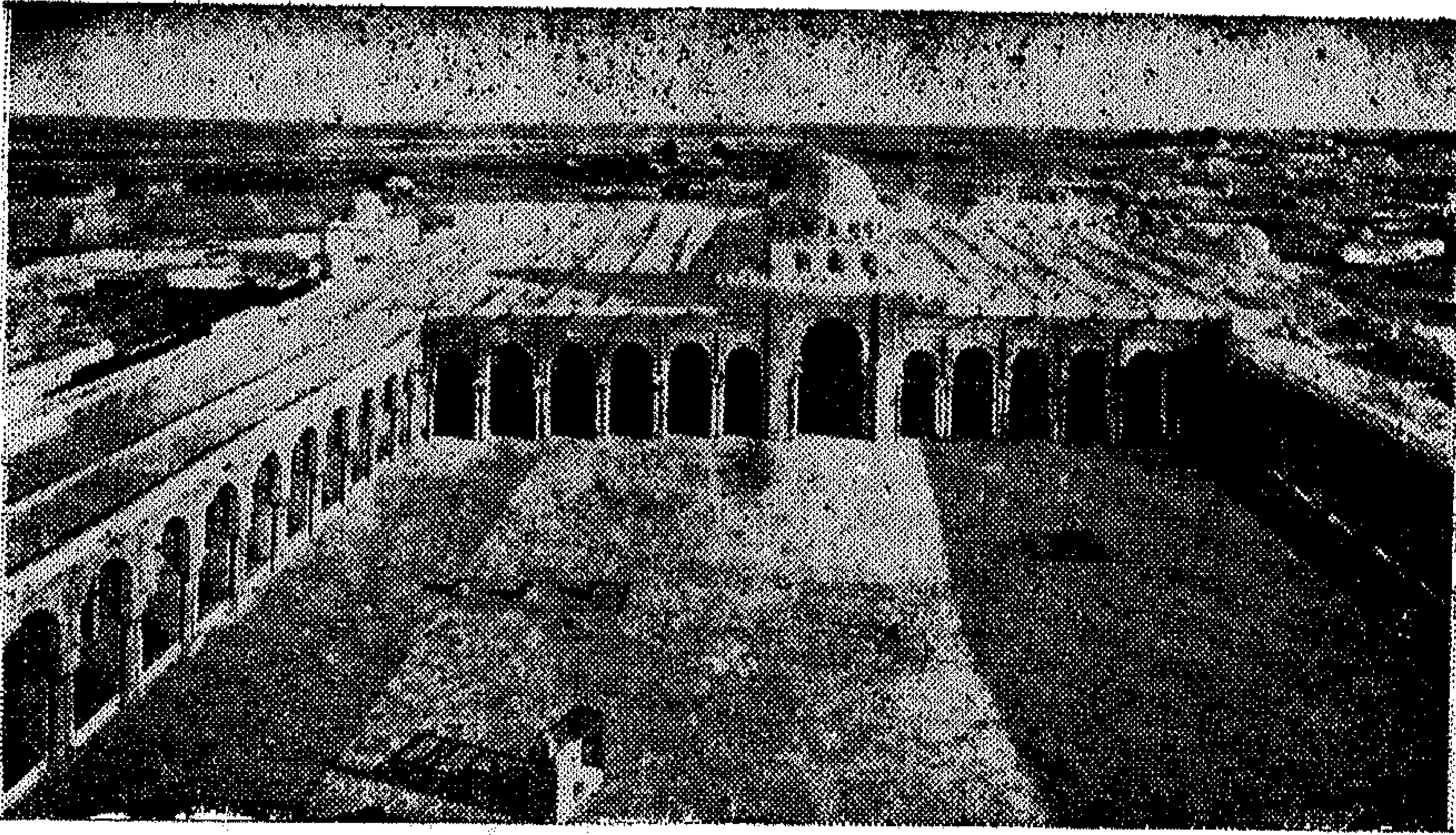
59. ... : El arte de al-Andalus bajo los almoràvides, al-Andalus, vol. XVII, 1952.

60. ... : Almeria Islàmica, al-Andalus, vol. XXII, 1957.

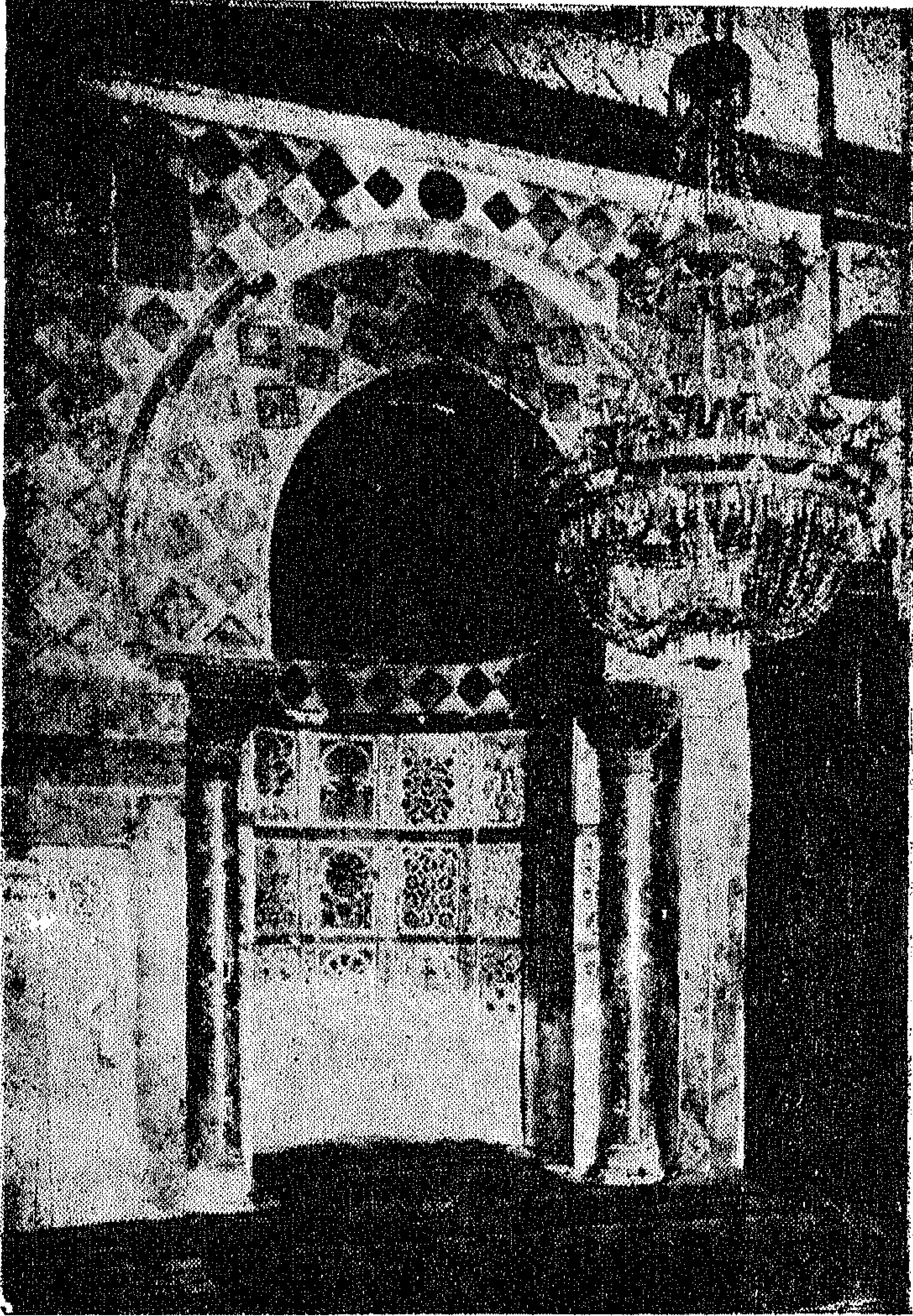
61. Le Tourneau (Roger) : Fès avant le Protectorat, Casablanca 1949.

62. Turk (Afif) : el Reino de Zaragoza en el siglo XI, de Jesu cristo, tesis para el grado de Doctor, presentada en Madrid, 1956.

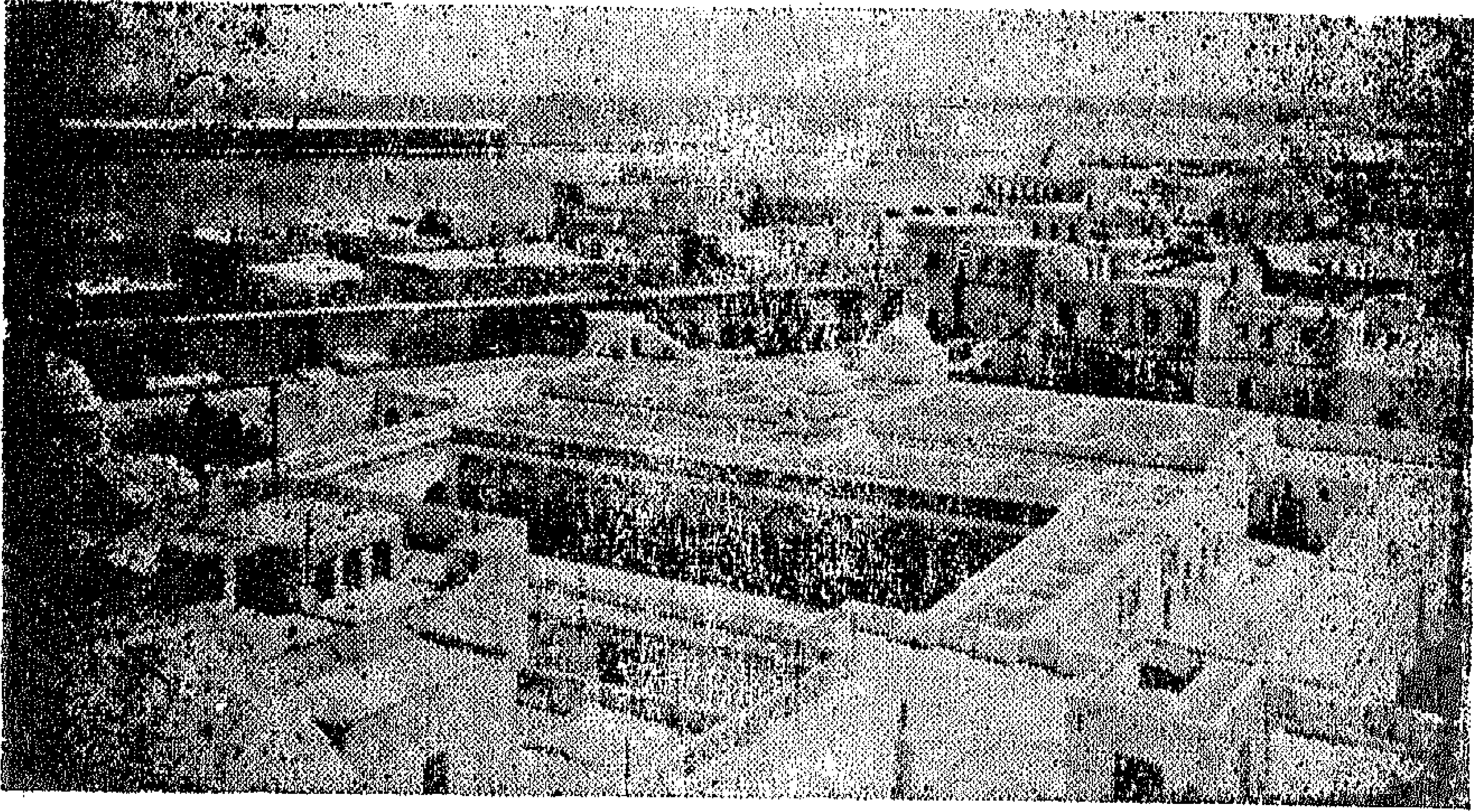
الصـــور



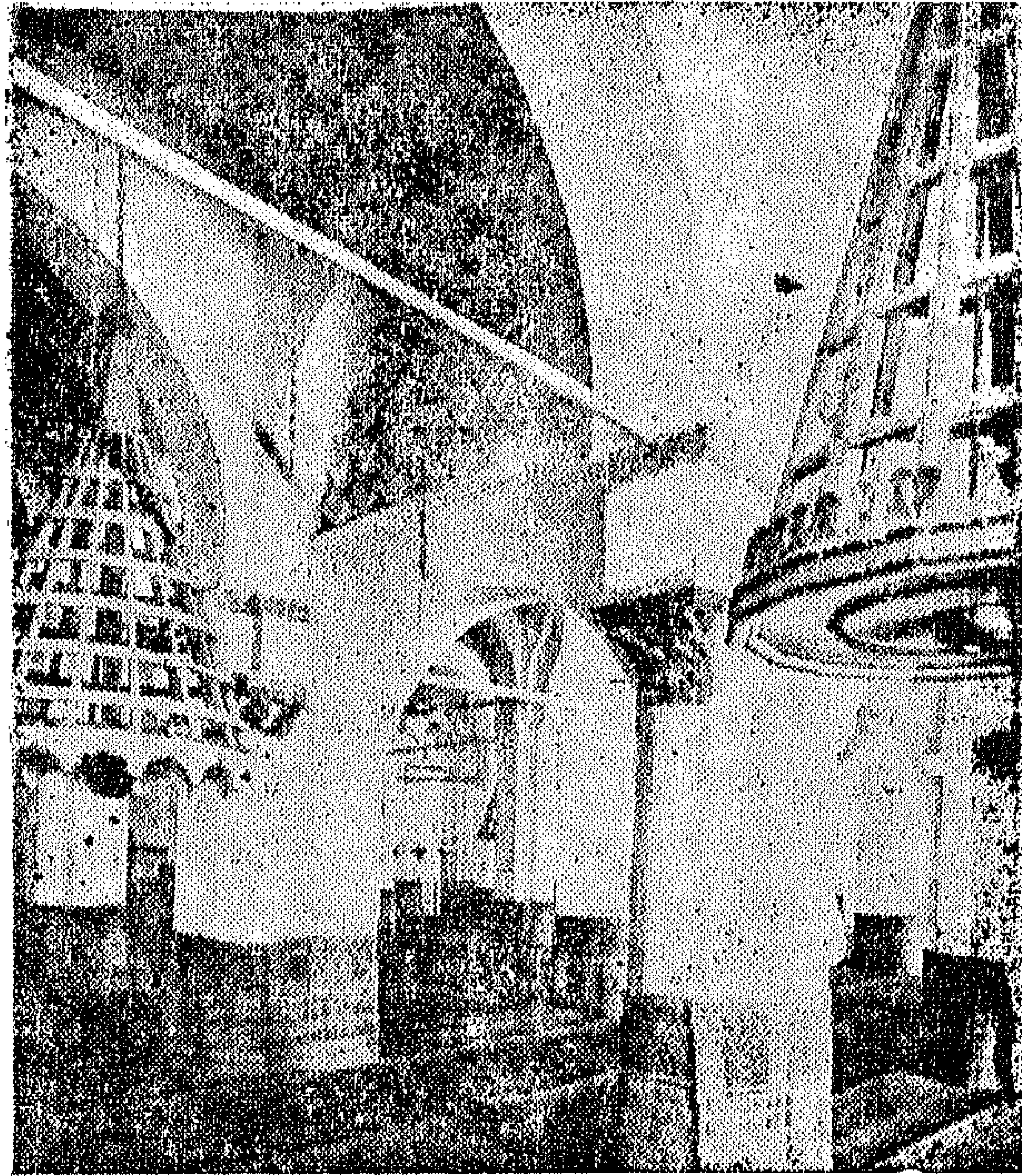
(شكل ١) المسجد الجامع بالقيروان : منظر عام من أعلى المئذنة
(عن كروزل)



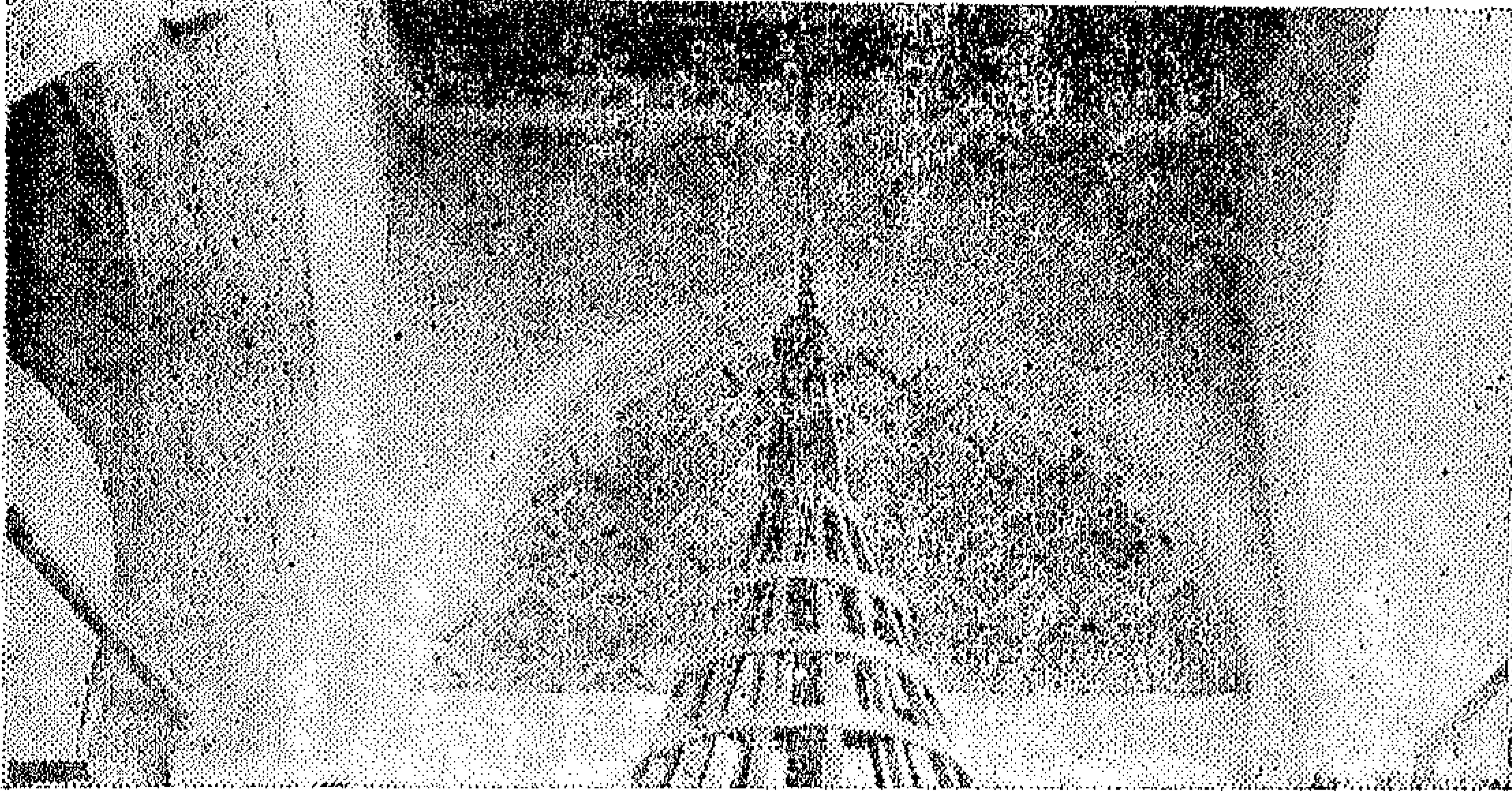
(شكل ٢) المسجد الجامع بالقيروان : جوفة المحراب
(عن كرزول)



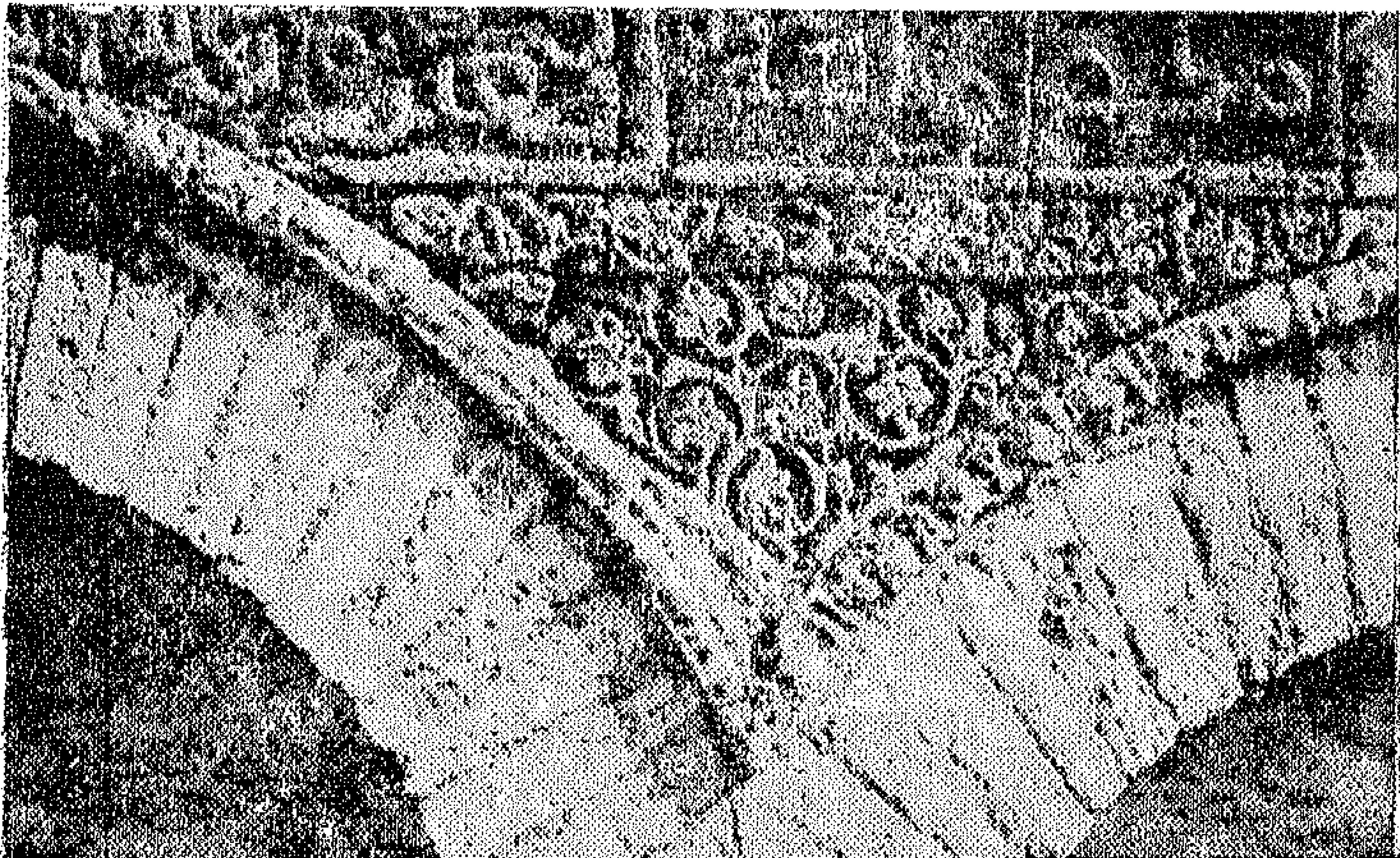
(شكل ٣) المسجد الجامع بسوسة : منظر عام
(عن كرزول)



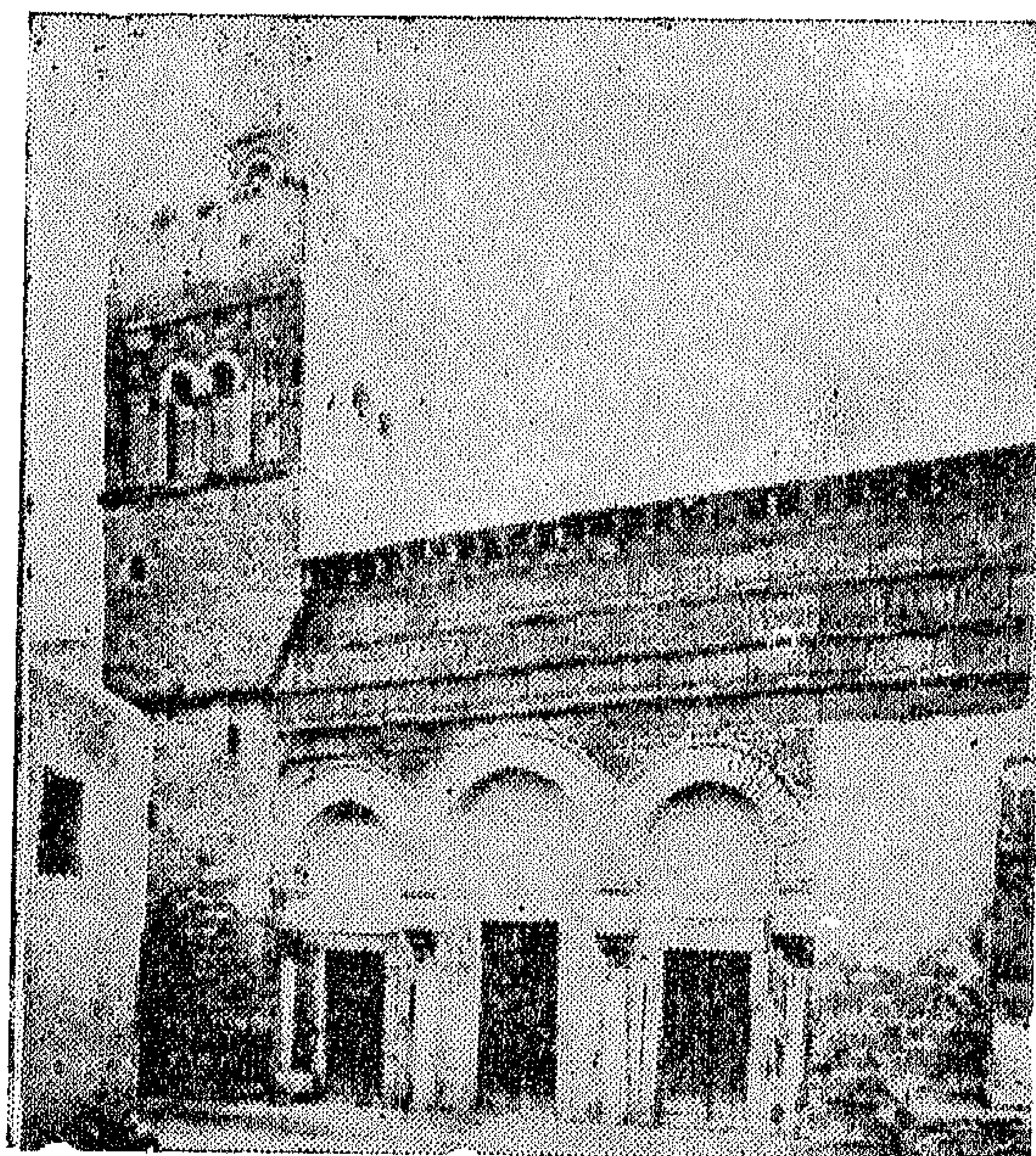
(شكل ٤) المسجد الجامع بسوسة : منظر لعقود بيت الصلاة أدني القبة
(عن كرزول)



(شكل ٥) المسجد الجامع بسوسة : أحد العقود التى
تقوم عليها القبة (عن كرزول)



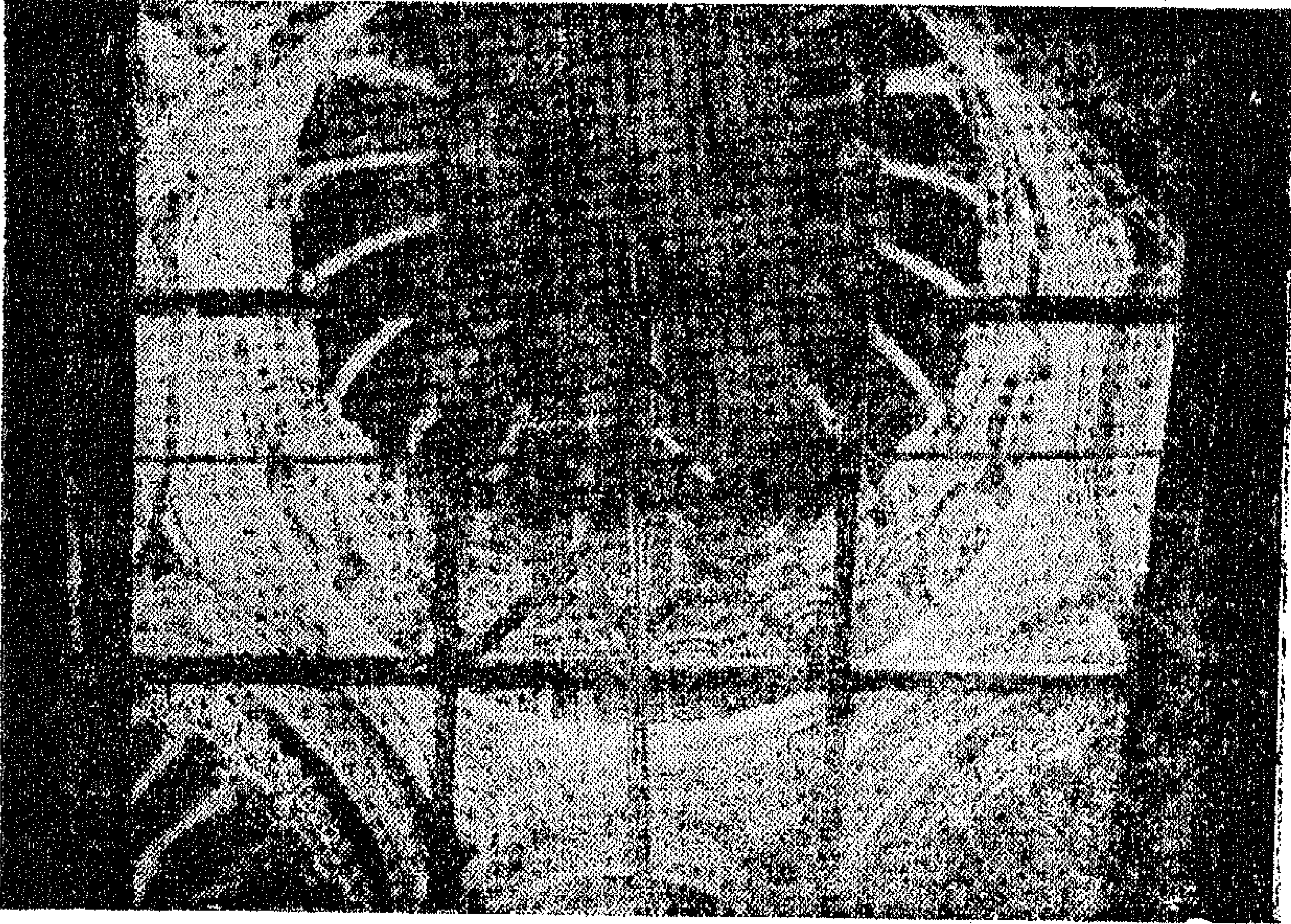
(شكل ٦) مسجد الابواب الثلاثة بالقيروان
تفصيل لزخارف واجهة المدخل (عن كرزول)



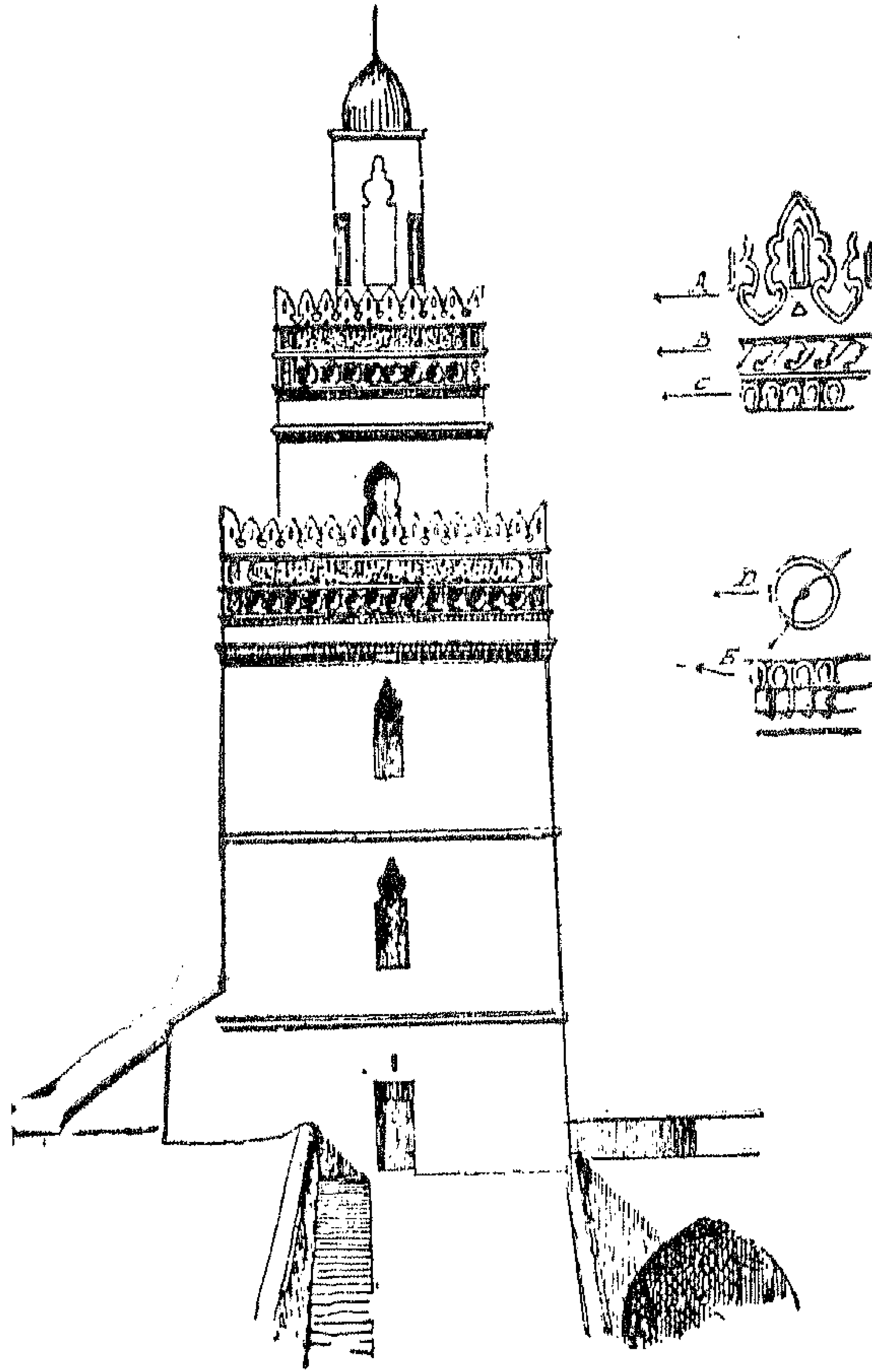
(شكل ٧) مسجد الابواب الثلاثة بالقيروان
منظر عام للواجهة (عن كرزول)



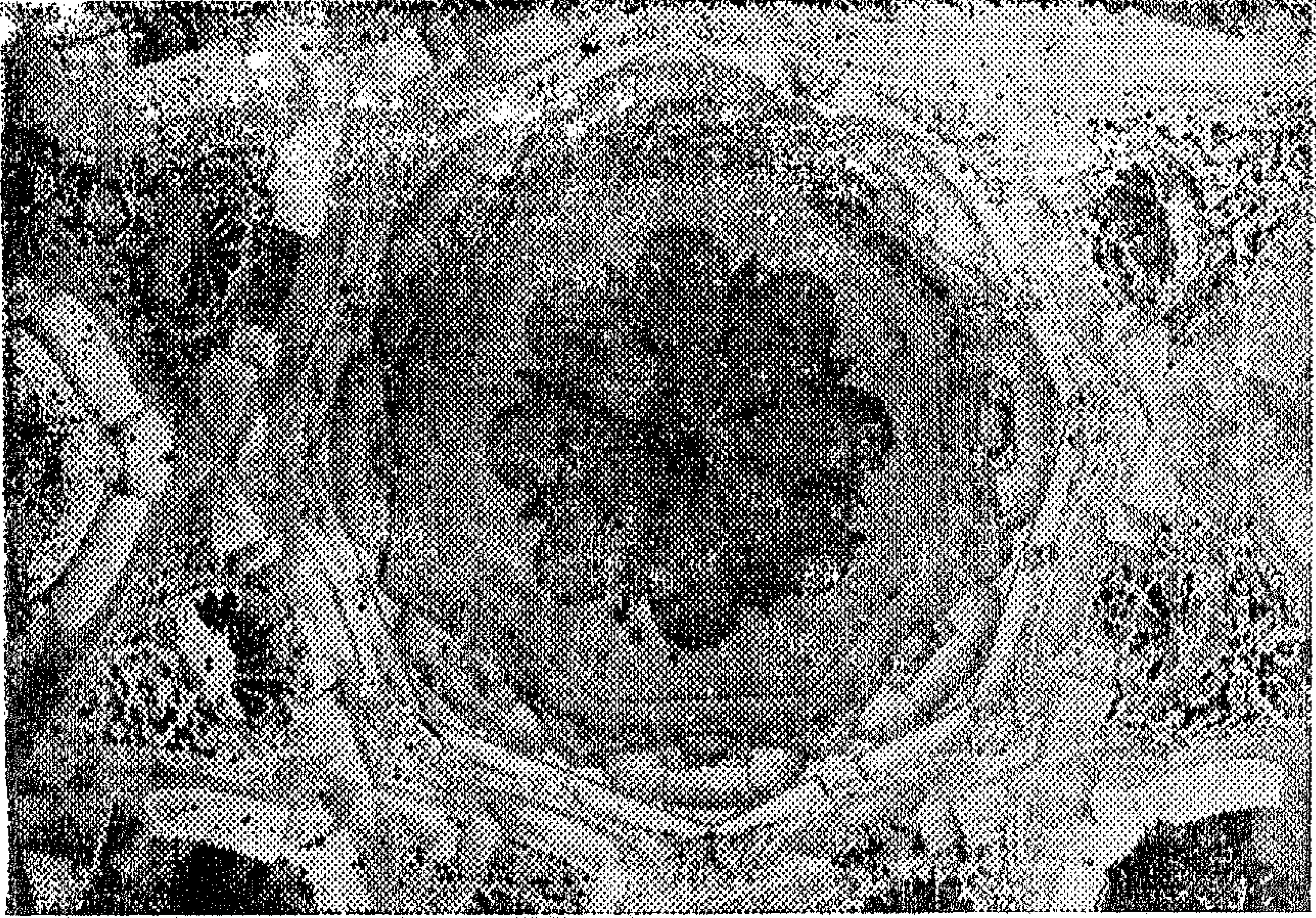
(شكل ٨) جامع الزيتونة بتونس :
عقود بيت الصلاة (عن فكرى)



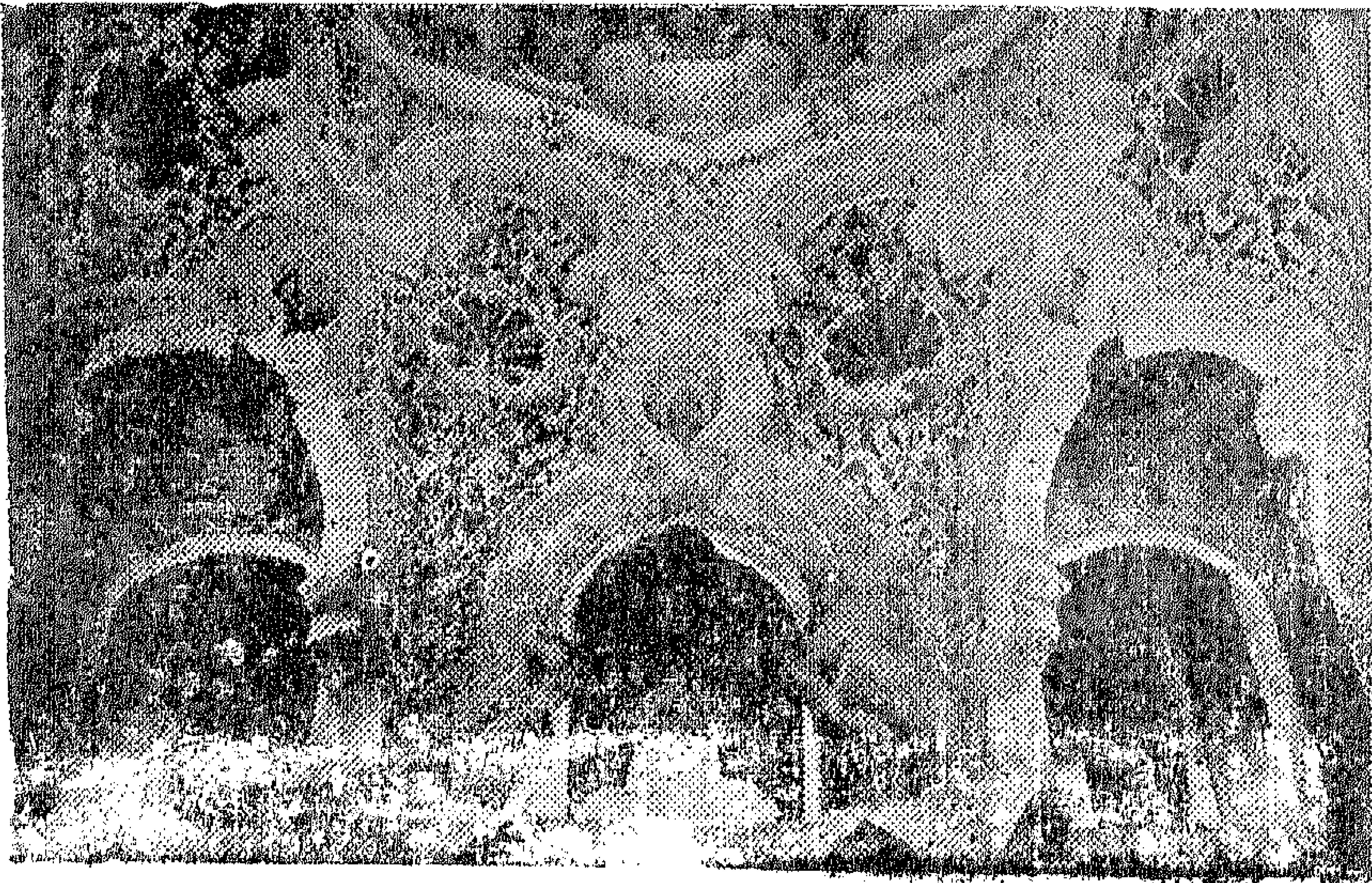
(شكل ٩) جامع الزيتونة بتونس : قبة المحراب من الداخل
(عن فكرى)



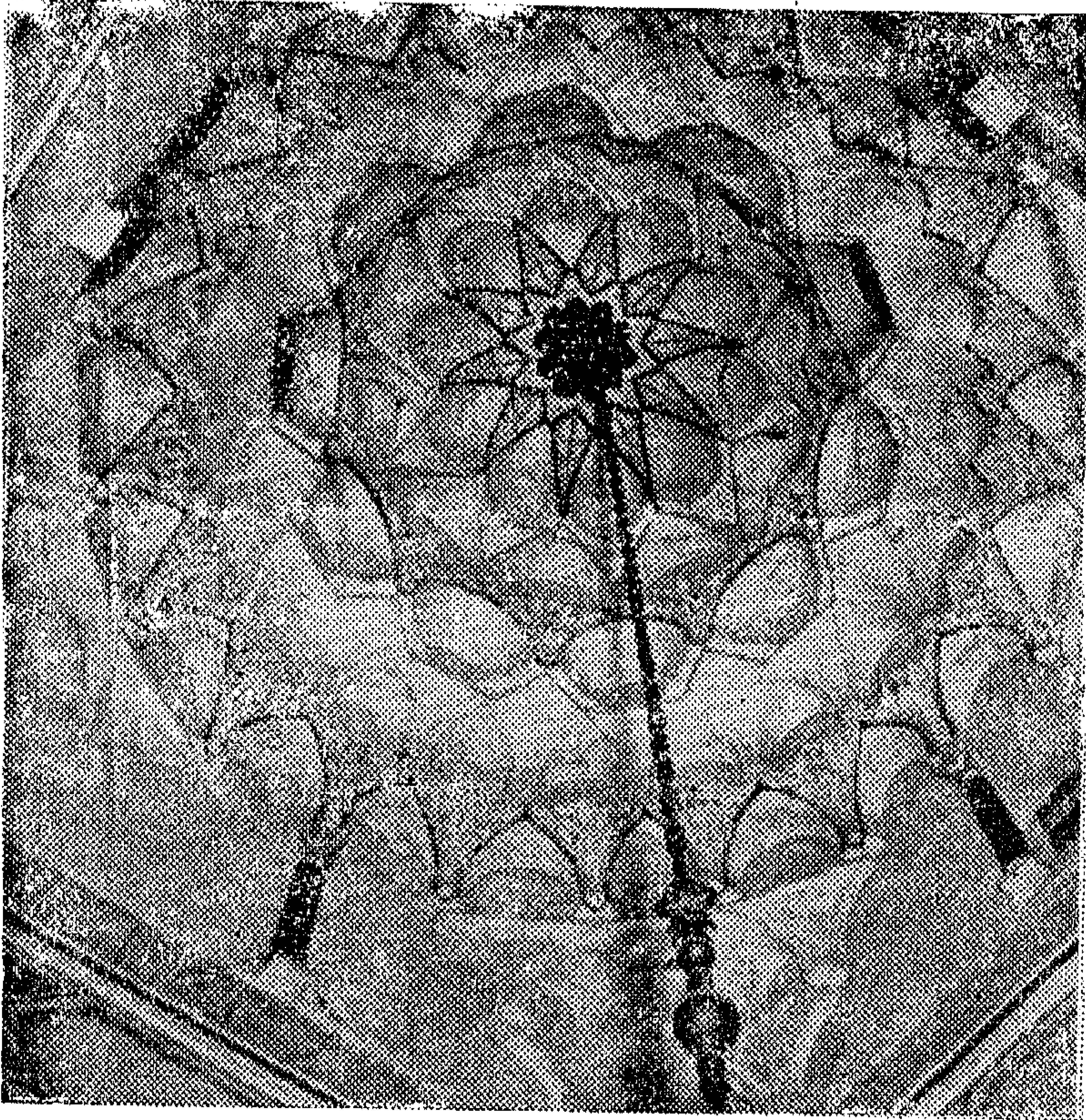
(شكل ٩٠) المسجد الجامع بسفاقس
رسم للمئذنة (عن مارسيه)



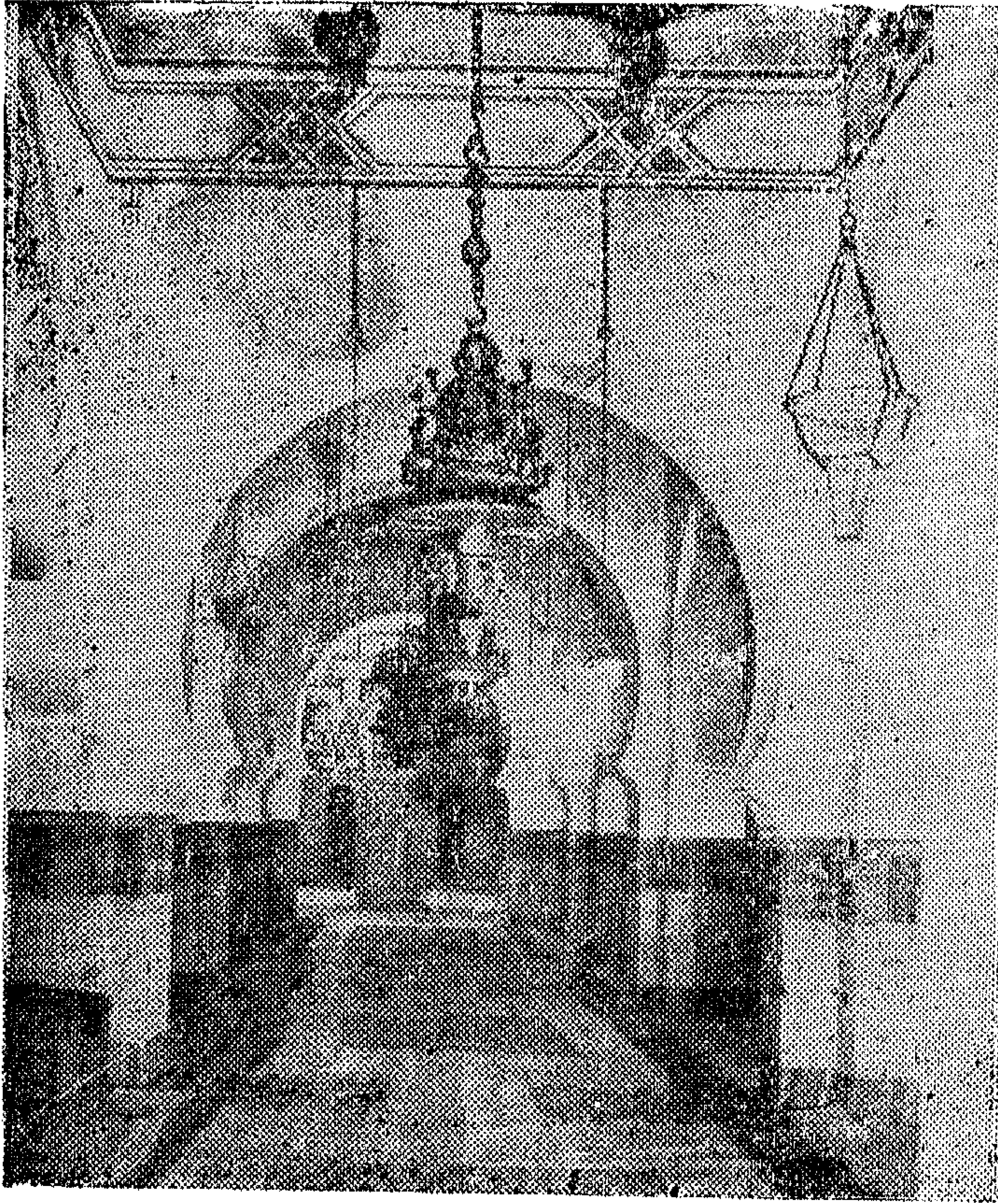
(شكل ١١) قبة البروذيين بمراكش (عن مارسيه)



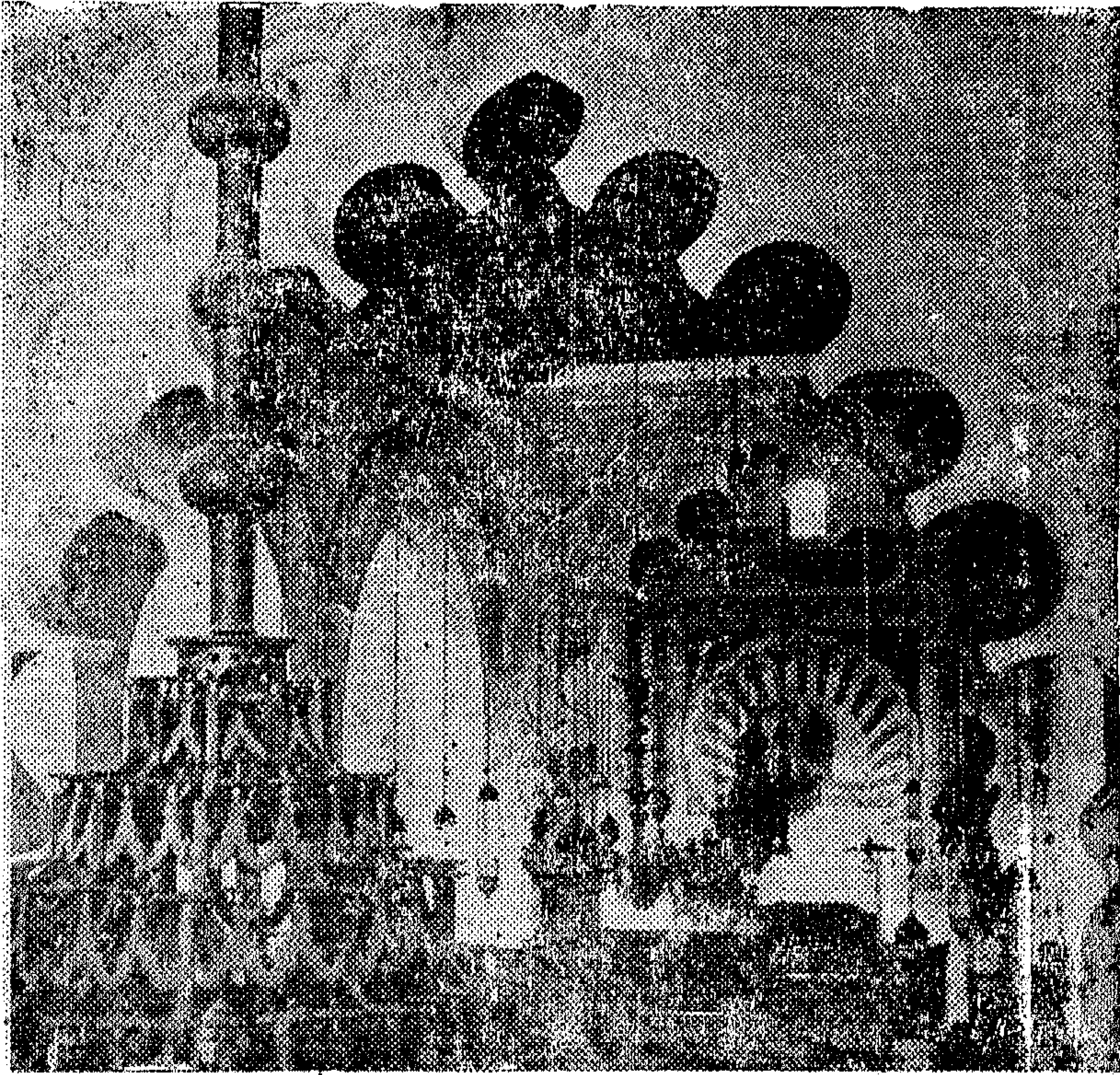
(شكل ١٢) قبة البروديين بمراكش (عن مارسيه)



(شكل ١٣) جامع القرويين بفاس : قبة المحراب
(عن مارسيه)



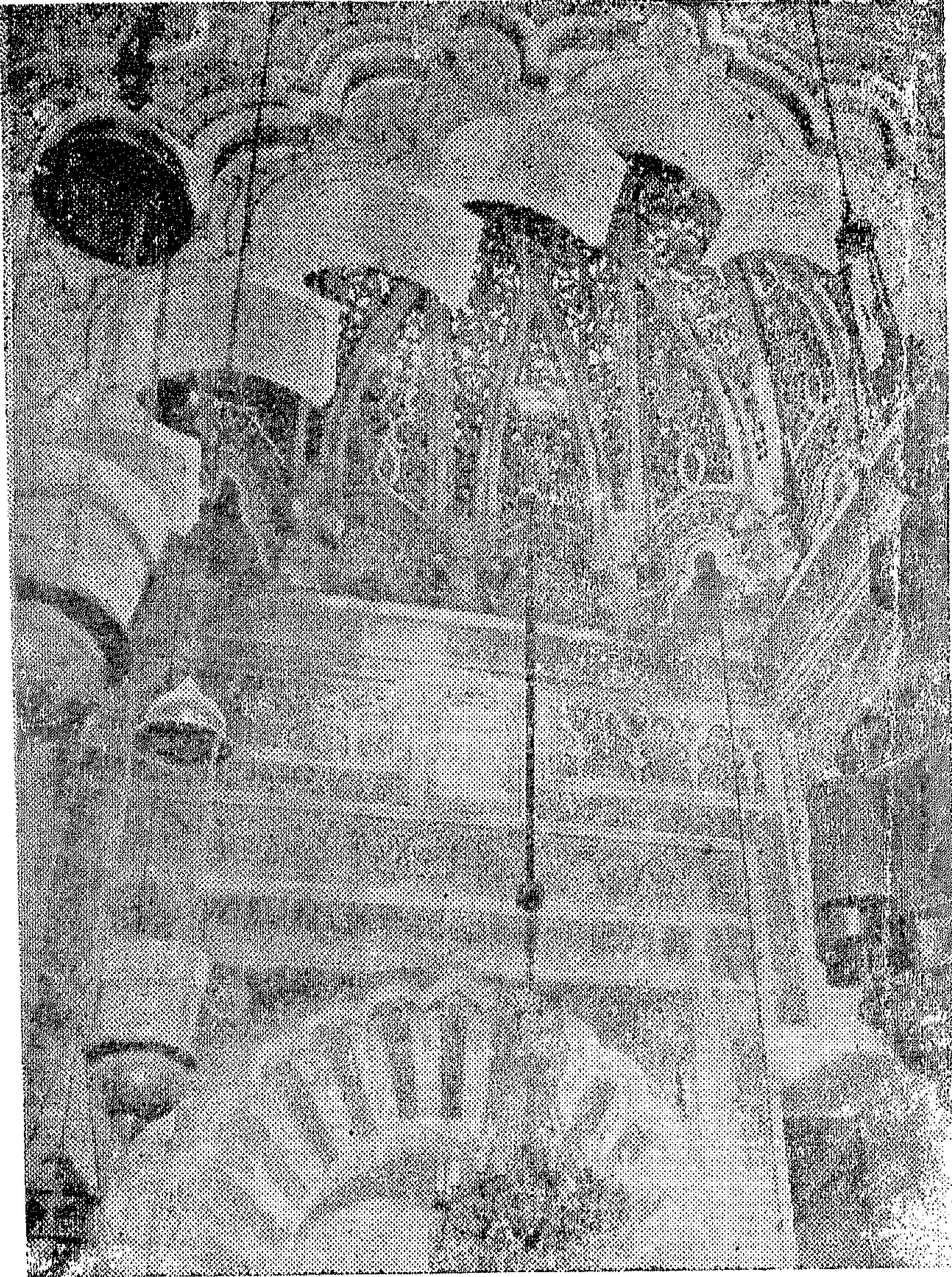
(شكل ١٤) جامع القرويين بفاس : البلاطة الوسطى
(عن مارسيه)



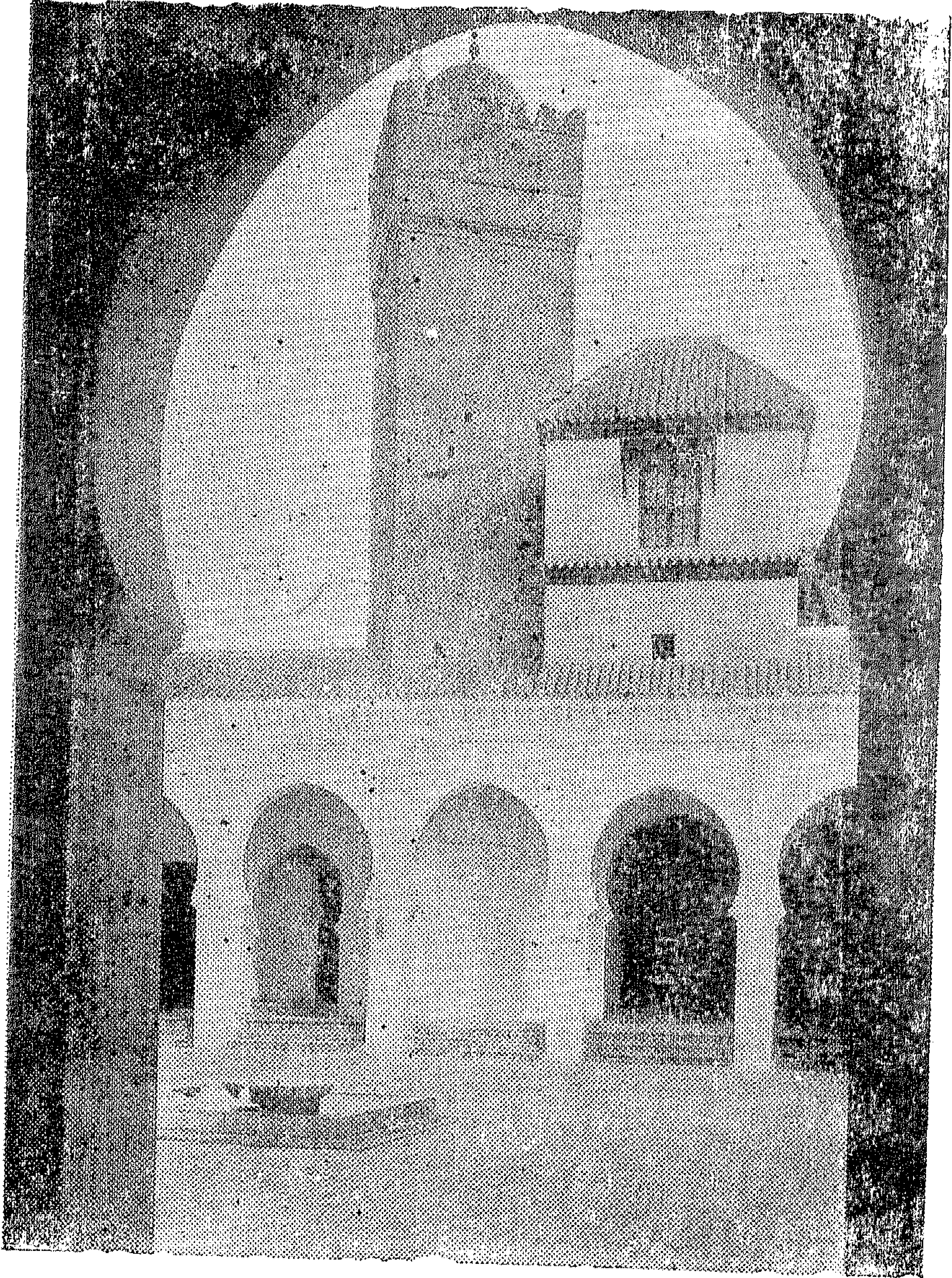
(شكل ١٥) المسجد الجامع بتلمسان : البلاطة الوسطى
(عن مارسيه)



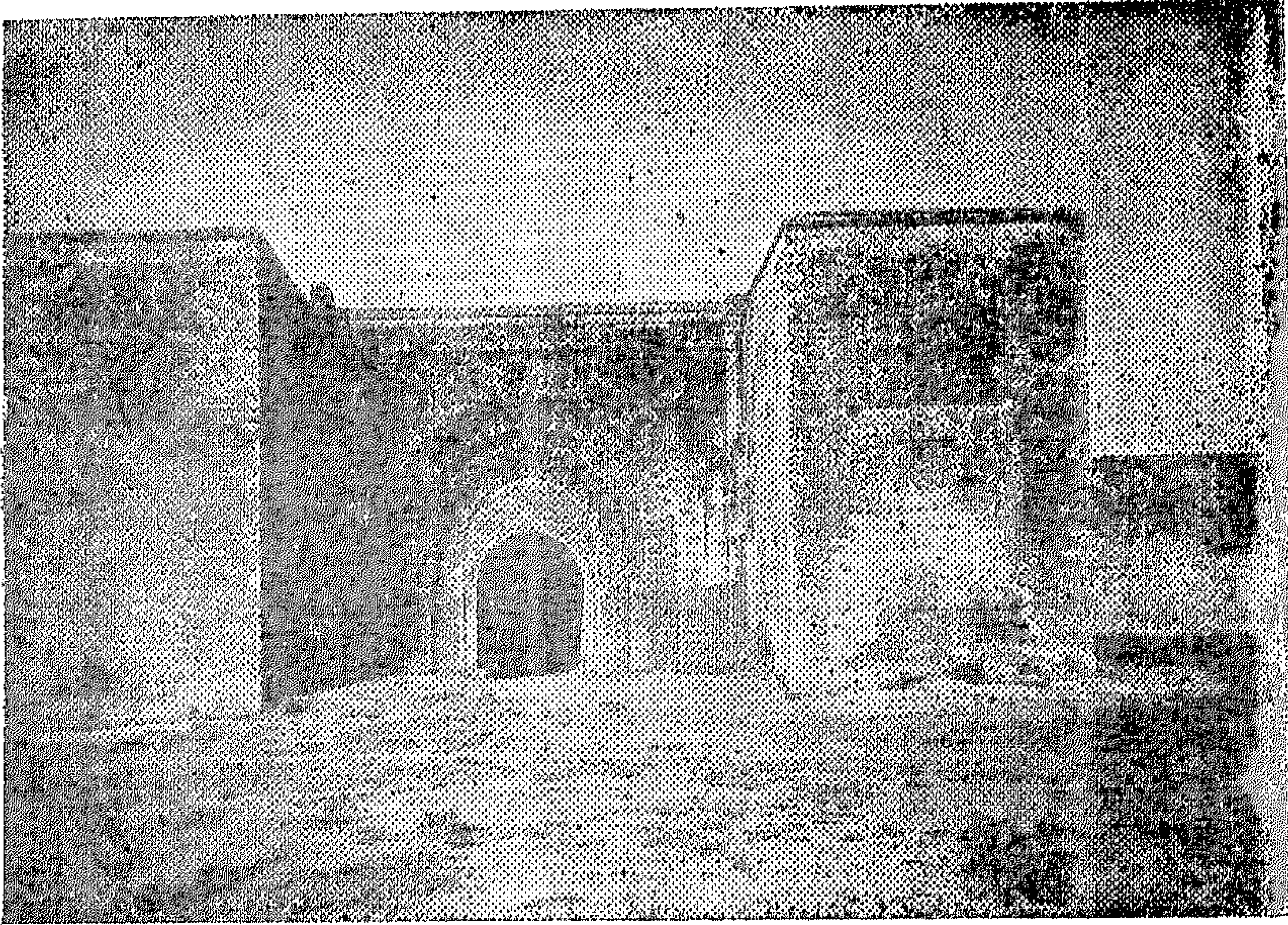
(شكل ١٦) المسجد الجامع بالجزائر : عقود بيت الصلاة
(عن مارسيه)



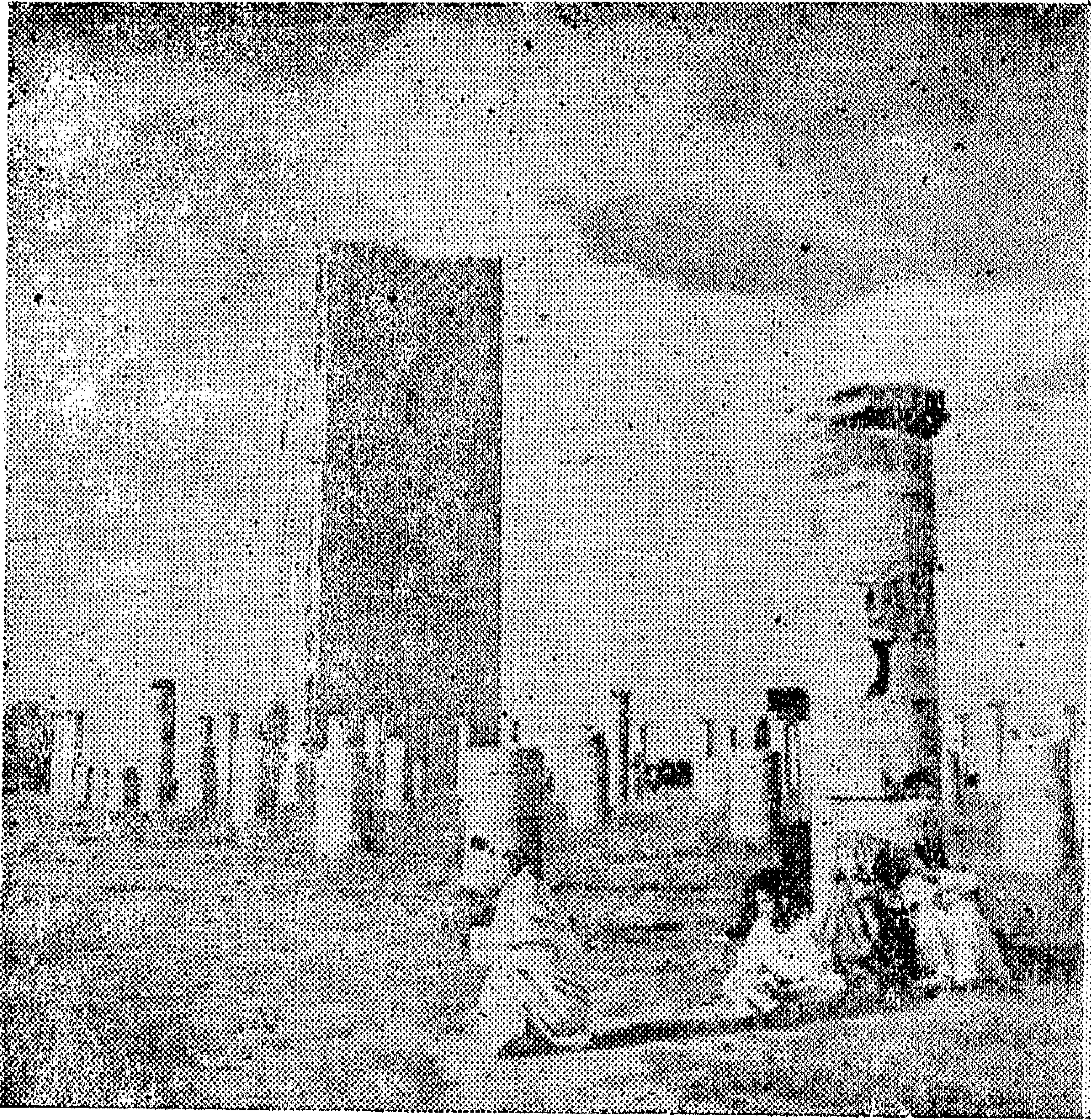
(شكل ١٧) المسجد الجامع بتلمسان : واجهة المحراب وجانب من القبة
(عن مارسيه)



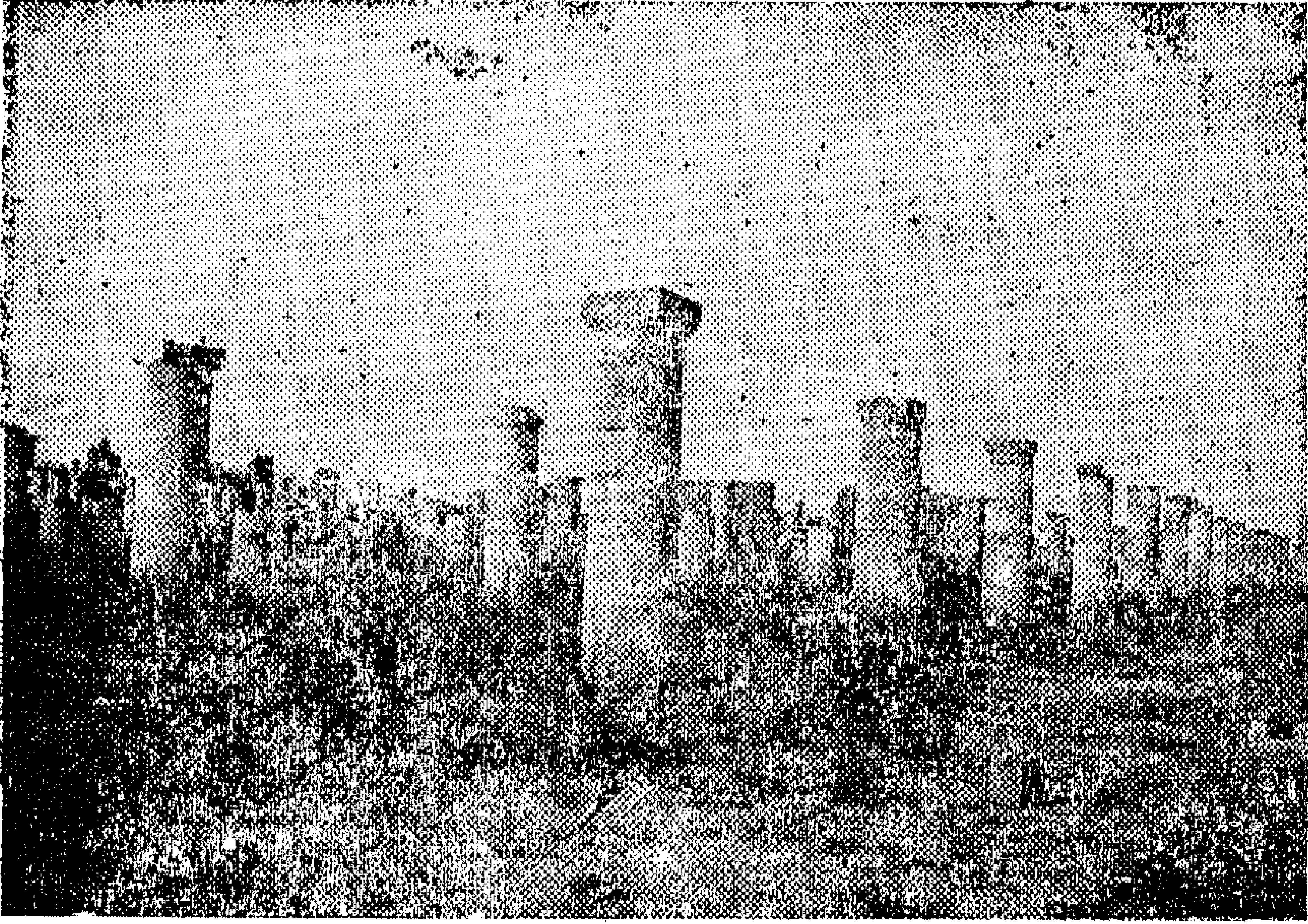
(شكل ١٨) جامع الاندلسيين بفاس : مجنبة الصحن والصومعة
(عن تراس)



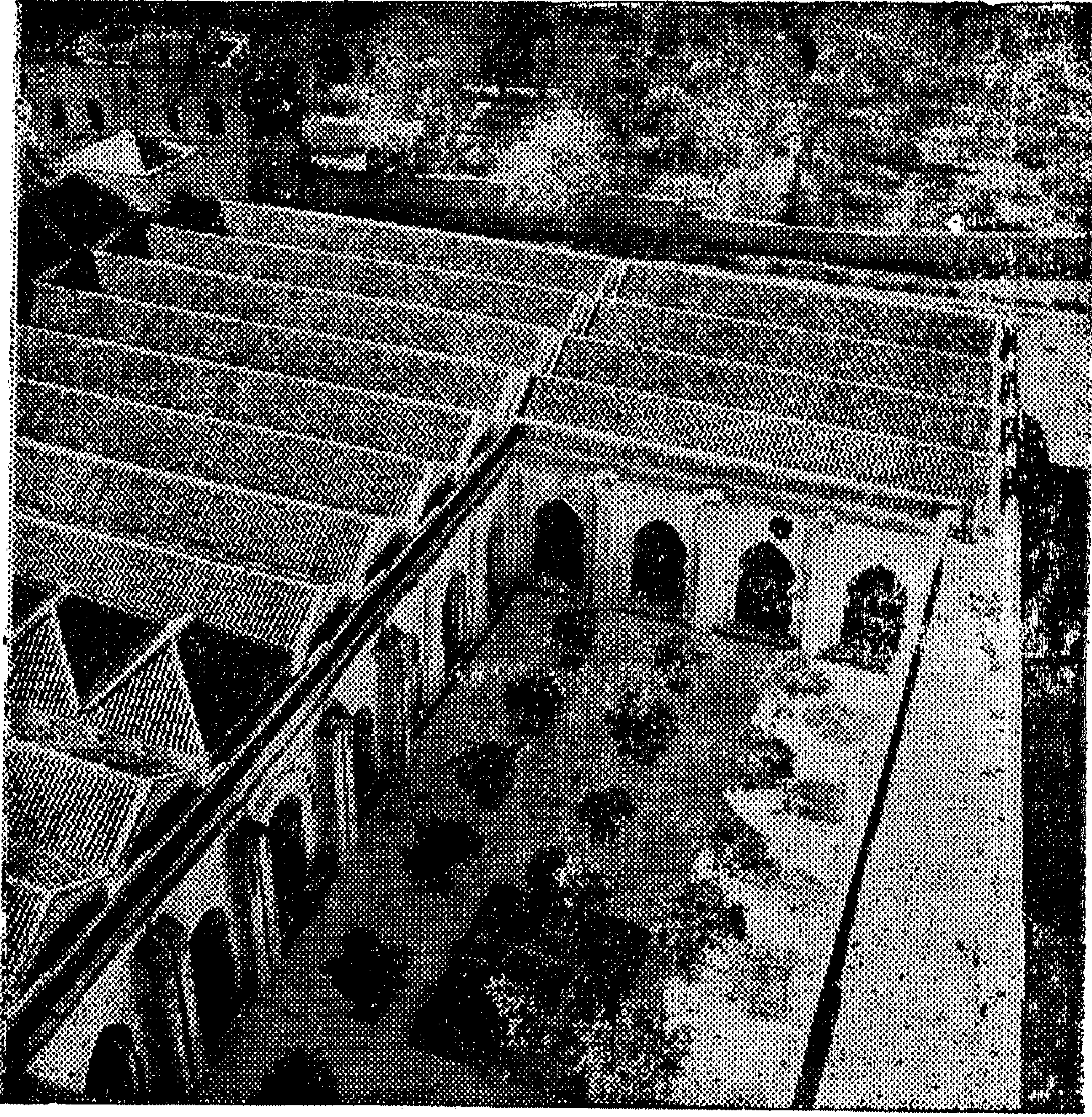
(شكل ١٩) باب الرواح بمراكش
(عن مصلحة الآثار)



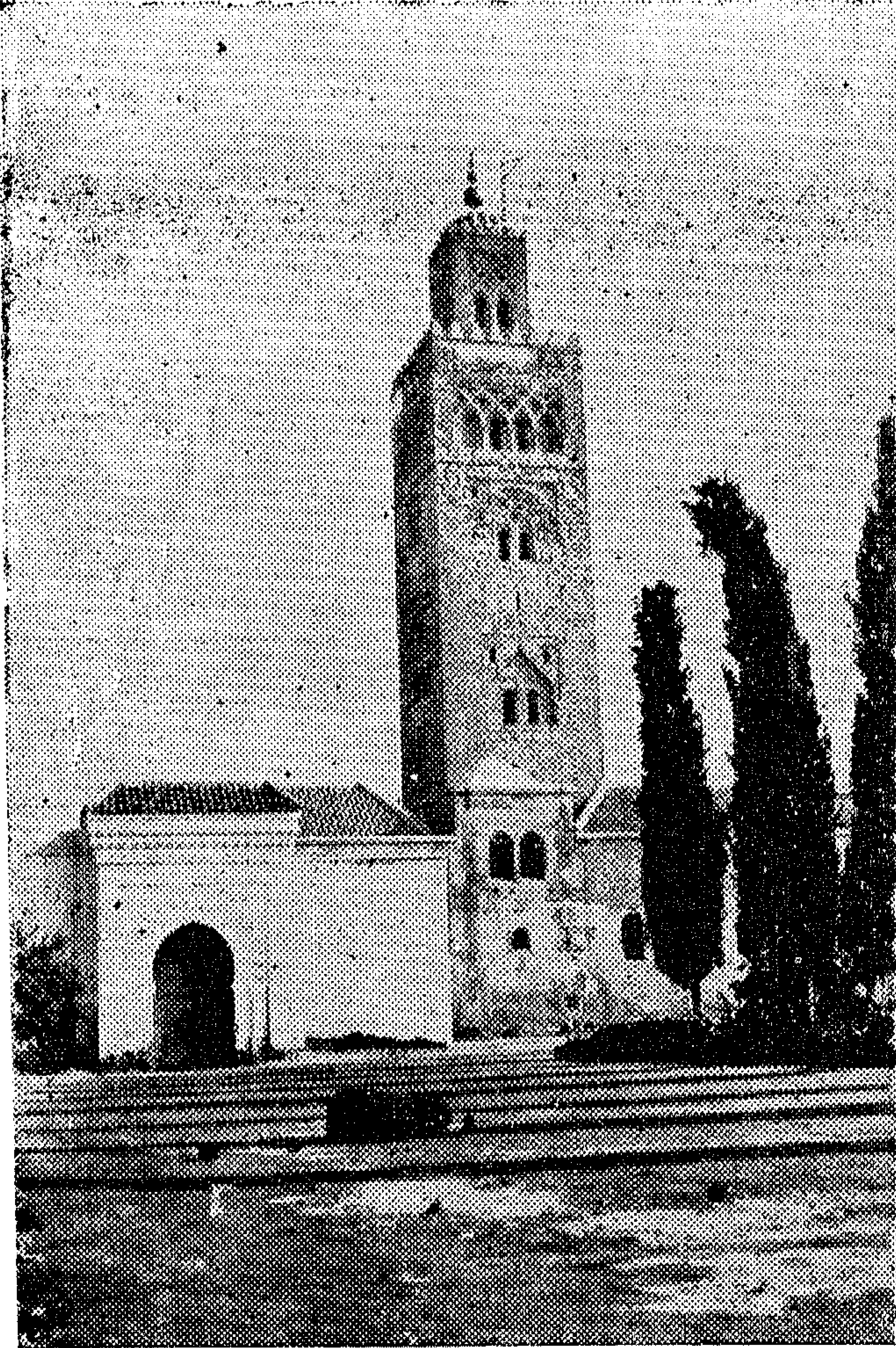
(شكل ٢٠) المسجد الجامع برباط الفتح والصومعة
(عن مكتب السياحة المغربى بالرباط)



(شكل ٢١) المسجد الجامع برباط الفتح : أعمدة بيت الصلاة
(عن مصلحة الآثار)



(شكل ٢٢) جامع الكتبية بمراكش : الاسقف والصحن
(عن مكتب السياحة المغربى بالرباط)

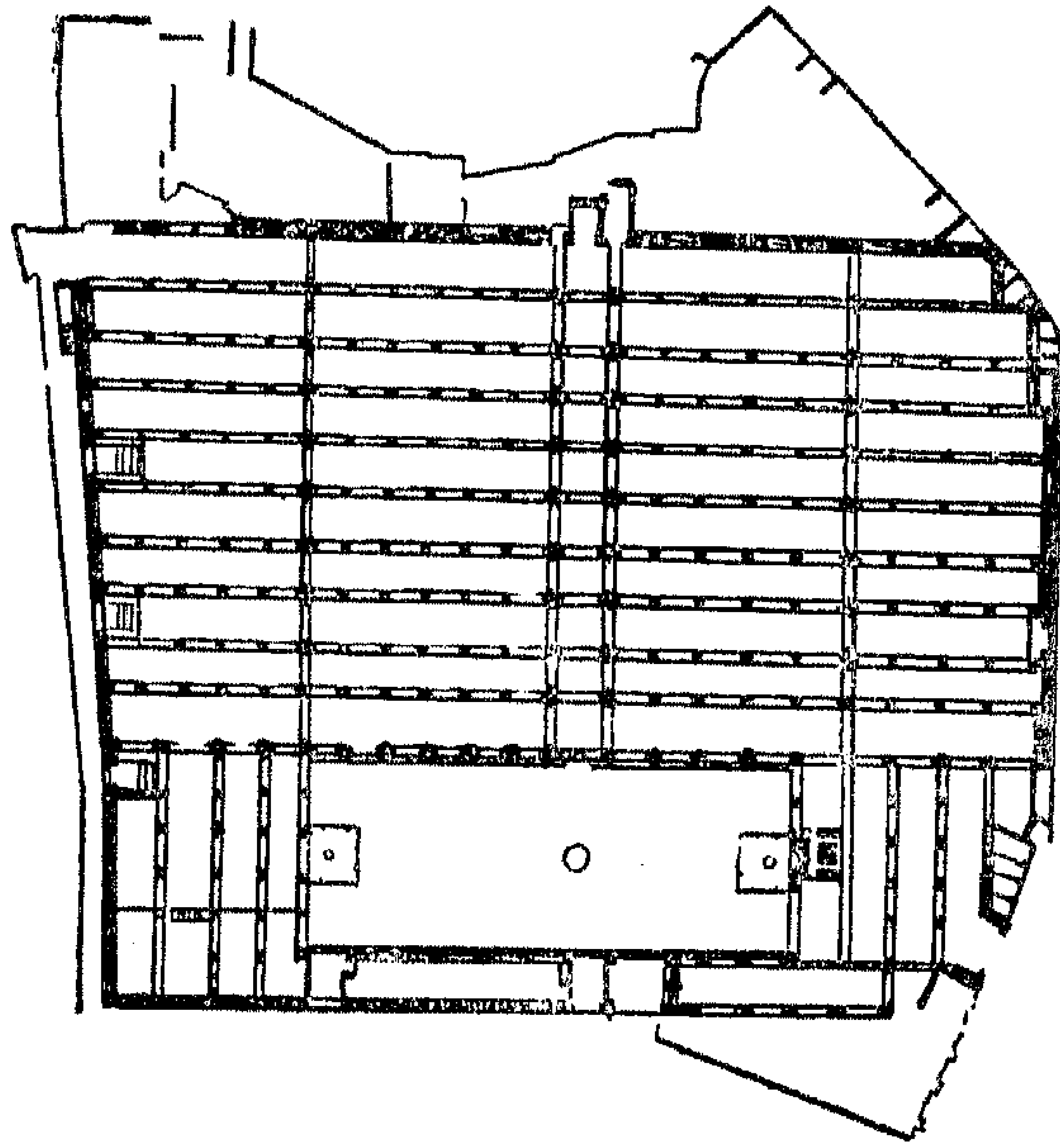


(شكل ٢٣) جامع الكتبية بمراكش : الصومعة

(للمؤلف)

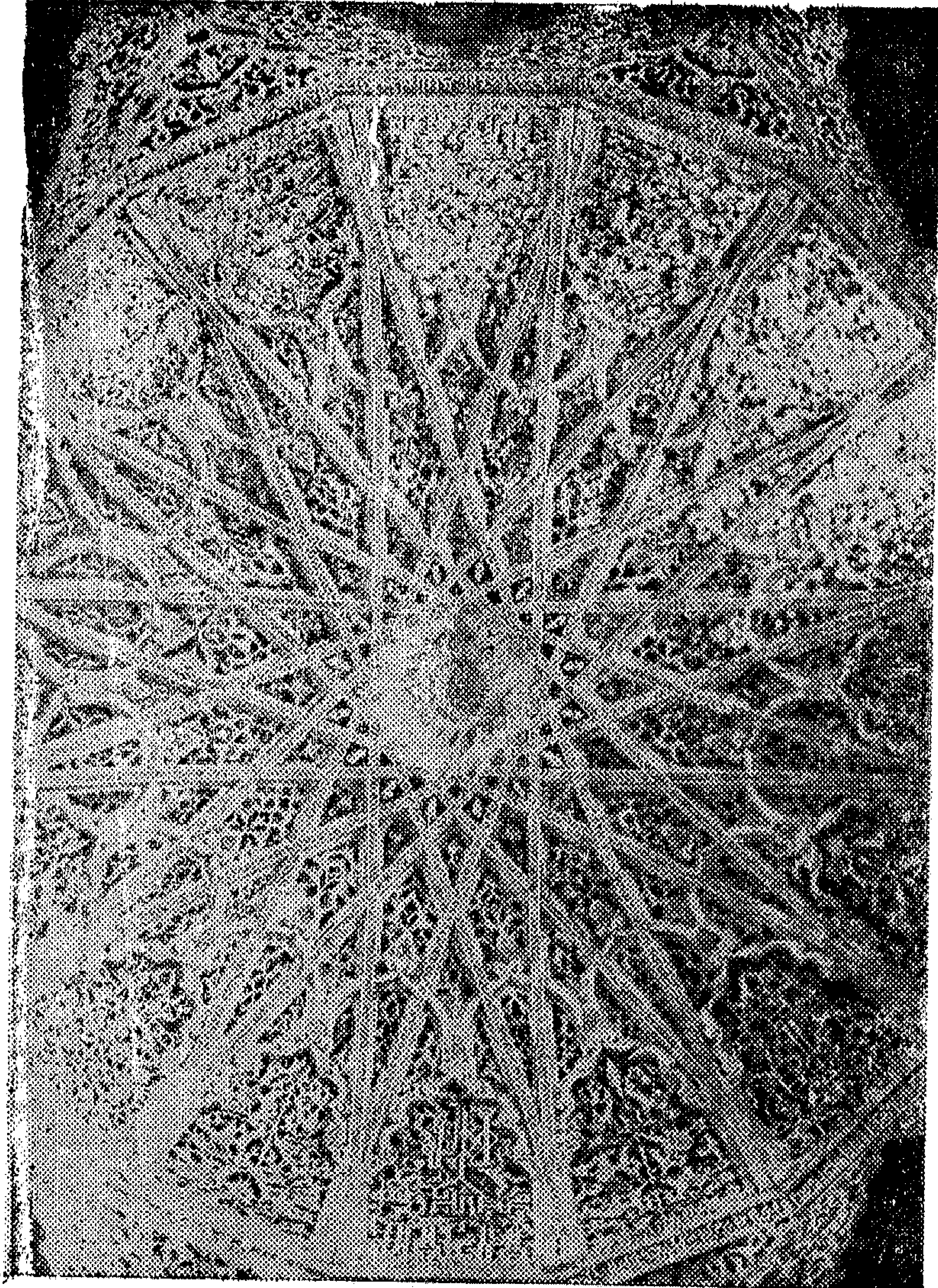


(شكل ٢٤) جامع القرويين بفاس : الصحن
(عن مصلحة الآثار)

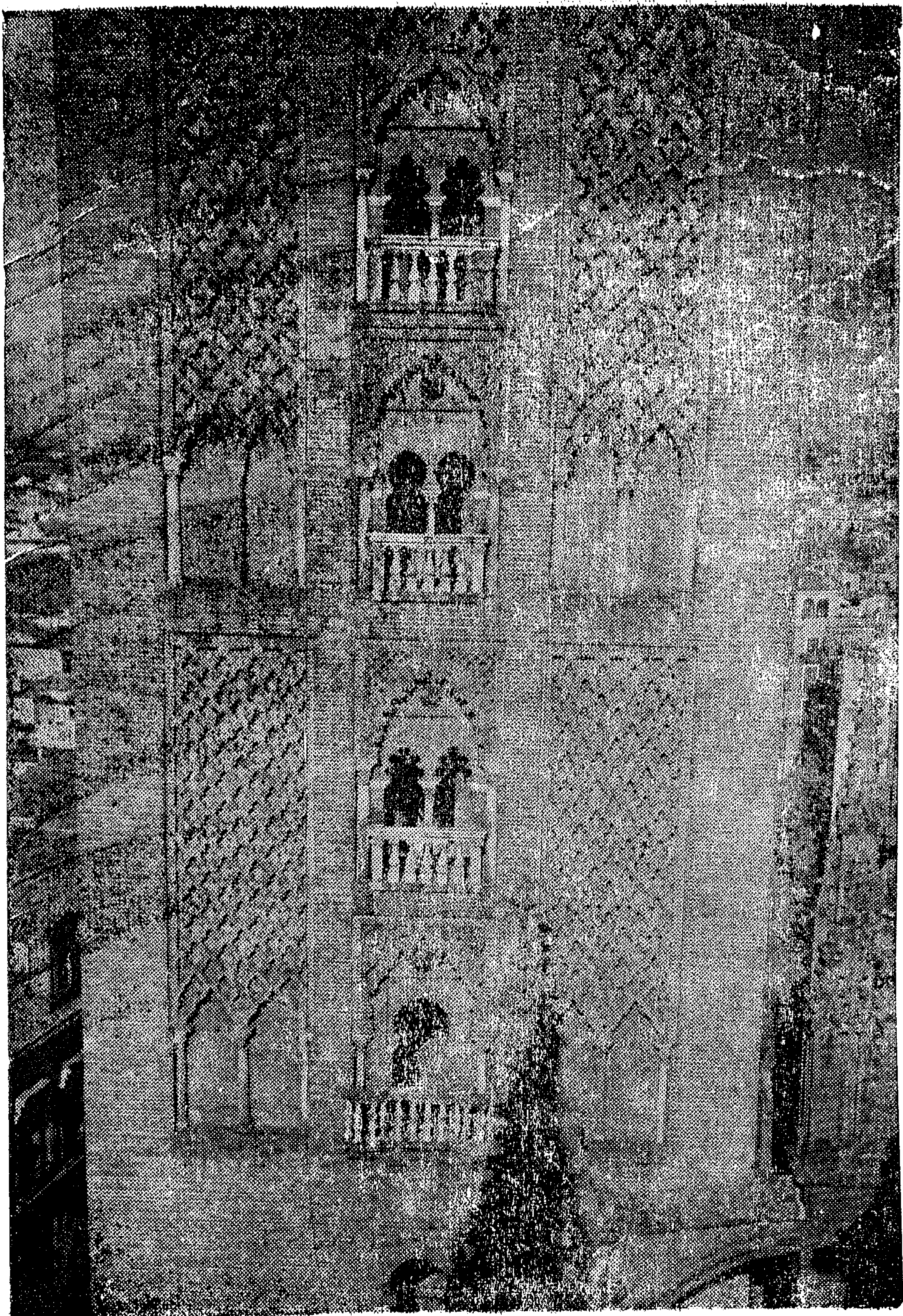


(شكل ٢٥) تخطيط لجامع القرويين بفاس

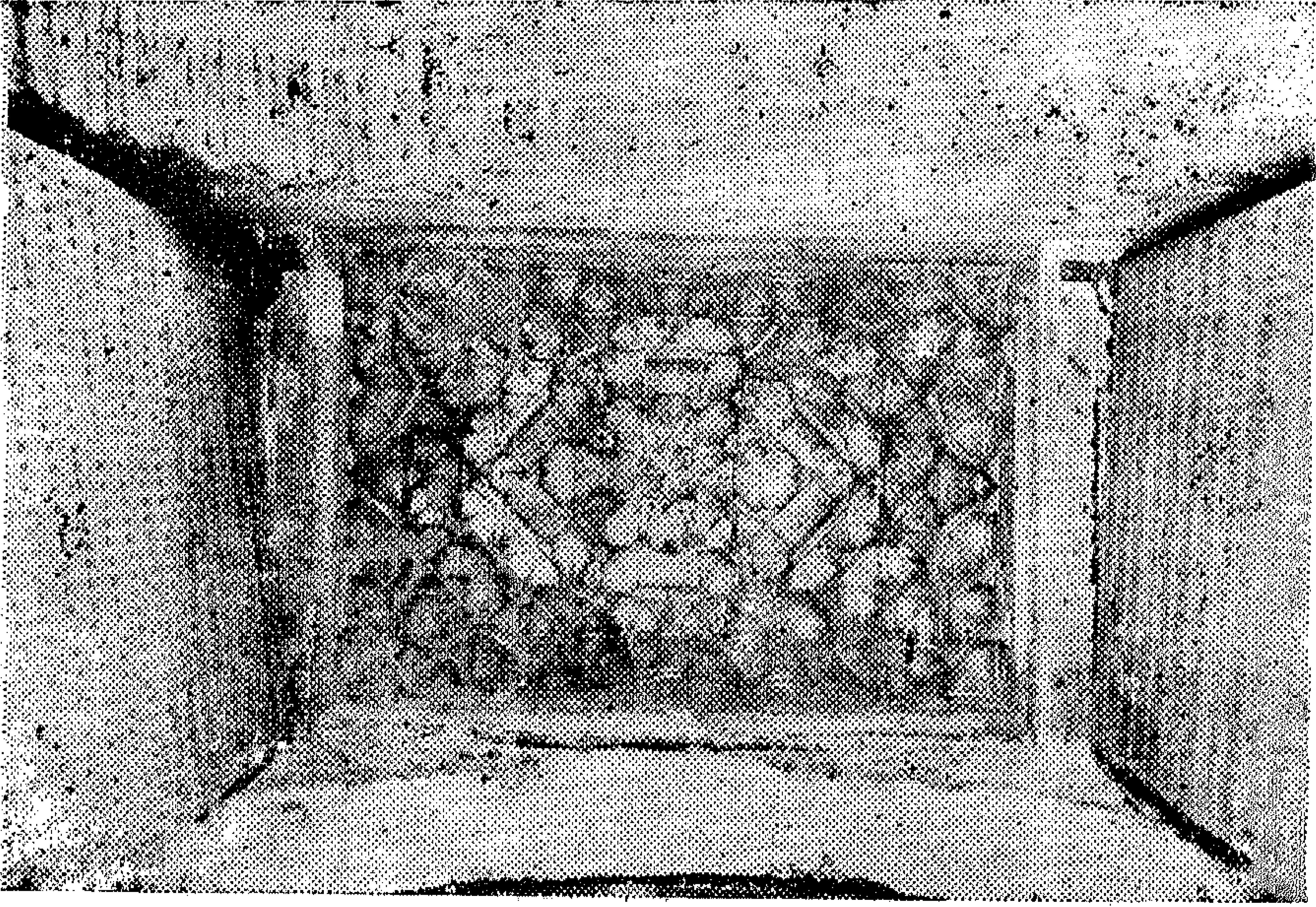
(عن مارسيه)



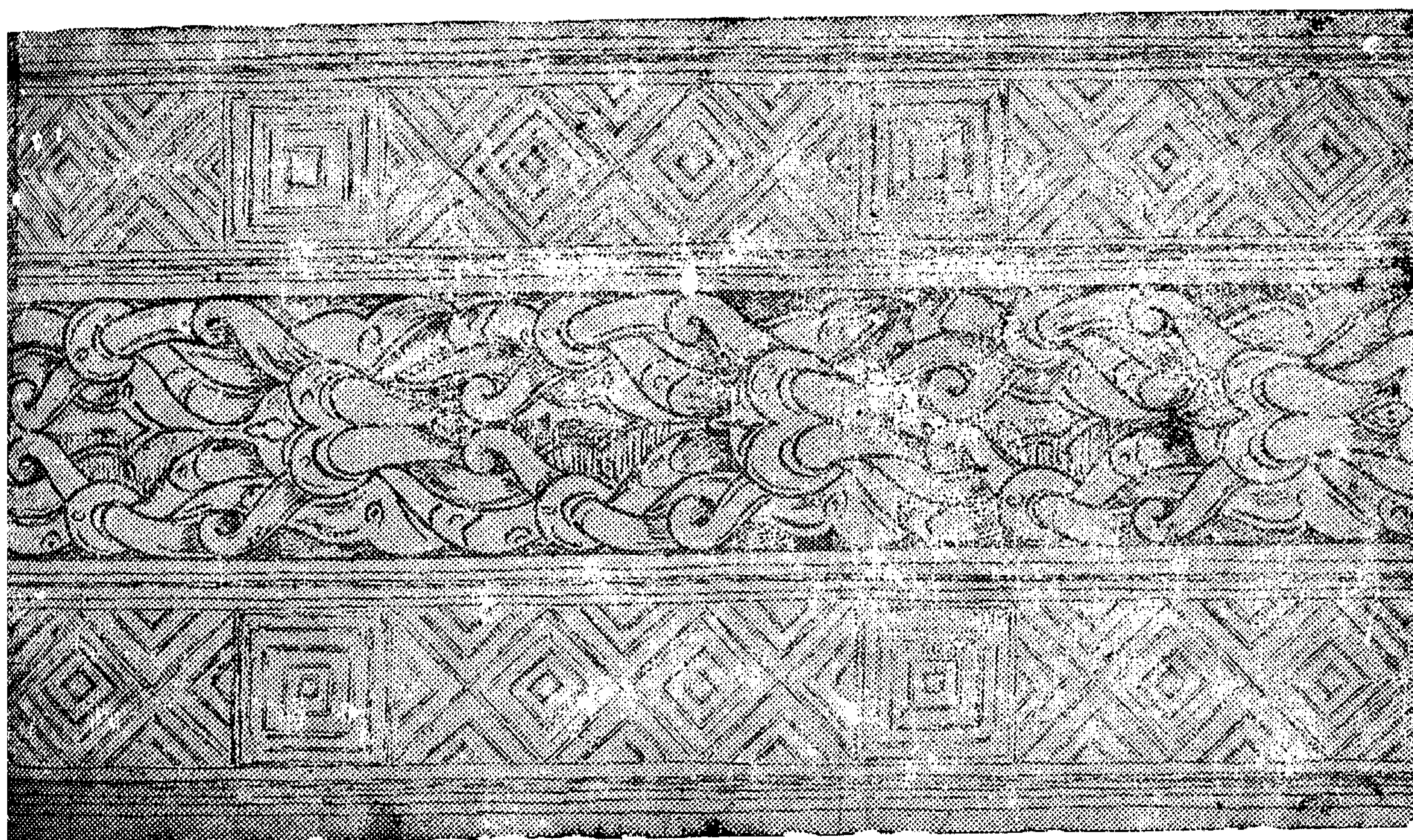
(شكل ٢٦) جامع رباط تازى : قبة المحراب
(عن توريس بلباس)



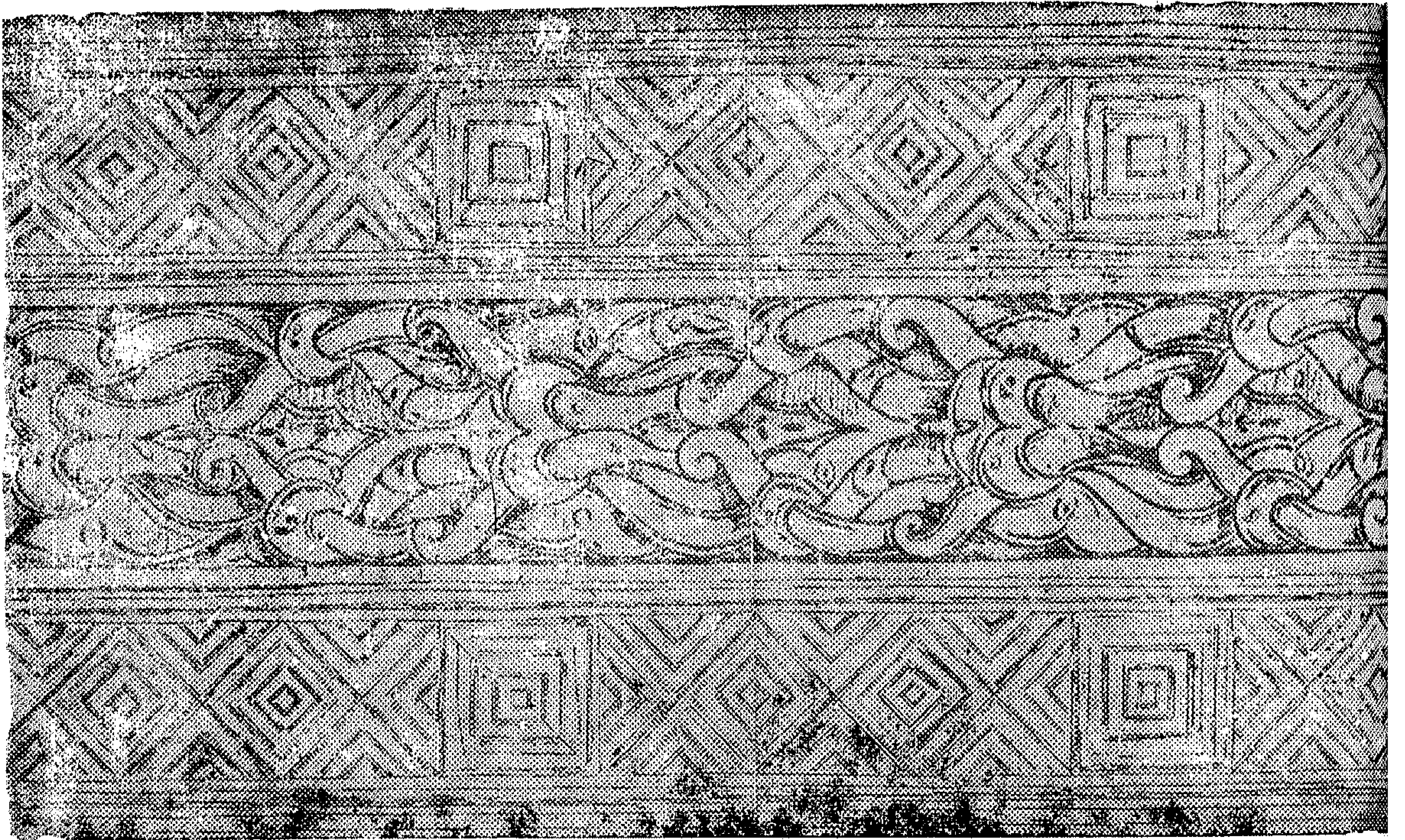
(شكل ٢٧) المسجد الجامع باشبيلية : الصومعة (للمؤلف)



(شكل ٢٨) المسجد الجامع باشبيلية : قبوة بأعلى أسطوان المدخل الشرقى
(للمؤلف)

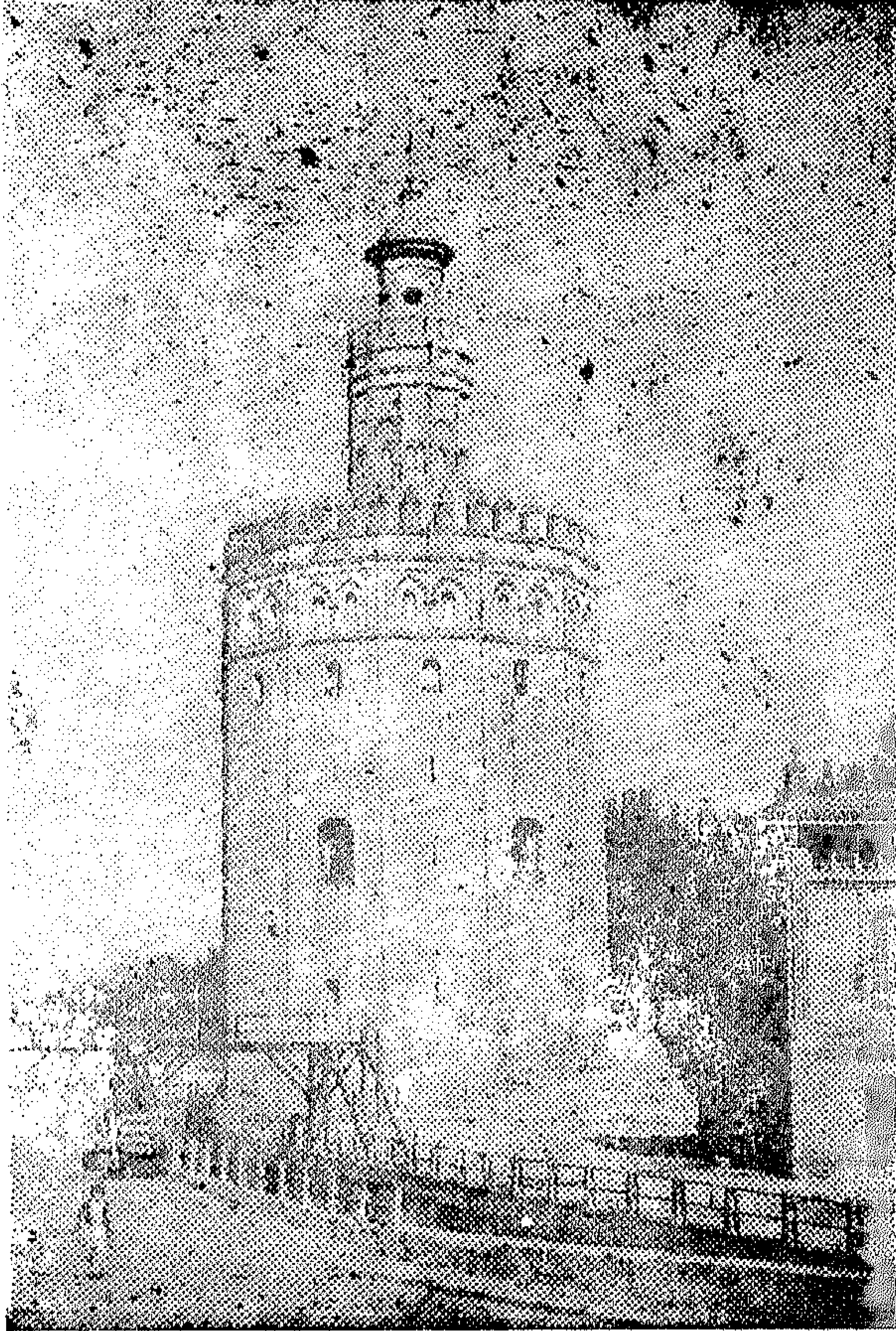


(شكل ٢٩) المسجد الجامع باشبيلية : جانب من الزخارف



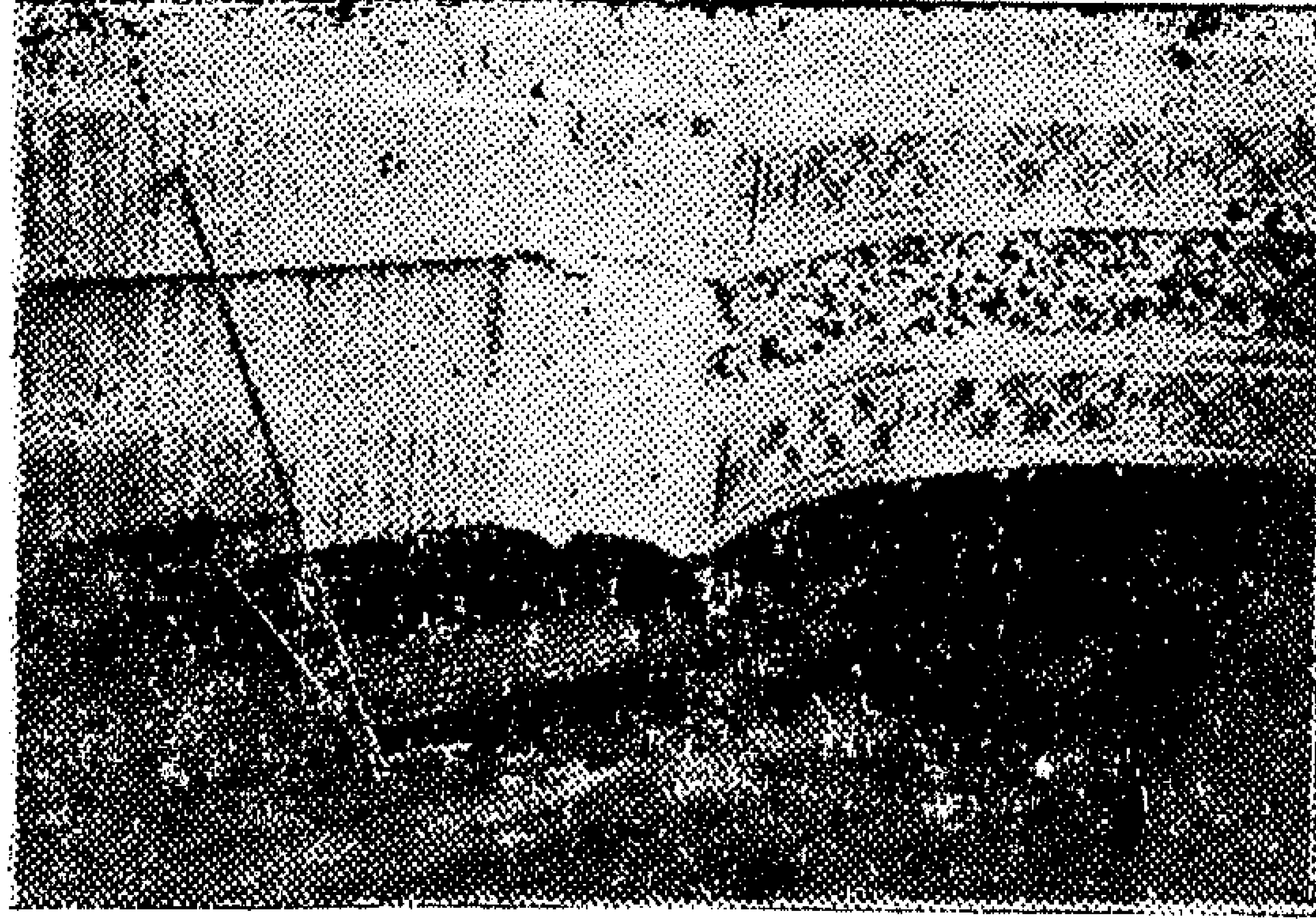
تحف بباطن عقد المدخل إلى الصحن

(من رسم المؤلف)

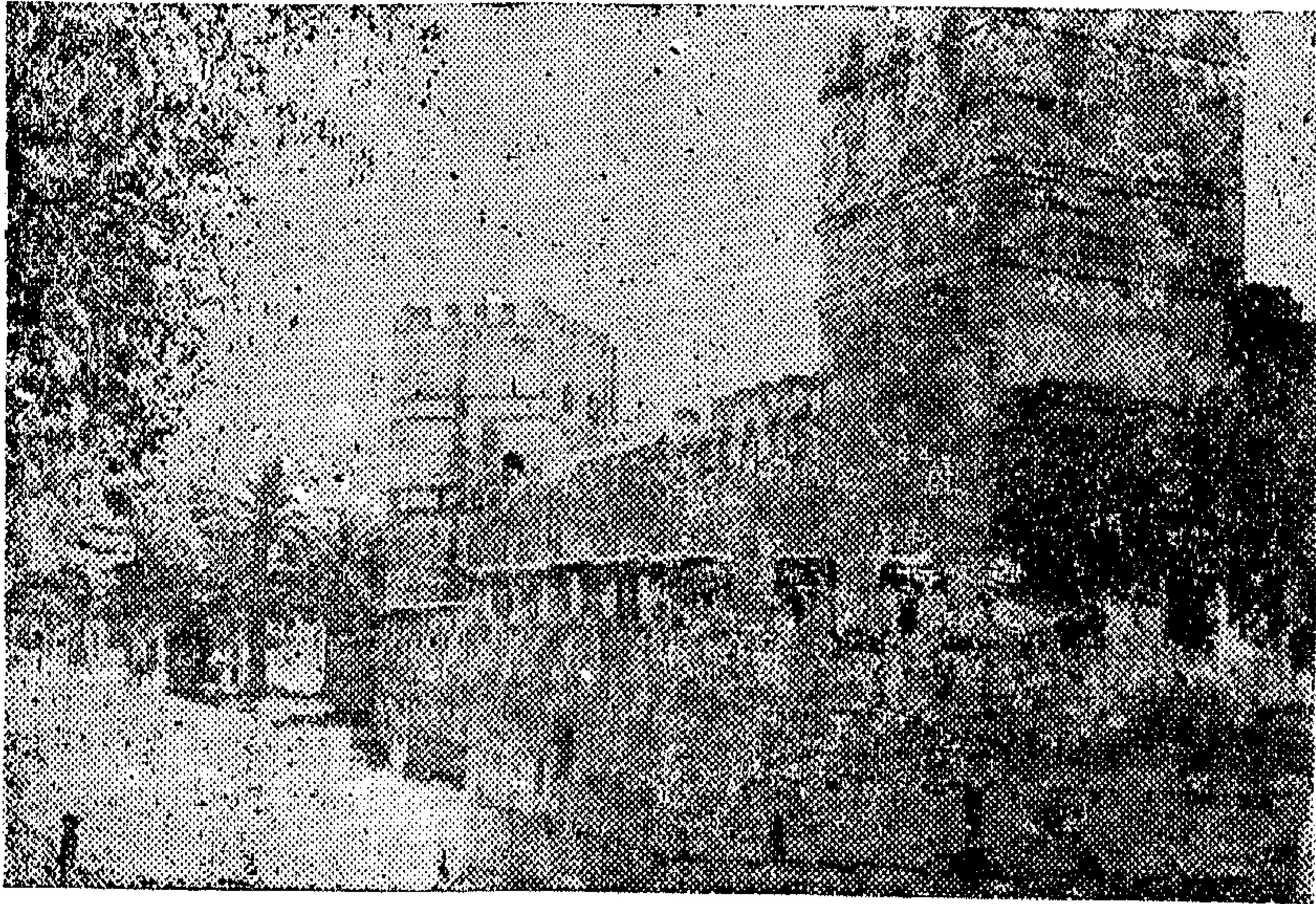


(شكل ٣٠) برج الذهب باشبيلية

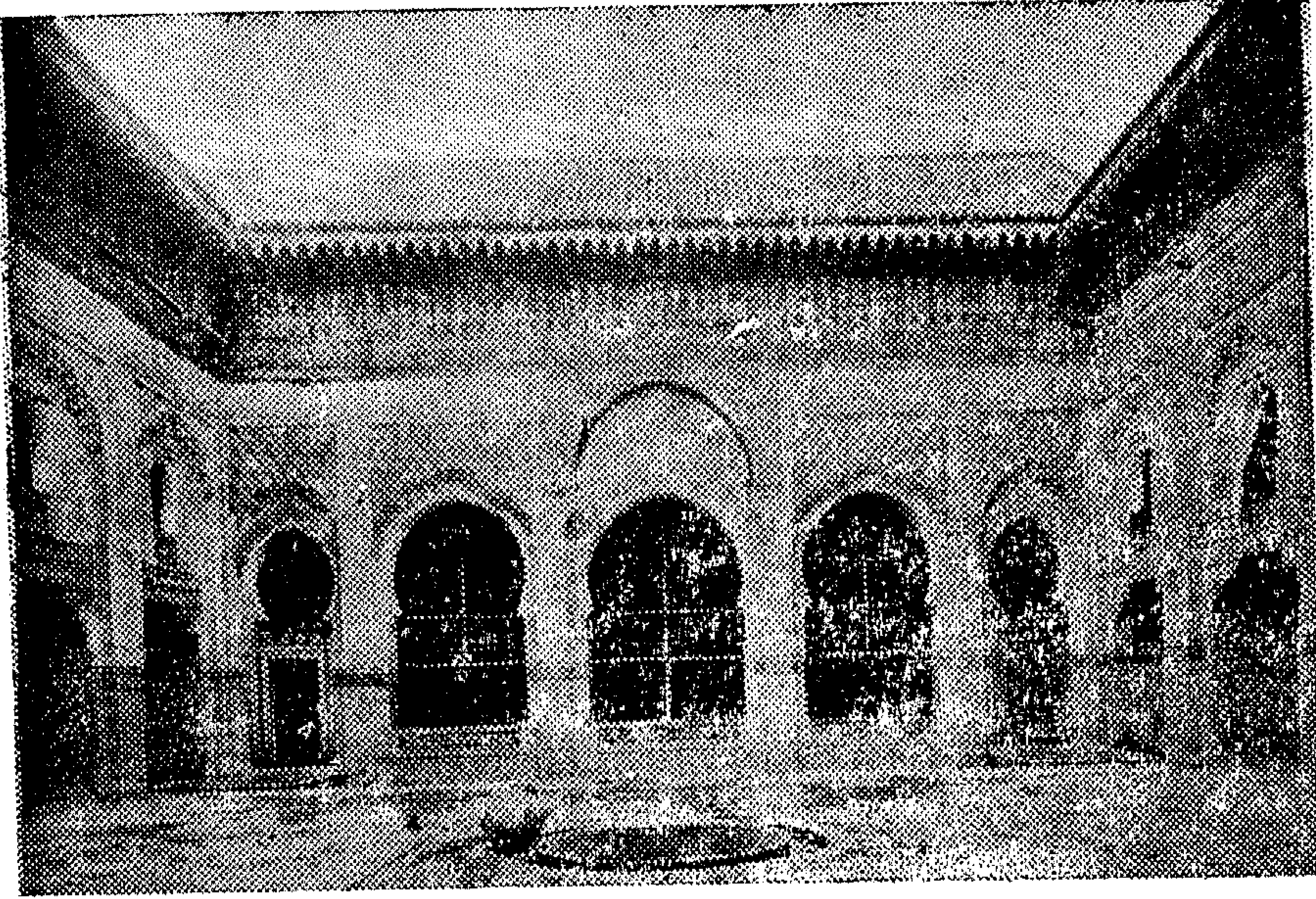
(للمؤلف)



(شكل ٣١) المسجد الجامع باشبيلية :
زخارف تملأ بواطن عقد المدخل الى صحن الجامع (المؤلف)



(شكل ٣٢) سوق مقارنة باشبيلية
(المؤلف)

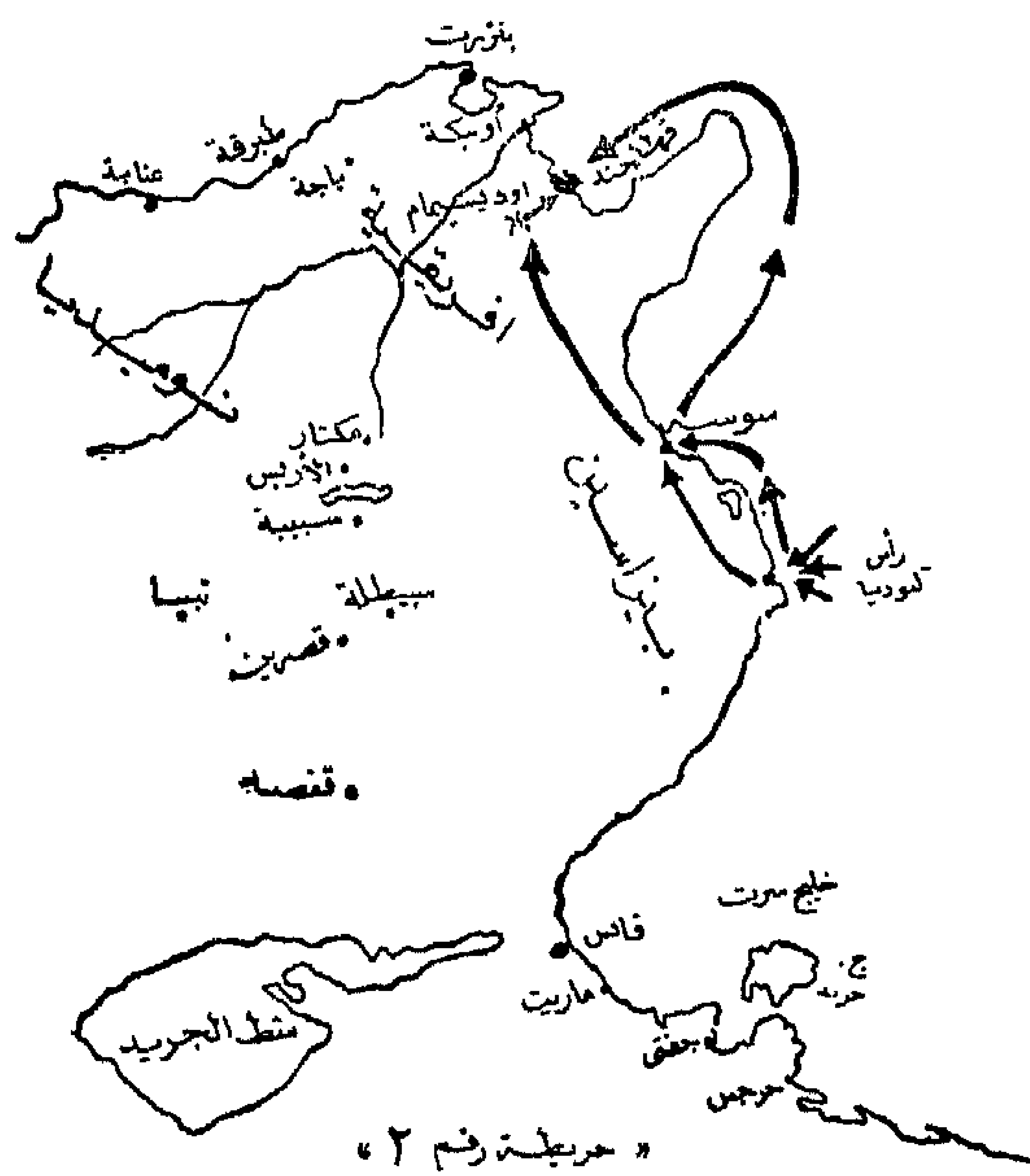


(شكل ٣٣) صحن المدرسة بوعنانية بفاس
(المؤلف)

الخـــرائط

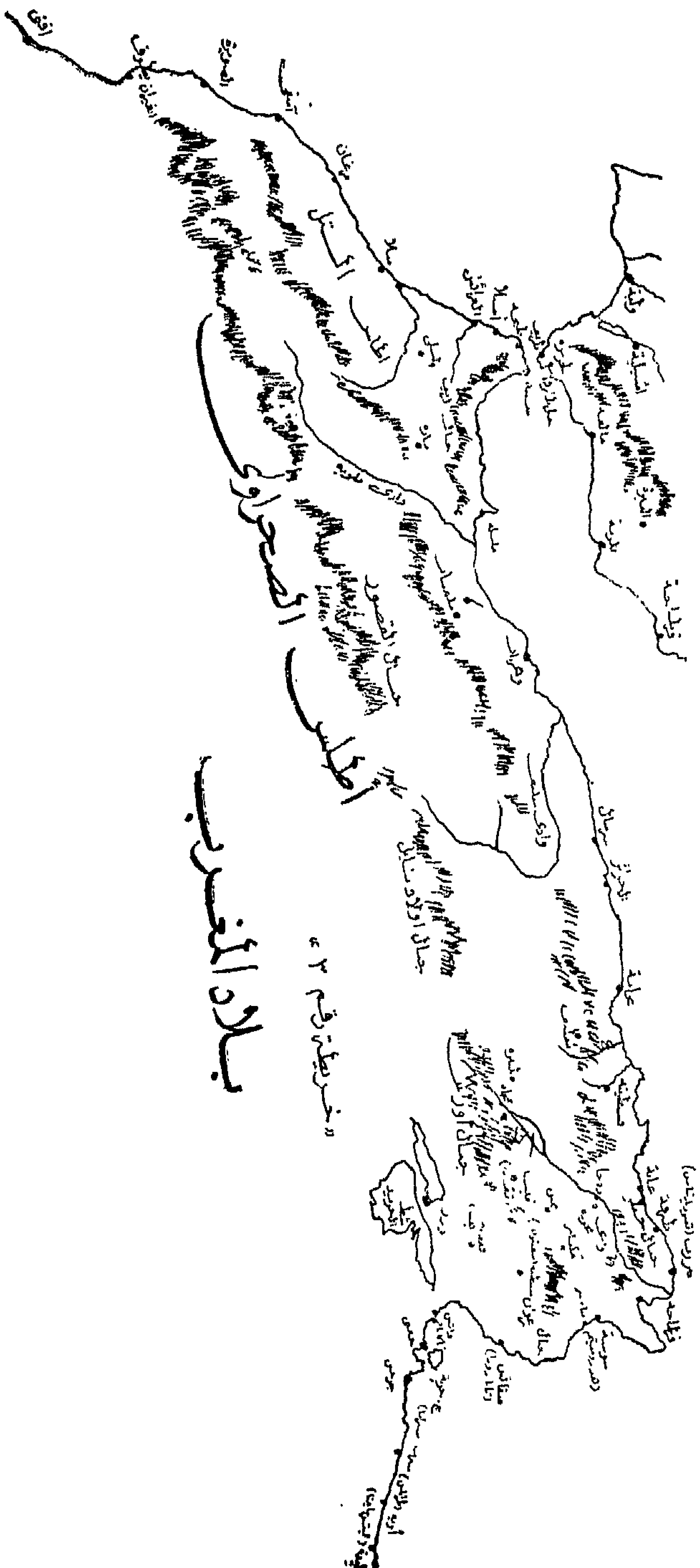


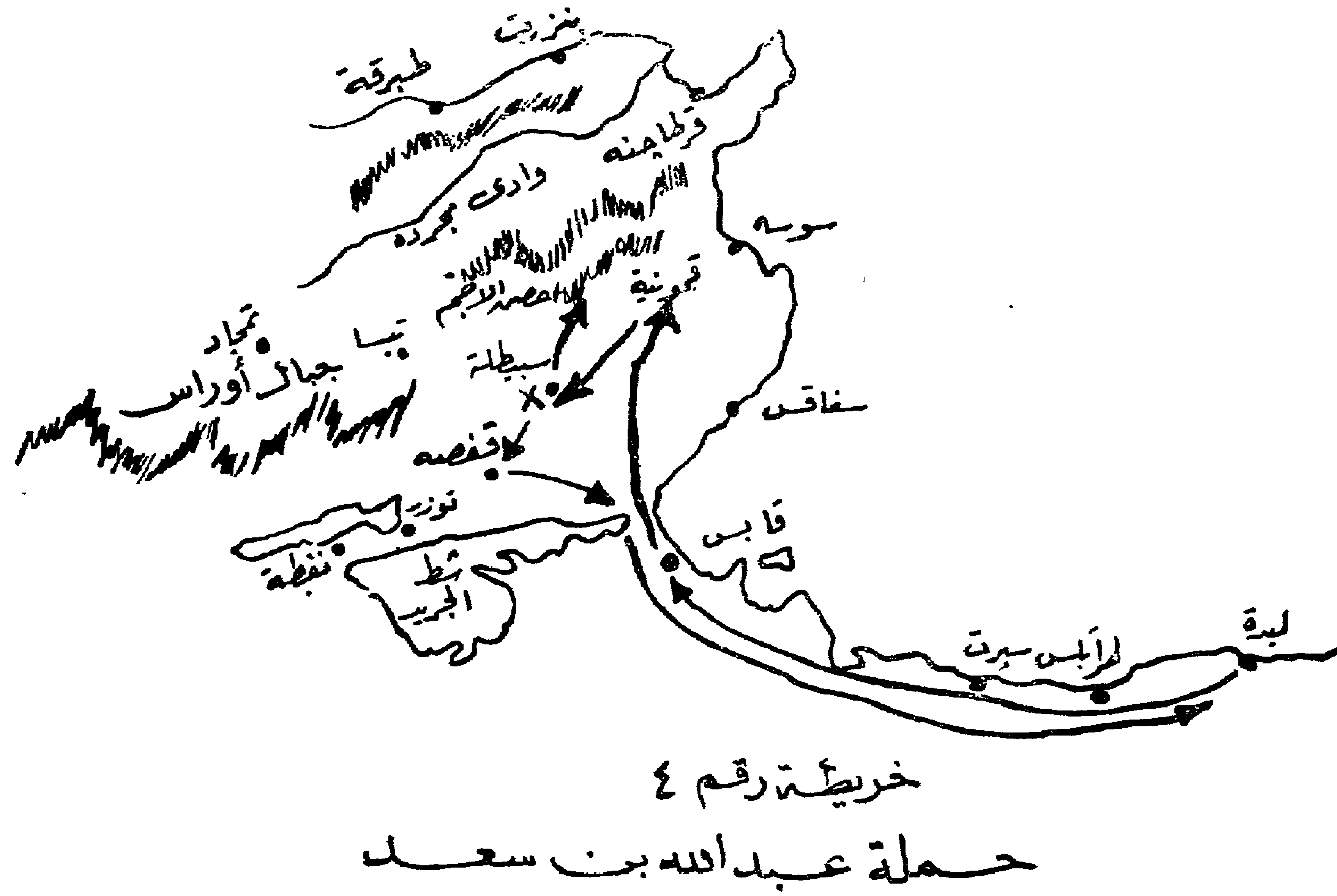
خريطة رقم ١
دولة الوندال في المغرب



« خريطة رقم ٢ »

« حملة بليزاريوس على المغرب سنة ٥٣٣ »


بلاد المغرب
« خريطة رقم ٣ »
أطلس الصحراوي



خريطة رقم ٤

حملة عبد الله بن سعد

قرطاجنة
بنزرت
سوسة
القيروان
سبيطلة
صفاقس
قفصة
قسطيلية
جرجيس
جبل نفوسة
صبرت
طرابلس
لبدة
مغمداس
قصور حسان
سرت
برنيق
طلميثة
جبل برقة
مراقية
غدامس
ودان
فزان

حملة عقبة بن نافع على إفريقية سنة ٤٩ هـ – ٥٠ هـ

« خريطة رقم ٥ »

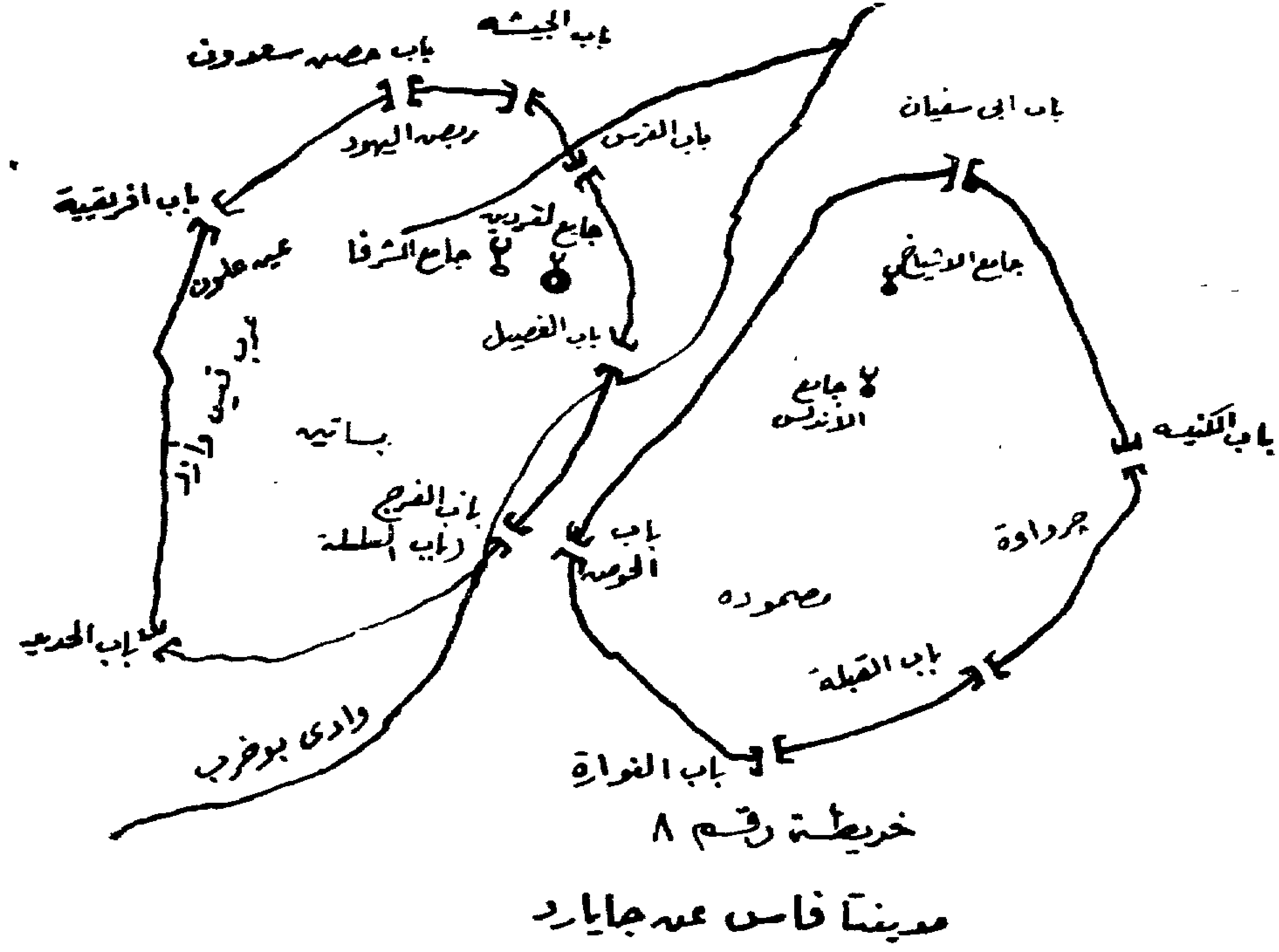
الغزوة الصحراوية الأولى

غزوة غدامس وبلاد قسطيلية

خريطة رقم ٦

حملة عقبة بن نافع في المغرب الأقصى


مواضع وقبائل المغرب الأقصى
خريطة رقم ٧

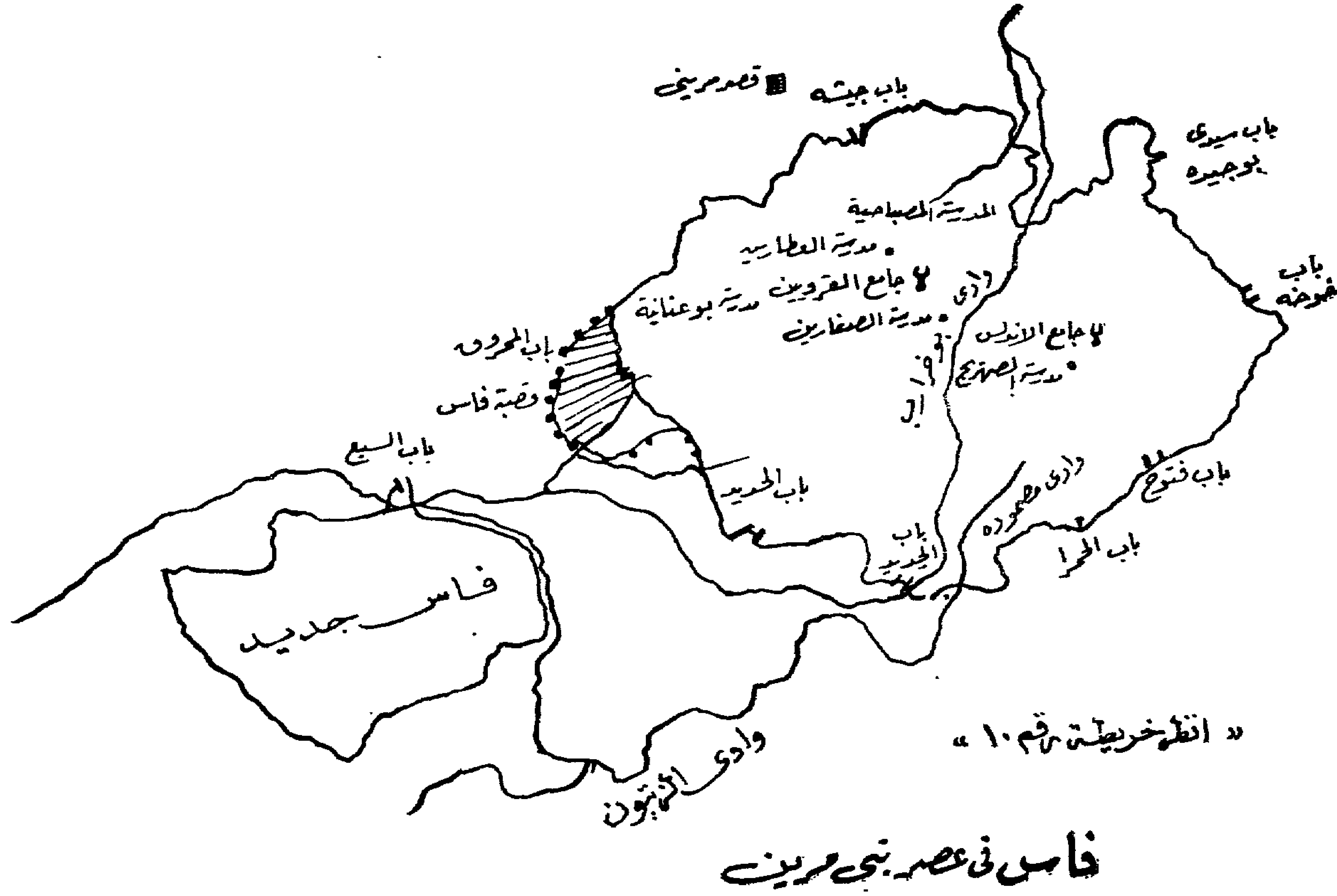


خريطة رقم ٨

مدينتا فاس عهد جايارد

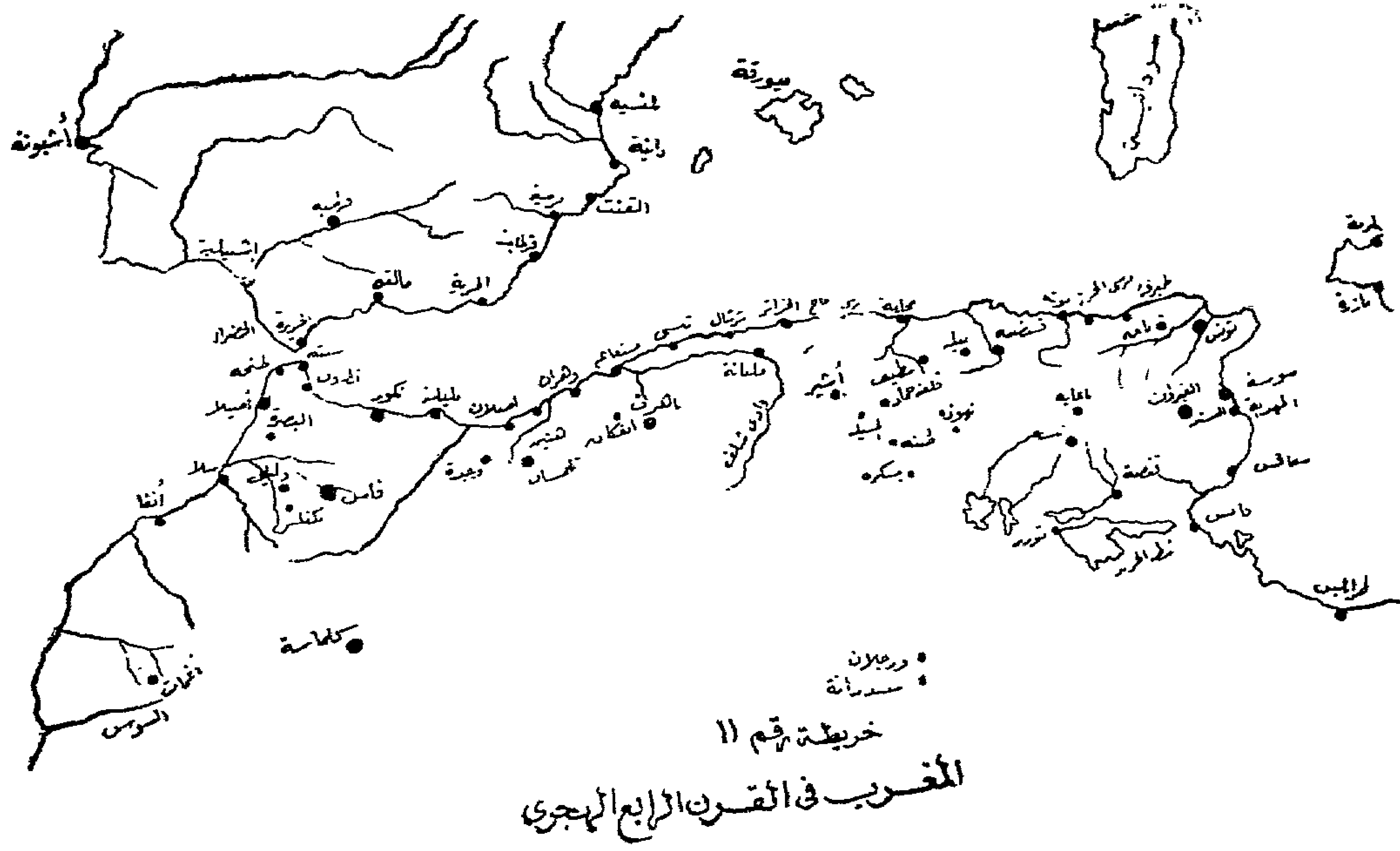
باب عجيسة
باب الريفية
جامع الشرفا
جامع القرويين
العاليه
باب الفرج
باب الحديد
الوادي الكبير
باب أبي سفيان
باب الكنيسة
جامع الأشياخ
باب الشيبوبة
جامع الأندلس
باب الحفية
جراوة
مصمودة
باب القلعة
باب الفوارة
وادي الزيتون

خريطة رقم ٩
مدينة فاس
عن ليفي بروفنسال

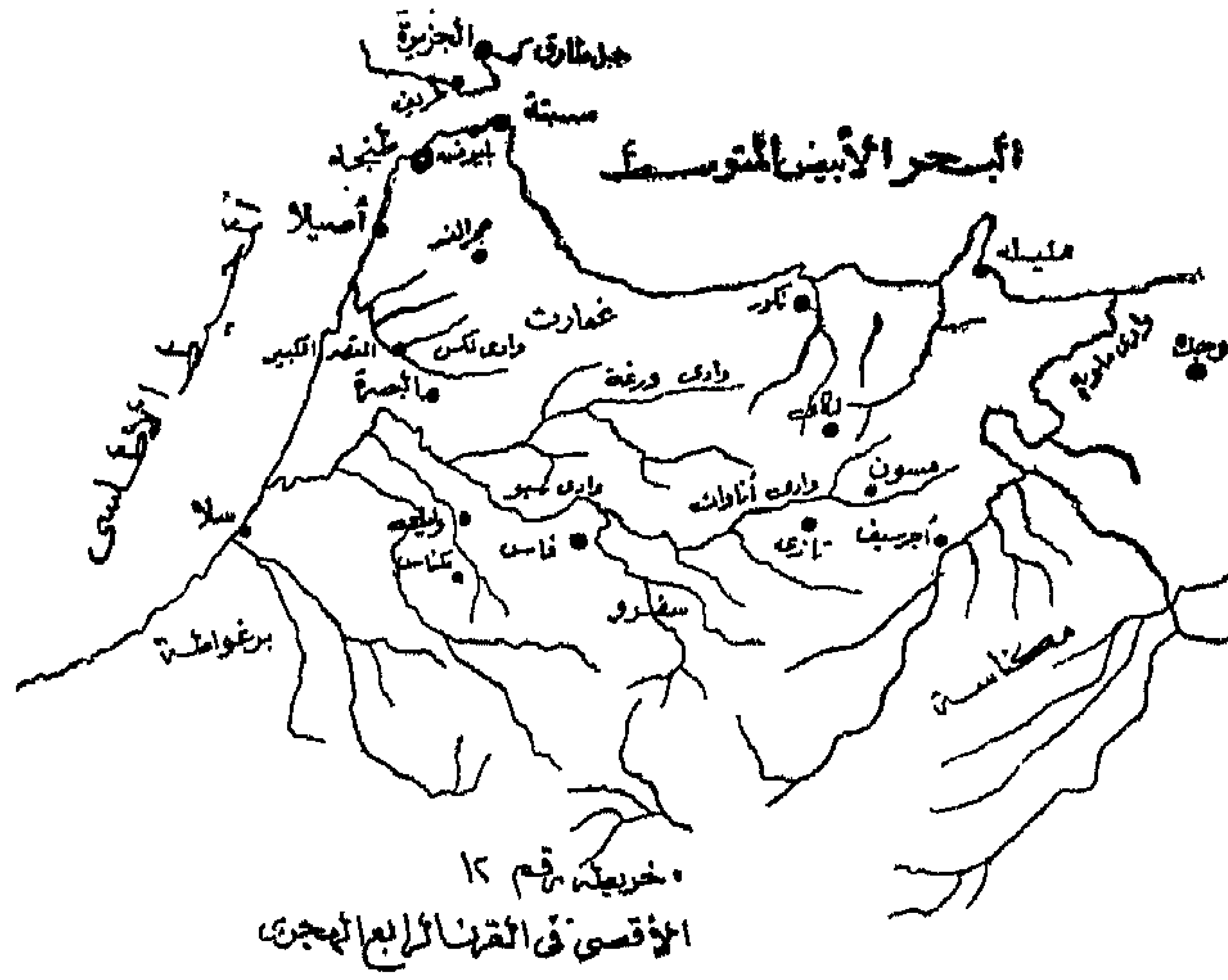


« انظر خريطة رقم ١٠ »

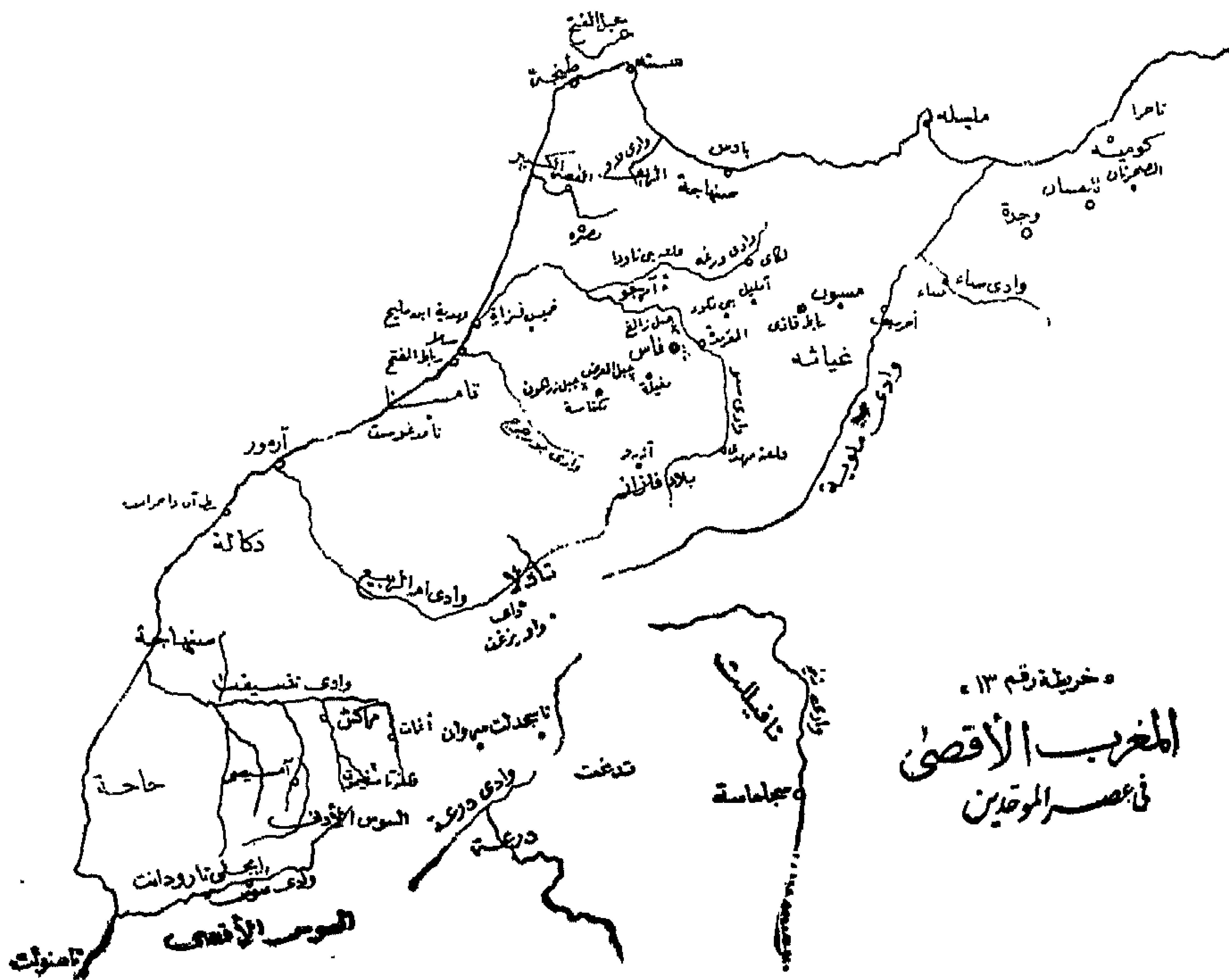
فاس فى عصر بنى مرين



خريطة رقم ١١
المغرب في القرن الرابع الهجري



«خريطة رقم ١٢»
الأقصى في القرن الرابع الهجري



«خريطة رقم ١٣»
المغرب الأقصى
في عصر الموحدين

فهرس موضوعات الكتاب

فهرس

صفحة

القسم الأول

المغرب فى العصرين الوندالى والبيزنطى

الفصل الأول

المغرب فى ظل الوندال

الفصل الثانى

بلاد المغرب فى العصر البيزنطى

صفحة

الفصل الثانى

مرحلة الفتح المنظم

صفحة

الباب الثانى

المغرب الاسلامى فى عصر الدولتين الأموية والعباسية

الفصل الثالث

المغرب فى ظل الدولة الأموية

صفحة

الفصل الرابع

المغرب فى فترة الانتقال بين سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية

الفصل السادس

دولة الادارسة فى فاس

الفصل السابع

دولتا الرستميين بتاهرت والمدراريين بسجلماسة

صفحة

صفحة

الفصل الثامن

المغرب فى ظل الفاطميين

الفصل التاسع

المغرب الادنى والاوسط فى ظل بنى زيرى

وبنى حماد الصنهاجيين

صفحة

الباب الرابع

المغرب الاسلامى فى ظل دولتى المرابطين والموحدين

الفصل العاشر

قيام دولة المرابطين فى المغرب

الفصل الحادى عشر

المغرب فى عصر الموحدين

خاتمة

ورثة الموحدين فى المغرب

مراجع الكتاب

فهرس الصور

فهرس الخرائط

(تم بعون الله)

